جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة (٧٦٨)

Elusive Victory

by Colonel TREVOR N. DUPUY

منى ناصف

النصر المحير

تأليف : تريفور . ن . دوبوى

النصر المراوغ

كتاب « النصر المحير »

بقلم : تريفورن • دوبوى

المـؤلف :

تريفور ن. دوبوى كولونيل متقاعد كان يعمل بالجيش الأمريكي ويعتبر من ابرز المحللين العسكريين ، وقد سبق ان اصدر كتاب « موسوعة التاريخ العسكرى » ، وصدر له ايضـا بالاشتراك مع مؤلفين آخـرين « التراث العسكرى لأمريكا » و « حملات الثورة الفرنسية ونابليون » و « التـاريخ العسكرى للحرب العالمية الثانية » و « التاريخ العسكرى للحرب الاهلية الصينية » و «التاريخ التسجيلى للحد من الأسلحة النووية ونزع السلاح».

الاهـــــــداء

الى رفيقة رحلاتى الى الشرق الأوسط

زوجتى الحبيبة ، جــونا

شــكر وتقــدير

من المستحيل حرفيا التنويه بكل المساعدات التى حصلت عليهـا من عدد غفير من الناس عند اعداد هذا الكتاب ، لكننى اشعر ان امتنانى للبعض هو من الضخامة بحيث أنه سوف يكون من قبيـل انعدام المراعاة ونكران الجميل اذا لم اذكر أسماءهم واعترف بدينى لهم ، ولكن لأن عدد اولئك الذين قدموا لى العون ضخم جدا ، فاننى متأكد اننى بمجرد اشارتى الى بعض الأسماء ، فان ذاكرتى — التى يمكن ان تخوننى تماما — سوف تدفعنى الى اغفال أسماء بعض الذين يجب التنويه بهم قبل غيرهم .

واذا ماثبت ان اسوا مخاوفى فى محلها ، ولم اذكر على النحو الواجب واحدا أو اكثر من اولئك الذين يجب ذكرهم ، فاننى ارجو ان يتسامحوا وأن يصفحوا عنى .

وبادىء ذى بـدء ، يجب ان أنوه بمئات الصفحات من الملاحظـات والتعليقـات التى قدمها لى اثنـان سـاعدانى مسـاعدة جمة فى البحث الوثائقى : فقد قدم لى جيمس بلوم الكثير من المواد حول حرب ١٩٤٧—١٩٤٨، وحول العمليـات البحـرية خلال كل الحروب ، وقدمت لى فيفيان ليونز مجموعات مماثلة من البيانات والملاحظات عن حرب اكتوبر عـام ١٩٧٣ ، وقدمت العون فعلا فيما يتعلق بكافة الحروب .

وحسب التسلسل لمن زرت بلدانهم لأول مرة ، دعونى انوه بمساعدة الصداقات العديدة التى اقمت معها فى الشرق الأوسـط فى سياق كتابة هذا الكتاب .

ولن أنسى قط الترحيب الذى قوبلت به فى الأردن فى سـنة ١٩٧١ ، لقد بدت عمان وأم الجمال ، الأطلال البيزنطية القديمة والمقر القبلى لصديقى العزيز الشـيخ هايل سرور وأسرته الرائعة ، بدتا فى السـنوات التـالية كأوطان بعيدة عن الوطن .

ودون سـعى الى التمييز بينهم تبعـا للرتب أو المميزات أو حجم مساعداتهم دعونى أذكر أصدقاء أردنيين آخرين قدموا المساعدة : المشير حابس المجالى ، العقيد فتحى ابو طالب ، اللواء شفيق جمين،فؤاد طحبوب، العقيد يحيى الرفاعى وزوجته الفاتنة كريمان ، واللواء عامر خماش ، واللواء

زيد بن شـــاكر ، واللواء معـــان ابو نوار ، والعميد عطا على ، وانطون عطا الله ، والعميد عبد الرحيم صـــابر (الذى عالجنى من ذات الرئة) ، والعميد حاج جوم المجالى ، والعميد الباكستانى سيد ازهر . وكمنسقين لاسفارى واجتماعاتى فى الأردن ، وكرفاق اجتماعيين لابد من الاشارة بشكل خاص الى العقيد جورج حنا ، والرائد سلطان العدوان وزوجتيهما الكريمتين.

اما القائمة فى اسرائيل فهى طويلة بالمثل — ومرة اخرى — باســـتثناء واحد او استثنائين ، دعونى اكتفى بذكر اسمائهم ، واعتقد ان كل واحد منهم يعرف مدى تقديرى لمســـاعدته : الكولونيل أفراهام ايالون ، الدكتور ا. أورين ، الدكتور موردخاى جيتشون ، البريجادير جنرال دوف سيون ، البريجادير يوئيل بن بورات ، الميجور جنرال افراهام آدان ، الميجور جنرال اربيل شارون ، الميجور جنرال شمويل جونين ، الليفتنانت جنرال الراحل ديفيد العازار ، الميجور جنرال دان لانير ، الليفتنانت جنرال حاييم بارليف ، الميجـور يوناه جازيت ، الليفتنانت كولونيل ا. سيمون ، الكابتن دانى ، لويس ويليامز ، وابراهام رابينوفيتش .

اما فيما يتعلق بالجنرالات الذين ذكرت اسماءهم ، خاصة اولئك الذين قطعوا شوطا طويلا فى مساعدتى ، فاننى ارجو ان يشعروا اننى قد عاملتهم بانصاف وبشكل موضوعى فى تعليقاتى على عملياتهم .

ومرة اخرى يجب ان اذكر شخصين بشكل خاص : احدهما زيف شيف، المراسل العسكرى لصحيفة « هآرتس » اليومية ، الذى رتب لى العديد من الاجتماعات الهامة ، وتقدم بمقترحات مفيدة عديدة ، وعلق ايضا بشكل مفيد للغاية على مسودة اولى للكتاب ، كما ان الدكتور مائير باعيل ، العسكرى المرموق ، والسياسى المثير للجدل ، والمحاضر فى التاريخ ، وربما العـــالم العسكرى الألمع فى اسرائيل ، قد تقدم لى ايضا العديد من الاقتراحات المفيدة، وكذلك تعليقات ثمينة على مسودة أولى للكتاب .

ولا شك ان اوسع مساعدة رسمية حصلت عليها فى اى بلد من بلدان الشرق الأوسط كانت فى مصر ، والمسئول عن ذلك بوجه خاص ثلاثة رجال: المشير الراحل احمد اسماعيل على ، وخليفته كوزير للحربية اللواء محمد الجمسى ، والمتحدث العسكرى ، اللواء حسن الكاتب ، الذين تجاوز ودهم ومساعدتهم ، على اى حال ، متطلبات الضيافة الرسمية . ومن بين الآخرين الذين تقدموا العون البالغ : اللواء طه المجدوب ، واللواء البحرى فؤاد زكرى، واللواء فؤاد عزيز غالى ، واللواء احمـد بدوى ، والفريق محمـد فهمى ، واللواء غنيم ، واللواء ا.م هللوده ، واللواء مصطفى الجمل ، واللواء لطفى السيد ، واللواء محمد ابو غزالة ، والدكتور يحيى عويس والدكتور مصطفى المنيلاوى (الذى عالجنى من ذات الرئة) ، والعميد نبيل يوسف .

وقد قدم ضابطان مصريان مساعدة خاصة واصبحا اصدقاء قريبين لى : فقد قضى اللواء حسن البدرى ، استاذ التاريخ العسكرى فى اكاديمية ناصر العسكرية ، ساعات عديدة معى واستعرض مســودة مخطوط هذا الكتاب الاولى .

كما ان اللواء م.د. زهدى ، الذى كان اول مرافق عسكرى لى فى مصر ، قد صحبنى فى معظم اســفارى ، ومقابلاتى فى الزيارات التالية الى مصر ، كما انه هو وزوجته الفاتنة روسية المولد ، فيرا ، قد عرفانا ، جوانا وانا ، على امكانيات الحياة الليلية المتنوعة فى القاهرة .

اما اتصالاتى فى سوريا فقد كانت اقل اتساعا ، ومرجع ذلك فى جانب منه هو المناخ السياسى الأكثر برودة فى سوريا ، فيما يتعلق بالولايات المتحدة والأمريكيين واتجاه السوريين المرتبط بذلك الى ان يكونوا اكثر رسمية واقل مرونة من اشقائهم العرب فى التعامل مع الأجانب ، الا اننى لابد من ان اعرب عن تقديرى العظيم للمساعدة الودية والواسعة التى لقيتها من وزير الدفاع، اللواء مصـــطفى طلاس ، ونائبه اللواء يوسف شـــكور ، والمقـــدم انـــور سقبانى بالأركان العامة . ولقد لقيت معاملة ودية ومساعدة بالغة بشكل خاص من اللواء جبريل البيطار ، الذى قرا مخطوطتى الأولية بعناية ، ثم قضى معى ساعات عديدة فى استعراض ذلك ، وفى تزويدى بمعلومات مفيدة اضافية . كما ينبغى ان اذكر الود الشديد الذى لقيته من الرائد هاشـــم اسماعيل ، الذى ذهب معى الى القنيطرة ، والملازم نزيه الخضرى ، الذى اخذنا — جونا وانا — فى جولة على جبل حرمون . وهنالك صديق وثيق آخر هو طارق مصلح ، مرافقنا غير الرسمى فى معظم دمشق .

ولا يمكننى اغفال ذكر المساعدة والنصيحة اللتين لقيتهما من المسئولين الأمريكيين فى هذه البلدان المختلفة : ففى الأردن ، اننى مدين بشكل خاص للكولونيل كلارينس سى. مان ، الملحق العسكرى ، وللسيرجنت المساعد لويس ا. نوفاتشيك ، وفى اسرائيل ، كان الكولونيل (البريجادير جنرال الان) بيللى ب. نورسمان ، والكولونيل بروس ويليامز ، والليفتنانت كولونيل مارك جاتاناس . وفى مصر كان الكولونيل ويليامز ر. جراهام مرافقا لنـــا بشكل خاص ، وكذلك كان ملحقنا العســكرى لدى ســوريا ، الكولونيل آنجوس موندى ، ورئيسه ، السفير ريتشارد و. مورفى ، والسيد ادوارد جنيم من هيئـــة السفارة .

كما ساعدنى عدد من ضباط هيئة مراقبة الهدنة الدولية ، ومن ابرز هؤلاء الكابتن ل.ف.س نيلسين ، والكابتن تورين كروجير ، والكابتن بول جاكوبسن من الدينمارك ، والميجور جورج مايبز من استراليا ، والكابتن ب.ج. مكدونالد .

وفى بريطانيا تمكنت من التشاور باستفاضة مع صديق ورفيق قديم فى السلاح منذ حملة بورما خلال الحرب العالمية الثانية ، الجنرال سيرهيونج ستوكويل ، الذى لعب دورا رئيسيا فى الانسحاب البريطانى من فلسطين ، فى سنة ١٩٤٨ ، والذى كان قائدا لقوة الغزو الانجلو — فرنسية فى حرب ١٩٥٦ ، كما حصلت على مساعدة من الميجور جنرال ل.د. لونت ، الذى كان قد عمل مع الفيلق العربى فى الأردن .

وخلال عملية اعداد الكتاب تلقيت تعليقات مفيدة على المخطوطات الاولية من خمسة من المؤرخين الأمريكيين البارزين وهم : الدكتور ج. بويربل، والبروفيسور مارتن بلومينسون ، والدكتور هيوغ م. كول ، والبروفيسور الراحل لويس مورتون ، والدكتور ثيودور روب ، واننى لشديد الامتنان لهم جميعا .

ومن بين زملائى ، فقد ذكرت بالفعل فيفيان ليونز ، وقد ساعدنى الكولونيل جون ا.سى اندروز ، المتقاعد من الخدمة فى السلاح الجوى الأمريكى ، فى تحليلات القوات ، وتحليلات العمليات الجوية، وبعض التحليلات الأخرى التى تجد انعكاسا لها فى الملحقين : «أ» و «ب» وقد قدمت جاى م. هاميرمان تعليقات تحريرية بقدر ما تسمح لها مهماتها التحريرية والكتابية الأخرى ، وقدم جراس ب. هايس تعليقات تحريرية مماثلة تتجاوز مقتضيات الواجب بكثير .

اما الوجوه الادارية للمشروع (والتى يوجد منها الكثير بشكل مثير للدهشة) فقد عالجها بعزم نموذجى بيلى ب. ديفيز ، الذى قام ايضا بالجانب الكبير من النسخ ، واشرف على اعمال التسجيل والنسخ الاضافية الممتازة التى قامت بها بيجى باكستون ، وفيروجينيا روفنر ، واليسيا بويد ، أما فيما يتعلق بالخرائط فاننى مدين بالمساعدة لبل دون ، وجلوريا سابيرين ، وخصوصا لروس سلون وجراس هايس .

ولابد لكل هؤلاء الأشخاص من ان يتقاسموا معى اى شىء له جدارته فى هذا الكتاب ، ومن الواضح اننى وحدى المسئول عن اى من نقائصه .

ت.ن دوبوى

مقـــدمة

لعل الصعوبة الرئيسية التى تواجه اى مؤرخ لحروب الشرق الأوسط بين العرب واسرائيل هى الحصول على المعلومات التى يمكن الاعتماد عليها، فهنالك وفرة من المعلومات ، التى يستند معظمها الى التخمين او الدعاية ، وهنالك قدر قليل للغاية من المعلومات الرسمية المتاحة من أى من الأمم المشاركة الرئيسية . على الرغم من ان التحريات الدؤوبة والذكية يمكنها الكشف عن عدد من الحقائق المنفردة .

وهكذا تتمثل المشكلة فى محاولة ترتيب هذا الحشد من المعلومات بطريقة تجعلها منسجمة مع الخطوط العريضة العامة للاحداث على نحو ما يمكن استجلاؤه من التقارير الاخبارية المعاصرة والمذكرات التى يبدو أن من الممكن الاعتماد عليها او اعتبارها من المصادر الثانوية ، وهذا نوع من عمليات تحريات ، تتطلب (حسب اعتقاد مؤلف هذا الكتاب) معرفة عسكرية حرفية وخبرة قتالية .

ولعدد من الأسباب ، هناك قدر اوفر من المعلومات المتاحة من اسرائيل بالقياس الى تلك المتاحة من الأمم العربية ، ومعظم المعلومات الاسرائيلية الرسمية (والتعليق غير الرسمى من جانب المقاتلين الاسرائيليين) صادق، وان كان لا يورد الحقيقة كلها بالضرورة .

اما المعلومات العربية فانها ليست اقل وفرة فحسب ، بل ان ما هو متوافر اقل اهلية للثقة ، ان العرب جديرون بالثقة ويمكن الاعتماد عليهم شأنهم فى ذلك شأن الاسرائيليين ، وهم ليسوا بارعين مثلهم فى التلاعب بالمعلومات من اجل اغراض دعائية ، لكنهم يميلون الى ان يكونوا اكثر عاطفية ، ولا يبدو ان اى مسئول او عسكرى عربى ذكر لى اكذوبة متعمدة — لكن ضللتنى — دون شك المعلومات أو التفسيرات التى يريد العرب الاعتقاد بأنها صادقة ، والتى انتهوا لهذا السبب الى تصديقها هم أنفسهم ، وهنالك، بالطبع ، استثناءات كثيرة لهذه التعميمات الشاملة عن المعلومات وعن العرب ، لكن مشكلات مضاهاة التفكير والتصور العربى والغربى قد عرضها رافاييل باتاى عرضا جيدا فى كتاب « العقلية العربية » (نيويورك ، ١٩٧٦).

ومن الناحية الأخرى ، فان الملاحظات والمزاعم الاسرائيلية المتعلقة بالحقائق لا يمكن قبولها على علاتها او دون تمحيص بدرجة أكبر مما هو

الحال بالنسبة الى الملاحظات او المزاعم او التفسيرات المماثلة من جـانب المشاركين فى حروب اخرى ، وكل المذكرات عرضة للخطأ ، ويمكن ان تكون هناك تقارير مضللة ، وثغرات فى المعلومات ، وتشوهات للطبيعة الانسانية، التى لا يعد الاسرائيليون اكثر حصانة ضدها من الشعوب الاخرى .

فما العمل اذن عندما يتم الحصول على معلومات متناقضة تناقضا مطلقا من جانب مصادر عربية واسرائيلية ، ليس هناك حل جيد ، وفى مثل هذه الحالات ، فقد افترض هذا الكاتب عادة — وان لم يكن دائما — ان الرواية الاسرائيلية تعد اهلا للثقة من الناحية الواقعية بصورة ارجح ، بيد انه لابد من مراعاة الدوافع المحتملة الى التشويه ، وخصوصا الى التفسير المتحيز من جانب اى من الجانبين ، اما الشىء الأكيد الوحيد فيما يتعلق باتخاذ قرارات فهو ان الكاتب سوف يحزن فى كل حالة — دون شك — صديقا او اكثر من الأصدقاء العرب او الاسرائيليين .

تمهيـــــد

(ارض ظلام ، كالظلام نفسه ، وارض لظل الموت ، دون اى نظام وحيث النور كالظلام) .. سفر ايوب : ١٠ : ٢٢

كل الحروب لها اسباب سياسية ، واصـول تاريخية ، لكن سلسلة النزاعات بين الاسرائيليين والعرب منذ عـام ١٩٤٨ تضرب بجـذورها فى التاريخ الى ما هو ابعد بالقياس الى معظم حروب الأزمنة الحديثة ، واسبابها خليط معقد من الخلافات السياسية ، والايديولوجية ، والدينية التى لا تعد قابلة للتفاوض والحل بســهولة . ويمكن عـرض القضـيتين المتعارضتين ببساطة تامة :

لقد عرفت ارض دولة اسرائيل الحديثة طيلة معظم تاريخهـا باسم فلسطين ، وخلال العصور القديمة كان الشعب اليهودى هو ساكنها الرئيسى بصورة متكررة ، وكان له السيادة السياسية لمعظم المنطقة خـلال فترات عديدة ، لكنه لم يكن الســاكن الاول ولا الوحيد ، وفى حين ان المنطقـة الخاضعة لسيطرته قد شملت فى بعض الأحيان كل اسرائيل الحديثة ، ومناطق مجاورة ايضا ، فغالبا ما كانت الأراضى اليهودية محصورة برا ، اذ كانت المناطق الساحلية تحت سيطرة السكان الأسبق ، الفلسطينيين، والكنعانيين، والفينيقيين ، وهذه القبائل ، شأنها فى ذلك شأن القبائل القديمة الأخرى — كالعمونيين ، والمؤابيين ، والاراميين ، والايدوميين — الذين سكن معظمهم فلسطين قبل وصول اليهود من بلاد الرافدين ومصر — قد امتزجت باليهود القدماء بعد سيطرتهم على المنطقة . وهذه الشعوب الأخرى ، السامية هى الأخرى من حيث اصولها العرقية وخصائصها ، تعتبر عموما أسلاف العرب المحدثين سكان سوريا الكبرى ، وهو الاسم الذى سميت به غالبا المنطقة الواقعة بين نهر الفرات وصحراء سيناء .

لقد تدفقت موجات الغزو وتكرارا عبر « الهلال الخصيب » القديم ، وفى اوقات مختلفة كانت اراضى اليهود وجيرانهم مندمجـة فى امبراطوريات مصر ، وآشور ، وبابل ، وفارس ، ومقدونيا والسيليوسيديين ، وفى القرن الأول قبل الميلاد ، مد بومبى الأكبر حدود القوة الرومانية الى المنطقة ، حيث ظلت سائدة على امتداد القرون السبعة التالية . لكن هذه القوة ، رغم سيادتها ، لم تكن بعيدة عن التعرض للتحديات ، وقد قام بأحد اشد هذه التضحيات اصرارا يهود يهودا ، وبعد سنتين من القتـال المرير الذى يمكن

وصفه بتعبيرات عصرنا بأنه قتال مضاد للعصيان ، ففى عام ٧١ بعد الميلاد قمع الرومان تماما الانتفاضة اليهودية ، وساعد حكم الغازى الجائر التالى على التعجيل بعملية متصلة تمثلت فى الهجرة اليهودية من فلسطين الى اجزاء الامبراطورية الرومانية الأخرى ، وتلك هى الظاهرة التى عرفت تاريخيا باسم الدياسبورا (الشتات) .

لكن هذا التشتيت لشمل اليهود ونزوحهم عن فلسطين لم يلغ شعور التعلق اليهودى بأراضى اسرائيل القديمة ويهودا . فاليهود ، بصرف النظر عن المكان الذى قدر لهم أن يحيوا فيه ، قد واصلوا اعتبار القدس مدينتهم المقدسة ، واعتبار أراضيهم القديمة فى اسرائيل ويهودا وطنهم ، ليس هذا لطموحاتهم وحدها ، وانما صلواتهم ايضا ، قد تركزت على الزمن الذى سوف يتسنى لهم فيه العودة ، ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى طرد فيها اليهود ، أو تم فيها جذبهم بعيدا عن المنطقة التى كانت قد اصبحت وطنهم التقليدى ففى البداية ، وفى زمن يوسف ، كانت الهجرة الرئيسية الى مصر ، التى تبعتها العودة الطويلة والأليمة الى « ارض الميعاد » تحت قيادة موسى ، ثم بعد ذلك كان الأسر البابلى ، وعودة اليهود التالية الى فلسطين لاعادة اقامة دولة يهودية .

ولذا فلم يكن من غير المعقول بالنسبة للكثيرين من اليهود ان يواصلوا التفكير فى عودة حتمية أخرى من جانب « شعب الرب المختار » الى الأرض التى لم يعدهم بها وحسب ، بل والتى كان قد منحها لهم بالفعل ، وهى أرض شعر الكثيرون أن غيابهم عنها ليس الا غيابا مؤقتا .

ولم تكن هنالك فترة « مؤقتة » اطول فى التاريخ من هذه الفترة ، فخلال سنوات الشتات التى استمرت ١٨٠٠ سـنة ونيفا ، تناقص عـدد سكان فلسطين اليهود تناقصا حادا ، بحيث انه مع حلول عام ١٨٩٣ لم يكن هنالك غير ١٠ر٠٠٠ يهودى فى فلسطين كلها ، وكان معظم هؤلاء فى صفد ، وكان الجزء الأكبر من الباقين فى الحى اليهودى فى القدس .

وخلال تلك القرون ظل العرب السكان الأصليين للمنطقة ، وان كانوا قد وقعوا بين الحين والآخر تحت حكم الأجانب : الرومان البيزنطيين وابناء عمومتهم العرب ، البدو المسلمين من مكة ، الســلاجقة والأتراك المنتمين اليهم ، الصليبيين المسيحيين ، المماليك ، والأتراك العثمانيين .

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان سكان فلسطين العرب حوالى نصف مليون ، وكان المسلمون يشـكلون ٩٠٪ منهم بينمـا كان المسيحيون يشكلون حوالى ١٠٪ .

ومع ذلك ، فان القدس — موقع المعبد القديم لليهود الأوائل — قد ظلت المدينة المقدسة لدى كل اليهود ، وظلت « ارض الميعاد » المنطقة التى

كان الرب قد قضى بأن تخص ابراهيم « وذريته(١) » . وهذا الوعد ، المجتمع مع الاضطهادات التى وجهت فى ارجاء العالم ضد اليهود المبعثرين ولـكن المتحدين ، الذين رفضوا استيعابهم فى ديانات وثقافات أوطانهم الجديدة ، هو الذى كان حافزا رئيسيا للحركة الصهيونية التى بدات فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر .

ففى اواخر القرن التاسع عشر بدات الحركة الصهيونية عودة بطيئـة لليهود الى « ارضهم الموعـودة » ، وعلى الرغم من الاحتكاكات التى كانت تحدث بين الحين والآخر مع الملاك والجيران العرب الأوائل ، فقـد تمكن اليهود من الاستحواذ على دور السكن والأرض بطريقة سلمية ، ومن التطلع الى امكانية ان تتوافر لديهم القدرة عند طرد الأتراك المكروهين من الجميع، على مشاركة العرب السيطرة السياسية على فلسطين .

ومع نهاية الحرب العالميـة الأولى ، كان سـكان فلسـطين حوالى ٧٠٠ر٠٠٠ من بينهم ٥٦٨ر٠٠٠ عربى مسلم ، وحوالى ٥٨ر٠٠٠ يهودى ، وخلال الحرب العالمية الأولى بالتحديد — فى نوفمبر ١٩١٧ — اعطى آرثر بلفور ، وزير الخارجية البريطانى ، مزيدا من الأمل لليهود فى ان فلسطين سوف تصبح مرة اخرى « وطنهم القومى » و « تصريح بلفور » هذا ، الذى عرف بهذا الاسم ، كان يتضمن شرطا يقرر انه « لن يحدث شئ من شأنه الانتقاص من الحقوق المدنية والدينية للطـوائف غير اليهـودية المتواجدة فى فلسطين(٢) » .

ان تصريح بلفور والموافقة التالية على هجرة يهودية ضخمة من جانب الحكومة البريطانية (التى كانت قـد حلت محـل تركيا كحاكم استعمارى لفلسطين ، بموجب بنود معاهدة فرساى وانتداب من عصبة الأمم) ، قد اثارا الذعر بين صفوف العرب .

وقد نظـروا بقلق خاص الى واقع شروط الانتداب البريطـانى التى اشارت الى حقوق اليهود السياسية والمدنية والدينية ، ولم تشر الا الى الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية .

وقد فجر رد الفعل العربى نزاعا ثلاثى الأطراف بين اليهود والعرب ، والحكومة البريطانية التى أصابتها خيبة الأمل ، وقد استمر هذا النزاع مع أعمال العنف والمصائر المتقلبة طوال الربع التالى من القرن .

اما قصة هذا الصراع فقد رويت رواية كاملة فى كتب اخرى كثيرة . اما خلاصتها فهى كما يلى :

ان العرب الفلسطينيين ، المتخوفين من انهم سوف يجرى طردهم من الأراضى التى عاشوا عليها هم واسلافهم لقرون ، قد شعروا بالذعر والغضب

من اليهود ، الذين مثلوا مثل هذا الخطر على الأرض التى اعتبروها ارضهم منذ رحيل اليهود عنها قبل ثمانية عشر قرنا خلت .

وقد اعتقد العرب ان حقوقهم التاريخية فى فلسطين مشروعة بدرجة مشروعية حقوق اليهود على الأقل ، كما اعتقدوا ان اجدادهم كانوا على الارض عندما وصل ابراهيم من اور ، وكذلك عندما غزا يشوع واتباعه البلاد وفتحوها بعد ذلك بقرون عديدة ، وقد شعروا بانزعاج خاص من الاشارة الصهيونية الى « ارض الميعاد » وبما ان العرب يعتبرون انفسهم « ذرية ابراهيم » شأنها فى ذلك شأن اليهود ، فانهم يعتقدون ان احتلالهم للأرض هو بالفعل تجسيد لوعد الرب ، لكن الاكثر مدعاة لقلق العرب كان خوفهم من أن اهداف الصهيونية الجغرافية كانت حدود وعد الرب : من النيل الى الفرات(٣) .

وهكذا كان العرب غاضبين من البريطانيين لسماحهم بل وتشجيعهم هذا التهديد ، لكن العرب الذين كانوا يفتقرون الى كل من التقاليد والخبرة فى حكم انفسهم بأنفسهم ، كانوا بوجه عام مفككين ودون قادة من الناحية العملية(٤) ، لقد ثاروا فى تفجرات عنيفة بين الحين والآخر ضد كل من اليهود وحكامهم الاستعماريين البريطانيين . وقد جاء اول الهجمات العربية العديدة واسعة النطاق ضد اليهود فى عام ١٩٢٩ ، وكان اسوا هذه المتفجرات هو الاضطرابات العربية بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ والتى اسفرت عن تعاون بين السلطات العسكرية البريطانية وقوات الأمن السرية التى خلقتها الحركة الصهيونية .

ولم يهدأ العرب عندما شرح البريطانيون لهم تفصيلا وفسروا تصريح بلفور ، واوضحوا أن السياسة القائلة : بأن اقامة وطن يهودى قومى ليس الهدف من ورائها طرد اى عرب من ارضهم فى منطقة يمكنها استيعاب اضعاف السكان المتواجدين ، كما ان العرب لم يشعروا بالارتياح عندما فصل البريطانيون المنطقة الواقعة شرقى نهر الأردن واستبعدوها من الهجرة اليهودية تحت اسم شرق الأردن ، جالبين الى حكم سكانها المختلطين من العرب الفلسطينيين والبدو اميرا بدويا لا وطن له — هو الأمير عبد الله من الأسرة الهاشمية(٥) . وقد قال العرب : ان من الصحيح تماما أن تظل المنطقة الواقعة شرقى الأردن عربية ، كما اكدوا على ان تظل المنطقة الواقعة غربى النهر ايضا عربية ، لأسباب تاريخية وسلالية على حد سواء .

وقد شعر يهود فلسطين ويهود الحركة الصهيونية بالخوف من الخطر الذى مثلته بالنسبة الى وجودهم نفسه كراهية ومعارضة العرب الأوفر عددا بكثيرا ، والارهاب الذى اودى بحياة العديدين من اليهود فى العشرينات والثلاثينات . وكان هناك ردان واضحان على هذا الخطر : ان ينظموا انفسهم بأقصى درجة ممكنة من الفعالية لأجل الدفاع ، وان يبدوا بأسرع ما يمكن اختلال التوازن العددى بتشجيع هجرة المزيد من اليهود الى فلسطين

كما كان اليهود ايضا يشعرون بالخوف من الضعف الظاهر الذى اصاب الاصرار البريطانى على التمسك بتصريح بلفور ، والذى برز فى القيود التى فرضت على الهجرة اليهودية ، وفى استبعاد شرق الأردن من الوطن القومى اليهودى الموعود (فعلى اى حال ، كان الجانب الشرقى من وادى الأردن دائما جزءا لا يتجزأ من الممالك اليهودية القديمة) .

وبالتالى ، فان الجهاز الرسمى للحركة الصهيونية — الوكالة اليهودية — قد واصل ضغطا متصلا على الحكومة البريطانية ، ليس فقط عبر الجالية اليهودية المؤثرة فى بريطانيا ، وانما ايضا بشكل غير مباشر بمساعدة الجاليتين اليهوديتين المؤثرتين بدرجة مساوية على الاقل فى الولايات المتحدة وفرنسا .

اما فى فلسطين نفسها فقد تقلبت السياسة اليهودية خلال تلك السنوات : ففى بعض الأوقات ، تعاونت الجالية اليهودية ، وقيادة الوكالة اليهودية الرسمية تعاونا وثيقا مع السلطات الحاكمة البريطانية ، وفى اوقات اخرى ، تم التعبير عن اعتراضات على السياسات والاجراءات البريطانية المؤيدة للعرب عن طريق الاحتجاج المنظم ، وعند نهاية الانتداب ، غالبا ما اتخذت هذه الاحتجاجات شكل عنف ارهابى يهدف الى زيادة خيبة الأمل لدى البريطانيين بحيث تصل الى المرحلة التى يضطرون عندها ببساطة الى ترك فلسطين ، وترك اليهود والعرب يسوون مشكلاتهم الخاصة .

وعند منتصف الاربعينات كان اليهود واثقين من أن الدعم السياسى الخارجى المجتمع مع قوتهم المتزايدة تزايدا ملحوظا فى فلسطين ، سوف يمكنهم لأسباب متنوعة من اقامة الدولة اليهودية التى طال السعى من اجلها .

ولا يبدو أن الصهيونيين كانت لديهم فى الأصل اى نية فى طرد العرب من فلسطين — رغم الآراء العربية الراسخة بأن تلك كانت نيتهم منذ البداية — ويبدو أن اليهود قد ادركوا امكانية استيعاب فلسطين لعدد أوسع بكثير من السكان مما كان فيها فى ظل الأتراك والبريطانيين ، وقد اعتقدوا انه مع الهجرة غير المحدودة (خاصة من اوروبا) فان السكان اليهود سوف يفوقون العرب عددا بسرعة ولكن تحقيق التفوق العددى كان هدفا هاما ، وذلك بسبب تجربتهم التى استمرت قرونا كأقليات فى بلاد شعوب أخرى حيث تعرضوا ، فى معظمها ، للاضطهاد ولاستخدامهم ككباش فداء .

ولكى يحصل اليهود على وطن قومى حقيقى ، كما وعد تصريح بلفور ، فلقد كان من الاهمية بمكان أن يكونوا المالكين السياسيين لزمام مصيرهم ، لا ان يخضعوا مرة اخرى لنزوات شعب غريب ومعاد بشكل متزايد .

لقد سعى البريطانيون باخلاص — ولكن دون جدوى — الى التوفيق بين عنصرين متناقضين بشكل اساسى من عناصر سياستهم فى حكم فلسطين، لقد شعروا انهم ملزمون بتنفيذ شروط تصريح بلفور بشكل او باخر ، وفى الوقت نفسه فانهم لم يشعروا بمسئولية انسانية عن حماية مصالح العرب الذين كانوا تحت سلطتهم الحكومية وحسب ، بل انهم قد اعترفوا ايضا بمسئولية اعداد المنطقة للحكم الذاتى ، وكانت الغالبيـــة التى يتمتـــع بها السكان العرب تعنى انهم سوف يهيمنون على اى حكومة ديمقراطية ، ولم يعترف البريطانيون الا خلال الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية بأن هاتين السياستين المتناقضتين ، رغم انهما ليستا متنافيتين جوهريا على الصعيد النظرى ، من المستحيل التوفيق بينها على الصعيد العملى ، فلا اليهودى ولا العربى يمكنه السماح بذلك .

وهكذا ، فمع تزايد الاضطرابات اليهودية — العربية فى فلسطين ، ومع قتل وتشويه العسكريين والمديرين المدنيين البريطانيين على ايدى الارهابيين من كل من الجانبين — خاصة اليهود آنذاك ، على اى حال — اتخذ البريطانيون الخطوة التى كانت الوكالة اليهودية تامل فيها ، فلقد حولوا عبء تســوية مشكلة فلسطين الى الأمم المتحدة ، وعندما بددت هذه الهيئة التشاورية الوقت فى دراسة المسائل الشائكة ، وضعت الحكومة البريطانية فى عام ١٩٤٦ اجلا زمنيــا عمليا على المداولات بتحديدها عام ١٩٤٨ موعدا للانسحاب .

لقد كان هنالك تطوران رئيسيان اثرا على مستقبل فلســطين فى العقد السابق او حوالى ذلك :

اما التطور الاولى فهو اضطهاد وذبح اليهود على يد حكومة هتــلر النازية الالمانية ، وكان لذبح ستة ملايين من اليهود(٦) اثران هامان على شعوب العالم الحر — خاصة فى امريكا الشمالية واوروبا الغربية — : امــا الاول فهو شعور التعاطف مع اليهود الذين كتب لهم البقاء بعد عملية الابادة والاحراق وتفهم الرغبة الطبيعية للكثيرين منهم فى الحصول على ارض جديدة حيث المستقبل — بالرغم من المعارضة العربية — اكثر اشراقا على الأقل بالنسبة الى اليهود مما كان فى اوروبا ، اما الثانى ، والمعزز للدعم المتعاطف مع اليهود ، فهو ادراك ان معاداة السامية قد ازدهرت فى مجتمعــاتهم قبل الحرب،مثلما ازدهرت فى المانيا ، والشعور السائد بأن كل مثل هذه المجتمعات قد شاركت الى حد معين — بشكل غير مباشر على الأقل — فى الاثم الذى اقترفه القتلة النازيون(٧) . وقد اجتمع التعاطف والشعور بالذنب لكى يضمنا ان المصالح اليهودية فى فلسطين سوف تلقى تأييدا شعبيا من جانب العــديد من شعوب وحكومات العالم الغربى ، (وقد لاحظ العرب ، بشكل محــزن الى حد ما ، ان مشاعر العار والذنب هذه لم تكن قوية بما يكفى عند بريطانيا، او الامم الغربية الاخرى ، بحيث تقيم داخل حدودها القومية وطنا يهوديا ، بدلا من اقامته فى اراض يملكها العرب بالفعل) .

وعلاوة على ذلك فان يهود فلسطين كانوا قد ساندوا البريطانيين باخلاص فى الحرب ، وكانوا قد اسهموا بالقتال فى الوحدات المساندة ، وكانوا قــد طوروا صناعة الذخيرة الصغيرة ، وقدمت الأسلحة الى المجهود الحـــربى البريطانى ، وهكذا فانهم كانوا قد كسبوا مساندة حلفاء الحرب العالمية الثانية الذين كانوا مايزالون العنصر المسيطر فى الامم المتحدة .

اما التطور الآخر ، فقد نشأ عن الاكتشافات التى اكـــدت ان الشرق الأوسط يحتوى على اغنى احتياطيات النفط فى العالم ، وكان معظم هـــذا النفط فى الاراضى التى يسيطر عليها العـــرب ، وكان هناك ادراك غامض، لكنه متزايد فى اوروبا والولايات المتحدة بأن المتطلبات المستقبلية من الطاقة لأوروبا ومعظم بقية العالم قد تصبح معتمدة على نفط الشرق الأوسط هـــذا وبما ان كل الشـــعوب العـــربية فى المنطقة كانت مؤيدة بحماس لقضـــية العرب الفلسطينيين فى تحقيق حكم ذاتى سياسى فى فلسطين ، فقد كان من الواضح ان قرار الأمم المتحدة الذى لايتمتع بقبول العرب الفلسطينيين لن يلقى المعارضة القوية من العرب ومؤازريهم بين امم العالم النامية وحسب ، بل انه قد يؤدى ايضا الى ابعاد العرب الأغنياء نفطيا عن البلدان الجـــائعة نفطيـــا والمؤيد لحل معـــاد للعرب كهذا ، وحتى فى عام ١٩٤٦ ، فان امكانية حظر نفطى عربى قد اعترفت بها بعض العناصر فى الحكومات الغربية(٨) .

فى ذلك الوقت كان فى فلسطين ١ر٢٦٩ر٠٠٠ عـــربى (حوالى ثلاثة ارباعهم من المسلمين والربع الأخير مسيحى) و ٦٧٨ر٠٠٠ يهودى(٩) ، لكن اليهود لم يكونوا يملكون غير حوالى ثمانية فى المائة من مساحة الأرض ، وقد بدا أن من المستحيل تحقيق حل ، يمكن ان يكون عادلا وحسب بل ومقبولا من كل هؤلاء الناس ، والواقع ان مثل هذا الحل — كما اكتشف البريطانيون بالفعل — كان مستحيلا ، لكن الأمم المتحدة التى استحثها انذار الانسحاب البريطانى قد بذلت جهدا والنتيجة، التى تضمنها قرار الأمم المتحدة، تمت الموافقة عليه فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، كانت تمثل فى مشروع تقسيم فلسطين الى دولتين مستقلتين الأولى عربية ، والثانية يهودية ، لا يربط بينهما غير اتحاد اقتصادى ، وقد ارتكزت حدود الدولتين بصورة اساسية على الاعتبارات الســـلالية ، وقد نص القرار على ان يحصل اليهود على معظم المناطق الساحلية الغربية ، من حيفا الى عسقلان جنوبا ، مع ترك جيب ساحلى صغير لمدينة يافا العربية اساسا ، والمجاورة لمدينة تل ابيب الجديدة اليهودية كلها ، والتى كانت قد نمت ووصل عدد سكانها بالفعل الى ١٥٠ر٠٠٠ نســـمة .

كما نص القرار على ان يحصل اليهود على المنطقة الزراعية الفنيـــة التى كانوا قد قضوا زمنا طويلا فى تطويرها فى الجليل الشرقى وشمالى السامرة، بالقرب من بحيرة طبرية ، واخيرا ، نص القرار على ان تكون منطقة صحراء النقب غير المأهولة الى حد بعيد يهودية ، وهذه المنطقة عند تطويرها ، يمكنها استيعاب مئات الآلاف من المهاجرين اليهود الاضافيين المتوقع وصولهم من اوروبا بعد رفع القيود البريطانية المفروضة على الهجرة .

وقد نص القرار على ان يحصل العرب على معظم وسط السامرة ويهودا ، والجليل الغربى ، والمنطقة الساحلية الجنوبية الممتدة من عسقلان الى رفح ، وصحراء النقب الشمالية الغربية .

اما منطقة القدس — حيث تاخمت المدينة العتيقة ، العربية اساسا ، مدينة يهودية حديثة من ١٠٠٫٠٠٠ انسان — فقد نص القرار على ان تكون تحت اشراف دولى ، كما نص على ان تكون بيت لحم المجاورة داخل هذا الجيب الدولى ايضا ، ومن شأن ذلك ان يضمن صون الأماكن المقدسة قدسية شديدة لدى الأديان الكبرى الثلاثة — المسيحية ، واليهودية ، والاسلام — للجميع دون سيطرة من جانب اى منها على حدة ، وكان هناك شيئان شاذان فى المشروع ، اشار اليهما العرب آنذاك ومنذ ذلك الحين ، ففى المحل الأول، ينص المشروع على ان اليهود الذين يملكون اقل من ١٠٪ من الأرض ، والذين يشكلون مجرد ثلث السكان ، سوف يحصلون على ٥٥٪ من مساحةاراضى فلسطين وثانيا ، حتى مع ان الممالك اليهودية القديمة تقدم اساسا رئيسيا للمطالبة اليهودية بوضعية قومية جديدة فى فلسطين — كما أشار العرب ايضا — فان حدود التقسيم قد اعطت للعرب معظم الأراضى التى كانت ضمن تلك الدول القديمة بينما أعطت لليهود معظم الأراضى التى كانت غير يهودية فى العصور القديمة ، لكن هذه الحجج لم تكن الحجج الرئيسية لرفض العرب قبول مشروع التقسيم ، لقد اكدوا لأسباب سياسية ، واقتصادية ، وتاريخية — خاصة تاريخ الـ ١٨٠٠ سنة الأخيرة — بأن منطقة فلسطين الصغيرة لا يمكن ولا يجب تقسيمها ، انها يجب ان تكون كيانا سياسيا واحدا ، يحكم ديمقراطيا ، مع ضمانات دستورية للأقلية اليهودية .

اما اليهود ، من الناحية الأخرى ، فانهم ، بينما أعربوا عن اسفهم من ان المشروع قد ابعد عن سيطرتهم القدس ومعظم الأرض التقليدية للدول اليهودية القديمة ، قد تبلوا المشروع من حيث المبدا ، لقد شعروا ان بوسعهم العيش معه ، وبالاضافة الى ذلك ، بما ان الكثيرين قد راوا ان القبول العربى غير مرجح ، فربما جاز الاعتقاد بأن الكثيرين من اليهود قد شعروا بانه ليس من حسن الادراك سياسيا وحسب قبول المشروع ، بل انه ربما تنشأ ايضا فرص لأن تتمكن الحكومة والشبكة العسكرية السرية اليهودية الفعالة من توسيع الأراضى الخاضعة للسيطرة اليهودية اذا ما دفع العرب القضية الى اختيار الحرب .

الملاحظـــات

١ — سفر التكوين ١٢ .

٢ — تنص الفقرة الثانية من تصريح بلفور على ما يلى : ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين التحبيذ الى اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وسوف تبذل اقصى مساعيها من اجل تسهيل تحقيق هذا الهدف ، ... « ومن الواضح ان الصياغة كانت غامضة عن عمد ، اما المادة الثانية من الانتداب البريطانى على فلسطين فقد نصت على ان : « المنتدب **يكون مسئولا** عن وضع البلاد فى ظل الظروف **السياسية ، والادارية ،** والاقتصادية الكفيلة **بتامين قيام الوطن القومى اليهودى ... وتطوير** مؤسسات الحكم الذاتى ، وكذلك عن تأمين الحقوق المدنية والدينية لكل سكان فلسطين .. » (التأكيدات مضافة) .

٣ — سفر التكوين ١٥ ، ٢١ .

٤ — لعل مما له دلالته ان المادة ٤ من الانتداب قد صرحت بانشاء « وكالة يهودية » « يتم الاعتراف بها كجهاز عام من اجل ابداء المشورة والتعاون مع ادارة فلسطين فى المسائل .. التى قد تؤثر على اقامة وطن قومى يهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين .. » . ولم يرد ذكر مقابل لوكالة عربية فى الانتداب ، كما لم يجر انشاء مثل هذه الوكالة لتمثيل غالبية السكان العرب ، وكان هنالك عدد كاف من الفلسطينيين القادرين على توفير القيادة — ومن ابرز هؤلاء الحاج امين الحسينى ، مفتى القدس ، بيد انه فى غياب مثل هذه الوكالة العربية لتوفير بؤرة « مؤسساتية » ، فان هؤلاء الفلسطينيين كرسوا جهودهم لصراعات مستنزفة اكثر مما كرسوها لمعارضة متحدة للعدو الصهيونى المشترك .

٥ — كان ابن سعود قد طرد لتوه الهاشميين من غربى شبه الجزيرة العربية ، وكان البريطانيون مدينين لهم بالكثير عن المساعدات خلال الحرب العالمية الأولى .

٦ — اشار بعض العرب الى ان العدد الفعلى كان اقل من ذلك ، والى ان العدد الاجمالى قد ضخمته الدعاية الصهيونية ، ولا يغير من الأمر ان العدد ثلاثة ملايين او اربعة ملايين او ستة ملايين ، فالبشاعة واحدة .

٧ — فى بريطانيا ، ايضا ، عزز هذا الشعور بالذنب التفكير فى ان النازيين كان من المستحيل عليهم قتل مثل هذا العدد الكبير من اليهود لو كان امامهم سبيل للهرب الى فلسطين ، لكن ذلك كان مستحيلا بسبب القيد البريطانى على الهجرة اليهودية الى فلسطين .

٨ — كان ذلك عاملا رئيسيا فى معارضة البنتاجون فى عام ١٩٤٨ لاقامة دولة يهودية مستقلة فى فلسطين ، لكن الرئيس ترومان تجاهل هذه التوصية السياسية .

٩ — وفقا لاحصاء اجراه الانتداب فى اوائل عام ١٩٤٧ وكان هنالك ١٥٠٫٠٠٠ « آخرون » من بينهم حوالى ١٠٫٠٠٠ درزى .

الكتاب الأول

الحرب العربية ـ الاسرائيلية الأولى

(١٩٤٧ ـ ١٩٤٩)

(١)

جنـــود صـــهيون

عندما أعلنت الامم المتحدة مشروع التقسيم بالنسبة الى فلسطين ، كان هنالك فى الجالية اليهودية فى فلسطين ـ اليشوف (المستوطنة) ، أو ايريتز اسرائيل ، كما كانت الجالية تشير الى نفسها ـ ثلاث منظمات عسكرية متميزة ، وفعالة وذات قدرة على تنفيذ اى عمليات ، وكانت احدى هـذه المنظمات ـ الهاجاناه ـ الجيش السرى للوكالة اليهودية ، وهكذا كانت القوة المسلحة الرسمية للحركة الصـهيونية وكانت المنظمتان الاخريـان منظمتين ارهابيتين شبه عسكريتين اساسا : الارجون زفاى ليومى (المنظمة العسكرية القومية) ، ولوهامى حيروت اسرائيل (المقاتلون من اجل حرية اسرائيل) ، المعروفة لدى اليشوف معروفة أحسن بالأحرف الأولى من اسمها (ليهى) والمعروفة لدى معظم بقية (عصابة شتيرن) .

لقد كان هنالك عدد من فرق حرس الأمن المحلى فى المستوطنات اليهودية فى فلسطين منذ الأيام الأولى للحركة الصهيونية ، كما كانت هنالك بعض الفرق العسكرية اليهودية فى الجيش البريطانى خلال وغداة الحرب العالمية الأولى، لكن المنظمة العسـكرية الصـهيونية الرسـمية الأولى كانت الهاجانـاه ، التى تأسست فى ديسـمبر ١٩٢٠ كميليشـيا سرية قومية عـامة ، وفرع « للهستادروت هاكلاليت شيل هوفديم هارريم » (الاتحاد العام للعمال اليهود، او اتحاد العمل) حديث التنظيم .

ومن أجل السيطرة على هذه الميليشيا وتوجيهها ، عينت اللجنة التنفيذية للهستادروت « لجنة مركزية للهاجانـاه » من خمسة رجال ، والواقـع أن الهاجاناه كانت خلال السنوات العشر التالية من حيث جوهر الأمر تجميعا غير مركزى لوحدات الميليشيا شبه العسكرية المحلية التى كانت تسيطر عليها سيطرة مباشرة اجهزة اليشوف المحلية الادارية ، مع مجرد تنسيق اسمى من جانب اللجنة المركزية ، أو « المركز » .

بيد أنه فى عام ١٩٢٩ ، تكشفت الحاجة الى استعداد وتنسيق أحسن بين وحدات الميليشيا المبعثرة عبر تفجر موجة جديدة من العنف العـربى الدموى ضد اليهود الفلسطينيين ، نشأت عن صدام بالقرب من حائط (المبكى) الغربى والأماكن العربية المقدسة فى جبل المعبد ، وليس من الواضح من هو المسئول عن الاضطرابات الأصلية ؟ لقد القى الصهيونيون تبعتها على كاهل

الحاج امين الحسينى ، مفتى القدس الاكبر منذ تعيين سلطات الانتداب البريطانية له فى اوائل العشرينات ، لكن تحقيقا بريطانيا لم يتمكن من التوصل الى دليل قاطع .

وكنتيجة لهذه التجربة الأليمة(١) ، جرى تحويل مسئولية التنسيق والاشراف على الهاجاناه من الهستادروت الى اللجنة القومية للجهاز التنفيذى الصهيونى ، والذى كان ذراعه الادارى يتمثل فى الوكالة اليهودية — وهو جهاز شبه رسمى كانت السلطات البريطانية ، بموجب المادة ٤ من الانتداب ، قد اعترفت به بوصفه المتحدث المسئول بلسـان الجالية اليهودية فى فلسطين.

وقد انشأت الوكالة اليهودية لجنة جديدة تشكل الجهاز الاشراف للهاجاناه ، القيادة السياسية العليا المتكافئة ، وهى جهاز من ستة رجال ، ثلاثة من الهستادروت وثلاثة من منظمات سياسية اكثر محافظة ، وقد سميت بـ (المتكافئة) لانه كان هنالك تكافؤ بين الهستادروت والمحافظين .

وفى السنوات الست التالية اتخذت القيادة السياسية العليا المتكافئة عددا من الخطوات لتأمين مستويات ارقى لفعالية الهاجاناه ، واستجابة اكبر للسيطرة المركزة ، وتم تشكيل هيئة فنية من ضباط مختارين ، لتحديد معايير مشتركة وللاشراف على تدريب وتنظيم الوحدات المحلية ، وكان ذلك هو اصل الأركان العامة للهاجاناه .

وداخل الهيئة الفنية تم خلق هيئة تخطيط مؤقتة فى منتصف الثلاثينات، وجرى انشاء شبكة اتصالات لاسلكية لربط كل الوحـدات المحلية احداهـا بالاخرى وبالقيادة السياسية العليا المتكافئة والهيئة الفنية ، وكانت تلك هى بداية تشكيل سلاح الاشارة ولتسهيل السيطرة والتنسيق ، حددت القيادة السياسية العليا المتكافئة سبع عشرة منطقة ريفية وثلاث منـاطق مدنية (حيفا ، وتل ابيب ، والقدس) ، وجرى تشكيل قيادات عسكرية محترفة ، على غرار الهيئة الفنية ، فى كل من المناطق الدينية الثلاث .

وفى سنة ١٩٣٦ تفجرت سلسلة جديدة من الاضطرابات العربية سميت احيانا بالانتفاضـة العربية ، ربما بحفز من مفتى القدس ، وقد ادى ذلك الى انشاء قوة « حراسة » (داورية) متحركة فى منطقة القدس على يد اسحق صادح ، وهو مهاجر روسى ، كان ضابطا فى الجيش الاحمر خلال الحـرب الاهلية الروسية ، وكان مفهوم صادح يتمثل فى نقل الحرب الى ديار العرب بتعقب ونصب الكمائن لعصاباتهم الفدائية ، بدلا من الانتظار القلق لهجماتهم .

وبشكل غير متوقـع فان نشاط صـادح قد سهله رد فعل الحـكومة البريطانية على العنف العربى ، ففى اصرارهم على استعادة النظام ، أرسل البريطانيون فرقتين الى فلسطين لدعم الحامية الصغيرة المتواجدة فعليـا فى البلاد ، وفى الوقت نفسه ، فى اوائل عام ١٩٣٧ ، انشأت سلطات الانتداب نوعا من منظمة شرطة ، سميت بشرطة المستوطنة اليهودية ، وبالاضافة الى

هذه القوة — التى تولت السلطات البريطانية دفع رواتبها وتدريبها وتسليحها — رخص للطوائف اليهودية بان تشكل وحدات محلية اضافية من المتطوعين ، الذين يمكنهم هم أيضا حمل البنادق ، وبشكل غير مفاجىء ، فان الرجال الذين انضموا الى شرطة المستوطنة اليهودية ، ووحدات الحرس المحلى (المعروفة سويا باسم نوتريم) كانوا كلهم عمليا اعضاء فى الهاجاناه .

وعقب ذلك ، صرحت « القيادة السياسية العليا المتكافئة » لصادح بان يقوم — مع مساعدة ايلياهو كوهين — بتجنيد وحدات متحركة اضافية فى ارجاء البلاد من بين « النوتريم » ، وتدريبها على نفس تاكتيكـات « اضرب واهرب » التى كان يستخدمها بنجاح فائق فى القدس وعلى مشارفها .

وهذه الوحدات — التى جرى تنظيمها فى جماعات ، وفصائل وسرايا — قد شكلت القوة الدائمة الأولى للهاجاناه ، وقد سميت باسم «السرايا الميدانية»، وعند اوائل عام ١٩٣٨ ، كان صادح قد جند اكثر من ١٫٠٠٠ رجل الى هذه الوحـدات .

وحوالى هذا الوقت ارسل ضابط مخابرات بريطانى — هو الكابتن اوردى سى. وينجيت — للعمل فى فلسطين ، وسرعان ما اصبح صديقا للقادة اليهود ، واقام علاقة وثيقة بشكل خاص مع صادح ، ومع ان وينجيت لم يكن يهوديا ، فانه قد أصبح صهيونيا متحمسا ، وقد تمكن من الحصول على تصريح من السلطات البريطانية لانشاء منظمة اخرى ايضا لمواجهة الفدائيين العرب ، وقد سميت هذه المنظمة بالجماعات الليلية الخاصة ، المشكلة فى معظمها من « النوتريم » والتى تضم بعض الجنود البريطانيين ، (وطبيعى ان النوتريم كانت كلها من رجال الهاجاناه) ، اما مفاهيم وينجيت عن العمليات القتالية والخاصة بالضرب والهرب ونصب الكمائن ، فقد كان من حيث الجوهر عين مفاهيم صادح ، ومع حلول عام ١٩٣٩ ، اصبحت تصريحات وينجيت العلنية القوية المؤيدة للصهيونية محرجة للحـكومة البريطـانية ، فجرى ترحيله الى افريقيا ، ومازالوا فى اسرائيل يتذكرونه باعزاز حار .

لم تكن اسهامات وينجيت مفاهيم تكتيكية جديدة او اصيلة ، وعلى اى حال ، فقد كان صادح يمارس نفس النوع من الأمور لأكثر من سنة قبل انشاء وينجيت للجماعات الليلية الخاصة ، لكن القادة السياسيين للهاجاناه قد تأثروا تأثرا شديدا بالموافقة على هذه المفاهيم ، واختبارها اختبارا ناجحا من جانب ضابط بريطانى محترف ، وهكذا تبنوا « مفهوم وينجيت » كأساس لتطوير الهاجاناه بوصفها قوة عسـكرية فدائيـة مختارة ، ولم يدر بخلد السياسيين اليهود انهذا المفهوم هو عينه « مفهوم صادح » ، والذى كانت له خلفية احترافية مساوية(٢) .

وفى عام ١٩٣٩ اتخذت الوكالة اليهودية خطوة هامة اخـرى لتعزيز الاحتراف المتزايد فى الهاجاناه ، « جيشها السرى » ، فقد جرى تعيين رئيس

للقيادة السياسية العليا المتكافئة ، كان بمثابة وزير حربية فعلى ، وفى الوقت نفسه ، جرى تشريع نوع من سياسة ضريبية غير رسمية ، وتم جمع الأموال من الجماعات المحلية عبر ارجاء اليشوف ، ثم وضعت تحت تصرف رئيس القيادة السياسية العليا المتكافئة ، كأساس لميزانية عسكرية ، وقد زاد ذلك من سلطته ، حيث انه قد سيطر على توزيع هذه الأموال على الوحدات المحلية ، وفى الوقت نفسه ، اعيد تنظيم شبكة المناطق ، حيث جرى تثبيت المناطق العشرين المتواجدة فى سبع مناطق اكبر ، لكل منها قائد منطقة .

ان وجود السرايا الميدانية ، وشرطة المستوطنة اليهودية والجماعات الليلية الخاصة ، كان معناه ان الهاجاناه قد اصبحت تمتلك ، بالاضافة الى الميليشيا المحلية ، قوات دائمة جديرة بالاعتبار (حتى وان كانت تحت الاشراف البريطانى من الناحية الاسمية) تربو على اكثر من ٢٫٠٠٠ رجل مدرب ومسلح ، ومن اجل اداء المهمات القيادية الضرورية فقد جرى توسيع الهيئة الفنية ، وفى يناير ١٩٣٩ جرى ايضا انشاء هيئة للتدريب والتعليم . وفى سبتمبر ١٩٣٩ ، اتخذت الخطوة التالية المنطقية ، فقد جرى تشكيل الأركان العامة العليا فى تل ابيب ، فى ظل رئيس للأركان العامة العليا هو يعقوب دورى ، وكانت تتبعه اربع هيئات :

١ — هيئة فنية ، مارست مهمات القيادة غير المنصوص عليها بشكل محدد فى مجالات اخرى .

٢ — هيئة تخطيط وتنظيم .

٣ — هيئة تدريب وتعليم .

٤ — هيئة رقابة .

ومع حلول عام ١٩٤٧ ، كانت هذه القيادة العامة لجيش سرى تعمل وتعد نفسها لصدام محتمل مع العرب لأكثر من ثمانية اعوام ، وخلال تلك الاعوام الثمانية كانت هنالك فرص كثيرة لتوسيع اساس التجربة العسكرية الاحترافية عبر كل صفوف الهاجاناه .

وفى سنة ١٩٣٩ ، مع انحسار الاضطرابات العربية ، سحبت الحكومة البريطانية دعمها للنوتريم ، وعندئذ قررت القيادة السياسية العليا المتكافئة والوكالة اليهودية فى فبراير حل السرايا الميدانية ، مع نشر مفاهيمها عن العمليات القتالية بين صفوف الهاجاناه ، وبناء على ذلك فقد جرى تركيز الشبان — بين سن الثامنة عشرة والخامسة والعشرين — فى منظمة انشئت فى ديسمبر وعرفت — كالعادة — بالأحرف الأولى من اسمها العبرى : هيش (من هيل صادح ، او الفيالق الميدانية) .

وفى حين ان رجال هيش لم يكونوا جنودا متفرغين كالسرايا الميدانية ، وشرطة المستوطنة اليهودية ، والجماعات الليلية الخاصة ، فانهم قد تلقوا تدريبا (فى الراحات الأسبوعية والعطلات الصيفية) اكثر بكثير مما كانت قواعد الهاجاناه قد تلقته فى السابق ، وقد نظموا بحيث يكون من السهل الوصول اليهم لتعبئتهم فورا .

وبينما اسفر نشوب الحرب العالمية الثانية عن مأساة بالنسبة الى يهود العالم ، فانه كان فرصة سعيدة بالنسبة الى الهاجاناه وقيادتها ، التى اخذت تشعر بالقلق ازاء عجزها عن توفير جنود مدربين ومجربين كخميرة لهيش .

لقد رفضت الحكومة البريطانية لسنوات عديدة بعد نشوب الحرب العروض الصهيونية بتشكيل جيوش وفرق يهودية ، لكنها قبلت مجندين يهود على اساس فردى ، وقد تطوع معظم افراد الهاجاناه ، وفى اواخر عام ١٩٤٤ ، انشأت الحكومة البريطانية لواء يهوديا فى ايطاليا ، لكنه لم يباشر خدمة ايجابية ملحوظة ، ومع ذلك ، فان تشكيل هذه الوحدة قد قدم تدريبا تنظيميا وخبرة عمليات اضافية لعدد ملحوظ من الضباط والجنود اليهود .

وعند انتهاء الحرب كان اكثر من ٢٠٫٠٠٠ رجل من اليشوف قد عملوا فى الجيش البريطانى وجيوش الحلفاء ، وسرعان ما كان معظم هذه القوة البشرية المدربة والمجربة جاهزا ومستعدا للقتال مرة اخرى فى فلسطين .

وفى تلك الأثناء ، بينما كان كثيرون من رجال الهاجاناه يخدمون فى مسارح القتال خارج فلسطين ، نشأت حاجة مفاجئة الى جنود متفرغين فى اليشوف ، ففى عام ١٩٤١ كان الجنرال الألمانى ايرفين روميل وفيلق افريقيا الذى يقوده داخل مدى ضرب الاسكندرية ، وكانا يهددان بطرد البريطانيين من مصر ، وكان لابد للأركان العامة العليا للهاجاناه من مراعاة امكانية غزو واحتلال الألمان لفلسطين ، وفى مايو ١٩٤١ ، صرحت القيادة السياسية العليا المتكافئة — التى استردت حيويتها — بانشاء منظمة عسكرية محترفة اخرى ، تحت قيادة الهاجاناه ، هى البالماخ (من بلوجوت ماخاتز ، السرايا الضاربة) ، وقد عين اسحق صادح قائدا للمنظمة الجديدة فسارع الى بناء ست سرايا كانت نواة من المقاتلين القدماء فى صفوف السرايا الميدانية والجماعات الليلية الخاصة .

ومرة اخرى ، اعترف البريطانيون بشكل غير رسمى بوجود المنظمة اليهودية الجديدة ، وكانت هناك سريتان من البالماخ مع القوات البريطانية المرابطة فى فلسطين عندما غزت سوريا فى اغسطس ١٩٤١ ، لانهاء سيطرة حكومة فيشى الفرنسية على ذلك البلد الذى كان تحت الانتداب الفرنسى ، وعندما سحب البريطانيون دعمهم للنشاطات العسكرية اليهودية فى فلسطين

— بعد هزيمة روميل فى نوفمبر ١٩٤٢ — كان هناك على اهبة الاستعداد للقتال تسع سرايا (وفيما بعد احدى عشرة) عاملة ، وحوالى ست سرايا احتياطية من البالماخ ، منظمة فى اربع كتائب .

ومع ان البالماخ قد اضطرت الى العودة الى ممارسة نشاطها فى الخفاء فانها قد استمرت كقوة دائمة : مستعدة ، من اكثر من ٢٫٠٠٠ رجل(٣) مدرب وفى عام ١٩٤٤ ، جرى انشاء سرية بحرية (البااليام) وفصيلة جوية داخل منظمة البالماخ ، ومع حلول يناير ١٩٤٧ ، كان نشوب الحرب مع عرب فلسطين والمناطق المجاورة قد اصبح مرجحا بشكل مطرد ، وادرك اليهود انه لابد لهم من ان يكونوا على استعداد لمحاربة الجيوش النظامية للدول العربية المحيطة ، فالقدرة الفدائية وحدها لن تكون كافية .

ان الرئيس النشيط للهيئة السياسية للوكالة اليهودية — ديفيد بن جوريون — قد عين ايضا رئيسا لهيئة الدفاع والامن التابعة لقيادة الوكالة اليهودية ، ليتولى تجهيز الهاجاناه للحرب المتوقعة ، (وبعبارة اخرى ، فانه قد اصبح وزيرا للدفاع ، وكذلك رئيس الوزراء الفعلى لحكومة يشوف فلسطين السرية) ، وتحت قيادة بن جوريون ، عمل رئيس القيادة السياسية العليا المتكافئة — يسرائيل جاليلى — كنائب لوزير الدفاع بمعنى ما .

وخلال منتصف عام ١٩٤٧ طلب بن جوريون المشورة من القيادة السياسية العليا المتكافئة ، ومن يعقوب دورى واركانه العامة العليا ، وكذلك من عدد من الضباط اليهود النظاميين السابقين الذين كانوا قد حاربوا الى جانب البريطانيين فى الحرب العالمية الثانية ، وعلى اساس توصيات ليست منسجمة دائما ، اشرف بن جوريون على اعادة التنظيمات التى كانت قد بدات لتوها عندما عجل مشروع الامم المتحدة بشأن التقسيم بالاصرار العربى على خوض حرب ضد اليهود .

عندئذ كانت هيش قد تطورت لتغدو ميليشيا فعالة من حوالى ١٢٫٠٠٠ جندى مدربين تدريبا معقولا — لدى كثيرين منهم خبرة قتالية حديثة تكونت عبر الحرب العالمية الثانية ، وكذلك عبر حرب العصابات ضد العرب والبريطانيين ، وقد جرى تنظيم خمس عشرة من هذه السرايا — مجموعها حوالى ٧٫٥٠٠ رجل — فى اربعة الوية احتياطية اقليمية مسلحة تسليحا تاما، ومستعدة للانتشار السريع فى مناطقها بالدرجة الاولى ، وفى اجزاء اخرى من فلسطين كذلك ، اذا ما نشأت حاجة الى ذلك .

اما بقية افراد هيش (حوالى ٥٫٠٠٠) رجل فقد ظلوا فى منظمات سرايا الميليشيا المحلية ، لأجل مهمات الدفاع الاقليمى اساسا ، وكان يساندهم حوالى ٣٢٫٠٠٠ عضو اضافى من احتياطى هيل ميشمار (هيم ، او الحرس الداخلى) وكانت اعمار هؤلاء تتراوح بين السادسة والعشرين من العمر او اكبر ، وكان تدريبهم وخبرتهم اقل .

كما جرى انشاء منظمة شبيبة اضافية — جادنا — واصبحت المصدر الرئيسى لتزويد هيش والبالماخ بالقوة البشرية فى الصراع التالى ، اذ قدمت حوالى ٩٫٥٠٠ شاب تتراوح اعمارهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من العمر(٤) .

وكان من المقرر ان يعاد تنظيم البالماخ — كلواء من ٤٫٥٠٠ رجل — كتائبه لكى تكون مستعدة للعمل الفورى فى أى مكان من اسرائيل ، اما بشكل مستقل او كوحدة واحدة ، متلاحمة ، بيد انه مع حلول نوفمبر ١٩٤٧ كان البالماخ لا يضم بين صفوفه غير ٢٫١٠٠ رجل (بالاضافة الى ١٫٠٠٠ رجل احتياطى) مع قليل من اسلحة المشاة الثقيلة المقررة — مدافع المورتار والرشاشات ، ولم يكن يملك مدفعية ، وكانت احدى كتائبه الأربع فى وادى جيزريل ، وكانت كتيبة اخرى فى الخليل الشرقى ووادى الأردن ، بينما كانت هناك كتيبة ثالثة فى تلال يهودا والنقب الشمالى ، وكانت الكتيبة الرابعة وحدة قيادة فى تل ابيب وحولها ، وقد اشتملت هذه الكتيبة الاخيرة على وحدات بحرية وجوية ، ووحدة كوماندوز خاصة .

ومع حلول نوفمبر ١٩٤٧ ، كانت التعبئة قد شملت حوالى ٤٫٠٠٠ من اعضاء الهاجاناه (٢٫١٠٠ من البالماخ و ١٫٨٠٠ من هيش) مع ١٫٠٠٠ آخرين من البالماخ مستعدين للتعبئة الفورية .

وكان من المقرر تشكيل قوة من حوالى ١٢٫٠٠٠ جندى عامل عند اوائل عام ١٩٤٨ (٤٫٥٠٠ فى صفوف البالماخ و ٧٫٥٠٠ فى صفوف هيش). ووراء هذه القوة ، كان هنالك ، على اهبة الاستعداد للتعبئة السريعة ٥٫٠٠٠ آخرون من افراد هيش ، بالاضافة الى ٣٢٫٠٠٠ من افراد حرس هيم الداخلى ، وطبيعى ان الـ ٣٧٫٠٠٠ من جنود الاحتياط هؤلاء قد عملوا ايضا كميليشيا وكانوا على استعداد وجاهزين لأداء مهمات الأمن المحلى المباشرة ، وكانت اخطر المشاكل مشكلة الأسلحة ، وتتعارض تقديرات المصادر فى هذا الصدد ، بيد انه بالنسبة الى هذه القوة العاملة وهذه الميليشيا اللتين تتألفان من حوالى ٤٩٫٠٠٠ رجل كان هناك ما بين ١٤٫٠٠٠ و ٢٠٫٠٠٠ قطعة من الأسلحة الصغيرة الحديثة ، وحوالى ٨٠٠ من الرشاشات الخفيفة ، واكثر من ٢٠٠ مدفع رشاش متوسط المدى ، وحوالى ٧٠٠ مدفع مورتار عيار ٢ بوصة ، وربما ١٠٠ مدفع مورتار عيار ٣ بوصة، وكان معنى ذلك ان معظم افراد منظمة هيم كانوا مسلحين بأى سلاح من مجموعة متنوعة عريضة من الأسلحة العسكرية العتيقة أو بنادق الصيد(٥).

وقد انشئت خدمة جوية كانت نواة فصيلة البالماخ الجوية ، ورغم انه لم تكن هنالك بعد طائرة حربية واحدة ، فانه كان قد تم الحصول على تسع طائرات استكشاف خفيفة ، وكانت قد قدمت طلبات فى أوروبا الغربية والوسطى للحصول على العديد من المقاتلات — القاذفات المتبقية من الحرب (العالمية الثانية) ، لكن هذه الطائرات ، شأنها فى ذلك شأن كل الأسلحة

والمعدات الاخرى التى طلبتها الوكالة اليهودية ، لم يكن بالامكان تسليمها ، حيث ان البريطانيين كانوا قد فرضوا حظرا على شحن الامدادات العسكرية الى فلسطين .

ومع ان الهاجاناه كانت فى معمعان اعادة التنظيم ، وكانت تفتقر الى الأسلحة الثقيلة اللازمة لجيش حديث ــ بل وكانت تشكو من نقص الاسلحة الصغيرة الحديثة ايضا ــ فانها اصبحت مع حلول عام ١٩٤٧ منظمة فعالة من جنود مدربين ، ومستعدين ، ومقاتلين ، لقد كانت تملك رسالة ، وكانت تملك عقيدة ، كما كانت اعمالها خاضعة لاشراف فريق مجرب من المحترفين العسكريين فى اركان عامة ، كانت تخطط وتعمل منذ ثمانى سنوات ، وعلى الرغم من ضعفها ، وخاصة نقص اسلحتها ، فقد كانت (مع الاستثناء الممكن للفرق البريطانية الآخذة فى الانسحاب) القوة العسكرية الأضخم فى الشرق الاوسط ، عندما انذر مشروع التقسيم الذى صدر عن الامم المتحدة فى عام ١٩٤٧ بنشوب حرب شاملة بين اليهود والعرب ، لكنها لم تكن القوة العسكرية الوحيدة المتوافرة لدى اليهود .

ذلك ان الارجون زفاى ليومى (المعروفة ايضا بالأحرف الاولى ايزل او ايتزيل) والمؤلفة من اعضاء الهاجاناه الساخطين تحت قيادة مناحيم بيجين فيما بعد ، كانت قد انشئت كمقابل محافظ سياسيا للهاجاناه التى يسيطر عليها الاشتراكيون فى عام ١٩٣١ خلال المناقشات السياسية التى ادت الى انشاء القيادة السياسية العليا المتكافئة .

لقد كان جوبوتينسكى ، وبيجين ، واتباعهما غير راغبين فى قبول سياسة « ضبط النفس » التى كانت الوكالة اليهودية قد اتخذتها تجاه كل من العرب والبريطانيين ، وقد شنت الارجون حملة من الأعمال الارهابية المنتظمة ، صغيرة النطاق فى البداية ، والموجهة اساسا ضد المعادين السافرين للصهيونية بين العرب ، والمستهدفة ايضا التضييق على البريطانيين .

وقد امل قادة الارجون زفاى ليومى فى ان رد الفعل ضد سياسة ضبط النفس التى اتخذتها الوكالة اليهودية سوف يجتذب الى الارجون قاعدة شعبية عريضة ، لكن هذا لم يحدث كما توقعوا ، بل ان القاعدة الشعبية الأصغر التى نجحوا فى اقامتها قد انكمشت انكماشا ملحوظا خلال فترة التعاون بين البريطانيين والوكالة اليهودية فى ١٩٣٧ ــ ١٩٣٩ .

اما جهود الارجون لاجتذاب انصار جدد ، بعد سحب البريطانيين لدعمهم فى اوائل عام ١٩٣٩ ، فقد كانت قد بدات بالكاد عندما تم استعادة التعاون بين البريطانيين والوكالة اليهودية عند بداية الحرب العالمية الثانية .

وبعد نشوبها ، اعلنت الارجون انهاء حملتها المعادية للبريطانيين ، ووافقت على الانضمام الى الهاجاناه فى سياسة التعاون ، ولكن فى يناير

١٩٤٤ عندما اصبح انتصار الحلفاء محتما ، استأنفت الارجون نشاطها المعادى للبريطانيين ، مع سلسلة من الهجمات الارهابية على مخافر الشرطة البريطانية وغيرها من منشآت الحكومة والجيش .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، عندما خاب امل الوكالة اليهودية بسبب استمرار القيود البريطانية على الهجرة ، شنت الهاجاناه هى الأخرى حملة من الاعمال التخريبية ضد البريطانيين ، وقد ادى ذلك الى شىء من التعاون بين الهاجاناه والارجون ، وكذلك مع المنظمة الارهابية الأخرى (ليهى) او جماعة شتيرن (أو عصابة شتيرن ، كما كان البريطانيون يسمونها) .

وقد انتهى هذا التعاون فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦ ، عندما نسفت الارجون جناحا فى فندق الملك داوود فى القدس ، مما اسفر عن مصرع ٩٥ شخصا ، معظمهم من البريطانيين ، وكانت الهاجاناه قد شاركت فى التخطيط للعملية التخريبية ضد الفندق ، لكنها كانت قد اصرت على توجيه انذار حتى يتم اخلاء الفندق قبل حدوث الانفجار ، لكن الارجون تجاهلت ذلك ، ونسفت الفندق على عجل .

ومع حلول نوفمبر ١٩٤٧ ، كان فى صفوف الارجون حوالى ٢٫٠٠٠ رجل ، وكانوا كلهم ارهابيين مجربين ، وكان لدى بعضهم خبرة قتالية خلال الحرب (العالمية الثانية) ، كانت الارجون قد انشقت على الهاجاناه فى عام ١٩٣١ ، لأن بيجين ورفاقه كانوا يعتقدون بأن الهاجاناه « رقيقة » مع البريطانيين ومع العرب كذلك ، وبالمثل ، فعندما وافقت الارجون على وقف حملتها المعادية للبريطانيين عند بداية الحرب العالمية الثانية ، رفض عديدون من اعضائها ، بقيادة افراهام يئير شتيرن ، الانصياع لهذا الموقف ، واذا كانوا يشكون من ان الارجون قد اصبحت الآن « رقيقة » مع البريطانيين والعرب ، فقد انشقوا ليكونوا « ليهى » .

وبالرغم من استخدام الهاجاناه للقوة والاقناع معا لاعادة هؤلاء المنشقين الى التمشى مع سياسة الوكالة اليهودية ، فان « ليهى » او جماعة « شتيرن » قد ظلت ثابتة على عدائها للبريطانيين طوال فترة الحرب (العالمية الثانية) لكن الارهاب النشيط لم يتجدد الا فى أواخر عام ١٩٤٥ ، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وقد تفاقم هذا الارهاب ، واصبح اكثر وحشية باطراد فى عام ١٩٤٦ ، وعندما صدر مشروع التقسيم عن الأمم المتحدة ، كانت « ليهى » التى اصبحت تحت قيادة ناثان فريدمان ــ يلين ــ قد وصلت الى ٨٠٠ رجل . وكان اعضاؤها على ثقة من انهم الوحيدون الثابتون فى التمسك بالمبادىء الصهيونية ، وكانوا يشعرون بالمرارة نوعا ما تجاه ما اعتبروه تنصلات كاذبة ومنافقة استثارتها نشاطاتهم لدى الوكالة اليهودية ، التى كانت تفيد فى الوقت نفسه من الضغوط التى خلقتها الارهاب المعادى للبريطانيين .

ولابد للمؤرخ النزيه من ان يشير الى انه ، حتى وان كانت الوكالة اليهودية والهاجاناه قد شعرتا بالحرج من حين لآخر بسبب نشـــاط الأرجون وليهى ، فان هاتين المنظمتين الارهابيتين قد اسهمتا بالفعل فى القضـية الصهيونية عن طريق الضغوط التى مارستاها على العرب والبريطانيين .

ويثق المؤرخون العـــرب فى انه على الرغم من تنصـــل بن جوريون الظاهرى من ارهاب الأرجون وليهى ، فان هاتين المنظمتين كانتا ، فى الواقع، تتبعان اوامره ، ويدعم حادث التالينا (انظر الفصل السابع) وازمات اخرى زعم المؤرخون الاسرائيليين بأن بن جوريون كان مخلصا فى معارضته لكل من الجماعتين الارهابيتين غير انه لا يوجد دليل راســـخ على ان المؤرخين العرب مخطئون .

الملاحظـــات

١ ـــ سماها العرب بـــ « مشورة البراق » ذلك انها قد بدات بالقرب من المكان الذى يعتقد المسلمون ان محمدا قد صعد عنده الى السماء .

٢ ـــ بما ان اداء صادح فيما بعد كقائد لواء ميدانى لم يكن رائعا ، فان ذلك ربما يكون قد اثر الى حد ما على الاسلوب الذى جرى به الحكم على نشاطاته السابقة على الحرب فيما بعد من جانب المؤرخين والعسكريين الاسرائيليين ايضا .

٣ ـــ وفقا لمـا يذكره ادوارد لوتفاك ، ودان هـــوروفيتز ، الجيش الاسرائيلى ، (نيويورك ، ١٩٧٥) ، ص ٢٤ ، وزيف شيف ، تاريخ الجيش الاسرائيلى ، (سان فرانسيسكو ١٩٧٤) ، ص ٢٨ ، كان هنالك ١٠٠ر٣ رجل ، من بينهم ٠٠٠ر٢ احتياطى .

٤ ـــ شيف ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨

٥ ـــ هذه الارقام مستندة الى تفسـير ، وتوفيق ، بين ارقام غير منسجمة مستمدة بصورة اساسية من لوتفاك ـــ هوروفيتز ، وشـــيف ، وناثنيال لورتش ، حد السيف (نيويورك ، ١٩٥١) .

(٢)

قوات الجهـــاد

خلال ما يسمى بـ « الانتفاضة العربية » بين سنتى ١٩٣٦ — ١٩٣٩ كان هناك فصيلان عربيان يخوضان حرب عصابات ضداليهود والبريطانيين. فالحاج امين الحسينى مفتى القدس ، كانت لديه منظمة متسيبة وغير مؤثرة حاولت تنسيق المعارضة الفلسطينية لليهود ، اما الفصيل الآخر ، والذى شمل سوريين ، ولبنانيين ، وفلسطينيين كذلك ، فقد كان يقوده ضابط سابق فى الجيش التركى العثمانى — فوز الدين القاوقجى ، وهو سورى .

وبالنسبة الى بعض العرب الذين عملوا مع القاوقجى ، فانهم يتذكرونه بوصفه قائدا شجاعا وملهما ، اما البعض الآخر فقد وصفوه بأنه « مهرج غير محترف » ، ويبدو أن هنالك حقيقة فى كل من الوصفين المختصرين ، لكن اداءه كان سيئا بوجه عام اذا ما قورنت سلبياته بايجابياته .

وبصرف النظر عما يمكن أن تكون عليه تجارب القاوقجى القتالية مع الجيش التركى فى الحرب العالمية الأولى ، فمن المؤكد انها لم تجهزه لــكى يكون منظما ، او قائدا او راسم خطط استراتيجية لجيش فدائى ، ويبدو انه كان ذكيا ، وشجاعا من الناحية الشخصية ، ومدركا بصـــورة معقولة لعيوب جنوده والتنظيم الهزيل وقد حاول جعلهم ينسجمون معه ، لكنه كان عاجزا عن غرس الانضبـاط ، او فرض النظـــام على مجموعة من العرب السوريين ، والفلسطينيين ، والبدو شديدى الفردية .

وانصافا للقاوقجى ، لابد من الاقرار بأن جهوده قد احبطتها مرارا الجماعات الفدائية المنافسة التى كانت قد استجابت لنداءات المفتى باللجوء الى السلاح ، ان الجماعات الفدائية غير المنضبطة وغير المنظمـــة والمنتمية الى كل من الفصيلين قد لقيت الهزيمة تلو الهزيمة على ايدى البريطانيين والسرايا الميدانية والجماعات الليلة الخاصة اليهودية(٢) . ومع حلول أوائل عام ١٩٣٩ ، كانت الانتفاضة قد قمعت وكان القاوقجى قد توارى فى الظل الذى كان قد خرج منه قبل ذلك بثلاثة اعوام .

جيوش التحرير والخلاص :

فى نوفمبر ١٩٤٧ ، بعد اعلان مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة اعلن المفتى « الجهاد » — الحرب المقدسة — ضد يهود فلسطين ، ويبدو

انه قد دخل ايضا فى مفاوضات سرية مع الملك عبد الله ، حاكم محمية شرق الأردن البريطـانية ، الذى كان منافســا رئيســيا على قيـادة العـرب الفلسـطينيين(٣) .

وطبيعى انه لدى انقضاء اجل الانتداب البريطانى ، فان شرق الاردن قد يصبح مستقلا هو ايضا ، ومما لا شك فيه أن عبد الله كان يتطلع الى امكانية توحيد فلسطين (او على الاقل فلسطين العربية ، اذا ما اصبحت اسرائيل واقعا) مع شرق الأردن فى مملكة فلسطينية أو اردنية جديدة .

اما قادة كل الدول العربية الأخرى — الذين لم يكن بوسعهم العثور الا على اسس قليلة لعمل موحد — فقد كانوا موحدين فى معارضتهم لأطماع عبد الله على الاقل ، وكان ذلك صحيحا ليس فقط بالنسبة الى قادة لبنـان وسوريا الجمهوريين وانما ايضا بالنسـبة الى فاروق ، ملك مصر ، بل وبالنسبة الى حكومة فيصل الثانى ، ملك العراق ، ابن اخ عبد الله البالغ من العمر ١٢ سنة(٤) .

وهكذا فان الحكومات العربية الأخرى ، لاجـل احباط امكانية عمل مشترك من جانب المفتى وعبد الله ، قد سارعت الى استدعاء فوز الدين القاوقجى من التقاعد الى قيادة جيش عربى غير نظامى ضد الصهيونيين ومنع عبد الله فى الوقت نفسه من كسب السيطرة على كل فلسطين ، وهذه القوة غير النظامية ، المسماة بجيش التحرير العربى ، كان من المقرر أن تتألف من متطوعين من البلدان العربية الأخرى ، وكذلك من بين ســكان فلسطين العرب .

وقد انشئت قيادة لجيش التحرير العربى الجديد فى دمشق ، وكان من المقرر أن يقدم لبنان وسوريا معظم الأسـلحة والامدادات لهذا الجيش ، ولـما كان القادة العرب يتذكرون موقف القاوقجى غير المدروس تجاه مسائل التنظيم ، فقد عينوا مفتشا عاما ، كان من الناحية الفعلية قائدا عاما اداريا، هو عبد الله طه الهاشمى ، وهو ضابط عراقى قدمته حكومة بغداد الهاشمية، كما قدمت الحكومة العراقية مفتشا عاما مساعدا ، اللواء اسماعيل صفوت، اما الضابط الادارى فكان العقيد السورى محمود هريدى ، لكن القاوقجى كانت له سلطة القيادة الاسمية على قوات العمليات الميدانية لهذا «الجيش» فى فلسطين .

وفى تلك الاثناء كان المفتى قد شكل جيشه غير النظامى الخاص ، جيش الجهاد المقدس المعروف عموما بجيش الخـلاص العربى أو جيش الجهاد ، ومن اجل قيادة جيش الجهـاد المقدس هذا — المؤلف بشـكل رئيسى من المتطوعين ، أعضاء مليشيا غير رسمية كانت قد تطورت بين صفوف مجتمع فلسطين العربى — عين المفتى ابن عمه ، عبد القادر الحسينى ، الذى لم تكن لديه خبرة عسكرية ، ولكن يبدو ان شخصيته القوية قد جعلت منــه

القائد الاكثر فعالية من بين جميع القادة العرب غير النظاميين خلال الاشهر القليلة الباقية من حياته .

ويبدو ان الحسينى قد امل فى التمكن من التعاون مع جيش التحرير العربى ، وذهب الى دمشق لأجل الحصول على اسلحة من اللواء الهاشمى، لكن اللواء العراقى رفض مناشدة الحسينى بفظاظة ، قائلا (بالتركية) « اننا لا نقدم اسلحة للباشى بازوقات (الميليشيا) » ، وقد عاد الحسينى الى القدس يجر اذيال الفشل والمرارة .

ولم يكن وجود هذين الجيشين العربيين المتنازعين هو وحده عامل الانشقاق للقوى ، فقد كان هنالك ايضا انقسام وشقاق داخل كل منهما ، ومن ثم لم يكن هنالك غير قليل ، او لم يكن هنالك على الاطلاق ، اى تنسيق للجهد العربى ضد الصهيونيين المنظمين جيدا بصورة غير عادية ، وسوف تكون نتائج هـذا الاضطراب والتشويش ، مدمرة بالنسبة الى القضية العربية ، وقد نفت منذ البداية اى تفوق عددى نظرى لديهما على القوات العسكرية والادارة المدنية اليهودية عالية التنظيم ، اما الاتفاق الوحيد بين الجيشين فقد تمثل فى تقسيم عام لمناطق المسئولية ، جيش التحرير العربى فى الشمال ، وجيش الجهاد المقدس فى الجنوب .

ان حجم جيش التحرير العربى الذى كان تحت قيادة القاوقجى وهيكله القيادى كانـا يتغير باستمرار ، والحـال انه فى اوائل عـام ١٩٤٨ كان القاوقجى نفسـه قائدا ميدانيا تـستجيب لاوامره الكتائب التالية : كتيبة اليرموك الاولى ، تحت قيادة محمد صفاء ، وهو سورى ، وكتيبة اليرموك الثانية ، تحت قيادة ضابط سورى ايضـا هو اديب الشيشكلى ، وكتيبة حطين ، تحت قيادة عراقى ، هو مدلول عباس ، وكتيبة الحسين تحت قيادة عبد الرحمن الشيخ على ، وهو عراقى ايضا ، وكتيبة لبنانية او درزية ، تحت قيادة الزعيم الدرزى كشكيب وهاب ، وكتيبة اجنادين ، المؤلفة من دروز وفلسطينيين ، تحت قيادة ميخائيل العيسى ، وهو فلسطينى ، وكتيبة القادسية ، تحت قيادة المقدم العراقى مهدى صالح(٦) ، وبعد سقوط يافا، عاد العيسى الى بلده ، واندمجت كتيبة القادسية فى كتيبة اجنادين ، تحت قيادة صالح .

ولم يقترب جيش التحرير العربى من القوة التى خططها لنفسه وقوامها ٨ر٠٠٠ رجل الا لفترة وجيزة (فى اوائل مايو ١٩٤٨) عندما وصلت قوته الى حوالى ٧ر٧٠٠ رجل اما المساهمة التى جرى التخطيط لها فيما يتعلق بقوات الامم المتحدة العربية المشاركة فكانت كما يلى :

سوريا : ١ر٠٠٠ رجل ، بالاضافة الى بطارية مدفع عيار ٧٥ مم .

لبنان : ٥٠٠ رجل .

العراق : ٢ر٠٠٠ رجل ، بالاضافة الى بطاريتى مدفعية .

الاردن : ٥٠٠ رجل ، بالاضافة الى بطارية مدفعية .

العربية السعودية : ٢ر٠٠٠ رجل .

مصـر : ٢ر٠٠٠ رجل ، بالاضافة الى بطارية مدفعية .

وداخل جيش الخلاص كانت هنالك فرقتان فدائيتان اساسيتان ، قوام كل منهما اقل من ١ر٠٠٠ رجل : الفرقة المركزية ، فى منطقة اللد ، تحت قيادة حسن سلام ، وفرقة القدس ، تحت قيادة عبد القادر الحسـينى المباشرة ، وكان بوسع منظمات الميليشيا المحلية ان تعبىء معظم السكان الذكور للمجتمعات العربية لشن غارات او لأعمال الدفاع ، بيد انه لم تكن هنالك منظمة ممركزة فعلية .

وقد عقد الوضع فى جيش التحرير العربى الاشتراك الاسمى من جانب جماعة تكاد تكون غير شرعية من الثوار المسلمين ، اسمها « الاخوان المسلمون » ولم يجد الملك فاروق وحكومته غير حرج طفيف فى اشتراك هذه الجماعة المعادية للملكية من المصريين فى المجهود المعادى لعبد الله سرا ، والمعادى للصهيونيين علنا ، الذى كانت مصر ترعاه رسميا .

وعلى اية حال ، قد بدا من حسن التفكير دفع هؤلاء الثوار الى توجيه اهتمامهم الى خارج البلاد ، بدلا من ان ينصب على خطط اغتيال الملك ، وهكذا دعمتهم الحكومة المصرية هم وقائدهم ، وهو سودانى اسمه طارق الافريقى ، كان من مؤيدى المفتى ، وقـد تمكنت الحـكومة المصرية بحيلة ديبلوماسية من اقناع الاخوان المسلمين بانهم بحاجـة الى ضـابط نظامى مدرب كقائد حربى لهم .

وهكذا فان العقيد احمد عبد العزيز ، وهو ضابط فرسان بارع وانيق، قد حل محل الافريقى ، ووجد نفسه فجاة على راس عدة مئات من الثوار الراديكاليين ، الصعاليك فى جنوبى فلسطين ، ومن الناحية الاسمية ، كان عبد العزيز ورجاله تحت قيادة القاوقجى ، وبهذه الصـفة ، فقـد سـموا بـ « الفرقة الجنوبية » لجيش التحرير العربى ، لكنهم احترموا الاتفـاق الجغرافى غير المكتوب بين جيش التحرير العربى وجيش الخلاص العـربى واحتفظوا باتصال اسمى مع المفتى ، لكنهم كانوا مستقلين تماما من الناحية العملية ، وتمييزا لهم عن وحدات الجيش المصرى النظامية التى سرعـان ما قد تنخرط فى القتال ، فقد سمى المصريون الآخرون عبد العزيز ورجاله عادة بـ « المتطوعين » .

جيوش الجامعة العربية :

فى ٢٥ ابريل ١٩٤٨ ، وافقت الجامعة العربية على ان تتدخل دولها الاعضاء فى فلسطين بمجرد انسحاب البريطانيين ، وان تحول بقوة السلاح

دون تقسيم فلسطين الذى تقرر ، وان تكفل السيادة العربية فى الدولة الفلسطينية الجديدة وعلى الرغم من صغر شرق الاردن ، فان الفيلق العربى التابع لها ، والخاضع لقيادة بريطانية ، قد تم الاعتراف به عموما بوصفه القوة العسكرية الاحسن تنظيما فى العالم العربى ، وبسبب هذا الرصيد العسكرى الى حد ما وبشكل رئيسى لأن عبد الله ، ملك شرق الاردن ، لم يكن على الاقل مرفوضا سياسيا من جانب اعضاء الجامعة العربية ، بالقياس الى حكومة فاروق الفاسدة او الى حكومة سوريا الراديكالية ، فقد دعته الجامعة العربية رسميا لرئاسة مجلس الدفاع العربى والى تولى مهام القائد العام للجيوش العربية التى سوف تغزو فلسطين عند انسحاب البريطانيين. ولكن بما ان القادة العرب الآخرين كانوا بوجه عام لا يثقون فى عبد الله ، حتى وان لم يتمكنوا من الاتفاق على مسائل اخرى ، فان جزءا على الاقل من هدفهم الى تخصيص قوات للقتال فى فلسطين كان يتمثل فى الاستيلاء على اكثر ما يمكن من البلد قبل ان يتسنى له هو ذلك .

وهكذا فان الجيوش العربية قد شملت جيوش : لبنان ، وسوريا ، والأردن ، ومصر ، والعراق ، وكذلك الفيلق العربى التابع لشرق الأردن ، وجيش التحرير العربى التابع للقاوقجى ، وجيش الخلاص التابع للحسينى.

وقد اعتقدت الوكالة اليهودية انها ربما تتمكن من التوصل الى اتفاق مع عبد الله ، يوافق ملك شرق الأردن بموجبه على الصلح اذا ما اعلن حاكما للأجزاء العربية فى فلسطين على نحو ما حددها مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ، ولا يبدو ان هنالك شكا كبيرا فى انه أى عبد الله، قد حاول تحقيق مثل هذه التسوية على وجه التحديد ، بيد انه لم يكن بوسعه الحصول على دعم من جيرانه العرب المتشككين فيه ، وكان مثل هذا الحل مقيتا بشكل خاص لدى عدو عبد الله القديم ، أمين الحسينى ، مفتى القدس، الذى ضمن عدم موافقة القادة العرب الآخرين .

وفى محاولة للتوصل الى اتفاق مع عبد الله ، والبحث عن سبل لمساندته سرا دون استثارة مخاوف العرب الآخرين ، فان رئيسة الهيئة السياسية للوكالة اليهودية — السيدة جولدا مائير — قد اجتمعت به سرا مرتين فى الشهرين العاصفين قبل نشوب الحرب : وكانت المرة الأولى فى نوفمبر ١٩٤٧ فى نهرايم (عند شرقى نهر الأردن بالضبط ، عند التقائه بنهر اليرموك) ، وكانت المرة الثانية فى ١٠ مايو ١٩٤٨ فى قصر عبد الله بعمان .

ورغم المحادثات الودية ، فقد استحال التوصل الى اتفاق ، وطبيعى ان اليهود لم يكونوا يرغبون فى تأجيل استقلالهم — والواقع ان ذلك لم يكن فى وسعهم ، فى ضوء الانسحاب البريطانى ، ولم يكن بوسع عبد الله ان يتصرف بشكل يمثل تحديا لبقية العالم العربى ، وهكذا اصبحت الحرب حتمية(٧) .

جيش شرق الأردن — الفيلق العربى :

كان الفيلق العربى هو الخلف او الفرع غير المباشر لجيش الثورة العربية الذى كان قد قاده فيصل ، امير الحجاز الهاشمى — بمساعدة ت.ا لورانس — فى حملات ١٩١٧ و ١٩١٨ التى طردت الاتراك من امبراطوريتهم العربية ، وقد تبعت ذلك فى الشرق الاوسط مأساة معقدة من سياسات القوى ، وحرب الصحراء ، والازدواجية الاستعمارية الانجلو — فرنسية فى التعامل مع فيصل والعرب الآخرين .

وعندما شهد الشرق الاوسط نوعا من الاستقرار فى اوائل العشرينات، كان ابن سعود ، ملك العربية السعودية، قد ازاح فيصل ووالده من مملكتهما الحجازية ، كما ان فيصل كان قد طرد من سوريا على يد الفرنسيين لكن البريطانيين كانوا قد نصبوه ملكا على العراق الذى كان تحت انتداب وحماية بريطانيا ، وكان عبد الله — اخ فيصل — قد اصبح ملكا على الجزء الواقع شرقى الأردن من الانتداب البريطانى على فلسطين وبلاد العرب ، وكانت قوة البدو التى رعاها البريطانيون وقادوها ، والتى دعمت عبد الله فى عرشه الجديد قد اصبحت جنين الفيلق العربى لملكة شرق الأردن .

وكان الكابتن جون جلوب ، المحارب القديم الذى جرح ثلاث مرات فى الحرب العالمية الأولى ، قد عمل فى بلاد العرب بعد الحرب ، وفى عام ١٩٣٠ انضم الى الفيلق العربى كضابط « متعاقد » (خلافا للضابط « المعين » ، بتكليف من الجيش النظامى البريطانى) ، وكان الفيلق يتألف آنذاك من قوة شرطة من راكبى الجمال من فرسان الصحراء ، وفى عام ١٩٣٩ ، اصبح جلوب — الذى صار معروفا بين العرب باسم جلوب باشا — قائد الفيلق، وبدا تحويله التدريجى الى قوة مقاتلة حديثة ، لقد احتفظ بقليل من الجمال والجياد لعمليات الصحراء ، لكن معظم الفيلق اصبح قوة ميكانيكية خفيفة من المشاة والعربات المدرعة ، تساندها مدفعية ميدانية بعرباتها .

ومع حلول أوائل عام ١٩٤٧ ، كانت قوة الفيلق قد ارتفعت الى حوالى ٨ر٠٠٠ جندى ، وعند حلول اوائل عام ١٩٤٨ كانت قد اصبحت اكثر من ١٠ر٠٠٠ جندى ، منظمين فى ثلاثة الوية ، واربع كتائب عربات مدرعة ، وعدد من سرايا المشاة المستقلة ، وكانت بطاريات المدفعية الميدانية العاملة مع الالوية مسلحة اما بمدافع تطلق قذائف زنة كل منها ٢٥ رطلا او مدافع مرتفعات عيار ٣ر٧ بوصة(٨) . لقد كانت تلك القوة الحديثة ، المتلاحمة، تعادل بشكل عام فرقة ميكانيكية خفيفة منظمة حسب الأساليب البريطانية، وفخورة بانضباطها البريطانى التقليدى الذى حول محاربيها البدو العنيفين، الفردين الى جنود صامدين(٩) . وكان مع الفيلق ٣٧ ضابطا بريطانيا ، بمن فيهم جلوب .

جيش مصـــر :

يرجع استقلال مصر الحديثة من النـاحية الاسمية الى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، عندما اعلنت استقلالها هذا الحكومة البريطانية ــ التى كانت قد اعلنت الحماية على مصر عندما انضـمت تركيا (التى كانت آنذاك تملك السيادة الاسمية على مصر) الى دول الوسط فى الحرب العالميـة الأولى ، ولكن الحماية البريطانية قد استمرت فى الواقع ، وظلت مصر تحت الحماية البريطانية حتى اوائل عام ١٩٤٧ ، عندما انسحبت القوات البريطانية من مصر الى « منطقة القناة » المتاخمة لقناة السويس ، وخلال فترة الحمـاية البريطانية ، كان يشار فى تودد كاذب ونفاق الى تقاليـد مصر العسـكرية الطويلة والمشرفة ، لـكن الجيش المصرى كان ، فى الواقع ، خـلال تلك السنوات ملحقا صغيرا لجيش الاستعمار البريطانى ، ولم تكن هنالك فرصة كبيرة أمام الضباط المصريين لاكتساب خبرة قيادية تتجاوز مستوى السرية والكتيبة ، بل وفيما يتعلق بمهمـات الحاميات الروتينية فقط ، وقد حدث خروج استثنائى جزئى على هذه القاعدة خلال الحرب العالمية الثانية ، عندما اكتسبت مدفعية مصر المضادة للطائرات خبرة فى حماية تسـهيلات الموانىء وخطوط المواصلات البريطانية من الطائرات الالمانية ، وهكذا ، فان الجيش المصرى كان من الناحية العملية ، فى عام ١٩٤٧ ، جيشا جديدا ذا ضـباط لا يملكون عموما خبرة فى القيادة والادارة ، وذا وحدات مجهزة اسـاسا باسلحة بريطانية عتيقة ، وعلى الورق ، كان قوام الجيش ٥٥٫٠٠٠ رجل، لكن معظم هذه القوات كان مبعثرا فى حاميات عبر الدلتا وجنوبى وادى النيل على بعد مئات الأميال .

وعندما قرر الملك فاروق ، فى اوائل عام ١٩٤٨ ، احباط أطماع عبدالله بالاشتراك فى غزو مشترك لفلسطين لم يكن بوسع مصر ان تجمع ، ولو بشق الأنفس ، غير قوة حملة قوامها ٥٫٠٠٠ رجل فى لواء واحد ، يشمل فرقة مدرعة .

وكان من المعتقد ان العقيد عبد العزيز كان لديه ٢٫٠٠٠ متطـوع ، معظمهم من المصريين وبعض السودانيين والليبيين ، لكن القوة الاجمالية للمتطوعين لم تحشد قط فى العنصر القتالى فى فلسطين ، ومع أن هذه القوة كانت من الناحية النظرية جزءا من جيش التحرير العربى التابع للقاوقجى الا ان عبد العزيز كان يعمل من الناحية الفعلية تحت سلطة القائد العـام المصرى ، وكان لدى قوته قليل من مدافع المورتار والمدافع الثقيلة وبعض المركبات العتيقة .

جيش سـوريا :

اصبحت سوريا مسـتقلة عن الحكم الاستعمارى الفرنسى فى ابريل ١٩٤٦ ، وخلال فترة الانتداب الفرنسى ، كان عدد صـغير من الوحـدات

السورية قد جرى تكوينـه كعناصر من الجيش الاستعمارى الفرنسى ، وقد اصبحت هذه الوحدات نواة لجيش سورى جديد ، لكن خبرة السـوريين العسكرية كانت اقل بكثير من خبرة المصريين ، وعندما استعدت سـوريا لارسال حملة الى فلسطين ، بعد سنتين من الاستقلال ، كان معظم الضباط وصف الضباط اكثر استعدادا بقليل للعمليـات الميدانية من جنودهم الذين جندوا حديثا ، وكان الجيش يتألف من حوالى ٨٫٠٠٠ رجل منظمين فى لوائى مشاة ، وكتيبة ميكانيكية (تشمل سرية من الدبابات الفرنسية) ووحدات مبعثرة متنوعة ــ كما كان السوريون يملكون قوة جوية قوامها حوالى ٥٠ طائرة ، لكن ١٠ فقط من هذه الطـائرات كانت مقاتلات ــ قاذفات حربية حديثة .

جيش لبنـــان :

لقد من الصعب فى اوائل عـام ١٩٤٨ العثور على جيش فى اى بلد مستقل اقل استعدادا للحرب من جيش سوريا ، لقد كان ذلك صعبا ، مالم يؤخذ لبنان المجاور فى الحسبان ، فلبنان ، الذى كان جزءا من الانتداب الفرنسى على سوريا ، كان يتقاسم مع سـوريا كل نقائصها العسكرية ــ بالاضافة الى بعض النقائص التى كانت لبنانية بشكل فريد .

فمنذ العصر القديم ، كان اللبنانيون تجارا ، اشتهروا بالمهارة والفطنة التجاريتين ، ولم يكن لديهم غير اهتمام قليل ، او قدرة قليلة على الحرب، وعلى سـبيل المثال فان قليلين من اللبنـانيين هم الذين عملوا فى الجيش الفرنسى او وحدات الشرطة خلال فترة الانتداب .

وهكذا فان الجيش اللبنانى ، المؤلف من ٣٫٥٠٠ رجـل ، كان أقل استعدادا بكثير للحرب من جيش سوريا ، وكان يشمل خمس كتائب مشاة ووحدات صغيرة من دبابات ، وعربات مدرعة وفرسان خيول ، أما القوة اللبنانية التى كان من المقرر ان تدخل الى فلسـطين فكانت تتألف من أربع كتائب مشاة ، وبطاريتى مدفعية ، بالاضافة الى وحدات صغيرة من المدرعات والفرسان .

جيش العـراق :

من بين الدول العربية كلها المنخرطة فى « تحرير فلسطين » كان العراق اقدمها من حيث الاستقلال ، ففى ظل الملك فيصل الأول ، حصل العراق على الاستقلال عن الانتداب البريطانى فى ٣ اكتوبر عام ١٩٣٢ ، وهكذا فان الجيش العـراقى كان قد تأسس منذ وقت طـويل ، ولم يكن غير خبير فى مواجهة مشكلات التنظيم والادارة بنفس الدرجـة من الخطورة التى كانت عليها قوات مصر ، وسوريا ، ولبنان ، لكنه كان جيشا لا يملك ثقة كبيرة فى نفسه ، وكانت تجربته القتالية الوحيدة عبارة عن نزاع قصير وغير مجيد الى

حد ما مع بريطانيا فى عام ١٩٤١ ، ثم ان العراقيين قد حاولوا بعد ذلك ، تحت تأثير المانى ، طرد البريطانيين من قاعدتهم فى الحبانية ، بالقرب من الموصل — والتى كانوا قد احتفظوا بها بموجب معاهدة وقعت عند الاستقلال — وقد صدت الحامية البريطانية الصغيرة ضد الفلول العراقية الكاسحة ، واسفر الوصول السريع لمزيد من القوات البريطانية عن طريق الجو والبر من فلسطين عن اخضاع سريع للجيش العراقى .

وفى اوائل عام ١٩٤٨ ، كان عدد هذا الجيش ٢١٫٠٠٠ رجل ، مجهزين جيدا بمدافع تطلق قذائف زنة كل منها ٢٥ رطلا ، ومدافع مضادة للطائرات ومضادة للدبابات وعربات مدرعة بريطانية ، وشملت القوة الجوية ١٠٠ طائرة على الأقل ، وكان من المقرر ارســال قوة قوامها حــوالى ٥٫٠٠٠ جندى للانضمام الى الجيوش العربية الأخرى فى فلسطين .

ومع الشك فى كل من كفاءة القوات العراقية وحالتها المعنوية ، كانت هناك مشكلة عملية اكثر خطورة بكثير ، فخطوط المواصلات الطويلة ، عبر الصحراء من نهر الفرات الى الأردن ، كان من شأنها ان تخلق مشكلاتصعبة حتى بالنسبة الى الجيش الحديث الاكثر تقدما وكفاءة ، لكن الذى ساعد على تقليل هذه المشكلة الخطيرة هو انه كان من الممكن انتظار بعض المساندة على صعيد الامدادات من الأردن ، الذى كان ملكه الهاشمى ، على اى حال ، العم الكبير لملك العراق الشاب ، فيصل الثانى .

ومن ناحية اخرى ، فان الأردن ، الفقير فى تعداد سكانه ، وفى موارده الاقتصادية كان من الصعب عليه دعم جيشه الخاص به ، حتى مع الاعانات البريطانية الهائلة .

واذا كانت فرقة الجيش العراقى — المؤلفة من اربعة الوية من المشاة ، وكتيبة مدرعة ، وقوات مساعدة — سوف تبلى بلاء حسنا فى المعارك القادمة، فسوف يكون ذلك على الرغم من معوقات خطيرة الى اقصى الحدود .

المحصلة :

فى اوائل عام ١٩٤٨ ، كان الاجمالى المشترك للقوات العربية التى كانت على وشك الارسال لـ « تحرير » فلسطين من اليهود ٤٠٫٠٠٠ رجل على اكثر تقدير ، من بينهم اقل من ٥٫٠٠٠ رجل مسلح آنذاك فى الجيشين العربيين غير النظاميين ، ومن بين هذه القوات ، كان حوالى ١٠٫٠٠٠ رجل فى الفيلق العربى الأردنى — يمكن بالكاد اعتبارهم ندا للجنود اليهود على الاقــل .

بيد ان اليهود فى ذلك الوقت ، مع مزايا الوضع الدفاعى والخطوط الداخلية ، كانوا يعدون حوالى ٣٠٫٠٠٠ رجل مسلح ، وكان ١٠٫٠٠٠ آخرين

(تعوزهم ، باعتراف الجميع ، الأسلحة الصغيرة الحديثة ، ولكنهم مسلحون مع ذلك) وكانوا على استعداد للتعبئة الفورية فى الدفاع المحلى ، وكان خلفهم حوالى ٢٥٫٠٠٠ آخرون من الرجال المدربين فى الحرس الداخلى الذى جمع بين الفاعلية الدفاعية واحتياطى من القوة البشرية لتزويد القوات العاملة ، لكن مكمن الخطر كان يتمثل فى افتقار اليهود شبه الكامل الى الأسلحة الثقيلة، والمدرعات ، والطائرات الحربية .

والواقع ، ان امتلاك كميات متواضعة من ضروريات الحرب الحديثة هذه ، من جانب الجيوش العربية التى كانت فى الأغلب غير مستعدة تماما من النواحى الأخرى للحرب الحديثة ، وكان من الصعب ان يساعد على تبديد المزايا اليهودية فى عدد الرجال المدربين ، والتنظيم ، والتعليم ، وخبرة التخطيط ، والخبرة القتالية ، والفاعلية الشاملة .

ان اليهود الذين يتفوق العرب المجاورون لهم على سكانهم من الناحية العددية بنسبة تزيد على ٥٠ الى ١ مغرمون بالاغراق فى استخدام المقارنة بين « داود » و « جالوت » ، اما العرب ، عندما يشيرون الى حجم القــوى الفعلية التى كان كل طرف قادرا على ادخالها فى تلك الحرب والحروب التالية ، فانهم يرددون بانه كان هنالك بالفعل « جــالوت » يهودى ضد « داود » عربى ، والواقع ان هناك شيئا من الحقيقــة فى هذه المقــارنة العربية ، بيد ان المرء لا يسعه الا الاعجاب بالجمع بين الفاعلية والاخلاص الذى مكن اليهود مع هذا التفوق العددى من تعبئة مثل هذا الجزء الكبير من قوتهم البشرية .

الملاحظـــات

١ ـ من احاديث مختلفة كان الكاتب قد اجراها مع عرب تحت قيادة القاوقجي فى ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ .

٢ ـ ان الاحصاءات المتعلقة بخسائر الثورة (والماخوذة من الموسوعة البريطانية ، ١٩٦٩ ، المجلد ١٧ ، ص ١٧٠) تروى القصة : اليهود ، ٣٢٩ قتيلا ، ٨٢٧ جريحا ، البريطانيون ، ١٣٥ قتيلا ، ٣٨٦ جريحا ، العرب ، ١١٢ر٣ قتيلا ، ٧٧٥ر١ جريحا .

٣ ـ تؤكد المصادر المصرية ذلك بحزم فى الأحاديث الشخصية . ويميل المؤرخون الاسرائيليون الى الشك فيه .

٤ ـ يؤكد المؤرخون المصريون ذلك سرا ، ويميل المؤرخون الاسرائيليون الى الشك فيه .

٥ ـ كان « المتطوعون » تحت الاشراف المصرى يشكلون قوات الجبهة الجنوبية ، انظر ادناه .

كانت هنالك كتيبة يرموك ثالثة ، ولفترة كانت كتائب اليرموك مجتمعة فى لواء تحت قيادة الشيشكلى ، كما كانت هنالك لفترة وجيزة ، كتيبةعلوية، بالقرب من صفد ، تحت قيادة القائد غسان شديد ، التابع للجيش السورى وكانت الوحدات الأصغر تشمل : بطارية مدفعية من اربعة مدافع فرنسية عيار ٧٥ مم ، تحت قيادة الملازم أول فايز قصرى ، وهو سورى ، وقوة مهمات عكاوية ، تحت قيادة القائد فؤاد طحبوب ، وسرية بدوية ، اصبحت فيما بعد كتيبة صغيرة تحت قيادة القائد سعدون ، وسرية اسلامية يوغوسلافية تحت قيادة الرائد شوقى ، وسرية قدسية ، تحت قيادة الملازم العراقى الأول فاضل رشيد ، وسرية يمنية مستقلة ،وسرية أفريقية شمالية مستقلة .

ومن بين قادة الكتائب الذين عملوا فى جيش التحرير العربى من وقت لآخر ، حصل السورى أديب الشيشكلى ، والعراقى مهدى صالح ، والمقدم الأردنى وصفى التل على شهرة سياسية كل فى بلده بعد الحرب ، اما كبير اطباء جيش التحرير العربى فكان هو الدكتور أمين رواحه .

٧ ـ انظر ، جولدا مائير ، حياتى (تل أبيب ، ١٩٧٥) ، من ص ١٧٥ ـ ١٨٠ .

٨ ـ كان ذلك هو « المدفع الرناص » الشهير ، والذى سمى بهذا الاسم لأن ماسورته كانت تتألف من جزئين ، كان من السهل على حيوانات الحمل أن تحملها ، وكان يجرى تركيبهما معا ليصبحا ماسورة مدفعية .

٩ ـ رغم ان البدو كانوا يشكلون غالبيته ، فقد كان هنالك ايضا اردنيون ، وشركسة ، وفلسطينيون ، ودروز ، وأرمن فى صفوف الفيلق .

(٣)

الجولات الأولى

الشمال والغرب

ساحة القتال :

ان ارض فلسطين ، التى كانت على وشك ان تصبح ساحة القتال بين اليهود والعرب ، تنقسم من الناحية الطبيعية الى اربعة اقاليم رئيسية : سهل ساحلى يمتد من الشمال الى الجنوب ، ويتراوح عرضه بين ٨ و ٤٠ كيلو مترا ، باستثناء حيفا ، حيث تصل الجبال الى الشاطىء تقريبا .

وفى الداخل ، تمتد سلسلة من الجبال والنجاد من الحدود اللبنانية فى الشمال عبر الجليل ، ووسط « السامرة ، ويهودا » مع سلسلة تلالمركزية تمتد الى الجنوب من الناصرة عبر نابلس ، والقدس ، والخليل . وفى أقصى الشرق توجد المنخفضات الداخلية ، غربى نهر الأردن الشمالى ، وبحر الجليل (المعروف ايضا بأسماء مختلفة هى بحيرة طبرية ، وبحيرة كينيريت ، وبحيرة جينيت ، وبحيرة جينازاريت) ، ثم الى الجنوب عبر وادى جيزريل ووادى الأردن الأوسط .

والى الجنوب ، تمتد من تلال يهودا والبحر الميت صحراء شاسعة اسمها صحراء النقب الى الطرف الأعلى لخليج العقبة .

والمنطقة جافة بوجه عام ، ومن نوفمبر الى مارس يوجد فصل ممطر على طول السهل الساحلى ، ويمتد بعض المطر والرطوبة الى الداخل عبر معظم بقية البلاد ، باستثناء النقب .

اما شبكة الطرق التى كانت متواجدة فى عام ١٩٤٨ ، فلم يطرأ عليها تغيير كبير منذ العصور القديمة ، لكن الكثير من الطرق كانت مرصوفة وسهلة الاجتياز ، أما النقب فقد كان بلا طرق من الناحية العملية ، وكان هنالك مطار رئيسى واحد فقط ، بالقرب من اللد ، بيد انه كان هنالك عدد من الممرات الطويلة الضيقة المبعثرة فى ارجاء البلاد ، والقادرة على استقبال الطائرات الخفيفـــة .

بدء الحـــرب :

لم يرمز حادث منفرد الى الانتقال من السلام المضطرب الى القتال السافر ، وردا على قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالتقسيم ، كان الحاج

امين الحسينى ، مفتى القدس ، قد أمر باضراب عام مدته ثلاثة أيام لكل العرب الفلسطينيين فى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٧ ، وفى ذلك اليوم ، جرى نصب كمين لسيارة نقل ركاب يهودية بالقرب من اللد .

وفى ٢ ديسمبر ، هاجم مثيرو القلاقل العرب فى القدس المركز التجارى اليهودى الرئيسى ، وضربوا اصحاب الحوانيت والزبائن واشعلوا النيران التى احرقت معظم المبانى ، وفى الوقت نفسه ، نشب القتال بين العرب واليهود فى معظم أرجاء فلسطين ، وكان عنيفا بشكل خاص فى حيفا ، وقد شكا اليهود من أن قوة الاحتلال البريطانية لم تفعل غير القليل ، او لم تفعل شيئا على الاطلاق من اجل استعادة النظام أو حماية الأرواح والممتلكات .

بيد انه ، فى السنتين السابقتين كان ١٢٧ بريطانيا قد قتلوا و ٣٣١ آخرين قد جرحوا على يد الارهابيين ورجال حرب العصابات اليهود ، ولهذا كان من السهل فهم السبب فى عدم مسارعة القوات البريطانية الى حماية اليهـــود .

لقد فكر اليهود منذ البداية فى الحرب من زاوية ثلاثة وجوه رئيسية للعمليـــات هى :

١ ــ حرب قوافل الحماية : للمحافظة على فتح خطوط المواصلات من اجل الحفاظ على الاتصال بين المستوطنات اليهودية النائية ومركز اليشوف فى تل ابيب وحولها .

٢ ــ الدفاع عن المستوطنات : للتمسك من ناحية بأكبر مساحة ممكنة من الأراضى ، ومن ناحية اخرى لضمان السيطرة على النقاط الرئيسية ذات الأهمية الاستراتيجية والتكتيكية .

٣ ــ حرب الانتقال : لتخويف العرب ولمعاقبتهم على اعمالهم ســواء اكانت ضد طوابير الحماية ام ضد المستوطنات .

لقد قدر العرب تقديرا جيدا اهمية خطوط المواصلات ، واهمية القوافل اليهودية المرسلة لدعم المستوطنات النائية ، فان جماعات من العرب ، ذات توجيه مركزى قليل او دون اى توجيه مركزى على الاطلاق ، كانت ترابط فى مناطق تسيطر على الطرق الرئيسية ، حيث كان بوسعها اعتراض سبيل المواصلات اليهودية من تل ابيب ، والقدس ، ومختلف المستوطنات المنتشرة فى ارجاء البلاد ، وقد تركز انتباهها الرئيسى على طريق القدس ــ تل ابيب والقدس ــ الخليل .

وقد اتخذ بن جوريون قرارا ، وافق عليه كل اليشوف موافقة تامة ، بعدم ترك ولو مستوطنة واحدة ، على اساس ادراك ان بقاء المستوطنات

المبعثرة انما يعتمد على وصول الامدادات والذخيرة ، حاولت قيادة الوكالة اليهودية تزويدها عن طريق مركبات تحرسها قوافل من العـربات المدرعة المرتجلة ، وهذه القوافل ، رغم انها كانت منظمة تنظيما جيدا ، لم تنجح بدرجة متساوية ، وعلى اية حال ، اصبحت عمليات قوافل الحماية بؤرة الصراع العربى ــ اليهودى خلال ديسمبر ١٩٤٧ والأشهر الاولى من عام ١٩٤٨ .

ان القوافل التى كانت تزود المستوطنات النائية ، والمعزولة فى اغلب الحالات ، قد تعرضت بصورة متكررة للهجوم العربى ، وكانت الخسائر فى الأرواح بين اليهود فادحة ، وطفيفة نسبيا بين العرب ، وقد جرت تعبئة الهاجاناه ، لكنها تحركت بحذر شديد ، خوفا من ان تؤدى اى عمليات كبرى ضد العرب الى دفع البريطانيين الى مواجهة مباشرة مع اليهود .

وقد شنت بعض الهجمات ضد المستوطنات العربية ردا على الهجمات على قوافل الحماية ، لكن كل هذه الاعمال كانت محدودة بشكل دقيق من حيث مجالها وكثافتها .

وخلال تلك الأسابيع ــ على الرغـم من الجهود البريطانية لحفظ النظام ــ تصاعد النشاط الارهابى من جانب كل من الفريقين ، وكانت العربات الشراكية وبراميل المتفجرات التى يتم التحكم فيها عن بعد شائعة بوجه خاص لدى كل من الارهابيين العرب واليهود ، وانتقاما من الهجمات العربية على قوافل الحماية ، فى ٥ يناير ١٩٤٨ ، قاد اثنان من اعضاء الارجون عربة مليئة بالديناميت الى يافا ، واوقفوها بالقــرب من مبنى فى وسط المدينة ، كان يستخدمه المناضلون العرب المحليون كمقر للقيادة ، وعندما انفجرت العربة ، ادى ذلك الى مصرع أكثر من مائة انسان .

وفى اليوم التالى ، فى حى كتامون بالقدس ، نسف فندق سميراميس الذى يملكه عرب ، مما ادى الى مصرع عشرين عربيا آخرين ، وقد نسبت الهاجاناه المسئولية عن هذا الحادث الى نفسها ، قائلة ، ان الفندق كان مقر قيادة احدى المنظمات الارهابية العربية .

عمليات جيش التحرير العربى المبكرة :

فى ١٠ يناير ، قاد فوز الدين القاوقجى الغـزوة العربية الأولى الى فلسطين ، ومع قوة قوامها حوالى ٩٠٠ من المقاتلين غير النظاميين ، عبر الحدود من سوريا لمهاجمة قرية كفار سولد اليهودية ، ومع أن البريطانيين كانوا محايدين وسلبيين نسبيا خلال النشاطات الارهابيـة والفدائيـة فى الأسابيع السابقة ، فانهم لم يكن بوسعهم اغتفار هذا الغزو السـافر ، فسارت وحدة مدرعة الى الحدود من القاعدة البريطانية القريبة فى صفد ، وساعدت المستوطنين اليهود فى صد الهجوم ودفع القاوقجى ورجاله غير النظاميين عبر الحدود الى سوريا .

ومع ان القاوقجى لم يكتب له النجاح ، الا انه قد أعطى الاشارة لبدء المعارك السافرة ، وبعد ذلك بأربعة ايام ، وفى عملية منفصلة تماما ، قاد عبد القادر الحسينى — منافسه الذى يتزعم جيش الخلاص العربى — قوة من حوالى الف من المقاتلين الفلسطينيين غير النظاميين فى هجوم ضد مستوطنة كفار ايتزيون ، وهى مستوطنة يهودية على بعد حوالى خمسة عشر ميلا جنوبى القدس ، لكن اليهود كانوا قد نبهوا الى احتمال هذا الهجوم ، ونصبت فصيلة من حوالى ٣٠ جنديا من جنود البالماخ كمينا للعرب، ثم ساعدت المستوطنين المحليين فى اجلاء المهاجمين ، ومن جراء قلقها ازاء الوضع المكشوف بصورة خطيرة والذى كانت فيه المستوطنة ، التى كانت تشكو من نقص الامدادات كنتيجة للحصار العربى بطريق الخليل ، ارسلت القيادة اليهودية العليا فصيلة أخرى من حوالى ٣٥ رجلا مع قافلة من الامدادات لتعزيز المستوطنة . وقد غادروا هارطوف فى مساء ١٥ يناير ، بيد ان العرب نصبوا لهم كمينا خلال الليل ، وتم الاجهاز عليهم تماما فى قتال ليلى يائس ، وقد واصل المدافعون عن كفار ايتزيون وجودهم المروع فى ظل الهجوم المتقطع من جانب العرب المجاورين المتيقظين لهم .

وفى اواخر يناير ، عبر القاوقجى مرة اخرى من سوريا الى فلسطين . وقد حاول الاستيلاء على مستوطنة طيرت تسفى ، ولأن النجاح لم يحالفه ايضا ، فقد انسحب فى ١٦ فبراير الى الجنوب صوب نابلس فى قلب فلسطين العربية ، حيث اقام مقر قيادته .

وخلال الأسابيع العديدة التالية اصبحت النشاطات الارهابية من جانب كل من العرب واليهود اكثر كثافة ، وكان العرب قد جندوا عددا من الاجانب معظمهم من الفارين البريطانيين ، واليوغوسلاف ، والألمان ، والبولنديين — الذين مكنهم لون بشرتهم البيضاء من ان يبدوا كما لو كانوا جنودا بريطانيين او مهاجرين يهود ، وفى ١ فبراير ، قامت جماعة من الفارين البريطانيين ، الذين كانوا يقودون عربات بريطانية ، بنسف مكاتب جريدة **باليستاين بوست** المملوكة لليهود ، فى القدس ، وفى ٢٢ فبراير ، نسف العديد من المبانى السكنية فى القدس ، وقتل ٥٠ يهوديا وجرح اكثر من ٧٠ .

وفى ١١ مارس ، نسف جزء من مبنى الوكالة اليهودية فى القدس ، مما ادى الى مصرع ١٢ يهوديا واصابة ٩٠ آخرين بجراح ، وكان الارهابيون اليهود مدمرين شأنهم فى ذلك شأن العرب على الأقل ، حيث وجهوا الضربات الى التسهيلات المملوكة لعرب وتسببوا فى قدر مماثل من اراقة الدماء واحداث الخسائر .

وعند اواخر مارس ، كانت فلسطين قد اصبحت ارضا للارهاب ، وكان العرب قد اوقفوا المرور على معظم طرق فلسطين الرئيسية ، وقد فقد اليهود اكثر من ٢٠٠ر١ نفس منذ نهاية نوفمبر ، ولابد أن الخسائر العربية ، التى لم يرد تحديد لها ، كانت على نفس الدرجة على الأقل .

الهاجاناه تستعد للحرب :

فى قيادة الوكالة اليهودية ، كان بن جوريون يتحمل المسئولية الكاملة عن المسائل الدفاعية ، لكنه فوض مسائل الاشراف التفصيلى على التخطيط والعمليات العسكرية الى نائبه ، يسرائيل جاليلى ، رئيس القيادة السياسية العليا المتكافئة ، أما رئيس اركان الهاجاناه ، الذى كان قد تولى هذا المنصب منذ عام ١٩٣٩ ، فقد كان هو يعقوب دورى ، لكن حالته الصحية المتدهورة بشكل متزايد قد القت مسئولية متزايدة باستمرار على كاهل رئيس عمليات الهاجاناه ، ييجال يادين ، الذى كان من الناحية الفعلية نائب دورى ، وهؤلاء الرجال الأربعة ، والأركان العامة الصغيرة التى كان يشرف عليها دورى ويادين ، كانت تؤلف « القيادة العليا » للهاجاناه .

وخلال مارس ، اتمت هذه القيادة ، واصدرت الى البالماخ ، وقيادات المناطق الرئيسية ، خطة عمليات تفصيلية للحرب التى كانت فى بدايتها بالفعل ، وهذه الخطة — المسماة بالخطة « د » ، لانها كانت قد حلت محل الخطط ا ، ب ، حـ السابقة — قد اعترفت بأن الحرب سوف تتسع وتزداد كثافة فى آن واحد ، بمجرد انسحاب البريطانيين .

وبموجب الخطة « د » ، فان مهمة الهاجاناه قد حددت على النحو التالى : « كسب السيطرة على المنطقة المخصصة للدولة اليهودية والدفاع عن حدودها ، وعن مجموعة مساكن المستوطنات اليهودية والسكان اليهود خارج تلك الحدود ، ضد العدو النظامى او شبه النظامى العامل من قواعد خارج او داخل منطقة الدولة اليهودية » ، وضمن هذه المهمة العامة ، كان من بين الأهداف الرئيسية ، حماية الدولة من الغزو ، تأمين حرية المواصلات داخل الدولة والى مراكز السكان اليهود خارج حدودها عن طريق كسب السيطرة على طرق فلسطين الرئيسية ، والاستيلاء على القواعد الأمامية المعادية (سواء كانت داخل او خارج حدود الدولة على ما يبدو) ممارسة الضغط الاقتصادى على العرب بمختلف الوسائل ، بما فى ذلك فرض الحصار على مدنهم ، والاستيلاء على مراكز العمليات الفدائية العربية المحتملة ، كسب السيطرة على منشآت الحكومة لتأمين عملها الطبيعى والفعال(١) .

وعند نهاية مارس ، كانت قوة الهاجاناه التى تمت تعبئتها ٠٠٠ر٢١ رجل تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين ، وقد جرى توزيع معظم هؤلاء لحماية تلك المستوطنات التى بدت انها الأكثر عرضة للتهديدات العربية ، بينما كان الباقون مسئولين عن حراسة القوافل . وكان قد تم الحصول على ٣٠ طائرة خفيفة لسلاح البالماخ الجوى ، وكان يجرى استخدام معظم هذه الطائرات فى حمل الامدادات العاجلة للمستوطنات المعزولة .

لقد كانت اسلحة الجنود اليهود الـ ٢١٫٠٠٠ الذين تمت تعبئتهم متنافرة وغير كافية بالنسبة الى اى عمليات عسكرية متصلة ، بيد انه فى ١ ابريل ١٩٤٨ ، وصلت شحنة الأسلحة الأجنبية الاولى — المؤلفة من البنادق — من تشيكوسلوفاكيا على طائرة نقل ، فى ممر جوى سرى جنوبى بيت داراس ، وفى ٣ ابريل ، وصلت من بولندا الى تل ابيب سفينة تحمل المزيد من الأسلحة ، وبالاضافة الى البنادق ، كان هناك عدد من المدافع الخفيفة التى كانت هناك حاجة ماسة اليها .

وكانت تلك بداية تدفق للأسلحة — كان بسيطا فى البداية — الى القوات اليهودية ، وبعد انتهاء الانتداب والحظر البريطانى ، وصلت اسلحة اثقل ، مدافع مورتار ، وقطع مدفعية ، ودبابات ، وطائرات حربية ، لكن نقص الأسلحة حتى ذلك الحين قد حد بصورة خطيرة من قدرة الهاجاناه على تسليح جنود الاحتياط المدربين التابعين لها .

هجوم القاوقجى :

عند اوائل ابريل كان القاوقجى ، قد وطد موقعه فى نابلس وحولها بحيث احس بالاستعداد لمعاودة الهجوم ، وفى ٣ ابريل ، تحرك غربا من الناصرة مع حوالى ١٫٠٠٠ رجل فى كتيبتين ، وكانت قوته تشمل سبعة مدافع ميدان ، كان الجيش السورى قد قدمها وكانت اول مدفعية تستخدم فى الحرب ، وكانت خطته تتمثل فى قطع المواصلات اليهودية بين تل ابيب والشمال ، اما هدفه المباشر فكان يتمثل فى الاستيلاء على مستوطنة مشمر هاعمق ، وكانت الحامية اليهودية للمدينة تتالف من المستوطنين المسلحين ووحدة صغيرة من وحدات الهاجاناه ، وبالاضافة الى الأسلحة الصغيرة المتنوعة ، كان لدى المدافعين اليهود مدفع خفيف واحد وعدد قليل من مدافع المورتار عيار ٢ بوصة .

وفى اوائل ظهيرة ٤ ابريل ، حاصرت القوات العربية مشمر هاعمق دون احكام ، حيث رابطت على التلال المسيطرة على القرية ، وقد اعقب هجوم للمشاة قصف قصير للمدفعية ، لكن المدافعين اليهود كانوا مستعدين، وقد ادت نيران الأسلحة الصغيرة الكثيفة الى رد المهاجمين على اعقابهم . واستمرت نيران المدفعية غير المحكمة الى حد ما طوال الليل ، واصبحت اكثر كثافة فى الصباح ، بيد ان هجوم المشاة لم يتجدد رغم ان المستوطنين كانوا يتوقعونه .

وخلال الصباح ، وصلت قوة بريطانية صغيرة ، ودعا القائد البريطانى الى وقف اطلاق النار لمدة اربع وعشرين ساعة لتمكين المستوطنين من اجلاء اطفالهم وجرحاهم ، وخلال هذه الهدنة ، وصلت من عين هاشوفيت تعزيزات يهودية كتيبة بالبالماخ الاولى ، بقيادة الميجور لانير ، وعندما انقضت الهدنة ، شن لانير هجوما مضادا ، مفاجئا للعرب ، وعلى امتداد الايام الخمسة التالية ، تفجرت سلسلة من اشتباكات رجال العصابات

حول المستوطنة ، حيث كان كل من الطرفين يسعى الى السيطرة على القرى والمواقع فى التلال ، وكان القتال شديدا بشكل خاص شرقى رامات يوحانان. وفى ١٢ ابريل ، شن القاوقجى هجوما رئيسيا ، فاشلا ، آخر على مشمرهاعمق .

ولما كانت وحدات عديدة من الهاجاناه قد اقتربت واخذت تهدد بقطع خط مواصلات القاوقجى ، فقد قرر التخلى عن حملته ، وانسحب الى جنين ، وبالرغم من الغيرة المتصلة بين جيش التحرير العربى وجيش الخلاص العربى فان القاوقجى قد استجاب على الفور عندما طلب الجنود غير النظاميين العرب فى القدس ويافا المساعدة ، فى واحدة من الحالات القليلة للتعاون العربى فى الحرب ، وقد ارسل بعض مدفعيته الى القدس ، وارسل فرقة ميخائيل العيسى الى يافا .

طبرية :

بعد ذلك مباشرة انتقل مسرح القتال شمالا الى طبرية ، وكان اليهود هناك يفوقون العرب عددا ، لكنهم كانوا منقسمين ، فى جماعتين ، يفصل بين كل منهما العرب الذين كانوا منتشرين فى معظم المدينة القديمة السفلى، الواقعة فوق شواطىء بحر الجليل مباشرة ، اما الطريق اليهودى الوحيد الآمن نوعا ما من الساحل الى ريف وادى الحولة الزراعى الخصيب ، فى شرق الجليل شمالى بحر الجليل ، فقد كان يمر عبر طبرية ، لكن العرب كانوا قد منعوا اى مرور عبر المدينة السفلى .

اما طبرية العليا ، على سفوح التلال المطلة على المدينة السفلى والبحيرة ، فقد اصبحت مقر قيادة ناحوم جولان ، قائد وحدة هيش المحلية للهاجاناه ، وهذه القوة سوف تصبح فى النهاية اللواء الأول للجيش الاسرائيلى ، لكنها قد عرفت دائما باسم لواء جولانى ، نسبة الى قائدها الأول .

وفى ١٨ ابريل ، اخترق رجال جولان سفوح التلال الى الحى العربى، بينما قامت قوات البالماخ من وادى الحولة بتطهير جبهة البحيرة ثم صعدت غربا الى التلال ، وفى غضون ساعات قليلة التقت القوتان ، وشطرتا المناطق العربية بالكامل ، واعادتا فتح الطريق الى الشمال ، وقرر السكان العرب الجلاء عن الجزء الخاص بهم من المدينة ، وقد تمكنوا من ذلك بمساعدة بريطانية .

حيفا — عملية « ميسباراييم » :

فى تلك الاثناء ، كان كل من الفريقين فى حيفا يعد نفسه للصراع ، وكما فى طبرية ، فان معظم العرب كانوا يسكنون الجزء الأقدم من المدينة على السفوح السفلية لجبل الكرمل ، فى حين ان اليهود الأكثر عددا كانوا يتركزون

على المرتفعات فى قسم معروف باسم هدر هاكرمل ، وقد زاد من تعقيد الوضع فى حيفا أنها ، بوصفها ميناء فلسطين الرئيسى ، كانت ايضا قاعدة الامداد البريطانية الرئيسية ، وبالاضافة الى منطقة القاعدة المحصنة تحصينا قويا فى المدينة السفلى ، كانت هناك منشأة بريطانية قوية اخرى على سفح الجبل بالقرب من الحى اليهودى ، وكانت تلك المنشأة مقر قيادة الفرقة البريطانية السادسة المحمولة جوا ، والقوة الرئيسية للحامية البريطانية فى شمالى فلسطين .

وكانت حركة المرور العسكرى البريطانى كثيفة على طول الطريق من مقر قيادة الفرقة الى قاعدة الامداد ، وقد اسهم ذلك لأشهر عديدة فى حرب عصابات ثلاثية الأطراف ، لأن العربات البريطانية كثيرا ما كانت تتعرض لنيران كل من اليهود والعرب ، الذين كانوا يتبادلون اطلاق النار فيما بينهم ايضا بطبيعة الحال .

وكان العرب فى حيفا احسن تنظيما مما فى المجتمعات العربية الأخرى ، وكانوا قد اختاروا فى يناير محمد عبد الحميد الحنيطى ليكون قائدا لوحدة جيش الخلاص العربى التى شكلوها ، وكانت القوة الرئيسية للفرقة العسكرية اليهودية فى حيفا لواء هاجاناه ، تحت قيادة الكولونيل موشيه كرمل ، وهكذا عرف باسم اللواء الكرملى .

واذا استثنينا عمليات القناصة ، والمناوشات الصغيرة ومعارك المدافع السريعة المتكررة من جانب اليهود والعرب مع العربات والقوافل البريطانية، فقد وقعت اربع حوادث رئيسية فى منطقة حيفا ، ساعدت على زيادة التوتر قبل المعركة النهائية من اجل الاستيلاء على المدينة ، فبعد القاء الارهابيين اليهود قنبلة فى المدينة السفلى فى ٣٠ ديسمبر ، ادت الى مصرع ٦ من العرب واصابة ٤٧ آخرين بجراح ، تفجرت اضطرابات عربية فى معمل تكرير النفط بالقرب من الميناء حيث كان يعمل عرب ويهود على حد سواء ، وادت اعمال العنف هذه الى قتل ٤١ عاملا يهوديا .

وفى ١٤ يناير ، نسف الارهابيون العرب عربة مكتب بريد فى الحى اليهودى ، مما اسفر عن اصابة ٤٥ يهوديا بجراح ، وفى ١٨ مارس نصب اليهود كمينا لقافلة عربية تحمل اسلحة من لبنان عند قرية موتسقين ، خارج حيفا ، وقد لقى الحنيطى ، الذى كان مسافرا مع الطابور مصرعه ، وقد ادى مصرع قائد عرب حيفا هذا الى زعزعة معنوياتهم بصورة خطيرة الى ان وصل امين عز الدين ، فى ٢٧ مارس ، مع مجموعة من التعزيزات غير النظامية ، وقد عين قائدا جديدا .

اما الحادث الرابع فقد وقع فى اواخر مارس ، عندما جرى نصب كمين لطابور يهودى يحمل امدادات الى كيبوتز يحيعام ولقى معظم قائديه وحراسه مصرعهم .

لقد كان القائد البريطانى فى شمالى فلسطين ، والذى كان ايضا قائد الفرقة السادسة المحمولة جوا ، هو الميجور جنرال هيوستوكويل ، وكان قد كسب عداوة كل من اليهود والعرب بمحافظته على النظام دون تحيز ، فى كل المناطق ، وحول كل المناطق التى كانت تتركز فيها قواته .

ومع اقتراب الموعد المحدد للانسحاب البريطانى — ١٥ مايو — اتم ستوكويل خطط تركيز قواته فى منطقة حيفا استعدادا للجلاء الى الميناء ، وكان ذلك يتطلب منه تنفيذ انسحاب منظم من مختلف المواقع البريطانية فى اقصى الشرق فى الجليل وشمالى السامرة .

وفى صباح ٢١ ابريل ، ابلغ القائد البريطانى كلا من العرب واليهود بنواياه ، وحدد ان كل اهتمامه يتركز على الانسحاب الآمن لقواته ، وقد فسر كل من الجانبين بيانه كدليل على أنه سوف يكف عن التدخل فى الاضطرابات المحلية ، ومن ثم فقد كان ذلك اشارة لبدء معارك رئيسية فى منطقة حيفا .

وقبل ذلك بفترة ، كانت قيادة الهاجاناه العليا قد اعدت خطة لكسب السيطرة على الجزء العربى من حيفا ، وكان الهدف من عملية « ميسباراييم » (المقصات) تقسيم المدينة السفلى الى ثلاثة اجزاء .

وكان على قوة يهودية ان تعبر وادى روشمياح لاقامة راس جسر على الجانب الأبعد ، وكان على قوة ثانية ان تهبط جبل الكرمل مباشرة الى الحى العربى ، بينما كان على قوة ثالثة ان تتحرك للالتقاء بهذه القوة من منطقة الميناء .

وقد بدات العملية فى الغسق فى ٢١ ابريل ، بعد ساعات قليلة من بيان ستوكويل ، وكما كان مخططا ، فقد عبرت وحدة صغيرة من الهاجاناه روشمياح ، بيد انه بعد النجاح الاولى ، حاصرتها وعزلتها قوة عربية اكبر بكثير ، وبعد قتال مستميت ، تمكنت وحدة الهاجاناه من الاستيلاء على مبنى مكتب ضخم للأسمنت ، سيطر عليه اليهود طوال بقية الليل والنهار التالى رغم الهجمات العربية المتكررة .

وبينما كانت تلك الأحداث جارية ، كانت الوحدتان الرئيسيتان للواء الكرملى تنفذان الهجمات الرئيسية ، وعند حلول الفجر ، كان الطابوران قد اتحدا ، ونجحا فى شطر المدينة العربية ، وقبل الظهر بقليل ، اصبح موقف المدافعين العرب يائسا بشكل واضح ، وانسحب امين عز الدين وجزء من قوته غير النظامية من المدينة ، وسرعان ما بدات المقاومة من جانب العرب المحليين فى الانهيار .

وفى تلك الاثناء ، كان الجنرال ستوكويل يحاول ترتيب هدنة ، وقد تمكن من تحديد اجتماع بعد الظهر مباشرة بين العمدة العربى والكولونيل كرمل ، واكد كرمل بشكل قاطع ان شروطه لوقف اطلاق النار تقضى باستسلام كل القوات العربية مع اسلحتها ، والخضوع للسيطرة اليهودية على المدينة. اما كل الجنود العرب غير الفلسطينيين والمرتزقة الأجانب فكان يتعين استسلامهم لليهود ، وكذا تعين فرض حظر التجول ، وقد طلب القادة العرب مهلة لدراسة المقترحات وغادروا الاجتماع .

وخلال المشاورات العربية التالية اكد مندوب القاوقجى للعمدة وللقادة المدنيين الآخرين ان جيش التحرير العربى يخطط لهجوم على حيفا من نابلس ، وانه سرعان ما سوف يتم ايضا غزو فلسطين من جانب جيوش الدول العربية المجاورة ، ولهذا فقد دعاهم الى ترك ديارهم فى حيفا حتى لا يكونوا محاصرين خلال المعركة التالية من اجل الاستيلاء على المدينة ، وسوف يكون بوسعهم العودة الى ديارهم بعد ان يتم طرد اليهود .

وقد حاول بعض اليهود الساعين باخلاص الى الوفاق بين الأجناس، اقناع جيرانهم العرب بالبقاء ، لكن العمدة ومستشاريه قرروا الجلاء عن المدينة ، وعادوا الى اجتماع الجنرال ستوكويل وابلغوه هو والكولونيل كرمل بانهم لن يستسلموا ، لكنهم سوف يتركون المدينة .

وقد حاول ستوكويل وبعض المواطنين العرب البارزين اثناء العمدة، لكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح ، وجرى ترتيب هدنة لمدة خمسة ايام ، وسرعان ما بدأ نزوح جماعى ، ولم يبق غير آلاف قليلة من العرب ، من بين ٠٠٠ر١٠٠ من السكان فى ديارهم .

صفد — عملية « يفتاخ »

ان مدينة صفد ، التى كان عدد سكانها فى اوائل عام ١٩٤٨ ، اكثر من ٠٠٠ر١٠ عربى و ٥٠٠ر١ يهودى ، تقع بشكل مثير على مرتفع يعلو عن سطح البحر بـ ٠٠٠ر٢ قدم ، ويعلو عن بحر الجليل بحوالى ٠٠٠ر٣ قدم ، وهى تسيطر على الطريق الممتد من الساحل الى الجليل الشمالى الشرقى ، حيث تتواجد مستوطنات يهودية منعزلة عديدة .

وقد بدا القتال فى صفد فى ديسمبر ١٩٤٧ ، بيد انه بسبب وجود حامية بريطانية كان قاصرا على عمليات القناصة المتفرقة والهجمات العربية بين الحين والآخر على القوافل اليهودية بيد انه مع حلول ابريل ، كان الحى اليهودى — الذى يقع اسفل القطاع العربى على المرتفع بحوالى ١٥٠ قدما فى حالة حصار ، وكان يتعين الحصول على كل الامدادات اليهودية عبر طرق جبلية عالية خلال الليل ، وبالاضافة الى حوالى ٠٠٠ر١ رجل من الجنود العرب غير النظامين المحليين المسلحين ، كانت هنالك حامية تابعة

لجيش التحرير العربى فى المدينة : حوالى ٦٠٠ عراقى وسورى فى كتيبتين تحت قيادة اديب الشيشكلى .

وكان معظم السكان اليهود اصوليين من حيث العقيدة الدينية ، وكان كثير ممن هم فى سن حمل السلاح غير مستعدين للقتال ، وكنتيجة لذلك ، فان عبء الدفاع عن الحى اليهودى قد تحملته وحدة من الهاجاناه قوامها ٢٠٠ رجل ، الا انه فى مساء ١٤ ابريل تسللت فصيلة من البالماخ — حوالى ٣٥ رجلا — الى صفد من قاعدة البالماخ على جبل كنعان ، وقد تولى قائد فصيلة البالماخ قيادة الحى اليهودى .

وفى ١٥ ابريل ، انسحب البريطانيون من صفد ، وتحرك العرب فورا للاستيلاء على ثلاثة مواقع قوية فى المدينة الرئيسية : القلعة القديمة ، مكتب البوليس ، ومبنى اسمه شالفاهاوس ، وفى الوقت نفسه ، استولوا على مكتب بوليس محصن قريبا فى وادى الحولة ، كما استولوا على مكتب آخر فى مدينة النبى يوشع شمالا .

وقد رات قيادة الهاجاناه العليا أن السيطرة على صفد تعد جوهرية لصون الاتصالات مع مستوطنات الجليل الشمالى الشرقى ، وبعد الانسحاب البريطانى بوقت قصير ، حاولت وحدة من لواء جولانى الاستيلاء على نقطة بوليس النبى يوشع — على مرتفع يسيطر على وادى الحولة — كمقدمة لشن هجوم على صفد ، لكن الهجوم تم صده من جانب المدافعين العرب ، الذين قتلوا خمسة جولانيين ، واصابوا عددا آخر بجراح ، وبعد ذلك مباشرة ، حاولت قوة البالماخ عند جبل كنعان الاستيلاء على موقع النبى يوشع فى هجوم ليلى ، وقد تم صد هذا الهجوم ايضا ووقعت خسائر شديدة فى الأرواح ، وبعد تحذيرات بريطانية ، قرر اليهود تأجيل عملياتهم المخططة ضد صفد .

واثناء انتظار استكمال البريطانيين انسحابهم من الجليل الشرقى كله، استكملت قيادة الهاجاناه العليا خطة « يفتاخ » للاستيلاء على مواقع عربية رئيسية هناك ، ليس فقط لكسب السيطرة على المحاور الرئيسية ، وانما ايضا لتنظيم المنطقة للدفاع فى وجه غزو عربى متوقع من لبنان وسوريا ، وبسبب موقعها ، كانت صفد عنصرا حاسما فى تحقيق كل من هذين الهدفين، وكلف الكولونيل الشاب ييجال آلون ، قائد البالماخ ، بتنفيذ عملية يفتاخ ، بكتيبة من البالماخ وكتيبة من هيش ، بالاضافة الى وحدات الهاجاناة الدفاعية المحلية .

وفى ٢٨ ابريل ، انسحب البريطانيون من الجليل الشرقى كله ، ولما لم يعد حظر التجول الذى كان البريطانيون قد فرضوه والذى كان سارى المفعول ، وكان يقيد التحركات على الطرق ، يعرقل آلون ، فقد استعد لبدء عملياته المخططة للاستيلاء على صفد ، وفى البداية ، استولت قواته

على قلعة البوليس فى روش بينا ، ومع حلول ١ مايو ، كانت قد احتلت قريتى البيرة وعين زيتيم ، على المشارف الشمالية لصفد ، ومن هاتين القريتين ، جرى فتح ممر الى الحى اليهودى فى صفد .

وفى ٣ مايو عززت كتيبة ثانية من البالماخ قوة آللون بالقرب من صفد ، وفى تلك الأثناء ، استعد العرب للصراع التالى .

وقد شن آللون الهجوم خلال ليلة ٥ ــ ٦ مايو ، وبالرغم من مساندة نيران مدافع المورتار الهامة ، فان المشاه اليهود لم يكن بوسعهم احراز تقدم كبير فى القتال الضارى ، وقصفت المدفعية العربية الحى اليهودى ، وبسبب عجزه عن احراز اى تقدم ، اوقف آللون الهجوم ، وانسحب خارج مدى صفد من اجل اعادة التنظيم ووضع خطط جديدة ، وبعد ذلك باربعة ايام ، شن آللون الهجوم من ثلاثة جوانب عند الغسق فى ١٠ مايو مستفيدا من سقوط امطار شديدة غير موسمية ، وخلال الليل ، شق الاسرائيليون طريقهم مقاتلين من بيت الى بيت صاعدين الى شوارع المدينة الجبلية ، ومع صباح ١١ مايو ، كان اليهود قد استولوا على المواقع القوية الثلاثة فى صفد .

وفى اليوم التالى ، ١٢ مايو ، ترك العرب ايضا قلعة بوليس على الطريق الى جبل كنعان ، وكما حدث فى حيفا بدا السكان العرب المحليون نزوحا جماعيا وانضم اليهم فى هروبهم كثيرون من العرب من وادى الحولة الواقع أسفل المدينة .

تامين المستوطنات الشمالية :

فى ٢٩ ابريل ، انسحب البريطانيون من ساماخ وجيشير ، وسرعان ما استولت قوات الجولانى على مواقع البوليس الحصينة فى تلك المدن ذات الغالبية العربية ، من اجل المحافظة على الطرق مفتوحة الى مستوطنات وادى الأردن .

وقد هاجم الفيلق العربى جيشير فى ١ مايو ، لكن الهجوم تم صده(٢) ، ثم تحركت قوات من الهاجاناه جنوبا للاستيلاء على بيت شيعان فى ١٢ مايو ، وفى الوقت نفسه ، كانت الهاجاناه تؤمن ايضا جبل طابور ومناطق الكرمل الجنوبية ، وفى عملية « بن عامى » قامت وحدة الكرملى ، بعد استيلائها على حيفا ، بالاستيلاء على معاقل عربية عديدة تقع فى شمالها وشرق شمال شرق عكا ، عازلة بشكل جزئى تلك المدينة العربية ، وفى الوقت نفسه ، شنت هجوما فى اتجاه الشمال الشرقى لاقامة خطوط اتصالات برية مع المستوطنات اليهودية فى يهيعام وحنيطة .

يافا ــ عملية « خامتيز » :

حسب مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ، كان من المقرر ان تكون يافا جزءا من الدولة العربية (انظر الخريطة ١) ، وكانت تعزلها

من الشرق والجنوب الشرقى مناطق عربية جيدة الدفاع ، كانت تشكل اسفينا بين المناطق اليهودية فى شمال شرق وجنوب شرق المدينة .

وفى منتصف ابريل ، اصدرت قيادة الهاجاناه العليا الأوامر بشأن عملية « خامتيز » التى كان الهدف منها هو ربط المناطق اليهودية حول حيفا ، ومن ثم عزل المدينة وفتح طريق آمن الى مطار اللد فى الوقت نفسه ، ولم يكن قد جرى تحديد موعد بعد لتنفيذ العملية .

بيد انه ، فى ٢٥ ابريل ، شنت الارجون بشكل مستقل هجوما على المنشية ، القطاع الشمالى من حيفا ، المجاور لتل ابيب ، وقد حشدت لهذه المحاولة حوالى ٦٠٠ رجل ، مجهزين جيدا بالاسلحة الصغيرة ، والذخيرة ، ومدافع مورتار عيار ٣ بوصة ، لقد كان هذا الهجوم يتميز بالاصرار ، لكنه لم يحقق غير تقدم طفيف فى ٢٥ و ٢٦ أبريل فى وجه مقاومة عربية عنيدة ، ولهذا طلب قادة الأرجون المساعد من الهاجاناه .

واستفادة من هذه الفرصة ، اصرت الهاجاناه على تفاهم كتابى ثابت توضع الأرجون بموجبه تحت قيادة الهاجاناه ، ومع ان الأرجون سوف يكون بوسعها الاحتفاظ بضباطها ، فان كل عملياتها القتالية يجب ان تخضع لموافقة الهاجاناه ، ووافق قادة الأرجون على ذلك مكرهين ، ولكن على أساس ان الاتفاق لن ينطبق على اى منطقة ــ كالقدس مثلا ــ ليست تحت السيطرة اليهودية التامة بعد .

وفى ٢٧ ابريل ، مع دعم من نيران مدافع المورتار والأسلحة الصغيرة التى قدمتها الهاجاناه ، جددت قوات الأرجون هجومها ، ووصلت الى الساحل ، وعزلت المنشية عن بقية يافا ، بيد أن كتيبة دبابات وفوج مدفعية بريطانيين سارعا فى تلك الأثناء الى يافا ، ووصلت تعزيزات اخرى عن طريق البحر من قبرص ، وفى محاولة لصون الوضع القائم ، بدأ البريطانيون قصفا مدفعيا وجويا لمستوطنة بات يام اليهودية ، جنوبى يافا مباشرة .

وفى ذلك الوقت ايضا ، ارسل القاوقجى وحدة ميخائيل العيسى التابعة لقوات جيش التحرير العربى ــ بما فى ذلك مدفعيته ــ الى يافا ، وقد وصلت بينما كانت المعركة فى أوجها تماما .

وبالرغم من التدخل البريطانى ووصول تعزيزات عربية ، بدأ الهاجاناه فى ٢٨ ابريل ، عشية عيد الفصح ، عملية « خامتيز » تحت قيادة الكولونيل دان ايفين ، وكانت الخطة تنص على المحاصرة التامة للمدينة ، مع تجنب القتال مع الحامية البريطانية .

وفى الشمال ، استولت الهاجاناه بسرعة على قريتين عربيتين ، منهية كل تهديد عربى لتل ابيب ، وفى الجنوب ، بدأت كتيبة من لواء جيفات هجوما

متزامنا على تل العريش ، لكن هذا الهجوم فشل ، وذلك — أساسا — بسبب سوء تخطيط الهاجاناه وسوء التنسيق ، وجزئيا بسبب هجوم مضاد مركز من جانب جيش التحرير العربى شاركت فيه وحدة عراقية ووحدة ميخائيل العيسى ، الا أنه فى اليوم التالى ، سقطت مدينتا سلامة ويازور ، شرقى يافا ، فى ايدى اليهود ، وحوصرت المدينة تماما ، ومع ذلك ، فقد أصر البريطانيون على فتح الطرق الى يافا من الشرق والجنوب ، وارسلوا دوريات دبابات لفرض هذا المطلب ، وهكذا كان ما يزال بوسع العرب دخول المدينة والخروج منها .

ومستفيدا من هذا الوضع ، ارسل القاوقجى فى اوائل مايو وحدة اخرى من قوات جيش التحرير العربى الى يافا ، بيد انها عندما وصلت لم يكن امامها الكثير لكى تفعله ، اذ كان قد بدا بالفعل هروب جماعى للسكان من المدينة .

وفى ١١ مايو ، بدات اللجنة الاستثنائية العربية المفاوضات مع الهاجاناه ، وفى ١٣ مايو ، استسلمت يافا رسميا ، وآنذاك لم يكن قد بقى فى المدينة غير ٣٫٠٠٠ انسان من السكان العرب الذين كانوا يبلغون ٧٠٫٠٠٠ انسان .

الملاحظات

١ — ناثانيال لورنتش ، حد السيف (نيويورك ، ١٩٦١) ، ص ٨٧ — ٨٨ .

٢ — كان الفيلق العربى آنذاك موزعا بين الولاءات المنقسمة ، لقد كان ما يزال من الناحية الاسمية تحت قيادة بريطانية ، لكن الجنرال جلوب كان يتلقى الأوامر فى الواقع من الملك عبد الله ، وكان يشعر بانه مضطر الى اطاعتها اذا لم تكن متعارضة بشكل مباشر مع التعليمات البريطانية .

وفى حين أن المشاعر البريطانية كانت آنذاك مع العرب عموما ، فان الهجوم على جيشير لم يكن منسجما مع المحاولات البريطانية النزيهة للبقاء على الحياد .

(٤)

الجـــولات الثـــانية

القـــدس

فى المعارك الأولى من اجل الاستيلاء على طريق القدس عند نهاية عام ١٩٤٧ ، كان عدد السكان اليهود فى مدينة القدس الجديدة ، غربى المدينة المسورة العتيقة ، حوالى ١٠٠,٠٠٠ انسان ، وكان هناك حوالى ٢,٥٠٠ يهودى اضافى فى الحى اليهودى الصغير فى المدينة العتيقة ، وكان كل من المجموعتين معزولا عن المنطقة الساحلية التى يسيطر عليها اليهود بأرض عربية تفصل بينهما ، وبحصار عربى فعلى للطرق ، وفى الاشهر الاولى من عام ١٩٤٨ ، كانت الاتصالات المباشرة قليلة بين اليهود فى المدينة العتيقة واليهود فى المدينة الجديدة .

وكانت هناك مستوطنتان يهوديتان شمالى القدس على الطريق الى الى رام الله : عتاروت ونيفى ياكوف ، وكانت هاتان المستوطنتان معزولتان عن القدس ، وعن احداهما الأخرى ، الى حد بعيد ، وبالقرب منهما ، ناحية الشرق ، كانت مستشفى هاداسا والجامعة العبرية على جبل سكوبس معزولتين ايضا عن المدينة الجديدة .

وكان لابد لكل الامدادات الموجهة الى المدينة الجـديدة والمجتمعات اليهودية القريبة من أن تأتى من الساحل على طول طريق تل ابيب ـ القدس ، وهو طريق متعرج ، كان يرتفع عبر منطقة يسيطر عليها العرب تتميز بالمنحدرات الصخرية الشاهقة شديدة الانحدار والممرات الصخرية الضيقة ، وكانت امدادات القدس بالمـاء تجىء من آبار عند راس العين ، على بعد حوالى ١٢ ميلا شرقى تل ابيب ، وكان يجرى ضخه الى المدينة عبر سلسلة من محطات الضخ ، التى كان العديد منها فى ايدى العرب ، وفى حين أن العرب كانوا لم يقطعوا بعد امداد القدس بالمـاء ، خوفا من الانتقـام البريطانى اساسا ، فانهم كانوا قد سدوا فعليا الطريق من تل ابيب .

وفى ابريل ، قررت قيادة الهاجاناه العليا تنفيذ عملية « ناتشون » بهدف فتح الطريق بين القدس وتل ابيب ، وجعله آمنا بالنسبة الى قوافل الامداد ، وقد جرى جمع لواء قوامه ١,٥٠٠ رجل ذى ثلاث كتائب من قيادات المناطق ، وكانت احدى الكتائب مسئولة عن قطاع حولده ـ اللطرون ، وكانت الثانية مسئولة عن منطقة اللطرون ـ كيريات انانيم ، وكانت الثالثة كتيبة احتياطية ، وكانت الخطة تتمثل فى ايجاد ممر يتراوح بين ميل واحد وستة اميال على كل من جانبى الطريق .

وقد جرى شن عملية ناتشون خلال ليلة ٥ ـ ٦ ابريل بغارة ناجحة لكتيبة جيفات ضد مقر قيادة الحسينى ، تحت القيادة الشخصية الليفتنانت كولونيل شيميون فيدان ، قائد اللواء ، وفى القطاع الغربى شقت كتيبـة اخرى طريقها الى قريتى جولده ودير محيسن ، على بعد حوالى ميل من اللطرون ، لكن اليهود قد امروا فى ٧ ابريل بالانسحاب من تلك المواقع التى تم كسبها بصعوبة من جانب القوات البريطانية التى ارادت الطرق حرة لاستخدامها الخاص ، وقد وعد البريطانيون بعدم السماح للعرب بالعودة الى المواقع التى تم الاستيلاء عليها ، وضمنوا سلامة القوافل اليهودية .

ولم تحرز الكتيبة اليهودية العاملة فى اقصى الشرق نجاحا كبيرا كهذا . فقد جرى صدها عن قريتى ساريس وبيت مخسر ، شمالى طريق تل ابيب ـ القدس ، وتمكنت قوة هجوم مضاد عربية من قولونيا من توطيد مواقعها بالقرب من نوتزا ، مهددة بسد الطرف الشرقى للمحور ، لكن هذا النجاح العربى قد وازنه جزئيا الاستيلاء اليهودى على معاقل عديدة جنوبى الطريق ، وخلال ليلة ٦ ـ ٧ ابريل ، تم ارسال قافلة من عربات الامداد الى القدس الجـديدة .

وفى ٧ ابريل ، حدثت سلسلة من الهجمات العربية المضادة ، بقيـادة الحسينى نفسه ، ركزت جهودها الرئيسية ضد الموقع اليهودى الذى تم الاستيلاء عليه حديثا فى تل القسطل ، وبعد يومين من الهجمات ، اضطر المدافعون اليهود الى ترك التل ، وقد لحقت بكل من الجانبين خسائر شديدة فى هذه المعركة ، وكان الحسينى من بين اولئك الذين قتلوا فى ٨ ابريل .

وقد امكن سقوط القسطل العرب من سد طريق تل ابيب ـ القدس مرة اخرى ، ولهذا ، جرى فى ٩ ابريل ارسال وحدة من الهاجاناه لاعادة الاستيلاء على الموقع ، وعندما وصل اليهود ، وجدوا الموقع خاليا ، وعندئذ دخلوه على الفور ، وعند تحركهم الاستطلاعى الحذر الى الشمال ، لم يقابلوا اى مقاومة تقريبا ، وفى الحادى عشر استولوا على قولونيا .

وكنتيجة لمصرع الحسينى على ما يبدو ، تداعت تماما منظمة جيش الخلاص العربى بالقرب من القدس ، وفى غياب قيادة قوية ، انسل المقاتلون العرب الأفراد شيئا فشيئا عائدين الى قراهم .

ومع تحقيق الهدف ، وتلاشى المقاومة العربية ، حلت قيادة الهاجاناه العليا قيادة عملية ناتشون فى ١٥ ابريل .

مذبحـة دير ياسـين :

فى تلك الاثناء (فى ٩ ابريل) يوم اعادة الاستيلاء على القسطل ، كان واحدا من اكثر احداث الحرب مأساوية وخطورة قد وقع ، ذلك أن وحدات

من الأرجون وليهى ، عاملة من القدس تحت القيادة العامة لقيادة الهاجاناه في القدس ، كانت قد كلفت بتحييد العرب شـمال غربي المدينة الجديدة ، وبينما كانت منشغلة بالاستعدادات للمقاومة العنيفة المنتظرة عند اعادة احتلال القسطل ، وافقت قيادة الهاجاناه على خطة للارجون لاحتلال قرية دير ياسين العـربية .

وفي محاولاتهم الأولى للاستيلاء على القرية ، تم صد جنود الأرجون وشتيرن ، وقد طلبوا من وحدة الهاجاناه المجـاورة ، التي كانت تستعد لمهاجمة القسطل ، أن تدعمهم باطلاق نيران المدافع والمورتار ، وتحت غطاء نيران الهاجاناه المساندة هذه شق الجنود الارهابيون طريقهم الى القـرية ، وفي تلك الاثناء اوقفت قوات الهاجاناه نيرانها وتوجهت صوب القسـطل ، وهكذا فانها على ما يبدو لم تر شيئا مما كان يحدث في القرية .

اما ما حدث بالفعل فانه لم يوصف قط بالكامل ، اذ انه لا اولئك الذين شاركوا ، ولا القلائل الذين فروا كانوا قـادرين او راغبين في تقديم رواية موضوعية ، ويبدو أن جنود الارجون وشتيرن قد اصابهم سعار القتل ، ربمـا بسبب غضبهم من المقاومة التي واجهتهم ، وبسبب افتقـارهم الى الانضباط المميز لجنود الهاجاناه ، ولا مبالاتهم بأرواح العرب التي ولدتها نشاطاتهم الارهابية السابقة ، لقد قتلوا كل رجل ، وامرأة ، وطفل عربي وجدوه في القرية ، وقد فر قليلون بالاختفاء ثم الانسلال خـلال الليـل ، لكن معظم سكان القرية ، ٢٤٥ شخصا ، قد ذبحوا ، وقد القى كثير من جثثهم في بئر القرية ، قبل أن ينسحب المهاجمون من مسرح الرعب ، وعندما انتشر خبر هذا الحادث الوحشي ، كان هناك قدر من الاشمئزاز بين غالبية يهود اليشوف ومعظم افراد الهاجاناه مساو تقريبا لذلك القدر الذي كان بين العرب ، لكنه كان حادثا لم ينسه العرب قط ، وربما تكون ذكرى ديرياسين قد سممت العلاقات بين اليهودوالعرب في الشرق الأوسط اكثر مما فعله اي حادث منفـرد آخر .

والعرب على ثقة من ان دير ياسين كانت عملا من أعمال الارهاب الصهيوني المتعمد ، تم ارتكابه بموافقة ، ان لم يكن بتشجيع ، من بن جوريون وقيادة الهاجاناه ويعتقد العرب بأن هدف المذبحة كان يتمثل في اثارة قدر كبير من الخوف بين السكان العرب يدفعهم الى الهرب مذعورين من الأرض. ولا يوجد هنالك دليل مقنع على مثل هذا التستر على الجريمة أو الدافع ، لكن الحادث كان على الأرجح السبب الرئيسي وراء هرب هذا العدد الكبير من العائلات العربية الى البلدان المجاورة في الأشهر التالية كلمـا اقتربت الهاجاناه من ديارهـا .

وقد كان مناحيم بيجين ، قائد الارجون ، عديم الذوق فيما بعد الى درجة التشدق بالاعمال البطولية التي قام بها رجاله في دير ياسين ، وأيضا الى درجة رد الهرب العربي التالي الى هذا الحادث .

العمليـات في القـدس وحولها :

مع اعادة فتح طريق القدس ـ تل ابيب الذي يبلغ طوله ٧٠ كيلومترا. اوكلت مسئولية امنه للبالماخ ، وقد انشئت وحدة جديدة للبالماخ ـ لـواء هاريل ـ تحت قيادة الكولونيل اسحق رابين ، وكانت تتألف من كتيبتين من البالمـاخ ، بالاضافة الى كتيبة من لواء جيفات المجاور .

وعلى الفور ، تحت الحماية الدقيقة من جانب لواء هاريل ، جرى بدء عملية امداد استغرقت ستة ايام عرفت بعملية « هاريل » ، وقد ارسلت ثلاث قوافل ضخمة ، تتألف كل قافلةمنها من ٢٥٠ الى ٣٠٠ عربة ، عبر الجبال من تل ابيب الى القدس ، وقد اثبت هذا الملء الضخم لمستودعات المدينة الجديدة الآخذة في النضوب أهميته البالغة بعد اسابيع قليلة .

وفي تلك الاثناء ، كان اليهود في مستشفى هاداسا والجامعة العبرية المعزولتين علىجبل سكوبس يحافظون علىمواقعهم بعناد،وكانت هناكقوافل امدادات غير منتظمة من القدس قد وصلت الى هذه الأماكن ، بيد انه مع حلول اوائل ابريل كان الطريق عبر قرية الشيخ جرش العربية قد تم سده بالكامل ، لكن البريطانيين اعادوا فتح الطريق واقاموا موقعا صغيرا على تل قريب يسيطر على المواقع العربية في الشيخ جرش ، وقد تمكنت القوافل اليهودية لمدة اسبوعين تقريبا من المرور الى جبل سـكوبس دون اي تحرشـات تقريبـا .

بيد انه في ١٣ ابريل ، جرى ايقاف قافلة يهودية داخلة الى الشـيخ جرش عند متراس ، والهجوم عليها بنيران الأسلحة الصغيرة الكثيفة، وقد تمكنت العربات المدرعة التي كانت تحرس القافلة في بداية الأمر من صـد العرب المحاصرين ، منتظرة نجدة سريعة من جانب البريطانيين .. لكن البريطانيين ، خلافا للتوقعـات ، لم يقوموا بأي خطوة ظاهرة للتدخل.

وهنالك بعض الدلائل على أن العرب كانوا قد ابلغوا البريطانيين سلفا بأن هذا العمل سوف يكون انتقاما من مذبحة دير ياسين ، وبعد حوالي سبع ساعات تم اكتساح دفاعات القافلة اليهودية ، وقتل كل الأشخاص المتواجدين في القافلة ـ وقد ذكر اليهود أن عددهم كان ٧٧ شخصا ، معظمهم من الأطباء والممرضات الذين كانوا في طريقهم الى مستشفى هاداسا ، ومن الواضح ، في ضوء المقاومة الطويلة ، انهم لم يكونوا غير مسلحين .

وفي ١٨ ابريل ، بتشجيع ظاهر من النجاح الذي احرزه العرب ضد القافلة عند الشيخ جرش ، استولى العرب في شـمالي القدس على مستشفى اوجوستا فيكتوريا على السفح الشرقي لجبل سكوبس ، وقرية

العيساوية بالقرب من الجامعة العبرية فى اقصى الغرب ، وقد سهلت هذا النجاح المدفعية التى ارسلها القاوقجى من جنين الى القدس ، ومع اقتراب الانسحاب البريطانى من القدس ، ومع تشكل هجمات عربية اضافية فى المنطقة شمالى المدينة العتيقة ، اصبح الموقعان اليهوديان الاماميان على جبل سكوبس مهددين بصورة شديدة ، بل ان المدينة الجديدة نفسها بدت عرضة للخطر .

وقد قررت قيادة الهاجاناه العليا ارسال لواء هاريل لتعزيز حامية القدس ، وارسل اسحق صادح الى القدس لتولى قيادة القوة الموسعة هناك ، وكان يرافقه فى قافلة من ٣٥٠ عربة غادرت تل ابيب فى ٢٠ ابريل — ديفيد بن جوريون ، رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية . وعند دخول المنطقة الجبلية غربى المدينة ، تعرضت القافلة لكمين على امتداد ميل ، وسرعان ما سدت الطريق العربات التى اصيبت . وقد فشل هجوم مضاد من جانب مجموعة العربات المدرعة اليهودية التى كانت مع القافلة فى تشتيت العرب الذين نصبوا الكمين ، رغم ان القوة النارية المتواجدة مع القافلة كانت من القوة بحيث انها حالت دون اقتراب العرب ، بيد انه عند المساء وصلت تعزيزات من القدس ، وتم تحرير القافلة ، وواصلت تحركها الى المدينة ، وكانت تلك آخر قافلة رئيسية تصل الى القدس من تل ابيب فى ابريل ، فقد سقط الطريق خلف القافلة فى ايدى العرب مرة اخرى ، واصبحت القدس معزولة .

وبالاضافة الى عدد من سرايا وفصائل الدفاع المحلية ، كان متاحا لصالح لواءان من الهاجاناه ، وكان احد هذين اللواءين هو لواء هاريل التابع للبالماخ والذى كان تحت قيادة رابين ، اما اللواء الآخر فكان لواء ايتزيون ، المؤلف من رجال من منطقة القدس . وقد قرر صادح أن يستخدم هذه القوات لتنفيذ عملية كانت تهدف فى آن واحد الى زيادة امن القدس، وانهاء عزلة المستوطنتين المحاصرتين على جبل الكرمل ، عتاروت ونيفى ياكوف ، ولتحقيق ذلك ، اصدر صادح الأوامر لتنفيذ عملية « جيبوسى »، التى اشتملت على الاستيلاء على ثلاثة مواقع رئيسية يسيطر عليها العرب: النبى صمويل الى الغرب ، لاعادة الاتصال مع نيفى ياكوف وعتاروت ، والشيخ جرش الى الشمال ، للاتصال بالمواقع الموجودة على جبل الكرمل ، وقطامون ، الى الجنوب ، لايجاد اتصال راسخ بين القدس الجديدة والمشارف الجنوبية الغربيةوالجنوبية المعزولة فى أغلب الأحيان لريهافيا ، وكيريات شمويل ، وميكور حاييم ، ورامات راشيل ، وتالبيوت .

وقد بدات عملية جيبوسى فى ليلة ٢١ — ٢٢ ابريل بتحرك من البالماخ الى الغرب صوب النبى صمويل ، وبعد بداية مبشرة بالنجاح ، عجز الهجوم عن التقدم ، ونصب العرب كمينا للتعزيزات التى ارسلت لاستعادة قوة الهجوم ثم تفرقت فى منطقة كان البريطانيون قد اعلنوا انها خارج

الحدود ، وتكبدت خسائر شديدة من النيران البريطانية الدقيقة التصويب، واضطر المهاجمون الى الانسحاب ، وظلت عتاروت ونيفى ياكوفمعزولتين .

وبدات المرحلة الثانية من عملية جيبوسى فى ٢٥ ابريل بهجوم علىالشيخ جرش ، وبعد معركة استمرت طوال الليل ، احتل اليهود معظم المدينة ، لكن البريطانيين تدخلوا مرة اخرى ، فقد امروا اليهود بالانسحاب ، حيث ان الشيخ جرش كانت تقع على طول طريق انسحاب الوحداتالبريطانية شرقى جبل الكرمل ، وقد رفض الاسرائيليون فى البداية اطاعة هذا الأمر ، لكن كتيبة مشاة بريطانية مدعومة بالدبابات والمدفعية هاجمتهم فى وقت متأخر من بعد ظهر السادس والعشرين ، وبعد مقاومة قصيرة ، انسحب اليهود من الشيخ جرش وتحرك بعضهم عائدا الى جبل الكرمل، بينما تحرك البعض الآخر الى القدس ، وعندئذ أبلغ القائد البريطانىالقائد اليهودى بانه لن يسمح للقوات العربية بالعودة الى الشيخ جرش ، وحتى انقضاء الانتداب ، كان بوسع القوافل اليهودية المرور دون مضايقات الى جبل الكرمل .

وهكذا ، ففى حين ان العملية لم تنجح من الناحية العسكرية فانها قد حققت هدفها ، وبعد رحيل البريطانيين ، عاد اليهود على الفور لاحتلال الشيخ جرش .

وفى ٢٨ ابريل ، حاول اليهود من اجل تحسين امن مواقعهم على جبل الكرمل ، اعادة الاستيلاء على مستشفى أوجوستا فيكتوريا ، وشن لواء هاريل تحت قيادة رابين الهجوم ، لكنه فشل فى تحقيق مفاجأة ، وتمكن المدافعون العرب اليقظون من دفعه ، لكن اليهود كانوا قد تمكنوا خلال العملية من احتلال طريق القدس — اريحا المجاور لمدة قصيرة ، وقد نسفوا العديد من المنشآت العربية على الطريق قبل انسحابهم .

وفى اليوم التالى (٢٩ ابريل) بدات المرحلة الثالثة من عملية جيبوسى وتحركت كتيبة اخرى من كتائب هاريل جنوبا ضد قطامون ، حيث كان الهدف الرئيسى هو احتلال دير سان سيمون التابع للأرثوذكس اليونانيين، والذى كانت تحتله قوة من الجنود العراقيين غير النظاميين التابعين لجيش التحرير العربى ، وقد استولت قوات هاريل على الدير خلال الليل ، بعد معركة قصيرة ، لكن واجهت فى الصباح التالى سلسلة من الهجمات المضادة الضاربة من جانب العراقيين وعربا آخرين ، وبصعوبة شديدة، وبالرغم من الخسائر العديدة ، صمد اليهود فى الدير ، وتم تأمين الموقع عندما وصلت كتيبة من كتائب ايتزيون فى وقت مبكر من المساء .

وفى اليوم التالى ، ١ مايو ، تمكن اليهود ايضا من تأمين موقعهم فى قرية شمويئيل المجاورة ومن استعادة الاتصال مع ميكور حاييم ، لكن العملية اوقفت خلال النهار ، عندما فرض البريطانيون هدنة على كل من الجانبين .

عملية « المكابى » :

فى ٩ مايو شن اليهود محاولة جديدة لاعادة فتح طريق القدس — تل ابيب ، وكان هدف عملية « المكابى » هو احتلال مركز المقاومة العربية حول قريتى بيت محسر واللطرون ، وقد صدرت الأوامر للواء هاريل بالعمل على طول الممر من القدس فى الشرق ، بينما كان على لواء جيفات ان يتقدم من الرملة فى الغرب ، وقد بدأت المحاولة الرئيسية فى ٩ مايو من جانب وحدة من لواء هاريل ، حاولت الاستيلاء على بيت محسر ، وقد تكبد المهاجمون خسائر شديدة من المدفعية العربية فى التاسع والعاشر وفشلوا فى الاستيلاء على القرية ، لكن قوات هاريل نجحت فى ١١ مايو فى الاستيلاء على الطريق المطل على بيت محسر ، وفى وقت مبكر من الصباح التالى ، استولت على القرية نفسها .

وفى ١٢ مايو ، تحركت قافلة مدرعة من حولداه لحراسة اجزاء الطريق التى فتحها الاستيلاء على بيت محسر ، وليس من الواضح لماذا جرى ذلك ، لان القوات البريطانية كانت ماتزال تحرس الطريق ، وكان العرب مايزالون يسيطرون على دير ايوب واللطرون .

وبينما كانت القافلة تمر بتلك المواقع قابلتها واوقفتها نيران كثيفة ، غير منسقة من الأسلحة الصغيرة والمدافع من جانب البريطانيين ، ومن جانب وحدات جيش التحرير العربى وجيش الخلاص العربى ، وقد اصيبت عربات كثيرة وتوقفت ، ولم يكن بالامكان اجلاء الناجين الا بعد هبوط الليل ، وفى تلك الليلة ، اعادت القافلة المدرعة تنظيم نفسها بالقرب من اللطرون وانضمت اليها ثلاث سريات من لواء جيفات .

وفى الصباح التالى ، قبل أن تتمكن هذه القوة المشتركة من المشاة والمدرعات من استمرار عملياتها المخططة ، تعرضت لقصف كثيف من جانب كل من وحدات جيش التحرير العربى والقوات البريطانية التى كانت ماتزال تحتل نقطة بوليس اللطرون ، وبعد ان تكبد اليهود خسائر شديدة ، انسحبوا الى الغرب ، بعد أن فشلوا تماما فى فتح الطريق .

وفى اليوم التالى (١٣ مايو) كلف الكولونيل افيدان ، قائد لواء جيفات، بتحمل المسئولية عن تنفيذ عملية المكابى ، وقد بدأ على الفور بخطة لتنفيذ حركة تطويق واسعة الى الغرب ، لقطع طريق الرملة — اللطرون ، وخلال ليلة ١٣ — ١٤ مايو ، استولت قوات افيدان على قرية أبو شوشة المحصنة ، وبحلول مساء ١٤ مايو ، بعد الاستيلاء على قريتين آخريين ، هددت قوات جيفات بعزل ومحاصرة العرب فى اللطرون .

وهكذا ، فمع حلول مساء الرابع عشر ، اليوم الأخير للانتداب البريطانى ، كانت كل من اللطرون ودير أيوب على وشك السقوط ، وسوف يسمح ذلك باستئناف المواصلات على طول الطريق الى تل أبيب من القدس.

المعركة من اجل « كتلة » ايتزيون :

فى تلك الاثناء ، كانت الحامية المحاصرة لما يسمى بكتلة ايتزيون ، التى تتالف من اربع مستوطنات يهودية جنوبى القدس ، ماتزال فى وضع خطير. وكانت القرى تحت الحصار لأسابيع عديدة ولم تكن تحصل على امدادات الا عن طريق الجو ، وكان يجرى اسقاط بعضها الى المستوطنين بالمظلات، وكان بعضها الآخر يهبط بطائرات خفيفة على ممر الكتلة الجوى الخطر للغاية .

وخلال ابريل ، كان الجنود غير النظاميين العرب المحليون المحاصرون للكتلة قد ازدادوا قربا ، لكنهم لم يشنوا غير هجومين خفيفين فى ٤ و ١٢ ابريل ، ومن ناحية اخرى ، كان اليهود فى المستوطنات مصدر ازعاج تام للسيارات العربية المتحركة على طول طريق الخليل ، فقد كانوا يتعقبون السيارات بنيران الأسلحة الصغيرة ويهاجمون القوافل .

وكانت الحامية تتالف من حوالى ٣٨٠ من المستوطنين الذكور والاناث، الذين عززتهم فصيلة من البالماخ ، وسرية من هيش — قصار العدد الاجمالى حوالى ٥٠٠ مقاتل .

وفى بداية مايو كثف اليهود ملاحقتهم للسيارات العربية على طريق الخليل ، وكقاعدة ، استخدمت القوات اليهودية ديرا روسيا كان فى منتصف الطريق بين الطريق الرئيسى والكتلة ، وقد رأى البريطانيون ، الذين كانوا يرغبون فى المحافظة على فتح خطوط المواصلات بين القدس والخليل ، أن هذه النشاطات التعقبية اليهودية لا يمكن السكوت عليها ، وبناء على ذلك ، فقد ارسلت سريتان من الفيلق العربى ، الذى كان مايزال تحت قيادة بريطانية ، لطرد اليهود من الدير ، ولاعادة فتح خطوطالمواصلات على طريق القدس — الخليل .

وفى ٤ مايو ، شنت قوة الفيلق العربى ، المعززة بوحدة بريطانية صغيرة والمشاة العرب المحليين غير النظاميين ، هجوما عاما على ثلاث قرى من الكتلة — جوش ايتزيون ، وكفار ايتزيون ، وسودير — والدير الروسى ، وخلال النهار ، استولى العرب على الدير ، لكن اليهود استولوا عليه من جديد تلك الليلة .

وكانت الخسائر شديدة بين كل من الفريقين ، لكن العرب كانوا راضين لانهم — وان كانوا قد فشلوا فى الاستيلاء على اى من المواقع اليهودية الرئيسية ، فانهم قد ازالوا المواقع الأمامية ومتاريس الطرق اليهودية .

ومن ناحية اخرى ، فان الخسائر التى تكبدها اليهود خلال القتال فى ٤ مايو ، الى جانب انه لم يكن بوسعهم توقع اى نجدة من الحصار العربى المتصل ، قد اثرت على روحهم المعنوية تأثيرا شديدا .

وبما ان الفيلق العربى كانت لديه أوامر بأن يكون شرقى الأردن قبل

١٤ مايو فقد قرر العرب القيام قبل ذلك بهجوم أخير على كتلة ايتزيون . وقد وقع الهجوم فى ليلة ١١ — ١٢ مايو ، وكانت الأهداف الرئيسية هى مستوطنة كفار ايتزيون الأقدم ، وشريط الهبوط فى وسط الكتلة ، وبينما كانت هذه العملية جارية ، تعرض الدير لنيران المدفعية الثقيلة ، ومدافع المورتار ، واذ وجدت نفسها على وشك العزل انسحبت الفصيلة المدافعة عن الدير الى كفار ايتزيون — بعد ان هبط عددها الى ثمانية رجال جرحى فقط من بين قوة أصلية قوامها ٣٢ رجلا ، وبعد قتال ضار فى الثانى عشر وليلة ١٢ — ١٣ ، نجح العرب فى عزل كل من المستوطنات المنفردة الاربع .

وفى وقت مبكر من الثالث عشر ، نجح الفيلق فى التغلغل الى وسط كفار ايتزيون ، وحاول قائد المنطقة الاسرائيلى الاستسلام ، رافعا علما ابيض ، وقد اوقفت قوات الفيلق الموجودة قرب العلم الأبيض النيران ، لكن الجنود غير النظاميين العرب الأخرين فى الأقسام الأخرى من المستوطنة واصلوا اطلاق النار ، وسرعان ما اكتسحوا كفار ايتزيون بالكامل ، وقتلوا معظم الرجال ، والنساء ، والأطفال .

وهكذا الحادث ، جنبا الى جنب مع بعض الأماكن التى تم الاستيلاء عليهـا ، قد قدمت اساسا لادعاء يهودى : بان القادة العرب كانوا قد أمروا بتدمير القرى وذبح سكانها . ولكن ، خلال فترة بعد الظهر ، جرت فى القدس مفاوضات من أجل استسلام المستوطنات الثلاث الأخرى بمساعدة الصليب الأحمر الدولى ، وعلى أساس الشروط التى تم الاتفاق عليها ، نقل العرب فى الرابع عشر السكان الناجين من كتلة ايتزيون ، وتم ارسال الجرحى الى بيت لحم ، بينما جرى ارسال الباقين الى الخليل كاسرى .

الجلاء البريطانى :

وفى وقت مبكر من ١٤ مايو ، انسحبت آخر القوات البريطانية من القدس ، ووفقا لخطط الهاجاناه المعدة سلفا من اجل عملية « المذراه » استولى اليهود على المناطق الواقعة داخل القدس ، وحولها ، التى انسحب منها البريطانيون ، وكانت المسئولية عن هذه العملية قد انيطت بلواء ايتزيون، الذى احتل أيضا القطاع البريطانى فى وسط المدينة ، المعروف باسم « بيفينجراد » ، كما تم الاستيلاء على فندق الملك داود المجاور وجرى ايجاد اتصال مع مستوطنة يمن موشيه .

واستولى العرب على قاعدة اللينبى العسكرية ، ومكتب الطباعة الحكومى ، ومحطة السكك الحديدية ، وشن لواء ايتزيون الهجوم ، وبعد ساعات ليلة من القتـال ، طرد العرب من هـذه المواقع ومن منطقة ابو طـور .

وبينما كانت كل هذه الأحداث جارية ، جرى احتلال دير نوتردام من جانب قوات الهاجاناه ووحدة من ليهى عاملة فى ظل اوامر من الهاجاناه . وهكذا تهيأ المسرح لمعركة جديدة .

(٥)

التقاء الجيـوش العربيـة

الأهـداف العربيـة

فى يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ ، غـادر البلاد الجنرال السير الان كوننجهام ، المندوب السامى البريطانى الأخير فى فلسطين ، فقد انتهى الانتداب البريطانى فى منتصف الليل ، وبعد ظهر اليوم نفسه ، قبل راحة يوم السبت مباشرة ، اعلن المجلس القومى اليهودى ، أو المجلس الصهيونى العام ، فى تل ابيب استقلال دولة اسرائيل ، اعتبارا من منتصف الليل ، وعين ديفيد بن جوريون رئيس وزراء للحكومة المؤقتة .

ومن الناحية الفعلية ، لم يكن ذلك يعنى اى تغيير ، سواء فى تل ابيب او مناطق فلسطين الخاضعة للسيطرة اليهودية ، لقد كان بن جوريون يعمل لشهور بوصفه رئيس وزراء لدولة « **قائمة فعلا** » ، وفى ١٤ مايو كان لهذه الدولة فى الميدان جيش قوامه حوالى ٤٠ر٠٠٠ جندى معبئين متفرغين ، منظمين فى اثنى عشرة لواء ، وكانت الأسلحة ، بما فى ذلك الطائرات ، تصل عبر البحار بمعدل سريع ، وفى حين انه لم يكن هناك الضمان لبقاء دولة اسرائيل الجديدة فى ضوء المواقف التهديدية من جانب الدول المجاورة ، فانها قد كانت ، آنذاك على الأقل ، قادرة على الحياة ومزدهرة بالفعل عندما ظهرت الى الوجود رسميا .

وداخل فلسطين كان هنالك تهديدان لبقاء اسرائيل ، ولم يكن اى منها خطيرا ، وربما كان لدى جيش التحرير العربى تحت قيادة فوز الدين القاوقجى ١٠ر٠٠٠ رجل كقوة اجمالية له ، وحوالى ٦ر٠٠٠ رجل متواجدين فعلا فى الجزء العربى من فلسطين . وكان هؤلاء يتالفون من حوالى ٢ر٥٠٠ سورى و ٢ر٥٠٠ عراقى و ٥٠٠ لبنانى ، وحفنة من المسلمين اليوغوسلاف، وكان هناك بالاضافة الى ذلك عدد من جماعات جنود جيش الخلاص العربى غير النظاميين العرب المنتشرين فى أرجاء البلاد ، وهناك ايضا ٥٠ر٠٠٠ عربى فلسطينى على الأقل جاهزين للدفاع المحلى ، لكن القوة الفعليـة لوحدات جيش الخلاص العربى الفدائية كانت تتراوح بين ٥ر٠٠٠ و ١٠ر٠٠٠ رجل ، لكن مصرع محمد الحنيطى وعبد القادر الحسينى كان قد انهى اى تماسك او تلاحم داخلى بين الوحدات المقاتلة الفلسطينية .

وحتى حلول ١٤ مايو ، كانت اللجنة العسكرية للجامعة العربية قد فشلت فى تسوية خلافاتها الداخلية من اجل انشاء قيادة عليا متعددة أو

تحديد استراتيجية موحدة ، لقد تولى الملك عبد الله ، ملك شرق الاردن ، منصب القائد العام للجيوش العربية المتحدة ، لكن ذلك كان فى واقع الامر لقبا دون دور ، اذ ان الأعمال العسكرية لكل بلد كانت تحكمها السياسات القومية المتعارضة اكثر مما كانت تحكمها اى خطة عسكرية مشتركة منسقة.

بيد انه كانت هناك خطة من نوع معين ، كانت فى واقع الأمر نوعا من تحديد متفق عليه بشكل متبادل لدعاوى كل بلد من البلدان الغازية .

لقد كان على القوة اللبنانية ان تتقدم على طول الساحل من الناقورة الى نهاريا . وكان على السوريين ، بعد ان يعبروا نهر الأردن مرورا ببحر الجليل ، ان يشنوا الهجوم من اجل الاستيلاء على زيماخ .

اما القوة العراقية فكان عليها ان تتحرك من منطقة تجمعها غربى اربد فى شرق الأردن لاقامة جسر عبر نهر الأردن جنوبى بحر الجليل ، ثم التقدم الى ناتانيا على الساحل .

وكان للأردنيين هدفان : ان يستولى احد الوية الفيلق العربى على نابلس فى وسط السامرة ، وان يتقدم لواء ثان الى الرملة فى السهل الساحلى الأوسط ، بينما يظل اللواء الثالث لواء احتياطيا ، كما كان للمصريين — الذين اتخذوا من العريش قاعدة لهم على ساحل سيناء الشمالى — هدفان : ان تتقدم القوة الرئيسية على طول الطريق الساحلى، بدعم بحرى اذا لزم الأمر ، للاستيلاء على غزة والاستعداد للتقدم شمالا صوب تل ابيب ، وان تشهد القوة الأخرى — « متطوعو » عبد العزيز — الهجوم فى الشمال الشرقى عبر سيناء العليا خلال العوجة وبئر سبع للاستيلاء على الخليل .

وطبقا لهذا الاتفاق العام — لأن من الخطأ تسميته خطة — عبرت خمسة جيوش عربية فى ١٥ مايو حدود فلسطين فى غزو متناغم ، ان لم يكن منسقا . وقد بدأ الغزو بهجوم مصرى على تل ابيب ، وطوال الأيام الخمسة والعشرين التالية ، انهمكت الهاجاناه فى جهد مستميت لمواجهة هذه الغزوات الخمس كلها ، التى كان بوسع اى منها — اذا ماكتب لها النجاح — ان تدمر دولة اسرائيل الجديدة .

ومن السهل اغفال قوة الغزاة الذين لا يوجد تنسيق بينهم ، لأنهم ، باستثناء واحد ، كانوا ضعفاء وذوى تدريب سىء وتنظيم ردىء ، ومن ناحية اخرى ، فان التقدم المركز لخمس قوى ، الى جانب المساعدة التى كانت تحصل عليها من جيش التحرير العربى تحت قيادة القاوقجى والأفواج العربية المحلية ، كان يمثل تهديدا خطيرا بالفعل : فالهاجاناه ، التى كانت من حيث قوتها العددية تماثل القوة العددية المشتركة لأعدائها تقريبا ، كانت دونهم بصورة خطيرة من حيث عتادها العسكرى ، ولقد كان لدى كل من الغزاة مدفعية وفيرة ومجموعة متنوعة من المركبات المدرعة التى تتراوح من العربات المدرعة الى الدبابات الحديثة .

القوات والحشود الاسرائيلية :

ليست هنالك احصاءات دقيقة لقوات دولة اسرائيل الجديدة التى جرت تعبئتها(١) ، ويبدو انه كان هناك حوالى ٤٠٫٠٠٠ جندى يهودى جاهزين للقتال فى تسعة الوية عاملة ، مع ثلاثة الوية اخرى فى مختلف مراحل التشكيل ، وكان وضع هذه الوحدات كما يلى :

كانت هناك ثلاثة الوية تابعة للبالماخ ، فى كل منها حوالى ٢٫٠٠٠ رجل ، وكان لواء يفتاح فى الجليل الشرقى ، يواجه سوريا الى الشرق، ولبنان الى الشمال الغربى ، أما لواء هاريل فكان فى ممر القدس ، بينما كان اصغر هذه الالوية ، لواء النقب ، او لواء هانجف ، الذى يبلغ قوامه حوالى ١٥٠٠ رجل ، مسئولا عن امن مستوطنات النقب الاسرائيلية شبه المعزولة ، غرب وشمال غرب بئر سبع .

كما كانت هناك تعبئة كاملة لخمسة الوية تابعة لهيش ، وكان لواء جولان ، المؤلف من ٢٫٢٣٨ رجلا فى الجليل الجنوبى ، حيث تركز بشكل عام بين الناصرة وجنين ، وفى اقصى الغرب ، فى منطقة حيفا — عكا ، كان لواء كرمل ، المؤلف من ٤٫٠٩٥ رجلا ، كان يسيطر على الشريط الضيق من الأراضى الواقعة تحت السيطرة اليهودية على طول الساحل بين تل ابيب وحيفا جنود لواء الكسندرون المؤلف من ٣٫٥٨٨ رجلا .

اما لواء كيريات ، المؤلف من ٢٫٥٠٤ رجال ، فكان شمال وشمال شرق تل ابيب ، وكان لواء جيفات المؤلف من ٣٫٢٢٩ رجلا شرقى وجنوب شرقى تل ابيب ، حيث كان يحافظ على فتح المداخل الغربية الى ممر القدس ، وكان فى القدس نفسها لواء ايتزيون ، المؤلف من ٣٫١٦٦ رجلا(٢).

وتورد يوميات بن جوريون القوات الاضافية التالية التى كانت جاهزة فى ١٥ مايو : فرع التدريب ، ٣٩٨ ، السلاح الجوى ، ٦٧٥ ، المدفعية ، ٦٥٠ ، المهندسون ١٥٠ ، الشرطة العسكرية ، ١٦٨ ، وحدات النقل ، ١٠٩٧ ، والمجندون الجدد فى دور التدريب ، ١٫٧١٩(٣) .

ويبدو ان معظم هؤلاء المجندين الجدد فى دور التدريب كانوا افرادا فى اللواء السابع الذى انشىء حديثا ، والذى كان من المقرر أن يكون وحدة ميكانيكية ، وهذا اللواء ، الذى كان تحت قيادة الكولونيل شلومو شامير ، كان لديه كادر من قدامى المحاربين ، وكان على وشك أن يكون لواء عاملا. وقد ارسل لكى يرابط بالفعل غربى ممر القدس ، وجنوبى لواء جيفات مباشرة ، كما كان تحت الانشاء فى وسط اسرائيل اللواء الثامن ، الذى كان من المخطط له أن يكون وحدة مدرعات ، وتحت قيادة اسحق صادح ، وكان هذا اللواء يتألف من كتيبة مشاة من اعضاء سابقين فى ليهى ، وكتيبة دبابات ، بسريتى دبابات من ١٣ دبابة مختلطة فرنسية ، وبريطانية ،

وامريكية كانت فى البحر وفى الطريق الى اسرائيل بالفعل ، وكتيبة كوماندوز من راكبى سيارات الجيب (سرعان ماوضعت تحت قيادة الميجور موشيه دايـــان) .

ومع حلول ١٥ مايو ، ربما كان لدى هذه الوحدة حوالى ١٥٠٠ رجل فى دور التدريب ، كما كان يجرى فى الشمال تجميع وتدريب لـــواء جديد اسمه لواء عوديد ، وربما كان قد توفر لديه بحلول ذلك الوقت حوالى ١ر٥٠٠ رجل ايضا .

ولا تشتمل ارقام بن جوريون على قوات الامداد او القيادة والتى لابد انها كانت تؤلف فى مجموعها ٥ر٠٠٠ رجل على الأقل من الجنود والضـــباط العاملين الآخرين ، وبالاضافة الى هذه القوات التى تتراوح بين ٣٠ر٠٠٠ و ٤٠ر٠٠٠ رجل ميدانيين معبئين ، كان هنالك ١٠ر٠٠٠ رجل على الاقل من جنود الحرس الداخلى المسجلين الاضافيين تحت تعبئة جزئية ، وجاهزين لأغراض الامن المحلى ، وقابلين ايضا للاستخدام فى العمليات الميدانية فى مناطقهم المحلية .

كما تتضارب المصادر فى تحديد قوائم الأسلحة المتاحة امام هـــذه القوات ، الا انه ، دون حساب المجموعات غير المتجانســـة من الأسلحة الصغيرة العتيقة ومدافع المورتار التى كانت وحدات الحـــرس الداخلى مسلحة بها ، يبدو ان قائمة اسلحة القوات الميدانية كانت كما يلى على وجه التقـــريب :

لقد كان هنالك حوالى ٣٣ر٠٠٠ قطعة من اسلحة المشاة الصغيرة، كان من بينها حوالى ٢٢ر٠٠٠ بندقية متعددة الأعيرة ، و ١١ر٠٠٠ بندقية رشاشة (منتجة محليا فى معظمها) ، وكان هنالك ١ر٥٥٠ مدفعا خفيفا ومتوسطا ، و ٨٧٧ مدفع مورتار ، كلها بريطانية تقريبا ، منها ١٩٥ من عيار ٣ بوصـــة ، وكانت البقية من عيار ٢ بوصـــة .

وكان هنالك ٨٦ سلاحا يدويا مضادا للدبابات ، معظمها من الطراز البريطانى (وهو عبارة عن نسخة بريطانية غير صاروخية غير متقنـــة من « البازوكا ») ، وكانت البقية غير مؤثرة نسبيا ، كما كانت هنالك خمسة مدافع هادزر فرنسية عتيقة عيار ٦٥ مم ، وصـــلت حديثا الى اسرائيل ، بعد افلاتها من الحصار البريطانى ، اما مدى تدم هذه الأسلحة فهو يتضح من حقيقة ان الجيش الفرنسى كان قد استعاض عنها قبل ذلك بخمسين سنة بموديل ١٨٩٧ الشهير « فرنش ٧٥ » ، وبالاضـــافة الى ذلك ــ كما اسلفنا الاشارة ــ فقد كان من المقرر ان تصل على وجـــه السرعة ١٣ دبابة عن طريق البحر الى تل ابيب(٤) . كما كانت هنالك حفنة من العربات المدرعة المصنوعة صناعة غير متقنة ، وكانت تتركز فى معظمها فى اللواءين الجديدين السابع والثامن .

وبالموازنة بين مصادر قوتها ومسئولياتها ، فان اداء الهاجاناه بهذه الأسلحة فى الأسابيع القليلة القادمة سوف يثبت جدارته الفائقة ، ورغم بعض اخطـــاء « التعـــلم » .

الجبهة اللبنانيـــة :

فى تجنب حكيم لامكانية الانعزال عن الجيوش العربية الاخـــرى ، واستجابة « للأوامر » الصادرة من عبد الله ، ملك شرق الأردن ، قرر اللبنانيون القيام بتحركهم الاولى الى فلسطين عبر تقدم ضد الوجهة الغربية لطرف الجليل الذى يمتد شمالا من وادى الأردن ووادى الحولة الى دان . وكانت تلك هى الحالة الوحيدة التى اتبعت فيها العمليات العربية خطـــة شاملة ، وضعت الاسرائيليين تحت الضغط بشكل متزامن من جبهتين ، اذ كان السوريون يعبرون نهر الأردن الى الجانب الشرقى لذلك الطرف ، الذى يبعد عدة اميال قليلة الى الشرق والجنوب الشرقى .

وكان طريق الغزو اللبنانى هذا يقع عبر قرية المالكية العربية ، ولما لوحظ حشد القوة اللبنانية ، وتوقعا لتقدمها ، شنت كتيبة من البالماخ من رامات نفتلى القريبة خلال ليلة ١٤ ــ ١٥ مايو ، هجوما ضد المالكية وقادتى، ومع حلول الصباح كانت قد احتلت كلا منهما ، بيد ان اللبنـــانيين شـــنوا بعد الفجر بقليل هجوما مضادا فى اتجاه الشرق عبر الحدود ضد المالكية بدعم من مدافع المورتار ، واجبروا الاسرائيليين على التراجع بعـــد ان أصيبوا بخسائر فادحة ، وفى تقدمهم القوى عبر الحدود ، احتل اللبنانيون القرية ، ثم بداوا فى المناورة لتهديد قادش المجاورة ، وادراكا لاستحالة صمود ذلك الموقع ، تركت قوات البالماخ قادش فى اليوم التالى ، وسرعان ما استولى اللبنانيون على تلك المدينة ايضا ، وبشـــعور الارتيـــاح التـــام لنجاحين فى غضون يومين على الأرض الفلسطينية ، أوقف الجيش اللبنانى تقدمه وعزز مواقعه على بعد عدة اميال قليلة داخل فلسطين .

ودون ان يكون الاسرائيليون قد علموا بعد ان التقدم اللبنانى قد توقف ، استولوا اخيرا ، فى ليلة ١٧ ــ ١٨ مايو ، على موقع البوليس عند النبى يوشع وبداوا فى تنظيم هذه المنطقة والمنطقة المجاورة لسد الطريق من قادش الى وادى الحولة .

وفى تلك الأثناء ، كان الاسرائيليون قد بداوا يستعدون فى الغـــرب والجنوب الغربى لمواجهة احتمال تقدم لبنانى على امتداد السهل الساحلى. وكان العرب يسيطرون على مدينة عكا ، الميناء الواقع على البحر ، عبر الخليج من حيفا ، ولم تكن حامية عكا تمثل تهديدا لحيفا وحسب ، بل كانت تقع بينها وبين نهاريا التى يسيطر عليها اليهود ، والتى تعد المدينة الهامة الأولى على طريق الغزو المحتمل ، ومن ثم قررت قيادة الهاجاناه العليـــا الاســـتيلاء على عكا .

ان مدينة الصليبيين العتيقة ، المحاطة بسور قديم ، شامخ ، كان قد اعيد بناؤه وتحديثه مرات عديدة يحميها ، علاوة على ذلك موقعها على نتوء يمتد داخل البحر ، اما الأسوار ، التي من شأنها ان تكون عقبة تافهة امام جيش حديث مجهز بمدفعية مناسبة ، فقد كانت عقبة رئيسية امام اى هجوم من جانب الهاجاناه ولقد كانت تحرسها جيدا حامية من الجنود العرب غير النظاميين ، والى الشمال ، على الساحل الممتد خلف السور مباشرة ، كان هنالك موقع بوليس محصن تسيطر عليه قوة عربية اخرى .

وفى ١٥ مايو ، هاجم الكولونيل موشيه كرمل عكا بلواء كرمل الذى كان تحت قيادته ، وقد استولت احدى القوات على « تل نابليون » ، شرقى المدينة ، بينما استولت قوة اخرى فى الشمال الغربى على قرية السامرة ، شمال شاق تسيون ، وعلى قريتين شمالى نهاريا .

وفى اليوم التالى ، قامت القوة الرئيسية للواء كرمل ، بدعم من مدافع المورتار من تل نابليون ، بالهجوم والاستيلاء على موقع البوليس شمالى المدينة ، ونصبت مدافع المورتار بسرعة هناك ، وفى ارتباط مع المدافع الموجودة على تل نابليون ، بدات تقصف اسوار المدينة الشمالية والشرقية ، وبعد ساعات قليلة من هذا القصف ، اوفد رسول تحت راية هدنة الى عكا للمطالبة باستسلام الحامية .

وكان الواضح للعرب فى عكا انهم قد اصبحوا معزولين تماما حيث ان الاسرائيليين كانوا قد حالوا بصورة تامة دون اى امكانية لدعم من الشمال او الشرق ، وفى صباح السابع عشر ، استسلمت الحامية ، وسقطت عكا فى ايدى الاسرائيليين .

ورجوعا الى جبهة المالكية ، بعد ان كان اللبنانيون قد ظلوا دون حراك لمدة اسبوع ، قرر الكولونيل شمويل كوهين ، قائد لواء يفتاح ، شن الهجوم ، وكانت خطته تتمثل فى افتعال هجوم ظاهرى على قريتى النبى يوشع وقادش من الجنوب ، مع مهاجمة المالكية من المؤخرة عبر لبنان ، وفى ليلة ٢٨ — ٢٩ مايو ، ارسل قوة من العربات المدرعة والمشاة راكبى السيارات ، حيث تحركت دون اضواء عبر الحدود من المنارة لكى تصل الى طريق مواز للحدود غربى المالكية .

وقد واجهت القافلة شمالى المدينة وحدة صغيرة من اللبنانيين الذين فوجئوا تماما وتم صدهم بسهولة ، وقد نبهت ضوضاء هذا الاشتباك اللبنانيين فى المالكية ، بيد انهم قبل ان يتمكنوا من تنظيم انفسهم بصورة مناسبة للدفاع ضد الهجوم المفاجىء ، فهاجمهم الاسرائيليون فى مؤخرتهم ، وسقطت المدينة بعد معركة قصيرة ، كما ترك قادش اللبنانيون ، وانسحبوا بالكامل وراء حدودهم .

واثر هذا النجاح ، جرى تحويل لواء يفتاح الى الجبهة المركزية ، حيث كانت هنالك حاجة ماسة الى تعزيزات لمواجهة تهديد الفيلق العربى للقدس ، وكان على لواء عوديد الجديد ، او اللواء التاسع ، تحت قيادة الكولونيل اورى يوفى ، ان يحافظ على الدفاع فى الشمال .

وعندما حدث هجوم مشترك من جانب اللبنانيين وجيش التحرير العربى ، والسوريين على المالكية فى ٦ يونيو ، فوجىء به لواء عوديد ، لكن القوات المهاجمة ، التى تساوى قوتها قوة لواءين تقريبا ، قد عرقلتها بصورة خطيرة حقول الالغام التى كانت قوات يفتاح وعوديد قد غرستها حول المالكية ، وقد زعزعت هذه العقبة بصورة شديدة اصرار قوات جيش التحرير العربى والقوات السورية على مواصلة الهجوم ، لكن اللبنانيين ثابروا ، ومع حلول مساء السادس استولوا على المدينة للمرة الثانية .

وبتشجيع من هذا النجاح ، اندفعوا الى الامام واحتلوا رامات نفتلى وقادش فى اليوم التالى ، وقد ادى ذلك الى فتح الطريق الى وادى الحولة جنوبا ، وبينما نظم اللبنانيون مواقعهم التى ظفروا بها حديثا ، اندفع جيش التحرير العربى الى الجليل الأوسط ، وكان ذلك نجاحا عربيا هاما .

الجبهة السورية :

فى يوم الجمعة ١٤ مايو ، كان لواء المشاة السورى الاول ، بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم ، فى جنوب شرقى لبنان ، متأهبا لشن هجوم فى اتجاه المالكية ، وقد صدرت الأوامر فى ذلك اليوم للعقيد الحكيم بالعودة الى سوريا ، والتحرك جنوبا عبر الجولان ، والتقدم الى فلسطين جنوبى بحيرة طبرية ، نحو قرية سمخ العربية التى كانت قد تركت .

وبناء على هذه الأوامر ، بدأ الحكيم تقدمه عبر الحدود القديمة فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت ، رغم انه لم يكن معه غير كتيبتين من كتائبه ، ورغم ان كل رجاله كانوا مرهقين تماما ، وبما ان الاسرائيليين كانوا قد توقعوا على ما يبدو ان يتم التحرك السورى الرئيسى شمالى البحيرة ، فلم تكن هنالك وحدات متحركة تابعة للهاجاناه فى تلك المنطقة ، ولكن كان هناك موقع دفاعى محصن صغير بالقرب من سمخ ، وقد سارع هذا الموقع الى اطلاق النيران على السوريين المهاجمين وايقافهم بعد وقت قصير من قيامهم بعبورهم .

وكانت تدعم كتيبتى المشاة المهاجمتين التابعتين للعقيد الحكيم ، كتيبة عربات مدرعة ، وسرية من الدبابات ، فى حين أن فوجا من المدفعية كان يقدم دعما من مرتفعات الجولان .

لقد كانت قوة الحكيم اكثر من كافية لاكتساح أو لمجرد تجاوز القوة الاسرائيلية الصغيرة قرب سمخ ، لكن الجنود السوريين كانوا عديمي الخبرة ، كما كانوا متعبين ، وقد اكتفوا بالرد على النيران الاسرائيلية ، وطوال النهار وخلال الليل ، اطلقت المدفعية السورية نيرانها بشكل متقطع على موقع سمخ كما ضايقت عين جيف ، المستوطنة اليهودية الوحيدة على الشاطيء الشرقى لبحيرة طبرية .

وفى صباح ١٦ مايو ، تعرضت سمخ والمستوطنات الأخرى فى وادى الأردن للهجمات الجوية السورية ، بينما استمر القصف المدفعى ، وبدات سريتان سوريتان فى وقت متأخر فى تطويق الوحدات الاحتياطية الاسرائيلية القادمة من طبرية ، وتقدمت سرية سورية اخرى ، مدعمة بالعربات المدرعة ، نحو مستوطنتى : ماسادا وشعر هايولان ، لكن المستوطنين تمكنوا من صد هذه الهجمات ، وصمد السوريون ، بينما واصلت طائراتهم ومدفعيتهم القصف المتقطع للمواقع والمستوطنات اليهودية .

وفى فترة مبكرة من صباح ١٨ مايو ، جدد اللواء السورى الأول — الذى انتقلت قيادته الى العميد حسنى الزعيم — عملياته ضد المعسكر الاسرائيلى المحصن قرب سمخ ، وبدات الدبابات والعربات المدرعة فى محاصرة الموقع ، ولما كان خط مواصلات المدافعين مهددا ، فقد انسحبوا الى مستوطنة دجانياه اليهودية المجاورة ، وفى الثامنة صباحا احتل السوريون الموقع الذى تم تركه .

وعلى اساس افتراضهم ان هذا هو الهجوم السورى الرئيسى ، ارسل الاسرائيليون تعزيزات من لواء يفتاح التابع لليفتننانت كولونيل موشيه مان ، الى اقصى الشمال ، وتركزت هذه التعزيزات وجنود الحرس الداخلى الاحتياطيون بالقرب من دجانيا ، ولتنسيق المجهود الدفاعى ، ارسلت قيادة الهاجاناه العليا الميجور موشيه دايان ، من هيئة اركان القيادة العليا ، الى دجانيـاه .

والواقع ان السوريين لم يكونوا ينوون القيام بأى عمليات اخرى جنوبى البحيرة ، اذ كانوا خططوا للقيام بهجومهم الرئيسى الى اقصى الشمال ، بالقرب من جسر بنات يعقوب ، بيد انه فى ١٩ مايو ، طلب العراقيون الذين كانوا على وشك الهجوم غربا عبر نابلس نحو طولكرم ، من السوريين القيام بعملية لتحويل الانتباه فى منطقة دجانياه ، لحماية جناحهم الأيمن . واستجابة لهذا الطلب ، بدأ اللواء السورى الأول فى الساعة ٤ر٣٠ من صباح ٢٠ مايو هجوما على مستوطنتى دجانياه المتجاورتين ، وغطت نيران المدفعية والدبابات الهجوم ، وكان الهدف السورى الرئيسى يتمثل فى الاستيلاء على الجسر المقام عبر نهر الأردن شمالى القرية المعروفة باسم دجانياه (أ) وكان من شأن ذلك منع اى هجوم اسرائيلى من طبرية ضد خط المواصلات العراقية .

وسرعان ما ادى الهجوم السورى ، الذى كانت الدبابات والعربات المدرعة راس حربته ، الى اختراق دفاع المستوطنة ، لكن المشاة السورية كانت بعيدة — الى حد ما — عن الدبابات ، وقد تمكن المدافعون الاسرائيليون من استخدام قنابل مولوتوف وصواريخ PIAT المضادة للدبابات لتدمير العديد من العربات المهاجمة ، وفى تلك الأثناء واصل المدافعون الآخرون اطلاق نيران الأسلحة الصغيرة على المشاة السورية ، التى توقفت فى بيارات الموالح على بعد عدة مئات من الأمتار من المستوطنة ، وانسحبت الدبابات الناجية ، وفشل الهجوم .

بعد ذلك حول السوريون انتباههم جنوبا الى دجانياه (ب) ، واقتربت ثمانى دبابات ، مدعومة بنيران مدافع المورتار الى مسافة ٤٠٠ ياردة من دفاع المستوطنة ، حيث توقفت عن تقديم دعم نارى لهجوم من جانب المشاة ، لكن القوات السورية عديمة الخبرة كانت ما تزال عاجزة عن مواجهة نيران الأسلحة الاسرائيلية الصغيرة ، وقد تخلت عن المحاولة بعد محاولتين فاشلتين .

وحوالى ظهر اليوم ، وصل من تل ابيب مدفعان ميدانيان حديثا الوصول من طراز هاوزر الفرنسى العتيق عيار ٦٥ مم ، وهما أول قطعة مدفعية اسرائيلية تستخدم فى الحرب ، وسرعان ما تم نصبهما وفتحا نيرانهما على السوريين قرب دجانياه (ب) ، وقد ارجع الاسرائيليون الانسحاب السورى التالى الى المفاجأة ازاء نيران المدفعية الاسرائيلية غير المتوقعة .

ورغم ان الاسرائيليين فى منطقة سمخ — دجانياه لم يدركوا ذلك ، فقد كان هنالك سببان مختلفان تماما لانسحاب السوريين : أولهما : تهديد خط مواصلاتهم ، اذ كانت كتيبة من البالماخ من لواء يفتاح قد ارسلت بزورق خلال الليلة السابقة عبر بحيرة طبرية الى عين جيفا ، وخلال الليل ، صعدت مرتفعات الجولان ، وقامت فى الفجر بغارة مضادة على كفر هاربل على مرتفعات الجولان ، لتهديد خط مواصلات اللواء المكشوف .

ويكمن السبب الآخر لانسحاب السوريين فى نفاذ ذخيرتهم ، فكان لواء الزعيم ، الذى تلقى وعدا بامداده ، قد بدا هجومه ضد مستوطنتى دجانياه رغم انه كان يشكوا من نقص فى الذخيرة ، لكن الامداد الموعود كان يجرى تسليمه فى واقع الأمر الى اللواء الثانى فى اقصى الشمال . وعندما نفدت ذخيرة قواته ، امر الزعيم بالانسحاب .

وفى تلك الأثناء ، فى المنطقة الواقعة شمالى بحر الجليل ، وجنوبى بحيرة الحولة ، كان الاسرائيليون ينتظرون هجوما آخر ، وفى ١٤ مايو ، فى استعداد ظاهر لهجوم رئيسى ، اقام السوريون قاعدة وقود وذخيرة شرقى مبنى الجمارك بالقرب من جسر بنات يعقوب ، وكما قصد السوريون ، خلق ذلك لدى الاسرائيليين انطباعا زائفا بأن ذلك هو المكان الذى سوف يشنون

نيه هجومهم الأول ، وحول انتباه الاسرائيليين عن الضربة بالقرب من سمخ ، ولكن عندما فشل السوريون فى عمل اى شىء قرب جسر بنات بعقوب ، امسك الاسرائيليون فى مستوطنة ميشمار هياياردين بزمام المبادرة .

وفى ليلة ١٧ — ١٨ مايو ، فى تزامن مع عملية اقصى الغرب ضد اللبنانيين بالقرب من المـالكية ، عبرت سرية من لواء يفتاح النهر ، وهزمت المدافعين السوريين عن قاعدة الامداد ، ودمرت الامدادات المجموعة . وقد عادت دون ان تلحق بها اى خسائر ، واجبر ضياع هذه الامدادات لواء المشاة السورى الثانى على تأجيل هجومه ، الذى كان من المقرر شنه فى ٢٢ مايو .

ولمدة اسبوعين ، ظلت الجبهة السورية هادئة ، باستثناء القصف المتكرر للمواقع الاسرائيلية فى الوادى من جانب المدفعية السورية على مرتفعات الجولان ، وكان يجرى التخطيط لهجوم جديد من جانب اللواء عبد الله الألفى ، رئيس هيئة اركان الجيش السورى ، الذى كان يمارس القيادة والاشراف العام على العمليات القتالية على طول الأردن الأعلى .

وفى صباح ٦ يونيو ، حاول اللواء السورى الثانى ، تحت قيادة العقيد القواس ، شن هجوم مفاجىء عبر النهر للاستيلاء على مشمر هيردن . وكان هدفه النهائى هو الاستيلاء على الجسر المجاور ، ثم الانضمام الى اللبنانيين وجيش التحرير العربى بالقرب من المـالكية ، بيد انه ، بسبب نيران المدافع ومدافع المورتار الاسرائيلية المصـوبة تصويبا دقيقـا ضد مخاضات النهر ، فان المدرعات السورية قد فشلت فى عبور النهر ، وسرعان ما انسحبت كتيبتا المشاة اللتان كانتا تضيقان على المستوطنة .

وفى الوقت نفسه ، فى اقصى الشمال ، تقدمت كتيبة معززة تحت قيادة المقدم سامى الحناوى من بانياس صوب دان ، على الجانب الاسرائيلى من الحدود ، وبعد تقدمها مسافة مئات قليلة من الأمتار اوقفت نيران الأسلحة الاسرائيلية الصغيرة المصوبة من دان قوات الحناوى ، واعتصم السوريون بالخنادق حيث كانوا ، ومع تعزيز القوات السورية شرقى النهر ، جرى استنفار لواء عوديد الاسرائيلى ، وتركز الى حد بعيد قرب مشمر هيردن ، كما وصلت فى ٨ يونيو كتيبة كرملية لتعزيز المدافعين .

وفى ١٠ يونيو ، قام السوريون بهجومهم الأول المؤثر والمنسق فعلا خلال الحرب ، فقد شهد لواء المشاة الثانى الهجوم ، واستولى على كل نقاط العبور الثلاث شرقى مشمر هيردن ، واستمر هذه المرة فى الاندفاع الى الأمام رغم نيران الأسلحة الصغيرة ، ومدافع المورتار الاسرائيلية .

لقد انجزت المدرعات السورية بشكل ناجح عمليات عبور النهر ، واذ كانت تتحرك فى تنسيق وثيق مع المشاة ، اكتسحت الدبابات الدفاعات

الخارجية لمشمر هيردن ، ودارت معركة مستميتة ، لكن السوريين قاتلوا جيدا ، وكانت اعدادهم كاسحة ، وبعد الظهر بوقت قصير ، كانت مشمر هيردن فى ايديهم .

وفى ذلك اليوم نفسه ، وكتحويل للانتباه ، شن اللواء السورى الأول هجوما ضد عين جيف ، وبما ان السوريين كانوا يحتلون التلال المسيطرة على عين جيف ، والمؤدية الى مرتفعات الجولان ، فان حلقة الاتصـال الوحيدة من عين جيف الى بقية اليشوف كانت تتمثل فى الزوارق المبحرة ليلا ، لكن عين جيف كانت واحدة من اكثر المستوطنات الاسرائيلية تأهبا ويقظة ، لانها كانت المستوطنة المكشوفة اكثر من غيرها . لقد كان المدافعون يعتصمون اعتصاما جيدا بالخنادق ، وكانوا يملكون الاصرار . ومع ان معظم الدور فى المستوطنة قد دمرت خلال هذا الهجوم الكثيف ، الا ان هذه الهجمات المتزامنة من كل من الشمال والجنوب قد تم صدها ، وسرعان ما تم احتواء تغلغل صغير من الشرق ، ومع حلول الظهر تم اخراج المهاجمين .

الجبهة العـراقية :

كانت القوة العراقية للقوات العربية تتألف من لواء مشـاة وكتيبة مدرعات تحت قيادة اللواء محمود ، وكانت هذه القوة قد تركزت بالقرب من المفرق فى شرقى الأردن فى ابريل .

وفى اوائل مايو ، كان العراقيون قد تحولوا غربا ، بين اربد ونهر الأردن ، واستعدوا للعمل فى القطاع المحدد لهم : وادى الأردن الشمالى والأوسط و « مثلث » جنين — طولكرم — نابلس فى شمالى السامرة .

وفى وقت مبكر من ١٥ مايو ، عبرت القوات العراقية نهر الأردن بالقرب من خط انابيب النفط جنوبى معاد ، واحتلت هضبة تطل على مستوطنة جيشير(٥) ، وعندما هاجم العراقيون جيشير وموقع بوليس مجاور خلال بعد الظهر التالى ، تم صدهم واصيبوا بخسائر فادحة ، وقد كرروا المحاولة فى اليوم التالى ، مع تقدم للمشاة من الشمال ، وتقدم للعربات المدرعة من الجنـوب .

ومرة اخرى ، تم صد الهجمات ، التى كانت غير منسقة تماما ، لقد اصبحت جيشير محاصرة بالكامل ، لكن العراقيين لم يهاجموا مرة أخرى .

ومع اغلاق الطريق عبر جيشير ، قرر العراقيون عبور الأردن من اقصى الجنوب ، عند جسرى داميا واللينبى ، اللذين كان الفيلق العربى التابع لشرق الأردن قد احتلهما سليمين فى وقت مبكر من صباح ١٥ مايو ، وقد تمكنوا من تحريك كل قوتهم عبر النهر الى نابلس ، حيث كان القاوقجى قد اقام مقر قيادة جيش التحرير العربى التابع له .

وقد احتشد العراقيون هناك وانتظروا وصول تعزيزات من العراق ، وقد وصلت هذه التعزيزات خلال الأسبوع الأخير من مايو ، وكانت تتألف من كتيبة مشاة اخرى وكتيبة دبابات اخرى ، الأمر الذى جعل لدى العراقيين لواءين للمشاة ولواء مدرعا .

وفى ٢٥ مايو شن العراقيون الهجوم غربا من نابلس مرورا بمدينة طولكرم العربية ، واستولوا على احدى المستوطنات ، ووصلت طلائعهم المدرعة الى كفار جوناه وعين فيريد ، بين طولكرم وناتانيا ، وكانوا على بعد ١٠ كيلو مترات من ناتانيا قبل ان يوقفهم لواء اليكسندرون فى ٣٠ مايو .

وتوقعا لهجوم عراقى رئيسى ، امرت القيادة الاسرائيلية العليا لواءى — جولان وكرمل — بتنسيق عملياتهما مع لواء اليكسندرون ، للدفاع عن سهل شارون الساحلى الضيق ، ولانتزاع زمام المبادرة من العراقيين قرر الاسرائيليون شن الهجوم فى وسط السامرة ، وكان من المقرر ان تكون جينين هى الهدف الأول .

وفى ٢٨ مايو ، بدا لواء جولان هجومه ضد الجنود العرب غير النظاميين الذين يسيطرون على جبل سلسلة بيلبو شمال شرقى جنين ، واستولى على زارين ، وفى اليوم التالى طرد جنود لواء جولان العرب المحليين والعراقيين من موقعهم على سلسلة جبال جيلبو ، وفى ٣٠ و ٣١ مايو ، استولوا على ميجيدو ثم اللجون .

وتهيا المسرح لهجوم رئيسى ضد جنين ، وكان من المقرر ان يقوم به لواء الكرمل ، مارا وسط جنود لواء جولان من الشمال ، مع كتيبة جولانية كتعزيز له ويبدو انه كان من المنتظر ان يشن لواء اليكسندرون هجوما عبر وادى عرا ، وان يقصف طولكرم ، كما كان على السلاح الجوى الاسرائيلى المتنامى بسرعة ان يقوم بطلعات استطلاعية وان يقدم — ولو ظاهرا — دعما جويا على الاقل .

وقد بدا الهجوم ضد جنين فى الغسق فى ٣١ مايو ، وتصدرته كتيبة جولانيه ، تتبعها كتيبتان تابعتان للواء كرمل ، وفى الساعات الثمانى والاربعين التالية ، احتل الجولانيون قرى صندلة ، وعرانة ، وجلمة ، ومقيبله ، شمالى جنين ، وفتحوا الطريق امام هجوم قوات كرمل ، الذى بدا فى ليلة ٢ — ٣ يونيو ، وكانت اهداف قوات كرمل جبلين يسيطران على الطريق الرئيسى جنوبى المدينة ، وبمجرد الاستيلاء على هذين الجبلين ، كان على الكتيبة الجولانية أن تواصل التحرك الى الجنوب من مقيبله ، لاحتلال المدينة .

وضد مقاومة لا تذكر ، تقدمت كتائب كرمل جنوبا — ببطء ، ولكن بثبات — فى ٣ يونيو ، وشنت الهجوم خلال الليل واستولت على الجبلين قبل الفجر .

الا انه ، لاسباب غير واضحة ، لم يكن هنالك تحرك من اجل تحويل الأنظار من جانب لواء اليكسندرون لشد انتباه العراقيين الى طولكرم .

وفى صباح الرابع من يونيو شنت وحدة عراقية جنوب غربى جنين هجوما مضادا على موقع قوات كرمل ، وقد الحقت خسائر فادحة بالاسرائيليين ، الذين لم يتمكنوا من حفر خنادق مناوشات او خنادق فعالة فى الارض الصخرية ، ومع ذلك فقد صدوا الهجوم ، وبعد التاسعة صباحا بقليل ، تم الاستيلاء على الموقعين الجبليين من جديد ، واحتلت كتيبة كرمل جنين .

بيد انه عند الظهر تقريبا ، وصلت كتيبة عراقية اضافية من نابلس وشن العراقيون — الذين حصلوا على تعزيز — هجوما مضادا ، بدعم جوى هذه المرة ، ومع انهم كانوا يسيطرون على الجبل الآخر ، فقد قرر الكولونيل كرمل ان الموقع قد اصبح مكشوفا الى حد بعيد لمزيد من الهجمات المضادة ، وخلال الليل انسحب من جنين ، وكان بوسع كل من الفريقين ان يزعم النجاح ، فقد احتفظ الاسرائيليون بكل الأراضى الواقعة شمالى جنين التى كانوا قد استولوا عليها بين ٨ مايو و ٢ يونيو ، لكن العراقيين قد طردوا الاسرائيليين من جنين ، هدفهم الرئيسى ، وكانت لهم مواقع امامية على بعد مسافة من ساحل البحر المتوسط بين ناتانيا وتل ابيب ، وكانت دولة اسرائيل الجديدة مهددة بأن تشطر الى قسمين .

الجبهة الأردنية :

فى ١٣ مايو ، اتمت معظم قوات الفيلق العربى التابع لشرق الأردن باوامر من المندوب السامى للانتداب البريطانى ، انسحابها من فلسطين وفى صباح ١٤ مايو انسحبت البقية — التى كانت منخرطة فى معارك كتلة اينتزيون — ايضا غربى نهر الأردن ، الا انه فى الليلة التالية ، عندما انتهى اجل الانتداب البريطانى ، اعاد الجنرال جلوب قواته عبر النهر الى فلسطين عن طريق جسر اللينبى ، وكان هدفها هو احتلال بعض المواقع داخل منطقة العمليات الأردنية المتفق عليها ، عند حدود القطاعات العربية المحددة بموجب مشروع الأمم المتحدة ، وقد تحركت بسرعة عربات الفيلق المدرعة — بعد عبورها جسر اللينبى — الى السامرة ويهودا ، وصوب القدس ، وعند هبوط الليل ، هاجمت قوة اردنية قرية عتاروت ، التى تركها سكانها ، الذين تحركوا الى نفه ياكوف .

وخلال ١٤ مايو ، كان هناك اطلاق شديد للنيران فى القدس وحولها ، بعد رحيل البريطانيين ، وفى حين أن قوات الهاجاناه الأساسية قد ركزت انتباهها على المنطقة الواقعة جنوب شرقى القدس فى منطقة فندق الملك داوود ومحطة السكك الحديدية ، فان الكولونيل ديفيد شالتيل ، القائد الاسرائيلى المعين حديثا لمنطقة القدس والشخصية مثار الخلافات ، قد

طلب من قوة الأرجون فى القدس احتلال الشيخ جرش ، لاعادة الاتصالات مع مستوطنات جبل الكرمل .

وفى صباح ١٥ مايو ، وصل الفيلق العربى الى شرقى القـدس ، وبدا قصف القدس الجـديدة الواقعة تحت الاحتـلال الاسرائيلى بمدافع تذائف ٢٥ رطلا ومدافع مورتار عيار ٦ بوصة ، وتقدم جنود الفيلق من جبل الزيتون الى الشيخ جرش ولم يجدوا عناء كثيرا فى طرد الأرجون .

وهكذا تم مرة اخرى قطع الاتصالات بين جبل الكرمل والمدينة الجديدة ، ثم شن الفيلق هجمات على القدس الجديدة ، من كل من الشمال الشرقى والجنوب الشرقى ، بينما قصف المنطقة من المواقع التى احتلها حديثا فى الشيخ جرش ، وقد واجه العرب مقاومة اسرائيلية قوية مع ذلك ، شمالى مبنى ماندلباوم الضخم ، وبعد محاولات قليلة اخـرى ، اوقف الجنرال جلوب الهجمات ضد المدينة الجديدة ، ولم يكن يريد لقواته ان تتورط فى قتال الشوارع ضد القوات الاسرائيلية الأوفر عددا بكثير فى المنطقة .

وفى تلك الاثناء ، فى اقصى الشرق ، حاولت قوة الفيلق التى استولت على عتاروت الاستيلاء على نفه ياكوف ، ولم يكتب لها النجاح فى تلك المحاولة ، الا انه خلال الليل انسحب سكان عتاروت ونفه ياكوف الى مستشفى هاداسا على جبل الكرمل .

وبينما كان احد الوية الفيلق العربى مشغولا على هذا النحو فى منطقة القدس ، نفذ اللواء الآخر المهمات المحددة له على وجـه السرعة وبشكل فعال ، ومع حلول ١٧ مايو ، كان الفيلق قد وطد مواقعه بشكل آمن على السلسلة الجبلية المطلة على طريق تل ابيب ـــ القـدس بين اللطرون ودير ايوب .

وهكذا ، كانت مواقع الفيلق الأمامية على بعـد ٣٠ كيلو مترا من تل ابيب ، وفى الوقت نفسه ، استولت وحـدات اخرى من الفيلق على بيت لحم .

وناحية الجنوب ، كان قد تم عزل مصنع البوتاس الاسرائيلى عند الطرف الشمالى للبحر الميت ، ومع اقتراب الفيلق العربى من مصنع البوتاس ومستوطنة بيت هاعرفه القريبة ، اصبح واضحا للمستوطنين اليهود ان وضعهم صار يائسا ، وهكذا ، فخلال ليلة ١٩ ـــ ٢٠ مايو ، جرى ترحيل المستوطنين بالزوارق الى سدوم على الشـاطئ الجنوبى للبحر الميت . اما ناحية الغرب ، فقد استولت وحدات الفيلق فى التاسع عشر من مايو على محطة ضخ المياه بالقرب من بتاح تيكفا (أول مستوطنة زراعيةصهيونية فى اسرائيل) وصدت فى اليوم التالى هجوما اسرائيليا مضادا ، وكان ذلك تهديدا قاتلا لقلب دولة اسرائيل الجديدة .

الجبهة الجنوبية (المصرية) :

كانت فلسطين الجنوبية قد اعدت للقتال قبل الغزو العربى الرسمى بوقت طويل ، ففى أوائل عام ١٩٤٨ ، ارسل الشيخ حسن البنا ، زعيم الاخوان المسلمين ، قوتين صغيرتين من حجم الكتائب من « المتطوعين » التابعين له من مصر ، واذ كانوا قد اتخذوا من منطقة غزة ـــ خان يونس قاعدة لهم ، فقد سارعوا الى الاغارة على مستوطنات النقب اليهودية ناحية الشرق ، وقد احتفظ قائدهم طارق الأفريقى ، باتصالات وثيقة مع المفتى امين الحسينى ، لكن العقيد عبد العزيز وصل فى اواخر ابريل او اوائل مايو من مصر ، وتولى قيادة قوات المتطوعين ، ويبدو انه قد جلب معه بطارية مدفعية مصرية واحدة على الاقل ، وهدفا اكثر تركيزا من عمليات الاغارة والقتل غير الهادفة الى حد ما ، والتى كانت تشغل الاخوان المسلمين قبل وصوله ، وقد قصد بشكل واضح محاولة تأمين حرية الحركة للقوات المصرية النظامية عند وصولها ، وقطع الاتصالات فى الوقت نفسه بين تل ابيب والنقب .

وفى ١٠ مايو هاجم عبـد العزيز وفدائيوه مسـتوطنة كفار داروم شرقى الطريق الرئيسى بين خان يونس وغزة مباشرة ، وبعد ان لحقت بهم خسائر فادحة ـــ من مدفعيتهم التى اساءت التصويب مثلما من المدافعين اليهود ـــ تم صد المتطوعين ، وسرعان ما تلت هذه النكسة نكسة اخرى ، ففى ١٢ مايو ، استولت عناصر من لواءى جيفات والنقب ، مقتربة من الشمال والجنوب ، على قـرى برير ، والحليقات ، وكوكبة العـربية ، وهكذا امنت طريقا داخليا موصلا من الشمال الى غربى النقب .

لكن عبد العزيز وفدائييه ، بعد ذلك بيومين ، فى ١٤ مايو ، احرزوا نجاحا تعويضيا دون اراقة دماء اذ كان البريطانيون قد سيطروا على قلعة البوليس المنيعة فى عراق سويدان ، لتأمين طريق انسحابهم من وسط فلسطين الى رفح ، ومن هناك الى منطقة القناة ، الا انه فى الرابع عشر من مايو ، مع رحيل آخر الوحدات البريطانية الى الجنوب الغربى ، تركت عراق سويدان ، التى سارع عبد العزيز الى احتلالها ، ولم يمكنه ذلك من السيطرة على طريق الشرق والغرب الرئيسى من المجدل فحسب ، بل انه قد قطع ايضا طريق الامداد اليهودى الى النقب عبر برير والحليقات . ومع وصول المزيد من القوات المصرية ، اصبح عبد العزيز فى وضع يمكنه من عزل النقب .

وعندئذ كانت قوة الغزو المصرية تتجمع فى شمال شرقى سـيناء عند ابو عجيلة(٦) والعريش ، وكان القائد هو اللواءاحمد على المواوى،وكان نائبه هو العميد محمد نجيب ، وكانت القوة تتألف من حوالى ٧ر٠٠٠ رجل ، موزعين على خمس كتائب مشاة ، وقوة مدرعة من دبابات مارك السادس وماتيلدا البريطانية ، وكتيبة مدافع متوسطة ، وفوج ميدانى من ستة عشر

مدفعا من مدافع قذائف ٢٥ رطلا وبطارية من ثمانية مدافع من مدافع قذائف ٦ ارطال (عيار ٥٧ مم) وسرية مضادة للطائرات ومعدات امداد متنوعة ومعدات مساندة اخرى ، وكان هناك — كدعم جوى خمس عشرة طائرة مقاتلة ، وخمس قاذفات جرى تحويلها الى طائرات نقل ، وعدد قليل من طائرات الاستطلاع المتنوعة ، وكانت القوة موزعة على لواءين غير متساويى الحجم .

اما اللواء الاكبر — المؤلف من ٥ر٠٠٠ رجل بصحبة اللواء المواوى ، وتحت قيادة نجيب المباشرة — فقد تحرك من العريش الى رفح فى ١٤ مايو ، وكانت القوة الرئيسية للواء الأصغر — اقل من ٢ر٠٠٠ رجل — تتالف من كتيبتين من المشاة النظاميين ، بالاضافة الى قوة اخرى من متطوعى الاخوان المسلمين .

وفى ١٤ مايو ايضا ، تحركت هذه القوة من ابو عجيلة ، الى العوجة ، على بعد اربعة كيلو مترات داخل حدود فلسطين .

وكانت القوات اليهودية التى تواجه الغزو تتالف من المستوطنين المسلحين فى كل مستوطنة ، بالاضافة الى لواء النقب فى البداية تحت قيادة الكولونيل ناحوم ساريج .

وبعد وقت قصير من بداية الغزو ، انضم لواء جيفات تحت قيادة الكولونيل شيميون آفيدان ايضا الى المدافعين عن فلسطين الجنوبية ، لكن السيطرة العربية على عراق سويدان وطريق الشرق — الغرب حالت دون اتصال فعلى بين اللواءين ، وكان هناك قدر قليل من التنسيق بين هذه الوحدات حتى اغسطس ، عندما جرى تعيين قائد واحد للجبهة كلها .

وبسبب تعثر المستوطنات فى المنطقة ، فان لواء النقب ، المؤلف من ثلاث كتائب ، كان واحدا من اصغر الوية الهاجاناه ، اذ لم يكن يتالف الا من حوالى ١ر٥٠٠ رجل ، اما لواء جيفات ، فكان واحدا من اكبر الالوية ، اذ كان يتالف من خمس كتائب ، عددها الاجمالى حوالى ٣ر٢٠٠ رجل ، وفى ١٤ مايو ، مع اقتراب الغزو ، جرى توزيع كتيبتين من لواء النقب ، تتالفان من حوالى ٨٠٠ رجل ، لمراقبة الحدود الجنوبية الغربية ، وبالاضافة الى اسلحتها الصغيرة كانت هذه القوات مسلحة بمدافع المورتار الخفيفة ، ومدفعين عيار ٢٠ مم ، ومدفعى مورتار ثقيلين من طراز « ديفيدكا » ، وبعد وقت قصير من بدء الغزو ، جرى تحريك الكتيبة الثالثة الى الجبهة ، مع بطارية من مدافع عيار ٦٥ مم ، وسريتين من المشاة راكبى عربات الجيب ، الامر الذى اعطى ساريج قوة جبهة تزيد على ١ر٥٠٠ رجل .

وكانت خطة الغزو المصرية تسمح بشن هجومين متزامنين مختلفين داخل فلسطين ، وكان على القافلة الكبرى أن تتبع الطريق الساحلى

والسكك الحديدية صوب تل ابيب ، للانضمام الى قوة صغيرة هبطت بحرا عند المجدل فى ١٤ مايو ، وكان على القافلة الداخلية التقدم عبر طريق بئر سبع والخليل للالتقاء بالفيلق العربى فى منطقة القدس .

وفى صباح ١٥ مايو ، عبرت كل من القافلتين الحدود ، اللواء الاكبر عند رفح ، واللواء الأصغر عند العوجة ، وتحركت القوة الكبرى نحو خان يونس ، التى كان يسيطر عليها الجنود العرب غير النظاميين التابعين للاخوان المسلمين والعرب المحليون المسلحون ، وعلى جانب الطريق مباشرة ، حوالى ستة كيلو مترات خلف رفح ، كانت هناك مستوطنة نيريم اليهودية الصغيرة ، التى كان يسيطر عليها حوالى ٤٠ مستوطنا ، وقد ارسل اللواء المواوى فصيلة من المشاة والمدفعية للتعامل مع هذه المستوطنة الرئيسية الى خان يونس ، حيث سارع الى احتلال المطار استعدادا لمواصلة التقدم الى الشمال .

وبدا القصف المصرى لنيريم فى السابعة صباحا ، وبعد ذلك بوقت قصير اقتربت قافلة مصرية من العربات المدرعة(٧) ، ومجموعة من المشاة راكبى السيارات الى مسافة ٤٠ مترا من المستوطنة تحت غطاء من نيران المدفعية ، وعند الظهر ، تحت غطاء من نيران المدفعية والمدافع الكثيفة ، هاجم المشاة المستوطنة ، بيد ان نيران الاسلحة الصغيرة الاسرائيلية اوقفتهم على بعد ١٥٠ مترا من سياجها الأمنى ، وانسحب المشاة المصريون ، مخلفين وراءهم حوالى ٣٠ قتيلا .

ولم يجر بذل محاولة اخرى للهجوم ذلك اليوم ، بيد ان المصريين حاولوا مرة اخرى فى ١٦ مايو الاستيلاء على المستوطنة ، وفى هذه المرة ، كان الدعم الجوى متاحا ، لكن المشاة فشلوا ايضا فى مواصلة هجومهم . وفى ١٧ مايو ، وصلت تعزيزات الهاجاناه مع اسلحة وذخيرة ، ولم يقم المصريون بمحاولة اخرى للهجوم .

وفى تلك الأثناء ، كانت القوة الرئيسية للواء المواوى قد واصلت تقدمها شمالا من خان يونس صوب غزة ، وبعد الظهر بعد حوالى خمسة اميال من جنوبى غزة ، مر المصريون بمستوطنة يهودية اخرى ، كفار داروم ، التى كانت تحت الحصار من جانب العرب المحليين منذ اشهر (وكان اعضاء وحدة الدفاع عن المستوطنة المسلحين الذين كانوا يتالفون من ثلاثين رجلا قد صدوا مؤخرا هجوما من جانب الاخوان المسلمين فى ليلة ١٠ — ١١ مايو) .

ومرة اخرى ، ترك المواوى فصيلة للتعامل مع هذا التهديد المحتمل لخطوط مواصلاته ، وواصل تقدمه الى غزة ، التى دخلها فى وقت مبكر من المساء .

اما قائد الفصيلة المصرية التى تركت للتعامل مع كفار داروم فقد خطط لشن هجوم فى فجر اليوم التالى ، وتبع حاجزا من نيران المدفعية الكثيفة ستار دخانى من نيران المدفعية ، ومدافع المورتار لتغطية هجوم المشاة ، لكن الستار لم يكن فعالا بالكامل ، ومع اقتراب العرب من سياج الأسلاك الشائكة حول المستوطنة ، فتح اليهود المدافعون النيران بأثر تدميرى . وبعد عديد من المحاولات الفاشلة لاختراق الدفاع — وهى محاولات افسدتها مساندة المدفعية سيئة التصويب — وانسحب العرب فى النهاية ، وكانت خسائرهم ٧٠ قتيلا و ٥٠ جريحا .

وفى الأسابيع التالية ، تعرضت كفار داروم لعدد من الهجمات المماثلة ، بيد ان ايا من هذه الهجمات لم يكتب له النجاح .

ولم تتلكأ قافلة اللواء المواوى لكى تعرف نتائج الهجمات على نيريم او كفار داروم . وفى وقت مبكر من صباح ١٦ مايو ، تقدم المصريون من غزة لكى يصلوا الى يد مردخاى ، احدى اقدم مستوطنات النقب ، وكان هذا الموقع قويا جدا بحيث تعذر على المواوى المجازفة بتخطيه ، وبما ان امداداته لم تكن قد تحركت بالسرعة التى تحركت بها القوة الرئيسية ، وبعد ان عرف عناد الدفاع الاسرائيلى من تجربتى نيريم وكفار داروم ، كرس اللواء المواوى يومين للاعداد للهجوم على يد مردخاى ، وفى ١٩ مايو ، جرى بدء الهجوم ، بيد ان المصريين بعد ثلاث ساعات من القتال المستميت لم ينجحوا الا فى الاستيلاء على موقع أمامى صغير واحد وفشلوا فى المحاولات للتغلغل فى المستوطنة نفسـها .

وجرى تجديد الهجوم فى ٢٠ مايو ، لكن الاسرائيليين صدوا اربع هجمات بمساعدة تعزيزات من جفرعام ، ولم يجدد المصريون الهجوم الا ما بعد ظهيرة ٢٣ مايو ، وكان ذلك هجوما رئيسيا ، منسقا بين المشاة والمدرعات ، ومع حلول المساء ، نجح المصريون فى الاستيلاء على جزء من المستوطنة التى كانت فى وضع يائس ، وفى تلك الليلة ، وصلت الى يد مردخاى كتيبة الكوماندوز الصغيرة التابعة للواء النقب ، فى عربات مدرعة ، وقد اجرى القائد تقييما سريعا للموقف وقرر ضرورة اخلاء المستوطنة ، وقبل فجر ٢٤ مايو مباشرة انسحبت كل الحامية الموجودة فى يد مردخاى الى نيريم .

وفى تلك الاثناء ، كانت القافلة الداخلية تتحرك بسرعة ، فلما لم يجد معارضة فى تلك الأرض العربية المقفرة ، وصل مرسى القافلة المتقدم راكبا السيارات الى بئر سبع فى ١٧ مايو ، ووصلت القوة الرئيسية الى هنـاك فى ٢٠ مايو ، وفى ذلك اليوم نفسه ، انضم الفريق المتقدم الى الفيلق العربى فى بيت لحم ، وتحمل المسئولية فى السيطرة على تلك المدينة فى اليوم التالى ، ٢١ مايو ، وحينئذ تقريبا انضم الى هذه القوة العقيد عبد العزيز والقوات التى كان يقودها شمال شرقى غزة ، وتولى عبد العزيز قيادة القوة المشتركة .

وعلى ساحل البحر ، وفى ذلك اليوم ، واصل اللواء المواوى ، الذى قرر ترك جزء من قيادته لمواصلة الهجوم على يد مردخاى ، واصل السير الى المجدل (عسقلان) بقوته الرئيسية ، والتقى هنالك بقوة صغيرة كانت قد هبطت قبل ذلك بحرا ، ثم ارسل اللواء المواوى قافلة صغيرة الى الشرق عبر عراق سويدان ، والفالوجة ، وبيت جبرين لايجاد اتصالات جانبية مع العقيد عبد العزيز والأردنيين فى منطقة بيت لحم — الخليل . وفى ٢٨ مايو ، حاول المواوى تأمين خط الاتصالات هذا بشن هجوم على نجباه ، مدعوما بمدافع قذائف ٢٥ رطلا وبالطائرات ، لكن الهجوم تم صده .

وفى تحرك اكثر تمهلا ، واكثر حذرا ، جدد المصريون الباقون التقدم شمالا ، دون معارضة جادة ايضا ، لكى يدخلوا اشدود فى ٢٩ مايو ، وفى مواصلتهم السير الى جسر اشدود ، على بعد ثلاثين كيلو مترات شمالى المدينة ، اصبحوا على بعد ٣٢ كيلو مترا فقط من تل ابيب ، التى كانت تحت قصف جوى متكرر من جانب الطائرات المصرية .

بيد ان المصريين واجهوا هنا اسرائيليين على جانب كبير من القوة ، وقد نسفت قوات لواء جيفات ، القادمة من رحفوت ، الجسر ، واتخذت مواقع دفاعية شمالى اشدود مباشرة فى منطقة جديراه بوشيت ، وجرت اقامة موقع اسرائيلى متقدم فى منطقة كفار فاربورج ، جنوب شرقى اشدود ، الأمر الذى شكل تهديدا لخط المواصلات المصرية .

وسرعان ما اصبحت الدوريات على كل من الجانبين فى مواجهات نشيطة فى قوس حول اشدود ، وفجأة وجد المصريين انفسهم مهاجمين من جانب اربع طائرات اسرائيلية مقاتلة من طراز ميسير شميت ، وصلت مؤخرا من اوروبا (وقد اسقطت النيران المصرية المضادة للطائرات احداها) .

وسرعان ما دخل ميدان القتـال سلاح اسرائيلى آخر لم يواجهه المصريون من قبل : مدافع هاوزر عيار ٦٥ مم فى وحدات المدفعية الاسرائيلية حديثة التشكيل ، وقد قرر اللواء المواوى حفر الخنادق والاحتماء بها ، اذ قدر — مصيبا فى ذلك — أن جيشه اقل عددا ، وان من المستحيل القيام بتقدم آخر دون تعزيزات .

وقد اصرت القيادة العليا الاسرائيلية على القيام بمحاولة رئيسية لتدمير المصريين الذين تضاءلوا بشكل خطير فى اشدود ، حوالى ٢ر٥٠٠ رجل ، تحت قيادة العميد نجيب .

وكانت الخطة الاسرائيلية تتمثل فى شن هجوم من جانب كتيبتين من لواء جيفات ، وكتيبة من الأرجون ، ومجموعتين من المشاة راكبى السيارات الجيب من لواء النقب ، واذ كان الهجوم قد جرى التخطيط اصلا لشنه

فى ليلة ١ — ٢ يونيو ، فقد تم تاجيله لمدة ٢٤ ساعة بسبب اضطراب فى الاتصـالات .

وقد بدا الهجوم الاسرائيلى على اشدود بعد منتصف ليلة ٢ — ٣ يونيو ، وقد تعرض الهجوم الرئيسى — الذى كان يحاول تحقيق عملية تطـويق عريضة جنوبى اشدود — لنيران كثيفة من جانب المصريين ، وبسبب انعدام التنسيق ، فشلت الوحدات الاسرائيلية الأخرى فى تقديم مساندة كافيـة ، واضطر المهاجمون الى الانسحاب ، بعـد ان خسروا حوالى ٤٠٠ قتيـل وجريح ، اى اكثر بكثير من الخسائر العربية(٨) .

ومما يدعو للدهشة ، ان الاسرائيليين لم يقوموا الا بمحاولة واحـدة ضعيفة ضد خط الاتصالات الجانبى المصرى المكشوف عبر عراق سويدان والفالوجة ، وقد انسحبوا بعد أن تم صدهم بسهولة من عراق سويدان .

وارتياحا الى ان بوسع نجيب السيطرة على اشـدود ، وجه اللواء المواوى انتباهه الى مستوطنة نتسناناه ، التى تقع حوالى منتصف الطـريق بين اشدود ونجباه ، التى كان قد تخطاها فى التقدم الأصلى الى اشـدود ، وكانت نتسناناه ، الواقعة فى واد عميق — تحت حراسة قوة قوامهـا ١٥٠ رجلا . ومع انها كانت عقبة اكثر صلابة من اى من المستوطنات الصـغيرة الأخرى التى واجهها المصريون ، فانهم كانوا قد تعلموا من هذه الاخفاقات ، ومن نجاحهم فى يد مردخاى ، وجرى التخطيط للهجوم بعناية ، واشتمل على تنسيق بين كتيبة مشاة مصرية ، وفصيلة دبابات ، وسرية من العـربات المدرعة ، ومعظم فوج مدافع قذائف ٢٥ رطلا ، وبالاضـافة الى ذلك ، عهد الى سرب من الطائرات بدعم العملية .

وبدا قصف مدفعى ضد نتسناناه فى منتصف ليلة ٦ — ٧ يونيو ، وبدا الهجوم البرى فى السادسة صباحا ، وبعد صد اولى ، استدعى المصريون السلاح الجوى ، وتحت غطاء القصف الجوى ، نجحت المدرعات فى اختراق دفاعات المدينة ، وتبعها المشاة عن قرب ، واذ ادركوا انه لم يعد بوسعهم السيطرة على المستوطنة ، حاول المدافعون الانسحاب ، لـكنهم وجـدوا انفسهم مطوقين من جانب المصريين المحاصرين لهم ، وفى الرابعـة مساء ، بعد محاولات عديدة فاشلة للافلات ، استسلمت نتسناناه بعد ان خسرت ٣٣ قتيـلا .

لقد عزز من الروح المعنوية المصرية نجاحان قتاليان مصريان تعاقبـا تعاقبا سريعا ، اشدود ونتسناناه .. لـكن غارات لواء النقب المتكررة ، والمتصلة ضد خطوط مواصلاتهم لم تمنحهم غير وقت قصير للاحتفال بهـذين النجـاحين .

الملاحظـــات

١ — للاطلاع على مناقشة موضوعية لأشكال التضارب بين المصادر ، انظر لونفاك — هوروفيتز ، ص ٣٤ ، والهامش ، والملاحظات ٧١ — ٧٣ ، من ص ٤٠٤ — ٤٠٥ .

٢ — هذه الأرقام متضمنة فى يوميات بن جوريون ، مدينة اسرائيل ، وقد استشهد بها لونفاك — هوروفيتز ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤ .

٣ — المصدر السابق .

٤ — المصدر السابق .

٥ — زاد من صعوبة العبور ارتفاع مفاجىء وغير متوقع فى مستوى النهر ، وربما امكن ادراك حالة التنسيق العربى من واقع أن العراقيين قد لاموا الأردنيين الشرقيين على فتح السدود المقامة على نهر اليرموك وفروعه ، الأمر الذى تسبب فى الارتفاع المفاجىء فى مستوى النهر ، بيد ان المغيرين الاسرائيليين كانوا مسئولين ، فى واقع الأمر .

٦ — هنالك تهجئات كثيرة لهذا الاسم ، وهو موقـع بوليسى منزو وطريق عبور فى شـمال شرقى شبه جزيرة سـيناء ، وقد ادى موقعه الاستراتيجى الى بروزه فى ثلاثة حروب عربية — اسرائيلية .

٧ — هنالك خلاف فيما يتعلق بحجم المدرعات فى هذه القوة ، ويقول المدافعون عن نيريم : انه كان هنالك أربع دبابات وعديد من العـربات المدرعة ، ويقول المصريون : انه لم يكن هنالك غير عـدد قليل من ناقلات مدافع برن .

٨ — محمد نجيب ، قدر مصر (نيويورك ، ١٩٥٥) ص ٢٢

(٦)

المعارك من اجل السيطرة على القدس

فى ١٥ مايو ، قررت القيادة الاسرائيلية العليا ان كتيبة لواء جيفات المتواجدة فى ممر القدس — تل ابيب يجب ان ترسل الى الجنوب لتعزيز بقية اللواء فى وقف التقدم المصرى على طول الساحل صوب تل ابيب ، بيد انه تقرر فى البداية ارسال قافلة اخرى الى القدس قبل ان تغادر قوات الكولونيل آفيدان المنطقة .

وفى ليلة ١٥ — ١٦ مايو ، استولت سرية من لواء جيفات على اللطرون ، بينما كان لواء هاريل يحتل دير ايوب ، وفى ١٨ مايو ، مع رحيل قوات جيفات ، بدات قافلة يهودية فى التحرك من تل ابيب الى القدس ، وبعد ذلك — ومن اجل مواجهة تهديد الفيلق العربى للقدس الجديدة — جرى تحويل لواء هاريل شرقا ، بحيث يكون اكثر قربا من القدس .

وقد اقدمت القيادة الاسرائيلية العليا على مجازفة محسوبة ، بتحريكها لهذين اللواءين النظاميين التابعين للهاجاناه من ممر القدس ، ويبدو انهم قد املوا فى أن العرب سوف يكونون منشغلين للغاية فى اماكن اخرى ، بحيث لن يكون بوسعهم تحريك قوات كبرى لاغلاق الطريق ، وقد نجحت المغامرة تقريبا .

وعندما علم القاوقجى بالغزوات العربية المنسقة فى ١٥ مايو ، افترض ان جيشه قد انجز رسالته ، وانسحب الى لبنان من الجليل ، وامر وحداته التى كانت تعمل فى شمال ممر القدس بالتجمع فى « مثلث » السامرة ، وانتظار تعليمات اخرى من الجامعة العربية ، وفى الوقت نفسه ، فان الفيلق العربى ، مفترضا ان قوات القاوقجى كانت ما تزال فى الممر ، لم يخصص اى وحدات لذلك القطاع ، لكن الجنرال جلوب ادرك الموقف عندما علم فى ١٨ مايو بوصول عربات يهودية من تل ابيب الى القدس الجديدة ، وقد سارع بارسال فوجه الرابع(١) لاحتلال اللطرون ، الأمر الذى قام به دون مقاومة فى ١٩ مايو ، ومرة اخرى اصبحت القدس اليهودية معزولة ، وتم سد طريق قافلة الامداد التى كانت قد بدات فى اليوم السابق .

وفى اثناء ذلك ، وفى شرق القدس الجديدة مباشرة ، انشغل الفيلق العربى بين ١٦ و ٢٢ مايو بتوطيد مواقعه فى الشيخ جرش ، وفى مدينة القدس العتيقة ، وما حولها وخلال معظم هذا الوقت ، كان الاردنيون الشرقيون يواجهون مشكلة مرهقة نوعا ما فى الحى اليهودى من المدينة العتيقة .

كان يحد الحى اليهودى للقدس العتيقة من الشرق مسجد عمر ، ومن الغرب الحى الأرمنى ، ومن الشمال الحى الاسلامى الكبير ، ومن الجنوب حائط المدينة العتيقة ، وخلال الأيام الاخيرة للانتداب ، كانت فصائل من الهاجاناه ووحدة من الارجون قد تسللت الى الحى اليهودى لتشديد مقاومة السكان ، ولرفع روحهم المعنوية ، وعندما رحل البريطانيون ، فى مساء ١٣ مايو ، كانت الحامية تتالف من حوالى ٢٠٠ من جنود الهاجاناه وحوالى ١٠٠ جندى من الارجون .

ومع انسحاب البريطانيين ، احتلت الحامية عددا من المواقع المجاورة التى كانت تغطى مداخل الحى اليهودى ، كما استولت على كنيسة يونانية فى الحى الارمنى ، لأنها كانت تخشى من انها اذا لم تفعل ذلك فان برجها ، الذى كان يسيطر على الحى اليهودى ، قد يصبح موقع مراقبة للعرب ونقطة قوية لهم ، لكنها بناء على طلب من البطريرك ، تركت الكنيسة ، على اساس انه لن يتم السماح للقوات العربية بالاستحواذ على البرج . ورغم تاكيدات البطريرك ، فانه بمجرد انسحاب الاسرائيليين فى مساء ١٤ مايو استولى الجنود العرب غير النظاميين على الكنيسة وبرجها وبداوا اطلاق النيران على المدافعين الاسرائيليين داعمين عددا من الهجمات العربية المضادة المحدودة النطاق ، وفى الوقت نفسه ، اجبرت الهجمات العربية الاسرائيليين على ترك المواقع التى كانوا يسيطرون عليها بالقرب من بوابة صهيون ، الرابطة الوحيدة بين الحى اليهودى والقدس الجديدة .

ومع وصول الفيلق العربى الى الشرق ، اصبح من الواضح لدى القائد الاسرائيلى ، الكولونيل شاليتيل ، أن المدافعين وسكان الحى اليهودى قد اصبحوا فى وضع يائس ، ولهذا اعد خطة لاعادة فتح خطوط الاتصالات مع الحى اليهودى ، الذى يمكن عندئذ تعزيزه ، او اذا ما ازداد الموقف سوءا ، يتم اخلاؤه .

وكان على وحدات من لواء هاريل أن تحتل جبل صهيون ، وأن تدخل الحى الأرمنى من الجنوب عبر بوابة صهيون ، وفى تلك الأثناء ، يمكن لجزء من لواء ايتزيون أن يتغلغل من الغرب عبر بوابة يافا ، وكان موعد العملية هو مساء السابع عشر من مايو .

لكن الاتصالات بين الألوية كانت سيئة وكان التنسيق غير موجود من الناحية العملية ، وبسبب الفشل الادارى أو التخطيط غير المناسب

من جانب اركان لواء ايتزيون ، اصبح من الضرورى تأخير الهجوم لمدة ٢٤ ساعة .

وفى اثناء ذلك ، كانت الاستعدادات قد اصبحت واضحة لدى العرب ، وعندما شنت فصائل لواء ايتزيون الاربع المخصصة لهذه العملية هجومها بالفعل فى مساء ١٨ مايو ، كان الجنود العرب المحليون غير النظاميين فى انتظارها ، وقد تم قتل كل المهندسين المرافقين للقوة المهاجمة ، كما تم تشتيت عرباتها المدرعة ، وبدلا من مواصلة هجومها ، قضت القوات بقية الليل فى سحب جرحاها .

لكن لواء هاريل الأحسن تدريبا بكثير نفذ الجزء الخاص به من العملية بشكل فعال ، وبينما هاجمت بعض الوحدات جبل صهيون ، قامت فصيلة من المهندسين بفتح ثغرة فى بوابة صهيون فى الساعة ٣ر٢٥ صباحا يوم ١٩ مايو ، وسارعت وحدات هاريل المنتظرة الى النفاذ منها ، واقامت الاتصال بسرعة مع المدافعين عن الحى اليهودى ، وجرى ادخال وحدة تعزيز قوامها ٨٠ رجلا وكميات هامة من الذخيرة ، وخلال النهار ، واثناء الليل ، كان هنالك عدد من الهجمات العربية المضادة الصغيرة ، التى وجهت ضرباتها اساسا الى خط الاتصالات بين بوابة صهيون والحى اليهودى .

وفى صباح ٢٠ مايو — مع انها لم تكن على ما يبدو تحت ضغط كبير — انسحبت وحدات هاريل الى جبل صهيون ، مما سمح للعرب باستعادة السيطرة على بوابة صهيون .

وفى تلك الاثناء ، كان الفيلق العربى قد اتم توطيده ، لمواقع بقية المدينة العتيقة واصبح مستعدا لتكريس نفسه لاستئصال الجيب اليهودى ، ومع ان الجنرال جلوب كان عازفا عن الزام قواته بخوض معارك قتالية داخل المدينة ، الا انه قد شعر بأن من الضرورى تامين كل المدينة العتيقة قبل القيام بأى محاولات اخرى ضد المدينة الجديدة ، وبناء على ذلك ، ركزت كتيبة من الفيلق العربى انتباهها على الجانب الشمالى الغربى للحى اليهودى ، وتحت غطاء من نيران مدافع المورتار الكثيفة ، وبدعم مدفعى من جبل الزيتون ، تقدمت المشاة الاردنية الشرقية من مبنى الى مبنى .

وتدريجيا ، اجبر الاسرائيليون فى المدينة العتيقة على التراجع فى مبنيين ضخمين ، احدهما كنيس بن زاكاى ، وقد تركز فى تلك البقعة الصغيرة حوالى ١ر٥٠٠ يهودى ، وربما كان من بين هؤلاء ٢٥٠ جنديا كانوا ما يزالون اهلا للقتال ، بيد ان المدافعين عن الحى اليهودى قد استسلموا فى الساعة ٢ر٠٠ بعد ظهر يوم الثامن والعشرين من مايو ، اذ كانت نيران المدفعية والمورتار تلاحقهم من كل صوب وحدب ، حيث

بدا ان الفيلق العربى يعد نفسه لهجوم نهائى ، واخذ الجنود اليهود الباقون ، بمن فيهم الجرحى ، الى عمان كأسرى حرب ، كما تم احتجاز العجائز والأطفال لمدة قصيرة كأسرى ، على عكس ما تنص عليه المعاهدة الخاصة بشروط الاستسلام ، ولكن سرعان ما تم الافراج عنهم والسماح لهم بالعودة الى الأراضى الاسرائيلية فى المدينة الجديدة .

وفى اثناء ذلك ، كان قد اصبح من الواضح للجنرال جلوب ، مع حلول ٢٣ مايو ، ان مسالة التغلب على المقاومة فى الحى اليهودى ليست الا مسالة وقت ، ولذا ، فقد حول انتباهه الى المدينة الجديدة ، ووضع نصب عينيه كهدف اول له الاستيلاء على دير نوتردام ، الواقع غربى بوابة يافا مباشرة والمسيطر على الجزء الشرقى من القدس الجديدة ، وكان الجنود الاسرائيليون قد حولوا الدير سميك الاسوار الى حصن ، وكان من الواضح ان طردهم منه سوف يتطلب جهدا كبيرا .

وفى ٢٣ مايو ، جرى شن هجوم ، منسق للمشاة والعربات المدرعة ضد نوتردام ، وتقدمت قافلة تابعة للفيلق العربى ، من بوابة دمشق الى الدير ، تغطيها نيران كثيفة من وحدات المشاة التى اتخذت مواقع لها على سور المدينة العتيقة ، وكان من المخطط لها أن تقوم العربات المدرعة ، بدورها ، دعما لهجوم مباشر من جانب المشاة ضد الدير ، لكن العديد من العربات المدرعة قد دمرته قنابل المولوتوف ، مما منع تقدم القافلة وحال دون تحقيق الانتشار المخطط للعربات المدرعة ، واضطر جلوب الى وقف الهجوم .

وبعد محاولة فاشلة أخرى لشن هجوم على الدير ، كانت الخسائر شديدة فيه ، امر جلوب بوقف كل الهجمات التالية ضد الدير ، ولم يكن يعتقد ان الاستيلاء على الموقع يستحق الخسائر التى سوف تحدث ، وقد شعر هو وقائده الأعلى ، الملك عبد الله ، بالرضا لانهما بكسب السيطرة على المدينة العتيقة ومعظم الأراضى الباقية حول مدينة القدس الجديدة قد حققا هدفهما الرئيسى .

وبالاضافة الى ذلك ، فان قوات اخرى من الفيلق العربى كانت قد قطعت بحلول ذلك الوقت طريق تل أبيب — القدس ، وقرر جلوب الانتظار الى ان يخرج اليهود من المدينة الجديدة تحت ضغط قطع الامدادات او الى ان يتم تحديد خطوط حدود عن طريق تسوية سلمية ، وقد واصلت مدافع الفيلق العربى قصف الدير ومواقع اسرائيلية أخرى على الحدود الخارجية لدفاعات المدينة الجديدة ، بيد انه لم تجر محاولة لشن اى هجمات برية أخرى .

وفى ٢٠ مايو ، وصلت قوات مصرية — معظمها من المتطوعين التابعين لاحمد عبد العزيز — متقدمة عبر الخليل الى بيت لحم فى قوة للالتقاء مع قوات الفيلق العربى هناك ، وفى اليوم التالى ، تحرك الفيلق العربى ، منسقا تقدمه

مع تحرك مصرى الى الشمال من بيت لحم ، الى الجنوب من المدينة العتيقة ضد قرية رامات راسيل . وفى صباح الحادى والعشرين تم طرد هجوم منسق للمشاة الاسرائيليين بمن فيهم وحدة من الارجون — من القرية ، ومع حلول ما بعد الظهر ، كان المتطوعون المصريون قد احتلوا المستوطنة ، لكن المدافعين كانوا قد عززتهم عند منتصف ما بعد الظهر مجموعة من لواء ايتزيون من القدس، وفى ذلك المساء ، شن الاسرائيليون هجوما مضادا وطردوا المصريين .

ومع حلول ٢٥ مايو ، كان الاسرائيليون قد صدوا الهجمات المضـادة التالية من جانب الفيلق العربى والمصريين ، كما استولوا — بعد وصول وحدة معززة من لواء هاريل على دير مار الياس المجاور ، واصبح الجناح للقدس الجديد مؤمنـا .

وباستثناء التنشيط فى الحى اليهودى من المدينة العتيقة ، كانت المعارك من اجل السيطرة على القدس قد انتهت ، فقد سيطر الاسرائيليون على كل مدينة القدس الجديدة ، ومستوطنة رامات راشيل المجاورة ، والمستوطنين المعزولين على جبل الكرمل ، وفيما عدا ذلك ، فقد سيطر العرب على المنطقة .

وعندئذ ، كان من الواضح ان مصير القدس الجديدة اليهودية يعتمد على نتيجة العمليات فى الغرب ، وكان الفوج الرابع التابع للفيلق العربى ، تحت قيادة المقدم حابى المجالى ، قد سيطر مع حلول ٢٠ مايو سيطرة ثابتة على قطاع يمتد ثلاثة اميال من الطريق فى منطقة اللطرون ، ودير ايوب ، وباب الواد ، كما أن وحدات من الفوج الثانى التابع للفيلق فى اقصى الشرق قد سدت الطريق عند بـدو .

وهكذا اصبحت القدس معزولة مرة اخرى عن تل أبيب ، وهذه المرة ، على يد قوة جيدة الانضباط من الجنود النظاميين ، وليس على يد الجنـود غير النظاميين ممن لا يمكن الاعتماد عليهم ، والذين كانوا قد تدخلوا بشكل متقطع فقط ضد المرور على الطريق فى الأشهر السـابقة .

عندئذ قررت قيادة الهاجاناه العليا تنفيذ عملية كبرى للاسـتيلاء على اللطرون وكسر السيطرة العربية على الطريق ، وكان من المقرر للعملية ، التى سميت باسم « بن نون » على اسم يوشع بن نون ، الغازى التوراتى لأريحا، ان تكون عبارة عن هجوم منسق من الشرق والغرب يقوم به لواءان .

وكان يتعين شن الهجوم الرئيسى من الغرب من جانب اللواء السابع ، الذى نظم حديثا ، تحت قيادة الكولونيل شلوموشامير ، وكان هذا اللواء يشمل : كتيبة مدرعات جمعت على عجل ، مجهزة بعربـات نصف مجنزرة حديثة الوصول ، وهكذا اصبحت الوحدة المدرعة الاولى للجيش الاسرائيلى، اما كتيبته الأخرى فكانت تتألف من مهاجرين وصلوا حديثا من أوروبا ، كما خصصت للعمل مع اللـواء السابع كتيبة من قـدامى المحاربين من لـواء اليكسندرون .

وفى هجوم ثانوى ، من الشرق ، كان على عناصر من لواء هاريل ان تشل تحرك أكبر عدد ممكن من قوات المقدم المجالى ، لابعادها عن المجهود الرئيسى ، وبمجرد تحقيق لواء شامير لهدفه الأول الخاص باحتلال مرتفع اللطرون ، يتعين على قوات هاريل احتلال قطاع اللطرون — باب الواد من الطريق ، ثم التحرك شمالا للاستيلاء على التلال الوعرة بين بين وبـدو ورام الله .

وكان يتعين تنفيذ هجوم اللواء السابع على اللطرون والمرتفع المجاور من جانب كتيبتين — كتيبة تابعة للواء اليكسندرون بقيادة الميجور زفى جيرمان، وكتيبة من المهاجرين الجدد من اوروبا ، بقيادة الميجور حاييم لاسكوف ، وكان المهاجرون هؤلاء من قدامى المحاربين فى الحرب العالمية الثانية الذين عملوا فى جيوش بلدانهم الأصلية ، بيد انهم لم يتلقوا تدريبا مشتركا الا لفترة قصيرة ومع كادر الهاجاناه قبل هذه العملية .

وكان من المخطط شن الهجوم بعد وقت قصير من منتصف ليل ٢٥ مايو، بيد انه قد تأخر بسبب تأخر وصول كتيبة اليكسندرون ، التى لم تتهيأ لبدء تحركها الا فى الرابعة صباحا ، وعندئذ كان قصف سابق للأوان من جانب حفنة مدافع الهاوزر عيار ٦٥ مم التابعة للاسرائيليين قد نبه العـرب ، وعندما جاء الهجوم ، كانت قوات المجالى مستعدة . وتكبدت كل من الكتيبتين الاسرائيليتين خسائر فادحة للغاية ، خاصة كتيبة اليكسـندرون ، وانتهت معركة اللطرون الاولى كهزيمة ساحقة للاسرائيليين .

وفى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، قبل فجر ٢٦ مايو ، هاجمت سرية من الفيلق العربى موقعا اسرائيليا على تل الرادار ، الذى يطل على الطريق بين ابو غوش وبدو . وتكلل هذا الهجوم بالنجاح ، وتم طرد مجموعة هاريل المرابطة على تل ، وسارع الفيلق العربى الى توطيد الموقع ، مؤمنا بهذا الشكل مداخل اللطرون من الغرب . ورغم الهجمات المضادة العديدة، لم يتمكن الاسرائيليون قط من استعادة هذا الموقع الرئيسى .

وفى ٢٨ مايو ، جرى تعيين الكولونيل ديفيد (« ميكى ») ماركوس — وهو متطوع امريكى وخريج ويست بوينت(٢) — قائدا لكل القوات الاسرائيلية العامة فى القدس وفى ممر القدس — تل أبيب . وقد سارع الى توجيه هجوم آخر ضـد اللطرون .

وفى ٣٠ مايو ، جرى شن هجوم آخر ضد مدافعى الفيلق عن اللطرون. ومرة اخرى ، كان على كتيبتين اسرائيليتين ان تشاركا فى المجهود الرئيسى احداهما كتيبة لاسكوف التابعة للواء السابع ، والأخرى كتيبة تابعة للواء جيفات تحت قيادة الميجـور ياكوف ، حلت محل الكتيبة التـابعة للواء اليكسندرون .

وقد استولت كتيبة جيفات على دير ايوب دون مقاومة ، الا انه عندما تحركت القوات صوب اللطرون فانها قد واجهت نيرانا كثيفة وتم صدها .

وفى تلك الاثناء ، كانت كتيبة لاسكوف ، التى كانت تضم مجموعة من العربات المدرعة ، تقترب من اللطرون من اتجاه آخر ، ودون أن يكون لديه علم بانسحاب كتيبة جيفات ، حاول لاسكوف شن هجوم مشترك من جانب المشاة والمدرعات ضد القرية ، وقد نشل ، فى جانب منه ، بسبب سوء التنسيق . لكن السبب الرئيسى للفشل كان يتمثل فى دقة تصويب نيران الفيلق العربى وكثافتها ، وبعد أن تكبدوا خسائر شديدة للغاية ، اضطر لاسكوف ورجاله ايضا الى التراجع .

وكان هذا الفشل الثانى فى الاستيلاء على اللطرون ضربة قاسية للاسرائيليين ، خاصة فى ضوء موقف الامداد الحرج فى القدس . ولتقدم بعض الامدادات التى كانت هنالك حاجة ماسة اليها ، نظم ماركوس عملية امداد طارئة عبر بعض الممرات الجبلية فى الممر ، مع حمل الامدادات على ظهور البغال ، وفى بعض الحالات على ظهور الجنود ، وكانت الوحدة الأولى التى وصلت الى القدس بامدادات هى مجموعة من لواء جيفات .

وفى ١ يونيو ، وافقت قيادة الهاجاناه العليا على توصية من جانب الكولونيل ماركوس ببناء طريق احتياطى جنوب الطريق الرئيسى من بير محيسن الى باب الواد ، ولمنع العرب من معرفة اى شىء عن هذه العملية ، وربما التدخل ضدها ، فان معظم عمليات البناء كانت تتم خلال الليل ، كما تم احتلال قريتى بيت جيز وبيت سوسين العربيتين واخلاؤهما من سكانهما ، لصون الأمن ، وجرى جمع كل الجنود والمهندسين الموجودين للعمل فى المشروع ، وتم تجميع كل البولدوزرات التى كان من الممكن جمعها من الأجزاء الواقعة تحت السيطرة الاسرائيلية فى فلسطين .

ومع حلول ٦ يونيو ، مع اقتراب فصائل العمل احداها من الأخرى من القدس ، وتل ابيب ، كان معظم مسار الطريق قد تم تمهيده ، باستثناء قطاع وعر بصورة خاصة وفى ذلك اليوم ، تحركت الامدادات الاولى على الطريق ، وان كان قد تعين حملها بالأيدى عبر المسافة القصيرة التى كان الطريق غير قابل للاجتياز ، وكان الطريق ، الذى عرف باسم « طريق بورما » ، قابلا للاجتياز — وان لم يكن قد استكمل — فى ١٠ يونيو ، عندما تحركت القافلة الأولى من تل ابيب الى القدس .

ورغم بناء « طريق بورما » ، فقد قررت قيادة الهاجاناه العليا محاولة شن هجوم آخر على اللطرون ، التى كان يسيطر عليها آنذاك فوجان من الفيلق العربى ، الثانى والرابع ، وقد تحرك لواء يفتاح عبر الممر وتم وضعه تحت قيادة الكولونيل ماركوس .

وكانت الخطة الاسرائيلية ، التى سميت باسم سرى يعرف بعملية « يورام » تستوجب شن تحرك كماشة واسع النطاق ضد اللطرون ، وكان على كتيبتين من البالماخ : واحدة من لواء هاريل وواحدة من لواء يفتاح ، ان تهاجما اللطرون من الشرق ، وكان على كتيبة اخرى من لواء يفتاح أن تهاجم بدو ، ومن ثم تعزل جزءا من الفيلق فى القطاع الشرقى من الممر .

وقد بدات العملية فى منتصف ليلة ٨ — ٩ يونيو ، ووصلت عناصر من الكتائب الثلاث ، الى اجزاء — على الاقل — من اهدافها ، ولكن لم يكن بوسعها السيطرة على مواقعها فى مواجهة النيران الكثيفة والهجمات المضادة المحلية الشرسة من جانب الفيلق وتكررت محاولة العملية فى الليلة التالية، لكن احدى الكتائب تبدد شملها ، بينما اضطرت كتيبة اخرى الى الانسحاب تحت ضغط نيران الأردنيين الشرقيين الكثيفة .

وفى ١٠ يونيو ، شن الفيلق هجوما مضادا ، واستولى على مستوطنة جيزير ، بيد ان عناصر من لواء يفتاح استعادت بعد ذلك السيطرة على جيزير فى المساء . وبينما كان هذا الهجوم المضاد دائرا ، لقى الكولونيل ماركوس مصرعه فى الساعة ٣ر٥٠ من صباح ١١ يونيو ، عندما اخفق فى الرد على سؤال ديدبان اسرائيلى ، وكان السؤال بالعبرية ، وهى لغة لم يكن الكولونيل قد تعلمها بعد ، وقد حاول هذا الديدبان الشاب قتل نفسه عندما عرف هوية من قتله .

ومن حيث نتائجها المباشرة ، لم تكن الهزيمة الاسرائيلية الثالثة فى اللطرون على نفس درجة خطورة الكارثتين السابقتين ، كما أن الخسائر لم تكن بمثل تلك الفداحة . بيد أن الكولونيل ماركوس كان قد اظهر ، فى اقل من أسبوعين فى موقع قيادى هام ، كيف اجتمع فيه من النشاط والمقدرة، ما ميزه كواحد من القادة البارزين للهاجاناه وكان موته كارثة .

الملاحظـــــات

١ – يوازى قوة كتيبـــة .

٢ – كانت هنالك تكهنات بأن الكولونيل ماركوس ، حديث الاستقالة من الجيش الامريكى ، قد ارسله البنتاجون الى اسرائيل استجابة لضغط من البيت الأبيض الذى كان هو نفسه واقعا تحت ضغط من اليهود الامريكيين لمساندة دولة اسرائيل الجديدة ، ولم تتمكن من التوصل الى الحقيقة فى هذا الصـدد .

(٧)

الهـــدنة الأولى

برنادوت ومراقبـــو الأمم المتحـــدة

خلال الاسابيع التالية للغزو العربى الفلسطينى ، حاولت الامم المتحدة دون جدوى تحقيق وقف اطلاق النار ، وفى ٢٠ مايو ، عين مجلس الأمن الكونت السويدى فولك برنادوت اف ويزبورج كوسيط من الامم المتحدة بين العرب والاسرائيليين ، وكان يساعده فريق من مراقبى الأمم المتحدة ، يتكون من ضباط عسكريين من بلجيكا ، وفرنسا ، والسويد ، والولايات المتحـــدة ، سمى بهيئة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة . وقد تمكن برنادوت بعد جهودمكثفة من اقناع كل طرف بأن الطرف الآخر فى مسيس الحاجة الى هدنة ، وهكذا انقذ عن طريق الدبلوماسية البارعة كلا من الطرفين من طلب الهدنة التى كانا فى الواقع فى حاجة ماسة اليها .

ورغم ان العرب قد بدا انهم يعتقدون ان بوسعهم الاستفادة من هدنة قصيرة بدرجة اكبر مما بوسع الاسرائيليين ، فانهم لم يكونوا مستعدين مع ذلك للموافقة على فترة هدنة اكثر من اربعة اسابيع ، من ١١ يونيو الى ٩ يوليو ، وكان الاسرائيليون يؤثرون هدنة اطول ، لكنهم كانوا على استعداد لقبول اربعة اسابيع .

وبالاضافة الى وقف اطلاق النار فى المواقع ، كانت الشروط الأساسية لبنود الهـــدنة تنص على أن ايا من الجـــانبين لن يحاول تحسين وضعه العسكرى ، وعلى عدم تحريك القوات أو العتاد ، وعلى عدم ادخال قوات مقاتلة جديدة من جانب اى من الفريقين ، وعلى عدم السماح بدخول مهاجرين جدد قادرين على حمل السلاح الى فلسطين ، الا بناء على موافقة خاصة من الوسيط الدولى،واخيرا،كان يتعين امداد القدس عن طريق قافلة تحت رقابة الصليب الأحمر الدولى . اما فى حقيقة الأمر ، فان الشرط الأخير من هـــذه الشروط الاضافية هو وحده الذى جرى الالتزام به التزاما تاما ، وان كان كل من الفريقين قد التزم عموما بوقف اطـــلاق النار طوال فترة الأســـابيع الاربعـــة .

اسرائيل تعيد تنظيم نفسها :

لقد افادت اسرائيل افادة ممتازة من تلك الاسابيع ، وقد وضعت الاولوية على اعادة تنظيم وتدريب القوات المسلحة ، واستيعاب العتاد الحربى الذى كان يصل من اوروبا ، خاصة من تشيكوسلوفاكيا ، فى تيار متصل ، وفى الوقت نفسه ، اتاحت هذه المهلة الفرصة لاعادة تنظيم الادارة المدنية فى ارجاء امة حديثة الانشاء ، ولتأكيد السلطة المركزية على المستوطنات المبعثرة والاراضى التى تحتلها قواتها المسلحة .

وكان احد العناصر الرئيسية لاعادة التنظيم العسكرى يتمثل فى تنفيذ بنود مرسوم الحكومة المؤقتة ، الذى كان قد خلق من الناحية الرسمية جيشا قوميا ، وكان ذلك المرسوم هو الأمر رقم ٤ ، الصادر فى ٢٨ مايو ، والذى خول الحكومة فرض التجنيد فى حالة الطوارىء ، ونص على انشاء جيش قومى اعتبارا من ١ يونيو ١٩٤٨ ، وقد عرف هذا الجيش باسم ازفاه هاجاناه لى اسرائيل ، او قوات الدفاع الاسرائيلية التى سرعان ما اشتهرت باسم « زاحال » .

وطبقا لخطط معدة سلفا ، انشأت قيادة « زاحال » العليا اربع « قيادات » للاقاليم او المناطق ، وقد ادى ذلك الى خلافات حادة بين الاركان العامة لقوات الدفاع الاسرائيلية وبن جوريون حول مسألة من الذين يجب تعيينهم لهذه المواقع القيادية الرئيسية ؟

ويبدو ان بن جوريون ، رغم انه هو نفسه اشتراكى ، كانت لديه بعض الشكوك حول امكانية الثقة فى ضباط الهاجاناه ذوى الاتجاهات الاشتراكية، ولم يكن هنالك شك فى ولائهم للدولة ، لكن الكثيرين كانوا اعضاء فى حزب المابام اليسارى ، ذى الميول السوفييتية ، واقل من ان يكونوا مؤيدين متحمسين لبن جوريون ، زعيم حزب الماباى المنافس . وقد شعر بأن بعض الضباط الاكثر محافظة ممن كانوا قد عملوا خلال الحرب العالمية الثانية مع الجيش البريطانى لم يكونوا محترفين عسكريين اكثر خبرة وحسب ، بل كان من المرجح ايضا ان يكونوا اكثر تعاطفا مع حزب الماباى واكثر استقرارا وانضباطا فى مواقع مسئولياتهم ، وكان الكولونيل شلومو شامير والكولونيل مورد خاى ماكليف من بين الضباط المهمين الذين كان بن جوريون يؤثرهم .

ومن الناحية العملية ، كان بيجال يادين ، نائب الجنرال دورى ، هو رئيس الأركان العامة خلال مرض دورى ، وقد عارض بشدة تعيينات بن جوريون المقترحة ، وقد شعر ان من الأهمية بمكان بالنسبة الى معنويات الجيش ، وكذلك بالنسبة الى ضمان التفاهم المتبادل بين القادة والمرؤوسين، ان يشغل هذه المواقع الرئيسية ضباط مجربون من الهاجاناه ، مارس معظمهم العمل النشيط مع البالماخ . ومع انهم كانوا يكنون لهم الاحترام ، فان معظم ضباط الهاجاناه والبالماخ القدامى كانوا ينظرون الى الضباط الذين حصلوا على تدريب بريطانى كدخلاء .

وعندما وجد يادين أن بن جوريون مصر على تعيين الضباط البريطانيين السابقين فى المواقع القيادية الاقليمية ، قدم استقالته . واثار ذلك بدوره قلقا ومعارضة ملحوظة بين اعضاء حزب الماباى الذى يتزعمه بن جوريون، ولذا قدم بن جوريون هو الآخر استقالته ، وقد جرى حل المأزق عن طريق تأجيل التعيينات لأى من القيادات باستثناء القيادة المركزية الحاسمة ، حيث كان من المنتظر ان تجرى السلسلة التالية من العمليات الرئيسية .

وقد اعطى هذا المنصب الهام ليجال آللون ، قائد البالماخ الشاب ، وكان هذا التعيين فى جانب منه اعترافا بقدرة آللون الاستثنائية ، لكنه كان ايضا محاولة من جانب بن جوريون لتهدئة قادة البالماخ الذين ازعجهم دمج وحداتهم — التى كانت فى وقت الأوقات صفوة الهاجاناه — فى الوحدات الأخرى فى زاحال الجديدة ، وحوالى هذا الوقت منحت رتبة « آلوف » ، أو البريجادير جنرال — والتى كانت قد منحت حتى ذلك الحين لدورى ويادين فقط — لرؤساء هيئاتهم الرئيسيين ، كما جرت ترقية آللون الى آلوف .

وكانت المادة الرابعة من الأمر رقم ٤ شرطا صريحا ضد بقاء اى قوات مسلحة غير قوات الدفاع الاسرائيلية نفسها داخل اراضى الدولة ، ومن الواضح تماما ان هذا الشرط كان موجها ضد الارجون وليهى .

وبموجب بنود اتفاق ٢٦ ابريل بين الهاجاناه والارجون ، كان قد سمح للارجون بأن تشكل قوة فريدة تحت قيادة ضباطها الخاصين ضمن اطار للارجون بأن تشكل قوة فريدة تحت قيادة ضباطها الخاصين ضمن اطار تكوينى ، وبينما اعترفا بسيادة قيادة الهاجاناه العليا ، فان خضوعها لهذه السلطة كان اسميا فقط ، لكن بن جوريون رئيس الوزراء قد اوضح الآن ان لديه كل النوايا لتنفيذ بنود المادة الرابعة من الأمر رقم ٤ .

وفى ٢ يونيو ، وقع ممثلو الأرجون اتفاقا مع ممثلى قوات الدفاع الاسرائيلية بأن ينضم كل أعضاء الأرجون فى الأراضى الواقعة تحت سلطة الحكومة المؤقتة الى قوات الدفاع الاسرائيلية ، وان يؤدوا يمين الولاء . وقد نص الاتفاق على تسليم كل أسلحة ومعدات الأرجون الى قوات الدفاع الاسرائيلية ، وعلى توقف الأرجون عن الوجود كمنظمة منفصلة ومستقلة داخل دولة اسرائيل ، وعلى توقف كل مشتريات الأسلحة المنفصلة ونقل كل تعاقدات الامداد الى قوات الدفاع الاسرائيلية ، لكن كان من المفهوم بشكل واضح أن هذا الاتفاق لا ينطبق على القوات فى المناطق المعزولة عن بقية اسرائيل ، وهو ما يعنى ، بطبيعة الحالة ، تلك الموجودة فى منطقة القدس .

حادث آلتالينا :

فى الأشهر السابقة على الاستقلال ، كانت الأرجون قد جمعت فى الخارج كمية ضخمة من الأسلحة ، وقد اخبر قادتها الحكومة الاسرائيلية بأن هذه

سوف تصل الأسلحة ، جنبا الى جنب مع حوالى ٩٠٠ جند للأرجون ، على سفينة اسمها التالينا ، كانت الأرجون قد حصلت عليها من فرنسا ، وقد اوضح ممثلو الأرجون انهم ينتظرون ان يكون هؤلاء المجندون وهذا العتاد للاستخدام الخاص لوحدات الأرجون الســابقة .

وقد نظر بن جوريون الى هذا الموضوع بوصفه فرصة لخوض معركة حول سلطة الحكومة المؤقتة ، فقد ابلغ الأرجون أنه بموجب شروط الأمر رقم ٤ واتفاق ٢ يونيو ، فان قوات الدفاع الاسرائيلية سوف تكون مسئولة عن توزيع العتاد وتوزيع المجندين ، ولم يكن ذلك مقبولا لدى الأرجون ، وقد فشلت جهود التوصل الى تسوية ، وعندئذ أمر بن جوريون ببساطة بتسليم كل الأسلحة والذخيرة الى قوات الدفاع الاسرائيلية ، التى سوف تتحمل المسئولية عن المجندين القادمين .

وفى ٢٠ يونيو ، وصلت التالينا الى ساحل اسرائيل ورست امام كفار نتقين ، وصدرت الأوامر للواء اليكسندرون (الذى أضيفت اليه مجموعة من راكبى سيارات الجيب من كتيبة « الهجوم الآلى » الجديدة التابعة للميجور موشيه دايان) بمنع وحدات الأرجون المنتظرة من تفريغ وتوزيع الأسلحة ، وبعد ٤٨ ساعة من التوتر ، الذى تخلله تبادل متقطع للنيران بين الأرجون ووحدات من لواء اليكسندرون ، استسلمت قوة الأرجون .

وعندئذ ، وبشكل مفاجىء ، فى منتصف ليلة ٢ يونيو ، فى تحد ســافر للحكومة قادت الأرجون التالينا الى المرفأ المواجه لتل أبيب ، ومرة أخرى أمر بن جوريون قوات الهاجاناه بمنع تفريغ الأسلحة من السفينة ، وسارعت وحدات من لواءى النقب ويفتاح بالتحرك الى تل ابيب لتعزيز حامية المدينــة الصغيرة فى تطبيق هذا الأمر .

ومرة اخرى تفجر القتال بين قوات الدفاع الاسرائيلية والأرجون ، ولقى ١٥ رجــلا مصرعهم ، وللتأكد من ان الأرجون لن تحصل على العتاد ، تم اغراق التالينا بنيران مدافع عيار ٦٥ مم خلال هذا القتال .

وفى ٢٨ يونيو ، ادى الجيش كله يمين الولاء وتوقفت الأرجون عن الوجود كقوة منفصلة ، باستثناء الكتيبة الموجودة فى القدس ، التى احتفظت بهويتها وبقدر من الاستقلال ، جرى حل وحدات الأرجون وتم نقل رجالها الى وحدات الهاجانــاه .

الفرقة العربية المستمرة :

كان احد الامور التى امل العرب فى تحقيقها خلال الهدنة هو حل خلافاتهم وصوغ خطة موحدة للعمل ، وبالرغم من جهود مكثفة ولكن غير منسقة من جانب الحسينى وعبد الله ، ملك شرق الأردن ، فقد تبينت استحالة ذلك ، لكن معظم الجيوش العربية قد افادت من الهدنة للاسترخاء ، واعادة التجمع ، واعادة تسليح قواتهــا .

نزاع فى الجنــوب :

لم تكن مراعاة الهدنة تامة فى القطاع الجنوبى تماما فى المناطق الأخرى من البلاد ، وذلك اساسا بسبب تقاطع خطين هامين لمواصلات القــوى المتعارضة : فقد كان طريق الشرق ـ الغرب من المجدل عبر بيت جبرين الى الخليل هو المحور الجانبى الذى يربط القوتين المصريتين الرئيسيتين فى فلسطين الجنوبية ، وقد اعتبر المصريون امتلاك هذا الطريق شيئا جوهريا بالنسبة الى امتهم ، واعترفوا بانه يشكل ممرا يعزل القوات الاسرائيلية فى النقب عن القوات الاسرائيلية فى شمال ووسط فلسطين .

وبالنسبة الى الاسرائيليين ، فان بقاء المستوطنات والقوات فى النقب يتوقف على طريق امداد من الشمال ، ويتقاطع مع طريق المجدل ـ الخليل قرب الحليقات ، وهكذا ، فان اى اجراء من جانب اى من الفريقين للمحافظة على فتح طريق امداداته ومواصلاته كان يعتبر تلقائيا انتهاكا للهدنة من جانب الفريق الآخــر .

مشروع برنادوت :

خلال فترة الهدنة،سعى الكونت برنادوت متلهفا الى صيغة للسلام على امل ان تصبح الهدنة القصيــرة هدنة اطول ، تؤدى فى نهاية الأمر الى معاهدة سلام . وفى اوائل يوليو طرح برنادوت مشروعا كان يأمل فى أن يكون مرضيا لكل من الفريقين ، وقد تبين أنه غير مقبول بتاتا من جانب اى منهما .

وبما ان الاسرائيليين كانوا قد استولوا على معظم الجليل الغربى ، الذى كان مخصصا للعرب فى مشروع التقسيم الأصلى الذى صدر عن الأمم المتحدة ، وبما أن النقب كان صحراء عديمة القيمة ، فقد اقترح برنادوت تعديل مشروع التقسيم الأصلى بحيث يمنح كل الجليل للاسرائيليين ، ومعظم النقب للعرب ، وتكون القــدس تحت سلطة الأمم المتحــدة مع الســماح للاسرائيليين بالاحتفاظ بممرهم حتى يكون بوسعهم الوصول مبــاشرة الى المدينة المقدسة المدولة ، دون أن يضطروا الى اجتياز أرض عربية ، كما كان مقررا فى مشروع التقسيم الذى صدر عن الأمم المتحدة ، وقد اقتــرح برنادوت أن يوضع كل الجزء العربى من فلسطين تحت ادارة شرق الأردن .

وعلى الورق ، بدا هذا المشروع منطقيا للغاية فقد كان يعنى أن تكون لكل من العرب والاسرائيليين اراض متصلة ثابتة بما يكفى بدلا من خليط الجيوب الخاص وغير الواقعى الذى كانت الأمم المتحدة قد خلقته ، وكان من المفروض أن يصبح حجم الأراضى متســاويا تقريبا بالنسبة الى كل من الجانبين ، ومع أن العرب كانوا سيحصلون على أرض اضافية قليلة ، فان كل هذا الكسب سوف يتألف من صحراء لا فائدة منها .

وبالنسبة الى العرب ، الذين أساء معظمهم تفسير نتائج المرحلة الأولى من القتال فى مايو ويونيو ، كان من غير المعقول أن يتخلوا لليهود عن ذلك

الجزء الكبير من اراضيهم . بما ان نفس مفهوم دولة اسرائيلية مستقلة كان غير مقبول تحت اى ظرف من الظروف ، فقد بدا للعرب ان مما يزيد الطين بلة تعويضهم عن فقدان اراضى الجليل الزراعية ومراعيها بصحراء النقب القاحلة ، وقد اكد مشروع برنادوت لدى العرب عزمهم على مواصلة الحرب الى نتيجة ناجحة بمجرد انتهاء اسابيع الهدنة الاربعة فى ٨ يوليو .

اما بالنسبة الى الاسرائيليين ، فقد اكدت مقترحات برنادوت لديهم شكوكهم فى انه اداة للبريطانيين ، وكانوا قد قيموا نتائج الأسابيع الاربعة الاولى للقتال بشكل ادق من العرب . وصاروا واثقين من ان دولة اسرائيل قد اصبحت آمنة ، وان المناطق التى احتلوها عند حلول الهدنة يمكن السيطرة عليها ضد اى هجوم عربى محتمل .

والواقع انهم لم يروا اى داع ، مع تدفق الأسلحة والعتاد الى اسرائيل من الخارج ، خاصة من دول اوروبا الشرقية ، لعدم شن الهجوم بعد انقضاء الهدنة ، وفرض سيطرة راسخة على المناطق التى كانت قد منحت لهم بموجب مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ، والتى كانت ماتزال محل نزاع، وكانت النقب الجنوبية المنطقة الرئيسية بين هذه المناطق .

وكان بن جوريون ، على الخصوص ، واثقا من ان مما له اهمية اقتصادية قصوى بالنسبة الى دولة اسرائيل ان يكون لها منفذ على البحر الاحمر عبر خليج العقبة ، ولهذا كان مصرا على الاحتفاظ بالنقب الجنوبية ضمن الحدود التى وضعها مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة على الأقل ، كما كان واثقا من ان بالنقب موارد سوف تكون هامة لاسرائيل ، بل وانها قد تصبح ارضا زراعية ثمينة ، اذ ما امكن تحويل المياه اليها من نهر الاردن ، او ربما من البحر الميت او البحار المفتوحة القريبة عبر شكل ما من مشروعات ازالة الملوحة .

وبينما كان الاسرائيليون يؤثرون ، وقتا اطول لاعادة التنظيم والحشد العسكرى ولانتظار وصول المزيد من الطائرات والأسلحة الثقيلة ، فانهم كانوا يخشون من ان الأمم المتحدة قد تتبنى مشروع برنادوت وتحاول فرضه عليهم . وقد قرروا ان افضل السبل امامهم للاطاحة بالمشروع هو جعله غير واقعى ، وبناء على ذلك ، اعدوا شن هجوم بمجرد انقضاء الهدنة ، وبما ان العرب كانوا قد قرروا بالفعل نهج تحرك مماثل ، فلم تكن هنالك امكانية لاستمرار الهدنة .

(٨)

هجوم الأيام العشرة الاسرائيلى

بدافع من رغبة لليهود فى نسف مشروع برنادوت ، صاغت قوات الدفاع الاسرائيلية استراتيجية جديدة ، تستهدف انجاز اهم اهدافها بأسرع مايمكن، وكانت الاولوية الأولى بالنسبة اليها هى تأمين القدس الجديدة والسيطرة على طرق الوصول اليها بأقصى درجة ممكنة من الحزم .

وبمجرد حماية القدس ، فان هدفها الثانى كان يتمثل فى فتح طرق وصول آمنة الى النقب ، وفيما عدا ذلك من الاماكن ، فقد خططت للاحتفاظ بموقف دفاعى استراتيجى لكنها كانت تقصد بالهجمات التاكتيكية المحلية الحاق أقصى مايمكن من الاصابات بجيش التحرير العربى التابع للقاوقجى ، مع الامتصاص التدريجى لكل المناطق الفلسطينية التى ماتزال واقعة تحت السيطرة العربية ، ومنع العرب من توسيع اى من الأراضى الواقعة حاليا تحت سيطرتهم .

ولم يكن اى من الجانبين يعرف الوقت الذى سوف يتاح له فى غضونه تنفيذ استراتيجيته الجديدة ، لكن الاسرائيليين كانوا مستعدين لشن الهجمات فى كل المناطق فور انقضاء الهدنة تقريبا ، كما تبين فيما بعد ، فقد كان امامهم عشرة ايام قبل ان تؤدى هدنة ثانية الى وقف العمليات .

الجبهة المركزية :

عندما انقضت الهدنة الأولى ، اصبح ممر القدس هو البؤرة الرئيسية لنشاط قوات الدفاع الاسرائيلية ، وكان الفيلق العربى وجيش التحرير العربى يسيطران على اللد ، والرملة ، ومطار اللد ، التى اتاحت لها قاعدة للهجمات المحتملة علىّ تل ابيب ، التى تبعد مسافة ١٠ كيلو مترات بالكاد . وكانت كتيبتا مشاة تابعتان للفيلق العربى ، مع دعم من المدرعات والمدفعية ، قد تركزتا فى المنطقة الواقعة شمال وشرق اللطرون ، وبين اللطرون والرملة ، كانت قوات الدفاع الاسرائيلية تسيطر على قريتى البيرة والقباب ، بينما كانت قرية بن شيمين اليهودية المحصنة المعزولة تقع على بعد حوالى ٢ كيلو متر من شرق اللطرون .

وكان الجنرال جلوب قد اراد الاستيلاء على بن شمن عندما احتلت قواته اللطرون فى منتصف مايو ، لكن القادة العرب المحليين احتجوا بانهم كانوا دوما على علاقات طيبة مع سكان بن شمن ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد كانوا يخشون من ان يؤدى مثل هذا الهجوم الى جر الجيش الاسرائيلى برمتـه الى الانقضـاض عليهم .

وكانت كل من اللد والرملة تحت سيطرة قوات محلية وغير نظامية ، تابعة كلها من الناحية الاسمية لجيش التحرير العربى الذى يقوده القاوقجى، وكانت كل من هاتين المدينتين جيدة التحصين ، وكان فى كل منهما قـوات صغيرة تابعة للفيلق تدعم الفدائيين .

وخلال الهدنة ، كانت القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية قد اعدت خططـا لعملية اسمها « دانى » تستهدف ازالة الضغط العربى على القدس وعلى الممر بمهاجمة العرب فى منطقة اللد — الرملة — اللطرون — رام الله الواقعة بشكل عام شمال غربى القدس وكان هناك هدف ثانوى هـام للاستيلاء على هذه المنطقة يتمثل فى ازالة التهديد العربى المباشر لتل ابيب.

كما كانت هناك مائدة اضافية هامة تتمثل فى احتلال مطار اللد ، المطار الرئيسى الوحيد فى كل فلسطين ، رغم انه لم يكن عاملا آنذاك .

وخلال الاسابيع النهائية للهدنة ، عكف الجنرال آللون على اعداد خطط لتنفيذ عملية « دانى » ، ومع حلول ٩ يوليو ، عندما انقضت الهدنة ، كانت الخطة جاهزة ، وكان يتعين تنفيذ العملية على مرحلتين : اولا : الاستيلاء على مدينتى اللد والرملة العربيتين ، لتامين السهل الساحلى وكسب السيطرة على مطار اللد ، ثم يتعين بعد ذلك توسـيع الممر المـؤدى الى القـدس بالاستيلاء على اللطرون ورام الله .

وعهد الى ثلاثة الوية بتحمل الادوار الرئيسية عن المرحلة الاولى ، وكان لواء هاريل تحت قيادة الكولونيل جوزيف تابينكين ، ولواء يفتاح تحت قيادة الكولونيل شموئيل كوهين ، لواءين شديدى المراس ، اثبت كل منهما نفسه فى ساحات القتال ، وكان يعمل معهما اللواء المدرع الثامن حديث التنظيم تحت قيادة اسحق صادح ، المؤلف من كتيبة دبابـات مكونة من عدد من العربات المدرعة المصنوعة محليا وعشر دبابات خفيفة فرنسية من طـراز هـ — ٣٥ ، ودبابتين بريطانيتين من طراز كرومويل ، ودبابة امريكية واحدة من طراز شيرمان م — ٤ — وكتيبة من الكوماندوز راكبى عربـات الجيش والعربات نصف المجنزرة ، وكتيبتى مشاه واحدة مكلفة من لواء اليكسندرون، واخرى من لواء كيريـات .

وكان على المساندة ان تجىء من بعض وحدات المدفعية حديثة التنظيم، المجهزة بمدافع عيار ٧٥ مم و ٦٥ مم ، التى كانت قد وصلت مؤخرا من اوروبا، وكذلك من طائرات السلاح الجوى لقوات الدفاع الاسرائيلية سريع النمو .

وكانت توجد هنا بعض العلاقات الطريفة بين القادة : فيجال آللون، بوصفه القائد ، الذى كان يصدر الاوامر لاستاذه ورفيقه السابق ، اسحق صادح ، الذى كان مايزال يحمل رتبة كولونيل ، وفى لواء صادح ، كان موشيه دايان ، زميل آللون السابق فى البالماخ ، والذى كان مايزال يحمل رتبة ميجور، هو الذى يقود كتيبة الكوماندوز من راكبى عربات الجيب او العربات نصف المجنزرة ، او كتيبة المشاة المدرعـة .

وكانت خطة المرحلة الاولى لعملية « دانى » تنص على شن هجوم من جانب لواء صادح المدرع من الغرب ، احتلال المطار اولا ، ثم للاتجاه الى الريف الجبلى شمال اللطرون لتخفيف الضغط عن بن شمن ، وفى وقت متزامن ، كان على لواء يفتاح — قرب جيزير فى ممـر القدس جنـوبى اللطرون — ان يتقدم شمالا عبر التلال الواقعة شمال شرق اللطرون للالتقاء بصادح عند بن شمن .

وبمجرد التقاء هاتين القوتين ، تصبح اللد والرملة واللطرون كلهـا معزولة ، وسيتسنى عندئذ الاستيلاء عليها واحدة بعد اخرى ، اللد اولا ، والرملة بعد ذلك ، ثم اللطرون (اشدها صعوبة) فى النهاية ، وعهد الى لواء هاريل بمسئولية حماية طريق القدس وتوسيع الجزء الجنوبى من الممر وكذلك تقديم احتياطى للواءين الآخرين .

وقد بدا الهجوم الاسرائيلى عند هبوط الليل فى ٩ يوليو ، مع انقضاء الهدنة ، وخلال الليل والصباح التالى ، تقدم لواء يفتاح بسرعة الى الشمال من الممر ، واستولى بسهولة على ثلاث قرى عربية فى طريقه ، وبدا السلاح الجوى الاسرائيلى قصف اللد والرملة ، وتولت كتيبة من لواء كريات صرف الانظار شمال المطار وشرق تل ابيب . ومع هبوط ليلة ١٠ يوليو ، كان لواء يفتاح قد وصل الى بن شمن ، اما لواء صادح فقد استولى على مطار اللد، لكنه قد فشل فى محاولاته للاستيلاء على دير طريف فى مواجهة مقاومة الفيلق العربى الضارية . لكن كتيبة موشيه دايان الهجومية الميكانيكية التاسـعة والثمانين كانت قد تخطت دير طريف ، ووصلت الى بن شمن . ومع ان المواصلات المؤدية الى الغرب كانت هشة ، فان حركة الكماشة كانت قد اكتملت .

ودون توقف قصير للراحة او لانتظار دعم المدفعية ، انطلق دايـان وقواته الى اللد . واندفعت الكتيبة الميـكانيكية داخل المدينة ، واخترقت الدفاعات الخارجية للعرب الذين فوجئوا بالهجوم . وتحركت العربات نصف المجنزرة وسيارات الجيب الاسرائيلية — بالاضافة الى عربة مدرعة تم الاستيلاء عليهـا — داخل المدينة ، واخذت تطلق النيران ضد كل المراكز التى يشتبه فى انها مراكز للمقاومة ، ثم عادت وفاجأت المدافعين المرتبكين بالاسـتدارة والعودة عبر اللد مرة اخرى . وبينما كان العرب يحاولون اعـادة تنظيم انفسهم ، وصل لواء يفتاح ، وخلال الليل ، تغلب الاسرائيليون على المقاومة

الضعيفة والمبعثرة . وقد ادى هذا العمل البطولى الى التفـات ايجـابى من جانب رئيس الوزراء بن جوريون الى دايان .

واستسلمت اللد للواء يفتاح فى الصباح التالى ، لكن عندما دخلت داورية مدرعة من الفيلق العربى الى المدينة بعد وقت قصير من ذلك ، تدفق الجنود غير النظاميين العرب من المنازل وهاجموا وحدات يفتاح ، وبعد قتال مستميت من بيت لبيت ، استولى الاسرائيليون على المدينة ، ورحل معظم السكان العرب خلال الليلة التالية .

وفى اليـوم التالى — ١٢ يوليو — حاصر لواء كيريات الرملة ، التى استسلمت دون قتال . ومرة اخرى ، اعقب سقوط المدينة نزوح جماعى للسكان العرب .

وهكذا انجز الاسرائيليون المرحلة الاولى من عملية دانى بنجاح .

غير أن ضياع اللد والرملة ، رغم انه كان مخيبا لآمال الفيلق العربى ، ولم يكن غير متوقع ، اذ لم تكن لـدى الجنرال جلوب قـوات كافية بحيث يتمكن من وضع حاميات ضخمة فى هاتين المدينتين وقـد اضطر الى الاعتماد على السكان المحليين وعلى جماعة متنافرة من وحدات جيش التحرير العربى من سوريا والأردن .

وقد استعد الفيلق فى هـدوء لدفاع آخر عن اللطرون ، وعندئذ كانت هناك — بالاضافة الى الكتيبة المتواجدة فى اللطرون — كتيبتان اخريان ارسلتا الى شمال وشرق المدينة المعدة للقتال .

وكانت الخطة الاسرائيلية للمرحلة الثانية من عملية دانى تتضمن قيام كتيبة من لـواء هاريل بهجوم مضلل على تل الرادار ، الـذى يطل على الطريق الواقع غربى القدس ، خـلال ليلة ١٤ — ١٥ يوليو . وتحت غطاء من هـذا الهجوم المضلل ، كان على لـواء يفتاح وكتيبة من لواء صادح المدر ان يهجما على اللطرون ، لـواء يفتاح من الغرب والكتيبة المدرعة من الجنوب . (وكانت بقية لـواء صادح فى اقصى الشمال ، حيث كانت تسيطر على مطار اللد وبن شمن) .

وفى الساعة ٢ر٤٥ من صباح ١٥ يوليو ، هاجم لواء هاريل السلسلة الجبلية ناحية شمال ومؤخرة اللطرون ، بيد ان المقاومة هنا كانت صعبة للغاية ، وقـد عجز الاسرائيليون عن احـراز اى تقدم ضد كتيبتى رجال الفيلق العربى المنضبطتين وفى وقت متزامن مع ذلك ، استولى لـواء يفتاح على قريتى برانااليا وسالديت ، لكنه فشل فى محـاولته للاسـتيلاء على قرية بودنيف .

وطوال اليومين التاليين ، كان القتال شـديدا ، اذ كانت الالوية الاسرائيلية تواصل هجماتها ، ومع غسق ١٧ يوليو ، كان يفصل بين اللواءين ثلاثة كيلو مترات فقط ، وخـلال الليل جـدد كل منهما جهوده . بيد أن القوات الاسرائيلية كان قد اصابها الارهاق آنذاك . فهى لم تتوقف دون تحقيق مكاسب وحسب ، بل انها قد اضطرت الى التخلى عن جانب من المجال الـذى انتزعته امام هجمات الفيلق العربى المضادة الجريئة .

وكانت هدنة ثانية على وشك الحدوث ، وقـد قـرر الجنرال آللون محاولة شن هجوم مباشر على اللطرون من جانب جزء من لواء يفتاح ، بدعم الدبابات من اللواء الثامن ، لكن الوقت كان محدودا وقـد فشل الهجوم الذى كان سيىء التنسيق ، الذى تم شنه بعد منتصف الليل بوقت قصير فى تحقيق اى شىء ، وفى فجر ١٨ يوليو ، سرى مفعول الهدنة ، وتوقف اطـلاق النار .

وبشكل عام ، كانت عملية دانى نجاحا اسرائيليا هاما ، وكان الاستيلاء على المطار انجازا رئيسيا فى حد ذاته ، وقـد كفل احتلال مدينتى اللد والرملة سيطرة اسرائيلية شبه كاملة على السـهل السـاحلى فى منطقة تل ابيب .

ومن ناحية اخرى ، فان الفيلق العربى لم يشعر بخيبة أمل خطيرة بسبب نتائج العملية ، اذ لم تكن لـدى جلوب قوات كافية لحماية اللد والرملة دون أن يؤدى ذلك الى اضعاف القوات المتواجـدة فى اللطرون ورام الله ، والقدس بصورة خطيرة . وقد امل فى ان الأفـواج العـربية المحلية ، بمساعدة من وحدات غير نظامية من الأردن وسوريا ، سـوف يكون بوسعها السيطرة على المدينتين[٢] ، غير انهما عندما ضاعتا ، ركز الفيلق على الدفاع عن اللطرون وقـد نجح هنالك تماما .

ومع أن الاسرائيليين قد فشلوا فى الاستيلاء على اللطرون ، فان لواء هاريل قد وسع ممر القدس الى الجنوب ، وسمح ذلك ببناء طريق آخر الى القدس .

وفى تلك الأثناء ، كانت سلسلة من الهجمات الاسرائيلية الثانوية تدور فى القدس وما حولها ، وكانت لهذه الهجمات الاسرائيلية ثلاثة أهـداف أساسية : الاستيلاء على قريتى المالحة وعين كريم ، جنوبى المدينة العتيقة ، واستعادة السيطرة على الأقل على جزء من مدينة القدس العتيقة ، وكذا الاستيلاء على الشيخ جرش .. وكان من شأن انجاز أول هذه الأهداف تعزيز السيطرة الاسرائيلية على الطرف الشمالى لطريق القدس تل ابيب ، ومن ثم المساهمة فى العمل الرئيسى (عملية « دانى » الجارى غربا .

وكان احتلال مدينة القدس العتيقة هدفا مهما ، فى ضوء مشروع

برنادوت ، وكان من شأن انجاز الهدف الثالث ــ الاستيلاء على الشيخ جرش ــ سد المداخل العربية الى مدينة القدس الجديدة من الشرق والشمال ، وربط المواقع الاسرائيلية الرئيسية فى القدس الجديدة بالمواقع الامامية على جبل الكرمل ، والالتفاف حول المدينة العتيقة ، ومن ثم المساهمة فى انجاز الهدف الثانى .

وفى ليلة ٩ ــ ١٠ يوليو تحركت مجموعة من الجادنا « الشبيبة » (مؤلفة من جنود تتراوح اعمارهم بين السادسة عشرة والسابعة عشرة) من لواء ايتزيون الى الجنوب لتطهير سفوح جبل هيرتزل ، الذى يسيطر على قرية عين كريم ، وفى الوقت نفسه هاجمت مجموعة من ليهى سلسلة الجبال المطلة على الطريق الذى يربط قريتى المالحة وعين كريم .

ومع ان مجموعة ليهى قد فشلت تماما فى تحقيق هدفها ، واضطرت الى الانسحاب بعد ان تكبدت خسائر فادحة ، فان مجموعة « الشبيبة » قد نجحت ، واستولت على قريتى حربة النمامة وبيت مسيل ، وبمجرد توطيد الاسرائيليين مواقعهم على جبل هيرتزل ، بدأ العرب فى الانسحاب من عين كريم .

وفى ١١ يوليو تعرضت القدس الجديدة لأول هجوم جوى عليها ، فقد اسقطت القاذفات المصرية عددا من قنابل زنة ١٠٠ كجم على المدينة ، لكنها لم تتسبب فى اى خسائر هامة .

وفى ليلة ١٣ ــ ١٤ يوليو ، هوجمت قرية المالحة من جانب كتيبة من الارجون ، نجحت فى كسب جزء من المدينة . بيد ان الفيلق العربى شن فى الخامس عشر هجوما مضادا واجبر قوات الأرجون على الانسحاب بعد ان تكبدت خسائر فادحة ، وفى تلك الليلة جرى تعزيز وحدة الأرجون وتمكنت من استعادة معظم القرية .

وقبل ان يسرى مفعول الهدنة الثانية ، قررت القيادة الاسرائيلية العليا استعجال العمليات فى منطقة القدس ، لكن الجنرال جلوب كان قد قرر ان يفعل الشىء نفسه ، ففى ١٦ يوليو بدأت قوات الفيلق العربى التابع له فى قصف القطاعين الشمالى والشمالى الشرقى من المدينة الجديدة ، واخترقت الهجمات الاختبارية قطاعات عديدة من الدفاعات اليهودية ، وكان القتال ضاريا بشكل خاص حول مبنى ماندلباوم ، الذى نجح الاسرائيليون فى الاحتفاظ به ، لكن الفيلق استولى على عدد من المنازل قرب بوابة دمشق .

عندئذ نشطت القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية كتيبة اضافية من قوات هيش فى القدس ، وكان عليها ان تتعاون مع كتيبة الأرجون فى عملية سميت باسم سرى هو « كيديم » ، كان الهدف منها هو الاستيلاء على كل او جزء من المدينة العتيقة قبل الهدنة .

ولساعات عديدة ، ضربت نيران المدفعية الاسرائيلية المواقع العربية فى المدينة العتيقة وحولها ، لكن مدافع الفيلق العربى ردت على النيران ردا مؤثرا . واخيرا ، شن الهجوم الاسرائيلى ، وهاجمت كتيبة القدس الجديدة بوابة صهيون فى الجنوب فى تنسيق مع هجوم الأرجون ضد البوابة الجديدة فى الشمال ، بيد انها سرعان ما اوقفت ، ولم تنجح الكتيبة الجديدة قط فى اختراق الدفاعات قرب بوابة صهيون ، وعند فجر ١٧ يوليو ، مع سريان مفعول الهدنة فى القدس (قبل المناطق الاخرى بأربع وعشرين ساعة) انسحبت كلتا الوحدتين الاسرائيليتين الى مواقعهما السابقة .

الجبهة الجنوبية :

فى القطاع الجنوبى ، كانت كتيبتان من لواء جيفعات تسيطران على سلسلة من المستوطنات شمال وشرقى اشدود ، تمتد من يفنه الى جلوون ، وكانت كتيبتا لواء جيفات الأخريان تشكلان احتياطا خلفهما مباشرة ، وكان لواء النقب مكلفا بالدفاع عن مستوطنات النقب ومن ثم كان مبعثرا بشكل واسع . وقد تولت احدى الكتائب حراسة المستوطنات الواقعة جنوبى طريق غزة ــ بئر سبع ، بينما كانت الكتيبة الأخرى مسئولة عن أمن المستوطنات الواقعة الى شمالية . اما الكتيبة الثالثة ، وهى قوة كوماندوز صغيرة ، فقد اهتمت بالدرجة الأولى فى تأمين الامدادات وخطوط المواصلات الى المستوطنات والوحدات .

وكانت القوات المصرية فى تلك المنطقة قد جرى تعزيزها خلال يونيو واوائل يوليو ، وبلغ مجموعها اربعة الوية عند انقضاء الهدنة الأولى ، وكان احد هذه الألوية ، ومقر قيادته فى غزة ، يحتل القطاع الساحلى الممتد من الحدود الى المجدل ، وكان هناك لواء آخر ــ هو اللواء الثانى ــ تحت قيادة العميد محمود فهمى نعمة الله ، ومقر قيادته فى المجدل ــ وكان مسئولا عن امن منطقة اشدود ، وكان هناك لواء ثالث ــ بقيادة العميد نجيب ، ومقر قيادته فى الفالوجة ــ وكان يحتل المحور الممتد من المجدل عبر بيت جبرين الى الخليل ، اما اللواء الرابع ــ المؤلف فى معظمه من المتطوعين التابعين لعبد العزيز ــ فقد كان يسيطر على بئر سبع والمنطقة الواقعة شمالا الى الخليل وبيت لحم .

وكان لدى كل من الفريقين خططا لشن هجوم فور انقضاء الهدنة خلال ليلة ٩ ــ ١٠ يوليو . وكانت خطة المصريين تتمثل فى توسيع ممرهم الممتد من الشرق الى الغرب ، وكان من شأن ذلك زيادة تأمين خطوط مواصلاتهم ، وان يقطع بصورة مؤثرة خطوط الاتصالات بين اللواءين الاسرائيليين فى المنطقة الجنوبية ، وان يمنع تجديد الامدادات الاضافية للمستوطنة الاسرائيلية فى النقب .

وقد اطلق على الهجوم الاسرائيلى اسم سرى هو « آن — فار » (اى ضد فاروق) . وعين الكولونيل شيمون آفيدان ، قائد لواء جيفات ، قائدا عاما للعملية . وكان على لواءى جيفات والنقب ان يتوليا ، بالتنسيق فيما بينهما ، تطهير الطريق المؤدى الى النقب ، وقطع طرق الامداد المصرية ، وطرد المصريين من اشدود . وخلال الليلة الاولى ٩ — ١٠ يوليو ، كان على قوات لواء جيفات ان تصرف انتباه العرب فى منطقة اشدود — جبرين ، بينما يتولى لواء النقب تحت قيادة الكولونيل ناحوم ساروج الاغارة فى منطقة كفار داروم . وكان على لواء النقب فى الليلة التالية ان يستولى على موقع بوليس عراق سويدان عند تقاطع الطرق ، بينما يواصل لواء جيفات ابقاء المصريين ومؤيديهم العرب المحليين منشغلين شمالا .

ولما كان المصريون قد لا حظوا الاستعدادات الاسرائيلية ، فقد قرروا اللجوء الى المفاجاة ببدء الهجوم . وبزعم وقوع انتهاك اسرائيلى للهدنة (وهو زعم قد يكون له او قد لا يكون له اساس معين) ، شن المصريون هجومهم فى الساعة ٠٠ : ٦ من صباح ٨ يوليو ، قبل انتهاء الهدنة بـ ٣٦ ساعة ، وقد اسفر الهجوم المفاجىء الاول ، الذى قام به لواء نجيب المعزز جنوبى الطريق ، عن انتزاع موقع كوكبه من لواء النقب ، وانسحب الاسرائيليون الى الحليقات ، لكن المدرعات المصرية التى كانت تلاحقهم سرعان ما اجبرتهم على الانسحاب منها ، وفى الوقت نفسه ، استولى المصريون على التل ١١٣ ، وهو ربوة تسيطر على نقطة التقاء طرق النقب، وهاجموا قرية بيت داراس التى تمكنت من صد اربع هجمات من جانب وحدات سودانية ، فان المصريين قد حصنوا التل ١١٣ ، وهاجموا كيبوتز بخباه المجاور .

وقد تمثل الرد الاسرائيلى ، على الهجوم المصرى فى تقديم توقيت تنفيذ عملية آن — فار ٢٤ ساعة ، وبعد حلول الليل مباشرة فى ٨ يوليو ، بدات وحدات النقب وجيفات فى التحرك نحو الأهداف المحددة لها . ومع ان لواء جيفات قد تمكن من الاستيلاء على قريتى بيت عفا وابديس ، وسيطر مؤقتا على جزء من قرية عراق سويدان ، فقد تعين ترك القرية الأخيرة عندما جرى صد لواء النقب من موقع البوليس المجاور .

وفى مساء ٩ يوليو ، شن المصريون هجوما مضادا ، اذ كانوا قد خططوا لتطويق ثم اكتساح مستوطنة بخباه الاسرائيلية ، لكنهم لم يحققوا تقدما كبيرا فى مواجهة المقاومة الاسرائيلية العنيدة ، وبعد ليلة ونهار من القتال المتصل استراح كل من الجانبين خلال ليلة ١٠ — ١١ يوليو واعاد تنظيم صفوفه فى ١١ يوليو .

وقد اختلف اللواء المواوى والعميد نجيب حول الخطط ، ورفض نجيب تنفيذ خطة المواوى ، ولذا اعفاه اللواء .

وقد شاركت ثلاث كتائب مشاة مصرية ، وكتيبة مدرعة ، وفوج مدفعية، مع اسلحة وطائرات مساندة مختلفة فى هجوم متجدد امر به المواوى ضد بخباه فى ١٢ يوليو ، وبدات عند الفجر فى اطلاق وابل كثيف من نيران المدفعية والسلاح الجوى لاضعاف المستوطنة ، بينما شنت هجمات تضليلية ضد ابديس وجوليس ، لكن بخباه عززتها وحدات من لواء النقب ، وكما توقع نجيب ، صد الهجوم الرئيسى المصرى مع خسائر فادحة ، وبعد ان تكبد المصريون مصرع اكثر من ٢٠٠ جندى ، تخلوا عن المحاولة ، وذكر الاسرائيليون انهم خسروا ٢١ رجلا . بعدئذ حول المصريون انتباههم الى مستوطنة بيروت اسحق ، قرب غزة ، وفى وقت متاخر الى حد ما ، اخذوا يقضون على تهديد لخط مواصلاتهم ، كانوا قد سمحوا ببقائه لمدة شهرين . وكانت مستوطنة بيروت اسحق يقوم بحراستها حوالى ٧٠ مستوطنا مسلحا عززتهم فصيلة من لواء النقب من نفس القـوة تقريبا .

وبعد وابل اولى من نيران السلاح الجوى والمدفعية ، بدا المصريون هجوما للمشاة على ثلاثة جوانب من المستوطنة ، ومع حلول الظهر ، كانت كلها قد حققت بعض التغلغل ، عندئذ توقف المصريون عن الهجوم وبداوا فى اعادة تنظيم صفوفهم واستجلاب التعزيزات .... ، لكن التعزيزات الاسرائيلية ، على شكل كتيبة كوماندوز من لواء النقب وبطارية مدفعية ، كانت تقترب هى ايضا .

ومع ان السلاح الجوى المصرى قد هاجم هذه القافلة ، فان النتائج كانت تافهة ، وقد نجحت المدفعية الاسرائيلية فى الاستيلاء على مواقع داخل مدى القوات المصرية ، بينما عززت كتيبة الكوماندوز الدفاعات .

ومع حلول الساعة ٤٥ ر ٦ مساء ، كان المصريون قد تخلوا عن هجومهم ، بعد ان خسروا ٢٠٠ قتيل آخرين ، وذكر الاسرائيليون انهم خسروا ٣٣ قتيلا .

لقد كان للهزائم المزدوجة فى بخباه وبيروت اسحق ، جنبا الى جنب مع النزاع الذى ذاعت اخباره بين اكبر ضابطين فى قوة الحملة ، اثر عميق على المعنويات المصرية ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، اصبح المصريون دائما فى موقف الدفاع ، وكان الاسرائيليون قد حققوا تفوقا معنويا هاما .

وفى تلك الاثناء كان لواء جيفات — الذى عززته مجموعة برمائية بحرية عملت كمجموعة مشاه — قد جدد محاولاته لفتح ، ملتقى الطرق واستعادة الاتصالات مع النقب ، لكن الاسرائيليين ، هذه المرة ، شنوا هجومهم اقصى الشرق ، بهدف ايجاد اتصال اقليمى عبر الاستيلاء على مدينتى حتا وكرتيا ، وكان اسم العملية السرى هو « الموت للغازى » .

وكان على لواء النقب فى الوقت نفسه ان يستولى من جديد على العديد من المعاقل جنوب ملتقى الطرق ، بينما كان على لواء هاريل — فى ممر القدس — ان يتجه جنوبا ويلاحق القوات المصرية فى تلك المنطقة . ومن اجل تامين عنصر المفاجأة الحيوى ، جرى تنفيذ العديد من العمليات التى تهدف الى صرف الانظار ، وقد فاجأ واحد من انجح هذه العمليات ، من جانب لواء جيفات ، الكتيبة المصرية عند بيت تمفا ، خلال ليلة ١٤ — ١٥ يوليو .

وبدأت العملية الرئيسية فى ليلة ١٧ — ١٨ يوليو ، قبل سريان مفعول الهدنة الثانية مباشرة . واستولى لواء النقب على موقع هام جنوبى الفالوجه مباشرة ، لكن المهاجمين تم صدهم من الحليقات وكوكبا ، كما فشل لواء جيفات فى جهوده الرامية الى الاستيلاء على بيت تمفا ، التى كان المدافعون عنها مستنفرين جدا ، وقد لحقت خسائر فادحة بشكل خاص بمجموعة مشاة البحرية الملحقة بلواء جيفات .

ولكن على خلاف هذه الاخفاقات ، سارت الهجمات الاسرائيلية فى الشرق ضد حتا وكرتيا بشكل سهل تماما . فقد تم الاستيلاء على حتا بعد معركة قصيرة ، ولكن شديدة . وتحركت كتيبة الميجور دايان المعززة ، المؤلفة من المدرعات والكوماندوز صوب كرتيا ، التى سقطت قبل فجر ١٨ يوليو . ومع ان المصريين شنوا هجمات مضادة عدة مرات ، مستخدمين المشاة والمدرعات ، ولكن الاسرائيليين قد صدوا هذه الهجمات الى ان سرى مفعول الهدنة الثانية فى الساعة ٧:٠٠ من مساء ١٨ يوليو .

وهكذا ، فان الاسرائيليين ، رغم ان سيطرتهم كانت اكثر هشاشة مما كانوا يأملون فيه ، قد نجحوا فى فتح ممر جديد الى النقب وفى سد سبيل مواصلات الشرق والغرب بين المجدل والخليل .

الجبهة الشمالية :

كان احد أهداف القوات الاسرائيلية فى فلسطين الشمالية تدمير جيش التحرير العربى التابع للقاوقجى او تقليص فعاليته بشدة على الاقل ، ومع ان ذلك كان تحويلا طفيفا للأنظار عن الهدف الرئيسى فى الجبهة المركزية ، فقد شعر الاسرائيليون ان من الممكن تحقيق هذا الهدف باستخدام صغير نسبيا للقوة ، لان جيش القاوقجى كان أضعف الجيوش المتحاربة كلها . وفى وقت متزامن مع ذلك ، كان جهدهم الرئيسى يتمثل فى طرد السوريين من مواقعهم فى مشمر هيردن فى شرق الجليل الأوسط .

وكان راس الجسر السورى فى مشمر هيردن تحت سيطرة لواء مشاة واحد تدعمه الدبابات والمدفعية ، وكان هناك لواء سورى ثان على المرتفعات المطلة على الضفة الشرقية لنهر الأردن ، كما كان الجيش اللبنانى يسيطر على خط من روش هنقراه ، على الساحل ، الى منطقة المالكية ، وقد اشتبه الاسرائيليون — عن حق — فى ان اللبنانيين سوف يسعون الى تجنب الانخراط فى اى عمليات فى الشرق او فى الجنوب .

وفى ذلك الوقت ، كان جيش التحرير العربى فى فلسطين الشمالية يتألف من حوالى ٢٠٠ر٢ جندى ؛ من بينهم ٦٠٠ رجل فى كتيبة سورية نظامية . وكانت هذه القوات متركزة بشكل رئيسى على المنطقة الجبلية شمالى وادى السدرايلون ووادى جيزريل .

اما القوات العراقية التى كانت تتكون من لواءين مع دعم معين من المدرعات ، فكانت متركزة فى مثلث السامرة ، جنين — طولكرم — نابلس .

وكان الاسرائيليون فى شمالى ووسط فلسطين يضمون الحرس المسلح للمستوطنات العديدة ، بالاضافة الى الواء اليكسندرون ، ولواء جولان ، ولواء كرمل ، واللواء السابع ، والوية عوديد . وكان القائد العام هو البريجادير جنرال موشيه كرمل .

وكانت المرحلة الأولى للهجوم الاسرائيلى المخطط تحمل اسما سريا هو عملية « بروش » وكان هدفها تطويق وتدمير السوريين فى راس الجسر حو مشمر هيردن . وكان يتعين تنفيذ المجهود الرئيسى فى العملية على يد لواء كرمل ، الذى اصبح تحت قيادة الكولونيل مورد خاى ماكليف ، وقد وضعت بعض الوحدات من لواء عوديد تحت قيادة ماكليف لتنفيذ العملية ، بينما قامت وحدات عوديد بهجوم كابح ضد راس الجسر السورى من الغرب ، كان على القوة الرئيسية للواء كرمل أن تطوق مشمر هيردن من الشمال ، وكانت احدى السمات الجوهرية للعملية تتمثل فى عبور كتيبتين من لواء كرمل نهر الاردن شرق حولاتاه ، من اجل تطويق السوريين فى مشمر هيردن ، لتقطع خطوط مواصلاتهم . ولمهاجمتهم فى الشرق .

وقد جرى شن عملية بروش فور هبوط ليل ٩ يوليو ، وتمكنت كتيبة من الكتيبتين المطوقتين من اجتياز نهر الأردن كما كان مخططا ، اما الاخرى فقد اخرتها صعوبات غير متوقعة ، سرعان مازادتها تعقيدا نيران المدفعية السورية المؤثرة من كل من الشرق والغرب . ثم عند ما وصل خبر تهديد سورى ظاهر لروش بناه (على بعد سبعة كيلو مترات شمال شرق صفد) ، جرى وقف الحصار ، وانسحبت الوحدات الى نقطة انطلاقها ، متخلية عن العديد من المواقع السورية التى كان قد تم الاستيلاء عليها .

ومن الصعب فهم السبب فى السهولة التى سمح بها الاسرائيليون لانفسهم ، بأن يجرى تحويلهم عن هدفهم ، كنتيجة لتهديد سورى كان من شأنه ان يجعل المهمة الاسرائيلية أسهل بكثير ، وليس من الواضح ما اذا كانت المسئولية عن هذا الفشل تقع على البريجادير جنرال كرمل القائد العام ، أو على الكولونيل ماكليف . قائد العملية ؟

وعند الفجر ، شن السوريون هجوما مضادا ، بعد ان حصلوا على مساندة رائعة من سلاحهم الجوى ، وكانت الأرض الصخرية حول

مشمر هيردن قد عرقلت مقدرة الاسرائيليين على حفر الخنادق ، وتكبدوا خسائر كثيرة من المدفعية والطائرات السورية ، وعند الظهر ، كان السوريون قد استعادوا كل ممتلكاتهم السابقة غربى الأردن وكان الاسرائيليون قد انسحبوا لتغطية مداخل روش بناه وميشمانابيم .

وفى تلك الاثناء ، هاجم اللواء السورى المرابط على المرتفعات الوحدات الاسرائيلية ، التى كانت قد رابطت على الضفة الشرقية لنهر الاردن ، واجبر هـذا الهجـوم القوات الاسرائيلية على الانسـحاب التـام الى الضفة الغربية .

وبعد ثلاثة أيام من اعادة التنظيم ، جرى تكرار المحاولة الاسرائيلية لمحاصرة مشمر هيردن ، لكن السـوريون كانوا على اهبة الاستعداد ، واوقفوها قبل ان تكتمل بدايتها وفشلت عملية بروش بالكامل وسـاد الركود حول راس الجسر السورى ومشمر هيردن .

واثناء الهدنة الأولى ، سيطرت الوحدات الشمالية لجيش التحرير العربى التابع للقاوقجى على معظم غرب الجليل الأوسط من الناصرة شمالا الى الحدود اللبنانية ، لكنه تعرض لتضييق الخناق عليه من الغرب بسبب سيطرة لواء كرمل على الطريق الساحلى من عكا شمالا الى روش هنقراه ، وفى الجنوب والشرق بسبب سيطرة لواء جولان على الطـريق الممتد عبر العفولة الى طبرية .

ولاسباب غير واضحة ، يبدو ان القاوقجى قد خطط لشن هجومين متزامنين عند نهاية الهدنة ، فى اتجاهين مختلفين ، فقد خطط لشن هجوم بجزء من قواته فى اتجاه الشمال نحو سجره (اليعينه) ربما بهدف استعادة طبرية وربما بهدف استعادة ارتباطه مع السوريين . وفى الاتجاه الآخر — ناحية الغرب — كان هدفه على ما يبدو هو الاسـتيلاء اما على عكا او نهرياه ، او ربمـا كلتيهما ، لكى يوجد لنفسه قاعدة على سـاحل البحر . وبما انه كان من الواضـح لدى القـاوقجى ان قـواته لم تكن كافية ولـو لشن هجوم مستقل واحد ، فمن المرجح ان التحرك الذى خطط له نحو الغرب كان تحويلا للانظار ، لمساعدته على اللحاق بالسوريين فى الشرق .

وعلى اى حال ، فان اسـتراتيجية القاوقجى لشن هجمات فى اتجاهات مختلفة قد استغلها فعلا الاسرائيليون الذين كان من اهدافهم بعد الهدنة تدمير جيش التحرير العربى ، او الحاق اضرار حيوية به .

وكان الليفتنانت كولونيل حاييم لاسكوف ، مع ثلاث كتائب من اللواء السابع (كانت احداها مدرعة) وكتيبة من لواء كرمل ، قد تولى مهمة تامين السيطرة على الطريق الساحلى وسهل الجليل الغربى شمال حيفا ،

ثم الاتجاه جنوبا صوب قاعدة القاوقجى فى الناصرة ، وقـد سميت هـذه العملية بالاسم الرمزى « ديكيل » .

ودعما لعملية ديكيل كان لواء جولان — المنتشر على طول ممر العفولة من الساحل الى الجليل الشرقى — قد تولى مهمة شـغل جيش التحرير العربى ، وصرف انظاره عن المجهود الرئيسى فى الغرب ، وطبيعى ان هذه المهمة قد سهلها هجوم القاوقجى فى اتجاه سجره .

وفى ٩ يوليو ، عند انقضـاء الهدنة ، بـدا القاوقجى هجومه من الناصرة فى اتجاه سجره ، لكنه لم يحقق تقدما ، وتكرر الهجوم العربى فى كل يوم من الأيام الثلاثة التالية ، لكنه فشل ايضا فى تحقيق اى تأثير فى دفاعات لواء الجولان التى تغطى مفترق الطرق فى الوادى جنوبى سجره .

وفى ١٢ يوليو ، تعرض المدافعون عن القرية لتركيز مدفعى حديث شديد التفجير قامت به المدفعية السورية الملحقة بجيش التحرير العربى ، لكن ذلك ايضا فشل فى زحزحة المدافعين عن مواقعهم .

وفى ١٤ يوليو ، بعد ان رتب لدعم جوى من السلاح السورى ، حاول القاوقجى الهجوم مرة اخرى ، لكن هـذا الهجوم النهائى ، الذى جرى شنه بقوة مع دعم من العربات المدرعة والطائرات ، قد فشل هو الآخر ، وفى اليوم التالى ، بينما كان العرب يعيدون تنظيم صفوفهم ، بـدات وحدات من لـواء جولان ، معززة من طبرية ، هجوما مضادا محدودا .

وفى تلك الأثناء ، ناحية الغرب ، كانت عملية ديكيل الاسرائيلية قد سارت طبقا للخطة ، وفى مساء ٩ يوليو ، كانت قـوات لاسكوف ، المتقدمة من منطقة عكا فى اتجاه الشرق ، قد وصلت الى الطريق الداخلى عند قاعدة السفوح الجبلية ، وفى ١٠ ، ١١ يوليو ، اندفع الاسرائيليون شمالا وجنوبا ، وفى تعاون مع القرويين الدروز فى المنطقة وطدوا مواقعهم ايضا فى التلال ناحية الشرق .

وفى ١١ يوليو ، بـدات وحـدات جيش التحرير العربى شرقى عكا فى وقت متأخر الى حد ما الهجوم — او تحويل الأنظار — فى اتجاه الساحل والذى كان القاوقجى قد أمـر به فى تنسـيق مع هجومه على سجره ، لكن الاسرائيليين كانوا عندئذ قد اتخذوا مواقع جيدة التحصين على التلال بحيث امكن رد العرب بسهولة .

وسيطر لاسكوف على مواقعه ليوم آخـر ، منتظرا معرفة ما اذا كان اللبنانيون سـوف يدخلون القتال دعما لجيش التحرير العربى ، وعندما اصبح من الواضح انه لن يحدث نشـاط لبنانى ، وجه لاسكوف كل انتباهه الى الجنوب الشرقى ، وتحرك نحو شفار عان على الطريق الممتد من عكا الى

الناصرة ، وتم الاستيلاء على شفرعام (شفا عمرو) فى صباح ١٤ يوليو ، وبدا لاسكوف الاستعداد لهجوم فى اتجاه الناصرة .

وفى ١٥ يوليو ، بينما كانت قوات لواء جولان تستولى على زمام المبادرة من جيش التحرير العربى ، بدات وحدة جولانية اخرى فى اقصى الجنوب ، فى منطقة العفولة ، التحرك شمالا فى اتجاه كفار هحورش ، مما زاد من تهديد قاعدة القاوقجى فى الناصرة .

وفى مساء ذلك اليوم ، بدا لاسكوف هجومه من شفرعام نحو الناصرة وكتيبته المدرعة فى المقدمة .

ولما كان القاوقجى مهددا من ثلاثة اتجاهات فقد انسحبت من منطقة سجره الى الناصرة ، وحاول وقف الهجمات الاسرائيلية من شفرعام والعفولة ، بيد انه مع حلول فجر ١٦ يوليو كانت وحدات لاسكوف المتقدمة قد وصلت الى تسفورى (صفورية ، التى تبعد عن الناصرة مسافة ستة كيلو مترات بالكاد .

ووصل خبر هذا التقدم الاسرائيلى الى مدينة الناصرة قبل الظهر وبدا السكان المدنيون فى النزوح عن المدينة ، وعند حلول الساعة ٣٠ر٤ مساء ، كانت المشاة الاسرائيلية قد وصلت الى المرتفع الذى يطل على الناصرة من الشمال الغربى ، ومن هذه المواقع صدت بسهولة هجوما مضادا من جانب العربات المدرعة العربية ، ودمرت معظم عربات القاوقجى المدرعة .

ثم استؤنف التقدم الاسرائيلى ، وقبل الساعة السادسة مساء بوقت قصير دخلت العناصر القيادية من الوحدات الاسرائيلية الى الناصرة ، وفى السادسة والربع ، استسلمت المدينة ، وانتهت عملية ديكيل الى نتيجة ناجحة ، وانسحب القاوقجى وفلول قواته تهرب الى الشمال الشرقى ، بعد ان لم تعد قادرة على اى مقاومة مؤثرة .

العمليات الجوية :

كان السلاح الجوى الاسرائيلى نشيطا طوال هذه الأيام العشرة من القتال البرى المكثف ، وكانت الطائرات المقاتلة الجديدة ناجحة بوجه عام فى تثبيط الهجمات الجوية العربية ضد المدن والمنشآت الاسرائيلية ، واصبحت فعالة بشكل متزايد فى تقديم مساندة وثيقة للقوات البرية ، كما اتجهت الى الهجوم عبر عدد من الهجمات غير المهمة من الناحية العسكرية ، ولكنها مهمة من الناحية الرمزية ، ضد المدن العربية ، انتقاما للهجمات على تل ابيب والقدس الجديدة .

وفى ١٤ يوليو ، وصلت من اوروبا ثلاث طائرات حديثة الشراء من طراز القلاع الطائرة الذى استخدم فى الحرب العالمية الثانية لزيادة تعزيز السلاح الجوى الاسرائيلى ، وقد اسقطت هذه الطائرات فى طريقها قنابل على القاهرة . ورفح والعريش (وقد حدثت ضوضاء شديدة حول ذلك فى الصحف الأمريكية) . وبعد ذلك مباشرة جرى قصف دمشق ايضا .

تقييم

استجابة لمطلب الأمم المتحدة الذى جرى التعبير عنه بقوة ، توقف هجوم الأيام العشرة الاسرائيلى فى الساعة السابعة من مساء ١٨ يوليو ، وسرى مفعول الهدنة الثانية .

لقد كانت الفترة الأولى للقتال بين ٥ مايو و ١١ يونيو فترة توازن ، فقد تمكن الاسرائيليون من السيطرة على معظم المناطق التى كانت قد خصصت لهم بموجب مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ، لكنهم كانوا يتعرضون لضغط شديد ، وكان الوضع فى القدس هشا بصورة خاصة .

لكن نتائج هذه الحملة التى استمرت ١٠ أيام كانت مختلفة للغاية . ومع ان الاسرائيليين لم ينجحوا بشكل متماثل فى كل المعارك ، فانهم قد حققوا مكاسب كبيرة على معظم الجبهات : لقد امنوا خطوط المواصلات بين السهل الساحلى والقدس ، وحافظوا على الارتباط الهش مع المستوطنات شبه المعزولة فى النقب ، ، واستولوا على الجليل الشمالى بينما دمروا من الناحية العملية فعالية جيش التحرير العربى ، قد فشلوا فى محاولات متكررة فى طرد الفيلق العربى من موقعه على السهل الساحلى فى اللطرون ، كما فشلوا فشلا ذريعا فى محاولاتهم الرامية الى طرد السوريين من الجليل الشمالى الشرقى . وفى الجنوب ، احتفظوا بخطوط مواصلات مع النقب ، وبانتزاعهم زمام المبادرة من المصريين بعد معركة النبعة أعدوا المسرح لعمل هجومى آخر .

وخلال هذه الأيام العشرة ، خسر الاسرائيليون ٨٣٨ قتيلا ، وعددا غير معروف وغير مذكور من الجرحى (يقدر بحوالى ٠٠٠ر٣) ، كما ان حوالى ٣٠٠ مدنى قد قتلوا ، أما الخسائر العربية فهى غير معروفة لكنها كانت على الأرجح ضعف خسائر الاسرائيليين على الأقل ، وقد تكبد جيش التحرير العربى التابع للقاوقجى معظمها .

الملاحظات

١ — سير جون باجوت جلوب ، جندى مع العرب (نيويورك ، ١٩٥٧) ص ١٤٢ .

٢ — جلوب ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٩)

الهدنة الثانية

تطور قوات الدفاع الاسرائيلية واعادة تنظيمها

فى السابعة من مساء الثامن عشر من يوليه بـدا تنفيذ الهدنة الثانية ، وهى التى تقررت على الأصح بأمر صريح من مجلس الأمن ولم تتقرر بمجرد نداء من جانبه ، وخلافا للهدنة الأولى ، لم تكن محدد المـدة ، وكان كـلا الجانبين مهددا بتوقيع العقوبات بمقتضى ميثاق الأمم المتحدة فى حالة انتهاك الهدنة ، وعلى الرغم من هـذا سرعان ما انتهكها الجانبان ، ولكن العقوبات لم تفرض ابـدا ، والواقع ان الهدنة كانت مجرد وقف غير مؤكد لاطلاق النار ، واستمر المحاربون فى حالة طوارىء بمواقعهم ، مستعدين لاستئناف القتال فى الحال ، وغالبا ما فعلوا ذلك .

حدثت انتهاكات عديدة فى منطقة القدس ، واخـذ كل جانب يلقى باللائمة على الآخر متهما اياه بانتهاك الهدنة او بالتحريض ، ولكن بالرغم من تكرار تبادل اطلاق النار بالأسلحة والبنادق الرشاشة والهاون والمدفعية لم يحاول اى من الجانبين الاستيلاء على مواقع حربية ، وان اخطر عمل وقع على هذا الجانب من الجبهة هو قيام الجيش العربى بتدمير محطة لطرون للضخ على خط انابيب المياه الى القدس . ولعل مما يثير الدهشة ان ذلك لم يحدث من قبل ، وكان الاسرائيليون مستعدين له ، وسرعان ما قاموا بمد خط أنابيب بطول « طريق بورما » ، وسرعان ما تم تزويد القدس الجديدة بالمياه على النحو المـلائم .

لقد كثرت الانتهاكات بشكل خاص بطول الجبهة الجنوبية ، حيث كانت الخطوط الحيوية للمواصلات فى كـلا الجانبين عرضة للتهديد ، وبمقتضى نصوص الهدنة رخص لكلا الجانبين من جديد فى استخدام نقط التقاطع الرئيسية بالقرب من حليقات . وفى منتصف يوليه اتهم المصريون الاسرائيليين بمحاولة توسيع ممرهم شمالى نقطة التقاطع عند كرتيا ، وهاجم المصريون هناك عـدة مخافر اسرائيلية امامية ، واستولوا عليها ، وسدوا الطريق الاسرائيلي الجديد المؤدى الى النقب ، وردا على ذلك قامت قوات الدفاع الاسرائيلية فى اواخر يوليه بعملية « جيس » لاعادة فتح ممر كرتيا .

قام لواء « يفتاح » بالهجوم على الفالوجة ، وحاول لواء « جيفاتى » الاستيلاء على « عراق المنشية » شرقا .. ولكن فشل الهجومان .. ومع

ذلك ، اندفعت قافلة اسرائيلية كبيرة فى الحادى والثلاثين من يوليه داخل النقب ، وظل الموقف هادئا لأسابيع قليلة على الجبهة الجنوبية .

فى الثامن عشر من اغسطس تفجر الغضب جنوبى القدس ، ودقت المناوشات بين الوحدات الاسرائيلية ومتطوعى العميد عبد العزيز ، وبعد ليلتين قتل عبد العزيز خطـا على يد ديدبان مصرى ، وكان موته ضربة قاسية للقضية العربية .

فى بداية الهدنة الثانية الصعبة بلغ عـدد افـراد قوات الدفـاع الاسرائيلية تسعة وخمسين الفا (وكان عددها تسعة واربعين الفا عند بداية الهدنة الأولى) ، واستمرت تعبئة القادرين من الرجال بموجب احكام التجنيد التى تضمنها الأمر رقم ٤ فى الثامن والعشرين من مايو ، واستدعى الرجال للخدمة بنفس السرعة التى وصلت بهـا المهمات ، وبالقـدر الذى كانت تسمح به عمليات التدريب ، وبحلول منتصف اكتوبر اسفرت محاولة التعبئة الشاملة عن تكوين قـوات مسلحة اسرائيلية تضم ما يزيد على التسعين الف رجل . مزودين بالسلاح وبالزى العسكرى .

وتطلبت قيادة هـذا الجيش ضرورة اللامركزية ، ولـذا بـدا تنفيذ المشروعات الخاصة بتكوين اربع قيادات كبرى ، وهى التى كان قد اتجه التفكير فى تكوينها خـلال الهدنة الأولى ، ولـكن لم يتم ذلك وقتئذ . كان بن جوريون مستريحا ظاهريا للطريقة التى بها تناول ايجال آلون الجهود الأساسية فى « هجوم العشرة ايام » ولذلك لم يحاول بعدها ان يفرض رغباته السياسية على الجنرال يادين ، وفى الشمال تم تثبيت الكولونيل موشي كارميل وترقيته الى رتبة بريجادير جنرال ؛ وكان يقـوم بأعمال قيادة الجبهة ، وتم تعيين البريجادير جنرال دان ايفين لقيادة المنظمة الوسطى ، ووضعت القدس والممر تحت قيادة البريجادير زفى ايالون ، ثم عهد الى ايجال آلون بقيادة المنطقة الجنوبية التى أصبحت الآن الجبهة الرئيسية .

واستمرت عملية اعادة تنظيم الهاجاناه داخل الاطار الحديث والفعال لقـوات الدفاع الاسرائيلية ، وكان هـذا التنظيم قد بـدا خلال الهدنة الأولى ، وانطوت هـذه العملية على تعيين اليد العاملة ، وتنظيم الوحدة ، وانشاء قسم فعال للخدمات العسكرية ، وتقـرر ترتيب عسكرى منظم للأفراد ، وكان قبل ذلك يتم بطريقة عشوائية ، واخذت تتدفق على اسرائيل الطائرات والمدافع والذخيرة وكل انواع المهمات الحربية ، وسار تدريب الجيش وتجهيزه بخطوات حماسية .

الفوضى بين العرب :

لا تزال الفوضى وانعدام التنسيق يميزان محاولات العرب ، وكانت هناك اتهامات متبادلة بين الأمم العربية حـول انعدام وجود جهـد مركز ،

خلال فترة « هجوم العشرة الأيام الاسرائيلى » .. وكان السوريون حانقين فى مرارة لأنهم لم يتلقوا اية مساعدة من اللبنانيين او العراقيين خلال القتال حول « مشمر هيردن » . » .

واصبحت العلاقات بين عمان والقاهرة باردة بشكل خاص عندما اتهم المصريون الجيش العربى بأنه قد انسحب من اللد والرملة دون اية مقاومة جادة ، وأنه سمح للاسرائيليين بأن يقوم بعملياته على الخط المصرى الممتد عبر فلسطين الجنوبية دون أن يقوم حتى بهجمات مضللة شرقا وغربا ليصرف بها انظار العدو ، كما انتقد « شرق الأردن » القوات العربية الأخرى ، وخاصة العراقية ، لاخفاقها فى القيام بعمليات تضليلية عندما كانت المحاولة الاسرائيلية الرئيسية مركزة ضدهم فى ممر القدس وخاصة عند اللطرون . وكنتيجة لانعدام التنسيق والتعاون ، يبدو أن الملك عبد الله اصدر اوامره الى الجنرال جلوب بين الرابع عشر والثامن عشر من يوليه ، بوقف كل العمليات الهجومية ويكتفى بالثبات فى المناطق التى احتلها .

كان عبد الله مرتاحا لما اقترحه الكونت برنادوت بأن تمتد الهدنة لتصبح صلحا ، مع وضع المناطق العربية بفلسطين تحت سلطة « شرق الاردن » . وطبيعى ان هذا الترتيب لم يكن ليرضى المصريين ، حيث لم يعتقدوا بأن جهودهم الحربية لن تعود بالفائدة الا على عبد الله ، ملك شرق الاردن ، ونتيجة لذلك ، كفل المصريون فى الخامس والعشرين من سبتمبر اقامة حكومة فلسطينية مستقلة فى غزة ، وكان فى ذلك ما أثار سخط عبد الله .

المشروع المنقح لبرنادوت :

كان هذا العمل المصرى استجابة لمشروع برنادوت المنقح الذى كان قد قدمه مع مزيد من التنصيل الى الأمم المتحدة وكان مماثلا للمشروع الأول ولكن مع بعض التعديلات الطفيفة . وكانت الفقرة الشرطية الجديدة والأساسية فيه ، والتى تتناول الأرض ، تنص على اقامة « اتحاد » للانتداب البريطانى السابق بأكمله مع دولتين : اسرائيل « وشرق الأردن » على أن تضم الأخيرة المناطق العربية غربى نهر الأردن، والى جانب ذلك اما أن يسمح للاجئين العرب بالعودة الى ديارهم او تعويضهم عن أملاكهم التى فقدوها .

اما الشروط الأخرى الواردة فى هذا المشروع بصدد الأرض ، فهى: ان تكون النقب جنوبى الخط الممتد من مجدل الى الفالوجة من نصيب العرب ، كما تعاد لهم اللد والرملة ، مما يتيح للعرب حرية الوصول الى مطار اللد الذى يصبح بذلك مطارا حرا تحت اشراف الأمم المتحدة .

اما الاسرائيليون فسيكون من نصيبهم الخليل بأكملها .. ان هذا النص الجدلى فى مشروع برنادوت الأصلى قد تأكد ، فى كافة الأغراض العملية ، بهجوم اسرائيل الناجح فى الجليل الأوسط .. وستكون القدس — كما كانت من قبل — تحت اشراف الأمم المتحدة ، على ان تكون حيفا ميناء حرة داخل منطقة اشرافها .

مقتل برنادوت :

منذ ان بدا برنادوت دوره كوسيط للأمم المتحدة لم يكن موضع الثقة من جانب العرب الذين كانوا يعتبرونه مواليا لاسرائيل ، ومن ناحية أخرى ربما كان الاسرائيليون اشد عنفا فى اتهامهم اياه انه موال للعرب ، وانه ذو ميول بريطانية ، وتعرض لحملات شديدة فى الصحافة الاسرائيلية ، وفى السابع عشر من سبتمبر — اى فى اليوم التالى لتقديم مشروعه للأمم المتحدة — اغتيل على يد ثلاثة رجال ، بينما كان يقود سيارته متجها الى مركز قيادته العامة فى المنطقة المنزوعة السلاح فى القدس ، ولا يوجد شك فى ان القتلة كانوا من الاسرائيليين وانهم كانوا من اعضاء « ليهى » التى هى من مجموعات عصابة « شترن » .

وبعد تحقيق مكثف قام به المسئولون الحكوميون لمدة اربع وعشرين ساعة ، امر بن جوريون بحل « ارجون » و « ليهى » ، واصدر توجيهاته بأن تتولى السلطات العسكرية والبوليسية التحقيق مع اعضاء « ليهى » .

وتم اعتقال مائتين او يزيد ، من بينهم زعيمهم ناثان فريدمان بيلين ، وعلى اية حال لم يتم تحديد شخصية القاتلين اطلاقا ، والواقع انه تم الافراج عن المعتقلين دون محاكمة ، واتهم العرب الحكومة الاسرائيلية المؤقتة بالتستر على القتلة وحمايتهم ، وما لم تحل مسألة الجريمة لا يستطيع الاسرائيليون اثبات ان هذه الاتهامات لا مبرر لها . ومن ناحية أخرى ، قبلت اسرائيل نتائج تحقيق الأمم المتحدة والتى تتضمن مسئولية اسرائيل ، ودفعت تعويضا على أساس هذه النتيجة التى تثبت مسئوليتها الجنائية .

وخلف برنادوت ، كوسيط للأمم المتحدة ، نائبه الأمريكى دكتور الف بانش .

تكثيف مجهود مصر الحربى :

وبعد ذلك مباشرة وافق المصريون ، فى مؤتمر مع ممثلى الأمم المتحدة فى القاهرة فى أواخر يوليه ، على عدم التدخل فى عودة اسرائيل لامداد وتموين مستوطناتها الجنوبية ، وفى أواخر اغسطس او اوائل سبتمبر ، يبدو ان

الحكومة المصرية قد اتخذت قرارات حاسمة بمعارضة محاولات الملك عبد الله لمد سيطرة « شرق الاردن » فوق ارض فلسطين العربية ، ويبدو ان المصريين قرروا — على الأقل — الاحتفاظ بسيطرتهم على فلسطين الجنوبيـة التى كان من المفروض ان تقوم كجمهورية فلسطينية مستقلة تحت سيادة مصر . وكان هذا يعنى انه سيكون هناك تكثيف لجهودها الحربى .

وخلال سبتمبر واوائل اكتوبر ازدادت القوات المصرية جوهريا ، وارتفع اجمالى القوات المنتشرة فى فلسطين الى ما يقرب من ثمانية عشر الفا ، تنتظم فى تسع كتائب مشاة ، نضمها ثلاثة الوية ، وكلها تحت اشراف القيادة العامة لفرقة رفح ، كما كان هناك ايضا ، تحت ادارة القيادة العـامة فى رفح ، لواء يضم ثلاث كتائب من متطوعى « الاخوان المسلمين » وانضم اليهـا قليل من الوحدات المصرية النظامية .

وفى اوائل اكتوبر كانت قوة الحملة المصرية موزعة على النحو الآتى : مجموعة لواء فى منطقة اشدود / المجدل ، ومقر قيادتها فى المجدل ، ومجموعة لواء منتشرة فى ممر المجدل / بيت جبرين ، ومقر قيادتهـا فى الفـالوجة ، ومجموعة لواء ثالثة وتتكون من كتيبتين فقط ، ومقر قيادتها فى غزة وكانت منتشرة فى منطقة رفح . والى الشرق رابطت كتيبة من الف رجل تقريبـا من المصريين والمتطوعين فى المنطقة بين بيت جبرين وبيت لحم ، كما كانت هنـاك كتيبة مماثلة فى ممر الخليل / بير سبع ، والعوجة ، وكان المصريون يمتلكون وقتئذ : مائة وستة من المدافع المضادة للدبابات ، وثمانية واربعين مدفعـا مضادا للطائرات وتسعين مدفع ميدان (معظمها عيار ٢٥ رطلا) ، ومائة وتسعة وثلاثين حاملات للمدافع « برق » ومائة واثنتين وثلاثين دبابة خفيفة ومتوسطة وثلاث دبابات ثقيلة .

وقد اعترف اللواء المواوى ، من مقر قيادته العامة فى رفح ، فان هذه القوة الكبيرة غير ملائمة للدفاع عن المنطقة الشاسعة الموزعة فيهـا ، فكان يعلم بان امامه قوات اسرائيلية تكاد تصل الى ضعف قواته فى عدد الجنود ، وان التعزيزات الاسرائيلية متوفرة فى الشـمال . وبعث بتوصيـاته الى القاهرة بأن يسمح له بتركيز قواته فى المقام الاول فى الممر الساحلى وفى منطقة بير سبع / العوجة ، غير ان القاهرة لم توافق على ذلك ، حيث انه يعنى التخلى لاسرائيل عن معظم فلسطين الجنوبية الغربية .

ولما كانت المفاوضات جارية على يد الأمم المتحـدة من اجل هـدنة نهائية ، وكانت هناك دلائل على ان الحدود التى سيتم الاتفاق عليها ستكون على اساس الأرض التى تحتلها الأطـراف ، فان الحكومة المصرية كانت معارضة لمثل هذا الانسحاب .

ولأسباب مشابهة ، قرر الاسرائيليون فى اواخر اغسطس ان يقوموا بهجوم فى القطاع الجنوبى ، وفى الخامس والعشرين من اغسطس ، اقاموا

قيادة جنوبية برئاسة البريجادير جنرال آلون ، وكانت مهمته اسـتعادة السيطرة على المستوطنات شبه المنعزلة فى النقب ، وذلك لتفادى تسـوية نهائية على خطوط مشروع برنادوت ، وفى سبتمبر كرس آلون نفسه لاعداد الهجوم ، وبذلك كان من الواضح ان ينتهى وقف اطلاق النار الثـانى ، وهو الذى لم يكن انتهى رسميا .

(١٠)

الهجمات الاسرائيلية فى اكتوبر

كان واضحا للاسرائيليين من الطريقة التى ردت بها مختلف القوات العربية — او اخفقت فى الرد — على هجوم « الأيام العشرة » ، ان اية فرقة عربية اخرى لن تساند المصريين فى مواجهة الهجوم الذى يزمعون القيام به فى فلسطين الجنوبية . اضف الى ذلك ان للاسرائيليين جيشا بالميدان يكاد يصل فى تعداده الى ضعف القوات العربية مجتمعة ، وادركوا انه ليس فى وسعهم فقط تركيز قوتهم الساحقة ضد المصريين فى الجنوب ، بل ايضا توفير الأمن اللازم على طول الجبهات المتناثرة ، والواقع أنه كان فى مقدورهم القيام فى وقت واحد بهجمات فى المناطق الأخرى التى كانت القوات العربية تحتفظ فيها بقواعد انطلاق فى المواقع التى كان يشعر الاسرائيليون بأن عليهم الاستيلاء عليها ، واحتراما للنوعية القتالية للجيش العربى ، من ناحية ، واملا فى التوصل الى تسوية سياسية مع عبد الله ، لم يقدم الاسرائيليون على اية عمليات اخرى فى ممر القدس ، وذلك باستثناء الجنوب والشرق حيث لن يواجههم سوى المصريين .

الجبهة الجنوبية :

اطلق اسم « يوافى » على خطة الأركان العامة لقوات الدفاع الاسرائيلية للقيام بهجوم كبير فى الجنوب ضد المصريين ، واحتشدت تحت قيادة الجنرال آلون فى القيادة الجنوبية ثلاثة الوية مشاة ، وهى « جيفاتى » ، والنقب ، وايفتاش » ، بالاضافة الى كتيبة « الكوماندو » المسلحة التابعة لبالماخ ، من قيادة اللواء الثامن المسلح الذى يقوده الكولونيل صادح ، ووضع لواء عوديد فى حالة تأهب للتحرك الى الجبهة الجنوبية .

وكانت تساند هذه الوحدات عدة مجموعات من المدفعية الاسرائيلية الحديثة التكوين : اربع بطاريات مدافع عيار ٧٥ مم واربع من عيار ٦٥ مم ، الى جانب عدة سريات من المدافع المضادة للدبابات والمشاة ، مع عدد كبير من مدافع الهاون ، وكانت الأهداف الرئيسية لعملية « يوافى » هزيمة الجيش المصرى وانهاء العزلة المضروبة حول النقب ، كما كانت الخطوة الأولى هى قطع المر المصرى بين مجدل وبيت جبرين ، ثم بدء عمليات ضد مواقع المصريين عبر بير سبع وغزة .

واستعدادا لهذا الهجوم ، احتل الاسرائيليون فى سبتمبر عددا من التلال الصغيرة بطول الطريق الشرقى الغربى الى شرقى الفالوجة ، وفى التاسع والعشرين من سبتمبر ، زحزحوا المخافر المصرية الأمامية من المرتفعات الحيوية المطلة على مواقع الفالوجة الرئيسية من الشرق ، وبرغم قيام المصريين بعدة هجمات مضادة الا انهم لم يتمكنوا من طرد الاسرائيليين .

وفى اوائل اكتوبر بدأ الاسرائيليون جسرا جويا الى النقب ، لنقل العتاد والرجال من لواء « يفتاح » الى النقب ، واخلاء معظم القوات المنهكة من لواء النقب ، وكان لابد من اعادة تكوين وتجميع هذا اللواء فى الشمال ، حيث يتم استبدال الف من افراده للوصول به الى القوة القياسية، وليصبح بعد ذلك احتياطيا للجبهة الجنوبية ، ولكن تركت كتيبة واحدة من لواء النقب فى المنطقة الجنوبية .

كان هدف الون قطع خطوط المواصلات الرئيسية ، والممر الشرقى الغربى ، ثم هزيمة القوات المصرية المعزولة ، وطردها من فلسطين ، وخطط لبدء الهجوم بفتح ممر جديد الى جنوب منطقة التلال شرقى الفالوجة بالقرب من عراق المنشية ، وكان يتعين القيام بذلك بكتيبة مسلحة تهاجم من الشمال ، بينما تقوم بقية كتيبة المشاة من لواء النقب بالهجوم من الجنوب . واستعداد لهذا الهجوم ، كان على لواء جيفاتى الاستيلاء على عدد من المخافر الامامية على كلا جانبى الطريق بين مجدل وبيت جبرين ، وفى نفس الوقت كان على لواء ايفتاش ان يدق اسفينا بين غزة ومجدل وبيت حنون ، لعزل القوات المصرية شمالا عن قواعدها فى غزة ورفح .

وفى ظهر الخامس عشر من اكتوبر بعث الاسرائيليون بقافلة على طول الطريق الرئيسى الى مستوطناتهم فى النقب ، وفقا للشروط التى تم الاتفاق عليها تحت اشراف الأمم المتحدة . ولما كان المصريون يطلقون نيرانهم باستمرار على تحركات الاسرائيليين فى طريق القوافل ، فانه لم يكن من غير المتوقع ان يطلقوا النيران على هذه القافلة ويضطرونها للانسحاب بعد تدمير عدة مركبات ، وكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة لعملية « يوافى » .

وبعد ظهر الخامس عشر من اكتوبر ، قام السلاح الجوى الاسرائيلى بمهاجمة المطار المصرى فى العريش ، كما قصف القواعد المصرية فى غزة ومجدل وبيت حنون ، وشل حركة السلاح الجوى المصرى فى منطقة فلسطين، وبالرغم من اتمام ذلك بصورة مؤقتة فان السلاح الجوى المصرى لم يهزم باكمله ، وانه بعد بضعة ايام عاد فى وسعه أن يقوم ببعض العمليات المحدودة .

وبعد الغروب من الخامس عشر من أكتوبر قامت كتيبة « الكوماندوز » من لواء يفتاح بنسف خط السكة الحديدية بين رفح والعريش ، وبثت الألغام بين رفح وخان يونس . وفى نفس الوقت قام الكوماندوز بعمليات متكررة

ضد المنشآت والمعسكرات المصرية فى هذه المنطقة الخلفية . وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه تلك العمليات قام من تبقى من رجال لواء يفتاح باحتلال مواقع شرقى وشمال شرقى بيت حنون ، بينما قامت كتيبة الكوماندوز من بالماخ ولواء جيفاتى بالهجوم جنوبا لتخترق الممر الشرقى العربى المصرى، وتسد الطريق بين عراق المنشية وبيت جبرين .

وبعد الفجر قامت كتيبة بالماخ بهجوم واسع النطاق على عراق المنشية ، وتحت غطاء من الدخنية ، وساتر من مدافع الهاون ، زحفت كتيبة مشاة تعززها المصفحات ، لتقتحم القرية المحصنة . كانت المقاومة المصرية عنيدة . ومما ساعد على اصرار المشاة المصريين الصامدين على القتال القصف المدفعى المحكم والدقيق الذى كان من نتيجته تدمير عدة دبابات اسرائيلية ، والحيلولة دون المناورة الفعلية والتعزيزات المناسبة لعناصر الهجوم ، وفى وسط النهار تم طرد المشاة الاسرائيليين واستعاد المصريون موقعهم ، وكانت خسائر الاسرائيليين فادحة ، وظلوا يواصلون اجلاء جرحاهم حتى المساء .

اصبح من الواضح الآن للجنرال آلون انه لن يمكن تنفيذ خطته لفتح طريق جديد فى منطقة عراق المنشية الا بثمن باهظ من الخسائر ، لذلك قرر ان افضل مكان لاختراق النقب هو بالقرب من تقاطع الطريق الرئيسى بالقرب من حليقات . وبالرغم من التحصين المكثف ، فان الأرض المنبسطة قد حرمت المصريين من المراقبة الشديدة التى كانت قد جعلت مدفعيتهم ذات آثار مدمرة فى التلال جهة الشرق .. فاذا ما تم اختراق هذه المنطقة فسيصبح المصريون عاجزين عن سد الثغرة .

كانت الدفاعات المصرية حول نقطة اتصال الطريق مؤسسة على ثلاث مناطق محصنة تحتلها كتيبة معززة ، وكانت المنطقة شمالا عبارة عن تلين تحتلهما سرية واحدة .. والى الغرب ، وعند نفس نقطة الاتصال ، استقرت سرية فى موقعين متصلين .. والى الجنوب احتلت سرية قريتى حليقات وكوكبا على قمة التل ، وكانتا محصنتين تحصينا قويا . وبعيدا الى الشرق ، وعلى التلال المطلة على نقطة اتصال الطرق ، استقرت سرية عند مخفر الشرطة المحصن فى عراق سويدان ، وقرر الجنرال آلون تركيز جهوده على المواقع الشمالية والغربية اولا ، بينما قام لواء يفتاح بهجوم على حليقات وكوكبا ، وكان على احدى كتائب لواء جيفات القيام بهجوم على التلين شمال نقطة الاتصال مع القيام فى نفس الوقت بتطويق النقاط الحصينة بالقرب من نقطة اتصال الطريق .

بدا الهجوم قبل منتصف الليل بقليل فى السابع عشر من اكتوبر ، وتم اكتساح التلين فى اقل من ساعة ، وكانت المقاومة المصرية شديدة ، واستمرت عند المركزين الحصينين قرب نقطة اتصال الطريق ، ولكن لم يحل الفجر حتى كانا هما ايضا فى يد الاسرائيليين ، وهنا كثف لواء يفتاح من عملياته

ضد حليقات ، ولكنه اضطر للانسحاب عند الفجر ، وهكذا ظلت حليقات الموقع الوحيد الذى يحول دون اقامة ممر من السهل الساحلى الاوسط الى النقب .

وفى نفس الوقت ، نجح الجزء الرئيسى من لواء يفتاح فى قطع الطريق الساحلى الممتد من الشمال الى الجنوب بالقرب من بيت حنون ، وبعد قطع خط القوات المصرية هذا ، والتهديد بتطويقها تماما ، بدا المصريون فى الجلاء عن منطقة اسدود / المجدل ، وكان انسحابا شاقا وباهظ التكاليف تحت وابل من نيران القوات الاسرائيلية المرابطة فوق التلال التى تشرف على الطريق من الشرق ، ولكى يخفف المصريون من خسائرهم امام هذه النيران سارعوا باقامة طريق بديل الى الغرب بطول الشاطىء الرملى ، وتمكنوا من اخراج كل لوائهم تقريبا من منطقة اسدود / المجدل دون اية خسائر اخرى .

كان من شان انسحاب القوات المصرية من المجدل وما صحب ذلك من اختراق الاسرائيليين لطرق حليقات الفرعية ، ان القوة المصرية التى يبلغ تعدادها اربعة آلاف رجل بما فيهم حوالى الالف فى عراق المنشية ، اى ما يقرب من لواء كامل ، ان اصبحت الآن مكشوفة ومعزولة جزئيا بالقرب من الفالوجة ، ولكن طالما بقى هذا الموقع المحصن عند عراق سويدان فى يد المصريين ، فقد كان من الصعب تطويق وعزل جيب الفالوجة تماما ، الا بقوة اكبر كثيرا مما كانت متاحة للجنرال آلون .. وكانت القوة المعزولة تحت قيادة الضابط السودانى الكفء الكولونيل سيد طه .

عندما اتضح للاسرائيليين انه لم يعد هناك ما يدعو للخوف من تدخل اية جيوش عربية اخرى فى الشمال ، قرروا نقل لواء عوديد الى الجبهة الجنوبية ، ووصلت هذه الوحدة فى الثامن عشر من اكتوبر ، وسرعان ما بعث بها آلون الى كرتيا شطر الجنوب الشرقى عبر التلال لتفادى الدفاعات المصرية الهائلة عند عراق المنشية ، والتشديد من عزل الفالوجة، غير ان التخطيط لهذه العملية كان متعجلا ، فرغم توافر المرشدين وضباط الاتصال من لواء جيفاتى ، فان وحدات عوديد لم تتبين معالم الأرض ، بينما استمسك المصريون بمواقعهم بالقرب من كرتيا ، وتمكنوا من صد هجوم عوديد .

وكنتيجة لنشوب حرب على نطاق واسع فى فلسطين ، اصدر مجلس الأمن قرارا فى ١٩ اكتوبر بوقف اطلاق النار من جديد فى فلسطين ، وخشى آلون من ان يؤدى ذلك الى وقف عملية الهجوم ، فقرر أن يقوم بمحاولة اخرى لاقتحام حاجز حليقات ، وأن يستخدم فى ذلك لواء جيفاتى رغم انهاكه وخسائره فى القتال السابق .. ويبدو انه كان كبير الثقة فى لواء عوديد الذى لم يكن قد مضى على وصوله سوى وقت قصير .

كانت القوة المصرية فى حليقات تقرب من كتيبة واحدة مكونة من سرية مصرية من المشاة ، واخرى سعودية ، تساندهما سرية اسلحة ، وكانت جميعها تحتل ستة مراكز فى حليقات وما حولها .

بدات احدى كتائب جيفاتى الهجوم فى ٢٠/١٩ اكتوبر ، تساندها المدفعية ومدافع الهاون الثقيلة التى استطاع آلون تجميعها .. ونجح الهجوم، رغم شراسة المقاومة المصرية ، وفى منتصف نهار العشرين من اكتوبر تم اكتساح موقع حليقات .

ولكن تم فى نفس الوقت صد الهجوم الذى قامت به وحدات جيفاتى ، وبفتاح ضد قلعة عراق سويدان .. كما تم ايضا صد هجوم آخر وقع ليلة ٢١/٢٠ اكتوبر ، وكانت خسائر الاسرائيليين فادحة فى كلا الهجومين الفاشلين ، ومع ذلك ، وبالرغم من الفشل عند مركز الشرطة ، نجح الاسرائيليون فى فتح ممر مامون الى النقب .

وبالرغم ايضا من توقع بعض الارهاق من جراء القصف البعيد المدى من مركز عراق سويدان ، الا انه لم يقع اى تدخل مصرى حقيقى .

وللتعجيل بالاستيلاء على حليقات ، كانت القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية مستعدة لاستغلال هذا النجاح بالاستيلاء على مدينة بير سبع .. حتى اذا اصبح هذا المكان تحت السيطرة الاسرائيلية ، امكن عزل المصريين الباقين فى جبال الخليل ومنطقة جنوبى القدس عن مصر ، وبذا امكن عزل جيب الفالوجة ، بعد ان كان قد احتفظ بنوع من الاتصالات المتقطعة مع بير سبع .

ولتنفيذ هذه الخطة ، نظم آلون فرقة خاصة يتكون معظمها من اللواء الثامن بالاضافة الى كتائب لواء النقب من المشاة والكوماندوز التى تم احضارها من الاحتياطى .. وبدا الزحف الى بير سبع بعد حلول الظلام بقليل فى العشرين من اكتوبر وكان خمسمائة من المصريين يرابطون فى بير سبع ، وكانت المدينة محوطة بخندق مضاد للدبابات ، وبالأسلاك الشائكة الى الجنوب الشرقى والشمالى الغربى ، وفى التاسع عشر والعشرين من اكتوبر تعرضت بير سبع لغارات جوية استهدفت اضعاف الدفاع عنها .

وبعد فجر الحادى والعشرين بقليل ، اقترب الجيش الاسرائيلى من المدينة من جهة الغرب ، وقام فى نفس الوقت بهجوم تضليلى من الشمال فوجئت به الحامية المصرية ، وتمزقت الى مجموعات صغيرة ، ولكنها استسلمت فى التاسعة والربع صباحا .

وكنتيجة للعمليات بين السابع عشر والحادى والعشرين من اكتوبر

اصبحت قوة الميدان المصرية منقسمة الى اربع قوى ، تكاد تكون كلها معزولة .

فكان خط الاتصال بين الوحدات المنسحبة من اسدود والمجدل لا يزال مفتوحا ، ولكن على نحو ضعيف ، تؤمنه نقطة استحكام تسيطر على الموقف فى بيت حانان ، وكانت لا تزال فى القيادة العامة للفرقة بمنطقة رفح / غزة قوة اقل من لواء ، وفى الفالوجة وحولهم تم عزل لواء مصرى ، وفى منطقة الخليل / القدس عزلت كتيبتان ، ومعظمها من متطوعى عبد العزيز .

انزعج الجنرال جلوب ازاء هذا التطور ، فبعث الى الخليل بقوة مشتركة فى اواخر اكتوبر ، تكاد تصل الى قوة الكتيبة ، وكان هدفها الظاهرى الاتجاه غربا لتحل محل المصريين فى جيب الفالوجة ، واطلق على هذه العملية « دمشق » .. غير انه عندما تبين له مدى قوة اسرائيل فى المنطقة عدل عن عملية « دمشق » ، وفى نفس الوقت اوضح عبد الله للجنرال جلوب انه لا يرغب فى مساعدة المصريين .

فى الثامن والعشرين من اكتوبر ، حاول الاسرائيليون ، ناحية الغرب ، اتمام عزل القوات المنسحبة من اسدود والمجدل ، فاستولوا على بيت حانان وقطعوا خط السكة الحديدية ، ومدوا سيطرتهم الى الطريق ، ولكنهم عجزوا عن زحزحة المدافعين من فوق التلال والطريق والساحل ، وكان المصريون لا يزالون قادرين على استخدام طريقهم البديل بطول الشاطىء للاحتفاظ بالاتصالات بين المجدل وغزة .. وكان واضحا انه موقف من الصعب الدفاع عنه ، وفى السابع والعشرين من اكتوبر ، جلا المصريون عن اسدود ، واسرعوا بسحب قواتهم الى الوراء على طول الطريق الساحلى الذى كان معرضا للتهديد ، وفى الخامس من نوفمبر ، تخلوا ايضا عن المجدل ، مما اتاح للاسرائيليين فرصة السيطرة على الساحل حتى بيت حانان ، كما ان الانسحاب يعنى ايضا تحرير المستوطنتين الاسرائيليتين المحاصرتين ، وهما : مردخاى ونيتسانين .

ونتيجة لهذه الكوارث ، اعفى اللواء المواوى من قيادة قوة الحملة المصرية ، وحل محله اللواء احمد فؤاد صادق ، وفى التاسع عشر من نوفمبر عين صادق اللواء نجيب لقيادة مجموعة اللواء العاشر مشاة ، وبعد ايام قليلة وضع تحت قيادته ايضا اللواء الرابع مشاة .. غير ان المهمة التى كانت تنتظر كلا من صادق ونجيب لم تكن بالمهمة السهلة .

الجبهة الوسطى :

بينما كانت هذه العمليات تجرى فى النقب ، تقدمت قوة اسرائيلية مكونة اساسا من لواء هاريل مع كتيبة من جيفاتى ، واتخذت طريقها شرقا

وجنوبا فى طريقين من هارطوف فى ممر القدس ، فى عملية تطهير اطلق عليها اسم « هاهار » ، تستهدف توسيع ممر القدس وعزل المصريين فى بيت لحم شرقا ، ثم التحرك جنوبا وشرقا الى الخليل .

التقى الطابوران فى بيت جبرين ، وتحولا شرقا الى طريق القدس/الخليل وعلى مسافة سبعة كيلو مترات شرقى بيت جبرين واجه الاسرائيليون طابورا للجيش العربى كان قد بعث به الجنرال جلوب جنوبا الى منطقة الخليل ، ووقعت معركة قصيرة ، ثبت فيها الجيش العربى فى مواقعه ، وانسحب الاسرائيليون الى بيت جبرين ، ولم تقم قوات شرق الأردن بأى هجوم ضدهم .

ورغم هـذه الهزيمة المنفردة ، نجح الاسرائيليون فى احتـلال معظم التلال اليهودية الجنوبية والجنوبية الغربية ، وتمكنوا بالتالى من توسيع منطقة سيطرتهم جنوبى ممر تل ابيب/القدس ، واتاح لهم ذلك تحسين طريقهم البديل من تل أبيب الى القدس (الذى يسمى رسميا « طريق البسالة » ، وكان هـذا الطريق قد افتتح رسميا فى ديسمبر ١٩٤٨) .

وفى اواخر اكتوبر او اوائل نوفمبر ، اوصى الجنرال الون القيادة العليا لقـوات الدفاع الاسرائيلية بان ترخص له فى التحرك شرقا لاحتلال الخليل ، وتطويق المرتفعات ليصل الى القدس من الجنوب ، غير ان هذه التوصية قوبلت بالرفض لاسباب سياسية بوجه خاص ، واثبتت المواجهة الاخيرة مع الجيش العربى بالقرب من بيت جبرين مدى التفـوق الجوهرى لجيش شرق الأردن بالنسبة لبقية القوات العربية ، لم يكن الاسرائيليون يخشون الجيش العربى ، ولكن كان من الواضح ان تنفيذ توصية آلون لا يمكن ان تتم الا مقابل ثمن فادح من الخسائر .

اما من الناحية السياسية : فكان يبدو انه لو تركت قـوات شرق الأردن وحدها فقد تكون الأردن على استعداد لأن تتعايش مع « الوضع الراهن » ، فى القدس وما حولها ، وفى اواسط فلسطين .. كان بن جوريون يامل فى ان يـؤدى ذلك الى نـوع من التفاوض مع الملك عبد الله من اجل اعتراف العرب بدولة اسرائيل وبالسلام الدائم .

وفى نوفمبر ، اجرى موشى ديان ، الذى كان وقتئذ قائدا للواء ايتزيونى بالقدس الجديدة ، عـدة محادثات للهدنة مع القائمقام عبد الله التل ، قائد قوات الجيش العربى بالقدس القديمة وما حولها ، وكان من نتيجة هـذه المحادثات واتفق القائدان فى الثلاثين من نوفمبر على وقف لاطلاق النار ، وبدء تنفيذه فعـلا اعتبارا من اول ديسمبر ، ومن اهم شروط هـذا الاتفاق السماح للاسرائيليين بان يرسلوا قوافل امـداد منتظمة الى قواعدهم المعزولة فـوق جبل الكرمل .

وفى اليوم نفسـه ، اى فى اول ديسمبر ، نودى بعبد الله ملكا على

فلسطين العربية ، وفى الثالث عشر من ديسمبر وافق برلمـان شرق الاردن على الوحـدة بين الدولتين ، وعلى ان يطلق عليهـا اسـم « المملكة الهاشمية الأردنية » .

الجبهة الشمالية :

بعد الهزيمة المنكرة التى منى بها فوزى القاووقجى فى الناصرة فى شهر يولية ، اخذ يجمع قواته المشتتة فى لبنان ، وفى القطاع الصغير من فلسطين الذى تحتله القوات اللبنانية ، وبلغ مجموع هـذه القوة التى تمكن من احيائها ثلاثة آلاف ومائة رجل ، مزودين بعشر قطع مدفعية وحول العشر مركبات مصفحة .

عندما بـدا الاسرائيليون هجومهم الكبير جنوبا ضـد المصريين ، وخاصة بعد ان كان لـواء عوديد قد تحـرك جنـوبا من الجليل ، كان القاووقجى ظاهريا هو القائد الوحيد فى شمال فلسطين الـذى اعترف ــ او كاد أن يعترف ــ بالفرصة التى اتاحها الهجوم الاسرائيلى لبقية القوات العربية .. غير ان حريته فى العمل كانت محدودة ، حيث كان يقوم بعملياته فى منطقة تسيطر عليها لبنان ، ومن ثم كان يتعين عليه ان يرجع للقائد اللبنانى للمنطقة ، الكولونيل شقير ، كى يحصل على اعتمـاده مسبقا لـما لديه من خطط .

وفى الثامن والعشرين من أكتوبر ، بدأ القاووقجى ــ بموافقة لبنان ــ هجوما جديدا ، أو بالأحرى اغارة جديدة ، نحو الجليل فى الجنوب ، وكان هدفه الأول هو مستعمرة المنارة بوادى حوله ، شرقى الحدود .

وللاستيلاء على المنارة ، كان لابد من الاستيلاء على مخفر الشيخ عابد الـذى يشرف على المستوطنة .. وسرعان ما تحقق ذلك .. وفوجىء الاسرائيليون بذلك الهجوم الـذى ترتب عليه تراجعهم الى ما وراء المنارة، ثم تحرك القاووقجى الى الوادى ، حيث سد الطريق بين المنارة المالكية ، حاولت قـوة صغيرة من المركبات الاسرائيلية المصفحة طرد العرب ، ولكن تم صدها بسهولة ، وشعر العرب باليأس ازاء الدفاعات القوية فى المنارة، ولكن تم عـزل المدينة تماما .

كان جيش القاووقجى الصغير يتكون من اربعة الوية ، كل منها يساوى كتيبة واحدة .. وكان اللواء الـذى يقوده شخصيا قد انتهى لتوه من عزل المنارة ، ورابط لواء يرموك الثانى على اميال قليلة بالقرب من ساسا وجيش. وكان لواء يرموك الثالث على مقربة من طيرشيحا ، أما لواء يرموك الأول فكان معزولا عن بقية الأولوية ، حيث كان يقوم بعملياته فى التلال جنوب طريق عكا/صفد .

كانت القيادة العليا الاسرائيلية تأمل فى ان تكون هزيمة يوليه قد ادخلت اليأس فى نفوس العرب ، فيكون فى ذلك قضاء على فاعلية جيش التحرير العربى .. لذلك قررت اتمام المهمة التى يبدو انهم لم يتموا منها سوى نصفها ، ومن ثم ، اعدت القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية خططها لعملية « حيرام » التى كانت لها ثلاثة اهداف : اخراج لبنان من الحرب ، وتدمير الجيش العربى ، والاستيلاء على الجليل الأعلى لاقامة خط دفاع عبر الحدود ، وكانت السرعة ضرورية لتنفيذ العملية ، حيث كان لابد من تدمير جيش التحرير العربى قبل ان يتمكن اللبنانيون والسوريون من مساعدته .. وكان البريجادير جنرال موشى كارميل ، رئيس القيادة الشمالية ، هو المسئول عن تنفيذ العملية .

كان يتعين تنفيذ عملية « حيرام » على مرحلتين : ففى الأولى ، يقوم اللواء السابع ولواء عوديد (الذى تم استدعاؤه شمالا من الجبهة الجنوبية) بتطويق وعزل القوات العربية فى الشمال ، ويتقدم اللواء السابع من صفد وساسا من الشرق ، بينما يقوم لواء عوديد غربا بهجوم تضليلى بالتحرك من نهارية عبر طيرشيحا نحو ساسا ، حيث توجد نقطة اتصال على الطريق تهيمن على كل شبكة طرق الجليل الأعلى ، والى الجنوب ، كان على لواء جولانى القيام بعدة هجمات متصلة ، بينما يرقب اى تدخل عراقى محتمل من الجنوب أو من شرقى الاردن ، وفى الشمال الشرقى ، كان على لواء كارميل ان يعمل على ابعاد السوريين . وتساند هذه اللواءات الأربعة : اربع بطاريات مدفعية ، اثنتان عيار ٧٥ مم ، واثنتان عيار ٦٥ .

وبمجرد ان التقى الطابوران فى ساسا ، بدأ الاستعداد للمرحلة الثانية ، لقد حوصر العرب فى جيوب خلقتها حركة الكماشة هذه ، وكان من الممكن القضاء عليها الواحدة تلو الأخرى .. وعندئذ اخذ الجنرال كارميل بعد خططه لزحف عام نحو وادى الحولة ، يقوم فيه بتطهير الطريق اثناء تقدمه ، على ان يقوم السلاح الجوى الاسرائيلى بمساندة الهجوم ، والتعامل مع اى تدخل من جانب السلاح الجوى السورى .

بدأت عملية حيرام مع حلول ظلام الثامن والعشرين من اكتوبر ، وبعد الظهر كان السلاح الجوى الاسرائيلى قد قصف بشدة عدة اهداف فى الاراضى التى كان يرابط بها العرب ، وعملت الهجمات التضليلية التى قام بها لواء جولانى على شد انتباه العرب ، ولكنها اخفقت فى احتوائهم كما يجب . وبينما اخذ لواء عوديد يتقدم من الغرب ، تمكن القاووقجى من سحب لوائه الجنوبى الى الشمال على طريق عكا/صفد ، واخفق طابور عوديد المتقدم من القبرى الى طيرشيحا ، فى اول محاولة لاقتحام استحكامات هذه القرية ، وكان قد دفع بهذا اللواء على وجه السرعة من النقب الى الشمال وعهد اليه مرة ثانية بمهمة شاقة دون اتاحة الوقت الكافى له لدراسة طبيعة الأرض واعداد خططه الملائمة .. وكانت النتيجة الفشل

مرة اخرى للواء عوديد .. وبالرغم من القصف المكثف لطيرشيحا انسحب الطابور الى القبرى .

وفى الوقت نفسه عهد الى سرية درزية ملحقة بلواء عوديد بمهمة احتلال قرية يانوح جنوبى طيرشيحا التى كان يحتلها دروز موالون للعرب ، وفى البداية ، رحب المقيمون فى يانوح بالقوة الاسرائيلية الدرزية ، غير ان انباء الهزيمة فى طيرشيحا ، مع الانباء الواردة عن زحف جيش التحرير العربى جنوبا نحو قريتهم ، دفعت القرويين الى التحول ضد الاسرائيليين والفصيلة الاسرائيلية الدرزية .. وكان هناك دروز محلبون ، وقوة مليشيا عربية تجمع اعضاؤها سرا ، وقاموا جميعا بهجوم مفاجىء القى بالاسرائيليين ووحدتهم الى خارج القرية .

وفى الوقت نفسه ، كان الجنرال كارميل يصاحب طابور اللواء السابع الزاحف شرقا على الطريق من صفد الى ميرون ، وكان طريقا محفوفا بالكثير من العوائق وحقول الألغام ، ولم يصل اللواء السابع الى ميرون الا فى الفجر ، ولكن سرعان ما نجح الهجوم على استحكاماتها ، واصبحت القرية فى يد الاسرائيليين فى الثامنة صباحا ، واستمر زحف الطابور شمالا ، فاكتسح استحكامات جيش التحرير العربى فى صفصاف التى سقطت بعد الظهر بقليل ، وبعد استراحة قصيرة قام خلالها كارميل باعادة تجميع وتنظيم قواته ، واصل زحفه شمالا الى وصلة الطريق الهامة فى جيش .

فى هذا الوقت ، ادرك القاووقجى ان قواته اوشكت ان تتمزق امام زحف اللواء السابع فطلب مساعدة السوريين فى الشرق .. واستجابة لذلك ، تحركت لمساعدته كتيبة سورية ، غير انها وقعت فى كمين اعده لها رجال كارميل ، فانسحبت بعد أن خسرت مائتى قتيل .. بعد ذلك كان احتلال جيش سهلا ، وتحول بعده كارميل غربا وزحف نحو ساسا ، وكانت القرية التى تقع على ارض مرتفعة تطل على تقاطع الطرق ، منيعة التحصين .

وفى ليل التاسع والعشرين من اكتوبر ، اقام الاسرائيليون سدا من نيران مدافعهم الثقيلة يطلقونها على القرية .. وتحت غطاء هذا القصف هجم اللواء السابع على التل ، وفوجىء العرب بهذا الهجوم الذين لم يتوقعوا ان يتم بهذه السرعة ، وما انتصف الليل حتى كانت القرية ، وتقاطع الطرق فى يد الاسرائيليين ، وفر القاووقجى ورجاله الى الشمال .. وما أن وصلت انباء سقوط جيش الى طيرشيحا حتى اخليت هذه القرية ايضا ، وفى الثلاثين من اكتوبر قام لواء عوديد ، بعد قصف جوى لم يكن فى الواقع ضروريا ، بالزحف ثانية من القبرى ، واستولى على طيرشيحا دون مقاومة ، ثم واصل الزحف شرقا للانضمام الى الجنرال كارميل ، حيث قابل قافلة كبيرة من العرب المنسحبين بالقرب من حرفيش .

وبالرغم من ان الاسرائيليين دمروا او استولوا على عدد من

المركبات ، تمكن العرب من الانسحاب شمالا عبر الحدود اللبنانية ، ومعهم بعض المؤن ، وان كانوا تركوا وراءهم معظم المهمات الثقيلة ، وبعد ان اتم لواء عوديد اول نجاح هام فى القتال ، وصل الى ساسا ، وانضم الى قوات كارميل ، وهكذا انتهت المرحلة الأولى من عملية حيرام .

وجه كارميل اهتمامه بعد ذلك الى تطهير وادى الحوله .. وقرر ان يقوم اللواء السابع بهذه المهمة ، حيث يعيد طابور عوديد الى الغرب لتطهير المنطقة بين نهاريه وساسا ، ولتكون له السيطرة على كل الأراضى جنوب الحدود اللبنانية غربى ساسا .

تحرك كارميل نفسه شمالا من ساسا ، ومعه طابور اللواء السابع ، فاستولى اولا على قرية الصالحية ثم المالكية اللتين كانتا مسرحا للقتال فى بدايته ، وفى الوقت نفسه ، زحف الواء كارميل شمالا من صفد عبر روش بناه ، فى اتجاه راس الجسر السورى عند مشمر هيردن ، وتقدم اللواء السابع من الغرب ولواء كارميل من الجنوب ، وانسحب السوريون من مخافرهم الامامية ، ولكنهم ظلوا مرابطين فى مشمر هيردن ،وحاصر الاسرائيليون باحكام ذلك الموقع البالغ التحصين ، ولكن لم يهاجموه .. وسقطت المواقع حول المنارة دون قتال ، ثم عبر الاسرائيليون الحدود اللبنانية ليحتلوا شريطا من تلك البلاد من نهر الليطانى جنوبا الى المالكية .

وهكذا باقتراب فجر الحادى والثلاثين من اكتوبر قاربت عملية حيرام نهايتها : لقد هزم جيش التحرير العربى هزيمة تامة ، ووقع ما تبقى منه فى الاسر ، او طرد من الجليل ، بينما احتفظ السوريون فقط بما كان لهم من راس جسر صغير غربى الأردن عند مشمر هيردن ، ووافق كــلا الجانبين على وقف اطلاق النار محليا فى ذلك اليوم .

وبذلك تعتبر الحــرب فى الشــمال ، من كافة الأغراض العملية ، قد انتهت .

(١١)

النقــب و ســيناء

عمليــات شرقى النقــب

خلال هجوم اكتوبر ، كان الاسرائيليون قد بداوا فى احتــلال النقب الشرقية بين بير سبع والبحر الميت ، وعند نشوب الحرب ، كانوا قد اجلوا مستوطنة بيت ها ارفا عند الطرف الشمالى للبحر الميت ، بان نقلوا سكانها الى سادوم عن طريق البحر، وتقع سادوم جنوبى البحر الميت على الفومائتى قدم تحت مستوى سطح البحر ، وكان الجيش العربى قد حاصرها فى أوائل الحرب ، فكانت تتلقى التموين عن طريق الجو ، ومع ذلك لم تتعــرض المستوطنة لأى هجوم من جانب العرب ، وظلت الحالة المعنوية فيها مرتفعة.

والسلسلة الجنوبية من تلال يهودا غربى سادوم كانت وعرة وجــرداء تماما ، تحول دون اقامة أى خط برى للمواصلات ، وعلى اية حال ، قررت القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية فى اكتوبر اقامة اتصال مع سادوم، وفى الثالث والعشرين من نوفمبر وصل طابور من بير سبع الى حامية سادوم بعد رحلة شاقة كان معظمها عبر جبال صحراوية لا دروب فيها ولا مسالك، عن طريق كورنوف وبن هيوجف ، ثم زحف الطابور شمالا على طول ساحل البحــر الميت واحتل مســعده .

عمليات جنوب بير سبع :

كان من شأن النكبات فى اكتوبر أن اضطر القائد المصرى الجــديد ، اللواء صادق ، الى تقصير خطوطه ، وان يستمسك بمواقعه كما كان اللواء المواوى قد اوصى من قبل ، واعيد تنظيم القوات التى كانت فى اسدود والمجدل وذلك فى منطقة غزة ورفح ، وأرسل جانب منها الى العوجه لصد أى زحف اسرائيلى محتمل الى سيناء من بير سبع ، كما قررت القيادة العليــا المصرية اجلاء الفالوجة اذا تمكنت القوات هناك من أن تشق لها طريقا للخروج .

كان هناك لواء معزز فى منطقة الفالوجة / عراق المنشية ، وهو الذى كان قد حوصر باستيلاء الاسرائيليين على بير سبع فى الحادى والعشرين من اكتوبر ، واستطاعت هذه القوة التى يتولى قيادتها القائمقام سيد طه، من الاحتفاظ بالاتصالات عبر الصحراء مع عسلوج . كانت الذخيرة متوفرة لديها ، ولكن كان هناك عجز فى الامدادات الأخرى .. كان معظم اللــواء

متمركزا فى الفالوجة مع كتيبة واحدة فى عراق المنشية .. وكان السلاح الجوى الاسرائيلى يقوم بغارات يومية على المصريين المعزولين .

فى التاسع من نوفمبر ، اى قبل تولى صادق قيادة القوات المصرية بقليل، قام اللواء الاسرائيلى الثامن بمهاجمة مخفر الشرطة المحصن فى عراق سويدان ، وتمكن من الاستيلاء عليه ، وذلك فى هجوم مصحوب بقصف مدفعى مكثف ، وبذا اكتمل تطويق القوات فى جيب الفالوجة ، وحاول المصريون عن طريق الأمم المتحدة الحصول على اذن بارسال الامدادات الى القوات المحاصرة فى الفالوجة ، ولكن الاسرائيليين رفضوا السماح بمرور اية قافلة .. ولما رات القيادة العليا المصرية انها عاجزة عن ايصال امدادات كافية الى جيب الفالوجة حتى تتيح للحامية هناك فرصة معقولة للقيام بهجوم لكسر الحصار ، قررت أن تقوم بعملية لنجدة القوات المحاصرة .

فى العاشر من نوفمبر ، بينما كان يجرى اتخاذ هذه القرارات عقد بالقاهرة مؤتمر الجامعة العربية ، وبعد الكثير من الجدل والخلاف ، اتفق المجتمعون على مناقشة مشكلة فلسطين بصورة جادة ، ولكن المناقشات لم تتمخض الا عن نتائج تشير الى مجرد اعتراف العرب بما هو واضح جلى .. فلقد اجمع الحاضرون على انه تعوزهم القوات اللازمة لمواصلة الحرب ، وعلى أنهم اخفقوا فى استغلال الانتصارات الأولى عندما اتيحت لهم الفرصة ، وانهم نالوا اشد الجزاء لأنهم فشلوا فى اقامة قيادة موحدة تماما ، كما انهم اخفقوا فى الافادة من فترات الهدنة .. ثم تعاهدوا فيما بينهم على امداد قواتهم بالمزيد من المهارات وافضلها ، وتعبئة مواردهم ، وجعل الأولوية الكبرى للاعتبارات العسكرية ، وانطوى القرار ضمنا على استئناف الحرب عندما يكونون قد صححوا الأخطاء التى كانت سببا فى الهزيمة والفشل ، كذلك انطوى القرار ايضا على التعاون وتنسيق السياسات .

وسرعان ما تأكدت قيمة هذه النتائج والاتفاقات ، حيث اتفق الأردنيون والسوريون على وقف النار مع الاسرائيليين ، وكانت لبنان قد انسحبت فعلا ، وناشدت الأمم المتحدة كلا من مصر واسرائيل الدخول فى مفاوضات للهدنة ، ولكن مصر تجاهلت هذا النداء .

وفى الوقت نفسه ، وبعد الاستيلاء على عراق سويدان بقليل ، استطاع آلون فى التاسع من نوفمبر اقناع القائمقام طه بالاجتماع به تحت علم الهدنة ، ولكنه لم يستطع اقناع الضابط السودانى بالاستسلام ، وكانت حجة آلون ان الجيش المصرى فقد كل شىء الا الشرف ، وان التسليم بعد دفاع باسل هو الآخر تسليم مشرف .. ولكن طه ، الذى كان لا يزال تحت تأثير ما لحق بالجيش المصرى من انكسار وهزيمة وكوارث فى الأسابيع الأخيرة اجاب فى بسالة بأنه طالما كانت لديه ذخيرة فانه ورجاله لن يسلموا.

بعد ذلك ، عهد آلون الى لواء الكسندرون بمحاصرة المصريين المعزولين .

فى التاسع عشر من نوفمبر ، بدأ طابور مصرى يتحرك فى الاتجاه الشمالى الشرقى من منطقة خان يونس / غزة .. وكان يهدف ظاهريا لنجدة الفالوجة من الجنوب ، ولكنه لم يتقدم سوى بضعة كيلو مترات من قاعدته ، وفى الحادى والعشرين ، احتلوا تل جاما وتل الفارعة اللذين يشرفان على عدة قرى ومخافر اسرائيلية جنوب غربى النقب ، وهناك توقف الطابور ، وفى السابع من ديسمبر قامت قوة صغيرة من رفح بقصف نيريم دون أن تقوم بأى هجوم ، وفى اليوم التالى قامت وحدات من لواءى النقب ويفتاح بهجوم مضاد ، وتمكنت من زحزحة المصريين الى مواقعهم الأولى.

ورغم ان هذه المحاولة المصرية كانت شبه عرضية ، وان اخطرها غير ذى قيمة حيث أن الجزء الرئيسى من الجيش المصرى قد ظل محتشدا ، ولم يهزم فى منطقة غزة / خان يونس ، فقد ادرك الاسرائيليون انه لايمكن اعتبار الجبهة الجنوبية مأمونة ، ولذلك اعدت القيادة العليا لقوات الدفاع الاسرائيلية خطة لتطهير وتأمين النقب ، والقضاء على تهديد المصريين لهذه المنطقة ، وعهد الى الجنرال آلون ، قائد القيادة الجنوبية ، بمسئولية هذه العملية ، وكان لديه من أجل تنفيذها لواء جولانى ولواء النقب ولواء هاريل وكتيبة من لواء الكسندرون ، اى قرابة الخمسة عشر الف رجل ، كان اكثر من نصفهم من قوات بالماخ ، ورغم أن القيادة العامة لقوات الدفاع الاسرائيلية اطلقت على العملية اسم « عين » ، الا أن مركز القيادة الجنوبية اطلق عليها محليا اسم « هوريف » ، (وهوريف باللغة العبرية هو اسم جبل سيناء) .

حملة سيناء :

كانت القوات المصرية فى فلسطين منتشرة فى شبه قوس حدوة حصان، وكان الجزء الأيسر من القوس فى شمالى غزة ، وينحدر الى الجنوب الشرقى ثم يميل الى الشمال شرقا بطول الطريق من العوجة الى شمالى عسلوج، وكانت فى منطقة غزة أربع كتائب مشاة وكتيبة ميكانيكية ، وفى دير البلح كانت ترابط كتيبة مشاة وسريتان ميكانيكيتان ، وفى خان يونس كتيبتان مشاة وكتيبة ميكانيكية ، كما كانت توجد أربع كتائب مشاة فى رفح وجنوبا فى الصحراء الى العوجة . كما كانت هناك كتيبتان مشاة تحتلان منطقة عسلوج ، وتحكمت فصائل من رفح فى وصلة الطريق الهام عند ابو عجيلة، بينما رابطت كتيبة أخرى بالعريش ، والى جانب اللواء المعزول فى جيب الفالوجة ، عزل ايضا ما تبقى من كتائب متطوعى جيش التحرير العربى فى منطقة الخليل / بيت لحم .

علم المصريون ان من بين المزايا الكبرى للاسرائيليين هو سهولة القيام بهجمات ليلية ، لذلك صدرت الاوامر لكل القادة المصريين بأن يهتموا بوجه خاص بأن تكون قواتهم فى حالة طوارىء طوال الليل .

كانت خطة آلون تقوم على استخدام كل ما لديه من قوات للضرب جنوبا من بير سبع ضد النقطة الداخلية من خط الدفاع المصرى فوق عسلوج. وفى الوقت الذى كان يجرى فيه هذا الهجوم بكامل جيشه ، كان على لواء جولانى القيام غربا بهجوم ضد القطاع الساحلى حتى يحصر بذلك اكبر عدد من المصريين فى منطقة غزة / خان يونس / رفح .

كان آلون يهدف فى هذه المرحلة الأولى من العملية الى الاستيلاء على عسلوج ، وطرد العرب الى الحدود عند الفالوجه .. وما ان تحقق له ذلك، حتى فكر فى بدء المرحلة الثانية من العملية فى الاتجاه الشمالى الغربى ، وتهديد المواصلات المصرية التى لها قاعدتها فى العريش ، وكان يؤمل ان هذا التطويق التهديدى سيجبر المصريين على الجلاء الكامل عن القطاع الساحلى .

وفى الثانى والعشرين من ديسمبر ، ابلغت اسرائيل الأمم المتحدة انه طالما ان مصر قد رفضت الاستجابة لطلب الأمم المتحدة الخاص ببدء المفاوضات ، فان اسرائيل تشعر بأنها حرة فى بدء الهجوم ضد القوات المصرية فى فلسطين . وبعد ساعات قليلة بدات عملية « عين — هوريف » بهجمات جوية اسرائيلية على المطارات المصرية بالقرب من غزة والعريش، ودمرت معظم الطائرات المصرية وهى رابضة بأرض المطارات ، الأمر الذى ضمن لاسرائيل تفوقا جويا الى نهاية الحرب ، ثم قامت الطائرات الاسرائيلية بضرب حشود القوات بالقرب من غزة وخان يونس ورفح ، وبعد أن خيم الظلام بقليل قام لواء جولانى (الذى كان قد حل محل يفتاح فى أواخر نوفمبر) بالزحف على جبهة فسيحة ضد القطاع الساحلى .

وعند الفجر ، كان الاسرائيليون قد نجحوا فى احتلال سلسلة من التلال الصغيرة على مسافة ثمانية اميال جنوبى غزة ، ورد البريجادير نجيب بسرعة على المحاولة الاسرائيلية الجديدة لقطع طريق غزة / رفح ، وبعث بقوة مصفحة للقيام بهجوم مضاد ، واضطر الاسرائيليون للانسحاب من بعض المواقع التى كانوا قد احتلوها ، ولكنهم نجحوا فى الاحتفاظ بالبعض الآخر. وعلى اية حال ، اتمت قوات جولانى هدفها الرئيسى فى تحويل انتباه المصريين الى المنطقة الساحلية ، واثناء هذا القتال اصيب نجيب بجراح خطيرة .

وفى الثالث والعشرين من ديسمبر ، زحف الجنرال آلون وجيشه الرئيسى ضد مواقع العرب جنوبى بير سبع ، ولكن كان المصريون يتوقعون هذا الزحف ، فاقاموا مجموعة من المتاريس القوية المحصنة على الطريق

شمالى عسلوج ، وكانوا واثقين من ان الارض لن تسمح باية مناورة اسرائيلية شاسعة خارج الطريق .

غير ان الجنرال آلون وضباطه درسوا بعناية خرائط الهاجاناه الفوتوغرافية ، التى ظهرت فيها بقايا طريق رومانى قديم يكاد يسير فى خط مستقيم من بير سبع الى العوجه ، فبعث آلون بضباطه (اركان حرب) لفحص هذا الطريق ، فوجدوا أن من الممكن الانتفاع به . وبعد ساعات قليلة من العمل الذى قام به المهندسون الاسرائيليون ، كان الطريق صالحا لمرور السيارات والمركبات الخفيفة المصفحة ، غير انه فى الرابع والعشرين، هبت عاصفة ممطرة ، مصحوبة بفيضان لم يكن متوقعا ، وتعطل العمل على جزء من الطريق ، وتأجل ليوم واحد ذلك الزحف الذى كان من المقرر ان يتم فى الرابع والعشرين .. وفى الخامس والعشرين تحركت القوات الرئيسية على الطريق بالقرب من العوجة دون ان تقابل اية مقاومة جدية، واتجه طابور صغير غربى عسلوج ، وجاوزت القوات هذه القرية المحصنة، ووصلت الى الطريق الرئيسى ، ثم تحولت جنوبا الى العوجه ، واتجه طابور ثالث شرقا الى جنوب بير سبع ، وتجاوز أيضا عسلوج ، حيث انضم الى الطابورين الآخرين خارج العوجة فى ساعة متأخرة من الخامس والعشرين، وقبل حلول الظلام ، قام الطابور الرئيسى بسد الطريق العوجه / رفح، واستولى على مخفرين مصريين على الطريق اثر هجوم مفاجىء قام به من المؤخرة ، وفى ليلة ٢٦/٢٥ ديسمبر انتشر الاسرائيليون من حول العوجة، حيث طوقوا الموقع المصرى تماما .

وفى فجر السادس والعشرين من ديسمبر وقع هجوم اسرائيلى سرعان ما قوبل بمقاومة شرسة ، وفى انسحاب الاسرائيليين ، حاولوا اسكات الموقع بنيران الهاون والمدفعية .. ولكن كانت النتيجة واحدة . واثناء النهار اكتفى الاسرائيليون بتطويق الموقع ، وقصف الاستحكامات بالهاون ، وحاول طابور مصرى من العربات المصفحة والمشاة الزحف على طريق رفح لنجدة الحامية ، ولكن الاسرائيليين صدوا ذلك الزحف ، ووضعوا خطة للهجوم صباح السابع والعشرين .

وبناء على اوامر باللاسلكى من رفح ، انسحبت حامية العوجة بهدوء اثناء ليلة ٢٧/٢٦ ديسمبر ، متسللة عبر الخطوط الاسرائيلية جنوب شرقى الصحراء ، وفى الساعات المبكرة من صباح اليوم التالى تحرك الاسرائيليون للاستيلاء على الموقع الذى انسحب المصريون منه ، وعلى وصلة الطريق الهامة هناك .

وخلال معركة العوجة زحف طابور اسرائيلى رابع جنوبى الطريق الرومانى ، ثم تحول الى جنوبى عسلوج حيث هاجم الموقع من الجنوب فى السادس والعشرين ، كان القتال عنيفا ، ولكنه لم يستمر طويلا .. وفى السابع والعشرين استسلم المصريون .

وطوال تلك النشاط المكثف فى قلب الصحراء ، واصل لواء جولانى الضغط ضد المواقع المصرية على طول القطاع الساحلى ، وفى السابع والعشرين تم عزل غزة وخان يونس ورفح كل عن الاخرى .

وفى تلك الليلة ، قام لواء الكسندرون فى الشمال بهجوم مفاجىء ضد الجزء الشرقى من جيب الفالوجه عند عراق المنشية .. ولكن المصريين حاربوا بعناد ، وفى الصباح المبكر من الثامن والعشرين بعث القائمقام طه بتعزيزات من الفالوجه ، وعندما كشف الطيارون الاسرائيليون هذا التحرك الغى هجوم لواء الكسندرون .

ولما تم تأمين العوجه ، اندفعت قوة الجنرال آلون الى سيناء فى طابورين ، اتجه احدهما شمالا بطول الطريق الى الساحل حيث انضم الى لواء جولانى والقوات الاسرائيلية المحلية قرب رفح ، وزحف الطابور الثانى بقيادة آلون شخصيا الى الغرب على بعد خمسين كيلو مترا من العوجة فى قلب الصحراء الى ابو عجيله ، وبالرغم من تعويق الزحف ووجود بعض الخسائر نتيجة هجوم خاطىء من جانب الطائرات الاسرائيلية المقاتلة، فاجأ الاسرائيليون حامية المخفر واكتسحوها فى ليلة ٢٩/٢٨ ديسمبر ، وبعث آلون بوحدات صغيرة ضد المخافر المصرية فى القسيمة وبير حمه وبير حسنه ، ولكنه قاد طابوره الأصلى الى الشمال الغربى متجها فى سرعة الى العريش ، وبعد مناوشات قصيرة مع المخفر المصرى عند وصلة الطريق فى بير لهفان ، اندفع الاسرائيليون الى المطار بين بير لهفان والعريش على بعد نحو خمسة عشر كيلومترا من الساحل ، وفوجئت بعض الطائرات المصرية بهذا الهجوم ، وقبيل منتصف الليل وصل الاسرائيليون الى مشارف العريش ، حيث أصبح البحرعلى مراى منهم ، ولكنالمصريين كانوا مستعدين، وادرك الاسرائيليون — بعد استطلاعهم للاستحكامات مع ما كانوا عليه من تعب وارهاق — ان من الصعب الاستيلاء على العريش فى وقت قصير .

(٦٢)

وقف اطلاق النار والهدنة

الحلقات الأخيرة العاصفة

أثار الهجوم الاسرائيلى فى سيناء قلقا بالغا فى الامم المتحدة ، وامر مجلس الأمن فى التاسع والعشرين من ديسمبر بوقف اطلاق النار، وتعرضت حكومة اسرائيل للضغط السياسى لسحب قواتها من سيناء ، وفى الثلاثين من ديسمبر اعلنت بريطانيا انها بموجب أحكام المعاهدة المصرية البريطانية ستكون مضطرة لمساعدة مصر مالم تستجب اسرائيل فورا لما طالبتها به الأمم المتحدة من الانسحاب من الاراضى المصرية ، وتلقى الجنرال آلون امرا بتأجيل خطته للهجوم على العريش .

وفى اليوم التالى ، الحادى والثلاثين من ديسمبر ، تلقى امرا بالانسحاب الكامل من الأراضى المصرية ، فاستدعى وحداته المغيرة ، وهدم المبانى فى ابو عجيله ، وبدأ فى الرابع من يناير زحفا بطيئا الى الشمال الشرقى بطول الطريق الساحلى الى رفح .

تعرضت رفح لهجمات لواء جولانى منذ الثانى من يناير ، وانضم لواء هاريل الى الهجوم فى اليوم التالى ، وفى الرابع والخامس من يناير شقت الوحدتان الاسرائيليتان طريقهما ببطء وأمام مقاومة قاسية الى نقطة اتصال طريق رفح ، وعندما وصل آلون وطابوره فى السادس من يناير كانت هناك قوة اسرائيلية ساحقة تطوق المدينة وطريقها . وفى ساعة متأخرة من الليل كان الاسرائيليون يستعدون لهجوم « الذروة » ، ولما طلبت مصر الهدنة تقبل الطلب فورا بالموافقة .. وبذا انتهت العمليات القتالية بالميدان فى الحرب العربية الاسرائيلية الأولى .

غير انه كانت هناك معركة أخيرة على وشك ان تقع : ففى اليوم التالى هاجمت خمس من طائرات السلاح الجوى البريطانى الساحل شمالى رفح ، وتصدت لها الطائرات الاسرائيلية ، وفى معركة جوية شرسة اسقطت الطائرات البريطانية الخمس بالقرب من نيريم ، وطفقت الحكومة البريطانية تفكر عدة ساعات فى الانتقام ، غير أن أنباء تدخل بريطانى لا مبرر له فى منطقة قتال اثارت قلق الرأى العام فى بريطانيا ، أكثر مما يثيره الاحساس بأن بريطانيا قد جرحت فى كبريائها ، وبعد أن بعثت حكومة لندن بتعزيزات

الى العقبة اكتفت بتوجيه تحذير ، بل بالاحرى انذار ، الى الاسرائيليين للانسحاب من سيناء ، وباستجابة الاسرائيليين لهذا التحذير ، انتهى خطر وقوع قتال بين الانجليز والاسرائيليين .

وبينما كانت تجرى هذه العمليات بطول الحدود بين سيناء وفلسطين، كانت هناك قوات اسرائيلية اخرى تتحرك نحو صحراء النقب التى اصبحت مفتوحة امامهم حتى خليج العقبة ، وفى تحرك الاسرائيليين جنوبا فى النقب ونحو خليج العقبة ، حرصوا على ان يكون تحركهم داخل حدود فلسطين كما هى موضحة على خريطة الأمم المتحدة ، وفى الثامن من ينساير علم الاسرائيليون ان البريطانيين فى طريقهم الى العقبة ، فاوقفوا فورا تحركهم فى النقب الجنوبية .

ولمدة شهرين تقريبا ، ارجات القوات الاسرائيلية اية تحركات اخرى جنوبى النقب وشماليها ، بينما عززوا مواقعهم فى الشمال انتظارا لتقدم المفاوضات الرسمية وشبه الرسمية مع الاردنيين ، وكان الاسرائيليون حريصين على تفادى اية حوادث تتورط فيها القوات البريطانية التى كان جانب منها قد احتل مواقع غربى الحدود الأردنية الفلسطينية ، واخيرا ، وبعد تبادل المذكرات الدبلوماسية ووقوع بعض الصدامات الطفيفة بين الاسرائيليين والجيش العربى ، انسحب البريطانيون ومعظم الاردنيين الى الجانب الشرقى من الحدود القديمة بين فلسطين وشرق الأردن .

وبعد ذلك مباشرة ، بدات فى الخامس من مارس عملية « أوفدا » ، مستهدفة احتلال جنوبى وغربى النقب ، وخصص لواءان لهذه المهمة ، هما لواء النقب ولواء جولانى .

كانت التوجيهات الصادرة للواء النقب تقضى بالتحرك جنوبا على الطرق والمسالك وسط النقب حتى خليج العقبة وأم رشرش التى اصبح الاسرائيليون يسمونها فيما بعد « ايلات » وفى الوقت نفسه ، تقرر تحريك لواء جولانى الى الجانب الشرقى من النقب ، مع الحرص على البقساء غربى الحدود مع استطلاع حالة الطرق والمسالك فى منطقة هذه الحدود ، وفى السابع من مارس وصل لواء جولانى الى مستوطنة عين هوزوف ، ومن هناك واصل الزحف جنوبا ، واعترضته بعض التدخلات المتناثرة ، حتى وصل الى ام رشرش فى الخامسة من مساء العاشر من مارس .. وهناك وجدوا انه قد سبقتهم بالوصول الى هناك طليعة لواء النقب بقيادة الكابتن الشاب ابراهان ادان ، وذلك عن طريق مسلك صحراوى من الشمال الغربى .. وهنا رفع العلم الاسرائيلى على شاطىء البحر الأحمر .

فى هذه الاثناء ، قامت كتيبة من لواء الاكسندرون ، التى ظلت تعمل عدة شهور مع لواء هاريل بالاستيلاء على عين جدى على البحر الميت ، وذلك فى عملية انزال برمائية من قاعدتها فى سادوم . وقد ضمن هذا للاسرائيليين

ان تسيطر — على الأقل — على الربع الجنوبى الغربى من ساحل البحر الميت ، واحتج الأردنيون بمرارة — ولكن دون جدوى — على قيام الاسرائيليين هنا بتسوية النزاعات بقوة السلاح ، كما فعلوا من قبل فى جنوبى النقب، بينما كان المفروض ان تتم تسويتها على موائد المفاوضات .

مفاوضات الهدنة :

فى الثالث عشر من يناير ، بدات مفاوضات الهدنة فى جزيرة رودس تحت رئاسة وسيط الأمم المتحدة الدكتور رالف بانش ، وكانت مفاوضات ثنائية بين الوفد الاسرائيلى من جانب ، ووفد من عدة دول عربية من جانب آخر .

ونظرا للموقف السيىء للواء المصرى الذى عزله الاسرائيليون فى الفالوجه ، كان المصريون متلهفين على بدء المحادثات بسرعة ، ولذلك كانوا هم أول من تفاوض مع الاسرائيليين وتولى بانش ادارة المناقشات بهدوء ، واقترح مسودات اتفاق حول المشاكل الشائكة ، وتم التوصل فى الرابع والعشرين من فبراير الى اتفاق هدنة بين مصر واسرائيل .

كان خط وقف اطلاق النار هو بوجه عام حدود قبل الحرب بين فلسطين وسيناء المصرية ، على ان يظل قطاع صغير من جنوب غربى فلسطين — وهو ما يعرف بقطاع غزة — تحت الادارة المصرية ، وبتوقيع الاتفاق ، رفع الاسرائيليون الحصار عن جيب الفالوجة ، وعادت القوات المصرية منها الى سيناء المصرية .

كانت مفاوضات الهدنة بين لبنان واسرائيل اكثر سهولة ، وتمت على مهلوبهدوء . وفى الثالث والعشرين من مارس تم التوقيع على الاتفاقيةالتى اكدت حدود ما قبل الحرب بين فلسطين ولبنان كخط لوقف اطلاق النار .

فى نفس الوقت ، كانت هناك مفاوضات مبدئية هامة بين الملك عبد الله وفريق صغير من الاسرائيليين يضم كأعضاء هامين وزير الخارجية موشى شاريت والكولونيل موشى ديان . وكانت المشاكل الرئيسية هى :

١ — الحصول على موافقة اسرائيل على قيام الأردن بالاشراف على المناطق التى تحتلها القوات العراقية ، حيث كان العراقيون يرفضون التفاوض مع اسرائيل .

٢ — موافقة الأردن على احتلال اسرائيل لجنوبى النقب داخل حدود ما قبل الحرب للانتداب البريطانى على فلسطين .

٣ ـ التوصل الى تسويات مرضية للموقف المعقد لوقف اطلاق النار فى القدس وما حولها .

وتم التوصل وديا الى اثنتين من هذه التسويات ، بينما لم تتم تسوية المشكلة الثالثة اطلاقا ، اذ انتهى الأمر باستيلاء الاسرائيليين على القدس بعد ثمانية عشر عاما .

وعندما اتجهت المفاوضات الرسمية الى رودس فى اول مارس ، استمرت اللقاءات السرية فى عمان بين عبد الله وممثلى اسرائيل ، وفى الثالث من ابريل تم فى رودس توقيع اتفاق رسمى .

اما المفاوضات بين الممثلين الاسرائيليين والسوريين فكانت اكثر صعوبة ، وكانت العقبة الاساسية هى الوصول الى تسوية مقبولة بشأن المناطق الصغيرة الثلاث من فلسطين التى احتلتها القوات السورية فى أواخر الحرب . ولما كانت هذه المناطق الثلاث بالغة الخصب ، وقد تنتج محصولين فى السنة ، فقد دخلت فى الموضوع الاعتبارات العملية الى جانب اعتبارات الكبرياء والكرامة . وفى النهاية تم الاتفاق على أن تبقى هذه المناطق منزوعة السلاح ولن تكون تحت سيطرة اى جانب ، وكان على الاسرائيليين ان يرحلوا عنها ، والا يدخلوها ويسمح للزارعين المحليين من يهود وعرب بان يفلحوا اراضيهم تحت ادارة من لجنة الهدنة المشتركة المكونة من ضباط اسرائيليين وسوريين ، وتكون هى بدورها تحت اشراف هيئة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة .. وفى العشرين من يوليه ، تم التوقيع على الاتفاق .

ونصت كل الاتفاقيات على تبادل الأسرى ، وتأكيد استمرار دور هيئة مراقبة الهدنة التى كانت تكونت اساسا فى عهد برنادوت ، ولحل النزاعات المحلية على كل خطوط وقف اطلاق النار ، كانت هناك لجنة مشتركة للهدنة، ولا تزال هذه الهيئات قائمة حتى اعداد هذا الكتاب ، اى لثلاثين سنة ، غير انه لم تكن لهذه اللجان فعالية كبيرة .. ومن بين هذه اللجان ، كانت لجنة الهدنة المشتركة السورية الاسرائيلية ، وهى اللجنة العاصفة اكثر من غيرها .

(١٣)

العمليات البحرية

البحريات المتقابلة

بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٧ ، كان الفرع البحرى لبالماخ ، المسمى « باليام » ، قوة سرية مكونة من ملاحى الزوارق التجارية ، وبعض المحاربين القدامى فى الحرب العالمية الثانية من البحرية الملكية البريطانية، وتضم العديد من الكوماندوز البحريين والضفادع البشرية ، وكانوا اصلا قد اشتركوا فى محاولات تهريب المهاجرين اليهود غير الشرعيين الى فلسطين عبر سفن الحصار البريطانية ، كما انهم نجحوا فى بعض النشاط التخريبى ضد السفن البريطانية ، والمنشآت الساحلية .

وفى اوائل عام ١٩٤٨ ازداد عدد ماكان موجودا منذ البداية من زوارق تجارية ، نتيجة مجهود فرق المشتريات التابعة للوكالة اليهودية ، حيث اشترت من أوروبا وأمريكا الشمالية مجموعة غير متجانسة من السفن القديمة ، من بينها مركب كان من قطع خفر السواحل الأمريكية وكاسحة جليد امريكية ايضا ، ثم اشترت فى مايو ١٩٤٨ عدة فرقاطات بريطانية من طراز « فلاور » حمولتها الف طن ، وطولها مائتا قدم ، وكانت فى الواقع من انفع السفن فى بداية عهد البحرية الاسرائيلية ، وقبل الاستقلال بقليل قامت « باليام بغارة جريئة ، استولت فيها على عدد من السفن التى كانت تستخدم فى نقل المهاجرين ، وكان البريطانيون قد احتجزوها فى ميناء حيفا .

وبعد انتهاء الانتداب ، سمح البريطانيون الذين كانوا يتخذون من حيفا قاعدة لهم ، بأن يقوم الاسرائيليون بتجديد ، وتكييف سفنهم بالترسانة البحرية فى حيفا ، ولكن لم يسمحوا للاسرائيليين بتركيب اية اسلحة على هذه السفن طالما أنها راسية بميناء حيفا . وكانت اول سفينة يعاد ترميمها هى كاسحة الجليد الأمريكية الأصل وكان اسمها « بير » ، واطلق عليها الاسرائيليون اسم « ايلات » ، ونقلوها الى تل ابيب ، حيث تم تزويدها ببعض مدافع الميدان عيار ٦٥ مم على قواعد مؤقتة ، وبذا تم تحويل المركب القديم الى سفينة حربية ، ووقع الاختيار على الكولونيل ناخمان شولمان ، وهو من مهاجرى الولايات المتحدة ، ليكون قائدا للبحرية الاسرائيلية . وخلال الحرب ، اشترت اسرائيل بعض السفن الاضافية .

والعدو العربى الوحيد لاسرائيل الذى كان يمتلك سلاحا بحريا فى مايو ١٩٤٨ هو مصر ، وكانت بحريتها فى الواقع اصغر سنا من بحرية

« بالبام » الاسرائيلية ، حيث تم تكوينها فى عام ١٩٤٦ ، وكانت سفنها الأصلية عبارة عن حفنة من سفن خفر السواحل البريطانية مع بعض اليخوت الملكية .. وكان كل ضباطها من ملاحى البحرية البريطانية او من صغار ضباط مصر الذين اقتصرت خدمتهم على سفن السواحل فى المياه المصرية ، كما كان هناك عدد غير قليل من الضباط الذين تلقوا تعليمهم البحرى فى بريطانيا .

وفى اكتوبر ١٩٤٦ انشئت كلية بحرية مصرية فى الاسكندرية ، وفى الوقت نفسه تقريبا بدات البحرية فى شراء القليل من السفن ، ولعل اهمها بعض كاسحات الالغام الامريكية ، التى تم تسليحها بمدافع بطارية ميدان حصلت عليها من الجيش ، وفى السنة التالية اضيفت اليها بارجة كانت تابعة للبحرية البريطانية ، واصبحت هى سفينة الاميرال واطلق عليها اسم « الأمير فاروق » .

العمليات الأولى :

قبل نشوب الحرب رسميا بقليل ، وبالذات فى ١٤ مايو ١٩٤٨ ، انزلت السفن الحربية المصرية قوة صغيرة عند المجدل ، ولكن اقتصرت البحرية المصرية بعد ذلك على نقل وامداد قوة الغزو المتجمعة فى قطاع غزة . وبالرغم من ان المواصلات البرية الى القناة لم تتعرض لأية مضايقات ، الا ان مصر كانت فى الظاهر تفضل ان تعتمد اساسا على القيام بالامداد ومناوبة الجنود عن طريق البحر . وكان هذا يرجع جزئيا الى العجز فى المركبات ، والى ادراك مدى طول الطريق البرى ، وتعرضه للكمائن من جانب التغلغل العميق للكوماندوز اليهود المغيرين .

وفى الثانى من يونيه فقط ، اى بعد ثمانية عشر يوما من بدء الغزو ، قامت سفينة مصرية واحدة بقصف قيسرية ، ولكن الاضرار طفيفة ، ولم تقع خسائر فى الأرواح ، وفى الرابع من يونيه شاهد الاسرائيليون اسطولا صغيرا من مركبين او ثلاث يتجه شمالا بطول ساحل قطاع غزة .. وخرجت ايلات الى عرض البحر ترافقها سفينة احتياطية هى « هاناه سينيش » ، مع مساندة جوية ، وبعد ساعتين تقريبا شاهدت ايلات المصريين على بعد عشرة اميال تقريبا الى الجنوب ، وعلى مسافة اربعة أميال تقريبا من الشاطىء .

وبالفحص الدقيق تمكن الاسرائيليون من معرفة السفن المصرية ، وهى سفينة النقل المسلحة « الأميرة فوزية » تتبعها كاسحة الغام او بارجة وسفينة انزال كبيرة ، وكانت كلها تتجه صوب الشمال فى محازاة الشاطىء ، وافترض الاسرائيليون ان يكون الهدف المصرى هو مساندة طلائع الوحدات البرية بالقرب من اسدود ، او القيام بعملية انزال برمائى بالقرب من تل ابيب.

ولما كانت هذه القوة كبيرة ، ولا يمكن لايلات ان تتصدى لها ولم تظهر اية مساندة جوية ، فقد صدر الأمر فى الساعة الثانية بعد الظهر بتغيير مسار ايلات والعودة شمالا ، وفى الحال زادت البارجة المصرية من سرعتها ، ولما اصبحت على مسافة ثلاثة اميال منها فتحت عليها نيرانها ، وظلت السفينتان تتبادلان النيران لمدة ساعة تقريبا ، ولكن كانت الاصابات قليلة ودون تأثير .

وفى الساعة الثالثة والربع كانت ايلات امام يافا ، عندما وصلت ثلاث طائرات مقاتلة اسرائيلية ، حلقت ست مرات فوق السفن المصرية ، وسجلت ضربة واحدة ، ثم اصيبت احدى الطائرات من طراز « فيرتشايلد » نتيجة قصف الدفعية المصرية المضادة للطائرات ، وعادت السفن المصرية جنوبا حول الخامسة والنصف مساء .

وفى تعادل الجانبين فى هذه المرحلة الابتدائية من الحرب (مرحلة الغزو) اقتصر نشاط البحرية الاسرائيلية على الداوريات عند المداخل الى ميناء تل ابيب ، وعلى حراسة سفن المهاجرين عند وصولها ، اما المصريون ، فانه الى جانب القصف العرضى للمنشآت الساحلية ، فقد كانوا فى الوقت نفسه منهمكين اساسا فى توفير مؤن الامداد للجيش .

ان اشد قتال للبحرية الاسرائيلية خلال الحرب قد وقع باكمله على البر ، وفى اثنائه انضمت سرية من مشاة البحرية الى لواء جيفات فى القتال بالقرب من النقب فى منتصف يوليه ، وفى الثامن عشر من يوليه فقدت هذه السرية رجالا اكثر مما فقدته بقية البحرية طوال الحرب بأكملها .

وفى الوقت نفسه تقريبا ، وعند غسق السابع عشر من يوليه ، اتجهت شمالا ايلات ، وويد جود (واصلها بارجة بريطانية) بطول الساحل اللبنانى عند صور ، واخذتا تقصفانها لمدة خمس عشر دقيقة ، قبل ان تنطلقا الى عرض البحر على بعد عشرة أميال لتعودا جنوبا الى تل ابيب ، وكان الهجوم مفاجاة واضحة ، حيث لم يكن هناك اى رد من الشاطىء على هذا القصف ، ويحتمل ان يكون هذا القصف قد اسهم فيما قررته لبنان من عدم القيام بدور فعال فى الحرب ، خاصة وأن القوات اللبنانية ومدافعها التى كانت تستخدم فى غزوات الجليل قد تركزت الآن للدفاع الساحلى .

وخلال عملية « يواف » فى اكتوبر ، استخدمت السفن الاسرائيلية الدفعية البعيدة المدى ، بقصد ارهاق الوحدات المصرية فى القطاع الساحلى ، كما حاولت ايضا وضع الطرق البرية الى بورسعيد تحت نيران المدفعية المدمرة ، واعتراض السفن المصرية التى تحمل المؤن الى القوات البرية .

وفى التاسع عشر من اكتوبر ، اقلعت من غزة احدى البوارج المصرية من ناقلات الجنود ، فاقترب منها سرب من بينه ايلات و ويد جود ، وعادت

السفينة المصرية الى الشاطىء حيث انزلت القوات وخرجت لتقاتل السفن الاسرائيلية ، وبينما كانت السفينة المصرية تنسحب جنوبا ظهرت عدة طائرات مصرية « سبيتفاير » ، التى يبدو ان السفينة كانت قد استدعتها ، فقصفت بقنابلها السفن الاسرائيلية ، واسفر ذلك عن مقتل جندى وجرح ثلاثة ، واسقطت احدى الطائرات المصرية بنيران المدفعية المضادة للطائرات . حدث هذا فى الفترة التى كانت القوات المصرية تنسحب فيها من منطقة اسدود / المجدل ، وفى العشرين من اكتوبر قصفت السفن الاسرائيلية صفا من هذه القوات على الشاطىء جنوب المجدل ، وظلت تناوشه على طول الطريق الى غزة .. واضطر المصريون ازاء ذلك لتحويل نيرانهم من مطاردة الجنود الاسرائيليين وتوجيهها ضد السفن الاسرائيلية .

وقبل تنفيذ الهدنة بقليل ، اكتشف الاسرائيليون السفينة بارجة الامبرال، وهي (الأمير فاروق) ، واحدى كاسحات الالغام ، وكانتا تتحركان خارج غزة ، فارسلوا وحدة خاصة مع الزوارق المتفجرة التى يتم التحكم فيها عن بعد ، كى تهاجم السفينتين المصريتين ، وكان الذى يتولى توجيه السلاح من احد الزوارق القريبة اللازم يوشاى بن نون ، الذى اصبح فيما بعد قائدا للبحرية الاسرائيلية ، واصاب الزورق المتفجر السفينة « الأمير فاروق » واغرقتها فى دقائق ، واصاب زورق آخر كاسحة الالغام فاصيبت بعطب شديد ، ولكنها ظلت طافية ، ومنح يوشاى بن نون وساما كبطل اسرائيلى، فكان بذلك واحدا من اثنى عشر رجلا ممن كرمتهم اسرائيل خلال الحرب . بعد ذلك بقليل توقفت مصر عن محاولات الامداد بحـــرا ، وخفضت شركات التامين الامريكية والبريطانية اقساط التامين على السفن الاسرائيلية .

تحولت تدريجيا المناوشات البحرية الاسرائيلية التى بدات بعملية « يـــواف » الى حصار كامل بعملية « هوريف » ، ففى العملية الأولى كان الاسرائيليون ينتظرون تقارير الاستطلاع الجوى قبل القيام بأية مهمة ، ومن ثم كانوا يتدخلون متأخرين او يصلون الى المكان غير الصحيح ، امـــا فى العملية الثانية التى بدات فى الثانى والعشرين من ديسمبر ، فكان الأسطول باكمله يقوم بداورياته خارج سيناء نهارا ، ثم يطوف ليلا مقتربا من الشواطىء ليقصف الطرق ، وفى ذلك الوقت استبدلت ببطارية الميدان الثابتة مدافع بحرية عيار ٣ بوصة و ٤ بوصة مع تحكم متطور فى اطلاق النار .

غير ان المصريين فى ديسمبر كانوا افضل استعدادا لأى قصف بحرى يتعرضون له ، وكان من شأن حالة الاظلام استحالة القصف الفعال للأهداف الساحلية ليلا ، ومن ناحية اخرى لم تكن البطاريات الساحلية المصرية فعالة بدرجة كبيرة ، وحدث فى احدى المناسبات ان حاصرت اضواء الكشـــافة المصرية السفينة الاسرائيلية « هجاناه » واطلقت عليها النيران من بطارية ساحلية فاصابتها ببعض الأضرار .. وكانت تلك هى الحادثة الوحيدة التى سجلت فى تلك الآونة .

والنتيجة : نجحت المحاولة البحرية الاسرائيليةفى عملية « هوريف » بالرغم من عدم تعطل خط السكة الحديدية الساحلى ، فقد توقف تمامـــا الامداد المصرى البحرى ، ولم تستطع الدخول اية سفينة مصرية ، كمـــا أن القوة المصرية على الساحل قد ضعفت ، حيث دعت الضرورة الى تحويل المدافع والقوات الى الدفاع الساحلى .

تقـــــييم

تحت ظروف القتال لم تكن كلتا البحريتين على خبرة وتجربة ، ولكن كان اداؤهما مشرفا وجديرا بالاكبار : فمن ناحية ، كانت البحرية الاسرائيلية راجحة الكفة بنسبة بسيطة ، ومن الناحية الاخرى ، اسهمت البحـــرية المصرية بقدر اكبر فى المجهود الحربى المشترك للأسلحة الاخرى ، اذ كانت تقوم على امدادها سواء فى الهجوم البرى أم فى انسحابها بعده

وعلى اية حال ، كان للحرب البحرية اثر طفيف سواء فى مجـــرى الحرب ام فى نتيجتها ، فلم يكن اى الطرفين مستعدا للقيام بحصار بحرى، وهو ما يعتبر بمثابة الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها تاكيد التأثير الحـــاسم للقوة البحرية .. ومع ذلك ، لقدكانت حربا تهدف فى المقام الأول الى كسب السيطرة على الأرض ، ولم تكن لدى اى الفريقين المتحاربين القوة البحرية الكافية لتؤثر فى النتيجة بصورة خطيرة او هامة .

(١٤)

تذييل

فى اواخر عام ١٩٤٧ ،بلغ تعداد الاهالى فى فلسطين اليهودية ستمائة وثمانين الفا ، بينما بلغ مجموع تعداد الاهالى فى لبنان وسوريا وشرق الاردن والعراق ومصر ، الى جانب العرب الفلسطينيين ، ما يزيد على الثلاثين مليونا .. وهكذا كان للعرب رجحان كاسح بنسبة خمسة واربعين الى واحد .

غير ان الرجحان فى القوات العسكرية المعبأة يختلف كل الاختلاف .. فمنذ البداية كان عدد القوات اليهودية المعبأة فى الميدان لا يقل عن عدد قوات العرب .. وبينما كان المفروض توزيع نسبة كبيرة من هذه القوات حول البلاد من اجل امنها ، كان فى وسع اليهود عادة أن يلقوا الى ميدان المعركة بقوات اكبر من تلك التى يأتى بها العرب ، ولم تكن القوات اليهودية فى مستهل الأمر مجهزة كالقوات المعادية ، ولكنها كانت (باستثناء واحد) افضل تنظيما واحسن تدريبا ، وفى نهاية الحرب ، ومع تدفق الاسلحة والمهمات الى اسرائيل وفقا لبرامج الشراء الممتازة تخطيطا وتنفيذا ، استكملت اسرائيل تفوقها فىعدد الأفراد الذين عبأتهم،وفى التنظيم والتدريب، ويكاد يكون ذلك على نفس المستوى فى كافة نواحى التسليح وخاصة الطيران .

فى الاسابيع الأخيرة من الحرب ، حقق الاسرائيليون تفوقا جوهريا على المصريين فى ممر غزة وشمالى النقب ، وكنتيجة لمقدرة اليهود الفعالة فى التعبئة اصبح ثلاثة عشر فى المائة من الاهالى تحت السلاح .

ومما يزيد فى اهمية هذه النسبة ذلك التفكك الذى اتسمت به العلاقات بين خصوم اسرائيل من العرب ، فسارعت لاستغلال هذا التفكك .

ان ماكان يتملك العرب من مشاعر الغيرة ، والحسد ، والحزازات ، والضغائن القديمة ، والعجز المدهش فى الوصول الى تنسيق العمل بينهم، رغم اعترافهم هم انفسهم بضرورة ذلك التنسيق ، كل ذلك كان من شأنه ان يضمن النصر لاسرائيل .

ومن بين الوحدات العربية كان الجيش العربى هو ابرزها ، لما يتميز به من صفات قتالية عالية ، ومن السهل ان يعزو الغربيون ذلك الى ما كان

عليه الجنرال جون جلوب وضباطه البريطانيون من كفاءة فى التنظيم والادارة والقيادة . ولا جدال فى أن التدريب البريطانى واقتباس المبادىء العسكرية البريطانية فى العمليات والامدادات قد أسهم فى التقريب بين الثقافة العسكرية العربية القيمة وثقافة اوروبا الحديثة .. وهكذا اصبح فىمقدور الجيش العربى ان يحارب تحت قيادة ضباطه العرب ، كما لو كان يحارب تحت قيادة البريطانيين ، بل وكان فى وسعه ايضا ان ينازل على نفس المستوى وحدات بالماخ الاسرائيلية .

وهنا درس لم يدركه الجميع الا جزئيا فقط ، سواء المشتركون فى القتال أم المراقبون الأجانب .. ولعلهم ايضا لم يدركوه تماما حتى اليوم .. انه درس يتناول تداخل المبادىء والتدريب والتنظيم والقيادة ، ويتعين دراسته من جديد على ضوء التطورات الأخيرة للنزاع العربى الاسرائيلى .

فى عديد من المناسبات ، اظهر الجنود العرب من كل القوات استماتة وعنادا فى الدفاع ، وبدا ذلك واضحا بوجه خاص تحت القيادة القوية كتلك التى كانت فى الجيش العربى فى لطرون .. ولكن كان ذلك واضحا ايضا فى الظروف التى كانت فيها القيادة : اقل مثالية ، مثل اداء السوريين فى مشمرهيردن ، والمصريين فى الفالوجه وعراق سويدان .

غير ان العرب فى مناسبات اخرى ، عندما كانوا فى مواقع دفاعية ممتازة ، انهاروا تحت الضغط ، كما حدث فى اللد ، او تفككوا فى كاستيل بعد موت الحسينى ، وهذه الأحداث ايضا تبرر دراسة جدية من جانب ضباط هيئة اركان حرب العامة العربية والاسرائيلية ، بل وغيرهما ، وكذلك دراسة ما تلاها من أحداث فى الحروب الأخيرة .

ومن ناحية اخرى ، يجب ملاحظة أن الدفاع كان ناجحا بوجه عام فى هذه الحرب ، سواء فى ذلك دفاع العرب ام دفاع الاسرائيليين ، حيث كان كلا الجانبين يفتقر الى الخبرة ، بل واحيانا الى الوسيلة لتدبير المساندة اللازمة من قوة ضرب النار للقوات التى تهاجم الاستحكامات .. والاستثناء الوحيد فى ذلك هو الهجوم النهائى على عراق سويدان .

ومنذ بداية الهدنة الثانية حتى نهاية القتال فى السابع من يناير ، فقد الاسرائيليون الفين ومائة وثلاثة وثلاثين قتيلا ، بين عسكريين ومدنيين، وليست هناك احصائية يمكن الوثوق بها حول عدد الجرحى ، ولكن من المعتقد ان عددهم يتراوح بين ستة آلاف وتسعة آلاف ، ولذا فان اجمالى الخسائر العسكرية الاسرائيلية فى الحرب يزيد على اربعة آلاف قتيل واثنى عشر الف جريح ، أما عن خسائر العرب ، فليست هناك ارقام يمكن الاعتماد على صحتها ، ويتضح من التقديرات التقريبية جدا ان ضحاياهم بين خمسة عشر الفا وعشرين الفا من القتلى ، وبين خمسة وعشرين الفا الى ثلاثين الفا من الجرحى .

حصيلة الحرب

من السذاجة والبعد عن الصواب افتراض ان اليهود الصهيونيين لجاوا الى ذريعة الدين والتقاليد القديمة التاريخية لطرد السكان الشرعيين لفلسطين من ديارهم بالقوة والارهاب ، ثم نزع اراضيهم بطريقة غير شرعية . كما ان من السذاجة كذلك افتراض ان الرد الاسرائيلى الوحيد على مثل هذه الاتهامات هو انهم احسنوا استغلال الأرض اكثر مما فعل السكان السابقون .

ان هذه التفسيرات تتجاهل الحقائق التى تثبت ان الصهيونيين الاصليين جاءوا الى فلسطين بطريقة مشروعة فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، وانهم استردوا بطريقة مشروعة المزارع التى احالوها الى حقول يانعة ، وحتى الثلاثينات كانت الهجرة الى فلسطين وسيلة مشروعة لهم للفرار من البيئات المناهضة للسامية فى الأرض التى يعيشون فيها الى أرض رحبت بهم فى الماضى ، كما احتمل جيرانهم الجدد وجودهم بتلك الأرض .

وتتناسى هذه الحجج ايضا ان العرب هم الذين تعجلوا بالحرب كهدف جاهروا به لاستئصال او طرد اولئك المستوطنين الصهيونيين الآمنين من املاكهم الشرعية .

كما تتناسى ايضا انه خلال الحرب التى بداها العرب ، هاجر من البلاد طواعية ، اولئك الذين فقدوا املاكهم واستولى عليها الاسرائيليون ، بينما سمح لمن بقوا فيها بالاحتفاظ بديارهم ، وبالأرض التى كانوا يمتلكونها قبل الحرب

ولكن هذه الردود على الاتهامات التى وجهها النقاد لاسرائيل (وللصهيونية التى قامت عليها اسرائيل) انما هى الأخرى ساذجة ، اذ ان اغلبية من الاسرائيليين تعتقد فعلا بأن امتلاك اجدادهم لفلسطين الحالية منذ آلاف السنين يعتبر اساسا اكبر واصلح ، كى يطالبوا بوطنهم القديم من يحتلونه اليوم ، وان استيلاءهم على املاك العرب المهاجرين لا يحلله ويجيزه فقط حق الغزو ، بل يبرره ما تعرض له اليهود من احراق جماعى على يد النازية ، الى جانب انه مما يؤكد حقهم فى الأرض قدرتهم على انماء غلاتها .

ان هذه الردود تتغاضى هى الأخرى عن حقيقة هى : ان العرب الذين هاجروا من ديارهم قد فعلوا ذلك كمدنيين حاولوا الفرار من مخاطر واهوال حرب حقيقية ، وكان يتملكهم الخوف (سواء اكانت له مبرراته ام لم تكن) من انهم لو بقوا فى الأرض للاقوا نفس المصير الذى لقيه ضحايا مذابح دير ياسين .

هناك بالطبع ردود اسرائيلية صادقة ومنطقية ومعقولة على هذا الدفع المنطقى ، وذلك بالنسبة لحقهم فى الأرض التى اصبحت دولة اسرائيل .. وهنا تكمن المشكلة .

ان الكثير من حجج الجانبين منطقية وصادقة ومعقولة ، وفى وسع كليهما الادعاء بأن قضيته عادلة ، ولكن الواقع ان ايهما لا يستطيع اثبات ان المشاكل يمكن حلها على النحو الذى يرضى اى طرف دون تكرار بعض اخطاء الماضى ، او ارتكاب اعمال الظلم .

لقد حلت حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ مشكلة استقلال اسرائيل ، ولكنها لم تحل المشاكل التى ادت الى هذا الاستقلال !

بيان تقريبى

عن القوى المتواجهة بالميدان حرب ١٩٤٨ (١)

	١٥ مايو ١٩٤٨	اكتوبر ١٩٤٨
اسرائيل :	٣٤٤٠٠	٤٥٠٠٠(٢)
العرب :	٤٢٠٠٠	٥٥٠٠٠
جيش التحرير العربى :	٥٥٠٠	٣٠٠٠
جيش الخلاص :	٥٠٠٠	٥٠٠٠
لبنان :	٢٠٠٠	٢٠٠٠
سوريا :	٥٠٠٠	٥٠٠٠
الأردن :	٧٥٠٠	١٠٠٠٠
مصر :	٧٠٠٠	٢٠٠٠٠
العراق :	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠

(١) لا تدخل فيها القوات الاسرائيلية والفلسطينية للدفاع عن داخل البلاد .

(٢) ٩٠٠٠ مجندون وتحت السلاح .

تقدير الخسائر

حرب ١٩٤٨

	قتلى	جرحى	المجموع
اسرائيل	٦٠٠٠	١٥٠٠٠	٢١٠٠٠
العرب	١٥٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٠٠٠٠

القوات الاسرائيلية المسلحة ١٩٤٩/٤٨

وزير الدفاع	دافيد بن جوريون
نائب وزير الدفاع	اسرائيل جليلى
رئيس هيئة الأركان	ميجور جنرال ياكوف دورى
نائب رئيس الأركان (العمليات)	بريجادير جنرال ييجال يادين
القيادة الشمالية	بريجادير جنرال موشى كارميل
القيادة المركزية	بريجادير جنرال دان ايفين
القيادة الشرقية (القدس)	بريجادير جنرال ديفيد ماركوس
	بريجادير جنرال زفى ايالون
القيادة الجنوبية	بريجادير جنرال ييجال آلون
بالمـاخ	بريجادير جنرال ييجال آلون
الألوية :	
يفتاح (بالمـاخ)	كولونيل شمويل كوهين
هاريل (بالمـاخ)	كولونيل اتيزاك رابين
	كولونيل يوسف تابنكين
هانيجيف (بالمـاخ)	كولونيل ناهوم ساريج
اللواء الأول — جولانى	كولونيل ناهوم جولان
اللواء الثانى — كارميلى	كولونيل موشى كارميل
	كولونيل مرد خاى ماكليف
اللواء الثالث — الكسندرونى	كولونيل بن زيون زيف
اللواء الرابع — كيرياتى	كولونيل ميشيل بنزال
اللواء الخامس — جيفاتى	كولونيل شيمون افيدان
اللواء السادس — ايتزيونى (القدس)	كولونيل دافيد شاليتيل
	كولونيل موشى ديان
اللواء السابع (ميكانيكى)	كولونيل بنيامين دونكلمان
اللواء الثامن (مدرع)	بريجادير جنرال ايتزاك ساديه
اللواء التاسع	كولونيل يورى جوفى
	كولونيل ايتزاك بندال
السلاح الجوى	بريجادير جنرال أهرون ريميز
البحرية	بريجادير جنرال شلومو شامين

الجيوش العربية ١٩٤٨/١٩٤٩

القائد العام للقوات المتحالفة	الملك عبد الله ، الأردن
نائبـه	اللواء نور الدين محمود ، العراق
جيش التحرير العربى	
المفتش العام	اللواء طه الهاشمى
نائبـه	اللواء اسماعيل صفوت
قائد قوات الميدان	فوز الدين القاووقجى
قائد منطقة الجليل	اديب الشيشكلى
كتائب اليرموك (١ ، ٢ ، ٣)	محمد صـفا ، اديب الشيشكلى ، وصفى التل ... الخ
كتيبة حطين	مدلول عباس
الكتيبة اللبنانية	شكيب وهاب
كتيبة الحسين	عبد الرحيم شيخ على
كتيبة قاديسى	مهدى صالح
اجنادين	ميشيل العيسى ، مهدى صالح
قيادة يافا	عادل نجم الدين ، ميشيل العيسى
قيادة عكا	عدنان مراد ، خليل كلاس
قيادة غزة	عبد الحق عزاوى
جيش الخلاص العربى :	
القائد	عبد القادر الحسينى ، خالد الحسينى
نائبه	معنى أبو فاضل
الجيش اللبنانى :	
وزير الدفاع	ماجد ارسلان
رئيس الأركان	اللواء فؤاد شهاب
الجيش السورى :	
وزير الدفاع	أحمد شرحاتى
رئيس الأركان	اللواء عبد الله عطفه
اللواء الأول	القائمقام عبد الوهاب الحكيم
	الأميرالاى جنرال حسنى الزعيم
اللواء الثانى	القائمقام قواص ، القائمقام محمد جميل برهانى
اللواء الثالث	القائمقام سامى حناوى
الجيش العربى (شرق الأردن) :	
رئيس الأركان	ميجور جنرال جون جلوب
اللواء الأول	بريجادير لاش
اللواء الثانى	كولونيل اشتون
قيادة القدس	القائمقام عبد الله التل

الجيش العراقى :	
وزير الدفاع	شاكر الوادى
رئيس الأركان	صالح صايب جبورى
قائد قوة الميدان	اللواء نور الدين محمود
اللواء الأول	القائمقام نجيب روبيسى
اللواء الثالث	القائمقام صالح زكى توفيق
اللواء الرابع	القائمقام رفيق عارف
قوة نابلس (لواء ميكانيكى)	اللواء سامى فتاح
السلاح الجوى	
الجيش المصرى :	
رئيس الأركان	الفريق محمد حيدر
قائد قوة الميدان	اللواء احمد على المواوى
	اللواء احمد فؤاد صادق
اللواء الأول	اللواء محمد نجيب
اللواء الثانى	الأميرالاى محمود فهمى نعمت الله
اللواء الرابع	الأميرالاى توفيق رضوان
قيادة الفالوجة	القائمقام سيد طه
المتطوعون	البكباشى احمد عبد العزيز
	البكباشى حسن ...

الكتاب الثانى

حرب سيناء – السويس

أكتوبر – نوفمبر ١٩٥٦

(١)

تيارات مضطربة بين الحرب والسلام

اضطراب فى العالم العربى :

بعدالانتصار الكاسح للدولة الاسرائيلية الناشئة فى حرب فلسطين : ١٩٤٧ — ١٩٤٩ ، شهدت معظم الـــدول العربية التى اشتركت فى الحرب اضطرابات داخلية عنيفة ، وفى كل الظروف لعبت الأحوال المحلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية دورها فى الأزمة ، ولكن الموضوع المشترك كان هو السخط من جراء نتيجة الحرب ، والاستياء من الحكومات التى كانت مسئولة عن كارثة العرب .

وكان الموضوع الذى رددته معظم الشعوب العربية هو التصميم على الانتقام من اسرائيل ، والاشتراك فى اعـــادة مئـــات الالوف من اللاجئين الفلسطينيين العرب المشردين الى ديارهم ، وهم الذين كانوا فروا الى البلاد المجاورة أثناء الحرب .

كانت سوريا من بين الدول التى اشتركت فى حرب ٤٧ — ١٩٤٩ أول دولة تعانى من القلاقل التى استمرت زهاء العشرين عاما .. فقد وقعت بها ثلاثة انقلابات فى عام ١٩٤٩ ، وآخر فى عام ١٩٥١ ، وخامس فى عام ١٩٥٤ ومن بعد انقلاب آخر فى عام ١٩٥٥ ، ولمـــا كان القادة العسكريون أهم المشتركين فى هـــذه الانقلابات ، فقد ظهر بين القوات المسلحة ما يشبه الفوضى الادارية التى عملت على تمزيق هيئـــة الضباط .. وكان الطابع المشترك لهذه الحكومات المتعاقبة هو كراهية اسرائيل .

وكانت ثانية دول المواجهة التى تأثرت بوباء الاضطرابات هى الأردن . ففى العشرين من يوليو ١٩٥١ أغتيل الملك عبد الله على مدخل المســـجد الأقصى بالقدس ، بالقرب من قبة الصخرة على جبل الهيكل ، على يد أتباع خصمه القديم الحاج أمين الحسينى ، مفتى القدس .. (وكان الحسينى قد لجأ الى القاهرة بعد الحرب) وخلف عبد الله ابنه طـــلال ، ولكن البرلمان الأردنى خلع ذلك الملك المتخلف عقليا بعد ثلاثة عشر شهرا ، فى ١١ أغسطس ١٩٥٩ ، ونودى بابنه حسين ملكا ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، واحتفل بتتويجه فى ٢ مايو ١٩٥٣ ، أى فى عيد ميلاده الثامن عشر .

وفى اواخر ديسمبر ١٩٥٤ اهتزت عمان عاصمة الأردن بالاضطرابات احتجاجا على اقتراح اشتراك المملكة فى حلف بغداد ، وذلك بعد ان هاجم الرئيس المصرى عبد الناصر هـذا الحلف ، وفى أوائل العام الثانى عاد نفوذ عبد الناصر يظهر جليا عندما قام الملك حسين — تحت ضغط عربى — بفصل الجنرال جلوب (الذى عاد الى لندن ، ومنحته الملكة اليزابيث الثانية وسام الأمبراطورية من طبقة فارس) ، كما فصل ايضا الضباط البريطانيين الآخرين من الجيش العربى .

وخلال الشهور التالية اجـرى اعـادة تنظيم جيش الأردن ، وفى تلك الأثناء تورطت بعض وحداته فى مصادمات مع اسرائيل ، وقام الارهابيون الفدائيون — ومعظمهم من العرب الفلسطينيين — بغارات خاطفة داخل اسرائيل .. واخذ الاسرائيليون بثارهم ، مما ترتب عليه الرد من جانب قوات الحدود الأردنية على الجبهة الشرقية ، ورغم ان المساندة الرئيسية للفدائيين جاءت من سوريا والعراق ، وبعض الدول الأخرى الأعضاء فى الجامعة العربية لكن معظمهم كان يعمل بنشاط بطول الحدود السهلة الاختراق بين اسرائيل ومنطقة الضفة الغربية للأردن ، وهى ما تبقى من فلسطين العربية .

ان اهم ثورة شهدها العالم العربى فى السنوات التى جاءت فى اعقاب حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ هى الثورة التى قامت فى مصر ، ولكن لم يصحبها مثل ذلك الاضطراب الـذى شـهدته سـوريا ، أو تلك التى اتسم بها الموقف فى الأردن .

كان الكثير من العناء الذى عاشته مصر يرجع الى استمرار وجود القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس ، بالاضافة الى الاحتكاك مع بريطانيا حـول مستقبل السودان الـذى كانت مصر تمارس فيه الحكم الثنائى مع بريطانيا ، وبعد صدامات مسلحة مع القـوات البريطانية فى السويس والاسماعيلية فى اوائل عام ١٩٥٢ ، استولى فريق من ضباط الجيش على الحكم فى الثالث والعشرين من يوليه ١٩٥٢ ، واجبروا الملك فاروق على التنازل لصالح ابنه أحمد فـؤاد الثانى ، وعلى الرحيل عن مصر .. وقاد الانقلاب البكباشى جمال عبد الناصر ، الذى كان قد ابلى بلاء حسنا أثناء حرب فلسطين فى حصار الفالوجة ، وكان من أهم مساعديه البكباشى انـور الـسادات .

اختار الضباط الشبان اللواء محمد نجيب رئيسا لهم ، حيث كان يتمتع بالاحترام البالغ ، كما انه من الأبطال القـلائل الذين كانت لهم شعبيتهم فى الحرب .

وبعد ان قامت هـذه الجماعة العسكرية بعدد من الحركات السياسية تثبيتا لسلطتها ، اطاحت فى الثامن عشر من يونيه ١٩٥٣ ، بالملك الطفل الذى كان فى الواقع قد تـرك مصر مع ابيه ، واعلنت قيام الجمهورية .. واصبح

نجيب رئيسا مؤقتا الى جانب توليه رئاسة الوزارة ، ولكن ظل البكباشى عبد الناصر هو القـوة الدافعة من وراء الحكومة الجـديدة ذات النزعة الاصلاحية ، وفى الثامن عشر من ابريل ١٩٥٤ ، وكنتيجة للصـدام بين الشخصيات ، حل عبد الناصر محل نجيب كرئيس للـوزارة ، وبـدا يمارس زعامته جهارا .

ازدادت شعبية عبد الناصر فى يوليه نتيجة للاتفاق الذى تم مع بريطانيا ، وبمقتضاه تنسحب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس خلال عشرين شهرا .. (وقد التزمت بريطانيا بهذه المعاهدة بصدق واخلاص) .

وفى الرابع عشر من نوفمبر ١٩٥٤ ، عزل نجيب بعد قيام الاخـوان المسلمين بمحاولة اغتيال عبد الناصر ، ومن المشكوك فيه أن يكون نجيب قد تورط فى هذه المؤامرة ، ويبدو ان عبد الناصر قد اتخذ من ذلك زريعة ملائمة لا لسحق الاخوان المسلمين فحسب ، بل ايضا لوضع خاتمة لتلك البلبلة التى صحبت الانقسام الظاهرى من جراء اقصاء اللواء نجيب .

خلال هذه المدة ، لم يكن القادة المصريون قد نسوا ذلك الأثر الذى تركته هزيمتهم فى فلسطين ، وعمل كل من نجيب وعبد الناصر من أجل بعث الحياة من جديد فى صفوف الجيش ، وكان الاستعداد للانتقام من اسرائيل هو اهم هدف لهما ، ولكن لم تتورط مصر فى البداية فى اية حوادث حدود كتلك التى كانت تقع على الحدود الاسرائيلية السورية أوالاسرائيلية الأردنية .

والواقع انه خلال عام ١٩٥٤ بدأ حوار استطلاعى غير مبـاشر بين الرئيس المصرى عبد الناصر ورئيس وزراء اسرائيل موشى شارت ، عن طريق الدبلوماسى البريطانى ريتشارد كروسمان ، غير أن ذلك الحوار توقف نتيجة لحادث وقع فى مستهل عام ١٩٥٥ .

فى الثامن والعشرين من فبراير ، قامت القوات الاسرائيلية بغارات انتقامية فى غزة ، واستولت على مقر القيادة العامة المصرية هناك ، انتقاما لغارات الفدائيين الفلسطينيين على جنوبى اسرائيل من قطاع غزة (وهو القطاع الصغير من فلسطين الـذى استولت عليه القوات المصرية فى نهاية حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩) ، واعلن المصريون انه لم تقع من القطاع غارات من هـذا القبيل ، وكان يبدو ظاهريا انه لم تقع حوادث خطيرة .

استشاط عبد الناصر غضبا منتلك الغارة الاسرائيلية ، وبـدأ من فوره فى تعبئة الفدائيين العرب لمناوشة وارهاق الاسرائيليين فى جنوب اسرائيل ، لا من قطاع غزة فحسب ، بل ايضا عبر حدود سيناء .

وفى ابريل ، تجمع قرابة السبعمانة من الفدائيين فى قطاع غزة تحت توجيه المخابرات الحربية المصرية .

كان لزيادة العمليات الحربية المصرية ضد اسرائيل اثرها العكسى على العلاقات المصرية مع الدول الغربية ، وبخاصة الولايات المتحدة وفرنسا. وقد ترتب على ذلك ، من ناحية ، وعلى السياسات العربية من ناحية اخرى ، ان رفض عبد الناصر عرضا امريكيا للمساعدة العسكرية مقابل انضمام مصر لحلف بغداد المعقود بين تركيا والعراق ، وحمل عبد الناصر حملة شعواء على الحلف ، ونـدد بانضـمام ايران وباكستان اليه .. وكان لمعارضة عبد الناصر الحاسمة اثرها فى رفض سوريا والاردن الانضمام الى هـذا الحلف .

بعد ان تولى عبد الناصر مقاليد الحكم فى مصر ، ركز اهتمامه على تعزيز الاقتصاد المصرى غير المستقر ، وكان اهم مشروع اقتصادى يشغل تفكيره وتنفذ هو بناء سد جديد وعال على نهر النيل عند اسوان يوفر لمصر قدرا هائلا من الطاقة الكهربائية لتحقيق التنمية الصناعية والاجتماعية وتطوير الاقتصاد الزراعى عن طريق التحكم فى الفيضانات السنوية لنهر النيل وتنظيم الرى ، فيضيف بذلك عشرين فى المائة الى الرقعة الزراعية .

سعى عبد الناصر للحصول على تمويل لهذا المشروع من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والبنك الدولى ، ولتفادى شبهة التبعية للغرب ، ولو ظاهريا ، قام عبد الناصر فى الوقت نفسه بالتفاوض على اتفاقية تجارية كبرى مع الكتلة الشيوعية عن طريق تشيكوسلوفاكيا تحصل مصربموجبهاعلى كميات هائلة من الأسلحة والعتاد الحربى مقابل الأرز والقطن ، واعلن عبد الناصر هـذا الاتفاق فى السابع والعشرين من سبتمبر ١٩٥٤ . وفى السنة التالية تلقت مصر من الكتلة الشيوعية ، وبشروط شراء ميسرة ، مائتين وثلاثين دبابة ، وثلاثمائة مركبة مصفحة ، وخمسمائة قطعة مدفعية ، ومائة وخمسين طائرة ميج ، وخمسين طائرة اليوشن ، وثمان وعشرين من قاذفات القنابل ، وعـدة غواصات ، وغيرها من السفن الحربية ، وتشكيلة من الأسلحة الأخرى ، وعـدة مئات من المقطورات والجرارات .

كانت الأمور اكثر هدوءا فى الدولتين الأخريين من دول المواجهة وهما لبنان والعراق ، وذلك طوال السنوات السبع بعد حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ ، رغم وجود دلائل على القلق الـذى اخذ يتصاعد فيما بعد ليتحول الى العنف الشديد فى كلا البلدين .. ولذا سرعان ما انهارت الهدنة الصعبة بين العرب المسلمين والمسحيين فى لبنان ، حيث وقعت القلاقل والاضطرابات التى اطاحت بالرئيس اللبنانى فى الثامن عشر من سبتمبر ١٩٥٢ .

وبعد شهرين ، قامت جموع الشعب العراقى باضطرابات اطاحت بالحكومة ، وادت فى العام التالى الى تولى نورى السعيد رئاسة الحكومة. وكان ضابطا ممتازا بالجيش التركى خلال الحرب العالمية الأولى ، وفى الثانى من مايو ١٩٥٤ تولى الملك فيصل الثانى سلطاته الملكية فى عيد ميلاده الثامن عشر .

وفى الثامن عشر من فبراير ١٩٥٥ ، تم فى بغداد عقد اتفاقية دفاع مع تركيا ، ثم اصبح حلف بغداد اطارا لمنظمة معاهدة الشرق الأوسط بعد ان انضمت ايران وباكستان وبريطانيا العظمى ، ولكن سرعان ما اصبح هدفا لمحاولات عبد الناصر الذى كان يسعى لأن يصبح زعيمـا للقومية العربية ، واخذ يهاجم المعاهدة كأداة للامبريالية الانجلو امريكية تستهدف الحفاظ على السيطرة الانجلو ساكسونية على الشرق الأوسط .

تقييم اسرائيل لنوايا العرب :

فى السنوات اللاحقة لحـرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ وضعت اسرائيـل نظاما يكفل تكوين جيش نظامى صغير ، وتجنيد كل الذكور القادرين مع اكبر عدد من الاناث ، وقوة احتياطية على قدر عال من التدريب والاستعداد يمكن تعبئتها خلال ثمان واربعين ساعة ، وهكذا اصبح فى امكان الجيش العامل (خمسون الفا من الجنود النظاميين والمجندين) ان يتحول سريعا الى قوة قتال فعالة قوامها مائتا الف جندى تقريبا .

وفى اوائل عام ١٩٥٦ كان واضحا ان اسرائيل لم تكن عندئذ تعالج جراح حرب الاستقلال (١٩٤٧ — ١٩٤٩) كما كانت تأمل ، كان بن جوريون قد استقال كرئيس للوزراء ووزير للدفاع فى ديسمبر ١٩٥٣ ، ثم عاد بعد حوالى السنة كوزير للدفاع فى حـكومة موشى شاريت ، وعـاد على « مضض » الى الحياة العامة ، حيث كان يود اسـتعادة الثقة فى وزارة الدفاع ، بعد الأزمة التى طرات على العلاقة بين السياسيين والعسكريين فى اسرائيل صيحة فضيحة لافون ، وكان مقتنعا كذلك بانه لا مفر من وقوع حـرب اخرى مع العرب .

كانت هناك ثلاثة جوانب رئيسية فى تعميق الأزمة بين اسرائيـل وجيرانها العـرب : واولها — الذى لا يحتمله معظم المواطنين الاسرائيليين — هو تزايد نشاط الفدائيين العرب على طول حدود اسرائيل ، فان الحد الطويل لنهر الأردن العميق الناشىء فى قلب اسرائيل قد هيأ قاعدة للعـديد من الغارات الارهابية من جانب الفدائيين العرب ، الذين كانوا فى اغلبيتهم من الفلسطينيين .. ولكن كانت هناك ايضا غارات عبر الحدود السـورية واللبنانية . وعلى اية حال ، كان اخطر التطـورات واكثرها تهـديدا للمستقبل ، هو ازدياد النشاط الفدائى بطول الحدود الجنوبية مع مصر ، وبخاصة فى منطقة قطاع غزة ، والذى بدأ منذ اغسطس ١٩٥٩ .

كان واضحا ان المنظمات الفدائية قد قامت باغاراتها من غزة وحدود سـيناء ، وتلقت التدريب والتوجيه والسلاح من الجيش المصرى .

وكان اولئك الفدائيون الذين تساندهم مصر — ومعظمهم فلسطينيون او من دول عربية اخرى واغلبهم من المصريين — هم الذين اوقعوا الخسائر الفادحة لاسرائيل نتيجة غاراتهم عليها .

ونقلا عن التقارير الرسمية الاسرائيلية بلغ عدد من اصابهم الفدائيون من القتلى والجرحى الاسرائيليين : ١٣٧ فى عام ١٩٥١ ، و ١٤٧ فى عام ١٩٥٢ ، و ١٨٠ فى عام ١٩٥٤ ، وسرعان ما ارتفع هذا الرقم الى ٢٥٨ فى عـام ١٩٥٥ .

ومما يؤيد ظاهريا ما تشكله مصر من تهديد كأخطر عدو عربى هو ما اعلنه الرئيس عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٥ عن اتفاقية الاسلحة التشيكوسلوفاكيا — التى كان من الواضح انها كانت تعمل كمخلب لموسكو — وحتى ذلك الوقت كانت مصر واسرائيل متعادلتين تقريبا فى الاسلحة الكبرى ، حيث كان لدى كل منهما حول المائتى دبابة ، وحول الخمسين طائرة نفاثة .

وكان واضحا لكل من بن جوريون ورئيس هيئة الأركان الاسرائيلى الجنرال موشى ديان : ان المقصود بهذه الأسلحة الجديد هو استخدامها فى حرب جديدة ضد اسرائيل بمجرد ان يتم الجيش المصرى تدريبه على استخدامها ، وبينما كان الميجور جنرال يهوشوفات ، المدير الجديد للمخابرات الاسرائيلية : لا يعتقد بان المصريين سيكونون مستعدين لاستخدام هـذه الأسلحة فى حرب قبل عام ١٩٥٧ ، كان الجنرال ديان يرى انهم سيكونون مستعدين لها فى اواخر عام ١٩٥٦ .

ولكن ربما كان اخطر تهديد لحياة اسرائيل ذات الموارد الفقيرة هو الضغط الاقتصادى العربى .. فمصر تؤكد أن حالة الحرب لا تزال قائمة مع اسرائيل ، ومن ثم رفضت السماح لأية سفينة اسرائيلية او حتى للبضائع المشحونة على السفن الأجنبية التى تسافر الى اسرائيل او منها ، بالمرور عبر قناة السـويس ، وكان حظر مرور البضائع الاسرائيلية او السفن الاسرائيلية عبر القناة انتهاكا لاتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٤ التى تحكم الوضع الدولى لقناة السويس ، كان يعد ايضا انتهاكا لاتفاق الهدنة بين مصر واسرائيل ، وللعديد من قرارات مجلس الأمن .

ولعل الأمر الذى كان أشد خطورة هو ذلك الحصار الذى فرضته مصر على مضيق تيران عام ١٩٥٣ ، ومنعها مرور السـفن من الميناء الاسرائيلى الجنوبى ، ايلات ، الى البحر الأحمر ، وبالتالى الاضرار بالتنمية الاقتصادية المستقبلة للنقب ، وهنا ايضا بررت مصر هذا الحصـار بأن حالة الحرب لاتزال قائمة مع اسرائيل ، وفى سبتمبر ١٩٥٥ ، منعت مصر تحليق الطائرات التجارية الاسرائيلية فوق المضيق .

مطامح عبد الناصر لمصر وللعرب :

من المشـكوك فيه انه كانت لعبد الناصر خططا محـددة ، او انه كان يدور بخلده جدول زمنى للدخول فى حرب اخرى مع اسرائيل . كما انه ليس من المؤكد انه كان يعتبر مثل هذه الحرب أمرا لا مفر منه رغم بياناته العديدة فى هـذا الصـدد .

ويبدو ان عبد الناصر كان مدفوعا فى اواسط الخمسينات بهدفين متوازيين ، لكنهما غير متماسكين : ففى المقام الأول ، كانت محاولاته لتقوية الاقتصاد المصرى تتركز على مشروع السد العالى بأسوان .. وكانت الولايات المتحدة قد شجعت مصر فى هذا المشروع بالرغم من ان حماس وزير الخارجية الامريكية ، فوستر دالاس ، قد فتر بشكل واضح بعد صفقة الأسلحة المصرية التشيكوسلوفاكية .. ومع ذلك ، عرضت الولايات المتحدة تمويل السد اذا كان المشروع معززا ايضا من جانب البنك الدولى للتنمية والتعمير .

اما الهدف الثانى لعبد الناصر ، فكان تقوية مركزه المزعزع كسياسى رائد يتزعم العالم العربى ، ولا نزاع فى انه كان يتخيل نفسه وقد وحد معظم الدول العربية فى الشرق الأوسط فى أمة عربية واحدة تحت زعامته الشخصية . وبالرغم من انه كان من المفروض ان يكون هناك عامل واحد لهذا التوحيد ، وهو تنسيق حرب عربية جديدة ضد اسرائيل ، الا انه استغل الكراهية الشائعة لها كأهم موضوع لتنسيق مطامحه السـياسية الشخصـية ، لذلك كان بديهيا انه كان لا يفكر كثيرا فى تفاصيل تهديداته لاسرائيل ، بقدر ماكان يفكر فى ان يجمع لمساندته اكبر عـدد ممكن من العـرب فى الدول المجـاورة .

كانت هناك ثلاث من اهم الدول العربية القريبة ، يقوم فيها النظام الملكى ، وتساور حكامها الشكوك فى دوافع عبد الناصر . وبينما كانت المملكة العربية السعودية والعـراق والأردن تجاهر صراحة بمعاداتهـا لاسرائيـل فى اجتماعات الجـامعة العـربية ، كانت لا تتحمس لأن يكون عبد الناصر هو المتحدث بلسان العرب أو المنسق لاستراتيجيتهم . أمـا سوريا التى كان ساستها العسكريون يلعبون ما يشبه الكراسى الموسيقية فى انقلاب تلو انقلاب ، فقد كانت تصدر البيانات الصاخبة ضد اسرائيل على نحو ماكان يفعل عبد الناصر ، حيث كان كل واحد من زعمائها المتابعين لقيادتها يحاول أن يبز سابقه فى حملته ضد الصهيونية ، لكى يستقطب من حوله مساندة الشعب .

واما لبنان التى اخذ يدب التوتر فى نظامها السياسى الغريب فى توازنه — فلم يكن لديها النية فى أن تتورط فى حرب أخرى مع اسرائيل ، وذلك بالرغم من ان رجال الأعمال فى بيروت كانوا تواقين لانتهاز أية فرصة للدخول فى

مغامرة شريفة او غير شريفة ، كى يعملوا وسطاء وسماسرة فى تجارة الاسلحة مع الدول العربية الأخرى .

ولهذا الأسباب ، فان المراقبين الاسرائيليين والمحايدين على السواء، لم يأخذوا على محمل الجد ما اعلنته القاهرة فى ١ اكتوبر ١٩٥٥ عن تكوين قيادة عسكرية مصرية سورية موحدة ، أو ما اعلنته فى مارس ١٩٥٦ عن خطة جديدة لعمل مشترك ضد اسرائيل من جانب مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية . وعندما دعى حسين ملك الأردن للانضمام الى الاتفاقية، رفض فى بداية الأمر حرصا منه على الا يفقد المساعدات البريطانية الاقتصادية والعسكرية التى كانت ضرورية للحياة الاقتصادية فى بلاده الفقيرة ، وضرورية ايضا لاستقرارها السياسى . غير انه كان من نتيجة تصاعد التوتر على طول الحدود الاسرائيلية الأردنية ان انضمت الأردن الى القيادة المصرية السورية وذلك فى ٦ اكتوبر ١٩٥٦ .

وطبيعى انه لم يكن من المحتمل أن تشترك مصر فى حرب مبكرة ضد اسرائيل ، حيث كانت المفاوضات الخاصة بالتمويل المشترك للسد العالى من الجانب الولايات المتحدة والبنك الدولى تتقدم فى طريقها خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٥٥ ، وفى اوائل عام ١٩٥٦ رفض عبد الناصر عرضا من الاتحاد السوفييتى للتمويل الذى كان يريده ، والذى كان جزء منه بمثابة هدية بدون تحفظ .

وبالرغم من أن عبد الناصر لم يرتبط على نحو مباشر بعرض البنك الأمريكى والدولى لتمويل السد العالى ، فان ارتباطه المالى الظاهرى بالعالم الغربى جعل من السهل على بريطانيا اتمام انسحابها النهائى من منطقة قناة السويس فى يونيه ١٩٥٦ . وبه انتهى الاحتلال العسكرى لكل مصر ، او لجانب منها ، والذى استمر أربعا وسبعين سنة .

(٢)

ازمـــة الســويس

تأميم قنـاة الســويس

بعد خمسة ايام من الانسحاب النهائى للبريطانيين من منطقة قناة السويس فى الثامن عشر من يونية ١٩٥٦ ، قدم الاتحاد السوفييتى ، بدعاية صاخبة ، عرضا جديدا لمصر لتمويل السد العالى ، وفى هذه المرة وافق الاتحاد السوفييتى على تقديم حوالى بليون دولار بفائدة سنويةقدرها اثنان فى المائة فقط . وبينما كان عبد الناصر قد أعلن فى وضوح من قبل انه يفضل ان يتم الاتفاق مع الولايات المتحدة وبريطانيا والبنك الدولى وليس مع الاتحاد السوفييتى ، ولكن يبدو انه اعتقد ان هذا العرض السوفييتى قد يفيد كجزء من المساومة للحصول على شروط افضل من جانب الغربيين .. واستاء وزير الخارجية الأمريكية لذلك ، فقد كان يشعر بالكراهية الشخصية العميقة لعبد الناصر ، ويشك فى مفاوضاته الجديدة مع الاتحاد السوفيتى . وهنا استغل دالاس تقريرا اقتصاديا سيئا من البنك الدولى كأساس لما فعله فى اواسط يوليه ١٩٥٦ حيث سحب العرض الأمريكى لتحويل سد اسوان ، وحذت بريطانيا حذوه ، وبهذا انهار اتفاق مساندة الغرب لمشروع السد العالى :

وبعد اسبوع واحد ، اى فى السادس والعشرين من يوليه ، تملك الغضب عبد الناصر ، فأعلن تأميم قناة السويس بأن انتزاع السيطرة عليها من الهيئة الخاصة للقناة التى كانت للحكومة البريطانية السيطرة الغالبة عليها ، واعلن عبد الناصر أن مصر ستستخدم الأموال التى استولى عليها من الهيئة ، وعائد رسوم المرور بالقناة ، فى السير قدما فى تنفيذ مشروع سد اسوان .. وفى الوقت نفسه بدأ التفاوض مع المزيد من الجدية مع السوفييت الذين لابد أن أدهشهم تحول الأحداث على هذا النحو .

اثار استيلاء مصر على قناة السويس مناقشات حامية داخل الامم المتحدة وخارجها ، وبوجه خاص اعتبرت كل من بريطانيا وفرنسا هذا العمل تهديدا للسلام العالمى ، وان أخطر ما فيه — فى تصورهما — انه تهديد لطريقهما الى بترول الشرق الأوسط .

لقد فوجىء وزير الخارجية دالاس بهذا الرد الذى لم يكن متوقعا على ذلك العقاب الذى انزل بعبد الناصر ، فتزعم المفاوضات من اجل تنفيذ نوع من الاشراف الدولى المتبادل والمقبول على القناة ، غير أن ذلك

مستحيلا داخل الأمم المتحدة ، حيث كانت الكتلة الشيوعية مع كثير من الدول غير المنحازة تؤيد تماما الخطوة المصرية

وفى أوائل اغسطس ، قرر رئيس الوزراء البريطانى انطونى ايدن ان يستخدم القوة عند الضرورة ليعيد لهيئة القناة حقها الشرعى فيما تملكه فى قناة السويس ، وبالرغم من انه لم يكن — على ما يبدو — يتوقع القيام بمثل هذه الخطة ، ومع ذلك فقد أمر باتخاذ الاستعدادات ، ففى الثالث من اغسطس ، اجتمعت على عجل فى لندن هيئة اركان حرب عسكرية للتخطيط ، وبدأت فى وضع مخططاتها لغزو منطقة السويس واحتلالها ، اما فرنسا التى كان قد ساءها تأييد عبد الناصر للوطنيين الجزائريين ، فقد صممت هى الأخرى على هدم خطة التأميم المصرية . وبعثت بضباط اتصال للانضمام للمخططين البريطانيين

وكانت كلتا الحكومتين الفرنسية والبريطانية متفائلة ان المفاوضات لن تدعو الى ضرورة استخدام القوة .

وكان هناك تعهد تنفيذ فى المخطط العسكرى ، الذى كان قد تقرر اتمامه فى أوائل سبتمبر ، الا فى حالة فشل الدبلوماسية فى اعادة عبد الناصر الى صوابه .. فقد كانت لندن وباريس تستعرضان الحكمة والصواب .

اسرائيل وفرنســا :

كان هناك امر لا يرتبط اطلاقا بأزمة قناة السويس ، وهو ان الحكومة الاسرائيلية قد انتهى بها الأمر الى الاقتناع بأن الحالة التى اصبحت لا تطاق فى علاقاتها مع جيرانها العرب لا يمكن تسـويتها الا بالحــرب . وشارك بن جوريون — الذى أصبح رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع أيضا فى الثانى من نوفمبر ١٩٥٥ — ماكان يشير به ديان من قلق ازاء الخطر الذى سيتهدد اسرائيل عندما تستوعب مصر سلاحها السوفييتى الجديد ، وفى هذا التاريخ القى بن جوريون خطابا امام الكنيست حذر فيه مصر قائلا « ان هذه الحرب ، التى هى من جانب واحد ، يجب أن تتوقف ، لانها لا يمكن ان تظل الى الأبد من جانب واحد فقط » ، ورخص لديان فى أن يبدأ التخطيط للاستيلاء على مضيق تيران ، والآن ، أى فى سنة ١٩٥٦ ، وافق بن جوريون مبدئيا على التخطيط للحرب فى تلك السنة ، وبدأ ديان واركان حربه فى ادخال التعديلات النهائية على الخطط الموجودة لعملية اطلق عليها اسم « قادش » .. وكان من الخطـوات الهـامة ، التى من المفروض ان تسبق هذه الخطة ، التعجيل باستلام المعدات الحربية المطلوبة من فرنســا .

كان هناك خلال العامين السابقين تعاون متزايد بين فرنسا واسرائيل فى شئون البحر المتوسط ، يرجع اساسا الى ان عبد الناصر — فى الدور الذى فرضه على نفسه كزعيم للشعوب العربية — كان يقدم التشجيع والمساندة المعنوية والمادية الى ثوار الجزائر التى كان الفرنسيون يستعمرونها ، وفى عام ١٩٥٤ قامت فرنسا ، مدفوعة بعدائها لعبد الناصر ، بتزويد اسرائيل بالأسلحة بشروط ميسرة .. ومن بين الذين كان لهم دور مؤثر فى اقامة هذه العلاقة شيمون بيريز ، الشاب المدير العام النشط لوزارة الدفاع الاسرائيلية ، كذلك قامت علاقة وثيقة فى تبـادل المعلومات بين « المكتب الثانى » الفرنسى والمخابرات الحربية الاسرائيلية .

لم تكن الخارجية الفرنسية تشعر بالرضا عن العلاقة الوثيقة التى اخذت تنمو وتتطور بين وكالتى المخابرات الفرنسية والاسرائيلية ، او بين وزارتى الدفاع فى كلتا الدولتين ، وكانت الخارجية الفرنسية مترددة فى اقرار التقارب عسكريا بين فرنسا واسرائيل فى أواخر ابريل ١٩٥٦ ، بعد ان اوقفت سفينة حربية فرنسية احدى السفن المصرية عند شاطىء الجزائر ووجدتها تحمل شحنة من الأسلحة للثوار الجزائريين .. وكان عبد الناصر قد تعهد رسميا قبل ذلك بأسبوع بأنه سيوقف أى شحن للأسلحة الى الجـزائر .

وفى أوائل اغسطس ١٩٥٦ ، وبعد قرار الحرب الذى اتخذه كل من بن جوريون وديان ، قام الميجور جنرال مير اميت ، رئيس العمليات بهيئة أركان حـرب الاسرائيلية ، بزيارة لباريس فى محاولة للتعجيل بشحن بعض الأسلحة المتفق عليها ، وهناك فوجىء بالفرنسيين يسألونه فى شىء من النظاظة عما اذا كانت اسرائيل على استعداد للتعاون مع الحلفاء الانجليز والفرنسيين فى حالة قيامهم بعمليات عسكرية ضد مصر .. وبعد أن ابرق الجنرال اميت الى تل أبيب يطلب تعليماتها ، بدأ المفاوضات فى باريس ، وهى المفاوضات التى ادت الى اتفاق حول الغزو المشترك لمصر .

التخطيط لعملية « مسكيتير » :

عندما بدأت وزارة الدفاع البريطانية التخطيط لعملية قناة السويس فى الثالث من اغسطس ، استدعى الى لندن اللفتانت جنرال سير هيــو ستوكويل الذى كان قائدا لفيلق من الجيش البريطانى فى الرين بألمانيـا ، ليرأس اركان حرب التخطيط للعملية البرمائية المقترحة ، ان ستوكويل ، ذلك المحارب القديم المحنك فى العديد من الحملات البرمائية فى الحــرب العالمية الثانية ، كان ايضا على دراية تامة بالشرق الأوسط ، حيث كان يتولى القيادة فى فلسطين الشمالية خلال السنوات الأخيـرة من الانتداب البريطانى .

وبعد ايام قليلة انضم بعض ضباط الاتصال الى ستوكويل ورجاله فى غرفة التخطيط بمكتب الحرب ، وهى حجرة تحت الأرض أسفل نهر التيمز ، وتم معظم التخطيط بمعرفة البريطانيين .

وفى بداية التخطيط قرر ستوكويل وهيئة اركان حربه عدم القيام بهجوم مباشر جنوبى القناة عند بورسعيد ، اما الجزء الشمالى من القناة فانه محو من الجانبين ببحيرات ومستنقعات يصعب اجتيازها ، ولا توجد ارض صلبة غير الطريق وجسور السكة الحديدية المجاورة للممر المائى، لذلك راى المخططون ان الانزال الجوى والبرمائى يجب ان يتم بالاسكندرية وبالقرب منها ، حيث توجد شواطىء ممتازة وميناء جوى يصلح كقاعدة ، وبعد الاستيلاء على الاسكندرية تقوم القوات المتحالفة بهجوم سريع جهة الشرق عبر دلتا النيل للوصول الى القناة على جبهة واسعة .

قرر المخططون من رجال ستوكويل ان أسرع وقت لتنفيذ العملية هو الثامن من سبتمبر ، واكد المارشال الجوى دينيس بارنيت ، الذى كان من المفروض ان يتولى القيادة الجوية للعملية ، انه سيتم تدمير السلاح الجوى المصرى خلال ست وثلاثين ساعة .. ولكن ستوكويل اضاف من عنده اثنى عشرة ساعة من ناحية الأمان ، ولذلك تحدد السادس من سبتمبر موعدا لبدء العملية ، بحيث يمكن بضربة جوية بريطانية ضد المطارات المصرية فى الدلتا وقناة السويس ، القضاء على فاعلية السلاح الجوى المصرى ، وهذا من شانه تسهيل وصول الأسطول البرمائى الى شواطىء الاسكندرية بعد يومين ، وبعد اتمام الانزال مباشرة تندفع « رؤوس الحراب » المصفحة الى قناة السويس عن طريق الضواحى الشمالية للقاهرة ، مع تجنب المرور بالعاصمة المصرية .

انهمك المخططون فى العمل ليل نهار ، وانتهوا من عملهم فى الثامن من اغسطس حيث قدموا خطتهم التى اطلق عليها مبدئيا اسم « هاميلكار » الى وزارة الدفاع البريطانية ، فاقرتها فى اليوم نفسه ، واصدرت الأوامر بوضع القوات البريطانية فى قبرص ومالطه وذهب ستوكويل الى قبرص فى رحلة يتفقد فيها القوات الحليفة التى تم تعيينها للعملية ، ويبلغ تعليماته الخاصة لقادة القوات .

غير انه عندما وصلت الخطة الى رئيس الوزراء ايدن بعد يوم او اثنين كانت مصحوبة بالعديد من الأسئلة الجادة من جانب وزارة الخارجية حول الانزال بالقرب من الاسكندرية ، حيث كان يبدو للدبلوماسيين ان الانزال على تلك المسافة البعيدة عن القناة لا يتفق مع مبدأ العملية التى لا تستهدف سوى حماية القناة من المصريين ، وان الأسوأ من ذلك هو ان العملية قد تتطلب الاستيلاء على جزء على الأقل من القاهرة ليتسنى التحرك سريعا الى منطقة القناة ، الأمر الذى لايمكن قبوله سياسيا .. ووافق رئيس الوزراء على راى هؤلاء الدبلوماسيين .

ولذلك ، فانه عندما عاد ستوكويل من رحلته الى البحر المتوسط بعد اسبوع واحد ، تلقى امرا باعادة النظر فى الخطة لتدبير هجوم مبدئى بالقرب من بورسعيد ، وتم تعديل الخطة تبعا لذلك ، بحيث ينزل مشاة البحرية على الجانب الغربى من المدخل الشمالى للقناة عند بورسعيد ، مع انزال الفرقة الأجنبية الفرنسية على الشاطىء الشرقى عند بورفؤاد . وكان المفروض ان تسبق الهجوم عمليات انزال للقوات المحمولة جوا لتامين مطار بورسعيد والشواطىء ومخارجها ، ثم يتم هجوم مشترك عند الطريق وجسور السكك الحديدية الى القنطرة ، وهجوم بقوات محمولة بالهيليكوبتر لتطهير عنق الزجاجة على الممرات الضيقة ، ومتى وصل الغزاة الى القنطرة يمكن ايجاد ميدان للمناورة على كلا جانبى القناة لتسهيل الزحف السريع الى السويس .

فى هذا الوقت ، تم تعيين الجنرال البريطانى سير شارلز كيتلى قائدا عاما لعملية الحلفاء المشتركة ، واختير الاميرال الفرنسى بيير بارجوه نائبا له . كما تم تثبيت ستوكويل قائدا للقوات البرية ، وعين الجنرال الفرنسى اندريه بوفر نائبا له . اما القائد الجوى فكان المارشال الجوى البريطانى دينيس بارنيت ، والقائد البحرى هو الاميرال روبين درنفورد سليتر ، وكان لكل منهما نائب فرنسى .

وفى هذا الوقت تقريبا ، اى فى أواسط اغسطس ، اتخذ قرار سياسى آخر ، كان له اثره الجدى فى خطة الهجوم .. لقد سمح المخططون بخمسة ايام لسفن الانزال منذ ابحارها من قواعدها فى مالطه والجزائر للوصول الى منطقة الهجوم . غير ان رئيس الوزراء ايدن خشى ان يكون ذلك مدعاة لعدم الاحتفاظ بسرية الانزال . واتفق مع الحكومة الفرنسية على توجيه انذار مدته اثنتا عشرة ساعة الى عبد الناصر للانسحاب من منطقة القناة، وهو مطلب لابد ان المصريين سيرفضونه ، وبانتهاء مدة الانذار يبدا القصف الجوى من جانب القوات المتحالفة ، ولكن اذا عرف ان انزال قوات الهجوم قد تم قبل رفض الانذار ، فسيكون من الصعب على الحكومتين الفرنسية والبريطانية تبرير العملية بأنها مجرد « عملية امن »

كان قرار ايدن سياسيا فى جوهره ، ولكن كان من الأسهل عليه ان يتخذه ، حيث تغلب على اعتراضات الجنرال كيتلى والجنرال ستوكويل، اذ يبدو انه تلقى من مارشال الجو بارنيت نصيحة عسكرية تعارض رايهما ، حيث يعتقد القائد الجوى — كما أكد لايدن — ان القصف الجوى سيؤدى الى الانهيار الكامل للقوات المصرية المسلحة ، ومن ثم فلن يكون هناك ما يدعو للهجوم البرمائى ، وعلى اية حال ، أصر رئيس الوزراء على عدم البدء بتحريك القوة البحرية الا بعد بدء القصف الجوى وكان هذا يعنى انزال القوات فى الثالث عشر من سبتمبر

واخيرا ، وافقت الحكومتان البريطانية والفرنسية على تنفيذ العملية بعد تعديلها ، واطلق عليها اسم « موسكيتير » .. وتتضمن المرحلة الأولى منها تدمير السلاح الجوى المصرى .. وفى المرحلة الثانية يستمر الهجوم الجوى لايقاع الفوضى بالاقتصاد المصرى والامداد واضعاف معنويات المصريين ، بينما تكون القوة البرمائية لا تزال فى عرض البحر .. أما المرحلة الثالثة التى تبدا فى الثالث عشر من سبتمبر فتتضمن هجوما محمولا جوا وبرمائيا على الطرف الشمالى من قناة السويس ، ثم احتلال منطقة القنـاة .

وفى الاسبوعين المتبقين قبل نزول القوات ، اندفعت القوات البريطانية والفرنسية فى استكمال تجهيزاتها واستعدت للابحار فى السادس من سبتمبر ، غير ان العملية تأجلت دون ابداء اى تفسير للقوات او لقيـاداتها .. كان السبب فى الواقع هو اتاحة الوقت لاستكمال المفاوضات مع الاسرائيليين ، ثم تمكين اسرائيل من القيام باستعداداتها الخاصة حتى تتفق مخططاتها مع مخططات « موسكيتير » ، ومع ذلك لم يكن لدى كبار قادة الحملة فكرة عن سبب التاجيل ، ولم يعلموا بأنه سيكون هنـاك تنسيق فى عمليتهم مع الاسرائيليين .

ظلت سفن الانزال البريطانية والفرنسية محملة بالقوات المقـاتلة ، وظل افراد القوات المشتركة فى قواعدهم العسكرية معزولين عن أهلهم عن اية اتصالات خارجية .. ولما لم تكن هناك اية تفسيرات فقد كانت هناك مشكلة وهى حالتهم النفسية القاسية .. والى جانب ذلك ، كانت هنـاك ايضا بعض المشكلات العملية ، مثل : الاحتفاظ لفترة طويلة بالبطـاريات مشحونة فوق المتطورات والدبابات على سطح سفن الانزال .

وفى اواخر سبتمبر ، تقابل ديان ومعه نفر قليل من أركان حربه مع القادة العسكريين الفرنسيين لتنسيق خططهم ، وفى أوائل اكتوبر تحـدد يوم العشرين لبدء العملية . وبعد ايام قليلة اعيد النظر فى الخطة ، واصبحت نهائية : لقد تحدد يوم التاسع والعشرين لهجوم الاسرائيليين ، والحـادى والثلاثين للحلفاء الأوروبيين .. فالاسرائيليون بتهديدهم لقنـاة السويس يقدمون للبريطانيين والفرنسيين ذريعة لبدء « عملية الأمن » بغرض الحيلولة دون أن يؤدى القتال بين الاسرائيليين والمصريين الى تعطيل المرور عبر القنـاة .

ان تحديد الحادى والثلاثين من اكتوبر كموعد لبدء « عملية الأمن » بغرض الحيلولة دون ان يؤدى القتال بين الاسرائيليين والمصريين الى تعطيل المرور عبر القنـاة .

ان تحديد الحادى والثلاثين من اكتوبر كموعد لبدء تنفيذ العملية يعنى ان القوات الفرنسية والبريطانية ستنزل فى بورسعيد فى السابع من نوفمبر ، وكان ستوكويل يامل انه بحلول العاشر من نوفمبر تكون قواته قادرة على شق طريقها الى مائة وستين كيلومترا جنوبى بورسعيد لتصل الى السويس الطرف الجنوبى للقناة .

اتفـاق « سـيفر »

فى السادس عشر من اكتوبر ، وهو اليوم الذى تم فيه الاتفاق مبدئيـا بين ممثلى بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، تلقى رئيس الوزراء بن جوريون دعوة من فرنسا للاشتراك فى اجتماع سرى مع ممثلى الحكومتين البريطانية والفرنسية ، لاستكمال المفاوضات ، وتأكيد التنسيق الكامل لكل جـوانب العملية . وكان بن جوريون ، الذى أعـد نفسـه لمحاربة المصريين دون اشتراك البريطانيين والفرنسيين ، قد بدأ يعيد التفكير حول تورطه فى عملية متعددة الجنسيات ، فقد كان يخشى أن يزعم البريطانيون والفرنسيون أمام بقية العالم ان اسرائيل المعتدية فى هذه الحرب ، وانهم هم حمـاة السـلام ومنقذو قناة السويس . اضف الى ذلك أن العلاقات بينه وبين بريطانيـا كانت متوترة ، حيث لم تكتم بريطانيا استياءها من قيام اسرائيل بغارات على الأردن التى تربطها معاهدة ببريطانيا .

غير ان بيريز وديان الحا على بن جوريون ان يشترك فى الاجتمـاع من اجل الوصول الى اتفاق محدد المعالم مع البريطـانيين والفرنسيين ، وللعمل بوجه خاص على اقناع البريطانيين بألا يتحولوا عن موقفهم ، ولكن لم يكن بن جوريون يثق بالبريطانيين عامة ، وبايدن بوجه خاص .. وكان المفروض فى هذا الاجتماع أن يتيح الفرصة للاسرائيليين للمطالبة بمـا سبق ان وعدتهم به فرنسا بصفة غير رسمية ، وهو أن يقوم السلاح الجـوى الفرنسى بالدفاع عن الوطن الاسرائيلى لمنع الطيران المصرى من الهجـوم على تل ابيب والقدس قبل القصف البريطانى الفرنسى .

بدأ المؤتمر فى الثانى والعشرين من اكتوبر فى « سيفر » بالقـرب من باريس . واوضح بن جوريون منذ البداية انه لن يقبل موقفا تكون فيـه اسرائيل البادئة بالحرب فيتيح ذلك الفرصة لبريطانيا وفرنسا للتـدخل الذى يكون ظاهره صنع السلام ، ولكن ديان عرض اقتراحا قبله بن جوريون ، ورضى به البريطانيون والفرنسيون ، ولن يترتب عليـه اى تعديل كبير فى الخطط العملية الشاملة سواء فى عملية « قادش » ام فى عملية « موسيكتير » .

يتضمن اقتراح ديان اسقاط كتيبة مظلات بالقرب من ممر متلا على بعد يقل عن اربعين ميلا من منطقة القناة فى غارة تعتبر ظاهريا للثأر من ارهاب الفدائيين ، واذا ما انجز البريطانيون والفرنسيون وعدهم بالقيام بعمـل ضد

مصر على اثر هذه العملية الاسرائيلية المحدودة ، عندئذ تواصل اسرائيل تنفيذ عملية « قادش » وفقا للخطة المرسومة .

اما اذا لم يتحرك البريطانيون والفرنسيون ، فستكون الفرصة لا تزال قائمة لكل من بن جوريون وديان لسحب كتيبة المظلات ، ويبرران هذه العملية بانها كانت مجرد غارة تأديبية اخرى .

وافقت فرنسا على الفور على تقديم العتاد المطلوب ، وخاصة المقطورات ، مع ارسال ستين طائرة مع طياريها لمساعدة السلاح الجوى الاسرائيلى على توفير غطاء جوى فوق اسرائيل ، وعلى ان ترسل أيضا طائرات نقل فرنسية للمساعدة فى نقل القوات البرية والامدادات .

وفى الرابع والعشرين من اكتوبر ، وبناء على الحاح بن جوريون ، تم اعداد « بروتوكول » رسمى لتحديد الاتفاق الذى يتم به تنفيذ الخطة ، وتم التوقيع عليه من ممثلى الحكومات الثلاث ، عندئذ عاد بن جوريون وديان وبيريز جوا الى اسرائيل ، ولكن بن جوريون انتظر ثلاثة أيام اخرى حتى الثامن والعشرين من اكتوبر ، اى قبل بدء العملية بيوم واحد ، قبل ان يبلغ حكومته بالاتفاق الذى تم مع البريطانيين والفرنسيين . وتقديرا واحتراما لمكانة بن جوريون وسلطته ، وافقت الحكومة الاسرائيلية بالاجماع على الالتزامات التى ارتبط بها قبل ان يكون لديه تفويض من حكومته .

خلال تلك الأيام الثلاثة ، اخذ ديان يصدر الأوامر بالتحركات الواسعة للقوات على طول الحدود الأردنية ، وبدات تعبئة جزئية فى اسرائيل فى الخامس والعشرين ، وبينما كان ذلك يجرى فى سرية تامة علم الاسرائيليون ان بعض الأنباء قد يتسرب الى العالم الخارجى عن وجود نشاط غير عادى ، وسيكون الانطباع الذى يعطونه عندئذ هو التخطيط لغارة ضد الأردن ، ومما يدعو الى تصديق ذلك ما حدث قبله بأسبوعين عندما قام الاسرائيليون بغارة انتقامية كبرى ضد اقلية فى الأردن فى ليلة ١٠ ، ١١ اكتوبر .

وهناك حادث يدل على مدى وطبيعة ما لجأت اليه اسرائيل من تكتم وخداع : ففى السادس والعشرين من اكتوبر استفسر مدير عام مكتب رئيس الوزراء من بن جوريون نفسه عما كان يجرى .. وبعد أن استحلف رئيس الوزراء مدير مكتبه ان يحافظ على السرية المطلقة لما سيقوله له ، اجابه : بأن اسرائيل تخطط لهجوم محتمل ضد الأردن ، وأن تحركات القوات انما تم لامكان تنفيذ ذلك عند الضرورة .

ليس هناك من دليل على ان الدول العربية كانت على علم ، سواء بالمخطط الاسرائيلى ام البريطانى الفرنسى ، أم عن التعاون بين الدول الثلاث،

وبسبب ازمة السويس ، كان من الطبيعى ان يشعر عبد الناصر بان القوات البريطانية والفرنسية الموجودة بالبحر المتوسط قد تتورط فى عمل ضد قناة السويس ، دون اعطائه مهلة كافية لأخذ الحيطة والاستعداد ، وكان جميع العرب يدركون فى الظاهر وجود نشاط غير عادى بطول الجانب الاسرائيلى من حدودها مع الأردن . ولكن يبدو ان هذه الحقائق لم يكن لها اثرها بأية صورة كانت فى القرار المشترك الذى اعلنته حكومات مصر والأردن وسوريا فى الخامس والعشرين من اكتوبر ، حيث كانت قد عقدت اتفاقا عسكريا جديدا لتكوين قيادة واحدة براسها لواء مصرى ، ومن الناحية الأخرى كان هذا التشكيل المتزايد لاحتمال غزو ثلاثى ضد اسرائيل مدعاة لتعجيل الاسرائيليين بمخططهم .

وهناك دليل على فعالية الامن فى اسرائيل ، وهو انه فى السادس والعشرين من اكتوبر ، اى فى اليوم التالى لاعلان تكوين القيادة العسكرية المشتركة ، قام المشير عبد الحكيم عامر ، القائد العام للقوات العربية المتحالفة ، برحلة زار فيها القيادات الأردنية والسورية .. وفى الثلاثين من اكتوبر ، ووفقا لما كان مخططا اصلا ، عاد الى القاهرة ، وكانت الحرب قد بدات فى مساء اليوم السابق .

(٣)

هجـــوم ســـيناء

الأرض

شبه جزيرة سيناء عبارة عن برزخ ثلاثى الشكل ، عرضه مائتا كيلو متر فى الشمال بين قناة السويس وحدود اسرائيل ، وأربعمائة كيلو متر العمق من الشمال الى الجنوب ، من العريش على شاطىء البحر المتوسط الى طرف راس محمد الممتد جنوبا فى البحر الأحمر ، بين خليج العقبة وخليج السويس ، وفى اقصى الشمال يوجد حزام ساحلى مسطح وضيق تندر فيه الزراعة ، اما بقية منطقة شبه الجزيرة الى الجنوب فهى مغطاة بتلال جرداء ووعرة ، مع كثبان دائبة التنقل ، وعلى النصف الثانى من شبه الجزيرة تطل قمم جبال أكثر ارتفاعا ووعورة ، تصل الى الف قدم ، وتمتد الى الشمال الغربى من سلسلة هذه الجبال سلسلة تلال من ثلاثين الى خمسين كيلو مترا الى الداخل من شاطىء خليج السويس وقنـاة السويس . وأكبر مدينة فى هذه المنطقة الفسيحة المعزولة هى العريش التى كانت منذ القدم سوقا ومركز امداد عسكرى ، وتقع بالقرب من السـاحل على الجزء الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة .

تخترق الجزء الشمالى من سيناء اربعـة طرق كبيرة من الشرق الى الغرب . والطريق الى اقصى الشمال طريق ساحلى شاق ينحدر غربا من غزة الى القنطرة عن طريق رفح والعريش ورمانة ، وكانت تمتد الى جانبه آثار خط سكة حديدية (كان البريطانيون قد مدوه فى الحرب العالمية الأولى وهدمه الاسرائيليون عام ١٩٦٧) ، وهو طريق امداد كبير للقوات المصرية، ثم يسير عبر الطرف الشمالى الى سلسلة الجبال الغربية الى الاسماعيلية.

وموازيا لهذا الطريق الثانى يوجد طريق ترابى يمتد فى مبدئه فى الاتجاه الجنوبى الغربى من العوجة ، مخترقا القسيمة وبير حسنة الى بير الثماده حيث يتشعب الطريق ، وتستمر الشعبة الشمالية غربا عبر ممر الجـدى لتصل الى قناة السويس بالقرب من البحيرة المرة الصغرى ، وتتجه الشعبة الجنوبية عبر ممر متلا لتصل الى القناة بالقرب من شمالى السويس .

اما الطريق الرابع الذى كان حتى ذلك الوقت مجـرد مسلك ترابى ، يتجه غربا من النقب الجنوبية الى الثمد ونخل وممر متلة (حيث يلتقى بالطريق

الثالث) والسويس ، والطريق الوحيد من بين هذه الطرق الذى به امداد صالح من المياه طـال السنة هو الطريق الشمالى الساحلى .

بالاضافة الى هذه الطرق الممتدة من الشرق الى الغرب ، توجد طرق تمتد من الشمال الى الجنوب على جانبى شبه الجزيرة ، وتلتقى عند شرم الشيخ عند اقرب نقطة شمال شرقى راس محمد ، اى الطرف الجنوبى ، والطريق الغربى الموازى لخليج السويس عبر ابو رديس وابو زنيمة والطور، كان قد تم رصفه واصبح صالحا للسير ، اما الطريق الى الجانب الشرقى من شبه الجزيرة ، فكانت تعترضه الكثير من المسالك الملتوية والوعرة التى تمتد لعدة أميال من خليج العقبة الى الداخل .

وعلى مسافة خمسة عشر كيلو مترا تقريبا شمال شرقى شرم الشيخ، تقع راس نصرانى عند مضيق تيران ، وتتحكم فى المدخل الوحيد من البحر الى خليج العقبة ، وميناء ايلات الاسرائيلى . والجزيرتان اللتان تقعان فى المضيق وهما تيران وصنافير ، وعدد من الحواجز تجعل الممر المائى ضيقا لا يتجاوز الستمائة متر عند راس نصرانى .

انتشار القوات المصرية :

على اثر تأميم قناة السويس فى يوليه ١٩٥٦ ، كان واضحا للمصريين ان البريطانيين والفرنسيين يفكرون فى مختلف الوسـائل لاقصـاء الرئيس عبد الناصر عن الحكم واعادة القناة الى السيطرة الاوروبية ، وفى اغسطس بدأت القوات البريطانية والفرنسية تحتشد فى قبرص ومالطة ، وبالرغم من أن عبد الناصر كان يجد من الصعب الاعتقاد بأن اية من الدولتين قد تتدخل ماديا فى مصر ، فانه سحب من سيناء الكثير من حامياتها الى منطقة الدلتا ، حتى يكون افضل استعدادا لمواجهة اية تحركات انجليزية وفرنسية محتملة ضد القناة . ولذلك ، فانه عندما وقع الهجوم الاسرائيلى كان عدد القوات المصرية فى شبه جزيرة سيناء ثلاثين الف رجل تقريبا ، اى نصـف القوة المعتادة لحماية سيناء .

كانت القوة الرئيسية المصرية فى سيناء منتشرة فى مواقع دفاع ثابتة فى المثلث الشمالى الشرقى المكون من العريش ورفح وابو عجيلة .. وكانت هناك فرقتان ، ووحدات أخرى متنوعة تحت اشراف القيادة الشرقية للواء على عامر ، ومقر قيادته العامة بالاسماعيلية ، وكان للفرقة الثالثة المشاة لواء فى رفح (اللواء الخامس) ولواء فى ابو عجيلة (اللواء السادس) ولواء فى العريش (الرابع) . وكانت الفرقة الفلسطينية الثامنة المرابطة فى قطاع غزة تتألف من اللواءين الفلسطينيين السادس والثمانين والسابع والثمانين، واللواء الســادس والعشرين من الحرس الوطنى المصرى .. وكانت تلك

الوحدات سيئة التدريب وهزيلة التسليح ، وبالرغم من ان الغالبية من رجال اللواءين السادس والثمانين والسابع والثمانين كانت من الفلسطينيين ، فان الضباط وضباط الصف كانوا من المصريين .

كانت هناك ثلاثة أسراب من دبابات شيرمان فى شبه الجزيرة ، واحد منها فى رفح ، واثنان فى العريش ، وكانت تساند كل لواء بطارية مدافع ميدان عادية من اثنى عشر الى ستة عشر مدفعا ، معظمها بريطانية الصنع ، وبالاضافة الى ذلك كان هناك عدد من مدافع « ارشر » المضادة للدبابات موزعة بين القوات .. وكانت تطوف بمنطقة الجبال والقطاعات المعزولة جنوب شرقى ابو عجيلة داوريات ميكانيكية من داوريات الحدود ، ولكنها كانت ذات نظام بوليسى اكثر منه حربى .

لم تكن حامية شرم الشيخ فى الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة تحت القيادة الشرقية ، بل كانت تحت اشراف القيادة العامة بالقاهرة . وكانت الحامية تتألف من الكتيبة الحادية والعشرين مشاة وكتيبة من الحرس الوطنى ، وفصيلتين من داوريات الحدود ، وبطارية من مدفعين من المدافع الساحلية عيار ٦ بوصة ، وبطارية أخرى من اربعة مدافع ساحلية عيار ٣ بوصة ، وستة مدافع ٣٠ مم مضادة للدبابات ، واربعة مدافع ٧٥ مم مضادة للطائرات . وكانت ترسو بميناء شرم الشيخ الفرقاطة رشيد . واقيمت مخافر مراقبة فى الشط وابو زنيمة والطور ودهب ، وفى الجزيرتين القريبتين. وكانت كل هذه المخافر متصلة لاسلكيا بشرم الشيخ .

والى غربى قناة السويس ، كانت هناك فرقتان من المشاة ، وفرقة مدرعة .. وكانت تحت قيادة اللواء على عامر ، ومستعدة للعمليات فى سيناء .

كان لدى سلاح الطيران المصرى مائتان وخمس وخمسون طائرة : ثلاثة اسراب (٤٥ طائرة) ميج ١٥ ، وثلاثة اسراب (٤٠ طائرة) فامبير ، وسربان (٣٢ طائرة) ميتيور ، واربعة اسراب (٤٩ طائرة) آى ال ٢٨ من القاذفات الخفيفة . وكانت هناك ستون طائرة نقل ، وسرب من ثمانى طائرات استطلاع ، وسرب من ست طائرات للقتال الليلى (متيور ن.ت — ١٣) الى جانب عدة طائرات ادارية .. وعلى اية حال ، لم تكن كل هذه الطائرات صالحة للعمل .. اما الطائرات التى كانت فى حالة فعالية كاملة فهى سربان من ميج ١٥ ، وسرب متيور وسرب آى ال ٢٨ ، وطائرات النقل وعددها ستون ، فيكون مجموع الطائرات الصالحة للعمل مائة وثلاثين طائرة من بينها سبعون طائرة مقاتلة .

انتشار القوات الاسرائيلية وخطتها :

ف مساء الثمن والعشرين من اكتوبر ، اى قبيل يوم الهجوم ، كان الجيش الاسرائيلى قد عبأ كل الويته الثمانية عشرة من قوة الميدان المتحركة.. (ف يومى السابع والعشرين والثامن والعشرين بعث ايزنهاور برسائل الى بن جوريون يلح عليه تسريح هذه القوات) .. وتولى الجنرال عساف سيمهونى قيادة اثنى عشر من هذه الألوية (بالقيادة الجنوبية) ، اما الستة الأخرى فكانت احتياطية فى القطاعين الشمالى والأوسط بالبلاد ، جاهزة للتعامل مع اية تحركات معادية من سوريا او الأردن .

وبلغ عدد وحدات القيادة الجنوبية خمسة واربعين الف رجل من القوات المقاتلة ، ينقسمون الى « وحدتين خاصتين » ، تقرب كل منهما الى مستوى الفرقة ، والى مجموعتى لواءات خصص كل واحد منها لواحد من الطرق الرئيسية او المحاور الاربعة . وكانت الوحدة الشمالية الخاصة (رقم ٧٧) تحت قيادة البريجادير جنرال حاييم لاسكوف ، وتتألف من اللواءين الأول مشاة والسابع والعشرين مدرعات ، يساندهما اللواء الحادى عشر مشاة .. وكان محور تقدمها الطريق الساحلى عبر العريش .

وكانت الوحدة الوسطى (رقم ٣٨) تحت قيادة الكولونيل يهوداه والاش ، وتضم اللواءين الرابع والعاشر مشاة واللواء السابع المدرع . وخصص اللواء الميكانيكى السابع والثلاثون الموجود فى الاحتياطى بمركز انقيادة العامة لمساندة والاش عند الضرورة . وكان من المقرر أن تزحف هذه الوحدة بطول الطريق أو الطريقين ، وسط سيناء ، فى اتجاه القناة .

وعهد بالمحور الجنوبى الى لواء المظلات (المائتين واثنين) بقيادة اريل شارون . والى الجنوب ، يزحف من ايلات جنوبا اللواء الميكانيكى التاسع بقيادة الكولونيل افراهام يوفى ، بطول الطريق على خليج العقبة الى شرم الشيخ . وكانت هناك وحدة اضافية فى الاحتياطى ، عهد اليها فى البداية بدور المساندة فى منطقة غزة ، ثم وضعت تحت تصرف قوات الفرقة الثامنة والثلاثين أو لواء المظلات المائتين واثنين الزاحف بطول خليج السويس نحو شرم الشيخ .

كانت أهداف عملية « قادش » هى : خلق تهديد عسكرى لقناة السويس بالاستيلاء على المرتفعات شرقيها ، والاستيلاء على مضيق تيران (لتنهى بذلك حصار ايلات ، وفتح خليج العقبة للملاحة الاسرائيلية) وخلق حالة من الارتباك بين صفوف الجيش المصرى فى شبه جزيرة سيناء تؤدى الى انهياره ، وبالتالى منع أو تأجيل اى هجوم مصرى محتمل ضد اسرائيل، وكان هناك أيضا هدف ضمنى هو تدمير قواعد الفدائيين فى قطاع غزة وعلى حدود سيناء .

كان من المفروض أن تصبح راس الحربة فى قناة السويس ممثلة فى الكتيبة الاولى من لواء المظلات المائتين واثنين الذى يتم اسقاط قواته عند المدخل الغربى لمر متلا ، على بعد مائة وسبعين كيلو مترا غربى الحدود الاسرائيلية ، وعلى مسافة تزيد قليلا على ثلاثين كيلوا مترا من القنـاة ، وكان من المتوقع ان تخلق هذه العملية التهديد الذى يحث على تنفيذ العملية الانجلوفرنسية ، ويبررها ، وفى نفس الوقت تزحف بقية لواء المظلات برا عبر الكنتلة ، والثمد ، ونخل لتنضم الى الكتيبة الاولى غربى متلا .

تم تخطيط هذه العملية بحيث اذا لم يقم الفرنسيون والبريطانيون بتنفيذ ما يختص به كل جانب فى الاتفاق (حيث كانت لدى بن جوريون حتى آخر لحظة شكوك جدية فى استمرار البريطانيين فى خطتهم) يمكن عندئذ سحب المظليين من المر ، ومن ثم يمكن تفسير كل العملية بأنها غارة انتقامية ضد نشاط المصريين والفدائيين على الحدود .

كان من المفروض الا تتحرك اطلاقا فرقة والاش فى اليـوم الاول من العملية ، بل يبدأ لواؤها الرابع زحفه فى تلك الليلة متجها الى جنوب غربى نتساناه للاستيلاء على القسيمة قبل فجر اليوم التالى ، ويكون على اللواء العاشر مشاة ان ينتظر حتى ليلة اليوم الاول للعملية قبل أن يتحرك مباشرة عبر العوجة الى مواقع ابو عجيلة/ام كتاف جهة الشرق . وبعد تاخير ثمان واربعين ساعة ، كان على اللواء السابع المدرع القيام بعملية استطلاع فى وسط سـيناء ، وكان على اللواء الميكانيكى السـابع والثلاثين ان يبقى احتياطيا لاستخدامه اما فى عمليات التعزيز او عمليـات الاستطلاع حسب الحـاجة .

وكان الغرض من التاخير لمدة ثمان واربعين ساعة فى استخدام القوات المدرعة هو تمكين الاسرائيليين من تقييم رد الفعل المصرى والعالمى ، وللتأكد تماما من اشتراك البريطانيين والفرنسيين قبل أن تتورط اسرائيل بلا رجعة فى حملة على نطاق واسع ، اضف الى ذلك ، انه بمجرد بدء العملية البريطانية الفرنسية ضد السلاح الجـوى المصرى سيكون لدى القـوات المدرعـة الاسرائيلية المزيد من الحرية فى العمل فى سيناء .

لم يكن على الفرقة الخاصة الشمالية التابعة لقيادة لاسكوف أن تقوم بعمليات حتى مساء اليوم التالى ، حيث ستقوم بمهاجمة المواقع المصرية فى رفح ، وعزل قطاع غزة ، وبينما يقوم اللواء الأول مشاة بتطهير منطقة رفح ، يكون على اللواء الميكانيكى السابع والعشرين اقتحـام العريش ، ثم التقدم غربا الى القناة .

ولم يكن على اللواء المشـاة الحادى عشر من الفرقة الشمالية ان يبدأ عملياته ضد القطاع ، بل كان عليه ان ينتظر التعزيز من اللواء الميكانيكى ،

كله او جزء منه ، وهو الذى كان من المفروض سحبه من الفرقة المركزية بعد الاستيلاء على ابو عجيلة ، وتقوم عناصر من لواء المشـاة الثانى عشر الموجود كاحتياطى بمركز القيادة العامة بالمساندة فى قطاع غزة عند الحاجة .

وبعد اتصال لواء المظلات المائتين واثنين بكتيبته فى ممر متلا ، تقوم عناصر من هذا اللواء ، المعززة بوحدات من لواء المشـاة الثانى عشر المنقولة جوا بعد سحبها من عمليات قطاع غزة ، وتتحرك على الطريق السـاحلى الغربى الى شرم الشيخ ، ويتم تجهيزها لمساعدة اللواء التاسع فى الاستيلاء على ذلك الموقع عند الضرورة .

ولما كان على القوات الجوية البريطانية والفرنسية ان تتعامل مع القوة الرئيسية للسـلاح الجـوى المصرى ، وكان على الطيران الفرنسى توفير الحماية للقواعد الجـوية الاسرائيلية والمراكز المدنية ، وكان من المنتظر ان يتمكن السلاح الجوى الاسرائيلى من التفرغ تماما لعمليات المساندة البرية .

عندما اندلعت الحرب فى التاسع والعشرين من اكتوبر ، كانت اسرائيل تملك مائة وخمسا وخمسين طائرة جاهزة للعمل ، من بينها تسع وستون طائرة ميستير حديثة او أوريجان او مقاتلات ميتيور النفاثة البريطـانية ، وخمسا واربعين طائرة مقاتلة قاذفة بمحركات ، وكان قائد القوة الجوية هو البريجادير جنرال دان تولكوفسكى .

وعهد الى البحرية الاسرائيلية بمهام الخدمة والامداد فى البحر الأحمر فى المقـام الاول ، وكان رئيس الأركان الاسرائيلى الجنرال ديان يرى أن القوات البحرية البريطانية والفرنسية ستكون كافية لتقييد النشاط البحـرى المصرى فى البحر المتوسط ، وكان قائد البحرية الاسرائيلية هو البريجادير جنرال (ريرادميرال) شمويل تانكوس .

فى مطلع الثالث والعشرين من اكتـوبر ، وصلت الى اسرائيل ثلاثة اسراب من سلاح الطيران الفرنسى .. وكانت المهمة الاولى لأحد الاسراب وهو من المقاتلات « ميستير » حماية المدن الاسرائيلية من احتمال القصـف الجوى من جانب المصريين قبل مهاجمة البريطانيين والفرنسيين للمطـارات المصرية ، ويقوم سرب آخر من طائرات « اف ــ ٨٤ » المقـاتلة القاذفة بمساعدة سرب الطائرات ميستير فى دور الحماية الجوية ، أو لمسـاعدة الجيش الاسرائيلى . وعهد الى سرب ثالث من طائرات « نور أطلس » بمهمة مساندة لواء المظلات المائتين واثنين ، وبوجه خاص توفير الامداد اللازم للواء الأول الذى يتم اسقاطه بالقرب من ممر متلا .

فى التاسع والعشرين من أكتوبر ، وقبل ساعات قليلة من حلول ساعة الصفر ــ التى كانت مقررة بعد ظهر ذلك اليوم ــ تم تغيير منطقة اسقاط

الكتيبة الأولى من لواء المظلات المائتين واثنين ، حيث كشفت طائرات الاستطلاع نشاطا مصريا كبيرا غربى ممر متلا ، (ثم تبين بعد ذلك انها كانت مجموعة من العمال المصريين تقوم باصلاح الطرق) . ولذلك ، فانه بدلا من اسقاط الكتيبة على الطرف الغربى من الممر ، تقرر اسقاطها فى موقع بالقرب من « تمثال باركر » عند نهاية الممر ، على بعد خمسة وستين كيلو مترا من القناة .. وهكذا كان التهديد للقناة اقل خطورة .

هجوم المظليين :

بعد الساعة الرابعة والعشرين دقيقة من بعد ظهر التاسع والعشرين من اكتوبر عبرت الحدود الاسرائيلية المصرية اربع طلعات بطائرات الداكوتا، تحمل كل منها مائة رجل تقريبا من الكتيبة الأولى من لواء المظلات المائتين واثنين ، بقيادة اللفتنانت كولونيل رافاييل ايتان ، حلقت الطائرات على ارتفاع خمسمائة قدم تقريبا للافلات من كشف الرادار لها ، وكانت تحرسها عشر طائرات اسرائيلية « متيور » ، وكانت ست عشرة طائرة « ميستير » تقوم بداورياتها فوق سيناء الوسطى بحثا عن نشاط القواعد الجوية المصرية القريبة من هناك .. ولكن لم يكن هناك اى نشاط .

وفى الساعة الرابعة وتسع وخمسين دقيقة ، ارتفعت الطائرات الداكوتا ، التى كانت تتصدر الطائرات الاخرى ، الى ارتفاع الف وخمسمائة قدم ، وبدأ المظليون يقفزون منها . لم تكن هناك مقاومة او تدخل ، اذ يبدو ان اى جندى مصرى لم يلمح هذه العملية ، وبحلول الظلام كان ايتان قد جمع من قواته ثلاثمائة وخمسة وتسعين رجلا ، واخذ يعالج الاصابات الطفيفة التى نجمت عن عملية الاسقاط . ولما ادرك انه على مسيرة عدة كيلو مترات شرقى الطرف الشرقى للممر ، زحف غربا . وفى الساعة الخامسة والنصف كان المظليون قد وصلوا الى ما اعتقدوا انهما التلان اللذان يدلان على الطرف الشرقى للمر ، واتخذوا هناك مواقعهم الدفاعية ، ورسخوا اقدامهم ، واقاموا نقاط مراقبة وكمائن على الطريق فى كلا الاتجاهين : كما وضعوا دعامات ارشاد الكترونية لتمويه الطائرات .

وصلت الطائرات فى موعدها فى الساعة التاسعة ، وكانت هناك ثمانى سيارات جيب لتعزيز المظليين ، مع تزويدهم باربعة مدافع عيار ١٠٦ مم ومدفعين هاون ١٢٠ مم ، مع الذخيرة والماء والطعام والأدوية التى اسقطتها الطائرات الفرنسية .. واسقطت الطائرات مع هذه الامدادات امرا بعدم التحرك الى ممر متلا .

وبالرغم من ان المصريين لم يلحظوا اسقاط الجنود ، فقد حدث بعد حلول الظلام بقليل ان كانت ثلاث مركبات مصرية تحمل جنود فرقة الحدود الذين كانوا فى طريقهم لقضاء الاجازة ، ولما اقتربت من احد نقاط المراقبة

الاسرائيلية على الطريق من الشرق ، اوقع الاسرائيليون احدى المركبات فى كمين ودمروها ، ولكن تمكنت الاثنتان الأخريان من الفرار ، وعادت احداهما الى نخل وابلغت عن هذا الموقف ، وسرعان ما قامت الأخرى بالتبليغ عنه فى الشط ، وهكذا عند منتصف الليل علمت المواقع المصرية فى سيناء بأن الاسرائيليين موجودون بالقرب من ممر متلا .

فى الوقت نفسه ، كانت القوة الرئيسية من لواء المظليين بقيادة شارون على الطريق منذ ساعات ، ولتأكيد الانطباع باحتمال قيام اسرائيل بعملية ضد الأردن ، اتجه اللواء اصلا الى عين خصوب على الحدود الأردنية ، ولما كان عليه ان يقطع معظم الطريق الى الحدود المصرية عبر النقب ، فانه غادر عين خصوب فى الثالثة صباحا ليصل الى هدفه فى الرابعة بعد الظهر .

وبالاضافة الى الكتيبة التى كانت بالقرب من ممر متلا ، كانت قيادة شارون تتألف من كتيبتى مظلات اخريين ، وسريتين من « نهال » (الجيش العسكرى الزراعى وسريا من ثلاث عشرة دبابة « اى — ام — اكس » وبطارية ميدان من خمسة وعشرين مدفعا ، وبطارية من ثمانية مدافع هاون، وطائرتين بيبر (لحقت احداهما بالكتيبة الأولى عند متلا قبل حلول الظلام بقليل) ، وكذلك وحدات المساندة العادية ، وبلغ اجمالى القوة البرية ثلاثة آلاف رجل .

تم تزويد اللواء بمائة وخمسين عربة نقل حديثة كانت قد وصلت مؤخرا من فرنسا (كجزء من اتفاق سيفر) مهيئة لاجتياز الأراضى الصحراوية بسهولة ، ولم تكن هذه العربات قد وصلت الى اسرائيل الا فى السابع والعشرين من اكتوبر ، وفى الثامن والعشرين من اكتوبر قيل لشارون انه سيتسلم منها تسعين فقط ، وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، اى بعد اربع ساعات من الموعد الذى كان من المفروض أن يبدأ فيه السير فعلا ، لم تصله سوى ثمان واربعين عربة ، ورأى شارون ان اى تأخير بعد ذلك ، سيعوق انضمام لوائه الى الكتيبة قرب متلا . وهنا وضع قواته فوق العربات الموجودة لديه ، وفوق المركبات نصف المجنزرة وفوق اكبر عدد ممكن من السيارات المدنية التى استطاع الاستيلاء عليها للأغراض العسكرية .

لقد كان على بعد مائة كيلو متر من الحدود المصرية عند الكنتلة ، وكان عليه ان يقطع المسافة فى ثلاث عشرة ساعة .. غير أن معدل الاستهلاك بين مركباته كان عاليا جدا ، فقد تعثر معظمها فى الرمل ، واضطرت القوات الى ترك الكثير من السيارات المدنية فى قلب الصحراء بسبب الأعطال الميكانيكية .. ومن بين الدبابات الثلاث عشرة التى انطلقت مع اللواء منذ الصباح ، لم تصل الى الكنتلة سوى سبع فقط ، ومع ذلك ، فان معظم المظليين قطع المسافة عبر النقب فى تسع ساعات ، وعبروا الحدود فى الرابعة مساء حسب المقرر .

واول مقاومة مصرية كانت عند الكنتلة . كانت الخنادق هناك غير عميقة ، وترابط بها فصيلة من داوريات الحدود ، قتل معظم افرادها ، او وقعوا فى الأسر فى يد سرية الاستطلاع من قوات شارون فى الخامسة مساء ، وخسر الاسرائيليون سيارة جيب ومجنزرتين وذلك بفعل الالغام ، وجرح جندى واحد .

عندما وصل شارون الى الكنتلة حول الخامسة والنصف ، ارسل سرية استطلاع لتأمين وصلة الطريق فى راس النقب/الثمد ، بينما ركز اهتمامه على تجميع اللواء الذى كان قد انتشر جزؤه الرئيسى على عدة كيلو مترات بين الكنتلة والحدود وشرقى النقب ، وكان معظم المركبات قد تعطل فى الرمل .. ومما زاد من تعقيد الأزمة العامة للواء وجود عربات نقل البنزين فى مؤخرة السرية ، حيث تعذر عليها ان تدور من حول العربات المغروزة فى الرمل لتموين تلك التى تخلصت من الرمل فى المقدمة .

كان شارون مهتما بالزحف نحو الثمد قبل ان تصلها تعزيزات المصريين، ولذلك قام ورجاله بمحاولات جبارة لتحريك السرية وفى الساعة العاشرة بدات عربات الوقود تتخذ طريقها ، واصبح معظم لوائه فى الكنتلة ، وعندئذ أمر كل الوحدات الموجودة بالزحف فى أعقاب سرية الاستطلاع وتتقدمها قيادات اللواء . تخلف ضباط اركان حرب فى الكنتلا ليصدروا اوامرهم للوحدات الباقية للاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه .

رد الفعل المصرى :

فى الوقت نفسه ، وصلت الى القيادة العامة المصرية فى القاهرة ، حوالى السابعة مساء ، اولى التقارير المؤكدة حول العمليات الاسرائيلية، وابلغ احد المراقبين بالقرب من الكنتلة انه راى حشدا من عربات النقل على الطريق قرب الحدود ، وتحلق من فوقها الطائرات الاسرائيلية ، وفى الوقت نفسه تقريبا وصلت رسالة لا سلكية من محطة داورية الحدود فى نخل لتبلغ ان عددا من الطائرات اسقطت مظليين بالقرب من ممر متلا ، وكانت عربتا النقل التى افلتت من الكمين الاسرائيلى هما اللتان نقلتا هذه التقارير .

وبعد التاسعة بقليل ، تلقى الرئيس عبد الناصر البيان الاسرائيلى الذى جاء فيه : ان قوات الدفاع الاسرائيلية قد هاجمت قواعد الفدائيين فى الكنتلة وراس النقب ، وانها احتلت مواقع غربى وصلة طريق نخل على الطريق الى القناة ، وفى الحال ، لحق عبد الناصر بالقائد العام المشير عبد الحكيم عامر بمركز القيادة العامة ، حيث اخذت تصل رسالات اخرى تؤيد التقارير السابقة .

علم عبد الناصر انه فى الساعة الثامنة مساء أمرت القيادة الشرقية (قيادة اللواء على عامر) الكتيبتين الخامسة والسادسة من اللواء الثانى مشاة فى فايد غربى القناة ، بالزحف ضد القوة الاسرائيلية فى متلا .. وفى الوقت نفسه ، امر عبد الناصر بتفادى ان يحدث ما يعطل الملاحة التجارية عبر القناة .

ويبدو انه كان يخشى أن يستغل البريطانيون والفرنسيون اى توقف فى الملاحة كذريعة للتدخل ، وفى التاسعة مساء ، بدات الكتيبة الخامسة تعبر القناة فوق جسر متحرك شمالى السويس . وبسبب اوامر عبد الناصر استغرقت الكتيبة ثمانى ساعات لاتمام العبور ، بينما استغرقت الكتيبة السادسة اثنتى عشرة ساعة فى عبورها .

فى الحادية عشرة مساء ، أتم عبد الناصر واركان حربه تقييم الموقف. وبموافقة عبد الناصر قام اللواء على عامر بالاسراع باعداد خطة الدفاع للتعامل مع هذا الغزو الاسرائيلى : كان على قوات الحدود العمل على تعويق وقف الزحف الاسرائيلى قدر الامكان ، بينما تتجمع القوات المصرية الكبرى فى المؤخرة بالقرب من بير الجفجافة وبير الثمادة تمهيدا لعملية تطويق قد تكون فى ابو عجيلة .. على أن تتم هذه المواجهة بين الثانى والثالث من نوفمبر .

وكجزء من الحشد ، امر اللواء على عامر فرقة الاستطلاع الثانية بعبور القناة من منطقة الدفرسوار ، يليها اللواءان المدرعان : الأول والثانى من الفرقة الرابعة المدرعة ، وأن تتجمع بين بير الجفجافة وروض سالم ، على ان ينضم اليها لواءان من الحرس الوطنى فى المنطقة نفسها .

وللتعامل مع هذا الموقف العاجل ، كان على فرقة الاستطلاع الثانية ان تتحرك جنوبا من منطقة التجمع ، كى تعزل المظليين شرقى ممر متلا ، بينما يوقف اللواء المدرع الأول اى تحرك اسرائيلى من المحورين الشمالى والأوسط .

(٤)

معركة ابو عجيلة

٣٠ اكتوبر — اول نوفمبر

القوات المصرية واستعداداتها

تقضى المرحلة الثانية من المخطط الاسرائيلى بأن تتحرك المجموعة الخاصة الوسطى من موقعها بالقرب من العوجة خلال ليلة ٢٩/٣٠ اكتوبر، ويكون هدفها الأول الهجوم فى اليوم التالى على المواقع المصرية فى منطقة ابو عجيلة/امكتاف /القسيمة .

والعجيلة وصلة طريق صحراوى ، يميزها وجود مخفر شرطة معزول على بعد ٣٠ كيلو مترا تقريبا غربى الحدود عند العوجة ، وهناك يلتقى الطريق الرئيسى الشرقى الغربى الى الاسماعيلية ، مع طريق يأتى من بير لهفان والعريش الى الشمال الغربى ، وعلى مسافة اثنى عشر كيلو مترا تقريبا شرقى ابو عجيلة فى اتجاه الحدود الاسرائيلية توجد وصلة أخرى حيث يتصل طريق ضيق مرصوف بالطريق الرئيسى من الجنوب الشرقى فى اتجاه مخفر الشرطة بالقسيمة . وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات شرقى وصلة هذا الطريق تمتد على الطريق الرئيسى من بير سبع والعوجة الى الاسماعيلية سلسلة تلال ام كتاف ، وتمتد معظم هذه السلسلة جنوبا لمسافة ستة كيلو مترات من طريق العوجة/الاسماعيلية ، وعند هذه النقطة شمالى طريق الاسماعيلية توجد منطقة من الكثبان الرملية التى تمتد بلا انقطاع لمسافة اربعين كيلو مترا الى رفح على الساحل .

وجنوبى الطريق الرئيسى ترتفع قليلا قمة هذه التلال وتعرف باسم ام شيهان ، وعلى مسافة ثلاثة كيلو مترات جنوبا توجد ربوة اكثر ارتفاعا هى ام كتاف ، وبين هذه التلال يسير موازيا لها طريق ترابى ثانوى من العوجة يتصل بالطريق الرئيسى قرب ابو عجيلة ، والى غرب وجنوب ام كتاف توجد مجموعة تلال منخفضة ، يلتف من حولها الطريق من القسيمة .

يتوقع ممن يريد الهجوم من الشرق ان يستخدم كل هذه الطرق الثلاثة زحفه نحو وصلة طريق ابو عجيلة الاستراتيجية ، خاصة وان المنطقة شمالى الطريق الرئيسى عبارة عن كثبان رملية متحركة يصعب اجتيازها،

لذلك كان طبيعيا ان يقيم المصريون دفاعهم الرئيسى فى ام شيهان وام كتاف وعدد من التلال الصغيرة بين الكثبان الرملية ، فأقيمت مواقع المدفعية على مسافة اربعة كيلو مترات من ام كتاف ، وكانت المواقع الدفاعية هناك تتكون من شبكات من الأكياس الرملية والمخابىء ، حيث نصبت المدافع المضادة للدبابات واحد عشر مدفعا سريعا عيار ٧٦ مم مضادة للدبابات (صناعة انجليزية) ، وكان هناك من حول الموقع حاجز من الاسلاك الشائكة يمتد شمالى ام شيهان الى ما وراء الطريق الرئيسى حتى الكثبان ، وسدت حقول الألغام كل المداخل المحتملة الى المنطقة ، وامتد حاجز متصل من السلك الشائك الى ما وراء حقول الالغام محيطا بقطاعات من الطرق التى تخترق المنطقة .

ومن المعالم الاخرى الهامة لهذه المنطقة وادى العريش ، وهو جاف فى معظم السنة ، ولكن المياه تجرى به فى فصل الربيع ، وتقع منابع هذا المجرى فى قلب سيناء ، ويتدفق فى الاتجاه الشمالى الغربى مارا بالطريق الرئيسى جنوبى وغربى وصلة طريق ابو عجيلة ، وعلى مسافة ثلاثة كيلو مترات ونصف تقريبا جنوب شرقى ابو عجيلة اقام المصريون سدا كبيرا من الطوب والحجارة فوق مجرى وادى العريش ، وفى فصل الربيع واوائل الصيف يخزن هذا السد كمية ضحلة من المياه . وتمثل التلال العالية على كلا الجانبين خطا للدفاع فالمكان ملائم للتحصينات التى تحمى مؤخرة المواقع الدفاعية الرئيسية فى ام شيهان وام كتاف ، وكذلك مواقع المدفعية المساندة. وجنوب هذا الخزان يمتد قاع وادى العريش شمالا فى ممر ضيق كانت تغطيه احدى الداوريات .

كانت منطقة ابو عجيلة المحصنة جزءا من منطقة دفاعية اكبر تحتلها الفرقة الثالثة المشاة المصرية بقيادة العميد انور القاضى ، ومركز قيادتها العامة فى العريش . وكانت التحصينات بين ابو عجيلة وام كتاف فى قبضة اللواء السادس بقيادة العقيد سامى يسا ، ويتألف من الكتيبتين السادسة عشرة والسابعة عشرة ، وكانت تتبع قيادة سامى يسا فى ابو عجيلة البطاريتان الرابعة والتسعون والثامنة والسبعون المضادتان للدبابات . والى جانب ذلك ، كانت لدى العقيد يسا سرية استطلاع بسيارات الجيب ، وسريتان احتياط . وكانت الكتيبة الثامنة عشرة مشاة والبطارية الثامنة والسبعون المضادة للدبابات فى موقع ام شيهان مع سريتين احتياطيتين فى منطقة الخزان . وكانت فرقة المدفعية ترابط غربى الطرف الشمالى للجبل. وعند وصلة ابو عجيلة ، كانت تتجمع معظم وحدات المساندة من هذا اللواء وتضم مركبات ومقطورات ومطابخ تحميها فصيلة أمن قوية .

وكان موقع ابو عجيلة يتالف من خمسة خطوط متينة للدفاع والحماية، وهى : أم كتاف وام شيهان والخزان ومفترق طرق ابو عجيلة وخط المدفعية. . وكانت كل ثلاثة منها تتبادل المساندة بالمدفعية والأسلحة الصغيرة والمدفعية

المضادة للدبابات .. وكانت قيادة العقيد يسا تقع خلف موقع ام كتاف بطارية المدفعية ، وبلغ اجمالى افراد القوة التى تحت قيادته حول الثلاثة آلاف رجـل .

كانت هناك اربعة مخافر رئيسية ، تتمركز فى كل واحد منها فصيلة باسلحتها الاوتوماتيكية ومدافع الهاون ، اثنتان منها على الطريق الرئيسى والاثنتان الاخريان الى الجنوب والجنوب الشرقى .

وعلى بعد عشرين كيلو مترا جنوب شرقى ام كتاف ، كان هناك مخفر شرطة القسيمة على مسافة عشرة كيلو مترات غربى الحدود وخمسة وعشرين كيلو مترا جنوب غربى العوجة التى كان يتصـل بها بطريق ترابى . وكانت تتشعب ثلاثة طرق ترابية جنوب غربى القسيمة ، والى الغرب مباشرة هناك طريق يؤدى الى بير حسنة ، والى الجنوب الغربى يوجد الطريق الى نخل ، وكان مجرى الطريق الى الثمد يتجه الى الجنوب تقريبا .

كانت القسيمة ايضا داخل مسؤولية لواء القاضى ، التابع للفرقة الثالثة مشاة ، وكانت الوحدة الرئيسية هناك كتيبة من الحرس الوطنى تتبع اللواء السادس والعشرين ، ولكنها لم تكن قوية ، وكان من الصعب الاعتماد عليها ، وتمركزت شرقى وصلة الطريق سرية واحدة ، وتولت سرية من عربات الجيب تغطية المداخل الى القسيمة من الشمال والشمال الشرقى ، وقامت سرية اخرى من الجيش النظامى من اللواء السادس مشاة والمعززة بوحدات بازوكا المضادة للدبابات ، بحصـار المسالك السهلة للدفاع على الطريق بين القسيمة وام كتاف .. وبلغ اجمالى افراد قوة هـذه الوحدات خمسمائة رجل او اقل .

بدء التحركات الاسرائيلية :

كانت قد خصصت لفرقة الكولونيل والاش ثلاثة الوية ، كما وضع تحت تصرفه ايضا اللواء الميكانيكى السابع والثلاثون اذا ما احتاج اليـه فى الاستيلاء على ابو عجيلة ، ولكن ستكون سلطته فى تلك الحالة محدودة بالنسبة لذلك اللواء ، الذى من الممكن استدعاؤه فى اية لحظة من جانب القيادة الجنوبية او مركز القيادة العامة ، لمساندة احدى الفرق الخاصة الاخرى .. وكانت سلطته ايضا محدودة بالنسبة للواء السابع المدرع ، ولكن بطريقة اخرى .

كان المقرر الا تقوم اية وحدة مدرعة باجتياز الحدود قبل مساء الحادى والثلاثين من اكتوبر ، بعد التأكد من ان التدخل البريطانى الفرنسى يسير حسب ما تم الاتفاق عليه فى « سيفر » .. لذلك كان فى وسع والاش ان يعتمد فى اليوم والنصف الأولين على استخدام لواءيه المشاة فقط ، همـا

الرابع والعاشر . وعهد الى اللواء الرابع بمهمة الاستيلاء على القسيمة فى مطلع الثلاثين من اكتوبر تمهيدا لهجوم شامل من جانب اللواء العاشر على موقع ام كتاف فى صبيحة اليوم التالى .

وخلال ليلة ٢٩/٣٠ اكتوبر ، تقدم اللواء الرابع مشـاة تحت قيادة الكولونيل جوزيف هارباز ، وفقـا للخطـة ، مبتدئا من بيت هابير جنوبى نيتسـانا ، وكانت امام اللواء ثلاث مهام : كان عليه ان يشق طريقا الى بير حسنة عبر القسيمة ، وان يستعد لشق طريقه الى نخل لمساندة المظليين عند الضرورة ، وان يعزل الجناح الجنوبى لتحصينات ابو عجيلة/ام كتاف لامكان تطويق هذا الموقع الدفاعى الحيوى اذا فشل الهجوم التالى من جانب اللواء العاشر مشاة .

وبالرغم من وصول لواء هارباز الى نقطة انطلاقه فى الوقت المحدد بعد ظهر التاسع والعشرين ، الا انه كان فى حالة ارتباك ، حيث انه فى التعبئة السريعة بارح منطقته دون أن يكون لديه ما يكفيه من المركبات ، ولم تكن لديه سوى ثلث احتياجاته من الذخيرة .. واثناء زحفه فقد مزيدا من المركبات بسبب نفس متاعب الرمال التى خلقت الكثير من المشاكل للواء المظلات المائتين واثنين .

ومع ذلك ، تحرك اللواء بعد منتصف الليل بقليل عبر الحدود ، وتقدمت الكتيبة الثانية على اليمين نحو القسيمة ، بينما تحركت الكتيبة الثالثة نحـو مرتفعات جبل صبحة على الحدود .

وقبل الفجر بقليل ، صعدت كتيبة هارباز الثالثة الى قمة الجبـل فوجدتها خالية ، وواصلت سيرها غربا حيث فاجأت كتيبة الحرس الوطنى وحوالى السادسة صباحا ، بينما اخذت الكتيبة الثانية تشـن هجومها من الشمال الشرقى . وبحلول الساعة السابعة صباحا ، كانت الكتيبتان قد تغلبتا على المقاومة الضعيفة وغير الفعالة ، واستولت على القسيمة .. وانسحب المدافعون اما الى بير حسنة فى الاتجاه الجنوبى الغربى ، واما الى الشمال الغربى الى ابو عجيلة .

وبعث هارباز فى الحال بداوريتى استطلاع لتطهير اية مواقع مقاومة على الطرق الى الشمال والجنوب : الى الثمد والكنتلة ونخل وبير حسنة . وانطلقت داورية اخرى شمالا الى ام كتاف ، وفى العاشرة والنصف عادت الداوريتان ، حيث ابلغتا بنظافة الطرق الى الكنتلة ونخل وبير حسنة ، ولكن بعد ذلك بقليل عادت الداورية الاخرى لتبلغ ان المصريين ثابتون على سكة ابو المطامير على الطريق الى ابو عجيلة وام كتاف .

ف ذلك الوقت ، كان مع اللواء الرابع فى القسيمة عناصر من لواء المدرعات السابع بقيادة الكولونيل أورى بن آرى ، ولم يكن وجود دبابات بن آرى فى القسيمة تنفيذا للخطة الأصلية ، فقد كانت أوامر ديان محددة تماما : « ليس للواء المدرع أن يعبر الحدود الى سيناء الا بعد فجر الحادى والثلاثين » ، اى عندما يتقرر ما اذا كان سيجرى هجوم على نطاق واسع ، ام ان لواء المظلات المائتين واثنين سيقوم بمجرد اغارة على ممر متلة .

فى التاسع والعشرين ، كان الجنرال سيمهونى يشعر بالقلق بالنسبة للواء الرابع مشاة ، ومايواجهه من صعوبات فى الوصول الى نقاط تجمعه. وانتابه الشك فيما اذا كان فى وسع اللواء الوصول فى الوقت المحدد للاستيلاء على المكان عند الفجر ، لانه اذا كان المصريون متيقظين فقد يتمكنون من تعزيز استحكاماتهم فى القسيمة ويتخذون منها قاعدة لعزل المظليين جنوبا.

وبسبب التكتم الذى تم به اعداد الخطط ، لم يدرك سيمهونى ان الحد من مهام اللواء السابع المدرع كان مرتبطا (بأوامر مباشرة من رئيس الوزراء بن جوريون) بالتأكد من اشتراك فرنسا وبريطانيا فى الحرب ، ولكنه كان يدرك ان للاستيلاء على القسيمة اهميته لامكان استخدامها ضد لواء شارون، لذلك لم يجد مبررا لأن تظل قوة عسكرية هامة وسريعة التحرك معطلة ، فبعث باوامره بعد منتصف الليل بقليل الى بن آرى كى يرسل جزءا من لوائه ليعبر الحدود فى الفجر ، وليصل الى القسيمة باسرع ما يمكن . وبعث بن آرى بقوة خاصة من عنده مكونة من سرية دبابات وسرية مركبات نصف جنزرة .

واتضح بعد ذلك ان الامر لم يكن يحتاج فى القسيمة الى سرية الدبابات .. فعندما وصلت الكتيبة فى السابعة صباحا كان اللواء الرابع قد وصل اليها فعلا ، بينما كان المصريون ينسحبون .. وأطلقت الدبابات عدة طلقات للتعجيل بذلك الانسحاب .

وعلى اية حال ، فانه بمجرد اطلاق هذه النيران ادرك المصريون وجود القوات الاسرائيلية عبر حدود سيناء . ولما راى سيمهونى انه لا معنى من الاستمرار فى التكتم حول مهمة قواته ، قرر ارسال بقية اللواء الى القسيمة، حيث يكون عليها أن تساعد من تلك النقطة هجوم اللواء العاشر ضد ابو عجيلة .

ولما اتم اللواء السابع المدرع مهمته ، لم يجد سيمهونى ما يدعو لتاجيل خطة الهجوم على ابو عجيلة ، والذى كان من المقرر ان يتم فى الحادى والثلاثين من اكتوبر .. فأصدر امره الى والاش بارسال اللواء العاشر مشاة عبر الحدود مباشرة لمهاجمة ام كتاف بعد حلول الظلام مباشرة .. كذلك تم التعجيل بموعد هجوم اللواء المدرع السابع واللواء الرابع مشاة من الجنوب.

وبمجرد ان تلقى الكولونيل بن آرى التعليمات بالتقدم الى القسيمة والاستعداد للقيام بعملياته ضد ابو عجيلة ، أمر بقية اللواء بالخروج الى الطريق .. وسارع بنفسه الى القسيمة ، وفى الطريق بعث بتعليمات لاسلكية الى فريقه المقاتل الموجود فى القسيمة لاستطلاع طريق ابو المطامير ، فاذا وجده مفتوحا فعليه ان يتقدم الى قرب ثلاثة كيلو مترات من تحصينات ام كتاف، وانتظار اوامر اخرى .

وكنتيجة لسوء فهم ، او لتبليغات خاطئة ، اندفعت طلائع فصيلة المجموعة القتالية التابعة للجنرال بن آرى الى طريق ابو المطامير الذى يبدو ان المصريين كانوا قد انسحبوا منه ، ووصلت الى قرب ستمائة متر من موقع ام كتاف فى الساعة الثانية عشرة والنصف ، وعند هذه النقطة ، فوجئت الدبابات الاسرائيلية بنيران المصريين من مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات . وتسبب القصف المحكم من جانب المصريين فى تدمير او اعطاب دبابتين او ثلاث دبابات اسرائيلية ، ومثل هذا العدد تقريبا من المركبات نصف الجنزرة ، وبعد قليل توارى عن الانظار ما تبقى من الدبابات الاسرائيلية او المركبات نصف المجنزرة .

ثم عاد الاسرائيليون يتقدمون بدباباتهم غربا عبر التلال ، ولكن فى مزيد من الحذر .. غير ان المصريين كانوا يقظين ، وفتحوا نيرانهم بمجرد ظهور الدبابات الاسرائيلية ، وتبودل اطلاق النار من جديد ، فتراجع الاسرائيليون بعد ان لحقت بهم بعض الخسائر .

وصل بن آرى بعد دقائق قليلة وأمر فريقه المقاتل بأن يبقى مكانه مع استمرار التعامل مع القوات المصرية ، ثم عاد الى القسيمة حيث طلب اليه ان يشترك فى اجتماع مع الجنرال ديان والجنرال سيمهونى والكولونيل والاش .

بعث بن آرى بوحدة استطلاع ليرى ما اذا كان من الممكن مهاجمة موقع ابو عجيلة من الخلف .. كان الطريق يبلغ اثنى عشر ميلا تقريبا ، ويتصل بالطريق الذى يمتد من الاسماعيلية والعوجة وابو عجيلة وبير سبع الى الطريق الموازى جنوبى القسيمة عبر بير حسنة الى السويس ، وبينما كانت الدبابات الاسرائيلية تقترب من مدخل الممر ، قامت فصيلة مصرية بنسف الجسر فوق وادى العريش ، ثم انسحبت ، ولكن ذلك لم يؤثر جديا فى تحرك الدبابات ، التى واصلت تقدمها عبر الممر ، ووجده الاسرائيليون مهجورا ، فتقدموا الى نقطة تبعد حول الكيلومترين جنوبى موقع الخزان .

وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحا ، وصل رئيس الأركان الجنرال موشى ديان بطائرة هيليكوبتر الى القسيمة ، واستشاط غضبا اذ وجد دبابات اللواء السابع فى القسيمة ، منتهكة بذلك اوامره ، وقبل أن يحقق فى

الأمر ، امر هارباز ان يرسل قوة خاصة الى نخل لتتصل هناك بلواء المظلات، اختار هارباز سرية لواء الاستطلاع ، وسريتين مشاة ، احداهما بمركبات نصف مجنزرة ، والأخرى بسيارات اتوبيس .. وتحركت هذه القوة فى الاتجاه الجنوبى الغربى قبل حلول الظلام . وبعد ثلاث ساعات ، عادت فصيلة البنادق بسيارات الاوتوبيس حيث عجزت السيارات عن اجتياز الرمال على الطريق الى نخل ، وواصلت بقية القوة سيرها ، حيث اتصلت بلواء شارون بعد منتصف الليل بقليل ، وظلت بقية قوة اللواء الرابع بالقرب من القسيمة، مستعدة لتطويق الجناح الجنوبى من موقع ام كتاف/ابو عجيلة ، بمجرد ان تحرك اللواء العاشر ضد التحصينات فى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى .

عندئذ ركز ديان اهتمامه على العمل الذى قام به اللواء السابع المدرع قبل موعده ، ولكن بعد ان افرغ جعبة غضبه ، وجعل الجنرال سيمهونى يدرك تماما كيف كان شعوره ، اخذ ديان يبحث بطريقة فلسفية فيما يمكن وفيما يجب عمله تحت الظروف المتغيرة ، وعندما ابلغه بن آرى بعد الظهر بقليل ان دباباته قد منيت بخسائر فادحة فى المحاولتين اللتين قامت بهما.عند تحصينات ام كتاف ، قرر ديان ان من الأفضل الاستيلاء على تلك التحصينات بالمشاة كما كان مقررا من قبل .

كان اللواء السابع جاهزا ، وقرر ديان ان يستغله ، فامره بأن يتجاوز ابو عجيلة ، وان يواصل تقدمه غربا عبر سيناء ، سواء عن طريق جبل لبنى على المحور الشمالى الأوسط الى الاسماعيلية ، أو بير حسنة على المحور الجنوبى الأوسط الى السويس . وطبقا لطريقته لم يعط اوامر حاسمة ، بل مجرد ابلاغ القادة المعنيين : الجنرال سيمهونى فى القيادة الجنوبية ، والكولونيل والاش قائد قوات المهام الخاصة ، والكولونيل بن آرى قائد المدرعات ، بأن عليهم ان يستخدموا قواتهم بأقصى فاعلية ممكنة ، ثم استقل ديان طائرته الهيليكوبتر ، وطار لمقابلة شارون .

رد الفعل المبدئى لمصر :

عندما بدات المجموعة المصفحة من اللواء السابع مدرعات اول تحرك لها ضد ام كتاف فى الثانية عشرة والنصف تقريبا ، وأدرك العقيد يسا أنها لا تعدو ان تكون صغيرة ، بدا يعد للقيام بهجوم مضاد ، وبينما هو بصدد اعداد ذلك ، وقد التف رجاله من حوله يتلقون أوامره ، قامت الدبابات الاسرائيلية بمحاولتها الثانية .

وفى تبادل اطلاق النار أصيب العقيد يسا فى صدره بشظية قذيفة ، وكان يبدو اولا انه لم يصب ، غير ان ضباطه شاهدوا بقعة حمراء فوق سترته ، وفجأة انهار يسا ، وسقط فاقدا الوعى ، وعندما هرع رجاله

لاسعافه ادركوا انه لم يصب فعلا بجراح ، فقد اخترقت الشظية قلم حبر احمر فى جيبه ، وان البقعة التى ظن الجميع انها دم لم تكن سوى الحبر ، غير ان صدمة التجربة والضربة القوية على قلبه كانت شديدة جدا على العقيد يسا الذى يبدو انه كان يعانى اما من ازمة قلبية او من انهيار عصبى ، وتم نقله بعد الظهر الى العريش ومنها بالطائرة الى القاهرة .

وعندما اندلعت هذه الحرب مع اسرائيل كان الضابط الثانى بعد العقيد يسا موجودا بالاجازة فى القاهرة . وهنا امر العميد القاضى العميد سعد الدين متولى ، قائد اللواء الرابع مشاة ، وكان عندئذ بالعريش ، ان يتولى القيادة فى ابو عجيلة ، ووصل متولى الى الموقع وتسلم القيادة فى الخامسة مساء ذلك اليوم .

وفى نفس الوقت ادرك القاضى أن هذا كان هجوما اسرائيليا على نطاق واسع ، واصدر امره الى السريتين الملحقتين بالكتيبة السابعة عشرة لتعزيز ام شيهان وام كتاف بمجرد استبدالهما بالتعزيزات التى دفع بها الى العريش، وهى الكتيبة الثانية عشرة مشاه من اللواء الرابع ، مع بطارية مدفعية ميدان ، ومدفعية مضادة للدبابات، وبعد منتصف الليل بقليل وصلت التعزيزات المصرية الى المواقع الدفاعية فى ابو عجيلة .. وسرعان ما تحركت سريتا الكتيبة السابعة عشرة الى ام شيهان ، واصبح لدى الكابتن زهدى اربعة عشر مدفعا مضادا للدبابات فى موقع ام كتاف/أم شيهان ، وهى قوة لها وزنها فى مقاومة هجوم المصفحات الاسرائيلية .

الهجمات الأولى :

بعد الظهر ، وبمجرد ان غادر ديان القسيمة ، تلقى بن آرى تقريرا يتضمن ان جماعة الاستطلاع قد تغلغلت فى ممر (ضيقة) ، هذا يعنى امكان ضرب تحصينات ابو عجيلة من الخلف ، ولما كان هذا الموقف معروفا لرئيس هيئة اركان حرب عندما اصدر اوامره الأولى ، وافق الكولونيل والاش على ما طلبه بن آرى من ترك جزء من لواء الدبابات لمهاجمة مواقع ابو عجيلة والخزان من الخلف ، ولكنه امر بأن يتم ذلك بالتنسيق مع خطة الهجوم على ام كتاف من الشرق من جانب اللواء العاشر مشاة .

وتمشيا مع تعليمات الجنرال ديان ، التى تعدلت بعد حديثه مع الكولونيل والاش ، امر بن آرى كتيبته بالزحف نحو بير حسنة ، وبأن تصل الى هنالك بعد حلول الظلام مباشرة ، وبمجرد أن وصلت من القسيمة كتيبة من اللواء الرابع مشاة لتحل محل القوة المصفحة جنوبى ام كتاف انضمت سريتاها لكتيبة دبابات شيرمان وكتيبة المركبات نصف المجنزرة .. وكان على هاتين الكتيبتين بقيادة اللفتنانت كولونيل افراهام ادان ، من كتيبة

الشيرمان ، ان تتحركا عبر ممر (ضيقه) لمهاجمة موقع الخزان بالتنسيق مع هجمات اللواءين العاشر والرابع على أم كتاف .

ووفقا لخطط سيمهونى العاجلة ، كان على اللواء العاشر مشاة بقيادة الكولونيل شموئيل جودير ان يصل امام مواقع ام كتاف / ام شيهان بعد حلول الليل بقليل من الثلاثين من اكتوبر . وعندئذ يقوم اللواء العاشر بالهجوم .. وفى نفس الوقت تقوم كتيبة اللواء الرابع بالهجوم من الجنوب بينما تقوم قوة ادان بضرب موقع الخزان من الغرب .

كانت النتائج الأولى لهذا الهجوم — الذى كان تخطيطه قد تم على عجل وبعيدا عن التنسيق الفعال — مخيبة للآمال ، وعلى حين فجأة تعرضت للتدمير عند ممر (ضيقه) كتائب الدبابات والمركبات نصف المجنزرة التابعة للواء السابع المدرع ، وكانت بعيدة جدا عن موقع الخزان عندما بدأ اللواء الرابع مشاة هجومه ، ودون أى تفسير ، لم يتم تحذير كتيبة اللواء الرابع مشاة جنوبى موقع ام كتاف .. وعندما اصبحت مستعدة لمساندة هجوم اللواء العاشر كانت العملية قد انتهت .

ومن طابور الزحف ، سارت قدما الكتيبة الأمامية للواء العاشر مشاة على الطريق المؤدى الى موقع أم شيهان ، وتعرضت لوابل من القصف المحكم المكثف من مختلف الأسلحة ، وتمكنت المدافع المصرية من تدمير عدة مركبات نصف مجنزرة اسرائيلية .. وانتهى الهجوم قبل ان يبدأ .. وقضى الكولونيل جودير بقية الليل فى محاولة تجميع لوائه على منتصف الطريق المؤدى الى أم كتاف ، وعند الفجر ، كانت لا تزال على الطريق فلول من الوحدات التى انتشرت دون نظام ، ولم يكن اللواء العاشر مستعدا لاستئناف الهجوم .

فى نفس الوقت ، استغرقت كتيبة دبابات ادان عشر ساعات فى الوصول الى ممر (ضيقه) فى الخامسة مساء ، تقدمت فى الحادى والثلاثين من اكتوبر بصحبة سرية مركبات نصف مجنزرة لتزحف الى ابو عجيلة (وكان الكولونيل بن آرى قد اسرع بسحب ما تبقى من الكتيبة لتقوم بمهمة اخرى) .. وطبيعى ان المصريين فى مواقع الخزان وابو عجيلة قد سمعوا تحرك القوة الاسرائيلية المدرعة اثناء الليل .. وعندما اصبح الاسرائيليون على بعد ثلاثة كيلومترات من المواقع المصرية تعرضوا لقصف من المدفعية الذى كان بالغ الدقة والاحكام رغم حلول الظلام .

ونتيجة لعمليات الاستطلاع الأولى قرر ادان ان يبدأ بضرب وصلة طريق ابو عجيلة ، ثم العودة لمهاجمة موقع الخزان ، وفى الخامسة والنصف صباحا كانت دبابات ادان على بعد مائتى متر من الاستحكامات على وصلة الطريق .. وهناك واجهتها نيران المدفعية المضادة للدبابات ونيران الرشاشات ، وحاولت الدبابات فى تراجعها تطويق الموقع من الغرب .

ولكنها وجدت حافتى وادى العريش على درجة من العمق والانحدار تجعل من الصعب اجتيازهما ، غير ان الوضع فى حافة الوادى اتاح قصف الاستحكامات المصرية ، وتحت غطاء من نيران الدبابات انطلقت سرية المركبات نصف المجنزرة عبر الوادى عند نقطة سهلة العبور واقتحمت الموقع المصرى عند وصلة الطريق ، وسرعان ما استسلم الموقع ، وفى الوقت نفسه تم صد هجوم جانبى من موقع الخزان .. وفى الساعة السادسة والنصف كانت مفارق الطرق فى يد الاسرائيليين . وعندما حاول المصريون التسليم رفض ادان ان يأخذهم اسرى ، تنفيذا لأوامر بن آرى ، بل ارسلهم شمالا الى العريش لانه لم يشأ ان يثقل نفسه بعبء الأسرى .

وفى العريش ، علم العميد القاضى باستيلاء الاسرائيليين على مفارق طرق أبو عجيلة ، فبعث بالكتيبة العاشرة مشاة من اللواء الرابع تعززها سرية من الدبابات ، للقيام بهجوم مضاد من الشمال ، وبعث برسالة لاسلكية الى البريجادير متولى ، القائد الجديد للواء ابو عجيلة / أم كتاف للقيام بتنسيق هجوم من أم كتاف ضد الاسرائيليين فى ابو عجيلة .

علم ادان بتحرك المصريين من العريش عن طريق الاستطلاع الجوى الاسرائيلى ، وقام باعادة توزيع دباباته الشيرمان والمركبات نصف المجنزرة شمالى وصلة الطريق .. وفى نفس الوقت وجد قواته وقد انهالت عليها النيران من موقع الخزان ومن المدفعية من الجبل .

كانت قوة الهجوم المضاد المصرى هائلة ، وكاد أن يكلل بالنجاح ، وبعد الظهر اقتربت من الشمال كتيبة المشاة الميكانيكية العاشرة بدباباتها ومدافعها ، ولكن عندما انتشرت للهجوم قصفتها المقاتلات الاسرائيلية العديدة ، وثبت المصريون فى موقعهم ، ولكنهم عدلوا عن خطة الهجوم .

واصلت الدبابات القصف المتقطع على ابو عجيلة على بعد عدة آلاف من الأمتار .. وفى نفس الوقت تقريبا قامت كتيبة من ام كتاف تعززها المدفعية ، وزحفت من الشرق تحت غطاء من نيران المدفعية والمدافع المضادة للدبابات ، ونجحت دبابات ادان الشيرمان فى التبادل المكثف للنيران من صد الوحدات المهاجمة الى ام كتاف . ولو كانت القوتان المصريتان نسقتا هجومها ، وركزتاه على قوة ادان ، لكان من المشكوك فيه امكانه البقاء فى أبو عجيلة .

وفى الرابعة مساء ، وبعد استراحة قصيرة ، واصل ادان مهمته فى مهاجمة موقع الخزان ، وترك سرية دبابات لحماية مؤخرته عند مفترق الطريق ، وقام بهجوم منسق وقوى بالمركبات نصف المجنزرة مع ما تبقى لديه من دبابات ، ثم قام بتطويق الموقع من الشمال ونجح فى احتلال الاستحكامات فى الشمال الغربى عند حلول الظلام . ولكن كانت كل دباباته ومعظم مركباته نصف المجنزرة قد اصيبت خلال القتال الضارى ، ولما وجد من الصعب

تنسيق نشاط عناصره المبعثرة فى الظلام ، سحبها من الموقع الذى كانت استولت عليه ، واخذ فى تجميعها بالقرب من مفارق الطرق ، ثم بادر على الفور بتوزيع قواته للدفاع ، بينما اخذ فى اصلاح ما عطب منها ، وفى الساعة الثانية صباحا وصلت قافلة امداد فاتاحت لجنوده تزويد العربات بالوقود ، والاسلحة بالذخيرة .

وقرب الساعة التاسعة مساء ، قامت سرية المشاة المصرية ، التى كانت قد عادت لاحتلال موقع الخزان ، بهجوم مضاد على الدبابات الاسرائيلية تعززه نيران المدفعية من الجبل ، ووصفت التقارير الاسرائيلية عن المعركة ذلك الهجوم المضاد بانه كان شرسا وقويا ، نفى المؤرخ المصرى الرسمى ان ذلك كان نشاطا عاديا للداوريات .. وعلى اية حال ، كان تبادل النيران ثقيلا ، وكانت الخسائر عديدة لدى كلا الجانبين .

وفى نفس الوقت ، ازداد قلق كل من الجنرال ديان والقائد العام للقيادة الجنوبية البريجادير جنرال سيمهونى ، ونفد صبرهما ازاء تصرف معظم القوة الخاصة المركزية . فبينما كان بن آرى وكتائبه الثلاث المدرعة ونصف المجنزرة تزحف وتقاتل دون توقف ليلا ونهارا ، كان اللواء الرابع لا يعمل سوى القليل نسبيا فى منطقة القسيمة ، كما ان اللواء العاشر لم يقم بعمل شىء شرقى أم كتاف .

وتحت ضغط مباشر من الجنرال ديان ، استطاع الكولونيل جودير فى النهاية ان يعيد تنظيم اللواء العاشر واعداده لهجوم جديد على أم كتاف فى الثامنة والنصف من صباح الحادى والثلاثين (بعد استيلاء ادان على مفترق الطرق بقليل) .. ولكن يبدو انه لم يستطع تنسيق نشاط سرية دباباته او مدفعيته مع هذا الهجوم ، وقامت سرية الاستطلاع من لوائه وقرابة نصف كتيبة اللواء الأمامية بعرباتها نصف المجنزرة وشاحناتها ، بالزحف على جبهة عريضة عبر ثلاثة آلاف متر من الأرض المكشوفة ، متجهة الى أم كتاف دون اى تعزيز من المصفحات او المدفعية ، غير أن القصف المحكم من المدفعية المصرية عمل على اخفاق هذه المحاولة الحمقاء .. وفى نفس الوقت ، قام مخفر محصن تحتله فصيلة من الجند بصد محاولة أخرى جنوبا .

تأكد هذا الفشل التام بعد الظهر ، وعند منتصف الليل فقط علم فى المساء ان كلتا الكتيبتين قد ضلت الطريق فى الظلام ، ولم يتم الهجوم على أم كتاف ، فأمر بعزل الكولونيل جودير من القيادة ، ليحل محله الكولونيل اسرائيل تال ، وصدرت الأوامر للواء الميكانيكى السابع والثلاثين ليتحرك على الفور للانضمام الى قيادة والاش المركزية ، ويتقدم كراس حربة فى هجوم جديد على أم كتاف .

وبعد ان أتمت الكتيبة نصف المجنزرة من اللواء السابع والثلاثين زحفها الطويل ، استعدت للهجوم فى الساعة الثانية صباحا من أول نوفمبر ، وفى

الساعة الثالثة لم تكن كتيبة دبابات الكولونيل شمويل جولندا ، قائد اللواء ، قد وصلت بعد ، مما أثار غضبه ، وهنا قرر الكولونيل جولندا القيام بالهجوم بمشاته فقط ، اى بالكتيبة نصف المجنزرة وكتيبة مشاة ميكانيكية ، وفى الساعة الثالثة والنصف تحرك الطابور من وراء أنواره الكشافة ، استقبل المصريون الزحف الاسرائيلى بوابل من نيران المدفعية والمدافع المضادة للدبابات فألحقت بالاسرائيليين خسائر فادحة . ومع ذلك اندفع الاسرائيليون فى سرعة ، ودخلت المركبات نصف المجنزرة الباقية حقل الألغام الذى كان يحيط بالموقع المصرى ، وسرعان ما اصيب معظمها او تعطل بسبب الألغام ونيران المصريين .

ولقى الكولونيل جولندا مصرعه ، واصيب معظم ضباطه بجراح ، واصبح واضحا ان من المستحيل مواصلة الهجوم ، وتحت غطاء من نيران مدفعية اللواءين العاشر والسابع والثلاثين ، انسحب من تبقى بعد ذلك الهجوم المنحوس ، وحملوا جرحاهم الثمانين .

وبعد الفجر ، قام اللواء السابع والثلاثون بهجوم آخر بالدبابات محاولا ان يشق طريقه بين الموقعين المصريين الرئيسيين ، ولكنه تراجع امام قصف النيران المضادة للدبابات وكان قصفا محكما من جانب المصريين .

وفى نفس الوقت الذى شن فيه هذا الهجوم ، قررت القيادة العامة فى تل ابيب وقف اى هجوم آخر على أم كتاف .. وانتهت بذلك معركة ابو عجيلة ، ولو ان المصريين المنتصرين لم يكونوا قد علموا بعد بهذه الحقيقة .

(٥)

معـــركة ممــر متلا

٣٠ اكتــوبر ــ اول نوفمبر

بعد التاسعة من صباح الثلاثاء الثلاثين من اكتوبر ، هاجمت طائرات الميج المصرية موقع المظليين بالقرب من ممر متلا ، فأصابت طائرات الكتيبة الاسرائيلية الرابضة بأرض المطار ، كما اصابت اربعة رجال بجراح ، وفى نفس الوقت ابلغ المخفر على الطريق غربى موقع الكتيبة ان طابورا ميكانيكيا مصريا صغيرا قد ظهر شرقى الممر (وكان الطابور طليعة الكتيبة الخامسة مشاة) ، فأمر الكولونيل ايتان بفتح نيران مدافع الهاون على هذا الطابور ، وبعث برسالة لاسلكية يطلب تعزيزا جويا ، وأخذ يستعد للمعركة .

وبمجرد تعرض المصريين لهذا القصف من مسافة اربعة كيلومترات غربى الجبل ، قفزوا من حافلاتهم ، وانتشروا فى خط للمناوشة ، وأخذوا يردون على نيران الاسرائيليين ، وتحركت وحدات اضافية مصرية حاولت صد اجنحة القوة الاسرائيلية ، ولكن ايتان اوقفها ، وحاول القيام بمناورة ضد جناحى القوة المصرية . استمرت القوتان متشابكتين زهاء الساعة فى معركة صغيرة دون اية نتيجة حاسمة ، وظل المصريون يسيطرون على مدخل الممر . وعندما وصلت الطائرات النفاثة الاسرائيلية وقت الظهيرة ، سحب ايتان وحداته وترك الميدان لسلاح الطيران .

انقضت الطائرات الاسرائيلية بالصواريخ والقنابل على مواقع الهاون والمشاة المصرية ، ثم ركزت اهتمامها بعد ذلك على قافلة مصرية كبيرة كانت تتحرك فى نفس الوقت شرقى الممر ، وكانت هى القوة التى تبقت من اللواء المصرى الثانى والكتيبة الخامســة ، رد المصريون على نيران الطائرات الاسرائيلية بالمدافع الخفيفة المضادة للطائرات ، ولكنهم لم ينجحوا فى طرد المهاجمين ، وتتالت موجات الطائرات الاسرائيلية تقصف الطابور المرابط بالقطاع الغربى من الممر ، وترتب على ذلك اشتعال النار فى العــديد من المركبات .

وعندما انتهت مع غروب الشمس هذه المعركة التى كانت من طرف واحد ، شعر السلاح الجوى الاسرائيلى بالارتياح ، اذ راى انه قد تم تدمير الطابور المصرى كقوة مقاتلة متماسكة .

زحف شــارون

٣٠ ــ ٣١ اكتوبر

فى نفس الوقت واصل لواء المظلات زحفه غربا عبر شبه الجــزيرة ، وفى الثالثة صباحا فى الثلاثين من أكتوبر ، وصلت طلائعه الى بير الثمادة ، وسرعان ما استولت عليه وحدة الاستطلاع التابعة لهذا اللواء ، وكان الموقع الحصين على الثماد ، على مسافة خمسة أميال من البئر ، يقوم على الصخور على كل الجانبين ، يليه حوض المجرى الجاف لوادى العقبة . كانت الأسلاك الشائكة وحقول الألغام فى قاعدة الصخور تحمى هذا الموقع الذى كانت تحتله سريتان مصريتان من الفرقة الثانية الميكانيكية (وحدة من خمس سريات) وبعض قوات الحرس الوطنى .

وفى السادسة صباحا ، تقدمت نحو المعاقل المصرية وحدة الاستطلاع وجانب من الكتيبة الثانية ، وقوة من أربع دبابات ، غير ان احدى الدبابات انقلبت بعد قليل فى الأرض الوعرة وأخذ المصريون يطلقون النـــار من أسلحتهم الصغيرة ولكن دون فعالية ، حيث كانت تواجههم أشعة الشمس بوهجها . لقد كانت مجرد وحدة شرطة لا تملك مدافع مضادة للدبابات . ظل الاسرائيليون لمدة قصيرة يدكون الموقع بمدافع الهاون ، ثم بدأوا الهجوم تحت ساتر من دخان هذه المدافع ، كان المصريون اقل عددا ولكنهم دافعوا ببسالة .. واجتاحهم الاسرائيليون بسرعة .

وفى الساعة السابعة والنصف صباحا ، توقفت المقاومة حيث انسحب من تبقوا من القوة المصرية الى نخل ، تاركين وراءهم خمسين قتيــلا بمــا فيهم جميع ضباط الوحدة ، وما يقرب من هذا العدد من الجرحى الذين تم أسرهم . وبلغت خسائر الاسرائيليين اربعة قتلى وستة جرحى ، فى ذلك الاشتباك القصير .

قضى شارون سحابة النهار فى اجلاء المصابين الاسرائيليين والمصريين، مع تركيز اللواء على الاندفاع نحو نخل ومنها الى الممر ، وفى الساعة الثامنة وصلت الى اللواء كميات من الوقود وقطع الغيار والامدادات التى أسقطت جـوا ، وبعد التاسعة بقليل ظهرت الطائرات الميج الأربع التى كانت هاجمت الكتيبة الأولى عند « التمثال » ، وقامت بهجومين عنيفين أسفرا عن جـرح ثلاثة اسرائيليين .

وفى الحادية عشر صباحا بدات تصل على مهل الكتيبة الثالثة والمدفعية، وفى هذا الوقت تلقى شارون تقارير لاسلكية عن الهجوم الجوى والبرى على موقع « التمثال » ، فبادر باصدار الأمر بالزحف الى نخل ، مقر القيادة العامة لكتيبة الحدود المصرية الميكانيكية الثانية .. وقوامها سريتان ، وفى الواحدة بعد الظهر بدأ الطابور يتحرك من جديد ، تتقدمه الكتيبة الثانية

وفى الخامسة بعد الظهر ، اقترب المظليون من نخل ، وسرعان ما انتشروا وبدأوا الهجوم ، تساندهم تجهيزات المدفعية ، وبعد تبادل قصير للنيران انسحب المدافعون وفى الساعة الخامسة والخمس وعشرين دقيقة تم تأمين الموقع .. ووجه شارون الكتيبة الثالثة لترابط فى نخل ، وواصل الزحف بما تبقى من اللواء شطر « التمثال » ، وفى الساعة العاشرة والنصف مساء انضم الى كتيبة ايتان بعد اقل من ثلاثين ساعة من اجتيازه الحدود ، وبالرغم من ان المقاومة كانت ضعيفة ، فان الزحف لمسافة مائتين وخمسين كيلومترا فى مدة تزيد قليلا على يوم واحد ، يعتبر انجازا هاما ، يرجع الفضل فيه الى الكولونيل اربيل شارون ، ذلك القائد الصارم ، المغامر ، النشط .

داورية شارون :

فى ساعة مبكرة من صباح الاربعاء الحادى والثلاثين من اكتوبر ، تام شارون ، بعد استراحة قصيرة لنفسه ولوائه ، بتفقد التوزيع الدفاعى لكتيبة الكولونيل ايتان ، وكان يتوقع أن يجدها متقدمة غربا بين « تمثال باركر » ومداخل ممر متلة .. وكان يشعر بشىء من القلق من أن الموقع كان مكشوفا فى قلب الصحراء ، كانت اقرب نقطة اسرائيلية اليه موجودة على مسافة مائة وخمسين كيلومترا ، بينما كان يعلم من تقارير طائرات الاستطلاع بوجود لواء مصرى مدرع جنوبى بير الجفاجة على بعد ثلاثين كيلومترا تقريبا .

لم تكن لدى شارون سوى ثلاث دبابات صالحة للعمل . وقبل التحرك مباشرة تلقى دفعة جديدة من البنادق الفرنسية ولكن لم يكن لديه رجال مدربون عليها ، وكان يبدو انها تفتقر الى بعض الأجزاء الجوهرية ، أو بمعنى آخر كانت عديمة الفائدة ، عندئذ بدا من الضرورى ان يتحرك الى ارض اكثر ارتفاعا واكثر سهولة فى الدفاع عنها ، وشعر بأن عليه أن يحتل المدخل الشرقى للممر ، او على الأقل أن يتحرك الى الأرض المرتفعة الوعرة شرقى الممر مباشرة ، حيث يتسنى له حصار وادى المليز الذى كان يبدو طريقا للاقتراب من القوة المصرية فى بير الجفجافة .

كان قد قيل لشارون الا يدخل فى معركة كبرى ، والا يدخل اى تغيير فى الترتيب الأصلى الذى وضعته الكتيبة الأولى الا بموافقة القيادة العامة ، لذلك طلب منها الترخيص له فى التحرك الى الطرف الشرقى للممر .. ومما اثار دهشته ان طلبه قد قوبل فورا بالرفض .

كانت هيئة اركان حرب العامة الاسرائيلية على صواب فى قرارها برفض مطلبه ، فقد كانت الامور هادئة نسبيا على المحور الجنوبى بالقرب من الممر منذ عصر اليوم السابق ، ولم تشأ هيئة اركان حرب العامة اثارة المصريين فى هذه المنطقة بحركة لتأمين الطرف الشرقى للممر ، ولما تحركت

القوات المصرية من الاسماعيلية الى بير الجفجافة ، تأهبت لضرب المظليين من الشمال بقوات ساحقة (كما ادرك شارون) ، ولكن القيادة العامة تصورت ان شارون لن يتعرض لهجوم من الشمال لو انه ظل هادئا ولم يتحرك ، لم تكن قوة السلاح الجوى المصرى واضحة حتى الآن ، ولم تشأ القيادة العليا التورط فى معركة يكون من شأنها تحويل الدعم الجوى الاسرائيلى عن اللواء المدرع السابع واللواء المشاة العاشر اللذين كانا منهمكين فى المعركة عند ابو عجيلة .

كانت عدة اميال تفصل المظليين من قوة شارون عن الجيش الاسرائيلى الأصلى ، ولا يمكن تعزيزهم الا بقوة جوية ، ولما كان المجال الجوى الاسرائيلى بحاجة الى حماية ، وكانت ابو عجيلة بحاجة الى المزيد من الدعم الجوى ، رأت هيئة اركان حرب العامة أن تترك كل شىء هادئا على المحور الجنوبى .

جاء هذا القرار مثبطا لعزيمة شارون ، فهو من ناحيته ، مخالف للعرف الاسرائيلى الذى يقضى بأن تصدر القرارات المحلية من جانب القادة الحليين ، ومن ناحية اخرى ، كان شارون رجلا صارما ، ومن الصعب عليه ان يقعد ساكنا مقيدا فى انتظار المزيد من الأوامر والتطورات ، وكان مقتنعا بأن الجزء الرئيسى من الكتيبتين المصريتين ، الخامسة والسادسة ، قد تم تدميره خلال الهجوم الجوى عصر اليوم السابق ، كما كان متأكدا ان الممر كان فى معظمه خاليا ، ولذا بعث برسالة لاسلكية يطلب السماح له بارسال داورية استطلاع على الطريق ، وأجيب الى طلبه على الفور ، ولكنه عاد فتلقى تحذيرا من تل أبيب بأن يتفادى اى تورط على نطاق واسع فى المعركة .

يبلغ ممر متلة ثلاثين كيلومترا طولا ، وينقسم الى ثلاثة قطاعات مختلفة وغير متساوية : فالى الشرق يوجد طريق « حيطان » ، وطوله ستة كيلومترات ولا يزيد عرضه عن خمسين مترا فى اضيق نقطة ، ويحده من الجانبين حوائط شديدة الانحدار ، والى الشمال تقع مرتفعات جبل الجدى ، والى الجنوب جبل حيطان ، والى غربى الطريق يتسع الممر حيث تنحدر الجبال الى الشمال والجنوب ، وينتهى الى طريق متلة الذى تحيط به الصخور الشامخة .

تلقى شارون هذا القرار الذى سبق ان صدر مثله الى كثيرين من القادة المتحمسين فى ظروف مماثلة ، ولكن ما هو الحجم الذى يجب أن تكون عليه داوريته ؟ انها ، على ضوء تعليمات تل أبيب ، لا يمكن أن تكون أكبر من وحدة ، كان مقتنعا بأن اعتراضه سيضرب به عرض الحائط .. لذلك اراد ان يكون اعتراضه شديدا ، ويتجاهل معه أية مقاومة طفيفة ، وقرر أن يقيم مخفرا فى الممر اذا اتضح ان ذلك ممكن ، غير ان الموقف بالممر كان فى الواقع يختلف كثيرا عما كان يتوقعه ، فان الاضرار التى لحقت بالكتيبتين المصريتين

الخامسة والسادسة من مساء الثلاثين من اكتوبر كانت طفيفة ، ولو انه تم تدمير كل مركباتها نتيجة للهجوم الجوى الاسرائيلى ، ولما اخذت الطائرات الاسرائيلية تقصف مواقعها شرقى الممر ، كانت الكتيبتان قد احتلتا فعلا مواقع جاهزة فى النصف الشرقى من طريق حيطان ، وفى بعض الخنادق وعدد من الكهوف فى الحوائط المنحدرة الى الممر .. وكان قد تم اختيار هذه المواقع بعناية ، فالصخور تخفيها عن اى شخص يمر من تحتها على الطريق .

محنة مردخاى جور :

كون شارون داورية تتألف : من سريتين من رجال المظلات من كتيبته الثانية ، تحملها مركبات نصف مجنزرة ، وتعززها سرية استطلاع اللواء ، وثلاث دبابات ، واربعة مدافع ١٢٠ مم .

كانت الداورية بقيادة الميجور مردخاى جور ، قائد الكتيبة الثانية ، وكانت مع جور وحدة اتصال جوية صغيرة للاتصال مع طائرة الاستطلاع التابعة للواء ، التى كانت مهمتها التحليق فوق الداورية .

كانت خطة شارون أن يصحب الداورية بنفسه ، ولكنه علم فى آخر لحظة ان القوة المصرية فى بير الجنجانة قد تحركت جنوبا ، فقرر ان يبقى مع قوته الرئيسية ، وارسل الضابط الذى يليه فى القيادة وهو اللفتنانت كولونيل ايزاك هوفى ، ليرافق السرية ، وليتبع مع وحدة الاستطلاع سريتي المشاة بقيادة جور ، وكان جور نفسه فى المركبة نصف المجنزرة الثالثة فى تلك المجموعة ، على مسافة مائتى متر تقريبا من العربتين الاولين ، وسارت من ورائه الدبابات ثم سريتا المشاة .

وحوالى الساعة الثانية عشرة والنصف مساء ، دخلت المركبات الاسرائيلية طريق حيطان ، وسرعان ما انهالت النيران على الاولى منها ، وامرها جور بمواصلة الزحف ، اعتقادا منه بأن القوة المصرية التى فتحت نيرانها لم تكن اكثر من وحدة للمناوشة ، واشتد القصف فجأة واصيبت العربتان الأوليان ، وتعطلتا ، ولما ترجل عنهما طاقماها ، انهالت عليهم طلقات المصريين ، وسارع جور لانقاذ رجاله ، وهنا اصبحت عربته هدفا للنيران المصرية المكثفة ، فاندفع متجاوزا العربتين ، ووجد على مسافة مائة وخمسين مترا عربة مصرية مهجورة ، كانت قد اصيبت فى غارة جوية فى اليوم السابق ، وهى الآن تسد الطرق ، ولما حاول جور أن يلف من حولها سقطت عربته فى واد صغير على جانب الطريق وتعطلت ، ترجل جور ورجاله ، واتخذوا مواقعهم فى صخور بسفح المرتفعات الجنوبية .

فى نفس الوقت ، كانت بقية سرية الداورية تندفع داخل الممر ، وتعرضت للنيران عربة الوقود ، وعربة ذخيرة ، وثلاث عربات أخرى

واشتعلت فيها الحريق ، وتمكنت معظم الداورية من الاقتراب من العربة المصرية المهجورة ، ولكنهم لم يدركوا ما الذى حدث لجور .

ارسل جور قائد السرية المتقدمة بعربته نصف المجنزرة ليحاول وقف الوحدات الأخرى ، ولكنه أصيب وقتل قبل ان يتمكن من الوصول الى الطريق .. ولم يكن لدى جور أى اتصال لاسلكى الا مع سرية الاستطلاع ومدافع الهاون ، التى كانت لا تزال عند المدخل الشرقى للطريق .

وبعث الكولونيل هوفى برسول الى قيادة اللواء لابلاغ شارون بالموقف فى الممر .. وكان شارون قد سمع القصف ، وظل ينتظر المعلومات « بفارغ الصبر » .

ولما تلقى شارون تقرير هوفى ، رأى أن امامه احد اختيارين : اما ان يستدعى الداورية ، تاركا أولئك الذين كان من الصعب اعادتهم ، واما ان ينقذ القوة بأكملها ، وكما قال بعد الحرب ، لم يكن لديه فى الواقع خيار .. لقد ظل الجيش الاسرائيلى طوال عشر سنوات يردد هذا الشعار ويستهدى به ، وهو : « اننا لا نترك جرحى وراءنا » .. ولكن كان هناك جرحى بالممر .. وآخرون أصبحوا معزولين .. وكان من الضرورى سحب الجميع .

وفى الحال ، ارسل شارون سريتين الى الطريق للاستطلاع ولنجدة الداورية وانقاذها من الكمين ، كما أمر بفتح كل مدافعه الهاون ومدفعيته لتصب نيرانها على المواقع المصرية فوق قمة الصخور على جانبى الطريق ، ولم يدرك احد ان مصدر القصف المصرى كان من المواقع داخل الكهوف ، فى ذلك الوقت كان جور قد حشد جانبا من داوريته ، وتحت غطاء من قصف الهاون المكثف هاجمت وحدة الاستطلاع مواقع المصريين على المرتفعات الشمالية للممر .

ولكن عندما اقترب الاسرائيليون من التل ، فتح المصريون عليهم نيرانهم من مغارتهم فى التلال الجنوبية ، بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة ، وعندما ادرك رجال الاستطلاع فجأة موقع هذه الكهوف ، لم يستطيعوا الرد على النيران بالرشاشات قصيرة المدى ، وتعرضوا لخسائر جسيمة ، فسارعوا بالانسحاب باحثين عن ملجأ فى التلال المنخفضة على جانب الطريق .

وعند هذه النقطة ، وصلت التعزيزات التى بعث بها شارون ، ولكن لم تستطع ان تفعل اكثر من اجلاء الجرحى ، وفى الوقت نفسه استطاع جور أن يصلح — دبابته المعطوبة ، ثم بعث بها الى الطرف الغربى من الطريق لاحضار الوحدة التى كانت هناك وفى ذلك الوقت ظهرت اربع طائرات مصرية « ميتيور » وهاجمت مواقع الهاون والقوة الاسرائيلية شرقى الممر .

وبحلول الليل ، ترجلت سريات جور نصف المجنزرة ، والتى كانت لا تزال عند الطريق الغربى من الطريق الأول ، وهاجمت المرتفع الشمالى وبدأت فى تطهيره ، وفى الوقت نفسه قامت السرية الأخرى بمهاجمة المرتفع الجنوبى ، وتحت قيادة شارون وصلت السريات التى كانت شرقى الطريق الى القمم الشرقية .

وخلال الليل كانت قمم التلال على جانبى طريق حيطان تحت السيطرة الاسرائيلية ، ولكن كان المصريون لايزالون بالكهوف ، وتحت جنح الظلام الذى أضعف فاعلية النيران المصرية ، قام الاسرائيليون بتطهير معظم الكهوف على الجانب الشمالى بعد ساعتين ونصف من القتال الالتحامى الضارى ، وما ان حلت الساعة الثامنة مساء حتى كانت المنطقة هادئة ، وبلغت خسائر الاسرائيليين ثمانية وثلاثين قتيلا ، ومائة وعشرين جريحا ، أما المصريون فكانت خسائرهم بين المائة والمائة وخمسين قتيلا .

وقبل منتصف الليل ، تلقى شارون معلومات بأن الوحدات المصرية المدرعة أخذت تزحف بالقرب من بير الجفجافة ، متجهة الى المؤخرة اليمنى للقوات الاسرائيلية ، عندئذ انسحب شارون غربا الى مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريبا عند تقاطع الطريق الى بير الثمادة ، واقام موقعا دفاعيا .. وهكذا بقى المر تحت سيطرة المصريين .

وبسبب الاحداث التى قامت فى أماكن اخرى ، لم تستطع القوات المصرية ان تتجاوز اطلاقا بير الثمادة .

(٦)

مناورة
دبلوماسية وعسكرية

٣٠ اكتوبر — أول نوفمبر

الانذار الانجليزى الفرنسى

فى السادسة من مساء الثلاثاء الثلاثين من اكتوبر ، اشترك سفراء بريطانيا وفرنسا لدى كل من القاهرة والقدس فى تقديم مذكرات الى الحكومتين المصرية والاسرائيلية ، وكانت هذه المذكرات متطابقة تقريبا ، تدعو الى الاستجابة الى ثلاثة مطالب رئيسية :

اولا : ان على المصريين والاسرائيليين وقف الأعمال الحربية فورا فى البر والبحر والجو .

ثانيا : ان على القوات المتحاربة على كلا الجانبين ان تنسحب : المصريون الى الضفة الغربية من القناة ، والاسرائيليون الى عشرة اميال شرقى القناة .

ثالثا : (وهذا الجزء من الانذار موجه الى مصر دون اسرائيل ، ولكنه أدرج فقط لمعلومية الحكومة الاسرائيلية) أن على مصر أن تقبل الاحتلال المؤقت لبور سعيد والاسماعيلية والسويس من جانب القوات البريطانية والفرنسية ليتسنى الفصل بين المتحاربين ، وضمان حرية مرور سفن كل الدول بالقناة وفقا لأحكام القانون الدولى القائم .

وكما أوضح السفراء البريطانيان والفرنسيان لوزيرى الخارجية المصرى والاسرائيلى ، كان المطلوب الرد من جانب كلتا الدولتين على هذه المذكرات خلال اثنتى عشرة ساعة واذا لم تستجب حكومتاهما للمطالب الانجليزية الفرنسية قبل انتهاء هذه المهلة ، فسيكون للقوات البريطانية والفرنسية القيام بأى عمل تراه ضروريا لضمان تنفيذها .

كانت المذكرة للمصريين انذارا ، أما للاسرائيليين فكانت تأكيدا بأن اتفاق « سيفر » كان فى طريق التنفيذ .

وفى ذلك الوقت ، بالطبع ، لم تكن القوات الاسرائيلية على مسافة عشرة اميال من قناة السويس . وبعد التأخير بعض الشىء وقد ادعت الحكومة الاسرائيلية انه يرجع الى دراستها للشروط ، اجابت اسرائيل بانها تقبل تلك الشروط ، وعند منتصف الليل رفض الرئيس عبد الناصر الانذار ، وفى نفس الوقت تقريبا ، وفى اجتماع طارىء لمجلس الأمن ، عارض ممثلا بريطانيا وفرنسا قرارين بوقف اطلاق النار .

الـرد المصرى :

فى السادسة من صباح الحادى والثلاثين من اكتوبر ، كانت البطاريات المضادة للطائرات فى دلتا النيل ، وبطول قناة السويس ، فى حالة تأهب ، تتوقع هجوما جويا انجليزيا اما بعد اثنتى عشرة ساعة من تسليم الانذار ، او بعد اثنتى عشرة ساعة من رفضه ، اصـدر عبد الناصر اوامره للمشير عبد الحكيم عامر بانه فى حالة وقـوع مثل هـذا الهجوم تسحب الى قناة السويس جميع القـوات المرابطة فى سيناء للدفاع عن الممر المـائى ضد الهجوم الانجليزى الفرنسى المتوقع .

وجاءت الساعة السادسة صباحا من يـوم الأربعاء ، ثم مرت ، ودقت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، دون ظهور اى دليل جديد عن عمل ما من جانب بريطانيا وفرنسا بعد الانـذار ، وارتاح المصريون الى حد ما ، وركزوا اهتمامهم على العمليات شرقى القناة .

كان الموقف فى سيناء — على حد ما وصل الى علم المصريين — يتسم بالخطورة وان لم يصل الى درجة الكارثة ، وراى المخططون المصريون ان تغلغل المظليين من رجال شارون الى قلب سيناء انما هو خدعة جريئة ، وكانها حركة تطويق من الشمال ، لقد صـمدت ابو عجيلة امام الهجمات الاسرائيلية الأولى دون صعوبة ، وبالرغم من وجـود حشود مهددة من جانب القـوات الاسرائيلية بالقرب من قطاع غزة ، فانه لم يقع اى هجوم ، وكانت المواقع الدفاعية المصرية فى حـالة تأهب ، ولـم يـكن هنـاك ما يدعو للانزعاج .

لذلك ، كانت اخطر مشكلة تشغل بال القيادة العليا المصرية هى الموقف غير الواضح على الطريق الرئيسى بير سبع/الاسماعيلية ، حيث علم المصريون ان القوات الاسرائيلية تعمل غربى ابـو عجيلة ، وشرقى بير الجفجافة ، كما وصل الى علمهم ايضا ان القـوات الاسرائيلية اصبحت قريبة من بير حسنة ، وطالما ان القوات المصرية تحتفظ بسيطرة حاسمة فى رفح والعريش وابو عجيلة ، فانه لم يكن يـبدو من المحتمل قيام قـوات اسرائيلية اكبر بالتحرك فى شمال ووسط سيناء ، ولكن هناك خطر الاتصال بين القوة الاسرائيلية التى تقع قرب بير حسنة ، وقوة المظليين التى تتحرك بطول ثمادة / نخل / متلا .

وهكذا اعتقدت اركان حرب المصرية ، ان من المهم ان تندفع الفرقة الرابعة المدرعة باسرع ما يمكن ، لتصد زحف اسرائيلى مدرع من بير حسنة ، وان تبعث جنوبا بقوة من بير الثمادة لتقطع الطريق على لـواء المظلات الاسرائيلى شرقى ممر متلا .

فى نفس الوقت ، كان السلاح الجوى المصرى منشغلا ، وعندما فوجىء بالهجوم الاسرائيلى فى ٢٩/٣٠ اكتوبر لم يستطع المصريون أن يقوموا الا باربعين هجوما قتاليا ، كان معظمها ضـد كتيبة المظلات شرقى ممر متلة ، ولكن فى الحادى والثلاثين من اكتوبر شن المصريون تسعين هجوما معظمها بالقاذفات المقاتلة .. وهكذا استطاع الطيارون الاحتفاظ بمعدل للهجمات ، وكانوا يأملون فى القيام بما هو افضل ، ولكن ذلك لم يتحقق .

عمليات مدرعة فى اواسط سيناء :

بعد منتصف ليل الثلاثين من اكتوبر ، بـدأ اللـواء الأول من الفرقة الرابعة المدرعة المصرية عبـور قناة السويس عن طريق كوبرى الفردان ، ولكن تنفيذا لأوامر عبد الناصر بعدم توقف حركة الملاحة التجارية فوق القناة ، كان المصريون يفتحون الكوبرى منوقت لآخر للسماح بمرور السفن والقوافل البحرية .. لذلك استغرق عبور اللواء ساعتين ، ولم تصل طليعة سريته الى بير الجفجافة الا حول الرابعة صباحا ولم يكمل اللواء الثانى عبور القناة الا فى الفجر ، وكان كل لواء يضم كتيبة دبابات « ت — ٣٤ » وكتيبة مدرعة مشاة ، وسرية من مدافع « سو — ١٠٠ » وبطارية مدفعية مضادة للطائرات .

وفى الصباح ، اصـدر العميد على جمال محمود ، قائد الفرقة الرابعة المدرعة ، اوامره الى الكولونيل طلعت حسن على ولوائه الأول للتحرك شرقا من بير الجفجافة الى بير حمه على بعد أربعين كيلو متـرا غربى ابو عجيلة لصد اى زحف اسرائيلى على هـذا المحور الأوسط . كانت فرقة الاستطلاع الثانية التى يقودها اللفتانت كولونيل احمد على عطية تتقدم الفرقة الرابعة ، ثم اعيد لقيادة على جمال محمود . وعندما كانت بين بير الجفجافة وبير الثمادة ، صدرت لها الأوامر بأن تواصل زحفها عبر بير الثمادة الى الجنوب والجنوب الغربى لتطويق لواء المظليين الاسرائيلى بالقرب من ممر متله ، واحتفظ العميد جمال باللواء المدرع الثانى بقيادة العقيد ابراهيم الموجى كقوة احتياطية فى بير الجفجافة وهى قاعدة مناورته ، الى ان وصل لواءان من الحرس الوطنى على الطريق عند مؤخرته للدفاع عنها .

تحركت الوحدات المصرية قبل الظهر ، ولكن كان تقدمها بطيئا نتيجة للهجمات المستمرة من الطائرات الاسرائيلية . كانت الخسائر فى الأرواح والدبابات قاسية ، ومع ذلك اندفعت القوات فى تصميم ، ووصلت الى اهدافها الأولى بعد حلول الظلام .

فى نفس الوقت ، علمت القيادة العليا الاسرائيلية عن طريق طائرات الاستطلاع بتحرك اللواء المصرى المدرع من بير الجفجافة الى بير حمه ، وصدرت الأوامر الى الكولونيل بن آرى ، قائد اللواء المدرع السابع الذى كان يتحرك وقتئذ من القسيمة الى بير حسنة بكتيبة الدبابات ، بأن يصد التحرك المصرى وبالاستيلاء على بير حمه .

وسرعان ما بعث بن آرى ، باشارة لا سلكية الى اللفتانت كولونيل آدان ، الذى كان عندئذ قريبا من ممر (ضيقة) ، بأن تتحرك كتيبة المركبات نصف الجنزرة ، باستثناء سرية واحـدة يمكن له أن يستبقيها ، وكان على بقية هـذه الكتيبة ان تزحف شمالا الى الطريق الراسى الشرقى الغربى ثم تتجه غربا بالقرب من جبل لبنى ، حيث كان عليها ان تنصب كمينا للقوات المصرية المتقدمة قرب وصلة طريق جبل لبنى ، أو تواصل الزحف غربا الى بير حمه اذا كان ذلك ممكنا . ثم بعث بن آرى برسالة لاسلكية الى قائد كتيبة الدبابات الـذى كان يواصل زحفه الى بير حسنة على الطريق الموازى الى الجنوب ، كى يرسل فصيلة الى الشمال لتنضم الى كتيبة المركبات نصف الجنزرة بالقرب من وصلة طريق جبل لبنى .

فى نفس الوقت ، تعرضت كتيبة الدبابات عند اقترابها من بير حسنة لهجوم جوى مصرى ، فتوقفت وتشتت جمعها خارج الطريق ، ولكن بناء على أمر بن آرى ، ارسل قائد الكتيبة سرية الى الشمال عبـر الطريق الصحراوى الى جبل لبنى ، وواصل زحفه بما تبقى منها الى بير حسنة التى وصلها بعد الظهر بقليل ، وبعد تبادل قصير للنيران انسحبت من المكان السرية المصرية المكونة من عربات الجيب .

وبعد الظهر بقليل ، وصلت كتيبة بن آرى نصف المجنزرة الى مفترق طرق جبل لبنى ، والتقت هناك بفصيلة من سرية الجيب المصرية ، التى كانت اصلا فى القسيمة وطردتها كتيبة الدبابات من بير حسنة ، سرعان ما تم اقصاء المصريين من مواقعهم بعد أن حل بهم الارهاق ، ولاحقتهم الكتيبة نصف الجنزرة غربا على الطريق نحو بير حمه ، وقبل حلول الظلام بقليل هاجمتهم القانفات المقاتلة المصرية ، والحقت بالاسرائيليين خسائر عديدة فى الارواح واعطب لهم مركبتين ، وبعد انصراف الطائرات المصرية عادت الكتيبة الاسرائيلية الى الطريق ، وواصلت زحفها فى حـذر الى بير حمه ، وتوقفت على بعد كيلو مترات قليلة شرقى بير حمه قبل العاشرة مساء ، وبعد اقل من ساعة انضم اليها بن آرى مع كتيبة الدبابات التى كانت تقدمت شمالا من بير حسنة .

كانت خطة بن آرى تهدف الى مهاجمة بير حمه فى الفجر ، ولكنه تلقى اثناء زحفه امرا بأن يتخذ موقفا دفاعيا الى حين صـدور اوامر أخرى ، ولذلك ، فانه ــ بعد ان كان قد اعد العدة للتزود بالوقود والذخيرة ــ اخذ يتأهب لهجوم متوقع من اللواء المدرع الأول المصرى فى صباح اليوم التالى .

الانتظار والتساؤل :

طوال يوم الأربعاء الحادى والثلاثين من اكتوبر ، كان التوتر شديدا فى كل من القاهرة وتل ابيب ، انتظارا لرد الفعل الانجليزى الفرنسى ازاء رفض مصر لانذار الحلفاء ، وخـلال ساعات بعد الظهر ، بـدأ التوتر يخف فى القاهرة ، ولكن باستثناء التحركات المحدودة للفرقة الرابعة المدرعة ، ارجأ الرئيس عبد الناصر والمشير عامر اتخـاذ قرارات استراتيجية اكثر اهمية .

اما فى تل ابيب ، فقد ازداد التوتر مع مرور الساعات وعـدم قيام بريطانيا وفرنسا باى عمل .. واشـتد غضـب بن جوريون ، وازداد شعوره بالمرارة .

لم يكن بن جوريون يثق بالبريطانيين ، وكان رايه فى انطونى ايدن بوجه خاص سيئا ، ولم يكن يشعر بالارتياح اليه .. الأمر الـذى دفع بن جوريون للالحـاح على ضرورة وضع « بروتوكول » مكتوب فى مؤتمر « سيفر » ، والآن وقد جاوزت الساعة موعد انتهاء انـذار الحلفاء ، اصبح رئيس الوزراء الاسرائيلى مقتنعا بأن البريطانيين قد قرروا التراجع ، وبعد نقاش طويل مع رئيس الأركان ، اصدر أمره بعد الظهر الى ديان بسحب قواته من سيناء .

غير ان ديان كان متأكدا من أن الحلفاء سيتعاونون ، ولذلك تباطأ فى الاستجابة لأمر بن جوريون . واخيرا ، وتحت ضغط من رئيس الوزراء ، اصدر ديان اوامره بأن تتجه كل الوحدات ، باستثناء اللواء التاسع ، لتتخذ مواقع دفاعية متنقلة ، وبأن تتوقف كل العمليات الهجومية لحين صدور اوامر اخرى .. وكانت هـذه الأوامر ــ كما راينا ــ تتناول بصفة خاصة عملية اللواء المدرع السابع بقيادة الكولونيل بن آرى .

وهكذا ، وفى الساعات الأولى من مساء الحادى والثلاثين من اكتوبر ، وباستثناء القتال الشرس على مرتفعات الطرف الشرقى من ممر متلة ، كان الهدوء الـذى يسبق العاصفة يخيم على المسرح الحربى فى سيناء .. لم يكن هناك سوى تحركين هامين ، أولهما ، تحرك الفرقة الرابعة المدرعة المصرية مستكملة زحفها من القناة الى بير الجفجافة وبير حمه وبير الثمادة ، والثانى ، تحرك اللواء الاسرائيلى التاسع استعدادا للتحرك على الشواطىء الغربية لخليج العقبة .. وكان اللواء الاسرائيلى العاشر لا يزال يعانى آثار فشله أمام كتاف .

(٧)

الانسحاب المصرى

الهجوم الجوى الانجليزى الفرنسى

فى الساعة السابعة من مساء الأربعاء الحادى والثلاثين من اكتوبر ، اى بعد خمس وعشرين ساعة من تسليم الانذار البريطانى الفرنسى ، وبعد ثلاث عشرة ساعة من انتهاء موعده ، بدأ الطيران البريطانى الفرنسى فى قصف القواعد الجوية المصرية وجاء ذلك اليوم نذيرا بحلول مرحلة جديدة فى هذه الحرب غير العادية .

كانت اغلبية الطائرات الحليفة التى اشتركت فى قصف القواعد المصرية من السلاح الجوى البريطانى ، واشتركت فيه أيضا بعض الطائرات الفرنسية ، كانت قواعد الطائرات المهاجمة فى مالطة وقبرص ، وركزت هجماتها الأولى على القواعد الجوية فى الماظة وأنشاص وأبو صوير وكبريت ومطار القاهرة الدولى ، عند منتصف الليل حلقت فوق هذه القواعد ثلاث موجات من المقاتلات ، وأسقطت قنابل زمنية . وبعد الهجوم الأول ، قال المصريون : انهم استطاعوا ترحيل عشرين طائرة خفيفة « ال — ٢٨ » ، وعشرين طائرة « ميج — ١٦ » محمولة جوا ، لتلجأ الى المخابىء — التى سبق اعدادها — فى كل من سوريا والمملكة العربية السعودية ، كما تم سحب عشرين طائرة « ال — ٢٨ » اخرى الى الأقصر بعيدا عن متناول القاذفات الحليفة .

وفى صباح اول نوفمبر ، اغارت الطائرات على الدلتا ومنطقة القناة ، لتدمر ما تبقى من الطائرات المصرية على الأرض ، ولتحول دون قيام المصريين باصلاح الأضرار التى أحدثتها غارة الليل ، وفى الثانى والثالث من الشهر وقعت غارات مماثلة ، ادعى الحلفاء بعدها انهم دمروا مائتين وستين طائرة مصرية على الأرض .. غير ان هذا الادعاء مبالغ فيه ، حيث كان عدد طائرات السلاح الجوى المصرى عند بداية الغارات يقدر بمائتين وخمس وخمسين طائرة فقط ، وقد تم تهريب أربعين واحدة على الأقل .

فى الساعات الأولى من مساء الحادى والثلاثين من اكتوبر حتى الثانى من نوفمبر ، ادعت القوات المصرية فى سيناء بأنها قد هوجمت من القاذفات المقاتلة الفرنسية التى اتخذت لها قواعد فى اسرائيل .. غير ان فرنسا نفت هذا الادعاء ، ولما كانت الطائرات الفرنسية قد وفرت غطاء جويا فوق

القوات الاسرائيلية ، وفوق اسرائيل نفسها فى اليوم السابق ، فانه يبدو من المحتمل جدا ان يكون الفرنسيون قد قاموا فعلا بمساندة الاسرائيليين بهجمات من الطائرات القاذفة المقاتلة ضد الطوابير المصرية المنسحبة ومراكز احتشاد القوات .

رد الفعل المصرى والاسرائيلى :

عندما بدأ اول هجوم جوى للحلفاء ، استدعى الرئيس عبد الناصر فورا المشير عبد الحكيم عامر ، واصدر أوامره بوقف كل تحرك للقوات المصرية الى سيناء ، وبسحب القوات الموجودة فعلا فى سيناء لتفادى عزلها نتيجة للغزو الانجليزى الفرنسى المتوقع لمنطقة القناة ، وعلى اساس التقديرات التى تلقاها فى اليوم السابق من اركان حربه ، افترض عبد الناصر ان نزول الحلفاء سيكون بالاسكندرية او بور سعيد ، وكان فى كلتا الحالتين مصمما على المقاومة .

وبعد ان اصدر الرئيس عبد الناصر اوامره تليفونيا ، توجه فورا الى مقر القيادة العامة ، حيث وصل الساعة الثامنة مساء ولبث بها طوال الليل يستمع الى التقارير عن الهجوم الجوى للحلفاء ، ويشرف على ابلاغ الأوامر الى القوات فى سيناء ، وفى العاشرة والنصف ، كانت هيئة اركان حرب القيادة العامة قد بعثت بتوجيهاتها للانسحاب العام الى كل القيادات الكبرى شرقى القناة . وكان على القوات التى كانت قد ارسلت على المحورين الشمالى والأوسط ان تتم انسحابها وفقا للخطة ، وكذلك حامية شرم الشيخ ، كما امر عبد الناصر اركان حربه باعداد خطط لتوزيع الأسلحة على المدنيين فى منطقة القناة ، والاستعانة بهم فى حرب عصابات ضد البريطانيين والفرنسيين ، وذلك فى حالة هزيمة الجيش النظامى .

كان من المقرر ان يبدأ الانسحاب من سيناء فورا ، وان يتم خلال ليلتى الحادى والثلاثين من اكتوبر واول نوفمبر ، على ان تلجأ القوات اثناء النهار الى مخبأ مأمون منذ اول نوفمبر ، وكان على القوات فى منطقة رفح ، واللواء المدرع الثانى ، ان تنسحب فى الليلة الأولى ، وان على سريتين من الكتيبة السادسة من لواء المشاة الثانى ان تثبتا فى مواقعهما عند الطرف الغربى من ممر متلة كمؤخرة للجيش ، بينما تنسحب بقية هذه الكتيبة والكتيبة الخامسة ، وكان من المفروض ان يتم فى مساء اليوم التالى اجلاء بقية القوات بما فيها حامية أبو عجيلة ، باستثناء المؤخرة فى ابو عجيلة لتعويق الاسرائيليين حتى الثانى من نوفمبر ، وكان من المأمول وقتئذ ان تتمكن القوات الرئيسية بما فيها كل المدرعات من عبور القناة لتعود الى الضفة الغربية .

وبعث العقيد رؤوف محفوظ زكى ، قائد حامية شرم الشيخ ، برسالة لاسلكية يقول فيها : انه ليست لديه وسائل نقل لسحب قواته وخاصة معداته

الثقيلة ، لذلك طلب الترخيص له بالدفاع عن موقعه .. وبعد ان تشاور المشير عامر مع الرئيس عبد الناصر ، وافق على طلب زكى ، وتأهب رجاله بشجاعة للقيام بهذه المهمة ، كانت خطة زكى فى البداية ترمى لاستخدام مدافع الفرقاطة « رشيد » الملحقة بقيادته ، لمساندة الدفاع البرى ، ولكنه علم بأن السفن الحربية البريطانية أغرقت فرقاطة مصرية اخرى وهى « دمياط » فى المياه الشمالية بالبحر الأحمر ، خشى ان يكون فى وجـود « رشيد » بشرم الشيخ ما يجعلها هدفا لهجوم بحرى بريطانى ، لذلك صـدر الأمر بابحار « رشيد » ليلا للالتجاء الى ميناء سعودى قريب .

وفى الساعات الأولى من مساء الحادى والثلاثين من اكتوبر ، وبعد ان تأكد الجنرال ديان من تنفيذ الهجوم الجوى للحلفاء ضـد مصر ، بعث بأمر الى الجنرال سيمهونى بالغاء الأمر السابق الخاص بوقف عملية الهجوم ، وبأن يدفع بالقـوة الخاصة المركزية لتقوم بعملياتها ضـد ابو عجيلة ، بينما تقـوم القوة الخاصة الشمالية ببدء الهجوم على رفح وقطاع غزة وفقا للخطة المرسومة . وتم توجيه اللواء الميكانيكى التاسع لمواصلة تحركه شطر شرم الشيخ ، وكان لواء المظليين المائتين واثنين التابع لشارون هو وحده الذى عليه تفادى القيام بعمليات هجومية .. وهكذا نرى كيف تم مرة اخرى تعديل هـذا الأمر بعد منتصف الليل بقليل ، عندما أمر ديان بوقف العمليات ضد ابو عجيلة التى كان على مجموعة القوة الخاصة المركزية ان تتجاوزها .

ما بعد ابو عجيلة وام كتاف :

فى الوقت الـذى كان فيه العميد متولى يتلقى الأوامر من القاهرة والفرقة الثالثة بالانسحاب ، كان هو ورجاله منهمكين فى صـد الهجمات الأخيرة الضعيفة من الألوية الاسرائيلية الرابع والعاشر والسابع والثلاثين .
وبعد هـذا النجاح ، مع عـدم العلم بما قرره الاسرائيليين من العدول عن الهجوم ، اعـد المدافعون عن ام كتاف العدة لتنفيذ أمر الانسحاب وقد كانوا يتوقعون أن الموقف سيزداد تعقيدا باستمرار الهجمات الاسرائيلية .
وبعد ظهر اول نوفمبر ، قام المصريون بتدمير او تخريب ما امكن من العديد من المهمات والعتاد ، وحرصوا على الا ينتبه الاسرائيليون لمـا كانوا يعملونه .

عندئذ وزع متولى قواته الى اربع مجموعات للانسحاب ليلا ، وانسحب ثلث القوات تقريبا فى الساعة السادسة والنصف تحت جنح الظـلام ، ولما كانت مفارق الطرق ووصلة الاسرائيليين ، فقد كان على المصريين أن يتركوا كل مهماتهم الثقيلة ، وان يسيروا عبر كثبان الرمل الصحراوية فى الاتجاه الشمالى الغربى ليصلوا الى العريش بالقرب من بير لهفان على امل انها لا تزال فى يد المصريين ، وفى نفس الطريق ، سارت المجموعة الثانية بعد الأولى بنصف ساعة ، وتحركت الثالثة فى الساعة السابعة والنصف ، وبقيت فى الاستحكامات شبه المهجورة سرية واحدة فقط من المشاة وسرية مدفعية بطاقمها ، وبينما استمرت سرية المشاة فى قصف متقطع من مواقعها المتناثرة ،

ظل طاقم المدفعية يطلق نيرانه بلا انقطاع طـوال الليل ، متنقلا من موقع الى موقع ، ومن فترة لأخرى ، بقصد تضليل الاسرائيليين ، وقبيل الفجر ، انسحبت هـذه المؤخرة ، بعد ان قامت بدفن كرنافات اسلحتهم فى الرمل وتدمير ما تبقى من مهماتها الثقيلة .

وصل ما يقرب من نصف المدافعين البواسل من ابو عجيلة الى العريش فى الوقت المناسب لينضموا الى القوات التى كانت لا تزال فى طريق الانسحاب من هناك الى القناة .. ووقع معظم من تبقى منهم اسرى فى يد الاسرائيليين فى الأيام القليلة التالية ، ولكن لقى عـدد منهم حتفه فى الصحراء بسبب الجوع والعطش .

وعلى اية حال ، نجح المصريون تماما فى تضليل الاسرائيليين الذين لم يشعروا بانه كان هناك انسحاب ، وفى الصباح المبكر قام ضابط مخابرات فى كتيبة ادان — وهى كتيبة دبابات شيرمان التى كانت تسيطر على مفترق طرق ابو عجيلة لمـا يزيد على يـوم واحد — بارسال اثنين من الأسرى المصريين الى ام كتاف مع طلب بالتسليم ، وتصادف فى هـذه الأثناء ان وصل ضابط مخابرات هـذه القـوة الخاصة ، فوافق على الفكرة ، وقرا طلب التسليم كما اعده ادان ، ووافق عليه ، ثم عاد الى قيادته .

اعطى للأسيرين عربة جيب من العربات التى تم الاستيلاء عليها من المصريين ، وعلم أبيض كبير ، ولم يكن الاسرائيليون حتى هـذه اللحظة يدركون ان هذين الأسيرين لم يكونا على معرفة بقيادة السيارات ، وان كان يبدو ان لأحدهما الالمـام بالقيادة ، فقام ادان شخصيا باعطائه درسا سريعا فى القيادة ، ثم بعث بكليهما الى الطريق مع رسالة طلب التسليم .

فى هـذا الوقت تقريبا ، اخذ اللواء الميكانيكى السابع والثلاثون فى القسيمة بعض الأسرى المصريين الذين اخبروهم بانه قد تم الجلاء عن ام كتاف اثناء الليل ، عندئذ طلب اللواء الاذن من قيادة الكولونيل والاش للتحرى عن حقيقة هـذا الخبر ، وصدر الاذن بذلك بعد تردد . وفى ساعة متأخرة من النهار ارسلت سرية من لـواء الدبابات السابع والثلاثين من القسيمة الى ام كتاف .. وفى نفس الوقت اتجه الأسيران المصريان الموفدين من قبل اللواء السابع ، حتى اذا بلغا موقع المصريين لم يجدا به من يسلمان اليه طلب التسليم المرسل من ادان ، وفجأة وجدوا انهما أمام اللواء السابع والثلاثين ، وانهما عادا الى الأسر من جديد .

بعد هذا التأجيل القصير ، واصل لواء الدبابات السابع والثـلاثون زحفه غربا عبر الموقع المهجور ، وكانت خطته أن ينضم الى اللواء السابع فى ابو عجيلة .. كان ذلك قبل الظهر بقليل .. وعندما هبطت الدبابات تل ام شيهان ، شاهدها ادان ورجـالـه ، وكانوا ينتظـرون ردا على طلب التسليم .. وكان ادان قد طلب ان تحضر أولا مركبات غير قتالية يتقدمهـا

علم الهدنة وتليها الدبابات والمدافع .. وعندما رأى رجال ادان طابورا من الدبابات يظهر فجاة من التحصينات المصرية وبدون علم الهدنة ، حسبوا عندئذ انها محاولة لكسر الحصار ، وسرعان ما أخذوا يقصفون الطابور بالمدافع فى مدى الف ومائة متر ، فاعطبوا ثمان دبابات من اللواء السابع والثلاثين ، اما الأربع الأخرى فقد حسبت ايضا انها تواجه المصريين ، فسارعت بالانسحاب ، واخذت تقصف نيرانها وهى تنسحب .. وبعد ذلك اخذت تتدفق دبابات ادان .

ولحسن الحظ ، ان احد الطيارين الاسرائيليين قد شاهد ما حدث ، وافلح فى النهاية فى أن يبعث برسالات لاسلكية الى القادة على كلا الجانبين لكى يوقفوا القتال .

يقع اللوم فى هذا الصدام المفجع على قيادة الكولونيل والاش لفشلها فى التنسيق بين اللواءين السابع والسابع والثلاثين ، وكان المفروض فى ضابط مخابرات الفرقة الخاصة الذى كان قد اعتمد مخطط ادان ان يعرف موطن الخطر عندما طلب اللواء السابع والثلاثين الاذن بأن يسبر غور الدفاعات المصرية .

بعد ذلك مباشرة ، امر والاش اللواء العاشر مشاة بالتحرك واحتلال المواقع المهجورة فى ام كتاف وام شيهان .

وهكذا انتهت معركة ابو عجيلة نهائيا .

المعركة حول رفح :

بعد منتصف الليل بقليل ، وفى صباح اول نوفمبر ، دخلت المعركة مجموعة القوة الخاصة التابعة للجنرال حاييم لاسكوف الذى كانت مهمته الاستيلاء على رفح ، وسد الطريق الى قطاع غزة ، ثم الزحف غربا عبر العريش الى الطريق المؤدى للقنطرة وقناة السويس .

كانت التحصينات المصرية فى رفح تحتل الركن الشمالى الشرقى من شبه جزيرة سيناء جنوبى قطاع غزة .. وكانت مجموعة المعسكرات والمنشآت تحت ادارة لواء المشاة الخامس من الفرقة المصرية الثالثة ، تعززه الكتيبة الفلسطينية السابعة والثمانون ، وكتيبتان من الحرس الوطنى ، وسريتان ميكانيكيتان من داوريات الحدود وسرية من ست عشرة دبابة شيرمان وبطارية من احد عشر مدفعا ذاتيا مضادا للدبابات ، ووحدة من اربع وعشرين (٢٥ رطلا) ، ومدفعية ميدان وبطارية من اثنى عشر مدفعا خفيفا مضادا للطائرات . ووزعت هذه الوحدات فى شبكة شبه دائرية على ستة وعشرين موقعا تتبادل التعزيزات ، وكانت تستفيد من سلسلة التلال الجرداء الصخرية جنوبى وشرقى مفترق الطرق فى رفح ، وكان كل موقع محوطا بالأسلاك الشائكة وحقول الألغام ، والى جنوبى المنطقة المحصنة

الرئيسية ، وعلى خط متواز مع الحدود الاسرائيلية المصرية حقلان للالغام بينهما مسافة ثلاثمائة متر ، وعمق كل منهما خمسون مترا وطوله خمسة كيلومترات . وكان هناك حقل الغام ثالث اقل اتساعا على بعد الف متر الى الغرب خلف اول خط دفاعى مصرى .

كانت القوة التى تحت قيادة الجنرال لاسكوف تتكون من اللواء الاول مشاة واللواء المدرع السابع والعشرين . وكان اللواء المدرع او الميكانيكى الذى يتولى قيادته الكولونيل حاييم باريليف يتكون من ثلاث مجموعات خاصة وكتيبة مشاة ميكانيكية ، وكانت كل مجموعة مقاتلة تتكون من سرب من الدبابات (دبابة اى — ام — اكس ، واثنتان شيرمان) ، وسرية مشاة نصف مجنزرة ووحدة من اربعة مدافع ذاتية ١٠٥ مم وقطاع من المهندسين. كان اللواء الاول مشاة (المعروف باسم لواء جولانى) والذى يتولى قيادته الكولونيل بنيامين جيفلى ، يضم ثلاث كتائب مشاة ، وبطارية مدافع ميدان وبطارية هاون ثقيلة ، وكتيبة مهندسين .. وكان ملحقا بهذا اللواء سرية من اثنتى عشرة دبابة شيرمان (من لواء باريليف) وكتيبة مشاة ميكانيكية من لواء المشاة الثانى عشر .

كانت خطة لاسكوف هى التطويق المزدوج لمجموعة التحصينات المصرية ، وكان المفروض أن تقوم كتيبة من لواء جولانى بتطهير طريق عبر حقول الالغام المصرية ، وضرب أقصى الجناح الأيمن للمصريين المدافعين ، وتطهير طريق لكتيبة المشاة الميكانيكية الملحقة بهذه الكتيبة من اللواء الثانى عشر ، لتصل الى الطريق الشمالى الجنوبى على بعد خمسة كيلومترات جنوبى وصلة طريق رفح أو مفترق الطرق ، وكان المفروض فى مجنزرات وشاحنات هذه الكتيبة التى يقودها اللفتنانت كولونيل ماير بيلافسكى وتعززها سرية دبابات شيرمان الملحقة بها ان تنطلق شمالا للاستيلاء على مفترق الطرق .. وفى نفس الوقت تقوم كتيبة جولانى اخرى بهجوم عنيف ضد مركز استحكامات رفح .

وكان من المفروض ان تشكل البقية المتبقية من كتيبة جولانى الذراع الأيمن فى كماشة التطويق المزدوج بالتنسيق مع لواء الكولونيل باريليف السابع والعشرين ، على الا يبدأ الهجوم الا قبل الفجر بقليل ، وهو الوقت الذى يتوقع ان يركز المصريون فيه اهتمامهم على هجمات كتيبة جولانى المتقدمة ، وتغلغل بيلافسكى جنوبا ، ويتم توجيه هجوم الجناح الأيمن لكتيبة جولانى الى موقعين جبليين مصريين حصينين (يعرفهما الاسرائيليون باسم التل رقم ٢٩ والتل رقم ٣١) جنوبى الطريق وشرقى المعسكرات ، والى اقصى اليمين تقوم دبابات باريليف بضرب موقعين محصنين (التل ٣٤ والتل ٣٦) شمالى الطريق ، واللذين ترتكز عليهما المؤخرة السرى لمنطقة دفاع رفح . كانت خطة باريليف تقوم على استخدام مجموعتيه القتاليتين بدباباتهما الشيرمان فى هذا الهجوم ، احداهما خلف جولانى والأخرى الى اقصى اليمين، واحتفظ بدباباته الـ « اى — ام — اكس » لمرحلة الاستغلال .

وفى ليلة ٣١/٣٠ اكتوبر ، وقبل الهجوم على رفح بأربع وعشرين ساعة ، قام المهندسون الاسرائيليون فى هدوء بتطهير ثلاثة طرق ، عرض تسعة أمتار ، ويبعد الواحد منها عن الآخر بمسافة مائة وخمسين مترا ، عبر حقول الالغام جنوب شرقى مفترق الطرق ، غير انه فى ساعة متأخرة من اليوم التالى شاهد الاسرائيليون الجنود المصريين يتحركون عبر حقول الألغام فى نفس المنطقة العامة التى كان المهندسون الاسرائيليون يعملون بها فى اليوم السابق ، وبالرغم من غموض طبيعة هذا النشاط المصرى هناك ، اعتقد الاسرائيليون ان المصريين اكتشفوا طريقين من هذه الطرق الثلاثة عبر حقول الالغام ، وانهم عادوا لزرع الالغـام من جديد ، لذلك راى الاسرائيليون فى ليلة ٣١ اكتوبر / أول نوفمبر ان طريقا واحدا فقط ــ من بين هذه الطرق الثلاثة السابق تطهيرها ــ هو الطريق الوحيد المأمون لتسلكه قوة الهجوم .

كانت اشارة الهجوم هى قصف بحرى فرنسى واسرائيلى ضد استحكامات رفح ، والذى بدأ فى الساعة الثانية صباحا واستمر حتى الثانية والنصف ، تلاه قصف جوى قصير ، ولكنه مكثف استمر حتى الثـالثة وخمس دقائق (ونقلا عن الجنرال ديان لم يكن اى من هذين القصفين التمهيديين فعالا) .

وتحت غطاء من هذه الضوضاء وبعض النشاط ، اخذت كتيبة جولانى الثالثة ، التى كانت عبرت الحدود قبل منتصف الليل ، تزحف ببطء نحو اهدافها ، وهى ثلاثة مواقع مصرية خارج حقلى الالغام (ولم يكن الاسرائيليون يعلمون بوجود حقل الغام ثالث) .. والواقع انه بناء على اوامر من القاهرة كان المصريون قد انسحبوا قبل الهجوم ببضع ساعات ، لكن مؤخرتهم قامت بعمل تعويقى بالمدفعية والرشاشات ، وهكذا تمكنت كتيبة جولانى من أن تحتل فى السادسة صباحا ، ودون اية مقاومة ، اهدافها القائمة على حافة الخط الدفـاعى فى رفـح .

وعلى اية حال ، لم تكن الأمور سهلة جدا بالنسبة للكتيبة الملحقة من لواء المشاة الثانى عشر ، وبدات كتيبة بيلافسكى تتحرك عبر الحدود بعد منتصف الليل ، وكانت عبارة عن طابور من الشاحنات والمركبات نصف المجنزرة ، يتبعه سرب ولحق به من الدبابات سوبرشيرمان ، وفى الثانية صباحا عبرت كتيبة جولانى ، وتحركت صوب التل رقم ٥ والطريق ، وفجأة دخلت العربة التى تتقدم القافلة حقل الالغام حيث ارتطمت بلغم فانفجرت ، وحاولت عربة القيادة نصف المجنزرة التى كانت من ورائها أن تتقدم عن يمين العربة المحترقة ، ولكنها ارتطمت هى الأخرى بلغم واحترقت ، وعلى ضوء النار المشتعلة فى هاتين المركبتين تمكنت قوة المؤخرة المصرية من تكثيف قصفها واحكام الضرب .

سارع المهندسون الاسرائيليون الى تطهير طـريق جديد عبر حقـل الالغام عن شمال وجنوب العربتين المحترقتين ، عندئذ قام بيلافسكى ــ الذى لم تكن اصابته خطيرة ــ باعادة تجميع طابوره ، وبدأ يزحف من جـديد ،

وتمكنت عدة مركبات نصف مجنزرة ودبابتان من عبور الطريق الجديد ، ولكن الدبابة الثالثة ارتطمت بلغم فأعطبها .. واستغلت نيران المدفعية المصرية والهاونات والرشاشات هذه الأهداف الواضحة الجديدة .

الساعة الآن الرابعة صباحا .. اى قبل شروق الشمس بساعة واحدة . ادرك قائد الكتيبة انه ان ظل الطابور ثابتا مكانه فقد يتم تدميره بالنهار .. ولذا بعث برسالة لاسلكية الى الكولونيل جيفلى ، قائد اللواء ، يسأله عما اذا كان عليه ان ينقل المركبات الباقية من المنطقة تحت جنح الظلام أم ان عليه ان يواصل زحفه ؟ ، ورد عليه جيفلى بأن عليه ان يستمر ، فقد كان مصمما على ان تتقدم الكتيبة وان تتم مهمتها .. فاذا لم يستطع الجنود التقدم بمركباتهم ، فعليهم ان يتحركوا سيرا على الاقدام .. غير انه كان من الواضح لجيفلى ان الكتيبة لا تستطيع أن تزحف مسافة سبعة أميال ونصف سيرا على الأقدام لتصل الى مفترق الطرق فى الموعد المحدد ، وتستولى على الموقع المصرى دون مساندة بالدبابات .. كان البديل الوحيد هو تطهير طـريق آخر عبر حقول الالغام ، لذلك ارسل من بقى من المهندسين للمساعدة فى التطهير .

تقدم المهندسون الاسرائيليون سيرا على الأقدام ، واخذوا يعملون تحت تصف المدافع ، وعلى ضوء الأنوار الكشافة من المركبات نصف المجنزرة . وفى الساعة الخامسة والربع ، كانوا قد اتمـوا الطريق الجديد شمالى المركبات المدمرة ، وعندما أشرق النهار كان ما تبقى من كتيبة بيلافسكى قد عبر دون وقوع اية حوادث أخرى ، وكانت تتقدم القافلة فصيلة استطلاع ، يليها سرب الدبابات والمصفحات نصف المجنزرة .

اشتركت قوات بيلافسكى مع كتيبة جولانى الثالثة فى العمل معـا ، وتحولت شمالا زاحفة صوب مفترق الطرق ، وبمساندة من المدفعية ، أخذت المدرعات نصف المجنزرة تقصف المواقع المصرية بوابل من نيرانها ، وسيطرت على مفترق الطرق التى كانت ترابط بها مؤخرة صغيرة من القوات المصرية التى انسحبت امام هذا القصف ، وفى التاسعة صباحا كان مفترق طرق رفح فى أيدى الاسرائيليين .

فى نفس الوقت ، كان الذراع الأيمن من كماشة التطويق قد بدأ من منطقة التجمع غرب منطقة الحشد الاسرائيلى حول الساعة الرابعة الا الثلث صباحا ، وكان يتقدم الزحف الجناح الأيمن من كتيبة جولانى بمدرعاتها نصف المجنزرة والشاحنات ، تليها مجموعة قتالية من دبابات شيرمان التابعة لقيادة باراليف . كان الزحف أصعب مما كان متوقعا ، حيث كان المدافعين متيقظين ، كما أن القصف المحكم من جانب مدفعية المصريين كان من شأنه أن تباطأ هذا التحـرك ، فلم يقترب الاسرائيليون من أهدافهم (التل ٢٩ والتل ٣٠) الا بعد الفجر بقليل ، ودار قتال شديد ، أخذت تضعف بعده مقاومة المصريين ، حيث كانت قد صدرت لهم الأوامر بالانسحاب صوب مفترق طرق رفح والعريش .

وفى هذا الوقت تقريبا ، ووفقا للخطة الموضوعة ، قامت كتيبة المشاة الميكانيكية التابعة لباريليف ومجموعة قتالية اخرى من دبابات شيرمان بالزحف شرقا ، ثم شمالى كتيبة جولانى عند اقترابها من التلين ٢٩ و ٣٠ ، وهنا اصبحت قوات باريليف هدفا لمدفعية المصريين ، وتعرضت مشاته لضربات قاسية من نيران المدفعية ... فقرر باريليف اشراك دباباته « اى — ام — اكس » الاحتياطية ، لضمان انجاز مهمته ، وفى الثامنة صباحا ، كانت قواته من المشاه والمدرعات تتحكم فى التلين ٣٤ و ٣٦ ، بينما كانت كتيبة جولانى تعزز مواقعها على التلين جنوبا وغربا ، وكان المصريون ينسحبون تماما من استحكامات رفح .

المطـاردة الى العريش ورمانة :

بعد ان امضى باريليف ساعة فى اعادة تنظيم قواته ، واجلاء الجرحى الاسرائيليين والمصريين ، بعث بدباباته الـ «اى.ام.اكس» على الطريق الى العريش ، وقبل العاشرة صباحا جاوزت الدبابات مفترق الطرق ، حيث اخذت تحييها قوات بيلانسكى .. ومن خلف هذه الدبابات وصل باريليف بدبابته الشيرمان ومركباته نصف الجنزرة ، ووجدت طلائع القوة الاسرائيلية ان الموقع المصرى فى شيخ زويد على مسافة عشرة كيلومترات من مفترق الطرق كان خاليا تماما . وعلى بعد ستة عشر كيلومترا ، قوبل اللواء ببعض نيران المدفعية قرب البرج ، ولكنه واصل زحفه . وعادت قوات باريليف تواجه النيران شرق العريش على مسافة ستة عشر كيلومترا ، وفى الساعة الثانية والنصف مساء تقدمت المدرعات الاسرائيلية الى الموقع ، اما المصريون فقد انسحبوا منه بعد جولات قصيرة من اطلاق النار .

وعلى مسافة ستة كيلومترات من العريش ، وجد اللواء السابع والعشرون موقعا مصريا آخر ، للتعويق ، ترابط به سريتان من المشاة من الكتيبة الحادية عشرة من لواء المشاة الرابع ، تسانده الأسلحة المضادة للدبابات ، وبطارية من ثمانى مدافع هاون عيار ٢٥ ، ولما كان الظلام لا يزال مخيما ، كما ان قوات باريليف قد ظلت طوال الليل والنهار فى حركة وقتال ، قرر باريليف تأجيل هجومه على ذلك الموقع حتى الصباح، واثناء الليل قامت قواته بالتزود بالوقود واصلاح المركبات ، ثم لجأت للراحة لبعض الوقت .

كان الأميرالاى جعفر العبد ، قائد الدفاع فى رفح ، قد تلقى الأوامر بالانسحاب فى الحادية عشرة من مساء الحادى والثلاثين ، وكان هذا طبعا قبل الهجوم الاسرائيلى ، ورد على ذلك بأنه لم يتعرض لأى ضغط وان فى وسعه الثبات فى موقعه .. غير ان اوامر الانسحاب تكررت بشكل قاطع ، فبعث العبد بتعليماته الى القادة التابعين له ، واستعد للقيام بانسحاب جرىء ، وعندما وقع الهجوم كان قد نفذ التعليمات بدقة ، وقامت قوات المؤخرة بتدمير الكثير من المهمات التى خلفوها وراءهم ، ولما اقترب الاسرائيليون انسحب المصريون بعد عمليات تعويق مستميتة .

وفى مساء اول نوفمبر ، شعر العميد العبد بارتياح ازاء الطريقة التى تم بها الانسحاب ، حيث استطاع معظم رجاله القيام بعمليات التعويق حسب الخطة ، غير ان بعض الوحدات كانت ملتحمة مع الاسرائيليين فلم تتمكن من تنفيذ عملية التعويق ، ومع ذلك قاتلت ببسالة وزادت من تعقيد الأحوال للاسرائيليين ، وكانت خسائر العبد اكبر مما كان يتوقع ، ولكنه اعتقد بأن الخسائر الاسرائيلية لم تكن اقل من خسائره .. (وهذا اعتقاد خاطىء) .

وبينما لجأ الاسرائيليون للراحة ، ولاعادة تنظيم صفوفهم ، والتزود بالوقود أثناء الليل ، كانت قوات العبد تواصل انسحابها على الطريق الى القناة ، وعند الفجر ، عندما بدأ باريليف هجومه على العريش ، كان العبد ومعظم رجاله قد عادوا الى القناة ، وكان اغلبهم قد عبروها فعـلا .. وهكذا عندما اندفع باريليف الى العريش وجد استحكاماتها خالية ، فسارع بارسال كتيبة الدبابات (اى. ام. اكس) غربا ، وقامت كتيبة اخرى بتطهير الطريق الى بير لهفان حيث اسرت الكثير من المصريين المنسحبين من ابو عجيلة .. ووصلت كتيبة الدبابات الى رمانة حول الخامسة مساء دون ان تلقى اية مقاومة .

المعارك من اجل غزة وخان يونس :

كان من شان استيلاء الاسرائيليين على رفح ، عـزل قطـاع غزة تماما ، وكان النصف الشمالى من القطاع ، والذى يضم مدينـة غزة ، يحتله ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل من لواء الحرس الوطنى السـادس والعشرين ، موزعين على أربعة عشر موقعا دفاعيا بطول الحدود الاسرائيلية وكانت تعزز هذه المخافر اربعة قطاعات كل واحد منها مزود بمدفعى هاون ١٢٠ وفصيلتين من داورية الحدود الميكانيكية ، وكان الدفاع عن النصف الجنوبى من قطاع غزة يقوم على خان يونس ، حيث يتحكم اللواء الفلسطينى السادس والثمانون فى ثلاثة مواقع كبيرة من حول المدينة ، يضم كل واحد منها كتيبة واحدة ، وكانت هذه المواقع معززة بمدفعية مركزية معظمها من الهاون ١٢٠ مم ، فلما كان قد تم قبل نقل اللواء الفلسطينى السابع والثمانين الى رفح ، فانه قد اخذ يتراجع الى القناة مع الوحدات المصرية الأخرى .

عهد بمهمة الاستيلاء على قطاع غـزة الى لواء المشـاة الاسرائيلى الحادى عشر بقيادة الكولونيل اهارون دورون ، وكان يتألف من كتيبتى مشاة وسرية استطلاع تعززها كتيبة مدافع هاون ثقيلة ، وكان ملحقـا باللواء مجموعة مدرعة من الدبابات والمركبات ونصف المجنزرات من اللواء المـدرع السابع والثلاثين .

تضمنت خطة دورون القيام بهجمات فى نفس الوقت على مدينـة غزة من ثلاثة اتجاهات وذلك بعد فجر الثانى من نوفمبر بقليل ، وكان على كتيبته الأولى ، التى الحقت بها بطارية مدافع هاون ثقيلة ، أن تضرب غـزة من

الشرق ، وكان على الكتيبة الثانية ، التى كان ملحقا بها هى الاخرى بطارية هاون ثقيلة ، ان تقوم بالهجوم من الشمال ، كما كان على المجموعة المدرعة التابعة للواء السابع والثلاثين ، مع البطارية الثالثة من الهاون الثقيلة الملحقة بها ، ان تعبر الحدود على مسافة ثلاثة كيلومترات جنوبى غزة ، وتقوم بالقصف شمالا كى تدخل المدينة من الجنوب .

بدا الهجوم على غزة فى السادسة صباحا ، وكانت المقاومة متقطعة ، وبالرغم من اشتداد القتال من وقت لآخر ، تم احتلال الجزء الاكبر من المدينة عند الظهر .

كان البريجادير المصرى محمود فؤاد الدجوى ، حاكم غزة ، مهتما بتفادى خسائر فى الارواح لا داعى لها ، وادرك ان المقاومة ميؤوس منها على ضوء الانسحاب المصرى العام ، لذلك قام بتسليم المدينة فى الساعات الاولى من بعد الظهر ، وتولى اللواء الثانى عشر مشاة الاسرائيلى مسئولية تأمين غزة والجزء الشمالى من القطاع ، بينما تحرك اللواء الحادى عشر جنوبا الى خان يونس .

واثناء الليل ، رابطت القوات الخاصة الثلاث من اللواء الحادى عشر شمالى خان يونس وغربيها ، وقامت بالهجوم فى الثالث من نوفمبر . توقفت الوحدة المدرعة لوقت قصير عند مشارف المدينة امام قصف من الرشاشات والمدفعية المضادة للدبابات .. ومع ذلك امكن فى النهاية بتعزيز من المشاة القضاء على هذه المقاومة الاولية ، وتدفقت كتيبة دوروون الثانية على المدينة .

وفى الساعة الواحدة والنصف ، تم الاستيلاء على آخر موقع دفاعى فى قطاع غزة .

وزحف اللواء الحادى عشر جنوبا لينضم الى اللواء الاول فى رفح ، بعد ان فقد احد عشر قتيلا ، وسقط منه خمسة وستون جريحا ، فى ذلك القتال الذى استمر يومين .

(٨)

ختام حملة سيناء

المنطقة الوسطى من سيناء

—

فى ساعة متاخرة من يوم ٣١ اكتوبر ، عسكر الكولونيل بن آرى ، مع كتيبة مزودة بدبابات طراز AMX وعربات نصف جنزير ، بعيدا فى العراء ، فى مقدمة بقية الجيش الاسرائيلى ، على الطريق الواقع بين جبل لبنى وبير جفجافة ، وعند منتصف الليل تقريبا تلقى الكولونيل امرا من جنرال ديان مباشرة يقضى بمواصلة التقدم نحو الغرب صباح اليوم التالى . وفى الساعة السادسة من صباح غد ذلك اليوم ، تمكنت كتيبتا الكولونيل من عبور بير حمة ، ووصلتا الى بير روض سالم ، الذى يعد بمثابة قاعدة الامدادات المصرية الرئيسية وسط سيناء ، وبينما كانت دبابات طلائع القوات الاسرائيلية تقترب من القاعدة ، تعرضت لنيران احدى الوحدات المدرعة المصرية التابعة للفرقة الرابعة مدرعات ، وتقوم بمهمة حراسة مؤخرة الجيش للقوات ، التى كانت لا تزال تواصل انسحابها من بير جفجافة ، واسفر تبادل اطلاق النيران عن اتلاف ثمانى دبابات مصرية ، وتدمير العديد من الدبابات الاسرائيلية ، ولما انجز المصريون مهمة التعويق، انسحبوا بعدها ، وفى الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم دخل الاسرائيليون القاعدة ، وواصلت سرية مزودة بتسع دبابات تقدمها غربا حتى الطريق المؤدى الى بير جفجافة لملاحقة المصريين .

رغم ذلك ، وعلى بعد ثمانية كيلومترات غربى بير روض سالم ، تعرضت الدبابات الاسرائيلية من جديد لنيران الدبابات والمدفعية الكثيفة ، وبعد ساعات من اطلاق النيران بعيدة المدى على نحو غير حاسم ، وبعد تدمير دبابتين ، عاد الاسرائيليون الى بير روض سالم للتزود بالوقود واخلاء الجرحى .

على ضوء ما ظهر للعيان من قوة هذه المقاومة ، امضى بن آرى بقية النهار وطيلة الليل فى اصلاح واعداد دباباته وعرباته النصف جنزير، لمواجهة تجدد القتال صباح اليوم التالى . وقبيل بزوغ فجر الثانى من نوفمبر ، كان بن آرى قد غادر بير روض سالم وتقدم بقواته الى بير جفجافة ، معتقدا ان لواء المدرعات المصرى الاول لايزال يسيطر عليها ، غير ان

الاسرائيليين عندما وصلوا الى بير جنجافة فى ضحى ذلك اليوم ، كان المصريون قد انسحبوا جميعا الى منطقة القناة .

واصل اللواء السابع مدرعات سيره حتى التقى فى حوالى الساعة الرابعة مساء عند كثيب الصبحة — ويقع فى منتصف الطريق تقريبا ما بين بير جنجافة والاسماعيلية — بمؤخرة اللواء الأول مدرعات المصرى ويضم فصيلة مزودة بدبابات تى — ٣٤ ، وفصيلة مزودة بدبابات آى يو — ١٠٠ وسرعان ما وقع اشتباك قصير وعنيف ، أسفر بالنسبة للمصريين عن تدمير اربع دبابات من طراز تى — ٣٤ ، واربع دبابات من طراز آى يو ١٠٠ ، وانسحب ما تبقى من الدبابات الى منطقة القناة ، فى حين لم يتكبد الجانب الاسرائيلى اية خسائر،مع غروب الشمس وصل بن آرى مع قواته الى هدفهم، عند خط يقع على مسافة عشرة اميال من القناة ، هناك توقف الجميع استجابة « للانذار » الانجلو فرنسى الذى كان بطبيعة الحال قد تمت الموافقة عليه فى مدينة سيفر .

الهدف : شرم الشيخ :

كان احد الأهداف الرئيسية للمجهود الحربى الاسرائيلى يتمثل فى فك حصار خليج العقبة ، الذى فرضته القوات المصرية المرابطة فى شرم الشيخ ، على مقربة من الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء . أما مهمة الاستيلاء على هذا الحصن المصرى فقد عهد بها الى اللواء التاسع الميكانيكى بقيادة الكولونيل افراهام يوفى ، وكان يتعين على اللواء التقدم نحو الساحل الشرقى لشبه الجزيرة ، تدعمه قوة بحرية خاصة صغيرة فى الخليج ، غير أن تقدم اللواء كان متوقفا على بدء سير كافة العمليات الحربية الكبرى الأخرى على اتم وجه ، ذلك لأن ديان لم يشأ أن يتعرض اللواء لهجوم جوى حتى يتسنى له التأكد من تدمير السلاح الجوى المصرى او شل حركته .

كان اللواء التاسع يتشكل من جنود احتياط من شمال اسرائيل ونقاط تمركز بالقرب من حيفا ، شرع الكولونيل يوفى فى ٢٨ اكتوبر — وبعد تعبئة القوات استعدادا للعمليات المرتقبة — فى تحريك لوائه صوب الجنوب عن طريق مختلف انواع العربات المدنية التى تسنى له تجنيدها لهذا الغرض ، وكان ان وقع الاختيار على راس النقب كنقطة انطلاق لهجومه ، وهى تعد بمثابة نقطة اتصال فى شرق سيناء على الجانب الآخر مباشرة عبر الحدود المصرية من ايلات ، وكانت التعليمات الصادرة ليوفى تقضى بأن يصل الى راس النقب على نحو لا يتسنى للأردنيين ملاحظته . ومن ثم ، فقد تقرر عدم السير فى الطريق الرئيسى الموصل من بير سبع الى ايلات ، بل السير فى ركاب لواء شارون الى الكونتيلا ، بعدئذ يجتاز الصحراء صوب الجنوب الشرقى حتى يصل الى راس النقب فى الجانب المصرى من الحدود ، وفى نفس الوقت ، وعند غروب شمس التاسع

والعشرين من اكتوبر ، استولت فصيلة من سلاح المهندسين وقوات الاستطلاع من ايلات على راس النقب ومهدت الطريق عبر حقول الالغام التى زرعها المصريون ما بين راس النقب والحدود .

فى الساعة العاشرة من مساء الحادى والثلاثين من اكتوبر تمركز لواء يوفى فى الكونتيلا وسرعان ما رحل عنها الى راس النقب ، التى وصل اليها مع اصيل اليوم الأول من نوفمبر ، هناك رابط فى انتظار صدور اوامر لمواصلة التقدم صوب الساحل .

قبيل الساعة الخامسة من صباح اليوم الثانى من نوفمبر بقليل تلقى يوفى امرا عبر اجهزة اللاسلكى من الجنرال ديان بالتقدم على النحو المزمع ، بعدها ببضعة دقائق رحل اللواء التاسع من راس النقب عبر طريق صحراوى داخلى يبعد عن الساحل بحوالى ١٥ كيلو مترا .

كان من المتعذر اجتياز الـ ١٤٠ كيلو مترا الأولى ، نظرا لوعورة المنطقة حتى أن المركبات كثيرا ما كانت تغوص فى الرمال ، كما كانت درجة الحرارة مرتفعة بصفة عامة .

كان الطابور يتكون من ثلاث كتائب ، وبطارية مدفعية ، وبطارية مورتار ثقيلة ، وسرية استطلاع ، وقوات مدفعية خفيفة مضادة للطائرات، علاو على فصائل من سلاح المهندسين والخدمات ، وكان يوفى قد خلف من ورائه جميع الكتبة والطهاة ، حتى يتسنى له تخفيض قوته لأقل من ١٨٠٠ جندى ، تحملهم ١٠٤ مركبة . مساحتها ٦ × ٦ ، و ٣٢ عربة قيادة ، و ١٤ عربة نصف مجنزرة ،و ٣٤ عربة جيب ، وكان فى حوزة اللواء من المؤن الغذائية ما تكفيه لمدة خمسة ايام ، ومن الوقود ما يلزم لقطع ٦٠٠ كيلو متر ومن الماء ما يكفى لتزويد كل جندى بخمسة لترات يوميا وكل عربة بأربعة لترات فى اليوم لخمسة ايام .

تحركت طلائع اللواء ، وتضم سرية من المشاة فى عربات جيب ونصف مجنزرة ، ومجموعة من القوات مزودة بأربعة مدافع مورتار عيار ٨١ مللميتر وفصيلة من سلاح المهندسين ، وتقدمت ما يقرب من ٣٠ كيلو مترا عن القوة الرئيسية . فى الساعة الواحدة بعد الظهر كانت القوة الضاربة من القوة الرئيسية قد وصلت الى عين فورتاجة ، وتقع على قرابة ١٠٠ كيلو متر جنوب راس النقب ، ولابد للمرء من ١٣ ساعة حتى يتسنى له قطع الـ ١٥ كيلو مترا التالية ، ويخترق امتداد هذا الطريق وتربة رملية عميقة فوق وادى زالة ، حيث يختفى اثر الطريق تماما . ورغم أن العربات نصف المجنزرة بوسعها شق هذه المنطقة الوعرة على نحو بطىء ، الا ان المدفعية والأسلحة المضادة للطائرات كانت تغوص حتى آخرها فى الرمال ، وكان لابد من دفعها وجرها وسحبها ولم تكن هذه سوى البداية .

المظليون يدخلون مسرح العمليات :

كان ديان رئيس الأركان على ادراك تام بمشقة الطريق الـذى عهد به الى اللواء التاسع ، ونظرا لاتساع نطاق العمليات الحربية فى اماكن اخرى من سيناء على نحو سريع ، فى الوقت الـذى كانت فيه القوات الاسرائيلية تقترب من مواقعها النهائية على بعد عشرة أميال شرقى القناة ، خشى ديان من سريان مفعول وقف اطـلاق النار قبل الاستيلاء على شرم الشيخ ، ومن ثم فقد قـرر التعجيل بعملية الاستيلاء على شرم الشيخ ، وذلك عن طريق ارسـال جـزء من لواء المظلات التابع لشارون ليتقدم جنوبا صوب خليج السويس ، وصـدرت الأوامر الى شارون ارسال كتيبة لتنفيذ هذه المهمة ، كما تم ارسـال كتيبة من اللواء الرابع الى نخل لنجدة الكتيبة التى كان قد خلفها هناك .

بعد غروب شمس اليوم الأول من نوفمبر بوقت قصير انضمت الكتيبة الثالثة القادمة من نخل ، الى القـوة الرئيسـية للواء فى المنطقة التى تقع مباشرة شرقى ممر متلا ، وفرغ شارون وجنوده من اخلاء الجرحى نتيجة القتال العنيف الـذى دار طـوال ساعات نهار وليل اليوم السابق ، ثم خلدوا الى قليل من الراحة اثناء النهار ، وقاموا فى نفس الوقت باعادة تنظيم المواقع الدفاعية التى احتلوها مساء اليوم السابق على نحو سريع ، وبينما كانت ثمة سريتان من الكتيبة الثالثة تتأهبان طـوال الليل لعملية اسقاط جـوى على شواطىء خليج سيناء ، كان هنـاك فى الوقت نفسه اللفتنانت كولونيل ايتان وسريتان من الكتيبة الأولى تتأهبان للتحرك بطريق البر للانضمام للكتيبة الثالثة .

بعد ظهر اليـوم الثانى من نوفمبر بوقت قصير ، هبطت السريتان بالمظلات فى مطار الطور ، ولديها اوامر بالاستيلاء على المدينة ، بينما تحركت كتيبة المظـلات الأولى جنوبا فى اتجاه راس سعد مرورا بعين سدر ، ومما له دلالته أن يرسل شـارون قوته من حـول ممر متلا ، بدلا من سلوك الطريق المباشر عبر ممر متلا ، الأمر الذى أوضح بشكل قاطع تقديراته لما اسفر عنه القتال الـذى نشب فى يـوم ٣١ اكتوبر من نتائج .

فى اعقاب الاستيلاء على نقطة مراقبة الطـور ، تم اصـلاح ممر الطائرات وسرعان ما هبطت به احـدى الطائرات الاسرائيلية ، وكانت بمثابة اول طائرة تصل من سلسلة طائرات النقل التى توالت بعد ذلك وعددها ٢٥ طائرة ، حملت الطائرات كتيبة مشاة من اللواء الثانى عشر ، والمزيد من الأسلحة والذخيرة للمظليين ، الذين تم اسقاطهم من الجو ، واولئك الذين قدموا عن طريق البر من اقصى الشمال .

عند فجر يوم الثالث من نوفمبر استولى ايتان وسريتان من الكتيبة الأولى على حقول البترول فى راس سدر ، ثم تقدم جنوبا الى الطور ، نوصلها

بعد ظهر ذلك اليوم ، وقبيل الليل بـدات القـوات المشتركة المهمة — الكتيبة الأولى من لواء المظلات (٢٠٢ د) (وتضم سريتين من الكتيبة الثالثة) ، وكتيبة لواء المشاة الثانى عشر — فى التحرك جنوبا صوب شرم الشيخ ، كان ذلك تحت قيادة اللفتانت كولونيل ايتان .

فى نفس اليوم ، وعقب فترة قصيرة من الراحة عقب الاجهاد فى وادى زالة ، واصل اللواء التاسع تقدمه نحو الجنوب ، وعند الضحى استولت طلائع القوات الاسرائيلية على قرية دهب الساحلية ، وموقع امامى مصرى ، ووصلت القوة الرئيسية قبيل الظهيرة ، وواصلت طلائع القوات الاسرائيلية سيرها جنوبا ، غير ان القوة الرئيسية للواء كانت مكثت فى دهب حتى المساء ، حتى هبطت طائرتان من ايـلات تحملان المزيد من المؤن الغذائية والوقود والمـاء ودبابة من طراز A M X ، فى السادسة من مساء ذلك اليوم كان اللواء يواصل سيره على الطريق من جديد .

وقف اطـلاق النار وارتباك الحلفاء :

رفضت فرنسا وبريطانيا قرارات مجلس الأمن بشأن وقف اطلاق النار فى ٣٠ اكتوبر ، وذلك عن طريق استخدام حق الفيتو ، فدعا مجلس الأمن فى اليوم التالى الأول من نوفمبر الجمعية العامة للأمم المتحدة الى عقد اجتماع طارىء ، بناء على رغبة الولايات المتحدة ويوغوسلافيا . فرفضت بريطانيا وفرنسا القرار مرة اخرى ، غير انه لـما كان الأمر يتعلق بمسالة ادارية ، فقد حال ذلك دون استخدامهما لحق الفيتو ، ووافقت الجمعية فى الاجتماع الـذى عقد فى الأول من نوفمبر على مشروع قرار امريكى يدعو الى وقف اطـلاق النار فورا ، وانسحاب الاسرائيليين الى ما وراء حدود هدنة ١٩٤٩ ، وفتح قناة السويس للملاحة ، كما يدعو القرار الأعضاء الآخرين الى « الامتناع عن ادخال معدات حربية الى المنطقة » ، وكان على مصر واسرائيل وبريطانيا وفرنسا الاذعان فورا لأمر وقف اطلاق النار .

فى نفس الوقت ، كانت مصر قد أغلقت القناة باحكام ، وذلك عن طريق اغراق عدد من السفن فى ممراتها الضيقة ، واوقف الجيش السورى — الذى كان يتحاشى فى ذات الوقت الدخـول فى معارك سافرة مع اسرائيل — تدفق بترول العراق الى البحر المتوسط ، ومن ثم برز الضغط الاقتصادى الى جانب الثقل السياسى والدبلوماسى ، الذى بـدا يثقل على كاهل حكومة ايدن ، التى كانت تواجه انتقادات من الداخل والخارج من جراء اسـتياء الـراى العـام .

فى اليوم التالى من نوفمبر ، طلب مندوب اسرائيل لدى الأمم المتحدة من السكرتير العام الحصول على ايضاحات للقرار الصادر فى الأول من نوفمبر ، وتنصلت بريطانيا وفرنسا — اللتان كانتا تسعيان لكسب الوقت ، بينما كانت تعمل اساطيلها الصغيرة الغازية فى البحر المتوسط — من تنفيذ

هذا القرار ، وتقدمت الدولتان بقرار يرمى الى تشكيل قوة طوارىء دولية بغية تدعيم السلام والابقاء على القناة مفتوحة ، واصرتا فى الوقت نفسه على موافقة مصر على دخول القوات الفرنسية والبريطانية الى منطقة القناة حتى يتم تشكيل قوة الطوارىء الدولية وتتولى مهامها .

فى اليوم الثالث من نوفمبر عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة اجتماعا آخر ، واعلن همرشولد السكرتير العام ان مصر وافقت على قرار وقف اطلاق النار ، ولكن اسرائيل وبريطانيا وفرنسا لم تستجب للقرار ، ووافقت الجمعية على مشروع قرار تقدم به ليستر بيرسون مندوب كندا ، يدعو الى تشكيل قوات الطوارىء الدولية بناء على الاقتراح البريطانى الفرنسى ، ويدعو فى الوقت نفسه الى وقف اطلاق النار . وافقت مصر من جديد على القرار فى حين امتنعت اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، وبناء على تعليمات صادرة من بن جوريون — الذى كان ينتظر استيلاء القوات الاسرائيلية على شرم الشيخ فى المساء — وافق ايضا ابا ايبان — مبعوث اسرائيل لدى الأمم المتحدة — على القرار .

كان وقع موافقة اسرائيل على قرار وقف اطلاق النار بمثابة صدمة ومدعاة للفزع بالنسبة للبريطانيين والفرنسيين ، الذين كانت لهم قوات برمائية ضخمة فى البحر تتجه صوب الطرف الشمالى لقناة السويس قادمة من قبرص ومالطة والجزائر ، وكان من شأن وقف اطلاق النار فى سيناء ، انتفاء الأساس المنطقى للغزو الأنجلو فرنسى ، الذى كان على وشك ان يتم بغرض حماية قناة السويس من أخطار الحرب التى تتهددها .

سارعت الحليفتان بالاتصال ببن جوريون رئيس وزراء اسرائيل ، وطلبتا منه ارجاء موافقته على قرار وقف اطلاق النار حتى يتسنى توفير فسحة من الوقت لتنفيذ عملياتهما ، فما كان من بن جوريون الا ان انقذ حليفتيه من ورطتهما بمهارة متقنة من خلال مناورة دبلوماسية بارعة وعاجلة ، فقد اوضح ابا ايبان فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الرابع من نوفمبر أن موافقة اسرائيل على قرار الجمعية العامة مشروط بالموافقة على « ردود ايجابية مرضية » من مصر على خمسة استفسارات :

١ — هل ثمة موافقة واضحة وصريحة من جانب حكومة مصر على وقف اطلاق النار ؟ (وهو سؤال لا معنى له ، غير انه يفيد فى التأجيل لبضع ساعات على الأقل) .

٢ — هل لازالت مصر عند موقفها الذى طالما اعلنت وتمسكت به عبر السنين من انها فى حالة حرب مع اسرائيل ؟ (وهو سؤال صيغ بهذه الصورة ، بحيث يتعذر اعتبار اى رد محتمل من جانب مصر « مرضيا ») .

٣ — هل مصر على استعداد للدخول فى مفاوضات مباشرة مع اسرائيل ، بغية اقرار السلام بين الدولتين كما نصت عليه المذكرة التى قدمتها حكومة اسرائيل فى الرابع من نوفمبر الى السكرتير العام للأمم المتحدة ، حيث لا يوجد ثمة احتمال للحصول على رد « ايجابى » مبكر من جانب مصر على هذا السؤال ، وحكومتها لم تطلع بعد على هذه المذكرة) .

٤ — هل توافق مصر على انهاء المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل ورفع الحصار المفروض على الملاحة الاسرائيلية فى قناة السويس ؟ (سؤال جوهرى ، غير انه من المرجح عدم الرد عليه بشكل فورى « ايجابى ومرضى ») .

٥ — هل تلتزم مصر باستدعاء عصابات الفدائيين الخاضعة لسيطرتها وتلك الموجودة فى الدول العربية الأخرى ؟ (وهو سؤال يمكن بكل بساطة مقارنته بسؤال من هذا القبيل « متى تكف عن ضرب زوجتك » ؟) .

هكذا تسنى توفير الوقت اللازم لمواصلة العمليات الاسرائيلية والأنجلو فرنسية عن طريق هذه المناورات الدبلوماسية فى الأمم المتحدة ، فاستمرت الحرب ، ورغم ذلك ، حرص البريطانيون على عدم السماح بتكرار هذا الموقف الحرج ، وعندما صوت مجلس الأمن من جديد على قرار وقف اطلاق النار فى الخامس من نوفمبر اعترض المندوب البريطانى على الموافقة على القرار .

معركة شرم الشيخ :

فى نفس الوقت ، وفى يوم الثالث من نوفمبر ، كانت القاذفات المقاتلة الاسرائيلية قد دمرت اثنين من اربعة مدافع عيار ٣ بوصة ، فى راس نصرانى ، التى تطل على مضيق تيران ، كذلك الحقت الطائرات اضرار بالغة بالورش ومنشآت تنقية المياه وخزانات الماء فى شرم الشيخ ، ثم اسقاط واحدة من هذه الطائرات الاسرائيلية ، وعلم العقيد زكى من الطيار الاسرائيلى الأسير الجريح ان طابورين فى طريقهما الى موقعه من جهتى : الشمال الشرقى والشمال الغربى .

فما كان من العقيد الا ان قرر التخلى عن موقعه فى راس نصرانى ، وجمع قواته كلها فى شرم الشيخ ، حيث كان ثمة ممر للطائرات وميناء ، وفى ذلك الحين قد تم نسف ما تبقى من مدافع السواحل ، وتم الانسحاب بعد ان حل الظلام ، وفى ليل يومى الثالث والرابع من نوفمبر ، وصل قاربان مصريان الى شرم الشيخ ، لالتقاط الجرحى ، بما فيهم الطيار الاسرائيلى الأسير ، وكافة المدنيين ، حيث عادوا الى السويس .

قبيل منتصف الليل من ذلك اليوم ، كانت طلائع اللواء التاسع قد وصلت الى وادى كيد ، وابلغت عبر أجهزة اللاسلكى ان عرض الطريق

لا يزيد على ستة اقدام ، وانه مغطى بصخور ضخمة ، على اثر ذلك ، قرر يوفى نسف الكتل الصخرية وتوسيع الطريق حتى يتسنى مرور دباباته وعرباته النصف جنزير ، وسارع بارسال سلاح المهندسين الى المنطقة فى الحال .

فى غضون ذلك ، وعند وصول طلائع القوات الاسرائيلية الى الموقع على بعد كيلو متر ونصف الكيلو متر من نهاية الوادى ، حدث ان وقعت الطلائع فى كمين مصرى ، فقد تحطمت السيارة الجيب التى كانت فى المقدمة من جراء انفجار لغم فى الوقت الذى فتح فيه المصريون نيران مدافع البازوكا والرشاشات والقنابل اليدوية ، فانسحبت جماعة المقدمة بعد ان ردت على النيران بالمثل ، وانضمت الى القوة الرئيسية للواء فى الساعة الثانية صباحا لحظة دخولها الوادى من جهة الشمال .

قرر يوفى المبيت ليلة واحدة فى هذا الموقع ، وعند الفجر ارسل طلائع الجيش الى موقع الكمين ، بينما كانت طائرات الاستطلاع التابعة للواء تقوم بارتياد المنطقة من اعلى ، وتقدمت الطلائع ، عندما اعلن الطيارون ان المنطقة خالية على ما يبدو ، غير انهم سرعان ما اكتشفوا ان الطريق مسدود بعدد هائل من الالغام المضادة للعربات ، تم زرعها على امتداد الطريق .

مرة اخرى تم استدعاء سلاح المهندسين ، فازال بعض الالغام وشق طريقا عبر حقول الالغام ، وفى الساعة التاسعة تمكن اللواء كله من مواصلة التقدم ، وفى الساعة ١١ر٤٥ كانت الطلائع على مراى من راس نصرانى ، واجتاز اللواء هذا الموقع دون توقف ، وتقدم نحو سلسلة جبلية تبعد عن شرم الشيخ بخمسة كيلو مترات شمالا ، هناك ، وقبيل الساعة الثانية مساء ، تم الاستيلاء على الموقع المصرى دون مشقة تذكر ، ومع ذلك ، سرعان ما تعرض اللواء لنيران شديدة ومحكمة من مواقع الجبال المجاورة ، ونجاة ، قرر يوفى وقف العمليات ، وسمح لرجاله بقسط ضئيل من الراحة .

عند منتصف ليلة الرابع من نوفمبر ، اعد اللواء التاسع عدته لتجديد هجومه ، وفى حوالى الساعة الثانية صباح يوم الخميس من نوفمبر ، بدا الهجوم ، وكان الهدف المحدد من الهجوم هو الاستيلاء على موقع دفاعى لسريتين مصريتين فى الجانب الشمالى الغربى لدفاعات شرم الشيخ ، وصلت سرايا الهجوم الى سياج الاسلاك الشائكة المحيطة بالموقع المصرى ، غير انها تعرضت لنيران شديدة ، حتى انها عجزت عن عبور حقل الالغام داخل السياج ، واسفر الهجوم عن خسائر للكتيبة فى الارواح بلغت ٢٠ قتيلا ، فاصدر يوفى اوامره بالانسحاب ، وتم نقل الجرحى فى عربة نصف جنزير الى قاعدة اللواء التى تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات صوب الشمال.

فى الساعة ٣٠ر٥ شن يوفى هجوما جديدا ، مستخدما مدافع المورتار الثقيلة وتعزيزات جوية ، ودفع فى هذا الهجوم بكل افراد قوته ، باستثناء

الكتيبة التى كان قد عهد اليها بمهمة تنفيذ الهجوم السابق ، وكانت تقوم بمهمه الاحتياطى ، وبعد حوالى الساعة من القتال العنيف على امتداد المنطقة الشمالية التى تحيط بدفاعات شرم الشيخ . شقت فصيلة عربات جيب من الطلائع طريقها الى المواقع المصرية ، ورغم الدفاع المستميت ، استولى الاسرائيليون على موقع تلو الآخر . وفى الساعة ٣٠ر٩ استسلم الموقع العسكرى فى شرم الشيخ الذى كان تحت القيادة الثانية للمقدم حنا نجيب ، نائبا عن العقيد زكى ، الذى كان قد اصيب بجراح وبلغت الخسائر المصرية ما يقرب من مائة قتيل و ٣١ جريحا و ٨٦٤ اسيرا . اما فى الجانب الاسرائيلى ، فقد تكبد اللواء التاسع من جراء الحملة باسرها ١٠ قتلى و ٣٢ جرحى .

فى نفس الوقت ، حاصرت قوات ايتان من المظليين والمشاة ، التى كانت تتقدم نحو شرم الشيخ على امتداد الطريق الساحلى لخليج السويس ، الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، وبعد الساعة الخامسة بقليل ، كانت القوات تقترب من شرم الشيخ من ناحية الجنوب الغربى ، وفى غضون ذلك ، قامت بالاتصال عبر الاجهزة اللاسلكية ، باللواء التاسع ، وفى الساعة ٣٠ر٦ حملت طائرة الاتصال باللواء التاسع رسالة الى ايتان .

كان يوفى ، الذى انهمك فى اعداد الترتيبات النهائية لهجومه الخاص الكبير قد طلب من القوات الواقفة مؤخرا ، التقدم فى حدود ٢٠٠٠ ياردة من الموقع المصرى بهدف جذب اهتمام المصريين عن طريق اطلاق النيران ، ولكن عليها الانتظار هناك لتلقى تعليمات اخرى ، ورغم ذلك ، فقد ادرك ايتان قبيل الساعة ٣٠ر٨ ان الدفاعات المصرية بدات تنهار فى الشمال ، وقرر الاستفادة من الموقف عن طريق اختراق الموقع من الجنوب ، كانت المقاومة لا تكاد تذكر ، وفى الساعة ٣٠ر٩ وصلت اول عربات نصف جنزير تقل المظليين الى مدخل مركز القيادة المصرى ، الأمر الذى اسهم فى قرار الاستسلام المصرى .

اعقب ذلك ، فى اقل من سبعة أيام ، أن هبط ايتان برفقة أول كتيبة مظليين شرقى ممر متلا ، وشاركوا فى العملية التى أتم فيها الجيش الاسرائيلى غزوه لشبه جزيرة سيناء ، وكانت بمثابة النهاية لكافة العمليات الحربية بين الاسرائيليين والمصريين فى ذلك الحين . فانتهى الأمر الى مرابطة كل القوات المصرية المتبقية غرب القناة . وتوقف الاسرائيليون على بعد عشرة اميال شرقها ، ورغم ذلك ، وقبيل سقوط شرم الشيخ بثلاث ساعات ، بدا المصريون فى محاربة عدو آخر فى الطرف المقابل لسيناء .

(٩)

عملية « المسكتير »

فى مركز قيادة الحلفاء فى مالطة ، تلقى جنرال سير هيو ستوكويل ، قائد القوات البرية للحلفاء ، ونائبه الجنرال اندريه بوفر ، نبأ نشوب الحرب التى شرع فيها الاسرائيليون فى ساعة متأخرة وبعد ظهر يوم ٢٩ اكتوبر، احتشدت المدمرات البريطانية بعد ظهر ذلك اليوم فى مالطة وقبرص استعدادا لمواكبة الأساطيل الغازية ، فى نفس الوقت ، بدأت ثلاث مدمرات فرنسية هى : الكيرسان والبوفيه والسوركوف ، فى القيام بدوريات على ساحل البحر المتوسط على مقربة من حيفا وتل ابيب .

كانت الأوامر قد صدرت الى الجنرال ستوكويل بعدم القيام بأية تحركات علنية ، كصعود قواته الى سفنها على سبيل المثال ، حتى بداية الهجوم الجوى للحلفاء على القواعد المصرية.ولكن ، لم تكن قد صدرت اليه اوامر بالغاء اية تدريبات او تمرينات مقررة ، وكان قد اصدر اوامره عن روية ، للقيام بتمرينات التأهب فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ، الثلاثاء ٣٠ من اكتوبر ، ومن ثم ، فى الوقت الذى اصدرت فيه الحكومتان البريطانية والفرنسية انذارهما للحكومتين المصرية والاسرائيلية ، كانت غالبية القوات قد نزلت الى سفنها ، فأصدر ستوكويل اوامره بمواصلة التدريبات طوال الليل واغفل اصدار الأوامر للقوات بالعودة الى ثكناتهم فى اليوم التالى .

من ثم ، وعندما حدث القصف الجوى الانجلو فرنسى على مصر فى الساعة السابعة من بعد ظهر يوم ٣١ اكتوبر ، كان الأسطول الانجلو الفرنسى البرمائى فى وضع استعداد تام . الأمر الذى ساعد فى توفير يوم كامل من تنفيذ الخطة الأصلية ، مما اتاح الفرصة لستوكويل بتقديم موعد الهجوم من ٨ نوفمبر الى ٧ نوفمبر ، وأبحرت الأساطيل الصغيرة الرئيسية من ميناء فاليتا فى ليل يومى ٣١ اكتوبر والأول من نوفمبر ، واتجهت صوب الشرق ، وفى نفس الوقت تقريبا ، غادرت فرقة من السفن الفرنسية البرمائية ميناء قسطنطينية بالجزائر ، واستقرت على بعد بضع أميال خلف القافلة البريطانية الفرنسية الرئيسية ، وفى اليوم التالى ، تم تجهيز فرقة اخرى فى قبرص واعدت للانضمام الى القوة الرئيسية فى الجانب الجنوبى الشرقى من البحر المتوسط فى يوم السادس من نوفمبر .

بينما كان القصف الجوى الانجلو فرنسى موجه من جديد لضرب قضبان السكك الحديدية ، ومواقع المدافع المضادة للطائرات ومناطق الثكنات العسكرية ، كانت القوافل البرمائية تبحر صوب الشرق ، وكان ستوكويل وبوفر يستشيطان غضبا لبطء سفنهما .

حرص الحلفاء ، أثناء هذه الغارات الجوية حرصا شديدا على تجنب الحاق خسائر مدنية ، وفى ليلة اليوم الاول من نوفمبر ، قام سرب من الطائرات الفرنسية من طراز ف — ٨٤ ثندر ستريك القادمة من قبرص بقصف الجنوب مرورا بسيناء والصحراء الغربية حتى الاقصر ، حيث دمرت البقية الباقية من القاذفات المصرية اى ال — ٢٨ .

فى اليوم الثالث من نوفمبر ، وبعد اجراء مشاورات مع قائد القافلة البحرية ، اصبح فى مقدور ستوكويل كسب يوم آخر فى جدوله الزمنى ، وذلك من خلال زيادة سرعة السفن البطيئة فى قافلته عن السرعة العادية ، بينما تكون السفن السريعة اكثر سرعة لتحتل مواقعها فى تشكيل يعاد تنظيمه للقافلة ، وعلى اية حال ، كان الضغط الداخلى العالمى على الحلفاء ، ولا سيما بالنسبة لبريطانيا ، يتزايد باطراد .

اثار الهجوم الانجلو فرنسى على مصر — الذى لم يكن واضحا حتى تلك الآونة سوى فى العمليات الجوية — عاصفة من الاحتجاج الدولى(١) ، وكان رد فعل الحكومة الأمريكية عنيفا بصفة خاصة ، ذلك أن الرئيس ايزنهاور ومساعديه اعتقدوا — وكانوا على حق فى هذا الاعتقاد — ان اقرب حليفتين لهم ، وهما بريطانيا وفرنسا قد تعمدتا تضليلهم ، غير ان اكثر ردود الفعل عنفا ربما صدرت من البرلمان البريطانى حيث جمعت المعارضة العمالية بين السخط الذى له ما يبرره ، والاعتراف بفرصة سياسية على صينية من الفضة .

فى يوم ٢١ من شهر اكتوبر ، تقدمت الولايات المتحدة فى جلسة طارئة لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، باقتراح يقضى بوقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل ، كذلك دعا القرار كافة الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة الى « الامتناع عن استخدام القوة او التهديد باستخدامها فى المنطقة » (و) الامتناع عن تقديم اية مساعدات عسكرية او اقتصادية او مالية لاسرائيل طالما انها لم تذعن للقرار » . ووافق سبعة من اعضاء مجلس الأمن البالغ عددهم احد عشر عضوا ، وامتنع عضوان عن التصويت ، واستخدمت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو ضد القرار .

عقب ذلك الاعتراض تقدم الاتحاد السوفيتى (الذى كان وقتئذ متورطا فى عدوان غاشم ضد المجر) بقرار مماثل ، غير انه كان اكثر انتقادا لبريطانيا وفرنسا بشكل واضح ومرة اخرى وافقت على القرار سبع من الدول الاعضاء البالغ عددها احدى عشرة دولة ممثلة فى مجلس الأمن ، واستخدمت بريطانيا وفرنسا حق الفيتو مرة اخرى .

فى مواجهة هذه الموجة العارمة من الاستياء على الصعيدين الداخلى والخارجى ، سعت الحكومة البريطانية — التى لابد وان تكون قد توقعت الانتقادات التى كانت اشد حساسية لها من الحكومة الفرنسية جاهدة الى التعجيل بعملية الغزو البرمائى حتى يتسنى لها اتمام الاستيلاء على القناة قبل أن تحول المعارضة الدولية دون ذلك ، عندئذ ادرك مستر ايدن ووزراءه أن التوانى فى ترحيل الاساطيل الصغيرة البرمائية له عواقب سياسية ربما كانت اكثر خطورة من النتائج العسكرية .

بعد اجراء مشاورات مثيرة بين الحكومتين البريطانية والفرنسية وهيئتى اركان الحرب البريطانية والفرنسية ، تم ارسال رسائل نفس القدر من العنف ، الى ستوكويل والى دنفورد — سلاتر ، على ما يمكن عمله بشأن التعجيل بعملية انزال الجنود ، ولكن كان رد قادة القوات البحرية والجوية أنهم — لأسباب عسكرية محضة — قد بذلوا بالفعل قصارى جهدهم للاسراع بتنفيذ العملية ، وكان البديل المتبقى الوحيد الذى تسنى لستوكويل ان يراه ، يتمثل فى تقديم موعد انزال جنود المظلات بيوم اى فى الخامس من نوفمبر ، فقد كان مقررا فى الأصل ، ان يهبط جنود المظلات الى المواقع الرئيسية فى البر ، فى نفس الوقت الذى تقوم فيه القوات البرمائية بضرب الشواطىء ، وكان قرار انزال جنود المظلات قبل بدء الهجوم على الشاطىء بـ ٢٢ ساعة يعد بمثابة مخاطرة جسيمة ، غير ان ستوكويل قرر ان الظروف تقتضى ذلك . ووافقت الحكومتان البريطانية والفرنسية ، اللتان كانتا اقل قلقا ازاء المخاطرة العسكرية ، على نحو لا يعوزه الحماس(٢) .

عكف ستوكويل ، وبوفر وواضعوا الخطط آنذاك على اعداد خطة انزال جوى على ظهر سفينة القيادة التى كانوا فوقها وتدعى HMS Tyne اطلق على هذه العملية التى تم اعدادها فى عجالة اسم حركى « تليسكوب » — وتمهد لانزال جنود المظلات البريطانيين فى مطار الجميل الذى يبعد عن بورسعيد بحوالى ثلاثة أميال غربا ، فى الخامس من نوفمبر ، بينما يكون الزحف على هذه المدينة من الغرب يقوم جنود المظلات الفرنسيين فى ذات الوقت بالاستيلاء على بور فؤاد على الضفة الشرقية للقناة ، كذلك يستولى جنود المظلات البريطانيون الذين تقلهم طائرات الهليكوبتر ، على محطات المياه التى توفر المياه النقية لبورسعيد ، وعلى الجسرين المقامين على قناة الرسوة فى الطرف الجنوبى من المدينة . تم ابلاغ الخطة المعدلة الى لندن باللاسلكى ، وفى ساعة متأخرة من مساء اليوم الثالث من نوفمبر ، وافق عليها انتونى ايدن رئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الوقت .

ادخل ستوكويل تعديلا آخر على الخطة فى الرابع من نوفمبر ، ذلك لأن الأمر تمخض عن امكانية الاتصال بالقوات الاسرائيلية المرابطة على الجانب الشرقى من القناة ، وكان يريد أن تتم مثل هذه الاتصالات كاملة من جانب القوات الفرنسية ، نظرا لما وجهته اليه الحكومة الاسرائيلية فى

الماضى من ادانة لدوره غير المتحيز عند انسحاب القوات البريطانية من حيفا فى عام ١٩٤٨ — ومن ثم ، فقد عهد الى جنود المظلات الفرنسية بمهمة الاستيلاء على محطات المياه وجسرى الرسوة بدلا من قوة الهليكوبتر البريطانية . ووافق الجنرال بوفر على هذا القرار ، الأمر الذى حظى ايضا بموافقة الحكومة البريطانية .

وبورسعيد مدينة من صنع الانسان تتسم بالابداع ، يربطها بالبر الرئيسى المصرى فى الجانب الغربى من القناة جسر ضيق غير حصين ممتد من الشمال حتى الجنوب ، بطريق وخط سكة حديدية علاوة على ذلك ، تجرى مياه القناة العذبة ، ناحية الغرب ، حاملة المياه النقية من نهر النيل الى مدن القناة ، ويتم نقل المياه من دلتا النيل الى قناة الرسوة عن طريق ممر مائى عبر بحيرة المنزلة ، غرب بورسعيد وجنوب غربها ، وتقع محطات المياه التى تزود بورسعيد وبور فؤاد بالمياه النقية ، على الضفة الجنوبية لقناة الرسوة بعد بورسعيد فى المنطقة الواقعة بين الطريق الرئيسى وخط السكة الحديدية .

كانت الحامية المصرية فى بورسعيد فى اكتوبر من عام ١٩٥٦ تتكون من كتيبتين من احتياطى المشاه ، علاوة على عدة مدافع مضادة للطائرات من القوات النظامية وبطاريات دفاع السواحل ، وعندما بات واضحا أن الغزو الانجلو — فرنسى اصبح وشيكا ، عزز عبد الناصر هذه القوات بثلاث كتائب من الحرس الوطنى ، وكتيبة ثالثة من القوات الاحتياطية وفى مساء الرابع من نوفمبر ، وصلت الى بورسعيد اربعة مدافع ذاتية الحركة من طراز اس يو — ١٠٠ (SU-100) قادمة من سيناء ، وعند فجر الخامس من نوفمبر وصل قطار يحمل اسلحة خفيفة لتوزيعها على المواطنين تمشيا مع الخطط التى وضعها من قبل الرئيس عبد الناصر والقائد العام عبد الحكيم عامر ، وتطوع العميد صلاح الدين الموجى رئيس أركان حرب الجبهة الشرقية ، أن يتولى القيادة المباشرة للدفاع عن بورسعيد ، فما كان من عبد الناصر وعامر سوى الموافقة على الفور .

وكان يتولى أمر الدفاع عن مطار الجميل — الموقع الذى تم اختياره لانزال جنود المظلات البريطانيين — سريتين من قوات الاحتياط وكتيبة من الحرس الوطنى ، كما تم ملء براميل الزيت الفارغة بالرمل ، وتم وضعها فى الممرات لتحول دون هبوط الطائرات ، واحاطت بالمطار اربع قواعد من الاسمنت مزودة بمدافع رشاشة .

مع بداية فجر يوم الخامس من نوفمبر ، بدأت الطائرات البريطانية حاملة الجنود فى الهجوم على المواقع الدفاعية فى بورسعيد وبور فؤاد ، وفى الساعة ٢٠ر٨ من صباح نفس اليوم هبطت الكتيبة الثالثة من لواء المظلات السادس عشر فى المطار وعلى مشارف المدينة ، وبعد ١٥ دقيقة هبط ٥٠٠ جندى من جنود المظلات ، فوج البارشوات الفرنسى الثانى ،

جنوب جسرى الرسوة ، وفى الساعة ٠٠ر٩ تمكن البريطانيون من السيطرة على المطار ، واستولى جنود المظلات الفرنسيون على محطات المياه واحد الجسرين القائمين على قناة الرسوة ، وافلح المصريون فى نسف الجسر الآخر ، مما اسفر عن قطع المياه النقية والتعزيزات عن المدينة ، كان القتال عنيفا ، فى الوقت الذى ركز فيه المصريون على المواقع الصغيرة نسبيا التى استولى عليها جنود المظلات البريطانيون والفرنسيون .

فى الساعة ٤٥ر١ من بعد ظهر ذلك اليوم ، هبطت كتيبة ثانية من جنود المظلات الفرنسيين جنوب شرق بور فؤاد ، ومن ناحية أخرى ، هبطت فى هذه الاثناء سرية من جنود المظلات البريطانيين لتعزيز كتيبة مطار الجميل ، وكان من جراء مواصلة الغارات الجوية للحلفاء ، علاوة على مشهد وصول هذه التعزيزات ، اكبر الأثر فى ان يفقد المدافعون المصريون رباطة جأشهم .

عند منتصف الظهيرة ، لم يكن ثمة مياه نقية فى بورسعيد ، وكانت النيران التى نشبت من جراء الغارات الجوية ، قد أصبحت امرا يتعذر السيطرة عليه ، وابلغ العميد الموجى محمد رياض محافظ المدينة أنه لابد لهما من الاجتماع بقائد القوات الغازية للتفاوض بغية التوصل الى هدنة مؤقتة حتى يتسنى التخفيف من معاناة المدنيين ، فلم يغب عن ادراكه بطبيعة الحال ، حقيقة : ان اية هدنة من هذا القبيل شأنها توفير فسحة من الوقت ، وذلك لاعادة تنظيم قواته المصرية التى اضطربت صفوفها الى حد بالغ السوء ، وتوفير الوقت حتى تصل التعزيزات التى وعد بها الرئيس عبد الناصر .

فى الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وفى ظل علم الهدنة ، اتصل الموجى بالقائد الفرنسى فى محطة المياه ، يناشده السماح باصلاح محطة ضخ المياه من اجل المدنيين . وتمكن وقتئذ من ترتيب عقد اجتماع مع القائد الأعلى لقوات الحلفاء ، البريجادير البريطانى بتلر M.A.H. Butler بهدف التوصل الى هدنة مؤقتة .

ورغم ان الموجى عجز عن الاتصال لاسلكيا بالقاهرة لتلقى تعليمات ، الا انه واصل مباحثاته مع البريجادير بتلر ، وفى الساعة ٣٠ر٥ ، وبعد مفاوضات مطولة وغير قاطعة ، اعلن بتلر (الذى فاته أن يدرك عدم عزم الموجى على الاستسلام) عن شروطه النهائية لاستسلام بورسعيد وبور فؤاد . ووافق على عقد هدنة قصيرة — تنتهى فى الساعة ٣٠ر٩ مساء — لاعطاء الموجى مهلة من الوقت تمكنه من الاتصال لاسلكيا بالقاهرة وابلاغها بالشروط .

أوفى الموجى بوعده بشأن ابلاغ القاهرة بالشروط لاسلكيا ، غير انه استفاد من الوقت الواقع بين الفترتين لاصلاح محطات المياه (بعد أن

سمح له الفرنسيون بذلك) ووحد صفوف قواته ، وفى الساعة ٠٠ر٩ حصل على موافقة بتلر على مد فترة الهدنة لساعة واحدة حتى يتسنى اخلاء جميع الجرحى ، وفى الساعة ٣٠ر١٠ استؤنف القتال فى بورسعيد .

فى الليل ، تلقى ستوكويل ، الذى كان لا يزال على ظهر البارجة Tyne تين فى البحر ، امرا عن طريق اللاسلكى من لندن بادخال تعديلات أخرى على خطة الخاصة بالهجوم البرمائى ، فقد كانت الحكومة البريطانية مهتمة بالغ الاهتمام بتفادى الحاق أضرار بالمدنيين ، وذلك نظرا لضغوط الرأى العام العالمى والداخلى من ناحية ، ورغبة بريطانيا فى الحد من عداء العرب الحتمى لها من ناحية أخرى ، ومن ثم ، فقد صدر الأمر بعدم استعمال مدافع عيار اكثر من ٥ر٤ بوصة فى القصف الاولى ، الأمر الذى حال دون استخدام المدفعية الرئيسية لطرادات الأسطول الانجلو فرنسى ، والبارجة الفرنسية « جين بار » Jean Bart وسرعان ما اعقب هذا الأمر ، صدور امر آخر ، يتضمن قائمة معدلة بتحديد الأهداف ، مع استبعاد بعض الأهداف التى كان ستوكويل وبوفر يعتبرانها بمثابة مواقع رئيسية ينبغى العمل على ازالتها قبل بدء عملية الانزال ، وفى نهاية الأمر ، وبعد حوالى الساعة ، صدر من لندن عبر أجهزة اللاسلكى امر ثالث شديد اللهجة ، يقضى بالغاء القصف الأولى تماما .

وكان ستوكويل قد تلقى رسائل من بتلر يحذره فيها من أن قوات الهجوم ستجد مقاومة عنيفة فى بورسعيد ، من هنا كان يشعر بالاستياء من انزال قواته الى الشاطىء دون تعزيزات مناسبة ، فقرر اجراء تمييز فنى دقيق بين « القصف البحرى » وبين « تدعيم المدفعية البحرية » ، ووافق على قرار لندن الخاص بقصف البحرية ، تنفيذا للأمر ، ورغم ذلك فقد ابلغ الادميرال ، انه فى انتظار تعزيزات المدفعية البحرية العادية للقوات المهاجمة .

فى الساعة ٥٠ر٦ من يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ، قامت الدفعة الأولى من لواء الكوماندو البحرى الملكى بضرب شواطىء بورسعيد ، بينما كانت تهبط فى نفس الوقت قوات من الفرقة الأجنبية الفرنسية فى بورفؤاد ، وارتد المصريون الذين كانوا يدافعون عن الواجهة المائية ، الى الوراء ، من جراء نيران « الدعم » التى دامت ٤٥ دقيقة وغارة جوية استغرقت عشر دقائق قبل عملية الانزال ، وشنت غارات جوية على المحافظة (مبنى الادارة المحلية) والسجن حتى يتسنى اضعاف المقاومة فى هذين المبنيين المنيعين .

والجدير بالذكر ان هذين الموضعين من الأماكن التى كانت مستبعدة من قائمة الأهداف الأولية ، غير أن ستوكويل اعتبرهما بمثابة هدفين ملائمين تماما لنيران (الدعم) سرعان ما توافدت أمواج هجومية على الشاطىء من المشاة البريطانيين والفرنسيين فى عملية انزال بكفاءة ، لم يسبق لها مثيل سوى فى الكتب المدرسية ، وتختلف تماما عن العمل السياسى الأهوج الذى

يفتقر الى البراعة ، والذى كان سببا حتى ذلك الوقت فى تأخير تنفيذ العملية .

فى الساعة ١٠ر٠٠ صباحا اسرت القوات البريطانية المتقدمة العميد الموجى الذى كان يقاتل فى بسالة فى الجبهة الامامية ، فى تلك الآونة كانت المقاومة المصرية فى طريقها الى الانهيار ، عندما نبذ الجنود المصريون الزى العسكرى وطرحوه جانبا ، وانخرطوا فى صفوف المدنيين المزودين باسلحة ثقيلة . فى الساعة ١١ر٠٠ صباحا نزل الجنرال ستوكويل والجنرال بوفر والايرمارشال بارنيت الى الشاطىء من سفينة القيادة سعيا للتفاوض مع اسيرهم العميد الموجى بشأن استسلام المدينة بلا قيد او شرط ، غير ان هذا الضابط ــ الذى اعلن انه لم يعد فى مركز يخول له صلاحية القيادة ــ رفض اصدار امر بالاستسلام ، وبذلت محاولات اخرى فى هذا الشأن عن طريق القنصل الايطالى ، للتفاوض بهدف الاستسلام ، غير انها باءت بالفشل ايضا ، ومع ذلك ، كانت قوات الحلفاء قد احكمت قبضتها على المدينة بالفعل ، رغم تدخل نيران القناصة المتقطعة .

فى الساعة ٤ر٠٠ من بعد ظهر ذلك اليوم ، اصدر ستوكويل اوامره الى القادة لليوم التالى : فكان على بلتر وجنود المظلات البريطانيين التوجه بطائرة هليكوبتر للاستيلاء على مطار ابو صوير ، فى نفس الوقت الذى يهبط فيه جنود المظلات الفرنسيون بقيادة جنرال ماسو للاستيلاء على الاسماعيلية ، اما لواء الكوماندو الفرنسى فقد كانت مهمته تتمثل فى الاجهاز على مقاومة رجال حرب العصابات فى بورسعيد وبور فؤاد ، بينما تندفع قوات المشاة البريطانية الى الجنوب حتى الطريق وخط السكة الحديدية .

مع الغروب غادر ستوكويل بورسعيد فى صندل الانزال عائدا الى سفينة القيادة تين ، وبعيدا عن حائل الأمواج ، تعرض صندله لعاصفة ، الأمر الذى ادى الى عدم وصوله الى السفينة حتى الساعة ٧ر٣٠ مساء ــ بعد ان كان الصندل على وشك ان ينقلب تقريبا ــ وما كاد يصل ستوكويل الى ظهر السفينة ، يقطر ماء ، حتى تلقى رسالة اخرى من لندن ، تنطوى على امر بالكف عن مواصلة العمليات الحربية عند منتصف الليل ، فقد استسلمت الحكومة البريطانية للضغوط الداخلية والخارجية ، ووافقت فى الجمعية العامة على اقتراح تقدمت به كندا يدعو لوقف اطلاق النار ، ووافق الفرنسيون ــ الذين لم يكن امامهم سبيل آخر ــ على وقف اطلاق النار على «مضض»(٢).

لم يسع ستوكويل ، عقب اجتماعات عاجلة مع بوفر وقادة الأركان المشتركة فى غرفة القيادة ، سوى انجاز القليل فى الوقت الباقى ، ولما كان منتصف الليل فى لندن يعنى الساعة ٢ر٠٠ صباحا بالتوقيت المصرى ، فقد قرر ستوكويل افتراض ان منتصف الليل انما يقصد به توقيت لندن ، وحتى يتسنى له الاستفادة الى اقصى حد بالساعتين الناجمتين عن فارق التوقيت ..واصدر امره الى بتلر بالتقدم صوب القناة ما امكنه ذلك ، تلقى بتلر

هذا الأمر فى الساعة ١٠ر٣٠ مساء ، وفى غضون ٢٠ دقيقة ، كان يقود الكتيبة الثانية من لواء مظلاته ومجموعة دبابات فى هجوم عنيف نحو الجنوب على امتداد الطريق ، والممر الضيق الممتد عبر خط السكة الحديدية رغم المقاومة المتفرقة ، حتى وصل الى الكاب فى الساعة ٢ر٠٠ صباحا بتوقيت القاهرة ، اى منتصف الليل بتوقيت لندن ، وهنالك توقف .

واسدل الستار الفصل الأخير من حرب سيناء ــ السويس عام ١٩٥٦ ، كانت الحرب بمثابة عمل شاذ لا مبرر له ، متخبط وحقير فى المقام الاول فيما اسفرت عنه من استياء على الصعيد السياسى ، ورغم ذلك ، فانها على الصعيد العسكرى البحت ، قد سجلت قدرا كبيرا من الوزن لكافة الاطراف المشتركة فيها على نحو يثير دهشة المرء : فقد تم اعداد وانجاز العملية الانجلو ــ فرنسية بصورة رائعة فى ظل قيود صارمة لم يسبق لها مثيل(٤).

وقد كانت المقاومة المصرية فى مواجهة الموارد العديدة والتكنولوجية المتفوقة للغزاة ، حاسمة ، وواسعة الحيلة وتميزت ببسالة منقطعة النظير.

الملاحظات

١ ــ ربما تسنى للمرء الحصول على أفضل موجز للجوانب السياسية للعمليات الانجلو فرنسية ، مدلولاتها ، ونتائجها فى مؤلف انتونى ناتج ، درس بلا نهاية ، قصة السويس (نيويورك ١٩٦٧) ، وكان ناتنج ، وقت العملية ، يشغل منصب وزير الدولة بوزارة الخارجية ــ أى النائب الرئيسى لسلوين لويد وزير الخارجية . وتجدر الاشارة الى انه استقال من الحكومة عند بدء تنفيذ العملية نظرا لاعتراضه الشديد على التواطؤ بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، واذا ما ساور المرء اية شكوك متبقية حول مسألة هذا التواطؤ ، فان رواية ناتنج قد بددتها تماما .

٢ ــ اثناء هذه الموجة العارمة من النشاط ، عرض الفرنسيون انزال جنود المظلات الفرنسية قبل الموعد المحدد بيوم اى فى الرابع من نوفمبر ، اذا ماقام الاسرائيليون بحماية جناحهم عن طريق الاستيلاء على القنطرة ، ووافق الاسرائيليون على ذلك ، ورغم ان هذا العمل المشترك ، من شأنه الكشف عن عملية التواطؤ للعالم ، فان البريطانيين يرفضون الاعتراف بذلك .

(انظر ديان ، فى المرجع المشار اليه ص ١٥٣) .

٣ ــ لم يتأثر البريطانيون ولا الفرنسيون بشأن موافقتهم على هذا القرار بالتهديدات العنيفة من جانب حكومة نيكيتا خروشوف السوفييتية باستخدام الصواريخ النووية ، بل الاكثر من ذلك ، انهما ارغمتا على الموافقة عقب تلقى تأكيدات كافية لما اقدم عليه الرئيس ايزنهاور من الأمر بوضع القوات الأمريكية فى حالة استعداد قصوى فى كافة أنحاء العالم ، ومن ناحية اخرى ، فالولايات المتحدة لم تتراخ فى ممارسة الضغط على حلفائها للموافقة على وقف اطلاق النار ، وما كان للسوفيت ، وهم متورطون تماما فى المجر ، ان يقدموا على اى امر من شانه تنفيذ تهديداتهم ، ورغم ذلك ، فقد اكسبتهم هذه التهديدات شهرة سياسية ذائعة الصيت فى العالم العربى .

٤ ــ تعتبر الانتقادات واسعة النطاق التى وجهت الى العملية (بما فيها انتقاد جنرال ديان) اما صادرة عن عدم معرفة بمجريات الأمور او عن جهل بالقيود السياسية التى فرضت على القادة البريطانيين والفرنسيين ، كما تنطوى ببساطة ، على اغفال الاداء الرائع فى ظل هذه القيود .

(١٠)

المعارك البحرية

نبذة عامة

كانت السمة الرئيسية للحرب هى اشتراك البحرية الانجلو فرنسية فى العملية البرمائية فى بورسعيد وبور فؤاد ، ويليها فى الاهمية اشتراك الطائرات حاملةالجنود البريطانيةفى القصف الانجلو فرنسى للمطارات المصرية والاهداف الاستراتيجية الاخرى .

حاولت البحرية المصرية التصدى لهاتين العمليتين ، غير انه لم يحالفها التوفيق ، وشنت زوارق الطوربيد المصرية ، على أقل تقدير ، هجوما عقيما على قافلة القوات البرمائية ، واشتبكت ودمرت على ما يبدو احدى المدمرات البريطانية ، وحاولت المدمرات المصرية مرتين ، نسف حاملات الطائرات البريطانية دون جدوى . وفى الثانى من نوفمبر ، تلقى المصريون مساعدة غير منتظرة وعن غير عمد من السلاح الجوى الاسرائيلى الذى هاجم البارجة البريطانية HMS Crane على مقربة من شرم الشيخ .

لقد كان من العسير الحصول على معلومات موثوق بها ومؤكدة عن سير العمليات ، ومن ثم فالفصلان التاليان انما يرويان جانبا من العمليات البحرية من وجهتى نظر منفصلتين لطرفى النزاع فى الشرق الاوسط .

العمليات الاسرائيلية :

فى اغلب حرب الاستقلال التى استغرقت الفترة من ١٩٤٧ حتى ١٩٤٩، زادت اسرائيل من قطع اسطولها الناشىء،فزودته بمدمرتين بريطانيتين منطراز "Z" و ٢٢زورق طوربيد،وعدد من الفرقاطات الصغيرة وسفنالداوريات،بما فى ذلك قناصات الغواصات (١٧٣ قدما) ، وحاميات السواحل التى كانت تتبع الاسطول الامريكى من قبل ... علاوة على بضع سفن انزال حصلت عليها بغرض تحسين القدرات القتالية لغارات الكوماندو .

فى بداية الحملة ، وفى ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ ، قامت مدمرة مصرية من طراز Hunt ويطلق عليها (ابراهيم الأول) ، بقصف حيفا بما يزيد عن ٢٠٠ قذيفة من عيار اربع بوصات ، بدات القصف فى الساعة ٣ر٣٠ صباحا ، وأسفر القصف عن خسائر طفيفة فى الأهداف العسكرية والصناعية ، وقبيل الساعة

الرابعة من صباح ذات اليوم قامت المدمرة الفرنسية كيرسان بفتح النيران على المدمرة ابراهيم بأقصى مدى ، ولكن لم تصبها أية قذيفة ، وفى الساعة ٣٥ر٤ كفت المدمرة كيرسان عن اطلاق النيران ، وذلك فيما يبدو لتوقع وصول السفن الاسرائيلية — وفى نفس الوقت تقريبا ، ابلغت المدمرة ابراهيم أن مهمتها انتهت ، فأبحرت فى اتجاه الغرب .

اصدرت قيادة البحرية الاسرائيلية أمرا الى مدمرتين اسرائيليتين من طراز "Z" يطلق عليهما يافو وايلات ، بتعقب المدمـــرة ابراهيم واعتراض سبيلها ، وفى الساعة ٢٥ر٥ اصبحت المدمرتان على مرمى من المدمرة المصرية، وفتحتا النيران ، مما اسفر عن اضرار طفيفة للمدمرة المصرية ، وابلغت المدمرة ابراهيم الاسكندرية عما وقع من تبادل اطلاق النار ، فصدرت الاوامر من الاسكندرية للسفينة بالالتجاء على احد الموانى السورية او اللبنانية ، ووعدت بتوفير غطاء جوى لها ، وفى الساعة ٣٠ر٦ هاجمت مقاتلتان اسرائيليتان من طراز Ouragan المدمرة ابراهيم بالصواريخ والمدافع ، واسـفر ذلك عن تدمير اجهزة القيادة والأجهزة الكهربائية ، مما جعلها عاجزة عن المناورة ، ولم تصل الطائرات المصرية المنتظرة على الاطلاق .

فى الساعة السابعة ابلغت المدمرة ابراهيم الاسكندرية عن نفاذ ذخيرتها، وتدمير اجهزتها ، وعجزها عن التحرك ، وسارع الطاقم بمحاولة اغراق السفينة خشية الاستيلاء عليها ، وبعد ما يقرب من ١٠ خسائر ، استسلمت السفينة المصرية وعلى ظهرها ١٥١ فردا ، فى الساعة ٣٠ر٧ . صعد البحارة الاسرائيليون الى ظهر السفينة ، واغلقوا صنابير الماء ، واستولوا على جهاز قياس سرعة السفينة الذى لم يصب بسوء (وكان طاقم البحارة قد ابلغ عن تدمير الجهاز ودفتر الشفرة فى الساعة ٢٥ر٧) ، وتم سحب السفينة الى ميناء حيفا ، بعد ذلك تم ضمها للخدمة الفعلية فى البحرية الاسرائيلية تحت اســم « حيفـــا » .

وتمثلت مهمة البحرية الاسرائيلية الهامة الأخرى خلال فترة الحرب فى توفير عمليــات نقل الجنود وايوائهم وتموينهم « على طول الشاطىء » للطابور الذى سلك الطريق الشاق القاحل فى اتجاه ساحل البحر الأحمر الشرقى الوعر لشبه جزيرة سيناء .

عند ظهر يوم ٢٨ اكتوبر ، غادرت حيفا خمس سـفن من طراز LCM ، مخصصة لحمل دبابات خفيفة ، على عربات سكك حديدية معدلة وصلت بها الى بئر سبع . (الأمر الذى تطلب ازالة العديد من المنشـآت فىمحاذاة الطريق) ، ووصلت الى بئر سبع قبيل فجر التاسع والعشرين وتم رفعها فوق عربات مسطحة وضخمة كانت مخصصة لنقل الفوسفات من مصـــانع البوتاس بالقرب من البحر الميت) . وصلت السفن ، التى كانت لا تسير الا

فى الليل حتى لا يكتشفها الاردنيون الى ايلات عند الطرف الشمالى الشرقى للبحـر الأحمر قبيل فجر يوم ٣١ اكتوبر ، وسرعان ما تم انزالها الى ميـاه خليج العقبـــة .

وكان اللواء التاسع ، الذى حالت وعورة المنطقة دون تقدمه على نحو سريع ، قد استنفذ من الوقود والمياه والمؤن اكثر مما كان فى الحسبان ، وبناء على ذلك ، تم شحن سفينتين بالوقود والامدادات الاخرى ، واتجهتا الى قرية دهب الساحلية ، وتقع على منتصف الطريق المؤدى الى شبه الجزيرة تقريبا ، ووصلت السفينتان الى هناك فى الثالث من نوفمبر ، بعد ان وصل اللواء التاسع اليها بوقت قصير وقد ساعدت المؤمن — التى وصلت فى الوقت المناسب — اللواء على مواصلة زحفه ، وكان متأخرا عن الموعد المقرر ، بعد توقف لم يدم سوى فترة وجيزة . ثم قامت السفن بنقل اربع دبابات خفيفة الى اللواء التاسع ، كما نقلت المزيد من الامدادات فور وصول اللواء الى شـرم الشيخ ، وتم الغاء هجوم برمائى مزمع على جزيرة تيران ، ذلك لان المصريين كانوا قد رحلوا عنها .

فى ساعة مبكرة من صباح الثانى من نوفمبر هاجم السلاح الجـوى سفينة حربية على بعد بضع أميال من شرم الشيخ جنوبا ، باعتبار انهـا سفينة مصرية ، ورغم ان السفينة — التى كانت هدفا للنيران — ردت بقوة على الطائرة الاسرائيلية ، فقد أصابتها بعض الطلقات ، غير ان الاصابة لم تكن خطيرة ، ادرك الاسرائيليون فيما بعد أنهم انما هاجمـوا السـفينة Crane ، وهى بارجة كانت تحاصر شرم الشيخ وخليج السويس .

العمليــات المصرية :

عند نشوب الحرب ، كانت البحرية المصرية تعانى من نقص فى عـــدد الضباط ، الأمر الذى كان يشكل عقبة بالنسبة لها ، وذلك نظرا لتحول معظمهم الى مرشدين لقناة السويس ، وعودة القليل منهم الى البحرية حتى وقع القصف الانجلو فرنسى فى ٢١ اكتوبر ، مما دعا الحكومة المصرية الى اغلاق القنـاة .

منذ ذلك الوقت ، ركزت البحرية المصرية اهتمامها على التصدى للعمليات البحرية الانجلو فرنسية التى تقوم بها حـاملة الطائرات والقـوة المواكبة البرمائية . وقد اسفر هذا عن عدد من الاشتباكات .

فى مساء يوم الاول من نوفمبر — اشتبك الطراد دمياط ذو المدفع الواحد عيار ٤ بوصة ، مع الطراد البريطانى « نيو فوند لاند » ذى التسعة مدافع عيار ٦ بوصات وانواع مختلفة من الاسلحة الصغيرة ، فى منطقة خليج سيناء، على مقربة من السويس ، وبعد الابلاغ لاسلكيا عن الالتحام ، اشتبك الطراد دمياط فى جراة مع هذا الطراد البريطانى فاحدث اصابتين ، وسرعان ماغرق الطراد المصرى ، غير ان المعلومات اللاسلكية ، وعملية التاخير التى يسرت وصول زوارق الطوربيد المصرية والهجمات المتكررة ، ارغمت الطراد البريطانى « نيو فوند لاند » على الفرار من السويس ، واعتقد المصريون ان محاولات بريطانية اخرى تستهدف السويس باءت بالفشل من جراء حقول الالغام التى تم زرعها فى خليج السويس .

وثمة عمل بحرى مثير وقع على مرمى الواجهة المائية للاسكندرية . فقد اشتبكت المدمرتان المصريتان النصر وطارق مع حاملة طائرات بريطانية ، كانت تلوح فى الأفق . ردت الحاملة على النيران بالمثل ، ثم اطلقت طائراتها لتنقض على الهدف بقاذفاتها ، فاصيب الزورقان المصريان من جراء نيران المدفعية والقنابل على حد سواء ، غير انهما تمكنا من النجاة من ضرر بالغ عن طريق المناورة واطلاق نيران المدفعية المضادة المكثفة ، عندئذ عادتا الى الاسكندرية تحت ستار من الدخان .

فى الرابع من نوفمبر ، اشتبكت مجموعة من زوارق الطوربيد البخارية المصرية مع مدمرة بريطانية على ساحل الدلتا بالشمال الشرقى بالقرب من البرلس ، فغرقت ثلاثة من الزوارق المهاجمة ، غير أن الزورق الذى كتبت له النجاة ادعى بانه قام بتوجيه ضربات متتالية للمدمرة ، وتركها فى حالة توشك على الغرق ، ولم يسلم البريطانيون بمثل هذه الخسارة ، بيد ان المصريين زعموا ان سجل السفينة والعديد من الجثث وحطام السفينة ، قد جرفها الموج الى الشاطىء .. ولابد للمرء من النظر الى المزاعم المصرية بعين الشك.

فى ليلة ٤/٥ نوفمبر قصفت السفن الحربية البريطانية مدينة العجمى وتقع غرب الاسكندرية ، بينما هاجمت الطائرات مطارين بالقرب من الاسكندرية ، وكان الهدف من هذه العملية يتمثل على ما يبدو ، فى الايحاء للمصريين حتى يعتقدوا ان الأسطول البرمائى ، الذى كان يقترب وقتئذ من الساحل المصرى ، على وشك الرسو على مقربة من الاسكندرية .

ولم تقع ثمة عمليات اخرى ذات اهمية تسبق وقف اطلاق النار ، فقد اكتسحت البحرية الانجلو فرنسية والقوة البحرية الجوية الأسطول المصرى الصغير ، غير أنه بوسع البحارة المصريين الشعور بالفخر لما حققوه فى مواجهة الدول العظمى رغم الفارق الكبير .

القوة العسكرية للقوات البرية بالتقريب
حملة سيناء — السويس ١٩٥٦

	مصر	اسرائيل	بريطانيا	فرنسا (١)
القوات الميدانية	١٥٠ر٠٠٠(٢)	١٠٠ر٠٠٠(٦)	١٣ر٥٠٠	٨ر٥٠٠
الدبابات	٥٣٠(٣)	٤٠٠(٧)	؟	؟
APC	٢٠٠	٤٥٠(٨)	؟	؟
قطع المدفعيـة	٥٠٠	١٥٠	؟	؟
مدافع مضادة للدبابات ذاتية الدفع	٥٠(٤)		؟	؟
طائرات مقاتلة	٢٥٥(٥)	١٥٥(٩)	٧٠	٤٥

ملاحظـات :

١ — بلغ عدد وحدات الاسطول والقاعدة والمتابعة فى مالطة وقبرص والملكة المتحدة والجزائر ما يربو على ١٠٠ر٠٠٠ جندى انجليزى وفرنسى يرتدون الزى النظامى وتم تعبئتهم ضد مصر .

٢ — ما يقرب من ٥٠٠ر٠٠٠ جندى تمت تعبئتهم ضد اسرائيل .

٣ — تتضمن مائة مدفع هجومى من طراز اس يو — ١٠٠ SU-100

٤ — ٣ مدافع ذات سرعة فائقة تطلق قذائف زنة كل منها ١٧ رطلا.

٥ — تتضمن ٤٥ طائرة ميج — ١٥ر٤٠ فامباير و ٣٨ ميتيور و ٨ فيورى و ٤٩ اى ال — ٢٨ و ٢٠ كوماندو و ٢٠ داكوتا و ٢٥ طائرة نقل متنوعة ، رغم ذلك لم يشتبك فى القتال سوى ٦٠ طائرة مقاتلة وَ ١٠ قاذفة قنابل و ٦٠ طائرة نقل تقريبا .

٦ — قاتل ما يقرب من ٤٥ر٠٠٠ جندى وجهوا ضد مصر .

٧ — تتضمن مائة دبابة خفيفة طراز AMX-B و ٣٠٠ دبابة متوسطة المدى من طراز M-4

٨ — عربات نصف جنزير .

٩ — تتضمن ١٩ طائرة ميستير و ٢٥ اوراجان و ٢٥ ميتيور و ٢٩ موستانج و ١٦ موسكيتو و ٢٠ هارفارد و ١٦ داكوتا و ٣ نورد و ٢ بى — ١٧

تقديرات الخسائر
الناجمة عن حملة سيناء والسويس ١٩٥٦

(أ) خسائر فى الأرواح	قتلى	جرحى	اسرى ومفقودين	المجموع
مصر مقابل اسرائيل	١ر٠٠٠	٤ر٠٠٠	٦ر٠٠٠	١١ر٠٠٠
مصر مقابل الحلفاء	٦٥٠	٩٠٠	١٨٥	١ر٧٣٥
المجموع	١ر٦٥٠	٤ر٩٠٠	٦ر١٨٥	١٢ر٧٣٥
اسرائيل	١٨٩	٨٩٩	٤	١ر٠٩٢
بريطانيا	١٦	٩٦	٠	١١٢
فرنسا	١٠	٣٣	٠	٤٣

(ب) خسائر فى الطائرات	
اسرائيل	١٥
مصر	٢١٥ (منهم ٢٠٠ طائرة اصيبت على الأرض)
بريطانيا	٤*
فرنسا	١

ملاحظات :

* اسقطت نيران مدفعية سوريا المضادة للطائرات واحدة من الطائرات البريطانية على الأراضى السورية .

ترتيب المعركة
القوات المسلحة الاسرائيلية
١٩٥٦

وزير الدفاع	ديفيد بن جوريون
رئيس الأركان	ماجور جنرال موشى ديان
نائب رئيس الاركان (للعمليات)	بريجادير جنرال مائير آميت
القيادة الجنوبية	بريجادير جنرال عساف سيمحونى
وحدة المهمات الشمالية	بريجادير جنرال حاييم لاسكوف
لواء المشاه الأول	كولونيل بنيامين جيفلى
لواء المشاه الحادى عشر	كولونيل اهارون دورون
لواء الآليات السابع والعشرين	كولونيل حاييم بارليف
وحدة المهمات للمنطقة الوسطى	كولونيل يهودا والاش
لواء المشاة الرابع	كولونيل جوزيف هارباز
لواء المشاة العاشر	كولونيل شمويل جودير
	كولونيل اسرائيل تال
لواء المدرعات السابع	كولونيل يورى بن آرى
لواء الآليات السابع والثلاثين	كولونيل شمويل جوليندا
لواءات مستقلة	
لواء الباراشوت ٢٠٢ د (ممر متلا)	كولونيل آريل شارون
لواء المشاة التاسع (شرم الشيخ)	كولونيل افراهام يوفى
لواء المشاة الثانى عشر (غزة)	كولونيل ديفيد العازر
القوات الجوية	بريجادير جنرال دان تولكوفسكى
القوات البحرية	بريجادير جنرال شمويل تانكوس

ترتيب المعركة

القوات المسلحة المصرية

١٩٥٦

وزير الدفاع والقائد العام	لواء عبد الحكيم عامر
قائد المنطقة العسكرية الشرقية (سيناء)	لواء على عامر
فرقة المشاة الثالثة	عميد انور عبد الوهاب القاضى
لواء المشاة الرابع	عميد سعد الدين متولى
لواء المشاة الخامس	عميد جعفر العبد
لواء المشاة السادس	عقيد سامى يسا
فرقة المشاة الثامنة (فلسطينية)	عميد يوسف العجرودى
لواء حرس الحدود السادس والثمانين	
لواء حرس الحدود السابع والثمانين	
لواء الحرس الوطنى السادس والعشرين	مقدم على على جمال
فرقة المدرعات الرابعة	عميد على جمال محمود
الوحدة المسلحة الأولى	عقيد طلعت حسن على
الوحدة المسلحة الثانية	عقيد ابراهيم الموجى
لواء المشاة الثانى	عميد وجيه طاهر الشربينى
فوج الاستطلاع الثانى	مقدم احمد على عطية
منطقة شرم الشيخ	عقيد رؤوف محفوظ زكى
وحدة كتيبة المشاة الواحدة والعشرين	مقدم حنا نجيب
قيادة غزة	عميد محمد فؤاد الدجوى
منطقة بورسعيد	عميد صلاح الدين الموجى*

(*) رئيس اركان حرب الجبهة الشرقية .

ترتيب المعركة

القوات الانجلو — فرنسية

١٩٥٦

القائد الأعلى لقوات الحلفاء	جنرال سير تشارلز كيتلى
نائب القائد الأعلى لقوات الحلفاء	ادميرال بيير بارجو
نائب القوات البرية للحلفاء	لوتينانت جنرال سيرهيو ستوكويل
نائب قائد القوات البرية للحلفاء	لوتينانت جنرال اندريه بوفر
قائد القوات الجوية للحلفاء	اير مارشال دينى بارنيت
نائب قائد القوات الجوية للحلفاء	جنرال دى بريجاد ار.جى.ايه.ايه. بروهات
قائد القوات البحرية للحلفاء	ادميرال روبين درنفورد سلاتر
نائب قائد القوات البحرية للحلفاء	ادميرال بى.ج.جى.ام — لانسيلو
القوات البرية البريطانية	
فرقة المشا الثالثة (—)	ماجور جنرال ج. شرشيه
الفرقة المسلحة العاشرة (على اهبة الاستعداد ، لم تباشر عمليات)	ماجور جنرال ار. مور
فرقة لواء الباراشوت السادس عشر	بريجادير ام.ايه. اتش بتلر
لواء الكوماندو البحرى الملكى الثالث	بريجادير ار. مادوك
القوات البرية الفرنسية	
فرقة الباراشوت العاشر (—)	ماجور جنرال جاك ماسو
كتيبة الباراشوت الأولى	
الفيلق الخارجى	كولونيل بيير شاتو — جابير
فرع الآليات الخفيفة	
كتيبة الكوماندو البحرية (٣)	
القوات البحرية البريطانية — البحرية الملكية	
وحدة حاملات الطائرات	نائب الادميرال ام. ال. باور

وحدة التعزيزات — نائب الاميرال ديريك هولندا ـ مارتن

٣ حاملات طائرات (٢٠٠ مقاتلة)
٤ طرادات (وحد فى البحر الأحمر)
١٣ مدمرة (واحدة فى البحر الأحمر)
٦ بوارج (اثنتان فى البحر الأحمر)
٥ غواصات

القوات الهجومية — ار. دى. ال. بروك

القوات البحرية الفرنسية — ادميرال ى. كارو

١ سفينة حربية
٢ حاملات طائرات (٥٠ مقاتلة)
٢ طراد
٤ مدمرة
٨ بارجة
٢ غواصة

قوات البحر الأحمر البريطانية — كابتن ج. جى. هاميلتون

القوات الجوية البريطانية

١ سرب قاذفات (١٢٠ قاذفة)
٤ سرب قاذفات مقاتلة (١٠٠ مقاتلة)
١ سرب طائرات استطلاع

القوات الجوية الفرنسية

٤ قاذفة مقاتلة (٧٥ ف ـ ٨٤ ، ٢٥ ميستير ٤)
٣ طائرة نقل

الخسائر التى منيت بها قوات الحلفاء

فى الطائرات : ٣ : بريطانية ١ : فرنسية

	الجانب البريطانى		الجانب الفرنسى	
	قتيل	جريح	قتيل	جريح
فى الأرواح :	١٦	٩٦	١٠	٣٣

(١١)

تذييل

ربما كانت النتائج العسكرية لحرب سيناء التى نشبت بين مصر واسرائيل هى نفس النتائج سواء تدخلت بريطانيا وفرنسا فى الصراع أم التزمتا الحياد ، ومع ذلك ، فالمرء لا يسعه تأكيد ذلك الأمر على نحو قاطع ، ذلك لأنه من غير المؤكد حتى مجرد نشوب الحرب ما سيحصل لو ان البريطانيين والفرنسيين لم يسعوا لاستخدام التورط الاسرائيلى كذريعة لحفظ ماء الوجه حتى لا يفقدوا احترام العالم .

لابد للمرء من ان يعود بالذاكرة الى الوقت الذى أصدر فيه اللواء عامر الأمر بالانسحاب من سيناء ، على اثر القصف الانجلو فرنسى للمطارات المصرية ، بينما كانت ابو عجيلة ــ أم كتاف لا تزال صامدة ، وكان جنرال ديان قد اصدر امرا بوقف شن هجمات اخرى على هذا الموقع الحصين ، فالاسرائيليون لم يسيطروا على المجال الجوى ، ولم يكن من المؤكد ان يكفى تفوقهم الكيفى ، الذى لا يرقى اليه الشك ، على السلاح الجوى المصرى، للتغلب على تفوق المصريين عليهم فى عدد الطائرات المقاتلة الحديثة . ولابد لنا ايضا من ان نشير ، الى أنه لو لم يكن ثمة تهديد بالتدخل الانجلو فرنسى منذ بداية الحملة ، لاختلف انتشار الجنود المصريين ، ولبرزت امكانية فعلية لاشتراك القوات السورية وربما الأردنية كذلك .

ومع ذلك ، ورغم النكسات التى منيت بها القوات البرية الاسرائيلية فى ابو عجيلة وممر متلا ، فقد ابدت تفوقا كيفيا بارزا على المصريين ، وليس ثمة شك كبير فى انه كان بوسع السلاح الجوى الاسرائيلى ــ على اقل تقدير ــ ابعاد السلاح الجوى المصرى عن مؤخرة القوات البرية الاسرائيلية ، فقد كان انتصار القوات البرية الاسرائيلية على المصريين ــ بما فى ذلك الاستيلاء على شرم الشيخ ، دون اشتراك سوريا والأردن ــ أمرا محتما تقريبا ، ولو كانت القوات السورية والأردنية اشتركت فى المعركة ، فمن الجائز ان النتيجة ما كانت لتختلف عما حدث عام ١٩٦٧ .

رغم ذلك ، تظل ثمة حقيقة هو تدخل بريطانيا وفرنسا ، وسرعة وسهولة الغزو الاسرائيلى لسيناء ، الأمر الذى لا مراء فيه هو ان العمليات الانجلو فرنسية قد أسهمت فى تسهيله والتعجيل به . فقد انسحبت القوات المصرية الرئيسية من سيناء للتصدى للخطر الانجلو فرنسى قبل اشتباكها جديا مع الاسرائيليين ، وفى واقع الأمر ، فان المعركتين الوحيدتين اللتين

خاضتهما فى الحرب — هما ابو عجيلة وممر متلا — دافع فيهما المصريون وحالفهم التوفيق ضد الهجمات الاسرائيلية القصيرة ولكنها كانت مكثفة .

وقد استفاد المصريون وحلفاؤهم من العرب من حقيقة مباغتة اسرائيل بهجوم مفاجيء نشبت على اثره الحرب ، ومن ثم فقد وصفوه بانه « عدوان » او « عدوان لا مبرر له » وعلى اية حال ، فقد ادى بهم هذا الأمر لان يقيموا تشبثهم على حجتين متناقضتين : فاما انهم لم يكونوا فى حالة حرب مع اسرائيل — وفى هذه الحالة يكون اغلاقهم لقناة السويس ، بل ايضا مضيق تيران ، يعد بمثابة انتهاك غير شرعى للقانون الدولى ، ويبرر الحرب — واما انهم فى حالة حرب مع اسرائيل (الأمر الذى يبرر اغلاقهم للممرات المائية) ، وهنا يعتبر الهجوم اسرائيلى مجرد حادث عادى فى مثل هذه الاحوال ، ومهما ذهبت بالمرء الظنون بصدد التواطؤ بين اسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، فليس ثمة ما يبرر اتهام اسرائيل بالعدوان . فمصر كانت تود الحصول على حقوق الاشتراك الفعلى فى الحرب دونما اية عواقب .

وكان عبد الناصر فى بداية الحرب قد حذر حليفتيه — سوريا والاردن — من الدخول فى الصراع ، فى حالة التدخل الانجلو فرنسى . وسواء تلقت الدولتان او اهتمتا بهذا التحذير ام لا فقد قررتا من جانبهما تجنب التورط العسكرى المحتمل مع الدولتين الغربيتين الكبريين ، وآثرتا عدم الخوض فى الحرب .

اما بالنسبة للعملية الانجلو — فرنسية ، فقد كانت بمثابة خطأ جسيم للدولتين ، ورغم ذلك ، فان الحكومتين ، بعد ان استقرتا على راى ، كان الاجدر بهما العمل على تشجيع اتباعهما على بذل ما فى وسعهم ، بدلا من اتباع سياسة هشة سعيا للاحتفاظ باكبر قدر من الأصدقاء ، فى الوقت الذى تنفذان فيه عملية من شانها تنفير الأصدقاء كافة ، واستمرار واستفحال العداوات القديمة .

ربما كانت الحكومة البريطانية على حق عندما استبعدت القيام بعملية مقترحة ضد الاسكندرية ، حتى لو كانت لاسباب عسكرية محضة هى امن السبل واكثرها فعالية للاستيلاء على منطقة قناة السويس ، فمن الواضح تماما ان مثل هذه العملية ، لا تتفق والهدف المعلن عنه وهو «مهمة بوليسية»، تتركز على قناة السويس ، الى الحد الذى ربما جعل من الأصداء المعادية للبريطانيين وايضا للفرنسيين فى نهاية الأمر ، ما هو اسوا مما هى عليه بالفعل ، بل وربما ادى بالكتلة السوفيتية الى القيام بنوع ما من العمل الانتقامى . ويقينا ، فان العملية ما كانت حتى لتذكر ، لو ان الحكومتين لم تكن لديهما ثقة فى امكانية انجاز قواتهما المسلحة لعملية الانزال فى بورسعيد وبور فؤاد ، وما كانت بالعمل الهين .. فواقع الأمر ، انه تم انجاز عمليات الانزال بكفاءة عالية ، رغم المقاومة المحلية العنيفة .

ولعله كان الممكن الا تكون المقاومة بمثل هذه القوة الفعلية ، وان يتم تنفيذ العملية على نحو اسرع بكثير عما تمت به ، لو ان ايدن اصغى لكل من كيتلى وستوكويل ، وسمح لهما بتنفيذ العملية كما كان مقررا لها من قبل فى الاول من نوفمبر وفقا للخطة الاصلية المتفق عليها والمعروفة باسم « مسكتير » ، لو حدث هذا لكانت القوات البريطانية والفرنسية فى الاسماعيلية فى اليوم الثانى من نوفمبر وفى السويس فى اليوم الثالث من نوفمبر ، ولحاصرت معظم الجيش المصرى شرق القناة ، وربما تسنى للبريطانيين والفرنسيين فى هذه الحالة انقاذ بعض من بقايا الدبلوماسية من الانهيار ، وجنبوا قواتهم العسكرية وابل السخرية من جانب اولئك الذين لم يدركوا ان السلبيات كانت سياسية اكثر منها عسكرية .

فى ظل هذه الظروف ، تجاهل البريطانيون والفرنسيون تهديدات خروشوف العاصفة باستخدام الصواريخ تماما ، رغم ما فهم انه كان لها بعض الاثر فى الاحجام عن مواصلة القتال ، غير ان خروشوف الذى كان لا يزال متورطا فى واحد من اكثر الاعمال العدوانية لا اخلاقية فى العصور الحديثة — الغزو الوحشى للمجر — لم يكن فى مركز اخلاقى يمكنه من اتخاذ اجراء انتقامى لردع العدوان البريطانى الفرنسى ، وبينما كانت الولايات المتحدة اول من ادان الأعمال البريطانية ، فانها ايضا كانت تدرك تماما مدى استحقاق الاتحاد السوفيتى للوم فى ذلك الحين . وستسارع بلا جدال بالتحرك فى حسم لتأييد البريطانيين والفرنسيين اذا ما تعرضوا لهجوم من جانب روسيا . كان خروشوف يعنى تماما هذا الموقف ، ومن ثم فقد كانت تهديدات الزعيم السوفيتى غير معقولة .

يتعذر على المرء تحديد من هو المنتصر فى حرب سيناء — السويس لعام ١٩٥٦ نظرا لاختلاف مفاهيم الحرب لدى الأطراف المشتركة فيها . فبالنسبة للاسرائيليين كانت ثمة حربان : حربهم مع مصر ، والغزو الانجلو فرنسى لقناة السويس ، فلم تكن الحربان بالنسبة للاسرائيليين مرتبطتين بصورة غير مباشرة سوى من الناحية العسكرية ، رغم ارتباطهما الوثيق من الناحية السياسية ، فى حين يرى البريطانيون ان عملياتهم ضد منطقة القناة تعد منفصلة تماما عن عمليات الاسرائيليين ، رغم ادراكهم ان الغزو الاسرائيلى لسيناء يعد بمثابة تمهيد لا غنى عنه لعملية غزوهم للقناة ، ولا يختلف مفهوم الفرنسيين بشأن الحربين المنفصلين عن مفهوم البريطانيين ، رغم اشتراكهم فى بعض جوانب الحملة الاسرائيلية ، مثل

تزويد الاسرائيليين بالعتاد الحربى ، وموافقتهم على حماية الأجواء الاسرائيلية والقصف البحرى لرفح .

رغم ذلك ، فالحرب كانت بالنسبة للمصريين واحدة ، كان فيها الهدف البارز من عمليات الأعداء المتحالفين والـــذى يتمثل فى النيل من كفاءة مصر العسكرية الى اقصى حد ممكن ، واوضح المصريون ان عمليات انتشار القوات تمت فى بادىء الأمر ، بناء على تهديدين متبادلين ، وان انسحابهم من سيناء لم يكن بسبب الاسرائيليين بل بالأحرى من جراء التهديد الانجلو فرنسى لشمال مصر .

ويعتقد الاسرائيليون ان الحرب أسفرت عن انتصار عسكرى اسرائيلى تام ، اما على الصعيد السياسى فالنتائج اقل وضوحا ، حيث ان اسرائيل ارغمت فيها فيما بعد على الرضوخ للضغوط الأمريكية وضغوط الأمم المتحدة ، وانسحبت من المناطق المحتلة من سيناء . ومع ذلك ، فقد حققت اسرائيل اهدافها السياسية الهامة ، ففك حصار مضـيق تيران ، واصبحت ايلات ميناء بحريا هاما مما اسهم كثيرا فى اقتصاديات اسرائيل ، وتشكيل قـوة الطوارىء الدولية على الحدود الواقعة بين سيناء واسرائيل ، الأمر الذى من شانه الحد من هجمات رجال العصابات « الارهابية » الى حد بعيد ، على اسرائيل .

وكان لاظهار البراعة العسكرية الفائقة منقطعة النظير التى ابدتها اسرائيل ، مما اكسبها احتـرام العـالم ، ومن ثم ، فان هـذه المكاسب السياسية ، انما تبرر بوضوح مغامرة بن جوريون بالمخاطرة بالحرب ، فقد حققت لاسرائيل نجـاحا على الصعيدى السياسى والعسـكرى على حد ســواء .

اما عن بريطانيا وفرنسا ، رغم ذلك ، فقد منيت عملياتهما العسكرية والسياسية بالفشل ، رغم الدرجة العالية من الكفاءة المحترفة التى ابدتها القوات الأنجلو فرنسية البرية والبحرية والجوية ، فقد حالت مجموعة من الظروف المتكاتلة دون الافادة من تفوقها القتالى الواضح على المصريين ، وفشلت فى تحقيق اهدافها العسكرية ، اما على الصعيد السياسى فقد كانت هـذه اللهفة الاسـتعمارية الاخيرة بمثابة كارثة محققة ، لاسباب سبق مناقشتها باسهاب .

لم تحقق الحرب لمصر انتصارا عسكريا ، ومن الناحية الاخرى لم تكن فشلا على الصعيد العسكرى . فقد ادت القوات المصرية واجبها على احسن واسوا ما يكون فى مواجهة الاسرائيليين ، غير انه بوسعهم الادعاء — بصدق ولهم بعض التبريرات فى ذلك — بأنهم ارغموا على الانسحاب من جراء التهديد الانجلو — فرنسى وأن الاسرائيليين لم يهزموهم ، كما يسعهم فى نفس الوقت الذى طردوا فيه من بـور سعيد وبـور فؤاد ، أن يفاخروا بان مقاومتهم للأعــداد الغفيرة والتكنولوجيا المتفوقة قد أعاقت الغـزاة الأوروبيين حتى عجزوا عن تحقيق أهدافهم العسكرية .

وعلى الصعيد السياسى ، فقد ربحت مصر ، بطبيعة الحــال ، نصرا مشهديا على الحلفاء الأنجلو — فرنسيين ، وزادت مكانة الرئيس ناصر الشخصية بلا مراء عندما وافق على حسم النزاع ، واعتبر المصريون ان ارغام اسرائيل على الانسحاب من سيناء كان بمثابة نجاح سياسى لهذا الجانب من الحرب ، يفوق فى اهميته الضعف الــذى ينم عنه الموافقة على وجود قــوات الأمم المتحدة على الأراضى المصرية فى شرم الشيخ وعلى امتداد الحــدود مع اسرائيل .

وهكذا ، ربحت اسرائيل ومصر الحرب . ولا تعد هــذه المفارقة ممكنة بطبيعة الحال ، الا فى حالة هزيمة بريطانيا وفرنسا المنكرة .

الكتاب الثالث

حرب الأيـــام السته

يونيـــه ١٩٦٧

(١)

الجذور الاجتماعية والسياسية للحرب

الاضطرابات فى الشرق الأوسط

فى أعقاب احتـــلال اسرائيل لشبه جزيرة سيناء فى اكتوبر من عام ١٩٥٦ ، مارست الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ضغوطا سياسية هائلة على اسرائيل بغية الانسحاب من الأراضى المحتلة ، وذلك فى تعاون بعيد الاحتمال ولأسباب مختلفة تماما .

فى نهاية الأمر ، وافقت اسرائيل وعلى مضض ، على الانسحاب ، فى مقابل تشكيل قوات الطوارىء الدولية التى تأخذ على عاتقها مهمة تجنب موقفين تسببا فى قـــرار اسرائيل بخوض غمار الحرب : الموقف الأول يتمثل فى غارات الفدائيين على اسرائيل من قواعد فى سيناء وقطاع غزة ، ومحاصرة المصريين لميناء ايـــلات الاسرائيلى عند مضيق تيران من تحصينات شرم الشيخ ، عند الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء .

وفى بداية عام ١٩٥٧ ، انسحب الاسرائيليون الى حدود ما قبل الحرب وذلك بعد تسلمت قـــوات الطوارىء الدولية مواقعها من القوات الاسرائيلية عند شرم الشيخ على امتداد حدود اسرائيل مع قطاع غزة وسيناء ، وبعد أن حصلت على تأكيدات من الدول الكبرى بحرية الملاحة عبر مضيق تيران .

مرة اخرى ، وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة أسفرت نتائج الحرب العربية مع اسرائيل عن عـــدد من الاضطرابات فى العالم العربى . ففى ١٤ يوليو من عام ١٩٥٨ ، تم خلع الملك فيصل ملك العراق من عرشه وقتل مع اللواء نورى السعيد رئيس وزرائه شر قتلة ، وتولى مقاليد الحكم فى البلاد نظام عسكرى جديد برئاسة اللواء الثائر عبد الكريم قاسم وشكل حكومة غير مستقرة ، متأثرة بالاتحاد السوفيتى الى حد بعيد .. وانسحبت العراق من حلف بغداد ومن اتفاقيات المساعدات العسكرية مع الولايات المتحدة ، وفى الأعوام التالية ، تدهورت البـــلاد العراقية نتيجة عـــدد من الانقلابات ومحاولات الانقلاب ، بينما انهمكت قواتها العسكرية فى حرب باهظة النفقات مع المتمردين الأكراد فى شمال العراق .

عانت لبنان والأردن من قلاقل كثيرة ، تنبع أساسا من مشاكل داخلية ومحلية غير ان الراديكاليين العرب ، وهم عادة من الموالين لعبد الناصر ،

ولا شك فى انهم ينالون تاييد مصر فى بعض الحالات ، يستغلون هذه المشاكل ايضا فى اثارة القلاقل .

فى اواخر الربيع واوائل صيف ١٩٥٨ ، عم لبنان احداث شغب وحركات تمرد فى طول البلاد وعرضها . واندلعت فيها حرب اهلية فعلية فى نفس اليوم الذى وقع فيه انقلاب العراق ، وطلب الرئيس اللبنانى من الولايات المتحدة تقديم العون ، وفى اليوم التالى ، نزلت قوات مشاة البحرية الأمريكية على شواطىء بيروت ، فكانت بمثابة راس حربة لوجود عسكرى امريكى محدود .

وفى ١٧ يوليو ، وعقب طلب مماثل الى بريطانيا من الملك حسين ، طارت القوات البريطانية الى الأردن لمساعدة القوات المحلية على استعادة النظام ، ومع نهاية شهر اكتوبر ، انسحبت القوات الأمريكية والبريطانية من الشرق الأوسط ، بعد ان استعاد لبنان والأردن الاستقرار ، دون القضاء على اسباب عدم الاستقرار .

فى نفس الوقت ، وفى فبراير من عام ١٩٥٨ ، اتحدت مصر مع سوريا واقاما الجمهورية العربية المتحدة برئاسة عبد الناصر ، وبينما كانت هذه الخطوة بمثابة نتيجة طبيعية الى حد بعيد للقومية العربية ، كان الاسرائيليون على اقتناع بأن غرض عبد الناصر الرئيسى يتمثل فى اغفال وجود قوات الطوارىء الدولية التى كان يراها عقبة امامه على امتداد حدوده مع اسرائيل ، واستخدام سوريا كقاعدة جديدة للعمليات المعادية لاسرائيل والتى كانت دون الحرب ، كما اسهمت هذه الخطوة دون شك فى اثارة الاضطرابات التى نشبت بعد ذلك باربعة اشهر فى الأردن .

استمرت المساعى المصرية السورية الرامية الى تحييد واضعاف الملك حسين ، بل والاطاحة به بعد انسحاب البريطانيين من الأردن فى اكتوبر ١٩٥٨ ، وفى سبتمبر ١٩٦٠ ، اغتيل هزاع المجالى رئيس وزراء الأردن على اثر انفجار قنبلة فى عمان ، ربما على ايدى عملاء الجمهورية العربية المتحدة ، وحشد الملك حسين قواته على امتداد الحدود السورية ، ومن الجائز أن يكون فكر جديا فى الهجوم على دمشق ، واذا كان الأمر كذلك ، فان الضغوط الأمريكية والبريطانية أثنته عن ذلك .

رغم ذلك ، فقد خفت حدة هذا الجانب الخاص من القلاقل فى الشرق الأوسط الى حد ما فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، عندما وقع فى سوريا انقلاب آخر اطاح بالحكومة المحلية ومزق الوحدة مع مصر .

منذ انتهاء الحرب الاولى بين العرب واسرائيل فى اوائل ١٩٤٩ ، كانت ثمة اشتباكات تطلق فيها النيران على فترات متقطعة على امتداد خط وقف اطلاق النار بين اسرائيل وسوريا ، وبينما يقوم السوريون فى

معظم الحالات باطلاق النار ، فان ثلاثة من كبار مراقبى هيئة مراقبة الهدنة الدولية اشاروا فى سجلات وتقارير الأمم المتحدة المنشورة ، الى أن معظم الحالات التى كان فيها السوريون يقومون باطلاق النيران كانت بمثابة رد على الأعمال الاسرائيلية غير القانونية فى المناطق الثلاث الصغيرة منزوعة السلاح على امتداد وقف اطلاق النار(١) .

رغم ذلك ، فاولئك الذين كانوا يعانون فى المقام الأول من جراء هذه الاشتباكات هم الفلاحون والقرويون فى المستوطنات الاسرائيلية فى وادى الحولة وعلى امتداد شواطىء بحيرة طبرية . فتكون فى كل كيبوتز فى الجليل الأعلى والجليل الشرقى عدد من المخابىء للاحتماء من عمليات القصف ، حيث يلجا اليها السكان مرارا ، ولا سيما فى فترات الحرث النصف سنوية ، والتى اطلق عليها فون هورن ريلى كبير مراقبى الهدنة الدولية « موسم اطلاق النار » .

فى عام ١٩٦٢ تورطت مصر فى الحرب الأهلية فى اليمن ، حيث كانت تقدم المساعدات للقوات الجمهورية فى محاولة للاطاحة بالملكة المتداعية ، وعندما ايدت العربية السعودية الملكيين ، زاد عبد الناصر من حجم مساعداته للثوار ، وشرع فى ارسال القوات الى اليمن ، وفى عام ١٩٦٤ كان ربع الجيش النظامى المصرى يقاتل فى اليمن .

فى ذلك الوقت ، تم تسوية معظم الخلافات العربية الداخلية الأخرى ، ووافق رؤساء سوريا والأردن ولبنان ، فى مؤتمر قمة الجامعة العربية الذى عقد بالقاهرة ، على مشروع لتحويل منابع مياه نهر الأردن ، وايدهم فى ذلك بقية دول جامعة الدول العربية . مثل هذا العمل من شأنه التأثير بدرجة خطيرة على الزراعة الاسرائيلية فى وادى الحولة ووادى الأردن ، وفى الوقت الذى بدأ فيه العمل فى المشروع ، اخذت المدفعية الاسرائيلية فى ازعاج العمال على نحو متكرر ، وفى نوفمبر من عام ١٩٦٤ بدات الطائرات الاسرائيلية فى الاغارة على مواقع العمل التى لا يصل اليها مرمى المدفعية ، ومع نهاية العام كان قد تم التخلى عن المشروع ، ذلك لأنه بات من الواضح للعرب أن مواصلة العمل فى المشروع تعنى الحرب الشاملة مع اسرائيل ، وما من احد منهم يشعر بأنه على استعداد لمثل هذه المواجهة .

رغم ذلك ، وافقت جامعة الدول العربية ايضا فى مؤتمر القمة على اقامة « كيان فلسطينى » ، وامدته بالتأييد المادى والمعنوى لتصعيد نشاط رجال حرب العصابات على امتداد حدود اسرائيل مع لبنان وسوريا والأردن ، ولما ازدادت الغارات فى عددها وتكاليفها — بالقياس لما تكبده للاسرائيليين من خسائر فى الأرواح — ما كان من اسرائيل سوى الرد بضربات انتقامية عنيفة وبشكل متزايد ، وبدا الأمر لكثير من الاسرائيليين كما لو كانت الظروف التى ادت الى نشوب حرب ١٩٥٦ قد عادت من جديد .

لا يرتاب المرء كثيرا فى ان ايا من الطرفين لم يكن يرغب فى نشوب الحرب فى الشرق الأوسط فى السادس من يونيه من عام ١٩٦٧ ، ويعتقد الكثيرون من الاسرائيليين ان العرب كانوا يعتزمون تماما شن الحرب خــلال ساعات او على أكثر التقديرات ، فى غضون أيام ، ومنذ ان عمل الاسرائيليون على تأزم الموقف عندما قاموا بغارة وقائية ، لم يكن الأمر كذلك ، فلا الرئيس عبد الناصر ولا اى زعيم عربى مسئول آخر كان يرغب فى نشوب الحرب فى ذلك الحين ، ولا يتوقع فى واقع الأمر ، نشوبها .

وليس ثمة اى اساس للافتراض الذى افترضه بعض العرب والقائل : بان الحرب لم تكن سوى مجـــرد تنفيذ لمخطط اسرائيلى متعمد لشن حرب عدوانية ، وكذلك لا اساس للراى الذى اعرب عنه المحللون العرب المحنكون من ان اسرائيل تعمدت خلق ازمـــة سياسية من شانها ارغام عبد الناصر على اتخاذ خطوات توفر لاسرائيل فرصة الادعاء بأن العرب خلقوا الأزمة التى نجمت عنها الحرب . ولكن اذا لم تكن مصر تعتزم خوض غمار حرب ، ولو لم تكن اسرائيل راغبة فى الحرب ولم تخلق الأزمة التى ادت الى نشوب الحرب ، اذن فكيف وقعت الحرب ؟

تكمن الاجابة عن هـــذا السؤال فى ان الجانبين ترديا فيها ، ويتعذر على المرء القول بأن مسئولية الحرب تقع على احـــد الطرفين اكثر مما تقع على الآخر لأن سلسلة تصاعد الأحداث المفجعة التى ادت الى نشوب الحرب ، رغم ما يشير اليه التحليل النهائى من ان الرئيس عبد الناصر قام بأعمال واتخذ قرارات جعلت من الحرب امرا محتما ، وكانت عملية تصعيد فاجعة وكلاسيكية ، بـــدات فى فبراير ١٩٦٦ ، عندما وقع فى ســـوريا الانقلاب السابع عشر خـــلال فترة استقلالها كدولة منذ ٢١ عاما .

سرعان ما اقامت الحكومة الجديدة فى سوريا — التى تعادى الصهيونية بشدة — علاقات حميمة مع الاتحـــاد السوفيتى ، وبدات فى تلقى كميـــات ضخمة من المعدات العسكرية ، وفى نفس الوقت شجع السوريون منظمة التحرير الفلسطينية « الفتح » الحديثة التشكيل على اقامة قواعد على الاراضى السورية يشن منها رجال حرب العصابات غارات ارهابية على اسرائيل ، بينما يشن الفدائيون بعض الغارات من الأراضى الاردنية وبعضها من الأراضى اللبنانية بعد بداية عام ١٩٦٦ ، ويتم الاعداد لمعظم هذه الغارات على نحو مباشر او غير مباشر فى سوريا .

بدات الحكومة السورية الجديدة الاقتراب من مصر ايضا ، وكان قد اعترى العلاقات بين البلدين بعض الفتور منذ انضمام اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة بين مصر وسوريا ، والذى لم يـــدم طويلا واستمر من ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ ، اما عن مـــدى اسهام الاتحاد السوفيتى ، الذى كان

يزود البلدين بالأسلحة واسداء النصح ، فى هـــذا التقارب ، فهو أمر لم يكن واضحا ، غير انه ربما كان له دور ما . وفى أوائل نوفمبر تم توقيع معاهدة دفاع بين سوريا ومصر ، واقامتا قيادة عسكرية مشتركة ، يراسها لواء مصرى ، واتخذتا اجراءات متعددة اخـــرى بشأن التكامل والتنســـيق العسكرى بين البلدين .

تصاعدت حـــدة نشاط الفدائيين ضـــد اسرائيل فى الأشهر الأخيرة من عام ١٩٦٦ ، وفى اكتوبر حدثت واقعتان خطيرتان بصفة خاصة ، قتل خلالهما العديد من الاسرائيليين ، مما ادى الى قيام اسرائيل بتقديم شكوى الى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، ولكن عندما طرح المجلس قرارا معتدلا يدعو سوريا الى اتخاذ اجراءات اشـــد صرامة لمنع مثل هـــذه الأحداث فحسب ، حال الاتحاد السوفيتى دون ذلك مستخدما حق الفيتو ، واصبح هـــذا السلوك نمطا مألوفا منذ ذلك الحين .

عقدت اسرائيل العزم — مثلما فعلت فى الماضى — على أن الأمم المتحدة طالما اخفقت فى تحقيق مطالبها على نحو مرضى ، فانها ستأخذ على عاتقهـــا مهمة عقاب الفدائيين والدول العربية المضيفة لهم ، غير انه لأسباب غير واضحة ، ويبدو مع استعادة الأحداث والتأمل فيها أنها كانت تفتقر الى بعد النظر ، احجم الاسرائيليون عن معاقبة السوريين أو الفدائيين المقيمين فى الأراضى السورية بصورة مباشرة .

وبدلا من ضرب السوريين والفدائيين ، قام الاسرائيليون فى ١٣ نوفمبر من عام ١٩٦٦ بشن غارة على قرية السموع فى الأردن . اسفرت الغارة عن قتل ١٨ اردنيا ، معظمهم من الجنود واصابة ٥٤ غيرهم بجراح .

اتهم وصفى التل رئيس الوزراء الأردنى ، فـــور هذه الواقعة ، فى شىء من المرارة ، مصر وسوريا بعدم تحمل نصيبها من مواجهة اسرائيل . والقى باللائمة على مصر لاخفاقها فى توفير الدعم الجوى ، مثلما وعـــدت فى مثل هـــذه الظروف ، واشار الى أن الوقت قد حان لكى تنهى مصر تورطها فى حرب اليمن ، واستعادة قواتها بحيث يسعها المســـاعدة فى المواجهـــة المشتركة مع اسرائيل .

تعاقبت الشهور ، ووقعت خلالها عـــدة حوادث على امتداد الحدود الاسرائيلية السورية ، تم فيها تبادل اطلاق نيران الأسلحة الصغيرة ونيران المدفعية ، وشن غارات محدودة على الجانبين ، وفى ٧ ابريل ١٩٦٧ ، تصاعدت نيران المدفعية السورية المركزة حتى وصلت الى معركة دبابات ، ادت بدورها الى تدخل القوات الجوية الاسرائيلية والسورية ، أعقب ذلك قتال جـــوى عنيف ، اسفر عن اسقاط ست طائرات سورية دون اية خسائر فى الجانب الاسرائيلى ، وحلقت الطائرات الاسرائيلية الظافرة فوق ضـــواحى دمشق .

انضم السوريون الى الأردنيين فى ادانة الرئيس عبد الناصر لعجزه عن ردع اسرائيل لهذه الواقعة ، التى وصفها السوريون بانها عدوان جوى ، وشاركت الصحافة فى الدول العربية الأخرى فى انتقاد عبد الناصر ، مشيرة الى انه كان اكثر اهتماما باقامة امبراطورية استعمارية مصرية عبر البحار فى اليمن ، وطلبت منه تأييد القضية العربية المشتركة ضد الصهيونية فى فلسطين ، ووجد عبد الناصر — الذى يتسم برقة الاحساس والمشاعر والطموح فى الاعتراف به كزعيم « للأمة العربية الموحدة » — فى هذه الانتقادات والتقريع ، أمرا يكاد يتعذر احتماله .

استمرت غارات الفدائيين ، وتصاعدت فى مايو الى اعمال عنف ضد اسرائيل ، وهو أمر لا يسع أية دولة لها مكانتها تجاهله ، وفى ١١ من مايو ، اذان ليفى اشكول رئيس الوزراء الاسرائيلى « موجة التخريب والتسلل » هذه(٢) .

ومضى اشكول يقول : « على ضوء الأربعة عشر حادثا التى وقعت فى الشهر الماضى فقط ، يتعين علينا اتخاذ اجراءات لا تقل صرامة عن الاجراءات التى اتخذت فى السابع من ابريل « واشار الى تاريخ السابع من ابريل حين ضربت اسرائيل مواقع حساسة فى دمشق والقاهرة .

بعدئذ بيومين ، ادلى اشكول بحديث اذاعى جاء فيه : « لقد بات واضحا تماما للحكومة الاسرائيلية أن مركز الارهابيين يكمن فى سوريا ، غير اننا وضعنا المبدأ ، وان علينا تحديد الموعد والمكان والوسيلة لردع المعتدى » ، وقال : انه لو استمر الحال على هذا المنوال ، فلا مناص من أن توجه اسرائيل ضربة حاسمة داخل اراضى العدو .

لم يكن اشكول هو المسئول الاسرائيلى الوحيد الذى يصدر تهديدات من تل ابيب والقدس : فقد نشرت صحيفة النيويورك تايمز فى عددها الصادر فى ١٢ مايو : « قرر بعض القادة الاسرائيليين ان استخدام القوة ضد سوريا ربما تكون السبيل الوحيد لبتر الارهاب المتزايد ، وان مثل هذا العمل الاسرائيلى ضد عمليات التسلل المتواصلة سيتم من خلال استخدام قدر كبير من القوة ، ولكن فى فترة وجيزة ومنطقة محدودة ، اصبح هذا واضحا فى محادثات المسئولين والمطلعين على مجريات الأمور من الاسرائيليين ، ممن ادلوا بأحاديث فى الآونة الأخيرة وسط جو من تصاعد اعمال العنف على الحدود » .

تدخل الاتحاد السوفيتى :

بعد ذلك بفترة وجيزة ، بات واضحا ان ثمة حملة دعائية ، شاركت فيها الاذاعة والصحافة تصاعدت من موسكو والقاهرة ودمشق على حد سواء ، تؤكد أن الاسرائيليين حشدوا القوات شمالى اسرائيل بهدف غزو سوريا .

استدعت الحكومة الاسرائيلية — ردا على الأنباء الواردة من موسكو — السفير السوفيتى لدى اسرائيل ، ثلاث مرات على الأقل ، فى ١٢ مايو و ١٩ مايو ، ٢٩ مايو ، وذلك لزيارة شمال اسرائيل والحدود السورية لتفقد الموقف بنفسه ، ورفض السفير السوفيتى تشوفاخين هذه الدعوة ، وفى ١٩ مايو ، أشار يوثانت سكرتير عام الامم المتحدة ، فى تقرير بعث به الى مجلس الأمن مزاعم تحركات وحشود القوات الاسرائيلية ، وقال : « تؤكد تقارير مراقبى هيئة مراقبة الهدنة الدولية عدم وجود تحركات وحشود للقوات على أى من جانبى خط وقف اطلاق النار » .

رغم ذلك ، ما من شك — فيما يبدو — فى ان موسكو ودمشق والقاهرة شعروا جميعا بانزعاج حقيقى من جراء التهديدات الاسرائيلية لسوريا ، وكما اعلن أحد الدبلوماسيين المطلعين فيما بعد : « ان التصريحات العلنية الاسرائيلية فى الفترة ما بين ١١ حتى ١٣ مايو ، أيا كان الهدف منها ، ربما تكون فى واقع الأمر هى الشرارة التى ادت الى تفجير السخط المتزايد » .

وعلى أية حال ، فان هذه التصريحات بدت كما لو كانت تؤكد الأنباء التى تلقاها عبد الناصر فيما يبدو من موسكو عن النوايا الاسرائيلية ، فقرر ان الوقت قد حان لاسترداد مكانته المنهارة ، التى نال منها الى حد بعيد صمته ازاء معركتى : قرية السموع و ٧ ابريل .

انسحاب قوات الطوارىء الدولية :

فى ١٦ مايو تلقى الجنرال اندارجيت ريكى القائد الهندى لقوات الطوارىء الدولية فى سيناء ، رسالة من رئيس الاركان المصرى اللواء محمد فوزى ، يطلب اليه فيها سحب جميع قواته من الحدود مع اسرائيل ، ابلغ ريكى هذا الطلب — كما ينبغى تماما — الى يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة ، الذى استدعى المندوب المصرى لدى الأمم المتحدة فى اجتماع عاجل ، وابلغ يوثانت المندوب أن ريكى لا يمكنه تلقى اوامر الا من السكرتير العام ، واذا ما رغبت مصر فى سحب قوات الأمم المتحدة ، فانه يتعين عليها تقديم طلبها اليه (أى يوثانت) ، رغم ذلك ، فقد حذر يوثانت من انه فى هذه الحالة ، سيصدر كذلك أمرا لكافة قوات الطوارىء الدولية بالانسحاب من غزة وسيناء بأسرها ، بما فى ذلك موقع شرم الشيخ .

ويبدو من استعادة الأحداث والتأمل فيها ان الرئيس عبد الناصر لم يكن يعتزم خلق هذه الأزمة ، ولكن بعد ان طلب ذلك ، ربما كان يتوقع من يوثانت الدعوة الى عقد اجتماع لمجلس الأمن ، حيث تكون النتيجة الممكنة الوحيدة هى توصية مجلس الأمن للقوات بمواصلة البقاء فى مواقعها ، وفى هذه الحالة ، يصبح فى الامكان اثارة عاصفة من الضجيج وتهديدات بالاستيلاء على مواقع الامم المتحدة ، ولاشىء غير ذلك .

رغم ذلك ، كان رد السكرتير العام ، يشير الى انه سيقوم بسحب القوات دون استشارة مجلس الأمن ، اذا ما تلقى طلبا مباشرا من الحكومة المصرية يفيد ذلك . لم يكن هذا الرد هو الذى عول عليه عبد الناصر ، ولكنه اعتقد — فيما يبدو — انه قطع شوطا طويلا حتى اصبح الأمر لا رجعة فيه ، وبعد تأخير يومين ، وفى ١٨ مايو ، قدمت الحكومة المصرية طلبا رسميا الى السكرتير العام بسحب قوات الأمم المتحدة . ولما كان يوثانت قد تلقى لتوه فى صباح ذلك اليوم تأكيدا من اسرائيل بخصوص موقفها من عدم امكانية مرابطة قوات الطوارىء الدولية على الجانب الاسرائيلى من خط وقف اطلاق النار ، اصدر السكرتير العام امرا بالانسحاب .

اغلاق مضيق تيران :

فى نفس الوقت ، وفى ١٥ مايو ، بدات التعزيزات المصرية تتحرك داخل منطقة سيناء ، واحتشدت معظمها فى الطرف الشمالى الشرقى فى منطقة رفح — العريش . حتى انه فى ٢٢ مايو اقترب عدد الجنود المصريين من ١٠٠ر٠٠٠ مائة الف فى سيناء ، ما يزيد على ضعفى عدد القوات الحامية المعتاد .

فى نفس اليوم اعلن الرئيس عبد الناصر عن اعتزامه اغلاق مضيق تيران .

فى ٢٣ مايو اعلن اشكول رئيس الوزراء امام البرلمان الاسرائيلى ردا على اغلاق مضيق تيران : « ان الكنيست يدرك ان اى تدخل فى حرية الملاحة فى الخليج والمضايق انما يشكل انتهاكا صارخا للقانون الدولى .. ويشكل عملا عدائيا ضد اسرائيل » .

هنالك بعض الدلائل تشير الى ان الرئيس عبد الناصر فكر فى ان يبعث برسالة خاصة وسرية الى اسرائيل مؤداها انه لا يعتزم استخدام القوة فى تنفيذ اغلاق المضيق ، وانه انما يعيد تأكيد استمرار حالة الحرب بين مصر واسرائيل فحسب وليس الشروع فى فرض حصار حقيقى(٣) ، رغم ذلك، لم يبعث عبد الناصر برسالة من هذا القبيل على الاطلاق ، ربما لأنه خشى ان يعلن الاسرائيليون عنها ، الأمر الذى من شأنه ان يضر بمكانته التى كانت مهددة بالفعل ، ويبدو انه كان يتوقع من الاسرائيليين التأكد من اعلانه اغلاق المضيق عن طريق ارسال بعض السفن عبر المضايق حينئذ يستبين لهم عدم نواياه العدوانية .

رغم هذا ، لم يكن لدى الاسرائيليين الرغبة فى المخاطرة باحدى السفن التجارية لاختبار النوايا المصرية ، فقد كانوا على يقين من ان عبد الناصر جاد الى حد بعيد ، واخذوا بالمعنى الظاهرة ولم يتعمقوا فى اعلانه اغلاق المضيق ، واعدوا للقيام بالضربة الأولى قبل توجيه الضربة لهم ، وكان الموعد الذى حددوه هو الخامس من يونيو .

ويصر اولئك المصريون الذين يعتقدون انه لم يكن لدى اسرائيل مبررات تكفى لشن الحرب فى الخامس من يونيو ، على ان النوايا اللا عدوانية لرئيسهم كانت واضحة . ورغم حشد القوات شمال شرق سيناء ، ورغم الاعلان عن اغلاق مضيق تيران ، لم يكن ثمة عمل عدائى مصرى ضد اسرائيل فى غضون ما يزيد على أسبوعين وهى الفترة ما بين انسحاب قوات الأمم المتحدة والهجوم الاسرائيلى . ردا على ذلك ، اشار الاسرائيليون الى موجة العداء المتزايدة التى اتسمت بها التصريحات المنشورة للزعماء العرب وانباء التهديدات الجادة عن تدمير اسرائيل الوشيك من السلطات السياسية البارزة فى كل من القاهرة ودمشق وبغداد ، وعلى سبيل المثال ، صرح عبد الناصر فى ٢٨ مايو فى مؤتمر نقابات العمال العرب ان الدول العربية عازمة الآن على تدمير اسرائيل .

تصالح عبد الناصر وحسين :

كان على راس الأحداث ، وربما اكثر مدعاة للتشاؤم من التصعيد المتزايد للتهديدات اللفظية ، المصالحة بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين عاهل الأردن ، بناء على مبادرة شخصية من الملك(٤) : ففى ٣٠ مايو طار الى القاهرة حسين ، يرافقه سعد جماع ، رئيس الوزراء الجديد ، واللواء عامر خماش ، رئيس الأركان الأردنى واللواء صالح الكردى قائد السلاح الجوى الأردنى ، فأبرم الملك حسين مع عبد الناصر معاهدة دفاع مشترك وقيادة عسكرية مشتركة مع مصر وسوريا ، تحت القيادة الاسمية الشاملة للواء المصرى على عامر . وعندما عاد حسين الى الأردن فى ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم ، كان برفقته احمد الشقيرى ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذى كان يتسم بالبلاغة ومن اشد منتقدى الملك حتى وقت قريب، وفى نفس اليوم ، عين عبد الناصر واللواء على عامر ، اللواء عبد المنعم رياض ، احد كبار الضباط العظام فى الجيش المصرى ، قائدا عاما للقوات العربية المسلحة على الجبهة الأردنية ، واوفد رياض الى دمشق وبغداد لتوضيح هذا التطور الجديد لسوريا والعراق وكانتا من ابرز منتقدى الأردن فى الآونة الأخيرة . وفى ٢ يونيو ، وصل اللواء رياض وعدد ضئيل من المساعدين الى عمان ليتولى مهام منصبه الجديد .

فى اليوم التالى ، الثالث من يونيو ، طارت الى عمان ثلاث كتائب من الكوماندو المصريين لتدعيم مرابطة قوة عربية دولية بحق على هذه الجبهة، ولعله من العسير ان يفسر المرء هذه التحركات بشىء آخر سوى انها استعدادات جادة من اجل الحرب ، فكانت هذه التحركات تفسر للاسرائيليين سبب توقف نشاط المصريين المؤقت فى سيناء ، فقد كانت مصر تتريث بضعة ايام حتى يتسنى للأردن الاعداد للقيام بدور كامل فى الحرب الوشيكة .

ومع ذلك ، ورغم هذه التحركات ، يتضح من استعادة الأحداث والتأمل فيها أن الرئيس عبد الناصر لم تكن لديه النية فى الواقع فى شن حرب

ضد اسرائيل فى ذلك الحين . فقد كان يدرك — على ما يبدو — حقيقة عدم استعداد جيشه الى حد يثير الرثاء ، لخوض مثل هذه الحرب ، فقد اعاد الى ذهنه انه فى عام ١٩٦٠ ، وفى ظل ظروف مماثلة الى حد ما ، زاد من عدد الحامية فى سيناءوهدد بشن حرب ضد اسرائيل وانتهى الامر الى لا شىء ، ويبدو انه حسب أن التاريخ يعيد نفسه ويحدث نفس الشىء .

وقد كان يشعر بالسعادة لما اسفر عنه نشاطه السياسى واللفظى من نتائج — كما قد استعاد مكانته الى حد بعيد فى العالم العربى ، وعمل على اعادة توحيد تحالف عسكرى ضد اسرائيل ، بوسعه القيام بعمل فى غضون عام او عامين عندما تصبح الظروف مواتية ، وانه احرز نصرا سياسيا على اسرائيل التى تبدو حاليا متراجعة دون احتجاج جاد لمواجهة كل ما فعله عبد الناصر .

ويبدو من غير المعقول ان عبدالناصر لم يكن يدرك ان الموقف يختلف الى حد بعيد عما كان عليه الحال عام ١٩٦٠ ، وان ليفى اشكول وهو اضعف من بن جوريون ، لا يسعه تجاهل تهديدات العرب والاستهانة بها مثلما كان يفعل بن جوريون .

كذلك يبدو من غير المعقول ايضا ، ان يتوقع عبد الناصر وغيره من الزعماء العرب من اسرائيل الاذعان عن طيب خاطر للموقف الذى اختلقوه ، حتى لو انهم اغفلوا الى حد ما التصريحات الجادة التى ادلى بها اشكول رئيس الوزراء ، فما كان ينبغى لهم اغفال التحذير الضمنى — حتى رغم تزامنه مع تصريحات اشكول — الذى ورد فى كتاب للجنرال موشى ديان نشر مؤخرا حول حرب ١٩٥٦ ، فى هذا الكتاب اوضح ديان ان اسرائيل كانت لها ثلاثة اهداف من وراء حرب ١٩٥٦ « حرية الملاحة للسفن الاسرائيلية فى خليج العقبة ، القضاء على الفدائيين ، وانهاء خطر مهاجمة اسرائيل من جانب القيادة العسكرية المشتركة لكل من مصر وسوريا والأردن(٥) .

وقد خلق عبد الناصر موقفا يتسنى من خلاله تطبيق هذه الاهداف العسكرية فى عام ١٩٦٧ ، مثلما كان عليه الحال منذ احد عشر عاما مضت .

وثمة مقارنة اخرى بين الموقف الراهن والموقف فى عام ١٩٥٦ ، وهو امر تجاهله العرب بصفة عامة ، وكثيرا ما يغفله المراقبون الذين يتسمون بالحياد ، وهو ان حصار مضيق تيران ، كالرفض المتواصل لمرور السفن الاسرائيلية عبر السويس ، له ما يبرره فى القانون الدولى على اساس اصرار المصريين على استمرار حالة الحرب مع اسرائيل فقط . وهكذا ، اذا ما اندلعت الحرب بالفعل ، لا يسع مصر اتهام اسرائيل منطقيا بشن حرب من جراء هجومها فى الخامس من يونيه مثلما حدث فى عام ١٩٥٦ ، حيث كانت مصر تطالب بحقوق الأعداء ، ولكنها لم تكن راغبة فى التعرض لمخاطر او احتمالات حالة الاشتراك الفعلى فى الحرب .

ملاحظات

(١) انظر على سبيل المثال Odd Bull، فى المرجع المشار اليه ص ٤٩ — ٥٠ و Cal Von Horn فى المرجع المشار اليه ص ٦٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، E.L.M. Burns فى المرجع المشار اليه Passim ، وثائق الأمم المتحدة مسلسل رقم ٢١٥٧ ، ١٩٥١ ، مسلسل رقم ٣١٢٨ ، ١٩٥٣ مسلسل رقم ٣٥٣٨ ، ١٩٥٦ ، مسلسل رقم ٥١١١ ، ١٩٦١ .

(٢) خلف اشكول بن جوريون ، الذى تقاعد فى ١٩٦٣ .

(٣) رواه احد كبار المسئولين المصريين فى حديث خاص مع المؤلف .

(٤) حسين ، المرجع المشار ص ٤٣ .

(٥) موشى ديان ، يوميات حملة سيناء ١٩٥٦ (لندن ١٩٦٧) صفحة ١٩٠ .

(٢)

على حافة الحرب

الاستعدادات والخطط الاسرائيلية

كانت قوات الدفاع الاسرائيلية فى حالة التعبئة فى الرابع من يونيه عام ١٩٦٧ ، تضم ما يقرب من ٢٥٠ر٠٠٠ جندى ، منهم ٢٢٥ر٠٠٠ من الجنود النظاميين فى الجيش ، ومنهم حوالى ٥٠ر٠٠٠ من المحترفين لمهن او المجندين الزاميا فى الجيش العامل ، أما الباقون ويبلغ عددهم نحو ٢٠٠ر٠٠٠ جندى ، فيشكلون القوات الاحتياطية التى يتم استدعاؤها من اعمالهم المدنية .

وحتى هذا التاريخ الحديث(*) لم تقدم زاحال ـ قوات الدفاع الاسرائيلية ـ المنوطة بالأمن ، أية معلومات رسمية سواء بالنسبة لعدد أفراد القوات المسلحة التى اشتركت فى حرب ١٩٦٧ ، أو عن تنظيمات القوات القتالية فى المعركة . وعلى أية حال ، يبدو ان تنظيم القوات المسلحة كان قد تم على أساس تشكيل ما يقرب من ٢٥ لواء ، منها تسعة ألوية مدرعات ، ولواءان ميكانيكيان ، وعشرة مشاة (بعضها ميكانيكى) ، وأربعة ألوية مظلات ، وعلاوة على هذه القوات الميدانية ، كان ثمة ما يقرب من ١٥ لواء مماثلة تشكل وحدات الدفاع المحلية ودفاع الحدود (يضم بعضها ٧٠ر٠٠٠ جندى) ، وقد يشارك فى العمليات الحربية ٢٢ لواء من القوات الميدانية ، تتألف أغلبيتها من قوات مهمات فى حجم الفرقة ، ومن المحتمل أن تكون الألوية الثلاثة الأخرى قد رابطت فى مكان ما داخل اسرائيل ، حيث تقوم بمختلف المهام الاحتياطية الغير محددة او بمهام امنية .

كان القادة العسكريون والزعماء السياسيون الاسرائيليون يدركون تماما ، مدى التفوق النوعى لقواتهم على القوات العسكرية العربية للدول المجاورة ، كما كانوا يدركون أمرا غاب عن غالبية بقية دول العالم ، حتى أن العرب لم يولوه قدرا كافيا من الاهتمام : الا وهو انهم يمتلكون تقريبا من قوات المواجهة الأمامية مثلما لدى العرب من قوات عربية مشتركة (انظر جدول ص ٣٣٧) ورغم ما يتميز به العرب من حيازة أسلحة ضخمة ،

(*) صدر هذا الكتاب فى منتصف عام ١٩٧٧

فلا شك فى ان القادة العسكريين الاسرائيليين كانوا على يقين ايضا من ان قواتهم المسلحة اكثر دراية بأحدث الأساليب المتطورة من الناحية التكنولوجية من القوات العربية ، أو انها ستنتصر فى حالة نشوب حرب أخرى ، وفى الواقع ، انهم كانوا يعتقدون ان التوفيق سيحالفهم مثلما حدث عام ١٩٥٦ .

لقد كان من المعروف ان مصر تعتبر بمثابة العدو الرئيسى والاكثر خطورة ، ومن ناحية اخرى فقد كان الأردن يشكل تهديدا اكثر مباشرة لقلب اسرائيل ، نظرا للحدود الممتدة على السهل الساحلى الذى يتراوح ما بين ٢٠ كيلومترا من البحر حتى يصل الى ١٥ كيلومترا فقط عند أحد المواقع . كذلك كان الأردن يهدد القدس الاسرائيلية ، ويحتل المدينة القديمة من القدس ، التى تعد ذات اهمية قصوى لليهودية ، كانت هذه كلها أسباب للتركيز اول الأمر على الأردن ، بينما يدور القتال فى أماكن اخرى بهدف الاعاقة ، اذا ما اندلعت الحرب فى جبهتين او ثلاث ، ورغم ذلك ، فقد كان يلوح ان ثمة امكانية للتوصل الى نوع من التسوية فى نهاية الأمر مع الملك حسين عاهل الأردن ، فى حين لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للرئيس المصرى عبد الناصر . ففى الوقت الذى ربما استطاع فيه الأردن مقاومة الضغوط التى تمارسها عليه الدول العربية الأخرى ، وظل بمنأى عن الخوض فى غمار حرب بين العرب واسرائيل ـ مثلما حدث فى عام ١٩٥٦ ـ فمن المحتم ان تكون مصر طرفا ايجابيا فى أية حرب تنشب فى المستقبل .

ومن ثم قررت الأركان العامة الاسرائيلية حشد معظم قوتها العسكرية الاساسية ضد مصر على نحو ساحق عند اندلاع حرب جديدة . كان هذا يعنى تجنب القيام بعمليات ايجابية على الجبهات الأخرى ـ أو على اقل تقدير ـ البقاء فى الحالة الدفاعية التى ستوفرها قوات الأمن المحدودة ـ الى أن يتم تدمير الجيش المصرى ، أو أن يستولى الاسرائيليون على خط دفاع امنى فى شبه جزيرة سيناء ، ووصل الأمر ببعض واضعى الخطط الاسرائيليين الى الاعتقاد بامكانية ان تكون قناة السويس بمثابة هذا الخط الدفاعى .

عندما يدرك المصريون هذا الأمر ، فانهم فى حالة التهديد الجاد بالحرب ، سيحشدون قواتهم فى المنطقة الشرقية من سيناء ، وكانت خطط العمليات الاسرائيلية على الجبهة المصرية تستهدف الافادة من قدرتهم الفائقة على الحركة ، واحتواء وتدمير الجانب الأكبر من الجيش المصرى ، أما كيفية تنفيذ المناورة فقد كان يتوقف على كيفية انتشار القوات المصرية ، وكان الاسرائيليون على استعداد للتصرف فى مرونة ازاء الترتيبات المصرية ، ورغم ذلك ، فان الملامح الجغرافية للمنطقة كانت حتما ستؤثر على نمط انتشار القوات المصرية :

كان هناك طريقان استراتيجيان رئيسيان فى سيناء ، وكلاهما يعد هاما لكلا الطرفين : أول هذين الطريقين هو المحور الذى ينطلق بمحاذاة

الشاطىء ، ويمتد غربا من رفح الى العريش حتى يصل الى القنطرة ، واما الطريق الآخر فهو المحور الأوسط وينطلق فى اتجاه الاسماعيلية ، مارا بالممرات الرئيسية فى أبو عجيلة . وكان الاسرائيليون ، الذين لم ينسوا عجزهم عن التقدم فى أبو عجيلة عام ١٩٥٦ ، قد عكفوا على دراسة دقيقة لتضاريس المنطقة والمناطق المجاورة لملتقى الطرق الرئيسية ، وتابعوا بتحليل سجلات معركة ١٩٥٦ . وفى عام ١٩٦٧ ، كان واضعوا الخطط الاسرائيليون على يقين من عثورهم على حل لمشكلة ابو عجيلة .

فى أقصى الشمال ، كان ثمة دافع اسرائيلى قوى للقيام بمبادأة ضد السوريين الذين يبغضونهم ، رغم ذلك ، فقد كان الاسرائيليون يدركون مدى الحاجة التامة لتوفير القوة ، ويتمسكون فى اصرار ، بمفهوم مصر اولا : فرغم التيقن من دنو نيران المدفعية السورية من اعماق الجليل ، بل والخوف من بعض التغلغل السورى داخل وادى الحولة ، اعتزم الاسرائيليون الابقاء على النذر اليسير فقط من القوات ، فى مواقع دفاعية واضحة ، فى مواجهة الحدود السورية ، واستبعد الاسرائيليون عن واقعية ، اى تدخل لبنانى ، او اى تهديد لبنانى خطير حتى فى حالة تدخل لبنان .

وفى الوقت الـــذى طرا تغير هام فى القيادة العليا فى القوات الاسرائيلية عشية اندلاع الحرب، لم يؤد فيه هـــذا التغير الى المساس باى من مفاهيم العمليات الأساسية او التفكير المبدئى للجيش الاسرائيلى ، لكنه خلف تاثيرا كبيرا على المواقف .

كان اشكول رئيس الوزراء الاسرائيلى يشغل منصب وزير الدفاع فى نفس الوقت ، متبعا فى ذلك تقليد سلفه العظيم بن جوريون ، ورغم ذلك ، فقد كان اشكول اكبر سنا ، وابطأ حركة ويفتقر الى الحزم ، فى راى كثير من المواطنين ومعظم العسكريين الاسرائيليين ، وكثيرا ما كان يوجه اليه الانتقادات لردود فعله المشوبة بالحذر ازاء استفزازات عبد الناصر ، ولما كان يندفع تدريجيا مع حكومته نحو الحرب ، فقد ثارت شكوك كثيرة حول كفاءته فى اصدار توجهـات وافية وقت الحـرب للقوات المسلحة ، وعلى اثر ادراك هـذا الافتقار الى الثقة فى قيادته ، وفى ٣٠ مايو ١٩٦٧ ، تقدم اشكول استقالته من منصبه كوزير للدفاع « مكتفيا برئاسة الوزراء » ، وعين جنرال موشى ديان ، بطل حرب ١٩٥٦ ، وزيرا جديدا للدفاع .

تسلم ديان منصبه بقـوة ونشاط ، وغرس فى مقر قوات الدفـاع الاسرائيلية سمات نزعته العدوانية الجريئة ، وكان يعارض بشـدة شن حرب متعددة الجبهات ، ومن ثم كان يعترض على اى تورط ضد سوريا ، ويأمل فى تجنب قتال الأردن ايضا ، ولكن اوضح رايه فى الالتـزام بتنفيذ خطط الحرب القائمة ضـد مصر بأقصى قـدر من العدوانية ، وكان يعمل على ما يرام مع ماجور جنرال اسحق رابين ، رئيس الأركان العامة .

الاستعدادات والخطط العربية :

لم يكن ثمة خطط منسقة للعمليات العربية المشتركة ضد اسرائيل فى عام ١٩٤٨ وكان قد تم تحديد بعض الأهداف الاقليمية العامة ، وكان الملك عبد الله اسميا هو رئيس اركان الجيوش العربية ، وتم تبادل ضباط الاتصال بين الجيوش ، ورغم ذلك — وفى واقع الأمر — فان الشعور بالغيرة الذى تفشى بين الزعماء العرب هو الـــذى حال دون التنسيق ، الا فيما ندر ، بين الوحدات المتجاورة على خطوط الحدود بين جيشين عربيين ، ولم يكن يتسنى لضباط الاتصال حتى وسائل الاتصال بمقر قياداتهم او حكوماتهم ، ولم يكن لهم اية فائدة على الصعيد العسكرى ، وحقيقة الأمر ان العرب كانوا يفتقرون الى التخطيط المنسق والتعاون العملى .

ولم تكن الخطط التى تم وضعها عام ١٩٥٦ — وهى خطط تعتبر احدث الى حد ما من خطط ١٩٤٨ — قد وضعت فى حيز التنفيذ نظرا للهجوم الأنجلو فرنسى على مصر .

لم يطرا تحسن يذكر فى واقع الأمر ، على الموقف فيما يتعلق بمجال التخطيط فى عام ١٩٦٧ ، رغم وهم القيادة العربية الموحدة . فلم يبذل اى جهد لتاكيد اى تنسيق عملى بين سوريا وحليفتها الجنوبيتين . ولم يقر التنسيق بين مصر والأردن الا فى ٣٠ مايو عندما اجتمع الرئيس عبد الناصر والملك حسين ، غير انه لم تتخذ اية خطوات ايجابية فى الواقع للعمل على هـذا التنسيق .

وصل القائد المصرى اللواء عبد المنعم رياض الى الأردن قبيل نشوب الحرب بيومين لقيادة جيش (لا يعرفه او يدين له بالولاء) لا يعرف عنه شيئا ، على مسرح للأحداث لم يالفه ، وموقف مختلف عما مارسه فى الماضى من خبرات ، كان اللواء رياض رجلا على كفاءة ، ورغم ذلك ، فمن المشكوك فيه انه كان له تاثير على نتيجة القتال على الجبهة الأردنية باى حال ، فعندما نشب القتال بـدأ تسلسل القيادة الأردنية كما لو كان يعمل من خلال رئيس الأركان الى الملك، مع مشاورات روتينية عرضية فحسب من اللواء المصرى.

عبرت كتائب الكوماندو الثلاث التى ارسلتها مصر الى الأردن الى الضفة الغربية وانتشرت (قبل الحرب بيوم) فى المنطقة الواقعة شمال اللطرون ، وكان الهدف من وراء ذلك فيما يبدو ، هو ان تعمل هـذه الكتائب ضد مناطق المؤخرة الاسرائيلية فى المناطق الساحلية المنخفضة ، غير انها لم تكن فى حالة استعداد على الاطلاق عندما اندلعت الحرب على حين غرة ، ولم تنجز سوى القليل من المهام .

ادرك المصريون ، من جراء تجربة ١٩٥٦ ، مـدى خطورة محاصرة قوات هائلة فى شمال سيناء ، (وقبل مايو ١٩٦٧) تجنب عبد الناصر بصفة

عامه تركيز حشود ضخمة شرق قناة السويس حتى يتفادى توجيه ضربة اولى من اسرائيل ، وكان لهذا الأمر اهمية خاصة منذ التورط المصرى فى اليمن ، ذلك لأن الكثير من افضل الوحدات المدربة واكثر الضباط خبرة كانوا منهمكين فى هـذه المغامرة الغريبة ، التى مزقت العالم العربى على نحو خطير .

رغم ذلك ، وفى اواخر مايو ١٩٦٧ ، وجـد عبد الناصر نفسه وقد انساق وراء وضع قـوات ضخمة فى سيناء ، الأمر الـذى لا يتفق بشكل ما مع تقديره السليم لمجريات الأمور ، ورغم ذلك ايضا — ومثلما ناقشنا من قبل — فقد توقع عبد الناصر على ما يبدو ان يعمل موقفا الأردن وسوريا الخطيران على ردع الاسرائيليين من محاولة تكرار حملة ١٩٥٦ . بل لعله اعتقد كذلك أن اعادة بناء الجيش المصرى بمساعدة السوفيت ، بالاضافة الى الخبرة القتالية الحديثة لكثير من ضباطه ورجاله ، انما توفر فرصة حقيقية لتحقيق النصر فى حالة نشوب حرب جديدة ، ولا سيما مع انضمام سوريا والأردن ، حيث أن هـذا من شأنه الحيلولة دون شـد اسرائيلى كامل ضـد مصر .

وعلى ضوء التفسير المنطقى العربى السائد القائل بأن هزيمة ١٩٥٦ كان بمثابة عمل معوق ناجح ، ذلك لأنه أتاح للمصريين فرصة الانسحاب الى منطقة قناة السويس لمواجهة الخطر الأنجلو فرنسى ، فان هـذا التقدير غير الحقيقى يعد مفهوما على اقل تقدير .

وثمة أمر يتعذر فهمه الى حد ما ويتمثل فى اسـتعداد عبد الناصر للمخاطرة — اكثر قليلا من استعداده للتخطيط — بشن حرب بينما كان الكثيرون من افضل ضباطه وجنوده فى اليمن ، وكان اكثر اخطاء عبد الناصر فداحة هو رغبته فى أن يعهد بالقيـادة الميدانية ومسئولية التنسيق بين العمليات العربية المشتركة الى لـواء سياسى اتضح افتقاره الى المقـدرة العسكرية بصـورة مؤلمة فى حرب ١٩٥٦ : هو المشير عبد الحكيم عامر .

يبدو أن العلاقات بين عبد الناصر وعامر تدهورت بصورة مؤسفة فى عام ١٩٦٧ وأن عبد الناصر فشل فى اقصاء المشير المنغمس فى الملذات ، لأنه كان لا يود أساسا الاعتراف أمام العالم بأنه أساء اختيار القائد العام للقوات المسلحة ونائبه الأول ، ولو أن عبد الناصر اعتقد — مثلما اعتقد بعض الذين يحيطون به — أن عامر يتآمر للاطاحة به ، فلربما تحين فرصة العثور على اى دليل على عـدم ولاء عامر قبل ان يتحرك هو ضده .

وعلى اية حال ، وفى ظل هـذه الظروف ، فان الحقيقة التى تتمثل فى ان عبد الناصر قد سمح لعامر بالبقاء فى منصبه تعد بمثابة دليل واضح — على ما يبدو — على ان عبد الناصر لم يكن يتوقع نشوب حرب فى عام ١٩٦٧ .

م يتيسر للعامة الحصول على احصائيات دقيقة حـول مدى قوة الجيش المصرى فى عام ١٩٦٧ . وكان من الواضح انه كانت هناك قوة فى اليمن قوامها ٥٠ر٠٠٠ جندى على اقـل تقدير ، وكانت بقية الوحـدات القتالية المصرية المتحركة غالبيتها ضـمن القوات التى تضم ١٠٠ر٠٠٠ جندى ، والتى ارسلها عبد الناصر الى صحراء سيناء فى اواخر مايو ١٩٦٧ ، وربما كان هناك ما يقرب من ٧٠ر٠٠٠ جندى ، او اكثر فى الوحـدات المتفرقة غرب القناة ، ومعظمها كانت ترابط حـول القاهرة ، وربما وصلت قـوة القوات المسلحة المصرية فى حالة التعبئة الكاملة عند نشوب الحرب فى واقع الأمر ، الى ما يقرب من ٥٠٠ر٠٠٠ جندى ، ورغم ذلك ، فقد كانت غالبية هـذه القوات تفتقر الى التدريب الجيد ، وتتولى القيام بمهام الأمن المحلى ، وعلى سبيل المثال تقوم بحراسة الجسور المقامة على نهر النيل ، والمبانى العامة فى المـدن المصرية الرئيسية ، وخزان اسوان القديم .

فى الأسبوع الأخير من مايو ، تخرج من الأكاديمية العسـكرية المصرية بالقاهرة ٧٥٠ طالبا فى العام الدراسى ١٩٦٧ ، وبدلا من ان يحصل الطلبة على اجازة شهر ، كما جرت العادة بعد التخرج منح الطلبة الجدد برتبة ملازم ثان اجازة يومين ، عادوا بعدها الى وحداتهم ، وكانت غالبيتها فى سيناء ، وبعد بضعة ايام كانت نسبة كبيرة من هؤلاء الضباط الشبان — الذين يفتقرون الى الخبرة ، ولكن لا تنقصهم الشجاعة — فى عـداد القتلى او الجرحى او الأسرى .

دور سوريا الخاص :

منذ نالت سوريا استقلالها فى عام ١٩٤٦ ، والبلاد فى حالة انهيار نتيجة الانقلابات العسكرية واحدا تلو الآخـر ، ويبلغ معـدل فترة تولى الدكتاتوريات العسـكرية المتعاقبة ، التى كثيرا لا يغلب عليهـا الطابع الاشتراكى فحسب ، بل ومعاداة الشيوعية فى الاتجاه السياسى ، ما يقرب من ١٥ شـهرا .

حدث ان وقع آخر انقلاب عسكرى فى فبراير من عام ١٩٦٦ ، وتكونت حكومة فى البلاد من تحالف مجموعة من الضباط اليساريين الذين تولوا السلطة وبين حـزب البعث السياسى ، الـذى يوفر للقـادة العسكريين قاعدة سياسية قوية ، نجح النظام الحاكم تحت رئاسة الدكتور نور الدين الأتاسى ، فى احباط محاولة انقلاب فى سبتمبر من عام ١٩٦٦ ، قـرر بعدها السعى لاضفاء نـوع من الواقعية على القيادة العربية الموحدة ، التى كانت قد تشكلت اسميا فى يناير من عام ١٩٦٥ فى اجتماع مؤتمر قمة دول الجامعة العربية الـذى عقد بالقاهرة ، وتم ابرام معاهدة دفاع لخمس سنوات ، على اثر زيارة قام بها وفـد سورى للقاهرة ، وافق السوريون بمقتضاها مرة اخـرى على قبول القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية كقائد أعلى للقوات المتحالفة بأسرها فى حالة نشوب حرب ، واسفرت هـذه المعاهدة بما

يسمى بالقيادة العربية الموحدة ، وعين اللواء المصرى على عامر قائدا اسميا لهذه القيادة ، رغم ذلك ، فان هـذه القيادة لم تستند على اى اساس ، نظرا لأزمة الثقة الشديدة المتبادلة بين اعضائها الاربعة الاسميين :جمهورية مصر العربية ولبنان وسوريا والاردن .

اشرنا من قبل الى اى مـدى اسهم الدعم السورى لرجال حـرب العصابات الفلسطينيين فى التعجيل بحدوث أزمـة ١٩٦٧ . وعلى الرغم من ان الاسرائيليين كانوا على وعى تام لحقيقة وجـود قواعد رجال حرب العصابات الكبرى داخل سوريا وان الدعم المـادى والسياسى والسيكولوجى يأتيهم فى المقام الاول منها ، فانهم كانوا يصبون غاية انتقامهم على الاردن الاكثر تعرضا للهجوم ، ومن قبيل السخرية ، ان راديو دمشق كان يقدم التأييد العلنى لفتح باعتبارها بمثابة المنافس للسلطة الاردنية فى فلسطين ، وفى نفس الوقت يدعو للاطاحة بحليف سوريا ، الملك حسين ، العاهل الاردنى ، لتخاذله فى تقديم الدعم الكافى لحركة تحرير فلسطين فى تلك المناطق الخاضعة لسيطرته من فلسطين ، ووقعت فى الفترة ما بين ١٩٦٦ و ١٩٦٧ بضعة اشتباكات مسلحة على امتداد الحـدود السورية ــ الاردنية ، وبدا عـداء سوريا الـذى تكنه للأردن ، حليفتها الاسمية ، مساويا تقريبا لمـا تكنه من عـداء لاسرائيل ، عدوها السافر .

دور روسيا السوفيتية :

لا يتسع المجال فى هذا الكتاب لنتناول بالتحليل اهداف الاتحاد السوفيتى ومصالحه المتعددة فى الشرق الاوسط خلال عشرات الاعوام التى تلت استقلال اسرائيل وظهورها الى حيز الوجود كدولة مستقلة : فالكرملين يعتقد فى جوهر الامر انه عندما يؤيد العرب ضـد اسرائيل فستصبح الفرصة مواتية لزيادة نفـوذ السوفيت ومكانتهم ، واضعاف نفوذ الدول الغربية المتعطشة للبترول فى الشرق الاوسط .

وانه لمن قبيل المصادفة ، رغم ما له من اهمية ، ان يتمثل الهـدف السوفيتى فى اختبار الكفاءة العملية للأسلحة السوفيتية ، متى نشبت حرب اخرى فى الشرق الأوسط،فقد تم تزويد مصر وسوريا والعراق ، الدول الثلاث التى تعد بمثابة اكبر اعـداء اسرائيل تشددا ، باسلحة ومعدات نقل واتصال روسية الصنع ، وذلك بكميات وفيرة . وتضم هـذه المعدات انواعا هامة من العتاد للقوات المسلحة فى الدول العربية الثلاث . فقد تم تزويد القوات البرية : بأحدث الدبابات السوفيتية من طرازات ٥٤ و ت ٥٥ وناقلات مصفحة للجنود تشتمل على ب،ت ر١٥٠ ، ومدافع هجومية مدمرة للدبابات س يو من عيار ١٠٠ ملم ، وعـدد كبير من دبابات ت ــ ٣٤ القديمة ، ولكنها صالحة للاستعمال ، ودبابات ثقيلة من طراز ج س ٣ ، كما تم تزويد القوات البحرية بقاذفات صواريخ من طراز اوسا وقوارب الطوربيد البخارية من طراز كومار ، بالاضافة الى مدمرات وغواصات من طراز قديم لمصر .

وكانت الطائرات التى زود بها الاتحاد السوفيتى العرب طائرات فعالة بصفة خاصة ، فبالاضافة الى عـدد كبير من طائرات ميج ــ ١٥ وميج ــ ١٧ العتيقة ، كانت هنالك طائرات ميج ــ ١٩ وميج ــ ٢١ ، وقاذفات لمساندة القـوات البرية س يو ــ ٧ ، وحتى يتسنى تقديم العـون للعرب فى استخدام وصيانة هـذه الأسلحة الحديثة ، كان هناك فى كل دولة من هذه الدول عـدة آلاف من الضباط والأفراد السوفيت كخبراء فنيين وذوى دراية بالعمليات الحربية ومستشارين ومدربين .

اما كيف تسنى للسوفييت تقييم القـدرات العسكرية لدى عملائهم العرب بالمقارنة لقدرات الاسرائيليين ، فذاك أمـر غير معروف ، ويبدو انهم افترضوا فى عـام ١٩٦٧ ان كمية ونوعية القوات العربية المسلحة السوفيتية تكفى للتغلب على اسرائيل ، وخلافا لذلك فانه من المشكوك فيه ما اذا كان السوفييت اسهموا بشكل مباشر للغاية فيما ساد منطقة الشرق الأوسط من قلاقل مثلما حـدث فى مايو ١٩٦٧ ، ويشق على المرء الا يساوره الشك فى ان السوفيت كانوا يتطلعون فى شوق بالغ لتحين فرصة لاختبـار اسلحتهم ونظرياتهم المستخدمة فى القتال .

كانت اسرائيل تراقب هـذا السيل المتدفق من الاسلحة على الـدول العربية بقلق متزايد ، وكانت المخابرات الاسرائيلية نشطة ومطلعة ــ فيما يبدو ــ على كميات ونوعية وخصائص الأسلحة العربية الحديثة ، وكان الاسرائيليون على استعداد للتعامل بصفة خاصة مع ما اعتبره الكثيرون بمثابة اقـوى الأسلحة السوفيتية الجديدة المتدفقة الى الشرق الأوسط ، وهى الطائرة المقاتلة ميج ــ ٢١ الأسرع من الصوت .

وكان احد عملاء المخابرات الاسرائيلية فى بغداد قد تمكن فى اغسطس ١٩٦٦ ، من اقناع طيار بالسلاح الجوى العراقى ــ حيث عرض عليه مبلغا ضخما من المـال ــ بالفرار الى اسرائيل باحدى هـذه الطائرات ، ومن ثم تسنى للاسرائيليين فحص الطائرة عن قـرب ، والتعـرف على كافة امكانياتها ، ونقاط ضعفها الهامة ، وان يتمرنوا ضدها فى مناورات المعارك الجوية مع طائراتهم من طـراز الميراج والميستير والسوبر ميستير .

يبين الجدول فى صفحة   مقارنة بين قـوات واسلحة الطرفين المتخاصمين المتاحة ، حيث يسهل على المرء ادراك السبب وراء ثقة السوفيت على هـذا النحو ، والسبب وراء شعور القلق لـدى الكثير من الـدول الغربية المتعاطفة مع اسرائيل ، عندما تصاعدت حـدة ازمة الشرق الأوسط فى اواخر مايو ١٩٦٧ .

(٣)

تعبئة سيناء

انتشار القــوات المصرية

كان مقر قيادة الجيش المصرى والقيادة العربية الموحدة فى القاهرة ، وكان اللواء عبد المحسن مرتجى قائد جبهة سـيناء ، يتخذ مقر قيادته فى الاسماعيلية وتقع على قناة السويس . وكان مركز قيادة الفريق صلاح الدين محسن ، قائد الجيش الميدانى ، فى بير ثمادة . وكان العنصر المقاتل فى سيناء فى بداية شهر يونيه ، مكونا من ست فرق مصرية وقــوة مهمات مدرعة تقل فى حجمهــا عن الفرقة الى حد ما ، على درجــات متفاوتة من حالة الاستعداد والفعالية .

وكانت فرقة جيش التحرير العشرون ، تتركز فى الشمال ، وفى قطاع غزة ، يدعمها عــدد من الوحــدات المصرية ، ولا سيما المدفعية ، ولواء مزود بحوالى ٥٠ دبابة من طراز شيرمان ، كانت حالة التدريب والنظام والكفاءة لــدى هــذه الفرقة — بقيادة اللواء محمد عبد المنعم حســنى (الحاكم العام لقطاع غزة ايضا) الــذى يتخذ مقر قيادته فى غزة — تتراوح ما بين متوسطة وضعيفة .

وكانت الفرقة السابعة مشاة جنوبى قطاع غزة ، التى تشكلت فى عجالة ابان الأزمة من لواءين مشاة مستقلين ، ووضــعت تحت أمــرة قائد مدرسة المشاة اللواء عبد العزيز سليمان . وكانت تساعده مجموعة من الضباط اتى بها معه من مدرسة المشاة ، وبينما كانت تتمتع بالمهارة الفنية ، فقد كانت تفتقر الى الخبرة الحديثة فى مراكزها القيادية ، فلم تــكن قد عملت مع بعضها البعض من قبل ، ومن ثم فقد كانت فرصتها ضئيلة فى تطوير فريق عمل منسجم .

فى اقصى الجنوب الشرقى ، تقع منطقة ابو عجيلة — القسيمة ، كانت الفرقة الثانية مشاة ، يلحق بها لواء دبابات . وتعد هذه الفرقة بمثابة افضل فــرق الجيش المصرى ، غير ان قائدها ، اللواء سعدى نجيب ، احد المعينين السياسيين ، كان قد تم تعيينه منذ عهد قريب قائدا للفرقة ، وكانت مؤهلاته الوحيدة الواضحة ، التى تؤهله للقيادة هى خبرته فى كونه أحــد اصدقاء المشير عامر على موائد الشراب .

كانت الفرقة السادسة قد انتشرت فى منطقة الكونتيلا ونخل ، وهى فرقة ممتازة ، فى كامل قوتها ، وكان قائدها اللواء عبد القادر حسن ، جديرا بالاحترام وعلى درجــة عالية من الكفاءة ، وكان يدعم هــذه الفرقة اللواء الأول مدرعات بقيادة عميد حسين عبد اللطيف ، واثبتت هــذه الفرقة وقائدها خــلال العمليات المتعاقبة التى كانت تقوم بهــا ، انها تستحق التقدير الــذى كانت تحظى به فى الجيش المصرى .

انتشرت الفرقة الثالثة مشاة من القــوات الاحتياطية ، فى منطقة جبل لبنى وبير حسنة ، وكان يقــود هــذه الفرقة احد المعينين السياسيين ايضا ، وهو من المقربين ايضا الى المشير عامر وهو اللواء عثمان ناصر ، وقد قــدر له ان يحاكم محاكمة عسكرية لعــدم كفاءته وتخاذله فى القيــام بواجباته فى العمليات ، الامــر الــذى اثبت ادانته وصــدر ضده الحكم بالسجن خمسة اعوام .

كان ثمة تشكيل مدرعات من القوات الاحتياطية — يتكون من لواء دبابات ، ولواء كوماندو ، ولواء مدفعية — منتشرا شرقى بير حسنة وغربى لوسان ، لتدعيم الفرقة السادسة الميكانكية بصفة عامة ، وكان اللواء سعد الشاذلى هو قائد هــذه القوات .

كانت الفرقة الرابعة مدرعات من القــوات الاحتياطية الاستراتيجية التى تخضع لسيطرة القيادة العامة للمشير عامر ، قد انتشرت فى منطقة بير جفجافة ، بكامل قوتها ومزودة بأحدث الدبابات السوفيتية ، وكان يقودها اللواء صدقى الغول وهو من ذوى الكفاءة ويستحق التقدير .

وكان هناك ايضا ، لواء مشاة مستقل يقــوم على حماية مواقع شرم الشيخ المحتلة مؤخرا ، وفى أواخر مايو ، تم حشد ثلاث كتائب مشاة على عجل ، حيث كان معظم جنودها لم يرتدوا الزى العسكرى بعد ، لتقوم على حماية ممرى الجدى ومتلا الاستراتيجيين ، وبلغ مجموع عــدد القوات المصرية فى سيناء حوالى ١٠٠ر٠٠٠ جندى مزودين بنحو ٩٣٠ دبابة .

فى عام ١٩٦٦ قامت هيئة الأركان العامة المصرية بوضع خطة دفاعية وهجومية للدفاع عن سيناء ، واطلقت عليها الاسم الرمزى « قاهر » وتقوم الفكرة الرئيسية على دفاع متحرك فى العمق ، وحشد الجزء الأكبر من الجيش فى وسط شبه الجزيرة ، مع الابقاء على كتيبته لتغطية منطقة الحدود ، وباستثناء الابقاء على بضع مواقع دفاعية رئيسية ، كالعريش وابو عجيلة على سبيل المثال كى يتسنى السماح للعدو الاسرائيلى وتشجيعه فى الواقع على التوغل بعمق داخل سيناء حتى يصل الى « منطقة الفناء » التى أعدت له من قبل ، وهى عبارة عن منطقة وعرة مثلثة الشكل يحدها جبل لبنى والسويطمة (شرقى بير ثمادة) وبير جفجافة

فقد كان من المتوقع عندما يتقدم العدو لشق طريقه عبر الصحراء الى هذه المنطقة ، يكون قد اورد نفسه موارد الهلاك تماما ، حيث يتسنى للمصريين المترقبين قدومه ، التعرف بوضوح على انتشار قواته ، وفى حالة ما اذا تقدم جانب من الجيش الاسرائيلى ببعض وحداته ، وهو احتمال قائم على ما يبدو ، فيتعين الاشتباك معه من الأمام من القاعدة الثابتة وسحقها من خلال احكام تطويقه والاطباق عليه سواء من الجنوب او الشمال ، على النحو الذى يقتضيه الأمر . ومن ناحية اخرى ، لو حدث ان تورط الجانب الأكبر من القوات الاسرائيلية فى التوغل وسط شبه الجزيرة ، فمن المتصور وقتئذ ان تتم محاصرته على نحو سافر واكثر قوة ، بغية تدمير الجيش الغازى برمته .

كان ثمة ادراك لخطر احتمال عدم استكمال تنفيذ هذه الخطة الجريئة بحذافيرها ، واحتمال ان تتمكن بعض الوحدات الاسرائيلية من تفادى الحصار المزمع ومن ثم كان لابد من خط دفاعى ثان واخير فى الخلف عند الممرات الثلاثة ، وكان لابد من اتقان اقامة ، هذا الخط وتزويده بالقوات مقدما حتى يكون بمثابة قاعدة للجيش الرئيسى ، فى حالة ما اذا ارغم على الانسحاب الى هذا الحد .

رغم وضع الخطة على الورق ، لم يبذل سوى القليل لتطبيقها : فقد كان الجانب الأكبر من الميزانية العسكرية ينفق على الحملة التى فى اليمن ، وفى الغالب لم تتوافر اية اموال لاعداد المنشآت فى سيناء بناء على الاستراتيجية الموضوعة ، وفضلا عن ذلك ، وخلال الصراع المستتر على السلطة بين انصار عامر وانصار عبد الناصر ، كان عامر قد استبعد من هيئة اركان الحرب العامة الكثيرين من مخططى عملية « قاهر » .

تفاقم الاضطراب :

عندما امر الرئيس عبد الناصر بحشد القوات شرقى قناة السويس فى مايو من عام ١٩٦٧ ، رفض السماح باعادة انتشار القوات بما يتفق مع الخطة ، الامر الذى يعنى التخلى الفعلى عن غزة ورفح والكونتيلا ، بل وربما فقد العريش وابو عجيلة . اعلن الرئيس عبد الناصر انه حتى مجرد التخلى بصفة مؤقتة عن هذه الأماكن ، يعد بمثابة امر مرفوض بالنسبة له ، ومن ثم كان لابد من ان يتم انتشار القوات الى اقصى الشرق بكثير . وهكذا لم تكد تصل القوات الى مواقعها التى تقررت من قبل ، حتى صدرت اليها الاوامر بالتوجه شرقا ، واعقب ذلك سلسلة من الأوامر بتحرك الوحدات من مكان لآخر : فعلى سبيل المثال ، تحرك اللواء الرابع عشر مدرعات — الذى كان من المفروض ان يشكل راس الحربة للقوات الضاربة فى الشمال فى خطة الحصار فى عملية « قاهر » — شرقا الى المنطقة المجاورة لابو عجيلة ، ثم الى العريش ومنها الى رفح . قطعت دبابات هذا اللواء من طراز ت٥٤ وت

٥٥ الروسية الصنع ، ما يقرب من ١ر٢٠٠ كيلو متر عبر الصحراء فى الأسابيع الثلاثة قبيل الحرب .

لم تختلف تجربة اللواء الرابع مشاة عن تجربة اللواء الرابع عشر مدرعات فى كثير من الأمر ، فقد اقتضت الخطة الأصلية بالنسبة لهذا اللواء التحرك الى شرم الشيخ عقب انسحاب قوات الأمم المتحدة ، وشرع اللواء فى التحرك جنوبا فى منتصف مايو ، ثم صدرت اليه الأوامر بالعودة الى السويس نظرا لاحتلال قوات المظلات لشرم الشيخ بالفعل ، ومن السويس صدرت الأوامر الى اللواء بالتحرك الى الطرف الشمالى فى المنطقة المجاورة لرفح ، وما كاد اللواء يقطع نصف الطريق الى رفح حتى نشبت الحرب ، وصدر اليه الأمر مرة اخرى بالعودة الى القاهرة . بعدئذ ، وبينما كانت الطلائع تعبر القناة فى السادس من يونيو ، اصدر المشير عامر شخصيا توجيهاته بتشتيت اللواء شمالا وجنوبا فى مواقع دفاعية غرب القناة ، واكتسحت الدبابات الاسرائيلية قوات المؤخرة ، واللواء يواصل زحفه وذلك قبل ان يتسنى لها الوصول الى القناة . وهكذا ، لم يستطع اى لواء نظامى على درجة عالية من التدريب وكفاءة القيادة ، المشاركة بأى حال من الأحوال ، فى المعركة .

فى الثامن والعشرين من مايو ، ارسل اللواء محسن قائد الجيش الميدانى — وقد شعر باحباط من جراء الأوامر المشوشة المتضاربة الصادرة من القاهرة — بالعميد حسن حسن ، رئيس الأركان ، الى مقر القيادة العليا للحصول على ايضاحات وتوجيهات ، وكان حسن فى جوهر الأمر ، يسعى لتحديد الهدف من وراء بقاء الجيش الميدانى فى سيناء ، وتوجيهات بما اذا كان الدور الذى يضطلع به دورا هجوميا (مثلما يبدو من طريقة انتشار قواته الراهنة) أم دورا دفاعيا ، كما كان مقررا فى الأصل وفقا لعملية « قاهر » . عاد العميد حسن الى القاهرة بعد عجزه عن الحصول على اى ايضاح يلقى الضوء على استفساراته فى الاسماعيلية ، سواء من اللواء مرتجى ، قائد قوات الجبهة ، او من اللواء احمد اسماعيل على رئيس الأركان (الذى قدر له أن يكون القائد العام للقوات المسلحة فى حرب ١٩٧٣) ، عاد الى القاهرة للتشاور مع الفريق انور القاضى(١) رئيس اركان حرب القوات المسلحة .

اجرى العميد حسن مشاورات مؤخرا مع اللواء القاضى ، عاد بعدها الى بير ثمادة ، مركز قيادة اللواء محسن ، يحمل ردا ساذجا . فرئيس اركان حرب القوات المسلحة الذى لا يحظى بثقة المشير عامر ، لا يسعه الرد على الأسئلة المحددة ، كذلك لا يسعه الادلاء باية ايضاحات او توجيهات على ما طلبه قائد الجيش الميدانى .

بعد ايام قلاقل ، وفى الرابع من يونيو ، صدر امر الى ملازم ثان يدعى حامد ، احد الخريجين الجدد برتبة ملازم ، تم تعيينه — كأحد افراد سرية

نقل بالقرب من السويس — بقيادة قافلة ذخيرة مضادة للدبابات حتى الكونتيلا ، بالقرب من الحدود المصرية — الاسرائيلية . ورحل الملازم المصرى بعد ظهر ذلك اليوم ، وعسكر مع قوته شرقى نخل طوال الليل ، وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، قدم نفسه الى قائد الكونتيلا ، ونظر اليه الضابط الكبير فى دهشة قائلا : « لسنا بحاجة الى اية ذخيرة ، لن تكون هناك حرب . عد بها من حيث اتيت » . حياه الملازم ، وعاد ادراجه بالشاحنات ، مما شطر القناة ، بعد نصف ساعة كانت الطائرات الاسرائيلية تقصف الشاحنات المصرية .

خطط العمليات وانتشار القوات الاسرائيلية :

كان ثمة ثلاثة عناصر رئيسية تشتمل عليها الخطة الاسرائيلية للهجوم على سيناء : عنصر المباغتة ، وعنصر احراز تفوق جوى مبكر ، وعنصر الاشتباك الحاسم والمبكر مع القوات المصرية الرئيسية بقدر ما يمكن شرقى سيناء .

وحتى يتسنى تحقيق عنصر المباغتة كان لابد من الهجوم المفاجىء قبل ان يكون العرب على استعداد لشن هجوم ما ، الأمر الذى كان متوقعا ، وكان لابد لتأمين التفوق الجوى من ان يرافقه هجوم مفاجىء وتوجيه الضربة الأولى بشن سلسلة قوية من الغارات الجوية بغية تدمير السلاح الجوى المصرى ، (اذا استلزم الأمر) تدمير القوات الجوية للدول العربية المجاورة على حد سواء . اما العنصر الثالث المتمثل فى الاشتباك مع القوات المصرية الرئيسية شرقى سيناء ، فانه يتوقف ، بطبيعة الحال ، على انتشار القوات المصرية الفعلى ، غير انه على ضوء الظروف التى يتوقع الاسرائيليون شن هجومهم فى ظلها ، كان الاسرائيليون يتوقعون ان المصريين اعدوا انفسهم بالفعل لشن الهجوم عليهم ، ومن ثم فانه سيواجه فى شرق سيناء الجانب الأكبر من قواتهم .

كان ماجور جنرال اسحق رابين رئيس اركان حرب القوات الاسرائيلية، هو صاحب هذه الفكرة العملية العامة ، بعدما أصبح رئيسا للأركان فى عام ١٩٦٣ ، وكان ان وقع فى اوائل عام ١٩٦٧ ، احد الأحداث الرئيسية التى اسهمت فى المباداة بالقتال المفاجىء المعتزم : ففى ذاك الوقت تقريبا بدا سلاح الطيران الاسرائيلى فى القيام بطلعات كثيرة ومتكررة فى الصباح الباكر فى اتجاه الغرب فى منطقة البحر المتوسط ، لم يبد المصريون حتى منتصف عام ١٩٦٧ اهتماما كبيرا بمثل هذه الطلعات المبكرة ، فكانت بالنسبة لهم لاتعدو ان تكون مثل شروق الشمس . وكان ثمة اجراء معتاد بالنسبة لسلاح الطيران المصرى ان تكون عدة اسراب مقاتلة فى وضع الاستعداد فى كل قاعدة عند الفجر ، وبعدها بما يقرب من الساعة . غير انه فى منتصف عام

١٩٦٧ تقريبا لم تعدل هذه الاستعدادات بأية حال وفقا للطلعات الاسرائيلية المبكرة الغربية فوق البحر المتوسط .

كان البريجادير جنرال يشباهو يهو جافيش يتولى قيادة الجبهة الجنوبية الاسرائيلية ، وكان يشغل هذا المنصب منذ عام ١٩٦٥ ، وقد وضع خطة تضمن تنفيذ أربع مراحل(١) :

١ — اختراق خطوط الجبهة المصرية فى قطاعين : على امتداد الطريق الساحلى رفح — العريش ، من جانب فرقة ، بقيادة البريجادير « اسرائيل طال » فى حين تقوم فرقة اخرى بقيادة البريجادير « جنرال (اريل اريك) شارون » باختراق ابو عجيلة ، وأم كتاف .

٢ — ادخال فرقة رابعة بقيادة الجنرال « افراها يوفى » أما بين فرقتى طال وشارون ، او جنوب فرقة شارون ، وهذا يتوقف على انتشار قوات المصريين — وكان عليها التوغل بعمق فى سيناء وتقوم بسحق ما تشير التوقعات بانه الخط الدفاعى المصرى فى المنطقة المجاورة لجبل « لبنى » .

٣ — حشد الوحدات المدرعة لفرق طال وشارون يوفى فى مثلث نخل وممر متلا وبير جفاجة بأسره .

٤ — التقدم نحو القناة والاستيلاء على شرم الشيخ .

كان معدل قوة هذه الفرق الثلاث يصل الى ما يقرب من ١٥ر٠٠٠ جندى ، رغم ان تشكيلاتها متباينة الى حد بعيد : فكانت فرقة الجنرال طال تشتمل على لواعين مدرعات — أحدهما مزود بدبابات من طراز باتون وسنتوريون ، والآخر بدبابات من طراز شيرمان ودبابات الـ — ١٣ — ولواء مظلات ، ووحدة استطلاع ، اى ما يعادل تقريبا فرقة مدرعة خفيفة ، وكانت هذه الفرقة مزودة بحوالى ٢٥٠ دبابة وتتألف فرقة الجنرال يوفى من لواعين مدرعات ، مزود كل منهما بحوالى ١٠٠ دبابة من طراز سنتوريون . وكان يوفى ضابط مشاة ، غير أن رئيس الأركان الكولونيل افراهام أدان كان متخصصا فى المدرعات ، وكان يقود كتيبة دبابات شيرمان فى أبو عجيلة فى عام ١٩٥٦ .

وكانت فرقة الجنرال شارون ذات الأسلحة المشتركة تتألف من لواء مدرعات مزود بدبابات شيرمان وسنتوريون ولواء مشاه ولواء مظلات ، وكان لدى شارون ، الذى يواجه الدفاعات الهائلة فى أبو عجيلة وأم كتاف، عدد من كتائب المدفعية الاضافية ملحقة بفرقته ، بالاضافة الى قوة من سلاح المهندسين . وكان معه ما يقرب من ١٥٠ دبابة .

كان ثمة لواء مدرعات مستقل فى الكونتيلا بقيادة الكولونيل البرت مندلر ، وكان عليه ان يتعاون مع الجنرال شارون لتدمير القوات المصرية فى المنطقة المجاورة لنخل ، وانتشر لواء ميكانيكى مدعم بقيادة الكولونيل يهودا ريشيف على امتداد قطاع غزة ، وكانت هناك قوة مظلات خاصة فى وسط اسرائيل على استعداد للعمل تدعيما للجنرال طال ضد شرم الشيخ .

وكان مجموع القوة القتالية لقيادة جنرال جافيش تزيد على ٧٠ر٠٠٠ جندى ولديها من ٧٥٠ الى ٨٠٠ دبابة .

وعمد الاسرائيليون الى خطة خداع محكمة ، وفقـا للمفهوم العام للعمليات ، علاوة على هدف محاصرة القوات المصرية فى عمق سيناء ، تم تنفيذها بينما كان يجرى تعبئة الجيش الاسرائيلى فى الاسبوع الأخير من مايو ، وتم حشد الفرق الثلاث فى شمال غرب النقب فى اكبر قدر ممكن من الهدوء والسرية ، بينما بذلت الكتائب وقوة اللواء المرابطة فى اقصى الجنوب قصارى جهدها للفت الانظار اليها اثناء تحركها صوب الحدود ، وانسحبت بعض الوحدات التى كانت قد تحركت الى الحدود فى اواخر مايو الى مسافة ما من الحدود فى ليال متعاقبة ، ثم عادت فى اوائل يونيو . ونشطت الطائرات الخفيفة والهليكوبتر بصفة خاصة على امتداد هذا الجـانب من الحدود ، اسهاما فى عملية الخدع . وكان الهدف من هذا النشاط ايهام المصريين ، مثلما حدث عام ١٩٥٦ ، بأن الاسرائيليين ينوون الاندفاع الى سيناء من الجنوب حول محور قرب قطاع غزة .

وفى الواقع ، كانت الخطة الاسرائيلية على النقيض من ذلك تماما ، وهى الاندفاع من الشمال مرورا بايلات .

١ ــ تجدر الاشارة الى انه من قبيل المصادفات الطريفة ان اسم رئيس الاركان المصرى عند ترجمته الى الانجليزية من العربية يعنى كلمة «قاض»، كذلك عند ترجمة اسم رابين رئيس الأركان الاسرائيلى الى الانجليزية من العبرية فانه يعنى كلمة « قاض » .

٢ ــ اكد ادوارد لوتراك ودان هـوروفيتس فى الجيش الاسرائيلى (نيويورك ١٩٧٥) ص ٢٣١ ــ ٢٣٣ ان هذه الخطة واحدة من خطتين اعدهما جافيش ، ويقال : ان الخطة الثانية كانت تتسم بأنها اكثر حذرا ، كما كانت تحظى فى الأصل بتأييد جنرال رابين ، الا ان الجنرال ديان ، وزير الدفاع الجديد حثه على سلوك مدخل اكثر جراة .

الهجوم الجوى الاسرائيلى

الهجــوم على مصر

بعد فجر صباح يوم الاثنين الخامس من يونيو بوقت قليـل ، وفى حوالى الساعة السابعة صباحا بتوقيت اسرائيل والثامنة حسب التوقيت المصرى ــ اقلعت ما يقرب من ٤٠ قاذفة مقاتلة من طراز ميراج وميستير من قواعدها فى اسرائيل ، وحلقت ، مثلما كانت تفعل مرات عديده من قبل ، غربا فوق البحر المتوسط ، وبعد بضعة دقائق ، لحقت بها ٤٠ طائرة اخرى، ثم تلتها ٤٠ طائرة غيرها . وكان من المفروض ان تكشف اجهـزة الرادار المصرية هذه الطائرات ــ وكان هناك منها عدة عشرات ، وحوالى ١٦ جهاز رادار فى سيناء وحدها ــ والسفن البحرية السـوفييتية والأمريكية شرق البحر المتوسط ، بما فى ذلك سفينة المخابرات الأمريكية الالكترونية « ليبرتى » ، ولا شك ايضا فى ان شاشات اجهزة رادار الدوريات المحمولة جوا الأمريكية والبريطانية التقطت صور الاسرائيليين من حاملات الطائرات الأمريكية والقواعد البريطانية فى قبرص .

حلقت الطائرات الاسرائيلية بعد ذلك ، وفقا للتدريبات الروتينية التى قامت بها من قبل ، على ارتفاع منخفض جدا ، ولما كانت الطائرات فى طريق عودتها للشاطىء ، تحلق على ارتفاع منخفض فوق أمواج البحر المتوسط ، فقد اختفت من شاشات الرادار .

على اية حال ، فى هذه المرة ، كان ثمة اختلاف فى أسلوب عودتها الى الشاطىء ، فبدلا من أن تنطلق الطائرات شرقا ، اتجهت جنوبا فى اتجـاه المطارات المصرية ، وفى الساعة ٧ر٤٥ صباحا بالتوقيت الاسرائيلى اى الساعة ٨ر٤٥ حسب التوقيت المصرى ، وبعد ان بدا ضـباب الصباح فى الانقشـاع ، وبعد ان انتهت فترة التأهب عند الفجر فى المطارات المصرية ، وبينما كان معظم ضباط سلاح الطيران المصرى فى طريقهم الى مكاتبهم او طائراتهم ، تم ضرب تسعة مطارات فى وقت واحد ، وضرب المطار العاشر بعد بضعة ثوان : فى العريش وبير جفجافة والقاهرة غرب وجبل لبنى وبير ثماده وابو صوير وكبريت وبنى سويف وانشاص وفايد .

امضت الموجة الأولى من الطائرات الاسرائيلية التى يبلغ عددها ٤٠ طائرة ، كل اربع طائرات تعمل فى تشكيلات صغيرة ، التى كانت تحلق على ارتفاع يتراوح ٣٠ و ٥٠٠ قدم ، بمنـأى عن شاشات الرادار المصرية ، امضت سبع دقائق فوق أهدافها ، وهى فترة تكفى للانقضاض الخاطف مرة وقصف الممرات ثلاث او اربع مرات . بعد اقلاع هذه الطـائرات بثلاث دقائق ، اى بعد مضى عشر دقائق فاصلة ، قامت موجة ثانية بضرب نفس القواعد لمدة سبع دقائق أخرى ، وبعد ثلاث دقائق أخى ، انقضت الموجة الثالثة من الطائرات الاسرائيلية ، وكانت الفترة المحددة لانقضاض الطائرات الاسرائيلية على منطقة القناة اقل من الساعة ، ظل الاسرائيليون يقصفون

لمدة ٨٠ دقيقة ، بثمان موجات من الطائرات ، وكانت هنـاك فسحة من الوقت لعشر دقائق يعقبها ٨٠ دقيقة أخرى من القصف الخاطف .

وبعد ثلاث ساعات تقريبا تم تدمير نحو ٣٠٠ طائرة مصرية على الأرض، بما فى ذلك كل طائرات تى — يو ١٦ الثلاثين وهى قاذفات طويلة المدى ، كما تم تدمير ٢٣ محطة رادار ، والكثير من القواعد المضـادة للدبابات ، وكانت هناك ٢٠ طائرة مصرية : ١٢ طائرة من طـراز ميج — ٢١ ، و ٨ طائرات من طراز ميج — ١٩ — قد أقلعت من الغردقة عقب الضربة الأولى، انتهى الأمر الى التدمير فى الجو او تحطمت على الأرض نظرا لضرب المهابط فى الشمال ، وتمكنت ثمان طائرات ميج — ٢١ تقريبا من الاقلاع من قواعدها التى تعرضت للهجوم فى هذه الأثناء ، وتصدت للطائرات الاسرائيلية المهاجمة واشتبكت معها ، وتم اسقاطها جميعا ، غير أنها أفلحت فى اسقاط طائرتين من الطائرات الاسرائيلية المغيرة ، واعلنت اسرائيل عن فقد ١٩ طائرة خلال فترة الثلاث ساعات الأولى .

ربما كانت أكثر الخسائر فداحة فى الجانب المصرى هى مقتل حوالى ١٠٠ طيار مصرى — واصابة عدد غير معروف — أثنـاء الهجمات سقط ضحايا قصف أول موجة من الطائرات الاسرائيلية نظرا لوجودهم فى الخلاء ، وحالة عدم الاستعداد للهجوم ، وحيث أن مصر لم يكن لديها سوى ٣٥٠ طيارا ذوى كفاءة ، فان هذه النسبة من الخسائر تعد فادحة .

فاقت نيران المدفعية المصرية المضادة للطائرات ما كان متوقعا ، ولم تصب الطائرات الاسرائيلية الا بأضرار طفيفة ، أطلق المصريون عددا من صواريخ سام ٢ ، غير أنها لم تكن فعالة لأنها معدة لمقاومة الطائرات على ارتفاع لا يقل عن ٤٠٠٠ قدم ، وكانت الطائرات المغيرة تطير على ارتفـاع منخفض عن هذا الرقم الى حد بعيد .

ثمة عنصران رئيسيان أسهما فى تحقيق هذا النجاح الجوى الاسرائيلى: عنصر المفاجأة وعنصر الاتقان . فكانت الطائرات الاسرائيلية ، حتى يتسنى لها توخى الدقة فى عملية القصف ، تقترب من الأهداف فى بطء ، حتى أن بعضها كان يترك جهاز الهبوط الى أسفل لتخفيض السرعة ، واستخدمت الطائرات ثلاثة أنواع من القنابل . واستخدمت القنابل التقليدية زنة ٥٠٠ رطل ، ١٠٠٠ رطل ، لتدمير المنشآت والممرات بصفة عامة ، كذلك استخدم فى تدمير الممرات ، قنابل مدمرة جديدة صنعت خصيصا لهـذا الغـرض ، فما أن يتم القاء القنبلة ، حتى يوقف الصاروخ الكابح المحرك الأمامى ، بينما يدفعه صاروخ ضاغط الى أسفل الممر ، حيث تنفجر بعنف بواسطة الفتيل ذو التوقيت الزمنى لتخترق السطح الأسمنتى المهبط . وتتميز هذه القنبلة بأنها تسمح بسرعة فائقة فى الهجوم الخاطف ، أما القنبلة التقليدية التى تلقى من ارتفاع منخفض ، بسرعة معتدلة ، فهى عرضة للانزلاق ولا تسفر الا عن أضرار طفيفة ، واذا تم القاؤها من الطائرة وهى بسرعة بطيئة فهناك خطر يتهدد الطائرة نفسها على اثر انفجار القنبلة التقليدية .

وثمة قنبلة موجهة أخرى ، على غرار القنبلة الأمريكية (Pullbub) فيما يبدو ، ومن الواضح أنها استخدمت لاتقان عمليـة تدمير الطـائرات الجاثمة فى المطارات ، دون الحاق أى ضرر بالمنشآت المحيطة بها(١) . وأمكن الاستفادة من هذه القنابل ولاسيما فى العريش ، القاعدة الوحيدة التى لم تدمر ممراتها ، حيث أن الأمر استلزم استخدام الطائرات الاسرائيلية لهذا المطار كقاعدة امدادات أمامية ومركز اخلاء للجرحى .

كانت مهمة الطيارين الاسرائيليين المغيرين، الذين يبلغ متوسط أعمارهم ٢٣ عاما ، يسيرة نظرا لقيام المصريين بحشد طراز واحد من الطائرات فى قاعدة جوية واحدة مما ساعد على جعل مهمة الطيارين الاسرائيليين أيسر ، ورغم أن هذا الاجراء يعد اجراء مألوفا فى كثير من القوات الجوية ، فانه مكن الاسرائيليين من اعطاء الأولوية للقاذفات المقاتلة والطائرات الاعتراضية، بينما تركوا قصف طائرات النقل على سبيل المثال لوقت لاحق من اليوم .

مهامة القوات الجوية العربية الأخرى :

قبيل الظهيرة تماما ، قامت طائرات تابعة للسلاح الجوى السورى بقذف القنابل على مقربة من مصفاة النفط فى حيفا وعلى قاعـدة مجـدو الجوية الاسرائيلية ، وأهداف أخرى بالقرب من بحيـرة طبرية ، سرعان ما قام الاسرائيليون بالرد فشنوا غارات على المطارات السورية ، بما فيها احدى القواعد الجوية العسكرية على مشـارف دمشـق ، واستطـاع الاسرائيليون تدمير معظم طائرات السلاح الجوى السورى .

عند الظهيرة ، قامت طائرات السلاح الجوى الأردنى بقصف مواقع بالقرب من ناتانيا ، كما أغاروا على قاعـدة كفر سركين الاسرائيلية ، مما أسفر عن تدمير طائرة نقل نوراتلاس وهى رابضة على الأرض ، وردت طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى مرة أخرى ، فأغارت على مطـارين فى عمان والمفرق ، ودمرت محطة رادار فى جبل عجلون . وتم تدمير سـلاح الطيران الأردنى .

فى الساعة ٢ر٠٠ مساء تقريبا ، أغارت الطائرات العراقية بالقرب من قاعدة رامات ديفيد الجوية الاسرائيلية ، فردت طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى للمرة الثالثة ، وعبرت ثلاث طائرات اسرائيلية على مسـافة ٥٠٠ ميل من الأردن الى العراق ، فضربت القاعدة العسكرية ح — ٣ ، فى الحبانية على خط أنابيب نفط كركوك ، ودمرت عشر طائرات عراقية وهى جاثمة على الأرض .

قصف الطيارون الاسرائيليون خلال هذه الحرب الجوية الخاطفة المدمرة فى مجموعها القواعد التالية :

فى مصر : العريش (٤٥ر٧ صباحا) ، بير جفجافة (٤٥ر٧) ، القاهرة غرب (٤٥ر٧) ، الاقصر (٣٠ر١٢ ظهرا) ، جبل لبنى (٤٥ر٧ صباحا ، بير ثمادة (٤٥ر٧) ، المنصورة (٠٠ر١٠) ابو صوير (٤٥ر٧) ، انشاص (٤٥ر٧) ، فايد (٤٥ر٧) ، كبريت (٤٥ر٧) ، الغردقة (١٥ر١٢ ظهرا) ، راس بناس (٠٠ر٦ مساء) ، المنيا (١٥ر١٠ صباحا) ، بنى سويف (١٥ر٨) ، حلوان (٠٠ر١٠) ، مطار القاهرة الدولى (١٥ر٥ مساء) ، بلبيس (٠٠ر١٢ ظهرا) .

فى الاردن : عمان (٤٥ر١٢ مساء) ، المفرق (٠٠ر١) .

فى سوريا : دمشق (٠٠ر١ مساء) ، مارك ريال (١٥ر١) ، دمير (١٥ر١) ، سيكال (١٥ر١) ، ت — ٤ (٤٥ر٣) .

فى العراق : ح — ٣ (٠٠ر٣ مساء) .

وكانت الطائرات الاسرائيلية تقصف ٢٥ او ٢٦ قاعدة مرة فى اليوم على اقل تقدير(٢) .

الملاحظات

(١) لتوتراك وهو روفيتس ، فى المرجع المشار اليه (ص ٢٢٨) لم يستخدم مثل هذا النوع من الصواريخ ، وان الاضرار كانت من جراء استخدام نيران مدفعية عيار ٣٠ مم . وهو امر مشكوك فيه .

(٢) من مصادر قوات الدفاع الاسرائيلية . بينما تختلف قائمة اسماء القواعد التى تم قصفها ، وتوقيت القصف اختلافا طفيفا فى المصادر المختلفة ، فان معظمها يتفق فى انه تمت الاغارة على ٢٥ قاعدة فى مجموعها .

(٥)

القتال فى سبيل رفح وغزة والعريش

الخطط والاستعدادات المتعارضة

فى الوقت الذى كان فيه سلاح الطيران الاسرائيلى يحقق تفوقا جويا تاما فى الساعة ١٥ر٨ صباحا ، حسب التوقيت الاسرائيلى ، بدات القوات البرية الاسرائيلية فى التحرك عبر شبه جزيرة سيناء .

كانت المهمة الاولى لفرقة الجنرال طال تتمثل فى اختراق قطاع رفح — العريش ، الذى كانت تتولى حمايته ستة الوية من الفرقة الفلسطينية العشرين لجيش التحرير الفلسطينى والفرقة المصرية السابعة مشاة ، يدعمها حوالى ٧٠ دبابة ، وتقع رفح عند خط السكة الحديدية الممتد من القنطرة على قناة السويس شرقا مرورا بالعريش على الساحل وينتهى عند غزة ، ويلتقى السهل الساحلى الفلسطينى شبه القاحل مع صحراء سيناء بالقرب من رفح ، وتختلط النباتات مع ندرتها فى المدن والمناطق المجاورة للطريق وخط السكة الحديدية ، بالكثبان الرملية . وفى الجنوب تتحول هذه المنطقة الى تلال صخرية ووديان قاحلة تعترضها مسالك غير ممهدة .

وتكمن اهمية رفح الرئيسية فى انها تصل ما بين الطريق الرئيسى والطريق الوعر ، الذى يقطع الجانب المصرى من الحدود حتى العوجة ، كما انها تشكل حلقة هامة فى النظام الدفاعى المصرى الذى يربط غزة وخان يونس فى الشمال ، وابو عجيلة فى الجنوب الشرقى ، مع القاعدة المصرية الرئيسية فى العريش فى اتجاه الغرب .

ويتولى الدفاع عن رفح لواء من الفرقة الفلسطينية العشرين تدعمه وحدات مصرية متنوعة ، تشتمل على مدرعات ومدفعية ووحدات مضادة للدبابات ووحدات مضادة للطائرات ، وكانت المداخل المؤدية للمواقع المصرية الفلسطينية من الناحية الشرقية والشمالية الشرقية لا تخلو من حقول الالغام المتناثرة هنا وهناك ، وكان ثمة خط دفاعى يتكون من اسلاك شائكة، ومدافع مضادة للدبابات ، وحقول الغام منتشرة ، ويمتد من الجنوب الغربى من المدينة ، لمسافة تزيد على عشرة كيلو مترات .

ومن ناحية الغرب مباشرة من هذا الخط الدفاعى يرابط لواءان مشاة من الفرقة المصرية السابعة مشاة ، يدعمها لواء مزود بمدافع هويتزر عيار ١٢٢ مم ، وكتيبة مزودة بمدافع عيار ١٠٠ مم وكلاهما طويلة المدى ، ويقوم

هذا الطراز من المدافع بدور مضاد للدبابات ، كانت هذه المنطقة الدفاعية الواقعة جنوب وجنوب غرب رفح مركزا للحشـــود المصرية الرئيسية فى المنطقة ، وكان لابد من تحييدها او تدميرها قبل توفر اية امكانية لمزيد من التقدم نحو قاعدة العريش .

قرر الجنرال طال تفادى اى هجوم مباشر على هذا الموقع الدفاعى المنيع ، وقرر محاصرته ، ولمـــا كان الطرف الجنوبى للموقع تحيط به الكثبان الرملية لا يمكن اجتيازها الا بمشقة بالغة ، فقد قرر الجنرال طال محاصرة الجانب الأيسر عن طريق اختراق الدفاعات الساحلية الفلسطينية المصرية فى نقطة مجاورة لخان يونس ، التى كان يقوم على حمايتها الفرقة الفلسطينية العشرون ايضا ، واعتزم الجنرال طـــال ، متى بلغت القوات الاسرائيلية الطريق الرئيسى وخط السكة الحديدية بالقرب من خان يونس ، التحـرك غربا ، حيث كان يتوقع مواجهة صعوبات اقل نسبيا فى قهر مدافعى جيش التحرير الفلسطينى فى مدينة رفح نفسها ، الامر الذى من شـانه الكشف عن الجانب الأيسر لمواقع الفرقة السابعة المرابطة جنوب المدينة .

معركة رفح : (٥ يونيو) :

فى الساعة ٨٫١٥ صباح الخميس من يونيو ، تلقى طال الامر الذى كان فى النظارة من الجنرال جافيش بالهجوم ، فقام اللواء السابع مدرعات بقيادة كولونيل شمويل جونين ، وفقا للخطة الموضوعة ، بالضرب فى اتجاه الغرب عبر الحدود على قطاع غزة صوب خان يونس ، وكان على اللواء الآخر مدرعات بقيادة كولونيل مناحيم افيرام ، القيام بمجهـــود ثانوى عبر الكثبان الرملية فى الجنوب ، والالتفاف حول الدفاعات المصرية الممتدة جنوبا من رفح — وكان طال يعتقد — وكان محقا فى اعتقاده — ان المصريين مع تأمين قطاع دفاعاتهم جهـــة اليمين بالكثبان الرمليـــة ، سيعتبرون ان هذه المنطقة يســـتحيل على الدبابات الاسرائيلية اجتيازها ، ومن ثم فانهم لن يضعوا فى حسبانهم وقوع مثل هذا الالتفاف الجرىء ، وحتى يتسنى ايجاد رابطة بين هاتين الشعبتين المتباعدتين الى حد بعيد لعملية الحصار المزدوج، كان لابد للواء المظلات بقيادة كولونيل رافائيل ايتان — المدعم بسرية باتون من اللواء السابع — من القيام بهجوم متواصـــل على القوات الفلسطينية المصرية المرابطة فى رفح نفسها ، وكانت ثمـــة قـــوة احتياطية من وحـــدة الاستطلاع المدرعة بقيادة كولونيل يورى باروم .

هاجم جونين خان يونس فى تشكيل طابورى ، تحركت سرية دبابات باتون م — ٤٨ وتلتها كتيبة سنتوريون ، وكانت كتيبة المشـــاة الميكانيكية التابعة له ، قدا لحقت بالقوة الاحتياطية للواء ، وكان لواء جونين يضـــم ايضـــا كتيبة مشـــتركة من دبابات باتون وايه.ام.اكس — ١٣ من وحدة الكولونيل باروم ، واخترقت دبابات ايه ام اكس وباتون خان يونس ، رغم

نيران المدفعية والمدافع المضادة للدبابات والرشاشات الكثيفة ، فى مثل هذه الظروف ، وبعد فقد ست دبابات وبعض عربات الجيب وعربات نصـــف جنزير ، امرا لا اهمية له نسبيا .

واصل لواء جونين ، دون توقف ، ووفقا للخطة المعدة من قبل ، تقدمه فى اتجاه الجنوب الغربى من خان يونس الى رفح فى خطين متوازيين ، وكان جونين على اليمين ، يوجه بنفسه كتيبة الباتون ، التى كانت تتجه مباشرة نحو مدينة رفح على امتداد خط السكة الحديدية ، وقاد باروم ، متبعا نفس الطريق ، الذى انحرف نحو الداخل فى شكل انعطافة بالقـــرب من رفح ، دبابات الباتون وايه ام اكس ، وتتبعها دبابات السنتوريون وراءها بمسافة قليلة متجهة مباشرة الى ملتقى طرق رفح جنوب المدينة ، وكان كولونيل باروش هاريل ، ويلى جونين فى القيادة ، على راس كتيبة السنتوريون .

تعرضت المواقع المضادة للدبابات شـــمال ملتقى الطـــرق مباشرة ، والمدعمة بدبابات الخنادق ، للاصـــابة من جـــراء حركة فكى الكماشـــة العسكرية ، نتيجة لهجوم دبابات الباتون بقيادة جونين عليها من المؤخرة ، بينما كانت تتعرض مقدمتها لنيران الباتون والـــ ايه ام اكس بقيادة باروم ، ودبابات السنتوريون بقيادة هاريل ، ولم يبد المصريون — الذين فاجأهم الهجوم غير المتوقع من الشمال — مقاومة شـــديدة ، وسرعان مادهمتهم الدبابات التى تسير فى خطين متوازيين متقاربين .

لم يمكث جونين وجنوده بدباباتهم فى الموقع الذى اكتسحوه ، فسرعان ما تقدموا الى الشيخ زويد ، وهو موقع حصين قوى ، يتولى حمايته اللواء الشمالى من الوية الفرقة السابعة جنوب رفح ، بعث جونين : بيورى وهاريل فى خطين مستقيمين جنوبا فى اتجاه الشيخ زويد ، وذلك لضرب مقدمة الدفاع المصرى الذى كان يتبدل على نحو سريع ، بينما تحرك هو مع دباباته الباتون جهة الشمال اول الأمر ، ثم عاد وتحرك فى اتجاه الغـــرب للالتفاف حـــول الألوية المصرية ، وساعدت الصدمة والمفاجأة والفوضى التى دبت على اثر هجوم الدبابات من الجهتين ، مساعدة كلها مرة اخـــرى على تمكين جنود الدبابات من تدمير موقع مشاة مع تكبد قدر ضئيل نسبيا من الخسائر .

كان جونين على وشك مواصلة تقدمه غربا فى اتجاه العريش ، عندما تلقى تعليمات من الجنرال طال بالعودة الى رفح مع احدى كتائبه . فأصدر بدوره أمرا الى هاريل بمواصلة التقدم فى اتجاه الغرب بغية الاستيلاء على منطقة جرادة المنيعة ، والتى تبعد عن العريش بخمسة أميال شرقا ، وكان يتقدم طابور هاريل سرية استطلاع من وحدة باروم .

وفى الوقت نفسه ، وعقب عمليتى الهجوم المتعاقبتين اللتين قام بهما جونين على ملتقى طريق رفح والشـــيخ زويد بفترة وجيزة ، وصـــل لواء مظلات ايتان بمدرعاته ، واستولى المظليون على المواقع الحصينة فى رفح ودعموها بعد أن وقع اشتباك متلاحم استغرق بعض الوقت فى الخنادق ،

وواصل اللواء تقدمه غربا وراء جونين الى الشيخ زويد، وواجه الاسرائيليون فى الشيخ زويد مقاومة شديدة من المصريين ، الذين بداوا يفيقون من صدمة الضربة ، غير أن الافاقة لم تكن كافية لابداء مقاومة فعالة فى واقع الأمر ، فتم أسر الكثير من المصريين ، وانسحب الباقون فى حالة شديدة من الفوضى غربا فى اتجاه الصحراء .

فى الوقت الذى كانت تتلاحق فيه الأحداث بالقرب من رفح ، كان لواء افيرام المدرع يتابع سيره فى بطء عبر الكثبان الرملية فى اتجاه الجنوب ، ليقوم بحصار واسع النطاق للمواقع الدفاعية للواء السابع فى منطقة رفح والشيخ زويد ، ومن أجل الهجوم المضلل ، وحتى يستدرج افيرام المصريين لاطلاق النيران والكشف عن مواقعهم ، ارسل كتيبة للمشاة الميكانيكية لشن هجوم متواصل على الخطوط المصرية جنوبى الشيخ زويد ، وواصل تقدمه جنوبا مع كتيبتى دبابات ، سعيا وراء القطاع الجنوبى من الموقع المصرى حتى يتم استكمال محاصرته .

ولأسباب غير واضحة ، اضطرت كتيبة افيرام الامامية الى الانحراف، ولم تبلغ بعد غايتها ، فمرت بين موقعين مصريين ، عندئذ اتجهت لضرب جانب ومؤخرة احد الموقعين فى الشمال ، وكان الاسرائيليون يعتقدون — خطا — انه يعتبر بمثابة الحد الجنوبى للموقع المصرى ، وكان الجانب الايمن للكتيبة المصرية ، مستترا تماما خلف الكثبان الرملية ، قد كف عن اطلاق النيران لبعض الوقت ، حتى يتسنى للاسرائيليين الكشف عن انفسهم ، ولم تنطلق نيران هذا الجانب الأيمن من الكتيبة المصرية ، الا بعد ان تقدمت كتيبة افيرام الثانية للدبابات متجهة صوب مواقع المدفعية ، فاصيبت مؤخرة الكتيبة الأمامية . وعقب ذلك دبت الفوضى ودار القتال ، حاصر فيه المصريون افيرام وكتيبته ، حيث انهالت عليهما نيران المدفعية الكثيفة والمدافع المضادة للدبابات والأسلحة الصغيرة .

وصلت القوات الاسرائيلية فى كتيبة الدبابات الثانية بقيادة افيرام — وهى فى غفلة عما وصل اليه قائد لوائهم من موقف خطر — الى مواقع مدفعية الفرقة السابعة بعد أن قصفتها الغارات الجوية الاسرائيلية بفترة وجيزة . انتهز الاسرائيليون فرصة انتشار حالة الفوضى ، فسارعوا باسكات المدافع تماما ، وقتل واصابة الكثيرين من المقاتلين . فاجأت هذه الكتيبة منطقة مؤخرة الفرقة السابعة ، ودمرت سريتى دبابات مصرية مزودة بحوالى ٢٠ دبابة من طراز ستالين و٢٠ دبابةمن طراز ت — ٣٤ ، ودار اشتباك مع دبابات ت — ٣٤ ، وفى أثناء ذلك ، تلقى قائد الكتيبة رسالة لاسلكية من افيرام ، يبلغه فيها عن الموقف الخطير لمؤخرة الكتيبة المحاصرة فى المنطقة الأمامية ، فسارع قائد الكتيبة لنجدة قائده ، وكف عن مواصلة العمل على الفور ، لكن لم يلبث المشاة المصريون أن فاقوا من الصدمة والمفاجأة ، حتى أن هذه الكتيبة وجدت انه يشق عليها العودة شرقا عن التقدم أصلا فى اتجاه الغرب .

كان طال اصدر اوامره الى جونين بالعودة الى رفح مع احدى كتيبتى الدبابات ، وذلك فى ضوء ما انطوى عليه موقف لواء افيرام من اضطراب وخطورة ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه طال على وشك اصدار الأمر الى جونين لنجدة افيرام ، كانت كتيبة افيرام التى ضلت السبيل ، تشق طريقها من خلال المصريين المحيطين بها ، وتنضم الى قائد اللواء ، فتبدل الحال ، حيث تمكنت كتيبتا الدبابات بما حصلتا عليه من دعم كبير من كتيبة المشاة الميكانيكية من الشمال ، من تدمير مواقع المشاة المصريين ، وسرعان ما استولى عليها المشاة الاسرائيليون ، واسفر هذا القتال المشوش عن قتل واصابة العديد من مئات المصريين ، وانسحب الباقون من الاحياء من لواء المشاة غربا الى الصحراء ، حيث انضموا الى الهاربين القادمين من رفح فى ذلك الحين ، وتكبد افيرام حولى ٢٥٠ من الخسائر .

فى الوقت الذى كان فيه افيرام يعيد تشكيل قيادته عقب هذا الاشتباك الذى وقع وسط الفوضى ، ارسل طال طائرات الهليكوبتر لاخلاء الجرحى ، ولكن تعرضت أولى طائرات الهليكوبتر لنيران مكثفة من الجنوب ، عندئذ فقط ، وفى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، ادرك الاسرائيليون أن ثمة كتيبة مصرية اخرى لاتزال سليمة فى المواقع التى فى الجنوب ، وفى ساعة متأخرة ، توجه افيرام بكتيبة دبابات وسرية مشاة لمهاجمة المصريين المعزولين ، وهاجم الاسرائيليون بعد حلول الظلام بوقت قصير ، وانتهت المعركة فى منتصف الليل ، بانسحاب الكتيبة المصرية فى حالة من الفوضى فى اتجاه الغرب .

استولى الاسرائيليون تماما على المواقع الرئيسية للفرقة المصرية السابعة مشاة ، وتكبدت هذه الفرقة من الخسائر ما يزيد على ٢٠٠٠ جندى ، فى حين لم تصل الخسائر الاسرائيلية الى ٥٠٠ جندى ما بين قتيل وجريح .

وكان من المقرر شن هجوم برمائى وجوى مشترك على العريش فى ساعة متأخرة من الخامس من يونيو ، او فى ساعة مبكرة من السادس من يونيو ، ولكن — وعند الظهيرة — اوضح ما أحرزه طال من انتصار لهيئة الأركان العامة الاسرائيلية أن مثل هذه العملية لم تعد ضرورية ، ومن ثم فقد تم الغاؤها ، الأمر الذى اتاح نقل لواء مظلات كولونيل موردخاى جور بكامله الى القدس .

معركة العريش : ٥ — ٦ يونيو :

فى نفس الوقت ، وعندما بات واضحا لطال انه امكن السيطرة على الموقف فى قطاع افيرام ، اصدر اوامره لجونين بالعودة فى اتجاه الغرب الى العريش الموقع المصرى الرئيسى ، وارسل معه ما تبقى من وحدة باروم ، وكان يشكل قوة احتياطية للفرقة .

وكان قد نما الى علم جونين من هاريل انه تمكن من تدمير موقع جرادة الحصين — حيث خلف وراءه سرية استطلاع — وانه يتقدم الى العريش ، وابلغ جونين هاريل عن طريق اجهزة الاتصال اللاسلكية انتظار قدومه ، قبل الشروع فى الهجوم على دفاعات العريش والمطار المجاور .

عند وصـــول جونين وكتيبته المزودة بدبابات ام ٤٨ الى جرادة ، تعرض الجميع للنيران على غير انتظار ، كان هذا الأمر بمثابة اول انطباع يشير الى ان سرية الاستطلاع بقيادة يورى ، والتى كانت منوطة بهـذا الموقع ، هاجمها المصريون المنسحبون من رفح وقضوا عليها فعلا .

لم تواجه قوات المشاة الميكانيكية بقيادة جونين ، متاعب جمـة عند تطهير معقل الجرادة للمرة الثانية ، وبينما تجرى عملية التطهير ، بلغ جونين ان هاريل وكتيبته يقاتلون بالفعل فى العريش ، ورغم ان وقود دباباته كان على وشك النفاد تقريبا ، واصل جونين تقدمه حتى وصل الى مشـارف العريش فى الساعة ٠٠ر٣ صباحا ، بينما ابرق فى طلب الوقود بصـورة عاجلة الى الجنرال طال .

وصلت امدادات الوقود فى الساعة ٠٠ر٥ صباحا ، وعند الفجـر تم تزويد الدبابات بالوقود واصبحت على استعداد لخوض المعارك ، وبعـد بضع ساعات من القتال ، الذى تركز جانب كبير منه حول منطقة العريش ، اصبحت المدينة والمواقع المحيطة بها فى مأمن .

بعد الفجر بفترة قليلة ، وبينما كانت قوات جونين تقوم بتطهير العريش وما حولها ، لحق بها لواء افيرام ، يتبعه على فترات متقاربة ، معظم ما تبقى من الفرقة ، فيما عدا لواء المظلات ، الذى تخلف للاشتراك فى العمليـات المقررة ضد قطاع غزة .

اصدر طال — بعد أن فرغ من انجاز المرحلة الأولى من المهمة التى عهد بها اليه — اوامره بتنفيذ المرحلة الثانية ، فأرسل طابورا ، يتكون من كتيبة واحدة من كتيبتى مدرعات افيرام ، ومعظم سلاح المهندسين بالفرقة وغالبية مدفعية الفرقة ، فى هجوم فى اتجـاه الطريق السـاحلى ، بقيادة كولونيل جراتيت يسرائيل ، وكان من المقرر أن يلحق بهـذا الطابور لواء مظلات ايتان ، الذى انضمت اليه بعض مدرعات وحدة باروم ، بمجـرد انتهاء مهمتها فى غزة المجاورة .

اما بقية الفرقة ، ويتقدمها لواء جونين ، فكان يتعين عليها السـير جهة الجنوب فى اتجاه بير لحفان ، ثم غربا فى اتجاه لبنى ، حسـب الخطة الأصلية .

معركة قطاع غزة : ٥ — ٧ يونيو :

فى تلك الاثناء نشبت معركة اخرى اشد ضراوة فى الشمال الشرقى فى قطاع غزة .

ويمتد قطاع غزة من الشمال الشرقى فى المنطقة المجاورة لرفح حتى شمال غزة ، ويبلغ طوله ٤٣ كيلو مترا ويتراوح عرضه ما بين ٦ الى ١٢ كيلو مترا ، وكان المصريون قد احتفظوا بهذه المنطقة الصغيرة من فلسطين فى نهاية حرب ١٩٤٨ ، وفيما عدا قطاع الرمال على امتداد الساحل ، يتسنى لكافة انواع العربات السير فى المنطقة ، ورغم افتقار التربة الى الخصوبة ، فانها تدر محاصيل زراعية شبه استوائية متعددة الأنواع ، وهناك طـرق ممهدة عديدة تربط المدن ببعضها .

فى عام ١٩٦٧ كانت المنطقة محصنة بقوة ، ويقـوم على حمايتهـا الفرقة الفلسطينية العشرون من جيش التحرير الفلسطينى وعدة مئات من المدنيين المسلحين ، وكان ثمة لواء يدافع عن دير البلح ، ولواء آخر يتولى حماية سلسلة من المخافر حول مدينة غزة نفسها ، اما اللواء الثالث — وكان يرابط فى خان يونس — فتفرق على نحو خطير من جراء الهجوم الفعلى الذى قام به جونين على هذه المدينة ، غير ان معظمه تمكن من الانسحاب والانضمام الى المواقع الامامية على طول الطريق الرئيسى . وكان ثمة وحدات اضافية معزولة منفصلة ترابط فى تحصينات فى اعلى مونتار ، والقبة ، وبيت حانون ، وبيت لاحية .

كانت مسئولية الاستيلاء على قطاع غزة واحتلاله تقع على عاتق حملة منفصلة تحت امرة كولونيل يهودا ريشيف ، وكانت هذه الحملة تتكون من لواء مشاة اسرائيلى مدعم بكتيبة مذودة بدبابات من طراز (ايه ام اكس — ١٣)، وكتيبة مظلات ، وعدد من عربات نصف جنزير ، وكان ينبغى للواء مظلات الكولونيل ايتان ، ليتسنى له مساعدة الكولونيل يهودا ريشيف فى مهمته ، ان يكون تحت قيادته بمجرد تأمين رفح .

فى صباح الخامس من يونيو ، تقدمت كتيبتا مشاة ، وكتيبة مدرعات ، وكتيبة مظلات بقيادة ريشيف ، وراء كتيبة مدرعات طال حتى مشارف خان يونس ، واتجهت قوات ريشيف شمالا ، مرورا بالمدينة ، بينما كانت لاتزال قوات مظلات ايتان تقوم بتطهيرها ولتطهير المنطقة من حقول الألغام ، وتدمير العديد من المواقع الأمامية الصغيرة على الطريق ، وعندئذ قامت بالهجوم على موقعى : القبة وعلى مونتار واستولت عليهما بعد قتال مرير دام حتى حل الظلام ، وفى الوقت الذى كانت تسير فيه الأمور على هذا النحو ، هاجمت كتيبة ثالثة من كتائب ريشيف من الغرب (من الأراضى الاسرائيلية) واستولت فى نهاية الأمر على الموقع المصرى فى دير البلح .

تقدم لواء ايتان فى الليل ، (تدعمه سرية دبابات باتون) من رفح عبر خان يونس للانضمام الى قوات ريشيف الرئيسية جنوبى غزة ، وعند الفجر من صباح الثلاثاء ، اغارت الطائرات الاسرائيلية فى هجـوم شـامل على المواقع داخل غزة وما حولها ، وبعد ذلك ، شـنت كتيبة دبابات ايه ام اكس — ١٣ هجوما من الجنوب ، اعقبه هجمات لكتيبة المظلات ثم المشاة ، وفى نفس الوقت ، زحفت بقية كتيبة المشاة الاسرائيلية من الشرق والشمال، واثناء القتال العنيف ، اصابت المدفعية الاسرائيلية مقر قوات الطوارىء الدولية فى غزة ، ولقى ١٥ جنديا هنديا مصرعهم واصيب ٢٥ غيرهم عند الظهيرة ، وبعد قتال عنيف شهدته شوارع المدينة ، سقط معظم انحـاء المدينة فى ايدى الاسرائيليين . حينئذ ، ادرك اللواء عبد المنعم الحسينى ، الحاكم العسكرى لغزة ، ان الموقف لا يدعو للتفاؤل ، فاستسلم ، تفاديا لمزيد من الخسائر فى ارواح المواطنين المدنيين ، وكانت الساعة ١٢٫٤٥ .

رغم ان الاسرائيليين كانوا يغـدون ويروحون فى الطريق بمحازاة خان يونس ، فان القوات المصرية والفلسطينية كانتا لاتزال تسيطر على الجانب الغربى من المدينة ، وبينما كان لواء ريشيف يقوم بتطهير جيوب المقاومة المتناثرة فى انحاء قطاع غزة ، عادت قوات مظلات ايتـان لتطهير خان يونس ، ولكن المقاومة كانت اقوى مما يظنون بكثير ، وعندما حـل المساء ، كانت قوات ايتان قد فشلت فى الاقدام على اى تغلغل خطـير ، ومن ثم ، فقد انسحبت الى منطقة الشاطىء شمال المدينة ، حيث سـمح للجنود بأخذ قسط من الراحة ، بينما كانت عرباتهم تزود بالوقود .

عاودت قوات مظلات ايتان عند فجر السابع من يونيو الهجوم ، بعد ان نالت قسطا من الراحة ، وبعد ان حصلت على بعض تعزيزات مدفعيـة وفرها لها ريشيف ، وكان من جراء ما نالته القوات من الراحة وما حصلت عليه من تعزيزات نيران المدفعية ، ان زادت فاعلية الهجوم الاسرائيلى ، فى الوقت نفسه ، كانت القوات المصرية ، قد ادركت آنذاك انها فى عزلة ، وانه على ضوء انسحاب القوات المصرية بشكل عام من سيناء ، لم يكن امامها فرصة للخلاص ، فاستسلمت خان يونس ، بعد مقاومة لم تدم طويلا. وبينما احتلت وحدة من لواء ريشيف المدينة ، استغلت قوات ايتان للمظلات عرباتها ، وانطلقت غربا على امتداد الطريق الساحلى لتلحق بقوات كولونيل يسرائيل بالقرب من رومانى ، وانطلقت سرية الباتون جنوبا ، لتلحق بجونين بالقرب من بير جنجافة .

(٦)

معارك ابو عجيلة وبير لحفان

الخطط والاستعدادات المتعارضة

يقع ملتقى طريق ابو عجيلة على بعـد حـوالى ٣٠ كيلو مترا غربى الحدود الاسرائيلية المصرية ، على الطريق الأوسط من بئر سبع مرورا بنيتزانا الى الاسـماعيلية ، وكان الاسرائيليون قد هاجمـوا تحصـينات هـذه المنطقة فى الحربين السابقين بين العرب واسرائيل ، فى ١٩٤٨ اكتسح ايجال الون ملتقى الطرق هذه بسهولة ، وفى حملة ١٩٥٦ لم يتسن الاستيلاء على الموقع وظل تحت سيطرة المصريين حتى تخلوا عنه اثناء انسحابهم العام . عمل المصريون منذ تلك الحرب على ادخال مزيد من التحصينات على هـذه المنطقة الحصينة الهامة ، بما فيها موقع ام كتاف على بعد عشرة كيلو مترات تقريبا شرقى طريق نيتزانا ، وملتقى طريق القسيمة ، على بعـد ٣٠ كيلو مترا تقريبا جنوب شرقى ابو عجيلة .

وتكمن اهمية ملتقى طريق ابو عجيلة — حتى رغم قدرة المدرعات على المناورة فى معظم منطقة سيناء الصـحراوية — فى السيطرة على الطريق الأوسط الرئيسى عبـر شـبه الجزيرة ، الـذى يعد فى غاية الأهمية لتقدم المشاة الاسرائيليين ونقل الجنود وتموينهم فى اية حملة كبيرة .

كانت التحصينات المصرية فى عـام ١٩٦٧ اقوى منهـا بكثير فى عام ١٩٥٦ ، عندما تصـدت للهجمات الاسرائيلية المتكررة ، واستفاد المصريون من تجربتهم ، ومن بعض الدفاعات الناجحة الأخرى ، واستخدام النظريات الهندسية التى اشار بهـا الخبراء الروس ايضا ، فى الربط بين اربعة مواقع حصينة باسلاك شائكة وزرع حقول الغام ، وكما كان عليه الحال فى الماضى ، كانت ام كتاف بمثابة الموقع الدفاعى الرئيسى ، وهو موقع مرتفع ، يقع على بعد ٢٠ كيلو مترا من الحدود الاسرائيلية ، وكان ثمة ثلاث دفاعات من الخنادق من الأسمنت المسلح يبلغ طولها حوالى ٥ كيلو مترات وعمقها متر واحد ، وكان يؤمن مداخلها عـدد من المخافر الأمامية الصغيرة ، وكان يفصل بينها وبين الموقع الرئيسى شراك ممتدة من الأسلاك الشائكة وحقول الألغام ، كما كان فى الموقع عـدد من النقاط القوية المضادة للدبابات ، تتكون من مدافع ذاتية الدفع ، بالاضافة الى عـدد من دبابات ت — ٣٤ ودبابات ت — ٥٤ .

كانت مواقع ملتقى طريق ابو عجيلة والقسيمة ، اصـغر حجما الى

حد ما ، غير انها كانت فى نفس حسن الاعداد ودقة التحصينات ، وكان موقع القسيمة قد انضم الى المجمع الحصين فى ابو عجيلة لان الاسرائيليين كانوا قد استخدموه تفاديا لأم كتاف وابو عجيلة فى عام ١٩٥٦ .

وكان ثمة موقع دفاعى آخر ، يقع فى المنطقة الوسطى ، خلف موقع ام كتاف على مقربة من سد روفا ، كان هذا الموقع يشكل قاعدة رئيسية ، تقوم على حماية حوالى ست كتائب مزودة بمدافع عيار ١٢٢ مم لتعزيز المدفعية ، وكان يرابط فى هذه الدفاعات لواءان من الفرقة الثانية مشاة : كان احدهما فى موقع ام كتاف ، اما الآخر فكان موزعا بين المواقع الثلاثة الباقية ، وكان ثمة لواء دبابات مزود بحوالى ٩٠ دبابة فى موقع سد روفا كقوة احتياطية .

كانت فرقة الجنرال شارون تتكون من لواء مدرعات ، بقيادة لوتينانت كولونيل مورد خاى تسيبورى ، ولواء مشاة ، بقيادة كولونيل كونى آدم ، ولواء مظلات بقيادة لوتينانت كلونيل دانى مات ، وست كتائب مدفعية مزودة بمدافع عيار ١٠٥ مم ، وهويتزر عيار ١٥٥ مم .

عكفت هيئة الأركان الاسرائيلية العامة ، بعد الفشل فى الاستيلاء على ابو عجيلة فى عام ١٩٥٦ ، على القيام بدراسات مركزة للمعركة ، فقام فريق من الضباط — وذلك قبل التخلى عن المنطقة فى عملية الانسحاب التى تمت فى اواخر ١٩٥٦ — باجراء فحص دقيق للموقع كما تم تصويره ورسم بعض الخرائط الخاصة به ، كما تم اجراء مسح شامل له . وعلاوة على التحليل المفصل لأركان الحرب ، كانت هنالك مسألة رئيسية فى امتحانات كلية اركان الحرب الاسرائيلية كل عام حول كيفية الهجوم على موقع ابو عجيلة . كانت هذه المسألة تتبدل سنويا لتعكس اية معلومات جديدة بشأن اية تعديلات مصرية تطرأ على الموقع . وهكذا ، اصبح معظم القادة والضباط الاسرائيليين على معرفة تامة بالموقع ، وبأسباب نكسة ١٩٥٦ ، وبالنظريات الرسمية الحديثة لهيئة الأركان العامة ، حول كيفية تفادى حدوث نكسة مماثلة فى حالة نشوب حرب فى المستقبل . وربما كان الجنرال شارون ، الذى كان مديرا للتدريب فى الجيش الاسرائيلى قبيل نشوب الحرب فى عام ١٩٦٧ ، على دراية بهذه الأمور مثله فى ذلك مثل اى جندى فى قوات الدفاع الاسرائيلية .

معركة ابو عجيلة — ام كتاف :

عبرت فرقة شارون الحدود من منطقة قريبة من العوجة ونيتزانا فى الساعة ١٥ر٨ صباح الخامس من يونيو . وكان الموقع السابق لقوات الأمم المتحدة فى العوجة خاليا ، كان اول لقاء مع المصريين عند ثارات ام بسيس ، وهو موقع مرتفع تحيط به حقول الألغام تدعمه سرية دبابات ت — ٣٤ ، وانسحب المصريون بعد دفاع لم يدم طويلا ، بعد ان انجزوا مهمتهم الرامية

لاعاقة تقدم الاسرائيليين لساعتين تقريبا . وواجه الاسرائيليون عملية اعاقة مماثلة عند مواقع ام طرية ، غير انه فى الساعة ٠٠ر٣ مساء ، كانت كتيبة الاستطلاع ولواء المدرعات بقيادة شارون قد وصلتا الى الطريق الرئيسى العريش — ابو عجيلة فى عدة اماكن شمالى المجمع الدفاعى .

اقامت القوات الاسرائيلية عائقا لاعتراض سبيل اية تعزيزات ممكنة تصل من العريش الى بير طفان ، كما اقتحمت كتيبة استطلاع مزودة بدبابات ايه ام اكس وعربات جيب موقع درب التركى الصغير الذى يربط ما بين موقعى ام كتاف والقسيمة .

فى هذه الأثناء وضعت خطة شارون لاختراق المواقع الرئيسية فى منطقة ام كتاف — ابو عجيلة ، موضع التنفيذ ، فتحركت كتيبة السنتوريون من لواء المدرعات لتعبر منطقة من الكثبان الرملية يتعذر اجتيازها ، لمحاصرة دفاعات ابو عجيلة — ام كتاف من الشمال ، بينما اختيرت كتيبة الشيرمان وكتيبة من المشاة الميكانيكية من نفس اللواء ، لشن هجوم متواصل على جبهة موقع ام كتاف .

وفى الوقت الذى كانت فيه كتيبة السنتوريون تشغل اهتمام المدافعين عن ملتقى طريق ابو عجيلة ، وكتيبة الشيرمان والمشاة الميكانيكية تجذب انتباه المصريين الى جبهة موقع ام كتاف ، كان المجهود الرئيسى يقع على عاتق لواء المشاة بقيادة آدم ، الذى يقوم بالهجوم فوق الكثبان الرملية شمال ام كتاف ، بموازاة انظمة دفاعات الخنادق ، وقد تم تخصيص كتيبة لكل نظام من انظمة الخنادق الثلاثة ، وبينما كانت كتيبة المشاة تتقدم ، كان على كتيبة الشيرمان الاستدارة والاتجاه لجبهة وموقع ام كتاف من اليمين فى المنطقة الرملية وراء كتيبة المشاة بقيادة آدم لتدعيم الحصار .

كان من المقرر ان يشن هذا الهجوم بعد حلول الظلام ، حيث لا يتسنى للمدفعية المصرية اطلاق النيران على المهاجمين على نحو دقيق ، كما ان من المحتمل ان يتخلى الجنود المصريون الأقل انضباطا — عن تنظيم صفوفهم ، وكان شارون قد زود كل كتيبة من كتائب لواء آدم باشارات ضوئية حمراء وخضراء وزرقاء — حتى يتسنى توجيه اشارات للدبابات — وبسرية لكل كتيبة مشاة ، حتى يصبح فى مقدورها متابعة تقدم المشاة عبر الخنادق عن كثب ، وكان على سلاح المهندسين السير خلف المشاة لتطهير حقول الألغام ، لتيسير عملية تقدم الدبابات الى الموقع ، وبينما ركزت المدفعية الاسرائيلية على المشاة المصريين فى مواجهة الوحدات المهاجمة ، كان على احدى كتيبتى الكولونيل دانى مات للمظلات شن هجوم بالهليكوبتر لتحييد المدفعية المصرية فى المؤخرة ، فى حين ظلت كتيبة المظلات الأخرى قوة احتياطية للواء .

شنت القوات الاسرائيلية الهجوم من الشمال حيث المنطقة التى كان

الاسرائيليون والمصريون فى عام ١٩٥٦ يعتقدون انه من المتعذر اجتيازها ، ومن ثم ، ــ لو امكن اجتيازها ــ فانها تشكل زاوية يسهل اختراقها ، وكانت الدراسات التى اجرتها اسرائيل للمنطقة قد اوضحت انه بوسع المشاة والدبابات على حد سواء التحرك فوق الكثبان الرملية ، الأمر الذى يعد بمثابة عنصر رئيسى فى خطة شارون .

بدات العملية عند حلول الظلام ، فهبطت طائرتا استكشاف هليكوبتر الى الشمال من المدفعية المصرية ، واعطت اشارات ضوئية ارشدت كتيبة المظلات الى منطقة المدفعية فى ثلاث رحلات ، عندئذ شرعت المدفعية الاسرائيلية فى قصف الخنادق المصرية ، وكانت قد اخذت مواقعها فى المقدمة فى ساعة متأخرة من بعد ظهر اليوم ، وتمكنت من تامين بعض نقاط المراقبة الهامة قبيل الغروب ، واختلط الأمر على المصريين من جراء هجوم المظلات ، فلم يسعهم الرد ، واستقرت الالوية المهاجمة فى نقاط انطلاق .

ازدادت كثافة نيران المدفعية الاسرائيلية فى الساعة ١٠ر٣٠ مساء فى الوقت الذى بدا فيه الاعداد للهجوم ، بعد نصف ساعة توقف اطلاق النار ، وبينما كان لواء تسيبورى يقوم بعمليات تضليلية ، كانت قوات المشاة بقيادة آدم تتقدم الى مواقع ام كتاف من الشمال . ثم قامت الكتيبة الأولى بقيادة لوتينانت كولونيل دوف بقصف خط الخنادق الاول ، وهاجمت خط الخنادق الثانى كتيبة بقيادة لوتينانت كولونيل اوفر ديفيد ، اما خط الخنادق الثالث فتعرض لقصف كتيبة لوتينانت كولونيل كاستيل ، وكلما تقدمت الكتائب ، زحفت من خلفها دبابات الشيرمان ، وهى تطلق نيران مدفعية من اعلى على الخنادق فى مواجهة المشاة المهاجمين .

فى نفس الوقت ، انجزت كتيبة المظلات مهمتها على خير وجه من وراء الموقع المصرى ، فأسكتت المدفعية المصرية تماما ، كما تم نسف معظم ذخيرتها ، وتدمير عدد من عرباتها ، ودفعت بالجنود بعيدا عن مدافعهم ، ثم انسحب المظليون بعد أن افلحوا فى بث حالة من الفوضى ما وسعهم ذلك ، نظرا لتوقعهم قدوم السنتوريون من الشمال وعدم رغبتهم فى البقاء فى خط النار .

وصلت دبابات السنتوريون الى طريق العريش ــ ابو عجيلة عند غروب الشمس ، ومكثت فى انتظار ساعة الصفر آنذاك ، وعندما نشب القتال فى الجنوب ، تقدمت الدبابات واسكتت المدافعين فى موقع ابو عجيلة بفاعلية ، وتجاوزت السنتوريون بعد ذلك ملتقى الطرق وواصلت زحفها جنوبا فى اتجاه مركز الموقع المصرى . هنالك ، كان من المقرر ان تلحق بها بقية كتيبة الشيرمان ، استعدادا لمواجهة هجوم مضاد من المتوقع ان يقوم به المصريون ، وكانت ثمة خطط موضوعة من قبل بدقة للتنسيق طوال الليل . فقد كان الاسرائيليون يتذكرون بوضوح كيف أن احد اسباب نكسة ابو عجيلة عام ١٩٥٦ ، يتمثل فى المواجهة التى وقعت بين وحدتى دبابات

اسرائيليتين ، تبادلتا اطلاق النار ، مما اسفر عن نتائج فادحة ، حيث كانت تظن احداهما الأخرى من الأعداء .

تمكنت الشيرمان فى نهاية الأمر ــ رغم ما اعترض سبيلها من عوائق الطريق بعض حقول الالغام المصرية ــ من اختراق موقع ام كتاف فى الساعة ٣ر٣٠ صباحا ، والاقتراب من المنطقة التى كان من المقرر تواجد السنتوريون فيها ، وقد تسنى التغلب على عقبة عبور حقول الالغام من جراء الجهد الرائع الذى بذلته كتيبة سلاح المهندسين التابعة لشارون فى تطهير الالغام .

ادرك تسيبورى فى الساعة ٣ر٣٠ تقريبا من التقارير اللاسلكية التى تلقاها من قائدى كتيبتى السنتوريون والشيرمان ، ان الكتيبتين على مقربة من بعضهما ، وقد ابلغت الكتيبتان انهما تتعرضان لنيران كثيفة . فأصدر تسيبورى امرا لكتيبة الشيرمان بالكف عن اطلاق النيران ، فى حالة ما اذا كانت الكتيبتان تصوبان النار على بعضهما عن طريق الخطأ . وعندما استمر تعرض السنتوريون للنيران ، ايقنت الكتيبتان انهما تصوبان على المصريين ، وليس احداهما تصوب على الأخرى .

اما ما حدث ــ مثلما تشير التوقعات ــ فهو ان قوة احتياطى مدرعات مصرية تحركت لاسترداد الموقع مثار القتال ، فوقعت عندئذ معركة حامية الوطيس وسط حالة من الفوضى ، حيث كانت الغلبة فى الظلام لكتيبتى السنتوريون والشيرمان ، ويرجع ذلك الى حد بعيد ، الى التنسيق بينهما . وفى اثناء هذا القتال الذى تشوبه الفوضى ، لاح فجأة طابور دبابات ، بانواره الساطعة ، من جهة الشمال الشرقى ، واتجه شمال ملتقى طريق ابو عجيلة ، وواصل زحفه فى اتجاه الجنوب الغربى داخل الصحراء . كان لواء الكولونيل الحنين سيلا من فرقة يوفى ، يسير حسب الخطة ، فى غفلة عما يدور من قتال عنيف فى الجنوب بين الاسرائيليين والمصريين الذين لم ينتبهوا له .

بدا لواء المدرعات المصرى ، الذى فقد ما يقرب من ٤٠ دبابة ــ اى نصف قوته تقريبا ــ فى الانسحاب عند الفجر ، بعد ان ادرك قائده انه ربما تكبد خسائر افدح ، اذا ما تسنى للاسرائيليين العمل فى ضوء النهار بدعم جوى ، كان الاسرائيليون قد فقدوا حتى ذلك الحين ١٩ دبابة ، وشرع المشاة فى تطهير موقع ام كتاف ، الذى كان المصريون قد جلوا عنه تماما ، كذلك انسحب المصريون من موقع سد روفا اثناء الليل ، واسفرت الدراسة التى دامت ١١ عاما لمعركة ابو عجيلة عن عام ١٩٥٦ عن واحد من اعظم انتصارات الجيش الاسرائيلى الرائعة متمثلا فى اكتساح ابو عجيلة فى اقل من ١٢ ساعة .

امضت فرقة شارون الصباح والساعات الاولى من بعد ظهر ذلك اليوم فى الراحة ، واخلاء الجرحى ، والاعداد للجولة القادمة ، التقدم الى نخل

ومر متلا . رغم ذلك ، فقد كان يتعين عليه اول الامر الاستيلاء على المواقع المصرية فى القسيمة ، وعند الظهيرة تلقى شارون امرا من مقر قيادة المنطقة الجنوبية ، للقيام بمهمة اخــرى ، فأرسل بلواء المشاة التابع له الى الشمال لتطهير العريش ، فقد كانت لا تزال هناك بعض الوحدات التى خلفتها فرقة طال ، الامر الــذى يشكل تهديدا لامن خط الاتصال « لحملة جرانيت » ، وكانت مجموعة كولونيل يسرائيل فى ذلك الحين ، فى الطريق من العريش الى رمانة . وكان الامر بحاجة الى قــوات مشاة ، وكان لــدى فرقة شارون وحدها آنذاك قــوات مشاة بلا عمل فى منطقة قريبة .

فى ساعة متاخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، كانت فرقة شارون تتحرك من مواقع ابو عجيلة ــ ام كتاف المحتلة فى ثلاثة اتجاهات . كانت كتيبة الاستطلاع المدعمة ، تتقدم فى اتجاه الجنوب الشرقى من درب التركى ، على الطريق الواقع ما بين ام كتاف والقسيمة ، وفى اعقابها كان يسير جزء من لواء مظلات الكولونيل مات ، فى حين كان لواء الكولونيل آدم يستعد للتحرك فى اتجاه الشمال الغربى نحو العريش .

فى هــذه الاثناء كانت دبابات الكولونيل تسيبورى تتجه جنوبا الى نخل ، وكان شارون يأمل فى اللحاق بالدبابات فى اليوم التالى ، ومعه الغالبية من قواته المتبقية ، وفى ليلة السادس والسابع من يونيه انسحب المصريون من القسيمة ، واحتلت كتيبة الاستطلاع الاسرائيلية الموقع فى ساعة مبكرة من صباح الاربعاء ، واستولت على الكثير من المعدات الحربية الثقيلة المتخلفة ، فى ذلك الحين كانت كتيبة الكولونيــل آدم قد فرغت من تطهير دفاعات ابو عجيلة وام كتاف وما حولها ، وكانت فى طريقها للانضمام الى الكتائب الأخرى فى طريقها الى العريش ، واصبح يقينا فى ذلك الوقت ان كافة دفاعات ابو عجيلة فى الأيدى الاسرائيلية .

معركة بير لهفان :

بينما كانت فرقتا الجنرال طال والجنرال شارون تخوضان معــارك ضارية على مشارف الممرين الشمالى والأوسط عبر سيناء ، كانت فرقة الجنرال افراهام يوفى تتقدم عبر الصحراء الخاوية الممتدة بينهما ، ولما كان المصريون على يقين من تعذر اجتياز اية قوات مسلحة ، سواء راكبة أو سيرا على الاقدام ، لهذه الكثبان الرملية ، لــذا لم يهتموا باقامة اية دفاعات فى هــذه المنطقة ، غير ان عمليات الاستطلاع الاسرائيلى الدقيقة لصحراء سيناء خلال الاسابيع التى اعقبت حرب ١٩٥٦ قد اوضحت انه بوسع العربات المجنزرة اجتياز هــذه الصحراء ، حتى لو صادفتها بعض الصعاب .

تقدم احد لوائى يوفى ، بقيادة كولونيل اسكاشادنى ، ويعتبره الكثيرون من الاسرائيليين افضل لــواء فى الجيش ، غربا عبر الكثبان الرملية حسبما

تقرر ، فى اتجاه ملتقى طريق بير لهفان ، اما اللواء الآخر ، بقيادة الكولونيل سيلا ، فقد تحــرك فى نفس الوقت فى اتجاه الجنوب الغربى عبر الطريق الصحراوى شمال فرقة شارون مباشرة ــ كما سبق ان اشرنا ــ وكان من المنتظر ان يصل الى منطقة قريبة من جبل لبنى فى ساعة متأخرة من السادس من يونيو . وهنالك ، كانت التوقعات تشير الى انضمام لــواء شادنى ولواء سيلا معا ، وربما بعض عناصر من فرقتى طال وشارون ، لخوض معركة هائلة على ما يبدو ، فى وسط سيناء .

سرعان ما تبين للواء شادنى انه على الرغم من عــدم اقامة المصريين اية مواقع امامية فى الصحراء المترامية الأطراف من الكثبان الرملية شرقى بير لهفان ، فانهم قاموا بزرع حقول الغام على امتداد تلك الطرق التى لا سبيل الى معرفتها والتى كان يسلكها عادة البدو والمقيمون فيها ، فتوقف الزحف، ولم يكن السبب فى ذلك تعذر اجتياز المنطقة فحسب ، وانما يرجع أيضا الى ضرورة تطهيرها من الالغام ، ومن ثم ، فقد كان الظلام قد حل تقريبا عندما وصل لواء شادنى الى المنطقة المجاورة لبير لهفان ، وبعد تقدمه بحوالى ٨ كيلو مترات ، لم يحفل للقوة المصرية الصغيرة الى تطــوق ملتقى الطرق ، بل انتظر لحين حلول الظلام عندئذ تحرك حول ذاك الموقع . قبيل منتصف الليل كان اللواء يسد الطرق الثلاثة المؤدية الى ملتقى الطرق ، من العريش فى الشمال ، ومن جبل لبنى فى الجنوب الغربى ، ومن ابو عجيلة فى الجنوب الشــرقى .

فى نفس الوقت ، وحسب توقعات الاسرائيليين ، حاول المصريون تعزيز ابو عجيلة من الفرقة المرابطة فى جبل لبنى . وتم ارسال لوائين : احدهما مدرعات والآخر ميكانيكى ــ الى الشمال الشرقى من جبل لبنى على امتداد الطريق عبر بير لهفان ، بهدف الالتفاف حول شارون من الشمال فى حوالى الساعة ٩٫٠٠ مساء ، قصفت هذه القوة متراس شادنى جنوب غربى بير لهفان ، مما أسفر عن اشتباك استمر طوال ساعات الليل ، بلغت خسائر المصريين من جراء القتال ٢٨ دبابة ، والاسرائيليين ما يقرب من نصف هــذا العدد ، واستمر القتال حتى صباح اليوم التالى .

بعد الفجر مباشرة اكتسح لواء جونين ــ الــذى كان يشكل رأس حربة فى هجوم طال على جبل لبنى ــ الموقع المصرى على منتصف الطريق ما بين العريش وبير لهفان ، فقد كانت تشكيلات الاستطلاع التابعة له قد ابلغته عما يدور من قتال عنيف جنوب غرب بير لهفان ، فما كان من جونين ، عقب الاتصال اللاسلكى مع شادنى ، الا أن ارسل قــوات من المشــاة الميكانيكية على الطريق لمساندة شادنى ، فدهمت فى طريقها موقع بير لهفان . استدار جونين مع كتيبتين من الدبابات الموجودة ، يمينا فى الصحراء ، لتطويق الجناح المصرى فى الغرب .

حوالى الساعة ١٠٫٠٠ صباحا ، قصفت غــارة جوية اسرائيلية المصريين فى جنوب غرب بير لهفان ، استعدادا لشن هجوم مشترك من جانب

شادنى وجونين ، وعندئذ ، وبينما كان الهجوم مستمرا نحو الداخل ، ذهل الاسرائيليون وهم يكتشفون ان المصريين كانوا ينسحبون فى ذلك الحين ، وقد تم هـذا الانسحاب — رغم معرفة الاسرائيليين به — بناء على اوامر صادرة من جبل لبنى ، وسرعان ما بادر جونين وشادنى بمطاردة المصريين .

عملية الهجوم المضلل فى الكونتيلا :

كان ثمة تحرك اسرائيلى هـام آخر فى منطقة سـيناء فى اول ايام الحرب ، تمثل هذا التحرك فى قيام لـواء مدرع بقيادة كولونيـل البيرت مندلر بشن هجوم عبر الحدود على الكونتيلا ، ذلك اللواء الذى عمد فى تحركاته على الحـدود فى الايام التى سبقت الحرب مباشرة الى لفت الانظار حتى يتسنى شد انتباه المصريين الى منطقة الحدود الجنوبية .

زحف لواء مندلر ، امعانا فى مواصلة القيام بدوره فى عملية التضليل ، فى ساعة مبكرة من صباح الخامس من يونيو عبر الحدود ، وعند الظهيرة كان قد دمر دفاعات الكونتيلا ، وتم ارسال دوريات على الطريق فى اتجاه ثمادة ونخل ، غير ان الخطة الشاملة اسـتدعت تواجد اللواء فى الـكونتيلا لليومين التاليين ، وكان الهدف من ذلك هو تشكيل تهديد مسـتمر لقوات اللواء المصرى الشاذلى المدرعة المرابطة فى منطقة ثمـادة ، حتى يتسـنى حصارها لأطـول فترة ممكنة .

(٧)

الانهيار المصرى

رغم تصاعد الاحداث وحدة التوتر فى الأسبوع الأخير من شهر مايو والأيام القلائل الاولى من يونيو ، لم يتوقع المصريون الهجوم الاسرائيلى ، ومن ثم ، فقد كانت عمليات القصف الجـوى على القواعد الجوية المصرية فى الدلتا وسيناء والقاهرة تعد بمثابة صدمة افقدتهم القدرة على الحركة ، ليس بالنسبة للرئيس عبد الناصر فحسب ، بل ايضا للمشير عامر وهيئة اركان الحرب فى مقر القيادة العامة فى القاهرة . ويبدو ان ما اسفرت عنه هذه الصدمة من تأثير مخدر ، تزيد من قوته موجات متعاقبة من الهجمات الاسرائيلية، قد حال دون قيام مقر القيادة العامة المصرية باى رد فعلى مترابط منطقيا ، فيما يتعلق باصدار الأوامر الى القـوات المقاتلة فى سيناء ، طـوال ذلك اليوم الطويل المدمر ، فقد ظلت القوات فى سيناء ، التى لم تتلق على الاطلاق اية تعليمات شاملة سواء دفاعية او هجومية ، بلا حراك فى مواقعها الى ان تمت مهاجمتها فتلقفها الاسرائيليون الواحدة تلو الأخرى .

ربما كانت الخلاصة الوحيدة ذات الدلالة التى توصل اليها المصريون فى القاهرة فى ذلك اليوم تكمن ان الاسرائيليين ما كان ليسعهم تحقيق هـذا النجاح الجـوى فى البداية دون تواطؤ من الولايات المتحدة ، او على الأرجح اشتراكها الفعلى ، فقد كان من غير المتصور على سبيل المثال ، بالنسبة للمصريين ان يرتفع معدل سرعة انقضاض الطائرات الاسرائيلية ثلاث مرات او اكثر عن المعـدل الطبيعى .

وحيث ان جهاز مخابراتهم كان قد قـدم لهم ارقـاما دقيقة عن عـدد الطائرات الاسرائيلية ، فان عـدد الطلعات التى اصابتهم صباح الخامس من يونيو ، بـدت كما لو كانت تشترك فيها طائرات تفـوق فى عـددها ما لدى الاسرائيليين من طائرات فى ذلك الحـين ، عـلاوة على ذلك ، فقـد بدا للمصريين ان الغارات الجوية تمت فى تنسيق تام وبفاعلية تامة ، الى الحد الذى لا يسع المرء ان يتصور معه ان الاسرائيليين وحدهم قاموا بتنفيذها ، ومن ثم فقـد خلص المصريون الى ان عـددا من الطائرات التى انطلقت صوب وادى النيل من البحر المتوسط ، لابد وان تكون طائرات امريكية ، انطلقت من حاملات الطائرات من الاسطول السادس الامريكى ، فقد كانت ذاكرتهم لاتزال تحتفظ فى قـوة ومرارة بالكيفية التى ساعد بها البريطانيون والفرنسيون الاسرائيليين فى عام ١٩٥٦ .

عندما ورد تقرير من عمان مؤداه ان اجهـزة الرادار الاردنية فى تـلال يهودا سجلت طلعات غزيرة قادمة من اتجاه كريت ، حيث من المعتقد ان حاملات الطائرات الأمريكية التابعة للأسـطول السادس الأمريكى مرابطة فيها ، بدا هنالك ما يؤكد الاستنتاج المصرى ، غير ان ما عكسته شاشات الرادار الأردنى ، لم يكن فى واقع الامر سوى مجرد صـور من النشاط الجوى الاسرائيلى المكثف فـوق جنوب البحر المتوسط .

كانت ثمة اسباب اخرى دعت المصريين الى الاعتقاد (ولا يزال البعض يعتقدون كذلك حتى الآن) بأن هنالك تواطؤا امريكيا وتاييدا فعليا فى الهجوم الاسرائيلى ، ويتمثل احد هـذه الأسـباب فى تواجد سـفينة المراقبة الالكترونية الأمريكية « ليبرتى » ، على مسافة بضعة اميال من المياه الاقليمية المصرية شمال العريش وبور سعيد ، واعتقد المصريون ان مهمة « ليبرتى » لا تكمن فى التقاط الارسال اللاسلكى واجهزة الرادار المصرية فحسب (وهو ماكانت تقـوم به بالنسبة للاسرائيليين والمصريين على حد سواء ، وعلى ارجح تقدير) بل ايضا فى التشويش على رادار التوجيه لصواريخ سام ٢ المصرية وابطال فعاليته (وهو ما لا كانت تفعله من المؤكد غالبا) .

هنالك سبب آخر يدعوه كذلك للارتياب فى وجود تواطؤ ويتمثل فى حيازة الطيارين الاسرائيليين القلائل الذين اسقطهم المصريون واسروهم لصور جوية ممتازة ، تم التقاطها من ارتفاع شاهق ، ولاسباب فنية ، اعتقد الاخصائيون المصريون انه لا يمكن التقاط هذه الصور الا عن طريق طائرات « تجسس » امريكية او سوفيتية من ارتفاع شاهقولما كان الامر لا يحتمل الارتياب فىمساعدة السوفيت لاسرائيل ، فقد كان يعنى تلقائيا التواطؤ الأمريكى عن طريق تقديم هـذه الصور للاسرائيليين ، ومع ذلك ، فان المصريين كانوا فى واقع الأمر ، انما يبخسون الاسرائيليون تقديرهم ، فى هـذا الصدد وغيره من النواحى الكثيرة الأخرى .

واخيرا ، اذا ما استعدنا احداث الأيام القليلة المـاضية ، نجد ان عبد الناصر كان يعتقد ان ثمة شواهد اخـرى على التواطؤ ، ففى ٢٨ مايو تقريبا ، مارست الحكومة الأمريكية عليه ضغوطا قوية تلح عليه الا يهاجم اسرائيل ، فلم يسعه سـوى تفسير ما تستهدفه الضـغوط الدبلوماسية الأمريكية من اعطـاء فسـحة من الوقت للاسرائيليين حتى يـكونوا على اهبة الاستعداد . (ويبدو انه اغفل ما كان يتعرض له من ضغوط سوفيتية من هـذا القبيل فى ذلك الحين ، فى نفس قوة الضغوط الأمريكية) .

وفى اليوم الرابع من يونيو طلبت الولايات المتحدة من المصريين ارسال احد كبار الدبلوماسيين الى نيويورك ، للاشتراك فى مفاوضات الأمم المتحدة فى اليـوم التالى ، لتفادى نشـوب الحرب ، ويبدو ان ذلك جرى على غرار ما حدث فى عـام ١٩٥٦ ، عندما طالبت كذلك ، جمعية المنتفعين بالقناة ، يوم ان شنت اسرائيل هجومها المفاجىء ، باجراء مفاوضات فى جنيف ،

لتضليل مصر . على ضـوء هـذه الظروف ، لم يكن بوسع المصريين قبول حقيقة ان هـذه الأعمال الأمريكية انما تشكل عناصر منطقية لجهد صادق مكثف بذلته حكومة الولايات المتحدة للحيلولة دون نشوب الحرب .

فى نفس الوقت ، حملت تقارير الجبهة الى المشير عامر فى مقر القيادة العامة انباء ما لحق بالقـوات المصرية من دمـار ، حتى برغم اشتراك عـدد ضئيل نسبيا منها فقط فى القتال حتى ذلك الحين .

اصبحت الأركان العامة المصرية فى حالة عجز تام ، عندما وصـلت انباء سـقوط رفح ،ثم اقتراب الاسرائيليين من العريش وابو عجيلة .

بدت هـذه الاحداث لبعض افـراد ضباط الجيش المصرى ، رغم ذلك ، متمشية مع ما دار بينهم من حـوار سابق حـول تجـدد نشـوب الحرب فى سيناء . فقد كانت خطتهم الاصلية ــ القاهرة ــ رغم كل شيء ، تقوم على افتراض ما قام به الاسرائيليون فى واقع الأمر ، ومن ثم فقد الحوا فى اعادة النظر فى هذه الأحداث المؤلمة فى ضوء سياق عـريض للحملة الدفاعية الهجومية المقررة ، ويبدو ان المشير عامر لم يلتفت لهذه الاقتراحات، وظل معظم ساعات النهار فى ذعر واحجام عن ارسال اية رسائل الى سيناء بناء على الحاح اتباعه(١) .

رغم ذلك ، وفى ساعة متاخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، تخلى عامر عن تراخيه ليقوم بنشاط شديد . فبدأ فى ارسال رسائل مباشرة الى قادة الفرق ، متجاوزا اللواء مرتجى ، القائد العام للقوات المسلحة واللواء محسن قائد قوات الجبهة ، كذلك قام باتصال تليفونى مع اللواء مرتجى عدة مرات ، وكان اللواء مرتجى يطلب ارسال تعزيزات الى ابو عجيلة والعريش ، ويبدو انه اغفل تماما ان هنالك خطة تستهدف كيفية مواجهة هـذا النوع من الهجوم على نحو دقيق ، وانه لا يزال بالامكان تنفيذها ، رغم الطريقة التى اربك بها انتشار القـوات فى الأيـام التى سبقت الحـرب ، وكانت المخابرات الاسرائيلية ، المطلعة على كافة القنوات المصرية ، قد التقطت صوت عامر المميز لديها تماما ، طـوال ساعات الليل ، فى الوقت الـذى كان يجرى فيه اتصالات مستمرة مع مرتجى وقادة الفرق المختلفة ، الذين كانوا لا يزالون يلحون فى طلب تعزيزات لابو عجيلة ، وبحثهم جميعا على مواصلة القتال بقوة.

فى صباح السادس من يونيو ، وردت رسـائل من وحدات الخطوط الامامية توضح لمقر القيادة المصرية : ان ابو عجيلة اما ان تكون قد سقطت او على وشك السقوط ، وان العريش قد سقطت فى ذلك الوقت فى الأيدى الاسرائيلية ، كما ان ثمة دلائل كانت تشير الى ان عامر والرئيس عبد الناصر كانا طـوال ساعات الليل يقنعان انفسهما بأن هنالك اوجه تشابه بين التأييد الأمريكى ــ المبنى على الافتراض للاسرائيليين فى هـذه الحرب ، وبين التأييد الانجليزى الفرنسى فى عـام ١٩٥٦ ، ويتخوفان من احتمال شن هجوم امريكى

برمائى على قناة السويس ودلتا النيل ، فى الوقت الذى لم يبد فيه اى دليل يشير الى ان هـذا الاحتمال اخـذ على محمل الجد من قبل اى فرد فى الأركان المصرية العامة عداهما ، وربما اثر هذا التفكير على تقديرات عامر الشخصية للموقف .

على اية حال ، فى ساعة مبكرة من صباح السادس من يونيو ، اتخذ عامر نفس القرار على ما يبدو الذى تم اتخاذه فى عـام ١٩٥٦ ، بعد اول تدخل انجلو ـ فرنسى سافر ، فقرر سحب قواته من سيناء ، خلف الخطوط الدفاعية فى قناة السويس ، ولا احد يعلم عما اذا كان قد استشار الرئيس عبد الناصر فى هذا الأمر ام لا ، ولكنه لم يفعل على ما يبدو ، ويقينا فى الغالب انه لم يستشر اىعضو من اعضاء هيئة الأركان ، فقام بالابراق مباشرة الى اللواء مرتجى واللواء محسن ، والى قادة الفرق والوحدات المنفصلة ولم يرد ذكر اى خطة او اجراء فى رسائله ، بشان تنفيذ عملية الانسحاب ، صدر الامر فى بساطة بالانسحاب .

كان معظم قادة الفرق فى سيناء ، على غرار عامر ، قد تحولوا الى ضباط سياسيين ، ويبدو ان هـؤلاء الضباط ، عندما ادركوا حقيقة ما احرزه الاسرائيليون من انتصارات تلفت الانظار فى بداية المعارك ، كانوا يفكرون فى النجاة بأنفسهم اكثر مما كانوا يفكرون فى قـواتهم . فلم يمض وقت طويل على اصدار امر الانسحاب لتابعيهم ، حتى استقل الكثيرون من كبار الضباط عرباتهم ، وامروا سائقيهم بالتوجه غربا الى القنطرة والاسماعيلية .

ما ان شرعت هيئة الأركان المصرية العامة استعادة رشدهـا من صدمة الوهلة الأولى للهجوم الاسرائيلى ، حتى اصابتها صدمة هائلة اخرى كالصدمة الأولى ، عندما علمت بامر الانسحاب الـذى اصدره عامر للوحدات فى سيناء . فلا يزال ضباط الأركان العامة يعولون على تنفيذ الخطـة المصرية الأصيلة ، فقد كانوا يفترضون السماح للاسرائيليين بمواصلة هجومهم على المنطقة الوسطى من سيناء ، ثم يسحقهم المصريون فى هجوم مضـاد فى مكان ما فى المنطقة الواقعة ما بين جبل لبنى وبير ثماده ، وكان من شأن هـذا الهجوم المضاد على اقل تقدير ، ان ينتهى بالهجوم الاسرائيلى بالتوقف شرقى بير جفجافة وممرى الجدى ومتلا . اما على احسن الأحوال ، وفى حـالة نجاح عملية الهجوم المضاد فمن شأنه سحق الاسرائيليين ، وربما السماح بغزو جنوب فلسطين .

من ثم فقد كانت هيئة اركان الحرب المصرية على غير استعداد تماما لسماع نبأ اصدار الأمر بالانسحاب . وكان من شأن هـذا الأمر بالانسحاب ، مع ما حققه الاسرائيليون من تقدم فى يـوم ونصف يـوم من بدء القتال ، تعذر تنسيق الجهود الدفاعية شرقى القناة على ارجح تقدير ، وربما لا يسفر ذلك عن فقد سيناء باسرها فحسب ، بل يعنى ايضا تدمير معظم الجيش المصرى اثناء عملية مطاردته من قبل الاسرائيليين .

طلب ثلاثة من كبار ضباط هيئة اركان الحرب عقد اجتماع عاجل مع عامر ، الـذى توقف تماما فى الليلة السابقة عن اجراء اية اتصالات مباشرة مع هيئة اركان الحرب ، وبعد فترة ، تمكن هؤلاء الضباط من اقناع مساعدى عامر بنه لابد لهم من رؤية المشير لأمر عاجل ، وتسنى لهم فى نهاية الأمـر دخول مكتب المشير . وكان الضباط الثلاثة هم اللواء مصطفى الجمال ، رئيس البحوث ، واللواء بهى الدين نافع ، نائب رئيس العمليات ، واللواء رفعت الحسينى . وسرعان ما اقنع الضباط الثلاثة عامر — وكان فى حالة انهيار بان امـره لا يعنى سـوى الكارثة .. عندئذ خـول لهم صلاحية ارسال رسائل لوقف عملية الانسحاب .

الا انه مثلما كتب كيبلنج ذات مرة « لا يكون هنالك توقف ايها القائد ! عندما يبدل (جيش) موقعه (٢) » .

وباستثناء التشـكيلات المنفصلة فى ذلك الحين ، فان كافة عناصر الفرق الأمامية الأربع (الفرقة الفلسـطينية العشرون من جيش التحرير الفلسطينى والألوية السابع والثانى والسادس) من الفرقة الثالثة والقـوة الخاصة المدرعة بقيادة الشاذلى كانت جميعها فى ذلك الحين تسارع بالانسحاب فى اتجاه الغرب ، ودمر الاسرائيليون بعض هـذه الوحـدات وهى فى طريقها للانسحاب ، واصبحت الكارثة التى كان يخشاها اللواء جمال واللواء نافع واللواء الحسينى حقيقة واقعة .

فى نفس الوقت ، كانت تذاع على العالم تاكيدات الحكومة المصرية بأن الطائرات الأمريكية (والبريطانية) تؤيد الاسرائيليين ، مما اثار موجة من الاستياء الشديد فى كافة انحـاء الدول العربية ، الأمر الـذى ادى الى قيام ممثلى جامعة الدول العربية فى ساعة متاخرة من مساء الخامس من يونيو ، الذين كانوا مجتمعين فى بغداد الى فرض حظر على ارسال شحنات البترول الى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، واغلق عبد الناصر قناة السويس، ورغم نفى الحـكومتين الأمريكية والبريطانية ، فأنه قطع العـلاقات مع الدولتين ، وسرعان ماحذا حذو هـذا الاجراء الدبلوماسى الكثير من الدول العربية الأخـرى .

التقط الاسرائيليون على ما يبدو مكالمة تليفونية جـرت بين الرئيس عبد الناصر والملك حسين فى الساعة الرابعة من صباح السادس من يونيو ، وكدليل على هـذا ، كان هناك تسجيل للمكالمة اذاعته الحكومة الاسرائيلية فيما بعد : اتفق عبد الناصر وحسـين على ما يبـدو من الحديث التليفونى المسجل ، على تلفيق الاتهامات : بأن الولايات المتحدة — وربما بريطانيا ايضا — قد اشتركتا فى الغارات الجوية الحقيقية التى شنت على مصر ، وتشير المكالمة التى اذاع الاسرائيليون نصها عقب تسجيلها بيومين الى ان الزعيمين العربيين كانا يدركان حتى ذلك الحين ان الأمر ليس كذلك ، ورغم ذلك فان الملك حسين ، يؤكد فى كتابه ، بصدق واضح ، انه كان على يقين

عندما جرت المكالمة — التى يعترف بانها حقيقة — بان حجم ومدى الهجوم الاسرائيلى ، لا يمكن تفسيره ، الا بمساعدة حاملة الطائرات الامريكية والطائرات البريطانية فى قبرص(٢) .

كلما كبر حجم الهزيمة التى لحقت بالمصريين ، كلما رددت القاهرة مرارا وتكرارا من اتهام الحكومتين الامريكية والبريطانية بالتدخل ، لتتناقلها اذاعة دمشق وقد كفت الاردن عقب اذاعة شريط التسجيل الاسرائيلى فى الثامن من يونيو ، عن اية اشارة اخرى بالتدخل الامريكى ، والآن لم يعد الملك حسين مدركا لحقيقة افتقار تقارير المصريين عن هجماتهم الجوية على اسرائيل ، الى الدقة فحسب ، بل يدرك ايضا انه لا الولايات المتحدة ولا بريطانيا قد شاركتا فى العمليات الحربية .

الملاحظـــات

(١) يقال عن ثقة : ان عامر كان مدمنا للمخدرات والمسكرات على حد سواء ، ويعتقد الكثيرون من المصريين انه كان اما « مسطولا » او ثملا عندما بدا الهجوم الاسرائيلى ، او انه هرع الى تعاطى اى منهما (المخدرات والمسكرات) حتى يتسنى له تحمل صدمة الهجمات الجوية الاسرائيلية .

(٢) وردت فى نص قصيدة   وكان كيبلنج يشير الى بطارية سلاح الفرسان ، ويعد التشبه فى هذا المجال ملائما .

(٣) حسين — مرجع سبق ذكره صفحة ٨٢ — ٨٥ .

(٨)

الغزو الاسرائيلى لسيناء

معركة جبل لبنى

فى ساعة متاخرة من بعد ظهر يوم السادس من يونيو ، وصلت وحدة الاستطلاع التابعة للواء الكولونيل شادنى ، وهى تقترب من جبل لبنى قادمة من بير لهفان ، الى حقول الالغام فى مواجهة الموقع الدفاعى لجبل لبنى،حيث تعرضت لنيران الدبابات طويلة المدى ، وسارع شادنى وجونين — فى اثره مباشرة على الطريق — بانتشار قوات اللواءين استعدادا للعمل وهاجما المعسكر المصرى الحصين ، فى نفس الوقت تقريبا انضم اليهما من الجانب الأيسر لواء يوفى — بقيادة كولونيل سيلا — الذى كان قد وصل لتوه عن طريق ابو عجيلة ، وكان قد عسكر معظم ساعات النهار غرب ابو عجيلة مباشرة .

بدات معركة معسكر جبل لبنى عند غروب الشمس واستمرت طوال ساعات الليل ، وكان الاسرائيليون فى واقع الأمر ، يقاتلون مؤخرة القوات المصرية فقط ، حيث كانت القوات الرئيسية للفرقة تتحرك فى اتجاه بير جفجافة والاسماعيلية وذلك بناء على أوامر صادرة من القاهرة . وفقدت المؤخرة فى دفاعها المستميت ٣٢ دبابة .

وتعد هذه الواقعة بمثابة واحدة من غرائب التاريخ الحربى الطريفة فقد كانت معركة انجز فيها الطرفان مهمتيهما على الوجه الأكمل ، فكانت مهمة الاسرائيليين تتمثل فى هزيمة المصريين فى جبل لبنى ، والاستيلاء على المواقع الحصينة والمطار فى المنطقة ، فى حين كانت مهمة المؤخرة المصرية تكمن فى اعاقة الاسرائيليين لعدة ساعات ، حتى يتسنى السماح للقوات الرئيسية للفرقة الهرب ، فأصبح بوسع كلا الطرفين ادعاء تحقيق النجاح وقد كان .

تحت ستار الظلام ، انسحبت المؤخرة المصرية غربا فى اتجاه بير الحمة ، وقرر قادة الألوية الاسرائيلية الثلاثة السماح لوحداتهم التى انهك قواها الزحف والقتال منذ يومين ، باخذ قسط من الراحة واعادة التجمع حتى فجر اليوم التالى .

خطة الجنرال جافيش لملاحقة المصريين :

فى نفس الوقت ، وفى ساعة متاخرة من السادس من يونيو ، استدعى جنرال جافيش قادة الفرق الثلاث طال ويوفى وشارون — الى مركز قيادته لعقد مؤتمر فقد بات واضحا ان ثمة عملية انسحاب مصرية واسعة النطاق تجرى فى الأفق ، فقد استبدل المصريون الدفاعات القوية باساليب اعاقة ، ناهيك عما ينقله الاستطلاع الجوى من تحركات مصرية ضخمة فى اتجاه الغرب ، ومن ثم ، فقد اصبح جليا للاسرائيليين انه فى حالة عدم تحركهم على نحو سريع ، فربما تسنى للمصريين كافة او للغالبية العظمى منهم الهرب والانسحاب عبر القناة . ومن ناحية اخرى ، فان عملية الملاحقة الروتينية — بصرف النظر عن مدى النزعة العدوانية فيها — ليس من شانها سوى التعجيل بعملية الانسحاب المصرية ، مع احتمال عزلة عدد من المقاتلين ، حيث يتعذر لدرجة كبيرة انجاز مهمة تدمير الجيش المصرى .

من هنا ، طرح جافيش مفهوما جديدا غير تقليدى لعملية الملاحقة : فكان يتعين على فرقتى (طال ويوفى) فى الشمال ، ارسال رؤوس حراب من المدرعات تتجه غربا على امتداد طرق سيناء الرئيسية الثلاثة ، لاختراق القوات المصرية المنسحبة واقامة متاريس دفاعية بالقرب من جفجافة وممرى الجدى ومتلا ، فى حين تواصل بقية قوات هاتين الفرقتين وفرقة شارون تقدمها السريع دافعة القوات المصرية المنسحبة غربا أمامها فى اتجاه المتاريس المقامة من رؤوس الحراب المرابطة فى الانتظار .

وبهذه الطريقة — ورغم انه من المحتمل الا يكون جافيش قد فكر فيها بهذا الأسلوب — يكون الاسرائيليون قد اتبعوا مفهوم مولتكين لتحقيق اقصى قدر ممكن من المزايا العسكرية عند الجمع بين الهجوم الاستراتيجى والدفاع التكتيكى .

عقب المؤتمر ، عاد قادة الفرق الثلاث الى مراكز قياداتهم مستقلين طائرة هليكوبتر : توجه شارون الى نخل شرقا ، واتجه طال ويوفى الى منطقة مجاورة لجبل لبنى ، وفى ساعة متاخرة من مساء السادس من يونيو حتى الساعات الأولى من صباح السابع من يونيو عقد طال ويوفى مؤتمرا مشتركا مع قادة الويتهم ، حيث اصدرا الأوامر بصدد العملية المزمع القيام بها صبيحة اليوم التالى ، وتم الاتفاق على ان تسلك قوات طال الطريق الشمالى عبر بير جفجافة ، وتسد الطريق الى الاسماعيلية ، بينما تسلك قوات يوفى الطريق الجنوبى وتسد ممرى الجدى ومتلا . وكان لواء جونين ، من فرقة طال ، كما هى العادة ، يشكل راس الحربة ، اما راس الحربة فى فرقة يوفى فهو لواء الكولونيل شادنى ، وكان على بقية القوات فى الفرقتين التقدم على نحو سريع ولكن فى حذر ، وفقا للخطة الشاملة التى وضعها الجنرال جافيش . بعد ذلك بعث الجنرالان برسالة مشتركة الى الجنرال

جافيش ، يبلغانه فيها بخططهما ، فجاء الرد سريعا بالتصديق والموافقة عبر اجهزة الاتصال اللاسلكى .

بين الحمة وبين جفجافة :

عند فجر السابع من يونيو ، زحف لواء جونين فى اتجاه الغرب الى بير الحمة ، هنالك اصابت الدبابات الاسرائيلية مؤخرة الفرقة الثالثة مشاة ، ولواء مشاة تسانده بعض الدبابات ، وتم الاستيلاء على الموقع عقب قتال لم يدم طويلا ، وبعد أن اتم المصريون مهمة الاعاقة ، قاموا بالانسحاب غربا، ومع ذلك ، وفى نفس الوقت ، كان لواء الكولونيل افيرام يواصل زحفه غربا، على امتداد الطريق فى محازاة منطقة اشتباك جونين فى بير الحمة ، ومن ثم ، اصبح راس حربة لطال ، وسرعان ما اصبحت وحدات دبابات افيرام، وحسب تقديرات جافيش ، طرفا فى المعركة المتواصلة ، مع تشكيلات المصريين التى كانت فى طريقها الى الانسحاب من بير الحمة .

واصلت الدبابات الاسرائيلية تقدمها غربا على الطريق المؤدى لبير جفجافة ، دافعة المصريين جانبا ، واشتبكت الدبابات الاسرائيلية مع عدد من التشكيلات المصرية الأخرى اثناء تقدمها ، فسارت الأمور على نفس المنوال : فكان الاسرائيليون يطوقون المصريين او يدفعونهم الى الامام على الطريق او يخترقون صفوفهم فى سلسلة من المعارك المتواصلة ، وفى ساعة مبكرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وصل لواء افيرام الى ملتقى الطريق شمال بير جفجافة ، وقام بارسال كتيبة ايه ام اكس التابعة له فى اتجاه الغرب للاستيلاء على موقع دفاعى فى التلال التى تقع خلف بير جفجافة مباشرة ، وسد الطريق الى الاسماعيلية ، فى حين تحركت كتيبة الشيرمان وكتيبة المشاة الميكانيكية ، فى اتجاه جنوب ملتقى الطرق لسد الطريق المؤدى الى بير ثمادة .

فى نفس الوقت ، كان لواء جونين — الذى سرعان ما اعاد تجميع صفوفه بعد الاشتباك الذى وقع فى بير الحمة — يسير فى ركاب افيرام ، واستدار جونين جنوبا ، عندما اقترب من ملتقى طريق بير جفجافة ، املا فى محاصرة الفرقة المصرية الرابعة مدرعات او الالتفاف حول جزء منها ، وكان يرابط فى منطقة بير جفجافة ، وتمت المحاصرة بطريقة رائعة ، غير ان النتائج كانت مخيبة للآمال ، وتمكنت الدبابات الاسرائيلية من محاصرة وتدمير لواء مصرى مدرعات ، كان يحاول فى ذلك الحين شق طريقه من خلال كتيبة الشيرمان التابعة لافيرام ، ومن ناحية أخرى — وفيما عدا بعض الشاردين، كان الحصار خاويا — فقد كانت غالبية الفرقة الرابعة مدرعات قد شقت طريقها غربى الحصار ، وكانت بعض تشكيلاتها تعبر قناة السويس حينذاك .

بير حسنة وبير الثمادة وممر الجدى :

خاضت فرقة يوفى فى اقصى الجنوب ، تجارب مماثلة ، غير انها واجهت مقاومة أعنف بكثير . وكان لواء شادنى قد تحرك فى الساعة الرابعة صباحا فى اتجاه بير حسنة ، مخترقا المؤخرة المصرية المرابطة فى هذه المنطقة الحصينة بعد الفجر ، وبينما كانت احدى الكتائب تهاجم الدفاعات، كانت الكتيبتان الأخريان قد تجاوزتا الاشتباك ، حتى تصل الى طريق بير الثمادة غربى بير حسنة ، وفى الساعة التاسعة تم اكتساح هذا الموقع ، وواصلت كتيبة شادنى الثالثة تقدمها على الطريق وراء الكتيبتين الأخريين، وتاركة للواء سيلا مهمة تطهير شتى المواقع حول بير حسنة .

عند موقع الثمادة — وكان قد تم اخلاؤه تماما — قسم شادت قواته : فأرسل كتيبة فى الاتجاه الشمالى الغربى لسد ممر الجدى ، واتجه مع الكتيبة الأخرى الى ممر متلا فى الجنوب الغربى .

لم تصادف الكتيبة التى تم ارسالها الى ممر الجدى احداثا خطيرة نسبيا ، فقد تسنى لها أن تدفع ببعض المصريين الشاردين جانبا او القضاء عليهم ، غير أن الكتيبة لاقت بعض المتاعب فى طريقها الى الممر ، وهناك اقامت متراسا على الطريق حسب الأوامر الصادرة ، وتصدت لعدد من الوحدات المصرية المتفرقة التى كانت تحاول الاختراق فى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم وفى المساء .

الصراع من أجل الاستيلاء على ممر متلا :

تضافر العامل الجغرافى ، وانتشار القوات المصرية فى بداية الحملة ، وسير العمليات فى المنطقتين الوسطى والشرقية من سيناء ، أدى هذا كله الى تجمع معظم التشكيلات المنسحبة التابعة للفرقتين الثالثة مشاة ، والسادسة مشاة ، وقوات الشاذلى المدرعة ، وبعض تشكيلات الفرقة الرابعة مدرعات ، على الطريق ما بين بير الثمادة وممر متلا ، وكان اللواء الغول قائد الفرقة الثالثة يبذل قصارى جهده لتنسيق عملية الانسحاب التى سادها الفوضى ، ولم تكن مهمته باليسيرة ، ذلك لأن اللواء ناصر قائد الفرقة الثالثة واللواء الشاذلى ، كانا فى واقع الأمر قد عبرا القناة فى سيارتيهما ولاتزال قواتهما على الطريق فى المنطقة الوسطى من سيناء(*) .

تكبدت دبابات شادنى الاسرائيلية مشقة كبيرة فى شق طريقها بين جموع المصريين المنسحبين ، فقد تعرضت معظم عربات الامداد التابعة

(*) روى واقعة فرار اللواء الشاذلى من سيناء للمؤلف لواء مصرى على دراية بمجريات الأمور ، فى حين نفاها بشدة لواء مصرى آخر على دراية أيضا بمجريات الأمور .

لشادنى ، بما فيها عربات الوقود — اما تعطلت أو نسفت فى الاشتبكات التى وقعت مع المصريين على الطريق ، وعلى بعد حوالى ٣٠ كيلو مترا شرقى الممر ، كان وقود دبابات شادنى على وشك النفاد ، واستخدم الاسرائيليون الكبلات الصلب فى ربط الدبابات المعطلة بتلك التى لم يفرغ وقودها بعد وجروها الى الممر ، رغم ذلك نفد وقود نصف دبابات شادنى وهو لايزال على مسافة ٢٠ كيلو مترا من الممر ، وكان لابد من التخلى عن معظم هذه الدبابات .

وصل شادنى فى الساعة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم ، الى الطرف الشرقى من الممر ومعه تسع دبابات ، تم جر اربع منها فى الكيلو مترات القليلة الأخيرة ، وكان برفقة هذه الدبابات ، أو خلفها على مسافة قصيرة ، بضع ناقلات عربات نصف جنزير ومشاة مزودين بمدافع مورتار ، واستطاع شادنى ، بهذا العدد الضئيل من القوات والدبابات أن ينصب كمينا شرقى الممر مباشرة ، اوقع فيه أول التشكيلات المصرية التى كانت تتبعه واخذها على غرة .

استمر تدفق سيل العربات المصرية على الممر . وفى الوقت الذى كانت تتجمع فيه عند مدخل الممر ، شرق الكمين الذى نصبه شادنى تماما ، قامت الطائرات الاسرائيلية بالاغارة عليها وقصفها بالمتفجرات الناسفة والصواريخ والنابالم ، وسرعان ما تكدست مئات ، ثم آلاف العربات فى المنطقة ، فلم يعد ثمة مجال للمناورة ، عندئذ أصبح الممر مسدودا للمرة الثانية من جراء عائق العربات المحترقة ، الذى لا يسع المرء اختراقه ، ناهيك عما نصبته قوات شادنى من كمين ، فما كان من المصريين الذين اعتراهم الشعور باليأس ، واستحال عليهم تفادى الممر ، سوى محاولة غزو وحدة شادنى الضئيلة العدد . فى الساعة ٨٫٠٠ مساء أبرق شادنى الى الجنرال يوفى انه عاجز عن الحركة تماما وانه محاصر ، فأمر يوفى على الفور لواء سيلا — وكان يرابط فى الخلف بالقرب من بير الثمادة — بالتزود بالوقود والاسراع لنجدة شادنى ، وصدرت اليه الأوامر بأن يصل الى الممر فى الساعة الثالثة صباحا .

بينما كان لواء سيلان يسير فى طابورين يكتنفهما الظلام ، فى طريقه لنجدة قوات شادنى ، عند ممر تلا ، اختلطت سرية منه مع طابور للدبابات المصرية ، وكان من المتعذر فى الظلام التميز بين الدبابات المصرية والدبابات الاسرائيلية ، وبالرغم من أن الاسرائيليين ادركوا أنهم وسط طابور من الدبابات المصرية ، فان المصريين لم يدركوا — فيما يبدو — حقيقة انضمام الدبابات الاسرائيلية اليهم ، واتصل القائد الاسرائيلى بدباباته وابلغها انه يتعين ان تسير الأمور على ماهى عليه لبضع دقائق فى الظلام ، وفجأة ، أصدر أمرا باللاسلكى لكافة دباباته بالتحرك فى حذر شديد فى اتجاه اليمين، والتنحى عن الطريق واضاءة مصابيحها الكشافة ، واطلاق النار على كل ما تبقى على الطريق . كانت النتيجة تدمير كتيبة الدبابات المصرية .

استطاع شادنى وقوته الضئيلة الصمود طوال ساعات الليـل ، رغم الهجمات المصرية العديدة ، بيد انه قبيل الفجر كانت ذخيرتهم قد نفدت تماما ، وكانوا قد استولوا على عدد من المدافع المصرية ، غير انهم مع الساعات الأولى من الصباح كانوا قد استنفدوا معظم الذخيرة المصرية التى تسنى لهم الحصول عليها فى المعركة ، ورغم ذلك ، وبينما كان طابور سيلا يقترب من ممر متلا قبيل الفجر ، اضطر المصريون ، بعد أن ادركوا انهم وقعوا فى كمين ، الى ترك عرباتهم والسير على اقدامهم خلال التلال عبر الصحراء ، ومع ذلك ، فقد وصلت طلائع وحدات سيلا اخيرا فى سـاعة متأخرة من الصباح ، الى الممر لنجدة شادنى .

عـــودة لبير جنجافة :

فى نفس الوقت ، وقع اشتباك عنيف آخر فى الليل شمال وغرب بير جنجافة . فقد صدرت الأوامـــر الى لواء مدرعات مصرى من الاسماعيلية لتعزيز الفرقة الرابعة مدرعات بالقرب من بير جنجافة . ووسـط حـالة الفوضى الناجمة عن صدور اوامر الانســحاب ، لم يدرك اى من القـادة المباشرين المصريين على ما يبدو انه عند وصول هذا اللواء الى بير جنجافة، تكون الفرقة الرابعة مدرعات قد عادت آنذاك الى القنـــاة . رغم هذا ، اندفع هذا اللواء عقب صدور الأوامر اليه ، على امتداد الطريق نحـو بير جنجافة ، فاشتبك بعد منتصف الليل بفترة قصيرة وعلى نحو غير متوقع مع كتيبة الدبابات ايه ام اكس ــ ١٣ التابعة للواء الكولونيل افيرام ، مما ادى الى سد الطريق شمال غرب بير جنجافة .

وكان الاسرائيليون يرابطون بدبابات الـ ايه ام اكس على الطرف الخارجى المواجه للغرب والذى يأخذ شكل نصف دائرة ، وكانت عربات نصف الجنزير تحمـــل وقودهم وذخيرتهم وامداداتهم وترابط فى المؤخـرة الوسطى ، وكانوا يتمتعون بميزة الحصول على موقع دفاعى معد ، ولكن لم يكن معهم من الدبابات سوى ٣٠ دبابة خفيفة ، كان عدد الدبابات لدى القوة المهاجمة ما بين ٥٠ الى ٦٠ دبابة من طراز ت ٥٤ و ت ٥٥ ، مزودة بمدافع عيار ١٠٠ مم ذات سرعة فائقة ، ولا يسع مدافع عيار ٧٥ مم الضئيلة لدبابات ايه ام اكس ــ ١٣ اختراق الدبابات ت ٥٤ و ت ٥٥ ، الا على مدى قصير جـــدا .

فى بداية المعركة اصاب المصريون احدى العربات الاسرائيلية نصـف جنزير المحملة بالذخيرة اصابة مباشرة ، كما لقى ١٢ من الجنود الاسرائيليين مصرعهم فور نسف العربة ، واسفر رد الفعل عن تدمير سبع عربات نصف جنزير اخرى وتدمير دبابة ، اعقب ذلك تدمير دبابتين من طراز ايه ام اكس نتيجة اصابات مباشرة ، اما القذائف الاسرائيلية عيار ٧٥ مم فكانت ترتد بمجرد ملامستها للمدرعات الثقيلة الـــ ت ٥٤ و ت ٥٥ ، بدأت الكتيبـــة

الاسرائيلية ، بعد دفاع مستميت استغرق اكثر من ساعتين فى الانسحاب، ولكن فى هذه اللحظة وصلت كتيبة السنتوريون بقيادة جونين لتدعيم الـــ ايه ام اكس التى تعرضت لضغط عنيف ، وفوجىء المصريون — الذين كانوا يعتقدون انهم حققوا انتصارا — آنذاك عندما وجدوا انهم محاصرون بقوة دبابات متوسطة ، فى بضع دقائق تم تدمير عشر دبابات ت ٥٤ و ت ٥٥ ، وانسحبت بقية الدبابات وسط حالة من الفوضى عائدة الى القناة .

شـــرم الشـــيخ :

فى نفس الوقت ، وفى اقصى الجنوب من شبه جزيرة سيناء ، تم اعداد الترتيبات النهائية لشن هجوم برى وبحرى مشترك على شرم الشيخ ، بينما استعدت قوة مظلات صغيرة للانطلاق من ايلات ، وفى السابع من يونية ، شقت قوة بحرية خاصة مكونة من ثلاثة زوارق طوربيد ، طريقها فى حذر عبر مضيق تيران (ولم تكن به الغام حسبما ذكرت) واتجهت نحو القـــاعدة الساحلية المصرية ، وعندما كانت الزوارق الاسرائيلية تقترب ، لم تشهد اى مظهر للحياة ، فانزلت مجموعة من بحارتها الى الشاطىء .

كانت شرم الشيخ خالية ، فقد جلت الحامية المصرية عنها فى ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم بناء على اوامر المشير عامر ، ومن ثم قام البحارة برفع العلم الاسرائيلى على سارية العلم ، وعندما قدم « المظليون » ، بعد ساعة تقريبا ، ولم يشهدوا اية مناورات برية ، لم يقفزوا ، وانما هبطوا على الممرات ، وسرعان ما اكتشفوا وصول القوات البحرية حينذاك .

تقدم « المظليون » بعد ذلك الى الشمال الغربى على امتداد الساحل، وعندما حل المساء كانوا قد وصلوا الى الطور ، فأمنوا لأنفسهم الحمـــاية انتظارا لأى اوامر اخرى .

نخـــل :

لم تتمكن فرقة شارون (عدا لواء مشاة ظل فى العريش) — التى كانت تتقدم فى بطء نظرا لوعورة المنطقة ، ووجود عدد من حقول الألغـــام التى زرعها المصريون — من الاقتراب من نخل حتى منتصف صباح الثامن من يونيو ، ولكن بعد الفجـــر مباشرة ، كانت طـــلائع الفرقة قد عثرت بالمصادفة على لواء كامل من مدافع ذاتية الدفع من طراز وسرعان مادلت التحريات على أن اللواء الخامس والعشرين بعـــد المائة المصرى مدرعات ، كان مزودا بدبابات ذات مدافع من هذا الطراز .

زال الغموض الذى اكتنف الدبابات المهجورة فى اليوم التالى ، وذلك

عندما تم اسر قائد الوحدة العميد احمد عبد النبى مع عدد من رجاله فى منطقة قريبة من نخل ، صرح قائد الوحدة المصرى بانه شعر بالانزعاج ليلة السادس — السابع من يونيه على اثر سماع نبأ اقتراب قوة دبابات رئيسية منه ، رغم أنها كانت — كما اتضح فيما بعد — مصرية . وكان قد تلقى فى نفس الليلة امرا بالانسحاب ، ونفذ الامر طوال النهار ، رغم انه امضى طيلة الوقت مستترا خلف الكثبان الرملية تفاديا لاكتشاف الطائرات الاسرائيلية ، وفى ليلة السابع — الثامن من يونية ، وبعد ان علم بالزحف الاسرائيلى عبر ابو عجيلة وبير حسنة ، تناهى الى اسماعه من جديد صوت دبابات ، وكانت هذه المرة طلائع فرقة شارون .

اضطر احمد عبد النبى الى التخلى عن دباباته ، عندما صدر اليه الامر بالانسحاب ، وعندما لم يشعر فى ظل الظروف الراهنة ، ان بوسعه مقاومة الهجوم الاسرائيلى ، انسحب مع جنوده فى عربات نصف جنزير فى اتجاه بير الثمادة . وعندما وجد ان بير الثمادة سقطت ايضا فى الايدى الاسرائيلية ، تخلى عن جنوده ، الذين كانوا حينذاك فى حالة من عدم النظام التام ، واتجه برفقة ضابطين آخرين نحو الجنوب الغربى سيرا على الاقدام ، ولم يمض وقت طويل حتى وقع أسيرا لاحدى داوريات فرقة يوف ، وعندما سئل عن السبب فى عدم تدمير دباباته قبل التخلى عنها ، رد احمد عبد النبى بانه تلقى امرا بالانسحاب ، وان هذا الامر لم يتضمن شيئا عن تدمير دباباته ، ناهيك عما اعتراه من قلق فى حالة ما اذا قام بتدمير المدافع على النحو السليم عن طريق تفجير طلقة فى الماسورة ، فان الضوضاء الناجمة من شأنها ارشاد الدبابات القادمة من فرقة شارون الى موقعه .

واصلت قوات شارون تقدمها ، وهى تجهل بطبيعة الحال ، سر الدبابات التى عثرت عليها .

وسرعان ما تلقى شارون بعد ذلك مكالمة لاسلكية من الكولونيل مندلر، الذى استولى اللواء التابع له على الكونتيلا فى الخامس من يونيو ، تفيد انه استولى لتوه على ثمادة ، وان القوات المصرية وتضم فيما يبدو ، لواء مشاة ولواء دبابات من الفرقة السادسة ، عقب تعرضها لهجوم سابق ، تواصل الانسحاب الى نخل ، وكان اول تعقب كتيبة دبابات تابعة للواء مندلر المؤخرة المصرية لازعاجها .

واصل شارون تقدمه ، ووصل لواء دباباته الى نخل ، بعد أن شاهدت داورياته مقدمة الطابور المصرى المنسحب من ثمادة غربا ، ببضع دقائق ، سارع شارون فنصب كمينا من كتيبتى دبابات شرقى نخل مباشرة ، ومالبث ان نشبت معركة حامية الوطيس ، وقاد شارون بنفسه كتيبة مشاة، واتجه جنوبا لقصف منتصف الطابور المصرى على بعد ١٥ كيلو مترا من نخل .

نشبت معركة نخل فى الساعة العاشرة صباحا تقريبا ، خلال هذه الساعات الاربع ونصف الساعة من القتال ، قامت قوات شارون وكتيبة مندلر بتدمير ما يقرب من ٦٠ دبابة مصرية ، وحوالى ١٠٠ مدفع ، واكثر من ٣٠٠ عربة ، وقتل او اصيب عدة مئات من المصريين ، وتفرق الباقون ويبلغ عددهم على اقل تقدير ٥٠٠٠ جندى فى حالة من الفوضى ، فى التلال والوديان جنوب الطريق .

وواصل شارون بعد ان اعاد تنظيم قواته على نحو سريع تقدمه غربا ليلحق بفرقة يوف بالقرب من بير الثمادة .

قوات جرانيت :

فى صباح السابع من يونية ، وصلت قوات الكولونيل يسرائيل ، بعد ان اتمت زحفها على امتداد الطريق الساحلى ، الى حافة قناة السويس ، بالقرب من القنطرة . فاتصل الكولونيل لاسلكيا بالجنرال طال وابلغه ما حدث ، وابلغ الجنرال طال بدوره الأركان العامة الاسرائيلية فى تل ابيب بذلك ، فاصدر الجنرال موشى ديان وزير الدفاع على الفور امرا الى يسرائيل بالانسحاب ٢٠ ميلا من القناة . ويقال ان ديان كان يخشى من اثارة جدل دولى حول القناة ، ولكن من المشكوك فيه ان يحفل ديان لما قد يثار من جدل دولى ، والا لما وافق مطلقا على شن هجوم وقائى فى الخامس من يونيو ، وعلى اية حال فان مبعث قلق ديان كان يرجع لحقيقة انه اذا ما تردد ان القوات الاسرائيلية على ضفاف قناة السويس ، فان الضغط الدولى لوقف اطلاق النار سيزداد ، فى وقت كانت القوات الاسرائيلية فيه ابعد ما تكون عن تحقيق اهدافها الرئيسية ، فحتى ذلك الوقت ، كانت هنالك قوة اسرائيلية فى المنطقة تكفى للاستيلاء على الضفة الشرقية من الممر المائى رغم اية مقاومة سياسية كانت أم عسكرية ، ومن ثم فقد كان ديان لا يرغب فى اى تواجد اسرائيلى فى تلك المنطقة .

فى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى — الثامن من يونيو — تلقى الكولونيل يسرائيل امرا بالتحرك غربا مرة اخرى من رمانة فى اتجاه قناة السويس على بعد حوالى ١٠ كيلو مترات شرق القنطرة ، واصطدمت قوات يسرائيل مع قوات مصرية مشتركة من الدبابات والكوماندوز .. استمر الاشتباك معظم ساعات النهار ، حتى أمر يسرائيل سرية استطلاع من عربات الجيب مزودة برشاشات عديمة الارتداد بضرب الجناح الأيمن من الدبابات المصرية ، بينما قامت كتيبة دباباته بقصف الجناح الأيسر ، واسفر ذلك عن تدمير العديد من الدبابات المصرية ، وانسحاب القوات المصرية المدافعة شيئا فشيئا عبر القنطرة الى القناة .

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، تقدم يسرائيل وقواته جنوبا ، متجاوزا وسط القنطرة للاستيلاء على المواقع المقابلة للاسماعيلية وفردان ، وفى الساعة السابعة والنصف صباحا ، وبعد خمس ساعات ، لحقت

يسرائيل وقواته وحدات من اللواء السابع مدرعات بقيادة الكولونيل جونين، وكانت تشكل راس حربة لقوات طال الرئيسية على الطريق الممتد من الشمال حتى الجنوب شرق القناة وشمال شرق الاسماعيلية .

على القنـــاة :

قبيل الفجر ، بدات فرقة طال وفى مقدمتها لواء جونين ، فى التحرك غربا من بير جفجافة ، وكانت ثمة معارك بالمدرعات على امتداد الطريق ، وكانت الدبابات المصرية — ومعظمها من طراز ت ٥٥ — تحتمى فى بعض الحالات ، وراء كثبان الرمل المرتفعة ، حتى يتسنى لها تماما كشف الدبابات الاسرائيلية القادمة ، بينما لا يبدو من الدبابات المصرية سوى المدافع وأبراج الهجوم ، كذلك انسحب المصريون ، الذين كانوا يتوقعون محاولات اسرائيلية لتطويق المواقع القريبة من الطرق لذلك رجعت قليلا الى الوراء لتشكيل كمائن فى الطرق المحتمل التحرك فيها ، وفى الصباح الباكر ، تعرض العديد من دبابات السنتوريون الاسرائيلية لاصابات مباشرة وتم تدميرها .

عندئذ قام جونين بتوزيع لوائه على جبهة عريضة : تحركت احدى كتائب الدبابات فى ثلاثة طوابير ، تتقدمها سريتان على جانبى الطريق ، بينما تسير سريتان بمحازاة كل جناح ، عبر الكثبان الرمليـــة على بعـد عـدة كيلو مترات من الطريق .

كانت القوات الاسرائيلية تقترب من قمم الكثبان الرملية فى حـذر ، مستفيدة من مدافعها بعيدة المدى ، فتمكنت من تدمير العــديد من دبابات ت ٥٥ بعيدة المدى ايضا ، وكان فى كل مرة تطلق فيهـا الدبابات المصرية النيران تقوم بعض دبابات جونين بالرد على مصدر الضوء ، وعندما وصل الاسرائيليون الى القناة فى مواجهة الاسماعيلية بعد ظهر ذلك اليوم بفترة وجيزة ، كانوا قد دمروا حوالى ٥٠ دبابة مصرية، فى حين لم يفقدالاسرائيليون اكثر من خمس دبابات ، وكان جونين فى ذلك الوقت قد لحق بقيادة يسرائيل.

وفى اقصى الجنوب ، كان لواء سيلا قد شق طريقه فى ساعة مبكرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، عبر الحطام المتراكم من العربات — التى احترقت من جراء الغارات الجوية الاسرائيلية — فى ممر متلا ، عندئذ وجد سيلا ان لا سبيل لمزيد من التقدم ، فالمواقع المصرية الحصينة العــديدة بين الممر والقناة تحول دون ذلك ، وكانت تدعم هذه المواقــع مدرعات مصرية كثيرة العدد ، فقام يوفى بسحب فرقة سيلا حتى حافة الممر ، لأخذ قسط من الراحة حتى يحل الظلام ، واندفعت دبابات سيلا عندئذ شرق الممر فى اتجاه المواقع الدفاعية بمصابيحها المضاءة ومدافعها التى تطلق النيران .

اثار هذا التكتيك اعصاب المصريين ، رغم استمرار المقاومة المستميتة فى العديد من النقاط الدفاعية ، ورغم ذلك وصلت فى الســاعة الثانية من

صباح التاسع من يونيه ، طلائع لواء سيلا الى الشلوفة فى مواجهـة قناة السويس ، بعد ان اكتسحت واستولت على قاعدة صواريخ كاملة لم تمس، بها تسعة صواريخ سام/٢ روسية الصنع .

عندما حل المساء ، تجمع لواء شادنى ، بعد ان استعاد قوته ، بعد عناء تجارب الأيام الماضية المنهكة والمثيرة للأعصاب ، كما تحرك غربا عبر ممر متلا والجدى ، ووصلت احدى كتائب شادنى قبيل الفجر ، عند الطرف الجنوبى من البحيرات المرة الصغرى ، فى حين وصلت الكتائب الأخرى فى محازاة القناة جنوبا .

تحركت سرية من لواء سيلا فى اتجاه الجنوب الغربى من ممر متلا ، فوصلت بعد منتصف الليل بقليل الى راس سدر على خليج الســويس ، وسرعان ما تم اسقاط وحدة مظلات على ارضها بعــد دخول دبابات سيلا المدينة ، تقدمت آنذاك القوات المشتركة جنوبا على امتداد الطريق شرق خليج السويس ، بينما اتجهت وحدة المظلات التى غادرت الطور الى شرم الشيخ شمالا . وعند ظهر يوم التاســع من يونيو التحقت قوات ســيلا بقوات المظلات فى ابو زنيمة ، وفى ذلك الوقت كانت — شبه جزيرة سيناء باسرها — فيما عدا منطقة المستنقعات الواقعة شرقى بور فؤاد — تحت السيطرة الاسرائيلية .

فى الساعة ٩ر٣٥ مساء يوم الخميس فى نيويورك — والساعة ٤ر٣٥ صباح الجمعة ، حسب التوقيت المصرى ، من التاسع من نوفمبر ابلغ مندوب مصر لدى الأمم المتحدة يوثانت سكرتير عام الأمم المتحدة ، بأن مصر وافقت دون قيد او شرط على وقف اطلاق النار الذى كان مجلس الأمن قد اقره من ٢٤ ساعة تقريبا ، وبذلك انتهت حملة سيناء الثانية .

يمكن القول : بأن مجموع الخسائر المصرية — فيما يزيد قليــلا عن اربعة أيام من القتال العنيف — يعد امرا غير معروف ، رغم ما اعلن رسميا عن الخسائر المصرية من فقد ١٠ر٠٠٠ جندى و ١ر٥٠٠ ضابط ، ولعــل نصف هذا العدد قد قتل او اصيب اثناء المعارك ، فى حين لقى البــاقون حتفهم من جراء العطش والاعياء فى الصحراء ، على ارجح تقدير ، كما اسر الاسرائيليون ٥ر٠٠٠ جندى و ٥٠٠ ضابط وكان نصفهم تقريبــا مصــابا بجراح ، وكان المصريون قد خلفوا وراءهم فى ســيناء حوالى ٧٠٠ دبابة ، تم تدمير ٦٠٠ منها ، وتم الاستيلاء على مائة دبابة لم تمس بسوء وفى حالة جيدة . علاوة على ذلك ، كان هنالك ٤٠٠ مدفع روسى الصنع و ٥٠ مدفعا ذاتى الدفع و ٣٠ مدفعا عيار ١٥٥ مم ، وحوالى ١٠ر٠٠٠ عربة ، ومركبات اخرى تم تدميرها او الاستيلاء عليها فى حالة جيدة ، لم تصب بتلف ، وفى ٢٣ نوفمبر ، أكد الرئيس عبد الناصر ، عند الاعلان عن الخسائر المصرية فقدان ٨٠٪ من العتاد الحربى المصرى الذى خصص لخوض معركة سيناء .

وبلغت خسائر اسرائيل على هذه الجبهة حوالى ٣٠٠ قتيل ، واكثر من ١ر٠٠٠ جريح ، وتدمير ٦١ دبابة .

(٩)

المواجهة بين اسرائيل والاردن

الضـــفة الغربيــة :

مع نهاية حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ ، كان الفيلق العربى لشرق الاردن يحتل ما يربو على ثلث الأراضى الفلسطينية بكل تأكيد ، ومن ثم كان الملك عبد الله ملك شرق الأردن الوحيد من بين الأطراف العربية فى هذه الحرب، هو الذى حقق أهدافه على نحو جوهرى ، وقد اسـهم ضـم المزيد من الأراضى والسكان والموارد وما حققه من مكانة فى ان أصبح بوسعه تغيير اسم دولته ، فأصبحت المملكة الأردنية الهاشمية ، وسرعان ما اطلق على المنطقة التى احتلها الملك عبد الله اسم « الضفة الغربية للأردن » حيث تقع غرب نهر الأردن .

وتضم منطقة الضفة الغربية المقاطعتين القديمتين لفلسطين : السامرة ويهودا ، وكانت السلسلة الجبلية شرقى فلسطين الممتدة شمالا من جنين فى السامرة حتى الخليل فى يهودا جنوبا ، تخضع لسيطرة الأردن ، ويشق هذه الهضبة الأردنية شرقا ممر القدس الذى تسيطر عليه اسرائيل ، ويربط ما بين مدينة القدس الجديدة ، ويبلغ تعداد سـكانها من اليهـود قرابة ١٠٠,٠٠٠ يهودى اسرائيلى ، بالسهل الساحلى وسط اسرائيل ، وتشرف على ممر القدس من الشمال ، وتؤمن الجانب الجنوبى لمرتفعات السامرة الأردنية قرية اللطرون ، التى دافع عنها الفيلق العربى فى حرب ١٩٤٨ فى استبسال وبنجاح من هجمات اسرائيلية لا تقل بسـالة ، لكى يحالفها النجاح ، وفى الشمال من اللطرون تمتد مرتفعات السـامرة حتى الحافة الشرقية للسهل الساحلى ، الذى لا يبعد عن البحر بأكثر من ٢٠ كيلو مترا، واهم مدن هذه المرتفعات هى نابلس فى منتصفها ، وجنين فى الشـمال ، وطولكرم فى الغرب ، ورام الله فى الجنوب .

وتعد المرتفعات الجنوبية او يهودا فى الضفة الغربية للأردن اصغر مساحة الى حد ما ، واقل فى عدد سكانها من المنطقة الشمالية ، وتقع مدينة الخليل الرئيسية فى أعلى التلال فى سلسلة جبال يهودا ، وثمة مدينة هامة اخرى فى هذه المنطقة هى مدينـة بيت لحم ، التى تعـد فى واقع الأمـر ضاحية للقدس .

ويربط بين هاتين الهضبتين الجزء الشرقى من مدينة القدس المقسمة،

وتقع فى الجزء الأوسط من تلال يهودا على ارتفاع حوالى ٢,٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، و ٣,٠٠٠ قدم عن وادى الأردن والبحر الميت شرقا ، ويحيط بالقدس عدد من قمم تلال يهودا العالية ، وسلسلة الجبال الممتدة شـمال المدينة ، بين القدس ورام الله ، وتعد بمثابة مفتاح السيطرة على هضبة يهودا بأسرها ، وتسيطر هذه السلسلة من الجبال على كافة الطرق المؤدية الى القدس من اريحا فى وادى الأردن الى الشرق ، ومن السهل الساحلى الى الغرب ، بما فى ذلك الطريق الرئيسى للاسرائيليين تل أبيب — القدس .

الاستعدادات الأردنية :

فى عام ١٩٦٧ كانت معظم قوات الجيش الأردنى المرابطة فى منطقـة الضفة الغربية ، متمركزة فى قطاعين دفاعيين : المنطقةالشمالية فى السامرة ، ومقرها مدينتى جنين ونابلس ، ومنطقـة يهـودا ومركزها تلال يهـودا الممتدة جنوبا من رام الله عبر القدس حتى الخليل . وكانت القوات فى كلا القطاعين تنتشر فى المقدمة على طول الحافة الشرقية للسـهل الساحلى المتاخمة للقطاع الأوسط الضيق لاسرائيل .

كان هناك لواءان اردنيان يرابطان شرق الأردن : احدهما لواء مشاة فى منطقة عمان ، والآخر فى الشمال فى مواجهة بيت شين ، وكانت خمسة من الوية المشاة الستة الأخرى ، تشكل الأساس لمـا يشبه الخط الدفاعى لمنطقة الضفة الغربية ، وتحيط ثلاثة منها بالسامرة الأردنية ، فى حين يقوم لواء آخر على حماية خط سلسلة جبال يهودا جنوب بيت لحم ، حيث تتخذ قوته الرئيسية من الخليل مركزا لها ، ويتركز ما يعادل لواءين فى القـدس وما حولها .

وكان اللواء السابع والعشرون (لواء الملك طلال) بقيادة العميـد عطا على ، يقوم على حماية المدينة القديمة ، والمناطق المجاورة لها مباشرة، وكان فى الشمال تشكيلات من لواء المشاة الهاشـمى الذى كان يتخـذ من رام الله مقرا لقيادته ، وفى الجنوب كانت هنالك كتيبة من لواء المشاة حطين (ومقر قيادته بالخليل) تمتد شمالا من بيت لحم حتى تل ادومين شرق القدس القديمة مباشرة ، وكانت ثمة كتيبة دبابات احتياطى بالقـرب من سلسلة الجبال الواقعة شرق المدينة ، وكان اللواء السادس مشاة (لواء القادسية) ينتشر فى الوادى ، غرب الأردن بالقرب من اريحا .

وكانت قوات الأردن الضاربة المتحـركة الوحيدة ، اللواء الأربعـون واللواء الستون ، ترابط ايضا فى وادى الأردن ، شرقى تلال يهودا ، وكانت قوات اللواء الأربعون ، ومعها كتيبـة بالقرب من نابلس ، تمركز غربى

جسر داميـــا ، فى حين كان اللواء الســتون ومعـه فصـائل ترابط شرق القدس مباشرة ، يرابط فى اريحا وما حولها ، وكان تحت قيادة العميد الشريف بن شاكر ، ابن عم الملك وكان متخرجا من كلية الأركان العامة وقيادة الجيش الأمريكية . وفى شمال شرق الأردن ، وعلى مقربة من المفرق وعند بداية الحرب كانت ترابط فرقة مدرعات عراقية .

كان كل لواء من الألوية الأردنية مزودا بما يقرب من كتيبة مدفعية ميدان خفيفة من مدافع الميدان البريطانية عيار ٢٥ رطلا او المدافع الأمريكية عيار ١٠٥ مم ، وكانت ثمة بطاريتان من مدافع (توم الطويل) عيار ١٥٥ مم، فى السامرة ، وكان بوسع أحداها فى الموقع شرق تل ابيب ، الوصول الى العاصمة الاسرائيلية ، اما الأخرى فى الشمال من جنين ، فكانت على مرمى من المطار الاسرائيلى الرئيسى فى شمال اسرائيل ، رامات ديفيد .

وكان يتولى القيادة العليا الشاملة للقوات المسلحة الأردنية الملك الشاب حسين ، الحفيد المقدام للملك عبد الله . وكان المشير حابس المجالى (بطل معركة اللطرون عام ١٩٤٨) بمثابة القائد العـام اسميا للقوات الأردنية ، غير ان اللواء الشريف ناصر بن جميل ، خال الملك ، ونائب القائد الأعلى ، كان يمارس السلطة الفعلية . وكان الفريق الشاب عامر خماش، رئيسا للأركان ومسئولا عن الخطط والاستعداد وتوجيه العمليات فى الجيش، وكان احد المحاربين القدماء فى الفيلق العربى القـديم ومتخرجا من كليـة الأركان والقيادة بفورت ليفنورث(١) ، أما قيادة العمليات فى الضفة الغربية فقد كانت من نصيب اللواء محمد احمد سالم .

رغم ذلك ، فقد اضيف لهذه السلسلة من القيادة ذات القدر المعقول من الكفاءة ، عنصرا جديدا . هـو اللواء المصرى رياض قائدا للعمليـات المشتركة فى الجبهة الأردنية وفقا لمعاهدة الدفاع المشترك التى ابرمت مؤخرا بين مصر والاردن ، وكان قد وصل الى عمان قبل نشوب الحرب بأيام قلائل، ولم يكن يعرف سوى القليل عن الجيش الأردنى ، ولم يكن على دراية مطلقا بطبيعة منطقة القطاع الذى كان يتعين عليه قيادته ، وليس لديه فسحة من الوقت لدراسة تفاصيل الموقف العسكرى على الجبهة ، وكان اللواء رياض قد ابدى قبل الحرب وبعدها كفاءة عسكرية عالية ، ولم تتح له الفرصـة ممارسة هذه الكفاءة على الجبهة الأردنية فى عام ١٩٦٧ على الاطلاق .

يعد الجيش الأردنى وريث الفيلق العربى القديم لشرق الأردن الذى قام بتشكيله فيما بين الحربين العالميتين الجنرال البريطانى سير جون جلوب ليكون بمثابة الأداة العسكرية للأمير عبد الله الذى أصبح فيما بعـد ملكا للأردن ، وقد ابلى الفيلق بقيادة جلوب بلاء حسنا فى حرب ١٩٤٨ ، وكان بمثابة القوة العربية الوحيدة التى حاربت بفاعلية حقا ضد الاسرائيليين .

فى عام ١٩٥٦ تعرض الملك حسـين لضـغوط شـديدة من حلفـائه

للتخلص من الجنرال جلوب ، الذى كان الكثيرون من العرب يعتبرونه رمزا واداة للاستعمار البغيض(٢) ، ولكن رغم ابعاد جلوب عن الجيش الأردنى، فان تأثيره — وكذا التقاليد العسكرية البريطانية — ظل باقيا : فكان الجيش يحتفظ بالعادات العسكرية البريطانية ، والزى العسكرى البريطانى ، وقدر كبير من الكفاءة البريطانية ، غير ان الأردن ، التى تعانى من اقتصاد ضعيف من جراء ضآلة مواردها ، رغم مساعدات بريطانيا والولايات المتحدة مؤخرا، عجزت عن مجاراة تحديث الأسلحة فى اسرائيل وجاراتها من الدول العربية الأخرى ، وظل الأمر مرهونا بما اذا كان بوسع الأردن بتقاليده ونظامه ، قتال الاسرائيليين على قدم المســاواة بما لديه من جيش كبير العدد قليـل العتاد .

بلغ عدد الجيش الأردنى فى عام ١٩٦٧ ما يقرب من ٥٥ر٠٠٠ جندى تحت السلاح ، بعناصر قتالية تتشكل من ثمانية الوية مشـــاة ، ولواءين مدرعات واربع او خمس كتائب مشاة ، ومدرعات منفصلة . وناهيك عن مدافع (توم الطويل) القليلة ، فقد كانت القوات المدرعة مزودة بدبابات باتون الأمريكية وسنتوريون البريطانية ، وكانت بمثابة العنصر الحديث الوحيد بحق فى حوزة الجيش الأردنى .

الاستعدادات والخطط الاسرائيلية :

كان البريجادير جنرال اوزى ناركيس قائد المنطقـة الوسطى ، يتولى قيادة قوات متحركة تشكلت من ستة الوية تقوم بمهمة دفاعية تماما ، وكان اكبر هذه الألوية — ويتكون من ثمانى كتائب مشاة — لواء اتسيونى بقيادة الكولونيل اليعيزرى اميتاى ، كما كان يتكون من جنود احتياطيين اساسا من مدينة القدس الجديدة ، وبالقرب من اللد كان يرابط لواء احتياطى مشاة بقيادة الكولونيل موشى يوتفات ، وفى اقصى الشمال ، وبالقرب من ناتنيا ، كان ثمة لواء احتياطى آخر ، بقيادة الكولونيل زيف شيهم ، وكان هنـاك فى شمال السامرة لواءان مشاة ملحق بهما مدرعات ، فى وادى جزريل والمنطقة المجاورة لبيت شين .

كان ثمة تشكيلات تابعة للبريجادير جنرال ديفيد العازار قائد المنطقة الشمالية فى مواجهة الحدود الشمالية للضفة الغربية لنهر الأردن ، وكانت قوات العازار التى فى حالة التعبئة العامة ، تتكون من سبعة الوية لمواجهة ثلاث جبهات معادية : الحدود اللبنانية فى الشمال ، والحدود السورية فى الشرق ، والحدود الأردنية فى الجنوب الشرقى ، وكان احد هـذه الألوية — ويرابط بالقرب من الناصرة — منتشرا فى مواجهة الأردن ، وكانت فرقة مدرعات تضم لواءين مدرعات ، بقيادة البريجادير جنرال الادبيليد ، ترابط فى الشمال والغرب ما بين صفد والناصرة ، وعلى استعداد للانتشار ضد اى من الأردن او سوريا حسب ما يتطلبه الموقف .

وكانت خطة الحرب الاسرائيلية هى الاحتفاظ بخط دفاعى تماما فى مواجهة الجبهتين الأردنية والسورية ، نظرا لانشغال القدر الأكبر من قواتهم فى المعركة الفاصلة ضد المصريين فى شبه جزيرة سيناء ، وعندما تولى الجنرال ديان وزارة الدفاع ، قبيل نشوب الحرب بفترة وجيزة ، اكد على اهمية الاحتفاظ بالموقف الدفاعى ، لتفادى اندلاع حرب متعددة الجبهات .

عند صدور الأوامر النهائية بتوجيه ضربة وقائية ضد مصر فى الرابع من يونيو ، اصدرت هيئة الأركان الاسرائيلية العامة تعليماتها الى الجنرال ناركيس بالاحتفاظ بموقف دفاعى فى المقام الأول . وكان الاسرائيليون يأملون — مثلما حدث فى عام ١٩٥٦ — فى أن يتمكن الملك حسين العاهل الأردنى من التزام جانب الحياد ، وتم ابلاغ ناركيس عن توقع بعض القتال على جبهته ، حيث كان من المعتقد ان حسين لا يسعه تفادى بعض المناوشات ، وكان على القوات الاسرائيلية فى المنطقة الوسطى الاحجام عن الرد على نيران المدفعية أو الأسلحة الخفيفة المتقطعة ، مالم تشر طبيعة وكثافة النيران اشتراك الأردن على نطاق واسع فى العمليات الحربية . فى الساعة ٨ر٣٠ صباح الخامس من يونيو ، بعثت الحكومة الاسرائيلية بمذكرة الى الملك حسين عن طريق الجنرال اود بول ، القائد النرويجى للجنة رقابة الهدنة التابعة للأمم المتحدة ، ومقر قيادته فى القدس ، ابلغت فيها العاهل الأردنى ان اسرائيل لن تهاجم الضفة الغربية ما لم تبدأ الأردن بذلك ، واعلن الجنرال اود بول ان الملك حسين تسلم الرسالة قبل الساعة ١٠ر٣٠ من صباح ذلك اليوم ، واكد الملك انه لم يتسلمها الا بعد الساعة ١١ر٠٠ ، حيث كانت العمليات الحربية قد بدات على نطاق واسع آنذاك على قدم وساق(٢) .

رغم ذلك ، ادركت هيئة الأركان الاسرائيلية ان الأردن ربما دخلت الحرب الى جانب مصر وسوريا ، وازداد هذا الاحتمال الى حد ما عندما انضم الملك حسين الى التحالف العربى على اثر زيارته المفاجئة للقاهرة فى ٣٠ مايو ، ولكن على الرغم من قدوم اللواء المصرى رياض ، وارسال ثلاث كتائب كوماندوز مصرية الى الجبهة الأردنية ، لم يكن الاسرائيليون على يقين من هجوم الأردن .

ورغم ذلك ، واذا ما شن الأردن هجوما ، فان ناركيس كان كفيلا بأن يحتوى الهجوم التكتيكى فى منطقة القدس بأسرع ما يمكن ، ووضع رهن اشارته لواءان اضافيان : لواء هاريل الآليات ، من احتياطى مقر القيادة العامة ، بقيادة كولونيل يورى بن آرى ، وجزء من لواء مظلات كولونيل موردخاى جور ، الذى كان من ناحية اخرى مخصصا للقيام بانزال جوى ضد العريش أو شرم الشيخ أو كليهما ، وكان يتعين على ناركيس فى مواقع أخرى من جبهته الطويلة الالتزام الدقيق بالموقف الدفاعى ، وكان بوسعه الاعتماد على قيادة المنطقة لشمالية فى شغل الأردنيين فى السامة فى الشمال .

تصاعد حدة التوتر :

فى الساعة ٨ر٥٠ من صباح الاثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، تلقى الملك حسين رسالة لاسلكية من القاهرة مؤداها ان اسرائيل قامت بشن هجوم على مصر ، بعدئذ بعشر دقائق تلقى اللواء المصرى رياض رسالة بالرموز الشفرية من المشير عامر فى القاهرة ، مؤداها ان مصر شلت ٧٥٪ من حركة الطائرات الاسرائيلية المغيرة ، وانه قد تم احتواء الهجوم البرى الاسرائيلى فى سيناء بنجاح ، واصدر عامر الأوامر الى رياض بفتح جبهة ثانية ضد اسرائيل على الحدود الأردنية فى السامرة ويهودا .

سارع رياض بالاتصال فورا باللواء شريف ناصر ، نائب القائد العام للقوات الأردنية ، والفريق عامر خماش ، رئيس الأركان الأردنى ، واتصل اللواءات الثلاثة بالملك حسين بعد الساعة التاسعة بوقت قصير ، ولم ترد اية تفاصيل لما دار فى المؤتمر ، غير ان الدلائل المتاحة تشير الى أن الملك حسين امر — فيما يبدو — باطلاق نيران المدفعية على المواقع الاسرائيلية على نطاق محدود ، لاظهار تضامن الأردن مع مصر ، كان من الواضح رغم ذلك ، انه فى الوقت الذى أبدى فيه الملك حسين موافقته على خطط شن هجوم جوى على اسرائيل ، قد امر بعدم تنفيذ اية عمليات جوية أو برية دون صدور اوامر اخرى(٤) .

فى غضون الساعتين التاليتين ، قصفت البطاريتان الأردنيتان بالمدافع طويلة المدى عيار ١٥٥ مم من طراز (توم الطويل) الأمريكية الصنع ، المنشآت العسكرية الاسرائيلية بالقرب من تل ابيب ووادى الجرزيل شمال غرب جنين بصورة متقطعة . وبدات وحدات من كتائب الكوماندوز المصرية التى كانت قد وصلت مؤخرا — بناء على اوامر اللواء رياض على ما يبدو — بتشجيع وموافقة من السلطات العسكرية الأردنية أو دونهما ، فى التسلل داخل الأراضى الاسرائيلية غرب رام .الله وفى اتجاه مطار اللد كان ثمة نيران الأسلحة الصغيرة ومدافع المورتار المتقطعة على امتداد خط وقف اطلاق النار فى القدس ، وكانت معظمها من المدنيين العرب المسلحين وليست من جانب قوات الفيلق العربى ما يبدو .

كان الاسرائيليون يتوقعون اطلاق نيران المدفعية الأردنية ، حيث ان بوسع الملك حسين من خلال ذلك اظهار تضامنه مع القضية العربية دون المخاطرة بخوض حرب شاملة ، ولكن اذا كان حسين لم يقرر بعد خوض غمار الحرب فانه ارتكب خطأ جسيما عندما لم يصدر أوامر صارمة بتحديد الأهداف التى تبغى مدافعه طويلة المدى قصفها داخل اسرائيل .

فى الساعة ١٠ر٠٠ صباحا قصفت مدافع عيار ١٥٥ مم مطار رامات ديفيد فى وادى جزريل ، بعدة قذائف موجهة بشكل دقيق ، فأصابت المنشآت ببعض الأضرار ، والأكثر من ذلك ، تعطيل الممرات من خلال الحفر الناجمة

عن انفجار القذائف . وتكمن اهمية رامات ديفيد الذى يعد بمثابة اكبر قاعدة للسلاح الجوى الاسرائيلى شمال تل ابيب ، فى خطط الدفاع الاسرائيلى على الجبهة السورية ، وكانت امكانية احتمال تعطيله لعدة ساعات نتيجة نيران المدفعية الأردنية يشكل تهديدا خطيرا لقدرة اسرائيل العسكرية فى الشمال، حيث كانت استراتيجية الدفاع بوحدات صغيرة من القوات فى الجليل الاعلى، تتوقف على مدى توفر الدعم الجوى .

قـرار الحـرب :

لم يصدر أى اعلان رسمى على الملأ عما دعا اسرائيل لخوض حرب ضد الأردن صباح ذلك اليوم ، وتشير الأنباء التى نشرتها الصحف آنذاك، والتقارير التى نشرت فيما بعد ان القرار الاسرائيلى بشن هجوم على الأردن، لم يتخذ الا بعد شن هجوم اردنى فى القدس والسامرة ، ولكن ، لا يرتاب المرء كثيرا على ما يبدو فى ان الهجوم الأردنى الوحيد حتى ذلك الحين ـ والذى قدم للاسرائيليين بكل تأكيد ذريعة مناسبة لتبرير الحرب اذا ما كانوا يسعون اليه ـ يتمثل فى اطلاق نيران المدفعيـة طويلة المدى على منطقتى تل ابيب ورامات ديفيد .

اما بداية العمليات البرية الواسعة النطاق فتمت ـ فيما يبدو ـ بناء على قرار اسرائيلى ، نجم عن تهديد نيران مدفعية المدافع الأردنية لقدرتهم على القيام بعمليات جوية فعالة على الجبهة السورية .

من ناحية اخرى ، اوضـح الملك حسين باسهاب فى كتابه(٥) : ان الأردن كانت وقتئذ مشتركة فى الحرب تماما ، وصرح بجـلاء بان اوامر العمليات الهجومية الأردنية فى الضفة الغربية ، كانت قد صدرت فى ذلك الوقت من اللواء رياض بموافقة الملك التامة فى وقت مبكر كالساعة التاسعة او التاسعة والنصف . واشار الى ان نيران المدفعية التى اصابت حينذاك مشارف تل ابيب وانحاء اخرى من اسرائيل كانت بمثابة اولى مظاهر تنفيذ هذه الأوامر ، غير أن العمليات الجوية والبرية الأردنيـة ـ التى كان من الواضح انها معدة تماما ـ لم تبدأ فى الواقع الا بعد السـاعة ١١ر٠٠ من صباح ذلك اليوم .

وخلاصة القول ، ان هذا التأخير يدعو للدهشة ، ولكن لابد للمرء من تقييم التصريحات التى ادلى بها حسين فى فترة ما بعد الحرب ضمن اطـار السـياق السياسى للشرق الأوسط لعامى ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ ـ عند تأليف الكتاب ونشره ، فقد كان فى صالحه اضفاء اهمية قصوى وتأكيد مدى التزامه التام ازاء القضية العربية ، ومع ذلك ورغم الدليـل القاطع على التردد الأردنى فى الساعات الأولى من صباح الخامس من يونيه ، بدا الملك صادقا فى التزامه الشخصى بالوعد الذى قطعه على نفسه لحلفائه العرب .

رغم ان هيئة الأركان الاسرائيلية العامة لم تكن تتوقع اتخـاذ قرار الحرب ضد الأردن على هذا النحو المبكر ـ اى قبل الساعة ١١ر٠٠ صباحا، حيث نشب القتال فى الساعة ١١ر١٥ صباحا ـ فان تخطيطها الدقيق لم يغفل هذا الاحتمال ، فصدرت الأوامر الى الجنرال ناركيس بتنفيذ العمليات الهجومية المقررة فى منطقة القدس والسامرة غرب ، وتيقن من انضـمام لواء هاريل لقيادته ، واصبح قرار انضمام لواء مظلات الكولونيل جور الى قيادته ، على وشك الصدور ، وتم اعفاء ناركيس من مسئولية تنفيذ عمليات شمال السامرة ، وعهد بها الى الجنرال الازار ، قائد المنطقة الشمالية .

الملاحظـــات

(١) بعد الحرب ، وجهت انتقادات شديدة للواء ناصر واللواء خماش باعتبارهما بمثابة المسئولين عن عدم اسـتعداد الجيش ، ويبدو أن الملك حسين اتفق مع الجيش فى استيائه من اللواء ناصر ، ومن ثم فقد اعفاه من القيادة ، وعهد بمسئولية القيادة الشاملة للواء خماش ، الذى كان يحتفظ رغم ذلك بمنصب رئيس الأركان . وهكذا اعرب الملك عن اعتقاده بأن اللواء خماش لا يعد مسئولا بصفة شخصية عما حل من كارثة ، كما اوضح الملك هذا الأمر ايضا فى روايته عن الحرب : « حربى مع اسرائيل ، نيويورك ١٩٦٩ » .

(٢) لمزيد من التمعن فى هذه الواقعة ، انظر انتونى ناتنج ، « درس لا نهاية له » ، صفحة ٢٨ وما بعدها .

(٣) اود بول مرجع سبق ذكره صفحة ١١٣ ، حسين مرجع سبق ذكره صفحة ٦٤ .

(٤) يكتنف الغموض رواية الملك حسين لهذه الأحداث (مرجع سبق ذكره صفحة ٦٠ ـ ٧٥) : ففى حين يؤكد كتابه تصميمه الحازم على احترام تحالفه الجديد مع مصر ، يشير تأخره كثيرا فى تنفيذ العمليات الجوية واية عمليات برية باستثناء اطلاق نيران المدفعية الى ان حسين لم يكن فى الواقع قد قرر بعد الاشتراك الشامل فى الحرب .

(٥) حسين مرجع سبق ذكره صفحة ٦٠ وما بعدها .

(١٠)

معركة القدس

اليوم الأول

ساحة القتال :

ظلت مدينة القدس العتيقة لأكثر من ثمانية عشر عاما تخترقها تحصينات خط الدفاع الأول للجيشين المتحاربين ، ساد معظم هذه الفترة وقف اطلاق النار سارى المفعول ، مع ترقب كل من الطرفين للطرف الآخر فى حذر خلف المتاريس ، ومن خلال ثغرات جدران الحصون وعبر شراك الأسلاك الشائكة ، ولكن لم تكن هنالك معاهدة سلام ، كما لم يكن ثمة تخفيف حقيقى لحدة التوتر او البغضاء .

وكانت فرقة المدينة تتمركز عند الواجهة الغربية مدينة القدس القديمة السميكة منذ القرون الوسطى وقد علاها الغبار ، كان الفيلق العربى الأردنى يسيطر على المدينة العتيقة التاريخية ، بما تعكسه من اماكن مقدسة للديانات الثلاث وعلى الضواحى الشرقية التى يغلب فيها السكان العرب ، من المدينة ، وتقع القدس الجديدة فى الغرب ، وهى مدينة حديثة مفعمة بالحركة ، شيدت فيما كان يشكل المشارف الغربية للمدينة القديمة وما حولها ، ويبلغ تعداد سكان المنطقة الحضرية التى تسيطر عليها الأردن حوالى ٨٠ر٠٠٠ نسمة ، اكثريتهم من العرب ، ويزيد تعداد سكان القدس الجديدة على ١٠٠ر٠٠٠ نسمة غالبيتهم من اليهود ، وقد اعتاد سكان الجانبين على الاقامة فى جو يسوده التوتر الدائم ، حتى اولئك الذين يقطنون منازل او وحدات سكنية متاخمة لخطوط النار ، يتوجهون الى اعمالهم اليومية دون ان يشغل تفكيرهم مظهر الرشاشات والمدافع ومدافع البازوكا المجاورة التى تقع عليها انظارهم.

وتقع مدينة القدس اليهودية الجديدة عند طرف قطاع المرتفعات الاسرائيلى الضيق التى يحدها خط وقف اطلاق النار وخطوط هدنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ، ومن ثم ، فان المدينة نفسها كانت محوطة بالمواقع العسكرية الأردنية من جهات ثلاث ، تلك المواقع التى استمدت ميزتها من مرتفعات تلال يهودا من شمال وشرق وجنوب المدينة المقسمة .

وتشرف المواقع الحصينة على التلال والجبال على جانبى ممر القدس ، الذى يربط هذا القطاع المكشوف من المرتفعات بالسهل الساحلى فى اسرائيل، وكان الخطر الرئيسى الذى يتهدد الممر رغم ذلك يكمن فى الجانب الشمالى ،

فقد كان بوسع الفيلق العربى الأردنى خلال حرب ١٩٤٨ الاستيلاء على المرتفعات من هذا الجانب ، الذى يشرف على الطريق الذى يعتبر من الناحية الجغرافية بمثابة الطريق الرئيسى المؤدى الى القدس من الغرب ، ويرتكز هذا الخط من المواقع الأردنية من الغرب على قرية اللطرون الحصينة ، التى اصبحت بدورها الموقع الدفاعى الجنوبى الغربى لمرتفعات السامرة فى الضفة الغربية .

ساهمت منطقتان محاصرتان من جراء « تجميد » خطوط وقف اطلاق النار فى ١٩٤٨ ، فى تعقيد المشاكل العسكرية التى تواجه القادة الاسرائيليين والعرب فى منطقة القدس ، وكانت احدى هاتين المنطقتين هى جبل الكرمل الاسرائيلى ، الموقع الأصلى للجامعة العبرية ومستشفى هاداسا . وكانت هذه المنطقة محاصرة تماما فى عام ١٩٤٧ ، ولكن تم الدفاع عنها بنجاح من الهجمات العربية فى عام ١٩٤٨ ، ويعتبر جبل الكرمل من الناحية الجغرافية بمثابة مرتفع يشرف على وسط تلال يهودا الممتدة شمالا وجنوبا شرق المدينة القديمة ، وكان ١٢٠ من رجال الشرطة الاسرائيليين يسيطرون — وفقا لنصوص الهدنة — على هذه المنطقة المنزوعة السلاح عمليا ، وكان العمل يتم بالتناوب فيما بينهم كل اسبوعين ، وكان يسمح بمرور مركبة اسرائيلية واحدة جيئة وذهابا كل اسبوعين ، تحت اشراف الأمم المتحدة ، وذلك حتى يتسنى تنفيذ عملية التناوب ونقل الامدادات للعدد الضئيل من المستوطنين الاسرائيليين المقيمين فى المنطقة ، وكانت الأسلحة والذخيرة التى يمكن للاسرائيليين ان يزودوا بها هذه القوة شبه العسكرية والمحدودة من جنود الشرطة ، مقتصرة نظريا على كمية تعد معقولة للأمن المحلى .

اما المنطقة الأخرى فكانت تلك التى تحيط بمبنى الحكومة ، المقر السابق للمندوب السامى البريطانى فى فلسطين ايام الانتداب ، والذى استولى عليه الأمير برنادوت عندما اصبح وسيطا للأمم المتحدة ، واتخذت منه لجنة رقابة الهدنة التابعة للأمم المتحدة مقرا لقيادتها عقب الحرب واتفاقية الهدنة ، ويقع فى منطقة منزوعة السلاح جنوب المدينة القديمة ، على نتوء يمتد شرقا فى وادى الأردن من سلسلة الجبال التى تربط القدس ببيت لحم .

المواقع الاسرائيلية :

كان هناك لواءان تحت امرة الجنرال ناركيس فى ذلك الوقت للقيام بعمليات فى القدس ، وممر القدس وما حولهما ، وكان يتولى قيادة احدهما وهو لواء اتسيونى الكولونيل اليعيزر امينتاى ، ويتشكل من فرقة صغيرة ، وسبع كتائب مشاة وكتيبة دبابات الى جانب وحدات مدفعية وتدعيم اخرى ، ولكن قواته من الاحتياطى ، لم تكن تعتبر مدربة التدريب الجيد مثل بعض وحدات الاحتياطى الأخرى ، فى مواجهة اللطرون ، وكان لواء المشاة الآخر بقيادة الكولونيل موشى بوتفات ، وتقع عليه مسئولية حماية مدخل ممر الأردن، وكان جزء منه يتكون من وحدات الجيش النظامى والجزء الآخر من وحدات

احتياطية وكان ثمة لواء ثالث بقيادة الكولونيل زيف شيهيم ، يدافع عن الحدود الغربية لمرتفعات السامرة فى الأردن والتى تشكل خطرا ، كما كان يتولى مهمة دفاعية اساسية فى الجنوب الممتد من طولكرم حتى اللد : تتمثل فى حماية مطار اللد وتل ابيب والطريق الساحلى والمستوطنات ، ولم يكن من المتيسر بالنسبة له القيام بعمليات فى القدس .

وكان ان تولت قيادة المنطقة الشمالية فى ذلك الوقت قيادة لوائى ناركيس فى الشمال ، فى مواجهة مرتفعات السامرة من الشمال ، حتى يتسنى لناركيس التركيز على الدفاع عن القدس وحماية تل ابيب .

عند الظهيرة ، كان لواء هاريل — المكون من الجيش النظامى ، والمرابط جنوب شرق تل ابيب ، وفى الغرب مباشرة من ممر القدس — فى طريقه متجها الى القدس ، فى حين كان لواء مظلات الكولونيل جور ، فى قاعدته جنوب ريموفوت ، يعد لهجوم جوى على العريش ، بالاشتراك مع فرقة طال ، غير ان جور تلقى اوامر بأن يخصص جزءا من وحدته على الأقل لقيادة المنطقة الوســطى .

وكان يتعين على ناركيس بحث ثلاثة اهتمامات دفاعية رئيسية قبل التفكير فى القيام بأية عمليات هجومية ، وكانت اولى هذه الاهتمامات تتمثل فى مدى تعرض منطقة جبل الكرمل للهجوم ، حيث تحيط بها الأراضى الأردنية تماما ، وثانيها احتمال قيام الأردنيين بتحرك دون سابق انذار ، لتطويق وعزل القدس الاسرائيلية الجديدة ، عن طريق استخدام لواءين من المشاة وبعض وحدات لواء المدرعات المرابطة فى المنطقة المجاورة لها مباشرة . اما الاهتمام الثالث ويسهل على الاسرائيليين توقعه نظرا لمـــا يستلزم من تحركات مسبقة للقوات الأردنية ، فيتمثل فى احتمال القيام بمحاولة لشطر اسرائيل لنصفين من خلال اختراقها حتى الشاطىء فى منطقة ناتانيا ، حيث تبلغ مساحة اسرائيل عرضا حوالى ١٥ كيلو مترا فقط .

المواقع الأردنيـــة :

كان اللواء السابع والعشرون مشاة (لواء الملك طلال) من الفيلق العربى بقيادة العميد عطا على ، هو المسئول اساسا عن الدفاع عن مدينة القدس القديمة وما حولها ، وكانت وحدات من الألوية الثلاثة الأخـــرى ، لا تخضع لقيادة عطا على ، تقوم بتعزيز لواء الملك طلال ، وكانت هناك كتيبة فى الشمال من اللواء الهاشمى (المرابط فى رام الله وما حولها) . وعبر وادى كيدرونى من المدينة القديمة ، كانت ثمة كتيبة من اللواء الستين مدرعات . (وكانت بقية قوات اللواء الستين مدرعات ترابط فى اريحا وما حولها) ، كما كانت هنالك كتيبة مشاة اخرى ترابط فى المرتفعات الممتدة من القدس الى بيت لحم ، فى قرية صور باهر جنوب منطقة مبنى الحكومة مبـــاشرة ، وتشرف على الطريق سلسلة الجبال الرئيسى الذى يربط المرتفعات الشمالية بالجنوبية فى الضفة الغربية . وكانت هذه الكتيبة تشكل جزءا من لواء حطين

(ومقره الخليل) ، وكان ان تم وضعها تحت القيادة المباشرة للعميد عطا على بعد نشوب القتال — وليس قبل ذلك — وكان فشل الأردن فى تشكيل قيادة متكاملة لهذه القوات العديدة فى منطقة القدس بمثابة خطأ جسيم . وكان لواء الملك طلال يتالف من ثلاث كتائب مشاة ، وفوج مدفعية وسرية من سلاح المهندســين الميدانى ، وكان النصف الشمالى من منطقة القدس — من بوابة دمشق فى شمال المدينة القديمة حتى تل الذخيرة — يعد بمثابة اقوى المواقع الأردنية فى التحصينات الدفاعية فى تلك المنطقة ، وكانت تتولى حماية وحدات عطا على التى يمكن الاعتماد عليها اكثر من غيرها من وحدات الكتيبة الثانية للملك حسين . اما المدينة القديمة نفسها ، فكانت تتولى مهمة الدفاع عنها كتيبة من الاحتياطى تم تجنيد افرادها من الضفة الغربية ، ذات مواقع امامية غرب بوابة دمشق جنوب بوابة صهيون ، وكان ثمة سرية تتولى حماية قرية ابو طور الواقعة مابين المدينة القديمة ومبنى الحكومة ، وكانت هناك كتيبة اخرى تحتل قريتى النبى يعقوب والنبى صمويل ، شمال القدس الجديدة .

وفى المنطقة المجاورة لمركز قيادة عطا على فى كوم العلمى كان هناك ما يقرب من سريتين احتياطى، كما كانت ثمة كتيبة مزودة بـــ ١٨ مدفعا ميدانيا بريطانيا عيار ٢٥ رطلا ، ترابط فى موقع شمال شرق جبل الزيتون ، وعلاوة على ذلك كان يوجد مدفعا مورتار عيار ١٢٠ ملم داخل المدينة القديمة ، وبعض المدافع عديمة الارتداد المضادة للدبابات عيار ١٠٦ ملم وتحملها مركبات جيب مع كتائب المشاة ، كما كان لدى عطا على بطارية مدافع مضادة للطائرات خفيفة عيار ٤٠ ملم ، ولم يكن فى حوزة عطا على اية دبابات تحت قيادته ، ولا اسلحة مضادة للدبابات اثقل من المدافع عديمة الارتداد عيار ١٠٦ ملم .

وكان مجموع عدد قوات عطا على نحو ٥ر٠٠٠ جندى ، علاوة على ذلك ، كانت تساعده قوات ميليشيا فلسطينية ضئيلة العدد من القدس الشرقية لا يبلغ عددها ١ر٠٠٠ جندى ، وكانت تحت قيادة العقيد فؤاد طحبوب ، وهو فلسطينى عمل كقائد سرية فى جيش التحرير العربى التابع للقاوقجى ، كما كان ضابطا فى الجيش السورى حتى قيام الوحدة بين سوريا ومصر .

وكان يتولى مهمة تعزيز دفاع حامية القدس من الشمال والشرق والجنوب قوات ربما وصل عددها الى ٥ر٠٠٠ جندى ، مزودين بنحو ٤٠ دبابة ، ولكن لم تكن ثمة اجراءات للتنسيق بين هذه القوات وقوات عطا على .

بـــدء المعارك :

فى الساعة ٨ر٣٠ تقريبا من صباح الخامس من يونيو ، انطلقت نيران متقطعة من الأسلحة الصغيرة على امتداد المنطقة المحيطة بالقدس ، غير انه لم يدم طويلا ، وقبيل الساعة ١١ر١٥ صباحا ، اصر الأردنيون على عدم اطلاق نيران الأسلحة الثقيلة فى منطقة القدس نفسها ، ورغـــم ذلك ، اكد الاسرائيليون ان سلسلة طلقات رشاشات متكررة انطلقت من المواقع الأردنية،

بالاضافة الى طلقات المورتار ونيران المدفعية بين حين وآخر من المدينة القديمة وجبل الزيتـون(١) .

واتفق الجميع على انه كان بوسع المرء عن بعد سماع نيران المدفعية من حين لآخر ، التى كانت ربما تصدر من مدافع (توم الطويل) عيار ١٥٥ ملم الأردنية شمال اللطرون ، على نحو متقطع فى اتجاه تل ابيب .

فى الساعة ١٥ر١١ استمر اطلاق النيران طويلا لأول مرة فى ضاحية القدس ، عندما انصبت فجاة نيران الأسلحة الصغيرة والمدفعية الاسرائيلية على المواقع الأردنية ، وسرعان مارد عليها الاردنيون ، الذين كانوا فى حالة تاهب توقعا لنشوب القتال ، وابلغ العميد عطا على مقر القيادة العليا عن بدء القتال ،وفى الساعة ٣٠ر١١ تلقى اوامر بوضع خطته المعدة بعناية لمواجهة الطوارىء ، موضع التنفيذ للدفاع عن المدينة .

عقب الظهر بفترة وجيزة اصدر اللواء سالم من مقر قيادة الضفة الغربية اوامر الى عطا على باحتلال مقر الأمم المتحدة بمبنى الحكومة ، مستعينا فى ذلك بقوات الكتيبة المجاورة من لواء حطين الذى كان تحت امرته لهذا الغرض، وكان عطا على يدرك ان احتلال اسرائيل لموقع مبنى الحكومة القوى ، من شأنه ان يشكل خطرا على مؤخرته من اليسار وعلى اتصالاته مع اريحا ، ولذا قد اعد عدته لتنفيذ هذه العملية ، ولم يكن امامه سوى انتظار صدور اوامر تخول له سلطة التحرك ، وسرعان ما امر كتيبة حطين بالاستيلاء على المبنى ، واعداد منطقة منزوعة السلاح للدفاع . وتحركت القوات فى الساعة ٣٠ر١ تقريبا(١)، فما كان من الجنرال اودبول ومساعديه فى لجنة رقابة الهدنة التابعة للامم المتحدة سوى الاحتجاج ، غير انهم لم يبدر منهم اى اعتراض على ما يقوم به الأردنيون وصعد ضباط الأمم المتحدة الى الأدوار العليا من المبنى بينما احتل الأردنيون الادوار السفلى .

الخطط الاسرائيلية :

عندما تلقى الجنرال ناركيس الاوامر ببدء القتال فى منطقة القدس قبيل الساعة ٠٠ر١١ بوقت قصير ، سارع بتنفيذ خطته المفصلة والمعدة بدقة للقيام بعملية ضد مدينة القدس القديمة ، وعدل من الخطط بحيث تتكيف وعدد القوات المتاحة له : ففى الوقت الذى كان فيه نصف لواء الكولونيل اميتاى اتسيونى يسيطر على القطاعين الشمالى والشرقى من القدس الجديدة ، كان النصف الآخر من اللواء يستولى على منطقة ابو طور جنوب المدينة القديمة، لقطع الاتصال بين بيت لحم والقدس ، وتشكيل خطورة تهدد خط الاتصال من القـدس الى اريحـا .

وكان يتعين على لواء هاريل بقيادة الكولونيل بن آرى ، الاستيلاء على خط سلسلة الجبال الرئيسى شمال القدس ، فى المنطقة ما بين هـذه المدينة ورام الله ، ثم الاستيلاء على المرتفعات الممتدة شمالا وشرقا ، وذلك للحيلولة

دون وصول اية تعزيزات من اى من رام الله او اريحـا ، اما المجهود الرئيسى فى خطة الهجوم الاسرائيلى على القدس الاردنية ، فكان يقع على عاتق لواء مظلات الكولونيل جور الذى كان يتعين عليه تطويق المدينـة من الشمـال .

العمليات عند مبنى الحكومة :

ادخل ناركيس اول تعديل على خطته عندما تلقى انباء بعد الساعة ٣٠ر١ من بعد ظهر ذلك اليوم ، تفيد ان الأردنيين استولوا على مبنى الحكومة، فاصدر اوامره الى اميتاى بطرد الاردنيين من ذلك الموقع ، ومهاجمة صور باهر ايضا ، وفى الواقع ، لو قدر النجاح لهذا الهجوم المضاد ، فان مواقف الاسرائيليين جنوب المدينة سيطراعليها التحسن حيث ان سلسلة الجبال المسيطرة التى يقع عليها مبنى الحكومة تمتد شرقا حتى تشرف على طريق اريحـا .

هاجم اميتاى قبل الساعة ٠٠ر٣ من بعد ظهر ذلك اليوم مبنى الحكومة وصور باهر ، بما يقرب من اربع كتائب انتشرت فى مواجهة الكتائب الأردنية التى تدافع عن هذين الموقعين ، وكانت اقل قوة واقل تنسيقا من الـكتائب الاسرائيلية ، كانت كتيبة دبابات لواء اتسيونى تشكل راس حربة للهجوم ، تتقدمها ١٢ دبابة فى اتجاه موقع صور باهر ، و ١٢ دبابة فى اتجاه مبنى الحكومة ، وبعد مقاومة لم تدم طويلا وجدت سرية حطين المرابطة فى صور باهر نفسها محوطة بالمشاة الاسرائيليين ، فما كان منها الا ان عادت ادراجها جنوبا فى اتجاه بيت لحـم .

رغم ذلك ، واجه الاسرائيليون متاعب اكثر فى التعامل مع بقية كتيبة حطين فى مبنى الحكومة ، حيث صدت الكتيبة اول هجوم ، مما اسفر عن تدمير دبابتين ، واصابة ست دبابات على نحو افقدها العمل ، ولكن عند تبادل اطلاق النيران ، تم تدمير المدافع الأردنية الثلاثة عديمة الارتداد . وفى غضون نصف الساعة تحركت الدبابات التى قامت بالهجوم على صور باهر شمالا لتشكل خطرا يتهدد الجانب الشرقى من مبنى الحكومة ، وعادت الدبابات الاربع الباقية هجومها من الغرب، فتسنى لها عندئذ القيام بحركة كماشة حول الموقع الأردنى ، وتحت وطأة النيران الثقيلة ، تراجعت القوات الأمامية الى الوحدات السكنية الرئيسية لمبنى الحكومة ومعها الجرحى .

قرر قائد الكتيبة ، بعدما وجد نفسه محاصرا من قوات المشاة والدبابات الاسرائيلية المشتركة ــ فى الساعة ٣٠ر٤ تقريبا ــ اخلاء الموقع ، رغم الأوامر اللاسلكية التى صدرت اليه من عطا على بالصمود مهما كلفه الأمر ... وتراجع الأردنيون فى بطء ، حاملين معهم الجرحى ، فى اتجاه الشمال الشرقى، فى عملية انسحاب فى نظام تام ، وكانت معركة دفع الاردنيون ثمنها باهظا ، فقد فقـد فيها ما يقرب من ١٠٠ جندى ما بين قتيل وجريح ومفقود ، من مجموع عدد افراد الكتيبة ويبلغ حوالى ٥٠٠ جندى .

محنـة عطا على :

فى نفس الوقت ، تحرك لواء هاريل التابع للكولونيل بن آرى داخل المر بالقرب من ابو غوش وموتزاع ، واخذ فى الانتشار لشن هجوم على سلسلة الجبال التى لا تحظى بدفاعات منيعة شمال المر وشمال غرب المدينة ، ثم تحركت دبابات هاريل فى الساعة الخامسة من بعد الظهر فى اتجاه الشمال فى اربعة طوابير نحو بدو والنبى صمويل ، وكانت مواقع الشيخ عبد العزيز وتل الرادار وبيت اكسا ، تمثل الأهداف المباشرة لعملية الهجوم ووجدت القوات الاسرائيلية هذه المواقع اما خالية او بها نفر قليل ، وتقدمت طوابير بن ارى بشات شمالا ثم فى اتجاه الشرق مستعينة فى ذلك بسلاح المهندسين التابع لناركيس وقامت فى وقت مبكر من بعد ظهر ذلك اليوم بالقيام بعمليات تطهير الألغـــام .

خلال فترة الظهيرة ، وبعد تدمير القوات الجوية الاردنية ، قامت الطائرات الاسرائيلية بشن غارات متكررة على المواقع الاردنية فى منطقة القدس ، وكانت الطائرات الاسرائيلية تركز اهتمامها فى المقام الاول على الوحدات الرئيسية للواء عطا على ، التى تسنى لها على مرات متتالية تقديم القليل من الدعم للقوات المقاتلة فى مبنى الحكومة وصورباهر ، وفى الساعة ٦ر٠٠ مساء تعطلت كافة الخطوط التليفونية من القدس الى الاردن نتيجة عمليات القصف الاسرائيلى ، وفى الساعة ٧ر٣٠ تعطل جهاز ارسال رام الله اللاسلكى ، اعقبه فى الحال توقف جهاز اتصال عطا على بالقدس ، وقد كان بوسع عطا على الاحتفاظ باتصال لاسلكى ميدانى مع اللواء الستين مدرعات بالقرب من اريحا ، غير ان جهوده الرامية لاجراء اتصال لاسلكى مع مركز قيادة الضفة الغربية باءت بالفشل ، ولكن وفى ساعة متاخرة من مساء ذلك اليوم — تم استئناف هذه الاتصالات ، وعلم عطا على ان مقر قيادة الضفة الغربية ، انتقل عقب الغروب عبر الاردن ، بعد ان تم قصف مركز قيادته بالقرب من اريحـــا .

خلال فترة ما بعد الظهر ، وقبيل تعطيل اجهزة الاتصال ، كان اللواء سالم قد وعد عطا على بارسال تعزيزات اليه من اربعة الوية ، بما فيها اللواء الستين مدرعات ، وفى الساعة ٨ر٠٠ مساء ، وبعد ان فشلت محاولات عطا على فى الاتصال بمقر قيادة الضفة الغربية ، تم ابلاغ عطا على عن طريق جهاز لاسلكى اللواء الستين ان طابور نجدة يضم كتيبة دبابات من اللـــواء الستين مدرعات وكتيبة مشاة من لواء القادسية فى طريقه اليه قادما من اريحـــا .

فى الساعة التاسعة مساء تقريبا ، كان بوســـع المـــدافعين الاردنيين مشاهدة النيران من بعد فى اقصى الشرق ، اعقبها مشهد قنابل تسقط خلف جبل الزيتون ومن ورائه ، فقد كانت الطائرات الاسرائيلية — حسب ماتوقع عطا على — تقوم بقصف طابور النجدة القادم من اريحا وســـاد الهدوء من

جديد فى الساعة ١١ر٠٠ مساء منطقة الشرق ، واتصل مقر قيادة اللواء الستين فور ذلك ، بعطا على ، وابلغه نبأ تدمير طابور النجدة . عندئذ طالب العقيد — الذى كان يعلم بنبأ وصول التعزيزات الاسرائيلية لواء جور — فى المدينة الجديدة — بتدعيم من لواء مشاة حطين المرابط فى منطقة الخليل ، كذلك طالب بانضمام اللواء المرابط فى رام الله او ببعض تشكيلاته بدلا من الحاق الهزيمة الساحقة بالوحدتين ، وبعد برهة ، اجاب اللواء الستون بأن لواءى رام الله والخليل استعدا لشن هجوم ، ولا يسعهما التحرك .

فى نفس الوقت تقريبا ، عاود مقر قيادة الضفة الغربية الاتصال ، وابلغ اللواء سالم عطا على ان لواء القادســية مشــاة ، المتمركز فى ذلك الوقت فى اريحا ، يستعد لنجدته ، وكان لابد لهذه القوات من ان تسلك الطريق الجبلى بالمركبات فى الساعات القليلة القادمة ، وكان على القوات ان تترجل عند القمة ، وتواصل سيرها على الاقدام عبر التلال ، تفـــاديا لطائرات الاعتراض الاسرائيلية ، وكان بوسع عطا على توقع وصولها مع الساعات الأولى من الصباح ، وفى عمان وافق اللواء خماش على هذه الخطة .

الملاحظـــــات

(١) ثمة اختلاف واضح ومتناقض فى رواية ما حدث فى القدس قبيل الساعة ١١ر١٥ من صباح الخامس من يونيو ، فيما يتعلق بما ذكره ابراهام رابينوفيتش فى معركة القدس (نيويورك ١٩٧٢) ، وبالنســـبة لمـــا اعاد روايته من احداث للمؤلف العميد عطا على فى اجتماعات عديدة تمت بينهما فى عام ١٩٧٥ ، وكان ان توصلت — بعد مزيد من المناقشات والمراسلات مع مستر رابينوفيتش — الى ان العميــد عطا على خانته الذاكــرة فى بعض النواحى ، غير انه لم تقع اية استفزازات ذات اهمية من الجانب الأردنى فى القدس قبيل الساعة ١١ر١٥ ، اما جنرال اودبول ، الذى كان فى القدس فى ذلك الحين ، فقد بدا متحفظا على نحــو غير متوقع فى هذا الصـــدد . واستبعد موضوع نشوب القتال برمته فى جملة واحدة « كان املنا كبير فى عدم نشوب قتال فى القدس » غير ان فى الساعة ١١ر٢٥ فتح الاردنيون نيران مدافعهم (مرجع سبق ذكره صفحة ١١٣) .

(٢) اودبول ، مرجع سبق ذكره صفحة ١١٤

(١١)

معركة القـدس

ذروة الأحـداث

الهجـوم الاسرائيلى :

كان لواء المظلات التابع للكولونيل جور ، فى محميته بالقرب من ريموفوت ، على اهبة الاستعداد لاحتمال اشتراكه فى عمليات القدس من الساعة ١١ر٠٠ من صباح يوم الاثنين الخامس من يونيه ، وكان جور قد تلقى اوامر فى بادىء الأمر ، بارسال كتيبة الى القدس فى حوالى الساعة ٢ر٠٠ مساء ، ثم صدرت اليه الاوامر فيما بعد بارسال كتيبتين ، ثم عهد فى نهاية الأمر الى اللواء كله للقيام بهذه المهمة .

قام الكولونيل جور ، وكان على دراية بصعوبة المهمة الموكلة اليه ، عن طريق اختراق تحصينات المنطقة المكتظة ، بدراسة لطبيعة المنطقة والتحصينات وانتشار قوات العدو ، وذلك كجزء من اعداد خطط الطوارىء قبل الحرب ، ولكن لم يكن قادة وحداته على دراية تامة بالموقف فى القدس، ومن ثم فقد سارع باصطحابهم معه فى سيارة جيب للقيام بمهمة استطلاعية، وكان على الكتائب التابعة لهم السير فى ركابهم فى مركبات ، وعند الغروب وصلت الكتائب الى بيت حاكريم ، حيث تم تزويدها بموجب التعليمات قبل تقدمها الى المدينة .

كان جور يأمل فى الهجوم عند منتصف الليل تقريبا ، ولكن لم يتسن له ذلك نظرا لمشاكل ناجمة عن جهل بالمنطقة ، ناهيك عن طبيعة المناطق المخصصة للتقدم ، فقد كان جور يدرك ان الامر لن يخلو من تكبد خسائر جسيمة ، ومن ثم ، برزت الحاجة الى نظام اخلاء اشمل مما يسع لموارده الطبية الضئيلة ان توفره . وحتى يتسنى له تدبير هذه الأمور ، عمد الى تغيير ساعة الصفر الى الساعة ٢ر٠٠ من صباح الثلاثاء . وكانت هيئة الأركان العامة ترغب فى تأجيل موعد الهجوم حتى الساعة ٨ر٠٠ من صباح ذلك اليوم ، حتى يواكبه غارات جوية وقصف بالمدفعية ، غير ان المظليين كانوا على استعداد ، وابلغ ناركيس هيئة الأركان ان الأهداف قريبة جدا من القدس لشن غارات جوية عليها ، وتمت الموافقة على توقيت الساعة ٢ر٠٠ صباحا .

بعد الساعة ١١ر٠٠ صباح الخامس من يونية بوقت قصير ، بدات مدافع المورتار والمدفعية الاسرائيلية فى قصف المواقع الأردنية شمال القدس الجديدة والمنطقة الواقعة ما بين القدس وجبل الكرمل ، وكان الاهتمام موجها بصفة خاصة للمنطقة القريبة من مدرسة الشرطة وتل الذخيرة ، وكانت الأضواء الكشافة تسلط اشعتها على هدف تلو الآخر ، بغية تسهيل مهمة تجمعات المدفعية والمورتار .

تجاوزت الساعة منتصف الليل تماما عندما لاحظ احد المراقبين الأردنيين ان الأضواء الكشافة الاسرائيلية تقع على مواقع خالية من المنطقة، وتركز عليها لعدة دقائق فى كل مرة ، وسرعان ما أدرك ان الهدف من وراء ذلك هو تحديد اماكن يحومون حولها لانزال قوات بالهليكوبتر . وفى خلال ١٥ دقيقة كان سكان وادى الجوز يبلغون عن هبوط عدد قليل من المظليين على المنحدر المواجه لقريتهم ، وذلك فى محاولة للالتفاف حول المواقع الأمامية على امتداد طريق نابلس ومبنى وكالة الغوث والتشغيل التابعة للأمم المتحدة وتل الذخيرة ، وكان قد تم انزال ٤٠ مظليا على الأقل وراء الحدود الأردنية فى اربع عمليات انزال منفصلة .

اصدر عطا على اوامره بمغادرة فصيلة لتل الذخيرة والتوجه عبر المنطقة المشجرة فى الاتجاه الشمالى الغربى للمقابر البريطانية على جبل الكرمل لاعتراض سبيل المظليين المتقدمين . كما تم ارسال جماعة من المدنيين الذين يعملون دون تنسيق تام مع الكتيبة الثانية (المرابطة فى الجانب الشمالى المعرض للهجوم) ، الى وادى الجوز لاطلاق النيران على جناح المظليين ، وسرعان ما اتخذ المظليون مواقعهم فى منطقة لا تبعد كثيرا عن مستشفى القديس يوسف .

فى الساعة ٢ر٢٠ صباحا ، تحركت القوة الرئيسية لمظلات كولونيل جور عبر المنطقة منزوعة السلاح فى المنطقة الواقعة بين بوابة مندلبوم ومدرسة الشرطة ، والمؤدية الى منطقة تعرف باسم « الأمريكان كولونى » ، واصطفت كتيبتان تابعتان لجور فى طابورين من السرايا عقب اعداد قوى للمدفعية ، اتجهت أحداهما صوب مدرسة الشرطة وتل الذخيرة ، فى حين اتجهت الأخرى عبر الشيخ جراح والامريكان كولونى نحو متحف روكفلر ، ودار قتال عنيف فى الخنادق ، والتحصينات الأسمنتية المسلحة والمبانى الحصينة ، تكبد الطرفان خسائر فادحة ، وتم تدمير عدد من الدبابات الاسرائيلية التابعة لكتيبة الدبابات الملحقة بلواء جور .

قبل فجر السادس من يونية ، اجهزت الطائرات الاسرائيلية على مواقع المدفعية الأردنية الباقية شمال المدينة . وقام طابور من سبع دبابات اسرائيلية بتدمير آخر مراكز المقاومة الأردنية على طريق نابلس ، وكان محطة غاز ، اندفع بعدها الى الطريق المؤدى الى بوابة دمشق ، وفتح النيران على المواقع الأردنية على امتداد اسوار المدينة القديمة ، رد الجنود

العرب من مواقعهم على النيران بصورة مكثفة ، فانسحبت الدبابات لتلحق بالمظليين وتشاركهم هجومهم الرئيسى فى المنطقة الواقعة بمحازاة متحف روكفلر ، رغم ذلك ، وفيما بين الساعة السابعة والثامنة ، تم تطهير معظم منطقة الامريكان كولونى ، كما تم استئناف الاتصال مع منطقة جبل الكرمل، وكان المظليون عند اسفل الوادى الذى تشرف عليه مرتفعات اوغستا فيكتوريا .

فى نفس الوقت كانت مدرعات بن آرى تقاتل عناصر من اللواء الهاشمى فى سلسلة الجبال الواقعة شمال المدينة . وقد واجه طابور المدرعات ، عقب الاستيلاء على الشيخ عبد العزيز وتل الرادار ، مقاومة عنيفة فى موقع بدو الحصين ، غير انه تم تدميره فى الساعة ٠٠ر٤ صباحا ، وواصلت طلائع لواء هاريل تقدمها للاستيلاء على النبى صمويل دون عناء يذكر .

وفى الساعة ٠٠ر٦ كان اللواء يتجمع على سلسلة الجبال ، على امتداد طريق القدس ، رام الله ، واشتبكت داوريات بن آرى ، عقب ذلك بوقت قصير مع قوات مزودة بما يقرب من ٣٠ دبابة باتون شرق الطريق مباشرة وشمال تل الغول — وهو تل يقع شمال القدس ، ويسيطر على المرتفعات المجاورة — وكانت هذه القوات تشكل فيما يبدو كتيبة اللواء الستين مدرعات ، التى عهد اليها فى الواقع بالدفاع عن منطقة القدس ، ومع قدوم الفجر ، نشبت معركة دبابات ضارية بالقرب من ملتقى طريق بيت حنة ، الذى انسحب منه الاردنيون بعد نصف ساعة تقريبا من القتال الذى اسفر عن فقدهم ست دبابات .

عندئذ تقدمت دبابات بن آرى على تل الغول ، هنالك — ايضا — كانت الدفاعات الاردنية ضئيلة ، وتم الاستيلاء على التل دون مقاومة عنيفة ، واستدار بعد ذلك لواء هاريل جنوبا لمواصلة تقدمه عبر الوادى ، غير ان المدافعين عن تل شعفاط اعترضوا سبيله ، وكانوا يشكلون جانبا من قوات لواء عطا على .

بعد الفجر مباشرة ، استدعى عطا على الحاكم المدنى لمدينة القدس، ليبلغه نبأ اختراق الجانب الشمالى من المدينة ، وكان الاسرائيليون عندئذ فى مواجهة بوابة دمشق ، وواصلوا تقدمهم وسط حى الظاهرة التجارى ، ويشكلون خطرا بالنسبة لشارع صلاح الدين ، الذى يعد بمثابة آخر الشوارع المؤدية الى المدينة القديمة التى كانت لاتزال تحت سيطرة الايدى الاردنية ، كان العلم الاسرائيلى آنذاك يرفرف فوق الشيخ جراح ، وتم الاستيلاء على الاحياء المجاورة ، وكان الرائد منصور قريشان ، قائد الكتيبة الثانية ، قد ابلغ انه بالاضافة الى سرية مستقلة بذاتها كانت تدافع عن نفسها فى صمود فى تل شعفاط ، لم يبق تحت امرته سوى ٦٩ جنديا ، وبناء على ذلك قام العميد بسحب مركز قيادته الى المدينة القديمة تفاديا للوقوع فى عزلة .

اقام عطا على مركز قيادته الجديد فى الجزء الاسفل من الدير الارمنى على طريق فياد ولوروزا ، وتمكن من استئناف الاتصال اللاسلكى مع مقر قيادة اللواء الستين فى العزيرية ، الذى ابلغه انه لم ترد اية أنباء عن طابور النجدة .

موقف باعث على الياس :

كان موقف عطا حرجا بعد تدمير كافة مواقع مدفعيته فيما عدا مدفعين من مدافع المورتار الثقيلة فى المدينة القديمة ، ولم يبق له من اللواء سوى ٥٠٠ جندى فى مدينة الوليد ، كما لم يبق له من مواقع خارج سور المدينة فى الايدى الاردنية سوى تل شعفاط (الذى عزله الاسرائيليون عن القدس) ، وموقع اوغستا فيكتوريا بين جبل الكرمل وجبل الزيتون ، وابو طور وراس العامود (وهو مركز شرطة مدعم عند المنحدر الجنوبى لجبل الزيتون) . وكان عطا على لايزال يعتقد انه بوسع المدينة القديمة، ومع توفر امدادات ضخمة من الذخيرة — الصمود ، غير ان تقدم دبابات بن آرى من بيت حنة كان يهدد بتطويق المدينة القديمة وسد طريق اريحا ، وكان يدرك ايضا ان طابورا منفصلا من لواء (يوتفات) مدرعات مشاة قد استولى على اللطرون .

فى الساعة ٠٠ر١٢ ، وعقب سلسلة من الهجمات الجوية التى لا سبيل الى مقاومتها ، تقدمت دبابات بن آرى من جديد الى السرية الاردنية المرابطة فى تل شعفاط (وكان قد تم تعزيزها فى الساعات الاولى من الصباح بقوات ظلت على قيد الحياة بعد معركتى وادى الجوز وتل الذخيرة) ، واستهدف الهجوم الاسرائيلى فى اول الامر الخنادق السفلية ، فردهم الاردنيون على اعقابهم ، وانسحب الاسرائيليون ، غير انه لم يمض وقت طويل ظهر ذلك اليوم ، حتى عاودوا هجومهم ، فسقط الموقع والتل فى ايديهم . عند هذا الحد ، صدرت تعليمات لبن آرى بأن تستريح قواته المنهكة وتعيد تنظيمها ، وتتزود بالوقود والذخيرة .

فى نفس الوقت تقريبا ، وفى الساعات الاولى من بعد الظهر ، هاجم لواء اميتاى اتسيونى المواقع العربية فى ابو طور ، وهى منطقة محصنة تقع على مرتفع جنوب اسوار المدينة القديمة ، وتشرف على محطة سكة حديد القدس ، وبعد قتال عنيف من منزل لمنزل ، استولى الاسرائيليون على الموقع وهبطوا الى وادى كيدرون ، وتوقف اللواء عندما تعرض لنيران مكثفة من القوات الاردنية من الشمال والشرق ، وتقرر عدم مواصلة التقدم حتى يحل الظلام ، حيث يستمر الزحف ، بالتنسيق مع حركة الحصار المزمع قيام جور بها شمال المدينة .

عند منتصف ظهر يوم السادس من يونية ، صبح الموقف فى القدس اكثر خطورة وحرجا ، وكان لايزال لدى عطا على كتيبتان سليمتان نسبيا ، احداهما فى المدينة القديمة ، والأخرى فى المرتفعات التى تليها مباشرة من جهة الشرق على تل اوغستا فيكتوريا وجبل الزيتون ، وكان الطريق الى اريحا لا يزال مفتوحا أمام الأردنيين ، رغم النيران الاسرائيلية المتواصلة ، وعدم صلاحيته للقيام بأية تحركات او امدادات جوهرية للقوات ، وكانت قوات مظلات جور قد اخترقت الى حد ما كتيبتى عطا على ، كما كانت وحدات بن آرى الميكانيكية شمال اوغستا فيكتوريا تشكل تهديدا الطريق اريحا .

ابلغ عطا على مقر قيادة الضفة الغربية بخطورة موقفه ، وتلقى عند منتصف فترة الظهيرة رسالة شخصية من الملك حسين يؤكد له فيها بذل جهود اضافية لنجدة القدس فى مساءذلك اليوم ، ورد عطا على على الرسالة بقوله : انه سيواصل الصمود ، ومع ذلك ، فقد ابلغ — رغم حقيقة وفرة ما لديه من ذخيرة — عن نفاد كافة انواع الامدادات الطبية ، وان الموقف فى مستشفى المدينة كان حرجا .

اللطرون ورام الله :

وفى منطقة اخرى من الغرب ، كان لواء الكولونيل موشى يوتفات يقاتل فى اللطرون ، وكانت قواته ، وتتقدمها الدبابات ، وقد واصلت تقدمها من منطقة قريبة من ريموفوت فى اتجاه اللطرون من بعد ظهر الخامس من يونيو . وكانت القوات الأردنية — من اللواء الهاشمى — قد سمحت لسرية الدبابات باختراق خط دفاعها الأمامى ، ثم اعاقت تقدم بقية اللواء مما ادى الى عزل الدبابات طوال ساعات الليل ، وقام الاسرائيليون فى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى بشن هجوم ، ووقع قتال مستميت ، وفى الساعة ١١ر١٥ كان الدير الضخم فى اللطرون فى الأيدى الاسرائيلية ، بينما شرعت قافلة من المركبات فى استخدام الطريق الرئيسى تل ابيب — القدس لاول مرة منذ ١٩ عاما ، وتقدمت وحدت المشاة شمالا ، وقبل المساء كانت المدرعات والمشاة فى طريقها الى بيت حورون ورام الله ، حيث كان من المنتظر ان تلحق بلواء هريل .

وكان لواء هريل ، عقب الاستيلاء على تل شعفاط ، قد اخذ قسطا من الراحة لبضع ساعات ، واعاد خلالها تنظيم قواته ، وتزود بالوقود والذخيرة ، واصطحب بن آرى ، بعد ذلك ، على اثر تلقيه تعليمات من قيادة المنطقة الوسطى فى حوالى الساعة ٥ر١٥ مساء كتيبتين واتجه شمالا نحو رام الله ، تاركا من ورائه كتيبة لتامين خط سلسلة الجبال شمال شرق القدس .

ورام الله مدينة يبلغ تعداد سكانها حوالى ٥٠ر٠٠٠ نسمة وتقع على ارتفاع ٨٧٠ مترا ، وعلى بعد حوالى ١٦ كيلو مترا شمال القدس ، ويمر طريق القدس نابلس الرئيسى ، بعد قمة سلسلة الجبال ، عبر المدينة .

وصل بن آرى ودباباته الى مشارف المدينة حوالى الساعة ٦ر٠٠ مساء قبل حلول الظلام مباشرة ، وقد صادف مقاومة ضئيلة ، فقرر التقدم بدباباته الى رام الله ، مستعينا بالمبدأ الاسرائيلى الرئيسى الخاص بحرب المدن ، الذى استخدمه موشى ديان فى حملته الناجحة عند اللد فى عام ١٩٤٨ . فاندلعت النيران من كافة الانحاء ، وتقدمت الدبابات الاسرائيلية داخل المدينة جيئة وذهابا عدة مرات بينما تحول الفسق الى ظلام ، وعلى الرغم من مواجهة القوات الاسرائيلية لبعض جيوب المقاومة المتفرقة ، بما فى ذلك تعرضها لنيران مدافع البازوكا ، فقد اكتنف المدينة السكون التام ، فى حوالى الساعة ٦ر٤٥ ، فيما عدا قعقعة الدبابات الاسرائيلية وبعض الطلقات بين الحين والآخر من مدافع الرشاشات الاسرائيلية .

رغم ذلك ، كان بن آرى يخشى على دباباته من التعرض لأى ضرر اذا ما ظلت طوال ساعات الليل فى المدينة ، ومن ثم قام بسحب قواته ، التى اقامت معسكرات وعسكرت فيها شمال وجنوب المدينة ، وقام بارسال وحدة استطلاع لتفقد الأحوال فى الاتجاه الجنوبى الشرقى على الطريق المؤدى الى اريحا .

الأردنيون يواصلون الصمود :

عند غروب السادس من يونية ، وبينما كان بن آرى يقصف رام الله، كان لواء جور يعاود هجومه على شمال المدينة القديمة ، وتحرك لواء المظلات والدبابات التابعة له من مراكز تجمعها بالقرب من متحف روكفلر ، وبدا فى شن هجوم على التل فى اتجاه أوغستا فيكتوريا ، وفى الوقت الذى كانت فيه سرية دبابات تقصف جانبى التل ، تقدمت سرية دبابات اخرى وسرية استطلاع وشكلتا رأس حربة لكتيبتين مظلات كانتا تحاولان شق طريق لهما عبر المرتفعات .

ساد بعض الاسرائيليين حالة من الفوضى ، من جراء الظلام ونيران المواقع الأردنية الكثيفة والمتفرقة على جانبى التل ، حتى انهم ضلوا الطريق، وتم تدمير دبابتين وسيارتين جيب ، وباءت محاولة الهجوم بالفشل وعجزت القوات الاسرائيلية عن التقدم ، وقبيل منتصف الليل قام جور باستدعاء قواته لاعادة تنظيمها والاعداد لشن هجوم جديد ، وكان هذا بمثابة اول وآخر نجاح واضح تحققه القوات الأردنية فى معركة القدس برمتها .

فى نفس الوقت — وحسب ما وعد به الملك حسين — كان ثمة لواء مشاة آخر يحاول شق طريق من اريحا للوصول الى القدس ، وعلى غرار ما حدث من قبل ، كانت الخطة تتمثل فى قطع منتصف الطريق فقط ، ثم مواصلة التقدم عبر الريف حتى جبل الزيتون ، وكان ان اعاقت الغارات الجوية الاسرائيلية موعد مغادرة اللواء لاريحا ، ومن ثم ، قرر قائد اللواء — بدافع من رغبته الشديدة فى التخفيف عن قواته التى تعرضت لضغوط شديدة تبعث على الشعور بالياس فى القدس — عدم اتبـاع التعليمـات الحذرة الصادرة اليه ، فعزم على صعود التل فى المركبات حتى وصل الى الطريق المسدود من جراء العربات الناجمة عن تدمير الطـابور الأردنى فى الليلة السابقة ، عند هذه النقطة ، قرر هذا القائد الهبوط بقواته ومواصلة السير على الأقدام بمحاذاة جبل الزيتون ، وقبيل منتصف الليل بوقت قصير ، وصلت طلائع اللواء الى هذه النقطة ، وبدات فى الهبوط ، وما ان تحركت حتى اكتشفتها الطائرات الاسرائيلية ، ومن ثم قصـفت المدفعيـة الاسرائيلية والغارات الجوية التى شنتها الطائرات الاسرائيلية الطابور كله على الطريق، نكف الطابور عن التحرك ، وتكبد خسائر فادحة .

رغم ذلك ، لم يكن هذا التطور للأحداث بالأمر المفـاجىء بالنسبة للأردنيين ، وسرعان ما تجمع المشاة الأردنيون ، رغم ما تكبدوه من خسائر، فى طوابير على بعد مائة متر من الطريق ، وواصـلوا تقدمهم سـيرا على الأقدام نحو القدس ، كانوا لايزالون على بعد أكثر من ثمانية كيلو مترات عندما ارغمهم شعاع الفجر على التستر ، تفاديا لا كتشـاف الطـائرات الاسرائيليين لمواقعهم .

عطـا على يسلم بالهزيمة :

سبق السيف العزل ، فلم يكن بوسع الطابور حينئذ تقديم اية مساعدة للقوات الأردنية فى المدينة القديمة ، فحقيقة الأمر ، انه عندما بلغ عطا على بعد منتصف الليل ، عن طريق جهاز اللاسلكى ان طابور النجدة تعثر على الطريق ، ادرك انه قد لا يتسنى له الوصول قبل مساء اليوم التالى ، كما ادرك وقتئذ انه وقواته القليلة الباقية فى القدس هالكون لا محالة ، ناهيك، عما بلغه من انباء عن انسحاب معظم وحدات الجيش الأردنى الى الشمال والجنوب من الضفة الغربية فى ذلك الوقت ، ومن ثم ، فما لم يتسن له ترك المدينة قبل فجر يوم السابع من يونية ، فان مصيره ومصير قواته القليلة الباقية لن يكون سوى الحصار .

كانت مهمة عطا على هى الدفاع عن واحد من اهم الاماكن فى بلاده ، واكثرها قداسة فى الاسلام . ولم يكن امامه سوى الخيار الصعب متمثلا فى محاولة الاستمرار فى الدفاع الامر الذى يدرك ان لا طائل من ورائه ، ولا يمكن

ان يدوم لأكثر من ٢٤ ساعة اخرى ، أو التخلى عن مهمة مقدسة تقريبا املا فى ان يظل وقواته القليلة الباقية احيـاء لخوض قتال يوم آخر ، وكان ان قرر « على مضض » ان الخيار الثانى لا معنى له سوى على الصـعيد العسكرى ، ومن ثم ، توجه الى الخطيب ، حاكم القدس ، ليبلغه قراره ، وحث الخطيب على الانسحاب معه الى اريحا ، غير ان الحاكم رفض، وعندئذ قام العميد بارسال بعض ضباطه من هيئة الأركان الى قيـادة الوحـدات المرابطين خلف الاسـوار ، وفى تحصينات تل أو غستا فيكتوريا ، يأمرهم فيها بالانسحاب فورا وقبيل الفجر بوقت قصير ، تمت عملية الجلاء بمهارة وكفاءة لم يكتشفها الاسرائيليون .

الهجوم الاسرائيلى الأخير :

امضى الكولونيل جور ومساعدوه الليل فى اعـداد الخطط لشن هجوم جديد ، ذلك الهجوم الذى قرر جـور تأجيله حتى فجر السابع من يونية ، حتى يتسنى تفادى هزيمة اخرى فى الممرات الضيقة المتعرجة ، وتحصينات تل اوغستا فيكتوريا ، فى نفس الوقت ، كانت قواته قد نالت قسـطا من الراحة ، كانت فى امس الحاجة اليه ، بعـد ان أعادت تنظيم صـفوفها وتزودت بالامدادات والذخيرة .

فى الساعات الاولى من الصباح استدعى جنرال ناركيس جور لابلاغه ان الوقت ينفد ، وانه من الضرورى التعجيل بشن الهجوم بأسرع ما يمكن ، حتى يتسنى له الاستيلاء على المدينة القديمة قبل قيام الأمم المتحدة بفرض قرار وقف اطـلاق النار ، واكـد جور لناركيس انه على وشك التحرك وعرفه بخطته : فقد كان يتعين على احـدى الكتائب التقدم فى اتجاه الشرق، ثم الجنوب الشرقى عن طريق جبل الكرمل ، لتطويق موقع أوغستا فيكتوريا ، كما يتعين على كتيبة أخرى اختراق الوادى ما بين اوغستا فيكتوريا وجبل الزيتون فى الشرق وسـور المدينة القديمة من الغرب . ومن شأن هاتين الكتيبتين ، ان تسد طريق أريحا القديم وتشرف عليه ، والحيلولة دون اى تدخل أردنى محتمل من الوادى ، بينما تتقدم كتيبة جـور الثالثة على امتداد سور المدينة من بوابة هيرود حتى بوابة القديس ستيفن ، حيث تقوم باختراق جبل الهيكل .

فى القدس ، بقى هنالك ما يزيد على مائة عربى مسلح ، غالبيتهم من المدنيين المتطوعين ، بالاضافة الى فئة قليلة من الجنود الهاربين الذين ضلوا طريقهم فى الظـلام ، وعند الفجر ، تجمع هؤلاء حـول بوابة دمشق وبوابة هيرود اساسا ، اجتمع عمدة المدينة ومجلسها مع الحاكم فى حوالى السـاعة السابعة صـباحا ، فى الوقت الـذى كان يقـوم فيه سرب من الطائرات الاسرائيلية باسـقاط متفجـرات ناسفة وقنابل نابالم على مواقع اوغستا

فيكتوريا ، التى اصبحت خـالية ، وفى نفس الـوقت ، كان المظليون الاسرائيليون — الذين كانوا يجهلون حتى ذلك الحين ان غالبية مواقع مقاومتهم قد تلاشت — يتقدمون من مواقعهم ، واندفعت الطائرات الاسرائيلية بقوة تقصف وتدمر مواقع المدفعية الأردنية خلف جبل الزيتـون ، الـذى كان استعاد فعاليته مرة أخرى ، من جراء توجيهات عطا على الشخصية .

فى اعقاب هـذه الغارة الجوية ، كانت المدفعية الاسرائيلية الثقيلة على اهبة الاستعداد ، ثم فجاة ، وقبيل الساعة السابعة صباحا ، اندفعت الدبابات والمدافع الاسرائيلية عديمة الارتداد فى هجوم عنيف ، وانطلقت النيران فى كل صـوب ، وتقدمت الدبابات والمظليون دون مقاومة تقريبا فى هجوم على شكل كماشة ، الأمـر الذى ادى الى اكتساح تل اوغستا فيكتوريا وجبل الزيتون والطرف الشمالى من وادى كيدرون ، اسفل اسوار المدينة . بينما اتخذت الكتيبتان مواقع عائقة على امتداد طريق اريحا وتشرف عليه ، واصل جـور تقدمه فى عربة نصـف جنزير ليلحق بالكتيبة الثالثة وكتيبة الدبابات ، اللتين كانتا تواصـلان تقدمهما فى الوادى من متحف روكفلر ، بمحاذاة السور ، واستمر الزحف حتى الجسر اسفل بوابة سان ستيفن ، وكانت نصف مفتوحة عندما شاهدها جـور . فى الساعة ٩ر٥٠ قاد جور جماعة من الجند المترجلين وتقدموا فى حذر عبر البوابة ، وسرعان ما اعقبتهم القوة الرئيسية للواء ، والتقى جـور داخل سـور المدينة بالحاكم والعمدة والمسئولين بالمدينة ، الذين ابلغوه بقرارهم بالعدول عن الدفاع عن المدينة .

فى الساعة ١٠ر١٥ انضم الجنرال ناركيس ، برفقة الحاخام الأكبر وجنرال بارليف ، الى جـور عند حائط المبكى ، حيث جرت المراسم احتفالا بتحرير هـذا الموقع المقدس من اسرائيل ، لم تستغرق الاحتفالات وقتا طويلا ، بيد انها كانت مؤثرة ، واصل جـور وجنوده احتـلال المدينة ، لم يعترضهم سـوى تدخل بعض القناصة من حين لآخـر ، وسرعان ما تم القضاء عليهم .

تأمين القدس والخليل ورام الله :

فى الوقت الذى كانت فيه قـوات المظلات التابعة للكولونيل جـور تقوم بشـن هجـومها الأخير على المرتفعات شرق المدينة القديمة ، وعلى المدينة القديمة ذاتها ، كان لواء الكولونيل اميتاى اتسيونى يواصل تقدمه من جبل صهيون على امتداد الطرف الجنوبى من اسوار المدينة القديمة ، حتى سلوان وبوابة دنج ، وقـد تسنى له اتمام ذلك دون مقاومة ، وفى الوقت نفسه تقريبا كان المظليون يدخلون الجانب الشرقى من القـدس ، عندئذ اتخذ اميتاى مركزا لقيادته فى منطقة رامـات راشيل ، فى انتظار صدور اوامر بشن هجـوم ما ، فى اتجـاه الجنـوب على بيت لحم والخليل ، ولم ينتظر طـويلا .

فى الساعة ٢ر٠٠ مساء ، تحرك لواء اتسيونى جنوبا ، ويتقدمه راس حربة من تشكيل مدرعات محدود ، لتدمير المواقع العربية فى مار الياس ، ومواصلة التقدم فى اتجاه بيت لحم .

وكان لواء حطين حينذاك قد جلا عن بيت لحم ، وانسحب من الخليل عند الظهيرة ، لـذا ، لم يواجه التقـدم الاسرائيلى نحـو الجنوب على امتداد سلسلة جبال يهودا ، سـوى طلقات نيران القناصة من حين لآخر ، واحتل اتسيونى الـذى كان يتقدم على نحو سريع من بيت لحم الى جبهة اتسيون والخليل قبيل حلول الظلام .

شمال القدس ، وفى صبيحة السابع من يونيو ، عادت كتيبتا الكولونيل بن آرى فى منطقة رام الله ، الى المدينة ، وسرعان ما لحقت بهـا كتيبة كولونيل بوتقات من اللطرون ، التى اتمت عمليات التطهير التى كانت مكلفة بها ، وعند الظهيرة ، كانت كتيبتا بن آرى من الدبابات تتقدمان شرقا خلف سرية استطلاع فى اتجاه اريحا ، تحركت الكتيبتان فى طابورين — على جانبى الطريق — فتصدت لهما مقاومة ضئيلة على امتداد الطريق ، وعندما وصلتا الى اريحا فى ساعة متاخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، كانت المدينة خاوية على عروشها ، فقد انسحبت كافة القوات الأردنية شرقا عبر جسرى اللنبى والملك عبد الله .

استولت احـدى الكتيبتين على نقطة الشرطة ، فى حين اخذت الأخرى تزرع المدينة جيئة وذهابا ، للقضـاء على المقاومـة المتفرقة ، ورغم ذلك استمرت طلقات نيران القناصة طـوال ساعات الليل .

فى نفس الوقت ، اكتشـفت كتيبة دبابات أردنية كانت تنسحب من مرتفعات الخليل عبر اريحا ان بن آرى يقطع عليها سبيل الرجعة ، فاضطر الأردنيون — عندما ادركوا انه ليس بوسعهم الوصـول بدباباتهم الى اريحا عبر الطرق الجبلية على تـلال يهـودا المؤدية الى البحـر الميت ووادى الأردن — الى التخلى عن دباباتهم ، والسـير على الأقدام حتى جسر عبد الله . واخـذ بن آرى يطاردهم ، ودفع ببعض الوحدات الى الضفة الشرقية لنهـر الأردن ، فما كان من الجنـرال ديان سـوى الاسراع فى استدعائهم ، حيث كان قد امـر بتدمير الجسرين بالقرب من اريحا .

بلغ مجموع الخسـائر الأردنية فى معارك منطقة القدس ورام الله والخليل نحو ١ر٠٠٠ مابين قتيل وجريح على أرجح تقدير ، امـا مجموع الخسائر الاسرائيلية فى المعارك الضارية التى احتدمت فى القدس وما حولها فقد زاد عن ٨٠٠ ، منهم ٢٠٠ قتيل تقريبا .

(١٢)

السامرة : معركتا جنين ونابلس

القطاع السامرى للأردن وانتشار القوات فيه

كان البروز السامرى/كمعظم الضفة الغربية للأردن/ جبليا فى غالبه ، باستثناء امتداد ضيق الأراضى الساحلية المنخفضة فى الغرب ووادى الأردن فى الشرق ، ومع ذلك لا تصل فحالة المنطقة الى مستوى يهودا فى الجنوب ، وكان فيها — ولا يزال — عدد من القرى العربية المبعثرة ، المدن الرئيسية الثلاث بها هى : نابلس ، رام الله وجنينه ، وعلى اية حال ، كانت رام الله ضمن القطاع الدفاعى لجيش الأردنى ، وبالتالى كان الدفاع عن القطاع السامرى يتناول اساسا جنينة ونابلس .

تقع جنين عند اقدام تلال « شومرون » وتتحكم فى مداخل وادى « جزريل » فى الأراضى الاسرائيلية الى الشمال مباشرة ، وفى الجنوب الغربى للمدينة يوجد وادى « دوتان » الذى ينفتح غربا على السهل الساحلى .

وتقع نابلس على بعد حوالى ٣٠ كم مباشرة جنوب « جنين » فى واد بين جبل « جرازين » وجبل ايبال ويربط بين نابلس وجنين طريقان : الشرقى منها يمر بطوباس ، « ووادى فرا » ، بينما يمر الطريق الغربى بسيلات الدهر « ودير شاره » .

وكانت القوات الأردنية فى القطاع السامرى تتكون من ثلاثة الوية مشاة ، واحد منها لواء مدرع معزز ، وكتيبتان للمشاة مستقلتان (واحدة منهما ميكانيكية ملحقة بالكتيبة ٤٠ المدرعة) ، بالاضافة الى كتيبتين مدرعتين مستقلتين ملحقة احداهما ايضا باللواء ٤٠ المدرع وكان اللواء ٢٥ مشاة بقيادة المقدم م.ا خاليدى يسيطر على جنين بكتيبتين كتيبة احتياطية بالقرب من طوباس وفى جنين كانت هناك ايضا كتيبة دبابات تعزز لواءه ، وملحق جزء منها بالكتيبة الاحتياطى . وكان لدى لواء الأميرة عالية — مشاة ومقر قيادته فى نابلس — كتيبتان منتشرتان على السهل الساحلى فى منطقة طولكرم — آزون ، بينما كان لدى لواءها هاشمى — ومقر قيادته رام الله كتيبة واحدة منتشرة فى مواجهة تل ابيب ، واخرى تسيطر على اللطرون والجناح الشمالى من ممر بيت المقدس ، وثالثة بين رام الله وبيت المقدس — كما ذكر فى الفصل السابق — وكان الجانب الأكبر من اللواء ٤٠ المدرع فى المؤخرة بالقرب من جسر « داميا » ليكون احتياطيا عاما قويا للقطاع

السامرى ، وكان هذا اللواء بقيادة العميد اركان عناد الجازى — فى المتناول ايضا لتعزيز « اريكا » وبيت المقدس اذا دعا الأمر .

وكان توزيع القوات الأردنية بالضرورة دفاعيا فلم يكن الأردنيون على ما يبدو يتوقعون هجوما كبيرا من القوات الاسرائيلية فى السامرة الشمالية او الجليل ، ولكنهم كانوا يعطون اهتماما اكبر لتحقيق أمن جنودهم فى السهل الساحلى فى اقصى الجزء الغربى من قطاع الضفة الغربية ، وبينما كانت هذه المنطقة تشكل تهديدا ممكنا للحزام الضيق من اسرائيل ، فقد كانت هى نفسها معرضة بشدة الى هجوم من جانب القوات الاسرائيلية المنتشرة فى هذا الحزام ، وعلى هذا يبدو ان الأردنيين كانوا يعتبرون تركيز الجنود فى منطقة جنين — نابلس بمثابة مرساة شمالية لقواتهم المنتشرة على السهل الساحلى أكثر من كونه منطقة دفاعية يتهددها الخطر .

الاستعدادات والخطط الاسرائيلية :

الجانب الاسرائيلى — كانت المسئولية عن الجبهة الشمالية من الأردن تقع على عاتق القيادة الشمالية تحت امرة بريجادير جنرال «دافيد العازار»، وقد قام — بصفته مسئولا عن مراقبة وحماية الحدود مع ثلاث دول معادية هى : لبنان ، سوريا والأردن — بنشر اربعة من الويته السبعة الى الأمام قريبا من الحدود : فكان هناك واحد الى شمال الجليل يطل على الحدود اللبنانية حيث لا يتوقع تهديدا معاديا حقيقيا ، واثنان منتشران فى الجليل الشرقى بمحاذاة الأردن العليا تجاه سوريا ، وآخر فى السامرة الشمالية جنوب « الناصرة » ، واحتفظ العازار فى الجليل الأوسط باحتياطى مكون من فرقة مدرعة بقيادة بريجادير جنرال « ايلا دبليد » تضم لواعين مدرعين ، وبلواء ثالث مدرع الى اقصى الشرق كاحتياط محلى للجبهة السورية .

وعندما تلقى الجنرال « العازار » الاوامر بمهاجمة قطاع الأردن السامرى بغرض حماية منطقة الضفة الغربية باكملها حتى جسر « داميا » ، كانت قواته منتشرة على أساس توقع عمليات ضد سوريا وليس ضد الأردن ، ومع ذلك فقد كانت هناك خطط طويلة المدى لعملية الأردنية ، وامر بوضعها فورا موضع التنفيذ — وكان على وحداته الاحتياطية من اللواعين المدرعين لفرقة الجنرال « بليد » أن تتحرك فورا من مناطق تجمعها للتجمع ثانية فى توزيعات المعركة على الطريق .

وكان على اللواء بقيادة ليفتننانت كولونيل « موشى باركوشفا » أن يتحرك الى وادى « دوتان » عبر « اليامون » وبذلك يتقدم الى جنين من الجنوب الغربى . بينما كان اللواء المدرع الآخر بقيادة كولونيل « يورى رام » يتقدم الى الجنوب مارا بشرق جبل « جيلبوا » ، ثم يتجه غربا ليصل الى طريق جنين — نابلس جنوب جنين مباشرة بالقرب من مفرق طريق « قباتية »

ومن هناك يتقدم ثانية جنوبا بمحاذاة الطريق الى نابلس ، وكان على لواء المشاة بالقـرب من « الناصرة » ووادى « جـرزيل » بقيـادة كولونيل « اهارون امئون » ان يشكل جزءا من فرقة « بيليد » بهدف تدعيم ضربات اللواءين ضـد جنين .

وقد وضع ايضا تحت قيادة « العازار » لواء مشاة فى « بيت شين » والمنطقة الشرقية لوادى « جزربيل » كجزء من القيادة المركزية ، وكان من المفروض ان يبقى هـذا اللواء من توزيع دفاعى ، كما كان مطلوبا ايضا تحقيق التنسيق مع لـواء الكولونيل « شيهيم » من القيادة المركزية والمنتشر فى الأراضى المنخفضة بالقرب من منطقة « طولكرم » كان على هـذا اللواء ان يبقى اسـاسا فى توزيع دفاعى الى ان يتم لفرقة « بيليد » الاستيلاء على جنين .

وبينما كانت الوية « بيليد » تتقدم الى مناطق تجمعها ، كان سـلاح الطيران الاسرائيلى يـدك المواقع الأردنية فى « السامرة » ، وكان اهتمامه الرئيسى موجها الى بطارية مدافع ١٥٥ مم الواقعة فى وادى « دوتان » الأعلى غرب جنين والتى كانت مسـئولة عن تحريك الهجـوم الاسرائيلى ضـد الأردن .

معركة جنين :

فى الساعة الثالثة من مساء ٥ يونية بـدات القوات الاسرائيلية فى عبور الجبهة شمال وغرب جنين ـ وبينما كانت مشاة الكولونيل « امنون » تتوغل جنوبا فى طابورين بمحاذاة طريقى « العفولة » و « جيفاتوز » ، وتجمعت دبابات ليفتينانت كولونيل باركو شفا فى طابورين ايضا فى وادى «دوتان» ـ وتحرك احد طابورى باركوشفا جنوبا من أم الهم تجاه « ياباد » بينما تقدم الطابور الآخر شرقا فى مسار تجمعى فى أعلى وادى «دوتان» ، وبعد حلول الظلام بقليل تقابلت طوابير لواء باركوشفا فى الجنوب الشرقى من « ياباد » ، واستمرت شرقا تتقدمها كتيبة مدرعة ، وقـد واجهت أول مقاومة لها غرب جنين من عـدة بطاريات مضادة للدبابات ، كانت تحمى المدافع ١٥٥ مم طويلة المـدى ، وبعد تبادل قصير للنيران تخطت الكتيبة القائدة المواقع المضادة للدبابات ، بينما انتشرت كتيبة المشاة المدرعة الثانية حـول المدافع المضادة للدبابات والمدفعية طويلة المـدى .

وبالرغم من ان قـوات المقدم « خاليدى » فوجئت بالهجوم الاسرائيلى فى الوقت الذى كانت مهتمة فيه بحماية نفسـها من هجمـات الطيـران الاسرائيلى ، الا انها ابـدت مقاومة شرسة ، ولم تتمكن قـوات المشـاة الاسرائيلية المدرعة من الاستيلاء على المواقع الا عند منتصف الليل تقريبا ، وفى نفس هـذا الوقت وصل طابور الدبابات الى الطريق فى الجنـوب الغربى

من جنين حيث توقف ، وفى الساعة الثالثة صباحا وبعـد وصـول قوات المشـاة المدرعة بدا اللواء هجوما على المدينة من الجنـوب الغربى عند مفرق « قباطية » .

قام « باركوشفا » بهجومه الرئيسى مستخدما كتيبة المشاة المدرعة ، واحتفظ بكتائبه الثلاث للدبابات ، والتى تبلغ فى مجموعها ١٠٠ دبابة مركزة خلف المشاة ، ومستعدة لمواجهة اى من التهديدين المدرعين المحتملين من جانب الأردن ، وكان يعلم ان كتيبة مدرعة تعسكر فى الجنوب الشرقى من قباتية ، كما ادرك ايضا احتمال ان اللواء ٤٠ المدرع الأردنى باكمله قد يتحرك ضـده .

وكان الأردنيون قد توقعوا امكانية هجـوم اسرائيلى من الجنوب ضد جنين فقاموا بسد الطريق على هـذا التقـدم بثلاثة خطوط دفاعية متناسقة ومزودة جيـدا بمدافع مضـادة للدبابات ، كانت المشاة تسيطر على الأرض الوعرة المتباينة فى الخط الدفاعى الأول تدعمها مدافع مضادة للدبابات ، امـا الخط الثانى ـ والـذى يتكون اساسا من مدافع مضادة للدبابات محصنة ـ فكان يسيطر على كل الطرق المتاحة لعبور الدبابات ، فى حين كان الخط الثالث المكون أيضا من المشاة وقواعد المدافع المضادة للدبابات مدعمات بحوالى ٣٠ دبابة من طراز باتون .

كان الدفاع الأردنى متماسكا وحاذقا ، وكانت المدافع المضادة للدبابات مخباة تماما ولا يمكن تحديد موقعها الا بوميض الفوهات فقط ، وحيث أن نيران المدافع المضادة للدبابات كانت دقيقة ومحكمة ، فقد كان من المستحيل على الدبابات الاسرائيلية او عربات النصف نقل مهاجمة المشاة الأردنية الذين كانوا يحتفظون بالتلال التى تتحكم فى جنين ، الا اذا تم القضاء على المدافع المضادة للدبابات ، وبينما كان المشاة الاسرائيليون يحاولون التفوق عليهم بدون نجاح يذكر ، كانت سربات الدبابات الأردنية تتحرك ضد الأجنحة الاسرائيلية فى التفاف مزدوج كلاسيكى محكم .

على اية حال ، كان « باركوشفا » مستعدا لهذا الاحتمال ، وسرعان ما القى باثنين من كتائبه الخاصة الى المعركة ليصد الالتفافات الأردنية . وكان الاسرائيليون لديهم دبابات شيرمان من الطراز الأقدم ، الا انهم وجدوا طبقا لـما كانوا يتوقعون أن دبابات سوبر شيرمان المعدلة تستطيع بمدافعها ١٠٥ مم ومن مـدى ١٢٠٠ متر ان تقاتل دبابات طراز باتون وعلى قـدم المسـاواة ، ومع أن الهجوم المضاد الاسرائيلى خفف من الضـغط على اجنحة مشاة « باركوشفا » الا ان الدبابات الأردنية قاتلت بغزارة خـلال معركة ليلية مضطربة وعندما ادرك « باركوشفا » انه قد اسـتعاد زمام المبادرة من الأردنيين القى بكتيبة دبابات أخـرى لتلتف حـول الالتفاف الأردنى الأصلى ، وقد انهى هذه المعركة وانسحبت الدبابات الأردنية التى نجت من فوضى ملحوظة .

وفى نفس الوقت تمكنت مشاة « باركوشفا » ، وكانت اجنحتهـا مزودة بالحماية من اكتساح كل المدافع الاردنية الثلاثة المضادة للدبابات ، ثم تحركت عربات المشاة المجنزرة المدرعة الاسرائيلية تجاه المدافع الرئيسية للمشاة الاردنيين على التلال الى الشرق والغرب من جنين .

وعند ذلك وقبل الغروب بقليل وصلت كتيبة « امنون » للمشاة من الشمال لتطبق على المدينة بالاشتراك مع هجوم « باركوشفا » من الجنوب ، وتنسيقا مع هجوم « امنون » قام باركوشفا بارسال اثنين من كتائب دباباته شمالا على طـول الطريق الرئيسى الى « جنين » ، وكانت كتيبة « باركوشفا » الاستطلاعية المكونة من مجموعة دبابات ومجوعتين من المشاة الميكانيكية فى سيارات جيب تغطى المؤخرة ، لمواجهة اى هجوم ممكن من اللــواء ٤٠ المدرع الاردنى .

وعندما اقتربت دبابات « باركوشفا » من جنين هاجمتها نيران الدبابات الاردنية المخباة خلف المبانى ، فحدثت معركة اخرى قصيرة للمدرعات ، ولكن الاردنيين كانوا اقل عـددا وغير قادرين على العمل بتنسيق فعال ، وتسربت الدبابات المدافعة التى لم تتحطم الى خارج المدينة شرقا ، وحاولت ان تشق طريقها فى اتجاه الجنوب لتنضم الى تكويناتها الرئيسـية على طريق طوباص .

واطبقت الكتيبتان المهاجمتان على المدينة عملا بالقاعدة الاسرائيلية المـالوفة فى حـرب الشوارع ، مطلقة النار فى جميع الاتجاهات ضد القناصة والمدافع الآلية والمدافع المضادة للدبابات ، واستمرت المقاومة باصرار حتى بعد ان ذهبت الدبابات الأردنية ، ولكن الكتيبتين الاسرائيليتين اطبقتا على مركز البوليس فى الجـزء الشمالى من المدينة .

معركة قباتية :

بمجرد ان استسلم مركز البوليس ، وصلت الانبـاء بالراديو الى « باركوشفا من كتيبة استطلاعية ان قـوة من ٦٠ دبابة طـراز باتـون تتقدم من اتجاه « طوباص » فانسحبت الى الضواحى الجنوبية من المدينة ، واعاد تجميع كتائب دباباته ومشاة المدرعة تاركا خلفه مشاة « افنـون » لتنظيف مدينة جنين من المقاومة المشتتة والشرسة ، التى كانت لا تزال قائمة ، ثم تحرك بمحاذاة الطريق متجها الى الجنوب الغربى نحو مفـرق « قباتية » حيث دارت اول معركة للدبابات قبل الفجر .

وفى هـذه الأثناء كانت كتيبة الاستطلاع قد تعرضت لهجـوم من دبابات باتون الأردنية فى الجنوب الغربى من مفرق الطريق ، وفى حين قامت كتيبة دبابات أردنية واحـدة بالهجـوم على الطريق ، التفت كتيبة اخرى

حـول كتيبة الاستطلاع لتحيط بها من الشرق لتصل الى مفرق « قباتية » قبل ظهور دبابات « باركوشفا » مباشرة على الطريق من « جنين » . وهكذا حوصرت كتيبة الاستطلاع تماما ووجـد « باركوشفا » نفسه عند وصوله من الشمال بكتيبة دبابات واحـدة منهكة ، أو كتيبة مشـاة مدرعة مستنزفة ومرهقة ، ومواجها كتيبة دبابات أردنية مستعدة ومستريحة عند المفرق .

كان موقف « باركوشفا » حرجا ، فعلى الرغم من انه كان يملك قوة ربما كانت تتفوق تفوقا طفيفا على الدبابات الأردنية الا ان امداداته من الوقود والذخيرة كنت منخفضة جـدا ، وكان رجاله مجهدين من السير ٢٤ ساعة ومن القتـال العنيف ، وقد ابلـغ موقفه لاسلكيا الى بريجـادير جـنرال « بليد » الـذى استدعى تدعيما جويا ، وتحت غطاء من موجات مستمرة للمقاتلات ضـد الدبابات الأردنية ، اتيحت « لباركوشفا » الفرصة لاعادة تجميع وتموين الوقود لقوته الرئيسية ولوضع الخطط لانقاذ الوحدة المعزولة فى الجنوب .

كان الوقت آنذاك منتصف الصباح وكان العقيد « خاليدى » قد تمكن من تجميع الكثير من اللواء ٢٥ مشاة ، وشكل مع الدبابات موقعا دفاعيـا صلبا داخل قباتية وحولها ، وقد ردت محاولات لواء « باركوشفا » المتكررة لاختراق الدفاعات الأردنية على اعقابها ، واستمر القتال العنيف على طول هذا الخط الجديد للمعركة لمدة حوالى ١٢ ساعة ، وبعـد حلول الظـلام بقليل ارسل « باركوشفا » واحدة من مجموعات دباباته حول جناح الموقع الأردنى لفتح ثغرة فى الخطوط المحيطة بكتيبة الاستطلاع المعزولة ، واخطر كتيبة الاستطلاع لاسلكيا للاستعداد ، وهكذا بينما كانت مجموعة الدبابات المهاجمة تحتفظ بالثغرة مفتوحة اندفعت القوات المحصورة بسرعة وعادت لتلحق بقوة « باركوشفا » الرئيسية شمالى قباتية .

العمليات عند تليفت ــ زبابيــدا :

فى هذه الاثناء كان اللواء المدرع للكولونيل رام فى الشرق والجنـوب يواجه بالمقارنة مقاومة أردنية شرسة ، فلم تعبر قوات رام الحـدود حتى الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ، وفى تقدمه الى الجنوب من المنحـدرات الشرقية والجنوبية لجبل « جيلبـو » ، واخترق « جيلبو » ، واختـرق (تلفت) (سالبيت) فى الوادى شرقى « زبابيدا » ، وكان هدفه الوصـول الى طريق جنين ــ نابلس الشرقى عند زبابيدا ثم الاتجـاه جنـوبا عبر « طوباص » الى نابلس .

وفى تقدمه عبر « تلفيت » بجماعة المقدمة ، استطاع رام أن يسـمع صوت معركة غير بعيدة الى الغرب فى قباتية ولم يطل انتظار الاسرائيليين كثيرا حتى وقعوا هم أنفسهم تحت وابل النيران ، ففى الساعة ١٠ر١٥ قابلت سرية رام الاستطلاعية فى الوادى أسفل « تليفت » نيرانا كثيفة من الأرض العالية بالقرب من زبابيدا الى الغرب ، وقد ابلغ قائد السرية أن هنـاك

حوالى ٣٠ دبابة اردنية من طراز باتون بين « زبابيدا » و (اكادا) وكان السلاح الأردنى مثبتا فى مواقع مخباة جيدا على المرتفعات البعيدة فى الجانب الغربى من الوادى لتغطى الطريق والوادى باكمله .

وقد وزع رام دباباته على المرتفعات على الجانب الشرقى للوادى ، وارسل العديد من العربات نصف المجنزرة اسفل الوادى لاطلاق النيران حتى يكشف الأردنيون عن مواقعهم بوميض فوهات مدافع دباباتهم ، وكان هذا بداية معركة مدرعات بعيدة المدى وثابتة ، استمرت من حوالى الساعة ١٠٫٣٠ صباحا حتى الغسق ، ولم يصب اى من الجانبين بخسائر كبيرة فى هذا التبادل البعيد المدى ، ومع ذلك فان رام لاحظ قبل الغسق مباشرة مجموعة دبابات اردنية تغير من مواقعها على الحافة البعيدة ، ودعا الى ضربة جوية اسرائيلية دمرت عددا من هذه الدبابات ، وعندئذ وبحلول الظلام ، استطاع ان يستخدم الدبابات المحترقة كنقاط مرجعية لتوجيه مدافعه الى المواقع الأردنية الأخرى للدبابات التى تم وضعها اثناء النهار ، وايضا الى المواقع الدفاعية فى قرية زبابيدا نفسها على المرتفعات ، ثم اتصل لاسلكيا بالجنرال « بيليد » طالبا الاذن بالقيام بهجوم ليلى على الدبابات الأردنية فى « زبابيدا » .

وبموافقة « بيليد » فتحت مدفعية (رام) نيرانها على المواقع الأردنية الموجودة على التلال تجاه موقعه فى الساعة ١٢٫٤٠ صباح الاربعاء ٧ يونيه ، وتحت غطاء تمهيدى من المدفعية لمدة ٢٠ دقيقة تقدم « رام » فى طابورين يتكون كل منهما من تشكيلات من اربع دبابات وزحف احد هذين الطابورين تتقدمه الدبابات المتوسطة على طول طريق « تليفت — زبابيدا » ، وتحرك الطابور الثانى منحدرا من التل عبر بعض الطرق القذرة التى اكتشفتها وحدة رام الاستطلاعية خلال النهار ، لتجد ان الطريق كان مسدودا بعوائق خرسانية مضادة للدبابات كلما اقترب الطابور من الوادى ، ومع ذلك سرعان ما استخدم الاسرائيليون المهاجمون مدافع دباباتهم لنسف هذه العوائق ، ليستمر الطابور فى تقدمه الى الوادى والى اقصى الجانب الأعلى دون أن يكتشفه الأردنيون .

وعندما دخل الطابور على الطريق الرئيسى الى الوادى قابل الأردنيين فى « تليفت » وما حولها ، ولمدة ساعة تالية نشبت معركة مدرعات قصيرة المدى فى الوادى حتى كشف الطابور الاسرائيلى الآخر عن وجوده بمهاجمته للمواقع الأردنية على التلال بالقرب من « زبابيدا » ، وسرعان ما فضت الدبابات الأردنية فى الوادى التلاحم لتتقهقر أعلى التل لتفادى الانعزال ، وقد تعقبها الاسرائيليون عن قرب ، وفى الساعة ٣ صباحا كانت « زبابيدا » فى ايدى الاسرائيليين ، وكان الأردنيون ينسحبون جنوبا أسفل الطريق الرئيسى نحو طوباص .

وبينما كانت القوة الرئيسية للكولونيل « رام » تستريح ارسل جماعة استطلاعية للاستيلاء على مفرق « طوباص — داميا — نابلس » ، وفى الساعة ٩ صباح يوم ٧ تلقى رام — أثناء تقدمه ثانية نحو نابلس — تقريرا

من جماعته الاستطلاعية بانها على مقربة ٨ كيلومترات من نابلس ، وان المدينة تبدو هادئة ، وواجه « رام » عندئذ قرارا صعبا — اذ كان يعرف ان اللواء ٢٥ للمشاة الأردنى وكتيبتين للدبابات على الأقل كانت خلفه فى منطقة قباتية ، وكان يعلم ايضا ان هناك كتيبة دبابات اخرى فى مكان ما شرق « طوباص » فى وادى الأردن ، وان هناك على الأقل كتيبة او اكثر للدبابات — وهى الجزء الرئيسى من اللواء ٤٠ المدرع — محتشدة فى وادى الأردن الى الجنوب الشرقى بالقرب من جسر « داميا » . وهكذا كان فى خطر داهم من ان يصبح معزولا وعرضته للهجوم من اتجاهين او ثلاثة اتجاهات مختلفة ، فقرر ان يترك الجزء الأكبر من لوائه بالقرب من مفرق الطريق وتقدم مع مجموعة دبابات واحدة لينضم الى الجماعة الاستطلاعية خارج نابلس ، وارسل اوامره مقدما للجماعة الاستطلاعية بالاستمرار فى الاستطلاع فى ضواحى نابلس .

المعركة لاجل نابلس :

بينما كان الاسرائيليون يتقدمون اسفل الطريق المتجه الى نابلس من الشرق ، دهشوا عندما وجدوا جمهرة من السكان العرب ينتظرون خارج المدينة لتحيتهم ، فقد اخطر سكان نابلس ان تعزيزات عراقية يمكن توقع وصولها من داميا ، لذا حين وصل الاسرائيليون من الشرق حسبهم السكان لأول وهلة انهم القوات العراقية وسرعان ما اكتشف الخطأ عندما حاول احد الجنود الاسرائيليين نزع سلاح احد العرب القريبين ، وسرعان ما تبودل اطلاق النار بصورة متفرقة .

وبوصول « رام » فى هذه اللحظة احتل وسط نابلس سريعا مرسلا الجماعة الاستطلاعية الى الطرف الغربى من المدينة ، وسرعان ما ابلغه قائد الجماعة ان قوة كبيرة من الدبابات الأردنية قد تبلغ ما يقرب من كتيبة موجودة فى غرب المدينة مباشرة ، وعلى الفور ارسل رام يطلب ان تلحق به فى نابلس كتيبتان للدبابات ، وترك واحدة تحمى مفرق الطريق فى الشمال الشرقى .

لما وصلت الكتيبتان ، ارسل « رام » مجموعة واحدة من الدبابات الى شمال نابلس لحماية جناحه الأيمن ثم تحرك الي الطرف الغربى من المدينة مع قوته الرئيسية للاشتباك مع الدبابات الأردنية . وفى نفس الوقت فتح السكان العرب فى المدينة — وكانوا هادئين طوال هذا النشاط — نيرانهم على مؤخرة الوحدات الاسرائيلية ، وخلال الساعات الست التالية حدثت معركة مضطربة فى الطرف الغربى من نابلس وحوله . وامر رام قواته ان تقتصر المناورة على اقصى حد والا تطلق النيران الا على الأهداف القريبة وذلك حتى يحتفظ بالاحتياطى من الوقود والذخيرة .

وفى هذه الأثناء وفى الجنوب الغربى من جنين وبعد الغروب بقليل ، اعاد « باركوشفا » هجومه على مفرق قباتية ، وفى نفس الوقت تقريبا

وصلت كتيبة من لواء « افنون » — كانت قد اتجهت الى الجنوب عبر « ياباد » ثم الى الجنوب الشرقى عبر « ارابا » الى طريق جنين — نابلس الغربى ، لتهدد مؤخرة المواقع الاردنية فى « قباتية » فانسحب الاردنيون فورا الى الجنوب الشرقى تجاه « داميا » .

ولم يتابع « باركوشفا » ، ولكنه وفقا للأوامر التى كانت لديه تقدم نحو المحور الغربى تجاه نابلس ، لتنضم اليه فى مسيرته كتيبة « افنون » بالاضافة الى ان هناك انباء وصلتهم عن اقتراب لواء مشاة اسرائيلى آخر الى نابلس من قلقيلة فى الغرب (وكان هذا هو لواء كولونيل « زيف شيهم » من القيادة المركزية) ، وشق الناجون الاردنيون طريقهم بعناء عبر الطريق ليصلوا الى طريق جسر داميا ، وبحلول الظلام كانوا فى طريقهم الى وادى الأردن وداميا .

توقفت النيران داخل نابلس وحولها حوالى الساعة ٦ر٣٠ مساء ، وفرض الاسرائيليون حظر التجول اعتبارا من الساعة السابعة ، وبينما كان لا يزال تمشيط نابلس يجرى بعد الغسق مباشرة اتجه لواء باركوشفا جنوبا على الطريق الى رام الله ، وانضم الى كتيبة ارسلها كولونيل « بمن آرى » الى الشمال من هذه المدينة ، وفى نفس الوقت ارسل « رام» كتيبة دبابات استطلاعية اسفل الطريق الى داميا حيث استولت على الجسر فى منتصف المساء ، وبذلك استولى الاسرائيليون على الجسور الثلاثة كلها على نهر الأردن مؤكدين سيطرتهم على الضفة الغربية .

وفى هذه الاثناء اى فى الساعة ٧ر٣٠ مساء وجه الملك حسين كلمة من الاذاعة الى شعب الأردن يناشدهم القتال « حتى آخر نفس وآخر نقطة دم » ، وعلى اية حال ، كان الملك قد سبق ان فوض قادته الكبار فى التفاوض مع لجنة مراقبة الهدنة للأمم المتحدة ، وذلك استجابة لنداء من الأمم المتحدة لوقف اطلاق النار ، وفى الساعة الثامنة مساء وافق كل من الجانبين الأردنى والاسرائيلى على نداء وقف اطلاق النـــار .

وفى ٧ يولية اعلن رئيس الوزراء « سعد جوماس » ان عدد الضحايا الاردنية قد بلغ ٦٠٩٤ قتيلا ومفقودا ، ولكن الخسائر الفعلية كانت اقل — وقام الجيش الأردنى فيما بعد بحصر الاعداد ، وهى وان كانت اقل الا انها كانت دقيقة ويمكن الاعتماد عليها : فكانت ٥٨٠ قتيـــلا ، ٣٥١ جريحا ، ٥٣٠ اسرى حرب — وكان هناك على الأقل الفا مفقود معظمهم من سكان الضفة الغربية الذين عادوا الى منازلهم بعد الهزيمة ، ومن المسلم به ان بعضهم كان مصابا اما من لم يتم حصرهم فكانوا موتى — وهكذا كانت أعداد الموتى والجرحى تزيد احتياطيا بنسبة ٢٠٪ ، وقد تم تقدير اجمالى عـــدد القتلى بـــ ٦٩٦ ، واجمالى الجرحى ٤٢١ ، ومجموع الضحايا ٣١١٧ ، بينما بلغ مجموع الضحـــايا الاسرائيليين مقـــابل الأردنيين ٥٥٠ قتيـــلا ، ٢٤٠٠ جريح .

(١٣)

المعركة من اجـل مرتفعـات الجولان

الأرض والتحصينـــات :
كان السوريون قـــد اقاموا منطقة دفاعية فيما بين ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ مكونة من مخابىء محصنة وقواعد دبابات ومدافع على طول المرتفعـــات المطلة على كل حدود وقف اطلاق النـــار مع اسرائيل ، ويمتد هذا المنحـــدر الذى يميز الطرف الغربى من هضبة الجولان ٧٠ كم من جبل هيرمون فى الشمال الى وادى اليرموك فى الجنوب ، ويتحكم الانحدار الغربى لهذا المنحدر فى وادى « الحولة » وبحر الجليل فى الأراضى الاسرائيلية على بعد ١٥٠٠ قدم او اكثر تحت هذه القمة .

وقد وصف الجنرال الاسرائيلى « ايلاد وبيليد » (بشىء من المبالغة) بعد الحرب : بأن هذا الدفاع كان يمتد الى ما يزيد عن عشرة اميال فى العمق دون خط ثابت اول او ثان او ثالث ، وان كان مجـــرد صف وراء صف من القواعد والمدافع ، وفى نفس الوقت قرر جنرال «العازار» (دون مبالغة) ان كان فى استطاعة السوريين قذف اكثر من عشرة اطنان من القنابل فى الدقيقة ، وذلك من الـــ ٢٦٥ مدفعا التى صفهـــا على طول الحافة وخلفهـــا مباشرة ، ولم يتضمن هذا الرقم عددا من قاذفات الصواريخ متعددة الفوهات من طراز « كاتيوشـــا » روســـية الصنع ، والتى تحمل الواحدة منها ١٢ صاروخا يغطى مدى عشرة اميال ، ورءوس حرب تزن من ١٠ — ١٢ رطلا . وكان الدفاع السورى هائلا الى حد كبير .

والى الشرق من المنحدر تمتد هضبة الجولان البركانية الصخرية والتى تسمى ايضا مرتفعات الجولان . شرقا حوالى ٣٠ كم الى سهل دمشق ، ويرتفع فجأة من المسطح الصخرى الوعر للهضبة بصخوره المتناثرة عـــدد من التلال البركانية قمعية الشكل فى غالبها ، والخضرة قليلة الكثافة خاصة فى الشمال وتزداد الأرض تدريجيا فى صخريتها بارتفاعها من ١٢٠ مترا فوق سطح البحر ، وفى الجنوب الى ١٠٠٠ متر عندما تتغلغل فى اســـفل جبل « هيرمون » وتهب خلال الشتاء والصيف نسمات باردة تصل احيانا الى قوة العاصفة لتكتسح الهضبة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، ويسيطر جبل هيرمون بارتفاعه ٣٠٠٠ متر تماما على الهضبة والســـهل المنبسط الممتد الى الشرق والشمال الشرقى تجاه دمشق حيث تتقابل حدود اسرائيل ولبنان وسوريا .

مواجهــة التوزيعــات :

ف ١٦ مايو ١٩٦٧ تبعت سوريا خط مصر ف اعلان حالة الطوارئ وف تعبئة جيشها ، وكانت هذه التعبئة اساسا بسيطة ف اثرها حيث كان لسوريا جيش قائم فعلا ولم تكن تعتمد على تعبئة الاحتياطى . وبلغت عدد القوات تحت قيادة الفريق اول احمد سودانى ف جملتها حوالى ٧٠,٠٠٠ جندى بمعدات قتالية منظمة ف ١٣ لواء : ٦ منها للمشاة ، واثنان للمدرعات ، وواحد ميكانيكى واربعة من احتياطى المشاة ، وتم حشـد ثمانية من هذه الألوية على مرتفعات الجولان غرب القنيطرة ف تشكيلين كل منها من ٣ الوية مضافا اليها احتياطى محلى ، وانتشرت ٤ أولوية بين القنيطرة ودمشـق وتمركز واحد (لواء ٢٣ للمشاة) بالقرب من اللاذقية .

وقد تم تنظيم القوات السورية على مرتفات الجولان ف ثلاث قوات خاصة بحجم فرق للعمليات اطلق عليها السوريون جماعة الالويـة ، وكانت مهمة هذه القوات الخاصـة بالدرجة الأولى وف الصميم ادارية ، لتيسير التنسيق وادارة عمليات الألوية التى تشكلها ، والى الشمال من الطريق الممتد من كوبرى بنك يعقوب الى القنيطرة احتشد لواء التجمع الثانى عشر بقيادة العقيد « أحمد امير » ــ واحتشد اللواء الحادى عشر مشاة جنوب جبل « هيرمون » ف منطقة « بانياس ــ مسعده ــ كالا فخطيا الطريق من (كيرات شمونة) ف اسرائيل الشمالية عن طريق دان الى القنيطرة والى الجنوب من اللواء الحادى عشر وشمال الطريق الرئيسى مباشرة احتشـد اللواء الاحتياطى ١٣٢ للمشاة ، وكان الطابور الثانى منلواء التجمع الثانى عشر يتكون من اللواء الاحتياطى ٨٠ للمشاة ف الشمال الغربى من القنيطرة ، واللواء ٤٤ المدرع ف الشمال الشرقى مباشرة من المدينة .

والى الجنوب من الطريق الرئيسى الى القنيطرة احتشد لواء التجمع ٣٥ بقيادة اللواء سيد تايان ، وانتشر اللواء ٨ للمشاة على طول المنحدر جنوب الطريق مطلا على وادى « الحولة » ، والجزء الشمالى من بحيرة طبرية والى جنوبه احتشد اللواء ١٩ للمشاة مغطيا الطريق عبر « فيك والعـال ورشيد » ، وتضمن الطابور الثانى للواء التجمع اللواء ٣٢ للمشاة ف الجنوب الغربى من القنيطرة تماما ، واللواء ١٧ الميكانيكى للمشاة ف الجنوب من طريق دمشق تماما شرقى القنيطرة .

عموما كان الاحتياطى هو الطابور الثانى الميدانى ، ويضم لواء التجمع ٤٢ بقياد اللواء عبد الرازق درداري ، وكان لواء التجمع هذا يحتل خطـا دفاعيا ثانيا بين القنيطرة ودمشق : ويتكون من اللواء الرابع عشر المدرع ، واللواء ٢٥ للمشاة ، واللواء بين ٥٠ ، ٦٠ لاحتياطى المشاة .

وكان كل من لواءى المشـــاة يضم ٣ كتائب مشاة وكتيبة مدرعة من دبابات « تى ٣٤ ، تى ٥٤ » بالاضافة الى عدة مدافع « اس يو ١٠٠ » الهجومية ذاتية الحركة كما يضم عددا من الأسلحة المضادة للدبابات ، وكان

اللواء الميكانيكى الاحتيــاطى للمشــاة يتالف من كتيبتين للمشــاة وكتيبتين مدرعات ، وكانت الألوية من احتياطى المشاة من ثلاث كتائب مشاة ناقصة ف تونهــا .

وكانت القيادة الشمالية للبريجادير جنرال الاسرائيلى دافيد العازار (وتضم وحدات ملحقة من القيادة المركزية) وتتكون من ٨ الوية ، ثلاثة منها مدرعة وخمســة للمشــاة وكان لمعظم الوية المشــاة سرية او كتيبة من الدبابات كما كانت كتيبة واحدة على الأقل ف كل لواء محمولة ف سيارات مدرعة نصف مجنزرة ، ومن هذه الألوية انتشر اثنان تجاه الجبهة السورية وواحد منها ف مواجهة لبنان ، ولواء مدرع احتياطى لا يبعد كثيرا عن الجبهة السورية ، وكانت وحدات « العازار » الأخرى بداية من ٥ يونية موزعة ف المناطق الشمالية للضفة الغربية لنهر الأردن .

الأيام الأربعــة الأولى :

كانت الحدود السورية ــ الاسرائيلية هى اقل الجبهــات الثلاث المتصارعة نشاطا خلال الأيام الأربعة الأولى للحرب، ومعذلك وبالرغم منأن العمليات البرية كانت قليلة ، الا ان وحدات المدفعية السورية واصلت القصف المستمر الشديد للقوات الاسرائيلية ف الوادى تحتها(١) . وقد تم الرد على نيران هذه المدفعية بنيران بطاريات اسرائيلية مضادة وضربات جوية متتالية من قوات الدفاع الاسرائيلى على المواقع السورية وقد كانت العملية البرية الوحيدة خلال هذه الأيام يوم الثلاثاء ٦ يونيه حين قامت القوات السورية بالقرب من جبل هيرمون دوريات استطلاعية منفصلة كل منها بحجم سرية لتطوير الوضع الاسرائيلى ، وكانت واحدة منها ضد « تل دان » الرامية التى تحدد المدينة القديمة « دان » ف اقصى الشــمال الشرقى من اسرائيل الحديثة ، وكانت الثانية موجهة ضد « كيبوتزدان » جنوبى التل مباشرة اما الثالثة فكانت ضد قرية « شــمارياشوف » على بعد حوالى كيلومترين داخل الحدود ، وعبرت الحدود ف كل من هذه الهجمات الثلاث جماعة من المشاة مصحوبة بدبات عددها من ٣ : ٥ ، وادعى الاسرائيليون ان هذه المحاولات قد امكن صدها بسهولة بمساعدة الدعم الجوى ، ولكن السوريين يصرون على أن عملياتهم لم تكن بقصد الاستيلاء على الأرض .

وكان السوريون باختصار يفكرون ف امكان القيام بهجوم ف الجليل الشمالى ، وهــذا حقيقة هو السبب الرئيسى للعمليــات الاستطلاعية ف السادس من يونية ووضعت الخطط لنقل معدات مد الجسور لعبور نهر الأردن ومع ذلك ف مساء ٦ يونية كان قد تلاشى كل احتمال لنجاح هجوم ســورى نتيجة لتدمير السلاح الجوى السورى ، وكانت الطائرات الاسرائيلية المسيطرة على اجواء سوريا الجنوبية الغربية تمنع حركة نقل معدات مد الجسور ، وكانت تهاجم كل تحركات الجيش السورى التى تتم ف وضح النهار ، وف الأيام التالية ومع وضوح ضخامة الهزائم الأردنية والمصرية ، اقتنعت سوريا

باستحالة نجاح معارك متتالية ضد الاسرائيليين حتى من جانب المواقع الدفاعية القوية على مرتفعات الجولان ، وبالتالى اكتفت بقصف تجمعات الجيش الاسرائيلى والمستوطنات المحصنة بالقرب من الحدود انتظارا لوقف اطلاق النار الذى كانوا ينوون الموافقة عليه .

ومع ذلك كان هناك ضغط شديد من جانب السكان الاسرائيليين فى الجليل الشرقى لشن هجوم ضد سوريا ، اذ ارادوا معاقبة السوريين على سنوات المضايقات التى شنتها المدافع السورية (باستفزاز اسرائيلى كبير) ضد مزارع وادى الحولة والمستوطنات ، وقد قام وفد من المنظمة بزيارة الحكومة الاسرائيلية فى القدس بعد نشوب الحرب مباشرة مطالبين الحكومة بشن هجوم ضد السوريين لطردهم من المرتفعات المطلة على الوادى(٢).

وبعد ان بدأ وقف اطلاق النار على الجبهة الأردنية فى اواخر يوم ٧ يونية تلقى العازارا اذنا من قيادة الأركان العامة بمهاجمة السوريين فى ٨ يونية ، ومع ذلك بعد منتصف الليل بقليل تلقى الأمر بالانتظار حتى يوم ٩ يونية .

ولم يعد ديان قلقا بالنسبة للقتال على ثلاث جبهات حيث ان المصريين كان قد تم طردهم عبر قناة السويس ، وادى وقف اطلاق النار على الجبهة الأردنية الى تأكيد ابعاد الجيش الأردنى من الضفة الغربية ولكن « ديان » اراد ان يتيح وقتا اكبر لسلاح الطيران ، وهو القادر الآن على توجيه اهتمامه الكامل للجبهة الشمالية ، ليحد من قوة المواقع السورية الهائلة على هضبة الجولان ، كما اراد ان يتيح فرصة لراحة القوات القادمة من الأردن والتى كانت فى قتال متواصل منذ ٥ يونية .

وربما كان هناك اعتبار ثالث فى ذهن « ديان » — وان لم يتأكد هذا ابدا — ففى ٨ يونية كان على السوريين اما ان يقبلوا او يرفضوا نداء الأمم المتحدة لوقف اطلاق النار حيث ان وقف اطلاق النار اصبح سارى المفعول من جانب الجبهتين المصرية والأردنية فاذا ما كانت سوريا تتعرض لهجوم ثقيل وتخسر الأرض فقد كان دعى بالحكومة السورية الى ان تقبل وقف اطلاق النار ، بينما لا تزال تحتفظ بكل او معظم هضبة الجولان الغربية ، وربما يسبب هذا حرجا للاسرائيليين ، الذين كانوا تواقين للسيطرة على كل مرتفعات الجولان لانهاء سيطرة المدفعية السورية على الوادى وجبهة الغرب اما اذا رفض السوريون وقف اطلاق النار او قبلوه ثم خرقوه (ويبدو ان ديان كان يتوقع ذلك) فسيكون لدى الاسرائيليين فكرة يومين او ثلاثة من العمليات المكثفة قبل الوصول الى وقف اطلاق نار جديد ، وعلى ذلك فان هناك سببا للاعتقاد بأن ديان كان ميكيافيليا فى تأجيل الهجوم لمدة ٢٤ ساعة.

وفى الساعة ٢٠ر٥ مساء ٨ يونية قل كثيرا احتمال مثل هذه النتيجة الميكافيلية حين قبلت الحكومة السورية وقف اطلاق النار ، وتلت ذلك فترة

هدوء استمرت طوال الليل وحتى الصباح الباكر من يوم ٩ يونية . ومن خلال انتهاك واضح لوقف اطلاق النار قرر « ديان » ذلك صراحة فى مذكراته دون اعتذار او توضيح — أمر « ديان » جنرال « العازار » بالهجوم فور تمركز وحداته فى اماكنها ثم يضيف ببراءة أن وقف اطلاق النار تم تنفيذه متأخرا يوما ونصف(٢) .

الخطة الاسرائيلية :

قرر جنرال « العازار » على اساس خطط طال وضعها ان الاختراق الأساسى سيكون فى منطقة « تل — عزازيات — كالازاوورا » بمرتفعات الجولان الشمالية . ويبدا التقدم الاسرائيلى بهجوم مدرع للمشاة اعلى الحافة جنوب « تل عزازيات » عبر اراض بالغة الوعورة والانحدار لدرجة ان تحصين السوريين لها كان طفيفا ، ومثل هذه المحاولة اذا نجحت قد تفتح الطريق القديم عبر « بانياس » اسفل جبل « هيرمون » ليسمح بتقدم مسلح عبر « مساعدا » تجاه القنيطرة من الشمال .

وفى نفس الوقت ، تتم هجمات ثانوية على طول المرتفعات الأبعد من ذلك فى الجنوب بالقرب من التحصينات الأردنية فى « دارباشيا » ، « دردرة » وجالابينا ويتم جلب السلاح لدعم كل هذه الهجمات ، ويتم مهاجمة المواقع الدفاعية السورية والاستيلاء عليها اثناء الليل ، وفى القطاع الجنوبى يهاجم رجال المظلات والمدرعات « توافيق ، كفر حرب ، فيك ، العال وبوتميا » لفتح المدخل الجنوبى فى مرتفعات الجولان — ويكون الدعم الجوى المركز متاحا للمهاجمين طوال العملية .

وكان الجهد الاسرائيلى الرئيسى فى الشمال موكولا الى قوة خاصة بحجم فرقة بقيادة ديجادير جنرال « دان لانر » نائب « العازار » ، وكان مقرر ان تكون القوات المهاجمة عبارة عن لواء مدرع بقيادة كولونيل « البرت مندلر » (الذى دفع به شمالا لهذه المهمة بعد قيادته الناجحة للقوة المتجمعة فى منطقة « الكونتلا نخل » فى سيناء وكتيبة جولانى للمشاة بقيادة كولونيل يوما افرات ، وبينما كان لواء مندلر تساعده البولدوزرات يشق طريقه صاعدا الجانب الجبلى شمال وشرق « كفار زولد » ، كان على كتيبة جولانى فى الشمال مباشرة ان تسلك الطريق الرئيسى القديم من « دان » تجاه بانياس ، لتضرب اولا الاستحكامات السورية فى « تل عزازيات » ، ثم تتقدم شرقا تجاه المواقع السورية على مرتفعات « تل فاهار » وكان الاحتياطى هو اللواء المدرع بقيادة كولونيل « باركوشفا » الذى وصل من الجبهة الأردنية بعد بدء الهجوم مباشرة .

وقد استفادت هذه الخطة الاسرائيلية من الدراسة لعدة سنوات للأراضى والاستحكامات السورية ، وقد امكن للاسرائيليين عن طريق الفحص الدقيق بنظارات الميدان والصور الجوية — حيث كان السوريون المحليون

يحرثون حقولهم — ان يعرفوا اين توجد الاماكن الصالحة للمناورة ، وتم تمرير هذه المعلومات الى القادة على جميع المستويات حتى على مستوى الفصائل .

الهجوم الاسرائيلى :

فى الساعة ٣٠ر١١ صباحا قفز لواء « مندلر » — الذى التحقت به عدة سريات لجولانى فى سيارات قصف مجنزرة — من ضواحى « كفار زولد » وعبر الحدود ، وسرعان ما واجهت هذه الوحدات عدة مشاكل حادة ، كان الطريق يمتد عبر ارض بالغة الصعوبة كان يتعين ان يتم الخوض بها فى وضح النهار فى حين يتحرك الطابور باكمله على محور واحد ، وكان لابد ان يتم الصعود الى أعلى الحافة بهدوء ، بالرغم من النيران السورية الثقيلة ، لأن أى توقف للعربات فى الطريق يؤدى الى تعطيل الطابور باكمله ويتركه معرضا تماما لنيران كاسحة من المدافع السورية اعلى الحافة .

وكان تقدم « مندلر » يتجه عامة الى شرق وشمال شرق المنحدر الصخرى الشديد الانحدار يقوده فصيلة هندسية منها عدد ٨ بولدوزرات غير محمية يتبعها مباشرة دبابات سنتوريون وسيارات نصف مجنزرة ، وسرعان ما تعرضت البولدوزرات مباشرة لنيران واهية من دبابات سورية مدفونة ، لم يظهر منها سوى مدافعها وابراجها ، وقد دمر المشاة الاسرائيليون بعد ذلك هذه الدبابات ، ولكن كل البولدوزرات اصيبت ودمرت ثلاثة منها وفقدت كل منها العديد من طاقتها اثناء هذا التقدم الذى تكلف مليارا .

ومما يبعث على الدهشة ان هذا التقدم لم يضطرب ابدا ، وكان من السهل التغلب على موقع « ناموشى » بقوة الدبابات المتقدمة ، ومن هناك كان عليها ان تسلك طريقا وعرا يؤدى فى الاتجاه العام الى « زاوورا » . ولما كان قائد الكتيبة الاسرائيلية المتقدمة لا يعرف ان هناك طريقين من هذه الطرق الجبلية فقد سلكت كتيبة الطريق الخاطىء متجهة شرقا عبر « سير اديف » الى « كالا » بدلا من الشمال الشرقى الى زادورا ، ويرجع هذا الخطأ الى حقيقة ان مندلر وضباطه — نظرا لأنهم نقلوا فجأة من جبهة سيناء الى الجولان ، لم تكن مألوفة لهم شبكة طرق الجولان كما هى مألوفة لضباط القيادة الشمالية .

ولم يدرك « مندلر » هذا الخطأ الا بعد ان اشتبكت كتيبة الدبابات القائدة مع الدفاعات فى « سير اديف وكالا » ، والتى تضمنت عوائق مضادة للدبابات ومدافع سو ١٠٠ ومجموعة من الأسلحة المضادة للدبابات ، الا ان هذا لم يكن بالأمر الخطير حيث كان قد تم الوصول الى قمة الجبل ، وعلى هذا فان مندلر قسم لواءه ليسمح للطابور القائد بمواصلة الهجوم على

« كالا » فى حين تقدم الطابور الثانى الى « زاووارا » التى سرعان ما تم الاستيلاء عليها حوالى الساعة ٠٠ر٤ مساء .

ومع ذلك فقد استمرت الدفاعات الرهيبة فى « كالا » فى احباط كتيبة « مندلر » القائدة والتى تم صدها عدة مرات ، وفى هذا الوقت كان لدى الكتيبة المهاجمة دبابتان فقط فى المعركة ، ولكن بعد الظلام مباشرة تحركت كتيبة « مندلر » من « زاوورا » الى الجنوب لتطويق موقع كالا الذى اخلاه السوريون فورا ، وبذلك انتهى الخطأ المبدئى بالنسبة لتواجد لواء «مندلر» فى مواقع لم يكن يتوقع الاسرائيليون التواجد فيها حتى اليوم التالى .

فى نفس الوقت قفز لواء « جولانى » من منطقة « دان » ليتقدم فى طابورين تسبق كل منهما دبابات من الكتيبة المدرعة الملحقة . واخذ احد هذين الطابورين الطريق القديم تجاه « بانياس » ، والآخر اخترق المدينة بين المواقع السورية فى « تل عزازيات وتل فاهار » ، وتجاوز طابور اللواءان الرئيسيان « تل عزازيات » وتجمعا على « تل فاهار » .

كان الموقع السورى يحيط به ثلاثة اسوار من الأسلاك الشائكة المزدوجة وعليه عدة حقول للألغام ، ويتكون من عدد من الخنادق ، وموقع المدافع الآلية والمدافع المضادة للدبابات والخنادق المسقوفة ، ولم يتمكن جنود الكولونيل « افرات » من ازالة هذا الاستحكام الرئيسى الا بعد ثلاث ساعات من قتال التحامى عنيف داخل الخنادق وحولها ، ويعتبر هذا القتال المكثف — وان كان قصيرا — اخطر قتال فى الحملة القصيرة كلها على هذه الجبهة .

وقد انسحب المدافعون عن « تل عزازيات » حوالى المساء بعد تعرضهم للنيران فى مؤخرتهم اليمنى ، وسرعان ما احتل لواء « جولانى » هذا المرتفع ايضا . ودفع بدوريات الى اعلى المرتفع ، وعند حلول منتصف الليل كانت قوات « جولانى » قد ضمنت مواقع اعلى القمة الأولى ، وبذلك تحقق لهم هدف اليوم الأول .

وبينما توج النجاح محاولات قوة الهجوم الاسرائيلى الرئيسية ، انتشرت الوية المشاة بقيادة كولونيل « ايمانويل شهير وكولونيل يهودا جافيش » الى الجنوب حتى راس الجسر السورى القديم عبر الأردن فى ميشمار هاياردين (وكانت فى ذلك الوقت منطقة منزوعة السلاح) وبدات هجماتها الثانوية المكلفة بها ، لقد كان لواء شهيد « فى احتياطى القيادة الشمالية بينما كان لواء « جافيش » فى بيت شين ، وتم الاستيلاء على ثلاثة مواقع سورية رئيسية فى دار باشيا جالاينيا وداردارا ، الى الشمال الشرقى مباشرة من بحر الجليل ، وبعد حلول الليل مباشرة قفز لواء كولونيل يورى رام المدرع والذى كان قد تحرك من الأردن ، من ضواحى جونين شمال « دارياشيا » ، وشق طريقه صاعدا الطريق الجبلى المتعرج للاستيلاء على قرية « راويا »

على خط الأنابيب ترانس ارابيان (المعروف باسم تابلاين) ، وكانت النيران ضعيفة فيما بين منتصف الليل والفجر اذ كانت الوحدات الاسرائيلية قد اعادت تجمعاتها ، واستراحت واستعدت لمواصلة التقدم فى اليوم التالى بينما استمرت القوات السورية فى انسحابها .

وفى دمشق استولت الدهشة والمرارة على الحكومة السورية والقيادة العليا من الانتهاك الاسرائيلى لوقف اطلاق النار ، ولما كانت كل من مصر والأردن قد خرجتا من الحرب ، لم يكن لدى السوريين اى امل فى النجاح فقد ارسلوا احتجاجا فوريا الى مجلس الامن فى الأمم المتحدة واصدروا اوامر بالانسحاب من منطقة خط الدفاع الأمامى والانتشار دفاعا عن دمشق .

والواضح من نتائج القتال فى « كالا » وتل فاهار « ان الهجوم الاسرائيلى كان يمكن ان يكون ناجحا حتى ولو كان السوريون قد قرروا الصمود والقتال على طول الخط — وواضح ايضا من هذا القتال على اية حال — ان اى محاولة سورية للمقاومة كان يمكن ان تعطل التقدم الاسرائيلى الى حد كبير ، ولكن ما حدث أنه بعد ظهر يوم ٩ يونية كان السوريون ينسحبون على طول الخط .

اليوم الثانى :

وفى يوم ١٠ يونية بعد الفجر بقليل عهد الجنرال « لانر » الى اللواء المدرع بقيادة لفيتنانت كولونيل « موشى باركو شفا » — والذى كان يتقدم خلف لواء جولانى على الطريق من دان بالهجوم تجاه تل حرمة وقرية بانياس وكانت هذه الهجمات — التى لم تلق مقاومة فى الواقع — ناجحة ، وارسل اللواءان اللذان اصبحا الآن فى امان فى سهل الجولان فصائل الى الشمال الغربى لاحتلال قريتى « الخيلة والعباسية » على الحدود اللبنانية ، فى نفس الوقت تحركت القوات الأساسية للواءين شرقا من « بانياس » شمال زاعورا لتطهير عين فايت ومساعدا على المنحدرات الجنوبية لجبل هيرمون .

وبعد الفجر بقليل ارسل ايضا الجنرال لانر لواء مندلر شرق زاعورا وكالا فى الاتجاه العام للقنيطرة ، وفى نفس الوقت بعد ان تقدم لواء رام الى الجنوب الشرقى على امتداد خط انابيب البترول التابلاين الى كفار نفاح تحول ايضا الى الشمال الشرقى تجاه القنيطرة . وهكذا كانت هناك اربعة الوية اسرائيلية تتقدم فى اواخر الصباح نحو القنيطرة فى جبهة عريضة على شكل قوس يمتد من « مساعدا » فى الشمال الى « كفارنفاخ » فى الجنوب ، وكان لواء « جولانى » ودبابات « باركوشفا » تتحرك على الطريق عبر « المنصورة » ، ولما وصل لواء « مندلر » الى مفرق الطريق عند (كاسيت) كان يتجه شمالا ، اما لواء « رام » فكان يتجه فى اتجاه

شمال شرق . ولم يتحقق الهجوم السورى المضاد الذى كان متوقعا لان السوريين — كما سبقت الاشارة — قرروا عدم التصدى للهجوم ، ولما حلت الساعة الواحدة مساء كانت مدينة القنيطرة قد استسلمت تماما للاسرائيليين، حينئذ تقدم لواء « مندلر » الى وسط المدينة دون مقاومة اللهم الا من بعض القناصة بين آن وآخر ، وبعد عبوره للمدينة ومعاودة عبوره لها عدة مرات طبقا للتكتيكات الاسرائيلية المعتادة فى حرب المدن ، ابلغ فى الساعة الثانية والنصف أنه اصبح فى أمان .

وفى نفس الوقت كانت هناك عملية تتم بنفس النجاح وان اختلفت عنها فى نوعها فى جنوب مرتفعات الجولان بين بحر الجليل ونهر اليرموك .

وفى باكورة اليوم العاشر كان الجنرال « بيليد » ومعه فرقة اعيد تكوينها جوهريا تسلك طريقا متعرجا غادرا ، صاعدا منحدرا صعبا ضد مقاومة ضحلة وبالاضافة الى لواء المشاة بقيادة الكولونيل « آفنون » كانت فرقة « بيليد » تتضمن لواء المظلات بقيادة الكولونيل « جور » كما تتضمن لواء مختلطا من المدرعات والمشاة من القيادة المركزية « من المفروض انها كانت بقيادة الكولونيل يورى رام » كان لواء « افنون » فى المقدمة صاعدا الجبال الى « التوافيق » مستوليا على القرية المهجورة حوالى الساعة ٣٫٠٠ مساء . ثم تبعه المدرعات متخذة طريق وادى اليرموك لا المتعرج ومتجها الى المرتفعات ، وفى نفس الوقت قامت كتيبة من قوات المظلات تحملها الطائرات العمودية بالاستيلاء على بلدتى « فك والعال » قاطعة خطوط اتصال القوات السورية القليلة الباقية فى منطقة الجنوب الغربى للجولان . ثم تقدمت هذه الكتيبة لتنطلق شمالا نحو « بوتميا » ومفرق رافيد .

ارسل الكولونيل « شهيد » كتيبة المدرعة شرقا والى الجنوب الشرقى من « دارباشيا » مكتسحا القطاع الأوسط من الجولان لينضم الى « بيليد » وجنود مظلاته فى « بوتميا » ، بينما تقدمت مشاة شهيد وكتائب المظلات جنوبا الى المنطقة المنزوعة السلاح فى « مسمار هاياردن » واستولت على كوبرى بنات يعقوب ، ومن هناك اتجهوا شرقا للحاق بكتيبتهم المدرعة فى اتجاه « آل كوشيفا » و « بوتميا » ، فى نفس الوقت تحرك لواء كولونيل « جافيش » جنوبا من « داردارا » لتطهير الساحل الشرقى لبحر الجاليلى .

اجتمع مجلس الأمن بالأمم المتحدة فى نفس الوقت فى نيويورك فى جلسة طارئة يوم ٩ يونية بعد اندلاع القتال على جبهة الجولان — وفى آخر مساء اليوم التاسع — باكورة صباح اليوم العاشر فى الشرق الأوسط . كان يبدو ان التصويت على قرار مقبول بشكل عام أمر وشيك الحدوث . وعلمت تل ابيب بذلك عن طريق وزير خارجيتها « أبا ايبان » الذى كان يرأس الوفد الاسرائيلى . فى هذا الوقت عرف الجنرال « رابين » ان اختراقا تاما قد

تم التوصل اليه فى جبهة الجولان ، ولكن (كما قال للمؤلف فيما بعـد) كان يعارض فى التراجع فى هذه المرحلة الهجومية الى ان تستولى قواته على القنيطرة ، ويقيم خطا دفاعيا معقولا فى شرقى مرتفعات الجولان ليطل على سهل دمشق . وبناء على رغبته استطاع ابا ايبان ان يسوف كسبا للوقت على اساس حاجته « للتشاور مع حكومته » ، وفى تل ابيب وقبل الظهر بقليل ، لمـا تأكد رابين ان القنيطرة على وشك السقوط ابرقت الكلمة الى مستر ايبان فى نيويورك ، وكان الوقت بعد الفجر بقليل فى نيويورك حين وافق مجلس الأمن على القرار الذى يدعو لوقف اطلاق النار خـلال ٦ ساعات .

فى نفس الوقت كانت القوات الاسرائيلية قد استولت على كل اهدافها وبالتالى كانت على استعداد للانصياع لمـا اصبح وقف اطلاق النار ساريا فى الساعة ٦٫٣٠ مسـاء .

قدرت الخسائر الاسرائيلية فى معركة مرتفعات الجولان التى استمرت يومين بـ ١٢٦ قتيلا ، ٦٢٥ جريحا ، وتم اعطاب ١٦٠ دبابة ، الا ان معظمها تم اصلاحه سريعا ، ولم تعلن الخسائر السورية رسميا ابدا ولكنها قدرت بحوالى ٦٠٠ قتيل ، ٧٠٠ جريح وحوالى ٥٧٠ اسيرا او مفقودا ، وفقد السوريون ٧٣ دبابة ، ١٣ مدفعا اس يو ١٠٠ ، وقد تم الاستيلاء على حوالى ٤٠ دبابة منها صالحة للاستعمال ، وفقد السوريون ايضا ١٣٠ قطعة مدفعية حطمت نصفها المدفعية الاسرائيلية او الغارات الجوية بينمـا تم الاستيلاء على الباقى .

وكان هناك عدد من التقارير عن تواجد الضباط السوفيت بين القوات السورية اثناء المعركة ، وانه تم سماعهم يتحدثون بالروسية فى الراديو ، كما تم اسر خمسة من الضباط السوفيت ، وذكر ايضـا أن الاسرائيليين التقطوا الاشارات اللاسلكية الروسية ، وان بعضها قد سمعه مراسلو الأخبار الذين يتكلمون الروسية والذين كانوا يراقبون سرا الموجات الهوائية. وبعد الحرب اشار الجنرال العازار تلميحا الى ان اشارات لاسلكية روسية قد تم التقاطها ، وان كان المتحدث العسكرى الاسرائيلى قد انكر تماما انه تم اسر اى ضباط او مستشارين آخرين من الروس .

وقد انكر السوريون بشدة وجود اى مساهمة من اى ضباط روس سواء فى التخطيط او ادارة العمليات ، ويقولون : انه لم يتم اطلاقا ارسال اية اشارات لاسلكية روسية على شبكاتهم اللاسلكية ، واذا كان قد حدث ذلك فانهم يرجحون انه تم على ايدى اسرائيليين يتحدثون بالروسـيـة ، وليس هناك ما يدعو الى عدم التسليم ظاهريا بكل ما قاله الســوريون ومتحدث قوات الدفاع الاسرائيلية .

الملاحظـات

(١) حيث ان الجنـود الاسرائيليـون كانوا ينتشرون داخـل بعض المستوطنات وقريبا منها ، واستطاع الاسرائيليون الادعاء — ولهم بعض الحق — ان اهدافا غير عسكرية قد هوجمت .

(٢) يعتقد السوريون ان هذا النشاط التكتلى الغريب كان من اقتراح الجنرال العازار .

(٣) موشى ديان ، قصة حياتى (تل ابيب ، ١٩٧٦) صفحة ٣٠٠ . انظر ايضا صفحة ٣٠٦ .

(١٤)

الحــرب فى البحــر

الاستعدادات البحرية المصرية :

لقد اعيد تنظيم الأسطول المصرى تنظيما جوهريا فى السنوات التى تلت حرب ١٩٥٦ ، على النسق الروسى الى حد كبير ، وتضمنت التغيرات الجوهرية زيادة الاهتمام بحرب الغواصات واستخدام الزوارق الصاروخية الصغيرة المواجهة ، وقد تسلمت مصر عددا من الغواصات الروسية الصنع مع قوارب صاروخية موجهة من طـراز « كوما » و « اوسـا » مزودة بصواريخ (ستكس) بالاضافة الى مدمرات وزوارق للدورية وكاسحات للألغام وزوارق لبث الألغام ، وكان البحارة مدربين تدريبا جيدا على استخدام السفن والأجهزة والمعدات والأسلحة الجديدة ، وان كانت اعادة التنظيم غير تامة ، الا انه بحلول منتصف عام ١٩٥٧ كان الأسطول المصرى ربما افضل استعدادا للقتال من اى الأسلحة الثلاثة الأخرى ــ الجيش ، والقوات الجوية وقوات الدفاع الجوى .

على اية حال لم يكن الأسطول المصرى فى الحقيقة متأهبا لامكانية الحرب هذا اذا تركنا جانب احتمال نشوبها فى أواخر مايو واوائل يونية ، ولم ينكر الرئيس عبد الناصر الذى كان واضحا تماما فى ذهنه عدم السماح للأزمة ان تفلت من يده وتتدهور الى حد الحرب ، والذى كان غافلا بشكل غريب عن آثار أفعاله على الاسرائيليين . لم ينكر ان يمد البحـرية بأية تحذيرات اكثر من التأهب العادى ، فلما اندلعت الحرب فجأة فى ٥ يونيـة كان لدى السلاح البحرى عدد من الخطط المناسبة لاستعداد طويل المدى ، الا انه لم يكن مستعدا لأى عمل مباشر اكثر من الدفاع العام عن الشواطىء والأمن المحـلى .

الاستعدادات البحرية الاسرائيلية :

فيما بين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ تضاءلت البحرية الاسرائيلية لاحالة معظم مدمراتها الأصلية الى الاستيداع ، ولعجزها عن ايجاد المـال او الموارد لشراء سفن حربية جديدة من الخارج ، ولم يود ما تم الحصول عليه ــ وهو فقط غواصتان بريطانيتان من طراز اس (من مخلفات الحرب العالمية

الثانية) وعدة سفن للانزال ــ الى معالجة هذا الانكماش ، وفى نفس الوقت كان مخططو البحرية الاسرائيلية يراقبون توسع مصر فى اسطولها وتحديثه.

ورد الفنيون فى البحرية الاسرائيلية على ذلك بتطوير صاروخ جديد عابر من باخرة لباخرة ، ثم قاموا بالاشتراك مع بناة السفن فى المانيا الغربية بتصميم قارب دورية رخيص ذى فعالية قتاليـة ، وسريع التحـرك .. وهكذا كانت اسرائيل تخطط لتأسيس كل قدرتها البحرية على عمارة بحرية مكونة من نوع واحد من سفن الداورية السريعة ، كل منها يحمل صواريخ قدر لها نظريا ان تعطى القوة الضاربة المتفجرة لاسطول يتكون من طرادات ٨ بوصات ، دون التعرض للخطر او النفقات او تعقد التسليح الكامل .

وقد ادى التصميم الى صنع قطع بحرية من طراز « سار » ٢٥٠ طنا معدة لنظام الصاروخ « جابرييل » سطح ــ سطح اس اس ام وتم تصميم نوعين منها :

١ ــ ٦ قوارب بتشكيلات متنوعة من صواريخ « جابرييل » المطورة اسرائيليا ومدافع عيار ٤٠ مم ، طوربيدات .

٢ ــ انماط من ٦ قوارب حربية مسلحة بمدفع عيار ٧٦ مم له غرض مزدوج ليحل محل المدافع ٤٠ مم وواحدة او اثنين من الأنابيب القـاذفة للطوربيـد .

ونظرا للتطورات السياسية فى المانيا الغربية التى كانت تقع تحت ضغط سياسى واقتصادى من جامعة الدول العربية اضطر الاسرائيليون الى تحويل عقد بناء السفن الى ترسانة فى شربورج بفرنسا .. وبالتالى ضاع وقت كبير ، ولم يبدأ البناء الا فى اواخر ربيع ١٩٦٥ ، وكانت الخطة اصلا ان يتم بناء ٦ سفن فى الترسانة الأجنبية ، بينما تقوم اسرائيل بدراسـة التكنولوجيا والحصول عليها للبناء محليا للست قطع التالية ، ولكن نظرا للتأخير الذى حدث تمهد الى بناة السفن الفرنسية باتمام بناء الاثنتى عشرة سفينة ، وخطط الاسرائيليون لبناء نوع محسن من طراز « سـار » محليـا بعد تسليم الاثنتى عشرة قطعة الأولى .

وتم تصميم صاروخ « جابرييل » ليسير فى ممر يتفادى الأمواج ويتحاشى كل الأنواع المعروفة للتتبع والمطاردة ، وكانت القواعد ذات الغرض المشترك ــ التخزين والقذف ــ محصنة ضد عوامل الجو وتحمل القذائف معـدة للاستخدام فى الحال .

الا ان هذا كله كان للمستقبل ، ولمـا حل مايو ١٩٦٧ لم تكن قطعة واحدة من قطع الصواريخ الجديدة قد تم تسليمها ، وكان الاعداد لعناصر القتال الرئيسية للأسطولين المضادين فى ذلك الوقت كما يلى :

النوع	اسرائيل	مصر
مدمرات	٣	٧
غواصات	٣	١٢
حاملات الصواريخ	—	١٨
قطع مضادة للغواصات	١	١٢
زوارق طوربيد آلية	٨	٣٢

وكانت هناك مدمرة واحدة من المدمرات الاسرائيلية الثلاث فى الخدمة وكانت احدى الغواصات الثلاث من مخلفات الحرب العالمية الثانية هى الغواصة « رحاف » غير صالحة للغوص بينما كانت الثانية بالية ، وفى ١٩ مايو بدات اسرائيل ببرنامج اقتحامى للوصول باسطولها الى اقصى درجات الاستعداد بصرف النظر عن العدد المحدود لسفنه وعمرها .

فى هذه اللحظة كان عدد بحارة الأسطول الاسرائيلى يعادل ضعفى ما يمكن ان تستوعبه السفن والمعدات الموجودة ، فانشئت قاعدة جديدة فى « أشدود » يمكن أن تعمل منها زوارق الطوربيد ولقطع البحرية الخفيفة ، وتم تجهيز عدد من السفن بالرادار والمدافع الجديدة ، كما تم تسليح عدد من سفن الصيد لأعمال الدوريات ، وتم تزويد الغواصة العاجزة « رحاف » باجهزة « السونار » ، وتم تسليحها بقاذفات الأعماق لتعمل كسفينة دورية ضد الغواصات .

وفى أواخر مايو اعيد تسمية المدمرة المصرية السابقة « ابراهيم الأول » باسم « حيفا » بعد أن تم اصلاحها واعادة طلائها وانزالها الى البحر فى فترة قصيرة تثير العجب هى ٤٨ ساعة ، وتم اعداد عدد من سفن الانزال البرى التى كانت تبنى فى الترسانات الاسرائيلية والتى لم يكن مقررا لها الاكتمال الا فى أواخر أغسطس ، وانزلت الى البحر فى ظروف خمسة أيام من بداية التأهب ، ولم يكن فى واحدة منها سوى محركين فقط من محركاتها الثلاثة ودفة مرتجلة ، ومع ذلك فقد دفع بها الى المعمعة .

لقد اعتمد الاسرائيليون اعتمادا كبيرا على الخديعة والمفاجاة بمضاعفة قوتهم القتالية ، وذلك لقصورهم العددى العام ، وكان هذا ينطبق بالذات على أسطولهم الذى كان يعتبر أضعف الأسلحة الاسرائيلية الثلاثة .

كان الهدف الرئيسى للأسطول الاسرائيلى هو اضعاف الوجود البحرى المصرى فى البحر المتوسط بقدر الامكان للتقليل من الخطر الذى يهدد التجمعات السكانية الاسرائيلية على ساحل البحر المتوسط ، وقد تمت احدى

الخطوات لتحقيق هذا الهدف بتحريك اربع من قطع الانزال البحرى عبر البر الى ايلات بشكل ظاهر فى وضح النهار ، ثم نقلها ١٥ كم فى الداخل ليلا لاعادتها ثانية الى ايلات فى اليوم التالى ، وقد تم تكرار هذه المناورة عدة مرات فى الأيام الأولى من نوفمبر للايهام بتهديد كبير لشرم الشيخ ، وتم تدعيم هذه المناورة بارسال زوارق الطوربيد الثلاثة المتمركزة فى ايلات فى دوريات نحو البحر الأحمر ، وكان مجال تحركات السفن الاسرائيلية فى الواقع محدودا جدا ، اذ كانت لا تستطيع القيام برحلة ذهاب وعودة الا اذا واتتها الريح ذهابا وايابا .

لقد نجحت الحيلة ، ولما تفجر القتال كانت نسبة ٣٠٪ من الاسطول المصرى فى البحر الاحمر ، ولم يسهم نشاطها الا قليلا فى المجهود الحربى ، ولما اغلق عبد الناصر قناة السويس بسفن قديمة اصبحت السفن الموجودة فى اسطول البحر الأحمر عاجزة عن العودة الى البحر المتوسط وانتهى بها الأمر الى ان ترسو فى ميناء الحديدة فى اليمن قرب الطرف الجنوبى من البحر الأحمر .

العمليات

لقد كانت عمليات الأسطول المصرى هى التى ادت الى التعجيل بنشوب الحرب . ففى منتصف مايو . كما سبق الذكر . اعلن الرئيس عبد الناصر حصارا ضد السفن الاسرائيلية ونطاق تحركاتها فى مضيق تيران . وفى الواقع ان هذا الحصار لم ينفذ ابدا ، كما انه لم يوضع ابدا موضع الاختبار .

وفى مساء اليوم الموعود ـ الاثنين ٥ يونية ـ حاولت الضفادع البشرية الاسرائيلية مهاجمة السفن الحربية المصرية فى كل الموانى المصرية الرئيسية وفى البحر المتوسط : فى بور سعيد والاسكندرية ، وكان الهدف الرئيسى هو تدمير اكبر عدد ممكن من السفن الحربية المصرية .

وفى بور سعيد بينما اقتربت زوارق الطوربيد المهاجمة خرجت اثنتان من وحدات الصواريخ « أوسا » من خلف حاجز المياه للتصدى ، وعلى اية حال كان المدى قصيرا جدا لاستخدام صواريخها ، وبعد تبادل قصير لاطلاق النار انسحبت الى داخل الميناء .

وسبحت الضفادع البشرية الاسرائيلية الى الميناء للبحث عن ثلاثة زوارق طوربيد وثلاث سفن حربية مضادة للغواصات كان الاعتقاد سائدا بانها مخباة هناك ، بالاضافة الى وحدتى « اوزا » اللتين سبق صدهما، ولم يمكن العثور على هذه السفن ، وانما عثر بدلا منها على اثنتين من ناقلات البترول لم يتم مهاجمتها ، خوفا (كما يقول الاسرائيليون) من الحاق الأذى باهالى الميناء والمدنيين ، وعاد رجال الضفادع دون ان يؤدوا مهمتهم

وطوال ليل ٥ يونية ، راقبت السفن الاسرائيلية مدخل الميناء لوقف اية محاولة لجلب تعزيزات بحرية من الاسكندرية ، وكان الاسرائيليون مهتمين بصفة خاصة بقوارب الداوريات السريعة « اوزا وكومار » ، وقدرتها على التقدم السريع الى ما يقرب من ٣٥ ميلا من تل أبيب (وهو اقصى مدى لصواريخ ستيكس) حيث يمكنها قذف ١٠٠٠ رطل من الرؤوس « الطوربيدية » ضد المدينة .

وفى الحقيقة لم يتم التحرك من الاسكندرية ، نظرا لأن مجموعة اخرى من السفن الاسرائيلية كانت قد شغلت البحرية المصرية فى هذا الميناء ايضا ، وفى صباح اليوم التالى ٦ يونية خرجت وحدات البحرية المصرية من بور سعيد منسحبة الى الاسكندرية حيث لم تشكل قاذفات « اوزا » و « كومار » التى كان يخشى منها اى تهديد للساحل الاسرائيلى .

وفى المحاولة الاسرائيلية « لتعجيز » السفن فى الاسكندرية انزلت الغواصة الاسرائيلية العاملة الوحيدة ضفادع بشرية تحمل شحنات متفجرة ، واخترقوا الميناء بدون حادث ، ويعتقد الاسرائيليون انه قد تم تعطيل او تدمير قاربين من قوارب « اوزا » المصرية وغواصتين ، ولكن لم يتأكد ذلك ، ويصر المصريون على أن الضفادع البشرية فى الاسكندرية ـ كمثيلتها فى بور سعيد ـ قداختنفت تماما فى مهمتها وتحقيقا لاحتياطات الأمن المألوفة ، قام المصريون بنقل مواقع كل السفن الحربية ، ويقولون ان الضفادع البشرية قد دمرت كراكة واحدة فقط ، ولم يتم اغراقها ، وطوال هذه الليلة طافت الغواصة الاسرائيلية حول نقطة التجمع ، كما مر طائف مرة اخرى فى ساعة معينة من الليلة التالية . وعلى اية حال لم يعد رجال الضفادع البشرية الاسرائيليون الستة وتم للمصريين اسرهم جميعا .

وكان قد تم تخطيط لهجوم برمائى ضد العريش وهو المركز المصرى لتموين الجيش فى سيناء ، مساء الاثنين ٥ يونية جنبا الى جنب مع اسقاط مظلى ، ولكن هذا التخطيط الغى قبل بضع ساعات من ساعة الصفر ، نتيجة للتقدم الرائع لقوات « تال » المدرعة عبر خان يونس ورفح .

وبعد حلول ظلام يوم ٦ يونية وتنفيذا لخطة سبق اعدادها ، دخل اسطول مصرى صغير فى البحر الأحمر مضيق القصبة بغرض شن هجوم ليلى على ايـلات وكان هـذا الأسطول المكون من مدمرتين و ٦ زوارق من قاذفات الصواريخ والطوربيد ينوى ضرب الميناء الاسرائيلى بعد منتصف الليل تماما ثم يغادر المياه المحدودة للخليج قبل طلوع الشمس ، وكانت الخطة الأساسية على اية حال تتوقع تدعيما من سـلاح الطيران المصرى ، الذى كان بالطبع عاجزا عن مثل هـذا الدعم بعد خسائره الجسيمة فى اليوم السابق ، وعندما ادرك القائد البحرى امير البحر « الشيخ » عدم تمكنه من الحصول على دعم جوى ، فراى أن الخطر الذى يهدد سفنه سيكون كبيرا جدا ، وعلى بعد ٣٠ ميلا من ايـلات عكس الأسطول الصغير اتجاهه ،

وعاد الى البحر الأحمر عبر خليج تيران فى الصباح الباكر ، وربما كان أمير البحر المصرى محقا فى قراره ، لأن زوارق الطوربيد الاسرائيلية الثلاثة كانت تنتظر فى كمين على بعد ٢٠ ميلا جنوب ايـلات ، وكان السـلاح الجوى الاسرائيلى متأهبا للتحرك لمساعدتها .

ولم يكن هناك سـوى عمل هجومى واحد آخر للبحرية المصرية له اهمية ففى مساء ٦ يونية ، اقتربت ثـلاث غواصات مصرية من الساحل الاسرائيلى ، اثنتان منهما الى نقط شمال وجنوب حيفا مباشرة ، والثالثة بالقرب من اسدود ، ولا يعرف ما اذا كانت قد قدمت لمهاجمة السفن او لانزال مخربين ، ومع أن الاسرائيليين كان لديهم ٤ اجهزة سونار فقط فى اسطولهم فانهم اكتشفوا واشتبكوا فى الأعماق مع الغواصات الثلاث وتم طردها كلها ، ويسود الاعتقاد بأن واحـدة منها قد اعطبت . وكان قائد البحرية الاسرائيلية العميد البحرى (الذى كان وقتئذ بريجادير جنرال) « شلومو ايريل » مسرورا ، وذلك لأنه بالرغم من المعدات المتطورة على ظهر الغواصات المصرية ، فانها لم تتمكن من أن تخدع اجهزة السـونار الاسرائيلية تماما ، وعلى اية حال كان استخدام المصريين الزائد والظاهر لمنظارات الغواصات عاملا رئيسيا لنجاح الاسرائيليين .

ونظرا لافتقار البحرية المصرية للاستعداد قبل الحرب فانها لم تكد تبدا فى التحرك الى مواقعها المخططة حتى اوقفت نهاية الحرب اى انتشار آخر لها ، وخـلال الساعات النهائية للصراع اشتركت البحرية المصرية فعلا فى العمليات البرية . ففى ٨ يونية سجلت فرقة من زوارق الصواريخ اثناء تجولها على ساحل سيناء بين بور سعيد والعريش ، بعض الضربات طويلة المـدى على قافلة اسرائيلية مدرعة على الطريق الساحلى ، وفى نفس هذا اليوم اضافت السفن الحربية المصرية قوة نيرانها الدفاعية الى القوات البرية فى الوقت الـذى كانت الدبابات الاسرائيلية تقترب فيه من قناة السويس بالقرب من السويس (بور توفيق) وبور سعيد .

حادث الباخرة « ليبرتى » :

كانت الباخرة الأمريكية « ليبرتى » وهى باخرة مخابرات الكترونية ، تعمل فى الركن الجنوبى الشرقى من البحر المتوسط عندما اندلعت الحرب ، وبعد ظهر يـوم ٨ يونية كانت تبحر غربا والى الشمال الغربى بسرعة خمس عقدات اى ما يقرب من حوالى ١٤ ميلا بحريا شمال العريش عندما هوجمت بـدون توقع بزوارق الطوربيد والطائرات المقاتلة الاسرائيلية . وقتل ٣٤ من افراد طاقمها وجرح ١٦٤ ، وقـد امكن انقاذ السفينة نتيجة لملاحة رائعة ، ولحسن الحظ وتمكنت من الوصول الى مالطة يوم ١٤ يونية .

وقد ذكر بـلاغ رسمى أمريكى صـدر يـوم ٨ يونية ان ليبرتى تركت ميناء روتا باسبانيا يـوم ٢ يونيه ، وارسلت الى ساحل سيناء لتأكيد الاتصالات بين مواقع الحكومة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، نظرا لأن حركة كبيرة للرسائل ستتخذ طريقها نتيجة لاجلاء المواطنين الامريكيين من الدول المنطقة المتصارعة ، ويبدو هـذا التفسير غريبا بالنسبة الى توفر شبكة واسعة للاتصالات فى القنصليات والسفارات الأمريكية .

ومع ما تحملته أمريكا من الضحايا ، ومع فشل الاسرائيليين فى التعرف على السفينة الأمريكية على الرغم من وضوح علمها وشاراتها ، والتصميم على الهجوم بعد التعرف على هويتها ، كل ذلك يثير الشك فى ان اسرائيل كانت تعلم أن السفينة أمريكية من البداية ، وهاجمتها خوفا من ان تؤدى محاولات السفينة فى جمع المعلومات الى الحاق الضرر باسرائيل ، وبالرغم من أن اسرائيل أبدت أسفها فانها لم تعتذر ابدا او تعترف بخطئها ، وأبدت استعدادها لتعويض المصابين واسر الضحايا بما يقرب من ٧ ملايين دولار وذلك للاحتفاظ بالوئام مع الولايات المتحدة .

ولم تفسر اى من الحكومتين الأمريكية أو الاسرائيلية هـذه الحادثة تفسيرا كافيا .

انظر « مؤامرة الصمت » تأليف أنتونى بيرسون ، بنتهاوس مايو ويونيـة ١٩٦٧ لشرح مثير تؤيده الوثائق للحادثة وما تلاها .

(١٥)

تذييل

الخسائر :

لقد نشرت كل الأطراف (او انها امدت المؤلف) بتقارير رسمية عن ضحاياها وخسائرها فى المعدات بدرجات متفاوتة فى الدقة ، ولم تكن حتى التقارير الرسمية للأطراف على درجة تامة من الثقة لعدة اسباب مختلفة . فالرقم الـذى أعلنته اسرائيل مثلا عن الـذين قتلوا فى العمليات يبدو انه لا يتضمن الضحايا الذين ماتوا فيما بعد نتيجة لاصاباتهم ، كما ان الاحصاءات عن الجرحى لا تتضمـن من كانت أصـاباتهم خفيفـة ممن لم ينقلـوا الى المستشفيات العامة .

على اية حال فالأرقام المسجلة فيما يلى تأتى من مصادر متنوعة ، وهى تقدير مركب يقترب من الدقة بقـدر الامكان ، ومسـتمد من البيانات غير المصنعة المتاحة .

	قتـل	جرحى	أسرى ومفقودون	العدد الكل	الدبابات المفقودة	الطائرات المفقودة
إسرائيل	٩٨٣	٤٥١٧	١٥	٥٥١٥	٣٩٤	٤٠
(فى مقابل مصر)	٣٠٣	١٤٥٠	١١	١٧٦٤	١٢٢	—
(فى مقابل الأردن)	٥٥٣	٢٤٤٢	صفر	٢٩٩٥	١١٢	—
(فى مقابل سوريا)	١٢٧	٦٢٥	٤	٧٥٦	١٦٠	—
العرب	٤٢٩٦	٦١٢١	٧٥٥٠	١٧٩٦٧	٩٦٥	٤٤٤
مصر	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٤٩٨٠	١٢٩٨٠	٧٠٠	٣٥٦
الأردن	٦٩٦	٤٢١	٢٠٠٠	٣١١٧	١٧٩	١٨
سوريا	٦٠٠	٧٠٠	٥٧٠	١٨٧٠	٨٦	٥٥
العراق	—	—	—	—	—	١٥

(١) تم إصلاح حوالى نصف هذا العدد وعاد إلى حالته الأصلية تماماً .

(٢) قام الإسرائيليون بتعديل حوالى ١٥٠ دبابة من طراز ت ٥٤ ، ٥٥ ووضع هذا العدد فى قائمة مابعد الحرب مما عوضها كثيراً عن خسائرها التى لم يتم إصلاحها خلال الحرب .

(٣) منها ٣٢٢ طائرة فقدت فى اليوم الأول .

(٤) الأرقام الحديثة وهى رسمية باستثناء تقدير المفقودين – أضيف ٢٠٪ من عامل التعديل القتل والجرحى لتقدير الخسائر بين المفقودين .

(٥) من بين هؤلاء ٥٣٠ كانوا أسرى حرب .

التقييم النوعى :

من الصعب مقارنة الأداء العسكرى للعرب بالاسرائيليين فى هذه الحرب ، لأنها كانت فى الحقيقة كانت ثلاثة حروب بثلاثة جيوش عربية مختلفة جدا — متحدة مذهبيا والى حد ما ثقافيا ، ولكنها تكاد تكون مستقلة تماما عن بعضها فى تقاليدها وعاداتها العسكرية — وبالطبع ثلاثة مواقف قتالية مختلفة فى نوعها تماما — فالجيوش العربية كانت قوات نظامية عاملة طول الوقت ، بينما كانت معظم الفرق المقاتلة الاسرائيلية من جنود يعملون بعض الوقت تحت تعبئتهم على عجل للقتال .

ولما كان من الواضح ان الاسرائيليين قد كسبوا الحرب ، فيجب الاتفاق على ان اداءهم القتالى العام كان احسن ، ويتضح هذا التفوق فى تقييم الكيفية التى كسبوا بها الحرب ، فقد كانوا اكثر فاعلية فى القتال ، يعنى هذا ان خسائرهم العامة ، وكذلك الخسائر فى كل وحدة بالنسبة لقوتهم كانت باضطرار اقل من تلك التى تحملها اى جيش من الجيوش العربية ، وكانت الخسائر التى انزلوها بخصومهم اكبر وباضطرار ، وكانت الوحدات القتالية الاسرائيلية اكثر عدوانية واكثر فاعلية فى استخدامها لاسلحتها المتكاملة واكثر استجابة لقيادتها .

كان الاردنيون احسن اداء بين العرب جميعا ، ومن الصعب تقييم الأداء السورى لأن السوريين لم يقوموا بدفاع صادق بناء على قرار سياسى ، ولم يكن السوريين ذوى فاعلية كبيرة فى استخدامهم للتحصينات القوية والأرض ذات الطبيعة الدفاعية فى الاشتباك الوحيد الذى حدث ، وبين الأداء السورى الضعيف الافتقار الى استمرارية القيادة والتدريب والمذهب ، مما ادت اليه التغييرات المتكررة فى الحكومة السورية فى السنوات السابقة للحرب ، اما المصريون فقد كان اداؤهم فى الجزء الأكبر من الحرب كأفراد وكوحدات فى نفس جودة الأداء الأردنى ، وفى موقف استراتيجى اصعب ، الا ان القيادة المصرية العليا كانت عائقا قاتلا .

ويجب الا نعطى قدرا اكثر من اللازم لفشل القيادة المصرية العليا ، لانه حتى اذا وجد قائد كبير يتمتع بالكفاءة والعزم ما كان ليستطيع ان يغير من نتيجة الحرب النهائية فى ضوء الفرق الواضح فى فاعلية القتال بين الاسرائيليين والمصريين ، وان كان فى استطاعته بالتأكيد تغيير مجراها فعلى الرغم من ان بعض القيادات التى كانت تحت امرة المشير عامر اثبتت عدم كفاءتها بل وجبنها فى بعض الحالات ، فقد اعطت قيادات اخرى اداء عاليا يستحق التقدير وكان مثلهم مثل الاردنيين سواء القيادات او ضباط الاركان فى الاستجابة العاجلة ذات الفاعلية فى المواقف القتالية الصعبة ، واذا كان هناك ضعف واحد مشترك بين القيادات العليا والمتوسطة فى كل الجيوش العربية فهو عدم كفاية التنسيق بين الالوية والفرق — لقد كانت القيادة الاسرائيلية العليا دائما اعلى من مثيلتها العربية ، ولم يتضح

هذا فى اعداد الخطط فحسب ، ولكن يتضح ايضا فى سرعة تعديل الخطط وتكييفها طبقا للظروف غير المتوقعة .

ولكن ما السبب فى هذا التفوق الاسرائيلى فى الفاعلية القتالية للوحدة والقيادة العليا ؟

يبدو ان هناك ثلاثة عناصر للاجابة على هذا السؤال : يأتى فى المقام الاول زيادة المرونة والعدوانية والديناميكية فى الجيش الاسرائيلى من السرية الى القيادات العليا . ثانيا كان مذهبهم وتنفيذه مما يزيد من مناسبته للظروف التى حاربوا فيها . ثالثا يبدو أن الاسرائيليين بزيادة نزعتهم الغربية والحضارية كانوا اكثر استيعابا للأسلحة والتكنولوجيا والأدوات المتطورة التى تم تزويدهم بها . ونظرا للاختلافات بين الثقافتين والمجتمعين كانوا بجلاء اكثر اعتمادا على النفس بينما كانوا فى نفس الوقت أقدر على التعاون مع بعضهم البعض فى العمليات الجماعية وكانوا اكثر تقبلا من الجنود العرب للنظام العسكرى والتدريبات العسكرية لقد كانوا اكثر مرونة واكثر تأهبا واكثر عدوانية من خصومهم على الرغم من انهم كأفراد لا يبدون اكثر جراءة او اكثر ذكاء او لديهم دافعية اكبر ، لقد كانوا فى القتال كجماعة اكثر فاعلية ، ويبين البحث فى سجلات الجيوش الألمانية فى الحرب العالمية الثانية تفوقا مماثلا فى فاعلية القتال على كل قوات خصومهم من دول الحلفاء أن مدى فاعلية الأداء المضطرد للقوات الوطنية الى درجة معينة من الفاعلية من الموضوعات التى تتطلب التحليل الجاد .

وتوجد ثلاثة عوامل اخرى لها دلالتها البالغة فى الانتصارات الاسرائيلية عام ١٩٦٧ : اولها واهمها كان التحقيق الناجح لعامل الفجائية ، اذ ان الهجمات غير المتوقعة جوا وبرا احدثت صدعا كبيرا فى القيادة المصرية ، وكذلك فى القيادة الأردنية ولكن بدرجة اقل ، ولم يستطع المصريون القيام باى استجابة مناسبة فاعطوا بذلك الاسرائيليين ميزة مبدئية فى سيناء كان من الصعب جدا التغلب عليها حتى لو كانت القيادة العليا ذات كفاءة .

والعامل الثانى الذى يكاد يكون له أهمية مماثلة فى استمرار المعركة هو تفوق الاسرائيليين فى الجو والذى حصلوا عليه بالهجمات التى تم تخطيطها بعناية وتنفيذها بروعة ، والتى بدات بها الحرب فى الصباح الباكر من يوم ٥ يونية ، اذ استطاع الاسرائيليون بالسيطرة التى كادت تكون تامة على الجو من التركيز على البر فى الميزة المبدئية للمفاجاة وتفوقهم فى فاعلية القتال دون حاجتهم للدفاع ضد هجمات من اسلحة اعدائهم الجوية . ويبدو ان الدلالة الكاملة لهذا التفوق الجوى والفاعلية الكاسحة للهجمات الجوية ضد القوات البرية العربية ، لم تصل الى التقدير الكامل حتى بين الاسرائيليين انفسهم الذين لم يتعرضوا هم انفسهم ابدا الى هجوم جوى حقيقى له فاعليته .

اما العامل الثالث وان كان اقل من العاملين الآخرين فى اهميته الا انه قد يكون فى حد ذاته عاملا له دلالة قاطعة هو التفوق الاسرائيلى فى استخدام السلاح ، فقد كان لديهم عـدد وافر من الدبابات الجيدة وغيرها من العربات المسلحة وقـد استخدموها استخداما جيدا ، وكانت طريقتهم فى المدرعات تعطى الأهمية للعمل الفجائى والحركة ، كما كان اداؤهم يتميز بالجسارة والمرونة والعدوانية ، وقد ادت هـذه العوامل مجتمعة الى أن تكون المدرعات هى العنصر الأساسى فى القـوة البرية التى ادت الى النصر الاسرائيلى . على اية حال وفى ضـوء التحليل النهائى لهذه الحرب ربما يكون الاسرائيليون قد اعطوا اهمية اكثر من اللازم لأسلحتهم المدرعة ومسئوليتها عن نصرهم الكاسح ، ففشلوا فى اعطاء الوزن المناسب لاسهام عامل الفجائية وقوتهم الجوية الكاسحة بالتالى يبدو انهم تجاهلوا فى السنوات التالية سلاحى المشاة والمدفعية فى بنائهم لقوتهم من الدبابات .

ومن الاعتبارات الأخرى التى نذكرها هنا باختصار ما يلى :

بينما تم القتال فى الحربين السابقتين بين العرب واسرائيل اساسا باسلحة ومعـدات من بقايا الحـرب العالمية الثانية (مع بعض التجديدات) فان بعض الأسلحة الجديدة تماما ظهرت فى معارك ١٩٦٧ البرية والجوية ، وكانت اهمها الصواريخ المضادة للطائرات وللدبابات ، وعلى اية حال يبدو ان هـذه الأسلحة الجديدة لم يكن لها اثر كبير على تكتيكات كل من الجانبين او على نتائج اى من الاشتباكات الأساسية .

وتم استخدام جيل جديد من الدبابات ايضا : اذ حلت فى الجانب العربى الدبابات السوفيتية الصنع من طراز تى ٥٤ — ٥٥ محل الدبابات طـراز تى ٣٤ بشكل كبير ، بينما حلت فى الجانب الاسرائيلى الدبابة سنتوريون بريطانية الصنع والدبابة باتون امريكية الصنع (ام ٤٨) محل دبابة الحرب العالمية الثانية شيرمان ، من ناحية اخرى مكنت التعديلات الاسرائيلية للدبابة شيرمان (مدفع جديد اكبر ومحرك جديد) أن تتنافس على قـدم المساواة تقريبا مع الدبابات الأردنية من طراز باتون ام ٤٨ .

لقد اعطى العسكريون الأمريكيون اهتماما اقل مما يجب لهذه التطورات فى الشرق الأوسط ، لأن عيونهم كانت مسلطة على الجنوب الشرقى من آسيا ، وكانوا ينظرون الى الصراع فى المستقبل فى اطار (الثورة المضادة) ، الا أن انتباه الجنود الأوربيين والبحارة والطيارين لم يكن بهذا الشكل ، ولعلهم اعطوا تقييما افضل للدلالة العسكرية للمعارك الاسرائيلية الخاطفة الثلاث — ولم يكن هناك من هو اكثر اهتماما وانتباها من السوفيت اذ كان لدى مستشاريهم ومراقبيهم على الأرض الفرصة ليروا بعض افضل أسلحتهم تستخدم فى القتال ضـد الأسلحة والمعدات الاسرائيلية التى تم الحصـول عليها من الغرب ، فعلى الرغم من الأداء الردىء عامة للقوات المزودة باسلحتهم يبدو أن السوفيت راوا انه لا توجد نواحى قصـور فنية أو فكرية ، فى الوقت

الذى سجلوا فيه طرقا ممكنة لتحسين معداتهم والحط من اداء معدات الغرب — من ناحية اخرى كانت هناك على الأقل ملاحظات واستنتاجات مماثلة وتغييرية قام بها الاسرائيليون .

القوى البرية والجوية بالتقريب فى حرب ١٩٦٧ :

	إسرائيل	العرب	مصر	الأردن	سوريا	العراق
القوى البشرية المتحركة للتعليمات(١)	٢٥٠,٠٠٠	٣٢٨,٠٠٠	٢١٠,٠٠٠	٥٥,٠٠٠	٦٣,٠٠٠	—
ألـوية	٢٥	٤٢	٢٢	١٠	١٢	—
قطع المدفعيـة	٢٠٠	٩٦٠	٥٧٥	٢٦٣	٣١٥	—
الدبـابـات	١,٠٠٠(٢)	٢,٣٣٠	١,٣٠٠(٥)	٢٨٨(٧)	٧٥٠	—
	١,٥٠٠(٣)	١,٨٤٥	١,٠٥٠	٢١٠	٥٨٥	—
سـام	٥٠	١٦٠	١٦٠	صفر	صفر	صفر
مدافـع	٥٥٠	٢,٠٠٠	٩٥٠	١٤٣	١,٠٠٠	—
الطائرات المقاتلة	٢٨٦(٤)	٦٨٢	٤٣١(٦)	١٨	١٢٧(٨)	١٠٦

١ — يتضمن الجانب العربى القوات الموجودة للعمليات فقط .

٢ — ٢٠٠ ام ٤٨ ، ٢٥٠ سنتوريون ، ١٥٠ ان ام اكس ١٣ ، ٤٠٠ شيرمان .

٣ — ام ٣ نصف جنزير .

٤ — تتضمن ٩٢ ميراج ، ٢٤ سـوبر ميستير ، ٨٢ ميسـتير ، ٧٥ اوراجانز ، ٢٤ قاذفات خفيفة .

٥ — تتضمن ٤٠٠ + تى ٣٤ ، ٤٥٠ + تى ٥٤ — ٥٥ ، ١٠٠ + اس يو ١٠٠ ، ١٠٠ + ج اس — ٣ .

٦ — تتضمن ٥٥ اس يو — ٦ ميـج ٢١ ، ٤٠ ميج ١٩ ، ١٠٠ ميج ١٥/١٧ ، ٣٠ تى يو ١٦ ، ٤٣ اى الـ ٢٨ ، ٣٥٠ طيارا فقط .

٧ — تتضمن حوالى ٢٠٠ ام ٤٨ ، ٩٠ سنتوريون .

٨ — تتضمن ٤٠ ميج ٢١/١٩ ، ٦٨ ميج ١٥/١٧ ، ١٥ تى يو ١٦ ، ٤ اى ال ٢٨ .

تقدير القوات البحرية فى حرب ١٩٦٧ :

	إسرائيل	مصر	سوريا
القوات البشرية	٤,٠٠٠	١٣,٠٠٠	١,٠٠٠
زوارق الداورية والطوربيد	٩	٤٤	١٧
زوارق الصواريخ الموجهة	صفر	١٨ (١)	٤ (٢)
المدمرات والبوارج الحربية	٣	٧	صفر
الغواصات	صفر	٥	صفر
القطع البرمائية	صفر	٥	صفر
القطع الصغيرة	؟	؟	؟
العدد الكلى للبواخر	١٥ +	٨٦ +	٢١ +

(١) تتضمن ٨ طراز كومار ، ١٠ طراز أوسا

(٢) طراز كومار كان قد تم تسليمها تواً وغير مستعدة للقتال .

التشكيل الاسرائيلى للمعركة
حرب ١٩٦٧

—

وزير الدفاع	جنرال موشى ديان
رئيس الأركان	ليفتنانت جنرال اسحق رابين
القيادة الجنوبية	بريجادير جنرال يشاياهو جافيش
فرقة مدرعة	بريجادير جنرال اسرائيل تال
لواء مدرع (السابع)	كولونيل شمويل جونين
لواء مدرع	كولونيل مناحم افيرام
لواء مظلات	كولونيل رافييل ايتان
قيادة قوة العمليات (فرقة مدرعة)	كولونيل يورى باردن
(قوة عمليات جرانيت)	كولونيل جرانيت اسرائيل
فرقة مدرعة	بريجادير جنرال افراهام لوفى
لواء مدرع	كولونيل ايسكا شادنى
لواء مدرع	كولونيل الهانان سيلا
فرقة مدرعة	بريجادير جنرال اريل شارون
لواء مدرع	كولونيل موردخاى زيبورى
لواء مشاة	كولونيل كوتى آدم
لواء مظلات	كولونيل دانى مات
لواء مدرع مستقل	كولونيل البرت مندلر (**)
لواء مشاة مستقل (+)	كولونيل يهدد ارشيف (منطقة غزة)
قوة عمليات مظلية مستقبلة	كولونيل اهارون دافيدى (منطقة شرم الشيخ) .
القيادة المركزية	بريجادير جنرال يوزى تاركيس
لواء مشاة (القدس ، اتزيونى)	كولونيل اليزير امتياى
لواء مظلات	كولونيل موردخاى جور
لواء ميكانيكي (اهاريل)	كولونيل يورى بن آرى
لواء مشاة	كولونيل زيف شيهم (قلتيلية)
لواء مشاة	كولونيل موشى يوتفات
القيادة الشمالية	بريجادير جنرال دافيد العازار

(*) وحدة محولة شمالا الى سوريا .

(**) قائد ومركز قيادة منقول شمالا الى سوريا .

التشكيل الاسرائيلى للمعركة

حرب ١٩٦٧

جبهة الأردن :

فرقة مدرعة	بريجادير جنرال ايلاد بليد (**)
لواء مشاة (*)	كولونيل اهارون افنون
لواء مدرع (*)	ليفتنانت كولونيل موشى باركوشفا
لواء مدرع	كولونيل يورى رام
لواء مشاة مستقل (+) (*)	كولونيل يهودا جافيش (بيت شمين)

جبهة سوريا :

فرقة مختلطة	بريجادير جنرال دان لانر
لواء مدرع	كولونيل البرت مندلر
لواء مشاة (جولانى)	كولونيل يونا افرات
لواء مشاة	كولونيل ايمانويل شهيد

التشكيل المصرى للمعركة

يونية ١٩٦٧

القائد الأعلى والنائب الأول للرئيس	المشير محمد عبد الحكيم عامر
رئيس هيئة اركان حرب القوات المسلحة	الفريق انور القاضى
القائد الأعلى للجبهة	الفريق اول عبد المحسن مرتجى
رئيس هيئة اركان الجبهة	اللواء احمد اسماعيل على
قائد الجيش الميدانى	الفريق صلاح الدين محسن
الفرقة الثانية للمشاة	اللواء سادى نجيب
الفرقة الثالثة للمشاة	اللواء عثمان نصار
الفرقة الرابعة المدرعة	اللواء صدقى الغول
قوة العمليات المدرعة	اللواء سعد الشاذلى
الفرقة السادسة الميكانيكية	اللواء عبد القادر حسن
اللواء الاول المدرع	العميد حسين عبد المناف
اللواء ١٢٥ المدرع	العميد احمد البنى

(*) وحدة محولة شمالا الى سوريا .

(**) قائد ومركز قيادة منقول شمالا الى سوريا .

التشكيل المصرى للمعركة

يونية ١٩٦٧

الفرقة السابعة للمشاة	اللواء عبد العزيز سليمان
الفرقة ٢٠ لجيش التحرير الفلسطينى (غزة)	اللواء محمد عبد المنعم حسن
لواء مشاة مستقل (شرم الشيخ)	العميد محمد عبد المنعم خليل
القوات الجوية	الفريق اول محمد صدقى محمود
القوات البحرية	امير البحر سليمان عزت
القائد الأعلى للقيادة العربية الموحدة	الفريق اول على عامر

التشكيل الأردنى للمعركة

يونية ١٩٦٧

قائد القوات المتحالفة للجبهة الأردنية	الفريق اول عبد المنعم رياض (مصرى)
القائد الأعلى	المشير حابس المجالى
نائب القائد الأعلى	الفريق اول شريف ناصر بن جميل
رئيس هيئة الأركان	اللواء عامر خماش
القائد العام ، الجبهة الغربية	اللواء محمد احمد سالم
لواء الامام على للمشاة	العميد احمد شهادى
لواء حطين للمشاة (جبرون)	العميد بهجت تحسين
لواء ٢٥ (خالد بن الوليد) للمشاة (جنين)	المقدم عوض محمد الخالدى
لواء ٦٠ المدرع (جيركو)	العميد شريف زيد بن شاكر
لواء ٤٠ المدرع (داميا)	العميد راكان عناد الجازى
لواء ٢٧ (الملك طلال) للمشاة (القدس)	العميد عطا على
لواء القادسية للمشاة (قطاع الوادى)	العميد قاسم الماتيح
لواء الأميرة عالية للمشاة (نابلس)	العميد تركى باراح
لواء الهاشمى للمشاة (رام الله)	العقيد كمال الطاهر
لواء اليرموك للمشاة (القطاع الشمالى)	العقيد مونادى عبد المصلح
القوات الجوية	الفريق اول صالح كردى

التشكيل السورى للمعركة
يونيـة ١٩٦٧

وزير الدفـاع	الفـريق حـافظ الاسـد
رئيس هيئة الأركان ، القائد العام ،	
الجيش الميـدانى	اللواء احمـد سودانى
لواء التجمـع ١٢	العقيد احمـد امـير
لواء ١١ للمشـاة	
لواء ١٣٢ احتياطى للمشاة	
لواء ٨٩ احتياطى للمشاة	
لواء ٤٤ المـدرع	
لواء التجمـع ٣٥	العميد سـيد تايان
لواء ٨ للمشـاة	
لواء ١٩ للمشـاة	
لواء ٣٢ للمشـاة	
لواء ١٧ ميكانيكى للمشـاة	
لواء التجمـع ٤٢	العميد عبـد الرزاق دردارى
لواء ١٤ المـدرع	
لواء ٢٥ للمشـاة	
لواء ٥٠ احتياطى للمشاة	
لواء ٦٠ احتياطى للمشاة	
لواء ٢٣ للمشاة (لاطاكيـة)	
القـوات الجـوية	الفـريق حـافظ الاسـد
القـوات البحـرية	العميد مصطفى شـومان

الكتاب الرابع

حرب الاستنزاف

١٩٦٧ — ١٩٧٠

(١)

من الكارثة الى التحـدى
ردود الفعل « للجولة الثالثة »

ترك الانتصار الاسرائيلى المذهل فى حرب الأيام الستة فى يونية ١٩٦٧ وفى اعقابه شعورا عميقا بالامتهان والمرارة بين العرب المهزومين ، واتجـه العرب باهتمامهم الى الحلول السياسية والدبلوماسية الممكنة ، مدفوعين فى ذلك برغبتهم فى استعادة الأراضى المحتلة واسـتعادة احساسهم باحترام الذات المحطم ، مع وعيهم التام بعجزهم من القيام باى من ذلك بالوسـائل العسكرية ــ على الأقل فى المستقبل القريب ، واتبعـوا فى نفس الوقت سياسة التعكير على القوات الاسرائيلية فى الاراضى المحتلة بمهاجمة أهداف متاحة لانزال خسـائر محـدودة فى الأرواح وأن كانت مؤلمة فى الجيش الاسرائيلى ، وذلك لتحقيق بعض الضغط على اسرائيل والحصول ايضـا على وسائل لاستعادة بعض من قدرتهم التى اضيرت كثيرا ، وقام الفدائيون الفلسطينيون بعمليات مكثفة جدا على طول الحدود الاسرائيلية نفسها وفى داخلهـا .

واخذت مصر ــ التى كان نصيبها من الصـدمة والتكاليف أعظم من غيرها ــ زمام المبادأة فى هذا الجهد الشاق لتسترد وعيها ، وكان رد الفعل المباشر للهزيمة التى تحمل الرئيس عبد الناصر مسئوليتها كاملة ، ان قدم استقالته من رئاسة مصر فى ٩ يونية . بيد انه كان هناك ــ ولدهشة بعض المراقبين الغربيين ــ رد فعل شعبى تلقائى فى مصر (وكذلك فى غيرها من الدول العربية) مطالبا باحتفاظ عبـد الناصر بمناصبه الحكومية ليكون فى القيادة التى تتطلبها الحاجة الماسة ، واعتقـد بعض الأجانب أن هـذه الاستجابة دبرها عبد الناصر وأعوانه وقد يكون الأمر كذلك ، الا ان رد الفعل الشعبى والانفعالى كان من الواضح أنه صادق وعارم ، فالغالبية العظمى من الشعب المصرى يساندها جزء كبير من العالم العربى قد أوضحت ارادتها الجماعية ، لقد تأثر بذلك الاقتراع الشعبى والديمقراطى بالثقة ، فسحب استقالته ، وعاد لتسليم زمام الحكم ، وفى ١٩ يونيـة قام باعادة تنظيم حكومته تنظيما شاملا ، بما فى ذلك عزل المشير عامر وكان غير كفء ، ليحل محله الفريق اول محمد فوزى ــ وأصبح الفريق أول عبد المنعم رياض رئيسا لهيئة اركان حرب الجيش المصرى .

وفى ٢١ يونيه جاء نيكولاى بورجورنى رئيس الاتحاد السوفيتى على راس وفد الى مصر ليبين استعداد الاتحاد السوفيتى وتصميمه على تدعيم مصر لاستعادة قوتها العسكرية تحت قيادة عبد الناصر ، كما قام بودجورنى فى أوائل شهر يولية بزيارات مماثلة لكل من سوريا والعراق ، وصدرت فى الدول الثلاث بيانات مشتركة تبين ان الاتحاد السوفيتى قد تعهد بمساعدة العرب ضد « العدوان الاسرائيلى » ، ومساندة الخطوات العملية التى يجب اتخاذها لازالة آثار هذا العدوان ، وكدليل على هذا التصميم بقى المارشال ماتفى زاخاروف فى مصر لمدة شهر للاشراف على البدء فى المساعدة العسكرية السوفيتية .

وكانت نتيجة الحرب فى اسرائيل ان عمت مشاعر الإبتهاج ، وزاد الشعور بالأمن ، وتحقق بعض الرضا ، واستولت قوات الدفاع الاسرائيلية على المدينة القديمة فى بيت المقدس التى كانت — على الرغم من كونها مدينة مقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين — مغلقة فى وجه الاسرائيليين منذ حرب ١٩٤٨ .

وفى ٢٨ يونية قامت اسرائيل بضم المدينة القديمة رسميا ، متحدية بذلك قرارات مجلس الأمن — وان كانت الأراضى المحتلة قد ظلت تحت حكومة عسكرية — وكان احتلال مرتفعات الجولان السرية يعنى ان المستوطنات الاسرائيلية فى وادى « الحولة » والتى ظلت تعانى مرارا من قصف المدفعية السورية لمدة ١٩ سنة — قد اصبحت الآن بعيدة عن مدى هذه المدافع(١) ، وان الاستيلاء على الضفة الغربية لنهر الأردن هيأ لاسرائيل جبهة شرقية يمكن الدفاع عنها — وان كانت مؤقتة كخط لوقف اطلاق النار — واخيرا احتلت قوات الدفاع الاسرائيلية شبه جزيرة سيناء التى اصبحت بصحرائها التى تبلغ مساحتها ٢٣ر٢٠٠ ميل مربع — مع عقبتها المائية الهامة قناة السويس ، تمثل منطقة عازلة ضخمة لها فاعليتها بين قوات الدفاع الاسرائيلية والجيش المصرى . اخطر قوة معادية ممكنة .

لقد توقع الاسرائيليون فى البداية — وهم فى حالة النشوة — ان نظام عبد الناصر — بعد فقدانه لمركزه فى اعين العالم العربى لما لحق به من خسارة فادحة فى الحرب الأخيرة . سوف تحل محله عاجلا ادارة جديدة لديها الرغبة فى التفاوض للوصول الى تسوية لسلام دائم(٢) ، وعلى الرغم من خيبة الأمل فى هذا ، فان الاسرائيليين كانوا راضين بانه حتى اذا كانت التسوية السلمية لن تتم فى الحال . فان امام الجيوش العربية عدة سنوات، وقال البعض : عدة اجيال — قبل ان تتمكن ثانية من ان تمثل تهديدا ذا بال للأمن الاسرائيلى ، لهذا السبب ولعدم تأكد الاسرائيليين سياسيا من مستقبل الأراضى المحتلة ، اعتقدوا انه ليس من الضرورى اتخاذ خطوات تكلفهم الكثير دفاعا عن شبه جزيرة سيناء ، بل دار نقاش فى اسرائيل حول تخفيض قوة جيش الدفاع الاسرائيلى الى ادنى المستويات(٣) .

وكان تقييم معظم الآراء الأجنبية — فى الغرب على الاقل — لنتائج الحرب مماثلا الى حد كبير للتقييم الاسرائيلى : فقد فرح معظم الناس فى الولايات المتحدة وبريطانيا بجمال النصر الاسرائيلى وحسمه ، وكانوا من قبل الحرب عامة فى صف الراى العام الاسرائيلى ، يخشون على فرص الابقاء لاسرائيل فى صراع يمتد على ثلاث جبهات ، ومن ناحية اخرى كان الرئيس الفرنسى شارل ديجول قد حذر خلال الأزمة السابقة للحرب بأنه سوف يوقف بيع المعدات العسكرية لاسرائيل اذا كانت هى البادئة بالحرب ، وبالتالى ادان اسرائيل لبدئها الحرب ، وفرض حظرا على المبيعات العسكرية لها ولجاراتها « المواجهة » من الدول العربية .

ولما كانت فرنسا فى ذلك الوقت لا تمد الدول العربية بالسلاح ، فقد اثر فورا على اسرائيل وحدها ، فى نفس الوقت كان هذا العمل على اية حال — كما كان ديجول يدرك بالطبع — مؤديا الى فتح اسواق أوسع للمبيعات العسكرية الفرنسية للدول العربية ، ومع ذلك لم يكن ديجول أو غيره من القيادات الفرنسية المسئولة واقعا تحت اى وهم عن مدى هزيمة العرب ، فقد تنبأ الجنرال الفرنسى المتقاعد « اندريه بوفر » مثلا بأن امام العرب جيلا حتى يفيقوا من الهزيمة .

لقد عزا الاسرائيليون — وبحق — نجاحهم المدوى الى زيادة فاعلية القوة البشرية العسكرية والتى اسموها — وهذا امر مفهوم — « بالنوعية الاحسن للقوة البشرية » ، ولكن يبدو انهم فى هذه المقارنة النوعية لم يعطوا التقدير الكافى لبعض العوامل التى اسهمت فى النتيجة . اذ يبدو مثلا انهم لم يدركوا تماما الى اى مدى اثرت اوامر المشير عامر بالانسحاب فى ٦ يونية فى تسهيل مهمتهم جوهريا فى سيناء ، اذ كان لهذا الأمر اثران عكسيان على الاداء المصرى وان كان الاسرائيليون قد ادركوا هذين الأثرين الا انهم لم يقوموا بتقييمها تقييما سليما ، يأتى فى المقام الأول أن المصريين بعد ٦ يونية كانوا يقومون بعرقلة التقدم لا الدفاع ، ثانيا كان للانسحاب غير المتناسق وغير المنظم اثره النفسى الذى قلل بالفعل حتى من فاعلية اعمال العرقلة .

ويبدو ان خبرة الاسرائيليين فى حرب ١٩٦٧ اكدت لهم تقييمهم لحرب ١٩٥٦ عن عجز المصريين الواضح عن القيام بمقاومة فيها مثابرة ، واعطى الاسرائيليون اهتماما قليلا للتطابق بين الانسحابين المبكرين فى الحربين ، او انهم نزعوا الى التسليم بأن ذكر المصريين لهذا التطابق كان لمجرد انقاذ ماء الوجه . على اية حال ، كان النصر الاسرائيلى فى الحقيقة . مؤكدا فى الحربين قبل اوامر الانسحاب ، ولم يصادف الاسرائيليون — باستثناء الدفاع المصرى باصرار عن ممر متلا وعن ابو عجيلة فى ١٩٥٦ — الا قليلا من الدفاع المؤثر والفعال حقيقة فى كل من الحربين . ويبدو ان نجاح التخطيط الجيد ١٩٦٧ لرد الفعل الاسرائيلى ازاء نكسة ابو عجيلة ١٩٥٦ ، قد أسهم فى عدم تقديرهم العام للقدرات العسكرية المصرية .

ويبدو ايضا ان الاسرائيليين مع تاكدهم من اهمية ما حققه سلاحهم الجوى فى يونية ١٩٦٧ ، لم يدركوا تماما الآثار الفيزيقية والنفسية العارمة لقوتهم الجوية على قدرة العرب القتالية — وبعبارة اخرى لقد عجزوا عن ان يفهموا ان الفارق فى فاعلية تفوقهم قتاليا على العرب كان من الممكن ان يكون اقل وبدرجة ملحوظة لولا الأثر الكامل لقوتهم الجوية .

ويبدو ان هذين التفسيرين الخاطئين لتطورات العمليات فى حرب ١٩٦٧ قد اسهما فى التوصل الى نتائج مشكوك فيها عن اهمية القوات المدرعة واستخدامها ، ويوجد الدليل على ذلك فى بحث علمى جاد عن الجيش الاسرائيلى يوحى بأن المخططين العسكريين الاسرائيليين فسروا العمليات التكتيكية للتكوينات المدرعة الاسرائيلية — خاصة تكوينات فرقة الجنرال « تال » — على انها تجديد اساسى يفوق التكتيكات الكبرى التى تبلورت اثناء الحرب العالمية الثانية ممثلة لمرحلة جديدة للتكامل بين المدرعات والمشاة ، كما اقتنعوا بضآلة دور المشاة فى حرب ١٩٦٧(٤) . وتعطى الأحداث التى تلت مزيدا من الأدلة على ان الاسرائيليين قد تعالوا فى تقدير قدرات وحداتهم المدرعة كقوات يتوفر لها الاكتفاء الذاتى ، وتفى بكل الأغراض.

وليس المقصود بالتعليقات الفاقدة الايحاء بأن رجال العسكرية الاسرائيلية كانوا يشاركون فى الميل نحو الرضا الذى كان موجودا بدون شك فى مجتمع المدنيين ، فقد كانوا يدركون ان العرب يبيتون الانتقام ، وكانوا يكنون احتراما كبيرا وسليما للأعداد العربية ، ولهذا لم تضيع قوات الدفاع الاسرائيلية السنوات بعد حرب ١٩٦٧ هباء ، بل العكس هو الصحيح ، اذا استمر القادة العسكريون الاسرائيليون على جميع المستويات فى بذل جهود لا تتوقف لتحسين مستواهم ومستوى الجيش ، وجعل تعبئتهم اكثر كفاءة ، مع تجنب اى نزعة للاستكانة .

وبالرغم من ان العرب كانوا غارقين الى الأعماق فى الاسى والشعور بخيبة الأمل ، يبدو انهم — وخاصة المصريين والأردنيين — قد استوعبوا الدروس المستفادة من حرب ١٩٦٧ احسن قليلا مما فعل الاسرائيليون ، ولعل اهم شىء هو ادراكهم للنزعة فى ثقافتهم نحو خداع الذات ، وجهودهم للسيطرة على هذه الخاصية فى المستقبل ان نتيجة الحرب كانت فاضحة بالطبع والى الحد الذى لا يوجد فيه مجال لأى خداع للذات ، وهنا ولأول مرة وبتنسيق قليل او بدون تنسيق وعبر الحدود الوطنية فى العالم العربى، بدأ العرب عامة فى اتخاذ نظرة اكثر موضوعية عن الصراع مع اسرائيل .

بدأ العرب اولا وفى الصدارة مجابهة حقيقية ان اسرائيل « وجدت هنا لتبقى » فمن السخرية الواضحة التفكير فى « ابادة » دولة بينت بوضوح تفوقها العسكرى على كل جاراتها فرادى ومجتمعين — فالتطلعات السابقة التى استهدفت « تدمير » اسرائيل ، او العودة الى حدود التقسيم فى سنة

١٩٤٧ طبقا لخطة الأمم المتحدة — مما اعتبره الاسرائيليون امرا ساريا للتدمير — قد نزلت الآن الى مستوى استعادة الأراضى التى احتلتها اسرائيل فى حرب الأيام الستة ، يرتبط بذلك مطلب غير واضح تماما هو « اعادة حقوق العرب الفلسطينية » وان كانت صيحة الحرب فى الدول المجاورة آنذاك لم تكن سوى مجرد امر شكلى الى حد كبير .

وكان تزحزح العرب نحو الواقع والموضوعية مما يتطلب ايضا الاعتراف بفضاضة . ان اسرائيل قد ربحت لتفوقها فى ميدان القتال وليس لأن الأمريكيين او البريطانيين او الفرنسيين قد كسبوا لها المعارك . وكان هذا بدوره يتطلب نوعين من العمل . اولهما محاولة تعلم السبب الذى من اجله كان اليهود بهذه الجودة . وبعبارة اخرى ، بدلا من محاولة تجاهل وجود اسرائيل كما فعلوا فى الماضى ، فانهم تحولوا الى دراسة اكثر تفصيلا وموضوعية لاسرائيل ، وتمثل ذلك فى تكوين جماعة للدراسات السياسية العسكرية التى تكونت فى القاهرة باقتراح من مصرى كبير هو محمد هيكل رئيس تحرير جريدة قاهرية لها نفوذها هى « الأهرام » ، وذلك بتعضيد من عبد الناصر وموافقته . وقد سميت الجماعة « مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية » (تغير الاسم فيما بعد ، ومن الممكن ان يكون الغرض قد توسع فاصبح « مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ») . وكان الأمر الثانى هو محاولة تحليل الطريقة التى يتمكن بها العرب من التغلب على التفوق الاسرائيلى حتى يتمكنوا (بالتدريب والمعدات وبالتحالفات وما الى ذلك) من الارتفاع الى هذا المستوى من التفوق .

وتحقيقا لذلك اتخذ الفريق احمد اسماعيل على — الذى عينه الرئيس عبد الناصر فى ١ يولية لقيادة بقايا الجيش الميدانى المصرى على قناة السويس — اسلوبا عمليا جدا فقد تفوق الاسرائيليون على العرب فى ناحيتين رئيسيتين من نواحى الحرب الحديثة ولم ير اسماعيل ان هناك فرصة مبكرة امام العرب للحاق بهم — فقد تفوقوا فى الجو — وربما يظل الأمر كذلك فى المستقبل الذى يمكن التنبؤ به — كما تفوقوا ايضا فى حرب المدرعات المتحركة ، ورأى اسماعيل هنا ايضا عدم احتمال التغير السريع . الا انه كان فى اعتقاده ان الاختلاف فى الكيف كان اقل مما كان يظنه الاسرائيليون ، وان الجنود المصريين يعادلون فى الجودة الجنود الاسرائيليين فى الدفاع ان لم يكونوا احسن منهم ، وان التفوق العددى للقوة البشرية للعرب — بل القوة البشرية لدى مصر وحدها — كان من الضخامة بحيث يتحتم التوصل الى الطرق التى يتعادل بها مع الاسرائيليين فى خسائر القوة البشرية فى مواقف القتال الثابتة التى لا يستطيع الاسرائيليون فيها استخدام قدراتهم المتفوقة ضد العرب .

وكانت لدى الفريق عبد المنعم رياض رئيس اركان حرب القوات المسلحة الجديد وكذلك الضباط المصريين المتطرفين وجهات نظر مماثلة لوجهة نظر الفريق اسماعيل ، ونتيجة لذلك وبمرونة مذهلة ، بدأ الجيش المصرى

المهزوم فى البحث عن طرق ووسائل لمحاربة الاسرائيليين تحت ظروف لا يستطيعون فيها استخدام تفوقهم .

على اية حال ، لم يتغير العرب كثيرا ليتخلصوا من الشك الذى يراودهم بانه لابد وان هناك دعما امريكيا مستترا من نوع ما للاسرائيليين، على الرغم من أن بعض العرب الموضوعيين بداوا فى الارتياب فى المنطق المقبول ظاهريا ، والذى يكن وراء مثل هذه الشكوك ، وبداوا على الطريق فهم انفسهم كعرب ، وكذلك فهم الاسرائيليين كيهود وصهاينة .

بدء التحدى

تقع مدينة بور فؤاد المصرية شرقى الطرف الشمالى مباشرة لقناة السويس وخط وقف اطلاق النار لسنة ١٩٦٧ الذى يتجه جنوبا فى وسط الممر المائى ، على اية حال كانت المدينة — باستثناء ممر ضيق على الضفة الشرقية للقناة — يفصلها عن بقية شبه جزيرة سيناء والتى توجد فى ايدى الاسرائيليين — مساحة واسعة من مسطحات الوحل والمستنقعات التى يكاد يستحيل اختراقها ، ولم تحتلها القوات الاسرائيلية ابدا ، وكان المصريون والاسرائيليون على السواء يعتبرون مبدئيا المنطقة الواقعة جنوب وشرق بور فؤاد انها « منطقة حرام » وبعد حوالى ثلاثة اسابيع من قرار وقف اطلاق النار الذى فرضته الأمم المتحدة منهية به حرب الأيام الستة ، اندلع القتال بين القوات المصرية والاسرائيلية للسيطرة على بور فؤاد والمنطقة المحيطة بها . وفى اواخر يونية ، وعلى الرغم من النيران الثقيلة للمدفعية المصرية على الضفة الغربية ومن السفن الحربية فى مياه بور سعيد وبور فؤاد ، بدات القوات الاسرائيلية التقدم نحو بور فؤاد من الجنوب ، بينما كانت مدفعيتهم ترد على النيران المصرية . وفى اول يوليو ارسل الفريق اسماعيل وحدة مصرية — ربما كانت اقل من مائة رجل — عبر القناة محمولة على صنادل لاتخاذ مواقع عند قرية « راس العش » على الممر على بعد حوالى ١٢ كم جنوب بور فؤاد. تقدمت قوة اسرائيلية تساندها المدرعات من القنطرة فورا تقريبا ضد المصريين — وبعد معركة دامت ثلاث ساعات ادت الى ضحايا من الجانبين، توقف الاسرائيليون عن الاشتباك بعد مكاسب لا تذكر . وعزز المصريون مواقعهم فى راس العش ، ولم يعاود الاسرائيليون الهجوم ابدا خلال السنوات الست التالية .

وقع مزيد من تبادل قصف المدفعية عبر القناة فى يوم ٢ ، ٣ يولية مسببا ضحايا جوهرية لكلا الطرفين . وفى ٨ يولية ، فى محاولة لتخفيف الضغط عن القوات البرية ، قامت طائرتان من الطائرات النفاثة المقاتلة الاسرائيلية بمهاجمة مراكز المدفعية والدبابات المصرية على الضفة الغربية للقناة فى المكان المواجه للقنطرة وراس العش . الا ان المصريين — بعد الهجوم بثلاث ساعات — اعادوا فتح النيران على القنطرة التى يحتلها الاسرائيليون

حيث اثبتوا عدم كفاءة الهجوم الجوى فى الردع — وفى ١٤ يولية ولدهشة الاسرائيليين قامت القوات الجوية المصرية بمعظم طائراتها القليلة المتبقية بغارة سريعة ضد المواقع الاسرائيلية بالقرب من القنطرة .

وفى نفس الوقت كان هناك صراع سياسى يتطور حول استخدام قناة السويس ففى ١٤ يولية قام وزير الدفاع الاسرائيلى موشى ديان بابلاغ رئيس اركان لجنة مراقبة الهدنة للأمم المتحدة الجنرال اودبول انه فى ضوء الموقف الحالى اما ان يتمكن كلا الجانبين استخدام القناة والا لن يستخدمها طرف واحد فقط ، وان يفيدا معا من استخدام الآخرين لها ، وكانت مصر ترغب فى اعادة فتح القناة ، ولكنها رفضت طلب اسرائيل فى مشاركتها فى دخل القناة ، وبعد ثلاثة ايام اعلنت اذاعة القاهرة ان مصر سوف تعتبر وجود اى سفينة اسرائيلية فى القناة خرقا لوقف اطلاق النار ، وانها ستقابله بالقوة المناسبة[٥] ، نتيجة لذلك ظلت القناة مغلقة فى وجه الملاحة حتى يونية ١٩٧٥

كان هناك عدد من « مبارزات » التراشق بالمدفعية بين القوات الاسرائيلية والقوات المصرية المتمركزة على طول القناة ، وذلك فى الفترة ما بين شهرى يوليه واكتوبر ١٩٦٧ ، ولازال الاسرائيليون عند الراى بانه لا حاجة لهم لاقامة تحصينات دائمة لتامين احتلالهم لسيناء او الضفة الشرقية لقناة السويس .

حادثة ايلات :

على الرغم من انه لم تقع احداث كبيرة على طول القناة خلال هذه الفترة ، فقد تم اغراق سفينة القيادة فى الأسطول الاسرائيلى المدمرة ايلات فى البحر المتوسط امام بور سعيد. وذلك يوم ٢١ كتوبر ١٩٦٧ — لقد كان الاسطول الاسرائيلى تقليديا اضعف اسلحة الخدمة الثلاثة ، اذ كان ينقصه التسليح نقصا حادا ، وكذلك الرجال ، لنفق نفقات الدفاع الاسرائيلى على الجيش والقوات الجوية ، ووجد الأسطول نفسه بعد معمعة حرب الأيام الستة — مكلفا بأعمال الداورية على طول شواطىء جديدة تبلغ ٦٦٠ كم (وبمجموع كلى يبلغ ٩٠٠ كم) وذلك بأسطول لا يضم سوى مدمرتين فقط . ولما تركت ايلات مرفاها يوم ٢١ اكتوبر للقيام بداوريتها اليومية لساحل سيناء ، كانت تفتقد الدعم الجوى او البحرى . فلما مرت بالقرب من ميناء بور سعيد ، داخل المياه الاقليمية المصرية ، تم ضربها واغراقها بثلاثة صواريخ اطلقت من قوارب الصواريخ طراز اوسا السوفيتية الصنع من داخل الميناء — وقتل من بحارة ايلات البالغ عددهم ٢٠٠ رجل ، ٤٧ وجرح ٩١ — وقامت اسرائيل فى ٢٤ اكتوبر بالانتقام لغرق الباخرة ايلات بضرب معامل تكرير البترول بالقرب من مدينة السويس واشعال النار فى خزانات الوقود .

وطلب من المراقبين فى لجنة مراقبة الهدنة للأمم المتحدة ، امتنع المصريون عن اطلاق النار على عمليات البحث والانقاذ الاسرائيلية القائمة بالقرب من مكان غرق الباخرة ايلات ، وهكذا ، وبمنطق مريب ، اصر المصريون أن الانتقام الاسرائيلى ضد المنشآت المدنية أمر غير مسلم ولا انسانى ، ولعل العمل الانتقامى الاسرائيلى كان له بعض الأثر الرادع للمصريين ، اذ خف تواتر القتال وحدته خلال الاحد عشر شهرا التالية على طول جبهة السويس وبشكل ملحوظ ، الا ان السبب الأقرب للفهم هو ان المصريين بعد أن عبروا عن تحديهم واحرازهم النصر باغراق ايلات ، وجهوا اهتمامهم لاعادة بناء قواتهم العسكرية والتى كانت مهلهلة بشكل يدعو للأسى .

الملاحظـــــات

(١) على اية حال قام الاسرائيليون سريعا ببناء مستوطنات فى اراضى الجولان المحتلة حديثا ، والتى اصبحت بالتالى آنذاك تقع تحت مدى المدفعية السـورية .

(٢) لوتواك وهوروتز . مرجع سبق ذكره ص ٣١٤ .

(٣) زيف شيف تاريخ الجيش الاسرائيلى (١٨٧٠ — ١٩٧٤) (سان فرانسيسكو ١٩٧٥) ص ٢٤١ .

(٤) لوتواك وهوروتز ، مرجع سبق ذكره ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٥) قامت اسرائيل باختبار واحد على الأقل لهذا الاعلان ، اذ تم انزال قارب فى القناة حطمته المدفعية المصرية فى الحال .

(٢)

معركة الكرامة

رد الفعل الاسرائيلى للفدائيين :

مما لا يثير الدهشـــة ان الاحتلال الاسرائيلى لمنطقة الضفة الغربية لنهر الأردن — والتى كانت من قبل جزءا من الأردن — لم يتم تقبله دون احتجاج ، وظهر هذا الاحتجاج مرارا فى شكل اصطدامات بين وحدات صغيرة على طول النهر — وكانت هجمات الفدائيين فى الضفة الغربية عادة ما تؤدى الى قيام داوريات اسرائيلية بنشاطات تتضمن تبادل اطلاق النار عبر النهر ، وداوريات اسرائيلية على الضفة الشرقية وداوريات اردنية على الضفة الغربية من آن لآخر ، وكانت هذه الاشتباكات الصغيرة تتصاعد احيانا الى تشابك بالدبابات والمشاة والاسلحة الثقيلة ، بل وبالمدفعية احيانا ، وصدرت فى اوائل عام ١٩٦٨ عدة تصريحات اسرائيلية رسمية بانه اذا استمر نشاط الفدائيين ، فان اسرائيل سوف تتخذ خطوات ردع مناسبة .

زاد نشاط الداوريات الاسرائيلية على طـــول الضفة الغربية ما بين ١٥ ، ١٨ مارس ١٩٦٨ فى المنطقة بين جسر « الملك عبد الله » وجسر « داميا » وكان هناك عددا من الطلعات الجوية الاستطلاعية الاسرائيلية على وادى النهر فى هـــذه المنطقة واستفادت المخابرات الأردنية كثيرا من مراكز الاستطلاع على التـــلال فى شرق النهر وابلغت عن تزايد القوات الاسرائيلية حـــول « حنتلك » و « اريحا » كما ابلغت عن عقد مؤتمرين على مستوى عال للضباط الاسرائيليين فى هـــذه المنطقة خـــلال هـــذه الفترة .

وقدر الأردنيون فى آخـــر يـــوم ٢٠ مارس ان الاسرائيليين قد جمعوا فرقة مدرعة فى منطقة « اريحا ــ جفتلك » ، وحددت المخابرات الأردنية عناصر اللواء السابع المدرع ، واللواء الستين المدرع ، ولواء المظليين ٣٥ ، ولواء ٨٠ للمشـــاة وفرقـــة للمهندسين وخمس كتـــائب مدفعيـــة مـــن عيـــار ١٠٥ مم ، ١٥٥ مم .

الاستعدادات الأردنية :

فى ١٨ مارس تم وضع فرقة المشاة الاولى الأردنية المحتشدة فى شرق نهر الأردن بين « داميـــا » والبحر الميت فى حالة اســـتنفار ، وتوقفت كل التدريبات ، وانتشرت الفرقة تأهبا للقتال ، وتم توزيع الاســـلحة المضـــادة

للدبابات لتغطى النقط والطرق التى يحتمل ان تعبر منها الدبابات ، ونظرا لمعرفة الأردنيين بوجود وحـدة للفدائيين (بما تعادل كتيبة) تتخذ موقعا لها بالقرب من الكرامة وتأكدهم من انها ربما تكون الهدف الرئيسى للاسرائيليين تم لهم توزيع سرية من المشاة تدعمها فصيلة دبابات فى داخل المدينة وحولها .

وكان هناك لواء واحد من المشاة موزعا فى منطقة « داميا ـ اردا » ، وآخر يغطى جسر الملك حسين (أو اللبنى) فى منطقة الكرامة . وثالث اتخذ قاعدته على « ناور » لتغطية جسر الملك عبد الله ـ وادى شويب لواء مدعوما بسرية دبابات ، وصفت حاميات صغيرة (ربما كل منها كتيبة) فى القرى الأخرى فى منطقة الكرامة ـ جسر حسين ، لمهمة اقامة عوائق على الطريق ومزودة بالمعدات الصغيرة والأسلحة النارية الاتوماتيكية . وكانت كل حامية تضم جماعات انتحارية صغيرة مضادة للدبابات ممن تطوعوا للذهاب الى المعركة بمتفجرات تى ان تى مربوطة حولهم ـ ويبـدو انه كان يوجد احتياطى مكون من كتيبة من الدبابات (تنقصها فصيلة) متمركزة عند سفح التلال شرقى « شمرات نمرين » وادنى ايزسولت ، ووزعت فرقة المدفعية اماما لتغطية النهر مع اقصى التركيز فى منطقة الكرامة ـ وكانت مراكز مراقبة المدفعية موجودة على التلال وتطل على الوادى ، وكان المراقبون الاماميون مصاحبين للمشاة وكتائب الدبابات .

وفى يوم ١٩ مارس دعى اللواء « مشهور حديثا » قائد فرقة المشاة الأولى الأردنية اتباعه من القادة الى مؤتمر عقـد فى مركز قيادة الفرقة بالقرب من « ايزسولت » حيث اصـدر اوامره الأخيرة ، « مشهور » ان يقسموا على القرآن انهم سيقاتلون للحفاظ على أرضهم ، وان الاسرائيليين لن يتقدموا الا على جثثهم .

وليس من الواضح مـدى اشتراك وحدة الفدائيين المتمركزة بالقرب من الكرامة فى خطة الدفاع العامة الأردنية ، بل حتى ما اذا كان هناك تنسيق سابق للمعركة بين الفدائيين ووحـدات الجيش الأردنى فى داخل الكرامة وحولها ، ولم يذكر الأردنيون فى وصـفهم للاشتباك بعـد ذلك شيئا عن الفدائيين ، ومع ذلك فقد كان هناك على الأقل ٥٠٠ منهم ، ويقول الاسرائيليون: انهم حاربوا بضراوة حين حوصروا بضفة النهر ، كما أن ضحاياهم كانت أكبر من ضحايا الوحدات المتشابكة فى الجيش الاسرائيلى والأردنى معا .

الخطط والاستعدادات الاسرائيلية :

ليس هناك من شك أن لاسرائيليين كانوا يقومون بالفعل بجمع قـوة ذات حجم كبير على الجانب الآخـر من النهر ، وكانت القيادة العامة للعميد شمويل جونن ويبدو ـ على الرغم من تضارب التقارير ـ أن قوته كانت تضم ما يقرب من لواء مدرع (يحتوى عناصر من لواءين) ، ولواء مشاة يقوده

العميد « رفائيل ايتان » وكتيبة مظـلات ، وكتيبة مهندسين والكتائب الخمس للمدفعية التى ابلغ عنها الأردنيون .

وكانت هناك قـوة اضافية ـ ربمـا تكون اكبر فى حجمها من كتيبة مدرعة ـ بالقرب من « سـيدوم » (سـودوم القديمة) كانت مهمتها القيـام بتحويل الانتباه بعبورها المسطحات الملحية جنوب البحر الميت مهددة «صافى».

وليس من الواضح ما خططه الاسرائيليون من عمل لهـذه القوات ، وما اعلنوه هو ان هدفهم الوحيد هو معاقبة الفدائيين فى منطقة الكرامة ، وانهم لا يقصدون التورط مع الوحـدات النظامية للجيش الأردنى ، بيد انـه من الصعب تصور كيف توقعوا تجنب الأردنيين . فقد كانوا يعرفون بالتأكيد أن الفرقة الأولى موجودة هناك ، ويدعى الأردنيون انهم استحوذوا خلال المعركة على خريطة الأحد ضباط القيادة تبين بوضوح ان الاسرائيليين خططوا لاحتلال الضفة اليمنى لنهر الأردن بين جسرى « داميا والملك عبد الله » ، والقيام بمد راس جسر الى التلال فى الشرق .

كان الهدف الاسرائيلى الأساسى وبدون ادنى شك هو معاقبة الفدائيين فى داخل الكرامة وحولها ، بيد انه فى ضـوء حجم القـوة المهاجمة وتوزيعها ربما يكونون قد خططوا ايضا لاحتلال مؤقت لراس جسر شرقى النهر ، وربما كانت التعليمات لـدى الجنرال « جونن » فيها مرونة ، وربما كان هناك تفكير فى تقـدم الدبابات حتى « ايزسولت » اذا سمح الموقف بذلك ، ويجب ان نعيد الى الذاكرة انه فى يـوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ كان الاسرائيليون على استعداد لوصف عملية المظليين ضـد ممر متـلا بانها غارة اذا كانت الظـروف لم تسمح بهجوم اكبر .

وتشير الأدلة المتاحة الى ان قـوة الهجوم (بدون الوحـدة فى جنوب البحر الميت) كانت منظمة فى ثلاث مجموعات عمل خاصة ، واحدة منها لكل من جسور : داميا وحسين وعبد الله ، وكانت اكبرها قـوة حسين بقيادة جنرال « جونن » مباشرة ـ وكان هـدف هـذه الجماعة الاسـتيلاء على الكرامة وتحطيمها ثم الاندفاع المدرع شرقا لحماية العمليات ضد الكرامة ، ومن الممكن الوصول حتى « ايزسولت » ويبدو ان قـوة عبد الله وكانت اصـغر بكثير وتحت قيادة جنرال « جونن » أيضا كانت مهمتها القيام باستعراض وتغطية الجناح الأيمن للقـوة الرئيسـية بمنع وصـول التعزيزات من « نارو » وعمان اما قوة «داميا» بقيادة جنرال «ايتان» فكان عليها اداء مهمة مماثلة وهى الصد من الشمال فى الوقت الـذى تندفع فيه الى الكرامة من هـذا الاتجاه .

الهجـوم :

بدات العملية فى الساعة ٣٠ر٥ صباح يـوم ٢١ مارس بهجوم اسرائيلى على الجسور الثلاثة فى نفس الوقت بدون تمهيد مسبق من المدفعيـة ،

وتصدى الأردنيــون الذين كانــوا فى حالة تأهب وتوقع للهجوم لمحاولات العبــور الثلاث .

اندفعت رؤس الحراب الاسرائيلية عبر جسر حسين وكانت تتقدم تجاه « شمرات نمرين » فى السـاعة ٣٠ر٦ صباحا فى الوقت الذى انزلت فيه ١٥ طائرة عمودية الجزء الأكبر من كتيبة المظليين شمال شرق الكرامة مباشرة ، واشتبك المظليون فى الحال مع الحامية المحلية التى يمدها الفدائيون ببعض المساعدة ، ويذكر الاسرائيليون والأردنيون ان ياسر عرفات كان فى الكرامة الا انه هرب بدراجة بخارية مباشرة قبل عزل المظليين للمدينة .

انتشرت قوة « جونن » على شكل مروحة غربى « شونا » مباشرة فى ثلاثة اتجاهات انطلاقا من جسر حسين — واتجهت سرية او اكثر شمالا نحو الكرامة سعيا لايجاد همزة وصل بالمظليين ، وتقدم بعض المشاة وبعض الدبابات (قد تكون كتيبة مشـاة وكتيبة دبابات) شرقا عبر شـونا لسـد طريق وتحولت قـوة اخرى صـغيرة جنوبا (ويحتمـل انهـا كانت كتيبة مشاة معززة) ، ربما لمحاولة مساعدة قـوة عبد الله التى كانت قد عجزت عن تحقيق العبور . وعلى اية حال قـرر الجنرال « جونن » ان العملية عند جسر عبد الله كانت لمجرد تحويل الانتباه ، ولم تكن محاولة جادة للعبور ، وعلى ذلك ربما كان هدف الكتيبة التى تحركت جنوبا من جسر حسين هو مجرد تأمين الجناح الجنوبى لراس الجسر .

فى نفس الوقت ، كانت قـوة داميا — متجنبة الجسر — قد تمكنت من خوض نهر الاردن مثبتة نفسها على الضـفة الشرقية جنوبى الجسر ، وفى الوقت الـذى بـدا فيه المهندسون بناء جسر جـديد ، اخـذت الدبابات الاسرائيلية والمشاة تتقدم شرقى مفرق تى عند « الموصرى » ، ثم تحولت جنوبا نحو الكرامة .

وبينما كانت هـذه العمليات مستمرة ، كانت النفاثات الاسرائيلية تهاجم بضراوة مواقع المدفعية الأردنيـة ، ومراكز القيـادة ومواقع خط الدفاع الامامى ، وبالرغم من ذلك كانت نيران المدفعية الأردنية تمد كل عناصر فرقة جنرال « حديثا » بدعم رائع ، ويبدو انه بحلول السـاعة ٨ صباحا كان الاسرائيليون قد اتموا اقصى ما يمكنهم من التقـدم ، وكان الموقف من الشمال الى الجنوب كما يلى :

استولت قـوة داميا على « موصرى » الا ان اللواء الشـمالى للفرقة الأردنية الأولى اوقفت تقدمها جنوبا .

بعد ان تكبد المظليون فى الكرامة خسائر فادحة ، انضم اليهم الطابور الشمالى لمجموعة عمل جسر حسين تحت قيادة « جونن » ، واشتبكت القـوة

المشتركة بحدة فى داخل الكرامة وحولها مع الحامية الاصلية للمدينة ، ومعها عدد من الفدائيين والجزء الأكبر من اللواء المركزى للفرقة الأولى .

اما بقية مجموعة عمل جسر حسين بقيادة « جونن » فقد صدتها شرقى وجنوب « شونا » عناصر من اللواء المركزى واللواء الجنوبى للفرقة الأردنية الأولى ، وكذلك لواء المدرعات من « ايزسولت » .

وفشلت القوة الاسرائيلية عند جسر عبد الله رغم جهودها المتكررة او استعراضاتها فى تثبيت اقدامها شرقى نهر الأردن ، واشتبكت فى قتال حاد مع قـوة التطهير الأردنية التى كانت تتـكون من سرية من المشـاة تدعمها فصيلة دبابات .

وتم ايقاف قـوة تحويل الانتباه شرقى « سيدوم » وجنوب البحر الميت بالنيران الأردنية الدفاعية فى خضم شبكة من القنوات والترع واحواض الملح .

وخـلال السـاعتين التاليتين حاولت حشـود المدفعية الاسرائيلية مع سلسلة من الضربات الجوية فتح ثغرات فى مواقع الدفاع الأردنية على طريق « الموصرى — الكرامة » ، وطريق (ايزسولت) ، وشرقى جسر عبد الله ، كما تمت تقوية القبضة الاسرائيلية على الكرامة بمساعدة المدفعية ومن الجو ، وتم تحطيم المدينة وماجاورها من معسكر الفدائيين تحطيما منظما .

وفى باكورة بعد الظهر بعد ان ادرك الاسرائيليون أن أى تقدم أكثر من ذلك لن يتم تحقيقه الا على حساب عدد كبير من الضحايا ، وبعد ان انجزوا على اقل جانبا من مهمتهم ، بداوا فى الانسحاب من مواقعهم المتقدمة ، وبدا جلاء منظم تحت غطـاء الضربات الجوية المسـتمرة وبدعم قـوى من المدفعية ، وعاد جميع الاسرائيليين الى الضفة الغربية قبل التاسعة مساء حين تمت آخر ضربة جوية اسرائيلية بالقرب من الكرامة .

التقييم :

اعلنت الخسائر الاسرائيلية فى البداية فى الصحافة على انها ٢٠ قتيلا ، ٣ مفقودين ، و ٩٠ جريحا ، كما فقدوا ٤ دبابات وسيارتين مدرعتين ومدفعا ٩٠ مم وسيارة نقل وسيارة جيب . اما التقدير الأكثر احتمالا فهو من ٣٠ — ٤٠ قتيلا واكثر من ١٠٠ جريح وتحطمت ٢٠ دبابة او أصيبت بعطل ، ودمرت أو اعطبت ١٥ عربة مدرعة أخرى وعـدة سيارات نقل ، وطائرة واحـدة اسقطتها نيران الوحدات المضادة للطائرات الأردنية ، كما اعطبت عـدة طائرات أخرى (وهـذا يعادل حـوالى نصـف التقدير الأردنى للخسائر الاسرائيلية) وتخلى الاسرائيليون عن اربع دبابات فى الضفة الشرقية وكذلك ثلاث حاملات مدرعة للجنود وعربتين مدرعتين ، ومدفع عيار ٩٠ مم اس بى ، وسيارة نقل وسيارة جيب .

اذيعت الخسائر الأردنية على انها ٦١ قتيلا (منهم ستة ضباط) ، ١٠٨ جرحى (منهم ١٢ ضابطا) ، وتحطمت ١٣ دبابة واعطبت ٢٠ بالاضافة الى ٣٩ عربة اما اصابها العطب او تحطمت . وقتل حوالى ١٠٠ من الفدائيين وجرح على ما يزيد عن ١٠٠ ، واعلن الاسرائيليون اسرهم لـ ١٢٨ .

قامت قوة المراقبة التابعة للأمم المتحدة حوالى الساعة ١١ صباحا بسلسلة من الجهود لوقف اطلاق النار . ويعتقد الأردنيون ان المباداة فى هذه الجهود كانت من جانب اسرائيل ، الا ان المتحدث باسم جيش الدفاع الاسرائيلى اصر على ان الاسرائيليين لم يتقدموا بطلب لوقف اطلاق النار ، وان مثل هذا الطلب يعتبر مناقضا للعرف الاسرائيلى . ومهما تكن الحقيقة ، فان الأردنيين برضائهم عن ثبات اقدام خطوطهم الدفاعية لم يوافقوا على ايقاف اطلاق النار حتى حوالى الساعة ٩ مساء ، وفى هذه الساعة كان الاسرائيليون قد اتموا انسحابهم .

ويقدم الأردنيين عدد من الأسباب لتدعيم اعتقادهم بأن هدف اسرائيل كان اكثر من غارة مضادة ضد الفدائيين فى الكرامة ، فهم يعتقدون جزئيا على اساس الخريطة التى استولوا عليها ، ان الغرض كان احتلال راس جسر يمتد الى ١٥ كم فى العمق ، ويمتد من جسر « داميا » جنوبا الى البحر الميت بقوات مدرعة مغيرة تضرب شرقا حتى عمان ، ويرون ان الاسرائيليين قصدوا التمسك براس الجسر لأغراض المساومة لاجبار الأردن على طرد الفدائيين .

ويؤكد الأردنيون ان الاسرائيليين استخدموا قوات تزيد عن الضرورة اذا ما كان غرضهم هو الاغارة على استحكامات الفدائيين بالقرب من الكرامة فحسب ، كما يعتقدون ان العمليات الاسرائيلية امتدت على مساحة اعرض من مثل هذا الهدف المحدد ، ويذكرون ان منشورات قد اسقطت على « ايزسولت » تحث الناس على الهدوء والسلبية عند احتلال الاسرائيليين للمدينة .

ويقوم جزء كبير من حجة الأردن تأييدا لتقييمهم للمقاصد الاسرائيلية على نشاطات « موشى ديان » وزير الدفاع الاسرائيلى فى ذلك اليوم . فهم يدعون انه فى الساعة ٦ صباحا ، بعد بدء القتال بوقت قصير ، عقد « ديان » مؤتمرا صحفيا بالقرب من أريحا على تل يطل على الأردن واخبر المراسلين المجتمعين ان عملية تتم حاليا ضد الفدائيين ، ثم اخبرهم — او ألمح على الأقل بقوة انه سوف يعقد مؤتمرا صحفيا ذلك المساء فى الأراضى الأردنية ، ومن الممكن ان يكون فى عمان . على اية حال ، فى الساعة ١٠ صباحا اعيد كل المراسلين الى القدس بدون اى تفسير وجيه ، ولم يعقد « ديان » اى مؤتمر صحفى آخر فى ذلك اليوم .

ويبدو ان الهدف الاسرائيلى كان محدودا بدرجة تقل كثيرا عن التقدير الأردنى بالرغم من انه من الممكن ان يكون اكبر مما اعترفوا به انفسهم ، اذ تبين النتائج الفعلية — فى المقام الاول — ان القوة الاسرائيلية لم تكن زائدة عن الحد

لمعاقبة الفدائيين فى مثل الظروف القائمة نظرا لأنه كان من الواضح ان عليهم على الأقل تحييد الفرقة الأردنية . ولم تحقق المهمة الاسرائيلية بالكامل حتى بمثل القوة التى تم استخدامها ، ربما يكون الاسرائيليون قد اساءوا تقدير الأردنيين ، الا انه من المشكوك فيه ان يكونوا دون المستوى ، كما يوحى بذلك التقييم الأردنى .

اما فيما يتعلق بالمؤتمر الصحفى لديان فتبين تقارير الصحف انه كان فى اليوم السابق — ٢٠ مارس — يعانى من حادثة خطيرة وقعت له فى واحدة من عمليات بحثه عن الآثار ، وفى يوم معركة الكرامة كان فى الفراش فى مستشفى « تل حشمور » بالقرب من تل ابيب ، عاجزا عن الكلام او الحركة(*) . كان هناك مؤتمر صحفى ، وربما ألمح احد موظفى العلاقات العامة عن مؤتمر آخر فيما بعد فى نفس اليوم فى الأراضى الأردنية ، الا ان وزير الحربية نفسه لم يكن بالتأكيد هناك ، ولم يعط اى وعد علنى عن التقدم الاسرائيلى نحو عمان ، من ناحية اخرى ، قام رئيس الوزراء « اشكول » بزيارة مسرح العمليات ، وعبر جسر حسين الى الأراضى الأردنية حوالى الساعة ١٠ صباحا . وربما تكون هذه المعلومات قد وصلت الى المخابرات الأردنية بشكل مهوش .

ويشك قليلا فى ان الاسرائيليين قد صادفوا مقاومة اكثر فاعلية مما كانوا يتوقعون ، ولحقت بهم خسائر فى الأرواح اكثر مما كانوا يتوقعون ، لهذا كان هناك نقد شعبى كبير للغارة داخل اسرائيل ، على اية حال ، لقد حقق جنرال «جونن» وجنوده الهدف الذى تم اعلانه للشعب عن العملية ، لذا لا يمكن تصنيف معركة الكرامة كهزيمة لاسرائيل حتى وان كانت لم تحقق نجاحا كبيرا .

من ناحية اخرى كان لدى الأردنيين اساس جوهرى لاعتبار الكرامة — من وجهة نظرهم — نصرا . فعلى الرغم من الخسائر الكبيرة فى الأرواح ، والاحتلال المؤقت للكرامة ، حارب الأردنيون حربا دفاعية ضارية ، وكانوا مقتنعين بأنهم ردوا الاسرائيليين وحاولوا بينهم وبين تحقيق ما كانوا يتوقعون القيام به .

ولمعركة الكرامة بعض الآثار الهامة طويلة المدى على حركة الفدائيين ، اذ حفزت المعركة قيادات الفدائيين على مضاعفة مجهوداتهم فى التجنيد ، مستخدمين فى ذلك المبالغة الخيالية الى حد ما عن الدور الذى لعبوه فى المعركة ، وكانت الدعوة للتجنيد ناجحة الى حد اصبحت معه الحركة الفدائية فى الأردن جيشا مخصوصا بالفعل ينافس الجيش الأردنى .

من ناحية اخرى ، ادت خسائر الفدائيين فى الكرامة الى سحبهم لكل وحداتهم من وادى النهر الى مواقع فى الداخل اكثر امنا ، ولما كان هذا مما زاد من صعوبة عملياتهم فانه دعم دعوى الاسرائيليين بأن غارتهم كانت ناجحة .

(*) انظر ايضا ديان « قصة حياتى » ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

(٢)

حرب دون حرب

من الدفاع الايجابى الى الاستنزاف

قصف المدفعية والغارات :

حقق الفريقان المصريان فوزى ورياض خـلال عام ١٩٦٨ تقدما كبيرا فى اعـادة بناء الجيش المصرى ، وفى نفس الوقت كان رياض واركان حربه يعدون لاستئناف عمليات محدودة على طـول قناة السويس ، وبـدا الجيش الاسرائيلى ايضا مع احساسه بالقلق ازاء النمـو البطىء الثابت للمدفعية المصرية على الضفة الغربية — بزيادة حشده للمدفعية على الضفة الشرقية ، ومن بين الأسلحة التى توسع الاسرائيليون فى توزيعها بعض قاذفات الصواريخ التجريبية بالغة الثقل قصيرة المدى ، والتى تتمكن من اطـلاق رؤوس متفجرة يصل وزنها الى نصف طن والى مدى يصل الى حوالى كيلو مترين . وضعت هذه الأسـلحة الرهيبة — وان كانت لم تختبـر بعد — فى مواجهة السويس والاسـماعيلية .

ويبدو انه بدلا من ان تكون هـذه الأسلحة الكبيرة رادعة للمصريين عن استئناف نشاطهم ، ادت الى انطلاق رد فعل مخالف تماما — اذ بدأ المصريون فى يـوم ٨ سبتمبر قصفا كثيفا بالمدفعية على طول القناة كلها ، وكان الاهتمام موجها خاصة الى قاذفات الصواريخ التجريبية الثقيلة ، لقـد أمطرت بطاريات المدفعية المصرية — وعددها ١٥٠ — القـوات الاسرائيلية بمـا يزيد على ١٠ر٠٠٠ ، قذيفة خـلال عدة ساعات ، ومما يبعث على الدهشة وطبقا للبيانات الاسرائيلية ، لم يقتل سوى عشرة جنود اسرائيليين بينما جرح ١٨ ، حيث كان الرجال قد احتموا فى تحصينات ميدانية بديلة لم تصمم لتهيئة غطاء ضد القصف الثقيل بالقنابل .

وعادت اسرائيل مـرة ثانية للانتقام بقصف معـامل تكرير البتـرول بالسويس ، وكذلك مدينتى السويس والاسماعيلية ، وقـد شجب المصريون بمرارة قصـف الأهـداف المدنية ، ولم يحـاول المصريون اصـلاح معامل التكرير ، وقاموا باجلاء ٤٠٠ر٠٠٠ من الأهالى من منطقـة قنـاة السويس ، لاثبات تصميمهم على انهم لن يسمحوا لقصف المدفعية الاسرائيلى المضاد بأن يثنيهم عن عزيمتهم ، وكان من الواضح ان مصر مصممة على دفع ثمن باهظ من أجل ان تستمر فى ازعاج التواجد الاسرائيلى فى الضفة الشرقية بالمدفعية .

عاود المصريون القصف بالمدفعية فى ٢٦ اكتوبر وكان القتلى فى هـذه المرة ١٣ اسرائيليا ، وانتقاما لهذا القصف ، وبدلا من اختيار الهدف المناسب على القناة ، دبر الاسرائيليون فى ٣١ اكتوبر ضربة قام بهـا رجال الكوماندوز ضد اهداف استراتيجية فى اعماق مصر(١) . اذ قامت سرية محمولة بالهليكوبتر بقيادة الكولونيل دانى مات بمهاجمة جسرين على نهر النيل ونسف محولا للقوة الكهربائية على خط الفولت العالى بين القاهرة وسـد اسوان ، والحقت خسارة طفيفة بقناطر نجع حمادى فى مصر العليا ، وكان امل الاسرائيليين — بالاضافة الى اظهارهم ان مصر فى متناول هجماتهم — ان تجبر هذه الغارات اركان الحـرب المصرية العامة على اعادة توزيع الجـزء الأكبر من قواتها بتحويله الى داخل مصر وبعيدا عن قناة السويس ، وعلى الرغم من انه لم تتم اعادة كبيرة لتوزيع القوات المصرية ، فلم يكن هناك المزيد من قصف المدفعية بنفس الكثافة خـلال الأشهر الخمسة التالية ، ومع ذلك استمرت مضايقات المدفعيـــة .

خط بارليف :

من المبادىء الأساسية فى القصيدة العسكرية الاسرائيلية أن اى حرب بين اسرائيل والدول العربية يجب ان تكون قصيرة وحاسمة ، فيها معارك رئيسية ، ويتم القتال فيها على ارض العدو(٢) ، ويعـود ذلك الى أن الحجم الجغرافى لاسرائيل صغير ، وأن القـوة البشرية فيهـا محدودة ، ولم تتطلب هذه العقيدة استراتيجية تقـوم على الهجوم السريع فحسب ، ولكنها تتطلب ايضا درجة عالية من الحركة لمؤازرة التقدم اماما ، ولم توجه قـوات الدفاع الاسرائيلية اهتماما يذكر لتطوير استراتيجية دفاعية خالصة .

اما الآن فان حرب الاستنزاف التى تتزايد وغير المعلنة قد أجبرت قوات الدفاع الاسرائيلية على الاشتباك مع المصريين على طـول الخط الدفاعى الثابت لقناة السويس ، لهذا أصبح من الجوهرى سرعة تطوير عقيدة اسرائيلية اخرى مناسبة للتعـامل مع هـذا الموقف ، بالتـالى قـام رئيس الأركان الاسرائيلى ليفتنانت جنـرال « حاييم بارليف » بتعيين لجنة برئاسة ميجور جنرال (ابراهام برن آدان » لتكوين مفهوم لنسق الدفاع فى سيناء(٣) .

وكانت خطة آدان ، كما قدمها لهيئة الأركان الاسرائيلية ، تدعو لبناء حوالى ١٥ مخفرا صغيرا محصنا للمراقبة يبعد كل واحـد منها عن الآخر بمسافة احد عشر كيلو مترا على طـول قناة السويس تقام هـذه المواقع بحيث تعطى اكبر درجة من المراقبة ، واقل درجة من تعرض القوات الموجودة فيها ، يتم تزويد كل موقع بحوالى ١٥ جنديا ، وتقوم قـوات مدرعة متحركة باعمال الدورية فى المناطق بين المواقع الحصينة ، بينما يتم الاحتفاظ بقوات مدرعة اكبر وقـوات من المدفعية كاحتياطى لمؤخرة الخط ، ويمكن استدعاء

هذه الوحدات الاحتياطية المحلية سريعا الى الامام لمواجهة اى محاولة مصرية لعبور القناة .

وافق ليجور جنرال « يشايا هوجانيش » القائد العام للقيادة الجوية على خطة « آدان » ، وكان هو و « آدان » (ضابطا مدرعات) يدركان أن سلسلة من التحصينات ملاصقة للقناة سوف تهيىء للمصريين اهدافا مناسبة للمدفعية ، وان الدفاع القائم على اساس خط دفاعى ثابت يناقض العقيدة السابقة لقوات الدفاع الاسرائيلية وخبرتها . ومع ذلك فقد انتهينا الى ان ما يعوض نواحى الضعف هذه هى القيمة الدفاعية والاستطلاعية لهذه التحصينات كمراكز للاستطلاع الالكترونى المرئى والاستماعى ، واعتقد — بالاضافة الى ذلك — ان مثل هذا الخط من التحصينات ، كقاعدة للهجمات المضادة التى تقوم بها القوات المدرعة المحلية ، ستمكن بصورة فعالة من تعويق اى عبور مصرى ، حتى يمكن تحريك قوات اكبر من المشاة والمدرعات ، وتوزيعها اما على طول القناة او طول خط الممرات فى وسط سيناء فيما عدا ذلك ويخشيان من ان نيران المدفعية المصرية المكثفة قد تحول دون وصول القوات المدرعة من الوصول الى القناة فى الوقت الذى تعبر فيه وحدات المشاة المصرية المر المائى واقامة راس جسر على الضفة الشرقية والمتوقع حينئذ هو محاولة المصريين مباشرة الحصول على وقف جديد لاطلاق النار بتأييد من الامم المتحدة ، مما قد يؤدى الى قيام « الحالة الراهنة من جديد لغير صالح اسرائيل بتواجد القوات العربية على ارض سيناء متأهبة مرة اخرى للزحف فى المستقبل ضد اسرائيل(٤) .

عارض ميجور جنرال « اريل شارون » مدير التدريب ميجور جنرال « اسرائيل تال » رئيس اركان التخطيط فى وزارة الدفاع آراء كل من « آدان وجانيش » (كان شارون من رجال المظلات بحكم تدريبه ، بينما تال من رجال الدبابات) كان هذا الرجلان من انصار الدفاع القائم على القوات المدرعة المتحركة التى تظل متجمعة بعيدا عن مدى المدفعية شرقى القناة ، بينما تقوم داوريات صغيرة من الوحدات المدرعة المتحركة باعمال الداورية باستمرار على ضفة المر المائى ، وكان الرجلان يشكان فى قيمة التحصينات لمنع اى عبور مدبر تقوم به القوات المصرية ، فكانا يشعران ان جهازا متحركا قاعدته خلف منطقة القناة يكون اكثر تمشيا مع عقيدة قوات الدفاع الاسرائيلى القديمة وخبرتها ، ويحفظ بالتالى على الاقل الجزء الاكبر من قوات الدفاع الاسرائيلية بعيدا عن مدى المدفعية المصرية .

جاء قرار جنرال بارليف فى باكورة عام ١٩٦٩ مؤيدا لاقتراح « آدان » ، وتم بناء خط بارليف — وهذا هو الاسم الذى اصبح معروفا به — فى نهاية شهر يناير ١٩٦٩ ، ولكنه اصبح يتكون من ٣٠ موقعا محصنا (من بينها اثنان فى جنوب القناة على خليج السويس ، وواحد فى الشرق على شاطىء البحر المتوسط) بمتوسط مسافة فاصلة بين كل اثنين منها تقدر

بحوالى ٥ كم ، ومن ابرز ملامح هذا الخط ساتر رملى ارتفاعه ما بين ٢٠ الى ٢٠ قدما على طول الضفة الشرقية للقناة كلها ، وكانت زاوية الانحدار التى تقدر بخمس واربعين درجة فى مواجهة المياه تحول دون صعود اية مركبة برمائية معروفة ، وكان كل تحصين مشيدا على قمة الساتر يسيطر على حوالى كيلومتر على كل من جناحيه ، بينما يمكن مراقبة الكيلومترات الثلاثة المتبقية بين التحصينات من ابراج للمراقبة تغطيها الداوريات ، وتمركزت فصائل من الدبابات فى داخل المنطقة تحت سيطرة كل حصن من الحصون ، واقيمت قواعد على الساتر بين التحصينات لتهيىء مواقع حصينة لاطلاق النيران على طول القناة ، كما كانت توجد خلف الخط الاول قوة نارية متحركة لتزويدها بتجمعات مدرعة ، واقيم ساتر رملى ثان على بعد حوالى ٥٠٠ متر خلف التحصينات الرئيسية ، مع قواعد ايضا لاطلاق النار ، وتسمح لخط ثان من الدبابات بضرب النار لتغطية التحصينات نحو القناة ، وتم تشييد اجزاء من خط ثالث على بعد حوالى كيلومتر وكيلومترين الى الوراء على طول المحور الرئيسى من الشرق الى الغرب ، هذا بالاضافة الى شبكة من الطرق ، ومراكز للقيادة تحت الارض ، وشبكات للمياه والمواصلات ، ومرافق للاصلاح ومخازن ، وتم بناء ذلك كله خلف خط الدفاع الثانى .

وخلال فترة النشاط الاسرائيلى المحموم لبناء التحصينات ، كان المصريون — على الرغم من القيام ببعض المضايقات بالمدفعية — هادئين نسبيا ، ويبدو ان هذا يعود الى جدل على مستوى عال فى هيئة الاركان فى القاهرة بين اتجاه يرى انه يجب عدم الاقدام على شيء حتى يتم تماما تعويض خسائر حرب الأيام الستة بمعدات روسية جديدة ، وبين اتجاه آخر يرى انه يجب التدخل لمنع الاسرائيليين من زيادة قوة تحصيناتهم . ولما حان الوقت أخيرا للأخذ بوجهة النظر الثانية فى اوائل مارس ١٩٦٩، حيث كانت معظم المعدات الروسية قد تم استلامها ، كان الوقت متأخرا جدا لالحاق اضرار خطيرة بخط بارليف ، اذ كان معظم ما خطط له الاسرائيليون قد تم ، على الرغم من ان التحصينات كانت لازالت مستمرة .

وتبدا « مرحلة الاستنزاف » :

فى ٨ مارس ١٩٦٩ اعطى القصف المصرى المكثف بقنابل المدفعية اشارة البدء لحرب الاستنزاف التى اعلنها رسميا الرئيس عبد الناصر فى نفس اليوم فى ذلك الوقت كانت هيئة الأركان العامة المصرية قد صاغت مفهومها التنفيذى للعمليات القادمة ، ولقد اعلن رسميا ان الفترة من يونية ١٩٦٧ حتى اغسطس ١٩٦٨ كانت « مرحلة التحدى » ، وسميت الفترة ما بين سبتمبر ١٩٦٨ حتى فبراير ١٩٦٩ « مرحلة الدفاع النشط » بينما سمى النشاط الجديد الذى بدأ فى ٨ مارس « مرحلة الاستنزاف » وقد صيغت اهداف حملة الاستنزاف(٥) كما حددها الفريق اول رياض رئيس الأركان كما يلى :

* تحطيم تحصينات خط بارليف .
* منع الاسرائيليين من اعادة بناء التحصينات بعد تحطيمها .
* جعل حياة الاسرائيليين على الضفة الشرقية للقناة لا تطاق .
* بث الروح الهجومية فى القوات المصرية .
* القيام بعمليات تدريبية لعبور القناة .

وكان المنطق الكامن وراء هذه الحملة هو ان الموقف الدفاعى الثابت للجيشين يؤدى الى حد كبير الى حرمان اسرائيل من تفوقها النوعى فى الحرب المتحركة . وكانت مصر تامل بتفوقها العددى فى القوة البشرية والقوة النارية اضعاف العزم الاسرائيلى بانزال خسائر فى الأرواح غير مقبولة فى قوات الدفاع الاسرائيلية على طول القناة ، يصاحب استنزاف القوات الاسرائيلية بالقصف المدفعى وتحطيم خط بارليف فى نفس الوقت سلسلة من هجمات الكوماندوز المصرية عبر القناة ، وكان من المتوقع ان يؤدى هذا الى خلق موقف مناسب لعبور ضخم تقوم به القوات المصرية وينتهى باسترداد سيناء .

كانت نيران المدفعية فى يوم ٨ مارس بداية لفترة مدتها ٨٠ يوما لقصف بالقنابل دون توقف تقريبا ، وعلى الرغم من الأضرار الكبيرة التى لحقت بالتحصينات(٦) ، فقد قامت المدفعية الاسرائيلية برد فعل حى بنيران من بطاريات مضادة وبتركيزات متكررة على مواقع القوات المصرية المعروفة ، وفى يوم ٩ مارس اى بعد يوم واحد من بدء حملة الاستنزاف كان الفريق أول رياض يقف مع مجموعة من الضباط على الضفة الغربية للقناة بالقرب من الاسماعيلية يراقب آثار النيران على خط بارليف عندما أصيب ، ومات فى الحال بالنيران الانتقامية للمدافع الاسرائيلية ، ولم تفعل هذه المأساة شيئا للتخفيف من حدة الحملة التى كان قد بداها ، وحل الفريق احمد اسماعيل على محله كرئيس لهيئة الأركان .

اقام المصريون طيلة شهرى مارس وابريل ١٩٦٩ سدودا متكررة من نيران المدفعية على طول خط بارليف ، وعلى الرغم من الخسائر التى لحقت بالمواقع الاسرائيلية ، فان معظمها صمد للقصف بالقنابل . وفى منتصف أبريل، وتصعيدا لمستوى التوتر ، قامت وحدات الكوماندوز المصرية بعدة غارات عبر القناة .

وبدات فى مهاجمة تحصينات خط بارليف ، والداوريات الاسرائيلية ، وقوافل الامدادات ، والمنشآت الخلفية . وعلى الرغم من قيام الكوماندوز الاسرائيليين بغارات انتقامية فى مناطق اخرى ، وقيام المدفعية الاسرائيلية بقصف الضفة الغربية للقناة ، حافظ المصريون على تفوق قوتهم النارية جوهريا ، ولما تصاعد القتال ارتفع عدد الضحايا الاسرائيليين ثانية .

وطيلة حرب الاستنزاف كانت اجراءات العمل الاسرائيلية المألوفة خلال الطوارىء تتطلب استبدال كل الاحتياطيين فى خط بارليف ليحل محلهم جنود من الجيش العامل او من احتياطى قوات المظلات (ممن استمر الاحتفاظ بمستوى تدريبهم المكثف) ، وخلال هذه الفترات ، تمت زيادة بعض هذه الحاميات الى ما يقرب من ٩٠ رجلا لكل موقع ، وفى حالات الطوارىء كان كل موقع يقوده ضابط ، ومعه ضباط ميدان ، عادة برتبة ميجور ، يقودون المراكز الأكثر اهمية ، وكان جنرال بارليف يحتفظ عادة بلواءين مدرعين على طول القناة ، مع وجود ثالث احتياطى فى وسط سيناء واضيف لواء رابع مدرع يتكون عادة من الاحتياطيين المدربين فى منطقة سيناء وذلك اثناء فترات الطوارىء .

وفى يوم ١٠ يولية قامت وحدة كوماندوز مصرية بمفاجاة وحدة مدرعة اسرائيلية ، وهاجمتها بنجاح فى مواجهة بور توفيق فى وضح النهار ، وانزلت خسائر فادحة فى الأرواح فى القوة الاسرائيلية ، ونتيجة لذلك وافقت الحكومة الاسرائيلية على توصية من هيئة الأركان العامة على اشراك السلاح الجوى فى هذا التصعيد لحرب الاستنزاف(٧) .

وفى ليل ١٩ — ٢٠ يولية قامت وحدة كوماندوز اسرائيلية كبيرة منقولة على قطع للانزال البرى بمهاجمة الجزيرة الخضراء فى خليج السويس ، حيث توجد قاعدة للرادار فى الشبكة المصرية للدفاع الجوى المضاد للطائرات فى اقصى الجنوب . فوجىء المدافعون الستون عن القاعدة تماما حين جاءهم افراد الضفادع البشرية الاسرائيليون من فوق الحائط المحيط بمحطة الرادار، ولما اصبح الاسرائيليون فى الداخل انقسموا الى سبع جماعات ، وتمكنوا سريعا من تدمير الرادار ومدافع الجزيرة المضادة للطائرات قبل عودتهم للأراضى المحتلة وبعد مقتل ستة منهم وطلب قائد البطارية المصرية اثناء المعركة من المدفعية ان تطلق النار على موقعه ، مما ادى الى اسراع الاسرائيليين بالرحيل — وفقد المصريون حوالى ٢٥ قتيلا طيلة ساعة الهجوم .

وابتداء من ٢٠ يولية قام السلاح الجوى الاسرائيلى خلال عشرة ايام بسلسلة من الغارات الانتقامية الحادة ضد مواقع المدفعية المصرية وضد قواعد سام على الضفة الغربية وكانت هذه هى المرة الاولى التى يتم فيها استخدام السلاح الجوى الاسرائيلى بكثافة منذ حرب الأيام الستة . اعقبت هذه الغارة فترة هدوء على طول القناة .

وبعد شهرين ، ولما زادت المدفعية المصرية من حدة قصفها ، قام الاسرائيليون بثانى عملية كوماندوز كبيرة .. ففى ليلة ٨ سبتمبر ، قام افراد الضفادع البشرية الاسرائيليون باغراق زورقين مصريين من زوارق الطوربيد عند « راس سادات » ، مطهرين بذلك كل الشواطىء الشمالية لخليج السويس من قطع الهجوم البحرية المصرية .

وفى صباح ٩ سبتمبر تم نقل قوة اسرائيلية قوامها عدة مئـات ، محمولة على قطع للانزال برا ، الى موقع جنوب « الحفاير » مباشرة على الشاطىء الغربى لخليج السويس ، وكانت القوة مزودة بدبابات روسية وحاملات للجنود مما تم الاستيلاء عليه فى حرب ١٩٦٧ ، ولم تقابل القوة الاسرائيلية عمليا اية مقاومة ، كانت بقيادة جنرال « برن » آدان ، وتحركت على الطريق الساحلى حيث دمرت عددا من قواعد الرادار المعدة (ولم تكن مشغولة بالرجال) وقواعد الصواريخ ، وكذلك كل العربات التى صادفتها فى طريقها ، وفى نفس الوقت هاجمت الطائرات الاسرائيلية « الحفاير » ومواقع فى داخل « راس زعفرانة » وبالقرب منها وكذلك القوافل المسافرة من والى السويس ؛ وفى تسع ساعات قطع المغيرون الاسرائيليون حوالى ٤٥ كيلومترا دون ان يقابلوا اية مقاومة جادة (لم يكن هناك قوات للجيش المصرى فى المنطقة) . وكانت خسائرهم اثنين من الطيارين اصيبا بجراح ، بينما قدرت خسائر المصريين بحوالى ١٥٠ رجلا ، معظمهم من العمال المدنيين ، استغل الاسرائيليون بعد ذلك قطع انزالهم ، وعادوا الى قواعدهم من العملية التى وصفتها الصحافة الاسرائيلية « بغزو مصر » .

فى نفس اليوم ، يوم ٩ سبتمبر ، اقيل رئيس الأركان المصرى الفريق اسماعيل من منصبه بعد ان شغله ستة اشهر فقط ، لقد اعتقد الاسرائيليون وغيرهم من المراقبين الأجانب ان اقالته كانت نتيجة لفشل المصريين فى مقاومة الغارة الاسرائيلية ، وقد انكرت مصر هذا القول بقوة ، واعلنت ان هذا التغيير الذى كان مقررا انما يعكس خلافا ايديولوجيا فى الراى غير مفهوم فى داخل القيادة العليا المصرية .

النضال بين الطيران والدفاع الجوى :

فى ١١ سبتمبر قام المصريون بضربة جوية رئيسية ضد المواقع الاسرائيلية فى سيناء انتقاما لغارة خليج السويس ، وبالرغم من محاولات المقاتلات الاسرائيلية طرد المهاجمين ، فقد تسببت الطائرات المصرية فى خسائر جوهرية الا ان المصريين فقدوا سبع طائرات ميج ٢١ ، وطائرة ميج ١٧ ، وثلاث طائرات اس يو ٧ ، ولم تكن هناك خسائر جوية اسرائيلية ، وكانت هذه العملية اكبر عملية للقوات الجوية المصرية خلال حرب الاستنزاف .

لما ادخلت اسرائيل سلاحها الجوى فى حرب الاستنزاف ، اكتشفت الطائرات الاسرائيلية ان هناك رادارا متقدما للمستوى المنخفض يتتبع آثارها ، وهذا الرادار هو « بى — ١٢ » ومداه ١٨٨ ميلا ، كان الروس قد زودوا المصريين به وتمت الرغبة الملحة لمعرفة المزيد عن الجهاز المصرى الجديد ، قامت وحدة استكشاف اسرائيلية محمولة على الطائرات العمودية فى ليل ٢٥ — ٢٦ ديسمبر بالاستيلاء على محطة سرية جدا للرادار «بى ١٢»

ف « راس غارب » ، وقام فريق من المهندسين بالعمل لمدة ساعة فى تنكيك محطة الرادار التى تزن سبعة اطنان ، وتم نقلها بعد ذلك الى اسرائيل على طائرتين عموديتين للاحمال الثقيلة(٨) .

بالاضافة الى هذا الرادار الجديد — بدا المصريون فى اجراء التجارب فى اغسطس على نظام متكامل للدفاع الجوى يقوم على المزاوجة بين قطع جوية للدفاع الجوى ، ونظام للصواريخ سطح — جو (سام) روسية الصنع امتد على طول الجبهه المصرية . كانت النتائج المبدئية مثبطة للمصريين ، ولكنهم ثابروا على الرغم من فقدهم لعدد من طائراتهم ميج ١٧ وميج ٢١ الجديدة امام « الميستير » الاسرائيلية والفانتوم اف — ٤ وفى ٩ ديسمبر اسقطت فى النهاية طائرة ميج ٢١ المصرية طائرة لاسرائيل من طراز فانتوم ، الا ان صواريخ سام ظلت غير ناجحة بشكل عام .

فى الفترة ما بين يولية وديسمبر ١٩٦٩ قام السلاح الجوى الاسرائيلى بمهاجمة المدافع المصرية المضادة للطائرات ، والقوافل ، وبطاريات المدفعية، الا ان بؤرة الهجوم كانت مركزة على شبكة الصاروخ « سام — ٢ » للارتفاعات البعيدة السوفيتية الصنع . ولما حل شهر اكتوبر كان سلاح الجو الاسرائيلى قد نجح فى تدمير جزء رئيسى من شبكة الصواريخ فى منطقة القناة ، واصبحت الطائرات الاسرائيلية قادرة على التجول كما يحلو لها فى منطقة القناة على الرغم من بقائها على ارتفاعات عالية لتجنب نيران المدافع المضادة للطائرات .

وبنهاية العام كان الاسرائيليون مرتاحين لفشل المصريين فى تحقيق اهدافهم من حرب الاستنزاف ، فبالرغم من الضرب القاسى الذى تعرضت له تحصينات خط بارليف ، قاومت هذه التحصينات اشد القصف المدفعى المصرى ، واخذت الضحايا الاسرائيلية فى الانخفاض بمعدل ثابت ، بينما كانت تزداد الخسائر المصرية ، ولم يجد الاسرائيليون انفسهم تحت ضغط خطير للتخلى عن اى ارض عربية استولوا عليها . ولم تفقد اسرائيل فى الفترة ما بين يونية ١٩٦٧ ويناير ١٩٧٠ سوى ١٥ طائرة على كل الجبهات، بينما فقدت مصر ٦٠ على جبهة سيناء — السويس(٩) .

غارات التوغل العميق الاسرائيلية :

فى يناير ١٩٧٠ وصلت الحرب الى نقطة تحول رئيسية ، وذلك حين عزمت اسرائيل على توسيع الحرب والضغط على مصر ، وقام السلاح الجوى الاسرائيلى بتنظيم سلسلة من الغارات المتوغلة فى العمق ضد اهداف عسكرية فى مصر لها اهميتها : ففى ٧ يناير هاجمت سبع طائرات اسرائيلية ، فى اول غارة من هذه الغارات ، محطات تموين الجيش وسلاح الطيران بالقرب من انشاص وحلوان فالحقت بها خسائر فادحة ، الا ان الاسرائيليين فشلوا فى اصابة الهدف الرئيسى وهو محطة ذخيرة السلاح الجوى الرئيسية .

وفى يوم ١٢ فبراير ، كجزء من الحملة ضد مواقع سام المصرية ، يبدو ان الاسرائيليين قاموا بزيادة تصعيد الحرب بغارة ضد مصنع الصلب وحديد التسليح فى ابى زعبل الذى كان ينتج الكثير من مواد البناء التى تستخدم فى بناء مواقع سام ، وجاء الهجوم فى الساعة ٨ صباحا فى نفس الوقت الذى يتم فيه تغيير الوردية فى المصنع — ونتيجة لذلك قتل ٧٠ عاملا وجرح اكثر من ذلك بكثير ، اتهم المصريون الاسرائيليين بأنهم اختاروا لغارتهم هذا الوقت بالذات لزيادة الفزع ، وعزا الاسرائيليون الهجوم على « مصنع المواسير » الى التحديد الخاطىء للهدف لأن المصنع بجوار قاعدة للجيش ، ولا يرتفع هذا التبرير الى مستوى الاقناع .

ولم يمر وقت طويل على هذه الغارة حتى قامت اسرائيل بغارة جوية اخرى سببت اكبر خسارة مفجعة اودت بأرواح المدنيين اذ اصابت القنابل مدرسة ابتدائية فى بحر البقر التى تبعد ١٢٠ كيلو مترا شمال القاهرة ، وقتل وجرح خمسون تلميذا على الأقل ، الا ان التفسير الاسرائيلى هذه المرة بخطأ الطيار ربما كان صحيحا ، اذ كانت المدرسة ملاصقة لمنشأة عسكرية .

على اية حال ، كانت الأهداف الاسرائيلية فى معظمها اهدافا عسكرية دون ادنى شك ، وكانت مركزة على مواقع « سام » المصرية ويبدو ان فاعلية هذه الغارات المتوغلة فى العمق وتحطيم دفاعيات صاروخ « سام ٢ » ادت بالرئيس عبد الناصر الى القيام برحلة سرية الى موسكو فى ٢٢ يناير لطلب المزيد من المساعدة السوفيتية ، وبعد شىء من التردد المبدئى(٩) كانت استجابة السوفييت ايجابية ، وبدا المستشارون الروس وكميات كبيرة من المعدات الروسية بما فيها صواريخ « سام — ٣ » وطائرات ميج ٢١ جيه ، فى الوصول الى مصر ابتداء من شهر فبراير .

ازدياد التورط الروسى :

اكتشفت المخابرات الاسرائيلية فى مارس انه تم بناء قواعد جديدة للصواريخ فى اعماق مصر مزودة بصواريخ « سام — ٣ » مزودة بطاقم من الروس . وفى نهاية يونية ١٩٧٠ كان يوجد ٥٥ موقعا للصواريخ « سام — ٣ » جاهزة للتشغيل ، وبالتدريج اخذت القوات السوفيتية على عاتقها مسئولية كبيرة للدفاع عن المجال الجوى المصرى ، وكانت فى قمة تورطها فى ربيع عام ١٩٧٢ ، ويصل عددها الى حوالى ١٦٫٠٠٠ رجل ، وفى ١٨ ابريل صادفت الطائرات الاسرائيلية وهى فى مهمة لها فوق ساحل البحر الأحمر المصرى عدة طائرات ميج ٢١ جيه ، وعلى الرغم من ان الطائرات كانت تحمل العلامات المصرية ، الا ان اجهزة المراقبة اللاسلكية الاسرائيلية سمعت طيارى الميج يتحدثون مع برج المراقبة بالروسية ، وفى ضوء السياسة التى تتبعها اسرائيل لمدة طويلة وهى تجنب المواجهة مع

قوة عظمى ، قامت هيئة الأركان بايقاف غارات التوغل فى العمق ، معلنة انها سوف تقاوم اية محاولات يقوم بها الروس او المصريون لمد شبكة الصواريخ الى منطقة القناة ، ومن المفهوم ان هذه المنطقة تمتد الى حوالى ٣٠ كيلو مترا فى العمق على طول الضفة الغربية للقناة(١٠) .

خلال الشهرين التاليين استمر وضع « الحالة الراهنة » على الجبهة المصرية ، اذ يبدو ان الروس لم يرغبوا فى مجابهة مباشرة مع الاسرائيليين، ولكن حدث فى يونية ان تم اسقاط طائرتين مقاتلتين اسرائيليتين من طراز فانتوم ف ٤٠ ، وذلك ببطاريات صواريخ جديدة كانت قد اقيمت على بعد ٢٥ كيلو مترا من القناة .

لقد اتضحت الفاعلية المتزايدة لشبكة الدفاع الجوى التى اعيدت حيويتها فى يولية لما تم اسقاط ما يقرب من ٢٠ طائرة اسرائيلية ، وفى نفس الوقت ، اتضحت ايضا فاعلية صواريخ « هوك » الاسرائيلية من صنع امريكا ، بعد اسقاط خمس طائرات مصرية بهذه الصواريخ فى شرق القناة .

وكانت شبكة الدفاع الجوى المصرى الروسى تتكون من بطاريات الصواريخ اس.ايه — ٢ للارتفاعات البعيدة بطاقم مصرى فى غالبها مع بطاريات الصواريخ « سام — ٣ » للارتفاعات المنخفضة (بطاقم روسى فى غالبها) ، وتحمى النوعين من الصواريخ شبكة متكاملة من الرادارات الأرضية ، وما يزيد على ١٠٠٠ مدفع مضاد للطائرات ، وما يقرب من ٦٠٠ من قاذفات الصواريخ « سام — ٧ » وزاد تدعيم هذه الشبكة بما يزيد على ١٠٠ طائرة ميج ٢١ جيه قامت فى البداية هذه الطائرات بطيارين من الروس بأعمال الداورية فقط لحماية منطقتى القاهرة واسوان ، الا انه فى ٢٥ يولية حاول المقاتلون الروس اعتراض الطائرات الاسرائيلية بالقرب من القناة.

قررت هيئة الأركان الاسرائيلية وبموافقة الحكومة انه لا يمكن تحاشى المجابهة مع الطائرات الروسية اكثر من ذلك ، وفى ٣٠ يولية ١٩٧٠ قام سرب من طائرات الميراج والفانتوم الاسرائيلية ، التى يقودها احسن الطيارين فى السلاح الجوى الاسرائيلى لمهاجمة محطة رادار فى مصر بالقرب من قناة السويس متوقعة اعتراضا روسيا لها ، فلما اتجهت طائرات الفانتوم لمهاجمة المحطة ، قامت طائرات الميراج بتغطيتها من اعلى ، وفجأة ظهرت قوة من ١٦ طائرة ميج ٢١ واشتبكت مع طائرات الفانتوم ، وبكمين جوى اسرائيلى كلاسيكى قامت الميراج التى كانت تحلق فى انتظار ، باسقاط ٤ طائرات ميج والحقت الخسارة بخامسة وذلك فى دقائق فانسحبت بقية الطائرات الروسية سريعا ، وعادت الطائرات الاسرائيلية الى قاعدتها بدون خسائر(١١) .

الحـرب بحـرا :

هيأ الساحل الطويل الذى كان على الأسطول الاسرائيلى حمايته بعد حرب عام ١٩٦٧ الفرصة لغارات الكوماندوز العرب ، وقيام قطع البحرية بالقصف والهرب ، وتهريب السلاح ، والغزوات لجمع المعلومات ، وكانت هناك ايضا خطورة انزال مصرى رئيسى لتفادى خط بارليف ومن قبل كان الأسطول الاسرائيلى يحمى شاطئين بقوة خفيفة تتكون من زوارق الطوربيد السريعة وزوارق الداورية المسلحة تسليحا خفيفا التى تجوب بمحاذاة الشاطىء ، مع مجموعة منزوارق الطـوربيد والمدمرات وسفن الداورية المضادة للغواصات تقف بعيدا عن الشاطىء وكان الموقف الجديد يتطلب حزاما دفاعيا اعمق ، واستراتيجية تسعى للبحث عن الوحـدات العربية (المصرية فى الغالب) والاشتباك معها فى مياهها الاقليمية ، ووضـع الأسطول المعادى فى موقف يختل فيه توازنه(١٢) .

لقد فرض الرئيس الفرنسى ، ديجول ، نتيجة لحرب ١٩٦٧ ، حظرا على تسليم جميع الأسلحة للدول المتحاربة فى الشرق الاوسط ، مما حال دون تسليم زوارق « سار » التى تم صفها بعد الحرب مباشرة ، على اية حال — وفى حادثة مشهورة — قام عملاء اسرائيل بتهريب سبعة زوارق من فرنسا فى يوم عيد الميلاد ١٩٦٩ تحت انف الفرنسـيين ، وعبرت البحر المتوسط فى خمسة ايام الى حيفا بمساعدة ناقلة تموين بترولية ، اما الخمسة زوارق الاخرى فقد باعتها فرنسا لمؤسسة اسكندنافية تبين انها « واجهة » اسرائيلية ، وسرعان ما ظهرت هذه القوارب ايضا فى اسرائيل ، كان طول القطعة من الجيل الأول من زوارق « سار » ١٤٧ قدما ، وحمولتهـا بين ٢٢٠ ، ٢٥٠ طنا ، وكانت محركاتها الديزل الثلاثة تدفعها الى ما يزيد على ٤٠ عقدة . وكان الصاروخ جابرييل الذى كانت تحمله هذه القوارب الجديدة اول صاروخ من باخرة الى باخرة غير سوفيتى الصنع مهيئا للتشغيل ، وكان مستودعه — وهو ايضا جهاز للقذف — قد صمم بحيث يسمح بتخزين بطارية كاملة للصواريخ جاهزة للاطلاق دون حاجة لاعداد يدوى مسبق — وكان مجال النسخة الأصلية ٢٢ كم ، كان توجيه القذف يتم بالقصور الذاتى مع تقل اوتوماتيكى فى المرحلة الأخيرة — وبتركيب اجهزة المتقدمة فى وحدة التوجيه مع اجهزة للتغلب على الأمواج ، اصبح الصاروخ محصنا ضد كل الأجهزة المعروفة من طراز اى .سى.ام ، وربما كانت شبكة اى.سى.ام التى تم تركيبها على قوارب « سار » نفسها اكثر الأجهزة المستخدمة على ظهر القطع البحرية الصغيرة تقدما على الاطلاق ، فى الوقت الذى كانت فيه اجهزة الكترونية معقدة للكشف عن الأهداف على السطح وفى الأعماق وفى الجو متاحة اما للغزو او للتهرب .

بعد تشغيل زوارق « سار » بعدة أشهر ، صمم المهندسون البحريون الاسرائيليون شكلا من الاشكال اكبر واحسن ، وبدأ دانى بنائه ، واصبح معروفا باسم طراز « رشيف » طبقا لنمـوذجه الأول ، وكانت اطـوال

« رشيف » ١٩٠ × ٢٥ قدما والحمولة ٤١٥ طنا ، وكان من الممكن ان يحمل كل زورق ثمانية من صواريخ جابرييل مهياة للاطلاق بالاضافة الى مدفعين اوتوماتيكيين من عيار ٧٦ مم ومدفعين اوتوماتيكيين عيار ٢٠ مم ١١ ، وكان مفتاح التفوق فى الزوارق « شيف » على زوارق (سـار) هو انهـا كانت اطول مدى وافضل فى خصائص صيانتها فى البحر .

وخلال حرب الاستنزاف كان الدور الرئيسى للأسطول الاسرائيلى — الى جانب حمايته للشواطىء — القيـام بعـدد من هجمات الكوماندوز من الضفادع البشرية ، والتى ادت كما يدعى الاسرائيليون — الى تحطيم تسع سفن مصرية من مختلف الأحجام فى مراس غير محمية .

وكانت نشاطات الأسطول المصرى مماثلة : ففى ٨ نوفمبر ١٩٦٩ ، قصفت مدمرتان مصريتان بنجاح رومانى وبالوظة فى سيناء على سـاحل البحر المتوسط ، الا ان المصريين بعد ذلك ركزوا ايضا معظم جهودهم على النشاطات المستترة للضفادع البشرية . وفى ١٦ نوفمبر اغرقت الضفادع البشرية المصرية ثلاث قطع من طراز سى تى فى ميناء ايلات ، واعلن المصريون عن هذا النجاح بانه رد على غارة الكوماندوز الاسرائيلية فى ٩ سـبتمبر والتى اطلق عليها « غزو مصر » .

وفى يوم ٦ فبراير قام المصريون بهجوم آخر للضفادع البشرية على ميناء ايلات ، ودمروا هذه المرة قطعتين طراز ال سى تى ادعوا بأنها كانت محملة بالرجال والذخيرة ، وكما يبدو توقعا لغارة يقومون بها — وادعى المصريون كما حدث فى غارة ٨ نوفمبر انه لم تلحق بهم اية خسائر .

وقف اطلاق النـار :

فى ٨ اغسطس ١٩٧٠ بضمان من الولايات المتحدة وبتأييد من السوفيت، تم وقف اطلاق النار الذى انهى القتال بين القوات الاسرائيلية والمصرية . ونص اتفاق وقف اطلاق النار على ايقاف كل العمليات العسكرية فى منطقة عرضها ٥٠ كم على جانبى القناة ، ومع ذلك ، وبعد يومين من تنفيذ وقف اطلاق النار نقض المصريون هذا الشرط بتحريكهم بطاريات الصواريخ الى القناة ، واحتجت اسرائيل ، الا ان المنـاخ السياسى الذى كان سـائدا فى العالم فى ذلك الوقت منعها من القيام برد فعل له قيمته ، وهكذا خيم الهدوء لفترة على هذه الجبهة .

وعلى اية حال ، كى تظهر الولايات المتحدة مساندتها لاسرائيل ، وافقت على أن تمدها بمزيد من الطائرات لاستعادة التوازن المحلى .

كان هناك رد فعل غير مباشر لاسرائيل ، تتمثل ذلك فى بذل جهد كبير لتحسين تحصينات خط بارليف ، ويدعى المصريون ان خرق اسرائيل لوقف اطلاق النار هذا بدأ حقيقة قبل تحريكهم لصواريخ سام الجديدة الى منطقة القناة ، ومهما يكن الأمر فقد قام الاسرائيليون بتعلية وتقوية الساتر الترابى

على ضفة القناة ، واصلحوا او اعادوا بناء النقاط القوية التى لحقتها خسائر على طول الممر المسائى ، فلما تمت هذه التحصينات ، وعلق احد المراقبين الاجانب بأن هذا الغطاء العلوى من الفحر ، وقضبان السكك الحديدية ، والمسلح المدعوم يستطيع مقاومة اى شىء اللهم الا ضربة مباشرة بسلاح نووى .

اعترفت اسرائيل بأنها خسرت بين يونيه ١٩٦٧ واغسطس ١٩٧٠ مايزيد على ٥٠٠ من الجنود القتلى ، ٢٠٠٠ من الجرحى على كل الجبهات ، بالاضافة الى ذلك كان هناك ١٢٧ قتيلا من المدنيين ، و ٧٠٠ جريح ، وكان على الجبهة المصرية وحدها ٤٠٠ قتيل من الجنود ، و ١١٠٠ جريح ، والاحصاءات الدقيقة عن الخسائر المصرية ليست فى المتناول ، الا ان الاسرائيليين يقدرون بأن القتلى كانوا ١٥٫٠٠٠ ، وهو تقدير مبالغ فيه اذ يعادل الثلاثة اضعاف على الأقل .

الملاحظات

(١) يؤكد المصريون ان كثيرا منها كانت اهدافا مدنية على الرغم من ان بعضها له دلالته الاستراتيجية .

(٢) ايجال الون ، تكوين الجيش الاسرائيلى (لندن ١٩٧٠) ص ٧٣ .

(٣) هذه المناقشة التى تتناول تخطيط وبناء خط بارليف وتزويده بالرجال تقوم اساسا على كتاب تشيم هرزوج ، حرب الاستنزاف (تل ابيب ١٩٧٥) ص ٧٠٥ ، وعلى المقابلات الشخصية مع جنرال آدان .

(٤) لوتواك وهوروينتز مرجع سبق ذكره ص ٣١٩ .

(٥) يدعى المصريون ان نسبة الأضرار ٨٠٪ ، وهذا امر مشكوك فيه .

(٦) تشيف مرجع سبق ذكره ص ٢٤٧ .

(٧) ربما تم تحويل هذا الرادار بعد ذلك للولايات المتحدة لدراسته .

(٨) لم يعلن اى من الطرفين عن خسائره الا ان التقديرات غير الرسمية يمكن عادة الحصول عليها من المصادر الاسرائيلية ، ونادرا من المصادر العربية .

(٩) محمد هيكل ، الطريق الى رمضان ، لندن ١٩٧٥ ص ٨٣ . هذا الكتاب له قيمته فيما يختص بالأحداث السياسية فى مصر من ٦٧ الى ١٩٧٣ .

(١٠) لوتواك وهورفتز ، مرجع سبق ذكره ص ٣٢٤ .

(١١) تشيف ، مرجع سبق ذكره ص ٢٤٦ .

(١٢) انظر ص ٣٢٨ لتخطيط وتصميم وانتاج صاروخ جابرييل وقوارب سار لتحقيق هذه المتطلبات .

(٤)

اللاسلم واللاحرب

مشروع روجرز :

ان الجهد الدبلوماسى لوزير الخارجية الأمريكية «وليم روجرز» والذى ادى الى وقف اطلاق النار فى ٨ أغسطس ١٩٧٠ ، قد بدأ بذلك الخطاب الذى القاه يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٩ ، وحاول فيه توضيح تفسير الحكومة الأمريكية لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وكانت شروط هذه الوثيقة التى كفلتها بريطانيا قد صيغت كلماتها بمهارة بالغة : الى حد ادى الى تفسير الاسرائيليين لها على انها تبرر مطالبتهم « بحدود آمنة يمكن الدفاع عنها » ، والتى تتضمن بعض الأجزاء غير المحددة — ومن المفروض جوهرية — من الأراضى العربية التى تم احتلالها فى يونية من ذلك العام ، بينما فسرتها فى نفس الوقت الدول العربية الثلاث صاحبة الأراضى المعنية — مصر وسوريا والاردن — على انها تؤكد مطالبتهم بعودة « جميع » الاراضى التى احتلتها اسرائيل فى حرب الأيام الستة ، وتحقيق حل عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين .

ان اهم الاحكام فى هذا القرار الجدلى القصير هى كما يلى :

مجلس الأمن .....

اذ يؤكد عدم جواز الاستيلاء على ارض بالحرب ، والحاجة الى السعى لتحقيق سلام عادل ودائم تستطيع فى ظله كل دولة فى المنطقة ان تعيش فى امان .

١ — يؤكد بأن تحقيق مبادىء الميثاق يتطلب اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط والذى يجب أن يتضمن تطبيق كل من المبدأين الآتيين :

(أ) انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض تم احتلالها فى النزاع الأخير(١) .

(ب) انهاء كل الدعاوى أو حالات الحرب واحترام سيادة كل دولة فى المنطقة ، وسلامة اراضيها واستقلالها السياسى والاعتراف بها ، وبحقها فى ان تعيش فى سلام داخل حدود آمنة معترف بها متحررة من كل تهديد او اعمال القوة .

— كما تؤكد ضرورة :

(أ) ضمان حرية الملاحة فى طرق المياه الدولية فى المنطقة .

(ب) تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين .

(ج) ضمان حرمة اراضى كل دولة فى المنطقة واستقلالها السياسى وذلك باتخاذ اجراءات تتضمن اقامة مناطق منزوعة السلاح .

٣ — يطلب من السكرتير العام للأمم المتحدة ان يعين ممثلا خاصا له للتوجه الى الشرق الأوسط لاقامة اتصالات مع الدول المعنية واستمرار هذه الاتصالات لتشجيع الاتفاق ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا لأحكام ومبادىء هذا القرار .

وفى ٢٢ نوفمبر عين المجلس الدكتور جونار يارنج ، السويدى كممثل خاص للسكرتير العام بمقتضى هذا القرار .

صوتت أمريكا فى صالح القرار ، الا انها حرصت خلال السنتين التاليتين على ان تتحاشى تفسيرا قد يتناقض تلقائيا مع تفسير كل من العرب الذى يتركز على الفقرتين ١ — أ و ب — او تفسير الاسرائيليين الذى يتركز ايضا على الفقرتين ١ — ب و ٢ — ج . على اية حال ، فسر كل الجانبين عامة عدم وجود بيان محدد من واشنطن بأنه تأييد ضمنى للتفسير الاسرائيلى ، والذى يعتبر كلمات « حدود آمنة معترف بها » هى الفترة الحاسمة فى القرار .

وهكذا اثار مستر روجرز اهتياجا وضجة فى عواصم الشرق الأوسط حين اعلن فى ٩ ديسمبر ١٩٦٩ أن السياسة الأمريكية « تشجع العرب على قبول سلام دائم يقوم على اتفاق ملزم ، وحث اسرائيل على الانسحاب من اراض محتلة عند ضمانها لسلامتها » واقترح « ضرورة قيام الأطراف بوضع شروط للسلام مفصلة تتصل بضمانات الأمن » بمساعدة دكتور يارنج (كان فى ذلك الوقت سفيرا للسويد فى ورسيا) .

اقترح روجرز أنه يمكن أن تسير المفاوضات على النمط الذى تم اتباعه فى رودس سنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩(٢) . واضاف « ان انسحاب اسرائيل من اراضى مصرية يصبح مطلوبا فى اطار السلام والاتفاق على ضمانات امن معينة » وكانت ضمانات الأمن هذه تتعلق بشرم الشيخ ، والمناطق منزوعة السلاح فى سيناء ، « والترتيبات النهائية فى قطاع غزة » . ولعل اهم ما كان له دلالة بالنسبة للعرب والاسرائيليين على السواء هو تصريحات روجرز : بأن الولايات المتحدة فسرت القرار بأنه يعنى « أن اية تغييرات فى الخطوط التى كانت قائمة من قبل ، يجب ان لا تعكس وزن الاستيلاء ، ويجب ان تقتصر على تغييرات غير جوهرية يتطلبها الأمن المتبادل » ،

« واننا لا نساند التوسع » . واذا كان هذا لم يؤد الى اغتباط فى القاهرة او دمشق او عمان فقد كان هناك على الأقل ارتياح هادىء .. وكان هناك غضب جامح فى اسرائيل فى نفس الوقت ، تعرض مستر روجرز فى واشنطن لضغط هائل مما يسمى « اللوبى اليهودى » لكى ينتصل من تصريحاته . على اية حال ، فبالرغم من ان مستر روجرز لم يكرر ابدا كلماته القوية عن الانسحاب الاسرائيلى ، فانه لم يتراجع عن تصريحه ، والتى ظلت ضمنا هى سياسة الولايات المتحدة بالنسبة لمشكلة الأراضى .

كانت هذه اذن مبادرة روجرز والتى ادت الى وقف اطلاق النار فى ٨ اغسطس ١٩٧٠ ، وذلك بالمهارة الدبلوماسية للسفير يارنج والدبلوماسيين الأمريكيين . وكان الاعتبار الرئيسى لموافقة الرئيس جمال عبد الناصر على ذلك — كما اكد ذلك محمد حسنين هيكل اخيرا — هو رد الفعل الجوى الاسرائيلى القوى الفعال « لحرب الاستنزاف » المصرية . وقد توصل عبد الناصر — الذى لم تكن تساوره اية اوهام بأن وقف اطلاق النار هذا ليس الا مقدمة للسلام — الى نتيجة انه بالاستمرار فى حرب الاستنزاف « فاننا ندمى انفسنا حتى الموت » مادام الاسرائيليون يملكون التفوق الجوى التام ، وكان مصمما فى فترة الهدوء التى سادت بعد وقف اطلاق النار على بناء دفاع جوى صاروخى فعال ، واذا ما تم له هذا ، خطط لارسال جيشه عبر القناة ليضرب من اجل ممرات سيناء ، وفى أواخر اغسطس او اوائل سبتمبر ١٩٧٠ امر الفريق فوزى أن يبدأ التخطيط لمثل هذه العملية(٢) .

وفاة عبد الناصر وبزوغ السادات :

فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، وبعد وقف اطلاق النيران بأقل من شهرين ، توفى الرئيس عبد الناصر بنوبة قلبية ، فخلفه نائبه أنور السادات أحد اعضاء الفريق الأصلى من ضباط الجيش الذى اشترك مع عبد الناصر فى الانقلاب ضد الملك فاروق . فى الأشهر التالية ظلت صورة السادات ضئيلة فى الداخل وفى الخارج ، ولعل هذا يعود جزئيا الى انعكاس فطرى ومعرفة بالمسئولية الضخمة التى ورثها عن الرجل الذى سيطر على مصر والعالم العربى لما يقرب من عقدين من الزمان ، ومن ناحية اخرى ، لعله ادرك انه — رغما عن التضامن الظاهرى فى مساندة زملاء عبد الناصر السابقين له — كانت هناك معارضة قوية لتوليه السلطة من زمرة لها اهميتها فى داخل نطاق الأقلية الحاكمة .

كان على صبرى يتزعم هذه المعارضة ، وهو نائب رئيس سابق ، وكان قبل ذلك ضابط مخابرات فى القوات الجوية ، وكان يلى السادات كأقوى رجل من اتباع عبد الناصر ، لذلك توقع صبرى تعيين السادات له كرئيس للوزراء ، ولما عين السادات فى نوفمبر ١٩٧٠ الدكتور محمود فوزى فى هذا المنصب ، فمن المحتمل ان صبرى بدأ فى تدبير المؤامرة التى يبدو ان

السادات قد اكتشفها فى الحال ، وتوجد ادلة على ان على صبرى ، وربما غيره من المتآمرين كذلك ، كانوا ينالون مساندة مستترة وتشجيعا من السفير الروسى ، على اية حال — كما حدث فى بلاد اخرى — جاء سقوط المتآمرين من تسجيلاتهم انفسهم لمحادثات التآمر التى اكتشفها ضباط شرطة مخلصون .

وفى ١٤ مايو ١٩٧١ اقال الرئيس السادات المتآمرين من مختلف مناصبهم الحكومية ، وتم سجنهم بعد ايام قليلة ، وبالتالى تمت محاكمتهم علنيا ، وادانتهم وسجنوا لمدد طويلة ، وعلى الرغم من انه لم يذكر صراحة ان الفريق فوزى وزير الحربية كان متآمرا ، الا انه كان صديقا حميما لعلى صبرى ومتعاطفا معه ، فتم فصله ايضا وحل محله رئيس الأركان الفريق محمد احمد صادق ، وتمت دعوة الفريق احمد اسماعيل من الاستيداع وعين رئيسا للمخابرات العامة بدلا من احد المتآمرين .

تحرك السادات بعد ذلك بحزم وصلابة لاحكام قبضته على الحكومة والقوات المسلحة ، وبدأ المراقبون — فى مصر وفى الخارج — الذين كانوا قد سلموا بانه سيكون رئيسا ضعيفا يتبينون أنهم أخطأوا فى الحكم عليه . وفى الأشهر التالية بدا بندول الراى يتحرك عكسيا ، وكان السادات قد اعلن بلهجة قوية ان سنة ١٩٧١ ستكون « سنة الحسم » بالنسبة لقضية العرب واسرائيل الا ان السنة مرت دون اى تقدم نحو حل دبلوماسى للمواجهة وبدون اى عمل من جانب مصر والسادات .

فى نفس الوقت وبحلول مايو ١٩٧١ كان من الواضح ان السفير يارنج لم يحقق تقدما نحو حل سلمى يزيد على ماتام به فى السنوات الثلاث السابقة ، لهذا قام روجرز وزير الخارجية الأمريكى بمحاولة أخرى لتحريك المفاوضات ثانية اذ حاول أن يحصل على موافقة مصر واسرائيل على خطوة اولى فى سبيل سلام يتحقق خطوة خطوة . كانت الخطوة الأولى التى اقترحها هى « حل انتقالى لقناة السويس يتفق فيه الطرفان على اعادة فتح قناة السويس ، وابدت كل من اسرائيل ومصر فى البداية بعض الاهتمام ، الا ان الرئيس السادات رفض الاقبال على هذه الخطوة ازاء رفض اسرائيل القيام بانسحاب جزئى للسماح باعادة فتح القناة تحت السيطرة المصرية .

مصر والاتحاد السوفييتى :

فى أوائل عام ١٩٧٢ كان من الجلى أن الرئيس السادات قد استنتج أن اسرائيل راضية تماما بوضع « الحالة الراهنة » وانها ليست فى عجلة من أمرها للسعى بجدية وراء أية صيغة واقعية ممكنة لمبادلة الأرض المحتلة بتسوية نهائية للسلام بمقتضى مفهوم القرار ٢٤٢ ، كما أنه لم تكتشف اى جهد جاد من جانب الدولتين العظميين او من جانب الأمم المتحدة للقيام بأى ضغط على اسرائيل للانسحاب ، وكان مما ضايق السادات — على وجه

الخصوص — تأخر تسليم الأسلحة السوفيتية التى كانت قد تأخرت كثيرا من المواعيد المقررة وكانت الحكومتان الأمريكية والروسية تقومان بمعظم تحركاتهما نحو « الوفاق » واستخلص السادات أن الحكومة السوفيتية ستكون سعيدة بالحفاظ على بقاء الأمور هادئة فى الشرق الأوسط ، لذلك كانت تؤخر تسليم الأسلحة .

كانت هناك مشكلات اخرى مع الاتحاد السوفيتى والمستشارين الروس اذ أخذ المستشارون يبدون — العجرفة ويعاملون المصريين — جنودا وضباطا — باستعلاء ، كما ان الروس — وبعد أن أصبح المصريون مدربين على استخدام صواريخ سام الأكثر تقدما — اخذوا يمانعون فى تحويل الاشراف على هذه الأسلحة لهم ، والمصريون ايضا قد ضايقهم ان الروس امسكوا عن اعطاء احدث الأسلحة السوفيتية لهم مثل طائرات ميج ٢٣ ، ٢٥ بدلا من ميج ٢١ ، كما كانت هناك ايضا مشكلة السداد . فبينما كانت هناك قروض طويلة الأمد (بشروط قاسية) قدمها الروس عموما للمصريين ، طالب الروس بالسداد النقدى لبعض الأسلحة الأحدث على الرغم من ضعف الموارد المالية المصرية .

وفى اواخر ربيع عام ١٩٧٢ بدأ محمد حسنين هيكل كتابة سلسلة من المقالات فى جريدة الأهرام تحت عنوان : « اللاسلم واللاحرب » وفيها اشار الى ان الروس على مايبدو راضون بهذا الموقف الشاذ دون القيام بأى شىء بطريق مباشر او غير مباشر لانهائه .

وفى يوم ٨ يولية ١٩٧٢ وبعد تبادل الاتصالات المثبطة للعزيمة مع المارشال جرتشكو وبريجنيف سكرتير الحزب الشيوعى بشأن تأخير السوفيت المستمر فى تسليم الأسلحة طبقا للمواعيد المتفق عليها ، طالب الرئيس السادات بسحب المستشارين العسكريين الروس وخبراء العمليات من مصر فى موعد اقصاه ١٧ يولية الا انه اقترح كلفته استرضائية انه سيكون على استعداد بعد هذا الانسحاب لمناقشته التعاون مستقبلا طبقا لشروط معاهدة الصداقة السوفيتية المصرية ، كما انه سمح بالبقاء فى مصر لعدد محدود من الأخصائيين الفنيين الروس ومن معلمى المدارس الفنية .

تقبل الروس هذا الصيد بكل كرامة وسعة صدر ، وسرهم ان السادات قد وافق على الأقل على الاحتفاظ بمعاهدةالصداقة ، وكانوا يأملون فى التمكن من اعادة بناء التحالف طبقا لشروط هذه المعاهدة ، وفى نفس الوقت ، وبدون جلبة ، ترك مصر معظم الواحد والعشرين الفا من المستشارين العسكريين الروس والفنيين خلال الفترة التى حددها السادات .

لقد كان السادات يأمل أن هذه الخطوة القوية قد تصدم السوفيت وتؤدى بهم الى الاسراع فى تسليم الأسلحة . وهذا ما حدث بالفعل . فبعد تجديد المفاوضات بدأ فى أواخر عام ١٩٧٢ تدفق المعدات العسكرية

على مصر ويقول محمد هيكل : « اننا استلمنا منهم فى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٧٢ ويونيه ١٩٧٣ ما يزيد على ما استلمناه طيلة السنتين السابقتين » . كما يذكر ان السادات قال له مرة فى أوائل عام ١٩٧٣ : « انهم يغرقوننى بالأسلحة الجديدة(٤) » .

مصر وليبيا :

هناك مشكلة أخرى من المشكلات التى واجهها الرئيس السادات فى السنوات الأولى من رئاسته ، هى الحماس الساذج والمتعصب من جانب الرئيس الليبى معمر القذافى ، لما قاد القذافى — وكان وقتئذ ضابطا فى الجيش فى أواخر العشرينات من عمره — الانقلاب الذى أطاح بالملكية فى ليبيا فى سبتمبر ١٩٦٩ سعى فى الحال تقريبا الى تكوين وحدة بين ليبيا ومصر تحت قيادة الرئيس عبد الناصر ، لم تكن الفكرة غير سارة بالنسبة لعبد الناصر الذى كان يحلم بتكوين وحدة بين كل الدول العربية ، الا انه احس ان الوحدة بين مصر وليبيا فى ذلك الوقت ستكون سابقة لأوانها ، وغالبا ما سوف تؤدى الى ابعاد دول عربية أخرى بدلا من اجتذابها للانضمام الى مثل هذه الوحدة ، وانها سوف تخلق مشكلات سياسية داخلية حادة فى الدولتين ، وكان الفشل القريب لوحدة مماثلة مع سوريا لازال حيا فى ذاكرته فى ذلك الوقت .

ومجرد ان خلف السادات عبد الناصر ، حاول القذافى ان يحصل على موافقته على مثل هذه الوحدة ، وافق السادات بالفعل فى البداية مع اتخاذ مبدا الحذر ، الا انه كما كان الحال مع عبد الناصر من قبله لم يشأ الاسراع فى الدخول فى وحدة تكون لها مضامينها الدولية الصعبة ، والتى قد تؤدى الى خلق بعض المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية الخطيرة ، هذا بالاضافة الى ان السادات بدا ينظر الى القذافى فى احسن الأحوال على انه غير ناضج ، وفى اسوئها ، على انه غير متزن عقليا .

وفى ٢٤ فبراير ١٩٧٣ ادت حادثة مأساوية لازال فيها شىء من الغموض الى تعقيد « الرقصة » الدبلوماسية الغريبة التى كانت تدور بين الشاب المتلهف القذافى وبين الرجل المتحفظ الأعقل السادات : فقد ضلت طائرة من طائرات الخطوط الليبية طريقها متخبطة فوق سيناء ورفضت الاستجابة حين اشارت لها الطائرات الاسرائيلية بالهبوط فى قاعدة جوية اسرائيلية ، فأسقطها الاسرائيليون وفقد ١٠٨ من الأفراد حياتهم ، ومما زاد من مرارة المأساة ان هناك شكا فى ان القوات المصرية شاهدت كل ذلك على شاشة الرادار ، وفشلت فى انتهاز الفرصة لتوجيه الطائرة الى بر الأمان ، ويبدو ان القوات المصرية قدمت عذرا اعوج مؤداه ان الجو لم يكن مناسبا لتحليق الطائرات لمثل هذا الانقاذ ، ولاحظ القذافى بشىء من القلق انه لا يبدو ان الجو لم يمنع الطائرات الاسرائيلية من مثل هذا التحليق(٥) .

بعد عدة اسابيع من هذه الحادثة وجد القذافى فرصته فى الانتقام من اسرائيل ، كان جماعة من اليهود الأمريكيين قد حجزوا عابرة المحيطات الانجليزية كوين اليزابيث ٢ لتحملهم فى زيارة من انجلترا الى اسرائيل لتصل بهم فى العيد الخامس والعشرين لاستقلال اسرائيل . وابحرت الباخرة من سوتهامبتون فى ١٥ ابريل .

بمقتضى اتفاق التبادل العسكرى بين مصر وليبيا كانت غواصة مصرية تتخذ قاعدة لها فى طرابلس تحت القيادة الليبية العسكرية اسميا ، فأمر القذافى كقائد عام للقوات المسلحة الليبية ، قائد الغواصة بالخروج الى البحر واذعان الباخرة كوين اليزابيث ، وخرج الضابط الشاب سرا بغواصته الى البحر المتوسط كما أمر ، الا انه أرسل فى ذلك المساء رسالة بالراديو الى قيادة القوات البحرية المصرية فى الاسكندرية ليبلغ عن مهمته ، وسرعان ما نقل الخبر مباشرة عن طريق وزير الحربية الى الرئيس السادات الذى تولاه الفزع ، فأمر الغواصة بالعودة فى الحال الى الاسكندرية(٦) ، وشعر القذافى بالمرارة لاثنائه عن تحقيق الانتقام الذى دبره .

ومع ذلك ورغم المشكلات مع القذافى المتقلب كان السادات ممتنا للمساعدة المالية التى تسلمتها مصر من ليبيا خلال الفترة ما بين ١٩٧١ — ١٩٧٣ : اذ ان ما يزيد قيمته عن بليون دولار من الثروة البترولية الليبية قد تم الاسهام به لاعادة تسليح الجيش المصرى ، وكانت له فائدة خاصة لدفع ثمن تلك المهمات التى طالب الروس بتسديد ثمنها نقدا .

اعادة تنظيم وزارة الحرب المصرية :

على الرغم من ان الرئيس السادات كان يشعر بالامتنان نحو الفريق صادق لولائه خلال مؤامرة على صبرى ، الا ان الرجلين لم يكونا على وفاق ، اذ كان الفريق صادق وهو جندى محترف غير راض — وهذا أمر مفهوم — عن ازدياد تصميم الرئيس السادات على انهاء موقف « اللاحرب واللاسلم » بقوة السلاح ، واخذ يذكر السادات بأن تأخر السوفيت فى تسليم الأسلحة طبقا للمواعيد المحددة يعنى ان مصر تفتقر الى الأسلحة والمعدات التى تتطلبها عمليات عسكرية رئيسية .

وفى ٢٤ اكتوبر ١٩٧٢ بعد ان أصبح من الواضح ان السوفيت على وشك الاسراع فى تنفيذ تسليم الأسلحة التى تأخر برنامجها طويلا ، دعا السادات الى عقد اجتماع للمجلس الأعلى للقوات المسلحة فى مقر اقامته بالجيزة (حى سكنه فى القاهرة) ، حضر الاجتماع بالاضافة الى الرئيس السادات والفريق صادق والفريق سعد الشاذلى رئيس الأركان واللواء عبد القادر حسن وكيل وزارة الحربية وأمير البحر عبد الرحمن فهمى قائد عام البحرية ومعهم اثنا عشر لواء من كبار ضباط الجيش ، عبر السادات عن رغبته فى البدء بوضع خطط للقيام بحرب محدودة عندما تؤدى الأسلحة السوفيتية التى تم تسليمها الى بناء القوة المصرية على المستويات المقبولة ،

وقد عارض الفريقان صادق وحسن بقوة القيام بمثل هذه الحرب دون مزيد كبير من الاستعداد ، وايدهما امير البحر فهمى وعدد من اللواءات ، ووافق الرئيس السادات على رايه الفريقين الشاذلى واحمد اسماعيل الذى اصبح الآن مديرا للمخابرات وفى السابق كان رئيسا للاركان ، وبعد جدل مر غير حاسم أجل السادات الاجتماع .

بعد ذلك بيومين اقال الرئيس السادات الفريق صادق والفريق حسن وامير البحر فهمى ، وتم تعيين احمد اسماعيل قائدا جديدا ووزيرا للحربية ، واستمرار الشاذلى فى منصبه كرئيس للاركان ، ووافق على توصية اسماعيل بدعوة امير البحر فؤاد ابو ذكرى من الاستيداع ليصبح القائد الجديد للقوات البحرية .

لقد صمم السادات على الحرب :

الملاحظات

(١) تسمح خصائص اللغات الرسمية الثلاث بالقاء بعض الشك على القصد الدقيق لهذا الشرط : فحذف اداة التعريف قبل « اراض » فى النسخة الانجليزية يوحى بان اسرائيل قد تحتفظ ببعض الاراضى المحتلة ، وتظهر اداة التعريف فى النسخة الفرنسية ، ولكنها غامضة ، ولما كانت اللغة الروسية لا يوجد فيها اداة التعريف فمن الممكن تفسير النسخة الروسية على انها تشير الى كل او جزء فقط من الاراضى المحتلة .

(٢) انظر من (١١٤) .

(٣) هيكل ، مرجع سبق ذكره ص ٩٧ .

(٤) المرجع سابق الذكر ص ١٨١ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٦) المرجع السابق ص ١٩٢ — ١٩٤ .

(٥)

الفلسطينيون والاردن وسوريا

الفدائيون الفلسطينيون والجيش الاردنى :

كانت تخالج الملك حسين وقادة الجيش الاردنى مشاعر مختلطة بالنسبة لمعركة الكرامة ، اذ كانوا مسرورين بأدائهم ضد الاسرائيليين ، الا انهم كانوا مستائين لأن القتال فرضه عليهم الفدائيون الفلسطينيون الذين لم يلعبوا سوى دور بسيط فى القتال ، على الرغم من فداحة ضحاياهم ، وكان الأردنيون ينظرون بشىء من الازدراء الى هروب ياسر عرفات من الكرامة خلال الدقائق الأولى للمعركة .

طالب الملك حسين بان يتقبل الفدائيون الاوامر العسكرية من قيادات الجيش الأردنى ، وكان عددهم آنذاك (١٩٦٨) يزيد على ٢٠٠٠ من المسلحين من الرجال الذين يتخذون قاعدة لهم فى الأردن ، لقد سلم الفلسطينيون — وربما كانوا على صواب — بانهم سوف يمنعون تحت سيطرة الجيش الأردنى من القيام بعمليات عبر نهر الأردن ضد اسرائيل ، فرفضوا الطلب — وبحلول شهر نوفمبر ١٩٦٨ ، ادى التوتر المتصاعد الى العنف بتبادل اطلاق النار بين فدائيى منظمة التحرير الفلسطينية وجنود الجيش الأردنى .

كان الملك حسين فى موقف سىء جدا سياسيا وعسكريا ، اذ كان ما يزيد على نصف سكان الأردن البالغ عددهم ٢ مليون اما فلسطينيين سابقين ، أو انهم يبعدون جيلا عن آبائهم الفلسطينيين ، أو انهم لاجئون حديثا هربا من الاحتلال الاسرائيلى من سكان الضفة الغربية فى عام ١٩٦٧ ، وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء القوم من المعجبين بالفدائيين، وكانوا أيديولوجيا من الناصرين للوحدة العربية التى ينادى بها عبد الناصر ، ويشترك معهم فى مشاعرهم بعض آخر من الأردنيين ممن لم يكن لهم معرفة طويلة بالحكم الهاشمى ، وكان عنصر السكان الوحيد الذى فى وسع الملك حسين الاعتماد عليه مكونا من ستين الفا من الرجال الذين يكونون الجيش الأردنى ، ونسبة كبيرة منهم قد تم تجنيدها من قبائل بدو الصحراء ، وكان ضباطهم فى الغالب اعضاء فى الارستقراطية البدوية .

وكان الملك حسين حتى قبل حرب ١٩٦٧ تحت ضغط كبير من الدول العربية قد سمح للفدائيين باستخدام بلده كقاعدة ، ولما كانت قوات الطوارىء الدولية تقوم بالدوريات على خط وقف النار بين اسرائيل ومصر فى سيناء ، كان للأردن بالتالى اطول وأسهل جبهة فى المتناول يتمكن

الفدائيون منها من التوغل فى الاراضى التى احتلتها اسرائيل ، وكان هذا الموقف بالطبع لا يزال حقيقة بعد حرب ١٩٦٧ . الا انه كان فى استطاعة الملك حسين ان يرى انه اذا سمح للفدائيين ببناء قوتهم العسكرية دون سيطرة عليهم ، فمن الممكن انضمامهم بعنصر جوهرى الى اتباعه لخلعه من العرش والاطاحة بحكومته ، بل ان هذا على الاقل قد يؤدى الى مزيد من الانتقام الاسرائيلى . من ناحية اخرى فانه اذا عارض الفدائيين او حاول طردهم فقد يقومون بخلعه بمساعدة الدول العربية الاخرى وتعضيد عنصر جوهرى من المنشقين فى بلده ، لهذا وفى احسن الاحوال كانت اختياراته محدودة .

اخذ الملك حسين خلال فترة الستين والنصف التالية العمل فى اطار نطاقات ضعيفة من هذه الاختيارات بشجاعة كبيرة ومهارة فائقة . اما جيشه الذى كان من المفروض ان يبدى سعادة اكبر لمحاربته الاسرائيليين، فقد كان مع ذلك مستاء من الفدائيين وتواجدهم كقوة عسكرية منافسة فى الاردن ، وسمح الملك حسين لهذا الاستياء أن ينفجر فى موجات عنف مؤقتة بين جنوده والفدائيين دون السماح بأن يفلت زمام جنوده او زمام الموقف من سيطرته ، ولو ترك العنان حقا للجيش لتمكن دون ادنى شك من تحطيم الفدائيين او طردهم فى عدة ايام ، الا ان من الممكن ان تكون عواقب ذلك وخيمة بالحث على الثورة بين افراد شعبه واستثارة نقمة الدول العربية عليه وعلى دولته الفقيرة واستعداء قوتها المالية والعسكرية .

وفى الفترة ما بين نوفمبر ١٩٦٨ ويولية ١٩٧٠ وقعت هناك حوادث متكررة كان الفدائيون هم السبب فى الكثير منها ، وكذا الجيش الاردنى وفى سبع مرات مختلفة قام الملك حسين وقيادات منظمة التحرير الفلسطينية (عادة عرفات) بترتيب وقف اطلاق النار وتوقيع اتفاقيات مقدسة للعمل معا فى سلام وانسجام ضد العدو المشترك .

وفى ٨ يولية ١٩٧٠ حدث انفجار جديد للقتال بين الفدائيين والجيش الاردنى نتيجة لأوامر الجيش الأردنى بعدم حمل اية اسلحة فى عمان الا لجنود الجيش فى الزى الرسمى ، وحدثت ولمدة خمسة أيام معارك متفرقة فى البلاد ، وكان القتال حادا على وجه الخصوص فى عمان وحولها ، ونجا الملك حسين بصعوبة من محاولة لاغتياله خلال هذه المعمعة ، اخيرا وفى يوم ١٢ يولية وبعد ان اعلنت حكومة الرئيس نور الدين الأتاسى السورية مساندتها التامة للفدائيين ، عقد الملك حسين الاتفاق الثامن معهم . وفى مقابل تقبلهم لقرار عدم حمل السلاح فى داخل عمان وخارجها ، وافق على اقالة القائد العام اللواء ناصر بن جميل واعفاء ابن خاله اللواء شريف ابن شاكر من منصبه كقائد للفرقة الثالثة المدرعة فى منطقة عمان ، وكان من المعروف ان اللواءين يعارضان الفدائيين .

سبتمبر « ايلول » الأسود :

لم يستمر السلام القلق طويلا ففى ٢ سبتمبر نجا حسين ثانية من محاولة اغتياله ، وانفجر القتال بعد ذلك بعدة ايام ، ثم تلت ذلك هدنة

قصيرة ، وفى ١٥ سبتمبر اقال حسين حكومته المدنية وعين حكومة عسكرية جديدة ، كان رئيس الوزراء العميد محمد داود وهو جندى من اصل فلسطينى الا ان الملك استدعى من الاستيداع بطل الجيش فى معركتى باب الواد واللطرون فى حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ المشير حابس المجالى ، وهو بدوى شديد الولاء للملك ، ليكون قائدا عاما للجيش ، وعين الملك الفريق بن شاكر — الذى كان الفدائيون الفلسطينيون يكرهونه ويخشونه — رئيسا للأركان .

كان رد فعل الفدائيين سريعا وعنيفا — وكما كان يتوقع الجيش على ما يبدو — وكان اخطر قتال تم حتى الآن بين الفدائيين والجيش هو الذى حدث فى اليوم التالى واستمر لمدة احد عشر يوما ، قام الجيش سريعا جدا بطرد الفدائيين من عمان ، ومن زرقة القريبة ومن معظم المدن الرئيسية الاخرى ، وقامت قوات عمليات الجيش بتحطيم عدد من معسكرات الفدائيين فى الريف .

بيد انه فى ٢٠ سبتمبر ظهر عامل جديد فى الصراع ، اذ هاجم لواء سورى مدرع عبر الحدود بالقرب من « رامثا » واضطرت وحدات الجيش الأردنى فى الشمال الى تحويل انتباهها من الفدائيين الى هذا التهديد الأكثر خطورة ، ولما حل يوم ٢١ كان السوريون قد ردوا على اعقابهم داخل سوريا ، الا انه فى اواخر يوم ٢٢ أو فى باكورة يوم ٢٣ بدا الجيش السورى فى غزو شامل لشمال الأردن ، وكانت القوات السورية تتكون من عناصر من فرقة المشاة الخامسة واللواءين المدرعين التاسع والثامن والثمانين واللواء الآلى السابع والستين بدبابات فى ٥٥/٥٤ وبكتيبة استكشاف ، اى ما يعادل فرقتين تقريبا تساندها مدفعية قوية ، وبحلول يوم ٢٤ كان السوريون قد احتلوا اربد وسيطروا على الكثير من شمال الأردن بالتعاون مع الفدائيين الفلسطينيين .

وفى ٢٢ سبتمبر تم اجتماع طارىء لرؤساء الدول العربية فى القاهرة ، وفى الوم التالى وفى ضوء الأنباء عن التورط السورى الأكبر انفض الاجتماع مؤقتا بينما قام وفد بزيارة عمان ودمشق ، وعاد الوفد الى القاهرة فى يوم ٢٥ ليعلن انه قد تم التوصل الى اتفاق بين الملك حسين وعدد من قادة الفدائيين ، الا ان عرفات وغيره من قادة الفلسطينيين شجبوا ما يسمى بهذا الاتفاق ، واصروا على ضرورة استمرار القتال ، واستقال فى ذلك اليوم رئيس الوزراء الأردنى داود واختفى بشكل غامض (تبين فيما بعد أن الرئيس الليبى القذافى وابنه داود أمتنعا داود الفلسطينى ان يضع ولاءه للقضية الفلسطينية قبل ولائه للملك الأردنى) .

وفى يومى ٢٥ ، ٢٦ سبتمبر احرز الأردنيون نصرا جوهريا ضد السوريين الغزاة مع قيام اللواء المدرع ٤٠ على وجه الخصوص بدور بارز ، وكان العنصر الرئيسى فى النصر استخدام الدعم المتين للسلاح الجوى ، ومدافع هانترز كأدوات قاتلة للدبابات ، وخوفا من اثارة التدخل الاسرائيلى لم يمد السلاح الجوى السورى الغطاء الجوى اللازم للدبابات السورية التى كانت كبط جالس تصطاده الطائرات المقاتلة الأردنية والتى كانت تعمل

بتناسق متين مع المدرعات الأردنية التى تم استخدامها بمهـارة ، وبحلول مساء يوم ٢٦ كان السوريون قد طردوا خلف الحدود ، ويبدو ان الرئيس الاتاسى كان يفكر فى تصعيد المعركة ولكنه تخلى عن هذا الراى بتهديدات صريحة من القدس بالتدخل الاسرائيلى .

حكومة جديدة فى ســـوريا :

فى يوم ١٨ اكتوبر ١٩٧٠ استولى وزير الدفاع السورى الفريق اول للسلاح الجوى حافظ الأسد فعليا على السلطة فى الحكومة على الرغم من احتفاظ الاتاسى بوظيفته الاسمية كرئيس للجمهورية ، ولكن فى اقل من شهر اتم الأسد انقلابه وطرد الاتاسى ، وكان هذا الانقلاب هو الحادى والعشرون الذى تم له النجاح منذ استقلال سوريا من ٢٤ عاما .

لقد لعبت الهزيمة السورية الشائنة على يد الأردن فى الشهر السابق دورا فى هـذا الانقلاب السورى الأخير ، الا ان الأسـباب السـياسية والاجتماعية الداخلية كانت مسئولة فى المقام الاول ، وكما حدث فى الانقلابات السابقة تم التخلص من كبار الضباط المشكوك فى ولائهم للنظام الجديد، وعلى الرغم من ان هذا الانقلاب لم يؤثر على الضباط من ذوى الرتب الوسطى وذوى الرتب الصغيرة الا ان الآثار العملية والنفسية للتغييرات فى المستوى العالى ادت الى خلق الفوضى ، كما يبدو ان الاصلاحات العسكرية هذه المرة كانت اكثر كفاءة من تلك التى تمت فى الانقلابات السابقة ، كان الأسد قبل كل شىء رجلا عسكريا واختار اللواء مصطفى طلاس رئيسـا للأركان ووزيرا للحربية ، وكان كالأسد جنديا مخلصا وسياسيا محنكا .

كانت لدى اللواء طلاس فرصة لاظهار مهاراته السياسية فى باكورة العام التالى بعد انفجار آخر للعنف بين الفـدائيين وجنود الجيش الأردنى فى الأردن ، اذ تمكن فى يوم ٩ ابريل فى عمـان وكوسيط بين المتصارعين باقناعهم بالتوقيع على اتفاق آخر للتعاون مستقبلا ، وكان هذا هو الاتفاق العاشر منذ نوفمبر ١٩٦٨ .

عالج الرئيس الأسـد قضـية اللاجئين الفلسطينيين والفدائيين فى سوريا بمهارة ، وكانت القضية فى ذلك الوقت كما يبدو تمزق الأردن تمزيقا. فلقد استغل كل فرصة ممكنة ليعلن تضامنه ومساندته للفدائيين فى معاركهم ضد اسرائيل والحكومة الأردنية ، فى نفس الوقت كان الموقف العسكرى فى مرتفعات الجولان فى حالة لا تعطى فرصة للفدائيين للقيام بعمليات ضد اسرائيل دون توريط الجيش السورى ، وهذا بالطبع مالا يستطيع الأسد السماح به ، كما انه رفض السماح للفلسطينيين بأية نشاطات سياسية فى سوريا ، ولمـا بدا له ان اعضاء « الفتح » يخرقون هذا الأمر قبض عليهم.

سارع الأسد ايضا باقامة علاقات ودية مع الاتحاد السوفيتى . ففى يناير ١٩٧١ وبعد ان عزز قبضته فى دمشق ، قام بزيارة موسكو سعيا وراء المساعدة المالية والعسكرية المباشرة ، فحصل على الاثنين وبحلول شهر

يونية كانت اعداد كبيرة من ميج — ٢١ وسوخوى — ٧ وغيرها من انواع الطائرات والأسلحة تصل الى سوريا من الاتحاد السوفيتى ، كما كانت تصل اعداد كبيرة من المستشارين والفنيين للمساعدة فى اعادة بناء الجيش السورى وانتشاله من الاغـوار التى غاص فيهـا بالهزيمة والاضطراب السياسى الداخلى .

الاردن يحل مشكلة الفدائيين :

فى اوائل عام ١٩٧١ اقام المتطرفون الفلسطينيون — وربما بقيـادة الدكتور جورج حبش وهو قائد راديكالى للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين — منظمة فى الأردن اطلق عليها اسم « حركة الأردن الحر » ، لها غرضان توأمان هما اجتذاب عناصر من الأردنيين والجيش الأردنى فى شهر مارس ، ومرة اخرى فى شهر ابريل ، اتهم الفدائيون الملك حسين بخرق الاتفاق الذى تم التوصل اليه فى سبتمبر السابق بيد ان المتحدث الأردنى رد على ذلك ببيان انه على الرغم من ان شروط ذلك الاتفـاق تحتم بقاء الفدائيين المسلحين خارج المدن ، الا ان كل الاضطرابات حدثت فى داخلها .

فى نفس الوقت ظهـرت الى السـطح خلافات داخليـة قوية بين الفلسطينيين ، اذ شجب ياسر عرفات ، رئيس «الفتح» وهى اكبر الجماعات الفلسطينية ، اهداف « حركة الأردن الحر » ، وردا على دعـوة حبش للاطاحة بالحكومة الأردنية قال عرفات : ان جماعته تعـارض بالقوة اى محاولات فلسطينية للاطاحة بحسين ، ومع ذلك ، وبعد هذا مباشرة ، فى ٣١ مارس ١٩٧١ حذر عرفات من أن حكومة حسين«تستعد لمذبحة جديدة».

ان الجدل بين الفسطينيين واستمرار الحرب التى يقوم بها المتطرفون الفلسطينيون قد اوضح للملك حسين ومستشاريه أنه على الرغم من الاتفاق المؤقت الذى فاوض فيه اللواء السورى طلاس فى اوائل ابريل — لم يتم التوصل الى اتفاق حقيقى مع الفدائيين (ومن الممكن بالطبع أن الملك حسين لم يقصد ابدا الالتزام بهذا الاتفاق ، الا أنه لا يوجد دليل واضح على ذلك) هذا بالاضافة الى أنه بدا أن الاختلاف بين الفلسطينيين تهيىء الفرصـة لتحطيم قوتهم التى تم اضعافها ، وكان موت عبد الناصر والاضطراب الداخلى فى مصر مما زاد من جاذبية هذه الفرصة .

وفى منتصف يولية يبدو ان الملك حسين والمشـير المجـالى والفريق ابن شاكر قد قرروا ان الوقت مناسب لحل نهائى لمشـكلة الفدائيين ، وفى ١٣ يولية اندلع قتال آخر يبدو أنه يختلف بعض الشىء عن عشرات الحوادث السابقة على أية حال ، لم يضع الملك حسين هذه المرة قيدا على الجيش ، وكانت خطط فى مستوى ما يمكن أن يضعه بن شاكر من خطط ، وهو من خريجى كلية قيادة الجيش الأمريكى وهيئة الأركان .

وبنظام ، قامت قوة عمليات مكونة من لواءين مدرعين ولواء للمشاة باكتساح معسكرات الفدائيين واحدا بعد الآخر ، وفى كل من هذه المعسكرات

سلم الفدائيون الذين نجوا من الموت ، او هربوا ، وبحلول ١٩ يولية كان الجيش الأردنى قد اسر ٢٣٠٠ ، وقتل حوالى ٦٠٠ ، وفرق حوالى ٦٠٠ من الفدائيين المسلحين فى الاردن ، وكان عـددهم يقرب من ٤٠٠٠(*) . ومن الطريف انه فى خلال ستة ايام عبر حوالى ٨٠ منهم نهر الاردن لتسليم انفسهم للجيش الاسرائيلى بدلا من الجيش الأردنى ، ولجأ الباقون الى لبنان ، واعلنت الحكومة الأردنية انه لا يوجد سوى حوالى ٢٠٠ منالفدائيين لازالوا يتمتعون بالحرية كهاربين ، وبعد يومين وبحركة تتسم بالحكمة والشهامة افرج حسين عن كل المسجونين وذهب معظمهم ايضا فى الحال الى لبنان .

كان الضغط على ولاءات الشعب الأردنى كبيرة ، بيد ان استعراض كفاءة الجيش لم تشجع قيام اية ثورة شعبية مناصرة للفدائيين ، واصبح موقف حسين السياسى الداخلى احسن مما كان عليه منذ حرب الأيام الستة .

الا ان الأمور فى الخـارج كانت تختلف ، اذ اغلقت العـراق فى يوم ١٩ يولية حدودها مع الأردن ، وسـحبت منها قوة يبلغ تعدادها حوالى ١٢٫٠٠٠ رجل كانت تعسكر فى الشمال الشرقى للأردن ضـد اى انفجار محتمل لحرب اخرى مع اسرائيل .

وفى ٢٠ يولية قامت المدفعية السورية بقصف « رافيا » ومدن اخرى فى شمال الأردن ، وردت عليها المدفعية الأردنية فى الحال .

بيد ان الرئيس الأسد لم تكن لديه النية لتكرار غزو الأتاسى للأردن الذى كان غزوا يتسم بقصر النظر ، وبدلا من ذلك اغلق الحدود ، ثم قطع العلاقات الدبلوماسية رسميا مع الأردن فى ١٢ اغسطس .

القى العرب الآخرون الاتهامات بالوحشية والقسوة التى عانى منها الفدائيون والفلسطينيون غير المسلحين على حسين وجيشه ، واصبحت الأردن بالفعل منبوذة من دول الجامعة العربية ، وعندما اغتيل وصفى التل رئيس الوزراء الأردنى فى ٢٨ نوفمبر اثناء حضوره اجتماعا للجامعة العربية فى القاهرة لم تبد الصحافة فى الدول العربية الأخرى الا قليلا من التعاطف مع الدبلوماسى الذى لقى مصرعه ، او مع بلده المعزول ، وان كانت قد فاضت بالمدح على جراة ومهارة الفلسطينيين الذين قاموا بعملية الاغتيال — ويبدو أن هؤلاء كانوا اعضاء فى جماعة صغيرة منشـقة عن منظمـة التحـرير الفلسطينية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جماعة حبش) اطلقت على نفسها اسم « جماعة أيلول الأسود » كذكرى كالحة للصراع المر الذى دار فى الأردن فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ ، وهناك سبب يدعو للاعتقاد بأنه على الرغم من تبرؤ منظمة التحرير الفلسطينية رسميا من هذه الجماعة الا انها كانت تتكون اساسا من عناصر من المنظمة معادية لعرفات .

(*) تصر بعض المصادر العربية على ان ما يقرب من ١٠٫٠٠٠ من اللاجئين الفلسطينيين من غير المقاتلين قد قتلوا اثناء هذه العمليات .

الكتاب الخامس

حرب أكتوبر ١٩٧٣

حرب رمضـــــان

حرب يوم « الغفران »

(١)

الخطط والاستعدادات المصرية

يذكر الرئيس السادات ــ ضمنا فى مذكراته ــ أنه اتخذ قراره الاكيد بدخول حرب ١٩٧٣ فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧٢ ، والاعتبارات التى تم على أساسها تم اتخاذ القرار واضحة الآن ، فعلى أساس تقدير حالة استعداد القوات المسلحة المصرية التى أمده بها الفريق اول احمد اسماعيل على وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة ، لم يكن السادات أو اسماعيل يتوهم أن مصر قد وصلت الى مستوى فى التكتيك العسكرى يعادل المستوى الاسرائيلى ، أو سوف تصل فى المستقبل القريب الى مثل هذا المستوى ، على أية حال ، كان من الواضح أن السادات قد انتهى الى نتيجة فحواها أن اسرائيل راضية عن وضع « الحالة الراهنة » والذى كان قائما منذ حرب عام ١٩٦٧ ، وما أدت اليه من واقع ضمها للأراضى المحتلة فى تلك الحرب، لهذا لم تكن هناك تحركات اسرائيلية نحو مفاوضات معقولة متوقعة حول مشاكل قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ بدون ضغط من اى من الدولتين العظميين أو كلتيهما ، ولهذا أيضا أعتقد السادات وبوضوح أن الحل الوحيد للتحرك نحو تسوية فى الشرق الأوسط هو القيام بعمل يرغم الدولتين العظميين والأمم المتحدة على الاهتمام بموقف « اللاسلم واللاحرب » فى الشرق الأوسط .

ولم يعط السادات سببا للاعتقاد بأنه كان يفكر فى السلام أو تسوية فى الشرق الأوسط لأسباب غير الأسباب الوطنية والمصلحة الشخصية . وكان الاقتصاد المصرى ــ واحسن ما يوصف به أنه كان مهزوزا ــ قد أضير اضرارا كبيرة باغلاق قناة السويس ، ولم يكن فى استطاعة البلد تحمل العبء الضخم لنفقات التسليح التى أخذتها على عاتقها ، وعلى الرغم من أن معظم هذه الأسلحة قد تم الحصول عليها من الاتحاد السوفيتى بشروط للدفع طويلة الأمد ، الا أن الاقتصاد المصرى كان مرهونا .

وكان على السادات كقائد لمصر أن يستجيب لرغبتين قويتين لشعبه ، وان لم يكن بينهما بالضرورة أى تماسك ، اذ كان عليه أن يعطى المصريين الأمل ، وبعض الدليل على التقدم نحو التحقيق الحتمى لتوقعاتهم الآخذة فى الزيادة ، والتى يستثيرها ما يستطيعون قراءته وسماعه فى الصحافة والتليفزيون والاذاعة ، وكان الطريق الواضح للتحرك نحو هذا الاتجاه هو الحصول على موقف دولى يسمح بفتح قناة السويس ، وأن يكون فيه ما يكفى من الاستقرار لتهدئة بعض التوترات فى الشرق الأوسط ، ويقلل شيئا ما من عبء نفقات التسليح المصرى .

وكان على السادات فى نفس الوقت ان يرضى التزمت الاسلامى والعربى والوطنى لشعب متقلب كان يطالب باستعادة مصر للأراضى المفقودة فى عام ١٩٦٧ ، وان تلعب مصر دورها فى تصحيح الخطأ ، الذى كانوا يعتقدون اعتقادا محموما بانه وقع على اخوانهم العرب الفلسطينيين ، وان سلاما ياتى بالتسليم او التهدئة ما كان ليرضى المصريين او السادات ، وفى نفس الوقت لن يفيد ايضا عبء التسليح الثقيل بدون استخدام الاسلحة لتصحيح الاخطاء ضد المحتل للأراضى المصرية .

وهكذا كانت النتيجة التى انتهى اليها السادات هى انه من الافضل والاكثر ارضاء للشعب المصرى ان يحارب ويخسر ، بدلا من عدم القيام بحرب على الاطلاق لمجرد ان هناك احتمالا للهزيمة ، كان هذا فى الحقيقة هو المنطق الذى ادى بالسادات الى اقالة القيادات العسكرية من امثال : صادق وحسن وفوزى ممن عجزوا عن ادراك ان هزيمة مشرفة افضل من سلام بديل شائن ، هذا بالاضافة الى انه من المؤكد ان اندلاع الحرب سوف يجبر الدولتين العظميين على تحويل انتباههما ثانية الى الشرق الاوسط ، اما ما اذا كان السادات قد فكر فى ذلك الوقت الى ابعد من ذلك، فى امكانية اعادة العلاقات مع الولايات المتحدة بعد الحرب ، والفوائد الاقتصادية والسياسية الحتمية لمثل هذا التقارب ، فهذا امر يمكن تخمينه فحسب ، وهو امر مشكوك فيه ، ولكنه ممكن .

على اية حال ، اختار السادات اسم « الشرارة » كاسم رمزى للحرب وذلك من اجل تحقيق غرضه من استخدام الحرب لاشعال مبادرات جديدة فى الشرق الاوسط .

ان تصميم السادات على خوض الحرب اذن — كان مغامرة سياسية لكسر الجمود السياسى ، مادام اى تغيير من الممكن ان يكون افضل لكل من مصر والسادات بدلا من هذا الجمود، هذا بالاضافة الى ان السادات — الذى كان اساسا قد بدا حياته كجندى — لم يعتقد ان الهزيمة امر لابد منه ، ووافقه الفريق اول اسماعيل على ان نصرا محدودا امر ممكن ، منذ عام ١٩٦٧ لما تحمل اسماعيل مسئولية قيادة بقايا الجيش الميدانى المصرى المبعثرة على ضفتى قناة السويس ، كان يفكر فى الطرق التى تحد او تقلب راسا على عقب عناصر التفوق العسكرى الاسرائيلى المعروفة والتى لا يمكن انكارها ، ويزيد من قوة المزايا المصرية التى وان كانت اقل الا انها جوهرية .

المفهوم الاستراتيجى للفريق اول اسماعيل :

كان الفريق اول اسماعيل — وهو رجل ضخم ، منتصب القامة ، ذو شخصية مؤثرة طوله ستة اقدام — قد تعلم مهنة العسكرية من البريطانيين ، ودرس الفن العالى لادارة الحرب فى اكاديمية فرانز الروسية وفى اكاديمية عبد الناصر العسكرية العليا — وهى تعادل بالتقريب كلية الحرب الوطنية فى الولايات المتحدة وسواء من البريطانيين ، او من الروس،

او من دراسات وكتابات كلوزفتز ، او ببساطة من ادراكات ذكائه الخاص فقد فهم الفريق اول اسماعيل جيدا العلاقة بين الحرب والسياسة ، فلما اصبح قائدا عاما للجيش فى نوفمبر ١٩٧٢ ، تلقى مباشرة توجيهات الرئيس السادات للبدء بتخطيط للحرب ، فصاغ مفهومه الاستراتيجى الذى عبر عنه بعد ذلك صراحة لهيئة اركانه .

ان نصرا تاما لأى من الجانبين من الامور المستحيلة ، لان الدولتين العظميين لن تسمحا به ، وسواء تلقى الرئيس السادات او الفريق اول اسماعيل اى تاكيد من الكرملين بذلك فى سنة ١٩٧٢ او سنة ١٩٧٣ او لم يتلقياه ، فقد كان ذلك اعتبارا اوليا فى تخطيطهما .

وكانت هناك ميزتان عسكريتان اسرائيليتان رئيسيتان لابد من الاعتراف بهما بوضوح ، ومواجهتهما بقدر الامكان باستراتيجية مصرية او خطوات تكتيكية مضادة ، كانت اولى هاتين الميزتين التفوق الاسرائيلى جوا ، وقدرة السلاح الجوى الاسرائيلى على القيام بدعم فعال للعمليات البرية ، والثانية : هى ان اسرائيل كانت تتفوق على المصريين فى التكنولوجيا التكتيكية العامة فى القتال البرى المتحرك ، والذى يتلخص فى براعة الاسرائيليين فى حرب الدبابات .

على اية حال قام اسماعيل بتفسير سجلات الحروف الثلاثة السابقة على ان المصريين قد تبين انهم يستطيعون فى الحرب الدفاعية اكثر من الوقوف فى وجه الاسرائيليين ، وكل ما هو ضرورى كان تاكيد ثقة كل جندى فى هذه المقدرة ، وكان اسماعيل مقتنعا انه من الممكن بث هذه الثقة فى الجندى المصرى وفى الاسلحة الجديدة التى يتم تسلمها من الاتحاد السوفيتى، بالتالى يكون ثابتا فى القتال ، وتتاتى هذه الروح بالتدريب ، وبالنظام ، وبغرس العقيدة .

كان القائد العام الجديد للجيش مصرا على استغلال ما لدى اسرائيل من نقص فى القوة البشرية ، والحساسية الاسرائيلية المعروفة للضحايا البشرية وكان اسماعيل يكرر القول لهيئة اركانه « ان الخسارة فى الافراد اقسى عند اسرائيل من فقد الارض او معدات القتال » .

وكان من المعروف ايضا خوف اسرائيل من امكانية حرب كبيرة فى جبهتين مما قد يؤدى الى تقسيم الموارد الاسرائيلية المحدودة ، لقد كشفت الاستطلاعات الاولية استعداد سوريا للانضمام الى مصر فى مثل هذه الحرب ، وبمزيد من تنسيق الجهود وفاعليتها عما سبق تحقيقه بين العرب ضد اسرائيل .

وبوضع هذه الاعتبارات فى البال ، كان المفهوم الاجرائى الاساسى الذى قدمه الفريق اول اسماعيل لمخططيه يقوم على استراتيجية هجومية مشتركة بالتعاون مع سوريا ، لاكراه اسرائيل على تقسيم قواتها فى جبهتين للحرب وكانت المهام المصرية بالتحديد هى : هزيمة القوات الاسرائيلية فى غرب سيناء بعبور هجومى مدروس لقناة السويس ، للاستيلاء على خمسة

رؤوس للجسور او اكثر تمتد الى ما بين ١٠ و ١٥ كيلو مترا فى العمق على الضفة الشرقية للقناة ، ولصد الهجمات الاسرائيلية المضادة ، والحاق اكبر الخسائر بالعدو ، والاستعداد لعمليات اخرى تتوقف على نجاح هذا الهجوم المبدئى والعمليات السورية المصاحبة وكان الملهم ان تتضمن رؤوس الجسور ممر متلا ، وكذلك ممر الجدى اذا امكن ، وسوف يعتبر وقف اطلاق النار الذى تكون فيه القبضة المصرية العسكرية قوية على قطاع جوهرى من الأرض على الضفة الشرقية للقناة نجاحا للمصريين .

ويصر المصريون على انهم قاموا منذ صياغة المفهوم وحتى تحقيقه بتكوين خططهم الخاصة بالعمليات الحربية دون اية مساعدة خارجية ، باستثناء التنسيق الاستراتيجى الجوهرى مع السوريين ، وينفى المصريون على وجه الخصوص اى اعتقاد بانهم تلقوا اية مساعدة من المستشارين الروس سواء فى اعداد خطتهم او تنفيذها ويؤكدون انهم فى الحقيقة حادوا عن طريقهم لاخفاء مقاصدهم وخططهم عن الروس خوفا من ان « الوفاق » بين روسيا وامريكا قد يضطر موسكو الى محاولة الحيلولة دون الهجوم . بل لقد ذهب بعض المصريين الى ابعد من ذلك فى الاعتقاد بأن احد الأسباب التى جعلت السادات يأمر باخراج كل المستشارين الروس من البلاد فى يوليه ١٩٧٢ كان لكى لا يعرفوا عن التخطيط للحرب التى يزمعها او ان يتدخلوا فيها .

ولا يوجد من سبب للشك فى تأكيدات المصريين بانهم لم يتلقوا اية مساعدة روسية فى تخطيطهم للحرب ، الا انه توجد ادلة وفيرة على ان هيئة الأركان المصرية السوفيتية اشتركتا فيما بين ١٩٦٧ — ١٩٧٢ فى التفكير فى مشكلات عبور قناة السويس ، وانهما كونا خططا افتراضية للقيام بذلك ، ومن المؤكد ان بناء الجيش المصرى ، وبالمعدات السوفيتية خلال تلك الفترة ، والاهتمام الزائد باكثر المعدات والتكتيكات تقدما لاقامة الكبارى ، قد تم بوضوح بمفهوم اتجه فيه التفكير الى مثل هذا الهجوم ، لهذا ليس هناك ادنى شك فى أن العسكريين السوفيت كانت لهم بعض الاسهامات ، حتى ولو بطريق غير مباشر فحسب ، فى عملية التخطيط .

ومن ناحية اخرى ، ليس هناك من شك فى أن الرجل المسئول اساسا عن الخطة التى تم استخدامها هو الفريق اول اسماعيل نفسه ، وان صياغتها تمت بفن ومهارة على ايدى هيئة الأركان المصرية بقيادة رئيسها الفريق سعد الشاذلى ومدير العمليات اللواء محمد الجمسى .

سعى الفريق اول اسماعيل وهيئة اركانه لتحقيق ثلاثة اهداف فكرية للاداء المصرى فى العملية التى تم اقتراحها : المباغتة ، والدقة ، والكفاءة التكتيكية الفنية ، ان الجهود لتحقيق هذه الأهداف المتصلة بالعملية يستحق مزيداً من الشرح .

السعى لتحقيق المباغتة :

ان من بين الخطوات العديدة لتحقيق كل من المباغتة الاستراتيجية والتكتيكية الخطوات الهامة التالية :

بصرف النظر عن الدوافع التى ادت بالرئيس السادات الى طرد الخبراء السوفييت من مصر فى اواسط ١٩٧٢ ، سلم المخططون المصريون وكانوا على صواب ، بان هذا قد يؤدى الى اقتناع الاسرائيليين بان الحرب غير محتملة الوقوع على اساس اعتقادهم بأن المصريين لن تواتيهم الجراة على القيام بعملية هجومية كبيرة معقدة بدون المشورة الروسية الفنية .

ومنذ اواخر نوفمبر ١٩٧٢ وفى كل شهر اخذ المصريون فى القيام بمناورات وتدريبات لمركز من مراكز القيادة على مدى ضيق او واسع بالقرب من قناة السويس ، ودائما بشكل يسمح للاسرائيليين بملاحظة بعض مظاهر هذا النشاط .

قرر المصريون فى باكورة التخطيط الهجوم فى يوم من ايام السبت (السبت اليهودى) او فى احد ايام العطلات اليهودية ، اذ لاحظوا ان تأهب القوات الاسرائيلية فى مثل هذه الأيام ينخفض بشكل ملحوظ ، لذلك كان الفريق اول اسماعيل فى غاية السعادة حين بينت حسابات مخططيه ان فى يوم السبت ٦ اكتوبر ١٩٧٣ سيكون القمر وحركات الجذر فى القناة مواتية ، ولم يكن يوم ٦ اكتوبر هو السبت فقط ، بل كان ايضا يوم «كيبور» المقدس ، واقدس يوم للصيام فى الديانة اليهودية ، وكان ايضا اثناء شهر رمضان المقدس اسلاميا ، ولا يتوقع الاسرائيليون قيام العرب فيه بنشاط ، وهناك اعتبار آخر هو ان الانتخابات فى اسرائيل كان محددا لها يوم ٢٨ اكتوبر ، وفيه يكون انتباه المواطنين الاسرائيليين مركزا على ذلك الحدث .

واكدت اجراءات الأمن الصارمة السرية المطلقة . وتم الاتفاق على يوم ٦ اكتوبر بين الرئيسين حافظ الأسد والسادات والفريق اول اسماعيل (ومن الممكن ايضا الفريق اول مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى) فى اجتماع سرى اثناء مؤتمر قمة عربى فى القاهرة فى ١٢ سبتمبر الا ان هناك ما يبرر الاعتقاد انهم ظلوا لمدة ثلاثة اسابيع لا يطلعون احدا حتى اقرب مستشاريهم على التاريخ المحدد ، بالرغم من ان اقتراب الحرب كان — بالطبع — واضحا لكل الضباط الكبار المصريين والسوريين على السواء .

الا انه كما كتب دكتور « آفى شليم » لقد ذهب العرب الى ابعد من مجرد السرية ، اذ لجأوا الى الخديعة النشطة المصممة لخلق انطباع تضليلى فيما يتعلق بقدراتهم ، وخططهم ، ومقاصدهم[1] ، بل كان السادات قادرا على تحويل الاجراءات الشخصية لخدمة الهدف . اذ اعيدت الى ذهن العالم بدهاء قوله : ان سنة ١٩٧١ هى « سنة الحسم » ، وقد مضى الآن ما يقرب من ثلاث سنوات دون اى شىء سوى الصياح والكلام الطنان . ولما تقدم وزير الخارجية كيسنجر بمبادرات للسلام فى سبتمبر ، رحب بها العرب بحرارة ، وان لم تكن الحرارة زائدة ، وربما كانت حادثة اختطاف الفلسطينيين لليهود السوفيت فى النمسا فى ذلك الشهر جزءا من خطة التضليل ، وربما لم تكن على اية حال ، فقد تعلق بها العرب لاجتذاب انتباه العالم بعيدا عن قناة السويس ومرتفعات الجولان ، أما فيما يختص

بالقناة ، فقد دس خبر فى صحيفة لبنانية تعليقا على اهمال المعدات الروسية وتدهورها فى منطقة القناة ، اما بالنسبة للجولان ، فقد كان تثبيت الدبابات السورية من قبيل المفاخرة — وان لم يكن بدرجة كبيرة — لتشجيع عملاء اسرائيل على ارسال التقارير بان القصد من الحشد السورى هو صد هجوم اسرائيلى متوقع بدلا من القيام بهجوم ، ونعود لنقتبس ثانية من دكتور « شليم » هذه الجهود كانت جزءا من استراتيجية للتضليل فيها خيال وتكثيف وانسجام مما ادى الى عائد كبير ، ومما كان له فاعلية على الخصوص استغلال الضعف الاسرائيلى ، والتصرف بترو وبشكل يدعو الى تأكيد ما اقتنع به القادة الاسرائيليون انفسهم من ان العرب غير مستعدين او عازمين على الدخول فى حرب(٢) .

وفى ٢٦ سبتمبر ، وفى بيانات صحفية روتينية منفصلة ، اعلنت كل من مصر وسوريا عن حشد الجنود لمناورات سنوية ، وهكذا كان من المتوقع ان تكون حشود الجنود اكبر حتى من حشود التدريبات الشهرية المعتادة ، وقد سجلت فى الحال كل من المخابرات الاسرائيلية والامريكية هذه الحقيقة، الا انهما لم يكونا على وعى بما كان يقوم به المصريون لعدة اشهر لزيادة حجم هذه الحشود ، اذ ان وحدات الجنود التى كان يتم احضارها الى منطقة القناة للتدريبات ، عندما كان يتم تحريكها بين اراضى التدريب فى المنطقة الصحراوية بين القاهرة والقناة ، كان يتم اعادة عدد من الجنود الى ثكناته فى كل مرة اقل من العدد الذى تركها ، وكان الآخرون الذين يتركون فى المنطقة ، ويمثلون فى العادة حوالى ربع او ثلث القوة ، لا يمكن كشف تواجدهم بين حشود الجنود الكبيرة التى كانت موجودة اصلا غرب القناة .

كانت ساعة الصفر الفعلية الساعة ١٤ر٠٥ (٢ر٠٥ مساء) فى السادس من اكتوبر ، ولم يكن كما يبدو ، قد تم الاتفاق عليها الا بعد زيارة قام بها الفريق اول اسماعيل لدمشق فى ٣ اكتوبر ، وتمت افادة قائدى الجيش الميدانيين المصريين وبعض المخططين المختارين بالقرار فى نفس اليوم ، الا انه يبدو ان الساعة الفعلية للهجوم لم تبلغ لقادة الفرق الا الساعة الثامنة صباحا فى اليوم السادس . ولم يبلغ قادة الالوية والفصائل الا فى الساعة العاشرة صباحا ولم يتسلم قادة الكتائب المهاجمة اوامرهم الا فى الظهر قبل ساعة الصفر بساعتين .

فى نفس الوقت ، وفى يوم ٤ اكتوبر ١٩٧٣ استدعى الرئيس السادات السفير السوفيتى فلاديمير فونوجرادوف ، واخبره عن الهجوم العربى المخطط له ، ومن الجلى ان الرئيس الاسد ، بترتيب مسبق ، كان فى نفس الوقت يعطى هذه المعلومات للسفير السوفيتى فى سوريا .

وفى وقت لاحق فى نفس اليوم طلب رئيس البعثة السوفيتية المخفضة فى مصر مقابلة الفريق اول اسماعيل ، الذى قابل الضابط الروسى فى الحال، اخبر رئيس البعثة اسماعيل بانه علم من السفير بالهجوم الوشيك الوقوع ، وقال له : انه كان يعتقد هو ورجاله الفنيون بأن العملية سوف تتم عاجلا ،

وان لم يكونوا متأكدين من التاريخ ، وان الحكومة السوفيتية قد علمت بالطبع ، وطلبت السماح بارسال طائرة الى القاهرة لتحمل كل المدنيين بما فى ذلك عائلات حفنة الفنيين الروس الباقين فى مصر ، فوافق اسماعيل فى الحال على هذا الطلب دون تعليق ، تمنى الروس للفريق المصرى حظا موفقا ثم رحل ، بدأ الترحيل بالطائرة فى أواخر ذلك المساء واستمر خلال يوم ٥

وتم اجلاء جوى مماثل للروس من مطار دمشق ، وكان احد ضباط منظمة مراقبة الهدنة بالأمم المتحدة الدانمركيين وزوجته اثناء عودتهما الى المنزل من حفل قرب منتصف ليلة ٤ — ٥ اكتوبر قد مرا بحافلتين تحملان الروس ، وتتجهان الى المطار ، فأدهشهما الامر ، الا انهما لم يفكرا فيه كثيرا خلال الثمان وثلاثين ساعة التالية .

عمليـة التخطيط :

ربما لا يوجد اى جيش فى العالم كان يمكنه ان يبرز التخطيط الفنى المصرى للعملية « بدر » سميت العملية باسم المكان الذى احرز فيه النبى محمد اول انتصار له فى سنة ٦٢٤ ميلادية(٣) . اذ كان المخططون المصريون قد اقاموا وزنا للاعتبارات المختلفة ، واختاروا يوما للهجوم متأخرا ليسمحوا للجنود بان يألفوا تماما اسلحتهم الجديدة ، بعض هذه الأسلحة لم يتم تسلمه من روسيا ، وبريطانيا ، وايطاليا ، والمانيا الا فى وقت متأخر حتى سبتمبر ، وكذلك قبل ان تكون هناك اية امكانية لوجود الجليد على مرتفعات الجولان مما قد يعقد من اى هجوم سورى .

وكانت الظروف الجوية تمثل اعتبارا آخر اذ اوصى التخطيط للتضليل بان يوم ٦ اكتوبر يوما ملائما (يوم كيبور فى شهر رمضان) ومن الظروف السعيدة ان الجذر وسريان حركات المد فى القنـاة فى ذلك اليوم قد تهيىء اقصى منسوب للمياه طيلة معظم تلك الليلة والليالى التالية مباشرة(٤) ، وكان وجه القمر مواتيا ايضا ، اذ سيكون نوره ساطعا قبل منتصف الليل يعقبه اظلام ، اما فى شهر لاحق ، فلن يكون الجو سيئا على الجولان فحسب، بل ان الظروف الجوية فى القناة لن تكون ملائمة ايضا .

كما تم اختيار ساعة للصفر غير عادية ، اذ كانت الساعة ١٤ر٠٥ ، بدلا من ساعة الفجر او وقت الغسق الوقت الاقرب لما هو معتاد لعمليات الهجوم الكبيرة ، وكان السوريون يفضلون ساعة للصفر تكون فيها الشمس فى اعين المدافعين الاسرائيليين على مرتفعات الجولان ، الا انه بعد مناقشات طويلة ، وافق المصريين فى النهاية ، وكان المصريون يرغبون فى بعض ساعات قليلة فى وضح النهار للبدء فى عبور القناة ، دون اعطاء الاسرائيليين وقتا للقيام بهجوم مضاد قبل الظلام .

كان من ضمن المكلفين بالعمل بتناسق وثيق مع عناصر الهجوم ، حوالى ١٥ر٠٠٠ من سلاح المهندسين المدربين تدريبا جيدا ، والمنظمين فى ٨٠ وحدة

فى حجم السرية والكتيبة ، كان حماس هؤلاء الجنود عاليا جدا ، كما انهم قد دربوا تدريبا متواصلا على العبور على فروع نهر النيل ، او حفر حافة شيدت وفقا لأبعاد قناة السويس ، أو عند قناة البلاح وهى الامتداد القصير للقناة غرب البلاح التى احتفظت بها مصر .

كانت هناك عقبتان رئيسيتان تواجهان المصريين على جبهة سيناء :
اولاهما : القناة ذاتها التى يزيد طولها على ١٧٠ كيلو مترا ، وهى قناة تمتلىء باستمرار بالمياه ، ويصل اقل عرض لها الى حوالى ١٨٠ مترا ، وقبل عام ١٩٦٧ تم تعميق وسط القناة لكى يكون اقل عمق فيها يزيد على ١٨ مترا لاستيعاب اكبر السفن ، وكان اقصى تجمع للرواسب الطينية ، حتى بعد عدم استخدام القناة لما يقرب من ست سنوات اقل من متر ، ولا يوجد بها مكان للخوض بالأرجل ، ولما كانت القناة على مدى طولها فى مستوى البحر ، لذا لا توجد فيها تيارات ذات اهمية ، وان كان فيها دوامات بسيطة، وحركات للمد والجزر جوهرية (خاصة فى الجنوب) تؤدى الى تيارات تتغير اتجاهاتها لربع مرات يوميا ، وقد تؤثر على السباحين او القطع المائية الخفيفة ، ويصل تيار المد فى الشمال الى حوالى ١٨ مترا فى الدقيقة ، وفى الجنوب الى ٩٠ مترا ، وفى الفترات التى يكون المد فيها فى اقل درجاته يتغير مستوى الماء فى القناة بحوالى ٦٠ سم كل ست ساعات ، وفى اقصى اوقات التغير — كما هو الحال يوم ٦ اكتوبر — يوجد فرق يعادل ١٨٠ سنتيمترا بين مستويات المد والجذر فى الجنوب ، ولا يمكن تسلق المركبات البرمائية لجانبى القناة الا على طول شاطىء البحيرات المرة .

خط بارليــــف :

كانت العقبة الثانيــة امام المصريين شبكة التحصينات الاسرائيلية والاحتياطى الدفاعى المتحرك فى العمق ، والمعروف بخط بارليف ، كان هذا الخط شبكة للتحصين والمراقبة باهظة التكاليف ، ويمتد حوالى ١٦٠ كيلو مترا على طول الضفة الشرقية لقناة السويس على بعد ١٠ كم جنوب بور فؤاد فى الشمال حتى المخرج فى خليج السويس (المنطقة شمال شرقى القنطرة ، منطقة مستنقعات لا تصلح كلية للعمليات ، الا ان عبورها كان يتم باتخاذ عدة طرق صلبة السطح بناها الاسرائيليون) ، لقد بنى الاسرائيليون شبكة التحصينات بمبلغ يقدر بحـوالى ٣٠٠ مليون دولار ، وكان خط بارليف ، اتجاها من شرق القناة يضم ستة عناصر رئيسية .

كانت توجد ، بجوار الضفة الشرقية وتحت الماء ، انشاءات تحت الارض وخطوط للانابيب تحت الماء تحتوى على زيت خام قابل للاشتعال ، يطفو فوق السطح اذا ما تم فتح الصمامات، حيث يمكن اشعاله ليغطى القناة بصفحة من اللهب ، ويوجد جدل كبير حول ما اذا كانت هنـاك فى الواقع شبكة عازلة شاملة من اللهب ، بدلا من الوجود الفعلى لانشاء تجريبى او انشاءين ، او ما اذا كانت الشبكة او الانشاءات تعمل فعلا فى يوم ٦ اكتوبر لقد قام الاسرائيليون بالتاكيد باختبار الشبكة وبالطبع — وكان هذا متصورا —

شاهد المصريون الاختبارات ، وتدعى بعض المصـادر الاسرائيلية ان الفكرة لا يمكن الاعتمـاد عليها ، وانه تم التخلى عنها ، بيد ان مصـادر اسرائيلية أخرى تعترف أنه فى وقت ما سابق ليوم ٦ اكتوبر امر الميجور جنرال شمويل جونن القائد الجديد للقيادة الجنوبية الاسرائيلية اعادة تشغيل جزء على الاقل من هذه الشبكة ، الا ان الاسرائيليين يصرون على انه بحلول ٦ اكتوبر لم يكن هناك سوى صمام او اثنين منها فى حالة عمل . على اية حال ، يؤكد المصريون انه فى الليلة السابقة للهجوم ارسلوا ضفادع بشرية لسد الصمامات التى تعمل بالاسمنت المسلح ، وكانت هذه العملية ناجحة، كما يؤكدون بانه فى يوم ٦ اكتوبر اسروا اثنين من المهندسين الذين يعملون على هذه الشبكة ، ويعترف الاسرائيليون ضمنا بهذا .

ويرتفع نجاة على الحافة الشرقية للقناة حاجز ترابى مرتفع يمتد على طول الضفة الشرقية كلها ، اقيم هذا الحاجز على بقايا عملية حفر القناة ، منذ ما يقرب من قرن مضى من الزمان ، وقام الاسرائيليون بتعلية هذه البقايا وزيادة عرضها ، وكان ارتفاعها يصـل فى معظم الاماكن الى ٢٠ مترا او اكثر ، بينما كان سمكها لا يقل عن ١٠ امتار ، وكان الغرض من الحاجز مزدوجا : اذ يخفى فى المقام الاول تحـركات الاسرائيليين شرقى القنـاة مباشرة ، وثانيا يضمن فى انحداره الذى يمتد بمقدار ٤٥ درجة من سـطح الماء ان اى قطعة برمائية لن تستطيع تسلقه .

ينتشر على طـول القنـاة ما يقرب من ٣٣ نقطة محصـنة ومراكز للاستطلاع مغطاة بغطاء سميك ، يتكون من قضبان السـكك الحديدية ، شكل معدل لتحصينات المهندسين القديمة المكونة من اكوام الصخور الثقيلة التى تمسكها شبكة من الاسلاك ، كانت هذه النقاط الحصينة والمزودة كل منها ببرج للمراقبة ودشم مسلحة ، مقامة على جسر يطل على القناة ذاتها. على اية حال ، قبل اوائل سنة ١٩٧٢ ، وبينما كان جنرال شارون مسئولا عن القيادة الجنوبية ، اغلقها كلها فيما عدا ١٦ مركزا منها ، وكانت كلها مزودة بالمؤن والذخيرة والماء ، وكان جونن قد أصدر امرا باعادة فتح بعض من المراكز الأخرى الا ان هذا لم يكن قد تم بعد ، وكانت توجد بين هذه النقاط الحصينة ، وعلى مسـافة تتراوح ما بين ٥٠ و ٧٥ مترا أرصـفة سطحية صلبة ، تهيىء مواقع منحدرة يتمكن منها الدبابات من اطلاق النـار على القناة أو الضفة الغربية .

وكان وراء الحاجز ، شبكة الحقل من الالغام فسيح ، وان كان غير متصل بالكامل ، يمتد من القنطرة جنوبا الى شاطىء خليج السويس ، كانت هذه الحقول تحتشد حول النقـاط الحصينة ، ويمكن تغطيتها بالنـار من ارصفة الدبابات على الحاجز الرئيسى فى الغرب ، ومن ارصفة مثيلة ايضا على حاجز ثان يبعد بضـع مئات من الأمتار شرقا ، ولم يكن خط الحاجز الثانى هذا متصلا ، ولم يكن بنفس ارتفاع الخط الأول ، وكان مصمما ليعطى غطاء وحقولا للنيران للمدافعين ضـد أى مهاجمين اذا تمكنوا من اختراق

الخط الأول ، وكان يوجد فى بعض الأماكن خط حاجزى ثالث يغطى طرق الاقتراب الرئيسية .

والى الخلف بقليل كان يوجد احتياطى متحرك فى العمق ، مكون فى غالبه من وحدات للدبابات ، كان فى استطاعة هذا الاحتياطى وكذلك المدفعية المنتشرة بالقرب من القناة استخدام شبكة واسعة من الطرق التى يسرت الاتصالات والحركة الجانبية والمستعرضة ، وقد اطلق الاسرائيليون اسم « ليكسيكون » على الطريق الجانبى الأول الذى كان يقع شرق الحاجز مباشرة ، ويهيىء للاتصالات الجانبية بين النقط الحصينة فى خط بارليف ، وكان هذا الطريق نادرا ما يبعد اكثر من ۱۰۰۰ متر من القناة ، فاذا بعدنا شرقا كان يوجد طريق المدفعية ، الذى سمى بهذا الاسم لأن هدفه الاساسى كان تسهيل الاستبدال الجانبى للمدفعية ، وكان هذا الطريق يمتد امتدادا مستمرا من شاطىء البحر المتوسط الى خليج السويس على بعد يتراوح ما بين ۶۰۰۰ ، ۱۰٫۰۰۰ متر شرقى الحاجز ، اما الطريق التالى فكان يبعد حوالى ۳۰ كم شرقى القناة ، ويمتد جنوبا من البالوظة ، وتسمى بالطريق الجانبى ، كانت هذه الطرق الثلاثة ترتبط ببعضها وبالمنطقة الشرقية الأبعد بعديد من الطرق المتقاطعة .

ويوجد شرقى طريق المدفعية مباشرة خط من مراكز القيادة وعددها ستة ، تمتد من المستنقعات الشمالية الى خليج السويس ، وقد بنيت هذه الانشاءات من المسلح فى اتجاه الشرق او على الجوانب المنحدرة للتلال او القمم ، وقد غطيت مثل النقاط المحصنة باسقف متينة من قضبان السكة الحديد والصخور والتحصينات الصخرية المغطاة بشبكة من الاسلاك ، وكانت ترتبط مراكز القيادة هذه بالنقاط الحصينة على جانب القناة ، وببعضها وبأربعة مراكز للقيادة اكبر منها فى المنطقة الخلفية بالراديو ، وبالاسلاك التليفونية الممتدة تحت الأرض .

وكانت توجد مراكز القيادة فى المنطقة الخلفية فى « تاسا ورومانى وبير جنجانة » (اسماها الاسرائيليون « رفيديم ») وأم كوشيبا ، وكانت « تاسا » منشاة عسكرية صغيرة عند تقاطع الطريق الرئيسى بين بئر سبع والاسماعيلية (اسماها الاسرائيليون « تاليمسان ») والطريق الجانبى ، وكانت تضم مركز القيادة تحت الأرض الخاص بفرقة سيناء بقيادة جنرال « مندلر » ، ومعظم وحدات دعم الفرقة ، ومهبطا جويا صغيرا ، ومستودعا متقدما لمتنوعات كثيرة من الأسلحة والمعدات وقطع الغيار والذخيرة ، والامدادات الهندسية على وجه الخصوص ، وكانت هناك منشاة مماثلة فى « رومارو » على الطريق الشمالى .

كانت « رفيديم » او « بير جنجانة » تبعد حوالى ٥٠ كم شرقى تاسا على طريق تاليمسان ، وهكذا كانت تبعد حوالى ۹۰ كم شرقى القناة ، وكانت تقع فى المنخفض العريض على الطرف الشمالى لمرتفع « الختميا » المعروف أحيانا بممر « ختميا » ، وكانت رفيديم منشاة ادارية نسبيا لها

حجمها ، ولها مطار كبير ، ومركز للقيادة تحت الارض يمكن استخدامه كمركز للقيادة بالتبادل مع فرقة سيناء او القيادة الجنوبية .

كان مركز القيادة الجنوبية فى وقت السلم فى بئر سبع ، الا ان مركز قيادتها فى وقت الحرب كان فى ام كوشيبا على جرف عال يقع شمالى ممر الجدى مباشرة ، ويطل على السهل الغربى لسيناء ، اى الصحراء الممتدة من مرتفع الختميا غربا لمسافة ٤٠ كم حتى القناة ، وكانت المنشاة لا تضم مركزا للمراقبة مزودا باحسن المعدات البحرية الممكنة فحسب ، وانما كان ايضا بتسهيلات الكترونية معقدة للاسترشاد على الاشارات الالكترونية المعادية والصديقة على السواء .

وكان يوجد بالاضافة الى النقاط الحصينة الخمس عشرة على القناة والنقطة السادسة عشرة الموجودة شرقى بور فؤاد مباشرة على شاطىء البحر المتوسط نقطة حصينة مماثلة على خليج السويس تبعد حوالى ۲٥ كم جنوبى بور توفيق على رأس ممتدة فى البحر تسمى « رأس مسلة » ، ولم تكن هذه النقطة فى العادة تعتبر جزءا من خط بارليف ، ولم يهاجمها المصريون بجدية اثناء الحرب على الرغم من انهم كانوا يقصفونها بالمدفعية من وقت لآخر .

انتشار القوات الاسرائيلية فى سيناء :

حين تم بناء خط بارليف لم يكن المقصود به ان يكون موقعا حصينا ، بل كان المقصود ايجاد خط يتكون من مراكز للمراقبة قوية الدفاع الحماية المراقبين الذين يستطيعون توجيه نيران المدفعية وقوات الدفاع المضاد المدرعة المتحركة لمواجهة اى عبور مصرى ممكن للقناة ، ومن الواضح ان مراكز المراقبة الحصينة كانت ايضا مخافر حصينة تهيىء قواعد أرضية مفيدة للمناورة المدرعة ، ولكن لم يكن هناك اى تفكير لأن يكون مثيلا للخطوط المحصنة المشهورة كخط ماجنيو او خط سيجفريه او ما نرهايم ، كما لا يمكن مقارنته من بعيد بأى منها .

وعلى الرغم من أن دعاية اسرائيل الرادعة كانت تؤكد المظاهر الحصينة لخط بارليف ، فان العسكريين الاسرائيليين كانوا على وعى بأن قوة المواقع الدفاعية تكمن اساسا فى تواجد القوات المدرعة تساندها المدفعية والطيران ، وان كانت تكمن عرضا ومحليا فى الحماية الهائلة لكل نقطة محصنة ، كانت توجد وحدتان من وحدات الخط الأمامى فى المفهوم الدفاعى لخط بارليف ، اذ يوجد أولا لواء مشاة ينتشر حوالى نصف عناصره المقاتلة (حوالى ٥٠٠ ضابط ورجل) فى الست عشرة نقطة الحصينة .

وفى اوائل اكتوبر ۱۹۷۳ كان هذا اللواء لواء احتياطيا مكونا من وحدات من لواء ايتسيونى فى بيت المقدس ، كما كان هؤلاء الاحتياطيون يؤدون الخدمة النشطة فى هذا الوقت حتى يتمكن النظاميون الذين يديرون عادة هذه المراكز من الذهاب الى منازلهم لقضاء الأيام المقدسة ، كما يوجد

الى الضفة بحكم — في حشود على شكل كتائب موزعة على طول خط الضفة — لواء مدرع من الجيش النظامى ، وكانت توضع حوالى ١٢ بطارية مدفعية في مواقع بمركز تجمعها أمام أو خلف طريق المدفعية ، وكانت حوالى بطارية واحدة من مدافع ١٧٥ مم ومدافع ١٥٥ مم طويلة المدى ذاتية الحركة ، وربما تضم كذلك ست بطاريات من مدافع الهاوتزر ذاتية الحركة ، وحوالى بطاريتين كل منها بمدافع هاون ١٦٠ مم و ١٢٠ مم محمولة على عربات نصف مجنزرة ، وكان عدد هؤلاء المشاة والعربات ووحدات المدفعية بميكانيكييها ، واتصالاتها ، وأفراد الدعم يقرب من حوالى ٨٫٠٠٠ جندى .

كما كان هناك لواء أصلى مدرع يتمركز عادة كاحتياطى بين « رفيديم » وخصة سيناء — اسرائيل ، وكان اللواء الثالث المدرع يتمركز عادة في الثلاثة أيضا من ذلك شرقا في داخل النقب الاسرائيلية جنوب غرب بئر سبع ، الا أن هذا اللواء تحرك أيضا الى داخل سيناء طبقا لحالة التأهب التى أمر بها قائد الدفاع ميلر ، وكان من الواضح أنه تم وضعه جنوب غرب « رفيديم » على طول الطريق العرضى الجانبى ، وكما توجد أيضا في كتائب من كتائب « ناحل » في سيناء مستعدة للقتال كمشاة .

كما يوجد بالاضافة الى الاثنى عشرة بطارية من بطاريات المدفعية الميدانية الموجودة على شكل عنصر دعم متحرك لخط بارليف موقعان للمدفعية داخل تحصينات فيما يسمى بالخط أو خلفه مباشرة ، يحتوى أولهما على ستة مدافع عيار ١٥٥ مم فرنسية الصنع على بعد حوالى ١٠ كم شرقى بور توفيق ، كانت المدافع المغطاة بالسقف من قضبان السكك الحديدية والتحصينات الصخرية المغطاة بالاسلاك مثل غيرها من المنشآت خط بارليف ، وتطلق نيرانها من خلال كوات كبيرة تسمح بتغطية كل منطقة السويس — بور توفيق — وكان هذا الموقع قد بنى اثناء حرب الاستنزاف ، وتم استخدامه لتدمير معامل تكرير السويس ، أما الآخر فكان عبارة عن بطارية من أربعة مدافع عيار ١٧٥ مم أمريكية الصنع في نقطة من النقط الحصينة التى يقل منها خط بارليف على البحر المتوسط على بعد حوالى ١٥ كم شرقى بور فؤاد ، كانت هذه المدافع قادرة على اصابة أى منشأة في منطقة بور سعيد — بور فؤاد .

كانت القوة الكلية في سيناء التى في متناول ميجور جنرال « البرت منلر » الذى يقود قوة الدفاع عن سيناء تعادل فرقة تتكون من حوالى لواءين من المشاة وثلاثة من المدرعات يبلغ مجموع قوتها المقاتلة حوالى ١٨٫٠٠٠ رجل بما في ذلك عناصر الفرقة العادية .

وكان المصريون على وعى تام بهذه الاستعدادات الاسرائيلية — وكانوا يعرفون أيضا أن هذه القوة الصغيرة تحت نظام التعبئة الاسرائيلى — يمكن أن تتطور الى ٢٠ لواء وأكثر من ١٠٠٫٠٠٠ رجل خلال مدة تتراوح من ٣ الى ٥ أيام ، ولكن اذا أمكن للمصريين تحقيق المباغتة فان قوة مصرية في عبورها القناة يمكن أن تواجه لعدة ساعات قوات لا يتجاوز عددها ٨٫٠٠٠

رجل بالاضافة الى قوة أخرى تتراوح ما بين ٨٫٠٠٠ الى ١٠٫٠٠٠ رجل بعدة الاشتراك في القتال بعد ذلك مباشرة ، وقد تنقضى فترة تزيد على ٢٤ ساعة قبل أن تتمكن أية قوات اسرائيلية اضافية بأعداد كبيرة من الانتشار في سيناء .

استعدادات القوة المصرية :

ان القوة الكلية للقوات العسكرية المصرية في حالة التعبئة الكاملة ، كانت يوم ٦ أكتوبر هى ١٫١ مليون رجل ، وكان ما يزيد على نصف هذا العدد في الجيش ، الا أن ما يقرب من نصف هذا الجيش يتكون من وحدات الحرس الوطنى قليلة التدريب ، مزودة بأسلحة عتيقة أو من طراز قديم ، وكانت هذه الوحدات تستخدم في مهام متنوعة في المنطقة الخلفية والدفاع الوطنى ، ويأتى في مقدمة هذه المهام الدفاع عن مجارى نهر النيل العديدة ، وكانت قوات مصر الميدانية المتحركة تتكون من حوالى ٢١٠٫٠٠٠ رجل ، وكانت وحدات القتال الميدانية الرئيسية منها عبارة عن خمس فرق للمشاة وفرقتين مدرعتين ، وثلاث فرق ميكانيكية ، بالاضافة الى سبعة ألوية مدرعة مستقلة (واحد لكل فرقة مشاة مع اثنين اضافيين) ، ولواءين مستقلين من المشاة ، ولواءين مستقلين من المحمولين جوا ، ولواءين من الكوماندوز .

كانت هذه الوحدات القتالية موزعة بين جيشين ميدانيين (كل منهما يعادل فيلق في الجيش الأمريكى) ومنطقة عسكرية مركزية (داخل القاهرة وحولها) ، ولما كان لجيشى الجبهة أرقام مسلسلة هى الثانى والثالث ، سلم مراسلو الصحف الغربيون(٤) خطأ بأن قوات المنطقة العسكرية المركزية تنتظم في شكل الجيش الأول ، الا أنه لم يكن هناك مثل هذا التنظيم في الجيش ، وكانت المنطقة العسكرية المركزية تابعة مباشرة للقيادة العامة للقوات المسلحة كوحدات احتياطية تعسكر على الجانب الغربى لقناة السويس ، وهذا في المرحلة المبدئية على الأقل للعمليات المخطط لها(٦) .

وكان الجيش الثانى بقيادة اللواء سعد الدين مأمون يتكون من ثلاث فرق للمشاة وفرقة مدرعة واحدة ، وكانت هناك فرقة ميكانيكية للمشاة من المنطقة العسكرية المركزية ملحقة بالجيش ، الا أنها لا تتحرك الى شرق القناة بدون اذن من القيادة العامة ، وكانت منطقة الجيش الثانى هى المنطقة ما بين البحر المتوسط والطرف الجنوبى للبحيرة المرة العظمى ، لقد كانت تمتد لكافة الأغراض العملية ما بين القنطرة في الشمال والدفرسوار في الجنوب .

وكان الجيش الثالث بقيادة الفريق عبد المنعم واصل يتكون من فرقتين للمشاة وفرقة واحدة مدرعة ، وملحقا به أيضا فرقة مشاة ميكانيكية من المنطقة العسكرية المركزية بنفس القيود على استخدامها ، وكان هذا الجيش مسئولا عن الجبهة من الطرف الجنوبى للبحيرة المرة العظمى الى راس خليج السويس .

كانت كل فرقة للمشاة تتكون من لواءين للمشـاة ، ولواء مشاة ميكانيكى ، ولواء مدفعية من ٧٢ مدفعا ، وكان هناك من اجل هذه العملية لواء مدرع ملحق بكل فرقة للمشاة ، وهكذا زاد اكتمال عـدد الدبابات العادى لعبور فرقة المشاة للقناة من حوالى ٩٥ الى حوالى ٢٠٠ ، وقوة الافراد من اقل من ١٢ر٠٠٠ الى ما يزيد على ١٤ر٠٠٠ .

وكانت الفرق المدرعة تتكون من لواءين مدرعين كل منهما من مائة دبابة، ولواء ميكانيكى مضافا اليه ٥٠ دبابة ولواء مدفعيـة ، وكانت قوة الأفراد العادية لهذه الفرق ايضا حوالى ١٢ر٠٠٠ ، الا ان الفرق المدرعة فى الجيشين كان قد تم الاحتفاظ بها كاحتياط ، وتم فصل لواء مدرع من كل منها ليلحق بواحد من الخطوط الأمامية لفرق المشاة المهاجمة .

وكانت الفرق الميكانيكية تتكون من لواءين ميكانيكيين للمشاة ، ولواء مدرع ولواء للمدفعية ، وتضم هذه الفرق فى الشكل القياسى لقوتهـا حوالى ١٠٠ دبابة ، وحوالى ١٢ر٠٠٠ رجل ، وكانت القوة المشـتركة للجيشين الثانى والثالث بملحقاتهما تتكون من ٢٠٠ر٠٠٠ رجل منهم حوالى ١١٠ر٠٠٠ فى الجيش الثانى وحوالى ٩٠ر٠٠٠ فى الجيش الثالث ، وكانت هذه القوة البشرية المحتشدة غرب القناة اكبر من اى قوة احتشدت هناك من بضعة اشهر سابقة .

وهناك قوة صغيرة قوامها حـوالى لواء مدعم فى منطقة بور سعيد وبور فؤاد ، وكانت تحمى القوات المصرية غرب القنـاة وتخفيها شبكة من السدود واعمال الحفر ، والعنصر الأساسى فيها حاجز رملى ضـخم يبلغ ارتفاعه فى معظم الأماكن حوالى ٢٠ مترا ، وعرضه حوالى ١٥ مترا ، ويمتد على طول المائة والعشرين كيلو مترا التى تمثل طول القناة من نقطة مقابلة للقنطرة الى الجنوب ، وكان هناك خندق مبنى بالحجارة على طول قمة هذا الحاجز الرملى والذى كان مقاما على بعد عدة أمتار من القناة والى الخلف مباشرة من طريق مواز وملاصق لضفة القناة ، وينتشر على طول الحاجز عدد من الروابى الهرمية العريضة المقطوعة من قمتهـا ، أو الأبراج التى يرتفع كل منها الى حوالى ٣٠ مترا (اى ترتفع فوق الضفة ما بين ستة امتار وثمانية) . وكل منها يتكون من حوالى ١٨٠ر٠٠٠ متر مكعب فى المتوسط من الرمال ، وكان حجم كل من هذه الأبراج كبيرا الى حد يكفى لوضع فصيلة من الدبابات فى وضع منحدر لتوجيه النيران المباشرة ضـد النقاط الاسرائيلية الحصينة ومواقع الدبابات الثابتة على الضفة المقابلة ، وينتشر ايضا على طول الحاجز وان كان مركزا بالذات على هذه الأبراج او بالقرب منها — عدد من بطاريات الصواريخ والمدافع المضادة للدبابات ، وكانت توجد ارصفة صلبة السطح تنحدر صاعدة من الطريق العسكرى البريطانى القديم على الجانب الغربى للحاجز الى اعلاه عند كل برج من الأبراج ، لتيسير عملية صعود الدبابات والمدافع الى اعلى .

ويمتد على مسافة تتراوح ما بين ٤٠ر٥٥ كيلو مترا خلف السـدود واعمال الحفر ، حزام من التحصينات يضم قواعد للمدفعية ، ومستشفيات

محصنة ، ومطارات وما يقرب من ١٣٠ من القواعد لصاروخ سام وكانت تشغل معظم مواقع الصواريخ هذه بطاريات من ست قاذفات سـوفيتية للصواريخ « سام ٢ » و « سام ٣ » ، كانت توجد فى حوالى ٣٠ من هذه المواقع ثلاث قاذفات متحركة ايضا للصواريخ « سام ٦ » ، بالاضافة الى مواقع تشغيل صواريخ سام ، وربما كان هناك ما يقرب من النصف من المواقع الاضافية الزائفة لتضليل الاستطلاع الجوى الاسرائيلى .

لقد حدثت تغييرات كثيرة فى المطارات المصرية فى منطقة القناة ومنطقة دلتا النيل منذ حرب عام ١٩٦٧ : اذ وزعت الطائرات المقاتلة على مخابىء من الأسمنت المسلح ذات منافذ لتخفيف آثار الانفجارات العنيفة ، وانشئت ممرات متعددة فى معظم هذه المطارات للسماح باقلاع أسرع ، وللتخفيف ايضا من امكانية العجز عن العمل نتيجـة لحفرات القنـابل وكانت لمعظم هذه المطارات ممرات عديدة للتحليق والهبوط ، وتم توسـيع واعادة رصـف الطرق الرئيسية التى تمر بجوار بعض القواعد الجوية فى دلتا النيل حتى يمكن استخدامها كممرات للطائرات .

الملاحظـــات

(١) آفى شليم « نواحي الفشل فى تقديرات المخابرات الوطنية ، حالة حرب يوم كيبور » السياسة العالمية ، ابريل ، ١٩٧٦ ص ٣٤٨

(٢) المرجع السـابق .

(٣) كان الاسم الرمزى المصرى للحرب « الشرارة » بينما كان الاسم الرمزى لعملية العبور « بدر » .

(٤) السبب فى الرغبة فى اقصى حركات المد بدلا من اقلها هو وجود فترات لعدة ساعات كل يوم حتى لا تشحط قوارب الهجوم على ضفتى القناة المنحدرتين انحدارا تدريجيا بين المجرى العميق واماكن الرسو .

(٥) مثل محمـد هيكل الذى يعتبر كتابه الطريق الى رمضان (لندن ١٩٧٥) كتابا رائعا ، الا انه يكشف جهلا يثير الدهشة بالأمور العسـكرية والمظاهر العسكرية لحرب ١٩٧٣

(٦) يعود الأصل فى هذه الأرقام للتدليل على الجيش الى الجمهورية العربية المتحدة التى كانت وحدة بين مصر وسوريا فى ذلك الوقت ، وكان يطلق على جيش الشمال فى سوريا الجيش الاول ، اما الجيشان الميدانيان الآخران فكانا فى مصر ، وهذا هو الأصل ايضا فى العلامات المتماثلة للجيش المصرى والسورى ، والتى تختلف فقط بوجود نجمة واحدة على الدرع فى الشارات السورية ، بينما توجد نجمتان فى الشارات المصرية .

(٢)

الاستعدادات الاسرائيلية

لن تكون هناك حرب :

فى ١٠ اغسطس ١٩٧٣ تحدث موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى من كلية الأركان الاسرائيلية وقال : « ان ميزان القــوى فى صفنا الى حد كبير لدرجة انه يقضى على تفكير العرب ودوافعهم لتجديد أعمال عدوانية فورية(١) » .

لم يمر حشد الجنود المصريين فى غرب القناة فى الأيام الأخيرة من سبتمبر دون ملاحظة المخابرات الاسرائيلية الفعالة ، ولكن من الواضح ان هــذه الوحدات كانت كالعادة منهمكة فى التدريبات الشهرية التى كانت تتم بانتظام فى منطقة القناة المصرية فى الأشهر العشرة السابقة ، وفى عديد من المرات فى الماضى ، كانت هذه التدريبات تثير فزع قوات الدفاع الاسرائيلية ، وصدر الأمر فى أواخر مايو وأوائل يونيه بالتعبئة الجزئية للقوات الاسرائيلية، ولكن عندما انتهت التدريبات المصرية فى أوائل شهر يونيه انتقد البعض الحكومة والجيش لكثرة النفقات والتمزق الاقتصادى الذى سببته التعبئة ، وكانت هذه هى المرة الثالثة منذ ١٩٧١ التى حدثت فيها مثل هذا الانذار الزائف للتعبئــة .

هذه المرة وفى أواخر سبتمبر ، كانت المخابرات الاسرائيلية شــديدة الاهتمام بالعامل الذى استجد ، وهو الحشود السورية المكثفة للجنود وفى المنطقة ما بين دمشق والقنيطرة ، الا ان هذا ايضا كان ممارســة ســورية عادية ، ففى كل عام ومنذ ١٩٦٨ كان السوريون يتحركون من نهاية فترة التدريب الصيفى لاحتلال مواقع للعمليات بالقرب من مرتفعات الجولان اثناء مناورات فصل الخريف ، لذلك لما تكرر هذا ثانية فى أواخر اغسطس ١٩٧٣ واستمر الى سبتمبر ، فسرت هذه الحشود على انها تدريب روتينى ، ولم تخلق أى فزع مفرط فى اسرائيل ، وكذلك لمــا فتحت المدارس فى أوائل سبتمبر لم يتملك الاسرائيليون الفزع من التمــرين على تعبئة وحدات التــدريب المدرسية ، حيث ان هذا قد تم ايضا فى السنوات السابقة .

وليس من الواضح الى أى مدى كانت المخابرات العسكرية الاسرائيلية والأمريكية يحافظ كل منهما على مد الآخر بالمعلومات وتبادلها ، بالتأكيد لم يكن هناك تعاون متين او تنسيق كما اوحت بذلك بعض التعليقات الصحفية فيما بعد الحرب ، ومن ناحية أخرى ، لا يمكن الانكار بانه كان هناك بعض التنسيق ، وقد تم الاعتراف بذلك فعليا ورسميا فى الولايات المتحدة ، ويبدو

ان وكالات المخابرات الأمريكية كانت فى أواخر سبتمبر فزعة الى حد كبير من هذه الحشود المصرية والسورية مما يحتم مناقشتها مع الاسرائيليين ، الا ان الأمريكيين اطمانوا لما أخبرهم الرسميون فى المخابرات الاسرائيلية انهم على وعى بما يدور ، وان هذا لم يفزعهم ، ومن المعقول ان تكون وكالات المخابرات الأمريكية قد سلمت بان الاسرائيليين اكثر حساسية منهم لمؤشرات خطر هجوم عربى محتمل .

ومع ذلك ، وبحلول يوم ٢٦ سبتمبر ، كان وزير الدفاع موشى ديان ورئيس الأركان اللفتنانت جنرال « دافيد العازار » يشعران بالقلق ازاء الحشود العربية فى الشمال والجنوب على الرغم من التأكيدات التى تصلهما من مدير المخابرات الميجور جنرال « الياهوزيرا » ومع ان ديان والعازار كانا لا يفكران فى احتمال قيام هجوم ، الا انهما كان يخشيان من ان عدم تأهب القادة الاسرائيليين المحليين قد يتيح فرصة لا تقاوم للعرب للقيام بهجوم ناجح مفاجىء ، ولم يكن لدى ديان او العازر ، فى ضوء تقارير المخابرات، اية نية للأمر بتعبئة أخرى باهظة النفقات ، الا انهمــا امرا بالفعل بتأهب جزئى للتأكد من أقصى درجات الاستعداد فى حالة هجوم مباغت ، او فى حالة ما اذا اقتضى الأمر ضرورة التعبئة .

قرر وزير الدفاع ديان بعد اجتماع لهيئة الأركان فى ٢٦ سبتمبر القيام بزيارة لقيادة الجبهة الشمالية فى الجولان ، فوجد الميجور جنرال جورال «ايتزهاك هوفى» الذى يقود القيادة الشمالية فى قلق من ناحية حاميته الصغيرة التى ينتشر رجالها على جبهة طولها ٦٥ كيلومترا ، كانت هذه القوة تتكون من حوالى لواء للمشاة ينتشر فى عدد من النقاط الحصينة المبعثرة على طول خط الجبهة ، ولواء مدرع غير كامل يتكون من حوالى ٧٥ دبابة ، وكانوا من خيرة الجنود اذ جاء المشاة فى غالبهم من الصفوة من لواء « جولانى » ، اما لواء المدرعات فكان لواء ١٨٨ او لواء « باراك » ، الذى يمكن تدعيم قواته النظامية سريعا بتعبئة الاحتياطى ، الا انه ــ كما بين « هوفى » لديان ــ كان فى استطاعة السوريين الخروج للقيام بمناورات فى صباح أحد الأيام ثم يحولون ببساطة فرقهم الخمس ودباباتهم التى يبلغ عددها ١٥٠٠ الى الغرب ، ولم يتصور كيف يتمكن لواء « باراك » المدرع الذى تنتشر دباباته على أساس واحدة لكل كيلو متر من ايقافهم .

وافق ديان على وجهة نظر « هوفى » ، ولمــا عاد الى القــدس أمر بالتحويل الفورى بكتيبة واحدة من وسط اسرائيل من لواء الجيش السابع النظامى المدرع الذى كان يبارى لواء جولانى اذ يرى انه من صفوة الجيش الاسرائيلى ، (وكان من الممكن ان تتحــرك الكتيبة الى وادى « الحولة » لتكون رهن اشارة الجنرال هوفى كاحتياط متحرك ، وفى الوقت نفســه تمت تعبئة احتياطى لواء « باراك » لتبلغ قوته ما يقارب من ١٠٠ دبابة .

وفى نفس الوقت استمرت ملاحظة الدلائل على امكانية قيام العرب بعمل هجومى ، واستمر كذلك عدم أخذ المخابرات الاسرائيلية هذا فى الاعتبار، ورغما عن ذلك قرر ديان والعازار فى ٣ اكتوبر ارسال بقية اللواء السابع

الى القيادة الشمالية ، وعرف الاسرائيليون فى اواخر يوم ٤ اكتوبر او اوائل يوم ٥ ، ان الأسر السوفيتية يتم ترحيلها جوا من القاهرة ودمشق الى روسيا ، ومعهم عدد من المستشارين المدنيين ، فلما وصلت هذه المعلومات الى الجنرال العازار اعرب عن قلقه ، الا ان الجنرال زيرا طمأنه فى الحال ، ومع ذلك امر ديان والعازار ان يكون الجيش والقوات الجوية فى حالة تأهب كامل ، الا انه فى اجتماع لمجلس الوزراء بعد ظهر ٥ اكتوبر ، وقبل ان ينفض الوزراء مباشرة للقيام بالعطلة ، اكد نائب الجنرال زيرا (كان زيرا مريضا) لرئيسة الوزراء مائير وزملائها ان الحرب بعيدة الاحتمال جدا.

ستكون هنـاك حـرب :

فى الساعة الرابعة من صبيحة يوم ٦ اكتوبر تسلم الجنرال العازار مكالمة هاتفية من الجنرال زيرا مفادها ان الشواهد السابقة التى تنفى قيام العرب بهجوم كانت مضللة ، اذ اصبح واضحا الآن ، وبدون خطأ ، او انكار ان الجيشين العربيين المصرى والسورى سوف يبدآن حربا ذلك اليوم ، ويبدو ان وقت الهجوم قد خطط له ان يتم فى الساعة السادسة مساء .

قام العازار فى الحال وبعد تلقيه هذه المعلومات من زيرا بالاتصال برئيسة الوزراء جولدا مائير ووزير الدفاع ديان ، وطالب العازار ان تبدأ اسرائيل بهجوم جوى مسبق ضد سوريا ، وكذلك القيام فى الحال بتعبئة كل قوات الدفاع الاسرائيلية باكملها الا انه ما كان لمائير وديان أن يوافقا على مثل هذا العمل الخطير دون موافقة مجلس الوزراء الذى كان محددا انعقاده فى الساعة الثامنة(٢) . اذ كان من الصعب اعادة جمع مجلس الوزراء الذى تفرق اعضاؤه كل الى بيته للعطلة الدينية .

طالب العازار فى اجتماع مجلس الوزراء السابق بضربة جوية فورية ، وبالتعبئة الكاملة ، وقالت مائير ان مثل هذه الضربة الجوية أمر مستحيل سياسيا فاذا قامت الحرب يجب الا يكون هناك ادنى شك فى اعين العالم ان العرب هم الذين بدأوا بها ، وليست اسرائيل ، ويبدو أن ديان لم يؤيد رئيسة الوزراء فى هـذا التقييم فحسب « كان التقييم عاقلا وسليما من الناحية السياسية والاستراتيجية(٣) » بل يبدو ايضا انه احس انه فى ضوء شكوك المخابرات السابقة عن مقاصد العرب ، والمشاكل السابقة لعمليات التعبئة غير الضرورية ، يجب القيام بتعبئة جزئية فقط ، وتم اتخاذ هذا القرار بالتعبئة الجزئية حوالى الساعة ١٠ صباحا .

وفى الساعات القليلة التالية اخذ جهاز التعبئة الاسرائيلية فى التحرك تساعده بشكل ما ظروف العطلة ، لانه كان من السهل جدا العثور على فرد مؤهل للتعبئة اما فى بيته او فى المعبد ، وكان من السهل ايضا ارسال مبعوثين لعدم وجود مواصلات اخرى على الطرق ، من ناحية اخرى ، (كما توقع المخططون المصريون) لم تكن الاذاعة والتليفزيون يعملان فى يوم « كيبور » ، لذا كان من المستحيل اذاعة رسائل بشفرة التعبئة .

نقلت المعلومات بان هجوما عربيا متوقعا فى الساعة السادسة مساء الى كل من القيادة الشمالية والجنوبية مبكرا فى الصباح ، ويبدو ان المعلومات فى القيادة الشمالية قد ابلغت فى الحال على قيادات الالوية الثلاثة ، ومنهم الى قيادات وحداتهم فى الخط الامامى ، الا ان ابلاغ المعلومات الى القيادة الجنوبية كما يبدو كان ابطأ ، اذ يبدو انه بحلول الساعة ٢ مساء كانت المعلومات قد وصلت الى بعض النقاط الحصينة فى خط بارليف لا الى كل النقاط ، وفى هذه الساعة كان فى استطاعة المراقبين المصريين المتاهبين رؤية الجنود الاسرائيليين يستحمون ، ويغسلون ثيابهم فى القناة بالقرب من بعض النقاط الحصينة(٤) .

حفل وداع للجنرال مندلر :

فى يوم ٦ اكتوبر لم تكن استعدادات الجنود الاسرائيليين داخل خط بارليف وخلفه مختلفة عما كانت عليه منذ عدة اشهر ، كان هؤلاء الجنود ، ولعل تعدادهم الكلى كان ٨٠٠٠ ضابط وجندى ، يشكلون جزءا من فرقة جنرال مندلر ويمثلون تكوينا من الجيش النظامى باستثناء الاحتياطيين المؤقتين فى النقاط الحصينة ، وكان مندلر ، الذى كان من المقرر اعادة تعيينه فى يوم ٨ اكتوبر شديد القلق لعدة ايام ازاء ازدياد القوة المصرية الذى ابلغه اياه ضباط مخابراته كما ابلغوه للسلطات الأعلى ، و فى حفل للوداع قبل العطلة اقامه له فى يوم ٤ اكتوبر ضباط فرقته فى مركز قيادته فى « تاسا » فى اواسط سيناء ـ اسر الى واحد منهم عن اعتقاده انه ربما لن يترك المكان على اية حال ، لأنه يتوقع هجوما مصريا قبل يوم ٨ .

كما اسر « مندلر » ايضا بهذا القلق تليفونيا للجنرال « جونن » قائد القيادة الجنوبية والذى كان مركز قيادته فى بئر سبع ، واكد « جونن » « لمندلر » ان كل هذه المعلومات قد وصلت الى تل ابيب ، الا ان « زيرا » ورجاله يعتقدون انه لن تكون هناك حرب وحينئذ طلب « مندلر » الاذن له بتحريك لواءيه المدرعين الاحتياطيين الى الامام ، فى اواسط سيناء على الاقل ، وكانا متمركزين ابعد من ذلك شرقا على الجبهة بين « رفيديم » وجبهة سيناء الاسرائيلية ، ولم يسمح « جونن » بذلك بعد التشاور اما مع الجنرال « العازار » او الجنرال «اسرائيل تال» رئيس هيئة اركان العمليات، لان هذا قد يعتبره المصريون استفزازا لهم .

وفى صباح يوم ٦ ، وبعد أن تلقى « مندلر » كلمة بأن الحرب قد تندلع فى الساعة السادسة مساء ، عاود طلب السماح له بتحريك لواءيه الاحتياطيين اماما ورفض « جونن » السماح بذلك ثانية لسببين غير متماسكين تماما : أحدهما هو انه لازالت توجد امكانية لعدم اندلاع الحرب، مادامت الجهود السياسية المكثفة تنعدم لمحاولة اثناء العرب عن القيام بالهجوم المخطط له ، والسبب الثانى هو أن مثل هذا التحرك سوف يكشف للمصريين ان المخابرات الاسرائيلية على دراية بخططهم .. الا انه فى باكورة

ما بعد الظهر ، وبموافقة تل ابيب كما يبدو ، اتصل جونن بمندلر ليخبره ان الواءين المدرعين يمكنهما البدء فى التحرك املا فى الساعة الرابعة مساء .

فى ذلك الوقت كان جونن يتسلم تقارير المخابرات التى توحى بان المصريين على وشك التحرك ، وبعد الساعة الثانية مساء بقليل طلب مندلر ثانية على الهاتف لمناقشة الموقف ، واخيرا قال « البرت ، يبدو لى انه من الافضل ان تبدأ فى تحريك هذين اللواءين الى الامام(٥) » .

فرد عليه مندلر بهدوء : « اظن ذلك ، اننا نتعرض لهجوم جوى وبالصواريخ » كانت الساعة ٢٫٠٥ مساء .

فى آن واحد بدات صفارات الانذار بغارات جوية ترسل عويلها فى المدن الاسرائيلية ذاتها ، وفى بعض الحالات كان الناس على الجبهة الداخلية يعرفون ان اسرائيل فى حرب قبل الجنود على خط الجبهة بعدة ثوان ، ويرجع ذلك الى ان الرادارات الاسرائيلية طويلة المدى قد التقطت تحليق الطائرات العربية القادمة من الاتجاه العام ناحية دمشق ، (كانت كل الطائرات المصرية تطير منخفضة جدا بحيث لا يلتقطها الرادار) ، وانطلقت اوتوماتيكيا صفارات الانذار بغارة جوية .

وبالعودة الى الوراء يبدو من غير المعقول تجاهل الاسرائيليين الدلائل والاشارات التى كان يجب ان تحذرهم بوضوح بتوقع الحرب ولكن فى العودة الى الوراء تبدو كل مباغتة غير ممكنة التصديق ، وباختصار يبدو ان ثقتهم الزائدة جعلتهم متاكدين تماما من ان العرب لن تواتيهم الجراة على الهجوم ، وانهم ببساطة لن يستطيعوا تصديق الادلة الفياضة التى تناقض وما كانوا يتصورونه من افكار .

الملاحظـــات

(١) آفى شليم ، مرجع سبق ذكره .

(٢) ماتير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٨ ، ديان ، مرجع سبق ذكره ص ٣٧٥

(٣) من المفهوم ان وزير الخارجية هنرى كيسنجر والسفير الامريكى فى اسرائيل كينيث كيتنج اخبرا اكثر من مرة الدبلوماسيين الاسرائيليين انه يمكن الا تكون هناك مساعدة امريكية لاسرائيل فى حرب قادمة اذا ما اطلق الاسرائيليون الطلقات الاولى .

(٤) يصر الجنرال جونن انه تم تحذير كل المنشـآت قبل الظهر . ونتيجة النقص الواضح من النشاط على الضفة البعيدة فقد قام البعض اما بتجاهل هذا الانذار او التزموا حرفيا بالموعد المتوقع للهجوم وهو السادسة بعد الظهر .

(٥) ان الملاحظات او الافكار التى تنسب هنا او فيما بعد للجنرال جونن انما تقوم على مقابلات قام بها المؤلف معه ، الا اذا اشير بغير ذلك.

(٢)

« فرضنا ارادتنا عليهم »

٦ — ٧ اكتوبر

اختراق خط بارليف :

فى تمام الساعة الثانية وخمس دقائق من السادس من اكتوبر فتحت نيران ما يقرب من ٤٫٠٠٠ سلاح مصرى فى وقت واحد نيرانها فى الضفة الغربية على النقط القوية ومواقع القيادة فى المنطقة الامامية لخط بارليف ، وفى نفس اللحظة انطلقت ٢٥٠ طائرة مصرية عبر القناة متجهة نحو مواقع مدفعية مؤخرة المنطقة ، وعشرة مواقع صواريخ للدفاع الجوى « هوك » ، ومراكز القيادة ، ومواقع الرادار ومحطات التشويش والاتصالات الالكترونية، وتسهيلات الاتصالات ، وبصفة خاصة مطارات المليز وبير الثمادة ، والشور وبدقة متناهية فى التوقيت كانت الصواريخ الطويلة المدى « فروج » تندفع بسرعة البرق نحو القواعد الاسرائيلية فى بئر جفجافة ونلسا ، وكانت نيران المدفعية الارضية تحت اشراف اللواء محمد الماحى قائد المدفعية ، تتحرك بما يقرب من ١٨٥٠ قطعة نيران مدفعية غير مباشرة ومدافع هاون ثقيلة عيار ما بين ١٠٠ و ١٨٠ مم ، وما يقرب من ١٠٠٠ دبابة وحوالى ١٠٠٠ مدفع مضاد للدبابات من مواقع اطلاق مباشرة على الشواطىء ، وفى خلال الدقيقة الاولى سقطت ١٠٫٥٠٠ قذيفة مدفعية على المواقع الاسرائيلية ، واستمر القصف لمدة ٥٣ دقيقة بلا انقطاع ، وتدك دون أن تدمر ، جميع النقاط القوية لخط بارليف ، ومواقع المدفعيـــة المعروفة ومناطق تجمـــع الدبابات ومواقع القيادة المحلية .

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه العملية مستمرة ، كان المهندســـون المصريون يقومون بسرعة بفك القطاعات التى اقيمت من قبل فى السد على الضفة الغربية ، والتى كانت تسندها باكياس الرمل ، وقد ازالوها اما باليد او بالبولدوزر لفتح ثغرات مر خلالها آلاف من الجنود المنتظرين ، والذين يحملون قوارب هجوم آلية وزوارق،والى الغربتجمعت العربات البرمائية ومعديات الدبابات الثقيلة فى مواقع الاختراق والفجوات التى كان يتم فتحها بسرعة .

وفى نفس الوقت رافق الضباط المصريون ضباط قوات الأمم المتحدة الاجانب المذهولين من مواقع المراقبة البالغ عددهم ١٧ موقعا على طول

القناة ، لقد كانت الاجراءات العربية ناجحة للغاية فى تحقيق المفاجأة لدرجة ان رئيس اركان قوات الأمم المتحدة كان قد علم بإجازة فى اليوم السابق لبدء الهجوم .

عندما بدأت النيران المدوية بدأ عدد من جماعات القناصة فى عبور القناة فى قوارب هجوم من المطاط ، كما عبر بعضهم فى زوارق بمحركات ، والبعض الآخر فى زوارق بمجاديف ، وبعد مرور ١٥ دقيقة تبعهم حوالى ٨٠٠٠ من قوات المشاة والكوماندوز المختارين والمدربين تدريبا خاصا ، مستخدمين ايضا قوارب الهجوم المصنوعة من المطاط ، وكان هؤلاء الرجال من ذوى الحماس العالى قد تم اختيارهم بناء على خفة حركتهم ، لقد كانوا يحملون اقل قدر ممكن من الزاد ، حتى يتسنى لهم حمل اسلحتهم الشخصية بالاضافة الى اسلحتهم الهجومية الأولية ، وبعضهم كان متسلحا بصواريخ لاسلكية موجهة مضادة للدبابات « ساجر » يمكن حملها ، بازوكة المشاة الخفيفة آر.بى.جى ٧ الشبيهة بقاذفات الصاروخ المضاد للدبابات ، وسام ٧ ستريلا التى تطلق من فوق الكتف ، وصواريخ مضادة للطائرات ، وكان وزن امدادات كل جندى من « الجراية » والأسلحة يتراوح ما بين ٢٥ — ٣٥ كجم ، وكانت توضع على عربة مقطورة او ترولى تم تصميمه خصيصا لهذه العملية ، كان لكل فرد مكانا معلوما فى زورقه ، ورغم هول الضوضاء والاضطراب نفذ كل فرد مهمته فى هدوء ، كما لو كان سبق له ان نفذها عدة مرات من قبل ، والواقع انه فعل ذلك عمليا .

حمل بعض هؤلاء الجنود سلالم خفيفة من البامبو والحبال للمعارك ، وقد تم حمل هذه السلالم الى واجهة السد الاسرائيلى بواسطة مقدمة الرجال بمجرد وصول القوارب الى النقاط السابق اعدادها للرسو ، وتم وضعها بعناية ما بين المسافات الشاسعة الممتدة بين النقاط الاسرائيلية القوية ، ومع تثبيت السلالم فى اعلى السدود بواسطة الرزات كان الجنود الآخرون يتسلقونها بسرعة .

لقد استغرقت الموجة الأولى سبع دقائق لعبور عرض القناة الذى يتراوح ما بين ١٨٠ — ٢٢٠ مترا ، ومع وصول القوارب فى وقت واحد تقريبا الى السد عند عشرين نقطة او اكثر من القنطرة جنوبا الى السويس ، تم اقامة الكوبرى من المواقع الامامية ، ثم زاد تركيزها اكثر شرقا على الطرق الاسرائيلية ونحو مواقع القيادة ، تسلق الرجال على درجات السلالم ساحبين خلفهم الترولى ، وسرعان ما رفرفت الأعلام المصرية على الاستحكامات الاسرائيلية من القنطرة الى بور توفيق .

ان الرجال فى هذه الموجة الأولى لم يتوقفوا عند حد الهجوم على تحصينات بارليف ، بل انتشروا بسرعة على المواقع الحصينة التى سبق الاستيلاء عليها من قبل ، والتى تبعد حوالى ١٠٠٠ متر عن السد ، محتلين مواقع اسفل القمة مباشرة ، وعلى الجانب الغربى للخط الثانى او الثالث

للاستحكامات الاسرائيلية ، واتخذ الرجال المسلحون بصاروخ واحد « ساجر » او قذائف آر. بى. جى ٧ مواقعهم على طول الطرق المحتمل ان تكون مسلحة ، بينما اولئك الذين كانوا يحملون « ستريلا » اتخذوا مواقعهم خلفهم للقيام بمهمة الحماية الجوية .

وبوجه عام ، يمكن القول فيما يتعلق بمدى ما سمحت به تضاريس ومواقع الاستحكامات الاسرائيلية ، بان رجال تلك المجموعات قد انتشروا فى اقواس عريضة حارسين لجميع المنافذ المؤدية الى نقاط العبور ، وكانت مهمتهم المحافظة على رؤوس الجسور ضد الهجمات الأولى المتوقعة من جانب الدبابات الاسرائيلية فى الاحتياطى المحلى ، وكان معروفا انها متاخمة جدا للخطوط الامامية ، كان على المصريين المحافظة على هذه المواقع حتى يتم تنظيم مزيد من اوجه الدفاع التام بواسطة موجات تالية ، والى ان يصبح فى الامكان عبور قوات مصرية مسلحة كافية لصد هجوم الدبابات الاسرائيلية ، والواقع ان جميع هذه المجموعات وصلت فى الوقت المناسب ، ولكن باحتياطى قليل وسرعان ما انشغلوا فى معركة يائسة مع سرايا دبابات مقدمة لواء المدرعات الاسرائيلية .

وبعد مرور حوالى ١٥ دقيقة تقريبا على بدء الموجة الأولى ، نزلت موجة اخرى من القوارب الى الماء لتعيد زوارق الهجوم فى الموجة الأولى ، وتحركت قوات هذه الموجة بسرعة ، لتنضم الى من سبقها وتعمل على تدعيم الدفاع السريع الذى اوجدته الموجة الأولى ، وهكذا استمر الحال خلال الساعات الأربع التالية مع اجمالى اثنتى عشر موجة ، حتى بلغ فى الساعة الثامنة بعد الظهر عدد الجنود المصريين على الضفة الشرقية حوالى ٨٠,٠٠٠ جندى . فى هذه الأثناء كانت بعض الوحدات قد طوقت النقاط الاسرائيلية القوية وبدأت فى مهاجمتها ، الا انه مع كل لحظة تقدم من جانب المصريين كانوا يجدون انفسهم معرضين لهجوم نيران دفاع ضارية ، باستثناء « اوركال » وهى النقطة القوية التى تقع جنوب بور فؤاد مباشرة والتى استطاع المصريون فيها التغلب على دفاعها فى اول هجوم فى الساعة ٤,٠٠ بعد الظهر .

وقد قامت موجات الطيران المصرى المتكررة خلال هذا الوقت ، بالطبع ، بضرب القاعدة الاسرائيلية الأمامية فى تاسا ، والقاعدة والمطار فى بئر جنجافا ، والقيادة الاسرائيلية الجنوبية ، ومركز القيادة الأمامية ومركز الاتصالات فى ام خشبة ومراكز الاتصال على طول محور القنطرة — ام خشبة . وفى خلال هذه الفترة اطلقت القاذفات المتوسطة ت. يو. ١٦ قنابل موجهة (كيلس) على فترات متباعدة نحو وسط وشرق سيناء ، ومع ذلك يدعى الاسرائيليون ان هذا الهجوم العنيف لم ينزل خسائر الا فى تسع حالات فى القوات الاسرائيلية شرق القناة ، ويؤكد المصريون ان هذا الادعاء مخالف تماما للبيانات الاذاعية المسعورة التى كانوا يستمعون اليها من القواعد ومراكز القيادات المختلفة فى سيناء .

جهـد المهندسـين :

فى هذه الأثناء ، وبينما الموجة الرابعة تزحف على السد كان المهندسون المصريون بداوا مهامهم المرسومة بعناية على الضفة الشرقية ، فعبروا ، هم ايضا ، فى قوارب من المطاط واطلقوا صواريخ مدمرة خاصة على نقاط سبق اختبارها فى الوقت الذى كانت تتم فيه عملية فتح ثغرات من السد الاسرائيلى ، وبدات عملية تصويب خراطيم مياه تعمل بماكينات جازولين محمولة نحو هذه الثغرات ، وسرعان ما احدثت — السرعة الهائلة لاندفاع الماء من هذه الخراطيم التى كان المصريون يطلقون عليها اسم : القذائف المائية ، وسرعان ما احدثت فجوات فى الساتر الرملى ، وكان الغرض من ذلك ازالة الضفاف باسرع ما يمكن ، لتصبح اولا : معبرا للعربات البرمائية ، وفى النهاية محطة للمعديات والجسور العائمة ، وتم احداث ٨٢ ثغرة عرض كل منها ٧ امتار ، بعد ازالة فى المتوسط ١٥٥٥ مترا مكعبا من الرمل والتربة ، واعتمادا على طبيعة التربة ، وضعوا مواد ارضية تتناسب مع الخطـة : خشب ، واكياس رملية وشبكات معدنية وشرائح صلب ، وقد خول السطح للبولدوزر ، ووصول المعديات البدء فى العمل لاتمام اعداد الطرق الصلبة الجافة .

لقد كان فى تقدير الاسرائيليين ، قبل الحرب ، أن عملية قيام المصريين باحداث عدد قليل من هـذه الثغـرات مستخدمين فى ذلك المفجرات والبلدوزر ستستغرق من يوم ونصف الى يومين ، بيد أن المهندسين المصريين احدثوا عددا من الثغرات بخراطيم مياههم فى غضـون سـاعتين من بداية عملهم ، او الساعة السادسة والنصف فى المساء . (لقد عرفت المخابرات الاسرائيلية بالاستخدام المصرى لخراطيم مياههم ، ولكن يبدو انها اخطات تقدير مدى فعاليتها) وبدات عندئذ الدبابات والعربات المصفحة والسيارات البرمائية فى العبـور ، ثم تم انزال العدد القليل من معديات الدبابات الى الماء على الضفة الغربية ، وبدات فى تحـريك الدبابات عبرها ، ثم تبعهم المزيد من المشاةالمحمولين داخل قوارب او ايه.بى.سى البرمائية (بى.تى.آر ٥٠ و ٦٠ السوفيتية) متجهين راسا نحو الثغرات ، وانضم هؤلاء الى رجال المشاة الذين كانوا يطوقون بالفعل المواقع الرئيسـية لبارليف ، مقدمين بذلك مزيدا من المساندة بفضل لهيب الضربات وقذائف الصواريخ المضـادة للدبابات .

ومع بداية فتح الثغرات ، بدا فريق آخر من المهندسين فى العمل فى مهمتهم التالية : القاء جسور عائمة عبر القناة ، واستخدموا فى ذلك معدات الجسور السوفيتية الصـنع جنبا الى جنب مع معدات مصنعة محليا بايد مصرية معظمها فى ورش السد العالى بالقرب من اسوان ، واحضروها عبر النهر فى قوارب .

وفى تلك الليلة تم مد نوعين عاديين من الجسور ، وكانت جسـور المشاة الخفيفة تتكون من الواح معشقة داخل بعضها البعض طولها ثلاثة امتار ، اثنين مقابل اربعة ، تدعمها الواح طافية من البلاستيك تم وضعها على وجه السرعة بواسطة عربات برمائية ، وقد تعلموا من السـوفييت اسلوب صناعة هذه الجسور الخفيفة ، التى تم تركيبها بسرعة ، والخاصة بالمشاة ، وبجانب تلك الجسور كان يجرى اعداد جسور عائمة ثقيلة معظمها ايضا كان من تصميم السـوفييت وملائم للدبابات ، وكان هنـاك عشرة جسور من كل نوع ، وبالتالى كانت تتوافر اربعة جسـور لكل من الفرق الخمس الهجومية .

وقبل منتصف الليـل ، كانت ٥٠ معدية للدبابات تعمـل على طول القناة ، وكان بعضها من صنع السوفييت « جى.اس.بى » وهى زوارق ذاتية الحركة مشيدة من جزءين ، يتحرك كل منها بواسطة حاملة الى نقطة عبور سبق تصميمها ، حيث يتم تفريغه وانضمامه الى النصـف الآخر . وكانت دبابة انتصار تعبىء السلم المجوف الصلب فى كل مركب ، وكان السلم بعد ذلك يسحب الى الزورق ويسـتخدم للانزال فى احـدى الثغرات على الجانب الآخر ، وحتى بعد اتمام عملية الجسور العائمة ، فان تلك المعديات حاملة الدبابات واصلت عملها للاسراع فى عملية وضع السيارات والمصفحات الثقيلة على الضفة الشرقية .

وكان من بين طـلائع الدبابات التى حملت ونقلت عبر المـاء هى « ت ــ ٥٤ » وفوق مقدمتها « كاسحات الألغام » . وكانت تلك الكاسحات عبارة عن مجرفة ذات تضاريس على شكل حرف « فى » مصممة من اجل نقل الألغام المضادة للدبابات من تضريس الى آخر حتى يتم القـاؤها على جانب ممر الدبابة .

وعلى جبهة الجيش الثانى كانت الجسور الاثنى عشر تعمل من ست الى تسع ساعات ابتداء من محاولة مد الجسور ، وبمعنى آخر كان كل شىء فى وضعه بعد منتصف الليل بقليل غير انه كانت هناك صعوبات فى قطاع الجيش الثالث جنوب البحيرات ، فقـد كانت الاستحكامات الاسرائيلية فى تلك المنطقة من اكوام الحوائط الأرضية الصلبة ولم تكن سهلة الاستجابة لعملية التاكل المائية ، كما أن حركة المد والجزر تدخلت فى عملية مد الجسور، ولذلك لم يتم مد اى من جسور الجيش الثالث قبل الساعة التاسعة صباحا فى السابع من اكتوبر ، كما لم يتم استكمالها قبل مساء ذلك اليوم ، وقد حدث اثناء الاشراف على هذا الجهد تحت نيران المدفعية الثقيلة للمدافع ١٧٥ مم الطويلة المدى ان قتل المهندس اللواء حمدى الضـابط فى الجيش الثالث بقذيفة اسرائيلية .

الهجوم العسكرى المسلح فى اتجاه الممرات :

حدث خلال بعد ظهر السادس من اكتوبر ان عبر اللواء ١٣٠ التابع للفرقة الثالثة المشاة الميكانيكية — وهو لواء برمائى مجهز كله بالدبابات الخفيفة « بى.تى ٧٦ » عبر البحيرة المرة الكبرى ، ليبدأ الاندفاع نحو ممرى الجدى ومتلا ، وفى الساعات الأولى من بعد الظهر كانت الدبابات على مرمى البصر من الممرات ، الأمر الذى احدث رعبا شديدا بين وحدات اسرائيل فى مؤخرة المنطقة على طول الطريق الجانبى وقرب الممرات ، وكانت بعض الدبابات المصرية بالفعل ، على مرمى من مراكز القيادة الجنوبية المتقدمة فى ام خشيبة التى كان جنرال جونين عندئذ فى طريقه اليها .

غير انه فى نفس هذه اللحظة كان لواء احتياطى من الوية جنرال مندلر يتقدم من بئر الثمادة مندفعا غربا عبر الممرات مباشرة ، ودار قتال قصير وسريع وكان الاشتباك الرئيسى فيه بالقرب من ممر الجدى ، ولم تكن الدبابات المصرية بى.تى ٧٦ الخفيفة ندا للدبابات الاسرائيلية ام ٦٠ والسنتوريون ، وعندما ادرك القائد المصرى انه من المحال الاستيلاء على اى من الممرين عن طريق المباغتة امر بالانسحاب بعد ان تعرضت قواته لخسائر فادحة ، وانسحب المصريون قبل ان يشتبك معهم الاسرائيليون اشتباكا قويا فى معركة من جانب واحد .

ولكن يبدو ان فصيلتين لم تتلقيا الأمر ، فاندفع قائد احدى الفصيلتين، لدى مروره بممر متلا وشرقا ليصل الى القاعدة الجوية فى بئر الثمادة ويقصفها فى الساعة العاشرة وعشر دقائق فى اليوم السابع من اكتوبر ، وفى خلال الليلة التالية شقت الفصيلتان طريقهما للعودة غربا لتنضما الى الفرقة السابعة مشاة فى راس جسرها المواجه لكبريت .

التعزيز المصرى :

قامت المشاة بدق علامات ، فوق الرمال ، اعدتها من قبل بالوان مختلفة ومميزة لمساعدة الدبابات وايه.بى.سى على الانضمام الى وحدات المشاة الخاصة بها والموجودة بالفعل فى رؤوس الجسور ، وعلقت بها مصابيح ملونة لتهدى السائقين فى الظلام ، ارشدت الدبابات من الضفة الى مواقع مختلفة سبق اختيارها لدرجة أن قادة الدبابات فى المجموعة الثانية، والتى وصلت قبل فجر ٧ اكتوبر لم تفعل اكثر من اتباع الاشارات والمصابيح الملونة لتصل وتنضم الى وحدات القوات الملحقة بها .

وفى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر تم تعزيز فرق طلائع ساجر وآر.بى.جى ٧ المضادة للدبابات على الضفة الشرقية بمشاة تحمل مدافع ٨٢ مم و ١٠٧ مم وفى الساعة الرابعة والنصف كان لدى المدفعية

بنادق مضادة للدبابات ٨٥ مم و ١٠٠ مم سريعة الطلقات تعمل هى ايضا على الضفة الشرقية ، غير ان المدفعية الرباعية زد.سى.يو ٢٣ و ٢٤ والمدفعية الاتوماتيكية ذات الارتداد الذاتى ٢٣ مم ايه.به لم تتخذ مواقعها على الضفة الشرقية الا بعد ان تمت اقامة الجسور .

كان من بين طلائع العربات التى تم نقلها عبر القناة اثناء الليل سيارات استكشاف مجهزة بساجر المضاد للدبابات — بى.ار.دى.ام — ٢ وكانت كل سيارة منها تحمل ١٤ ساجر ، وستة معدة للانطلاق ، وثمانية اخرى مخزنة ، كما كان من بين طلائع العربات على الضفة الشرقية عدد من عربات نقل الجنود المصفحة المضادة للدبابات — بى.ام.بى المروعة التى يعتقد بعض اخصائيى التسليح بأنها كانت من احدث العربات المسلحة فى العالم فى عام ١٩٧٣ — تحمل بالاضافة الى اسلحة فرقة المشاة «ساجر» ومدفعا متعدد المحاور ٧٣ مم سهل الحمل ومضادا للدبابات ، وكانت ثلاث من تلك العربات والرابعة التى يركبها القائد ومركب فوقها مدفع ثقيل عيار ١٤٫٥ مم ومدفع متوسط عيار ٧٫٦٢ مم على محاور متحركة فى برج القائد، والأربعة معا تشكل فصيلة عربات .

وفى اثناء الليل انتشرت قوات اللواء فؤاد عزيز غالى من الفرقة ١٨ فى ارجاء القنطرة شرق ، وفى الصباح الباكر كان غالى — وهو مسيحى — قادرا على اقامة مركز قيادته فى المدينة التى تكاد تكون مهجورة تماما ، وهى اول مدينة عربية كبرى يتم انتزاعها من الاسرائيليين .

تمخض عن تنسيق التخطيط الكفء الفعال والأمن الدقيق ، وتحقيق المفاجأة المعدة بأحكام ، تمخض ذلك عن واحدة من اكبر عمليات العبور المائى البارزة فى تاريخ الحرب ، فلم يكن فى استطاعة اى جيش آخر ان يفعل افضل مما حدث بالنسبة للتخطيط ، اضف الى ذلك انه فى نفس ذلك اليوم الأول اعلن المصريون فى تقرير لهم أن عدد قتلاهم اقل من ٢٠٠ قتيل، وكانت نتائج اليوم الأول افضل مما كانوا يتوقعون ، فيما عدا الهجوم على الممرات الذى فشل ، ومع ذلك كان واضحا انه رغم المفاجأة لم يكن الاسرائيليون منهارين .

كمائن الفدائيين :

بمجرد حلول الغسق تحركت حوالى ٣٠ طائرة هليكوبتر مصرية ضخمة فى — ٨ من حاملات القوات فوق القناة منتشرة نحو الشمال الشرقى، والشرق والجنوب الشرقى ، وكانت كل طائرة هليكوبتر تحمل حوالى ٢٥ فدائيا نحو نقاط تم اختيارها بدقة ، فى سيناء على بعد من عشرة الى اثنى عشر كيلو مترا شرق القناة ، المهمة العامة للفدائيين — المسلحين بساجر المدمرة ، والطلقات الصاروخية آر.بى.جيه ٧ — هى قطع الخطوط

الاسرائيلية للاتصالات والمنشآت : اقام بعضهم متاريس وكمائن فى الطرق الرئيسية الأربعة المؤدية الى القناة من ناحية الشرق ، وهاجم آخرون مراكز القيادة الاسرائيلية ووحدات الرادار والاتصالات ، وفى الجنوب بالقرب من شواطىء خليج السويس كان على احدى الجماعات مهاجمة حقول البترول بالقرب من ابو رديس وراس سدر ، وفى الداخل من راس سدر اقامت جماعة أخرى متاريس فى ممر سدر .

لم تكن نتائج هذا الجهد الفدائى الهائل هامة بشكل ملموس ، وقد احدث الفدائيون حالة رعب مهولة فى المناطق الاسرائيلية فى المؤخرة ، ودمروا عددا قليلا من دبابات لواء مدرعات كان يمر ببالوزا فى طريقه الى القناة ، واصابوا بعض محطات الرادار الاسرائيلية ، اشتعلت النيران فى حقول البترول والمنشآت فى ابو رديس فى الساعات الاولى من صباح السابع من اكتوبر ، ولكن سرعان ما تم اخمادها ، وصمدت مجموعة الفدائيين فى ممر السدر لمدة ١٦ يوما ، ونجحت فى سد الممر ، ولكن باستثناء المجموعة التى كانت فى الممر ، فان معظم الفدائيين قتلوا او اسروا على ايدى الاسرائيليين فى مساء السابع .

ومع ذلك فان معدل حركة الاحتياطى الاسرائيلى نحو القناة انخفض بشكل كبير ، نظرا للضرورة التى تطلبهـا الاقتراب الحـذر عندما ايقن الاسرائيليون من الوجود الفدائى ، واصبح من الضرورى تحويل جهد اسرائيلى كبير خاصة فى مجال الدوريات المحمولة فى الهليكوبتر لمواجهة هؤلاء الفدائيين ، كانت وسائل الاتصالات ، واوجه النشاط فى المنطقة المؤخرة قد تعطلت ، لم يحقق الفدائيين ما كان يأمل فى تحقيقه المصريون ، لقد احدثوا قدرا من الخسائر اكثر مما كان يتوقعه الاسرائيليون .

الطيران الاسرائيلى فى مواجهة سام :

بدات هجمات الطيران الاسرائيلى المتقطعة والمنعزلة بعد بدء الهجوم المصرى بست وعشرين دقيقة ، ومع ذلك فان ضربات الطيران الاسرائيلى القوية لم تبدأ حقيقة الا بعد الساعة الرابعة بعد الظهر بقليل ، وكانت جميع تلك الهجمات الجوية تلقى مواجهة فعالة من سد الدفاع الجوى على الضفة الغربية المكون من سام ٢ القديمة المعروفة وسام ٣ وكذا سام ٦ الغير معروفة نسبيا ، وفى مواجهة هذا المستوى العالى والمستوى المتوسط لمظلة الصواريخ الطويلة المدى ، كانت هناك مظلة منخفضة من ستريلاسا — ٧ و زد.اس ٤٣ المهلكة .

لقد اصيب على الاقل نصف عدد الطائرات الاسرائيلية المهاجمة ، بالنيران المصرية المدمرة الدقيقة غير المتوقعة ، وقد جاء فى تقرير لأحد مراقبى الأمم المتحدة انه فى احدى الغارات المكثفة فى وقت متأخر من بعد الظهر كانت

اربع طائرات من كل خمس طائرات من الطائرات المهاجمة قد اصيبت ، ولم تسقط جميع تلك الطائرات لأنه سرعان ما تبين انه فى الوقت الذى كانت فيه ستريلا دقيقة للغاية ، لم تكن قاتلة كالصواريخ السوفيتية الاكبر حجما . فقد ادت صواريخ ستريلا الموجهة بالبعد والمثبتة دون الحمراء ، دورها على نحو ما كان متوقعا منها ، كانت تتجه مباشرة نحو انابيب الذيل فى الطائرة المهاجمة ، وان كانت رؤوس طوربيدها الضعيفة فشلت فى اغلب الاحيان فى اسقاط الطـائرة الأمريكية المتينة البنيان (سكاى هـوك) ايه — ٤ و (الفانتوم) اف — ٤ التى غالبـا ما كانت تستطيع العـودة مترنحـة الى تواعـدها .

رد فعل اسرائيل على الأرض :

لم يلحق بوحدات المدفعية الاسرائيلية الا القليل من الضرر او الخسائر من سد نيران المدفعية المصرية والضربات الجوية ، ولـكن نظرا للتفوق العددى المصرى على العدد الاسرائيلى بما يزيد عن عشرة الى واحـد لم يكن فى استطاعة الرد السريع لنيران المدافع الاسرائيلية أن يفعل شيئا فى مواجهة التركيزات المصرية المكثفة للانفجارات الهائلة .

وبعد الساعة الثانية والنصف بقليل تقدمت سريات من الدبابات التابعة للواء المدرعات بقيادة مندلر ، وتحركت بسرعة لمواجهة الهجوم وفقا لنظريتهم ، وقد عسكرت تلك السريات من الدبابات أثناء الليـل بالقـرب من طريق المدفعية وفقا لاجراءاتهم السليمة ، وكانت فى مناطق تجمعها عندما بدا سد المدفعية المصرية فى اطلاق نيرانه ، واندفعت القوة الاسرائيلية التى كانت تتكون فى غالبيتها من ثمـان الى عشر دبابات ، لمقابلة المهاجمين فى هجمات متقطعة بدون استطلاع او بقدر قليـل من الاستطلاع ، كان هذا النوع من الهجمات بالدبابات ناجحا فى عام ١٩٦٧ ولكن الآن كانت المشـاة المصرية تتحرك الى المواقع التى سبق تحديدها ، وتتخذ مواقعها الثابتة فى مواجهة الدبابات القادمة .

وقد الحق رجال آر.بى.جيه ٧ الذين كان يتعين عليهم صد النيران حتى يصـل الى ما هو دون الـ ٢٠٠ متر ، خسـائر فادحة بالجـانب الاسرائيلى مثلهم فى ذلك مثل الساجر ، وفى عدد من الحـالات استطاعت الدبابات الاسرائيلية اختراق ستار المشاة الرفيع من الموجة المصرية الأولى ، والاقتراب الى ضفة القناة ، بل والوصول اليها ، وهناك وقعوا مباشرة تحت نيران المدافع والدبابات والمدافع المضادة للدبابات ، وساجر الموجودة فى الأبراج المصرية على الضفة الغربية واصيبت بخسائر فادحة ، واعادت الدبابات الاسرائيلية الباقية تجميع نفسها على بعد بضـعة آلاف متر من الشرق ، وارتدت بعيدا عن النيران الثقيلة غير المتوقعة والمصوبة بدقة نحوها ، لتعود مرة أخرى مكررة الهجمات ، وتتعرض لنفس النـوع من الخسائر ، ومع حلول المساء كان اللواء قد فقد تقريبا جميع دباباته المائة.

وبعد الساعة الثامنة مساء مباشرة ، كانت العناصر القيادة للواءين الاحتياطيين التابعين لجنرال مندلر قد وصلا الى الجبهـة ، واعادا نفس التكتيك الذى كان قد قضى نهائيا على لواء المدرعات الاول — وعانى نفس نوع الخسائر ، ومع ذلك استطاعت بعض الدبابات شق طريقها من مخافر بارليف ، وساعدت الحاميات على اخلاء المواقع ، وفى اثناء القتال الشرس الذى وقع فى تلك الليلة شرق قناة السويس مباشرة تم سحق المخافر وتسليم اثنين واخلاء خمسة بمساعدة الدبابات وظل ثمانية مخافر معزولة ومحاصرة ، ولم يكن المصريون مستعدين للقيام بأى جهد كبير ضد تلك المخافر .

وبعد الساعة الثانية بعد الظهر مباشرة وبعد الحديث التليفونى مع مندلر طار جنرال جونين والأعضاء الأساسيين فى هيئة اركان حربه فى عدد من الطائرات الهليكوبتر الى سيناء ، وعندما اكتشف جونين ان أم خشيبة واقعة تحت الهجوم العنيف من جانب الطائرات المصرية وصواريخ «فروج»، ذهب الى اقصى شمـال نقـاط قيادة خط بارليـف جنوب بالوظة ثم الى المستودعات الكبرى بالقرب من رومانى ، وبعد حلول الليل بقليل طار الى أم خشيبة التى لم تكن قد اصيبت بأضرار خطيرة نتيجة للقذف المصرى ، وقد ظل طوال هذا الوقت على اتصال وثيق باللاسلكى مع مندلر ، وكذا مقر القيادة العامة فى تل ابيب ، وان لم يستطع الحصول على صورة واضحة للمعركة .

ومع صباح اليوم السابع ، كانت فرقة مندلر لاتزال تعمل بما هو اقل من ١٥٠ دبابة من بين الثلاثمائة دبابة التى كانت فى متناول يده بعد ظهر اليوم السابق ، وفى اثناء القتال الذى استمر اثناء اليوم السابع تدهورت تلك القوة الى ما هو اكثر بقليل من ١٠٠ دبابة عاملة .

وفى هذا الوقت ، كانت تجرى فى اسرائيل نفسها حركة حشد كاملة باقصى حد ممكن من الكفاءة ، وكانت المعلومات قليلة حول ما كان يحدث بالفعـل على جبهتى القتال ، وان كانت البيانات الموثوق بها التى تذيعها اذاعات القاهرة ودمشق — من غير أن تقابلها تكذيبات صريحة من تقارير الاذاعة الاسرائيلية الرسمية — قدمت حافزا على بذل اقصى جهد فى تجهيز وحدات التعبئة للقتال . كانت هناك حالات فشل ، واكتشاف لبعض الأجهزة غير المعدة للعمل ، وحالة فوضى ، ولكن مقابل ذلك كانت الحشود تتحـرك بسرعة وكفاءة غير معقولة ، وقبل منتصف الليل كانت هنـاك عناصر من فرقتين الاحتياطى فى الطريق الى سيناء .

وخلال السابع من اكتوبر كانت القوة الرئيسيـة من مدرعات فرق الهجوم المصرى الخمس المشاة قد عبرت الى الضفة الشرقية بحوالى ٥٠٠ دبابة : ٣٠٠ فى قطاع الجيش الثانى ، و ٢٠٠ فى الجيش الثالث ، واستمر نشاط الهليكوبتر ، وتم نقل مزيد من الفدائيين بواسطة الهليكوبتر الى مواقع محاصرة بالقرب من الممرات الثلاثة . وكذا بالقـرب من مراكز القيـادة والاتصالات الاسرائيلية فى شمال سيناء ، وادعت اسرائيل انه قد تم اسقاط

عشر من تلك الهليكوبتر الحاملة للقوات ، مما ادى الى خسائر فى المصريين تراوحت ما بين ٢٥٠ — ٣٠٠ شخص .

الجو فى مواجهة الجـو :

واصلت الطائرات المصرية ضرباتها العميقة فى سيناء حتى الظـلام فى مواجهة كل من النيران الدقيقة المضادة للطائرات وطائرات الاعتراض الاسرائيلية .

اعترف المصريون بفقدان ثمانى طائرات فى ذلك اليوم ، بينما ادعوا انهم دمروا ٢٧ طائرة اسرائيلية ، بينمـا ادعت اسرائيل ، من النـاحية الاخرى انه قد تم تدمير ٣٠ طائرة مصرية فى اليوم الاول، مقابل فقد ٤ طائرات اسرائيلية وسمع الجنود الاسرائيليون على الخط الامامى ، بعد أن شاهدوا تدمير عدد من الطائرات الاسرائيلية تلك الادعاءات عند استماعهم لاخبار المساء من اذاعاتهم ، وقـد ذكر احد الصحفيين الاسرائيليين ان احد الجنود علق بمزاح متجهم عن هذه التقارير بقوله : « لقـد علمنا المصريين كيف يقاتلون ، وعلموا مذيعينا كيف يكذبون(*) » .

وفى ساعة مبكرة من اليوم التالى ، حوالى السادسة والنصف صباحا، حاولت القوات الجوية الاسرائيلية ضرب قواعد الطيران المصرية ، موجهـة ضرباتها نحو عشرة مطارات . ولكن الحظائر المتفرقة الصلدة وصواريخ سام الدفاعية الثقيلة جعلت تلك المهمة شاقة ، وقد فقدت على الأقل خمس طائرات اسرائيلية فى تلك المحاولة الخاصة ولم تتكرر ، وتم توجيه الجهد الاسرائيلى الجوى ضد الجسـور والمعديات المصرية ، ولكن لم تكن تلك الهجمات ذات فعالية كبيرة ، لأن الطائرات الاسرائيلية كانت حذرة بعـد الخسائر الفـادحة التى منيت بها ، فكانت تحلق على ارتفاعات عالية ، وتسقط قنابلها وصواريخها من ابعد حد ممكن .

ادعت البيانات الاسرائيلية انه تم خلال اليومين الأولين تحطيم تسعة من بين عشرين جسرا عبر القناة ، ومما لا شك فيه أن الادعاء كان صادقا ، وان لم يكن فى مستطاع الطيارين المهاجمين التمييز بين اصابة الأهـداف من الخطأ فى اصابتها ، نظرا لارتفاعهم الشاهق وسرعتهم الهائلة ، وأصر المصريون على انه لم تستطع اى من هجمات الطيران الاسرائيلى تحطيم اى من جسورهم اثناء الحرب ، وعزوا حالات التوقف القليلة المؤقتة اثناء الحملة الى ضربات نيران المدفعية الطويلة المدى ، وعلى أية حال كان من السهل استبدال اجزاء الجسر بسهولة ، اذ كانت العملية كلها تستغرق اقل من نصف ساعة .

(*) ومع ذلك اصرت السلطات الاسرائيلية على عدم تعهد اصدار أى بيانات مزيفة ، على الرغم من احتمال وجود البعض من طريق الخطأ ، والبعض فى شكل غامض ، والبعض مبالغ فيه .

(٤)

« هزمونا مرة اخرى »

٧ ـ ٨ اكتوبر

وصول الاحتياطى الاسرائيلى :

خلال صباح يوم ٧ اكتوبر او بمظاهرة مثيرة للغاية فى التعبئة الفعالة بدات طلائع عناصر الفرقة الاحتياطية الاسرائيلية التى بدات بعد الساعة الثانية بعد الظهر تتحرك غربا على طول الطريق من العريش فى اتجاه بالوظة والقنطرة ، وقد تضمنت هذه الفرقة التى اخذت تتحرك فى اتجاه المحور الشمالى نحو القناة لواءين دبابات ولواء مشاة ميكانيكية بقيادة جنرال ابراهان « برين » آدان وهو مقاتل شديد المراس صغير ، خدم من قبل فى بالماخ فى حرب ١٩٤٨ كشاب صغير ، وقد اضطلع آدان قائد القوات الاسرائيلية المسلحة بمهمة التعبئة كقائد فرقة وتحرك بسرعة الى الجبهة .

وفى الطريق وقع طابور آدان فى كمين بالقرب من رومانى فى الساعة السابعة صباحا على يد بعض الفدائيين المصريين المحمولين بالهليكوبتر ، فتباطأ فى التقدم . (وكان ادان نفسه ، وهو على راس الطابور، قد مر بموقع هذا الكمين فى الساعة السادسة صباحا) .. وظل المصريون يقظين فوق الكثبان الرملية بالقرب من الطريق، تاركين طوابير الدبابات تمر ، ثم ضربوها من الجنب والمؤخرة بعديد من طلقات ساجر على مسافات وصلت الى كيلو متر ونيران آر.بى.جيه ٧ على مسافة ١٥٠ مترا ، وتم اصابة دبابتين او اكثر ، واعطب عدد كبير ، كما تم تدمير عدد من العربات الخفيفة . لم تكن الخسائر فادحة ، فقد مرت معظم الطوابير او اندفعت بسرعة عبر المتاريس ، وفى هجوم مضاد ابادت الفصائل الاسرائيلية معظم الفدائيين ، وقد عطل هذا العمل التحرك الاسرائيلى غربا لمدة ساعة على الاكثر ، وان كان تحرك الطوابير بحذر اكثر اثناء باقى النهار قد اضاف تاخيرا آخر لمدة ساعتين او ثلاث .

وفى نفس الوقت وصلت من المحور الرئيسى فرقة اسرائيلية اخرى بعد فرقة آدان بساعات قليلة ، وكانت هذه الفرقة تتكون من خليط من المظليين ورجال فرقة المدرعات بقيادة جنرال اريل « اريك » شارون ، وهو الرجل الذى قاد المسيرة المشهودة عبر وسط سيناء الى ممر متلا فى عام ١٩٥٦ ، والذى قاد عملية الاستيلاء المفاجىء على ابو عجيلة عام ١٩٦٧

اصدر الجنرال جونين من مقر قيادته فى ام خشيبة اوامره لاسلكيا الى ادان كى يتولى قيادة القطاع الشمالى من بقايا فرقة جنرال مندلر ، وتلقى شارون الاوامر بتولى قيادة القطاع الاوسط ، وتلقى مندلر الاوامر بجمع ما تبقى من فرقته . والتحرك لاقامة قطاع جنوبى فى مواجهة السويس .

وصل آدان الى المنطقة المحددة له متاخرا فى الصباح ، ووجد ان وحدات مندلر فى قطاعه فى حالة سيئة ، فوزع قواته واعاد تنظيم الجنود الاسرائيليين المنسحبين واستطاع هؤلاء ان يقدموا له بعض المعلومات عن اماكن وتنظيمات المصريين. بعدها اخذ طائرته الهليكوبتر وطار الى ام خشيبة لحضور مؤتمر قيادى تنفيذا لاوامر تلقاها باللاسلكى من جونين .

مؤتمر قيادى فى ام خشيبة :

كان المشتركون الاساسيون ، فى بداية المؤتمر هم جنرال جونين بطل قيادة الدبابات فى اللواء السابع مدرعات صاحب الانتصارات العديدة فى حرب ١٩٦٧ والذى اصبح حاليا قائدا للقيادة الجنوبية ، وجنرال مندلر الذى تعرضت فرقته لاصابات بالغة فى اليوم السابق وذلك الصباح ، وجنرال ادان ، وجنرال اورى بن آرى ، رئيس اركان جونين ، وعديد من اعضاء هيئة اركان جونين . وفى اثناء المؤتمر انضم اليهم الفريق ديفيد اليسار رئيس الاركان الاسرائيلى ، وكان فى صحبته الجنرال ايزاك رابين رئيس الاركان السابق . وتأخر شارون بسبب عطب الهليكوبتر(١) .

اهتم المؤتمر بثلاث مسائل رئيسية . المسألة الاولى ماذا يفعلون ازاء النقاط القوية المعزولة والتى يتلقون منها نداءات متكررة باللاسلكى للمساعدة، والمسألة الثانية ماذا يفعل المصريون واين هم ، وكان قدر المعلومات المتوفرة لديهم قليلة للغاية ، لأن معظم الاسرائيليين الذين استطاعوا اكتشاف اماكن المصريين فى ذلك الوقت اما ماتوا او وقعوا اسرى فى يد المصريين ، والمسالة الثالثة حول متى وكيف سيستطيع الاسرائيليون استرداد زمام المبادرة من المصريين ؟ ولم يكن يبدو ان هناك اى نوع او قليل من الالم او الانزعاج بين القادة الاربعة الذين قبلوا فى الحقيقة الموقف الذى من المحتمل انهم لم يكونوا يتوقعونه اطلاقا وان كانوا دائما يخططون له ، لم يتطرق الشك الى اى منهم فى انهم سيستأنفون الهجوم او انهم سينجحون ، وانما المسالة كانت مجرد تحديد موعد ذلك ، بل كانت هناك مناقشة مقتضبة حول المواقع الممكنة للهجوم الاسرائيلى المحتمل بالعبور الى الضفة الغربية للقناة .

ولما كانت معلوماتهم عن التنظيمات المصرية قليلة جدا ، ولما كانوا يعانون بشكل ميئوس من النقص فى المشاة والمدفعية ــ ولن يتلقوا مزيدا منها من حشود الاحتياطى قبل الثامن او التاسع من الشهر ، فقد اتفق المجتمعون بسرعة على انهم لن يستطيعوا تخليص الحصون فى المستقبل

القريب ، وسرعان ما وافق « العازر » على رايهم عند انضمامه اليهم ، وكان على الحصون الصمود بقدر استطاعتها ، على امل ان يكون لدى القيادة الجنوبية قوة كافية لتخليصها فى التاسع او العاشر(٢) .

اتفق المجتمعون ايضا على انهم فى حاجة ماسة الى مزيد من المعلومات عن القوة المصرية وتنظيماتها حتى يستطيعوا التخطيط الفعال لهجوم مضاد. غير ان اكثر المسائل الحاحا وقتئذ كانت منع المصريين من افقادهم توازنهم، وبناء عليه اتفقوا على قيامهم فى اليوم الثامن بهجمات محدودة يستطيعون بموجبها استعادة المبادرة والحصول على بعض المعلومات عن التنظيمات المصرية ، وفى نفس الوقت يتجنبون اشتباكات كبرى، ووافقوا بالاجماع على ضرورة تجنب مزيد من الهجمات المباشرة تجاه القنـاة ، حيث ستتعرض الدبابات الاسرائيلية مرة أخرى للنيران القاتلة للمواقع والصواريخ المصرية المضادة للدبابات فى حصون الضفة الغربية . ويبدو انه لم يكن هناك جدال او قليل منه حول هذا النهج من العمل ، وفى ذلك الوقت اصدر جونين اوامره الفعلية مؤكدا الاجماع العام وبمبادرة من « العازر » او جونين ، كانت اوامر جونين تمهد لاحتمال انهيار المصريين تحت الهجمات المحددة ، واذا حدث ذلك ، فانه يجب اغتنام الفرصة للتقدم والاستيلاء على جسر او اكثر من جسورهم ، بل ووضع لواء مدرعات اسرائيلى عبر القناة ، غير انه لم يبد للمجتمعين الاربعة الرئيسيين ان هذا امر يمكن حدوثه .

ولما كانت فرقة آدان وصلت بالفعل ، وكانت فرقة شارون مازالت فى الطريق ، فقد اصدر جونين اوامره لآدان للبدء فى الهجوم المضاد المحدود فى ساعة مبكرة من اليوم الثامن . كان عليه الهجوم بصفوف متوازية من الشمال مع مجسات موازية بصفة عامةللقناة للتقليل من خطرالوقوع فى نطاق حصون الضفة الغربية المصرية . وكان على شارون مواصلة عملية المجسات تلك جنوبا اثناء تحركه الى الموقع فى القطاع الأوسط المواجه للاسماعيلية .

وانتهى المؤتمر فى وقت متأخر من بعد ظهر اليوم او مستهل الليل . وتوجه العازر ورابين ومندلر الى طائراتهم الهليكوبتر ، وكان على رئيس الأركان ورابين العودة الى تل ابيب وقادة الفرق الى مواقع قيادتهم . وعند خروجهم من مركز القيادة وصل جنرال شارون . وهناك بجانب مركز القيادة اعرب بحماس للجنرال العازر عن اعتقاده بضرورة اتخاذ اجراءات سريعة لتخليص النقاط القوية المحاصرة على طول القناة ، واضاف قائلا : انه من المهم ايضا الاستيلاء على القناة حتى يمكن تنفيذ العبور ، واكد شارون ان اراءه مبنية على اساس تجربته الحديثة كقائد للقيادة الجنوبية ، وكان رد العازر عليه ملتبسا ، وطلب منه بحث هذا الموضوع مع جونين ، وبعدها توجه الى طائرته الهليكوبتر ، وكان مندلر وآدان قلقين ازاء اى تغيير محتمل فى الخطط ، فعادا الى مركز القيادة مع شارون لعقد اجتماع جديد مع جونين(٢) .

كرر شارون لجونين طلبه فى القيام بهجوم سريع لتخليص الحصون ، ورد جونين بهدوء : ان هذا ما هو كان يحدث فعلا منذ الساعات الأخيرة من ١٦ الى ١٧ ساعة ، وانه قد تم تخليص عدد قليل من الحصون ، وان الهجمات غير المنسقة والمتفرقة قد ادت الى فقدان اكثر من ١٠٠ دبابة اسرائيلية . (والواقع انه فى ذلك الحين وصل العدد الكلى الى ما يقرب من ٢٠٠) ، ورفض بتاتا اقتراح شارون وان كان قد صرح بقوله : انه لو تغير الموقف لاصبح من المحتمل القيام بهجوم ، وبناء عليه طلب الى شارون الاعداد لمثل هذا الهجوم ، وان كان قد كرر بصفة عامة الاوامر التى سبق ان اصدرها منذ اقل من ساعة .

وفى اليوم التالى كان على شارون ان يتماشى مع الخطة الأصلية وهى مواصلة الهجمات المحدودة التى بداها آدان ، والبقاء بعيدا عن القناة بتاكيد الأمر السابق بالقيام بسلسلة من الهجمات المحدودة ، وانصرف قادة الفرق الثلاث للعودة الى فرقهم ، ومن المحتمل ان يكون قد حدث هذا بين الساعة التاسعة والعاشرة مساء .

وفى ساعة متاخرة من تلك الليلة اتصل شارون بجونين واخبره انه قد اتم خطة لتخليص الحصون الثلاثة التى مازالت محاصرة فى قطاع فرقته، لقد خطط لارسال كتيبة دبابات وبطارية مدفعية الى كل حصن ، بينما يتعامل باقى الفرقة مع المصريين ليشغلوهم على طول الخط ، وكان على استعداد للقيام بالهجوم الساعة السادسة صباحا ، ولم يوافق او يرفض جونين ، وانما قال : ان قراره سيتوقف على التطورات اثناء الليل ، وانه سيخبر شارون قبل السادسة صباحا .

وفى اثناء ٨/٧ استطاعت بقايا حاميات النقطتين القويتين المعزولتين التسلل الى صفوف المصريين المحيطين والوصول الى الخطوط الاسرائيلية، واستسلمت نقطتان اخريان اثناء الليل . ولما كانت ثمانى نقاط قوية قد هجرت او انهزمت او استسلمت فى السادس والسابع ، فانه فى صباح اليوم الثامن كانت ثلاث حاميات اسرائيلية فقط مازالت صامدة على ضفاف قناة السويس وواحدة على شاطىء البحر المتوسط شرقى بور فؤاد .

وقد ادى هذا التطور بالاضافة الى المعلومات التى افادت بأن مزيدا من القوات المصرية قد عبرت القناة خلال الليل ، الى اصرار جونين على عدم الموافقة على خطة شارون لتخليص الحصن الذى مازال صامدا فى قطاعه ، وفى الساعة الخامسة وخمس واربعين استدعى شارون واخبره بتغيير الموقف وطلب اليه الا يقوم بالهجوم الساعة السادسة ، واصيب شارون الذى كان يستعد للتقدم للهجوم بخيبة أمل ، فاحتفظ بقواته على اهبة الاستعداد لمساعدة هجوم آدان الذى تحدد له الساعة الثامنة صباحا.

فى هذه الاثناء وفى نفس تلك الليلة اتمت قوات الفرقة ١٨ مشاة المصرية احتلالها القنطرة والحصنين قريبين ، وقام اللواء غالى قائد الفرقة بتفقد المناطق التى استولت عليها قواته ، وذلك اثناء قيام تلك القوات بحفر الخنادق للدفاع .

معركة آدان فى الثامن من اكتوبر :

بعد الساعة الثامنة صباحا بقليل بدأت فرقة آدان سلسلة الهجمات المحدودة التى كان قد طلب اليه ان يبدأها اثناء مؤتمرى الليلة السابقة وبعد الظهر . كان لديه لواءان على الخط ، لواء كولونيل ناتك بارام على جناحه الأيمن فى مواجهة القنطرة ، ولواء كولونيل جابى امير على جناحه الأيسر فى مواجهة الفردان (وقد فقد اللواء التابع لأمير والذى كان جزءا من فرقة منذلر حوالى نصف قوته فى القتال المرير فى الساعات السابقة ، وتم اعادة تنظيمه فى كتيبتين) كان اللواء الاحتياطى التابع لآدان ، والذى كان بقوده كولونيل آرى كارين ، فى الخلف فى منتصف الطريق تقريبا بين تاسا وبالوظة ، وكان لواؤه بمدرعات المشاة قد وصل اثناء الليل ، ولكنه كان قد تلقى توجيها بأن يتركه فى منطقة بالوظة لمنع اى تسلل مصرى محتمل عبر المستنقعات او السير على الطريق الساحلى الى العريش ، وقد تم وضع هذا اللواء تحت قيادة الفريق كالمان ماجن الذى كان مسئولا — تحت قيادة آدان — عن امن مخارج منطقة المستنقعات شمال القنطرة ، وفى صباح اليوم الثامن كان لدى آدان حوالى ١٧٠ دبابة فى ثلاثة الوية جاهزة للعمليات .

وحول التاسعة صباحا ، بينما كان لواء بارام قد بدأ عملياته المحدودة لاختبار الخطوط المصرية شمال القنطرة ، اكتشف آدان ان جونين قد اصدر تعليمات معدلة اثناء الليل(٤) ، وبعد منتصف الليل بقليل حاول جونين الاتصال بآدان عن طريق اللاسلكى ، ولكن لم يتلق ردا ، وعندئذ اتصل بماجن ، وطلب منه ابلاغ التعليمات الى آدان ، ورأى آدان ان هذا الأمر الجديد يتطلب منه الاستيلاء على جسر مصرى بالقرب من الفردان ، وبعبارة اخرى ، لم يعد ينتظر منه القيام بهجوم محدود ، بل الاندفاع الى اليمين وعبر القناة ، وكان جونين يرى ان هذا لم يكن انحرافا عن خطة الهجوم المحدود ، انه كان يريد فقط التأكد من ان آدان لن يضيع الفرصة لعبور القناة اذا ما لاحت فرصة لذلك .

وعندما ادرك مؤخرا آدان ما هو متوقع منه — او ما كان يبدو متوقعا منه — اتصل بجونين لاسلكيا للتأكد ، واخبره جونين انه يتعين عليه ان يكون مستعدا للاندفاع الى القناة ، والانضمام الى احدى النقاط القوية المحاصرة (هيزايون) التى مازالت صامدة بالقرب من كوبرى الفردان ، او الاستيلاء على جسر او جسرين من الجسور المصرية ودفع احد الألوية الى الضفة الغربية .

كان يتعين ان يبدأ هجوم آدان على نحو ما كان متفقا عليه فى الليلة السابقة فى صفوف ، وازية من الشمال الى الجنوب (لأسباب لم تفسر اطلاقا تفسيرا مقنعا) كما كان يتعين مواصلة هذا الهجوم المتتالى على طريقة التوازى بجناحه الجنوبى بقيادة شارون فى مواجهة الاسماعيلية ، واذا لم تكن فرص العبور فى منطقة الفردان تبشر بالنجاح ، فقد قيل لآدان ، كحل بديل ، ان فى استطاعته محاولة وضع لوائه بالقرب من الدفرسوار ، رغم انه كان فى قطاع شارون .

وذكر آدان جونين بالمناقشات التى دارت فى الليلة السابقة حول هجوم محدود ، وقد اشارت اول عملية اختبار قام بها بارام الى ان المصريين مستعدون تماما للقتال ، وانه لا يملك لا المدفعية ولا المشاة للقيام بهذا النوع من الهجوم الكبير الذى كان يبدو ان جونين يتوقعه فى ذلك الحين ، غير ان جونين اصر على انه لا تغيير فى اوامر الليلة السابقة ، كانت الأوامر تقضى بالقيام بتنفيذ الخطة البديلة طالما انه قد اصبحت لديه معلومات موثوق بها ، بأن المصريين على وشك الشعور بالانهاك ، وقال : انه تأكد له ان آدان لن يواجه مشاكل خطيرة فى قيامه بالهجوم ، وان العبور لن يكون صعبا فى ظل الظروف التى تغيرت ، واجاب آدان عندئذ انه فى حاجة الى مساندة جوية شاملة خاصة على ضوء عدم وجود مدفعيته ، واكد له جونين عندئذ انه ستكون هناك مساندة جوية جوهرية .

وبعد طول تأخير — ساعة على الأقل — ظهرت اربع طائرات اسرائيلية عال ضد القوات المصرية فى المنطقة العامة للقناة ولاذت بالفرار ، وبعد ذلك والقت بعدد قليل من القنابل ، وشنت هجمات بالصواريخ والقنابل من ارتفاع بدقائق قليلة ظهرت اربع طائرات اخرى واتبعت نفس الاجراء ، ثم لا شىء ، واعتقد آدان ان تلك هى كل المساعدة الجوية التى سيحصل عليها ، وعليه تحرك لتنفيذ اوامره .

ولما كان براهام قد قام فعلا ، بهجوم محدود فى الصباح المبكر ، وعانى من بعض الخسائر ، فقد طلب آدان من امير القيام باول عملية « جس » خطيرة تجاه القناة ، وسرعان ما تبين ان معلومات جونين عن شعور المصريين بالانهاك غير صحيحة فعندما اندفعت فصيلتا امير جنبا الى جنب فى اصرار نحو القناة والفردان ، واجهتهما نيران مدمرة من صواريخ ساجر و آر.بى.جيه ٧ اس المصرية ، ومع ذلك اندفعت الدبابات الاسرائيلية ، واقتربت احدى الكتائب من الشاطىء على مرمى من المدافع والصواريخ المصرية فى الأبراج على الضفة البعيدة وذاقت من نفس الكاس التى كانت قد لاقته دبابات مندلر فى اليوم السابق فأبيد نصفها ، وبعد أن فقد « امير » اكثر من ٢٠ دبابة فى دقائق قليلة — حوالى نصف القوة تقريبا — انسحب ، ورفع تقريرا بالموقف لآدان ، الذى رفع بدوره تقريرا الى جونين ، ثم امر بارام بتنفيذ هجومه فى أقصى الشمال بالقرب من القنطرة .

واندفع بارام بكتيبة واحدة احتياطية وكتيبتين جنبا الى جنب ، اندفعت الكتيبة الشمالية مارة بالمنطقة التى اجرت فيها عملية « الجس » فى الصباح، وسرعان ما وجدت نفسها تحت نيران ثقيلة من صواريخ ساجر وآربى.جيه — ٧ س فى المستنقعات على يمينها ، وتوقفت فى بادىء الامر ، ثم انسحبت تاركة كتيبة الجناح اليسارى — بقيادة المقدم عساف ياجورى — مندفعة بنفسها الى الأمام .

ولما كان المصريون قد شعروا بدلائل هجوم اسرائيلى وشيك بالدبابات ، فاذا استعدوا لهذا التحرك ، وسرعان ما اعد اللواء حسن ابو سعدة قائد الفرقة الثانية مشاة جنوب القنطرة مباشرة ، كمينا واسع النطاق يتكون من مجموعة الأسلحة المضادة للدبابات والمتوفرة لدى لوائه الأيسر . وعندما اندفع ياجورى وكتيبته الـ ١٩٠(٥) فى هجومه على المنطقة التى سبق ان اختارها المصريون لتكون ارض المعركة وجدوا انفسهم تحت النيران المدمرة من ثلاثة اتجاهات . وفى خلال عشر دقائق كانت الكتيبة ١٩٠ قد ابيدت بالفعل . لقد تحطمت جميع دباباتها باستثناء اربع او خمس ، وقتل معظم اطقمها او وقعوا فى الأسر . وكان من بين الأسرى الكولونيل ياجورى. وكان ذلك فى حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر .

ولدقائق قليلة لم يكن بارام قد ادرك ما حدث لكتيبته اليسرى ، ولكن بانقطاع نداءات ياجورى من اجل مساعدته ، ادرك انه فقد على الاقل ثلث قوته . وبعد دفعه بكتيبته الاحتياطية الى الثغرة ، مع عدم السماح لها بالتقدم الى ما هو ابعد من خط البداية الاساسى ، قدم تقريرا بالموقف لآدان .

غير انه لم يكن لدى هذا القائد المنهك وقت للاهتمام الكبير بكارثة لوائه الأيمن فى تلك اللحظة ، فقد علم لتوه من جنرال جونين ان خطة هجوم اليوم قد تغيرت مرة اخرى ، فكان على آدان مواصلة جهوده لوضع لواء على الضفة الغربية ، فلقد كان على فرقة شارون أن تنسحب من الخط المواجه للاسماعيلية ، لتتحرك جنوبا ، ثم القيام بهجوم فى اتجاه السويس فى وقت متأخر بعد الظهر ، واقامة رأس جسر مماثل غرب القناة شمال السويس مباشرة ، وطلب من آدان انه يتعين عليه توسيع جبهته لتغطى القطاع جنوبا بحيث تشمل الدفرسوار والطرف الشمالى من البحيرة المرة ، وعند تنفيذ هذه التعليمات حذره جونين من ضرورة عدم ترك آدان القنطرة مكشوفة، واحتج آدان دون جدوى على تكليفه بمهمة اكبر من الامكانيات المتوفرة تحت قيادته — فلم يكن لديه الا حوالى ١٢٠ دبابة — وكان من المستحيل تنفيذ المهمة ، واخبره جونين بضرورة قيامه بالمحاولة .

وفى الحال اتصل بماجن لاسلكيا يسأله عما اذا كان فى امكانه مد جبهة لوائه الى اسفل بحيث تغطى القنطرة . ولما كان ماجن مشغولا يتعامل مع التحركات المصرية العدوانية من بور فؤاد على طول الطريق الشمالى وعبر

المستنقعات فانه لم يستطع ، وبناء عليه اصدر آدان اوامره لبارام بالتحرك جنوبا بكتيبة واحدة باقى الكتيبة ١٩٠ تاركا كتيبة واحدة لتغطى القنطرة . ووافق ماجن على حمل مسئولية هذه الكتيبة ، وسحب آدان كتيبة واحدة من احتياطى لواء كارين ، وارسله الى بارام ليحل محل كتيبة ياجورى ، وبذلك اصبحت فرقته تتكون من ثلاثة الوية ، وكان عليه ان يغطى بهذه القوة ، جبهة طولها حوالى ٤٠ كيلو مترا ، وكان ينتظر منه ايضا عبور القناة ، وعلى اية حال كانت لديه اوامر .. وتحرك جنوبا .

فى هذه الأثناء وبعد الساعة ١٠ر٢٠ صباحا بقليل تلقى شارون اوامر من جونين بأن يكون مستعدا لسحب لوائه من الخط والتحرك جنوبا الى الطريق الجانبى حتى يكون فى مواجهة السويس ، وكان عليه عندئذ الهجوم فى اتجاه الشمال الغربى ليصل الى رأس جسر الجيش المصرى الثالث بنفس الطريقة التى (من المحتمل) ان يكون آدان يتبعها للوصول الى الجيش الثانى ، واحيط علما بأن آدان سيتحمل مسئولية قطاعه ، ولكن يجب عليه أن يترك فرقة استطلاعه بجوار تل يسمى كيشوف فى الشمال الشرقى مباشرة للبحيرة المرة الكبرى ، ليكون بمثابة مرساة لجبهة آدان الممتدة(٦) . ويقول جونين : ان السبب فى هذا الأمر يرجع الى ان التقارير التى وصلته من آدان اعطته الانطباع بأن كل شىء يسير على ما يرام على الجبهة الشمالية .

وفى الساعة الحادية عشر وخمس واربعين دقيقة اكد جونين امره التحذيرى السابق ، وطلب من شارون الانسحاب من الخط والبدء جنوبا . فى ذلك الوقت كان لواءا شارون المدرعان على الخط المواجه للاسماعيلية مشغولين للغاية فى مهاجمة وحدات من الفرقتين المصريتين السادسة عشرة والثانية ، ويقول شارون : انه عندما حاول شرح هذا لجونين تلقى ردا فظا « بل وقحا » بتنفيذ اوامره ، وعندما امر شارون قائدى اللواءين بالانسحاب والتحرك جنوبا ، اعترضا ، حيث كانا يدركان ان المصريين امامهما عدوانيين ، وخشيا من احتمال انهيار الجبهة لو انسحبا . غير ان شارون قال انه يجب اطاعة الأوامر . وأكد لهذين القائدين — على نحو ما اكد له جونين — ان المخابرات افادت بأن المصريين شبه منهكين ، وانه من الضرورى القيام بعمل مفاجىء لاغتنام الفرصة، وجمع قائدا اللواءين بتردد قواتهما على الطريق بعد الساعة الواحدة بعد الظهر بقليل .

فى هذه الأثناء ، وصل كارين الى جوار ناسا واتصل به آدان لاسلكيا ليتحرك غربا بكتيبته لشغل المنطقة التى خلت من لواءى شارون .. ولقلقه ازاء احتمال محاولة المصريين تطويق جناحه الجنوبى المكشوف ، تقدم كارين بكتيبتين فى طابور — احدهما خلف الآخر — مع امتداد كل كتيبة فى خط طويل . وكان هدفه الوصول الى الأرض المرتفعة بين مفترق طرق ثلاثة « شرق الاسماعيلية » وتل تاليا فى اقصى الجنوب والشرق ، ومن هذه الأرض المرتفعة (التى يطلق عليها الاسرائيليون اسم « ميسورى ») تنحدر

الارض جنوبا نحو منطقة تجارب زراعية مهجورة بالقرب من البحيرة المرة الكبرى . وكان قد تم تشييد هذه المزرعة قبل حرب ١٩٦٧ بمساعدة من جانب بعثة زراعية يابانية فى مصر ، ونظرا لعدم قدرة الاسرائيليين على التمييز بين الخط اليابانى والخط الصينى فقد اطلقوا على المنطقة اسم « المزرعة الصينية » استنادا الى النقوش المختلفة التى وجدوها على الحوائط فى هذه المنطقة .

وعند تحرك كارين الى الامام فى اتجاه المزرعة الصينية ، وتاليا وتالاتا ، اكتشف بسرعة ما سبق أن ذكرته الوية شارون : المصريون متيقظون وعلى اتم استعداد للقتال ، وسرعان ما اندمج كارين فى قتال مرير ضد المشاة المصرية التى يساندها عدد من دبابات ت — ٥٤ ، ووقع ما كان يخشاه ، فقد حاول المصريون تطويق جناحه الأيسر ، الامر الذى اجبره على سحب كتيبته الرئيسية ، وارسل تقريرا الى آدان بانه لن يستطيع الوصول الى هدفه ، وانه يتعرض لضغط كبير .

كان آدان فى حالة يائسة : كان المصريون الذين يواجهون وسطه ويمينه يواصلون انتصاراتهم الأولى ويضغطون بشدة ، ويتصاعد الضغط بهذه الطريقة ، على طول جبهته ، استعد آدان لاصدار امرا بالانسحاب ، وقبل تنفيذ ذلك عرض موقفه على جونين ، كان ذلك حوالى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر تقريبا .

عـودة شـارون :

فى هذه الأثناء بدا جونين — الذى كانت قيادته العامة تستمع الى محطات الاذاعة — يدرك أن آدان لن يستطيع حتى الوصول الى القناة ، وبالتالى لن يستطيع عبورها ، ومن ثم اتصل بشارون لاسلكيا قبل الساعة الثالثة بعد الظهر بقليل ، لوقف تحركه جنوبا ، والعودة والاستيلاء على كتلة تل تاليا — ميسورى ، وهكذا أصبح شارون ، الذى كان فى الطريق الجانبى المواجه للبحيرة المرة الكبرى ، على طريق العودة فعلا الى الشمال ، لدى النداء اليائس ، من آدان لجونين باللاسلكى لمساعدته ، ولكن قوته كانت قد انتشرت فى حوالى ٣٠ كم على الطريق الجانبى جنوب تاسا .

عندئذ طلب جونين من آدان الصمود اطول مدة ممكنة ، ليسمح لشارون باعداد خطة الهجوم على ميسورى على شمال جناحه ، واعتقد آدان الذى كان يتعرض فى ذلك الحين لهجوم من جانب الفرقة ١٨ و ١٦ المصرية انه سيستطيع الصمود فى مواقفه حتى يصل شارون ، وامر قادة لوائه ان يبذلوا ما فى جهدهم ، ونقل احدى كتائب امرالى اسفل لمساعدة كارين ، الذى كان يتعرض لأكبر ضغط ، ثم صمد .

اتصل جونين مرة اخرى بشارون لاسلكيا وسأله عما اذا كان سيستطيع ارسال احد الويته لمساندة جناح آدان اليسارى المهدد فى الوقت الذى يهاجم فيه ميسورى باللواءين الآخرين ؟ فكر شارون لبرهة فى الموضوع

ثم ابلغ جونين بانه يخشى من ان مثل هذه المساندة لآدان قد تنهك احد الويته دون أن يحرز نتائج هامة ، وبينما كان جونين وشارون يتباحثان حول هذا الموضوع ، وحول افضل مكان لشارون ليقوم منه بهجومه الأساسى ، بدأ آدان يشعر بان الموقف على طول جبهته أصبح اخيرا تحت سيطرته . وهنا تدخل فى المحادثة بين الجنرالين الآخرين واقترح قائلا : ان افضل مكان لاستخدام فرقة شارون هو فى الهجوم المنسق بفرقتين تجاه الاسماعيلية ، وشعر بانه سيكون لتأثير الهجوم من جانب فرقة شارون النشطة اثر مدمر على المصريين المجهدين أمامه .

ومع ذلك لم يرق لشارون ذلك الاقتراح وقال : انه لن يستطيع القيام به ، ومن المثير للدهشة انه اقترح على جونين بعد ذلك السماح له بالهجوم فى اتجاه القناة بين المزرعة الصينية والبحيرة المرة الكبرى ، ولم يوضح السبب فى القيام بمثل هذا الهجوم نحو الغرب ، بينما لا يستطيع الهجوم فى اتجاه الشمال الغربى من نفس المكان العام ، لتخفيف الضغط عن آدان . لم يناقش آدان المسألة ، واكتفى برفض الاقتراح وكرر امره السابق بالعودة الى تاسا ، وكان قد تقرر عدم اشراك شارون على الاطلاق . وقد قال جونين فيما بعد : « لو ان المصريين استطاعوا ، فى ذلك الوقت ، اختراق قوات آدان لما تبقى بينهم وبين تل ابيب سوى شارون » .

والواقع ان احد الوية شارون ، وكذا وحدته الاستطلاعية كانتا مشغولتين على يسار آدان ، وقد حال هذا الامتداد للخط الاسرائيلى دون تطويق المصريين للجناح اليسارى لكارين ، كما ساهم فى نجاح دفاع آدان بعد ظهر ذلك اليوم .

ويعتقد بعض الضباط الاسرائيليين : انه لو كان شارون قد اشترك فى هجوم مضاد تجاه الاسماعيلية مع آدان بعد ظهر ذلك اليوم الثامن من اكتوبر ، لأدى ذلك الى ما هو أكثر من تغير فى الأحداث الاسرائيلية المؤلمة فى مستهل اليوم ، ويعتقد هؤلاء الضباط انه ربما استطاع التأثير النفسى لمثل هذا الهجوم من جانب قوات شارون المفعمة بالنشاط تحطيم الفرقتين المصرية السادسة عشر والثانية ، وعلى اية حال ، ربما اتاح ايضا انتزاع زمام المبادرة من المصريين .

الضـغط المصرى :

لم يكن المصريون بلا عمل ، طوال هذا النشاط الاسرائيلى فى قطاعى آدان وشارون ، فبالاضافة الى الكمائن والهجمات المضادة التى انهكت آدان ، كان المصريون يعملون بسرعة على تقوية رؤوس الجسور ويشقون طريقهم بنظام شرقا فى مواجهة مقاومة متقطعة .

وكان من ابرز التحركات الى الامام تلك التى قامت بها الفرقة التاسعة عشرة مشاة فى الجناح الأيمن للجيش الثالث . فاندفعت كتيبته الى الجنوب لتحتل حصنا اسرائيليا مهجورا ، بالقرب من عيون موسى ، واستولت

قوة اخرى على الموقع المحصن للمدفعية الاسرائيلية الذى كان قد تم تشييده فى الصحراء فى مواجهة بور توفيق اثناء حرب الاستنزاف فى عام ١٩٦٨ ، وهناك ايضا استولوا على المدافع الفرنسية ١٥٥ مم التى لم يستطع الاسرائيليون تحريكها قبل سقوط الموقع ، ولما كان من الضرورى تحطيم بعض الحوائط الحصينة لاخراج المدافع ، فقد نسف المصريون المدافع اثناء صد الهجمات المضادة من جانب الاسرائيليين .

تقـــييم :

كان يوم ٨ اكتوبر عام ١٩٧٣ على جبهة سيناء من احرج ايام الحرب، ولا شك فى انه كان اكثرها جدلا ، ومما لا شك فيه ايضا انها كانت اسوأ هزيمة فى تاريخ الجيش الاسرائيلى .

وقبل توضيح الخطأ الذى وقع ، ولماذا حدث ؟ يتعين توضيح نقطة جوهرية . كان العنصر الوحيد الهام للغاية فى الهزيمة الاسرائيلية هو الكيفية القتالية للجيش المصرى وتنفيذها وفقا لخطط معدة باتقان لمواجهة هجمات اسرائيلية مضادة مسبقة : فان اندماج المشاة والصواريخ المضادة للدبابات، والصواريخ والمدافع ونظام الدفاع الجوى الفعال ، قد حقق بنجاح باهر هدف اللواء اسماعيل فيما قبل الحرب : حيث تحييد التفوق الاسرائيلى فى المجال الجوى وفى حرب المدرعات المتحركة .

ومع ذلك فقد كان مما سهل بشكل كبير ذلك النصر المصرى فى الثامن من اكتوبر ، عدد من سوء التقديرات الاسرائيلية الخطيرة ، وسوء الفهم ، وحتى مجرد الاخطاء العادية .

فهناك اولا مسألة الأوامر التى صدرت فى نهاية السابع والتعديلات المختلفة اثناء الليل والصباح التالى ، وهنا قد يبدو ان جنرال جونين كان مخطئا فى بادىء الأمر ، فاذا لم تكن الأوامر واضحة ، أو كانت متناقضة (أو بدت كما لو كانت كذلك) فانه هو المسئول : لقد كان لديه فى ذلك اليوم ثلاث فرق ، اثنتان منهما مفعمتان بالنشاط ومستعدتان ، وان كانت تنقصهما المكونات الهامة ، ولقد كانت لديه فرصة استخدام اثنتين من تلك الفرق ـ بقيادة اثنين من اكثر القـــادة خبرة واحتراما فى قوات الدفاع الاسرائيلية ـ بالتنسيق معا ، وفشل فى الاستفادة من تلك الفرص .

ويقول جنرال جونين : انه لم يكن يريدها هجوما منسقا فى ذلك اليوم، كان على آدان ان يهاجم الجيش الثانى فى الصباح ، وان يهاجم شـــارون الجيش الثالث بعد الظهر تاركين له فى كل حالة فرقة احتياطية ، انه من الصعب تصور ان الفرقة المكلفة بالدفاع عن خط طويل ضـــد عدو مهاجم متفوق عددا تكون فرقة احتياطية ، بل والاخطر من ذلك بكثير ان هذه الخطة انتهكت المبادىء العسكرية الكلاسيكية الخاصة بتكتل وبســاطة واقتصاد القــوة .

ويبدو ان خطأ جونين الرئيسى كان فى التهوين من قيمة قوة العدو ولم يكن القائد الاسرائيلى الوحيد الذى وقع فى هذا الخطـــأ ، ويعتقد جنرال بارليف : ان جونين استفاد من اخطائه فى ذلك اليوم ، كما يعتقد انه لولا المجادلة مع شـارون ــ التى بدات فى ذلك اليوم ــ لاستطاع جونين قيادة باقى الحملة بتفوق .

وبدات ايضا فى ذلك اليوم مجادلة اخرى اساسها اختلاف الشخصيات: النزاع بين جنرال جونين وآدان حول الأوامر التى اصدرها جونين ، ولم تكن المسائل فى هذا النزاع واضحة ، وكانت التصريحات التى اصدرها الجنرالات متعارضة مع بعضها البعض بشكل مباشر . ولمـا كان جونين قد تعرض لنقد مرير ازاء ادارته للعمليات الحربية من جانب لجنـة اسرائيلية على مستوى عال للتقصى بعد الحرب (لجنة اجرانات) ولمـا كان آدان لم يتعرض لمثل ذلك النقد ، فانه من الممكن الافتراض بأن جونين كان مخطئا ، وان آدان كان على صواب ، ولكن لم تكن هناك ادلة علنية للجنة اجرانات حول هذا الموضوع بالذات ، واصبح من الصعب تجنب النتيجة وهى ببساطة وجود سوء فهم ـ خطير ـ بين الرجلين . ولمـا كانت جميع نسخ الأوامر الخاصة بجونين فى متناول يد جنرال العازر واركان الحرب فى تل ابيب ، ونظرا لعدم ملاحظتهم اى تضـارب فى اوامر جونين ، اذن فمن المحتمل الا يكون الخطأ كله من جانبه .

اما فيما يتعلق بموقف آدان ، فمما لا شك فيه انه كان أسوأ يوم فى حياة من يجوز اعتباره افضل قائد مدرعات انجبته اسرائيل ، فمدى ضآلة الدور ، الذى قام به فى الصباح وامكانية ارجاعه الى الارتباك التى حدثت فى الأوامر ، امر يصعب تقييمه . ولكن حتى فى حالة ما اذا كانت اوامره تقتضى الهجوم بخطوط متوازية وحتى لو كانت تلك الاوامر متناقضـة ، فليس هناك عذر لفشله التام فى تنسيق هجمات لواء بارام وأمير فى الصباح، ويبدو انه قام بدور ناجح بعد الظهر ، أمام موقف يكاد يكون مستحيلا ، وذلك بمحاولته الابقاء على خط طوله ٤٠ كم بقوة لا تزيد عن حوالى ١٢٠ دبابة فى مواجهة هجمات ثلاث فرق مشاة ، ولكن فضل النجاح فى المحافظة على هذا الخط يرجع بشكل اكبر الى قائدى الدبابات والقادة الأقل مستوى ، اكثر مما يرجع الى قائد الفرقة الذى كان قد فقد كل القدرة للتأثير فى النتيجة اكثر من ذلك، عندما اشرك آخر مالديه من الاحتياطى .

لقــد تعرض شارون للوم من جانب كثير من الضـــباط الاسرائيليين لفشله فى القيام بأى عمل هام فى ذلك اليوم باستثناء بعض المعارك الدفاعية فى بدايتها وفى نهايتها . ومما لا شك فيه ان جنرال آدان كان فى حالة ضيق لتحمله عبء القتال خلال اليوم بينما كان شـــارون ــ الذى كان الشخص الاكثر تحمسا للقتال ، اما فى الطريق واما يقف مع حشوده خلف آدان عند ناسا ، كما انتقد عدد من الضباط الاسرائيليين فى وقت متاخر فشل شارون وبعد الظهر بصفة خاصة فى تقديم المساعدة لفرقة آدان ، التى كانت تتعرض لضغط شديد .

ومن الصعب تجنب الشك فى ان شارون كان متحمسا للتحرك جنوبا ومهاجمة الجيش الثالث بنفس الطريقة التى كان جونين يريد منه فى البداية القيام بها ، ويبدو انه لم يحاول جديا اقناع جونين بأنه لا يجب عليه القيام بهذا التحرك وان كان هذا واضحا على ضــوء فظاظة جونين الواضحة فى الأمر بالتحويل .

وللعدالة فان مسئولية فشل شارون فى المساهمة الفعالة فى المعركة كانت مسئولية جونين ، بما فى ذلك القرار النهائى بمنع شارون من مساعدة آدان .

الملاحظات

(١) كان مقدرا ان تنقل طائرة هليكوبتر من القيادة الجنوبية شارون، الذى صرح للمؤلف فى مقــابلة شخصية عن شكوكه فى ان تأخر وصــول الطائرة انما يرجع الى عدم رغبة شخص ما فى حضوره هناك .

(٢) هذه الرواية الخاصة بهذا اللقاء مبنية على لقاءات المؤلف مع الجنرالات اليعازر وجونين وآدان . وهى متماشية مع الصفحات المماثلة فى كتاب جولدا مائير (حياتى) من صفحة ٣٦٠ — ٣٦١ الذى فيه بعض التناقضات فى التسلسل التاريخى ، وكتاب موشى ديان « قصة حياتى » من صفحة ٤٠٦ ــ ٤٠٩ وكلاهما يرى أن زيارة اليعازر لأم خشيبة كانت الى حد كبير نتيجة لتقارير ديان السلبية لمائير .

(٣) ربما لم يشترك مندلر فى هــذا المؤتمر الثانى ، فالمذكرات غير واضحة .

(٤) ان هذا التفسير للخلاف بين جونين وآدان مبنى على لقاءات مع كلا الجنرالين : آدان مصر على ان التعليمات كانت جديدة ومنحــرفة عن الخطة المتفق عليها ، أما جونين فيصر انه كان يؤكد فقط ويعمل على بعض أوجه الخطة الرئيسية .

(٥) هذا ليس باللقب الصحيح للكنية ، ويبــدو ان ياجورى وفقــا لتعليمات معينة ، قدم هذا العدد عندما وقع فى الأسر ، وادعى المصريون ان هذا هو اللواء ١٩٠ ، كما ادعى ياجــورى انه قائد اللواء ، ولم يصحح ياجورى معلومات المصريين ، وربما تعمد تضليلهم ، وعلى اية حال اعلن المصريون انه قائد اللواء .

(٦) هناك اختلاف حول الأمر المؤثر فى تشكيل الاستطلاع : فشارون يقول انه طلب منه اخذ فرقته بأكملها جنوبا ، ولكنه ترك وحدة الاستطلاع هناك على مسئوليته الخاصة ، ويقول جونين انه امر بصفة خاصة ان يترك التشكيل قرب كيشوف .

(٥)

المواجهــة فوق الجــولان

الجولان والدفاعات الاسرائيلية :

فوق الخريطة ، تبــدو مرتفعات الجولان(١) ، التى كانت اسرائيل قد احتلتها منذ حرب ١٩٦٧ ، على شكل متوازى الأضــلاع ممتــد ٦٥ كم من الشمال الى الجنوب ، بحد اقصى فى العرض ٣٠ كم ، الحد الغربى الجرف المفاجىء ، الذى ينحدر بشدة الى وادى الحولة وبحر الجليل على الجانب الاسرائيلى ، والحد الشمالى قمم سلسلة جبال هيرمون الممتدة بصفة عامة من اتجاه الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، والحد الجنوبى الآخــر ينحدر من المرتفعات الى وادى نهر اليرموك التابع للأردن ، والذى يصب فى ذلك النهر جنوب بحر الجليل مباشرة ، والحد الشرقى خط غير منتظم ممتد من الشمال الى الجنوب هو « الخط الارجوانى » ، وقد اطلق عليه هذا الاسم لأن هذا اللون كان لون خط وقف اطلاق النار على خرائط القــوات التابعة للأمم المتحدة .

ان حركة العجلات فوق السهل البركانى أمر صعب ان لم يكن مستحيلا فى بعض الأحيان باستثناء الحركة فوق الدروب او الطرقات ، وحتى الدبابات كانت تجد صعوبة فى عبور كثير من المناطق خاصة فى الشمال ، فالســهل اكثر استواء واقل صخورا حيث معظم سطحه من العشب السهل العبور، وكانت الأشكال البركانية العديدة القديمة المبعثرة عبر السهل بمثابة ملاحظة رائعة وحقول من النيران .

وقد اقام الاسرائيليون ، اثناء فترة احتلالهم شــبكة من العــوائق والتحصينات معظمها على الحافة الشرقية للســهل ، وكان هنــاك غرب الخط الارجوانى مباشرة خندق مضاد للدبابات يتراوح عرضه ما بين ٤و٦ امتار ، وعمقه حوالى ٤ امتار على طول خط وقف اطلاق النار ، كانوا يلقون التربة من الخندق ويشكلون بها سدا عاليا على الجانب الاسرائيلى ، وكان من خلفه شبكة من مواقع المراقبة ، من الأسمنت المسلح ومخافر بغطــاء كثيف يضمن مراقبة مستمرة لجميع المنافذ من الشرق ، كما كان هناك سبعة عشر موقعا محصنا على هذا النحو ، بما فى ذلك المواقع الحصينة القــائمة خلف الخندق مباشرة ، وكذا تلك الموجودة من ورائها فوق الصخور البركانية المخروطية الشكل ، وكان كل موقع محصن يشمل ١١٢ قطعة من المعــاقل الصغيرة والحصون ، وكان لدى كل موقع من المواقع السبعة عشر عــدد

من الحاميات يتراوح ما بها ما بين ١٠ و ٣٠ من الرجال ، كما كانت هناك امام الخندق وخلفه شبكة من حقول الالغام المتكاملة ، وذلك فى الميادين الهامة للمداخل وحول كل نقطة قوية ، وقد استخدمت احدث اجهزة المراقبة الالكترونية على طول الخط ، وكان فى الامكان التقاط ارسالها من موقع المراقبة المحصن تحصينا قويا على ارتفاع اكثر من ٢٫٠٠٠ متر فوق سطح البحر فوق سلسلة جبال هيرمون .

كان هناك طريق واحد رئيسى يوصل الى الجولان من وسط سوريا ، وهو الطريق الممتد من دمشق الى القنيطرة ، والذى يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى ويشطر متوازى الأضلاع ليصل الى الجسر الشهير « بجسر بنات يعقوب » فوق نهر الاردن عند قاعدة الجرف ، كما يوجد عدد من الطرق الأخرى الثانوية فى المنطقة : من هذه الطرق ، طريق الى شمال اسرائيل مارا ببنياس شرق الحدود السورية القديمة مباشرة ، ودان على الجانب الاسرائيلى للحدود القديمة ، وهناك طريق آخر يؤدى جنوبا عن طريق الروم لدى القنيطرة ، وآخر يمتد شرقا من جونين الى منتصف الطريق بين دان وجسر بنات يعقوب الى على الجرف الى الوسط ومن ثم يتجه شرقا ليلتقى بطريق الروم القنيطرة ، وطريق من جسر اريك شمال بحر الجليل مباشرة الى أعلى الجرف الى الحسينية ، حيث يتقاطع مع الطريق الرئيسى الممتد من الشمال الى الجنوب لرافد القنيطرة .

واخيرا هناك طريق ، فى الجنوب ، يبدأ حول الحافة الجنوبية لبحر الجليل الى جرف نهر اليرموك الى التقاء الرافد ، وبالاضافة الى الطريق الرئيسى من رافد عبر القنيطرة الى ماسادا ، واخيرا يوجد طريق آخر مواز لخط انابيب البترول العربى (خط تاب) — وهو خط بترول يجرى من البحرين والعربية السعودية الى نهاية البحر فى لبنان جنوب صيدا مباشرة (صيدون) ، وقد ظل هذا الخط يضخ البترول عبر الأراضى التى تحتلها اسرائيل منذ حرب الأيام الستة ، باستثناء فترة قصيرة نتيجة لغارة واحدة قام بها الفدائيون العرب .

وفى منتصف سبتمبر عام ١٩٧٣ كانت هناك على الجانب الاسرائيلى للخط الارجوانى عناصر من لواءين من المشاة مجموعها اقل من قوة لواء واحد ، ولواء واحد مدرعات ، وكانت معظم المشاة من اللواء الأول (الجولانى) ، وكانت الكتائب الثلاث الموجودة تحت السلاح من اللواء ١٨٨ مدرعات او لواء « باراك » بقيادة كولونيل ايزاك بن شوهام — والبالغ عددها ٩٠ دبابة — منتشرة على خط غربى الخط الارجوانى من شمال القنيطرة الى رافد ، وكانت تساندها احدى عشر بطارية مدفعية ميدان — ٤٤ قطعة — بعضها مدفعية ميدان ١٠٥ مم وجميعها آلية ، وكان يراس هذه القوة اللواء رافائيل ايتان ، وهو قائد مظلات اسرائيلى مشهور ، كان اعضاء قوة المدرعات الاسرائيلية يتشككون فى قدرته على قيادة القوات المدرعة ، وكان مقر قيادة ايتان للمنطقة فى النفخ على الطريق الرئيسى فى

حوالى منتصف الطريق تقريبا بين القنيطرة وجسر بنات يعقوب ، وتولى ايتان العملية تحت الاشراف الكامل للجنرال ايزاك هوفى الذى كان مقر قيادته الشمالية يقع غرب نهر الأردن بالقرب من روش بينا وصفد .

كان مدير المخابرات السورى اللواء جبريل بيطار يعلم جيدا انباء الدفاع الاسرائيلى وتوزيعاته ما فقد تولى تنفيذ برنامج هجومى قتالى بداوريات استطلاعية تعسس عبر المواقع الاسرائيلية وذلك لعدة شهور قبل الحرب ، وتم استخدام وسائل مختلفة ، لتجنب ترك آثار للاقدام على الشريطين الممتدين على الرملة البيضاء على جانبى الطريق الصلد الممتد على طول الجانب الاسرائيلى للخط الارجوانى من جبل هيرمون الى وادى اليرموك ، كما أمكن بوسائل أخرى — فى أغلب الأحيان — التحايل على شبكات الانذار الاسرائيلية الالكترونية ونظم اطلاق النار الاوتوماتيكية وكان من نتيجة هذه الدوريات الاستطلاعية ان رسم السوريون بالتفصيل خرائط مبكرة لكل قطاع على الجبهة ، وصنعوا نموذجا بالحجم الطبيعى لمخفر المراقبة الاسرائيلى فى جبل هيرمون .

الحشد السورى :

لقد شيد السوريون ايضا خلال السنوات الست منذ حرب الأيام الستة نظاما شاملا لتحصينات شرق الخط الارجوانى مباشرة ، ممتدا بصفة عامة من جانب ناوا فى الجنوب ، مارا بنايا الى منحدرات جبل هيرمون ، كما كان هناك فى اتجاه الشرق خط آخر للدفاع فى منتصف الطريق بين القنيطرة ودمشق ، مارا بصفة عامة عبر سانامين ، وكفار شمس وصاصا .

وكان يعسكر فى النقاط الامامية على خط الدفاع الأول شرق خط اطلاق النار مباشرة بصفة مستمرة تقريبا لواءان او ثلاثة الوية سورية ، باستثناء اواسط الشتاء حيث يحول الجليد والطين دون التحرك بالفعل ، عندئذ كان يتم سحب معظم الوحدات شرقا الى منطقة دمشق للتدريب تاركين قوات قليلة جدا فى التحصينات .

وفى خلال شهر سبتمبر عام ١٩٧٣ كان واضحا للاسرائيليين ان هناك تعزيزات سورية هائلة شرق الخط الارجوانى ، ومع ذلك ، ونظرا لحدوث تدريبات مماثلة فى السنوات السابقة ، فان هذا التطور لم يثر انزعاجا كبيرا لدى الاسرائيليين ، وحتى يوم ٢٠ سبتمبر ، اوضحت الصور الجوية والأخرى الخاصة بالمخابرات أن هناك ثلاث فرق كاملة للمشاة تصاحبها الوية مدرعات تحتل الخط السورى الأول ، بالاضافة الى وحدات دبابات ووحدات هندسية ومشاة على الخط الثانى ، وقدرت المخابرات الاسرائيلية ما فى هذه المنطقة على الاقل بـ ٧٦٠ دبابة و ١٠٠ بطارية مدفعية وهى قوة هائلة محتشدة على بعد بضعة كيلومترات فقط شرق لواء مدرعات اسرائيلى واحد ، وجزء من لواء مشاة اسرائيلى واحد خلف الخط الارجوانى .

اثار هذا الحشد قلقا بصفة خاصة لدى الجنرال جوفى بسبب حادثة وقعت فى المكان يوم ١٣ سبتمبر ، ففى ذلك اليوم ، هاجمت المقاتلات السورية دورية جوية اسرائيلية كانت تطير فوق شرقى البحر المتوسط بجوار الميناء السورى اللاذقية .

كانت مثل تلك الدوريات الاسرائيلية فى المجال الجوى السورى متكررة ، ويبدو ان السوريين كانوا يحاولون نصب كمين ، غير ان الاسرائيليين قد اعدوا كمينا مضادا وفى بداية القتال اسقطوا ١٢ طائرة سورية ميج ٢١ ، بينما فقدت اسرائيل طائرة واحدة ، وكان من المتوقع ان تثأر سوريا بطريقة ما لهذا الحدث .

واعرب جوفى عن قلقه فى اجتماع عقد فى تل ابيب يوم ٢٤ سبتمبر مع اركان الحرب حضره كل من ديان وزير الدفاع وديفيد العازر رئيس الأركان : ففى استطاعة السوريين على ضوء المسافة القصيرة بين الخطين المتواجهين ، وعدم وجود حدود طبيعية ، تصعيد هجوم بقوة ساحقة دون انذار ، وشعر جوفى انه لا بد وان تخول له سلطة تعزيز وحداته من المشاة والمدرعات التى كانت مبعثرة على طول الجولان .

وفى يوم ٢٦ سبتمبر زار العازر وديان القيادة الشمالية وتفقدا عددا من المواقع الأمامية ، وأوضح لهما جوفى القوة الهائلة للسوريين المرئية بوضوح على بعد بضعة آلاف من الياردات ، والتى لا يخفيها الا تمويه متواضع فقط ، عندئذ اتخذ ديان قرارين ثبت اهميتهما الكبرى : فقد امر اولا : بارسال كل اللواء السابع مدرعات او جزء منه الى الجولان لتعزيز لواء الباراك ، وكان قد تم تشكيل اللواء السابع مدرعات ، وهو وحدة عسكرية نظامية ترابط فى جنوب اسرائيل ، تم تشكيله فى عام ١٩٤٨ كأول وحدة مدرعة فى جيش الدفاع الاسرائيلى وكان بمثابة راس حربه فى الاندفاع الاسرائيلى عبر صحراء سيناء فى كل من عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ، كما امر ديان ايضا بوضع الجيش الاسرائيلى فى حالة التأهب ، وعلى الرغم من ان هذه الأوامر لم تتضمن اية خطوات نحو التعبئة ، الا انها تطلبت وجود وحدات مستعدة لخوض المعركة .

وفى يوم الثلاثاء الموافق ٢ اكتوبر قدرت المخابرات الاسرائيلية بمساعدة الصور التى التقطت من الجو مؤخرا ، القوات السورية على الخط الاول وخلفه مباشرة بحوالى ٨٠٠ دبابة و ١٠٨ بطاريات مدفعية ، ووصل هذا العدد يوم الجمعة الى ٩٠٠ دبابة و ١٤٠ بطارية مدفعية وهى اكبر عملية حشود للقوات قامت بها سوريا على الاطلاق ، وكان معها فى نفس الموقع — وعلى استعداد للهجوم فى الخط الامامى من الشمال الى الجنوب — لواء مراكشى فى تلال جبل هرمون ، كما يوجد فى المنطقة شمال طريق القنيطرة دمشق مباشرة الفرقة السابعة السورية مشاة يصاحبها لواء

مدرعات ، وفى جنوب الطريق مباشرة وفى مواجهة القنيطرة بصفة عامة وممتدا جنوبا حتى الرافد تقريبا الفرقة التاسعة مشاة ، يصاحبها ايضا لواء مدرعات ، ثم فى جنوب وشرق الرافد وشمال وادى اليرموك مباشرة الفرقة الخامسة مشاة التى كانت تضم عناصر من الدبابات اكثر مما لدى فرقتى المشاة الأخريين بالاضافة الى وجود لواء مدرعات معها كذلك .

كانت هناك ، بصفة عامة ، خلف هذه الوحدات فى منطقة الدفاع السورية الثانية ، الفرقة الثالثة مدرعات بين كاتانا وساسا والفرقة الأولى مدرعات جنوب وغرب كيسوى ، ومن المعتقد انه كان هناك لواء او اكثر : مدرعات ومشاة ميكانيكية فى هذه المنطقة ، لقد كان هناك بالفعل يوم ٦ اكتوبر اكثر من ٩٠٠ دبابة ، وربما حوالى ١٢٦٠ دبابة وفقا لتقديرات الاسرائيليين .

كانت عناصر القتال الرئيسية لفرقة المشاة السورية : لواء واحد مشاة ولواء واحد مشاة ميكانيكية ، ولواء واحد مدرعات ، وكان كل من لواء المشاة ولواء المشاة الميكانيكية يضم ثلاث كتائب مشاة ، وكتيبة تضم ٤٠ دبابة ، وبطارية مدفعية مضادة للطائرات وبطارية مدفعية ميدان ، وكان اللواء مدرعات يضم ثلاث كتائب كل كتيبة تضم ٤٠ دبابة ، وكانت الفرقة تضم ايضا فوجا من بطارية الميدان ، وفوجا من بطارية فرقة مضادة للطائرات ، وكتيبة استطلاع (كل مجموعة ملحقة بكل لواء) وسرية من الكيمائيين (قسم لكل لواء) ، وكان اجمالى العدد حوالى عشرة آلاف رجل و ٢٠٠ دبابة ، ٧٢ قطعة مدفعية ، وحوالى نفس العدد من المدافع المضادة للطائرات وصواريخ سام ، ومع ذلك كانت الفرقة الخامسة فقط هى المكتملة من ناحية المدرعات والعربات الآلية ، وكان لدى الفرقة السابعة حوالى ٨٠٪ من دباباتها والفرقة التاسعة حوالى ٥٠٪ .

كانت فرقتا المدرعات — وكلتاهما فى كامل قوتها — تتكون من : لواعين مدرعات ، يضم كل منهما ١٢٠ دبابة ولواء مشاة ميكانيكية ، ويجعل لكل فرقة مدرعات أكثر من ٢٥٠ دبابة بالاضافة الى نفس وحدات التعزيز مثلها فى ذلك فرقة المشاة ، بقوة اجمالية أيضا قوامها حوالى ١٠٫٠٠٠ رجل ، وكان لدى كل لواء مدرعات مستقل حوالى ٢٫٠٠٠ رجل و ١٢٠ دبابة .

كان اجمالى الجيش السورى الميدانى شرق الخط الارجوانى يتكون من حوالى ٦٠٫٠٠٠ رجل ، ١٣٠٠ دبابة وما يقرب من ٦٠٠ قطعة مدفعية ، وعلى الأقل ٣٠ مدفعا مضادا للطائرات ، واكثر من ١٠٠ بطارية صواريخ سام — ٢ وسام — ٣ وسام — ٦ ارض جو ، ومن ٤٠٠ — ٥٠٠ قاذفة صواريخ ، وكان اللواء يوسف شكور رئيس الأركان السورى يتولى القيادة الميدانية من مقر القيادة العامة فى دمشق .

لقد كانت المخابرات الاسرائيلية — على نحو مالاحظنا — مقتنعة من تعقبها الدقيق لهذه الحشود السورية ، بانها مجرد مناورات روتينية ، كان جنرال زيرا واعوانه واثقين من انه لو كانت هناك اية خطط للهجوم لاستطاع اعوانهم اكتشافها .

كان لدى القوات الجوية السورية اكثر من ٣٠٠ طائرة مقاتلة ، وكانت هذه الطائرات تضم : ٣٠ سوخوى — ٧ و ٨٠ ميج — ١٧ ومقاتلات ارضية ، و ٢٠٠ ميج — ٢١ الاعتراضية ، وعدد قليل ما بين اليوشين و ٢٨ من القاذفات الخفيفة ، غير ان قائدها اللواء ناجى جميل عندما تذكر التفوق الكبير للقوات الجوية الاسرائيلية فى المعارك الجوية ، اعتمد السوريون — مثلهم فى ذلك مثل المصريين — على صواريخ سام والمدافع المضادة للطائرات لحماية مجالهم الجوى ، كما ادمجوا — مثل المصريين ايضا — قواتهم الجوية فى نظام الدفاع الجوى : فكانت هناك حوالى ١٠٠ بطارية صواريخ سام تشمل وحدات سام ٢ وسام — ٣ وسام — ٦ منتشرة غرب دمشق ، كما كانت هناك بالاضافة الى الاسلحة المضادة للطائرات الخاصة بالفرقة ٢٧ سرية مضادة للطائرات بها ١٦٢ مدفعا معظمهم زد اس يو ٢٣ — ٢٤ .

الخطة السورية :

كانت الخطة السورية — مثلها مثل الخطة المصرية — خطة خاصة بهم تماما ، ومع ذلك كانت متأثرة بالتعاليم التى تلقاها كثير من الضباط السوريين فى الأكاديميات العسكرية الروسية[٢] ، وبالخطة العملية التى تلقوها من المستشارين الروس خلال فترة تزيد على ١٥ سنة ، وهى فترة بناء القوات بالمعدات السوفيتية ، فكانت خطة سورية ، ولكنها متأثرة بشكل كبير بالنظرية السوفيتية .

فرفقا للأسلوب السوفيتى النموذجى للهجوم كان يتعين ان يبدا الهجوم بصدمات نارية قصيرة ، ولكنها مكثفة بشكل قوى من جانب كافة المقاتلات المتوفرة ، وقطع المدفعية ، ومدافع الدبابات والمدافع ، كما انه وفقا للنموذج الروسى ، كان لا بد أن ينطلق الهجوم على جبهة عريضة حتى يستطيع التفوق العددى السورى فرض أكبر قدر ممكن من تشتيت المجهود الدفاعى الاسرائيلى عندئذ ، وبحشد التفوق البشرى والسلاح عند نقطتين استراتيجيتين ، كان من المنتظر ان يقوم السوريون بالتغلغل فى اتجاهين عبر الدفاع المنتشر بشكل كبير قبل ان يستطيع نظام التعبئة الاسرائيلى جمع احتياطى قواته الى جبهة المعركة .

كانت الخطة السورية معدة بصفة خاصة من اجل القيام بعمليتى اختراق بالفرقة السابعة بالقرب من احمدية فى الشمال والفرقة الخامسة

بالقرب من رافد فى الشمال ، وكان يتعين ان يتبع ذلك تطويق مضاعف لصلب القوات الاسرائيلية على الجولان من جانب الفرقة السابعة المتجهة غربا نحو اعالى الأردن عن طريق الروم والوسيط الى تقاطعات الأردن الشمالية ، وتحرك الفرقة الخامسة فى طريق مواز نحو جسر اريك شمال بحيرة طبرية مباشرة ، وكانت كلتا الفرقتين مستعدة للتقدم فى مجموعتين ، على امل ان تستغل المجموعة الثانية لكلتا الفرقتين بداية عملية التطويق التى تقوم بها المجموعة الاولى .

وللابقاء على الاسرائيليين فى حالة وضع ثابت على طول الخط كان على الفرقة التاسعة فى الوسط جنوب القنيطرة ان تنطلق غربا بين الفرقة الخامسة والسابعة ، وفى نفس الوقت كان على اللواء المغربى صفراوى فى شمال الفرقة السابعة القيام بعملية استعراض للقوة فى اتجاه مصيدة وبنياس فى اسفل تلال جبل هرمون ، وكان على الفرقة التاسعة — وهى اقل الفرق السورية خبرة — الاستيلاء على خط التلال الممتد جنوب القنيطرة ويقطع الطريق الاسرائيلى الجانبى ، ثم تقوم بارسال جناح لواءها الأيمن فى اتجاه الشمال الغربى لينضم الى راس جسر مماثل للفرقة السابعة لتطويق الدفاع الاسرائيلى عن القنيطرة ، وكان امام الفرقة التاسعة واللواء المراكشى اهداف محددة مع الالتزام بعدم التقدم أكثر منها دون اذن من مركز القيادة العامة فى دمشق .

كان الصف الثانى من جيش الميدان يتكون من الفرقتين الاولى والثالثة مدرعات : ففى حالة قيام الفرقة الخامسة بعملية اختراق ، او فى حالة ما اذا قامت الفرقة الخامسة والفرقة السابعة بالاختراق ، فعلى الفرقة الأولى استغلال هذا الموقف والاندفاع بين الفرقتين الخامسة والتاسعة الى نافح ، وسحق القوة الاسرائيلية المحصورة بالفعل بين فكى الفرقتين الخامسة والسابعة ، غير انه فى حالة ما اذا توقفت الفرقة الخامسة وقامت الفرقة السابعة بعملية الاختراق ، كانت هناك خطط بديلة باقحام الفرقة الثالثة مدرعات بين الفرقتين السابعة والتاسعة ، وما كان على الفرقتين الأولى والثالثة مدرعات فى اية حالة اخرى القيام بالاقتحام ، وكان سيحتفظ باحداهما كاحتياط عام فى حالة الفشل أو حدوث تطورات غير منتظرة .

كانت الخطة السورية — مثلها مثل الخطة المصرية — معدة بشكل غير واضح بالنسبة للمرحلة الثانية من الهجوم عبر الأردن الى شرق الجليل ، ولكن السوريين توقعوا ، بشكل واقعى وقف اطلاق النار من جانب الأمم المتحدة قبل القيام بمثل تلك العملية الجيدة . اضف الى ذلك تشككهم فيما اذا كان ذلك أمرا سهلا فى ضوء احتمال السيطرة الجوية الاسرائيلية غرب مظلة الدفاع الجوى السورى ، كان السوريون يأملون فى استعادة كل الجولان او معظمها ، وهذا فى حد ذاته نجاح كاف .

الاستعدادات الاسرائيلية :

لقد استطاعت قيادة جنرال حوفى الشمالية من فوق الارض المرتفعة على الجولان وبصفة خاصة من مركز المراقبة فوق جبل هرمون مراقبة حشود القوات السورية فى سهل دمشق بطريقة لم تكن متاحة للقوات الاسرائيلية فى القيادة الجنوبية وهكذا ، ورغم الاتجاه العام الى التهوين من خطورة التهديد ، الا ان امكانية وقوع هجوم كبير كانت اكثر وضوحا لدى حوفى ومساعديه ، وقد نقل حوفى هذا الوضع وهذا المفهوم لديان ، وكان من نتيجته التحرك المبكر فى اكتوبر لجزء من اللواء السابع مدرعات ، ثم تحركه باكمله من مكان تدريبه فى جنوب اسرائيل الى شرق الجليل اولا ، ثم الى مرتفعات الجولان ، ومع ذلك كانت هناك عدة انذارات سابقة على جبهة الجولان ، واعتقد معظم الضباط الاسرائيليين ، انها لن تكون اكثر خطورة من الازمات السابقة .

ولتسهيل نقل اللواء السابع ، اصدر رئيس الاركان اوامره الى كولونيل انيجدور بن جال قائد اللواء بترك دباباته فى الحامية ، وان يضع يده على الدبابات والمعدات الثقيلة فى الاحتياطى الموجود فى القيادة الشمالية والمخصصة لوحدات الاحتياط فى حالة التعبئة(٢) . وفى يوم ٥ اكتوبر كانت لدى اللواء السابع معظم تلك الدبابات — حوالى ١٠٠ دبابة ككل — مستعدة للقتال . فى تلك الليلة تلقى كولونيل بن جال تعليمات لارسال احدى كتائب دباباته الى المرتفعات لتكون بمثابة احتياط للكتائب الاربع للواء باراك التابعة لكولونيل ايزاك بن شوهام .

وكان ذلك اللواء يتكون من كتيبتين نظاميتين للمدرعات وكتيبتين احتياطى احداهما للدبابات والاخرى من المشاة الميكانيكية ، واجمالى عددها ٩٠ دبابة . وكانت احدى كتائبه المدرعة على استعداد شمال القنيطرة ، والكتيبة الاخرى المدرعة المعززة بسرية ما بين القنيطرة والراند ، واعتقد الجنرال رافيل ايتان قائد فرقة القوات فى الجولان ، والذى ضموا اليه اللواء السابع ، انه فى حاجة ضرورية الى لواء مدرعات اكبر من ذلك الموجود فى متناول يد بن شوهام ، والذى يضم حوالى ٢٠ دبابة ، ومن ثم صدرت الاوامر الى بن جال لارسال كتيبة الى الهضبة .

وفى وقت لاحق من النهار وخوفا من عملية التعزيز السورية المستمرة تلقى ايتان اذنا من حوفى بتحريك اللواء السابع باكمله الى المرتفعات لحشده بالقرب من نافخ ، وليكون مستعدا لهجوم مضاد من شمال او جنوب رافد ، واعتقدت هيئة اركان حوفى انه فى حالة ما اذا قام السوريون بهجوم وكانوا عندئذ منقسمين فى تقييمهم لهذا الاحتمال — فانه من المحتمل بشكل كبير ان يكون موجها نحو القنيطرة ، ومن اجل تطويق تلك المدينة من الشمال ، غير ان ايتان كان مهتما بشكل كبير بخطورة قيام السوريين بجهد

اساسى عبر جنوب القنيطرة ، وكان الاسرائيليون حريصين فى كل الحالات على تجنب توريط اى من قواتهم فى مدينة القنيطرة .

واستجابة لامر ايتان ، تحركت وحدة استطلاع كولونيل بن جال مع كتيبة من كتيبتيه المدرعتين فوق المرتفعات فى نافخ فى يوم الخامس ، وبعد ان اتمت الكتيبة الاخرى ترميم دباباتها الجديدة اثناء الليل ، انضمت الى باقى اللواء فى نافخ فى صباح السادس ، كان بن جال فى ذلك الوقت فى مقر القيادة الشمالية يستمع الى التقرير المؤكد للمخابرات ، والخاص بالهجوم السورى المخطط ، وكان الوقت المعد للهجوم ، كما هو الحال على الجبهة المصرية هو السادسة بعد الظهر .

وعندما بدا الهجوم — بعد الساعة الثانية بعد الظهر مباشرة بدلا من الساعة السادسة — كانت قوات ايتان على المرتفعات فى حالة تيقظ على الاقل ، للهجوم المحتمل ، كانت تحت قيادته قوة محترمه ، وبتقدير الفصيلة المسيطرة على نقطة مراقبة جبل هرمون كان هناك ما يعادل بشكل تقريبى لواء مشاة كامل ، ولواء واحد مدرعات خفيفة منتشر خلف تحصينات الخط الامامى ، ولواء مدرعات بكل قوته فى الاحتياطى ، كما كانت هناك ايضا احدى عشرة بطارية مدفعية فى موقعها ، بنفس الكثرة التى كانت لدى منذلر لجبهة سيناء باكملها ، وبتقدير قوات القتال والقوات المساندة لها ، كان لدى ايتان حوالى ١٢٫٠٠٠ رجل تقريبا على المرتفعات وحوالى ٢٠٠ دبابة ، وحوالى ١٠٥ مع اللواء السابع ، وحوالى ٩٠ مع لواء باراك .

الملاحظـــات

(١) انظر الوصف صفحة ٣١٧

(٢) الاكاديميات العسكرية السوفيتية تعادل مدارس الخدمات الامريكية وكليات الاركان .

(٣) هيزوج من ص ٦٦ ويبدو ان نفس الاسلوب قد استخدم فى الجنوب يوم ٦ اكتوبر ، لمساعدة اللواء النظامى لبارام للاستعداد على وجه السرعة للقتال ، ثم ان ذلك لم تؤكده مصادر رسمية .

(٦)

الهجــوم الســورى

بــدا الهجوم السورى فى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر ٦ اكتوبر بالتنسيق مع الهجوم المصرى على قنــاة السويس لضمان المفاجأة الكاملة ، وبــدا هــذا الهجوم بقــذف مركز من المدفعية والطيران على طول الجبهة البالغ ٦٥ كم ، وتحت ستار هــذه النيران التى استمرت لمــدة ساعة واحــدة تحركت الفرق الســورية الثــلاث على خط الجبهة للقيام بالهجوم .

وفى الشمال انطلقت الفرقة السابعة بوجه عــام غربا فى اتجــاه الجنوب الغربى عبر احمادية جنوب تل الشيحا (التى يطلق عليها الاسرائيليون اسم جبل هيرمونيت) على طــول الطريق الى الروم ، وفى الجنوب ركزت الفرقة الخامــسة جهودها عبر جوهادر فى اتجاه الشمال الغربى بصفة عامة على طــول خط انابيب البترول (تاب) ، ومن خــلال تلك الجهود الرئيسية هاجمت الفرقة التاسعة فى اتجــاه الغرب فى منتصــف الطريق بين كوندا والقنيطرة باندفاعة واحــدة جنــوب القنيطرة مباشرة ، واخرى بالقرب من كوندا .

وفى اقل من نصــف ساعة بعد بداية نيران المدفعية السورية وضربات طــائراته ، وبينما هم مستمرون ، بدات الفرق الثلاث فى التحــرك نحــو نقاط انطلاقها وقــد شكلت الهجمتان الرئيسيتان من جانب الفرقة الخامسة والفرقة السابعة من البداية خطين متوازيين كراس حربة مندفعتين مباشرة نحو الخطوط الاسرائيلية ، وافــاد شهود العيان ان الخطين المتوازيين من السيارات المسلحة (دبابات ــ وايه بى سى) فى تلك الهجمات تحركت ببطء شديد ، واختلطت فيها سيارات التعزيز والقيادة المختلفة ، وكــذا عــدد من المواقع الآلية المضادة للدبابات والطائرات ، وكان هناك خلف الجبهة مباشرة فى كلا الخطين وحــدات هندسية مدرعة .

ويبدو ان الفرقة الخامــسة مشاة ــ التى كانت تتحــرك الى اعلى خط تاب ــ كانت فى حالة طيبة ، وكانت محتفظة بنظــام على مستوى عال ، باستثناء عــدم وجــود مسافات بين السيارات ، وكان واضحا ، من ناحية اخــرى انه كان هنــاك من البداية نــوع من الارتبــاك وقــدر قليل من انعدام الوحدة بين صــفوف الفرقتين السابعة والتاسعة ، اللتين كانتا تتحركان عبر الاحمدية وجنوب القنيطرة : فعلى ســبيل المثــال ، كان جسر

الدبابات اللازم لعبور الخنادق الاسرائيلية المضادة للدبابات كان لا يزال وراء تلك الصفوف ، ويبدو ان هــذا الارتباك كان نتيجة لحماس جميع الوحدات للعمل دون اجراءات ملائمة للمراقبة والنظام فى الطريق . (وقد وصف احــد المراقبين المنظر كما لو كان سباق سيارات الأجرة فى دمشق) ، والغرابة انه لم يكن هناك فى هــذا الوقت اى نشاط جــوى اسرائيلى ضد اى من تلك الطوابير غير المحصنة .

ومع منتصف بعد الظهر ، ورغم النجاح المبكر فى صــد طلائع الهجمات السورية ، ايقن جنرال ايتان انه ليس لــدى لــواء باراك قــوة كافية للاستيلاء على جبهة الجــولان ، وكان مهتما بصــفة خاصة بمواجهة الهجوم السورى جنوب القنيطرة ، وكان يود لو ان بن شوهام استطاع تركيز اهتمامه هناك وزاد من قوته . ووفقا لذلك امر اللواء السابع لبن جال بنقل كتيبته الى بن شوهام وفى نفس الوقت الاضطلاع بمهمة الدفاع شمال القنيطرة متوليا قيادة كتيبة لــواء باراك التى كانت تقــوم بعملها هنــاك بالفعل ، وفى الوقت الــذى تم فيه فصــلها عن قيادته ، كان قد تقــرر وقف احــدى كتائب بن جال عن العمل والابقاء عليها كفرقة احتياطى ، وقبل علمه بانه ربما تفقــد الاشراف على تلك الكتيبة ، قــام بن جال بجمع عــدد قليل من الدبابات من كل كتيبة من كتائبه، ليشيد بهــا وحــدته الاستطلاعية للواء احتياطى صــغير قوامه حــوالى ٢٠ دبابة .

وهكذا ومع منتصف بعد الظهر اصبح لواء باراك الــذى كان ما يزال لديه ٩٠ دبابة فى الميدان مسئولا عن جبهة جنوب القنيطرة التى كان مستوليا عليها ، ولكنه كان معرضا لضــغط متزايد ، وكان اللواء السابع فى حالة اشتباك شمال القنيطرة بكتيبتين (بما فى ذلك الكتيبة التى انتقلت اليه من لواء باراك) على الخط ، وكان لا يزال لديه حوالى ٦٠ دبابة وحوالى ٢٠ فى الاحتياطى المحلى ، بينما كانت هناك بالفعل كتيبة اضافية قوامها ٣٠ دبابة فى احتياطى الفرقة .

شمال القنيطرة :

كان من نتيجة الارتباك فى الصفوف السورية شمال القنيطرة انه عندما وصــلوا الى الخندق المضاد للدبابات كان على رجال المشاة والمدرعات النزول من سياراتهم المصــفحة ، واستخدام المجارف تحت وابل النيران الاسرائيلية الشديدة لسد الخندق ، واستطاع فى النهاية عدد من البلدوزر شق طريقه الى الامــام لتقديم المساعدة ، فى هــذه الأثناء توقفت الصفوف خلف هــذا النشاط غير المتوقع ، ممتدة الى الوراء لأميال خلف الجبهة .

وبسبب هــذا الاضطراب فى البداية ، تعطلت الفرقة السابعة مشاة فى منطقة الأحمدية فى واد صــغير على شكل طبق غرب الخط الارجوانى

مباشرة ، ويطل على هـذا الوادى الـذى يبلغ طوله من الشمال الى الجنوب حوالى ٢٠٠٠ر٢ متر وعرضه حوالى ٢٠٠ر١ متر ، يحده جبل هيرمونيت من الشمال ، ويطل عليه من الجنـوب تل يطلق عليه الاسرائيليون اسم « بوستر » ويطلق عليه العرب اسم « تل المخافى » ، وعلى طـول المرتفع الممتد بين تلك المرتفعات امتد الطريق الى الروم ، وكان على ما يبـدو هدفا اوليا للفرقة السابعة .

ونجح اخيرا مهندسون مجهزون بالمعـدات المضـادة للألغام فى تطهير المداخل ، ووضع الجسـور فـوق الخندق ، واستطاع البلدوزر ازالة السد من على الجانب الاسرائيلى ولـكن عندما تقدمت الدبابات السورية عبر هـذه الممرات الضيقة فى السد ، وقعـوا تحت نيران الدبابات الاسرائيلية المختبئة فى انحـدارات منظمـة خلف المرتفع مباشرة ، فبتطلعهم اسفل المنحدرات فى اتجاه السوريين شاهدوا الدبابات السورية وهى فى طريقها ، وكانت المشاة السورية ترابط على السد ولم تستطع التحـرك ابعـد من ذلك اللهم الا بعض الداوريات من حين لآخر .

وفى اثناء الليل استطاعت الدبابات السورية شق طريقها عبـر السد الذى كان المهندسون والمشاة قامـوا بتمهيده الى حد كبير اثناء الظـلام ، وعلى الرغم من الحقيقة الواقعة وهى : ان السوريين كانوا مجهزين بمعدات للرؤيا فى الظـلام افضل من تلك التى لـدى الاسرائيليين ، الا انهم كانوا غير قادرين على شق طريقهم الى المرتفع عبر الوادى رغم المساندة المكثفة من جانب المدفعية التى اشتبكت مع الدفاع الاسرائيلى ، كان القتال شرسا ومكثفا على نطـاق ضـيق للغاية فى اغلب الأحيان اثناء الليل ، وان كانت الجهود السورية فى القتال عبر الوادى غير مجدية ، وفى صـباح السابع كانت اكثر من ١٠٠ دبابة بالاضافة الى نصف دبابات الفرقة السابعة مشاة مبعثرة ــ مدمرة ومهجورة ــ عبر الوادى الـذى كان الاسرائيليون يطلقون عليه فى ذلك الحين اسم وادى الدموع .

وفى نفس الوقت تقريبا الـذى كانت فيه الفـرق الثـلاث السورية قد بـدأت اندفاعها عبر الخط الارجوانى ، قامت الصاعقة السورية الجسورة والمعدة اعدادا جيدا بضرب نقطـة المراقبة الاسرائيلية المحصنة فى جبل هرمون ، واقتربت قوة سورية محمولة فى هليكوبتر من نقطـة المراقبة من الخلف او الشمال بينما قامت وحـدة ارضـية بمهاجمتها مباشرة من فـوق المنحدر من اتجاه الشمال الشرقى ، حيث تحركت من نقطة المراقبة السورية . هذه القـوات فاجأت الحامية الاسرائيلية وابادتها وفى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم اضطلعت عناصر من اللواء الاسرائيلى الجـولانى بأول المحاولات العديدة لاستعادة الموقع ، ولكنها كانت ترتد على يد السوريين ، الذين تمركزوا جيدا على جميع المداخل لنقطة المراقبة الاسرائيلية التى استولوا عليها ، غير ان السوريين لم يستطيعوا ، فى اى مكان آخر ، مفاجأة اى من المواقع الاسرائيلية المحصنة ، وبتجنب العقبات واحتواء تلك المواقع اتجهوا

غربا ، على ان يتم فيما بعد القضاء على النقاط الحصينة ، بعد تحقيق الأهداف الرئيسية للفرقة .

جنوب القيطرة :

عبرت الفرقة التاسعة وسط الخط السورى ، الخندق جنوب القنيطرة مباشرة ، وقـد لحقت بهـا خسائر فادحة ، وفى صـباح ٧ اكتوبر كانت الفرقة قد تقدمت حـوالى ٨ كيلو مترات ، وحققت الأهـداف الموكولة بها باستثناء الجناح الأيمن للوائها : ففى اتجـاه اليمين فشلت تماما الجهود فى التقدم نحـو القنيطرة بفضـل سرايا الجناح الأيمن للواء السابع .

فى هـذه الأثناء كانت الفرقة الخامسة تتحـرك بنظـام جيد على ارض اقل صـلاحية للدفاع واكثـر صـلاحية للمدرعات التى كان لـدى السوريين منها اعـداد ضخمة ، ومع ذلك ، ففى فترة ما بعد ظهر السادس ، احرزت الفرقة الخامسة قـدرا قليـلا من التقـدم حيث عوقتها الهجمات المضادة المتكررة من جانب المدرعات الاسرائيلية ، غير انه بعد ان حل الليل قامت الفرقة الخامسة بعملية اختراق بارعة فى الجنوب ، وسرعان ما وزعت فى ثلاثة طوابير ، تحرك الطابور الشمالى الى الشمال الغربى على طـول خط انابيب البترول تاب ، ثم اتجـه غربا نحـو يهـودا (المعروفة لـدى العرب باسم ياروبيا) وجسر اريك ، واندفع الطابور الجنوبى الى الجنوب اسفل الطريق من رافيد نحـو العال ، واندفع الطابور الثالث المتفرع من الطابور الجنوبى غربا من رامات ماجشيميم .

وفى صباح السابع ، كان الطابور الشمالى ، أو أفضل الطوابير ، سلامة ، قد تقـدم حـوالى ١٠ كم ، واشتبك فى معارك بالدبابات وايه بى سى بين ناهال جيشور ويهودا ، وكان الطابور الجنوبى بين رامات ماجشيميم والعال ، والطابور الأوسـط غرب جوهادر .

ولصد الاندفاع ، كان يتعين على لواء باراك القيام بمهمة تكاد تكون مستحيلة ، فلم تكن لديه سـوى ٩٠ دبابة ، لتغطية جبهة طولها ٤٠ كم على ارض اكثر صـلاحية للمناورة عن مثيلتها فى الشمال ، وكان على كولونيل بن شوهام ان يتعامل فى الحال مع عـدة اختراقات على طـول جبهتين ، وكانت عملياته فى بادىء الأمـر ناجحة بشكل ملحوظ ، ولكن بعد أن حل الليل فقد الاسرائيليون ميزة المراقبة التى كانت قد ساعدتهم بعد الظهر ، واصبحوا غير قادرين على مجاراة تفـوق المعدات السورية للقتال الليلى ، كانت الكتيبة اليسارية لبن شومان صامدة امام الاندفاعات المحدودة من جانب الفرقة التاسعة ، ومع ذلك فقـد تعرض وسـطه ويمينه للسـحق نتيجة للاختراقات المكثفة من جانب الفرقة الخامسة جنوب رافد وتل فارس .

وعندما ادركوا ثقل هـذا الهجوم الخطير ، سمح بن شومان للمدافعين عن اربعة من الحصون الثمانية الأمامية باخـلاء مواقعهم ، غير أن الحصون الأخرى سرعان ما تم تطويقها وعزلها ، وحاربت كتائب بن شومان النظامية بقوة ، ولكن المشاة الســورية استخدمت بفعالية كبيرة صـواريخ ساجر المحمولة والبازوكا من طراز اربى جيه ــ ٧ ، وكانت الدبابات الاسرائيلية اقل عـددا بشكل يائس أمام التفـوق العددى للمدرعات السورية ، واضطر المدافعون لاخـلاء اماكنهم ، ومع منتصف الليل كانوا قد فقدوا ما يقرب من نصف دباباتهم .

وواصل السوريون المجهزون بأجهزة الرؤيا الليلية الهجمات اثناء الليل، ولـما كان بن شومان قد انقطع اتصـاله بوحـداته العـديدة على الجبهة ، ترك مركز قيادته فى نفح بجـوار مركز قيادة قائد المنطقة جنرال ايتان ، واتجه نحـو الجنوب الشرقى أسفل خط أنابيب البترول فى دبابته الخاصة بصحبة قيادته المتحركة ، ومع ظهور الفجر كان قد تورط فى القتال اليائس غـرب حسـينية .

المعـركة الجـوية :

قامت قـوات الطيران السورية بعـدد من مهـام التعزيز الوثيق : كان نمط الطيران الســورى الطبيعى يتكون من ميج ــ ١٧ وسوخوى ــ ٧ تقوم بمهـام هجوم ارضى على ارتفاعات منخفضة جـدا ، مع ميج ــ ٢١ التى تقدم غطاء جويا ، وفى اليوم السـادس من اكتوبر كان الطيران الاسرائيلى الاعتراضى لتلك الهجمات متقطعا ، حيث كان الشـغل الشاغل لقـوات الطيران الاسرائيلى هو العبـور المصرى لقناة السويس ، ومع ذلك فقد حطمت صواريخ هـوك الاسرائيلية عـددا من الطائرات السورية المهاجمة ، وان كان عـدد اكبر من الطائرات الاسرائيلية وقع ضـحية شبكات الدفاع الجـوى السـورى .

وفى السابع عندما بـدات القيادة الاسرائيلية الشمالية والقيادة العليا فى تل ابيب تـدرك خطـورة التهديد السـورى ، انضم الجزء الرئيسى من قوات الطيران الاسرائيلى الى المسرح الشمالى، وسيطرة الطائرات الاسرائيلية على اجـواء الجـولان متجنبين المنطقة النشطة للطائرات الســورية ، وكـرر الاسرائيليون هجماتهم على طلائع المدرعات السورية على الأرض ، وتغلبوا الى حد ما على خطوط امداداتهم خلف الخط الارجوانى ، ولكن عندما حاول الاسرائيليون العبـور الى الاراضى السورية وقعوا فى نفس الســد غير القابل للاختراق من صـواريخ سام والمدفعية المضادة للطائرات ، التى كانت تحبط جهـود الطيارين الاسرائيليين بالقرب من قناة السويس .

وفى يـوم ٧ ، ٨ ، ٩ اكتوبر بلغ متوسط طلعات الطيارين الاسرائيليين فى اليوم الواحد فـوق الجبهة السورية حـوالى ٥٠٠ طلعة ، وكان الجهد

الأعظم فى اليوم التاسع عندما بلغ متوسط الجهد حوالى ٦٠٠ طلعة ، وقد وعد السـوريون اكثر من ١٠٠٠ طلعة اسرائيلية فى هـذا اليوم ، وان كانت المقارنة الدقيقة ، بعد الحرب ، مما بيد التقارير السورية والمصرية لعشرين الف طلعة اسرائيلية اثناء الحرب تشير الى ان تلك الطلعات كانت تقريبا ضعف الحد الاقصى للقدرة الاسرائيلية وهى ١١ر٠٠٠ الف طلعة .

ان ارقام الطلعات الاسرائيلية متنوعة ، ولكن من الممكن تقديرها من التقارير الاسرائيلية للخسائر فى كل طلعة ، بانهم قاموا بالفعل باكثر من ١٠ر٥٠٠ طلعة ، وهـذا عـدد قريب جـدا للحد الاقصى للقدرة النظرية ، ومن المؤكد ان التقدير العالى للعرب يرجع الى التقارير المتعددة الوجهات .

مهمة باريليف الى القيادة الشمالية :

فى الصباح المبكر ليوم ٧ اكتوبر طار وزير الدفاع الاسرائيلى موشى ديان لزيارة الجبهتين ، ويبدو انه كان متاكدا جزئيا فقط من مزاعم جنرال جونين الهادئة التى ثبت بعد ذلك انه كان مبالغا فى تفاؤله ــ بان الجبهـة الجنوبية اصبحت هادئـة ، ولكنه صـدم بالموقف فى الشمال حيث اكتشف ان لواء باراك كان فى حالة انهيار ، وان السوريين فى حالة هياج فى طريق تاب ، وانه لا توجد قـوة متينةللحيلولةدون وصـولهم الى نهر الأردن وبحر الجليل .

عاد ديان بسرعة الى تل ابيب ، ليقدم تقريرا الى رئيسـة الوزراء جولدا مائير ، ويقال انه تحدث اليها بقوله :

« جولدا ، اننى كنت مخطئا فى كل شىء ، اننا علىوشك الوقوع فى كارثة انه يستعين علينا الانسحاب من مرتفعات الجولان . الى حافة الخندق المطل على الوادى وفى الجنوب فى سيناء الى الممرات والصمود حتى آخر طلقة » .

ولم يكن من فراغ ان تحدث رئيس الوزراء الأسبق بن جوريون عن جولدا مائير بوصفها « اقوى رجل فى حكومتى » . لقد تمعنت فى التقـرير المتشائم لديان ، ثم ناقشته مع أحد خلفائه كرئيس للأركان ، الجنرال المتقاعد حاييم بارليف الذى يشغل حاليا منصب وزير التجارة والصناعة ، وهى تحترمه لهدوئه وذكائه ، كان واضحا ان الموقف فى الشمال اكثر خطـورة منه فى الجنوب ، وان وقوع كارثة هناك ممكن ان تحدث تأثيرا مفجعا مباشرا على سكان الجليل ، وطلبت من بارليف أن يرتدى الزى العسكرى ويتـوجه الى مقر القيادة الشمالية كممثل لها لمعرفة ما يحدث ، ثم ليشير عليهـا بمـا يجب أن تقوم به هى والحكومة الاسرائيلية .

وافق بارليف على الفور مشيرا الى انه لا يمكن ان يتم مثل ذلك التعيين دون ــ على الأقل ــ ابلاغ كل من وزير الدفاع ديان ورئيس الأركان العازر ، بل الأفضل مشاورتهما ، وكان كلاهما متحمسا ، وذهبا الى حد تخـويل

بارليف سلطة اصدار اوامر الطوارىء باسم القيادة العلمة لجيش الدفاع الاسرائيلى اذا ما لزم الأمر .

وفى الساعة الثامنة من بعد ظهر ٧ اكتوبر وصل بارليف الى مقر القيادة الشمالية فى الجليل ، واتصل بجنرال هوفى على الفور ولاحظ الاداء الهادىء ، والمشوب باليأس ، لأفراد هيئة الأركان المنهكين والمكتئبين ، ووافق على الخطط التى تبنيها حوفى للانتشار المبكر لفرق الاحتياطى المتحركة التابعة للجنرال دان لانر وموشى بيليد ، وفى خلال هذه الفترة يتم الاستخدام التدريجى للاحتياط لتحرك عند وصوله . وبعد ذلك ، انطلق الى مقر رئاسة لانر — ثلاث دبابات وثلاث مركبات فى اقصى شمال بحيرة طبرية حيث تحدث باقتضاب الى رؤساء الأركان وكبار القادة .

وقد استطاع بارليف بوجوده ومقترحاته القليلة المجدية ، وتأييده العلم وموافقته على ما كانت تقوم به القيادة الشمالية من عمل ، استطاع ان يفعل الكثير فى اعادة تثبيت الروح المعنوية المتدهورة للقادة والأركان فى الشمال ، كما استطاع ايضا التوصل الى انه — رغم سوء الموقف بشكل خطير — من الممكن ، بل والضرورى ، وقف السوريين .

وبعد منتصف الليل طار بارليف عائدا الى تل ابيب ، ليقدم الى السيدة مائير تقريرا بما رآه والنتائج التى توصل اليها ، وشعرت رئيسة الوزراء بارتياح كبير لسماعها هذا القول من جندى ثبتت كفاءته ، ونثق فيه كل الثقة .

الملاحظات

(١) التقى المؤلف بأربعة من مراقبى الهدنة التابعين للأمم المتحدة الذين كانوا فى نقاط المراقبة بين الجيشين .

(٢) تشام هيرزوج ، حرب التكفير (تل ابيب ، ١٩٧٥) صفحة ١١٦ ، يجب ان تقبل بتحفظ تعليقات هيرزوج عن ديان فى هذا ، وفى امثلة اخرى ، فقد علم هذا المؤلف من مصادر موثوق بها على ما يبدو ان هيرزوج لم يقابل ديان ، وان مقتبساته لاقوال ديان انما هى منقولة عن آخرين .. يجب على القارىء ان يراجع على الأقل ما يريد ديان قوله فى كتابه « قصة حياتى » (تل ابيب ١٩٧٦) فلم يذكر ديان انه قابل رئيسة الوزراء بعد زيارته المبكرة للجبهة الشمالية (انظر من صفحة ٢٩٤ — ٢٩٦) ولكنه يذكر محادثة معها مؤخرا فى ذلك اليوم بعد زيارة الجبهة الجنوبية (انظر صفحة ٤٠٦) وانه ناقش بصراحة اجتماع الوزراء الذى ظنت فيه رئيسة الوزراء والوزراء الاخرون ان ديان فقد اعصابه ، ان رواية ديان تتفق ورواية جولدا مائير « حياتى » (لندن ٧٥) من ٣٦٠ — ٣٦١ .

(٧)

قريب جدا — ومع ذلك بعيد جدا

٧ — ٩ اكتوبر

دفاع يائس :

فى منتصف صباح ٧ اكتوبر كان الموقف المضطرب على جبهة الجولان غامضا امام قادة الخط الامامى فى كلا الجانبين ، ولو انه من المحتمل ان يكون لدى جنرال ايتان فى موقع قيادته فى نافخ صورة اكثر وضوحا بشكل طفيف ، مما كانت لدى الطرف السورى .

فى الشمال كان السوريون مسيطرين على نقطة مراقبة جبل هرمون الاسرائيلى ، وقد ردوا عدة هجمات مضادة من جانب اللواء الجولانى ، وعلى طول سلسلة جبل هيرمون فى اتجاه القنيطرة كان اللواء السابع الاسرائيلى يلاقى صعوبة قليلة فى رد الجهود المتواصلة للفرقتين مدرعات السابعة والتاسعة من المشاة السورية للتغلغل شمال وجنوب القنيطرة .

غير انه فى اقصى الجنوب تم تطويق بقايا لواء باراك ، او دفعها الى الخلف غربا فى اتجاه السد ، والى الشمال الغربى الى وسط الجولان فيما بعد الحسينية وفى اتجاه نافخ ، وكان اللواء يقاتل فى عدة عمليات دفاعية غير منسقة ومبعثرة ، لقد كان السبب الوحيد لعدم الانهيار الكامل لرجال ودبابات كولونيل بن شومان تحت الضغط هو الوصول التدريجى للتعزيزات ، ولعلم جنرال حوفى بالموقف اليائس على المرتفعات ، امر وحدات الاحتياطى بالتحرك على الجبهة طالما تكون مستعدة دون انتظار التركيز فى تشكيلات الكتيبة او اللواء ، وعندما وصلت السرايا والفصائل المنفصلة دفعها ايتان الى القطاع الجنوبى لتدعيم بن شومان .

وعلى الجانب السورى كان جنرال شكور يحول الفرقة مدرعات بين الجناح الأيسر للفرقة التاسعة والجناح الايمن للفرقة الخامسة ، وكان على الفرقة الأولى استغلال النجاح الذى تم تحقيقه ، ومواصلة الاندفاع الى الأردن ووديان الحولة عبر الحسينية ونافخ وجسر بنات يعقوب .

وبعد ظهر ذلك اليوم (الأحد) المقيت ، بقليل ، دمرت دبابة كولونيل ابن شومان ، وقتل غرب الحسينية مباشرة ، فى هذا الوقت كانت عناصر

من الفرقة الخامسة السورية قد وصلت تقريبا الى حافة الجرف المطل على بحر الجليل ونهر الأردن . وفى هذا الوقت نفسه تقريبا ، ايضا ، فى حوالى الساعة الواحدة والربع ، وصلت دبابات من الفرقة الاولى مدرعات الى مركز القيادة الاسرائيلى فى نافخ ترك جنرال ايتان — والذى كان يوجه المعركة الشمالية بهدوء — موقع قيادته لمراقبة العملية عن قرب ، وبعد ان اصاب دبابة سورية قادمة ببازوكا ، قرر ان هذا ليس هو المكان الذى يجب على قائد الفرقة أن يكون فيه ، فانسحب مع جماعة رئاسته المتقدمة نحو الشمال الى خط تاب ، وعلى بعد خمس كيلومترات تقريبا توقف واقام مركز قيادته فى العراء .

غير انه فى ذلك الوقت كان قد بدا وصول عناصر اكبر من فرقة احتياطية اسرائيلية تم تنظيمها على عجل بقيادة اللواء دان لانر الى جسر اريك وجسر بنات يعقوب ، وفى الساعة العاشرة صباحا كان قد عهد الى لانر بمسئولية الجزء الجنوبى من الجولان .

ارسل لانر اللواء ٧٩ مدرعات بقيادة كولونيل يورى اور لمساعدة ايتان وفك حصار نافخ ، ووصلت بعض دبابات هذا اللواء الى الجانب الجنوبى الغربى لموقع نافخ بعد انسحاب ايتان ببضع دقائق ، بينما السوريون كانوا لا يزالون محجوزين بقوة صغيرة مختلطة ظلت فى نافخ بعد الانسحاب، عندئذ وقعت معركة مدرعات عنيفة بين العناصر القيادية فى لواء اور واللواء ٥١ مدرعات من الفرقة السورية الاولى مدرعات ، ودارت المعركة المريرة حول منطقة نافخ خلال الساعات المتبقية من النهار ، ولكن عندما حل الظلام كان الاسرائيليون قد امنوا موقع نافخ ، واصبح اور قادرا على ارسال عناصر لوائه فى الشمال ، الحديثة الوصول ، فى اتجاه القنيطرة ، لتاخذ مكانها فى الجناح الأيمن للواء السابع مدرعات .

فى هذه الأثناء كان لانر مركزا اهتمامه على خطر تقدم الفرقة السورية الخامسة نحو بحر الجليل ووادى الحولة الادنى ، وكان فى استطاعته من مركز قيادته فى الشمال الغربى للبحيرة مباشرة رؤية الدبابات السورية من وقت لآخر على المرتفعات الموجودة على بعد اقل من خمسة كيلومترات من السد ، وكان قد أصدر اوامر سابقة للألوية فى فرقته بارسال وحدات الى الأمام فى فصائل فور استعدادها دون انتظار لتجميعها فى سرايا او كتائب . وباقتراب وحدات من دبابتين او ثلاث من جسر اريك شمال بحيرة طبرية مباشرة حيث كان لانر قد اقام مركز قيادته المتقدمة لثلاث سيارات نصف مجنزرة ، تركها فى احد مناطق الالوية الثلاثة التى كان قسم قطاع فرقته اليها وارسلها الى اعلى السد عن طريق احد الطرق الثلاثة الملتويه التى تؤدى شرقا من الجسر : الطريق الى يهودا فى الشمال ، والطريق الى جوهارد فى الوسط واعلى مرتفع جاملا الى جيفات يوف والعال .

وعند الظهيرة كان لدى لانر ما بين ٥٠ و ٦٠ دبابة تعمل على جبهته ، بما فى ذلك اقل من عشرين من الدبابات المتبقية من لواء باراك ، كانت تلك

الدبابات تعمل فى ذلك الوقت بوصفها ثلاثة الوية ، علما بأن كل واحدة منها لم تكن قوتها تزيد بالكاد على قوة سرية ، وباستيلاءها على آخر ارض مرتفعة شرق السد مباشرة ، اشتبكت هذه الدبابات فى معركة يائسة مع دبابات الفرقة الخامسة للمدرعات السورية بشجاعة الى الامام ليتصدى لهـا ويوقف اندفاعها ، مدافعون على نفس المستوى من الشجاعة والاصرار الذين اصبح لهم مع الغسق ٩٠ دبابة منتشرة : ٤٠ على اليسار و ٣٠ فى الوسط و ٢٠ على اليمين .

فى هذا الصراع المرير اجتمعت اقوى واضعف القوات السورية معا لتعمل ضدهم ، وبوعى ، وذلك لهزيمتهم فى عام ١٩٦٧ ، فكان السوريون جميعهم اعتبارا من القائد الى الجنود العاديين مصرين على عدم التقهقر مهما كانت الظروف الا اذا كان ذلك بأوامر من قادة اعلى ، وكان هذا يعنى انه عند اصطدام المهاجمين بالمقاومة الاسرائيلية العنيدة كانوا خائفين من الانسحاب حتى لمسافة بضعة مئات من الأمتار من اجل أهداف المناورة ، واعادوا تشكيل انفسهم ، ببساطة ، واندفع الأحياء منهم الى الأمام مرة اخرى بجهود نشطة — ومثمرة فى اغلب الأحيان — لشق طريقهم عبر خطوط الدفاع الاسرائيلية . ومن المؤكد ان هذا الدليل على الاصرار والشجاعة السورية لاحظها الاسرائيليون الذين انقلب احتقارهم السابق للسوريين الى احترام مشوب بالتذمر .

ومع ذلك فقد استفاد الاسرائيليون كثيرا من هذا المؤشر السورى الشجاع ، كما استفادوا ايضا من عدم القدرة الواضحة لكبار القادة السوريين — من مستوى الكتيبة الى مستوى الفرقة — على تنسيق هذه الهجمات الانتحارية ، وكان من نتيجة ذلك انه قبل انتهاء اليوم كانت تتناثر على الجولان الجنوبى من نافخ الى وادى اليرموك حوالى ٢٥٠ دبابة سورية مدمرة ومهشمة ، منها ١٥٠ كانت امام الفرقة البديلة لفرقة لانر .

كان الطابور الأول للواء السابع مدرعات لا يزال فى حالة اشتباك عنيف شمال القنيطرة ، مع مواصلة المعركة الرئيسية فى الوادى بين جبل هيرمونيت وتل المخافى ، وفى منتصف ما بعد ظهر ٧ اكتوبر كان هناك ما يقرب من ٢٠٠ دبابة سورية ، ومركبات محطمة ومهشمة مبعثرة عبر الوادى ، وكان لدى كولونيل بن جال كتيبتان مدرعتان فقط والمشاة الميكانيكية التابعة له ، فقد تم ارسال كتيبته الأخرى من القنيطرة الى الجنوب لمساعدة ما تبقى من لواء باراك لتبطئة اندفاع الفرقتين الخامسة والتاسعة السورية، واصبحت قوات بن جال مرهقة ولكن الأخطر من هذا انها بدات تعانى من نقص فى الذخيرة والوقود ، وتحت وابل نيران المدفعية المستمرة ، وكذا الضغط المستمر من جانب الدبابات السورية ، وتغلغل وحدات المشاة اصبحت الفرصة أمام دبابات اللواء السابع مدرعات السريعة الحركة ، والسريعة فى اطلاق النيران ، فرصة ضئيلة فى سد النقص فى وقودها أو ذخيرتها وحتى الظلام لم يعط فرصة كبيرة للراحة ، اذ واصل السوريون ضغطهم طوال الليل .

رغم ادراك جنرال حوف بتفاقم الموقف الخطير للواء السابع مدرعات شمال القنيطرة ، الا انه كان اكثر قلقا على الجنوب ، حيث ابيد لواء باراك بالفعل ، وان كان وصول التعزيزات على فترات قد حال على ما يبدو دون تحقيق السوريين للنصر . وهكذا ركز حوف — وايتان ولانر بالمثل — جل اهتمامه على توجيه وحدات الاحتياط القادمة الى الأماكن حيث التهديد السورى أقـوى .

الفرصـة الضائعة :

بالنسبة للسوريين ، يبدو ان كلا من الجنرال على اصلان من الفـرقة الخامسة مشاة وكولونيل توفيق جوهنى الذى كان يراس الفـرقة الأولى مدرعات ، قد ادركا فرصتهما وواصلا جهودهما للوصول الى الجسـور الأردنية والشواطىء الشرقية لبحر الجليل ، واعتقد ان الأمر لن يحتاج الى مزيد من الضغط لتهشيم فرقة لانر ، او لواء اور التاسع والسبعين والوصول الى جسر بنات يعقوب ، وحاولا ممارسة هذا الضغط ، ولكن الدفـاع الاسرائيلى كان « مستقتلا » وفى كل مرة كان يحقق فيها الاختراق السورى تفوقا ، كان لانر وايتان يدفعان بسرايا او فصائل الاحتياط التى وصلتهما مؤخرا لسد الثغرة .

كان هناك ، بعد الحرب ، تكهنات بين المراقبين الأجانب ، وداخـل قوات الدفاع الاسرائيلى نفسها ، حول اسباب عدم قدرة السـوريين على الاختراق . وترجع الأسباب المختلفة للفشل السورى الى الجهـود التى وصلت الى حد التضحية بالنفس للقوات الجوية الاسرائيلية ، والى انهيار النظام السورى الخاص بنقل الجنود وايوائهم وتموينهم ، والى عدم الكفاءة السورية بصفة عامة وفشلها فى ادراك درجة اقترابها من النصر .

انه لا يمكن انكار مساهمة القوات الجوية الاسرائيلية فى ابطاء التحرك السورى ، وان كان التفتيش الدقيق ، بعد الحرب ، على الدبابات السورية التى تم العثور عليها فوق الجولان لم يكشف عن وجود دليل قاطع على ان اى منها تحطم بالأسلحة الجوية ، وعلى كل فان الضربات الجوية هى التى حالت دون وصول المؤن وقوافل الوقود ، كما ساهمت الغـارات الجوية المستمرة فيما حدث للسوريين من حذر وارتباك ، ولكن الذى أوقف الهجوم السورى ، اساسا ، هو القتال المـاهر المستميت من جانب وحـدات الدبابات الاسرائيلية .

وعند منتصف بعد ظهر ٧ اكتوبر ، ومع وصول بعض الوحدات بالفعل الى مرمى من الاردن وبحر الجليل ، توقف الهجوم السـورى . ولـكن الاحتياطى الاسرائيلى المتحرك استمر فى الوصول ، وعند منتصف الليـل كان هناك خط ضيق مستمر من القوات الاسرائيلية يحول دون اى تقـدم

آخر لرؤوس الجسـور السورية ، وحاصرت القوات الاسرائيلية ، عنـدئذ ، خط انابيب البترول « تاب » وأصبحت قريبة من ادارة الجمرك الفرنسى القديم فوق جسر بنات يعقوب واستولت باحكام على يهودا على السد فوق بحـر الجليل والعال الى اقصى الجنوب والشرق .

ومع صباح الثامن كان الاسرائيليون قد اخذوا بزمام المبادرة فى وسط وجنوب الجولان ، فكان لواء أور الدى كان يشكل عندئذ الجنـاح الأيمن لفرقة ايتان ، فى طريقه شرقا ، بصفة عامة ، فى اتجاه عين زيفان وسنديانا ورامتانيا . وكان هذا التقدم بالتنسيق مع التحرك الموازى تقريبـا للواء مدرعات السابع عشر لكولونيل ران ساريج على يسار فرقة لانر من خلال كوزابيا وعبر خط « تاب » فى اتجاه الحسينية ، وانضمت الى هذا الهجوم الذى بدأ حوالى الساعة الثانية ظهرا ، فرقة اللواء موشى بيليد بثـلاثة الوية مدرعات ، تمركزت اثناء الليل والصباح المبكر فى جنوب بحر الجليل ، كانت الألوية الرابع عشر والتاسع عشر على يسار بيليد تتسلق فى اتجاه الشرق من عين جيف عبر الممر المتشعب لمرتفع جاملا عبر جيفات يواف ، كما كان اللواء العشرون فى اقصى الشرق على الطريق الرئيسى المتجهـة الى الشمال عن طريق العـال .

اصبح تقدم لانر من اليسار وبيليد من اليمين يهدد الفرقة الخامسـة السورية بتطويق مضاعف ، ولمـا كان هناك اكثر من لواء مشـغول فى محاصرة المواقع القوية للمشاة الاسرائيلية على طول الخط الارجوانى ، وكان كل ما تبقى من قواته مشغولا بالهجمات التى كانت على وشـك النجاح بعد ظهر اليوم السابق ، لم يتبق لدى اللواء على اصلان قائد الفرقة الخامسة ، اى احتياط ليعمل به على صد اى من التهديدات بالتطـويق ، فاخبر جنرال شكور بموقفه وخولت له سلطة الانسحاب ليشكل خطـا جديدا عبر الجولان الجنوبى من الحسينية عن طريق تاهال جيشـور الى تل ساكى ، وبعد ان اتم هذه الحركة فى مستهل ما بعد الظهيرة ، واعاد تموين دباباته المتبقية ، بالوقود والذخيرة عهد اليها ، للقيام بجهـد آخر ، لاستعادة المبـادرة .

وفى نفس هذا الوقت تقريبا عهد كولونيل توفيق جهنى قائد الفـرقة الأولى مدرعات الى آخر للقيام بجهد آخر للوصول الى نافخ ، ونشب مرة اخرى قتال عنيف حول وعلى طول الطرق فى الجولان الأوسط والجنوبى ، ولكن الاسرائيليين ما كانوا ليتخلوا عن المبادرة .

وفى المساء وبعد معركة كانت سجالا استولى اللواء التاسع والسبعون لاور على سنديانا وامنها ، ووصل لواء سـاريج الى خط « تاب » غرب الحسينية ، واستولت طلائع الوية فرقة بيليد على رامات ماجشيميم ، وكانت تهاجم منطقة دفاع سورية مضادة للدبابات أعدت على وجه السرعة ، وان كان الأعداد قويا ، وكانت تلك المنطقة ممتدة شمالا بصفة عامة من تل ساكى الى جوهادر .

محنـة اللواء الســابع :

استمر هجوم الفرقة السابعة من المشاة الســورية ضـد اللواء السابع الاسرائيلى بدون هدوء ، ومع نهاية ٨ اكتوبر كان ذلك اللواء بكل النجاح الذى أحرزه على المرتفعات شمال القنيطرة ، وبكل الخســائر المهولة التى انزلها بالسوريين ، كان ذلك اللواء فى حالة ارهاق كامل ، وسحب عمر ابراشى قائد اللواء السورى للفرقة السابعة الوحدات المستنزفة فى طابوره الأول ، ودفع بطابوره الثانى الى القتال واضعا فى خطته الاستفادة من تفوق المعدات السورية للرؤيا الليلية ، غير انه عند الغسق وعندما كان يعد دباباته لتجديد الهجوم اصيبت دبابة القيادة الخاصة بابراش واشتعلت فيها النيران وقتـل .

كان موت ابراش — وهو قائد شجاع ، خـريج كلية قادة واركان الجيش الأمريكى فى فورت ليفنوورث كانساس — كان بمثابة كارثة على الجيش السورى ، وتأجل الهجوم المخطط له حتى الصباح ، وحصلت قوات ابن جال المرهقة على فترة من الراحة .

وعندما وقع هجوم الطابور الثانى من الفرقة السابعة ، بعـد فجر التاسع بقليل ، مع الشك فيما اذا كانت له نفس القوة التى كان وجود ابراش سيضمنها ، ورغم المساندة من الجانب العظيم والتركيز الدقيق للمدفعية ، والتى كانوا قد وزعوها شمال القنيطرة حوالى الساعة التاسعة صباحا ، شقت وحدات الفرقة السابعة مرة اخرى طريقها عبر وادى الدموع فى اتجاه المرتفع العالى بين جبل هيرمونيت وتل المخاق . كانت نيران المدفعية مدمرة للغاية لدرجة انه فى حوالى الساعة التاسعة صباحا امر بن جال دبابات الكتيبة ٧٧ للواء اوجيدور كالنى بالانسحاب على امل ان يساعده ذلك على استعادة ارض القيادة فوق المرتفع بعد دفع حصار نيران المدفعية قبل ان يستطيع السوريون تلقيها بالفعل ، ولكن السوريين كانوا مسرعين للغاية ، واستولوا على القمة ، وواصلوا سيرهم بسرعة فوقها وطوقوا باقى كتيبة كالنى ، ولبرهة وجد اللواء السابع نفسه او ما تبقى منه يحارب اعداء من جميع الاتجاهات .

وفى حوالى الساعة العاشرة صباحا اتصل بن جال الذى لم ينم منذ صباح ٦ اكتوبر ، بايتان عن طريق اللاسلكى لابلاغه انه يشك فى قدرته على الصمود ، وعندما حاول ايتان تشجيع بن جال رد عليه بهـدوء ، ولكن بغباء واصفا موقف لوائه : « اصمد ، انيجدور ، اصمد .. » كان هذا توسل ايتان لقائد لوائه عن طريق اللاسلكى (ومن الطريف ان ايتان لم يستخدم الاسم المستعار لبن جال وهو « يانوش ») وقال له : امنحنى نصف ساعة اخرى ، ستلقى تعزيزات فورا .

ولكن الموقف الاسرائيلى شمال القنيطرة كان يزداد سوءا فى الدقائق القليلة التالية . نجاة طارت عشر طائرات هليكوبتر سورية او اكثر فوق مرتفع تل المخاق بهيرمونيت وفوق معركة الدبابات هناك الموجهـة غربا

فى اتجاه الروم . وفى نفس الوقت تلقى مركز قيادة ايتان خبرا بان المشاة السوريين تقترب من البقعة ، شمال الروم مباشرة ، وبناء عليه لو اخترقت دبابات الفرقة السابعة بقايا اللواء السابع ، على نحو ما كان يبدو محتملا فى ذلك الحين ، لاستطاعت ضم قوة مشاة هامة فى منطقة بقعـة الروم ، دون ان يكون هناك ما يمنعها من الوصول الى دان وقرية شيمونة .

طالب ايتان بالقيام بهجمات جوية على المشاة المغيرين ، وارســل لاستدعاء كتيبة من لواء جولانى فى اقصى الشمال فوق منحدرات جبــل هيرمون فى محاولة لدفع السوريين الى اسفل .

فى هذه اللحظة كانت بقايا لواء باراك وهى عبارة عن قوة قوامهـا ١١ دبابة ، كان المقدم يوسى بن تشانين قد اعاد تنظيمها على التو اســفل الســد ، تتحرك الى الخلف الى منطقة فرقة ايتان شمال القنيطــرة ، ووضع ايتان على وجه السرعة ، بن تشانين تحت قيادة بن جال ، ليتركه يتحرك فى اتجاه الشرق فى وسط معركة الدبابات المضطربة الدائرة فى ذلك الحين غرب المرتفع القائم بين تل المخاق وجبل هيرمونيت مباشرة ، ووصل بن تشانين ودباباته الاحدى عشرة فوق مرتفع تل المخاق ، وضرب الجناح الأيسر للواء الدبابات السورى ، عندما كان يقترب من الدبابات السبع المتبقية من لواء بن جال ، ارتد السوريون وان كان بن جال متــأكدا من عودتهم ، واتصل مرة اخرى بايتان وقال : انه يشك فى قدرته على الصمود اكثر من ذلك حتى مع وجود هذه التعزيزات من جانب لواء باراك .

فى هذه اللحظة بالضبط تقريبا ، تلقت قيادة ايتان رسالة باللاسلكى من الحصن الاسرائيلى القريب من الاحمدية حيث كانت الفرقة الســابعة السورية قد قامت بأول اختراق لهــا ، وافاد الحصــن بأن قوافل الامداد السورى فى حالة انسحاب ، وان دباباتهم فى حالة تقهقر من فوق مرتفــع وجوانب جبل هيرمونيت ، ولم يمض وقت طويل بعد هذا ، الا وكانت المشاة السورية بالقرب من البقعة قد بدأت فى التقهقر ، وانتهت المعركة .

نسى جنود اللواء السابع بقيادة بن جال وكالنى ارهاقهم ، واندفعوا الى أعلى المرتفع ، وتعقبوا السوريين المتقهقرين أثناء ما كانت المدفعيــة الاسرائيلية ايضا تضرب الطابور المنسحب ، تحدث ايتان مع بن جال ورجاله عن طريق اللاسلكى فقال : « لقد انقذتم شعب اسرائيل » . فرد بن جال بدوره على كالنى عن طريق اللاسلكى بقوله : « انت المنقذ الحقيقى لشعب اسرائيــل » .

من المؤكد أن ما حدث هو أن الدفاع القوى الذى اقامه اللواء السابع فى اليوم السادس والسابع والثامن قد جعل ايتان وهوفى يفترضان انه فى استطاعة بن جال ورجاله الاستمرار الى ما لا نهـاية ، وركز الجنـرالات اهتمامهم على المناطق التى كانت تبدو انها اكثر تعرضا للخطر بشكل خطير ،

كان هوفى مهتما اساسا فى دفع فرق لانر وبيليد لاستعادة الأرض التى فقدها لواء باراك فى السادس والسابع .

كان اهتمام ايتان منصبا على قيام اللواء ٧٩ بالاستيلاء على نافخ ، فى الوقت الذى يتم فيه اعادة تنظيم وتجهيز بقايا لواء باراك ، حيث كان الكثير من دباباته اعيد اصلاحها بأسرع ما يمكن ، وعادت الى العمل مع اللواء السابع ، وفى الثامن كان ايتان ايضا مرتبكا من جراء المحاولة الفاشلة التى قام بها اللواء الجولانى لاستعادة نقطة مراقبة جبل هيرمون ، وكانت النتيجة ان اصبح الموقف فى الجنوب على ما كان عليه ، ولكنه فى الشمال اصبح كارثة اخرى تقريبا .

تقاتل السوريون والاسرائيليون الى ان توقفوا على منحدرات جبل هيرمونيت وتل المخافى . فى هذا الوضع كان التدريب المتفوق ومهارة القتال لجنود الجيش الاسرائيلى النظامى ، وموت الجنرال السورى بمثابة الحد الفاصل بين النصر والهزيمة .

وفى نهاية المعركة كان الوادى الصغير بين الأحمدية والمرتفع مليئا بحوالى ٣٠٠ دبابة سورية ، واكثر من ٢٠٠ عربة مصفحة من مختلف الأنواع .

عودة الى الخط الارجوانى :

وفى مساء التاسع ، وعلى مكان آخر على الجبهة كانت فرقة لانر قد وصلت الى خط وقف اطلاق النار القديم بجوار تل حازيكا ، واستولت على رامتانيا ووصلت الى الحسينية ، وكانت فرقة بيليد قد رفعت الحصار عن معظم الحصون المحاصرة فى الجولان الجنوبى بما فى ذلك التحصينات فى تل فاريس ، ووصلت الى الخط الارجوانى ، وما هو ابعد من ذلك قليلا فى اماكن عديدة ، لم يكن التقدم سهلا ، وكانت الهجمات المضادة السورية متتالية وضارية .

وفى يوم الأربعاء ١٠ اكتوبر كانت الفرق الاسرائيلية الثلاث على الجولان قد واصلت ضغطها البطىء الى الأمام نحو الخط الأرجوانى . وتمتع اللواء السابع بنوم هادىء بالليل ومع اعادة اصلاح عدد من دباباته المصابة اصابات طفيفة ، وعودتها مع بعض اطقمها الأصليين وبدائلها ، واصبح اللواء مرة اخرى قوة مقاتلة ، وكانت جماعة تشانين المنبثقة من لواء باراك قد اصبحت فى ذلك الوقت قريبة من قوة كتيبة ، وتشكل جزءا من لواء بن جال ، وفى اثناء النهار ، كانت قد استردت بشكل مذهل وحدات كانت مدفوعة خلف الخط الارجوانى فى اماكن كثيرة .

ونسق احد الوية بيليد مع فرقة لانر فى تطويق تم تدمير بقايا لواءين سوريين بالقرب من الحسينية ، ثم اكملت الفرقتان بعد ذلك ، تحركهما على الخط الارجوانى .

(٨)

السهل الدمشقى

١٠ — ١٣ اكتوبر

قرار اسرائيلى :

كانت هناك خلال يوم ١٠ اكتوبر تطورات اخرى مؤثرة على الجبهة الشمالية : دخلت العراق الحرب رسميا ، معلنة الالتزام الكامل لقواتها الجوية للمجهود الحربى ، وقد تم تحريك حوالى ١٠٠ طائرة عراقية الى قواعد متقدمة فى العراق الغربى ، ومعظمها الى ت — ٣ على خط البترول القديم لحيفا ، شرق المفرق ، وكان اكثر من ١٨٫٠٠٠ رجل وعدة مئات من الدبابات تتقدم راسا الى جبهة الجولان .

فى نفس ذلك اليوم اعلنت الأردن ايضا انها كانت تستدعى الاحتياطى وتحشد مصادرها للمجهود الحربى ، وبدأ الفدائيون الفلسطينيون فى جنوب لبنان الاستفادة من تركيز القوات الاسرائيلية على الجبهة السورية ، فكانت هناك عدة غارات على طول الحدود اللبنانية واطلق حوالى ٢٥ صاروخا سوفيتيا طراز كاتيوشا وبازوكا على المستوطنات المدنية من جانب الفدائيين الفلسطينيين فى لبنان ، وكانت كريات شيمونا هى الهدف الرئيسى كما فشلت ايضا فى ذلك اليوم محاولة من جانب لواء آخر لاسترجاع نقطة مراقبة جبل هيرمون .

فى تلك الليلة اجتمع فى تل ابيب كبار ضباط اركان الحرب الاسرائيلية لتقرير ما اذا كان يتحتم عليهم تعزيز المواقع على طول الخط الارجوانى ، او مواصلة مهاجمة سوريا : جلس ديان وزير الدفاع فى المؤتمر ، واعرب عن بعض التحفظات حول التقدم ، حيث أن رد الفعل السوفييتى ازاء التغلغل الاسرائيلى لسوريا لم يكن متوقعا . غير ان العازر اصر على ان مواصلة الهجوم امر اساسى من أجل تحييد سوريا ، ولعدم تشجيع اشتراك الأردن ، وكسب الوقت لالتقاط الأنفاس واتاحة الفرصة لاسرائيل لتركيز جهودها ضد مصر ، لم يعارض ديان ذلك ، ولكنه شعر ان هذا القرار يجب ان تتخذه مائير رئيسة الوزراء .

وبعد الاستماع الى المجادلات وافقت مائير على خطة العازر لمواصلة

الاندفاع الى سوريا ، واصدر رئيس الأركان الاوامر وفقا لذلك . وكان يتعين
بدء الهجوم فى وقت مبكر قدر الامكان فى اليوم التالى .

على على الاسرائيليين الاختيار بين ثلاثة احتمالات رئيسية كبدائل :
التقدم من الجزء الشمالى من الجولان مباشرة نحو دمشق وميزته فرض
أكبر تهديد مباشر للعاصمة السورية ، وسيكون الجناح اليسارى للقوة
المهاجمة محميا من جانب جبل هيرمون ، ومن ثم لا يمكن ان يتعرض ذلك
الجناح للتهديد من جانب اى عملية سورية مسلحة .

وكان البديل الثانى هو الاندفاع شرقا جنوب دمشق لقطع طريق
دمشق — ديرا ، من اجل تهديد العاصمة السورية من الجنوب والشرق ،
وميزة مثل هذا التحرك هى تجنب الحشود المكثفة للدفاعات السورية
جنوب غرب دمشق ، وان كان سيخلق خط امدادات طويلة معرضة للخطر،
وكان يتعين الموازنة بين هذا فى مقابل المميزات التى تتحقق نتيجة قطع
الاتصالات البرية مع الأردن والعراق ، وكان الاختلاف الملفت للنظر لهذا
البديل هو تطويق الفرقة التاسعة والفرقة الخامسة السورية من الشمال،
على طول الخط الارجوانى الأوسط والجنوبى .

وكان البديل الثالث هو التقدم على طول الجبهة كلها لكسب مزيد
من الأرض وزيادة عمق النتوء الاسرائيلى فى سوريا ، ومن شأن هذا
تصعيب عملية هجوم سورى مقبل للوصول الى وادى الأردن ، وان كان
من المحتمل ان تتطلب قوة احتلال كبيرة فى فترة ما بعد الحرب .

واختار جنرال حوفى — بموافقة رؤساء الأركان — البديل الأول من
الثلاثة بدائل ، وفى صباح يوم الخميس ١١ اكتوبر كان على فرقة ايتان
وفرقة لانر الاندفاع راسا الى الشمال الشرقى بينما يعززهما من يمينهما
بيليد على طول الخط الارجوانى وكان على فرقة ايتان على اليسار القيام
اولا بالجهد الأساسى ، ولكن ما ان يتم الاختراق الا وعلى لانر استغلاله:
اما بالمرور عبر ايتان او الاندفاع للقيام باختراق منفصل على طول الطريق.

عبر الخط الارجوانى :

فى صباح يوم الخميس الحادى عشر اندفعت اربعة رؤوس حراب
مسلحة اسرائيلية عبر الخط الارجوانى الى خط الدفاع السورى الرئيسى،
وكان هذا الخط الذى تم بناؤه تحت اشراف السوفييت بعد حرب ١٩٦٧
عبارة عن منطقة يتراوح عمقها ما بين سبعة الى خمسة عشر كيلومترا
ذات سدود متماسكة بشكل قوى متصلة بواسطة خنادق ، ومحاطة بالغام
واسلاك شائكة ، وكانت المواقع الامامية لهذه المنطقة — المحصنة بحقول
الالغام وخنادق مضادة للدبابات — تقع على مسافة تتراوح ما بين بضعة
مئات من الامتار وبين ثلاثة كيلومترات شرق خط وقف اطلاق النار ، وكان

هذا الخط على يمين جبل هيرمون ، وعلى يسار وادى اليرموك الصخرى
الضيق الذى يتميز باستحالة المرور فيه مثله فى ذلك مثل جبل هيرمون .

كانت راس الحربة الاسرائيلية الشمالية وهى كتيبة ٧٧ للواء السابع
مدرعات المجدد ، تتحرك بوجه عام فى اتجاه الشمال الشرقى على طول
انتلال السفلى لجبل هيرمون نحو حادر ومازرات بيت جان .

وعلى بعد بضعة كيلومترات الى الجنوب كان هناك بقايا لواء باراك،
التى اصبحت فى ذلك الحين كتيبة فى اللواء السابع مدرعات ، وكانت
لا تزال تحت رئاسة الكولونيل بن تشانين ، وكانت مهمته الاندفاع فى
اتجاه الشرق عبر جوبات وحاليس للاستيلاء على التل الرئيسى فى تل
شمس ، وبدأ تقدم هاتين الكتيبتين الساعة الحادية عشرة صباح يوم
١١ اكتوبر .

كان فى مواجهة كتيبة خالتى السابعة والسبعين ، امام حادر اللواء
المغربى تعززه حوالى ٤٠ دبابة سورية ، كان فى جنوب المغاربة مباشرة
البقايا المبعثرة للواءى الفرقة السابعة السورية مشاة ، والتى تم اعادة
تنظيم جزء منها فقط . وكان اللواء الثالث لتلك الفرقة ، وهو اللواء ٦٨
مشاة بقيادة الرائد رفيق حلاوة وهو ضابط درزى ، كان هذا اللواء فى
الاحتياط ومنتشرا جنوب حادر مباشرة .

وفى وقت متأخر من بعد الظهر اخترقت كلا راسى حربة بن جال
المقاومة الى جبهتهما مباشرة : ففى الوقت الذى استولى فيه الطابور
اليسارى للواء السابع على مفترق طرق حادر ، هدد الرائد حلاوة بجناحه
الأيمن ، وتحركت كتيبة باراك وهددت بتطويق يساره ، فحاول القيام
بهجوم مضاد فقتل ، وتقهقر اللواء ٦٨ فى حالة اضطراب ، ورقى حلاوة
الى رتبة قائد لواء اعترافا بشجاعته(١) .

وبعد مرور ساعتين على بدء هجوم اللواء السابع مدرعات ، اندفعت
فرقة لانر فى اتجاه شرق القنيطرة على طول الطريق الرئيسى لدمشق ،
وصمم لانر الذى كان مستعدا للانتقال شمالا ليتبع ايتان ، قرر القيام بمحاولة
اقتحام الطريق مستخدما لواء ساريج السابع عشر كراس حربة له على
ان يغطيه لواء اوور التاسع والسبعين (الذى كان قد عاد عندئذ تحت
قيادة لانر) .

كان ساريج قد توقف على التو تقريبا بفضل المقاومة السورية واعمالها
الدفاعية المعدة بعناية ، وسرعان ما فقد عشرين دبابة ، وفى الوقت الذى
كان لانر يجادل حول أفضل طريقة لسحب اللواء من موقعه الخطير تسلم
ساريج الاحتياطى التابع لقيادته ، واخترق الطريق الى مفترق طرق خان
ارنبه ، واستغل لانر ، على التو ، ارسال لواء أوور عبر خان ارنبه ،
وتبعه باللواء التاسع عشر الذى كان قد تم نقله من فرقة بيليد ، وفى
الوقت الذى اندفع فيه اللواء التاسع والسبعون نحو الشمال الشرقى ،
تحرك اللواء التاسع عشر الى جنوب شرق جابا ليستولى على الأرض
المرتفعة فى تل شعر .

وعلى ضوء ذكريات عام ١٩٦٧ توقع الاسرائيليون انهيار السوريين وفرارهم نتيجة لتلك الاختراقات . ولكن سرعان ما خاب ظنهم .. ورغم الاضطراب الذى احدثته الدبابات الاسرائيلية بدمدمتها عبر وحول مواقعهم، واصلت الفرق السابعة ، والتاسعة والأولى من المدرعات السورية المنهكة من المعركة دفاعها ، وانسحابها .. بأسلوب منظم عندما تلقت الاوامر بذلك مستغلين كل فرصة مرور ممكنة لاستخدام صواريخهم من طراز ساجر وآر. بى. جيه — ٧ ، ومع تغطية الانسحاب العنيد ، تحركت الفرقة الثالثة مدرعات بسرعة الى الخلف الى خط دفاع ساسا جنوب غرب دمشق .

غير ان القيادة العليا السورية اصيبت بذعر عميق عند انقلاب الأوضاع، ومما سبب المزيد من الذعر فقدان : حوالى ١٠٠٠ دبابة فى خمسة ايام من المعركه . فطار بعد ظهر ١١ اكتوبر الى القاهرة ضابط كبير ليطلب من المصريين تصعيد الهجوم لتخفيف الضغط الاسرائيلى على الجبهة السورية، فكان من المهم جدا تخفيف العقاب الذى كانت سوريا تتلقاه من القوات الجوية الاسرائيلية .

الهجوم الجوى الاسرائيلى :

لقد كان هناك خلال الأيام الثلاثة السابقة تغيرا جوهريا فى الموقف الجوى فوق الجبهة الشمالية ، ففى السادس والسابع عانى الاسرائيليون من خسائر فادحة فى قوات الدفاع الجوى السورى : واسقطت صواريخ سام الطائرات الاسرائيلية التى كانت تطير على ارتفاعات كبيرة ، واسقطت الصواريخ زد. اس — يو ٢٣ و ٤ الطائرات التى كانت تطير على ارتفاع منخفض ، غير أنه فى يوم ٨ اكتوبر كان الاسرائيليون قد بداوا جهدا منظما لتحطيم شبكة سام السورية ، وكان هذا يعنى انهم قللوا جهدهم فى تقديم التعزيز الوثيق للقوات الأرضية الاسرائيلية ، الذى لم تكن له ، فى اية حال ، فعالية كبيرة ، والذى تمخض عن خسائر فادحة .

فركزوا كل جهودهم تقريبا اعتبارا من ٨ اكتوبر على مواقع الصواريخ مستخدمين فى ذلك مختلف اساليب المراوغة ، وبداوا تدريجيا بمحو قوة مظلة سام فوق الجبهة السورية ، وفى اليوم الحادى عشر تحطم عدد من صواريخ سام السورية ، وأجبروا على تغيير مواقع عدد اكبر منها ، وتعرضت الفعالية المتكاملة لشبكة سام لاضرار جسيمة ، وكان من نتيجة ذلك ان اصبحت الطائرات الاسرائيلية قادرة على استئناف مهامها فى التعزيز المحكم الفعال ، وكذا مواصلة جهدها فى قمع باقى شبكة سام .

وفى يوم ٩ اكتوبر بدات القوات الجوية الاسرائيلية نوعا آخرا من النشاط الجوى ضد سوريا ، وفى السابع والثامن ضربت الصواريخ السورية من طراز فروج ارض ارض ، وسط الجليل ، دون تمييز ، مما جعل

الاسرائيليين يعتقدون ان هذا عمل من اجل انزال الرعب فى قلوب المدنيين من سكان الجليل ، والواقع ان السوريين كانوا يحاولون ضرب القواعد الجوية مثل : قاعدة : رامات ديفيد ، ولكن نيرانهم لم تكن دقيقة بشكل كبير .

ويبدو ان القوات الجوية الاسرائيلية بدات حملة تكنيكية مكثفة طويلة المدى للقذف الجوى ضد سوريا كانتقام عنيف : فهاجمت الطائرات الاسرائيلية بطلعات واسعة النطاق الموانى ومستودعات الذخيرة ، ومصانع القوى الكهربائية والمرافق الصناعية السورية فى أنحاء كثيرة من سوريا ، وفى العاشر هاجمت الطائرات الاسرائيلية وزارة الدفاع السورية فى دمشق وضربتها بالصواريخ ، مما ادى الى وقوع خسائر قليلة ، وحطم هذا الهجوم عددا من المنازل المدنية المجاورة ، وكان من بين القتلى عدد كبير من الروس ونرويجى واحد باسرته من مراقبى الأمم المتحدة ، وعندما راى السوريون ان الاسرائيليين لم يحدثوا الا اضرارا طفيفة فى هدفهم الرئيسى — وزارة الدفاع — اعتقدوا ان هذه الغارة هى اساسا من اجل اثارة الذعر .

واستمرت الحملة الجوية فى اليوم الحادى عشر بعدد من الهجمات ضد المراكز الاقتصادية والقواعد الجوية السورية ، فطلب السوريون من المصريين بذل جهد كبير على جبهة سيناء ، على أمل سحب الطائرات الاسرائيلية بعيدا ، ووضع حد لتلك الضربات الجوية الملحة .

العـراق تتـدخل :

استمر الهجوم الاسرائيلى الجوى والبرى ضد سوريا دون توقف .

ومع صباح الجمعة ١٢ اكتوبر زحفت فرقة لانر شرقا بعد جابا وتل شعر عبر ناسيج ، ومن ثم شمالا نحو دير العدايس شرق كناكير لتطويق الدفاعات السورية القوية امام ساسا ، حيث كانت الفرقة الثالثة للمدرعات السورية تعوق تقدم فرقة ايتان ، ولكن بينما كان ايتان يراقب قواته من فوق تل شعر ، لاحظ فجأة سحبا من التراب ونشاطا مكثفا فى جنوب قواته : كانت هناك اكثر من ١٠٠ دبابة تتقدم ضد جناحه الأيمن المكشوف من المنطقة شرق الحارة مباشرة .

ظن لانر فى بادىء الأمر انها ربما تكون جزءا من فرقة بيليد ، ثم ادرك بعد ذلك انها قوات معادية ، وان لم يكن قد ادرك بعد ان هذه الدبابات هى دبابات وحدتى الفرقة العراقية الثالثة مدرعات : لواء مدرعات ولواء ميكانيكى ، سحب لانر اللواءين السابع عشر والتاسع عشر من كناكير ، وأمر اللواء التاسع والسبعين ، الذى كان خلفهم يعيد تموينه بالقرب من ناسيج ، بالانتشار نحو الجنوب ، وانتشر اللواء العشرون ، الذى كان قد انتقل لتوه من فرقة بيليد الى فرقة لانر ، بين تل ماشارا وتل المال .

وراى بعض المعلقين أن وصول الفرقة العراقية فى هذه اللحظة الحرجة واجبارها لانر على التخلى عن جهده فى تطويق موقع ساسا ،

وتهديدها لجناحه ومؤخرته لدليل على التقدم العظيم في مجال التخطيط والقدرات العملية للعرب في هذه الحرب ، غير انه ليس هناك دليل يؤيد هذا الافتراض للوصول العراقي كمناورة مخططة تخطيطا جيدا ، وكانت صدفة بحتة ان يصل العراقيون في الوقت الذي وصلوا فيه ، واقترابهم من تل شعر من الجنوب الشرقي كان مجرد نتيجة منطقية للاتجاه الذي اتوا منه : من اعلى درعه بعد السير عبر شمال الاردن ، لم تكن هناك محاولة للمناورة ، وليس هناك دليل على القيام بمحاولة لتحقيق تخطيط افضل وقت ممكن للوصول . بل العكس ، فالوصول العراقي كان تصادفيا تماما ، وان تشلهم في التقدم بقوة تحت ظل هذه التصادفية لدليل كامل على ان وصولهم لم يكن جزءا من خطة تكتيكية .

توقع لانر هجوما في الغسق تقريبا ، ولكن مما يثير الدهشة هو توقف العراقيين ، غير انه اثناء الليل ، تم تعزيز الفرقة العراقية بباقي لوائها المدرع ، وفي الصباح المبكر من يوم ١٢ اكتوبر تقدم العراقيون في اتجاه الشمال بثلاثمائة وعشرة دبابات نحو المنطقة الواقعة بين ماشارا وناسيج .

في هذه الاثناء وزع لانر الويته الاربعة بطريقة من شانها تكوين شكل صندوق منشئا في ان يكون كمينا للفرقة العراقية باسرها ، وكان يشكل الجانب اليساري من الصندوق اللواءين التاسع عشر والتاسع والسبعين المتمركزين شرق جابا واسفل تل الشعر ؛ مع انتشار اللواء التاسع والسبعين شرق اللواء التاسع عشر مباشرة ، وكان يشكل الجانب الشرقي للصندوق لواء ساريج السابع عشر في خط ممتد بصفة عامة شمالا وجنوبا عبر ناسيج ، كما كان يشكل الجانب الغربي للصندوق اللواء العشرين على طول طريق ماشارا ـ جابا . عندما اوقف العراقيون تحركهم الى الامام في مستقبل الليلة السابقة ، خشى لانر ان يكون استطلاعهم او مخابراتهم الجوية كشفت خطته ، ولكن يبدو انهم قد توقفوا لمجرد انتظار وصول لواء اضافي(٢) .

كان الفجر على وشك البزوغ عندما اقترب العراقيون من اسفل تل شعر ، وهم لا يعلمون جميعا ان ٢٠٠ مدفع للدبابات ، وما لا يقل عن ٥٠ قطعة مدفعية جاهزة ومصوبة نحوهم ، واعطت دبابات شيرمان الممتازة في اللواء التاسع عشر اشارة اطلاق النار عندما اصبح العراقيون على بعد ٢٠٠ باردة منهم ، وفي دقائق قليلة اصيبت ٨٠ دبابة عراقية واصبح الباقي في حالة فوضى ، ولم تصب اية دبابة اسرائيلية ، ووقعت نصف الخسائر تقريبا في اللواء العراقي الثامن الميكانيكي الذي دمر تقريبا تدميرا كاملا . ومع ذلك كانت الاصابات في الاشخاص طفيفة نسبيا . وقد لاحظ الاسرائيليون والسوريون والاردنيون ان العراقيين تركوا دباباتهم اينما اصيبت حتى ولو لم تكن اصابتها جسيمة .

كان وصول العراقيين ، وثبات الفرقة الثالثة السورية ، واجهاد القوات الاسرائيلية (التي ظلت تحارب بثبات دفاعا وهجوما بدون توقف لمدة اسبوع كامل) وقلق هيئات اركان الحرب الاسرائيلية ازاء الاستهلاك

العالي غير العادي للمؤن والذخيرة الخاصة بالمدفعية (والنفاد المترتب على ذلك في المخزون الاسرائيلي) . كان سببا في اصدار العازر امره الى صوف بوقف هجومه على الجبهة السورية . وبدا الاسرائيليون يستعدون للدفاع بحفر الخنادق .

ومن الجدير بالذكر ملاحظة ان الدفاع عن تل شمس وعدم قدرة الاسرائيليين على استغلال ما هو ابعد من التل دون بذل جهد اكبر مما هم مستعدون له ، كان يرجع بشكل غير مباشر الى وصول العراقيين ، فقد اتاح ذلك للسوريين نقل لواء الى الشمال الغربي لوقف ذلك الاقتراب من دمشق ، وفي الوقت الذي تعرض فيه دور العراقيين في المعركة للنقد من جانب كل من اعدائهم وحلفائهم ، ولكنهم قاموا بتقديم خدمة كبرى لسوريا بشغلهم ببساطة قطاعا كبيرا على الجبهة مما سمح للسوريين بتركيز قواتهم للدفاع عن دمشق .

وقد لعبت الدور الرئيسي في هذا الدفاع الفرقة الثالثة السورية مدرعات التي لم تشترك في المعركة في الايام الخمسة الاولى ، والتي كانت نشطة وجديرة بالنزول الى المعركة عندما عهد اليها بمهمة تولي منطقة الدفاع السورية الثانية المتمركزة حول ساسا في منتصف الطريق بين القنيطرة ودمشق ، وفي اليوم الثاني عشر واليوم الثالث عشر اوقفوا تقدم فرق لانر وايتان نحو دمشق .

في هذه الاثناء ، وعلى بعد بضعة اميال مباشرة الى شمال الخندق الذي اعدته فرقة لانر ، كانت كتيبة باراك التابعة للواء السابع مدرعات تحاول الاستيلاء على تل شمس ، وهو من اكثر الارتفاعات سيطرة على السهل جنوب غرب دمشق . وعلى الرغم من الحقيقة القائلة : بان السوريين قد تاثروا من الضرب الذي كانوا قد تلقوه في الايام الثلاثة الماضية ، الا انهم تمسكوا بموقفهم ، وردوا الهجوم واصابوا الكولونيل تشاتين بجروح خطيرة ، غير انه في الليلة التالية ١٣ ـ ١٤ اكتوبر استولى هجوم اسرائيلي حاسم على التل .

الملاحظات

(١) وصلت قصة موت حلاوة الى اسرائيل متاخرة عن طريق الجالية الدرزية على ما يبدو ، ووفقا لهذه القصة ، لم يقتل حلاوة ، وانما انسحب لواءه ، وكان مقدرا ان تقدمه القيادة السورية العليا الى المحكمة العسكرية بتهمة الانسحاب بدون اوامر ، وجرد من رتبته ، وقتل رميا بالرصاص ، ويزعم السوريون ان هذه القصة اختلقها المتخصصون في الدعاية الاسرائيلية بمجهود فج لعزل الجالية الدرزية .

(٢) علق احد الجنرالات السوريين باحتقار على هذا المؤلف ، بان العراقيين ربما توقفوا لمجرد تناول الشاي بعد الظهر ، ثم قرروا عدم التحرك مرة اخرى حيث ان موعد العشاء اصبح وشيكا .

(٩)

فتور سيناء
٩ — ١٢ اكتوبر

مازق عنيف على الأرض :

التحمت فى يوم ٩ اكتوبر على جبهة سيناء رؤوس حرب الجيشين الثانى والثالث المصريين فى جبهتين متواصلتين احدهما : شمال البحيرة المرة الكبرى ، التى كانت تحت سيطرة الجيش الثانى ، وتلك الخاصة بالجيش الثالث جنوب البحيرة المرة الصغيرة ، ولم يبذل اى من الجيشين جهدا لشغل المنطقة الرملية المهجورة الواقعة شرق البحيرات المرة مباشرة، كانت اعماق رؤوس الحرب هذه شرق القناة متباينة بوجه عام ما بين سبعة الى عشرة كيلومترات ، وان كان المصريون قد حفروا فى بعض الأماكن الى ما يقرب من ١٥ كيلومترا شرق القناة ، وعلى بعد كيلومترين او ثلاثة شرق خط الجبهة المصرية كان الاسرائيليون ايضا ينظمون دفاعا متحركا .

كان لدى المصريين فى هذا الوقت حوالى ٨٠٠ دبابة واكثر من ٩٠،٠٠٠ من القوات شرق القناة ، وظلت اكثر من ٩٠٠ دبابة اخرى من دبابات الفرق المدرعة والميكانيكية للجيش الثانى والثالث على الضفة الغربية فى الاحتياط .

وفى وقت مبكر من التاسع من اكتوبر سمح جنرال جونين للحاميات الموجودة فى الحصون — التى لم تكن قد وقعت فى ايدى المصريين بعد — بالاستسلام او محاولة القتال للوصول الى الخطوط الاسرائيلية فى الشرق ، وكانت النتيجة ان هاجم المصريون ثلاثة حصون اخرى فى تلك الليلة ، استسلم احدها ، وان كانت حاميتان تسللت بعد الظلام وظل حصنان فقط فى ايدى الاسرائيليين : « بودابست » فى اقصى الشمال على البحر المتوسط ، و « بير » او « كواى » فى اقصى الجنوب على رقعة صغيرة من الأرض فى مواجهة السويس وبور توفيق ، حيث تفتح قناة السويس على خليج السويس . حاولت قوات جنرال ماجن المتقدمة على طول الطريق الساحلى الاتصال بحصن « بودابست » ، فى التاسع ، ولكنها ردت على ايدى المصريين الذين كانوا يحاصرون القلعة ، ولم تكن هناك وحدات اسرائيلية بالقرب من كواى .

كان العمل الهجومى المصرى الوحيد الهام فى يوم ٩ اكتوبر هو الاندفاع جنوبا من منطقة الفرقة التاسعة عشرة المصرية نحو راس سدر ، ولكن ما ان ابتعدت هذه القوة المكونة من خليط من المدرعات والمشاة عن حماية مظلة سام حتى تعرضت للهجوم الجوى الاسرائيلى وتباطات فى حركتها ، واوقفت قوات المظلات الاسرائيلية المنتشرة على شكل تكتلات فى الطريق شمال راس سدر التقدم ، وسرعان ما وجد المصريون انفسهم ايضا وقد داهمتهم الغارات المتكررة من جانب كتيبة مدرعات منفصلة من فرقة مندلر بالقرب من ممر متلا ، وسرعان ما انسحب المصريون بعد ان عانوا كثيرا من الهجمات الجوية بصفة خاصة .

ولكن فى اثناء النهار استولت الفرقة التاسعة عشرة المصرية على الموقع الاسرائيلى للمدافع عيار ١٥٥ مم المواجه لبور توفيق ، ولما كان الاسرائيليون غير قادرين على سحب المدافع فقد حطموها قبل الانسحاب من الموقع ، كما استولوا ايضا على موقع القيادة القريب من خط بارليف — خامس خط (من بين ستة خطوط) يقع فى ايديهم ، وكان الخط الوحيد الذى ظل فى ايدى الاسرائيليين هو الخط الواقع جنوب بالوظة .

على الرغم من عدم محاولة اى من الجانبين القيام بهجوم كبير منسق فى التاسع او الأيام التالية له مباشرة ، ظل المصريون يهاجمون ويواصلون تحسين مواقعهم بعمليات محلية عديدة ، وبسطوا سيطرتهم على اجزاء من طريق المدفعية وان كان الاسرائيليون يدعون ان المصريين فقدوا ٢٠٠ دبابة اثناء الفترة ما بين ٩ — ١٣ اكتوبر ، وشن الاسرائيليون من جانبهم عدة هجمات مضادة على مستوى السرية والكتيبة من وقت لآخر على مستوى اللواء ، مما اتاح لهم بصفة عامة صد التحركات المصرية .

واحصى المصريون اجمالى الهجمات الاسرائيلية المضادة المنظمة فى الفترة ما بين ٦ — ١٤ اكتوبر بأربعة وستين هجوما .

كان جنرال ادان لا يزال مسئولا عن المنطقة من القنطرة تقريبا الى طريق بير جفجافة الاسماعيلية (الذى كان يسميه الاسرائيليون تالسمان) وكان شارون مسئولا عن ذلك الطريق والجنوب المواجه لالتقاء البحيرة المرة الكبرى بالبحيرة المرة الصغرى ، وكان مندلر مسئولا عن مداخل ممرات الجدى ومتلا الى ما بعد خليج السويس وأسفل السويس وبورتوفيق ، واما ماجن (فى ذلك الوقت) وهو الذى كان يقود فرقة من لوائين ، فلا يزال مسئولا عن القطاع الشمالى الممتد من القنطرة شمالا حتى البحر المتوسط .

لم يعد جونين مسئولا ، بعد ذلك ، عن سيناء الجنوبية التى كانت قد اعتبرت كمنطقة منفصلة ، وكانت قوات المظلات المدافعة عن راس سدر وحامية شرم الشيخ ضمن هذه المنطقة الجنوبية لسيناء تحت قيادة اللواء يشاياهو جافيش ، الذى كان قائدا للقيادة الجنوبية فى حرب الأيام الستة .

مازق عنيف فى الجــو :

واصلت القوات الجــوية المصرية هجماتهــا المتقطعة على القيادة الاسرائيلية ، ومراكز نقل الجنود وتموينهم ، وان كان الطيارون متيقظين لتفادى القواعد التى تحميها صواريخ هوك مثل قاعدة : بير جنجافة ، وكذلك تفادى الاشتباك مع الدوريات الجوية الاسرائيلية ، كما عرقلت — بالمثل — مظلة سام المصرية الجهود الجوية الاسرائيلية عن القيام بدور المســاندة المحكمة ، رغم استمرار الهجمات ضد الكبارى المصرية بقدر يسـير من النجــاح .

شنت القوات الجوية الاسرائيلية فى الفترة ما بين ٧ و ١٦ اكتوبر عددا من الهجمات على المطارات المصرية مع التركيز الكبير على جهتين : المنصورة وقطامية ، ولكنها لاقت مصاعب قوية من جانب الشبكة المحكمة للدفاعات الأرضية المصرية ، واسقطت طائرات مهاجمة كثيرة قذائفها على مسافة قصيرة دون تحقيق اهداف ، وادعت مصر انه فى يوم ١٠ اكتوبر تم اسقاط ست عشرة طائرة فانتوم وسكاى هوك فى تلك العمليات ، وفى الهجمات المستمرة ضد الجسور ، كما ادعو ايضا عدم تحطيم اية طائرة مصرية واحدة على الارض اثنــاء الحرب .

كان الاسرائيليون يبذلون جهودا مكثفة لتطوير تكتيك جوى جديد لمواجهة التأثير القوى للغاية لسام/٦ ، فحاولوا اولا تعديل التكتيك الذى كان فعالا فى مواجهة سام/٣ لكن النجاح كان محدودا ، وذكر هؤلاء الطيارون الذين نجوا ان الطائرات الاسرائيلية كانت «تمضغ» بالصواريخ زد.اس.يو — ٢٣ — ٢٤ عندما كانت تطير افقيا بالقرب من الارض .

على انه أمكن بالمقــاييس الالكترونيــة المضادة ، التى كانت معظم طائرات الفانتوم مجهزة بها ، مواجهة صواريخ سام٢ وسام٣ ، الا ان الفانتوم تعرضت لخسائر فادحة من سام/٦ وعليه حاولوا تكتيكا آخر . لمــا كانت الصواريخ تنطلق بسرعة ٢٫٨ ماك ، فانه كان يتعين على الطيار ان يكتشف فى اللحظة نفسها تنفيث الدخان الأبيض عند الانطلاق ، حتى يتسنى له بدء التكتيك المراوغ الفعال ، واجريت تجارب بطائرات هليكوبتر استطلاعية لالتقاط تنفيث الدخان الأبيض ، وتحذير الطائرات المهاجمة لتفاديه ، وحاولت الهليكوبتر ايضا تحديد مواقف الانطلاقات من اجل مواجهتها بضربات مضادة فى الحال ، وسرعان ما سببت الخسائر التى حدثت للهليكوبتر بصواريخ سام المصرية (مقابل طائرة واحدة مصرية) الى التخلى عن هذه التجربة .

كان هناك استحداث تكتيكى آخر على اساس مراقبة مسار البداية المسطحة لانطلاق سام/٦ ، ولاستغلال هذا ، قامت الطائرات الاسرائيلية بالاقتراب على ارتفاع كبير جدا والانقضاض عموديا تقريبا فوق المنطق مباشرة كما كان الاسرائيليون يطورون عملية ذر « النفاية » ، ولم يكن ذلك من المعدات القياسية فى الطائرات الاسرائيلية اف — ٤ ، فكانوا يلوثون الفجوات الصغيرة

فى جناح فرامل الهواء بالنفاية ثم يفتحونها بالقرب من مواقع الصواريخ ، كما ساعدت عملية مراقبة ممرات الأمان للقوات الجوية المصرية ، عن طريق الشاشة ساعدت الاسرائيليين على رسم خرائط للطرق من اجل الاقتراب من الهدف ، ولكن النتائج كانت مرضية الى حد الكفاف فقط .

آخـر حصــن :

واصل المصريون جهودهم من اجل الاستيلاء على الحصنين الباقيين من خط بارليف .. وظل « بودابست » معرضا للهجوم المستمر تقريبا خلال الأيام الثلاثة الأولى من الحرب ، وقامت بعزله وحدة كوماندوز مصرية تلك التى سدت الطريق الوحيد المؤدى الى الحصن على طول ساحل البحر من ناحية الشرق ، ولم يكن هناك منفذ من ناحية الجنوب الذى كان عبارة عن مستنقع لا يمكن المرور فيه ، وبالاضافة الى الهجمات الجوية العـديدة ، فكثيرا ما قذفته قنابل المدافع الثقيلة للدفاع الساحلى فى بورسعيد وبور فؤاد، ولكن فى يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر قاد جنرال ماجن بنفسه صفا من اجل فك حصاره ، فاخترق دائرة الكوماندوز المصريين واحضر طعــاما وذخـيرة وامدادات اخرى الى « بودابست » وحمل معه الجرحى ، وفى اليوم التالى انفك اسر الحامية بقوات نشيطة .

نجح المصريون مرة اخرى ، بعد ذلك بيومين ، فى عزل « بودابست » وصعدوا جهدا مكثفا للاستيلاء عليه ، وفى الخامس عشر حطمت القــوات الاسرائيلية لفرقة جنرال ساسون هذا الحصار الجديد ، وعلى الرغم من ان « بودابست » غالبا ما كان واقعا تحت نيران العدو ، الا انه لم يتعرض مرة اخرى على الاطلاق ، لتهديد خطير .

فى هذه الأثناء كان موقع « كواى » فى الطرف الجنوبى للقناة معرضا ايضا لهجوم قوى ، كانت الجهود المصرية للاستيلاء على الموقع متتاليــة وقوية ، الا انه كان من الصعب الوصول اليه ، وكان من السهل الدفــاع عنه ، ورغم الميزة الهائلة ، واقسى وسائل القذف الحربى تكثيفا اســتغل المدافعون الاسرائيليون اقصى قدرات المزايا التى تمتع بها الموقع ، واخيرا ، وبعد نفاد الأدوية والعقاقير الخاصة بالجرحى ، ونفاد الذخيرة تقريبا ، استسلم القائد ومعه من الأحياء ٣٦ شخصا من بين افراد الحامية البــالغ عددها ٤٢ ، وذلك يوم السبت ١٣ أكتوبر بعد مقاومة استمرت اسبوعا .

قرار وقف اطلاق النــار :

فى مستهل مساء ٦ أكتوبر بدا الاتحاد السوفيتى فى بذل جهود دبلوماسية للحصول على الموافقة المصرية والسورية لوقف اطلاق النار ، ان دوافــع السوفييت غامضة وان كان — على ما يبدو — اهم دافعين : هما الخوف من ان انفجار الشرق الأوسط قد يهدد الوفاق ، والاعتقاد من جانب الرجــال العسكريين الســوفييت بأنه مجــرد أن يزول تأثير المفــاجأة ، يستطيع الاسرائيليون هزيمة سوريا ومصر معا .

اصيب الرئيس السادات بالدهشة والضيق معا من هذا المجهود السوفيتى ، الذى بدأ فى السابع وقد تضمن محاولة غريبة لتشويه الاتصالات بين موسكو من ناحية والقاهره ودمشق من ناحية اخرى ، ويبدو ان كلا من الرئيس السادات والرئيس الاسد قد تلقيا معلومات كل عن طريق سفير السوفيت لديه بان الآخر سيوافق على وقف اطلاق النار اذا وافق شريكه(١) ، وبدهشة من هذه المعلومات ، اتصل السادات بالأسد اتصالا مباشرا ، وسرعان ما أوضحا معارضتهما المتبادلة لوقف اطلاق النار .

وفى يوم ٨ أكتوبر عندما اصبح واضحا ان نجاح المصريين شرق القناة ليس بجهد مخفف ، وقبل ان يتدهور الموقف السورى بشكل ملحوظ ، بدا وكأن الروس فقدوا حماسهم من اجل وقف اطلاق النار ، وفى مجلس الامن التابع للأمم المتحدة عضد المندوب السوفيتى الموقف المصرى القوى بان اى اتفاق لوقف اطلاق النار يجب أن يتضمن التزاما اسرائيليا بالانسحاب الى حدود ما قبل عام ١٩٦٧ ، ولما رفضت اسرائيل — بتعضيد من الولايات — بحث مثل هذا الأمر ، لم تتمخض الجهود المبكرة لمجلس الامن عند تحقيق وقف اطلاق النار .

غير انه فى يوم ١٠ اكتوبر اصبحت خطورة الموقف السورى واضحة ، وفترت العلاقات بين الحلفاء العرب ، الى حد ما اثناء النهار ، عندما رفضت الحكومة المصرية على مضض تصعيد الحرب بقيامها بهجمات جوية على المدن الاسرائيلية ، الأمر الذى طالب به السوريون ، ردا على القصف الاسرائيلى لدمشق وحمص .

واقترح مرة اخرى السفير السوفيتى فلاديمير فينوجرادوف ، على الرئيس السادات ، وقف اطلاق النار ، وقال السفير للرئيس : ان الاتحاد السوفيتى يعرف جيدا عدم رغبة مصر فى وقف اطلاق النار ، ولكن السوريين قد فقدوا ٦٠٠ دبابة وعلى ما يبدو مستعدين للتوقف ، ولما كان الأمريكان قد طلبوا عقد اجتماع آخر لمجلس الأمن لبحث وقف اطلاق النار ، ود الاتحاد السوفيتى لو أن بمقدوره معرفة نصيحة مصر بالنسبة لمنهج العمل الذى يتحتم عليه اتخاذه فى مناقشة الأمم المتحدة وفى التصويت(٢) .

كان السادات متضايقا من هذا الضغط المستمر ، حيث انه لم يعتقد ان الموقف السورى قد تغير ، فأوضح للروس انه متفق مع الرئيس الأسد اتفاقا كاملا على انهما لا يريدان وقف اطلاق النار ، وتوقف القرار مرة اخرى لبضعة أيام .

شارون فى مواجهة جونين :

فى يوم ٩ اكتوبر كان معظم نشاط منطقة الجيش الثانى المصرى مركزا ضد المنطقة التى كانت مخصصة لفرقة جنرال آدان ، وانخفضت قوته الى

١٢٣ دبابة على ثلاثة الوية مخفضة كبيرا للغاية ، وباتباعه للتكتيكات التقليدية نشر لواءين من الويته ، بحيث يغطى كل لواء منهما حوالى نصف جبهته البالغ امتدادها ٥٠ كم مع الابقاء على لوائه الثالث فى الخلف كاحتياط، ولكنه اكتشف ان فى مقدوره وقف الهجمات المصرية بتحركاته المتكررة فقط ، والتى بموجبها نقل سرايا وكتائب ، بل والوية ، لمواجهة الخطر الأعظم فى اى وقت كان ، وما ان اتم ضم لوائه الثالث وكان من الصعب سحبه ، ووجد ان وحداته اختلطت ببعضها بشكل مسىء ، وفى الأيام التالية طور اسلوبا جديدا للدفاع ، حيث وضع الويته الثلاثة على خط ، كل على عمق مع احتياطى كبير ، ووجد انه حتى فى حالة حاجته فى بعض الأحيان الى نقل وحدات عبر جبهات اللواء ، كان اسهل عليه اعادتها الى مكانها وفقا لهذه الخطة الخاصة بالانتشار .

ولما كانت منطقة شارون فى مواجهة البحيرة المرة الكبرى ، بشكل كبير ، حيث كان هناك عدد قليل من المصريين ، فانها كانت اقل انشغالا بكثير من تلك التابعة لآدان او مندلر ، وعليه كان فى استطاعته فى التاسع ارساله كتيبته الاستطلاعية فى مناورة أوصلتها الى الشاطىء الشمالى الشرقى للبحيرة المرة الكبرى دون مواجهة اى مقاومة خطيرة ، فأمر شارون الكتيبة بالبقاء حيث هى ، وطلب الى الجنرال جونين ، فى الحال ، السماح له بعبور القناة بالقرب من الدفرسوار شمال البحيرة المرة الكبرى مباشرة ، ورفض جونين ذلك نهائيا لضيقه من مهاجمة شارون لأوامره ، وامر بالانسحاب فورا ، وطار بالهليكوبتر الى مقر رئاسة شارون لتكرار الأمر ثم عاد الى ام خشيبة .

عندئذ اتصل شارون ، ببساطة ، بتل ابيب عن طريق اللاسلكى حيث كان صديقا قديما والمساعد السابق للجنرال دوف سيون ، نائبا لرئيس فرقة العمليات تحت رئاسة جنرال افراهام تامير ، قال شارون لسيون « ان قدماى مغموستان فى مياه البحيرة المرة الكبرى » ، وطلب منه أن يدفع الكولونيل اسرائيل تال ، نائب رئيس الأركان ، الى ان يحث : اما جنرال العازر أو وزير الدفاع ديان ، على السماح بالعبور الأمر الذى رفض جونين الموافقة عليه ، اثار الموضوع اهتماما كبيرا للغاية بين الأركان ، وان كان من الطبيعى بحث وجهات نظر جونين بالمثل(٣) » .

فى هذه الأثناء أمر شارون اللواء التابع للكولونيل حاييم ايريز بالقيام بهجوم محدود فى الاتجاه العام لتالانا — التى يسميها الاسرائيليون ميسورى — لتركيز اهتمام المصريين على مكان آخر ، استخدم المصريون التكتيك نفسه الذى كان ناجحا ضد آدان فى اليوم السابق ، وهو اسلحتهم المضادة للدبابات — ساجر آر. بى. جيه — ٧ والمدافع المضادة للدبابات ، لتسقط ما بين ٢٣ — ٣٦ من دبابات ايريز(٤) .

عندما علم جونين بما حدث ثار بشدة على شارون ، وبدا له فى اول الأمر انه لا يمكن ان يغفر لأحد مساعديه ان يتخطاه ، ويسعى من اجل احباط اوامره عن طريق سلطة اعلى ، بل والأسوا من ذلك أن شارون

عصى متعمدا امره ، مسببا خسائر فادحة لم يكن لهـا لزوم اثناء العملية ، وبمرارة اخبر مقر رئاسة جونين فى تل ابيب انه شغوف ـــ مثله فى ذلك مثل شارون لعبور القناة ـــ باسرع ما يمكن ولكن قوة قيادته ، لم تكن قريبة بدرجة تسمح لنقل اية فكرة بعد لمثل هذه العملية المجازفة ، ولم يكن من المعقول او من المنطق التفكير فى هجوم اسرائيلى يعبر القناة قبل حشد جميع الاحتياطى ، والتأكد من أن الهجوم المصرى قد توقف تماما ، فى هذه الأثناء يتحتم توفير الموارد بدلا من تبديدها ، كما كان يفعل شارون . وافق اركان الحرب على هذا الرأى وابلغ شارون بضرورة اطاعة امر جونين بالانسحاب الى موقعه النظامى ، واذعن شارون على مضض .

وعلى الفور طلب جونين من القيادة العليا الاسرائيلية اعفاء شارون من القيادة لعصيانه ، غير انه كانت هناك عدة اسباب جعلت العازر يرفض توصية جونين : كان شارون فى المقام الاول قائد ميدان مغامر ومحنك وكفء ، وله سجل مرموق فى نجاحه فى المعارك فى الحربين السابقين ، وثانيا انه كان رجل سياسة فى ذلك الوقت ، وظل حتى نشوب الحرب مشغولا فى قيادة حملة سياسية فى الكنيست فى الانتخابات التى كان محددا لهـا ٢٦ اكتوبر ، ولمـا كان من المعارضين للحكومة ، كان اعفاؤه بدون تبرير ساحق سيؤدى الى تعريض الحكومة الى اتهامات بالانتقام لأسباب سياسية ، الأمر الذى كان من شأنه نجاح سياسى لشارون وخسارة بالنسبة للحكومة . اضف الى ذلك ان شارون كان صديقا لوزير الدفاع موشى ديان ، ورغم كونهما ينتميان فى ذلك الحين الى احزاب سياسية مختلفة ، الا أن التفكير السياسى والعسكرى للرجلين كان واحدا بشكل ملحوظ .

فى نفس الوقت ادرك جنرال العازر انه لن يستطيع تجاهل الانشقاق الخطير الواضح ، الذى اصبح فى ذلك الحين قائما بين جونين وشارون . وبينما بدا لأركان الحرب انه ليس من العدل اعفاء جونين من القيادة لمجرد انه لم يستطع التفاهم مع مساعد له ، كان دائما يشكل صعوبة لرؤسائه العسكريين فى السيطرة عليه ، الا انه لم يكن هناك بديل لذلك(٥) ، وسأل الجنرال بارليف عما اذا كان فى استطاعته العودة الى القيام بالواجب العملى كقائد للقيادة الجنوبية ، ووافق بارليف على تولى هذه المهمة فى حالة ما اذا وافق وزير الدفاع ديان ورئيسة الوزراء جولدا مائير ، ووافق الاثنـان بحمـاس .

غير انه لمـا اخطر جنرال جونين بهذا القرار اعترض بمرارة ، وتساءل لمـاذا يتحتم تنحيته عن قيادته بسبب عدم تعاون احد مساعديه .. عندئذ اقترح اليعازر ـــ الذى اتفق مع جونين ـــ حلا وسطا لانقاذ الموقف : يظل جونين قائدا للقيادة الجنوبية مع وجود بارليف الى جانبه كممثل شخصى لرئيس الأركان وله كل سلطة القيادة فى اتخاذ القرارات باسم رئيس الأركان، وقد علق جونين ، بشىء من الأسى ، أمام هيئته فى الصباح التالى ١٠ اكتوبر عند تقديمه جنرال بارليف لهم فى اجتماع الأركان بقوله : « انه ليشرفنى ان يكون لى رئيس الأركان الخاص بى » .

فكر جونين جديا فى الاستقالة ، ثم قرر انه فى وقت الحـرب يجب على كل جندى اسرائيل ان يفعل ما تأمره به السلطة الأعلى ، وكانت الأمور فى بادىء الأمر متوترة بين بارليف وجونين ، ولكن سرعان ما طورا نظـاما يقضى بان يضع جونين القرارات ويستصدر الأوامر ـــ ولكن بعد مراجعتها دائما مع بارليف . كان جونين نائب بارليف ورئيس للأركان لكافة الأغراض العملية ، ووفقا لاصرار بارليف كان احدهما فى مركز القيادة بصفة دائمة حتى نهاية الحرب ، وكانا يتبادلان الذهاب الى الجبهة لزيارة القـــادة المسـاعدين .

شارون فى مواجهة بارليف :

افضى جونين لأصدقائه ، بعد الحرب : « بأنه لم يكن قادرا على السيطرة على شارون ، وان بارليف قد جاء لهدف واحد هو ممارســة السيطرة على ذلك الجنرال الذى لم يستطع جونين ممارستها » ، ولــكن جونين اضاف قائلا : لم يستطع بارليف السيطرة عليه هو الآخر .

والحقيقة على نحو ما جاء فى تعليق بارليف اثناء المجادلة التى دارت حول هؤلاء الرجال الثلاثة بعد الحرب ، انه كان يعمل فى ظل ظروف معوقة للغاية بالنسبة لعلاقته مع شارون لم تؤثر على جونين ، فجونين ، قبـل كل شىء ، كان جنديا نظاميا ليست له أطماع سياسية ، ولم يكن لديه ما يقلقه حول المحامل السياسية لقراراته واوامره . ولكن كان على بارليف الذى كان منذ ايام قليلة سابقة ، مشغولا فى حملة سياسية قاسية ضــد الجانب الذى يقف معه شارون ، كان عليه أن يعرف انه ستكون هناك محـــامل سياسية لأى شىء يقوله او يفعله ، أو يتعلق بشارون .

كان المشكلة التكتيكية التى شغلت تفكير جنرال جونين وجنرال بارليف هى متى وكيف يمكنهم اعادة الحرب مع المصريين عن طريق عبور القناة : فمنذ البداية كان جميع القادة الاسرائيليين يعملون على رغم انهم سيقومون بمثل ذلك العبور ، ولكن تلك المشكلة التكتيكية ظلت من وجهة نظر جونين وبارليف واقعة فى شرك مشــكلتهم الادارية الرئيسية : الســيطرة على جنرال شــارون .

ومنذ ٩ اكتوبر ظل السؤلان « متى ؟ وكيف ؟ » ـــ وليس « ما اذا كان » ـــ يتعين القيام بالعبور هى : الموضوعات الأساسية للمناقشة فى مؤتمرات القادة فى مقر الرئاسة الجنوبية فى أم خشيبه ، وكان من نتائج اكتشـــاف شارون فى التاسع بأن منطقة الدفرسوار خالية من الدفاع حثه على العبور من هناك حيث انها واقعة فى منطقته ، ولكن فى نفس الوقت تقريبا اكد استطلاع ادان أن هناك ثغرة بين الفرقة المصرية الثانية والفرقة المصرية الثامنة عشر شمال الفردان مباشرة بالقرب من جزيرة البلاح فى القناة ، كما حثه على العبور من جنوب الجزيرة مباشرة وشمال الفردان حيث انها واقعة فى منطقته .

حبذ بارليف وجونين ومندلر منطقـــة الدفرســـوار ، وفى العاشر عندما اقترح آدان العبور من المكانين وافق شارون ، ولكن جونين اعاد تأكيده بشأن تفضيله لمنطقة الدفرسوار ، وعضده فى ذلك بارليف . وبناء عليه بدأت منذ ذلك الوقت خطة القياد الجنوبية للعبور من الدفرسوار حالمـا يسمح الموقف بذلك ، وتصل موافقة تل أبيب .

غضب جنرال شارون من هذا القرار حيث انه شعر ان الوقت من ناحية الموقف التكتيكى يعمل فى غير صالح الاسرائيليين ، وانه ربما فرضت الأمم المتحدة وقف اطلاق النار ، قبل ان يستطيع اى نجاح اسرائيلى ان يتوازن مع النجاح المصرى فى البداية ، وبناء عليه اقترح خطة جديدة ، وهى ان تقوم فرقته بمهاجمة الجناح اليسارى للجيش الثالث ، ثم تزحف جنوبا لتمزق راس الجيش الثالث بأكمله .

وفى اليوم التالى يوم ١١ اكتوبر استدعى بارليف شارون وقادة الويته الثلاثة الى مركز قيادة ام خشبة لمناقشة هذه الخطة ، وحضر المناقشة بارليف وجونين ورئيس اركان حرب جونين ــ الكولونيل بن آرى ــ وشارون وقادة الويته الثلاثة : كولونيل امنون ريشيف ، وتوفيا رافيف وحايم ابريز ، وقام شارون بتقـديم خطته والمبرر لها ، وبعد مناقشــة عامة طلب آراء الحاضرين ، لم يوافق اى منهم على اقتراح شارون بما فى ذلك قادة الوية شارون ، استنادا اساسا الى اعتقادهم بأن شارون قلل من شأن القدرات المصرية على الدفاع ، وعلاوة على ذلك ــ مرة اخرى مع الاستثناء الفذ لشارون ــ وافقوا على ان الوقت سيكون فى غير صالح الاسرائيليين فى الامم المتحدة فى حالة فقط هزيمتهم للعرب ، وليس اثناء نجاح العرب .

لم يتقبل شارون هذا الرفض بلباقة : فأوضح فى مناقشة حامية الى حد ما ، ان احتقاره التام لجونين ينطبق بالمثل ، على بارليف .. ان ملحوظة « التحدث ببطء والتفكير ببطء لا تنطبق الا على اسلوب الحديث المتأنى لبارليف وفى اليوم التالى ، ولدهشة جونين ، اوصى بارليف جنرال العـــازر باعفاء شارون من قيادته (كان عليه تكرار هذه التوصية مرتين او اكثر فى الأيام العشرة التـــالية) .

ولم يكن هـــذا بالطبع ما توقعه العازر عندما ارسل بارليف الى القيادة الجنوبية ، تباحث فى الامـــر مع ديـــان ، الـــذى قال : ان المضمون السياسى لاعفاء شـــارون كبير للغاية ، على بارليف وجونين وشارون ببساطة ان يتماشوا معا بطريقة او باخرى .

طبيعة جنرال شارون :

يقدم الجنرال تشام هيرزوج فى كتابه حرب التكفير وصـــفا مختصرا مشوقا لجنـــرال شـــارون(٦) . يشير هيرزوج فى كتابه الى «مواهب شـــارون

الطبيعية » و « وحدســـيته الصـــحية » كبدائل للعمليـــة المنطقيـــة بعمل الأركان » ، يقول هيرزوج ان شارون « فذ فى الارتجال » وانه فى استطاعة شـــارون من وصف هيرزوج الـــذى قال عنه : انه يشوه صورته اذ يصفه بانه « شـــخص متهور » . ويتمسك شارون بأنه على نقيض من التهور ، بل يدعى ان كثيرا من عملياته العسكرية الناجحة هى نتيجة التخطيط الهادى الدقيق البعيد عن الانفعال . يقول : لو انه فذ فى الارتجـــال فان ذلك يرجع الى ان خطته الدقيقة ، تناولت كافة البدائل المحتملة ، ومن المؤكد ان انتصاره فى ابوعجيلة فى عـــام ١٩٦٧ كان انتصارا لمثل ذلك التخطيط النظامى الشديد الدقة ، ولكن لا يستطيع اى شخص يســـتمع الى انكار شـــارون لوصفه « بالتهور » الا ملاحظة الانفعال القـــوى الـــذى جعله يســـارع بالانـــكار .

من المحتمل ان لا يكون الجنـــرال شارون غير متعـــاون اطـــلاقا عامدا متعمدا : فمواهبه العسكرية واحترامه للعمليات العسكرية المنظمة والنظام مسائل لا يرقى اليها الشك ، فهو رجل يشـــعر بالقـــوة والحماس بالفعل ، وهو يعتقد ان اول واجب على الجندى هو ان يفعل ما هو صواب. وبوصفه جندى ميدان صـــاحب خبـــرة لهـــا وزنها ، فانه كان مقتنعا بأن للقائد فى الموقع الادراك الأفضـــل للاحتياجات التى يجب تقديمها مما لدى قائد ما ، او اركان حرب على مســـافة أميـــال من موقع العمل . وبوصفه رجـــلا على درجـــة عالية من الذكاء وسرعة البديهة ، وله ســـجل من النجاح المرموق فى المعركة ، فمن الواضح ان شارون يفترض اتوماتيكيا تقريبا بان ما يراه عن الموقف العسكرى سليم ، وبناء عليه فان اى شخص له راى مخالف لرايه ، فهو مخطىء تلقائيا .

ومن الأمور المثيرة للدهشة أن عددا جوهريا من المسئولين العسكريين الاسرائيليين وافقوا على تقييم شارون لقدراته العسكرية . فهناك ضباط اسرائيليين كبار يؤمنون ان جونين كان مخطئا فى اصـــداره الأوامر لشارون كما لو كان مســـاعدا عاديا . كأن شارون برغم كل شىء ، اعلى مقاما من جونين ، وقبل الحرب بثلاثة شهور ظل لمـــدة عامين قائدا فى القيادة الجنوبية وترك الوظيفة لجونين الـــذى كان شابا غير ذى خبرة ، ويعتقد هـــؤلاء الضباط ، انه كان يتحتم على جونين بدلا من ان يصدر اوامر لشـــارون ان يسعى لطلب النصـــيحة منه . ومع ذلك علق احدهم بقوله : « انه بالنسبة لنا كالقائد الأمريكى باتون ، ويجب أن نعامله على هذا النحو(٧) » .

النقطة الهامة فى الموضوع فان شارون مهما قيموا عمله من الناحية العسكرية ، لم يكن يبدو ساعيا وراء المجد ، او انه يعصى الأوامر ويرفض التعاون متعمدا من أجل بسط أطماعه الشخصية ، انني مقتنع بأن شـــارون فعل ما فعل ، وقال ما قال اثناء الحرب ، لأنه كان مقتنعا باخلاص بأن العمليات التى اقترحها أو نادى بها كانت من اجل أفضل المصالح الاسرائيلية.

يبدو انه مما لا يصدق ان الجنرال شارون لم يعف من قيادته لعصيانه المتكرر وعدم التعاون ، او لأن وزير الدفاع موشى ديان لم يوافق على التوصيات التى رفعها كل من جنرال جونين وجنرال بارليف فقط ، وانما يرجع الرفض جزئيا الى احترامه لذكاء شارون وقيادته العسكرية الفذة ، كما يرجع الرفض جزئيا ايضا لأسباب سياسية .

التخطيط الاسرائيلى لعبور القناة :

فى هذه الأثناء كان جونين واركان حرب القيادة الجنوبية قد اعدوا تفاصيل هجوم على اساس عبور الدفرسوار ، فقدم جونين هذه التفاصيل لبارليف وكبار قادة الفرق الثلاث : مندلر وآدان وشارون — فى وقت متأخر فى الحادى عشر ، قال جونين : انه يجب ان يتم العبور — بفرقتين — من نقطة تم اختيارها مسبقا على الضفة الشرقية للقناة فى مواجهة الدفرسوار ، فهناك — كما هو الحال فى اماكن اخرى عديدة على طول القناة ، كانت قد تمت تنظيمات اولية لتسهيل العبور وذلك قبل نشوب الاعتداءات . (هذه الأماكن كان الجنرال شارون قد اختارها عندما كان قائدا للقيادة الجنوبية) ، وكان السد ضيقا فى هذه النقاط ، بحيث كان من السهل تحطيمه بالبلدوزر واقامة مكانه اكتاف لجسر عائم ، كما كان هناك منطقة واسعة خلف هذه النقاط الواهية مغطاة بطوب يشكل قاعدة صلبة طولها حوالى ٧٠٠ متر ، وعرضها ١٥٠ مترا ، حيث يمكن حشد المركبات والمهمات الهندسية فوقها بصورة فعالة ، كانت هذه القاعدة الصلبة محوطة باستحكام رملى صلب من اجل الأمن المحلى ، كان على فرقة شارون القيام بعملية العبور ، على ان تتبعه فرقة آدان لتنفيذ الاختراق .

كان اختراق جونين لمنطقة الدفرسوار يرجع الى ثلاثة اسباب رئيسية : ففى المقام الأول : سيكون الجناح الأيسر للقوة العابرة محميا بوجود البحيرة المرة الكبرى . ثانيا : ان الضفة البعيدة اتاحت فرصا للمناورة جنوب الاسماعيلية افضل عما كان عليه الوضع فى الشمال . ثالثا : ان نقطة عبور الدفرسوار كانت قريبة من الحدود بين الجيشين المصريين ، وقد اوضح الاستطلاع الأرضى والجوى معا ان منطقة العبور لا تغطيها قوات من اية ضفة من القناة ، وكانت هذه المجادلات مغرية لبارليف الذى وافق على فكرة جونين(٨) ، وتم تحريك جسرين احدهما جسر عائم سبق تصنيعه جزئيا ، من تسعة اقسام ، والآخر شبه طويل سبق تصنيعه ، وكان مخزونا بصفة دائمة فى تاسا لمثل هذه الأحداث ، تم تحريكهما جنوبا من تاسا الى مكان اسمه : الشفرى يوكون « مسافة حوالى ١٥ كيلو مترا شرق النقطة المختارة للعبور » .

وكانت المسألة الوحيدة التى ظلت معلقة هى وقت العبور : فكان العازر قد توقع هجوما مصريا من رؤوس جسورهم فى الحادى عشر والثانى

عشر ، وعندما تمت مناقشة خطط العبور معه مبكرا ، كان قد اشار الى انه يجب الا تتم ، الا بعد ان يكون المصريون قد شغلوا مزيدا من قواتهم المدرعة فى الضفة الشرقية ، وزكمت انوفهم برائحة الدم فى محاولة للهجوم من راس الجسر ، عندئذ يجب القيام بالعبور الاسرائيلى ، بينما يكون المصريون لايزالون يعانون من مثل هذا الفشل .

ولكن لم يكن هناك دليل ، بعد ، عن هجوم مصرى . وبناء عليه طار بارليف يوم ١٢ اكتوبر عائدا الى تل ابيب ، وعرض خطة القيادة الجنوبية اولا على العازر ، ثم على وزير الدفاع ديان ثم رئيسة الوزراء والوزارة ، وفى اثناء هذا الاجتماع الأخير عندما بدا القرار سيكون ملتزما بفكرة العازر الأصلية بالهجوم المعتاد ، وصلت انباء بأن المصريين يستعدون بوضوح للهجوم ، وان مدرعاتهم تتدفق عبر الجسور الى الضفة الشرقية ، وبناء عليه تمت الموافقة على الخطة من ناحية المبدا ، ولكن التوقيت ظل مفتوحا . فى تلك الليلة قدم قادة الفرق الثلاث : شارون وآدان ومندلر — خططتهم الخاصة بالعملية الى بارليف ليصدق عليها ، ورغم ضيق بارليف من شارون الا انه تأثر بخطته وطريقة عرضها .

وعندما زار القيادة الجنوبية فى اليوم التالى قال لجونين وبارليف : انه سواء اقام المصريون بهجومهم فى الرابع عشر على نحو تنبأت به المخابرات الاسرائيلية او لم يقوموا به ، بحيث عليهما المبادرة بخطتهما الخاصة بالعبور فى تلك الليلة ، وتم اتخاذ هذا القرار فى موقع قيادة شارون غرب تاسا .

وفى وقت متأخر من اليوم تم سحب فرقة آدان من الخط شمال تاسا لتكون مستعدة لتنفيذ العبور المنتظر لشارون فى الرابع عشر ، وتم وضع القطاع الشمالى بأسره تحت مسئولية فرقة مشاة مدرعة تم تشكيلها حديثا بقيادة الكولونيل ساسون ، وتم اختيار ماجن لهذه القيادة ، ولكنه ارسل الى الجنوب بدلا من ذلك ، ليتولى قيادة فرقة مندلر بعد ان قتل ذلك الجنرال بنيران المدفعية المصرية يوم ١٣ اكتوبر وكانت فرقة شارون التى لا تزال منتشرة فى المنطقة الوسطى فى منتصف الطريق بين الاسماعيلية وتاسا قد استولت على جزء صغير من الجبهة ، التى كان آدان قد انسحب منها ، وقد وكل الى شارون بلواء المظلات الخاص بكولونيل دانى مات ، وقد اعد هذا اللواء وكذا اللواء مدرعات الخاص بحاييم ايريز للاندفاع الى القناة الذى تم التخطيط له فى ذلك الحين للقيام به فى مستهل مساء الرابع عشر .

اسحق فى مواجهة الشاذلى :

فى الوقت الذى كان فيه الجنرالات الاسرائيليون على مستوى القمة مشغولين فى مناظرة قاسية ، كانت هناك الى حد ما مناظرة مماثلة — وان

كانت اقل قسوة بين صفوف القيادة المصرية ، كان رئيس الاركان المصرى اللواء الشاذلى قد اوصى متشجعا بالانتصارات التى تحققت فى الايام الثلاثة الاولى — بالقيام يوم ٩ اكتوبر بضربة من المدرعات فى سيناء على طول الطريق الساحلى نحو العريش ، غير ان القائد الاعلى المصرى للقوات المسلحة الفريق اسماعيل فرض نفوذه عليه . كان اسماعيل مصرا على عدم القيام باى تقدم كبير الى ان يتم تحريك دفاع كاف من صواريخ سام الى الضفة الشرقية يكفى لتغطية مثل ذلك الهجوم ، ولن يخطط لتحريك صواريخ سام عبرها ، الا بعد ان يعرف ان خط الجبهة قد استقر تماما ، وفى وقت متاخر من ذلك اليوم المح الشاذلى فى لقاء مع صحيفة الاخبار « عن عدم ارتياحه لمثل هذا الموقف الحذر المبالغ فيه » ولكنه اضاف عندئذ قائلا : ان على الجيش المصرى ان يرهق القوات الجوية الاسرائيلية بالصواريخ ، واستطرد قائلا : ستكون هذه الصخرة التى يتحطم فوقها سيف اسرائيل .

كان هذا اول مؤشر للكراهية المستاصلة بين هذين القائدين ، وهو ما حاول الاثنان اخفاعوه حتى ذلك الوقت ، ويصف محمد هيكل ، ذو الحكم الصائب على الناس ، هذين الرجلين على النحو التالى : كان اسماعيل الضابط الكلاسيكى والجندى الممتاز ، رجل مشاة محترف ، مخلص بعيدا عن السياسة تماما ، عوض اى نقص فى الذكاء الفكرى بالعمل الشاق ، فى موسكو كان اكثر الضباط اجتهادا بينما اعتبر كثير من زملائه انه لا يليق بكرامتهم ، اخذ مذكرات مثل الطلبة مرة اخرى ، كان اسماعيل دائما يكتب ودائما يرسم ، لم يكن ضمن حركة الضباط الاحرار : بل انهم اعتبروه فى ذلك الحين غير سياسى لدرجة ان قادة الحركة لم يجرؤا ان يخبروه بالمؤامرة ، ولكن بغض النظر عن اية اعتبارات خاصة بالخبرة ، فان تعيين الرئيس له يرجع الى حد كبير الى عجزه فى مجال السياسة بالاضافة الى الحقيقة القائلة : انه هو والرئيس تخرجا من فصل واحد : ويتقاسمان معا مواقف كثيرة .

كان الشاذلى شخصية مختلفة تماما : فقوامه الممتلىء الانيق يتناقض مع ضخامة جسم اسماعيل ، كان الشاذلى جريئا ، كان فى مقدوره الاختلاط والتحدث جيدا والتاثير فى الناس ، وبعد جولات له كملحق عسكرى فى لندن ، ثم فى الامم المتحدة كان الشاذلى عصريا بطريقة لا يتمتع بها الا القلة من القواد العرب ، كان رجل مظلات — ومن الرواد فى هذا الفرع فى الجيش المصرى — وقفز حتى وقت قريب ، الامر الذى اضاف بلاشك الكثير الى افتتانه .

ان المثلة الاولى لابد ان يكون فيها دائما شىء من الممثل ، ولم يكن الشاذلى بالمستثنى من القاعدة . ولكنه عرف ما يقوم به باستخدامه فتنته لتحقيق اهدافه العسكرية ، وفوق كل شىء رفع معنويات الجيش من اجل المهمة التى يواجهها ، كان الشاذلى يخفى تحت سحره وجراته شخصية الضابط الحاسب الشديد الدقة ، لم يكن هذا فى عسكريته ولكنه كان يتمتع

بذلك الادراك الدقيق الخاص بالامداد والانتباه الى التفاصيل التى تعد جوهرية بالنسبة لضابط المظلات(٩) .

ويرى هيكل ان كراهية الشاذلى لاسماعيل ترجع الى عام ١٩٦٠ نتيجة لاستيائه عندما ارسلت القاهرة اسماعيل للتفتيش على فرقة مصرية تابعة للأمم المتحدة بقيادة الشاذلى فى الكونغو(١٠) وبينما قد يكون هذا مبررا لموقف الشاذلى فان عدم احترام اسماعيل لرئيس اركانه قد يرجع بشكل كبير الى الاحتكاك بينهما أثناء حرب ١٩٦٧ .

ان تعليق هيكل على الضابط المصرى الذى وقع بشكل ما ، والى عداء هذين الضابطين الكبيرين ، والذى كان عليه التنسيق وجعل اتجاهاتهما المختلفة فى بعض الأحيان ذات فعالية ، يستحق الاقتباس ايضا .

ولكن الاختلافات التى لا مناص عنها فى مواقف ادنى بعض الأحيان فى الراى (بين اسماعيل والشاذلى) اضافت اهمية الى عمل الرجل الذى تحتم ذكر اسمه مع الاثنين فى اى سرد للعملية ، وهو الفريق محمد عبد الغنى الجمسى .

ربما كان الجمسى ، من الناحية الثقافية ، افضل ضابط مصرى ، قرا كثيرا ووعى ماقراه . كان يتناول مقالة من مقالاتى من الاهرام ، ويكتب عليها فيضا من التعليقات ويعيدها الى مرة اخرى ، غير انه فى الاجتماعات هادىء جدا ، وان كانت نصيحته تلقى آذانا صاغية واحتراما نظرا لما تنطوى عليه من فطنة وذكاء .

لم يكن الجمسى فى الواقع رجل سياسة ، وقد صدمه الساسة العرب ، وقد نصحه ذات مرة الرئيس ناصر أن يصحب معه بعض القواد الى مؤتمر القمة فى طرابلس وقرر اصطحاب اللواء حسن البدرى والجمسى، وعندما جلسنا حول مائدة المفاوضات كانت هناك فى العادة مقاعد للمستشارين فى الخلف ، وعندما شاهد التنازع بينهم ، سمعت الجمسى يتمتم لنفسه بقوله : « يا الهى هل هذه هى جبهة العرب المتحدين الذين سنحارب معهم ؟ » .

حدث خلال بعد ظهر يوم ٩ أكتوبر حادث كان له أثره فى المجادلة بين اسماعيل والشاذلى ، بعد الظلام تقدم لواء من الفرقة الميكانيكية السادسة المصرية جنوب راس جسر الفرقة التاسعة عشرة فى اتجاه راس سدر ، وتوغل المصريون بعيدا حتى عيون موسى ، على بعد ١٥ كيلومترا جنوب السويس ، حيث اشتبكوا مع كتيبة مظلات اسرائيلية تعززها كتيبة تضم ٢٠ دبابة وتقهقروا ، وساعدت القوات الجوية الاسرائيلية بحوالى ١٠ طلعات ، وكانت قادرة على العمل بحرية حيث أنها كانت بعيدة عن نطاق أسلحة الدفاع الجوى المصرى ، وفقدت القوة المصرية المهاجمة حوالى نصف دباباتها ومركباتها ، وعددا من المقطورات ، وكان المجموع حول المائة مركبة .

الملاحظـــات

(١) هيرزوج فى صفحة ٧٧ يعتقد ان القصة السوفيتية على النحو الذى قيلت به للسادات كانت صحيحة ، وان الأســد كان يفكر جـديا فى وقف اطلاق النــار للاستفادة من المكاسب التى حققها خلال الاثنتى عشرة ساعة الأولى ، غير ان هذا لا يبدو متماشيا مع موقف الأســد قبل وبعـد الســادس .

(٢) هيكل من صفحة ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) المبنية على مقابلات مع جنرال سيون وشارون وجونين .

(٤) قال جنرال بارليف فى لقاء له مع هذا المؤلف : ان ايريز اخبـره يوم ١١ اكتوبر أنه فقد ٢٣ دبابة ، ويصر جنرال جونين على ان المفقـود ٣٦ دبابة .

(٥) يبدو ان ديان كان قد اقترح على اليعازر ضرورة اعفاء جونين ، انظر كتاب « قصة حياتى » من صفحة ٤١٠ — ٤١١ ، غير ان قصة ديان الخاصة بقرار اعفاء جونين غير متماشية مع مذكرات اليعازر (على نحـو ما جاء فى قول هيرزوج) وبارليف .

(٦) انظر من صفحة ١٩٢ — ١٩٣ .

(٧) ربما كان ذلك الضابط فى حاجة الى الاطلاع على سجل باتون بدقة اكثر ، بما فى ذلك كيفية الاعفاء من القيادة على يد ضابط اصغر منه بكثير ، والذى ظل حتى وقت قريب جدا أصغر منه مقاما ، ثم كيف حدث بعد ذلك عندما عاد باتون بعد العفو ، خدم باخلاص وطاعة تحت قيادة قائدان كانا اصغر منه مقاما خلال معظم مدة خدمتهما .

(٨) هذه المعلومات عن عملية تقرير فكرة العبور اساسها مقــابلات مع الجنرال بارليف وجونين وشارون وآدان .

(٩) هيكل ص ٨١ وقد تم اقتباسها باذن منه .

(١٠) لم يستفد قائد الامم المتحدة فى الكونغو الجنرال الســويدى كارل فون هورن ، من الشـــاذلى . انظر الجنـدية من أجل الســـلام (نيويورك ١٩٦٧ صفحة ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٦) .

(١٠)

ضياع وكسب فرص

فى ١٤ أكتــوبر

طلب ســوريا المســاعدة :

تلقى اللواء اسماعيل فى يوم ١١ اكتوبر النداء السورى العاجل بالمساعدة لتخفيف الضغط الاسرائيلى على جبهة الجولان ، وكان اسماعيل ، كمـا سبق ورأينا ، قد قرر عدم القيام بأى هجوم غير معد له اعدادا تاما ، وذلك حتى يتم تقوية راس الجسر ومده فى اتجاه الشرق . كان مترددا بالمخـاطرة بالصواريخ سام ٦ شرق القناة فى رؤوس الجسور المعرضة للخطـــر ، وفى نفس الوقت لم يشأ المبادرة بهجوم كبير قبل وجود هذه الصــواريخ شرق القناة حتى يتسنى مد مظلة سام فى عمق سيناء ، واعتقــد — على ما يبدو — انه من الممكن التوسع بعد أن عانى الاسرائيليون من الاستنزاف لمدة اسبوع آخر .

ومع ذلك ، أجبر النداء السورى اسماعيل على تعديل آرائه ، وشـعر، بحماس ، بالحاجة الى ثقة وتعاون متبادل بين الحلفاء العرب ، الشىء الذى لم يكن قائما فى المنازعات السابقة ، وبناء عليه أمر ، بعد تردد كبير ، بشن هجوم محدود بالدبابات فى الثالث عشر ، وفى اليوم التالى ، بعد مواجهـة تأخر فى الاعداد للهجوم تأجل الهجوم الرابع عشر .

فى يوم ١٢ ، ١٣ اكتوبر عبرت الفرقة ٢١ مدرعات واحد الوية الفرقة الثالثة والعشرين مشاة ميكانيكية الى الضفة الشرقية للقناة فى منطقة الجيش المصرى الثانى ، فى الوقت الذى عبر فيه ثلث الفرقة الرابعة مدرعات وجزء من الفرقة الميكانيكية السادسة الى منطقة الجيش الثالث لتستعد فى المشاركة فى الهجوم المخطط له يوم ١٤ اكتوبر ، كما تم نقل عدد قليل من بطـاريات سام الى الضفة الشرقية لمساندة القوات المهاجمة .

فى يوم ١٣ اكتوبر استسلم موقع بارليف التالى والأخير فى يد المصريين، وكان هذا هو حصن كواى المواجه لبورتوفيق ، واستسلم ٣٧ اسرائيليا بما فى ذلك ٥ ضباط وكان خمسة عشر منهم قد جرحوا ، وفى حاجة الى مساعدة طبية ، وظلت « بودابست » الوحيدة الصامدة .

فى هذا اليوم ايضا ذكرت التقارير المصرية : انها شاهدت طائرتين تحلقان على ارتفاع عال جدا ، بحيث لا يمكن للصواريخ او حتى اسرع واكثر طائراتهم ارتفاعا الوصول اليهما ، واعتقدوا انها طائرات امريكية اس آر ٧١ فى رحلة استطلاعية فوق جبهة المعركة ، ونشرت الصحف المصرية هذا الخبر .

الهجـوم :

فى الساعة السادسة صباحا من يوم ١٤ اكتوبر انذرت الاستعدادات المكثفة للمدفعية على طول الجبهة عن الهجوم المصرى ، وفى الساعة السادسة والنصف قامت ستة طوابير مدرعة ، قوة كل طابور فيها حوالى لواء ، بهجوم فى اتجاه الخطوط المصرية ، كان هناك بالاضافة الى الهجمات الست الكبرى ، عدد من الهجمات الصغيرة انطلقت على طول الخط ، وكان هدف المصريين هو الاستيلاء على الممرات الثلاث الرئيسية : خاتمية والجدى ومتلا ، واغلاقها .

كانت ثلاثة من الهجمات الست المصرية قد انطلقت بتوجيه الجيش الثانى بقيادة اللواء مأمون من مقر قيادتها بالقرب من الاسماعيلية ، واندفعت اكثر هذه الطوابير قربا من الشمال نحو الشمال الشرقى للقنطرة ، واندفع قطاع الفرقة الثامنة عشرة مشاة نحو رومانى ، وفى اقصى الجنوب تقدم لواء مدرعات من الفرقة ٢١ مدرعات من جبهة الفرقة الثانية مشاة فى اتجاه شرقى ، شمال الطريق من الاسماعيلية نحو تاسا وممر خاتمية وموازيا له ، ومن تالاتا فى قطاع الفرقة السادسة عشرة مشاة كان هناك توقع بأن يقوم لواء آخر مدرعات من الفرقة ٢١ بالتجمع مع اللواء الأول عند تاسا .

وفى منطقة الجيش الثالث تحت قيادة اللواء واصل جاء الهجوم فى اقصى الشمال من جهة قطاع الفرقة السابعة مشاة وتم توجيهه شرقا نحو ممر الجدى ومقر الرئاسة المتقدمة فى أم خشبة ، كان هناك هجوم مدرع مماثل من قطاع الفرقة التاسعة عشر نحو ممر متلا ، على مسافة ١٥ كيلو مترا فقط ، ومن الجزء الجنوبى لقطاع الفرقة التاسعة عشرة قام لواء آخر مدرعات بالهجوم فى اتجاه الجنوب الشرقى نحو ممر سدر جنوب متلا .

عندما بدات الهجمات المصرية فى اقصى الشمال فى الضغط على خط ساسون الطويل الامتداد ، أمر الجنرال جونين فرقة آدان ــ التى لم تكن قد انسحبت كلية بعد ــ بالتحرك الى الخلف وان تتولى مسئولية المنطقة التى كانت قد أخلتها للتو ، وسرعان ما دفعت قوات آدان المصريين الى الوراء وانزلت بهم خسائر فادحة . وفى ساعة مبكرة من بعد الظهر كان المصريون قد عادوا الى الوراء الى نقطة بدايتهم ، وقد فقدوا حوالى ٥٠ دبابة .

لم يحقق الهجوم المركزى للجيش الثانى ــ الموجه نحو تاسا وممر خاتمية ــ نتائج افضل ضد اللواء اليمينى لشارون ، وتوقف المصريون بفضل اصرار المدافعين وقد فقدوا ٣٠ دبابة ، وواجه اللواء اليسارى لشارون الهجوم من تالاتا واوقفه ايضا مع انزال خسائر بالمصريين بلغت ٣٠ دبابة .

حقق الهجومان المصريان من منطقة الفرقة السابعة والفرقة التاسعة عشر نحو ممرات الجدى ومتلا نجاحا كبيرا فى بادىء الأمر ، ضد الدفاعات الضعيفة الى حد ما لفرقة ماجن غير انه لم تستطع اى من تلك الهجمات تخطى الطريق الرئيسى الجانبى ، رغم ان المحاولة فى اتجاه ممر متلا هددت بالفعل بالاختراق . وفى وقت متأخر من بعد الظهر كانت قوات ماجن قد طوقت الهجوم بعد ان تخلت عن جزء من الأرض ، ولكنها تمكنت من القضاء على ٦٠ دبابة مصرية .

جاء النجاح المصرى العظيم فى البداية ، وخسارته الكبرى ، فى الهجوم السادس نحو سدر : ففى هذه المحاولة اندفعت الدبابات المصرية ، وتقدمت اكثر من ٢٠ كيلومترا وكادت ان تصل الى الممر ، ولكنهم توقفوا فى النهاية بعد محاولة دفاعية مستميتة ، من جانب قوات المظلات والمدرعات مع تعزيز جوى قوى ، فى هذا الوقت تقهقر هذا الطابور اخيرا ، وفى وقت متأخر من بعد الظهر كان قد فقد اكثر من نصف قوته ، اى حوالى ٩٠ دبابة .

كانت القيادة العليا المصرية فى عمق مخبئها جنوب شرق القاهرة تتلقى اثناء النهار تقارير متفائلة من مقر رئاسة الجيشين ، وتوقعت نجاحا عظيما ، وهذه التقارير المتفائلة سرعان ما انعكست على شكل ادعاءات بالنصر تبثها اذاعة القاهرة على العالم كله ، غير انه فى منتصف الليل حل التشاؤم محل التفاؤل فى التقارير التى تلقاها اللواء اسماعيل : عندما رسم ضباط الاركان المواقع الاخيرة للطوابير على خرائط العمليات فى موقع القيادة استطاع اسماعيل ان يرى ان ثلاثة « اصابع » ضيقة ، فقط قد اندست لبضعة أميال فى الخطوط الاسرائيلية أمام ممرات الجدى ومتلا ، وعلى طول الطريق الساحلى نحو راس سدر ، وادرك انه مع الصباح هذه النتوءات المكشوفة البعيدة عن الغطاء الفعال لمظلة صواريخ سام ، ستصبح هدفا للهجمات الجوية الاسرائيلية المكثفة ، فأمر جميع الوحدات بالعودة الى مواقعهم الأصلية فى البداية(١) .

لم يكن المصريون قد اكتشفوا بعد ضخامة الخسائر ، وفى اليوم التالى ادركوا أن خسائرهم فاقت الألف ، وأن الاسرائيليين دمروا حوالى ٢٦٠ دبابة ، واعتقدوا أنهم دمروا ١٤٤ دبابة اسرائيلية ، ولكن الحقيقة ان اجمالى خسائر اسرائيل فى الدبابات لم تتعد الأربعين(٢) ، وفقد المصريون ايضا حوالى ٢٠٠ سيارة مدرعة أخرى .

ومن الخسائر المصرية ، اصابة اللواء مأمون بأزمة قلبية فى مقر قيادة جيشه الثانى فى حوالى الساعة الثامنة والنصف صباحا ، وأمر اسماعيل

بنقله الى مستشفى بالقاهرة ، وعين بدلا منه اللواء عبد المنعم خليل لحل محله فى قيادة الجيش الثانى .

تكتيكات الدفاع الاسرائيلى :

كان الاسرائيليون ، فى هذه الاثناء ، قد وضعوا تخطيطا دقيقا للمشاة والمدفعية لمواجهة صواريخ ساجر وآر. بى. جى ٧ المصرية ، فكان يعمل بالتنسيق مع كل دبابة او دبابتين ، مدفع آلى طراز ايه. بى. سى ، غالبا ما كان يوضع على مسافة قصيرة من الجناح او المؤخرة ، مهمته حماية الدبابة من اسلحة المشاة المضادة للدبابات (كان لدى التشكيل الاسرائيلى للمدرعات فى المتوسط مدفع واحد فقط ايه. بى. سى. لكل ثلاث او اربع دبابات ، ولكن بالنسبة لهذه العملية كان هناك واحد لكل دبابة ، او واحد لكل دبابتين) .

كانت المدافع الآلية طراز ايه. بى. سى. فعالة بصفة خاصة ضد صواريخ المشاة من طراز ساجر حيث انه كان يتعين استمرار وجود هذه الصواريخ التى توجه سلكيا ، امام نظر الذى يديرها لمدة ١٠ — ١٥ ثانية من وقت الانطلاق ، وكانت عدة طلقات من نيران المدفع الآلى فى اتجاه موقع ساجر ، عادة ما تسبب فرار من يطلق النار ، وكان الصاروخ ينطلق فى الهواء او الى الرمال دون ان يحدث خسائر ، وكانت الصواريخ ساجر المحمولة ، على حاملات المدرعات الخاصة بى. ام. بى. ذات مناعة ضد نيران المدافع الاسرائيلية الالية ، ولكن هذه العربات تعرضت لنيران المدفعية، ولو توقفت فترة طويلة تسمح للعامل عليها بتوجيه صاروخه الى الهدف، كان غالبا ما يتم تدمير الـ BMO قبل ان يستطيع الصاروخ تحقيق هدفه .

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه التكتيكات مجدية فى مجال صد هجمات المشاة المصرية ، كانت فعالة بصفة خاصة ، عندما كانت المدرعات الاسرائيلية المدافعة فى موقع سطحى ، وفى بعض الحالات فى كمين ، وعندما كان العاملون على صواريخ ساجر المهاجمة وآر. بى. جى — ٧ يعرضون انفسهم لمواقع اطلاق النار ، ولكن فى يوم ١٤ اكتوبر سهل المصريون الأمور على الاسرائيليين بفشلهم فى تقديم أية مساندة من المشاة لطوابير المدرعات والميكانيكية المهاجمة ، ومن ثم استطاع الاسرائيليون تكريس الانتباه ، غير الموزع ، للدبابات وايه. بى. سى. والمدفعية ضد الدبابات المصرية والـ ايه. بى. سىء .

كان الاسرائيليون قد استعدوا للهجوم المصرى ، فقد قدروا وقت ومكان الهجمات المصرية تقديرا سليما ، وان كانوا قد توقعوا هجمات واسلحة اقوى وبدلا من التوجه راسا لملاقاة المصريين كما جرت العادة فى الماضى ،

وضع الاسرائيليون دباباتهم على شكل كماشة مفتوحة — وفتحتها متجهة الى الغرب — على طول كل من الطرق السابقة ، وكانت الدبابات قد أخذت مواقعها فى حفر اسفل التل ، بعضها طبيعى وبعضها محفور بالبلدوزر . حاربوا بفصائل تضم من ثمانى الى اثنتى عشرة دبابة لكل فصيلة موجهها الخاص باطلاق النار .

وبعد اطلاق النار عدة دورات ، تحركت الدبابات الى اماكن مجهزة لها الى اقصى المؤخرة لارباك التعزيز المصرى غير المباشر للمدفعية ، ثم بعد اطلاق عدة دورات اخرى ، عادت الدبابات الاسرائيلية الى مواقعها الأصلية ، وفى اثناء هذا كانت بالتأكيد ، ايه. بى. سى المصاحبة لهم ، وكذا طلائع المراقبين الملحقين بالمدفعية يواصلون مهمتهم الدفاعية بالدبابات المخصصة لهم .

وعندما حانت الفرصة ، استخدم القادة الاسرائيليون مناورات التطويق لضرب اجنحة الطوابير المصرية المكشوفة ، كانت تلك الحركات الخاصة بالتطويق ذات فعالية خاصة فى قطاع الجنرال شارون ، وبالنسبة لفرقة ماجن فى الدفاع عن ممر متلا .

وبدون اعداد مسبق لخطط اطلاق النار التفصيلية على النحو الذى استخدموه فى يوم ٦ اكتوبر ، سقطت حشود المدفعية المصرية بشكل كبير فوق الصخور الخاوية والكثبان الرملية ، اما المدفعية الاسرائيلية من الناحية الاخرى فكانت فى حالة تنسيق تام مع مدفعية الدبابات وساعدت على تحطيم التشكيلات المصرية ، وكان التكتيك الاسرائيلى للتعزيز الجوى فعالا خلال المنطقة كلها — على نحو ما سبق ذكره — وبصفة خاصة فى شمال راس سدر استطاع الطيارون الاسرائيليون استغلال حقيقة ان رؤوس الحربة المصرية تعمل بعيدا عن تأثير حمايتهم بواسطة سام ، استغلالا تاما ، على الرغم من انه كان للدفاعات الجوية المصرية مدى انحنائى يصل الى ٣٠ كيلومترا اسميا ، الا ان مكاسب سام ٦ والرادار المتعقب له لم يكن ذا فعالية كبيرة بالنسبة لما هو ابعد من ١٥ كيلومترا ، ولم يكن المصريون قد جازفوا بصواريخ سام ٦ حتى الآن على الضفة الشرقية .

على الرغم من ان الدبابات الاسرائيلية فتحت النيران على المصريين على مدى واسع جدا ، الا ان المصريين صمدوا ولم تردعهم النيران البعيدة المدى .

كانت معظم الاشتباكات التى وقعت فى ذلك اليوم على مدى يتراوح ما بين ٤٠٠ — ٥٠٠ متر ، وعلى الرغم من ان هذا المدى الذى كان لمدافع الدبابات السوفيتية تأثير قوى خلاله ، الا ان قصف مدفعية الدبابة الاسرائيلية ومهارة المناورة كانت أكثر تفوقا بكثير جدا عن مثيلتها المصرية ، اضف الى ذلك انهم كانوا يتمتعون بالميزة المتأصلة لوضعهم الدفاعى حيث كانت الدبابات

فى مواقع اسفل التل يصعب رؤيتها قبل ان يصبح المهاجمون أهدافا مغرية .

وبينما كان الاسرائيليون يناورون بين مواقع خفية متعددة لعرقلة الفرق المصرية المضادة للدبابات المحملة على ب ار د ى ام ، و ب ام ب ، التقطت مدافع دباباتهم الدبابات المصرية المتوسطة المدى (ت — ٥٤ و ت ٥٥ و وعدد من ت ٦٢) ، كما ضربوا ايضا المدافع المصرية الثقيلة المضادة للدبابات المصاحبة لها قبل ان تصل الى المدى الفعال ، وساعدت نيران المدفعية المساندة وقوة المدافع الالية الاضافية الخاصة بابه ب سى الملحقة، على صدر رجال المشاة الميكانيكية المصريين المترجلين ، الذين حاولوا المناورة بصواريخهم لمساندة الدبابات .

عجلت هذه المحاولة المصرية للانطلاق من راس الجسر ، باكبر معركة دبابات منذ الحرب العالمية الثانية ، وربما اشتملت على ١٠٠٠ دبابة مصرية وليس اكثر من ٥٠٠٠ من المشاة الميكانيكية فى مواجهة ما لا يقل عن ٨٠٠ دبابة اسرائيلية .

وجدير بالاشارة ، ان الاسرائيليين لم يتعقبوا الطوابير المصرية المنسحقة عند انسحابها — وربما كان هذا الاخفاق الظاهرى يرجع الى عدم قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على حمل تعزيزها التكتيكى الى « صندوق سام » ، وعدم رغبة الاسرائيليين فى تعريض انفسهم لنيران الدفاع الجوى بدون مساندة .

وفى اليوم التالى كان هناك هجومان مصريان صغيران نسبيا : احدهما هجوم على طول طريق رومانى — العريش فى اتجاه القاعدة الاسرائيلية والمطار فى بالوظة ، وقد صدتها قوات ساسون بعد معركة شاقة ، وكان هناك هجوم آخر اصغر شرق الاسماعيلية فى اتجاه بير جفجافة ، ولم يكن مندفعا بقوة ، واستطاعت قوات شارون تطويقه بسهولة، ولم يعتبر الاسرائيليون ايا من هذين الهجومين ذا اهمية .

مخطط الهجوم الاسرائيلى المضاد :

ونظرا لوقوع معركة ١٤ اكتوبر لم تستطع فرق شارون او ادان اتمام الاستعدادات اللازمة للهجوم المخطط له فى تلك الليلة على القناة وعبورها ، وبناء عليه اجل جونين العملية ، بموافقة تل أبيب ، لمدة اربع وعشرين ساعة، وفى الوقت نفسه اكدت نتيجة المعركة ، التقديرات الاصلية التى كانت سببا فى اعتقاد العازر وبارليف وجونين ان افضل فرصة لضربة مضادة ناجحة يمكن ان تاتى بعد ان يكون المصريون قد نقلوا احتياطى المدرعات الخاص بهم شرق القناة ، وبعد اصابتهم بخسائر فى الدبابات ، الامر الذى يساعد على اعادة توازن القوى الذى كان قائما قبل الحرب .

والاهم من هذا كله ان الفرقة المصرية ٢١ مدرعات التى كانت تشكل حتى يوم ١٣ اكتوبر تهديدا بهجوم مضاد ، فى حالة القيام بالعبور فى اى وقت، لم تعد فى ذلك الحين فى اى موقف يسمح لها بمنع استغلال الضفة الغربية فى العبور ، ولا فى حالة تسمح لها بالعودة السريعة الى الخلف .

وفى مستهل الليل اكد الجنرال العازر الأمر ببدء هجوم مضاد بعبور القناة فى الليلة التالية ، يوم ١٥ اكتوبر .

سبب فشل المصريين :

كان اللواء اسماعيل على صواب عندما طبق نظام التقدم بجبهة عريضة فى هجومه الأول عبر القناة يوم ٦ اكتوبر ، والآن ، فان هذا الخروج الظاهرى على المبدا العتيق الذى يقضى بالهجوم « بالجملة » ، كان افضل طريقة استطاع بمقتضاها تحقيق تفوقه العددى الضخم ضد خط الدفاع الاسرائيلى القوى والممتد طويلا ، ولكنه نحيل وهش ، وكان على صواب ايضا عندما رفض فى وقت لاحق الاقتراح التقليدى الجرىء للواء الشاذلى بالاستغلال المفاجىء والعدوانى للنجاح لمصرى فى ٦ ، ٧ ، ٨ اكتوبر ، فربما افقد مثل هذا الاستغلال ، كما راينا ، كل المكاسب التى احرزوها فى تلك الايام ، بمنحهم الاسرائيليين فرصة الاستخدام الكامل لتفوقهم الذى لا جدال فيه فى الجو ، ومعاركهم المتحركة بالمدرعات .

ولكن عندما تلقى اسماعيل النداء السورى بالمساعدة يوم ١١ اكتوبر ، لم تكن امامه ، بوصفه قائدا اعلى لجميع القوات العربية فرصة للاختيار ، سوى الاستجابة غير ان غلطته كانت فى طريقة الاجابة .

من الواضح أنه كان من الضرورى بذل جهد جوهرى ، اذا ما قدر للهجوم تحقيق هدفه الكبير بتخفيف الضغط على السوريين ، ومن الواضح بالمثل انه كان يتحتم القيام بالهجوم بطريقة لا تتيح للاسرائيليين الفرصة التى حرموهم منها طويلا ، لذلك ، قرر اسماعيل استخدام ستة الوية فقط فى الهجوم ، فى الوقت الذى كان فيه اكثر من عشرين لواء آخرون يحمون خطوط رؤوس الجسور التى كسبوها بمشقة .

غير انه فى يوم ١٤ اكتوبر كانت راس الجسر تلك معززة بشكل قوى للغاية ، بحيث ان تامينها ما كان ليتعرض للخطر لو انه خصص له من اربعة الى ستة الوية اضافية بجانب الجهد الهجومى ، وبالتالى تتحقق بشكل اكثر فعالية ، المهمة الاولى وهى الضغط على الاسرائيليين بحيث يجدون انفسهم مجبرين على تخفيف ضغطهم على السوريين ، ولكن سواء كانت القوة المهاجمة مكونة من ستة او عشرة او اثنى عشر لواء ، فان فرصتها فى النجاح كانت ضئيلة عندما تشتت المجهود الى سلسلة من الهجمات

المترعة ، يكون تعزيز يتماثل في امتداد جبهة طولها حوالى ٢٠٠ كيلومتر ومن القرارات التي لا تقل خطورة كان قرار تصعيد نوعية الهجوم كان هجوما بالمدرعات أو المشاة الميكانيكية ، متاركين المشاة المصرية ما انا عليه لتأمين خطوط رؤوس الجسور . في هذه الحالة وجدت الحكمة العسكرية التقليدية التي توصي بجهد مشترك للأسلحة ، تعزيزا لها من تجربة الأيام الثلاثة الأولى من الحرب ، عكسا أثبتت المشاة المصرية جدارتها ببسالة في مواجهة المدرعات الاسرائيلية .

ولذلك ، وبينما كانت مشكلة القوة المستخدمة في هذا الجهد الهجومي مثله ما كانت لتتاح لها فرصة انزال خسائر فادحة بالاسرائيليين ، وكسب بعض الأهداف الأرضية الهامة لصالح المصريين ، يكون تركيز الجهد الهجومي واشتماله على مشاة تعمل مع العناصر الميكانيكية والدبابات .

ومن الأمور المشكوك فيها قليلا ، انه كان في استطاعة هجوم منظم قوي يضم ستة ألوية مصاحبها بمظلة دفاع جوي منتظمة ومركزة تفوقها ، الوصول الى رومانى أو ممر خاتمية أو ممر متلا ، لو أن عدد تلك القوة ازداد الى عشرة أو اثنى عشر لواء ولما كان من المحتمل أن يستطيع الاسرائيليون سدهم بدون جهد شديد الأمر الذي كان من الواضح أنه سيتطلب اعادة توزيع وحدات من فوق الجبهة السورية .

أضف الى ذلك أنه في مثل تلك الظروف لم تكن اسرائيل لتستطيع القيام بهجوم عبر القناة في اليوم التالي ، وعلى هذا النحو فانه من الواضح أن الفرصة المثلى للنجاح المصري كانت في التقدم المركز على جبهة ضيقة نحو ممرات متلا وسدر ، غير أنه كان من المقرر أن أية محاولة منسقة ومركزة بين الأسلحة مجتمعة في أي مكان على طول الجبهة ، ستكون أفضل مما حدث .

لقد ترك اللواء اسماعيل فرصة ، وأتاح للاسرائيليين فرصة .

الملاحظات

(١) لقاء مع المشير اسماعيل .

(٢) كانت المصادر الاسرائيلية غير المحظورة « مشوشرة » ، ومع ذلك قال الرسميون دبابة اسرائيلية التي دمرت في ذلك اليوم لم تعد ، باستثناء ست عادت الى العمل سريعا .

(١١)

عملية « القلب القوى »
والمزرعة الصينية
١٥ — ١٦ اكتوبر

الاستعدادات الاسرائيلية :

كانت خطة جنرال جونين للعبور الى الضفة الغربية لقناة السويس تقوم على اساس خطط ما قبل الحرب — والتى تطورت بالفعل عندما كان شارون قائدا للقيادة الجنوبية — والتى كان اسمها الكودى « القلب القوى »(١) : كانت تلك الخطة ترمى الى عبور فرقتين اقامة رأس جسر على الضفة الغربية ينطلق منه هجوم الى الشمال او الى الجنوب ، وربما كان الحد الأقصى للهدف هو عزل الاسماعيلية او السويس ، وكان جونين قد قرر أن يكون الهجوم ، فى هذه الحالة ، الى الجنوب لأسباب سبق ذكرها .

كان يتعين تنفيذ طليعة عملية العبور بواسطة فرقة شارون بالألوية الثلاثة مدرعات ومصاحبة لواء رابع مظلات ، كانت قوة مدرعات شارون فى ذلك الحين تتكون من حوالى ٢٨٠ دبابة .. وكان على المظليين بمساندة جزء من لواء الدبابات العبور اثناء ليل ١٥ — ١٦ اكتوبر ، وبمجرد اقامة رأس جسر على الضفة الغربية يقوم شارون باحضار جسرين ليقيمهما فى الوقت الذى يقوم فيه المظليون والدبابات المرافقة لهم بمد رأس الجسر الى ما وراء قناة المياه الحلوة نحو الغرب ، وعلى مسافة ما لا يقل عن اربعة كيلومترات شمال وجنوب الجسور ، لصد النيران المباشرة من المدافع المصرية المضادة للدبابات على الجانبين ، وكان من المتوقع أن يعمل احد الجسور ، على الأقل ، فى الصباح المبكر ليوم ١٦ اكتوبر .

فى هذه الأثناء كان على باقى فرقة شارون (اكثر من لواءين) الابقاء على ممر مفتوح شمال البحيرة المرة الكبرى ، وفى نفس الوقت القيام بهجمات متفرقة فى اتجاه الشمال تجعل المصريين يعتقدون أن هذا تهديد للجناح الأيمن للجيش الثانى ، وكان على فرقة ادان بدء العبور فور تشييد الجسور ، بعد أن استعادت فرقة ادان كامل قوتها بثلاثة الوية ، فى كل لواء ١٠٠ دبابة ، واصبحت مستعدة للقيام بهجوم من رأس الجسر نحو الغرب والجنوب ، اما فى وقت متأخر من مساء السادس عشر او فى ساعة مبكرة من السابع عشر .

وما ان قام ادان بالهجوم حتى تولت فرقة الجنرال ماجن (فرقة مندلر السابقة) المكونة من لواء واحد مشاة ولواءين مدرعات تخفيف الضغط عن فرقة شارون وتحمل مسئولية كل الجسور والابقاء على الممر مفتوحا الى الشرق ، عندئذ كان على شارون ان يتابع المؤخرة اليمنى لادان لتوفير الحماية ، وتأكيد القوة الكافية الملائمة للهجوم الى الجنوب .

وفى ساعة مبكرة من الخامس عشر انسحبت فرقة ادان مرة اخرى من الخط وتولت فرقة ساسون من جديد مسئولية القطاع الشمالى باسره ، وتحركت قوات ادان على الطريق الجانبى الى منطقة تجمع جنوب تاسا .

الأرض :

كان الأرض الرئيسية للعمليات فى جبهة سيناء فى اليومين التاليين مركزة فى منطقة على شكل مثلث تقريبا قاعدته حوالى ٤٠ كيلومترا على طول قناة السويس والبحيرة المرة الكبرى جنوب الاسماعيلية ، ورأس المثلث عند تاسا على الطريق الجانبى ، واحد الزراعيين ممتد حوالى ٣٠ كيلومترا من تاسا على طول طريق تاليسمان الى القناة شمال بحيرة التمساح مباشرة ، والذراع الآخر ممتد من جنوب غرب تاسا ، مارا بتلال رملية تكاد تكون صعبة العبور ، ومتجها الى الحصن الاسرائيلى السابق فى « بوتزر » عند التقاء البحيرة المرة الكبرى بالبحيرة المرة الصغرى .

كان هناك داخل هذه المنطقة المثلثة خمسة طرق رئيسية صلبة ، كان هناك شرق القناة مباشرة عند بعض الأماكن التى لا تبعد أكثر من ١٠٠ متر من السد الاسرائيلى على حرف المياه ، الطريق الذى اسماه الاسرائيليون ليكسيكون والذى كان يربط حصون خط بارليف . كانت هنـاك اربعة حصون على طول قاعدة المثلث : « بودتزر » الذى استولت عليه الفرقة السابعة المصرية ، « ولاكيكان » على مسافة ١٥ كيلومترا شمالا ، على الشاطىء الشمالى الشرقى للبحيرة المرة الكبرى وكان مهجورا ، « وماتزمد » على مسافة ٧ كيلومترات أخرى شمالا فى منطقة الفرقة المصرية السادسة عشر مشاة ويطل على التقاء القناة بالبحيرة المرة الكبرى ، و « بوركان » على مسافة ٢٠ كيلومترا نحو الشمال عند التقاء طريق تالسمان بلكسيكوف، وكان فى يد الفرقة الثانية المصرية ، وكان لاكيكان وماتزميد غير محتلين .

كان هناك على مسافة تتراوح بين ٥٠٠٠ و ١٠٠٠٠ متر شرق ليكسيكون ما يسمى بطريق المدفعية الذى شيد لتسهيل مساندة المدفعية لدفاعات بارليف، وكان يقطع المثلث بشكل تقريبى طريق يسمى اكافيش ممتد من راس المثلث فى تاســا فى الجنــوب الغربى ، يلتقى بطريق ليكسيكون بين ماتزميد ولاكاكين ، والى غرب مفترق طريق نفيشة اكافيش مباشرة طريق آخر — يسمى طيرطور — متشعب الى يمين اكاديش الذى يتجه فى تلك النقطة جنوبا نحو لاكيكان .

تم تشييد طريق خاص يسمى طيرطور به اقل قدر ممكن من الانحدار ، ومتسع من الجانبين ، والهدف الرئيسى لتشييده هو السماح بالتحرك المباشر للجسور الضخمة ، والمواد الخاصة بالجسور الى نقطة العبور السابق اعدادها فى مواجهة الدفرسوار ، وكان السطح الطوبى الصلد للساحة — وهو نهاية طريق طيرطور — على بعد بضعة امتار شمال نقطة التقاء القناة بالبحيرة المرة الكبرى ، والى الجنوب الغربى لحصن ماتزميد مباشرة ، كان طريق طيرطور يقطع طريق ليكسيكون على بعد كيلومتر واحد شمال شرق ماتزميد ، ويمتد مباشرة عبر ذلك الحصن ، وكان الطريق الخامس الذى اسماه الاسرائيليون ناحالا ، يربط حصون لاكيكان وماتزميد ، ويمتد غرب ليكسيكون وموازيا له بوجه عام بمحاذاة شاطىء البحيرة المرة الكبرى .

كانت هناك ايضا خمسة معالم ارضية بين طريقى المدفعية وليكسيكون اصبح لها اهميتها فى الأحداث التالية : فى الشمال جنوب غرب مفترق الطرق بين تالسمان والمدفعية ، كتلة تلال اسماها الاسرائيليون هاموتال ، واطلق عليه المصريون تاليا ، وكان هناك قتال عنيف على هـذا الموقع فى الأيام السابقة ، ولكنه حاليا اصبح فى حوزة الجناح الأيسر للواء الفرقة السادسة عشرة المصرية ، وعلى مسافة حوالى ١٢ كيلومترا الى الجنوب غرب طريق المدفعية مباشرة ومطلا على الطرف الشرقى لطريق طيرطور كتلة تل اصفر يسمى تليفزيا ، كان هذا التل محتلا جزئيا بوحدات الخط الأمامى فى وسط الفرقة السادسة عشرة ، والى غرب تليفزيا ، شاغلا معظم المســاحة بين طريقى ليكسيكون والمدفعية كتلة تلال كبيرة يعرفها الاسرائيليون باسم ميسورى والمصريون باسم تالاتا ، والى جنوب غرب مفترق الطــريق بين اكافيش والمدفعية تل صغير ، ولكنه مهم ، اطلق عليه الاسرائيليون الاسم الكودى كيشــوف .

وكان خامس المعالم الأرضية الهامة هو ما يعرفه الاسرائيليون باسم « المزرعة الصينية » فى الأرض المنخفضة المنبسطة جنوب ميســورى ، ويقع معظمها شمال غرب طريق طيرطور ، وكان من الأسباب التى جعلت لهذه المزرعة اهمية عسكرية وجود شبكة قنوات الرى والسدود التى تفصل بين الحقول المزروعة ، وقد كانت بمثابة خنادق واستحكامات جاهزة لرجال المشــاة .

خطــة شــارون :

كان شــارون قد تولى فى يوم ٨ اكتوبر الاشراف على اللواء الأوسط مندلر — برئاسة كولونيل ريشيف — ونقل لواءه من المشاة المدرعة الى رئاسة مندلر فى الجنوب ، وبناء عليه ، كان لديه ، فى يوم ١٤ اكتوبر ثلاثة الوية مدرعات متناسقة فى فرقته — اللواء الخاص بريشيف ، واللواء الخــاص بكولونيل توفبارانيف ، واللواء الخاص بحاييم ايريز ، ولواء المظلات الخاص بكولونيل مات الملحق به ، والذى كان فى الاحتيــاط من قبــل فى منطقــة ممر متلا تحت اشراف جنرال ماجن .

كان على لواء شارون فى اقصى الشمال — وهو لواء رافيف — ان يبدا العملية على يمين الفرقة فى ساعة متاخرة من بعد الظهر بمساعدة المدفعية بهجوم متعدد الاتجاهات نحو طريق المدفعيـة والمواقـع المصرية فى تالانا وتيلفيزيا ، وكان على لواء ريشيف بعد ذلك بساعة واحدة تقريبا ، عند الغسق تماما ، التقدم عبر البلد جنوب طريق اكافيش الى البحيرة المرة الكبرى بالقرب من حصن لاكيكان المهجور على خط بارليف ، كان على ريشيف عندئذ الاتجاه نحو الشمال الغربى على خط بارليف والساحة القريبـة منه التى سينطلق منها عبور القناة الى الدفرسوار .

من اجل هذه العملية تم تعزيز لواء رشيف بكتيبة مدرعات من لواء رافيف ، مع كتيبة مشاة مدرعات من لواء ايريز ، وكتيبة مشاة مدرعات مستقلة كانت قد الحقت بفرقة شارون ، وبناء عليه اصبحت قيادة ريشيف تتضمن اربع كتائب مدرعات (خمس بكتيبته الاستطلاعية) وثلاث كتائب مشاة مدرعات ، وكانت قوة هائلة حجمها حوالى نصف حجم فرقة شارون الاساسية .

وما ان وصل ريشيف الى ماتزميد ومكان العبور حتى قام بتقسيم قيادته الى ثلاث فرق منفصلة ، وكان على كتيبة دبابات واحدة (التى انضمت من رافيف) الاتجاه الى الشمال الشرقى على طول طريق اكافيش ، لتطهير ذلك الطريق من اى مصريين يحتمل وجودهم فيه ، وتأمين الطـريق لقوات المظلات التابعة لمـات ، الذى كان قادما من الجنوب الشرقى اسفل ذلك الطريق الى نقطة العبور .

وكان على ريشيف ان يواصل مع الكتائب الثلاث المتبقية للدبابات سيره شمالا بعد مفترق طريق ليكسيكون — طرطور ، كما لو كان سيقوم بتطويق الجناح اليمينى للجيش المصرى الثانى ، وكان الاسرائيليون يودون ان يركز المصريون انتباههم على هذا الهجوم ، حتى لا يتسنى لهم ملاحظة انشطة عملية عبور القناة فى اتجاه للجنوب الغربى ، وكان على كتيبة الاسـتطلاع الخاصة بريشيف البقاء فى الساحة لتأمينها حتى يصل لواء المظلات التابع لمـات ، كما كان على كتائب المشاة البقاء فى لواء احتياطى شرق ماتزميد مبـاشرة .

كان على لواء المظلات الخاص بمات الذى تعززه فصيلة دبابات ، التقدم اسفل طرق اكافيش وليكسيكون على نقطة العبور ليلتقى فى الطريق بالكتيبة الملحقة بريشيف (من لواء رافيف) ، فى هذه الاثناء كان مقـررا لفرقة المهندسين المصاحبة للواء ريشيف فتح منافذ من الساحة الى القناة ، وان تتحرك قوات المظلات التابعة لمـات عبورها مباشرة فى قوارب مطاط قابلة للطى ، وكان متوقعا حدوث العبور قبل الساعة الحادية عشر بعـد الظهـر .

كان اللواء الآخر مدرعات لشارون بقيـادة كولونيل ايريز فى فرقة الاحتياطى ، وكان عليه ان يسير خلف قوات المظلات الخاصة بمـات ، وكان جزء من هذا اللواء مسئولا عن سحب اجزاء الجسر العائم ، والجسر السابق

تصنيعه من بوكوم ، فى منتصف الطريق بين تاسا ومفترق طريق المدفعية — واكافيش ، وكان من المستطاع استخدام الأجزاء الكبرى من الجسر العـائم الذى كان ايريز مسئولا عنه استخداما منفصلا ايضا كحوامل للدبابات ، وقد استخدمت احدى كتائب ايريز المدرعة هذه « المعديات » فى عبور القنـاة خلف مات قبل ان يتم تركيب الجسور .

وما ان وصل مات الى الضفة الغربية معززا بدبابات ايريز ، حتى كان عليه الاندفاع راسا للاستيلاء على معابر على قناة المـاء الحلو ، ومد راس الجسر للمسافة المطلوبة وهى اربعة كيلومترات شمال وجنوب نقاط الرسو .

« افظع ايلة » — لشارون :

كانت الخطة جيدة — ونجحت ، ولكن لسببين جوهريين كانت قريبـة جدا من الفشل : السبب الأول : ان المعدات الاسرائيلية الخاصة بالجسور ، حتى الأجزاء الخاصة منها بالجسور العائمة ، كانت ثقيلة جدا وغير ملائمة ، فلقد افترض التخطيط الاسرائيلى لعملية « القلب القوى » قبل الحرب أن حصون خط بارليف ستكون بمثابة قاعدة قوية للعملية ، وانه من الممكن تجميع مواد الجسور وتصنيعها مسبقا فى طريق ليكسيكون او خلفه مباشرة ، ولم يكن الاسرائيليون يتصورون اطلاقا احتمال سحب هذه الحمولات الشاقة حوالى ٢٠ كيلومترا عبر الصحراء تحت وابل المدفعية ونيران الأسلحة الصغيرة .

والسبب الثانى : لاقتراب العبور من الفشل هو ان المصريين كان لهم قوة محتشـدة على مقربة من طـرق طرطور واكافيش اكبر مما كان يتوقعها الاسرائيليون ، وكانت مقاومتهم اكثر عنادا مما قدروا ، والواقع انه لو ان المصريين ادركوا بسرعة طبيعة العملية الاسرائيلية لسحقوها ، فلاشك انه كانت لديهم القـوة لذلك على كلتا الضفتين الشرقية والغربية .

كانت هجمات شارون المختلفة الاتجاهات ناجحة للغاية ، كما كانت ، فقد ظل المصريون لأكثر من ٢٤ سـاعة مضللين ، معتقدين ان الهدف الاسرائيلى مجـرد الوصول الى الجناح اليمينى للجيش الثانى ، غير انه ، خلافا لذلك ، وقعت العملية الاسرائيلية منذ البداية فى مشاكل .

بدات طليعة هجوم كولونيل رافيف نحو تاليا وتيليفزيا فى السـاعة الخامسة بعد الظهـر حسب الجـدول ، وسرعان ما توقف الهجوم نتيجة للدفاع المصرى المتيقظ ، وان كان ذلك متوقعا ، غير أن العملية الاسرائيلية فى اماكن اخرى كانت مختلفة بالفعل عن الجدول المخطط لها ، فلم يتسلم لـواء مات قواربه او حمولتها — حـوالى ٦٠ نصف مجنزرة — فى الوقت المقدر لها ، والواقع انه لكى يتحرك على الاطلاق كان يتعين على قوات المظلات تجنيد بعض السيـارات فى تاسا ، تلك التى كان مقـدرا تسليمها لوحدة أخرى .

كانت بداية تحرك لواء ريشيف متاخرة هى الاخرى ايضا بعض الشىء ولكنه وجد بعدئذ ان التحرك نحو البحيرة المرة الكبرى وليكسيكون سيكون سهلا بالمخادعة ، ولم يواجه سوى مقاومة متقطعة ربما من جانب دوريات مصرية صغيرة تغطى جناح الفرقة السادسة عشرة على الجناح الايمن للجيش الثانى ، وذكر ريشيف ان طريق اكافيش كان خاليا ، وانه سار للاستيلاء على حصن ماتزميد والساحة المقاطعة له بدون اى صعوبة ، وبينما كانت كتيبته الاستطلاعية تؤمن هذه المنطقة ، وتساعد المهندسين على فتح منفذى العبور ممن الساحة ، ارسل ريشيف الكتيبة الملحقة الى اعالى اكافيش لملاقاة مات واخذ كتائبه الثلاث مدرعات الباقية ، واثنتين من كتائبه من المشاة نحو الشمال ونحو الشرق ، لتهدد يمين مؤخرة الفرقة السادسة عشرة ، وعبرت كتيبتان متقدمتان جنبا الى جنب على جانبى طريق ليكسيكون ، طريق طيرطور ، فشنت بسهولة مقاومة ضئيلة عند مفترق الطريق ، وشقت الكتيبة الاخرى مدرعات لريشيف طريقها نحو الشمال الشرقى لتامين طريق طيرطور ، كما كانت هناك كتيبة مشاة وراء كل هجوم من هذه الهجمات المدرعة ، اما الكتيبة الثالثة فظلت فى الاحتياط بالقرب من تقاطع طريق ليكسيكون باكافيش .

وفجأة وجد ريشيف ووحداته انفسهم مشتبكين فى قتال يائس ، وظل هو والأحياء من لوائه فى شك معظم الليل ، ويبدو ان السبب الوحيد لعدم مواجهتهم مقاومة خطيرة من قبل هو انهم اخذوا المصريين على غرة تماما ، وان الدوريات التى اعتقدوا انهم قد واجهوها جنوب طريق كافيش ومفترق الطريق بين طيرطور وليكسيكون ، كانت عناصر لقوات مشاة مصرية قوية ، كانت قد اختبأت عندما ظهرت الدبابات الاسرائيلية فجاة فى الظلام ، ولكنها ظهرت وشكلت دفاعا سريعا منذ ذلك الحين ، وعلى راس هذا ، كانت القوة الرئيسية للفرقتين الحادية والعشرين والسادسة عشرة مدرعات والويتها المدرعة الملحقة بها كانت مركزة بوجه عام فى منطقة ميسورى ، وبين ميسورى والمزرعة الصينية ، وعلى الرغم من معاناتها القاسية فى قتال اليوم السابق ، الا انها ظلت قوة صلدة يفوق عددها ، كثيرا ، عدد الكتائب السبع التى كانت فى متناول يد ريشيف (بما فى ذلك الاحتياطى الخاص به) .

وهكذا سرعان ما اشتبكت كتيبتا المدرعات ، المتقدمة شمالا على طول طريق ليكسيكون ، مع وحدات مشاة ومدرعات مصرية كبرى ، كما وجدت كتائب المدرعات الأخرى التى كانت تحاول تطهير طريق اكافيش وطيرطور ان الطريقين فى يد قوة هائلة ، وكان هناك على الأقل لواء واحد مشاة مصرى منتشرا داخل وحول المزرعة الصينية كما كان مفترق الطريق بين ليكسيكون وطيرطور فى يد قوة هائلة ايضا ، ومن ثم كانت الوحدات معزولة بعضها عن بعض ، وبعد ان افاق المصريون من دهشتهم قاموا بهجمات مضادة محلية قوية .

فى هذه الأثناء كان لواء المظلات يواجه مزيدا من العقبات . فلاسباب غير واضحة كانت الطرق الى تاسا ، والى طريق اكافيش جنوب غرب تاسا مسدودة بالمرور ويرجع جزء من هذا الى الحقيقة القائلة بان مشاكل تحريك الالوية كانت اكثر خطورة بكثير مما كان مقدرا لها من قبل ، ويرجع جزء منه الى الفشل من جانب شخص ما — جونين او شارون او كلاهما — فى توفير الرقابة الفعالة على المرور فى هذه الشرايين الحيوية فى هذا الوقت الحرج ، وكانت نيران المدفعية المصرية الهائلة عاملا آخرا هاما فى التاخير والعرقلة .

وفى الساعة التاسعة بعد الظهر عندما كان لواء مات لايزال فى شمال شرق يوكوف ، كانت التقارير الواردة الى مقر الرئاسات الجنوبية تشير الى الصعوبات غير المتوقعة التى واجهها لواء ريشيف غرب وجنوب المزرعة الصينية ، شعر وزير الدفاع موشى ديان الذى كان ينتظر بقلق فى رئاسة القيادة الجنوبية ، بتثبيط فى الهمة ، واقترح على جنرال جونين بضرورة وقف العملية ، كان رد جونين على النتيجة بانه يبدو ان المشاكل اكبر مما كان يتوقع ، ولكن يجب دفع العملية الى الامام الى ان يتضح جليا عدم امكانية تنفيذ العبور ، ووافق بارليف على ذلك ، ونظرا لحرص ديان دائما على تجنب اصدار اوامر عسكرية مباشرة فانه لم يجادل .

واصلت قوات المظلات سيرها ببطء اسفل طريق اكافيش يتقدمها مركز القيادة المتقدمة لشارون فوق نصف مجنزرة ، وسرعان ما وقعت تحت نيران المدفعية المصرية ونيران اسلحتها الصغيرة فى طريق طيرطور والمزرعة الصينية ، ووفقا لنصيحة ريشيف عن طريق اللاسلكى ، تركوا طريق اكاديش ، وتقدموا ببطء عبر التلال الرملية نحو الشرق مباشرة وراء طريق ليكسيكون نحو طريق ناحالا وحافة البحيرة ، ومن هناك اتجهوا نحو الشمال الغربى مجتازين اقل من نصف كيلو متر بعيدا عن المعركة المريرة المحتدمة حول مفترق الطريق بين ليكسيكون وطيرطور ، ومجتازين ماتزميد مع وصول عربات شارون الى الساحة بعد منتصف الليل ، وقد كانت الخسائر طفيفة اثناء المسيرة ، ومع ذلك فعند اقتراب الطابور من الساحة ارسل مات سريته من الدبابات الملحقة لتغطية جناحه الأيمن بالقرب من مفترق طريق ليكسيكون — طيرطور ، ولعدم ادراك قائد السرية لطبيعة المعركة التى كانت دائرة هناك ، تقدم بين كتيبتى ريشيف وحاول الاستيلاء على مفترق الطريق ، وتحطمت كل دبابة فى السرية ، وقتل قائدها ومعظم رجاله : اما قتلوا او جرحوا .

العبور :

اشرف شارون ومات على الاستعداد للعبور دون ان يعلما بهذه الكارثة ، فى الوقت الذى كانت فيه بقايا طابور المظلات قد وصلت الى الساحة بعد الساعة الواحدة صباحا ، لقد اكتشف عدم اتمام الموقع

القوى عند احدى نقطتى العبور ، فاستخدم الموقع الجنوبى فقط ، فى هذه الاثناء كان شارون قد استدعى كافة المدفعية الممكنة لتمهيد الضفة المقابلة للقناة ، وعندما استعدت الموجة الاولى من المظليين حوالى الساعة الواحدة والنصف صباحا فى السادس عشر صدرت الاوامر بوقف نيران المدفعية ، ووصلت الموجة الاولى من المظليين الى « افريقيا » وهو الاسم الذى كان الاسرائيليون يطلقونه على الضفة الغربية — فى الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة صباحا . لم تكن هناك اية مقاومة — ولم تكن نيران المدفعية السبب فى ذلك ، وانما لعدم وجود مصريين هناك . وقبل الساعة الثانية صباحا عبر شارون ليتولى بنفسه مهمة العمليات على الضفة الغربية ، ومع الفجر كان لواء مات باكمله قد عبر القناة ، وبدات الحاملات نقل احدى سرايا دبابات ايرز .

وعلى الضفة الشرقية قام ريشيف بعد الفجر بفترة وجيزة بمحاولة اخرى للاستيلاء على مفترق طرق ليكسيكون طرطور ، وتقدم ببطء بحوالى سرية دبابات مستخدما بالتناوب اطلاق النار والتحرك ضد الموقع المصرى من الغرب بمعنى آخر من اتجاه القناة — بينما اندفعت سرية مشاة بثبات نحو مفترق الطريق من ناحية الجنوب ، وكانت هذه آخر قشة للدفاع المصرى ، الذى كانت قوته واحتماله قد بدات فى الانضواء تدريجيا اثناء الليل ، وانسحب فى اتجاه الشمال واحتل الاسرائيليون المواقع .

عندئذ حاول ريشيف مواصلة تقدمه فى اتجاه الشمال الشرقى نحو طريق طرطور ، ولكن سرعان ما اجبر على التوقف ، فقد فتحت الدبابات المصرية والمدافع المضادة للدبابات والصواريخ نيرانها من فوق منحدرات ميسورى وانسحب ريشيف الى مفترق الطريق .

فى هذه الاثناء كان جونين قد استدعى آدان قبل الفجر ، وانذره من انه من المحتمل ان يساعد شارون فى فتح الممر قبل ان يفكر فى العبور ، كان ادان قد ارسل بالفعل كتيبته القيادية برئاسة الكولونيل آمر اسفل طريق اكانيش على امل ان يستطيع عبور الجسر بعد الفجر مباشرة ، واخترقت الدبابات المواقع المصرية فى اكانيش ، وسرعان ما انضمت بعد انتهاء اليوم ، الى ريشيف الذى كان قد انسحب فى ذلك الوقت الى جنوب غرب مفترق الطريق . وعندما علم شارون بوصول هذا التشكيل ولعلمه ان جميع دباباته تكاد تكون خالية من الوقود والذخيرة تقريبا ، اتصل بآدان عن طريق اللاسلكى وطلب اعارته كتيبة آمر اثناء قيام ريشيف باعادة تنظيم قواته ووافق آدان على الفور ، وبناء عليه استولت هذه الكتيبة بمساندة احدى كتائب شارون من المشاة مواقع جنوب وغرب مفترق الطريق لمنع احتمال اى تدخل مصرى فى منطقة العبور ، انسحب ريشيف مع السبع والعشرين دبابة المتبقية من لوائه — فقد دمر ثلث دباباته او تحطم اثناء الليل — ليستريح ، ويعيد التشكيل ويتزود بالقرب من حصن لاكيكان .

كانت المرحلة الاولى لعملية « القلب القوى » والمرحلة الاولى من معركة المزرعة الصينية قد انتهت ، وفى اثناء تلك الليلة المريرة من القتال كانت فرقة شارون قد تكبدت اكثر من ٣٠٠ قتيل ، وفقدت حوالى ٧٠ دبابة من دباباتها البالغ عددها ٢٨٠ دبابة . وعلى حد قول جنرال شارون : « كان كل فرد يحارب كالمجنون .. » وقد تحطمت حوالى ١٥٠ دبابة مصرية .

الثغرة المصرية :

على ضوء دقة التخطيط الذى كان قد سبق الهجوم المصرى فى ٦ اكتوبر ، كان من المثير للدهشة انهم تركوا فجوة فى منطقة الكثبان الرملية الناعمة شرق القناة ، وانهم فشلوا فى ان يكون لهم تأمين كاف على الضفة الغربية ، وهذا يرجع على ما يبدو الى اعتمادهم على استحالة المرور فى الأرض اكثر من الحقيقة القائلة : بأن هذه المنطقة تحتل نفس مكان الحدود بين الجيشين ، قال اللواء المصرى خليل فيما بعد : ان لواء مدرعات مصرى من الفرقة الحادية والعشرين مدرعات كان فى المنطقة المجاورة ، حيث اتام شارون راس جسره ، ومع ذلك فقد عبر اللواء القناة فى الثالث عشر ليشارك فى الهجوم الرابع عشر .

ان المصريين مقتنعون بأن قمرا صناعيا امريكيا ، او طائرتى الاستطلاع ذات الارتفاع العالى اللتين شاهداها تحلق فوق المنطقة فى الثالث عشر عثرتا على الثغرة للاسرائيليين ، ويدعى الاسرائيليون من جهة اخرى انهم عثروا على البقعة اللينة بأنفسهم ، وانهم لم يتلقوا اية معلومات من القمر الصناعى او الاستطلاع العالى من الأمريكيين ، واشاروا الى ان هذا العبور قد تم التخطيط له منذ عدة شهور مضت ، وان شارون قد اكتشف الثغرة بين الجيشين المصريين فى التاسع ، وان القرار الفعلى للعملية كان قد اتخذ فى ١١ اكتوبر قبل ان تحلق الطائرات الأمريكية فوق المنطقة بيومين .

اعتقد المصريون فى بادىء الأمر ان هجوم شارون على القناة كان محاولة لتطويق الجناح الجنوبى او الأيمن لراس جسرهم الشمالى ، وليس محاولة لمزيد من التغلغلات عبر القناة ، وهكذا كان الهجوم الاسرائيلى المضلل ضد الجناح الأيمن للفرقة السادسة عشر مشاة ناجحا تماما . ركز المصريون انتباههم على هذا الهجوم واعتقدوا فى البداية ان القوات الاسرائيلية على الضفة الغربية كانت مجرد شرذمة مغيرة ، وساهمت اجراءات نظام الأمن الاسرائيلى فى هذا للتخمين المصرى ، وباستثناء غارة واحدة مدرعات قامت بها عناصر من لواء ايرز ، ظلت القوات الموجودة فى راس جسر شارون مختبئة وبعيدة عن الاستطلاع الجوى تحت سطح « الحزام الأخضر » بين قناة السويس وقناة المياه الحلوة ، واخفت معظم دباباتها فى حظائر مطار الدفرسوار المهجور .

مساعدة امريكية ـــ وصواريخ تاو الغامضة :

فى وقت مبكر فى الثامن من اكتوبر ابلغ الاسرائيليون المسئولين الامريكيين بحاجتهم الى انـواع معينة من المعدات الأمريكية الأمريكية ، وطلبوا ايضا ذخيرة اضافية لتعويض الانفاق الضخم خـلال اليومين الاولين من الحرب .

وفى يـوم ١٢ اكتوبر ، قبل خطة العبور بثلاثة ايام ابلغت الحكومة الاسرائيلية رسـميا حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ان نفقات الذخيرة والخسائر فى الأسلحة والمعدات ـــ خاصة الدبابات وناقلات المدرعات ـــ كانت فادحة بشكل كبير لدرجة ان قوات الدفاع الاسرائيلية قد استنفدت كل الاحتياطى الخاص بهـا تقريبا ، وبدون اعادة تمويل سريع قد تتعرض اسرائيل للتدمير ، واصـبح ، واضـحا بعد الحرب ، انه على الرغم من ان الخسائر والنفقات كانت ضـخمة بالفعل ، الا انهـا لم تقترب من استنزاف المخزون الاحتياطى الاسرائيلى ، ومع ذلك فان ذعر بداية الحرب لم يكن قد انتهى بعد فى مكاتب تل ابيب ، لينتقل بسرعة فى اتجاه الغرب لمسافة ما يقرب من سـبعة آلاف ميل .

وبسرعة ، كما سيأتى سرده فيما بعد ، بـدات عملية اعادة الامداد بالنقل الجوى ، الأمر الـذى كان اثره فى الروح المعنوية للمدنيين الاسرائيليين يفوق كثيرا نتيجـة الحـرب ، هبطت اول طائرة امـداد فى مطار اللد يوم ١٤ اكتوبر محاطة بتهليل ودعاية كبيرة ، فى هذه الأثناء كانت الطائرات الاسرائيلية قد بـدات فى يـوم ٩ اكتوبر فى حمل امدادات امريكية هزيلة .

كان من بين الأسلحة التى حملتها طائرات النقل الاسرائيلية والأمريكية عبر الأطلنطى والبحر المتوسط ، عـدد من الصواريخ الجديدة المضادة للدبابات الموجهة سلكيا والمعروفة باسم « تاو » . كانت هـذه الصواريخ هى التعديل الثانى المتطور للصواريخ الفرنسية البدائية الموجهة سلكيا « اس اس ١٠ » و « اس اس ١١ » ، وكانت اكثر دقة ويمـكن الاعتماد عليها اكثر من صواريخ ساجر السوفيتية ، التى كان المصريون والسوريون قد استخدموها بفعالية كبيرة فى الأسبوع السابق(٢) .

وفى يـوم ٦ اكتوبر تم حشـد عـدد من الطلبة الاسرائيليين الذين كانوا يدرسون فى كليات وجامعات الولايات المتحدة ، وانتظموا فى مدرسة المشاة التابعة للجيش الأمريكى فى فـورت بيننج بجورجيا للالتحاق بفصول دراسية سريعة للتمرين على استخدام وصيانة الصواريخ « تاو » ، غير انه عندما كان فى مقدور هـؤلاء الطلبة من الشباب المتحمس نقل تدريبهم ومعلوماتهم الجديدة الى اسرائيل وتلقين الجنـود الاسرائيليين كيفية استخدام الأسلحة الجديدة ، جـاء يـوم ٢٤ اكتوبر ، ليسـود وقف اطـلاق النار فوق جبهات القتال .

ذكر يورى دان ـــ وهو صـحفى مع فرقة شارون ـــ انه فى يـوم ١٤ اكتوبر ـــ او ربما قبل ذلك بيوم او يومين ـــ تسلم جنود فرقة شـارون صواريخ « تاو » وكانـوا يتدربون على استخدام هـذه الأسلحة(٣) ، ويشير دان ايضا الى انه كانت هناك صواريخ تاو فوق بعض السيـارات

نصف المجنزرة التى تقدمت الى حافة قناة السويس ليلة ١٥ اكتوبر ، وكان الجنرال العازر ايضا قد اكـد للمؤلف قبل وفاته المبكرة : بأن قـوات الدفاع الاسرائيلية استخدمت الصواريخ تاو اثناء الحرب « .. وانها كانت فعالة جـدا ايضـا » .

وقد صرح المصريون بأن لديهم الدليل القاطع بأن الاسرائيليين استخدموا صواريخ « تـاو » ضدهم ، ولعل ذلك قد بـدا فى وقت مبكر فى ١٤ اكتوبر يوم معركة الدبابات الكبرى ، ويقـول الأردنيـون : ان دباباتهم فـوق مرتفعات الجـولان تلقت ضربات « تاو » المدمرة على الأقل يوم ١٩ اكتوبر . وليس هناك سبب للشك فى صـدق هـذه التأكيدات العربية ، وان كان المتحدث العسكرى الاسرائيلى قد اصر رسـميا على ان صواريخ تاو لم تصدر الى وحـدات جيش الدفـاع الاسرائيلى قبل وقف اطـلاق النار . وقد اكـد جنرال آدان شـخصيا للمؤلف بأن فرقته لم تتسلم صواريخ تاو قبل ٢٤ أو ٢٥ اكتوبر ، ويـرى هو وغيره من الضباط الاسرائيليين بشكل غير مقنع ، انه من المحتمل ان يكون الأمـر التبس على المصريين وصحفييهم بين صواريخ « تاو » وصواريخ « لو » و « دراجون » الأقل قوة بكثير .

وبعد تفكير دقيق فى الحقائق المعروفة والأدلة المتضاربة ، توصلت الى انه كان لـدى الاسرائيليين صواريخ « تاو » وكان لديهم اطقم مدربة على تلك الأسلحة جاهزة للعمل يوم ١٤ و ١٥ اكتوبر ، ربما استخدموا عددا قليلا منها فى الرابع عشر ، وان كان هذا امرا مشكوكا فيه ، ولـكن من المحتمل ان تكون قد استخدمت فى السادس عشر ولو بأعداد محدودة .

اذا كان الأمـر كذلك ، فمن اين اذن تسـلمت فرقة شارون صواريخها « تاو » ؟ لـماذا لم تحصل فرقة آدان على اى منها ؟ من قام بتدريب العاملين فى فرقة شارون على ادارتها ؟ ما هو عـدد الوحدات الاسرائيلية الأخـرى التى تسلمت صـواريخ تاو قبل ٢٤ اكتـوبر ؟ ان الاجابة على تلك الأسئلة محيرة .

الملاحظـات

(١) ترجمة الكلمات العبرية : ويبدو ان صحفيا غربيا فهم ان الاسم الكودى كان « غزال » وهذه الغلطة كررها كثير غيره من المعلقين والمؤرخين .

(٢) كان لـدى الاسرائيليين عـدد من الصواريخ اس اس ١٠ واس اس ١١ ، غير انهم كانوا غير راضين عن هـذه الأسـلحة لدرجة انهم كفوا عن استخدامها ، وأصرت المصادر الاسرائيلية الموثـوق بها على انها لم تستخدم فى هذه الحرب .

(٣) يورى دان فى كتابه راس جسر شارون (تل ابيب ١٩٧٥) صفحة ٢١٥ ، ويعد هـذا الكتاب من اكثر الكتب غير الموثـوق فى معلوماتها حول جنـرال شارون وخلافاته غير انه ليس هنـاك سـبب محتمل فى اشارته الى صـواريخ تاو لو لم يكن مقتنعا بأنها حقيقية .

(١٢)

معركة المزرعة الصينية

١٦ — ١٧ أكتوبر

شارون فى افريقيا :

فى صباح ١٦ اكتوبر انضمت اجزاء من كتيبتى لواء ايريز — حوالى ٣٠ دبابة ككل — الى قوات مظلات شارون ومات على الضفة الغربية لقناة السويس وكانت الدبابات تعبر على حاملات ثقيلة للعوامات ، ولما رأى شارون مدى سهولة سير العملية وعدم مواجهتها لاى مقاومة تقريبا على طول محيط راس الجسر ، اتصل بجونين وحثه على ضرورة حمل فرقة آدان عبر القناة متجاهلا ومهملا للمقاومة المصرية على طول طريق اكافيش وطيرطور .

كان جونين فى نفس هذا الوقت بالضبط يحاول اكتشاف الطريقة التى يستطيع بمقتضاها التغلب على هذه المقاومة القوية غير المتوقعة ، وعليه رفض بجفاء اقتراح شارون الذى اعتبره اقتراحا غير مسئول بشكل مثير للدهشة عندئذ اتصل شارون ببارليف ليعرف ما اذا كان فى استطاعته ان يفرض نفوذه على جونين ، ومرة اخرى وافق بارليف على راى جونين ، ولكنه استغرق وقتا ليشرح لشارون سبب استحالة تنفيذ اقتراحه : أولا : ان الاحتياجات المنطقية لفرقتين تحاربان غرب القناة ستكون مهولة ، ولم يكن مؤكدا على الاطلاق امكانية وصول امدادات كافية لها عن طريق الحاملات ، حتى ولو امكن توفير نقل جوى اضافى . ثانيا : انه مع وجود فرقتين اسرائيليتين غرب القناة لن تكون هناك قوة كافية شرق القناة لفتح ممر بالقوة والابقاء عليه مفتوحا ، فاذا لم يتيسر فتح ممر اوسع مما هو عليه حاليا ، فان هناك شكا خطيرا فيما اذا كانت قوات شارون — اقل من نصف فرقة — تستطيع البقاء غرب القناة .

كان هذا الاعتبار فى الواقع هو الذى ادى الى اصدار بارليف قرارا بعد الظهر مباشرة ، بعدم عبور اية قوات او دبابات اسرائيلية الى الضفة الغربية للقناة ، لحين صدور أوامر اخرى . غير انه فى هذه الاثناء كان قد تم نقل كتيبة من مدافع ١٧٥ مم عبر القناة ، وكانت تقوم بالفعل باطلاق قذائفها البعيدة المدى نحو مواقع صواريخ سام المصرية . (يمكن تقدير مدى جراة هذا التحرك بملاحظة ان مثل هذه

المدافع البعيدة المدى ، غالبا ما تكون على مسافة ٥ر٠٠٠ متر على الاقل خلف الخطوط الامامية) .

وعند الظهر تقريبا ارسل شارون ايريز فى غارة فى اتجاه غرب راس الجسر مهمتها سحق اى مواقع لصواريخ سام يمكن العثور عليها ، وتمزيق المناطق المصرية الخلفية بوجه عام . كانت الغارة ناجحة بشكل مرض ، ودمرت الدبابات الاسرائيلية ثلاثة مواقع لسام ، وفرضت ، على مايبدو ، ازاحة موقع واحد لسام/٦ على الأقل ، والمقاومة لم تكن تذكر باستثناء سرية واحدة من الفدائيين فى مستودع مئونة مهجور فى سلطان ، وتم سحق عدة معسكرات للامداد والصيانة وتحقق هدف التمزيق .

رد الفعل المصرى :

غير انه كانت هناك ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، نتيجة واحدة غير سارة لهذه العملية الناجحة بطريقة اخرى : فالتقارير غير الدقيقة والمتناقضة التى تدفقت على قيادة الجيش الثانى ومقر قيادة جونين كشفت للقيادة المصرية للمرة الاولى عن وجود عدد ضخم من الدبابات الاسرائيلية على الضفة الغربية للقناة ، وبدأ الجيش الثانى فى ارسال وحدات احتياطى لتطويق التغلغل ، وانذرت بعض الوحدات فى احتياطى مقر قيادة جونين باحتمال التحرك ولكن مع حلول المساء كانت تقارير القادة المحليين تفيد بوجود سرية واحدة فقط من الدبابات الاسرائيلية وسرية واحدة مشاة غرب القناة ، واعلنت عن قدرتها على مواجهة هذا التهديد الصغير ، وبدات المدفعية المصرية التى كانت تطلق نيرانها المتقطعة فى الاتجاه العام لراس الجسر الاسرائيلى ، فى توجيه نيران مركزة على كل من راس جسر فرقة شارون المعزولة على الضفة الشرقية والضفة الغربية .

وفى وقت متاخر من بعد ظهر السادس عشر ، قامت طائرات القوات الجوية المصرية بهجوم ضخم على قوات راس الجسر ، وقد ادى هذا الى معركة جوية قصيرة فوق القناة ، ادعى الاسرائيليون انهم دمروا فيها عشر طائرات ميج — ١٧ بدون اى خسائر من جانبهم ، فى الوقت الذى ادعى فيه المصريون انه تم تحطيم عشر طائرات اسرائيلية : ست منها فى اشتباك جوى وجها لوجه ، واربع اسقطتها صواريخ الدفاع الجوى سام وزد اس يو ٢٣ — ٤ ، غير أن الادعاء المصرى متضارب ، لانه من غير المحتمل ان تكون الطائرات المصرية مشتبكة فى الجو فوق ارض محصنة جيدا بصواريخها من طراز سام .

اعلن السادات يوم ١٦ اكتوبر فى خطاب له امام البرلمان المصرى استعداد مصر لعقد سلام ، غير انه قال : ان اقرار السلام ممكن بشرط انسحاب الاسرائيليين من جميع الأراضى المحتلة ، كما حذر ايضا من ان لديه صواريخ زافير ارض/ارض البعيدة المدى جاهزة للاطلاق ضد اية بقعة فى اسرائيل ، فى حالة اية غارات اسرائيلية فى العمق المصرى ، ويبدو

ان اسرائيل افترضت ان السادات علم براس جسرهم عندما القى الخطاب ، بينما الواقع انه لم يعلم به الا فى ساعة متأخرة من تلك الليلة .

مهـام آدان :

كان جنرال جونين قد حـذر جنرال « برين » آدان قبل فجر ١٦ اكتوبر ، بان العملية قد تأخرت ، وانه ربما تعين على فرقته القيام ببعض الاشتباكات فى ممر اكانيش ــ طيرطور قبل عبـور القناة خلف شـارون ، ولكن آدان حتى مع هـذا التحذير ، لم يكن مسـتعدا للموقف الـذى واجهه عندما تبع مقدمة كتيبته ــ بقيادة الكولونيل آمر ــ اسـفل طريق اكانيش فى اتجاه السـاحة ، فلم يكن الجسر قد اقيم بعد فحسب ، بل ان كلا الطريقين الى نقطة العبور كانا مغلقين ، وكان المصريون قد عزلوا فرقة شـارون . مر آدان بالجسر المحطم الـذى كان قد شـيد من قبل بالقرب من تقاطع اكانيش طيرطور ، وعندئذ شـاهد ــ على بعد بضـعة كيلو مترات فى اقصى الجنوب تكدسـا ضخما يعـوق المرور ــ والقطاعات العديدة للجسر الآخر ، وبعد أن اصـدر الأوامر لكتيبة الكولونيل آمر بتجنب المقاومة على طريق اكانيش ، واقـام آدان موقعا جديدا للقيادة جنوب غرب تل كيشوف وفى جنوب الطريق مباشرة من ناحية المرور المسدود ، وسرعان ما لحق به جونين الـذى لم يكن يعـرف ايضـا الطريق .

كان واضحا لجونين انه لم يعد فى استطاعة شـارون المعزول بثلاثة ارباع فرقته فى راسى جسرين منفصلين شرق وغرب القناة ، ممارسـة اى اشراف قيادى على مقدمة تحـرك الجسرين . فاصدر جونين امـرا الى آدان بتطهير طريقى اكانيش وطيرطور وتحـريك الجسـور الى الأمام نحـو جهـة العبـور .

وفى الحال عهد بمسئولية تحريك الجسر العائم الى الجنرال دونيك تامارى ، التالى لآدان فى القيادة ، كما عهد بمسئولية مماثلة لحركة الجسر السابق تشييده الى الجنرال جاك ايفاتز التالى لشارون فى القيادة ، ولكن تحت مسئولية آدان فى هـذه المهمة .

وقبل الظهر بفترة وجيزة ارسل آدان لواءى الكولونيل آمر وبارام لفتح الطريقين بهجومين متوازيين من الشـمال الشرقى ، غير ان كـلا اللواءين توقفا بسـبب النـيران المركزة من المدفعيـة ، ومدافع الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات التى اطلقتها الفرقتين المصريتين ٢١ مدرعات و ١٦ مشاة ، عندئذ طلب آدان اطـلاق لوائه الثالث ــ لـواء كارين فى احتياطى القيادة الجنوبية العامة ــ وارساله له ، ولكن جونين رفض اشراك آخر احتياطى له . وبدلا من ذلك اخبر آدان بانه قد تم ارسال لـواء المظلات الخاص بكولونيل يوزى يا ايرى من راس سدر وسيعهد به اليه للمساعدة فى تطهير منطقة اكانيش ــ طيرطور و المزرعة الصينية .

كانت حوالى العاشرة بعد الظهـر قبل ارسال ياايرى لآدان تقريرا يفيده بانه هو ولواء المظلات قد وصلا ومسـتعدين للعمل . شرح آدان الموقف لياايرى . وبعد مناقشة مقتضبة اعـد ياايرى خطة هجـوم من الجنوب الغربى لتطهير الطريقين والمنطقة القائمة بينهمـا ، وفى السـاعة ١١٫٢٠ تحـرك المظليون .

تحركوا اقل من كيلو مترين من تقاطع اكانيش ــ طيرطور قبل ان يتعرضوا لنيران مكثفة ، من الجبهة ، وخاصة الجناح الأيمن فى اتجاه المزرعة الصينية ، وحاول المظليون على الفور قهر وهزيمة المقاومة ، ولكن عندما تحركوا شـمال طريق طيرطور الى المزرعة الصينية لم يستطيعوا التقدم وتوقفوا امـام النيران المكثفة ، عندئذ الحق آدان احـدى كتائب دبابات آمر الى لواء المظلات ، وامر ياايرى بالتركيز على تطهير طريق اكانيش ، ولكن سرعان ما اتضـح ان المظليين قد عانـوا خسـائر فادحة ، وتوقفوا تماما هم ايضا واصبحوا غير قادرين على المناورة .

كانت السـاعة حوالى الثالثة صباحا ولم يكن اى من اللواءين قد تحرك لاكثر من ٢٤ سـاعة ، وخشى آدان من انه اذا لم يستطع دفع احـدى هـذه الكتائب اماما الى القناة ، فان العملية لن تفشل باكملها فحسب ، بل ان معظم فرقة شـارون قد تصـبح معزولة ، وارسل سرية استطلاع الى طريق اكانيش لاختبار قـوة المقاومة ، ولمعرفة ما اذا كان هناك طريق لدفع الجسر العائم عبـره .

وقبل السـاعة الثالثة والنصف بقليل تلقى آدان رسـالة لاسلكية من قائد سرية الاستطلاع فى طريق اكانيش .. لقـد وصـل الى الساحة بدون مقاومة ، وكان هناك مصريون على مسافة قصيرة شـمال الطريق ، ولكنهم كانـوا مشـغولين بمقاتلة المظليين على طـول طريق طيرطور والمزرعة الصينية .

امر آدان ، على الفـور ، جنـرال تامارى بالتحـرك اسفل طريق اكانيش مع اجـزاء الجسر ، وكان يتعين فى ذلك الحـين ، انتظار الجسر السابق تشييده ، والا يتحرك الى اسفل طريق طيرطور ، وحوالى السـاعة الرابعة والنصف عند بزوغ الفجر ، بـدات اجـزاء الجسر فى الانزلاق ببطء الى السـاحة ، وبدا مهندسو شـارون على الفور فى تحريكها الى حـافة المـاء لبدء تشييد الجسر .

تطهير الممر :

لاحظ آدان اثناء انتظاره للمظليين ، معظم فتـرة بعد الظهر ، ان لواء رافيف التابع لفرقة شارون كان يرابط بهدوء فى مواجهة تالاتا وتيليفزيا ،

بينما كان لواءاه يناضلان بدون جدوى من اجل فتح الطريقين ، فطلب من جونين ، فى وقت متأخر من تلك الليلة ، ان يضع لواء رافيف تحت قيادته ووافق جونين .

وبعد ان اتم آدان ، احدى مهمتيه على الاقل ، ركز اهتمامه على المهمة الاخرى من اجل فتح ممر لنقطة العبور عن طريق تطهير طريق اكافيش طرطور ، وقد اصبحت هذه المهمة اكثر الحاحا بسبب ورطة المظليين الذين اضطروا للتوقف على طول طريق طرطور ، والركن الجنوبى الشرقى للمزرعة الصينية ، فقد كانت خسائرهم تتصاعد بشكل مستمر . ارسل آدان لواء آمر بعد ارسال الجسر استغل طريق اكافيش للتحرك ، والاستعداد للهجوم شمالا الى طريق طرطور والركن الجنوبى الغربى للمزرعة الصينية ، كان على لواء بارام الهجوم غربا عبر طريق اكافيش من الطريق الجانبى لموقع قيادة آدان بالقرب من كيشوف ، وكان على رافيف الذى اصبح فى ذلك الحين تحت قيادة آدان ، التحرك الى اسفل ، غرب تقاطع طرطور واكافيش مباشرة والاندفاع غربا فى اتجاه المزرعة الصينية .

كان هذا الهجوم الاسرائيلى الذى بدا بعد الساعة السادسة صباحا بقليل قد واجه هجوما من الجنوب الشرقى فى اتجاه طريق اكافيش من عناصر الفرقتين المصريتين السادسة عشر مشاة والحادية والعشرين مدرعات اللتين كانت مهمتهما اغلاق الممر الاسرائيلى ، وعلى مدى اكثر من خمس ساعات ، احتدمت المعركة بين الطريقين وداخل المزرعة الصينية وحول حافتها الجنوبية ، واندفع المصريون — الدبابات والمشاة معا — مرتين عبر طريق طرطور ، وصدتهم دبابات آدان مرتين الى الوراء .

وقد هاجم طوال السادس عشر لواءا دبابات مصرية : احدهما من الفرقة الثالثة والعشرين ميكانيكية والآخر من اللواء الحادى والعشرين مدرعات فى اتجاه الجنوب اسفل طريق ليسكون ، كتيبة الكولونيل آمر عند مفترق طريق طرطور وليكسون ، ولكنهما فشلا فى الوصول الى مفترق الطريق ، وفى وقت مبكر من السابع عشر قام اللواء مدرعات الرابع عشر بالتنسيق مع الهجوم الرئيسى فى اقصى الشرق بمحاولة اخرى ، وفى منتصف الصباح فشل ايضا هذا الهجوم وانسحبت بقايا اللواء المصرى شمالا فى اتجاه ميسورى عاجزة عن مواصلة القتال ، وعند الظهر كان بارام قد وصل الى طريق ميسورى عاجزة عن مواصلة القتال ، وعند الظهر كان بارام قد وصل الى طريق طرطور ، وفى مساحة طولها حوالى سبعة كيلو مترات وعرضها ثلاثة كيلو مترات تم تدمير حوالى ٢٥٠ دبابة فيما يقرب من ٣٦ ساعة من القتال المكثف ، كان حوالى ثلثيها من الدبابات المصرية .

فى هذه الاثناء ، وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحا كان لواء الكولونيل بارام قد تقدم مسافة كبيرة تكفى للوصول الى المظليين

المعزولين ، واخراجهم من موقفهم الحرج ، وبعد ان تم اجلاء جميع الجرحى انسحبت الدبابات الاسرائيلية الى الوراء الى طريق طرطور ، الذى اصبح فى قبضتهم القوية فى ذلك الحين ، وكانت معظم المزرعة الصينية فى يد المصريين ، وكانت بنادقهم لازالت قادرة على مسح الطريق من منحدرات ميسورى ، وان كان الممر الضيق على طول طريق اكافيش مؤمنا . غير ان الفرقة السادسة عشر والفرقة الحادية والعشرين المصريتين كانتا قد لبثتا الجناح الأيمن للجيش الثانى بين المزرعة الصينية والقناة .

ومع الشعور بتحسن الموقف ، خول بارليف لشارون سلطة ارسال عشر دبابات اخرى عبر القناة فوق معدية .

مؤتمر كيشوف :

بعد هذا بفترة وجيزة ، تم عقد مؤتمر غير عادى فوق التل المنخفض جنوب غرب كيشوف مباشرة فى موقع قيادة آدان . وفى حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا وصل وزير الدفاع ديان ، ورئيس الأركان العازر ومساعد رئيس الأركان بارليف فى طائرة هليكوبتر الى موقع قيادة آدان ، وكان آدان قادرا الى حد ما على توجيه المعركة فى نفس الوقت الذى كان مشتركا فيه فى المؤتمر ، وبعد وصول كبار الزوار الى موقع قيادة آدان مباشرة ، وصل شارون من الساحة فوق نصف مجنزرة .

كان ديان قد التقى فى اليوم السابق ببارليف وجونين فى ام خشبة ، وادرك ان عملية « القلب القوى » قد فشلت ، ولذلك ، فانه عندما وصل مع العازر بالقرب من كيشوف وسمعا بكارثة المظليين كانا مستعدين لاصدار الأمر بالتخلى عن العملية . كان بارليف ، بالكاد ، اكثر تفاؤلا عندما وصلا ، وفجاة وجد هذان القائدان الكبيران ان الموقف مختلف تماما عما توقعاه : فقد تم اقامة جسر ، وكان معدا للعبور فى خلال ساعات قليلة ، وكان طريق اكافيش مفتوحا ، وطريق طرطور قد تم تطهيره ، وبينما كانا يتباحثان وصلت اخبار بأن المظليين قد اخرجوا ، كما تم صد الهجمات المضادة المصرية .

ولذلك ، فانه بدلا من وقف عملية « القلب القوى » ، وجد القادة انفسهم يناقشون كيفية استغلالها ، وكان لدى شارون الذى حث — مرة اخرى فى الصباح المبكر — على ضرورة نقل فرقة آدان فى معديات عبر القناة ، مشروع جديد مقترح .

اوصى شارون بان تحل قوات آدان محل وحداته فى رؤوس الجسور وضاحية العبور حتى يتسنى له (لشارون) قيادة الهجوم الاستغلالى من راس الجسر فى اتجاه الجنوب خلف الجيش الثالث المصرى ، ولاقتناع بارليف على ما يبدو بان هناك على الاقل توصية واحدة من توصيات شارون

لا يتعين عليه رفضـــها ، كان مستعدا للموافقة ، ولكن آدان كان ساخطا :
نفى تصوره — ربما كان فى ذلك اقل موضوعية — انه كان يقاتل بثبات زهاء
٣٠ ساعة للقيام بمهام كان من المفروض ان يقوم بها شارون ، ولكنه لم يفعل ،
وهو لذلك يـرى ان هـذه التوصية ليست الا محاولة من جانب شارون
لكسب كل الشرف والمجد .

كان آدان لايزال يتالم بشدة من هزيمته فى الثامن ، واعتقد ان رجاله
قد اثبتوا انهم يستحقون نصيبهم من المجد الذى ناله شارون بالفعل
بعبوره ، اضف الى ذلك انه كان يريد ، بوصفه ضابطا هجوميا ، القيام
بالهجوم وليس بالدفاع ، ومن المؤكد ان شارون كان يشعر بنفس الشىء .

ولكن قبل ان تشتد المجادلة ، تحدث العازر .. لقد تم رسم الخطة
على نحو ما كانت عليه لسبب جوهرى ، وانه على الرغم من تأخير العملية
بعض الوقت ، فانه لا يرى مبررا لاحداث اى تغييرات فى المفهوم الاساسى
للخطة ، وكان على شارون مواصلة الاستيلاء على راس الجسر والممر ،
وعلى آدان المرور عبرهما للاستغلال ، على ان ينضم شارون بعد ذلك
الى آدان ، ويتولى ماجن الاستيلاء على نقطة العبور ، فى هذه الاثناء طلب
بارليف من شارون حمل باقى جسرايريس فوق معديات عبر القناة ، فى
الوقت الذى تتم فيه عملية تشييد الجسر .

معركة حديثة لبحيرة تراسيمين :

فى اثناء الجزء الاخير من هذه المناقشة حوالى الساعة الواحدة
بعد الظهر ، كان المتباحثون قد اولوا اهتماما كبيرا للجنوب البعيد مثل
اهتمامهم بالحادثة ، وفى مستهل المؤتمر بعث ماجن برسالة تفيد بأن نقطة
المراقبة التابعة له رات صفا من المدرعات المصرية يتحرك شمال بوتزر
على مسافة قريبة من الساحل الشرقى للبحيرة المرة الكبرى ، ثم وصلت
بعد هذه الرسالة مباشرة رسالة اخرى من ريشيف الذى كان لايزال
مشغولا فى اصلاح الدبابات المعطلة بالقرب من لاكاكين تفيد بأن عمودا من
التراب فى اتجاه الجنوب يشير الى اقتراب طابور مصرى من جهة الجيش
الثالث ، وسرعان ما أكد الاستطلاع الجوى أن هذا الطابور يضم حوالى
١٠٠ دبابة مصرية من طراز تى — ٦٢ ، وكانت هذه الدبابات ، كما اتضح
بعد ذلك هى دبابات اللواء المصرى الخامس والعشرين مدرعات .

وسرعان ما راى المتباحثون بالقرب من كيشوف عمود التراب ، وقطع
آدان المناقشة ليطلب من بارليف اطلاق لوائه الثالث — لواء كارين —
من الاحتياط ، ووافق بارليف على الفور ، وبسرعة أصدر آدان أوامره
الى كارين والى قادة الألوية الثلاثة المشتبكة فى المزرعة الصينية ، ثم
عاد الى المناقشة ليكرر طلبه بالسماح له باستغلال العبور على نحو
ما هو مخطط .

وما ان قـرر العازر استمرار الخطة بنفس المفهوم الاصلى
استاذن آدان وقفز الى عربة قيادته ليباشر هذه المعركة الجديدة شخصيا .

وبدا كان اقتراب اللواء مدرعات المصرى سيكون فرصة ، غير انه
يزيد من تعقيد مشكلة آدان المعقدة فعلا والخاصة بالاشراف التكتيكى ،
وذلك باجباره على القتال فى اتجاهين مختلفين فى وقت واحد ، وكان القتال
لا يزال عنيفا على جبهة المزرعة الصينية ، فقرر آدان سحب لواء بارام
مع كتيبتين ، وترك كتيبة واحدة لتستولى على وسط خط المزرعة الصينية،
كان على آمر ان يمد جبهته الى اليمين ، وعلى رافيف ان يمدها الى اليسار
ليسمحا لبارام بسحب جناحى كتائبه .

وبينما كان آدان يسارع اسفل طريق المدفعية يتبعه لواء بارام ،
سمع ريشيف — الذى كان فى حوزته اقل من ٣٠ دبابة عاملة بالقرب من
لاكيكان — يطلب لاسلكيا المساعدة لمواجهة اللواء الخامس والعشرين الذى
يقترب منه ، اوقف آدان بارام فى موقع شرقى مقدمة الطابور المصرى ، فى
هذه الاثناء كان كارين يتقدم بسرعة فى اتجاه الغرب من الطريق الجانبى
لطريق المدفعية الى موقع جنوب شرق المصريين ، كان على احدى كتائبه
مواصلة السير نحو الجنوب الشرقى ، لتقف خلف المصريين واصطيادهم من
المؤخرة ، اذا ما حاولوا العودة الى طرف جبهة الجيش الثالث بالقرب
من بوتزر .

على الرغم من ان فكرة الخطة لم تخطر على ذهن آدان فى ذلك الوقت ،
الا انه وضع خطة لنسخة حديثة للنصر المشهور لهانيبال فى معركة بحيرة
تراسيمين فى ابريل عام ٢١٧ قبل الميلاد .

وفى حوالى الثانية والنصف بعد الظهر فتحت دبابات بارام وريشيف
نيرانها فى نفس الوقت على مقدمة الطابور المصرى الذى توقف ، وبدا فى
الانتشار فى اتجاه الشرق بعيدا عن البحيرة ، وفتح لواء بارام نيرانه على
الدبابات المنتشرة والطابور الذى خلفها ، كما اتجهت بعض الدبابات
المصرية بجراة وبدقة نحو دبابات بارام ، والبعض الآخر اضطرب من النيران
الموجهة اليه من اتجاهين وحاول العودة الى الخلف ، وفجأة وجدت جميع
الدبابات المصرية نفسها تحت نيران لواء كارين من على يمين مؤخرتها .

وعمت حينئذ الفوضى طابور اللواء ٢٥ مدرعات كله ، ومع ذلك قاتلت
بعض الدبابات المصرية بجسارة ومهارة ، غير انه لم يكن لديها الفرصة
نظرا لتفوق الآخرين عليها من ناحية العدد والمناورة ، فقد تم تدمير ٨٦ دبابة
من الـ ٩٦ دبابة فى الطابور فى أقل من نصف ساعة من القتال(*) ، وفرت

(*) لم يكن لدى الاسرائيليين الفرصة لاجلاء هذه الدبابات بعد المعركة او بعد الحرب ،
ويدعى المصريون ان خسائرهم اقل من ٨٠ دبابة وان عددا كبيرا من تلك الدبابات التى فقدوها
سقطت بصواريخ تاو ، وهذا أمر مشكوك فيه ، انظر صفحة ٥٠٢

عشر دبابات مصرية ووصلت بسلام الى موقع بوتزر حيث اوقف آدان تتبعها ، بعد ان وقعت دباباته فى حقل الغام اسرائيلى سابق ، وفقدت اربع منها فى الألغام ، وكانت تلك هى الخسائر الاسرائيلية الوحيدة فى المعركة .

كانت الساعة فى ذلك الحين الرابعة بعد الظهر ، وقد اعاد آدان دباباته الى الوراء الى فراغ كيشوف حيث اعيد تموينها بالوقود وتزويدها بالذخيرة .

وكان قد تم فى هذا الوقت بالضبط اعداد الجسر العائم ، وعندما كان آدان عائدا الى كيشوف فى دبابته سمع شارون ينادى شبكة اذاعة القيادة بقوله : « اين برين ؟ كل شىء جاهز ، اين برين ؟ لماذا اوقف كل شىء ؟ ».

وببرود ، قدم آدان ساخطا تقريرا الى جونين عن مكان وجوده وما كان يقوم به من اعمال وخططه بالنسبة لاعادة الامداد ، واخبر جونين بانه سينفذ اوامره فورا ، وانه سيكون فى مقدوره عبور الجسر بعد انسدال الظلام مباشرة ، عندما تكون قوات شارون قد حررت كتائبه التى كانت لا تزال فى حالة اشتباك جنوب ميسورى والمزرعة الصينية ، وتوقع ان تكون كل فرقته عبر الجسر مع الصباح ، ومع ذلك ظل شارون ينادى فى الراديو من وقت لآخر طوال الساعة والنصف التالية الى ان وصلت اول دبابات آدان الى الساحة بقوله : « اين برين » ؟

كان نشاط القتال على جبهة سيناء فى السادس عشر والسابع عشر مركزا على نحو ما كان عليه فى الثامن على فرقة اسرائيلية واحدة : هى فرقة آدان ، وبينما كانت هذه الفرقة تقوم باشق دور فى القتال ، كانت وحدات اسرائيلية اخرى تقوم بدورها ، لقد عانت اسرائيل فى يوم ٨ اكتوبر بفشل فرقة آدان انكر هزيمة عسكرية فى تاريخها ، غير ان نجاح الفرقة فى السابع عشر حقق اعظم نصر اسرائيلى فى الحرب .

(١٣)

تجمع العاصفة

١٧ — ١٩ اكتوبر

ضغوط سياسية على الرئيس السادات :

قرر الرئيس السادات يوم ١٥ اكتوبر ان الوقت قد حان للسعى من اجل حل سياسى للحرب ، وكان هذا القرار يقوم اساسا على اعتبارات سياسية وعسكرية : كان معرضا لضغوط آخذة فى الازدياد من جانب الحكومات السوفيتية والأمريكية والبريطانية لقبول وقف اطلاق النار ، اضف الى ذلك فشل الهجوم المصرى يوم ١٤ اكتوبر الذى اوضح عدم احتمال تحقيق اية مكاسب عسكرية اخرى على جبهة سيناء ، كما اتضح ايضا ، وبنفس الدرجة ، ان الموقف العسكرى السورى الذى اصبح هو الآخر فى مازق ، لن يتحسن ، وبناء عليه حدد موعدا لالقاء خطاب فى الجمعية العمومية فى اليوم التالى الموافق الثلاثاء ١٦ اكتوبر ، ومن الواضح انه فى الوقت الذى اتخذ فيه هذا القرار لم يكن يعلم شيئا عن الخطط الاسرائيلية بالهجوم عبر القناة .

ومن المؤكد ان العالم كله سمع خطاب السادات الذى القاه فى منتصف النهار فى الاذاعة والتليفزيون ، وكان محددا لرئيس الوزراء جولدا مائير التحدث مع الكنيست فى نفس الساعة ، ولكنها اجلت الحديث حتى الساعة الرابعة بعد الظهر حتى يتسنى لها على ما يبدو تحليل ما سيقوله السادات .

وكرر الرئيس المصرى الموقف العربى الاساسى : ان مصر ستواصل القتال الى ان تستعيد ارضها المفقودة والى ان يتم اعادة الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى ، غير انه اذا وافقت اسرائيل على الانسحاب من جميع الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧ ، عندئذ ستقبل مصر وقف اطلاق النار ، وستحضر مقابل ذلك مؤتمر سلام مع اسرائيل ، وتحاول اشراك باقى دول العالم العربى فى مفاوضات من اجل سلام نهائى ، وكدليل على النوايا المصرية السلمية ، ستبدأ مصر فى تطهير قناة السويس واعادة فتحها للملاحة الدولية ، وكان هذا يعنى ضمنا مرور الشحنات الى اسرائيل واحتمال مرور المراكب الاسرائيلية ايضا .

وعندما تحدثت رئيسة الوزراء بعد ذلك بساعات قليلة ، اشارت الى مقترحات السادات ، وان لم ترد عليها مباشرة ، غير انها ضمنت الحديث الاشارة بتأكيد حاسم : على ان القوات الاسرائيلية كانت تحارب فى ذلك الحين « شرق وغرب قناة السويس » .

ويبدو — على حد قول هيكل(*) — ان تلك الكلمات كانت اول كلمات تلقاها السادات فيما يتعلق بالعبور الاسرائيلى ، ومن الواضح انه اتصل تليفونيا باللواء اسماعيل ، الذى اجاب ، على اغلب الظن ، بانه تلقى تقارير عن ثلاث دبابات فقط متسللة ، وان الاحتياطى المصرى سيهتم بتلك التسللات ، كان السادات واسماعيل يميلان الى الاعتقاد : بأن كلا من الغارة واشارة السيدة مائير اليها انما كانت اساسا حربا نفسية .

وفى وقت متاخر من بعد ظهر ذلك اليوم ، وصل رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين الى القاهرة ، والتقى كوسيجين والسادات فى المساء ، واكد الروس مرة اخرى الرغبة فى وقف اطلاق النار ، ومن الامور التى يشوبها الشك ما اذا كان كوسيجين عرف اى شىء عن العبور الاسرائيلى عندما غادر موسكو ، ويبدو انه كان مدفوعا اساسا من اجل الاهتمام بالخسائر الفظيعة فى المعدات السوفيتية على الجبهتين ، او بالمخاوف من احتمال نجاح هجوم اسرائيلى مضاد ، وبالاعتقاد بان نكسة ١٤ اكتوبر قد تؤثر على السادات ليخفف من موقفه بالنسبة لوقف اطلاق النار ، وواضح ان ذلك الروسى كان سعيدا بالتحرك البطىء فى هذا الاتجاه ، الذى استطاع اكتشافه فى خطاب السادات بعد الظهر .

واستمرت محادثات كوسيجين مع الرئيس السادات خلال اليومين التاليين ومع انباء العبور الاسرائيلى ازدادت قوة الروس فى المجادلة . وعندما قال السادات : انها مجرد غارة ، استطاع كوسيجين فى وقت متاخر من يوم ١٨ اكتوبر تقديم صور للرئيس المصرى التقطتها الاقمار الصناعية السوفيتية وطارت بسرعة الى القاهرة ، اظهرت بوضوح راس الجسر الاسرائيلى ، وحث السادات على تخفيف موقفه بشأن المطالبة بالاتفاق الاسرائيلى على الانسحاب الى ما قبل خطوط ١٩٦٧ قبل بدء محادثات وقف اطلاق النار ، وبدأ السادات يعترف بجاذبية مثل ذلك الاسترخاء ولكن كان قلقا بشأن التاثير النفسى على شعبه ، والتاثير السياسى على الدول العربية الأخرى وخاصة سوريا .

تمهيدات الهجوم :

وبينما كان السادات وكوسيجين مجتمعين فى القاهرة بعد ظهر السابع عشر ، كان آدان يحاول تجهيز فرقته لعبور القناة ، وقد امكن بسهولة حل المشاكل الخاصة باعادة التموين بالوقود ، واعادة تسليح دبابته جنوب

(*) انظر من صفحة ٢٣٠ — ٢٣١

اكافيش ، وان كانت عملية التنسيق مع شارون اكثر صعوبة ، فكان يتعين على شارون اطلاق لواء آمر من فوق جبهة المزرعة الصينية — وميسورى حتى يتسنى السماح لآدان بتنفيذ مهمته ما (كان قد تم سحب الكتيبة الثالثة لبارام فى فترة بعد الظهر) ، ولكن لبضعة اسباب عطل شارون نقل اجزاء من الوية ريشيف وايريز لاطلاق لواء آمر . والواقع ان الساعة كانت قد جاوزت التاسعة قبل انضمام كتيبة آمر الثالثة الى الفرقة — وهى الكتيبة التى كانت قد الحقت بشارون صباح السادس عشر ، وكانت تحارب غرب ميسورى .

وهكذا كان الوقت ليلا عندما اقترب طابور آدان المعتم من الجسر العائم بين ماتزميد والدفرسوار ، وفى ذلك الوقت تلقى رسالة من مقر رئاسة الجنرال جونين تخبره بأن لواء كارين قد انسحب مرة اخرى من تحت اشرافه ليصبح الاحتياطى العام للقيادة الجنوبية ، ولما كان لواء رافيف قد اعيد اوتوماتيكيا الى اشراف شارون عندما تحرك آدان فى اتجاه العبور فقد انخفضت القوات التى تحت قيادة آدان الى ما يقرب من ٢٠٠ دبابة وقوة بشرية يبلغ اجمالها حوالى ٩ر٠٠٠ رجل .

وفى الساعة التاسعة والنصف صباحا مرت دبابات آدان ايه بى سى المتصيدة للفرقة ، فوق الجسر ، وعندما وصل آدان الى الضفة الغربية من القناة سحب سيارته جانبا ليشاهد الطابور وهو يعبر خلفه ، وما كاد يقف حتى ادرك — وقد انتابه حالة ذعر — بأن دبابتين فقط هما اللتان عبرتا خلفه ، وكانت تتساقط هناك باستمرار نيران المدفعية المصرية حول الجسر ومداخله ، واعتقد فى بادىء الأمر ان الجسر قد اصيب ، ثم اكتشف ان ذلك ليس السبب فيما حدث من اضطراب ، بل ان وصلة بين لوحين من الخشب قد انكسرت ، بعد ان عبرت اول دبابتين ثقيلتين ، وفى الوقت الذى هرع فيه المهندسون الاسرائيليون من الشاطىء على طول الجسر على الأقدام وفى الزوارق لاصلاح العطل ، امر آدان الحاملات ببدء نقل الدبابات عبر المياه عندئذ وبينما كان المهندسون يعانون اثناء اجراء الاصلاحات ، امر آدان احدى دبابات العبور بسد الثغرة .

وبدا طابور الدبابات مرة اخرى فى العبور ، واغرقت نيران المدفعية المصرية حاملة بدبابتين فوقها ، وكان هناك طوال الليل مزيد من المناوشات ، الا انه مع بزوغ الفجر كان قد تم تأمين باقى دبابات آدان فى راس الجسر بين قناة السويس وقناة الماء العذب .

وفى الصباح المبكر احتل لواءا آدان المدرعان اماكنهما على طول الخط المحيط بالمنطقة استعدادا لمحاولة الهجوم ، فى ذلك الوقت اكتشف آدان أن شارون قد نفذ حرفيا تعليماته بشأن تشييد راس الجسر ، وقد توقع أن يكون شارون قد دفع طابوره عبر قناة الماء العذب حتى شط « الحزام الأخضر » الذى يمتد ما بين ١٠٠ متر وعدة كيلو مترات على

كلا جانبى قناة المياه العذبة ، غير ان شارون كان قد اقام طابوره على طول تلك القناة ، رغم انه كان قد اقام بضعة رؤوس جسور على الضفة الغربية .

كانت النتيجة انه عندما حاولت دبابات آدان التقدم عبر المزارع وجدت نفسها فى مواجهة نشيطة — على مدى قصير — من جانب اسلحة متنوعة مضادة للدبابات ، بما فى ذلك صواريخ ساجر و آر . بى جيه ٧ ، فسحب آدان طلائعه وامر بتجهيز مدفعية ثقيلة ، وصعد هجومها من جسرين عبر قناة المياه العذبة .

وعلى اليمين اندفع لواء بارام بسرعة ووصل فى الساعة الثامنة صباحا الى طريق الحزام الاخضر شمال الطريق الرئيسى الشرقى — الغربى للدفرسوار ، وبعد صد هجوم مضاد مصرى للدبابات ، اندفع بارام حوالى خمسة كيلو مترات ليستولى على تل محصن (يطلق عليه الاسرائيليون اسم آريل (يشرف على الطريق الرئيسي الممتد من الشمال الى الجنوب بين الاسماعيلية والسويس ، ودعم المنطقة بالتنسيق مع كتيبة مظلات تابعة لفرقة شارون .

غير انه على اليسار كان الدفاع المصرى اكثر فعالية بكثير ، ففى منتصف بعد الظهر وقبل ان يستطيع لواء آمر الوصول الى حافة الحزام الاخضر ، وجدت دباباته نفسها عندما حاولت شق طريقها الى الخلاء ، امام نيران مكثفة من دبابات مصرية مختبئة خلف طريق مواز ممتد من الشمال للجنوب وراءهم مباشرة ، واستطاع رجال آمر الاستيلاء على الموقع الذى أسماه الاسرائيليون يورى ، ولكنه توقف عند تساش .

وبعد أن وصل بارام مباشرة الى الصحراء المفتوحة فى الوقت الذى كان فيه آمر لا يزال فى شرك الحزام الاخضر تلقى آدان رسالة لاسلكية من جونين يسأله عما اذا كان فى استطاعته شن غارة على مواقع سام على مسافة داخل الاراضى .. ؟ وارسل آدان على الفور بارام مع كتيبتين لمسافة اكثر من ٢٠ كيلومترا فى اتجاه الغرب والشمال الغربى بصفة عامة ، وتغلبتا على كل العقبات الخطيرة وان كان قد اصيب عدد من الانشاءات غير المحصنة او الضعيفة التحصين فى مؤخرة المنطقة ، وكذا قوافل سيارات الشحن والسيارات الخاصة على الطريق ، وقد تم اسكات ثلاثة مواقع لسام قبل ان ينضم بارام مرة اخرى الى الفرقة ، وذلك فى طرف الحزام الاخضر فى تلك الليلة .

وفى أثناء النهار استقبل آدان وزير الدفاع ديان الذى حضر فى نصف جنزرة عبر الجسر ، وبينما كان ديان فى مقر رئاسة آدان بادر المصريون بشن هجوم جوى ضخم على رأس الجسر ، ويبدو أن أهدافهم الرئيسية كانت الجسر العائم عبر قناة السويس والجسور العديدة التى كان الاسرائيليون قد استولوا عليها فوق قناة المياه العذبة ، وبعد ضربة من الميج ١٧ لم تنتج عنها خسائر فادحة ، حلقت خمس طائرات شحن هليكوبتر مصرية على ارتفاع منخفض لتقود هجوما آخر كبديل مؤقت ، لقد كانت

هذه الطائرات الهليكوبتر ، التى لم تكن معدة لدور الهجوم ، محملة ببراميل من النابالم والمتفجرات الشديدة تلك التى اسقطوها من ابواب الطائرات عند مرورها فوق اهدافها ، وقد اخطأ بالكاد ، احد براميل النابالم جنرال ديان . ومع ذلك ، لم تحدث مرة اخرى اية خسائر فادحة ، واسقطت جميع هذه الطائرات ، ويبدو ان هذه هى المرة الوحيدة التى استخدمت فيها الطائرات الهليكوبتر ، خلال الحرب ، فى القيام بدور الهجوم والاشتباك المباشر من كلا الجانبين .

فى هذه الأثناء كانت تجرى معركة جوية كبرى فوق راس الجسر الاسرائيلى ، فوفقا لتنسيق سابق ظلت صواريخ سام المصرية هادئة ، بينما ظفرت طائرات الميج والميراج واف — ٤ فى السماء ، وتم اسقاط حوالى ٢٠ طائرة اثناء هذا القتال وكان معظمها على ما يبدو من الطائرات الميج .

فى هذه الليلة رفع آدان تقريرا بموقفه الى جونين عن طريق اللاسلكى ، وشعر بثقة ان فى استطاعته القيام بهجوم خال من العوائق فى التاسع عشر ، وحث جونين على اطلاق لوائه الاحتياطى وارساله له ، وفى الصباح كان لواء كارين قد اتم عملية العبور وكان داخل محيط الدائرة ، وكان من جراء ذلك ان اصبح لدى آدان اكثر من ٢٥٠ دبابة جاهزة لهجوم اليوم التالى غرب قناة المياه العذبة مباشرة .

مهمة جديدة لشارون :

كان شارون قد نجح خلال ليلتى ١٧ ، ١٨ اكتوبر فى الحصول على تغيير جوهرى فى الخطة الأصلية للهجوم ، لقد كان على شارون اساسا ، ان يتبع المؤخرة اليمنى لآدان ، ليزيد من مساحة الهجوم ، وان يضمن الحماية الكافية لأجنحة رؤوس حرب آدان ، وكان على فرقة ماجن ان تحل محل شارون فى المحافظة على الجسور (فقد تم احضار الجسر السابق تشييده واقيم فى وقت متأخر من الثامن عشر) والمر وراس جسر الضفة الغربية . عندئذ سمح لشارون بمواصلة حماية الجسور ، وفى نفس الوقت قيادة هجوم نحو الشمال للاستيلاء على الاسماعيلية ، وخصص لماجن مهمة حماية جناح ومؤخرة هجوم آدان .

لم يكن جونين او بارليف موافقين على فكرة شارون التى بدت لهما غير سليمة من الناحية الاستراتيجية حيث انها تضمنت تبديدا للجهد الهجومى الاسرائيلى ، غير انهما كانا يميلان الى الموافقة ببساطة ، على امل ان ذلك قد يرضى عقدة الرئاسة عند شارون ، وعدم احداث مشاكل معه ، وكان بارليف مصرا على عدم تشتيت الموارد بعيدا عن الجهد الأساسى وكان جونين راضيا عن ذلك ، لأنه لم يكن سعيدا بشأن محاولة تخويل شارون الاشراف على هجوم فرقتين فى اتجاه السويس مع آدان ، ولعله لأسباب مماثلة وافق ايضا على ذلك كل من الجنرال العازر ووزير الدفاع ديان ، ومع ذلك كما اتضح ، رأى القادة الكبار انهم مازالوا يواجهون مشاكل ، لا تتناقض ، مع شارون حتى عندما كان ينفذ « ما يراه » .

(١٤)

أزمة فى القاهرة

١٧ ــ ٢٠ أكتوبر

ارتباك وشيك :

أصدرت القيادة العليا المصرية أوامرها للجيش الثانى بتطويق التسلل بالقرب من الدفرسوار شرق منطقة العبور ، وذلك بعد غارة ايريز ظهر يوم ١٦ أكتوبر ، ومع ذلك كان المصريون لازالوا مقتنعين بأن الهدف من هذه الغارة الى حد كبير ، هو التضليل وابعاد المصريين عن ادراك التهديد للجناح الأيمن للجيش الثانى ، ويبدو ان عدم توفر المزيد من التقارير من الجيش الثانى عن التسلل الاسرائيلى قد اكد هذا التخمين ، والواقع ان عدم التأكد المصرى من مكان وقوة القوى المهاجمة المعادية كان مماثلا لعدم التأكد الاسرائيلى فى الأيام العشرة السابقة .

وقد علم اللواء اسماعيل ، بعد ظهر السابع عشر ، من الاستطلاع الجوى ومصادر اخرى ان الاسرائيليين يشيدون جسرا فوق القناة ، وكان واضحا ايضا أن ممر الضفة الشرقية لم يكن قد اغلق ، وأن القتال المرير فى منطقة المزرعة الصينية ربما يكون الاسرائيليون قد شنوه من اجل حماية ذلك الممر اكثر من كونه لتهديد الجناح الجنوبى للجيش الثانى ، بعث اسماعيل رئيس اركانه اللواء الشاذلى ، لتقصى الحقيقة على الطبيعة ، نظرا لعدم رضاه عن التقارير التى كان يتلقاها من مقر قيادة الجيش الثانى والثالث عن الأنشطة الاسرائيلية شرق وغرب القناة ، ويبدو أن عداء اسماعيل السابق للشاذلى بدا يقل ، لسروره بالتقرير الذى قدمه اليه رئيس اركانه بعد زيارته لرؤوس جسر الضفة الشرقية يوم ١٥ ، ١٦ اكتوبر ، حيث وجد ان الوحدات تستعيد قوتها بشكل حسن بعد نكساتها فى الرابع عشر .

مهمة الشاذلى وتقريره :

ادرك الشاذلى ، على وجه السرعة ، من ملاحظته الشخصية ومحادثاته مع القادة المحليين ان هناك محاولة اسرائيلية كبرى لتشييد راس جسر على

الضفة الغربية ، وكان فى الاسماعيلية ، فى وقت مبكر من مساء الثامن عشر عندما وصلت تقارير عن غارة بارام غرب الدفرسوار ، ويبدو انه اتصل تليفونيا باللواء اسماعيل واتفق الاثنان على ضرورة سحب مواقع صواريخ سام الموجودة فى فراغ رأس الجسر .

وفى وقت متأخر من اليوم التالى ، ١٩ اكتوبر اكمل الشاذلى عملية مسحه ، وعاد الى موقع القيادة السرى شرق القاهرة مباشرة ، ليقدم تقريره الى اللواء اسماعيل ، وكذا خلاصة استنتاجاته عن الموقف ، ولعلم الشاذلى بالواقع ، وهو وجود معظم دبابات الجيش المصرى واسلحته المضادة للدبابات على الضفة الشرقية ، خشى من احتمال حدوث اختراق اسرائيلى كبير ، ربما أعقبه هجوم نحو القاهرة ، وكان واثقا من عدم وجود قوات مصرية كافية من الدرجة الاولى فى متناول اليد على الضفة الغربية للقناة تستطيع وقف مثل هذه العملية الاسرائيلية . لذلك رفع الشاذلى توصية الى اسماعيل بسحب معظم الوحدات المصرية شرق القناة الى الضفة الغربية حتى يستطيع تطويق الهجوم الاسرائيلى ، وتوقع ــ وكان توقعه سليما ــ ان يبدا الهجوم فى ذلك الصباح ، وهكذا كان الانسحاب السريع للقوات من الضفة الشرقية امرا حيويا .

كان اسماعيل يعرف منذ امد بعيد ، المزاج الزئبقى للشاذلى ، وقد اثبتت تلك الصفة وجودها مؤخرا ، قبل ذلك بعشرة ايام فى عدم اتفاق هذين الضابطين فى استراتيجية اسماعيل الحذرة ، ربما كان كل ما قاله الشاذلى صحيحا بما فى ذلك استنتاجاته عن الخطط الاسرائيلية ، ولكن اسماعيل كان واثقا من ان الاسرائيليين لن يستطيعوا الاختراق الى القاهرة ، وشك حتى فى احتمال محاولتهم ، وانهم مهما فعلوا فى الضفة الغربية ، فهو لا يريد تسليم بوصة واحدة من الأراضى التى قهرها على الضفة الشرقية اذا كان فى الامكان تجنبه ، وتذكر بوضوح تام المأساة التى حدثت عام ١٩٦٧ ، عندما امر المشير عامر القوات المصرية فى سيناء بالانسحاب عبر القناة .

مواجهة بين اسماعيل والشاذلى :

لذلك طلب اسماعيل من الشاذلى ، توجيه جميع وحدات رئاسة القيادة العامة فى القاهرة وضواحيها بأن تكون على حذر ، واصدار أمر حاسم للجيشين الثانى والثالث لمبداين اساسيين : ضرورة حشد جميع القوات الموجودة لديهم على الضفة الغربية لتطويق رأس الجسر الاسرائيلى، وعزله ــ ان امكن ــ وعدم سحب اى جندى من الضفة الشرقية لمواجهة هذا الموقف على الضفة الغربية .

اعترض الشاذلى على الفور ، ونشب جدال بين القائدين ، وعجز الاثنان عن اخفاء عداوتهما المتبادلة ، ويبدو ان الشاذلى وجه له بعض

الملاحظات غير اللائقة ، الأمر الذى جعل القائد العام للقوات المسلحة يأمر رئيس الأركان برفع تقرير الى رئاسته فى مركز القيادة السرية وينتظر تعليمات اخرى

وفى الحال اتصل اسماعيل بالرئيس السادات تليفونيا ، واخبره ان هناك حاجة ماسة لوجوده فى مقر القيادة ، وعندما سال السادات عن السبب اكتفى اسماعيل بقوله : لوضعه فى الاعتبار احتمال وجود تصنت اليكترونى ـ انه يفضل مناقشة الموضوع مع الرئيس شخصيا .

تدخل السادات :

عندما وصل السادات بعد منتصف ليلة ١٩ ـ ٢٠ اكتوبر بقليل ، استدعى اسماعيل الشاذلى الى مكتبه وقدم القائدان ـ اللذان كان فى حالة سيطرة على اعصابهما ـ وجهات نظرهما المختلفة الى الرئيس(*) . ووافق السادات فى الحال على وجهة نظر اسماعيل ، وعندئذ اعفى الشاذلى من مركزه كرئيس للأركان ، وعين اللواء الجمسى مؤقتا رئيسا للأركان ، ولم يعلن هذا التغيير الهام فى القيادة العليا المصرية لعدة ايام ، ثم اعلن بعد ذلك ان اللواء الشاذلى قد اصيب بانهيار عصبى .

وبعد هذا الاجتماع التاريخى ، تحدث السادات مع اسماعيل على انفراد ، ويبدو انهما اتفقا على ضرورة سعى مصر من اجل وقف اطلاق النار بأسرع ما يمكن حتى يتسنى لها تجنب احتمال تعريض مكاسبهم التى حققوها بالفعل على الضفة الشرقية للخطر ، غير ان اسماعيل اوضح ان لديه فرقة ونصف مدرعات ، وفرقة ونصف ميكانيكية ، وفرقتين احتياطى مشاة وعدة الوية مستقلة جاهزة لتطويق الاسرائيليين على الضفة الغربية .

وما ان عاد السادات الى قصر الرئاسة حتى عقد اجتماعا مع كوسيجين . وقد اسفر الاجتماع عن ارسال كوسيجين رسائل عاجلة لواشنطن وموسكو . وفى غضون ساعات قليلة اتخذت الاستعدادات لسفر وزير الخارجية كيسنجر الى موسكو لمقابلة القادة السوفييت لبحث ما يمكن ان تقدمه الدولتان العظميان من اجل ترتيب وقف اطلاق النار ، وعندئذ طار كوسيجين عائدا الى موسكو للتباحث مع زملائه فى الكرملين وينتظر وصول كيسنجر .

اختلاف السادات والأسد حول وقف اطلاق النار :

ارسل السادات برقية الى الرئيس السورى الأسد ، بعد رحيل كوسيجين تقول :

(*) هيكل فى صفحة ٢٣٨ يقول : انه كان هناك عديد من الضباط حاضرين ، وهذا امر مشكوك فيه ، وان كان من المحتمل وجود الجمسى فى الحجرة .

« لقد حاربنا اسرائيل حتى اليوم الخامس عشر ، كانت اسرائيل وحدها خلال الأربعة ايام الأولى ، ولذا استطعنا تعريض موقفها على كلتا الجبهتين ، ولقد فقد العدو باعترافه ، ٨٠٠ دبابة ومائتى طائرة ، ولكننى كنت احارب فى خلال الأيام العشر الأخيرة على الجبهة المصرية الولايات المتحدة ايضا ، عن طريق الأسلحة التى تقوم بارسالها ، وبدون تنميق ، اقول : اننى لا استطيع محاربة الولايات المتحدة او قبول المسئولية امام التاريخ عن تدمير قواتنا المسلحة للمرة الثانية . لذلك اخبرت الاتحاد السوفيتى باننى مستعد لقبول وقف اطلاق النار على المواقع القائمة ووفقا للشروط التالية :

١ ـ ضمان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة انسحاب اسرائيلى على النحو الذى اقترحه الاتحاد السوفيتى .

٢ ـ عقد مؤتمر سلام تحت رعاية الأمم المتحدة ، من اجل تحقيق تسوية شاملة وفقا لاقتراح الاتحاد السوفيتى .

ان قلبى يدمى وانا اقول لك هذا ، ولكنى اشعر ان منصبى يجبرنى على اتخاذ هذا القرار ، وانا على استعداد لمواجهة امتنا فى لحظة مناسبة وتقديم بيان كامل لها عن القرار(٢) .

وفى الصباح المبكر لليوم التالى الموافق ٢٠ اكتوبر تلقى السادات ردا من الأسد ، فيما يلى نص الجزء الحرج منه :

« .. انى ارجوك ان تعيد النظر فى الموقف العسكرى على الجبهة الشمالية ، وعلى ضفتى القناة ، اننا لا نرى سببا للتشاؤم ، انه فى استطاعتنا مواصلة النضال ضد قوات العدو سواء اكانت عبرت القناة ام مازالت تقاتل شرق القناة ، واننى واثق انه من الممكن بمواصلة المعركة وتكثيفها ضمان تحطيم وحدات العدو التى عبرت القناة » .

اخى السادات انه من الضرورى من اجل الروح المعنوية للقوات المقاتلة التاكيد على انه على الرغم من أن العدو استطاع نتيجة لحادث ما اختراق جبهتنا ، الا ان هذا لا يعنى انهم يستطيعون تحقيق نصر ، وان العدو نجح فى التغلغل الى الجبهة الشمالية منذ عدة ايام ، ولكن الموقف الذى وقفناه عندئذ والقتال العنيف الذى تلاه ، منحنا مبررات اعظم للتفاؤل . لقد تم سد معظم نقاط تغلغل العدو ، وانا واثق من قدرتنا على التعامل مع اولئك الذين لايزالون موجودين ، فى غضون الأيام القليلة القادمة ، اننى اعتبر انه لزاما ان تظل جيوشنا محتفظة بروحها القتالية(*) .

انه غير واضح الى اى مدى كان الأسد يخدع نفسه ، ولا الى اى مدى كان يثبت الوضع للتسجيل ، والواقع ، كما سنرى ، ان الموقف على الجبهة السورية كان افضل مما فهمه السادات ، وعلى اية حال ، فان السادات اعتبر هذا نداء عاطفيا غير واقعى ، ولم يدفعه الى تغيير تفكيره بالنسبة للسعى من أجل وقف اطلاق النار .

(*) نفس الكتاب صفحة ٢٣٩

(١٥)

الهجوم الاسرائيلى على الضفة الغربية
من ١٩ الى ٢٢ اكتوبر

طبيعة ارض الضفة الغربية :

فى المنطقة التى تقع بين الاسماعيلية والسويس توجد ثلاثة طرق رئيسية تمتد من الشمال الى الجنوب ، وتمتد ستة طرق كبرى من الشرق الى الغرب، وبالقرب من القناة يمتد ما يسمى « برودتست » او طريق الاختبار ويسير موازيا بصفة عامة ومن الجانب الشرقى مع كل من قناة المياه العذبة وخط السكة الحديد ، وعلى مسافة من كيلومتر الى خمسة كيلومترات فى اقصى الغرب يمتد الطريق الرئيسى مارا بفايد وجنيفا ، وهو معروف لدى الاسرائيليين باسم هانيت(١) ، وعلى بعد نحو عشرة كيلومترات فى اقصى الغرب يمتد طريق يطلق عليه الاسرائيليون اسم « تادوت » وقد انشاه المصريون اساسا من اجل اتصالات المؤخرة الجانبية .

ويمتد غربى الاسماعيلية طريق يسير موازيا لخط السكة الحديد الرئيسى والقناة ويصل الى القاهرة عن طريق دلتا النيل ، ويمتد طريق الاسماعيلية ـ القاهرة الرئيسى تجاه الجنوب الغربى من الاسماعيلية عبر الصحراء ، وغرب الدفرسوار يمتد طريق يطلق عليه الاسرائيليون اسم شفريا « ساكرانوت » ويتقاطع مع طريق الاسماعيلية ـ القاهرة الرئيسى على بعد نحو ٣٥ كيلومترا غرب الدفرسوار ، وعلى بعد اثنى عشر كيلومترا اقصى الجنوب يمتد طريق شرق غرب فايد يسمى فيتامين ، وعلى بعد عشرين كيلومترا اخرى تجاه الغرب هناك طريق يسمى « عسور » ويقع شمال الطريقين الرئيسين المتدين من السويس الى القاهرة ، ويتقاطع عسور مع هافيت فى منتصف الطريق تقريبا بين جنيفا والشلوفة ، وعلى بعد من عشرة الى عشرين كيلومترا فى اقصى الجنوب هناك طريق يطلق عليه الاسرائيليون اسم « ساراج » وهو الطريق الرئيسى الممتد من السويس الى القاهرة .

وبين التلال العديدة والهضاب المتجمعة فى تلك الأرض الصحراوية الجرداء القاحلة بصفة عامة ، هناك ستة تلال تعد ذات اهمية قصوى ، اذ ان كلا منها يستخدم فى اغراض المراقبة والدفاع ، ففى غرب الدفرسوار تماما يتقاطع طريقا هافيت وساكرانوت على تل تساش ، وعلى بعد خمسة

كيلومترات شمالا هناك تل اريل الذى استولى عليه بارام فى الثامن عشر من اكتوبر ، وفى ربع الدائرة الشمالى الشرقى لتقاطع طريق ساكرانوت مع تادوت يوجد تل ماكتسيرا ، كما يقع تل ميزنفيت غرب تقاطع طريق فيتامين مع تادوت مباشرة ، وهناك منطقة قاحلة اوسع نطاقا واكثر اهمية تعرف باسم تلال جنيفا ، وتمتد غرب البحيرات المرة الصغرى ، وتمتد تلك التلال من طريق هافيت ومشارف جنيفا غربا على بعد عشرين كيلومترا على وجه التقريب ، ويحدها من الجنوب طريق عسور الذى يمتد عبر بعض المنحدرات الجنوبية لتجمع التلال ، وهناك جبل اكبر واوسع نطاقا يقع غرب السويس وجنوب طريق ساراج يسمى جبل عتاقة ، وتطل قممه بتجهم على الصحراء ، وتسهل عملية الرؤية لمسافة اميال عديدة ، وعلى تلك المرتفعات كان للمصريين اجهزة اتصال ضخمة ، تضم واحدة من محطتى الالتقاط الالكترونية الرئيسيتين وكانتا تستخدمان للتصنت على الاشارات اللاسلكية الاسرائيلية .

هجوم آدان على الجنوب :

فى صباح يوم التاسع عشر من اكتوبر شن آدان هجوما تجاه الغرب، ثم الجنوب مستخدما لواءين ، وشن هجوما مباشرا على الجنوب بجزء من لواء آخر ، وفى تجاه اليمين توجه لواء بارام غربا من محيط موقعه المتقدم ، شمال طريق ساكرانوت كى يصل الى تل ماكتسيرا وطريق تادوت ، وفى جنوب ساكرانوت شن لواء امير هجوما ايضا تجاه الغرب متخطيا حصن تل تساش القوى ، وكان لواء قارين يتولى مسئولية تغطية المؤخرة ، ويسار مؤخرة الفرقة ، وعندما اتجه لواء بارام جنوبى طريق تادوت ، واجه مقاومة ضارية شمال ميزنفيت حيث كان يتمركز لواء مصرى ميكانيكى ، لذا طالب بامداده بالمساعدة ، وتلقى واحدة من كتائب قارين حيث عرقل بها الجبهة المصرية ، الأمر الذى مكن بارام من الانحراف تجاه اليسار عابرا طريق فيتامين الذى يقع تقريبا فى منتصف الطريق بين ميزنفيت وفايد ، وسحق المقاومة المصرية المتفرقة على الطريق ، وذلك التحرك تجاه الشرق قاده الى مؤخرة لواء امير ، وهكذا كان بارام يقف فى منتصف خط فرقة ادان .

وفى الوقت نفسه وعقب ان تخطى امير تل تساش تحرك فى الاتجاه الجنوبى الغربى من تساش متوجها شطر تقاطع طريقى فيتامين وتادوت ، مما ادى الى تعرض لواءه للنيران من المنحدرات الشرقية لتل ميزنفيت غرب تادوت ، فى حين اشتبكت كتيبة واحدة فى قتال عنيف مع الدبابات المصرية على تل ميزنفيت ، واتجهت كتيبة اخرى من كتائب امير جنوبا عبر طريق فيتامين كى تصل الى الحافة الشمالية لتلال جنيفا .

واعتبر آدان انه من الاهمية القصوى الاستيلاء فى اسرع وقت ممكن على ذلك التل الذى يقع فى المنتصف ، وذلك قبل ان يتمكن المصريون من

تنظيمه لدواعى الدفاع ، وتقدمت الكتيبة الثالثة من لواء امير جنوبا على طول طريق هافيت متجهة الى فايد ، ولكن سرعان ما عرقلتها قوات مصرية كبيرة تسيطر على المطار ومدينة فايد .

وفى اتجاه المؤخرة قامت فرقة ماجين ، يساعدها لواءان مدرعان ولواء مشاة ميكانيكى ، بعبور راسى الجسر فى ليلة الثامن عشر والتاسع عشر من اكتوبر ، وكان قد بدا فى تطهير جيوب المقاومة التى تفاداها آدان وكان تل تساش هو اول تلك الجيوب . وقامت اثنتان من كتائب ماجين بتخفيف الضغط عن وحدات قارين وامير التى كانت تغلق المنطقة شمال وشرق تل ميزنفيت .

وبالجزء الباقى من فرقته استمر ماجين فى تقدمه ازاء الغرب والجنوب عبر طريق فيتامين ، وفى العشرين من اكتوبر واصل ماجين حملته حيال الجنوب ، منفذا مهمته التى استهدفت حماية جناح ومؤخرة لواء آدان . ومع حلول المساء كان لواؤه الأيمن يرابط على بعد نحو ثلاثين كيلومترا غرب قناة السويس واقل من مائة كيلومتر عن القاهرة .

وفى العشرين من اكتوبر ، ولأول مرة منذ اندلاع الحرب ، كانت فرقة آدان تتلقى دعما جويا فعالا . وتمكنت الهجمات المدرعة الاسرائيلية وقصف المدفعية المركز الذى وقع فى اليوم السابق من تمزيق هيكل مظلة صواريخ سام المصرية ، واضحى فى وسع الطائرات الاسرائيلية الآن بدء العمل دون مجابهة تدخل خطير من قبل وحدات الدفاع الجوى المصرى المتواجدة فى المنطقة فوق وغربى راس الجسر ، وكان يتعين امداد دعم جوى مماثل للقوات البرية الاسرائيلية كى تستمر فى الحرب .

وفى ذلك الوقت كان لواءا بارام وقارين متوغلين فى تلال جنيفا ، وفى حوالى الساعة العاشرة والنصف وصل بارام الى طريق عسور الذى يمر من خلال الحافة الجنوبية لتلال جنيفا ، وهناك اقام بارام متراسا ، مما الحق خسائر فادحة بحركة المرور المصرية بين القاهرة والسويس ، ووفقا للتعليمات التى تلقاها من آدان ارسل كتيبة الى اقصى الجنوب كى تحاول قطع طريق ساراج — طريق السويس القاهرة الرئيسى ، ولكنها لم تتمكن من التقدم ، بالرغم من انه كان فى وسعها مضايقة المرور على الطريق مستخدمة نيران دباباتها البعيدة المدى ، ونظرا لان بارام خشى من احتمال القضاء على تلك الكتيبة ، فانه قام بسحبها اثناء الليل ، واعادها الى موقعه الرئيسى فى الحافة الجنوبية لتلال جنيفا .

وفى الوقت نفسه كان قارين يتخذ طريقه خلال الجزء الشرقى لتلال جنيفا ، ومع قدوم الليل كان قد اقترب من نقطة تقاطع طريقى عسور وهافيت ، وحاول امير الذى كان يقف وقتئذ خلف اللواءين الآخرين — فتح طريق هافيت شمال فايد ، اذ ان آدان اراد استخدام ذلك الطريق الرئيسى كطريق امدادات لفرقته ، بيد أن المقاومة المصرية فى فايد كانت قوية وعنيفة

للغاية ، ومن ثم كان يتعين على آدان وقواته مشاركة فرقة ماجين فى طريق مادون الملتوى وغير المباشر .

وفى الحادى والعشرين من اكتوبر تلقى آدان كتيبتين اضافيتين ، واحدة مشاة والأخرى من سلاح المهندسين ، وخصص هاتين الوحدتين الجديدتين لمساعدة لواء امير ، وبتلك القوة الاضافية تمكن امير من تطهير كافة جيوب المقاومة داخل وجنوب فايد ، وهكذا فتح طريق الامدادات امام لواء أمير ، واتاح ذلك ايضا للطائرات الاسرائيلية فرصة استخدام مطار فايد لاخلاء الجرحى والقيام بمهمات استطلاعية وامداد المساعدات العاجلة .

وفى الوقت نفسه ، اندفع بارام وقارين جنوب عسور ، بهدف قطع طريق ساراج وعزل مدينة السويس عن القاهرة ، ولكن جنوب عسور مباشرة جابهتهما مقاومة مصرية متزايدة ، مما حد من سرعة تقدمها ، وفى وقت متاخر من الصباح اوقفهما هجوم مضاد شنه لواءان من الفرقة المدرعة الرابعة المصرية . وحاول اللواءان الاسرائيليان معا استئناف تقدمهما مرة اخرى فى المساء غير ان هجوما مضادا من الدبابات المصرية اوقفهما مرة اخرى ، بيد ان الدبابات الاسرائيلية ، ذات النيران البعيدة المدى الذى يبلغ نحو ١٠ر٠٠٠ متر ، تمكنت من منع حركة المرور المصرى على طريق ساراج ، وكان هو الطريق الوحيد الباقى الذى يربط الجيش الثالث المصرى بالقاهرة .

حملة للقناة :

قبل بزوغ فجر اليوم الثانى والعشرين من اكتوبر تلقى آدان رسالة باللاسلكى من جونين يبلغه فيها انه سوف يحدث وقف اطلاق النار فى التو عقب السادسة مساء ، وكان يتعين على آدان بذل قصارى جهده للوصول الى قناة السويس وسوف يواصل ماجين تقدمه فى الوقت نفسه شطر الغرب ، كى يقطع طريق ساراج اذا امكن ، وقرر آدان مساعدة بارام على مواصلة تقدمه تجاه الجنوب ، بالتنسيق مع ماجين لقطع طريق ساراج فى قطاعه ، فى حين واصل لواءا اخير وقارين هجومهما شرقا نحو كبريت والشلوفة ، وخلفهما القناة مباشرة .

ووصلت العناصر الرئيسية فى لواء بارام ، بمساعدة مدفعية ماجين ، الى طريق ساراج فى منتصف الصباح . وتم تسليم ذلك القطاع الى ماجين ، وتحرك بارام شرقا للانضمام الى اللواءين الآخرين ، اللذين واجها مقاومة مصرية قوية على طول هافيت جنوب جنيفا .

ومع حلول المساء انتاب آدان شعور الخوف من انه لن يصل الى القناة قبل تنفيذ وقف اطلاق النار ، وكان يناقش مع بارليف من خلال اللاسلكى

مشكلة محاولة شن هجمات متفرقة عندما علم ان ماجين خفف الضغط عن بارام ، وبتجمع الوية آدان الثلاثة قرر العودة لمحاولة استخدام تكتيكات « هجوم الدبابات » الذى حقق نجاحا بالغا فى حرب عام ١٩٦٧ ، غير انه كان سببا فى كارثة كبرى ابان الأيام الثلاثة الأولى فى تلك الحرب(٢) . وكان يتعين على الويته الثلاثة ، حيث كان قارين على اليسار ، وامير يتحرك فى جهة اليمين وبارام يتحرك من بينهما ، شن هجوم على جبهة عريضة عبر طريق هانيت فى المنطقة الواقعة بين جنيفا والشلوفة .

وعقب المساء مباشرة اتجهت الدبابات الاسرائيلية شرقا وسارت باسرع ما يمكن متخطية مناطق المقاومة الكبرى بقدر المستطاع ، واسفرت النتيجة عن اندلاع معركة ضارية اثارت الاضطراب ، نظرا لأن تلك المنطقة كانت هى منطقة مؤخرة الجيش الثالث المصرى ، الذى يضم عددا هائلا من كافة انواع القوات ، ووصلت الألوية الثلاثة كلها الى الحزام الأخضر وقناة المياه العذبة ، ووصلت احدى كتائب قارين الى الشاطىء الجنوبى للبحيرات المرة الكبرى شمال كبريت ، بيد ان تلك الكتيبة واجهت هجوما عنيفا وبصورة ضارية فى تلك المحاولة ، اذ وجدت نفسها هدفا لهجمات مضادة من جانب المصريين ، واصدر آدان امرا لها بالعودة الى خط قارين الرئيسى على طول قناة المياه العذبة .

وفى ذلك الوقت كان الظلام قد حل ، وكان من المفروض انه تم تنفيذ وقف اطلاق النار ، وكما أشار أحد القادة الاسرائيليين عقب الحرب فانه بالرغم من « استمرار القتال » فان ثمة هدوءا حقيقيا قد خيم على العمليات(٢) .

وعندما سرى تنفيذ وقف اطلاق النار فى الساعة ٦ر٥٢ مساء من الثانى والعشرين من اكتوبر كان آدان وماجين يحتلان منطقة تمتد الى مسافة من عشرين الى ثلاثين كيلومترا غرب القناة والبحيرات المرة ، وتمتد من طريق ساكرانوت فى الشمال الى الشلوفة وطريق السويس ـ القاهرة الشمالى (عسور) فى الجنوب ، مع قيام بعض العناصر المتقدمة باغلاق لبعض قطاعات طريق السويس ـ القاهرة الرئيسى (ساراج) بالفعل ، بيد ان آدان كان يسيطر على جزء فحسب من الحزام الأخضر بين جنيفا والشلوفة ، وفى داخل معظم المنطقة التى اجتاحتها فرقته ولواء ماجين كان هناك عدد قليل من المصريين ، بيد انه فى المنطقة التى تقع شرق طريق هانيت وشمال الشلوفة تداخلت وحدات آدان على نحو خطير مع الوحدات المصرية .

وكان ذلك الموقف المضطرب من شأنه اثارة اضطرابات هائلة خلال المفوضات اللاحقة ، اذ انه كان بوسع كلا الجانبين ، ولديه تبريرات هائلة ان يدعى السيطرة على جزء كبير من نفس الأرض .

شارون والاسماعيلية :

كان يدور فى شمال الدفرسوار بالقرب من سيرابيوم نمط مختلف تماما من العمليات اذ أنه فى الثامن عشر من اكتوبر حصل شارون ، رغم معارضة جونين وبارليف ، على موافقة من الجنرال تال (بالحاح من ديان فيما يبدو) لتحريك لواء رشيف الى الضفة الغربية للقناة ، وكان جونين يريد من شارون ان يستخدم لواء رشيف لتوسيع نطاق المنطقة الضيقة الممتدة شرق الجسر ، وذلك بالاستيلاء على المنحدرات الجنوبية لميسورى ، بيد ان شارون اصر على ان المقاومة المصرية كانت ضعيفة للغاية ، الى حد انه فى وسع لواء رافيف تاكيد الأمن من خلال تلك المنطقة ، ووافق بارليف على ذلك .

وفى الوقت نفسه ، وبناء على تعليمات شارون ، تم مد جسر سابق التجهيز يبلغ طوله ١٧٠ مترا ، حتى طريق طيرطور ، وقامت عشر دبابات او ما يربو عن ذلك بشد ودفع الجسر ، فى الوقت الذى تولت فيه حلقة من الدبابات والمدافع المضادة للطائرات حماية تلك العملية غير المتقنة من كافة الجوانب ، ووصل الجسر فى النهاية الى حافة القناة ، شمال حوض اصلاح السفن مباشرة ، وذلك فى الساعات الأولى من مساء الثامن عشر من اكتوبر ، وعقب منتصف الليل مباشرة تم فتحه امام حركة المرور .

وفى ذلك الوقت أحدثت المدفعية المصرية خسائر فادحة فى الأرواح بالقرب من الطوف الأصلى للجسر ، وكان مدى نيران المدافع يصيب بدقة دعامات الجسر ، كما اصابت الطلقات العرضية الجسر ذاته ، وقد وقع جزء هائل من خسائر فى الأرواح الاسرائيلية التى حدثت ابتداء من الثامن عشر من اكتوبر حتى نهاية الحرب على الجسور أو بالقرب منها وتم اقامة طوف لجسر آخر شمال الجسر سابق التجهيز فى التاسع عشر من اكتوبر ، وفى ذلك الوقت دفعت الهجمات الاسرائيلية المتكررة بعناصر الجناح الأيمن المصرى الى نحو ثمانية كيلو مترات شمال نقطة العبور الأصلية والى نحو اربعة كيلو مترات شمال المزرعة الصينية .

وعلى الضفة الغربية وفى الثامن عشر من اكتوبر ، أصدر شارون امرا للكولونيل مات بارسال كتيبة من قوات المظلات كى تقوم بسبر غور المنطقة الشمالية حتى سيرابيوم ، فواجهت مقاومة عنيفة ، ومع هبوط الليل انسحبت الى راس الجسر تحت وابل من الضغط المصرى الضارى وقد تزايدت المقاومة المصرية الفعالة نتيجة لوصول لواء قوات المظلات الثامن عشر الثانى من احتياطى الجيش الثانى فى ذلك اليوم ، وكان يراس ذلك اللواء العقيد اسماعيل عزمى ، ومن قبيل الصدفة انه صدر امر بالهجوم الاسرائيلى قبل أن يتلقى شارون تصريحا بشن هجوم فى ذلك الاتجاه ، غير أن شارون تمكن فى وقت لاحق تلك العملية العقيمة بانها على غرار نفس نوع « الحراسة » التى تضطلع بها داورية ، والتى كان قد استخدمها منذ سبعة عشر عاما فى ممر متلا .

وفى التاسع عشر من اكتوبر ، وعندما تلقى شارون موافقة على مضض لشن هجوم ضد الاسماعيلية ، وعندما نقل لواء ريشيف ايضا الى الضفة الغربية ، اصدر امرا مرة اخرى للكولونيل مات بالاتجاه شمالا مخترقا الحزام الاخضر ازاء سيرابيوم ، غير ان قوات المظلات التابعة لمسات تقابلت مع قوات مظلات لواء العقيد رمزى الثامن عشر وتوقف الهجوم كلية ، وحينئذ ارسل شارون ريشيف للالتفاف حول الجناح الايسر لمسات ، للاستيلاء على تل اورشا الذى يقع غرب سيرابيوم مباشرة ، وكانت المقاومة هناك عنيفة ايضا ، غير ان ارشيف تمكن من استغلال قدرته الفائقة على المناورة للاستيلاء على الموقع قبل هبوط الظلام .

اكتشف الاسرائيليون ان هذه المنطقة كانت محطة اعتراض لاسلكى مصرية كبرى ، وانسحبت قوات المظلات المصرية الى فوسكان ، وعلى وجه السرعة قامت باعداد موقع دفاعى جديد .

وفى اليوم العشرين من اكتوبر جدد شارون القتال شمالا من اورشا وسيرابيوم ضد الاسماعيلية ، وهاجم على جبهة تضم ثلاثة الوية على طول عرض الحزام الاخضر ، وكان مات على اليمين ، واريز فى الوسط ، وريشيف على اليسار ، وعقب قتال مكثف شعر الاسرائيليون ان مقاومة اللواء الثامن عشر الثانى قد وهنت ولكن فى اللحظة التى بدا فيها الاسرائيليون يتقدمون وجدوا انفسهم يجابهون على حين غرة هجوما مضادا .

ونظرا لان العقيد عزمى تلقى تعزيزات ، فانه اشرك قوات احتياطية، وتمكن من وقف الهجوم الاسرائيلى ، وطوال بقية اليوم ظلت المعركة تتارجح بين كر وفر جنوب بحيرة التمساح مباشرة ، وطوال فترة الظهيرة بدا تفوق قوة الاسرائيليين يعلن عن نفسه ، غير انهم لم يكسبوا مزيدا من الارض قبل حلول المساء ، لكن نيران المدفعية الاسرائيلية قد جعلت من المتعذر استخدام طريق الاسماعيلية ـ القاهرة الرئيسى .

حل شارون بالنسبة لميسورى :

اثناء المعركة المتمددة التى اندلعت فى اليوم الحادى والعشرين من اكتوبر تقدمت قوات شارون قليلا مرة اخرى ، وحاصرت موقع توسكان الدفاعى ، غير ان المصريين ردوهم على اعقابهم مرة اخرى ، واوقفوا الاسرائيليين جنوب ترعة الاسماعيلية التى تقع جنوب المدينة مباشرة ، ويعتقد المصريون ان فشل شارون فى الاستيلاء على الاسماعيلية كان يرجع الى دفاعهم المستميت ، واصر شارون عقب انتهاء الحرب على ان فشله كان يرجع الى تدخل من مقر القيادة الجنوبية .

واهتم بارليف وجونين باظهار حقيقة ان اتساع المنطقة الشرقية للممر الذى يفضى الى راس الجسر فى الدفرسوار بلغت ثمانية كيلومترات فحسب ،

وان التحركات الاسرائيلية داخل الممر كانت هدفا لنيران المصريين الموجهة لميسورى ، كما ان شارون تجاهل التعليمات المتكررة بتعزيز قوات رافيف كى يتمكن من توسيع نطاق الممر ، وفى النهاية وفى صباح يوم الحادى والعشرين من اكتوبر اصدر جونين امرا حاسما لشارون باعادة القوات وشن هجوم شامل على ميسورى ، واذعن شارون للأمر على مضض ، بالرغم من انه ارسل خمس دبابات فحسب لتعزيز رافيف ، وفى الساعة الثالثة مساء بدا رافيف هجوما جاء متأخرا على ميسورى ، ولاسيما على تل طاليا ، وحقق الهجوم الأول نجاحا ، غير ان الفرقة السادسة عشرة المصرية شنت هجوما مضادا واستردت تل طاليا ، وعجز الهجوم الاسرائيلى عن التقدم .

واصدر جونين امرا آخر لشارون لمهاجمة ميسورى ، واجاب شارون بان كافة قواته تشتبك فى معركة فى مكان آخر ، وكان ذلك صحيحا ، وهكذا لم يتمكن من مهاجمة الضفة الشرقية ، وحينئذ تولى بارليف القيادة من جونين ، واوضح ببطء وعلى نحو جلى اسباب ضرورة توسيع نطاق الممر ، ولاسيما فى ضوء وقف اطلاق النار المتوقع ، واصدر امرا لشارون بشن هجوم آخر ، والاستعانة بقوات مناسبة ، بيد انه عقب انقضاء بضع دقائق تلقى جونين مكالمة من الجنرال تال فى تل ابيب ، تفيد بأن موشى ديان وزير الدفاع قد اصدر امرا مباشرا بالا يهاجم شارون ميسورى ، وعقب ان تلقى بارليف ذلك الأمر ، اتصل شارون تليفونيا بديان مباشرة واقنع الوزير بنقض الأمر .

وهكذا وفى اليوم الثانى والعشرين من اكتوبر تمكن شارون من تركيز انتباهه وجهود ثلاثة من الويته الأربعة للاستيلاء على الاسماعيلية ، غير انه فى ذلك الحين كان المصريون يشددون قبضتهم تماما على المدينة ، وعندما تم تنفيذ وقف اطلاق النار فى الساعة ٦ر٥٢ مساء كان الاسرائيليون على كلا جانبى القناة ، لا يزالون يقفون على بعد نحو عشرة كيلومترات جنوب المدينة المحطمة .

الملاحظـات

(١) تستخدم الأسماء العربية الأصلية بقدر المستطاع لتحديد تضاريس الارض والطرق بيد انه فى سبيل تقديم وصف ملائم تستخدم الأسماء الشفرية الاسرائيلية عندما تكون الأسماء العربية غير محددة .

(٢) مما ساهم فى اتخاذ ذلك القرار ادرك ادان ان لدى المصريين صواريخ قليلة من طراز ساجرز واريلى جيه ــ ٧ اس ترابط فى غرب القناة كما انه يتلقى مساعدة جوية جوهرية .

(٣) ان الوصف الاسرائيلى والمصرى المسئول لذلك الموقف متضاربان للغاية ، اذ ان كلا من المصريين والاسرائيليين يشتكون (كما اعتقد باخلاص كامل) بأن ذلك الوصف « المحايد » ينحاز على نحو غير منصف للجانب الآخر ، وهكذا اعتقد ان هذه الفقرات تقترب من الحقيقة الموضوعية .

(١٦)

العمليات النهائية فى سوريا
من ١٤ – ٢٢ اكتوبر

معضلة الملك حسين :

فى التاسع من اكتوبر ، يبدو ان الملك حسين عاهل الاردن قد اتخذ قراره بدخول الحرب ضد اسرائيل ، وكان امامه هو ورئيس اركان جيش الاردن اربعة سبل للعمل محتملة وجلية ايضا ، الا وهى :

اولا : شن هجوم شامل عبر نهر الاردن على اراضى الضفة الغربية السليبة للاردن ، وذلك فى الوقت الذى تكون فيه اسرائيل منهمكة فى عمليات ضد جيشى مصر وسوريا .

ثانيا : احتواء جزء من الجيش الاسرائيلى على طول جبهة نهر الاردن ، وذلك من خلال حشد الجيش كى يتخذ وضعا تهديديا ، ولكنه دفاعى اساسا ، شرق النهر .

ثالثا : اشراك قوة اردنية محدودة فى المعركة الدائرة فى سوريا حيث يمكن ان تعمل تحت مظلة القوات الجوية السورية وبطاريات صواريخ سام .

رابعا : عدم اتخاذ اى دور فعال فى الحرب .

فى الثامن من اكتوبر ، عندما اعلن راديو دمشق بثقة ان الجيش السورى على وشك دفع الاسرائيليين الى بحيرة طبرية ، ربما كان حسين ورئيس اركانه قد فكرا بصورة جادة بانتهاج اول تلك البدائل ، غير ان هناك عدة اسباب كانت تدعو الى توخى الحذر . اذ انه فى المقام الاول ، لم يكن لدى الاردنيين جهاز دفاع جوى حديث ، ولم يكن لديهم صواريخ سام على الاطلاق ، بل قوة صغيرة نسبيا من المدافع الخفيفة المضادة للطائرات .

اضف الى ذلك انه لم يكن لدى الاردن صواريخ موجهة مضادة للدبابات واوضحت تقارير الصحف الاولى ، رغم انها كانت مشوشة وغير

الاضطراب الى حد ما ، ان مثل تلك الصواريخ تلعب دورا كبيرا فى المعارك الدائرة فى سيناء وعلى مرتفعات الجولان ، وكانت القوات الجوية الاردنية صغيرة وضعيفة ، ومن ثم فاى تحول ضعيف للطائرات الاسرائيلية عن الجبهات الاخرى يمكن ان يبيد تلك القوة فى اسرع وقت كما حدث فى عام ١٩٦٧ ، والجيش الاردنى ، فى الوقت الذى كان هو افضل الجيوش العربية باسرها من الناحية التدريبية ، يفتقر الى القوة البشرية ، ولم يكن لديه مخزون من الاحتياطى للحرب ، وحتى اسلحته التقليدية كانت عتيقة وتفتقر الى المعدات .

وفضلا عن ذلك ، فانه فى مستهل يوم الثامن من اكتوبر النشط بعض الطائرات الاردنية دليلا ينم على ان الهجوم السورى قد باء بالفشل وان السوريين كانوا فى موقف دفاعى بالفعل على معظم اجزاء جبهة الجولان . وبحلول ذلك الوقت يوم ٩ اكتوبر .. وهكذا استبعد حسين البديل الاول — اذا كان قد بحثه بصورة جادة على الاطلاق .

بيد انه فى سبيل ان يحتفظ الملك حسين بما يحظى به من احترام بين الدول العربية الاخرى ، ولاسيما كى يضمن استمرار الدعم المالى الذى كان يتلقاه من الملك فيصل عاهل السعودية قبل الحرب ، ادرك حسين انه يتعين عليه اتخاذ اجراء ما ، وانتابه شعور بالثقة بان الحكومة الاسرائيلية سوف تتفهم موقفه ، ومن ثم اذا اتخذ الاردن اجراء مباشرا على جبهة نهر الاردن ، فان اسرائيل لن تتخذ اى اجراء انتقامى ، وذلك اذا اشتركت فرقة صغيرة من القوات الاردنية فى العمليات الدائرة فى سوريا ، وبالتالى انتهج حسين صورة معدلة من البديل الثانى — المتمثل فى اتخاذ موقف يستهدف التهديد ، ولكنه دفاعى شرق نهر الاردن — والبديل الثالث المتمثل فى اشراك قوة صغيرة من جيش الاردن فى سوريا ، وارسل حسين مستشاره العسكرى الشخصى الرئيسى ، الا وهو اللواء متقاعد امير خماش ، رئيس الاركان السابق ، الى القاهرة لابلاغ الرئيس السادات بقراره والاسباب التى دفعته الى اتخاذه .

وتم اعداد اللواء مدرع الاربعين ، تحت قيادة العقيد حاج الجالى ، كقوة لارسالها الى سوريا ، وضمت تلك القوة نحو ....) فرد ومائة وخمسين دبابة من طراز سنتوريون ، وتم ابلاغ الحكومة السورية بالقرار الاردنى ، وفى اليوم الثانى عشر من اكتوبر وافقت سوريا على دخول القوة الاردنية الى الاراضى السورية ، وفى الثالث عشر من اكتوبر توجه اللواء مدرع الاربعين شمالا مخترقا رامثا عبر الحدود ، وواصل سيره على طريق دمشق من خلال درعا ، ثم اتخذ وجهته الى الجهة الشمالية الغربية شطر الجبهة .

ومع حلول مساء ذلك اليوم بدات الجبهة السورية فى الاستقرار ، وعقب ان حقق الاسرائيليون انتصارا فى وقت مبكر من الصباح على الفرقة المدرعة الثالثة العراقية ، تابعوا بعملية سبرغور تجاه الشمال ، ووجدوا

ان السوريين يصمدون بقوة فى مواجهة وشرق سعسعة ، ويبدو انهم عقدوا العزم على وقف هجومهم المضاد ، ويقول الاسرائيليون : انهم مضوا الى حد بعيد لتلقين السوريين درسا ، فى الوقت الذى تجنبوا فيه المغالاة فى التوسع او خطر التورط على نحو يكلفهم كثيرا فى ضواحى دمشق ، وكان السوريون يعتقدون أن استبسالهم فى الدفاع هو الذى اوقف الاسرائيليين وبينما حدثت تقلبات طفيفة للخط الذى يقع فى المناطق المتاخمة لمنطقة سعسعة ابان الايام القليلة التالية ، كنتيجة لعمليات سبرالغور المحدودة ، والهجمات المضادة التى قام بها كلا الجانبين ، فان الخطوط وصلت اساسا الى صورتها النهائيـــة .

وتمركز الجناح اليسارى الاسرائيلى بقوة عند سفح جبل الشيخ الذى يقع بالقرب من بيت جان ومزرات بيت جان ، ومن تلك المنطقة امتدت الجبهة تجاه الجنوب الغربى عبر سهل دمشق الى مسافة نحو ثلاثين كيلومترا فى خط مستقيم تقريبا ، مارة شمال تل الشمس مباشرة وجنوب سعسعة حتى المناطق المجاورة لكفر شمس ، حيث انحرفت بشدة تجاه الغرب الى مسافة نحو ٢٥ كيلومترا ، حتى الخط الأحمر ، وهناك اتجهت فجأة شطر الجنوب بمحاذاة خط وقف اطلاق النـــار القـــديم وحتى وادى اليرموك .

وبالرغم من أن هذا الخط قد استقر ، فان ذلك لا يعنى ان الهـــدوء قد خيم على الجبهة : اذ ان اول تطور جديد هام حدث فى الثالث عشر من اكتوبر تمثل فى انزال قوة كوماندوز اسرائيلية محمولة بطائرة هليكوبتر على بعد ٩٥ كيلومترا تقريبا شمال شرق دمشق ، وقام الاسرائيليون بتفجير احد الجسور ونصبوا كمينا لقول عراقى ، ثم عادوا الى طائراتهم الهليكوبتر فى رحلة العودة الى مرتفعات الجولان .

وفى ذلك المساء ايضا بدات نيران المدفعية الاسرائيلية تسقط على مطار دمشق العسكرى الذى يقع جنوب شرقى المدينة ، وقد استخدمت مدافع عيـــار ١٧٥ مليمترا امريكية الصنع فى تلك الغارات المتكررة التى استمرت على نحو متقطع طوال العشرة الأيام التالية .

وواصلت القوات الجوية الاسرائيلية ايضا قذف قنابلها ذات المـــدى البعيد ضد القوات الجوية السورية والمرافق الصناعية ، وابان تلك الهجمات اصيبت طائرتا شحن سوفيتين كبيرتين ، وهما قد دمرتا او اصيبتا اصابة بالغة فى مطار دمشق المدنى الذى يقع شمال المدينة .

وفى الرابع عشر من اكتوبر دخل اللواء المدرع الاربعون الاردنى الى خطوط الجبهة جنوب الجزء البارز من خط الدفاع الاسرائيلى شمالى الحرة ، فى المنطقة التى تقع ما بين الفرقة المدرعة الثالثة العراقية والفرقة السورية التاسعة ، ورابطت على الجانب الايسر لخط الدفاع الاسرائيلى ، وتم وضع

العقيد الأردنى فى مجال (الذى رقى فى اليوم نفسه الى رتبة عميـــد) تحت قيادة قائد الفرقة العراقية الثالثة .

وفى الخامس عشر من اكتوبر اصدر اللواء شكور أمرا للفرقة المدرعة الثالثة العراقية ، التى تسيطر على الجزء الشرقى للخط العربى المواجـــه للجزء الجنوبى من القسم البارز فى خط الدفاع الاسرائيلى ، بالتخطيط لشن هجوم مضاد كبير غرب كفر شمس فى وقت مبكر من صباح اليوم التـــالى ، وتم ابلاغ قائد الفرقة العراقية الثالثة باشراك اللواء الأردنى فى هجـــومه المضـــاد ، كما تم ابلاغه بأن لواء الجناح الأيمن للفرقة التاسعة ســـوف يشترك فى الهجوم فى الساعة الخامسة من صباح يوم ١٦ اكتوبر ، ولاحظ الاسرائيليون الاستعدادات العراقية ، وفى الساعة الرابعة صباحا من يوم ١٥ اكتوبر شن الجنرال لانر هجوما محدودا ضد العراقيين ، وذلك فى عملية تطويق واسعة النطاق لجناحهم الأيمن ، ودفعهم بعيدا عن تل عنتر ، وارغامهم على الانسحاب الى مسافة نحو خمسة كيلومترات .

وكما هو مقرر شن الأردنيون ، وفرقة سعودية التحقت معهم ، ولواء سورى يرابط بالقرب من ام بوتن ، هجومهم فى الساعة الخامسة من صباح يوم السادس عشر من اكتوبر ، حيث اكتشفوا أن العراقيين لم يشتركوا فى الهجوم ، وفشل المهاجمون فى كسب اى ارض ، وفى الساعة التاســعة صباحا انسحبوا عقب تكبدهم خسائر معتدلة ، بيد ان الاسرائيليين الذين واجهوهم تاثروا بالاداء التكتيكى للقوة الأردنية التى ظهرت فى مســـتوى فنى يفوق السوريين او العراقيين .

وقرب الساعة العاشرة صباحا بدا العراقيون على نحو متأخر هجومهم المعتـــاد ، حيث اوقفهم فى التو الاسرائيليون ، الذين كانوا يقفون على اهبة الاستعداد فى انتظارهم ، وعقب بضع ساعات انفصل اللواء الأربعـــون الأردنى عن الفرقة العراقية ، ووضع تحت قيادة الفرقة التاسعة السورية على يسارها ، بيد ان ذلك خلق بعض المشاكل ، نظـــرا لأن العميد مجـــالى القائد الأردنى كان اكبر فى الرتبة من العقيد حسن تركمانى قائد الفـــرقة التاسعة ، وتم سريعا ارسال ضابط عام من دمشق ، كى يعمـــل كضابط اتصال وكى ينقل اوامر العقيد تركمانى الى العميد مجالى .

وخلال يومى السابع عشر والثامن عشر من اكتوبر ، ولأول مرة منذ بدء الحرب يسود الهدوء على طول الجبهة السورية ، وحدث قصف هائل لنيران المدفعية ــ كان فى معظمه بمثابة مضايقات ورد على اطلاق النار ــ وتبادل لنيران الدبابات ، والقيام بانشطة الداورية كذلك ، غير ان اى الجانبين لم يقم بمناورة هامة ، بيد أنه فى أقصى الشمال والشرق واصلت القوات الجوية الاسرائيلية ضغطها على منشآت مؤخرة الجيش السورى والموانى البحرية والمصانع ، كما هاجمت الطائرات السورية ايضا منطقتى رامات ماجشيميم وجادات اللتين تقعان فى الجليل الاعلى وبعض المواقع بالقـــرب من قرية الدروز مجدل شمس التى تقع على مرتفعات الجولان .

وافتقر الإسرائيليون بوصفه تلك الهجوم لإرسال قوة العراق التي كانت قد أعطته قسطاً من الراحة . الكشف عن قوات العراق المشتبكة على الطلقة الشرقية والجنوبية الواجهة لجنود ... قوات اللواء إلى مواقع العراق لتجد التي كانت ترابط على الخط الأمامي ... سيطرة الجنود الآن . بيد أن قوة العراق ... سيطرة على الجزء الشمالي الشرقي . ويشهد القيام بمحاولة ... المعجم على جبل الشيخ في الجانب الشمالي . وما على عدة كتائب من التي أطلقت مؤخراً إلى جبهة سيناء .

وفي التاسع عشر من أكتوبر انضمت الجبهة السورية ... حالة تلك إلى الهدوء ... سلسلة من الهجمات المضادة ... الجهود الرئيسية في مواجهة الجانب الجنوبي من الجبهة ... حيث اشتركت القوات العراقية والأردنية والسورية جميعاً في ... ولكن لم يكن هناك تنسيق كبير بين تلك الهجمات العربية ... الإسرائيليين مشقة في ردهم على الظاهرة . وبالرغم من أنه لم ... الوحدات ونقلها إلى جبهة سيناء . وفي وقت متأخر من اليوم السابق ... الإسرائيليين يرون . وبقتال القتال التي نشب في ذلك اليوم ... تقدم للتغلغل على القبة .

وبعد طول الشديد من أكتوبر ، تلقوا الجهود التي تمت على المعركة . أخذ السوريون أنهم في موقف يمكنهم من أخذ زمام ... الإسرائيليين ، فطلبوا بإطلاقة تعجيز الفرقة والألوية التي كانت قد ... خسائر فادحة خلال الأيام الأربعة الأولى من القتال ، واحتكوا ... على خط ... الإسرائيلي ، ورابط اللواء العربي ، ولواء ... في الجانب الشمالي للجبهة عند سفح جبل الشيخ . وكانت الفرقة ... تسيطر سيطرة تامة على شرق خط الجبهة ... وسيطر لواء ... مستقل على الجانب الجنوبي الشرقي . وفي جنوب الجبهة الإسرائيلي ... الشرق إلى الغرب ، كانت ترابط الفرقة العراقية الثالثة واللواء ... الأردني والفرقة السورية الخامسة التي سيطرت على الزاوية حيث ... الجبهة إلى الخط الأحمر ، وسيطرت الفرقة الخامسة على ... الخط الأحمر حتى وادي اليرموك .

وعلى الجانب الأيمن لمؤخرة الفرقة الثالثة كانت ترابط الفرقة السابعة المنشأة التي تم إعادة تنظيمها وتجهيزها ، والتالي من ألوية المدرعات المستقلة كقوات احتياطية وكانت تتولى القتال الطريق المؤدي إلى دمشق ، وفي الجانب الجنوبي الغربي الفرقة الثالثة ، رابطت الفرقة الأولى مدرعات حيث تقوم بالاحتياط كل من قوة احتياط ، ومجموعات ثانية ... من الجنود التي ... الهجوم الذي كان السوريون يخططون له الآن .

ومما ساهم في زيادة ثقة السوريين في أنه بوسعهم استعادة زمام المبادرة ، هو إدراكهم أن الإسرائيليين قد أرسلوا عدداً من الكتائب جنوباً إلى جبهة السويس . أضف إلى ذلك أنه لم يترك في إسرائيل سوى عدد قليل من قوات الاحتياط ، لن يكون بوسعهم التصدي لما تحتله سوريا من قوات . وفي الوقت نفسه كانت هناك قوة عراقية أخرى في طريقها إلى المعركة الشمالية ، كما وصلت كتائب من عدة دول عربية للانضمام إلى القتال . وحيث أن يصل اللواء ، وهذا الوقت هو الذي شجع على القوى ، وزيادة الثقة التي أثارت الرئيس الأسد في اتصالاته بالرئيس السادات .

وكان من المقرر أن يبدأ الهجوم السوري أصلاً يوم الحادي والعشرين من أكتوبر ، وأن تتقدمه الفرقة المدرعة الثالثة العراقية واللواء مدرع الأربعين الأردني ، وهكذا تم العراق تقدم ، كان على فرقة المدرعات الأولى التقدم من الشمال الغربي إزاء طريق القنيطرة دمشق ، وذلك لقطع امدادات عن الإسرائيليين المرابطين في مواجهة سعسع .

بيد أنه بعد ظهر العشرين من أكتوبر أعلن العراقيون أنهم ليسوا على استعداد للمضي في هجوم منذ الصباح ، ومن ثم تم إرجاء الهجوم حتى الثاني والعشرين من أكتوبر ، ومع ذلك أوردت كثافة الأنشطة في ذلك اليوم نظراً أن كلا الجانبين بدأ يحاول تحسين مواقعه قبل تنفيذ وقف إطلاق النار المتوقع ووقعت معركة كبرى في ذلك اليوم على منحدرات جبل الشيخ ، غير أن القتال كان ضارياً أيضاً في المناطق المتاخمة لسعسع حيث حاول السوريون دفع الإسرائيليين إلى التقهقر ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم عندما اتضح جلياً أنه سوف يسري تنفيذ وقف إطلاق النار في اليوم التالي تلم اللواء شكور بإلغاء الهجوم المقرر .

وعلى جبل الشيخ حاول اللواء الإسرائيلي المتمركز على الجولان استعادة موقع المراقبة الإسرائيلي السابق ، وذلك في هجوم بري اشتركت فيه طائرات الهليكوبتر ، بيد أن المحاولة باءت بالفشل ، وفي حوالي الساعة الرابعة مساء وعندما كان الإسرائيليون ينسحبون ، قامت قاذفات القنابل السورية بقصفهم ، وعلى الفور اندفعت المقاتلات الإسرائيلية التي كانت تلك في حالة تأهب لحماية المهاجمين ، ونشبت معركة جوية مشهودة على جبل الشيخ .

وعقب انسحاب الإسرائيليين ، قام السوريون بعملية تعزيز والدفاع بدوسة ، استخدمت فيها طائرات الهليكوبتر لوحدات المظلات السورية التي كانت قد استمسكت على جبل الشيخ مع الوحدات المرابطة في الجولان ، وفي تلك الوقت ردت القوات الجوية الإسرائيلية ، وتحركت متقدمة إلى ساحة المعركة حيث كانت المقاتلات السورية في انتظار الإسرائيليين ، الأمر الذي أسفر عن معركة جوية أخرى تشبت في وقت لاحق من بعد الظهر

فوق الجبل . وفى تلك المعركة الجوية تكبد الجانبان بعض الخسائر ، غير أن الخسائر الاسرائيلية كانت أقل الى حد ما .

وفى اليوم الثانى والعشرين من أكتوبر بذل الاسرائيليون محاولة أخرى لاستعادة موقعهم على جبل الشيخ ، وكان ذلك الهجوم أكبر وأشمل من الناحية التخطيطية ، ولم يضم قوات الجولان فحسب فى هجوم آخر اشتركت فيه القوات البرية وطائرات الهليكوبتر ، بل حدثت عمليات انزال جوى لمعظم لواء المظلات الحادى والثلاثين .

وفى الوقت الذى ركزت فيه قوات الجولان جهودها ضد موقع مراقبة اسرائيلى سابق فان قوات المظلات قامت بعملية انزال مباشرة الى جانب موقع المراقبة السورى ، الذى يقع فى مكان أعلى بالقرب من قمة جبل الشيخ ، وعندما أدرك السوريون أن موقع المراقبة التابع لهم على القمة على وشك السقوط ، حاولوا شن هجوم جوى مضاد بطائرات الهليكوبتر ضد قوات المظلات الاسرائيلية ، بيد أنه عقب اسقاط ثلاث طائرات هليكوبتر سورية كبيرة ، كل منها قادر على حمل ثلاثين جنديا ، تحول السوريون عن المحاولة .

وحينئذ اجتاحت قوات المظلات الاسرائيلية موقع المراقبة السورى على وجه السرعة وقامت بتطهيره ، وفى ذلك الحين كان الظلام قد حل وانقضى وقت طويل على تنفيذ وقف اطلاق النار الذى كان من المقرر أن يبدأ فى الساعة ٦٫٥٢ مساء . وزعم الاسرائيليون أن سوريا لم توافق بعد على وقف اطلاق النار ، ومن ثم ليس ثمة ما يرغمهم على الالتزام بوقف اطلاق النار على هذه الجبهة . ورد السوريون على ذلك بقولهم : ان الأمم المتحدة كانت قد فرضت وقف اطلاق النار ، وانهم أذعنوا له ، بيد أن التقارير تشير الى أن قبولهم وقف اطلاق النار رسميا لم يصل الى نيويورك حتى اليوم التالى ، وعلى أية حال فان قوات المظلات اكتشفت أن وحدات الجولان ، الوحدات البرية وطائرات الهليكوبتر ، قد تمكنت من محاصرة موقع المراقبة الاسرائيلى السابق وأنها بدأت هجومها أخيرا ، وحقق ذلك الهجوم نجاحا ، وفيما بين الساعة السابعة والنصف والساعة الثامنة مساء قام الاسرائيليون بتأمين موقعهم السابق للمراقبة.

وتوقف كلا الجانبين عن النشاط البرى ، ويرجع ذلك الى الموقف السورى فى ذلك الصدد . بيد أن نيران المدفعية استمرت من كلا الجانبين خلال الليل وطوال يوم الثالث والعشرين من أكتوبر ، نظرا لأن كلا الجانبين تلقى أنباء من خلال اللاسلكى تفيد باستمرار القتال الكثيف على جبهة قناة السويس .

وقبل هبوط الظلام فى يوم الثالث والعشرين بدأت نيران المدفعية تخف .. وقبل منتصف الليل كان الهدوء يخيم على الجبهة تماما .

وهكذا انتهت أنشطة العمليات الحربية على الجبهة السورية ، ولم يسترد الاسرائيليون كل شيء خسروه ابان الحرب فحسب ، بل انهم سيطروا أيضا على جزء كبير آخر من جبل الشيخ ، وعلى نتوء سعسع أيضا الذى يقع فى السهل المنخفض .

مقارنة بين الأداء العربى :

لم يحصل أداء العراقيين على الجبهة السورية على درجات عالية ، وذلك من وجهة نظر الأطراف الثلاثة الكبرى المشتركة فى القتال وهم : الاسرائيليون ، السوريون والأردنيون . اذ يلمح السوريون على سبيل المثال الى أن العدد الكلى للقتلى العراقيين فى العمليات بلغ ٢٧٨ فقط ويشيرون الى أن ذلك يشير الى أنهم لم يستخدموا كافة طاقاتهم المتوفرة ، ومع ذلك فان عدد ٢٧٨ قتيلا يترجم الى نحو ٫٢٣٪ من القوة المشتركة يوميا فى العمليات وهو رقم لا يقل كثيرا عن نسبة القتلى السوريين اذ بلغ ٫٣٩٪ يوميا ، وأعلى بصورة كبيرة من نسبة القتلى الأردنيين يوميا ٫٨٪ .

وفيما يلى مقارنة شاملة لمعدل خسائر الأرواح بين القوات العربية الثلاث الكبرى التى اشتركت فى القتال على الجبهة السورية :

القوة البرية المشتركة		عدد الأيام	القتلى		الخسائر الكلية	
			العدد	النسبة يوميا	العدد	النسبة يوميا
القوة السورية	٦٠٫٠٠٠	١٧	٣٫١٠٠	٫٣٩٪	٩٫٦٠٠	٫٩٤٪
القوة العراقية	١٢٫٠٠٠	١٠	٢٧٨	٫٢٣٪	٨٩٨	٫٧٤٪
القوة الأردنية	٤٫٠٠٠	٨	٢٣	٫٠٨٪	٧٧٪	٫٢٤٪

وهكذا ، بينما لا يبدو ثمة شك فى أن العراقيين أقل براعة من السوريين (وفى ضوء مقارنة مستوى الأداء كان من المتوقع أن يكون معدل خسائر الأرواح أكثر ارتفاعا) ، فان جهودهم كما أوضحته معدلات خسائر الأرواح لم تكن منخفضة على نحو يدعو للخزى ، كما أنه من المتوقع أن يكون تفوق الأردنيين المعترف به بوجه عام قد احتفظ بمعدل خسائرهم فى الأرواح أقل بصورة نسبية عن معدل خسائر السوريين والعراقيين ، بيد أن معدلاتهم الحقيقية كانت منخفضة للغاية الى حد يؤكد التقييم الذى أجراه الجنرال دان لانر الاسرائيلى بعد الحرب ، الذى منح الأردنيين درجات عالية

للكفاءة فى مجال القتال ، غير انه منحهم درجات منخفضة لما يبذلونه من جهـد .

ومن دواعى فخر العراقيين هو تقدمهم على نحو السرعة من العراق عابرين الصحراء العربية مارين بالاردن كى يتخذ لواءهم القيادة فور وصوله الى ساحة المعركة فى وقت متأخر من اليوم الثانى عشر من اكتوبر ، وكان ذلك اداء عاليا يدعو للفخر والثقة . ورغم انهم ربما لا يكونون قد ابلوا بلاء فعالا فى القتال مثل السوريين ، الا انه باحتلالهم لجزء هام من الخط الجنوبى لنتـوء سعسعة الذى احتله الاسرائيليون ، فقـد اتاحوا بذلك للسوريين فرصة تدعيم دفاعهم وتحـويل بعض الوحـدات الى قـوات احتيـاط .

وعلى اساس مقارنة الملاحظات التى اجريت بعد الحرب فيمـا بين الاسرائيليين والسوريين والاردنيين يتضح ان القدرة القتالية ، للقـوات العربية الأخرى — مثل المغاربة والسعوديين — اقل من قدرات الاردنيين والسوريين والعراقيين ، كما ان ايا منهم لم يحارب بنفس الاصرار الذى حارب به السوريون .

(١٧)

المعركة الخاصة بالاستيلاء على مدينة السويس من ٢٣ الى ٢٥ اكتـوبر

الحملة الاسرائيلية على خليج السويس :

بالرغم من ان لواءى آدان دماجين قد أمنا تلال جنيفة والمنطقـة الواقعة شمال الدفرسوار ، الا ان تداخل وحدات الجنرال آدان مع وحدات الفرقة المدرعة الرابعة والفرقة الميكانيكية المصريتين ووحدات متباينـة من منطقة مؤخرة الجيش الثالث جعل من المحال تنفيذ وقف اطلاق النـار بصورة فعالة تماما فى منطقة الحزام الاخضر التى تقع بين كبريت والشلوفة(١) كما ان اية محاولة يقوم بها اى جانب للاتصال بالوحدات الصديقة فى المناطق المجاورة كان من المحتم ان يفسرها عدو مجاور على انها عمل عدوانى .

ومع ذلك كان يتعين على كلا الجانبين تدعيم مواقعه ، فى الوقت الذى حاول فيه القادة الأعلى تحديد اماكن وحداتهم ومعرفة فى اى ظروف تعيش، وكان يحدث دواما انه عندما تتقابل داوريات كل منهما الآخر فان ذلك يؤدى اولا : الى توسيع نطاق النيران والمطالبة بمساعدة المدفعية ، ولم يتـوقف اطلاق النـار تماما غرب الشلوفة طوال ليلة ٢٢ و ٢٣ من اكتوبر .

وهكذا اذا اراد اى من الجانبين ايجاد ذريعة لالقاء لوم انتهاك وقف اطلاق النار على الجانب الآخر ، فانه لن يجد مشقة ، وكان الاسرائيليون يتوقون الى ايجاد مثل هذه الذريعة ، نظرا لأنهم لم يكونوا قد نجحوا بعد فى قطع الامدادات عن الجيش الثالث المصرى ، وهو الهدف الرئيسى لحملتهم تجاه الجنوب من راس الجسر ، وفى حقيقة الأمر لم يتمكن الاسرائيليون من تامين معقل لهم جنوب البحيرات المرة الصغرى على القناة ، وهكذا ، وعقب سريان وقف اطلاق النار ، تلقى الجنرال آدان امرا من القيادة الجنوبيـة التى خولت له مهمة مواصلة الهجوم فى اليوم التالى .

ويبدو ان التعليمات التى صدرت لآدان تتلخص ببساطة فى انه اذا راعى العدو وقف اطلاق النار ، فانه يتعين عليه ايضا ان يراعيه ، واذا لم يحدث وقف اطلاق نار فانه يتعين عليه المضى فى مهمته ، وقد تلقى ماجين فيمـا يبدو تعليمات متطابقة أو مشابهة .

ولم يحدث بالطبع وقف اطلاق النار . ومن ثم مضى آدان قدما دون انتظار اية اوامر او طلبات اخرى . وكانت مهمته ومهمة ماجين لا تزال تتركز فى محاصرة الجيش الثالث ، ومن ثم قاما بتنفيذ الخطة الأصلية وشقا عملياتهما خلال يوم الثالث والعشرين من اكتوبر وهكذا كان آدان قلب قوسين او ادنى من الاستيلاء على مدينة السويس او عزلها ، والمضى الى شواطىء خليج السويس الذى يقع جنوب المدينة مباشرة . وفى الوقت نفسه ، وفى سبيل اضفاء عمق على عملية الحصار ، كان على ماجين الاستمرار فى العملية على يمين آدان واختراق الجزء الغربى من قطاع آدان ، اذ كان هدفه هو قرية عبدية فى راس عبدية التى تقع على مسافة نحو عشرة كيلومترات جنوب غرب السويس على الخليج .

وقرر آدان ان امامه مهمتين كبيرتين من الجلى ان اولاهما تتمثل فى اقتحام مدينة السويس ، اما من الجانب الجنوبى الشرقى على طول طريق سراج ، او من الجنوب من خلال الخط الأخضر على طول طريق هافيت . وفى الوقت نفسه ولدواعى الأمن وفى سبيل ضمان الحصول على امدادات ، كان من الضرورى تطهير طريق هافيت ومنطقة الحزام الأخضر الواقعة بين فايد والشلوفة ، وفى الحقيقة والى ان تم تطهير تلك المنطقة شعر آدان انه ليس بوسعه تركيز قوة كافية لشن هجوم شامل تجاه السويس .

وخلال الليل تلقى آدان تعزيزات من المشاة من الفرق الأخرى ، وغالبيتها من الجبهة السورية ، التى تم نقلها اليه على وجه السرعة بطائرات الهليكوبتر وسيارات الاتوبيس ، بيد انه لم يتلق مزيدا من العربات العسكرية ، سواء عربات النقل او نصف نقل او عربات القتال المدرعة ، ولكنه استولى على عدد من سيارات ايه بى سى المصرية التى جمعها من منطقة شمال الشلوفة ، وقام بضم الكتيبتين اللتين تلقاهما قبل ذلك ببضعة ايام مع الوافدين الجدد وكون لواء مؤقتا تحت قيادة الجنرال دوفيك تامارى الذى يليه فى القيادة ، واعطاهم عربات ايه بى سى اس التى استولى عليها ، وهكذا اصبح لديه ثلاثة الوية مدرعة ولواء مشاة يستعمل كبديل يضم خمس او ست كتائب .

وفى ذلك الوقت كانتكتيبة المهندسين التابعة لآدان قد ظهرتعلىطريق تست روود حتى اقصى الجنوب بالقرب من كبريت ، وكىيتفادى آدان تشتت الجنود ، قرر القيام فى وقت مبكر من يوم الثالث والعشرين من اكتوبر بتركيز كافة جهود الويته الاربعة فى تطهير المنطقة الممتدة من الشلوفة حتى كبريت ، لاعتقاده ان ذلك سوف يسهل اى هجوم يشنه على مدينة السويس بعد ظهر ذلك اليوم مستخدما غالبية فرقته .

وفى فجر يوم الثالث والعشرين بدات الوية آدان الأربعة فى تطهير المناطق المجاورة لهم جنوب كبريت ، بيد ان الأرض كانت وعرة ، كما ان

المقاومة المصرية كانت عنيفة ، ومن ثم سار تقدم كافة قطاعات الألوية ببطء ، ومع حلول المساء توصل آدان الى نتيجة انه من المحتمل ان تفرض الأمم المتحدة او الدول العظمى وقف اطلاق النار قبل ان يتمكن من الاستيلاء او عزل مدينة السويس ، وبالتالى ، ترك لالوية بارام وتامارى مهمة مواصلة تطهير المنطقة شمال الشلوفة ، وارسل لواءيه المدرعين الآخرين الى الجنوب جنوب السويس مباشرة ، فى حين كان لواء امير يعمل على الجانب الأيمن غرب طريق هافيت ، وكان قارين على اليسار بين الطريق وقناة المياه العذبة .

وواصل هذا اللواءان انتهاج نفس تكتيكات المهمة التى حققت نجاحا فى الأيام السالفة ، وشقا طريقهما من خلال وحول المدافعين المصريين الذين اتسموا بالشراسة والضراوة ، كى يقتربوا من السويس ، ومع حلول الظلام، وعقب قتال عنيف للغاية ، وصل كلا اللواءين الى مشارف المدينة ، واتجهت احدى كتائب لواء امير صوب الجنوب الغربى للمدينة كى تصل الى خليج السويس عند معامل تكرير البترول القديمة ، وهكذا اصبحت مدينة السويس معزولة تماما عن اى اتصال مع مصر غربا ، ومع عزل السويس اضحى معظم الجيش الثالث المصرى معزولا ايضا .

ومما لا ريب فيه ان اندفاع لواء امير عبر طريق سراج غرب مدينة السويس مباشرة كان يعنى ببساطة مضاعفة الحصار حول المصريين المعزولين ، وفى الوقت نفسه تقريبا اقتحمت العناصر البارزة من فرقة ماجين الطريق الذى يبعد بضعة كيلومترات اقصى الغرب ، واستولت احدى وحدات المظلات على احدى محطات الالتقاط الالكترونية المصرية فى الجزء الشمالى الغربى من جبل عتاقة .

ورغم انه كان من المقرر فرض وقف اطلاق النار فى صباح الرابع والعشرين من اكتوبر ، كان لواء الجنرال دانى شومرون — الذى يقود السبع عشرة دبابة الباقية من لواء ماجين القيادى — يقوم « بمهمة ز » تقليدية أخرى للدبابات الاسرائيلية التى وضع على مقدمتها مصابيح ، وذلك غربى جبل عتاقة مباشرة ، دمرت سياراته بالقرب من لواء امير ، ووصلت الى راس العبدية وشاطىء خليج السويس عقب منتصف الليل مباشرة .

وفى مستهل صباح اليوم التالى وعقب قتال عنيف احتل شومرون معظم العبدية ، فى الوقت الذى انضمت فيه بقية فرق ماجين التى كان قد اتسع نطاق انتشارها على نحو خطير الى قوات المظلات على جبل عتاقة ، واغلقت طريق سراج بالقرب من الكيلو ١٠١ ، وذلك لوقف تعزيزات المصريين القادمة من القاهرة ، وعزز الاسرائيليون مواقعهم الجديدة التى استولوا عليها بينما وصل مراقبو الهدنة التابعين للأمم المتحدة الى مسرح الأحداث .

صـد الهجوم على السويس :

كان من المتعين ان يسرى تنفيذ وقف اطلاق النار الثانى الذى فرضه مجلس الأمن فى الساعة السابعة من صباح يوم الرابع والعشرين من اكتوبر ، وفى نحو الساعة الثانية صباحا تلقى آدان اشارة لاسلكية من جونين ساله فيما اذا كان بوسعه احتلال مدينة السويس ابان الساعتين والنصف تقريبا فيما بين الفجر وموعد اطلاق النار ؟ واجاب آدان بأن ذلك يتوقف على عدد المصريين المتواجدين فى المدينة ومدى ضراوة قتالهم ، لكنه اعتقد انه سوف يتمكن من الاستيلاء على الأقل على جزء من المدينة ، وتردد جونين للحظة ثم قال : حسنا ، اذا كانت السويس مثل بير سبع فامض قدما ، اما اذا كانت مثل مدينة ستالنجراد فلا تتقدم على ذلك(*) ، وبعبارة اخرى ، اذا كان فى الامكان الاستيلاء على المدينة بسهولة كما حدث لبير سبع فى اكتوبر عام ١٩٤٨ ، فانه يوافق جونين على الهجوم ، ولكن اذا اجابه آدان ان مقاومة مثل تلك التى واجهها الألمان فى ستالنجراد فى عام ١٩٤٢ ، فانه يتعين عليه حينئذ وقف الهجوم ، وبالتالى اعطى آدان اوامره .

وكان من المقرر ان يدخل لواء امير مدينة السويس من الغرب والجنوب الغربى ويتقدم الى وسط المدينة ، وان يدخل قارن من الشمال والشمال الغربى على ان يركز جهوده على جانبه الايمن على طول نهاية طريق ناراج — القاهرة ، وسوف تتقابل قواته مع قوات امير بالقرب من وسط المدينة ، فى سبيل تأمين المدينة بعد ان يجتاحها المهاجمون ، سوف تقوم كتيبتان مكونتان من قوات المظلات ، ووحدات من مشاة لواء تامارى بتتبع كتيبة قارين يمينا حتى نهاية الطريق ، وكان يتعين ان يسبق الهجوم قصف عنيف للمدفعية، ويعقبه هجوم جوى ، وفى الوقت نفسه سوف يواصل بارام والقوات الباقية من لواء تامارى عملية تطهير الخط الأخضر الواقع بين السويس والشلوفة .

وفى نحو الساعة الخامسة صباحا ، وفى الوقت الذى كانت فيه مدفعية آدان تقصف السويس ، تلقى مكالمة من القيادة الجنوبية تأمره بالاستغناء عن استعدادات المدفعية والهجوم الجوى المقرر ، وبالتحرك الى السويس دون اى ارجاء ، وهكذا يبدو من الجلى ان الهجوم لم يبدأ حتى لحظة فرض وقف اطلاق النار الثانى بالفعل .

وحتى تلك النقطة لم يظهر اى دليل ينم عن وجود اى اصرار دفاعى قوى من جانب المصريين ، ولم يتوقع الاسرائيليون متاعب جمة ، وربما كانوا يأملون فى تدعيم مواقعهم فى المدينة قبل وصول مراقبى هدنة الأمم المتحدة ، بيد انه فى اللحظة التى تحركت فيها الدبابات داخل المدينة وجد الاسرائيليون انفسهم يتعرضون لوابل من النيران العنيفة ، ومما ينذر بالسوء

(*) حديث ادلى به الكاتب مع الجنرال جونين والجنرال ادان ..

ايضا ان حجم صواريخ ساجرز وآر بى جى — ٧ اس كان اكبر مما واجهوه حتى ذلك فى غرب القناة ، ومن الجلى انه انضم الى خصومهم بعض عناصر الفرقة التاسعة عشرة التى انتقلت غرب القناة بأسلحتها المضادة للدبابات للدفاع عن السويس .

ثم برزت مشكلة واضحة اخرى : الا وهى ان وحدات المشاة لم تشترك معا او مع الدبابات فى اى تدريب قبل الحرب ، اضف الى ذلك ان الخبرة التى اكتسبتها فى غضون الأيام القليلة الماضية على القتال لم تعدها لخوض مثل تلك المعركة التى وجدت نفسها فى خضمها ، وفى الحال تأخرت وحدات المشاة وراء الدبابات ، وادركت خلال بضع دقائق انها محاصرة من المصريين الذين تلقوا امدادات مدفعية من الضفة الشرقية ، وتوزعت الكتيبتان الى عدة سرايا ، واتخذت مواقع دفاعية فى محيط صغير فى المنطقة السكنية التى تقع فى الزاوية الشمالية القريبة للمدينة .

الانسحاب من السويس :

وفى الوقت نفسه ، وبالرغم من النيران المصرية الكثيفة والفعالة ، تمكنت عناصر من لواءى قارين وامير من ان تسلك طريقها الى وسط المدينة، حيث تقابلت بعد ظهر اليوم ، وقرر آدان ، الذى كان على اتصال بالعملية من خلال اجهزة اللاسلكى ، انه اذا حاولت وحدات قارين التى وصلت الى منتصف المدينة تعقب خطواتهم مرة اخرى حتى الطرف الشمالى للمدينة، فان الأمر سوف ينطوى على خسائر فادحة تكون بمثابة كارثة ، ومن ثم أمر قارين بأن تتبع تلك الوحدات ، وحجمها كتيبة تقريبا ، خطوات امير من خلال الجزء الجنوبى الغربى للمدينة ومعامل تكرير البترول .

وفى الوقت نفسه ، حاول آدان تخفيف الضغط عن وحدات المشاة المحاصرة فى الجزء الشمالى الغربى للمدينة ، ولكنه وجد ان بارام يواجه مقاومة كثيفة للغاية عند منطقة الخط الأخضر شمالى السويس ، وتمكن من الابقاء على كتيبة واحدة فقط ، وبتلك الكتيبة ، وكتيبة اخرى من لواء تامارى قضى آدان معظم فترة بعد الظهر محاولا اخراج وحدات المشاة المعزولة من المدينة ، ومع حلول الظلام كانت لا تزال هناك مجموعتان فى مدينة السويس ، واتبع قائد احدى هاتين المجموعتين ، وكان جريحا ، نصيحة آدان وانسل من المحيط المحاصر فيه ، ومر بالمصريين تحت جنح الظلام .

والمجموعة الثانية ، وكانت اكثر سرية فى قوتها ، كان يرأسها شاب برتبة ملازم ، ولم يكن يعرف فى اى مكان هو ، ورفض ترك الأمان الزائف الذى تمنحه له جدران المبنى بالرغم من كافة محاولات آدان .

وتدخل جونين فى المناقشة ، حيث كان يستمع من موقعه القيادى الى الاتصالات الدائرة بين ذلك الضابط الشاب وآدان ، وكشف بذلك عن جزء من طبيعته المعقدة التى لم يلمها من قبل مثله من معاونيه ، وطلب جونين بهدوء من الضابط وصف المبنى الذى يحتمى فيه ، وكافة المبانى القريبة منه ، وفى الوقت الذى كان الضابط يرد فيه ، رفع جونين جهاز ارساله الى صورة مكبرة التقطت فى الجو لمدينة السويس ومعلقة على جدار مبنى القيادة ، وعلى الفور اعتقد جونين انه تعرف على المبنى وعقب تبادل مزيد من الاسئلة والأجوبة تأكد من تعرفه على المبنى .

ووصف قائد القيادة الجنوبية بهدوء الموقف للضابط ، واكد له انه تعرف على موقعه على وجه التحديد على الصورة الجوية ، ثم اشار الى ان هناك عطفة بالقرب منه ليس من المحتمل الا يكون المصريون قد اوصدوها ، واوصى بان يقود الضابط رجاله بأمان على طول الطريق ، مستخدما بالطبع كافة مقاييس احتياجات الأمن ، وبعث الطمأنينة على الضابط بانه سوف يواصل الاتصال به باللاسلكى ويوجهه حتى يخرجه من مأزقه .

ونجحت الخطة : اذ ان الضابط ، نظرا لأنه حظى بذلك الاهتمام الشخصى من قائده ، فقد استعاد رباطة جأشه ، وبعض الثقة فى نفسه ، وفى جونين كذلك ، ونفذ الضابط الشاب نصيحة الجنرال التى عززها بتيار متصل من التعليمات عبر اللاسلكى ، ومن ثم تمكن من قيادة مايربو عن مائة شخص خارج المصيدة ويعود آمنـا الى خطوط قارين .

وقام الاسرائيليون بعمليتى سبرغور فى السويس ، تمت احداهما فى اليوم الخامس والعشرين ، والأخرى فى اليوم الثامن والعشرين ، وقد ردوا على اعقابهم فى كلتا المرتين ، ومع بداية يوم الثامن والعشرين من اكتوبر كان مراقبو الأمم المتحدة قد بدءوا فى أخذ مواقع على طول جبهة غرب السويس ، وعلى طول الخط الذى اقامه ماجين من منتصف جبل عتاقة شمالا عبر طريق ساراج بالقرب من علامة الكيلو ١٠١ ويستمر شمالا غرب طريق نادوات حتى ترعة النيل جنوب غرب الاسماعيلية ، وكان لا يزال هناك تبادل متكرر لنيران المدفعية والمشاة والدبابات على طول ذلك المحيط .

وداخل ذلك المحيط كان يدور نزاع وحشى ويثير الاضطراب : اذ كان الاسرائيليون قد تخطوا خطوط العديد من الوحدات المصرية ، ومن المرجح انه كان هناك العديد من الجنود يرابطون داخل المحيط الاسرائيلى ، كما كان هناك العديد من الاسرائيليين ، وخلال يومى الخامس والعشرين والسادس والعشرين من اكتوبر قاتلت الوحدات المصرية وسلكت سبيلها خارج ذلك المحيط ، ولاسيما خلال ساعات الظلام ، غير ان عددا كبيرا استسلم دون مقاومة ، ومع حلول السابع والعشرين من اكتوبر كان الاسرائيليون قد

اسروا نحو ثمانية آلاف فرد من القوات المصرية وغالبيتهم من وحدات الامداد والتموين .

ورطـة الجيش الثالث :

وفى ذلك الوقت كان السؤال الرئيسى الذى يدور فى اذهان القيادات العليا المصرية والاسرائيلية هو ازمة الجيش الثالث المصرى المعزول كلية شرق السويس ، باستثناء راس جسره الصغير فى السويس والذى كان معزولا ايضـا .

وكانت عناصر الجيش الثالث المفروض حولها الحصار آنذاك هى فرقة المشاة السابقة بقيادة اللواء احمد بدوى ، والتى كانت تهيمن على الجزء الشمالى من راس الجسر فى الضفة الشرقية وفرقة المشاة التاسعة عشرة بقيادة اللواء يوسف عفيفى ، وكانت تسيطر على النصف الجنوبى من راس الجسر ، وتتولى ايضا مسئولية مدينة السويس ، وكان يرابط على راس الجسر ايضا لواءان من الدبابات مستقلان ، ووحدات اخرى متنوعة ، وفى شمال راس الجسر الرئيسى كان ثمة قوة معزولة ، فى نحو حجم لواء ، وكانت تحتل الحصن الاسرائيلى السابق بوتزر الذى يقع على الشاطىء الشمالى الشرقى للبحيرات المرة الصغرى المواجهة لكبريت .

وفى مدينة السويس كان هناك خليط من الوحدات ، بعضها من الفرقة التاسعة عشرة ، والبعض من فرقة المدرعات الرابعة ، والبعض الآخر من الفرقة الميكانيكية السادسة وعدد من وحدات منطقة المؤخرة ، التى تقهقرت امام قوات آدان المتقدمة خلال الثانى والعشرين والثالث والعشرين من اكتوبر ، ومجمل القول فان القوة المعزولة كانت مكونة من نحو ٤٠٫٠٠٠ فـرد .

وكان هناك ايضا لواء من الفرقة الرابعة مدرعات يرابط على راس الجسر ، غير ان اللواء محمد عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث قد اصدر له اوامره بالانسحاب عبر القناة فى الثانى والعشرين من اكتوبر ، وقد قاتل ذلك اللواء بعناد فى مواجهة الهجوم الاسرائيلى جنوب تلال جنيفا ، حتى انخفضت قوته الى حد كبير ، وتراجع على طول طريق القاهرة الى ما وراء الكيلو ١٠١ .

وقطع الهجوم الاسرائيلى الاتصالات بين راس الجسر وقائد الجيش الثالث اللواء عبد المنعم واصل ، الذى كان لديه الآن نحو ما يماثل فرقتين ترابطان فى الضفة الغربية تخضعان لسيطرته مباشرة ، وعقب اتخاذ اجراءات لوضع خطة للطوارىء التى لم يتوقع المصريون قط ان تنتهى اليها

الغرب ؛ تولى اللواء بدوى ، الذى كان يرأس الفرقة السابعة ، قيادة الجزء المعزول من الجيش الثالث ، فى إحكام الحصار على نحو فعال ، وكلفت قيادة بدوى من خلال أمر عبر اللاسلكى .

وعقد الإسرائيليون العزم على قطع كافة الإمدادات والتعزيزات عن الجزء المعزول من الجيش الثالث الرابضة على الضفة الشرقية ، فقطع سيكون أكثر من مجرد تعويض الهزائم والخسائر التى منى بها الإسرائيليون إبان الأيام الأولى للحرب . وإذا لم يستسلم الجيش الثالث أى الجزء الذى يرأسه اللواء بدوى ، أو إذا تمكن وقف إطلاق النار الواهى بمحاولة الخروج من تلك الشرك ، فإن الإسرائيليين كانوا على استعداد لشن هجوم والسماح بإطلاق النار على المصريين العزل .

ونظرا للوضع المختلف حول تلك الأعمال العسكرية ، فقد ظل القتال دائرا فى الثانى والعشرين من أكتوبر بعد توقيته إلى الضفة الشرقية للقناة ، وتلك المراكز والجيوب الرئيسية التى هجم بسببها على الجيش الثالث ، وعلى أية حال توقع الإسرائيليون أنه إذا لم يتخل الجيش الثالث المحاصر عنه فسوف يتخلى أو يستسلم ، أو يتعرض نفسه للدمار فى غضون بضعة أيام عقب وقف إطلاق النار .

وما يثير الدهشة أن حكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لم يتوصلا إلى تقديرات دقيقة للتهديد الذى يواجه الجيش الثالث ، وإنما كانت لديهما رغبة مشتركة أيضا ، رغم أنهما لم يكونا قد اتخذا بعد قرارا على تقطيع تلك النية بقدر المستطاع وبكافة الاتصالات ، على ذلك فإن وجهة نظر السوفييت ـ سوفيتى هزيمة واضحة لدولة عميلة حققت نصرا عسكريا نفطيا بطريقة أو بأخرى مع إسرائيل ، وسوف تهتز مكانة روسيا إذا واجهت مصر ، القابلة لشن هجمات سوفيتية ، هزيمة عسكرية حاسمة مرة أخرى .

وكانت لدى هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية أسباب مختلفة تماما لرغبته فى الحفاظ على الجيش الثالث ، إذ إنه رأى أن تحويل الموقف إلى الحرب بصفقة تقريبا ، يستحق بإنقاذ الجيش الثالث ، حتى يتمكن المصريون من التخطيط فى المراحل الأولى من الحرب ، ثم يطلبوا وقف إطلاق النار فى المراحل الأخيرة ، غير أن الهجوم الإسرائيلى لم يدفع المصريين إلى التخلى عن أى جزء استولوا عليه من قبل شرق القناة ، ويعادل ذلك تقريبا ما استولى عليه الإسرائيليون قرب القاهرة ، وهكذا كان بوسع المصريين أن يحتفظوا بمنجزاتهم ، إذ إنهم محوا وصمة هزيمتهم فى عام ١٩٦٧ ، وتمكنوا من تحقيق نصر محدود يمكنهم من الجلوس على مائدة المفاوضات كأطراف متساوية ، وليسوا أقل من الإسرائيليين ، وكان ذلك يعنى بالنسبة لكيسنجر بداية تسوية السلام لا يتحقق السلام بإطارها ، غير أنه سوف تتبدد إذا استسلم الجيش الثالث .

محاصرة الجيش الثالث :

كانت الحكومة المصرية ، التى كانت تشعر بقلق عميق إزاء ورطة الجيش الثالث ، تشعر أيضا بالقلق بشأن القوات المصرية التى لم تكن قد استعدت بعد لمواجهة الإنزال أو الضغط أو الاستسلام ، إذ إنها كانت تعتقد فى القسم الأول أن المصريين فى مواقع دفاعية تفصل بين الإسرائيليين وبين مواقعهم وسلاحهم ، وأن هجمات كانت ستتخذ قرب القناة ، لكن هناك خطوطا دفاعية قد توفر لهم الحماية لتركيزهم الدفاعى إذ إن الوحدات التى جاءت حديثا كانت من الجيش الثالث والعشرين من أكتوبر كانت تقاتل فى معظمها ووحدات المشاة الأخرى .

وكانت العناصر المتقدمة تفتقر إلى صواريخ سام ـ ٢ و ٣ ، وآر بى جى ـ ٧ التى تحمل معظم تلك الوحدات من قرب القناة لصد الهجمات التى قامت بها المدرعات العدو الأولى ، ثانيا : أن الدفاع الناتج عن مفترق الإسماعيلية والسويس قد ساعد فى الاحتفاظ أو باستعادة ثقة المصريين بأنفسهم فى الدفاع ، ولكن الشمع الساحلى بقى أيضا فى قبضة بدوى ، الذى قام بأعمال بجيش الجيش الثالث شرق القناة ، ولكن الإسرائيليين أيضا يكونون قد احتفظوا برغم أن الساحل لم يتحرك عنه ، ويرجع هذا إلى الفترة الهادئة للقتال والفرقة التى واجهوها .

والمصدر : أن الوضع التى أثارها الهجوم الإسرائيلى الأصلى قد تبددت ، أضف إلى ذلك أن القوة الإسرائيلية على الضفة الغربية كانت تعتمد بشكل قوى مصرية على وجه التقريب ، وكان خط الحصار المصرى ضعيفا ، غير أنه إذا كان الإسرائيليون قد وجدوا قوة كافية على الضفة الشرقية لشن هجوم قوى على الجيش الثالث ، فإن خط دفاعهم على الضفة الغربية سيكون أكثر ضعفا ، إذ إنه عقب تراجعه كان إلى الضفة الشرقية كانت هناك فرصة ممكنة مشتركة على الضفة الغربية ، كما أن أى هجوم إسرائيلى كبير ضد الجيش الثالث سوف يواجه حتما بهجوم مصرى ضد القوة الإسرائيلية ، واعتقد المصريون (والقول بشوبهم إلى حد ما) أنه بوسعهم اختراق الخطوط إلى السويس ، وإعادة الاتصالات إلى قوات الصحراء بدوى .

كانت المشكلة الخطيرة التى مثلت أمام الجيش الثالث الذى يرأسه العميد بدوى هى الإمدادات التى تضم ثلاثة بنود حاسمة ألا وهى : الذخيرة والمياه والغذاء ، ولكن لا يزال هناك مخزون طيب من الغذاء ، وكميات هائلة من الذخيرة ، وبعض مياه الآبار التى تمتد من السويس ، ومع ذلك فإن مشكلة الإمداد كانت حادة وكانت هى الشاغل الخطير المثير للمخاوف فيما كان يبحث مستقبل الجيش الثالث .

وفى الوقت نفسه وعلى الضفة الشرقية ، فى مدينة السويس ، اعد بدوى ورجاله انفسهم لخوض صراع ، وارتفعت المعنويات نتيجة لما تحقق فى المنطقة ما بين كبريت ووترز من صد هجمات اسرائيلية متكررة وعنيفة ما بين العشرين والثالث والعشرين من اكتوبر ، وتم تعميق المواقع الدفاعية وتوسيع نطاق الخنادق المضادة للدبابات ، وتم تغطية الخلفية بأغطية ثقيلة ، وفتح طريق لامدادات تصل بصورة متقطعة ليلا عن خليج السويس الأعلى .

وبالتالى ، فانه من الجلى ان موقف الجيش الثالث لم يكن عرضة للخطر كما كان يعتقد الاسرائيليون ، والامريكيون والروس ، ومع هذا فانه اذا استمرت الحرب او تجدده ، ودامت لمدة اسبوع آخر ، فانه كان من المحتمل ان يتغلب التفوق الاسرائيلى فى مجال استخدام المدرعات ، وتفوقهم الجوى الساحق على قيادة بدوى .

على الضفة الشرقية :

بالرغم من ان اهتمام كل من الجيوش المصرية والاسرائيلية كان مركزا على الضفة الغربية لقناة السويس ، لم تتوقف الأنشطة على الضفة الشرقية .

وفى الشمال كانت فرقة الجنرال ساسون تضطلع بمسئولية المنطقة باسرها ابتداء من طريق تليسمان شمالا حتى البحر المتوسط ، وتمكن من اعادة الاتصال بصورة دائمة مع بودابست التى لم تتعرض لأى تهديد خطير مرة اخرى ، وكان كلا الجانبين يقوم بداوريات مستمرة على طول الجبهة جنوب المستنقعات غير أن أيا منهما لم يشن هجوما خطيرا بقوة اكبر من كتيبة .

ومن طريق اكاتيش حتى المداخل الجنوبية لممر متلا ، تولت فرقة جديدة المسئولية فى الخامس عشر من اكتوبر على وجه التقريب ، عندما كانت فرقة ماجين تستعد للتحرك الى الممر ، وكان قائد تلك الفرقة هو بريجادير جنرال جرانيت اسرائيل ، قائد قوة جرانيت ابان حرب ١٩٦٧ ، بيد انه تلقى على الفور نبأ مقتل نجله على جبهة الجولان ، وسمح له بالعودة كى يكون مع اسرته فى وقت الشدة ، وتولى قيادة الفرقة الجنوبية البريجادير جنرال مناحم ميرون الذى ظل قائدا حتى نهاية الحرب ، ومثلما كان يدور فى الشمال ، كانت تلك الفرقة تقوم بنشاط دائم غير انها لم تقم بعمليات كبيرة ، او تتعرض لهجوم خطير .

(١٨)

الحرب الجوية والدفاع الجوى

مما لا ريب فيه ان الجانب الجلى فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ التى لم تباغت المراقبين من الدول الأخرى فحسب ، وانما باغتت الاسرائيليين ايضا ، تمثل فى حقيقة انه على عكس الموقف فى حرب ١٩٦٧ ، لم تكن القوات الجوية الاسرائيلية تهيمن على سماء المعركة ، اذ ان التفوق الجوى التقليدى الذى عرفت به على مدى نصف قرن قد أضحى دون مغزى على حين غرة ، ويرجع ذلك بالطبع الى مظلة الدفاع الجوى الفعال التى بسطتها صواريخ سام أرض جو الروسية الصنع على الجيوش المصرية السورية .

ولا يعنى ذلك ان العمليات الجوية لم يكن لها وجود ، او ان ذلك التطور الجديد قد جعل القوة الجوية عاجزة او غير قيمة ، بل انه يعنى انه من السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ الى ما بعد ذلك ، كانت الأدوار القتالية للقوة الجوية والتحام الطائرات متباينة على نحو ملحوظ ، ويمكن اعتبارها فى ضوء حسابات الحرب بأنها تتعلق فحسب بوسائل الدفاع الجوى من الجو .

جهود استعادة القوة الجوية المصرية :

عقب كارثة تدمير القوة الجوية العربية خلال الساعات الأولى من حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، بذلت الدول العربية بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، جهودا غير عادية لاعادة بناء قوتها الجوية ، وقد تمت عملية اعادة البناء هذه بالنسبة للمصريين والسوريين والعراقيين بمساعدة الاتحاد السوفيتى ، وفيما يتعلق بدولة الأردن المفلسة فان اعادة البناء كانت اكثر تواضعا ، وتمت بمساعدة الأمريكيين (والبريطانيين الى حد ما) .

واتخذت القوات الجوية المصرية ، على سبيل المثال ، اجراءات متوازية ومتزامنة لاعادة البناء واستعادة قوتها ، ويبدو ان تدريب الطيارين فى كل من الاتحاد السوفيتى ومصر كان هو اهم مطلب حظى بالأولوية القصوى : اذ انه فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ قتل نحو ثلث طيارى مصر المدربين على الأرض ، او بالقرب منها عندما دمرت طائراتهم ، وتلاه فى الأهمية ، بالطبع ، الحصول على طائرات من الاتحاد السوفيتى من طراز ميج ١٧ ،

سوخوى ٧ وميج ٢١ ، وبالرغم من ان الانباء كانت متضاربة ، فانه ربما يكون قد تم تسليم عدد قليل من طائرات ميج ٢٣ قبيل الحرب ، وكانت هناك ايضا قاذفات قنابل خفيفة ومتوسطة من طراز اليوشين ٢٨ وتى يو ١٦ .

ولا يقل من ذلك اهمية اتخاذ اجراءات تستهدف ضمان ان تلك الطائرات الجديدة لن تتعرض لاى هجوم مباغت فى المستقبل ، وتدمر مرة اخرى وهى رابضة فى مطاراتها ، وثمة جانب هام فى كارثة عام ١٩٦٧ الا وهو انه بالرغم من ان بضع طائرات قد نجت من الموجة الاولى من الهجمات الاسرائيلية ، فعندما كان طياروها يحاولون التحليق فى الجو لمجابهة تلك الهجمات التالية ، فانهم تأخروا او لم يتمكنوا من الاقلاع ، نظرا لان انفجار القنابل قد دمر الممرات الجوية تدميرا خطيرا ، واصبح عدد كبير من الطائرات وطياريها كالبط النائم انتظارا لعودة الاسرائيليين ، والبعض الآخرون لحظة اقلاعهم .

وهكذا قام المصريون ببناء حظائر طائرات قريبة لكل طائرة كى تحمى الطائرة من اى شىء الا اصابتها مباشرة بواسطة قنبلة كبيرة موقوتة تنفجر فيما بعد ، وتم بناء ملاجىء مماثلة لحماية مراكز العمليات والمنشآت الرئيسية ، وفى الوقت نفسه اعدت ممرات جوية جديدة لكل قاعدة جوية مصرية ، وفى بعض الحالات ، تم توسيع وتمهيد الطرق المجاورة ، حيثما امكن ، تستخدم كممرات بديلة ، وفى وسع المسافر اليقظ مشاهدة تلك الامثلة فى دلتا النيل ، على طريق القاهرة الاسكندرية الرئيسى ، وتم ايضا بناء قواعد جوية اضافية ، وهكذا كانت هناك ٣٥ قاعدة جاهزة للعمل حتى وقت لاحق من عام ١٩٧٣ .

ثم جاءت عملية اعادة بناء ثقة القوات الجوية عامة ، والطيارين خاصة ، فى قدراتهم على الالتحام مع الاسرائيليين فى الجو ، وفى الوقت الذى احرز فيه تقدم هائل فى ذلك الصدد خلال حرب الاستنزاف ، التى دامت من عام ١٩٦٨ حتى عام ١٩٧٠ ، الا ان ذلك الجهد لم يحقق نجاحا كاملا لعدة اسباب : اذ انه فى المقام الاول لم يكن الاسرائيليون قد تجمدوا على ما هم عليه بحيث يتيحوا للمصريين فرصة اللحاق بهم ، اذ ان الجهود التى بذلها الاسرائيليون لتحسين درجة الاستعداد ، والتكتيك وتحسين القدرات القتالية لطائراتهم وفضلا عن ذلك ، لتحسين الكفاية القتالية لطياريهم — كانت جهودا مكثفة مثل تلك التى بذلها العرب ، وكانت البداية الاسرائيلية كبيرة للغاية ، الى حد انه مع حلول عام ١٩٧٣ لم يكن قد تحقق تقدم كبير فى تضييق الهوة .

وفضلا من ذلك ، وبالاضافة الى مهارة وكفاءة الطيارين كانت هناك الحقيقة المتمثلة فى ان الطائرات الاسرائيلية الامريكية والفرنسية الصنع كانت اكبر واقوى وافضل من الناحية القتالية من الطائرات الروسية الاخف ، وهكذا وبصفة عامة كانت الاسلحة الاسرائيلية الامريكية الصنع — جو — جو وجو ارض ، تفوق من ناحية الدقة والقوة ما يقدمه السوفييت للعرب .

ومن ثم فانه اذا كان الطيارون المصريون نجحوا على نحو منتظم فى التحكم فى الجو ضد الاسرائيليين ، فانما يرجع ذلك الى حسن قيادة القوات الجوية المصرية وبسالة وشجاعة الطيارين ، غير ان المصريين لم يحاولوا خداع انفسهم ، رغم انهم ربما حاولوا خداع الآخرين ، وقد اعترف اللواء محمد حسنى مبارك قائد القوات الجوية المصرية بانه فى عام ١٩٧٣ كان الاسرائيليون يتمتعون بتفوق هائل على المصريين فى المجال الجوى ، رغم انه كان لدى المصريين عدد اكثر من الطائرات ، وتبعا لذلك استنبط المصريون استراتيجيتهم وتكتيكاتهم : فمن الناحية الاستراتيجية ، اعتمد احمد اسماعيل على اسلحة الدفاع الجوى السوفيتية الصنع لامداد غطاء جوى للقوات البرية ضد اى هجوم اسرائيلى مباشر ، وهكذا تتفرغ معظم القوات الجوية لاداء مهامها بحيث لا تكون اوجه ضعف القوة الجوية المصرية ملحوظة او خطيرة للغاية .

ومن الناحية التكتيكية ، اعتمد مبارك فى المقام الاول ، بالطبع ، على الكر والفر فى الهجوم الجوى ، حيث يباغت الاسرائيليين ، فى الوقت الذى تتمكن فيه المقاتلات القوية التى تتولى عملية التغطية الاشتباك مع الاسرائيليين فى موقف عسير ، وذلك اذا كان لديها وقت للاندفاع للتصدى لمثل تلك الغارة .

استعدادات القوات الجوية الاسرائيلية :

ابان السنوات التى اعقبت حرب الايام الستة لم يحتفظ الاسرائيليون فحسب بمعاييرهم العالية للغاية فى التدريب والاداء والصيانة ، بل انهم اعادوا تجهيز قوتهم الجوية بطائرات امريكية الى حد كبير للغاية ، وحتى عام ١٩٦٧ كانت الطائرات الرئيسية التى تشكل القوة الجوية الاسرائيلية فرنسية الصنع ، ولكن نتيجة لتلك الحرب ، تحول الرئيس الفرنسى من تأييد اسرائيل الى التعاطف مع العرب ، واوقف شحنات الاسلحة الفرنسية لكافة اطراف حرب ١٩٦٧ — الامر الذى اثر حقيقة على اسرائيل ، ومن ثم اتجه الاسرائيليون الى الولايات المتحدة للحصول على طائرات حديثة ومعقدة ، وتمكنوا من الحصول على طائرة ايه — ٤ قاذفة القنابل التى تتسم بالقوة والسرعة وموثوق بها ، وذات فاعلية بصفة خاصة فى الهجوم البرى ، وحصلوا ايضا على طائرة اف — ٤ قاذفة القنابل ، التى ربما كانت آنذاك اكثر مقاتلة وقاذفة قنابل فعالة فى العالم ، وكان لا يزال لديهم — بالطبع — طائرات سوبر ميستير وميراج الفرنسية الصنع ، وهى اقدم الى حد ما ، ومقارنة الاداء القتالى الجوى ذاتها ادنى من طائرة اف — ٤ بصورة هامشية ، ولمعرفة العديد من المقارنات بين القوات الجوية المعنية انظر جدول (أ) ، ولمعرفة المقارنة الكمية بين الطائرات انظر جدول (ب) .

وفى عديد من المجالات الهامة ، احتفظ الاسرائيليون بتفوقهم على العرب او حتى فاقوهم ، وعملية صيانة الطائرات هى احدى مجالات التفوق

الاسرائيلى ، ومن ثم تمكن الاسرائيليون من ان يحققوا ، فى ظروف السلم او القتال ، معدلا اعلى من الطائرات الجاهزة للاستعمال ، وتمكنوا من اصلاح ما دمرته المعارك على نحو اسرع ، وحققوا نسبة اعلى فى تشغيل الطائرات والطيارين بين كل مهمة واخرى . وهكذا رغم انه كان لدى العرب مزيد من الطائرات فى مستهل الحرب ، بمفهوم وجود طائرات لشن غارات يومية ، فان الاسرائيليين كانوا يتمتعون فى الواقع بالتفوق النوعى .

مقارنات بين الأداء :

لم تقدم القوات الجوية الاسرائيلية ارقاما رسمية للغارات ، غير انها ذكرت خسائر الارواح ، ومعدل الخسارة فى كل غارة ، الامر الذى يشير الى ان الغارات قد بلغت على نحو التقريب ١٠ر٥٠٠ غارة ، وذلك يناهز اقصى رقم من الناحية النظرية ، اذ بلغ نحو ١١ر٠٠٠ غارة تم حسابها على اساس افتراض وجود ٨٠٪ من الطائرات جاهزة للاستعمال ، ونسبة تشغيل الطائرات تسمح بشن اربع غارات فى غالبية المهام ، ومن بين تلك الغارات الجوية ، يبدو ان نصفها تركز فى الدفاع الجوى والقصف على المدى البعيد ، والنصف الآخر تركز فى عملية المساعدة عن قرب .

كما ان البيانات الاحصائية الخاصة بالعمليات الجوية العربية غير متاحة بالقدر الكاف ، وتشير التقارير والتعليقات المتاحة الى ان نسبة الطائرات العربية الجاهزة للاستخدام كان اقل من نسبة الطائرات الاسرائيلية ، اذ ربما بلغت نحو ٦٥٪ ومن الجلى ايضا ان نسبة الغارة العادية بلغت نحو غارة واحدة لكل طائرة فى اليوم ، رغم ان المصريين زعموا انهم حققوا اداء افضل من ذلك ، وقد اعلن المصريون على نحو غير رسمى(١) انهم انجزوا ٦ر٨١٥ مهمة جوية خلال الحرب ، ونظرا لانه من المرجح ان السوريين قاموا بنصف هذا الرقم ، فانه من المقدر ان تكون الطائرات العربية قد قامت بأقل من ١٠ر٠٠٠ مهمة خلال الحرب مقسمة على نحو متساو بين الدفاع والهجوم .

واكدت التفاصيل التى اوردتها الصحف عن حرب اكتوبر فاعلية مظلة الدفاع الجوى العربى على كل من الجبهة السورية والمصرية ، ولكن لم يركزوا كثيرا على حقيقة ان الاسرائيليين دعموا فاعلية اجهزة الاعتراض الجوى لقوتهم الجوية باسلحة دفاع جوى ذات فاعلية فائقة .

ويشير تقييم كل من التعليقات الاسرائيلية والمصرية الخاصة بصواريخ هوك امريكية الصنع ، وصواريخ سام التى استخدمها الاسرائيليون فى حماية مطاراتهم ومنشآتهم الرئيسية — لاسيما فى سيناء — تشير الى ان تلك الاسلحة تتمتع بقدرة عالية على الاصابة والقتل بنفس درجة صواريخ سام العربية سوفيتية الصنع ، وربما تكون اكثر دقة ، اضف الى ذلك ان

المدافع الخفيفة المضادة للطائرات التى توجه ذاتيا عيار ٤٠ مليمترا الاسرائيلية ، وذات التجهيز المركب قد اعدت وحدات القتال البرى بحماية فعالة للغاية .

نداء الاسرائيليين فى اليوم الاول :

ربما يكون اخطر نقد وجه للقوات الجوية الاسرائيلية قد تمثل فى استخدامها على نحو بطىء وتدريجى — فيما يبدو — بعد ظهر يوم السادس من اكتوبر ، ومن المعروف على سبيل المثال ان الجنرال العازار رئيس اركان الجيش الاسرائيلى والماجور جنرال بن جامين بليد قائد الدفاع الجوى ، قد دفع كلاهما بالقوات الجوية الاسرائيلية الى شن هجمات وقائية ضد مصر وسوريا فى صباح السادس من اكتوبر ، لما تأكد الاسرائيليون من ان الحرب سوف تندلع فى ذلك اليوم ، وقد يتساءل المرء ما هو السبب ، اذا كان الاسرائيليون قد استعدوا لشن مثل ذلك الهجوم الشامل فى الصباح ، هل كان الوقت سيستغرق نحو عشرين دقيقة بالنسبة للطائرات بالمبادرة للرد على الهجوم العربى الذى وقع بعد الظهر ؟ لماذا كان المجهود الاسرائيلى عبارة عن سلسلة من الهجمات غير الفعالة وذات نطاق صغير وباهظة التكاليف ؟ لماذا لم تتعرض للهجوم اهداف عديدة مريحة للغاية ، ولا سيما على جبهة الجولان ؟ واذا كان بوسع الاسرائيليين شن هجوم خاطف شامل ، لماذا لم يوجهوا ضربة مضادة شاملة مماثلة فى غضون لحظات من انفجار الحرب ؟

هناك عدة أجوبة منطقية على تلك الأسئلة :

اذ انه فى المقام الأول ، وتوقعا لاحتمال توجيه ضربة خاطفة ، فانه من الناحية العملية قد تم تسليح كافة المقاتلات — قاذفات القنابل التابعة للسلاح الجوى الاسرائيلى — باستثناء حفنة من طائرات الدفاع الجوى التى خصصت لحماية المنشآت الرئيسية ، وذلك للهجوم على المطارات والمنشآت الالكترونية ومواقع صواريخ سام ، وعندما رفضت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل توصيات العازر وبليد ، اعدت القوات الجوية الاسرائيلية نفسها للقيام برد سريع على الهجوم العربى المتوقع ، مع التركيز اولا وقبل كل شىء على انشطة تدعيم الهجوم البرى ، وطمأنت المخابرات الاسرائيلية بأن ذلك الهجوم سوف يحدث فى السادسة مساء ، وفى الساعة الثانية وخمس دقائق مساء ، قامت القوات الجوية بأسرها — باستثناء اطقم الدفاع الجوى — بعملية تحويل استعدادها من الخط القتالى الى نمط مختلف تماما ، الأمر الذى يتطلب اعداد اسلحة مختلفة على غالبية الطائرات .

وفى الوقت نفسه اعد الطيارون والاطقم الجوية انفسهم للساعة السادسة مساء اى ساعة الصفر ، وشأنهم شأن كل فرد آخر فى اسرائيل

فقد اخذوا على غرة ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى بطء زمن رد الفعل ، ويرجع جزئيا الى المجهود غير الفعال نسبيا الى بذل فى ذلك اليوم .

بيد ان عدم الفاعلية هذه كانت الى حد ما نتيجة للصدمة المباغتة : اذ انه فى الوقت الذى هرعت فيه الطائرات للاستعداد واقتحام المعركة ، فان طياريها واجهوا موقفا مماثلا لذلك الذى اشاع الفوضى ، وسبب خسائر فادحة فى الارواح بين اطقم الدبابات الاسرائيلية على الارض ، وبالرغم من ان الاسرائيليين كانوا على دراية كاملة بقدرات صواريخ سام العربية ، فانهم قد بوغتوا تماما بفاعلية تلك الاسلحة ، اضف الى ذلك ان عددا كبيرا للغاية من الطائرات الاولى التى اقتحمت المعركة قد اسقطتها او دمرتها صواريخ سام — ٢ ، سام — ٣ ، سام — ٦ ، او صواريخ زد — ٢٣ — ٤ ، وقد سقطت بضع طائرات او دمرت بصواريخ سام ايه ٧ .

وسرعان ما ادرك الجنرال بيليد والعاملون معه انهم يتعرضون لمستوى استنزاف غير مقبول كلية ، وزعمت المصادر المصرية انه فى الساعة الخامسة مساء ، سمعت اجهزة التقاطهم لقنوات القيادة الجوية الاسرائيلية اوامر عاجلة صدرت بوضوح توحى للطيارين بعدم الاقتراب الى مسافة اقرب من ١٥ كيلومترا من خطوط وقف اطلاق النار القديمة لقناة السويس والخط الاحمر الى حين صدور تعليمات اخرى ، وهكذا ، ومما اثار دهشة مراقبى الامم المتحدة على مرتفعات الجولان ان قوافل الدبابات السورية الضخمة والعربات المدرعة المتنوعة لم تتعرض لهجوم البتة .

الجهود الاسرائيلية ضد صواريخ سام :

ابان اليومين او الثلاثة التالية بذلت القوات الجوية الاسرائيلية جهودا محمومة فى اجراء تجارب تكتيكية وتكنيكية للتمشى مع ذلك الموقف غير المتوقع تماما ، وفى هذا المجال بدات الطائرات الاسرائيلية فى القيام بمهام مساعدة عن كثب ومهاجمة المطارات وخطوط الاتصالات العربية التى تقع خلف خطوط الجبهة مباشرة ، بما فى ذلك الجسور المصرية التى اقيمت على قناة السويس ، غير انه باستثناء بعض العمليات الانتحارية التى تمت حقيقة للحد من وقف التقدم السورى على المرتفعات الجنوبية ، فان تلك الهجمات الجوية الاسرائيلية قد تمت بمزيد من الحذر ، ومن ارتفاعات اعلى للغاية مما كانت تتم فى الماضى .

وهكذا ، وفى الوقت الذى انخفضت فيه خسائر اسرائيل الجوية فى الارواح بصورة ملحوظة نظرا لعمليات القصف على مدى ابعد ، واتاحة المزيد من الفرص للقيام باعمال المراوغة ، فان هجومهم الجوى كان اقل فاعلية بكثير مما كان عليه فى عام ١٩٦٧ ، وعلى سبيل المثال ، زعم

الاسرائيليون انهم قصفوا عددا من الجسور المصرية على القناة ، ويقول المصريون : ان الطائرات الاسرائيلية لم تصب هدفا واحدا ، بالرغم من انهم اعترفوا ان المدفعية الاسرائيلية بعيدة المدى قد اصابت عدة اهداف .

وكما اشير من قبل ، ان ثمة عنصرا هاما فى المعالجة التكتيكية لمشكلة صواريخ سام تمثل فى نشر بعض القش « لخداع » اجهزة الرادار المصرية وفى الوقت نفسه كان الاسرائيليون يستنبطون سبل تكتيكية للتخلص من صواريخ سام العربية ، وذلك باللجوء لمختلف انواع المراوغة واصبحوا متمرسين تماما فى مثل تلك التكتيكات خلال حرب الاستنزاف ، ولكن فى الوقت نفسه لم يواجهوا بمثل هذا العدد المكثف من صواريخ سام ، واكتشفوا الآن ان اللجوء الى اسلوب المراوغة ضد موقع واحد ملحوظ من صواريخ سام — ٢ او سام — ٣ سوف يسمح بأن ينكشف موقع او مزيد من مواقع الصواريخ الأخرى ، الأمر الذى سوف ينجم عنه دمار مؤكد ، وفضلا عن ذلك فان التكتيكات التى اثبتت فاعليتها ضد صواريخ سام — ٢ ، سام — ٣ البطيئة نسبيا لم تكن فعالة ضد صواريخ سام — ٦ الاكثر سرعة واكثر دمارا ، ولوحظ من قبل ايضا ان التجارب التى اجريت باستخدام طائرات الهليوكوبتر لاستكشاف مواقع العدو لم تكن ناجحة للغاية .

وبالرغم من أن القوات الجوية الاسرائيلية قد خفضت خسائرها التى لحقت بها نتيجة لصواريخ سام ، وفى بعض الحالات تمكنت من قمع نيران الصواريخ (كما حدث على مرتفعات الجولان) والحد من فاعليتها ، ولكن رجال الطيران الاسرائيلى لم يتوصلوا الى حل حقيقى لأسلحة الدفاع الجوى العربى ذات الفاعلية الفائقة والتى تعمل على مستوى منخفض ومستوى عال ، وعلى كلا الجبهتين كان اكثر عمل فعال تم ضد مظلة الدفاع الجوى العربى يتمثل فى هجوم برى اجتاح مواقع الصواريخ او ارغمهم على نقل مواقعها ، ذلك هو الهجوم البرى الذى شن غرب قناة السويس ، والذى مكن القوات الجوية الاسرائيلية من العمل بفاعلية مدمرة ، وذلك بمساندة فرق الجنرالات آدان وملجين وشارون ، اذ حدث تمزق عميق فى هيكل مظلة الدفاع الجوى المصرى ، واستغل الاسرائيليون ذلك الى اقصى حد .

وهكذا فان نجاح الهجوم الاسرائيلى على الضفة الغربية خلال الرابع عشر والرابع والعشرين من اكتوبر كان من الناحية الموضوعية بمثابة انجاز لتنسيق مشترك بين مختلف اسلحة الجيش ، وارغمت القوات البرية صواريخ سام على التراجع ، ثم تمكنت القوات الجوية المصرية لوقف تلك المساعدات الى حد ما ، غير ان الخسائر الجوية المصرية كانت فادحة .

وانطبق ذلك ايضا على الجبهة السورية ، فرغم قيام الهجوم الجوى الاسرائيلى الاستراتيجى الذى وقع فى آن واحد قد ارغم السوريين على

اضعاف كثافة انتشار صواريخ سام على جبهتهم ، فان ذلك ساهم بالتالى فى تحقيق تقدم اسرائيلى على مواقع الخط الاحمر خلال يومى العاشر والحادى عشر من اكتوبر ، ومن ثم فان توسيع نطاق الجبهة قد ساهم اكثر فى اضعاف اجهزة الدفاع الجوية السورية .

هجوم الطائرات الهليوكوبتر الاسرائيلية :

فى فرصتين على الاقل ، وربما اربع فرص ، حقق الاسرائيليون نجاحا فى غارات اختراق مظلة الصواريخ المصرية التى استخدمت فيها طائرات الهليكوبتر ، وفى العاشر او الحادى عشر من اكتوبر ومرة اخرى فى يوم ١٤ اكتوبر ، وربما فى مناسبتين اخريين شنت قوات المظلات المحمولة بطائرات الهليكوبتر ، والتى رافقتها مقاتلات اسرائيلية ، غارات مدمرة على محطات الالتقاط الالكترونية المصرية او المحطات التى تقع على جبل عتاقة ، الذى يقع جنوب غرب السويس ، وقد تمت احدى تلك الغارات على الاقل فى ضوء النهار ، وربما تكون تلك التى شنت فى الرابع عشر من اكتوبر ، الا ان ايا من الاسرائيليين او المصريين لم يناقشوا الانشطة الالكترونية او طبيعة الغارات او الاسلوب الذى « خدع » به المغيرون صواريخ سام المصرية ، بيد ان مثل تلك الغارات قد اقرها كلا الجانبين ، رغم ان المصريين قد قللوا من اهميتها ، وربما بالغ الاسرائيليون فيما حدث وفاعليته(٢) .

ومن بين النظريات المحتملة حول سبب شن الغارات وما الذى انجزته ، هناك نظريتان جديرتان بالاهتمام : احداهما فى ان الهدف الرئيسى للمحطة الالكترونية (او احدى المحطات) هو تنسيق جهاز الدفاع الجوى المصرى باكمله ، ومن ثم كانت هدفا كبيرا للقوات الجوية الاسرائيلية ، (وصف المصريون تلك النظرية بأنها « هراء ») . وتمثلت النظرية الاخرى ، التى اكدها كبار المسئولين الاسرائيليون على نحو غير مباشر فيما يبدو ، غير ان المصريين نفوها نفيا باتا ، فى ان جبل عتاقة كان هو محطة الالتقاط المصرية الرئيسية (رغم انها ليست المحطة الوحيدة) حيث يتم التصنت وتسجيل وتحليل كافة الاتصالات اللاسلكية الاسرائيلية .

واذا كانت تلك النظرية صحيحة ، فانها يمكن ان تساعد على تفسير سبب ما انتاب القيادة المصرية العليا من اضطراب بالغ من جراء العبور الاسرائيلى لقناة السويس فيما بين السادس عشر والثامن عشر من اكتوبر ، ويبدو انه من المحتمل اذا كانت محطات الالتقاط هذه تقوم بوظيفتها على اكمل وجه فى تلك الايام ، فان حجم الاتصالات اللاسلكية الاسرائيلية كان يتعين ان يكشف عن حجم وموقع الجهد ، حتى اذا كان القدة المحلبون اكفاء (كما كان جليا) فى كل مهام الاستطلاع وتقديم التقارير .

وعلى اية حال ، اكد الجنرال بيليد ان تلك الغارات كانت جهدا ناجحا للقوات الجوية الاسرائيلية ، واكد الجنرال العازر على نحو غير مباشر ان ثمة هدفا واحدا تمثل فى تعطيل محطة الالتقاط الالكترونية(٢) .

وتمت عملية توغل اسرائيلية واحدة بطائرات الهليكوبتر على سوريا الى جانب عدة هجمات متتالية وقعت على جبل الشيخ ، اذ فى الثالث عشر من اكتوبر تمت عملية انزال قوة كوماندوز محمولة بطائرة هليكوبتر عند الكيلو ١٠١ تقريبا شمال شرق دمشق ، ودمر الاسرائيليون جسرا ، ونصبوا كمينا لقافلة من القوات العراقية وعادت الى اسرائيل .

الحملة الجوية الاستراتيجية الاسرائيلية ضد سوريا :

بدات الحملة الجوية الاسرائيلية ضد سوريا فى التاسع من اكتوبر ، ومن الجلى انها كانت ردا على اطلاق صواريخ اف آر او جى جو — جو السورية على شتى اجزاء الجليل ، ونشر الاسرائيليون ذلك الهجوم بالصواريخ بأنها حملة شنها السوريون دون تمييز ضد السكان ، ولم تسبب اضرارا بالغة واسفرت عن بضعة خسائر فى الارواح ، بيد انه من المحتمل ايضا ان الهدف السورى تمثل فى اصابة القواعد الجوية الاسرائيلية فى شمال الجليل ، وقد نجحت مختلف انماط الانفجارات التى وقعت على نطاق واسع نتيجة عدم دقة الاسلحة السورية بالاضافة الى عجز السوريين عن اصابة الهدف .

وعلى اية حال ، وردا على ذلك الهجوم الجوى وعلى السكان المدنيين الاسرائيليين بدات القوات الجوية الاسرائيلية حملة استراتيجية بعيدة المدى ضد الاهداف الاقتصادية السورية ومناطق المؤخرة للمنشآت العسكرية كذلك ، وكما اشير من قبل ، فان هجوم العاشر من اكتوبر على وزارة الدفاع السورية فى دمشق اسفر عن عدد من الخسائر فى الارواح بين العسكريين من المدنيين ، ووقعت خسائر فى الارواح بين المدنيين ايضا من جراء الهجوم على الاهداف الصناعية والاقتصادية ، مثل المصانع ومخازن امداد الدبابات بالوقود ومصانع القرى .

المعركة الجوية :

بالرغم من ان القوات الجوية الاسرائيلية لم تتمكن على الاطلاق من دفع اى من المصريين او السوريين بعيدا عن السماء ، ولكنها قد تمكنت من تحقيق تفوق جوى جلى فى المناطق التى لم تكن تعمل فيها او التى لم تمتد اليها صواريخ سام العربية ، وبغض النظر عن اى تفاوت فى كفاءة الطيار ، فانه من المفهوم ان العرب تفادوا القتال مع الطائرات الاسرائيلية الاكثر قوة والمجهزة باسلحة ذات فاعلية اكثر ، ومع ذلك ومما يبعث على

الدهشة فقد وقع ما يربو عن ٤٠٠ معركة جوية ، وكان الاسرائيليون هم الافضل فى مثل هذا القتال الجوى ، وزعموا ان ٣٣٤ طائرة عربية قد سقطت خلال القتال الجوى واعترفوا بفقد ثلاث من طائراتهم فقط فى مثل تلك المواجهات ، وتلك النسبة تبلغ تقريبا مائة الى واحد ، بيد انه اذا ضغط عليهم فانهم سوف يقرون باحتمال فقد ست طائرات فى القتال الجوى.

وينسب العرب ذلك التفاوت الى التفوق فى المعدات ويقرون بانهم خسروا اكثر مما خسر الاسرائيليون ، غير انهم يزعمون انهم اسقطوا خمسين او ما يربو عن ذلك من الطائرات الاسرائيلية فى المعارك الجوية(٤). وعندما يضغط أكثر على الاسرائيليين فانهم سوف يقرون بأن بعض تلك الخسائر على الاقل التى ينسبونها الى اسباب غير معروفة ربما تكون قد وقعت فى المعارك الجوية ، وفى الحقيقة واذا بررت على هذا النحو كل تلك الخسائر فان النسبة المتبادلة سوف تظل افضل من ١٢ الى ١ فى صالح الاسرائيليين ، والتى لا تزال تميل الى جانب واحد .

فاعلية المساعدة البرية للقوات الجوية الاسرائيلية :

بينما يتساءل الجنود الاسرائيليون حول فاعلية المساندة الجوية خلال هجومهم على الضفة الغربية لقناة السويس ، فانهم اصيبوا بخيبة أمل بصفة عامة ازاء المساعدات التى تلقوها من القوات الجوية ولا سيما ابان الأيام الثلاثة الأولى الحاسمة ، وفضلا عن ذلك ومما فاقم من احباط الجنرال بيلية وقواته الجوية يلمح الجنود بأن الاسلحة الجوية لم تصب او تدمر دبابة عربية واحدة من الدبابات التى وقعت فى حوزتهم (ويبلغ عددها أكثر من ١٥٠٠ دبابة) .

بيد انه بموازنة ذلك النقد الموجه من جيشهم ، فان الطيارين الاسرائيليين قد يجدون بعض العزاء فى ملاحظة ادلى بها قائد احدى الفرق المصرية عقب الحرب اذ قال : عندما حاولنا التحرك الى ما بعد مظلة الصواريخ فان القوات الجوية الاسرائيلية كبدتنا خسائر غير مقبولة(٥) .

وحتى اذا لم يكن هناك اى فضل حقيقى ومؤكد للقوات الجوية الاسرائيلية فى خسائر الدبابات ، فان تأثيرها المحايد على القوات البرية العربية كان له اعتبار كبير فى المعارك الجوية .

ومن جانب آخر فان مساهمة القوات الجوية الاسرائيلية فى المعارك الجوية فى هذه الحرب كان اقل بكثير مما ساهمت به فى حرب ١٩٦٧ ، والتحليلات النوعية للفاعلية النسبية لقتال القوات الاسرائيلية والعربية فى حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، التى ذكرت من قبل ، تشير الى انه لم يكن هناك تباين كبير فى الفاعلية القتالية النسبية للقوات البرية المتحاربة خلال

الحربين (يما يتعلق على الأقل بالمقارنة المصرية الاسرائيلية) . ومجمل القول ان التفوق بهامشى الاسرائيلى كان فى حرب ١٩٧٣ اكبر مما كان عليه فى عام ١٩٦٧ ، غير انه فى حرب ١٩٧٣ لم يحدث شيء يماثل انهيار الجيوش العربية كما حدث فى حرب ١٩٦٧ ، وبالرغم من ان وجود اسباب اخرى لذلك الانهيار غير كفاءة وفاعلية القوات الجوية الاسرائيلية والمراقبين الاجانب قد فشلوا فى التعرف على المدى الكامل للتمزق المدمر الذى احدثه التفوق الجوى للقوات الجوية الاسرائيلية فى حرب ١٩٦٧ ، وهكذا ونظرا لانه لم يحدث دمار مماثل فى حرب ١٩٧٣ ، فان الاسرائيليين والمراقبين الاخرين يميلون على نحو خاطيء بتفسير ذلك الى تحسين نوعية القوات البرية العربية اكثر من تاثير تحييد القوات الجوية الاسرائيلية على يد جهاز الدفاع الجوى العربى .

العمليات الاستراتيجية العربية :

لم تبذل اى من القوات الجوية المصرية او السورية اى جهد خطير لاختراق المجال الجوى فوق اسرائيل ، وشن السوريون هجوما على معمل تكرير فى حيفا فى العشرين من اكتوبر غير انهم فشلوا فى الحاق اية اضرارا بالمنشأة ، ومما يبعث على الدهشة انه عقب الاعلان السورى عن ذلك الهجوم ، اصدر الاسرائيليون بيانا مبهما ردا على ذلك ينفى تعرض مدينة حيفا لأى هجوم . وفى حقيقة الأمر كان الهجوم قد وقع على معمل التكرير الذى يقع شمال المدينة ، وذكر الاسرائيليون — فى بيان آخر ان طائرة سوخوى — ٧ سورية قد تهشمت على شاطىء نهاريا التى لا تبعد كثيرا عن معمل التكرير .

وتحاشى المصريون شن مثل تلك الغارات الجوية ضد اسرائيل ويصرون على انهم تجنبوا عن عمد القيام بأى عمل يمكن أن يعتبر هجوما ضد المناطق السكانية .

بيد انهم وضعوا صواريخهم من طراز اس . سى . يو . دى. (سكود على أهبة الاستعداد للرد فى حالة وقوع اى هجوم اسرائيلى على المناطق السكنية المصرية .

واستخدم المصريون طائراتهم من طراز تى يو — ١٦ قاذفة القنابل المتوسطة كمنصات لاطلاق صواريخ ايه اس — ٥ كيلت ، واطلقوا فيما يبدو نحو خمسة وعشرين من مثل هذه الصواريخ من قاذفات قنابل حلقت على الساحل المصرى للبحر المتوسط على اهداف تقع فى عمق سيناء ومعظمها محطات رادار ، وقد اسقطت المقاتلات الاسرائيلية عددا منها ، من بينها طائرة زعم الاسرائيليون انها كانت تتجه الى تل ابيب ، واحدثت خمسة فحسب من صواريخ كيلتس اصابات واضحة فى اهداف اسرائيلية ،

وكلها فى سيناء ، والحق اضرارا بالغة بمحطتى رادار اسرائيليتين وقاعدة امداد واحـدة ، واسقطت المقاتلات الاسرائيلية طائرة واحدة من طراز تى يو ــ ١٦ اس على مبعدة من ساحل مصر .

ولم يحاول الاسرائيليون الـرد على شن صاروخ كيلت الـذى زعموا انه كان يتجه الى تل ابيب ، وفيما يبدو انهم لم يكونوا على ثقة كافية من الهدف المحدد كى يكون ذلك اساسا لتصـعيد الحـرب على نحو خطر وباهظ التكاليف .

وقد صرح السادات عقب الحرب بأن المصريين لم يطلقوا صواريخهم من طراز سكود (اس . سى . يو . دى) حتى قبيل نهاية الحرب ، واحتفظوا بها كسلاح رادع ذى مـدى بعيد يهدد مراكز السكان الكبرى فى اسرائيل . والمرة الوحيدة الـذى استخدم فيها فى القتال حدثت قبل تنفيذ وقف اطلاق النار الاول مباشرة فى الثانى والعشرين من اكتوبر ، عندما اطلقوا صاروخين سكود على رأس الجسر الاسرائيلى فى الضفة الغربية لقناة السويس ، بالقرب من الجسر الجنوبى الاسرائيلى فى الدفرسوار . وقال السادات : ان ذلك كان بمثابة تحذير كى يعلموا أننا نملك مثل تلك الأسلحة . والسؤال المطروح الآن عما اذا كان الاسرائيليون قد تلقوا تلك الرسالة المتعمدة أم لا ، نظرا لأن تصريح السـادات كان اول اشـارة واضـحة لهذه الأسـلحة فى الصحف العامة[٦] .

الملاحظـات

(١) حديث اجراه الكاتب مع اللواء حسن البدرى واللواء م. د. زهدى جاء فيه ان ذلك الرقم ظهر فى كتابهما « حـرب رمضان » الـذى نشر فى القاهرة عـام ١٩٧٤ .

(٢) يصر المصريون على انه لم يحدث اى هجوم مباشر على جبل عتاقة والحادث الوحيد الـذى وقع هو انـزال جماعة ابادة بطائرة هليكوبتر بالقرب من طريق القاهرة السويس شمال جبل عتاقة بهدف تدمير خطوط القـوى وبث الطريق بالألغام (ويقولون ايضا ان المغيرين قد ردوا على اعقابهم قبل ان يتمكنوا من تنفيذ مهمتهم) ويقول المصريون ان قلة من المغيرين الآخرين المحمولين بالهليكوبتر قد اغاروا ، ليس على جبل عتاقة ، وانما للقيام بمهمات استطلاعية فحسب .

(٣) ردا على أسئلة طرحها الكاتب .

(٤) يزعمون ان المجموع الكلى بلغ ما يربو عن ٩٠ طائرة هليكوبتر .

(٥) حديث اجراه الكاتب .

(٦) يقول هيرتزوج فى صـفحة ٢٤٥ بالمرجع انه فى ٢٢ اكتوبر ، اطلق صاروخ سكود وفقا لمـا قاله السادات ضد اسرائيل وقد وقع فى صحراء سـيناء .

(١٩)

حـرب البحرية
الاستعدادات المصريه

فور تعيين الرئيس السادات للفريق اسماعيل كوزير للحربية وقائدا عاما ، استدعى قائد القـوات البحرية السابق من التقاعد امير البحـار احمد فـؤاد ذكرى ، واعـاد تعيينه فى منصبه السابق .

وكان اسماعيل وذكرى اصدقاء قدامى وتعاونا معا فى المـاضى وكان اسماعيل يثق بانه بوسعهما معا العمل على اكمل وجـه فى الاستعدادات القادمة للحـرب .

وفى عملية ممـاثلة ترتبط بصـورة وثيقة تلك العمليـة التى نفذهـا اسماعيل والعاملون معه ، بـدأ ذكرى وهيئته البحرية اجـراء تقييم مكثف للموقف ، مع تركيز الاهتمـام الخاص على التطـورات الحديثة فى بحرية اسرائيل .. ونتيجة لذلك ، توصلت هيئة البحرية المصرية فى مستهل عام ١٩٧٣ الى عـدة نتائج :

« ان تفوق اسرائيل فى زوارق الصواريخ ، التى تدعمها قـوة جوية رائعة تم تدريبها على التعاون فى حرب البحرية ، كان يعنى انه يتعين على مصر تحاشى الدخـول فى التحام بالقرب من السـاحل ، وبصـفة خاصة يتعين على المدمرات المصرية العرضة للخطر الاشتراك فى قصف ساحلى ، بل تستخدم فى تعطيل الاتصالات البحرية الاسرائيلية بعيدا عن الشاطىء » .

ولم تشعر اى من القيادة العامة او البحرية بالسرور ازاء تلك النتيجة نظرا لأن المهمة الرئيسية للبحرية المصرية كانت تتمثل فى تقديم مساعدة عن قرب للقوات البرية ، غير ان افراد البحرية اشاروا الى ان هناك زوارق خفيفة مزودة بقواعد اطـلاق صـواريخ مضاعفة فى وسعها ان تنفذ مهمة قصف الشاطىء ، ويمكن ان تستخدم لاستكمال عملية القصف الأولى التى تقوم بها القوات البرية والجوية فى مستهل اى هجوم مباغت .

وفضلا عن ذلك فان هناك عـدة مهام اخرى نافعة يمـكن ان تنفذها البحرية والتى بـدات الاستعداد لها ، والمهمة الأساسية بين تلك المهام هى عملية الحصار ، وفى وسع البحرية ايضا بث الألغام للحد من فاعلية زوارق

الصواريخ الاسرائيلية ، اذ يدرك المصريون ان الاسرائيليين ليس لديهم كاسحات الغام ، بيد ان البحرية كانت تملك ايضا قوة كوماندز هجومية ومدربة على اكمل وجه ، ولم يتمكن من نشر تلك القوة خلال فترة الاعداد خشية تنبه الاسرائيليين .

والمشكلة الرئيسية التى برزت امام البحرية المصرية خلال الشهور الاولى من عام ١٩٧٣ ــ كما كان الوضع بالنسبة للجيش ــ هى الاستعداد للقتال دون الكشف عن الهدف الذى تستعد له ، ونظرا لان الحرب لم تكن بعيدة ، فانه كان يتعين على البحرية الاعداد لاستخدام مواردها فى اسرع وقت ممكن ابان الحرب ، وتم اعداد خطة متقنة ومدروسة للغاية ومخادعة على نحو فعال ، وذلك بالتنسيق مع الخطط المماثلة التى اعدها الجيش ووزارة الخارجية ، وبدات زوارق الحصار تنتشر على نحو تدريجى الى مشارف المواقع التى ستتخذها ابان الحرب ، مستخدمة الموانى الصديقة سيما فى ليبيا واليمن الجنوبية .

وفى اواخر الصيف تم اعداد الترتيبات على نحو غير ملفت للنظر ، ولكن باسلوب يستهدف توصيل الامر الى المخابرات الاسرائيلية مع احواض السفن الباكستانية وذلك لاصلاح وترميم غواصتين ، وتم ارسال اجزاء منهما بهدف الاصلاح الى كراتشى على متن سفينة تجارية فى شهر سبتمبر ، وفى اول اكتوبر تم انزال الغواصتين الى البحر دون اصلاح فيما يبدو ، واتخذتا وجهتهما الى كراتشى ، ولم تصلا بالطبع ورابطتا فى بور سودان .. وعقب الحرب اعتذرت مصر بهدوء للباكستانيين لاستغلالهم فى خطة التمويه .

وفى الوقت الذى انهمك فيه الجيش فى مناورات خلال الايام الاخيرة من سبتمبر والايام الاولى من اكتوبر ، اشتركت معه البحرية المصرية ، وفى الثالث من اكتوبر اصدر الفريق اسماعيل وامير البحار ذكرى بيانا يعربان فيه عن عدم رضائهما بمناورات الاسطول لبث الالغام على نطاق واسع ، ومن ثم فان سفن زرع الالغام سوف تتدرب مرة اخرى ، وخلال ليلة الخامس والسادس من اكتوبر قامت السفن ببث الغامها من القرب من شرم الشيخ عند مدخل خليج السويس .

اندلاع الحرب :

بعد ظهر اليوم السادس من اكتوبر ، وعقب بدء الهجوم البرى المصرى والسورى المنسق ، اصدرت مصر بيانا تحذر فيه كافة السفن المحايدة بالابتعاد عن المناطق المخصصة لعمليات البحرية ، وتشمل المياه الاقليمية لكل من مصر واسرائيل ، والبحار العليا المجاورة فى البحرين المتوسط والاحمر ، وبالمثل حذرت سوريا سفن كافة الدول من الدخول فى

منطقة شرقى البحر المتوسط ،واعلنت جمهورية اليمن الديمقراطية الجنوبية ان مضيق باب المندب منطقة حرب ، ولم يكن هناك تنسيق بين عمليات البحرية المصرية والسورية ، وشرعت كلاهما على نحو مستقل فى عملياتها البحرية وحقق المصريون مزيدا من النجاح ، ولكن تكبدا مزيدا من الخسائر عن السوريين ، ولم يكن لدى اى من المتحاربين قوات بحرية كافية او فرصة للاشتراك فى اشتباك بحرى كبير ، وتمثلت عملية البحرين فى شن غارات والقيام بعمليات وحدات صغيرة وفرض حصار .. وكان سجل تلك الانشطة ملىء بمزاعم ومزاعم مضادة ، ومن المتعذر تقرير الثمن المحدد الذى دفعه المتحاربون .

النزاع البحرى الاسرائيلى ــ السورى :

فى حوالى الساعة العاشرة مساء من السادس من اكتوبر واجه اسطول اسرائيلى صغير ، مكون من اربع سفن طراز سعار وريشيف (وذلك قبل الموعد المحدد لتشغيلها باقل من ستة اشهر) زورق طوربيد سورى طراز ك ــ ١٠٣ على بعد خمسة اميال من اللاذقية واغرقه بعد ساعتين اشتبكت الوحدة نفسها فى معركة بالصواريخ والمدافع مع قوة سورية اخرى ، وابان المعركة التى دامت ساعتين ، والتى استخدم فيها لاول مرة صاروخ جابريل الاسرائيلى زعم الاسرائيليون انه تم اغراق كاسحة الغام سورية من طراز تى ــ ٤٣ ، وثلاثة زوارق صواريخ (اما من طراز اوساس او اوكومارس) .

وعلى مدى الايام الثلاثة التالية خيم الهدوء على حرب البحرية الاسرائيلية والسورية ، حيث ركزت البحرية الاسرائيلية جهودها ضد مصر ، وتحاشى السوريون الدخول فى عمل ايضا ، نظرا للبراعة الفائقة التى اظهرتها البحرية الاسرائيلية ، بالاضافة الى قدرات الهجوم والاستطلاع الذى يحظى بالاحترام البالغ ، بيد انه فى العاشر من اكتوبر حولت البحرية الاسرائيلية اهتمامها شمالا مرة اخرى .

وكاجراء تمهيدى ، قامت الطائرات الاسرائيلية فى السماء بمهاجمة مركز قيادة البحرية السورية ، ميناء البيضا ، الذى يقع شمال اللاذقية وخلال الليلة التالية هاجم زورق سعار الاسرائيلى ايضا ميناء البيضا ، وقام بنشاط على مبعدة من اللاذقية وبنياس ، وطرطوس . حيث قصفت معامل تكرير البترول ومخازن الوقود ، ومنشآت الميناء كذلك ، مستخدما مدافع عيار ٧٦ ، ٤٠ مليمتر ، وكانت البطاريات الساحلية السورية نشيطة للغاية ، غير انها لم تصب اى هدف .

وخرجت عدة زوارق صواريخ سورية لمجابهة التحدى فى اللاذقية ، كما غرقت ايضا باخرة تجارية يونانية ، تحمل اسم تسمينت اركوس ، وسفينة يابانية ، وعادت بقية السفن السورية سالمة الى الميناء .

وفى الليلة التالية (الحادى عشر من اكتوبر) . اشتبكت قبيل منتصف الليل بالقرب من المدخل الى ميناء طرطوس ، وخلال المعركة التى دامت ساعة ونصف غرقت سفينتان سوريتان واغرقت الصواريخ الاسرائيلية ايضا شاحنة روسية ، اليامبر شنكوف فى الساعات الاولى من صباح يوم الثانى عشر خلال ذلك الهجوم واصيب عدد من ناقلات البترول ، ومرة اخرى ارغمت بطاريات الدفاع فى الساحل السورى الاسرائيليين على التزام الحذر فى الاقتراب من الساحل .

يبدو ان اصابة الصواريخ الاسرائيلية للشاحنات خلال هاتين العمليتين قد نجمت عن تطور تكتيكى سورى ، عندما برزت فاعلية صاروخ جابريل فى المواجهة الأولى اذ ان زوارق الصواريخ السورية كانت تندفع بسرعة بين السفن التجارية الى مسافة تكفى فقط لاطلاق الصواريخ او المدافع ، ثم تعود بسرعة بين السفن التجارية لاحباط اجهزة استشعار صاروخ جابريل ، ونظرا لأن الاسرائيليين وضعوا فى اعتبارهم لجوء السوريين
طول الساحل السورى ، حيث قصفت جسرا على نهر الأبراش جنوب
طرطوس أثناء الليل ، وفى الحادى والعشرين من اكتوبر قصفت مستودعات
لذلك التكتيك عقب اليوم الثالث من القتال ، فانهم اعتبروا ان الحقيقة التى تتمثل فى اصابة ثلاث سفن تجارية فقط بمثابة دليل على براعة صاروخ جابريل فى تمييز الهدف .

ووقع اشتباك آخر بين سفن الصواريخ السورية والاسرائيلية شمال اللاذقية قبل يوم ١٤ اكتوبر ، وزعم السوريون الذين لجأوا الى هجوم الكر والفر من اللاذقية انهم دمروا سفينتين اسرائيليتين ، وذكر الاسرائيليون انهم لم يتكبدوا اية خسائر غير انهم لم يعلنوا عن اصابة اى هدف ايضا .

وفى التاسع من اكتوبر عاودت زوارق سعار الاسرائيلية العمل الى طول الساحل السورى ، حيث قصفت جسرا على نهر الابراش جنوب طرطوس اثناء الليل وفى الحادى والعشرين من اكتوبر قصفت مستودعات البترول بالقرب من بنياس ، مما ادى الى اندلاع حرائق هائلة ، ولم تشتبك معها سفن السطح السورية فى اى من الليلتين ، غير ان نيران مدفعية الدفاع عن الساحل السورى الكثيفة ارغمتها على اللجوء الى اعمال المراوغة .

ولم تحدث اية عمليات بحرية كبرى اخرى بين سوريا واسرائيل قبل وقف اطلاق النار .

الحروب المنفصلة للبحرية المصرية والاسرائيلية :

شنت اسرائيل ومصر حروبا بحرية مختلفة ضد بعضهما البعض ، وهكذا لم تحدث مواجهة كبرى بين البحريتين : اذ من الناحية الهجومية ،

فرضت مصر حصارا بحريا ضد اسرائيل وشنت عددا من غارات الكر والفر ضد المنشآت الساحلية الاسرائيلية فى سيناء ، وذلك كتدعيم مباشر للجيش المصرى .

ومن الناحية الدفاعية ، فان البحرية المصرية ، التى تدرك تماما التلاحم المدمر بين زوارق الصواريخ والقوات الجوية الاسرائيلية ، الا فيما عندما هددت القوات الاسرائيلية الموانى البحرية الهامة او المنشآت البحرية ، وتمثلت التكتيكات الدفاعية المصرية فى تفادى حدوث مواجهات على نطاق واسع مع زوارق الصواريخ الاسرائيلية فى مسافة ابعد من مدى بطارياتهم الساحلية ، او زوارق الصواريخ الأخرى التى تطلق نيران من كمين فى المياه الساحلية .

ومن جانب آخر ، لم تحاول البحرية الاسرائيلية الاشتباك مع قوات الحصار المصرية التى رابطت على مسافة بعيدة نظرا لان ذلك كان يعنى تحولا بعيد المدى لقوة السطح المحدودة ، واحتمال نشوب مواجهات على مسافة بعيدة دون أن تكون هناك مساندة جوية ، وفضلا عن ذلك لم يكن لاسرائيل زوارق صواريخ فى البحر الأحمر ، كما أن قوة الحصار المصرية الرئيسية فى البحر المتوسط كانت ترابط على مسافة أبعد من مدى عمليات زوارق الصواريخ ، بالرغم من التكتيكات الناجحة للغاية التى طورها الاسرائيليون للتغلب على مدى اوجه النقص لصاروخ جابريل ، فانهم اقتنعوا بانه فى اى حرب قصيرة ، كما توقعوا كى يكون للحصار المصرى تاثير خطير .

ومن ثم كرست زوارق السطح الاسرائيلية اهتمامها الكبير على واجهة وعرقلة قصف البحرية المصرية للمنشآت العسكرية فى سيناء والترصد لزوارق الصواريخ المصرية ودفعها الى العمل اذا امكن وفى حين اسفر ذلك التكتيك عن عدد من الاشتباكات فوق السطح التى حقق فيها الاسرائيليون نجاحا بصفة عامة ، فان التكتيكات الدفاعية المصرية احبطت آمال البحرية الاسرائيلية فى احراز انتصارات هامة فوق سطح المياه ضد مصر .

الحصار البحرى المصرى :

بالرغم من ان مصر اعلنت عن مناطق شاسعة للعمليات البحرية فانه لم يعلن رسميا عن الحصار ، غير ان اسرائيل كانت تتعرض لحصار فى الحقيقة ، وعقب اعلان العرب لمناطق الحرب وقفت اسرائيل كافة سفنها التجارية من الدخول والخروج من ميناء ايلات وموانيها فى البحر المتوسط ، وظلت معظم السفن المحايدة تقف بعيدا عقب البيان المصرى الذى حدد مناطق الخطر ، وعند مضيق باب المندب أوقفت المدمرات

المصرية السفن التجارية المحايدة ، وكانت فى بعض الاحيان تقوم بتفتيشها وفى احيان اخرى تزورها .

ولم تخاطر البحرية المصرية بمرور اى سفن كبيرة فى المياه الضيقة لخليج السويس او العقبة ، غير انها حرمت تلك المناطق على مرور الاسرائيليين ، ولا سيما على مرور ناقلات البترول ، وذلك بزرع الالغام .

وتزعم مصر انها خفضت حركة المرور التجارية الى موانى اسرائيل على البحر الاحمر ، وذلك بنسبة اكثر من ٨ فى المائة ، والى ايلات بنسبة مائة فى المائة ، وقد انكرت اسرائيل تلك الارقام ، غير ان هناك ما يدعو للاعتقاد بأن القائمة التى اعدها الاسرائيليون بشأن حركة الدخول والخروج من الموانى الاسرائيلية تتضمن حركة السفن البحرية وربما لا تكون محرمة.

اشتباكات البحرية المصرية والاسرائيلية على السطح :

فى مساء السادس من اكتوبر اعترضت وهاجمت دورية بحرية اسرائيلية بالقرب من شرم الشيخ عدة زوارق انزال مصرية ، من المعتقد انها كانت تجوب المكان بسرعة استعدادا لانزال قوة كوماندو ، وتم اغراق بعض السفن المصرية ، وفى وقت لاحق شن سرب من زوارق الصواريخ المصرية هجوما بالصواريخ على المواقع الاسرائيلية على طول الساحل الشمالى لسيناء ، واشتبكت معها البحرية الاسرائيلية ووحدات جوية وزعمت اسرائيل ان طائراتها اغرقت زورقا واحدا على الأقل . وزعم المصريون ان السرب انجز بنجاح عمليات القصف بالكر والفر ، وعاد سالما الى الاسكندرية ، غير ان الطائرات الاسرائيلية اغرقت زورق طوربيد اسرائيلى اثناء عملية المطاردة .

ويزعم المصريون انه ابان ليلة السابع والثامن من اكتوبر اغرقت زوارق الصواريخ المصرية سفينة اسرائيلية على بعد ٤٠ ميلا شمال بور سعيد .. وينفى الاسرائيليون ذلك.

وفى الليلة التالية هاجمت مقاتلتان قاذفات القنابل الاسرائيلية زورقى صواريخ مصريين واغرقتهما ، رغم انه لم يتأكد صحة اغراق اى زوارق على مسافة من الطرف الجنوبى من شبه جزيرة سيناء بالقرب من راس محمد ، وفى البحر المتوسط وعقب منتصف الليل بساعة فى نفس الليلة (٨ ــ ٩ اكتوبر) انطلقت ستة زوارق صواريخ اسرائيلية تساعدها طائرات الهليكوبتر ، الى ميناء دمياط المصرى الذى يقع على دلتا النيل ، واشتبكت مع اربعة زوارق من طراز « اوسا وكومار » ، واطلق الاسرائيليون على

المعركة اسم « دمياط ــ بلطيم » ، واطلق عليها المصريون « دمياط ــ البرلس » .

واغرقت الصواريخ زورقين مصريين ابان العشر دقائق الأولى ، وعقب خمس وعشرين دقيقة زعم الاسرائيليون ان الصواريخ جابريل اغرقت سفينة مصرية اخرى وهى تحاول الفرار غربا الى الاسكندرية ، وتمكنت السفينة الرابعة من الفرار بنجاح من الاسرائيليين ووصلت الى الاسكندرية .. وزعم المصريون انهم اغرقوا « اربعة » اهداف اسرائيلية ويعتقدون ان ثلاثة منها زوارق طوربيد وزورق صواريخ واحد .. وأسفر ذلك الاشتباك عن تزايد تقدير المصريين للتلاحم بين الزوارق الصواريخ وطائرات الهليكوبتر الاسرائيلية .

ووقعت عملية على بعد من بور سعيد ابان الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة من اكتوبر ، ويزعم الاسرائيليون انهم اغرقوا زورقى صواريخ مصريين ، فى حين لم تقع اية خسائر على جانبهم ، وبعد ليلتين قصفت زوارق اسرائيلية مزودة بالمدافع الساحلية غرب دمياط دون أن تلقى اية مواجهة ، ولم تسفر العملية عن اية نتيجة فيما يبدو ويبدو انهم نصبوا كمينا للمصريين ، الذين لم يلتقطوا الطعم .

وفى الوقت نفسه ، وفى وقت مبكر من يوم الثانى عشر من اكتوبر حاولت مجموعة كوماندوز اسرائيلية الهبوط فى الغردقة ، بيد ان نيران المدفعية أغرقت زورقهم بالقرب من جزيرة جيفتان ، وغرق معظم الاسرائيليين .

وفى وقت مبكر من يوم الرابع عشر من اكتوبر قامت وحدات كوماندو والبحرية المصرية فى آن واحد مع الهجوم الكبير الذى شن من رؤوس الجسور فى سيناء ، بالهبوط على ساحل سيناء الشمالى ، شرق أقصى الشمال حصن بارليف ، بودابست ، الا أن الهجوم على بودابست باء بالفشل ، وزعم الاسرائيليون أن الفدائيين كلهم قد قتلوا او اسروا ، بيد أن المصريين يزعمون ان معظم فدائييهم عادوا ومعهم خمسة أسرى .

وفى الرابع عشر من اكتوبر ايضا هبطت قوات الجمهورية العربية اليمنية (اليمن الشمالية) على عدة جزر فى البحر الأحمر بهدف السيطرة عليها ضد اى محاولة اسرائيلية تستهدف الاستيلاء عليها استعدادا للعمل على فك الحصار حول باب المندب (وفى حقيقة الأمر لم يكن الاسرائيليون يعتزمون القيام بأى من مثل تلك العمليات) .

وفى مستهل صباح يوم الخامس عشر من اكتوبر هاجمت قوات الكوماندوز سفن البحرية الاسرائيلية ميناء رأس غارب المصرى الذى يقع فى خليج السويس ، ويزعم الاسرائيليون انه تم نسف مستودعات الذخيرة

وتدمير نحـو عشرين سـفينة من سفن انـزال الكوماندو ، ويصر المصريون على ان « سفن الانزال » كانت جميعها زوارق صـيد ، ولم يكن فى راس غارب اى مستودعات ذخيرة حتى يقال انها دمرت .

وابان الليلة ذاتها اطلقت السفن الحربية المصرية الصواريخ ضد القوات الاسرائيلية واجهزة الدفاع فى شرم الشيخ ، وزعم المصريون انه وقعت خسائر جسيمة فى الارواح والمعدات غير ان الاسرائيليين قالوا : ان كافة الصواريخ اخطأت هدفها ، وفى الوقت نفسه وفى البحر المتوسط ، على المناطق الساحلية التى تقع غرب وشرق الاسكندرية قـامت زوارق الصواريخ الاسرائيلية تدعمها طائرات الهليكوبتر باطلاق نيران المدافع البحرية على محطات الرادار والمواقع العسكرية المصرية، وردت على زوارق الصواريخ المصرية فى خليج ابى قير ، وعندما حاول الاسرائيليون الاقتراب اشتبكوا ايضا مع مدفعية الدفاع عن الساحل التى ردتهم على اعقابهم .. ويزعم المصريون ان سـفينة اسرائيلية واحدة قد ارتطمت بحاجز رمال ، دمرت خلال هجوم جوى فى صباح اليوم التالى .

وانهمكت البحرية الاسرائيلية فى العمل فى كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر مساء يوم السابع عشر من اكتوبر ، وقصفت مراكز قيـادة الدفاع الساحلية فى بورسعيد وراس الزعفرانة التى تقع على خليج السويس .. وعقب الانتهاء من قصف بور سعيد ، انزل الاسرائيليون ضفادع بشرية فى الميناء حيث وضعوا شحنات متفجرة فى عدد من السفن الراسية هناك .. وكانت هذه هى الليلة الثالثة على التوالى التى تنشط فيها الضفادع البشرية، بيد ان المصريين زعموا انه لم تحدث اضرارا بالغة من جراء اى من تلك الغارات وانه قد تم قتل الضفادع البشرية الاسرائيلية باسرها .

واطلقت زوارق المدافع الاسرائيلية النيران على ساحل دلتا النيـل فى المنطقة التى تقع بين دمياط ورشيد خلال ليل يوم التاسع عشر من اكتوبر . وفى الوقت نفسه اغارت قوات الكوماندوز البحرية الاسرائيلية على ميناء الغردقة على البحر الاحمر ووقعت الغارة الاسرائيلية الثالثة التى شنتها الضفادع البشرية الاسرائيلية عقب ليلتين ، وفى تلك العملية الاخيرة التى وقعت على ساحل البحر الاحمر وذلك قبـل وقف اطلاق النـار ، زعـم الاسرائيليون انهم اغرقوا سفينة حربية مصرية وذكر المصريون انه لم يكن هناك اية سفن حربية لها فى الميناء فى ذلك الوقت .

ووقع آخر نشاط فى البحر المتوسط قبل وقف اطلاق النار خلال ليل يومى الحادى والعشرين والثانى والعشرين من اكتوبر ، اذ جابت زوارق معار وريشيف الاسرائيلية على مبعدة من خليج ابى قير وميناء الاسكندرية، واطلقت النيران على المنشآت المصرية التى تقع على الشاطىء وزعمت اسرائيل انه تم اغراق زورقى استطلاع مصريين ، وردت عليها البطاريات المصرية .

انشطة ما بعد الحرب :

عقب وقف اطلاق النار الثانى غرقت شاحنة يونانية تسمى كانديوس كانت ترفع علم قبرص على سفينة لم يتمكن التعرف على هويتها وذلك على بعد نحو ٦٠ ميلا من الاسكندرية .

واستمرت المدمرات وسفن الالغام والغواصات المصرية فى القيـام بدوريات عند مضيق باب المندب ، وذلك لبعض الوقت عقب الهدنة ، واعلن متحدث باسم جمهورية اليمن الديمقراطية فى الخامس من نوفمبر ان المضيق تحت تصرف المصريين .

ملخـــص

فى ايجاز خاض المصريون الحرب البحرية من الناحية الاسـتراتيجية وخاضها الاسرائيليون تكتيكيا،ونظرا لأن كلا منهما خاض قتالا متباينا ولم يحاول اى جانب التدخل على نحو خطير فى الأنشطة الرئيسية للطرف الآخر فانه من الأمانة القول ان كلاهما حقق نجاحـا اكبر ضد السـوريين حيث ردت البحرية السورية فى الحقيقة الى موانيها ، وهكذا فانه فى المواجهات البحرية المباشرة انتصرت البحرية الاسرائيلية فى حربها التكتيكية بفارق كبير ..

وفى الوقت نفسه بادر المصريون بفرض حصار ناجح على حـركة الملاحة البحرية الى ميناء ايلات الاسرائيلى ، وذلك باغلاق مضيق باب المندب، ويبدو ان حصارهم فى البحر المتوسط قد حال دون اقتراب معظم السـفن المحايدة والاسرائيلية من ساحلى اسرائيـل ، اضف الى ذلك ان ادعـاء الاسرائيليين بانهم حاصروا خليج السويس فى نفس الوقت لا تدعمـه دلائل مماثلة ، وفى اى حرب قصيرة فان الحصار لايمكن ان يكون له تاثير حاسم، غير ان البحرية المصرية تفخر بانها احرزت نجاحا بحريا لا ينكر وان كان محـدودا .

(٢٠)

تدخل الدول العظمى
اساطير اعادة الامداد

يثق بعض الاسرائيليين فى انه لم يكن لمصر وسوريا ان يحققا انتصاراتهما الأولى دون مساعدة مخططة ونصيحة عملية من قبل الخبراء العسكريين السوفييت المتواجدين فى تلك البلاد العربية .. ومن المرجح ان نسبة أعلى من العرب يعتقدون ان اسرائيل قد انقذت من انهيار كامل عقب الهجوم المباغت الناجح الذى شنه العرب ، وذلك من خلال جهود الامدادات الأمريكية التى عوضت الخسائر الاسرائيلية ، ولاسيما الدبابات والطائرات والصواريخ بمختلف الأنواع ، وامدتهم بالثقة للتحول من الدفاع الى الهجوم ، وكل تلك المعتقدات خاطئة على نحو متعادل(١) .

وبالرغم من انه من المرجح ان يكون المصريون والسوريون قد تعلما من الدرس واستخدما بلا ريب الخطط العربية الروسية المشتركة التى تم اعدادهـا من قبل فانه ليس ثمة شـك فى ان التخطيط الفعلى ، وتنظيم الهجوم المصرى والسورى المباغت كان مسئولية العرب بصورة كاملة وفى الوقت نفسه يبدو جليـا ان الروس قد علموا بتلك الخطط على نحو الثالث او الرابع من اكتوبر فقط .

وبالرغم من انالحكومة الاسرائيلية كانت فى حالة هلع ابان الايام الاولى من الحرب ، فانه لم يكن لدى قوة دفاع اسرائيل وقت كى تفكر فى حالة الهلع هذه ، حتى بعد ان توقف تماما كلا الهجومين المباغتين ، وفى حين بدا انه ساد القلق البالغ فى القيادة العليا الاسرائيلية بشأن استهلاك الذخيرة، فانه تم وضع بعض السيطرة على معدلات اطلاق النار ، كما تم اعداد خطط الهجوم الاسرائيلى المضاد قبل فترة طويلة من اعلان : انه ستجرى عملية اعادة امداد أمريكية هائلة .

وفى الحقيقة انه عقب الحرب اكتشفت ـــ مع احتمال استثناء صنف او صنفين من الذخيرة ـــ ان الاسرائيليين لم يستخدموا على الاطلاق مخزون الذخيرة التى كانت لديهم قبل الحرب ، وانهوا الحرب ـــ فى الواقع ـــ ولديهم من الذخيرة ما يفوق مابداوا به ويرجع الفضل فى ذلك الى الامـــدادات الامريكية ، وفيما يتعلق بامدادات الدبابات ، فانه فى حين تم ارسال العديد من الدبابات الى اسرائيل عن طريق البحر (وقد وصلت عقب الحـــرب

بفترة طويلة) ، فان طائرة واحدة محملة بالدبابات الأمريكية وصلت اسرائيل ابان الحرب وضمت اقل من خمس دبابات ، وربما لم تشترك واحدة منها فى العمليات قبل انتهاء الحـــرب(١١) .

الجسور الجوية المتقابلة :

بدات كل من جهود الامداد والأساطير التى احاطتها ابان الحرب :

اذ ان خلال يومين من بدءالحرب ، وصلت طائراتشركة العال الاسرائيلية التى تم اخلاؤها من المقاعد لتحمل شحنات ، من الولايـات المتحـدة لنقـل بعض المعدات الضرورية المطلوبة بصورة عاجلة ، وتصدرت قائمة طلبات الاسرائيليين والتى وافقت الحكومة الامريكية على ادراجها ضمن تلك الشحنات العاجلة « تشويه وتمويه » (وذلك كى تستخدمه الطـائرات الاسرائيلية للتشويش على اجهزة رادار صواريخ سام المصرية) وصواريخ موجهـة ارض جو (يطلق عليها اسم « قنابل سمارت » تستخدم فى ضرب مواقـع صواريخ سام والجسور المصرية على القناة على مدى بعيد) غير ان تلك الطائرات القليلة ، ربما بتسم به من قدرات محدودة ، لم تتمكن من حمل مواد كافية يكون لها تأثير كبير على العمليات الجوية الاسرائيلية ، وقد غادرت اولى طائرات شركة العال التى امكن التعرف عليها بالتحديد مدينة نورفلوك بولاية فرجينيا فى التاسع من اكتوبر .

والتقطت كل من اجهزة الرادار الامريكية والاسرائيلية عددا من طائرات النقل السوفيتية متجهة الى القاهرة ودمشق فى الرابع والخامس من اكتوبر ، وفىذلك الوقت وقبل اندلاع الأعمالالعسكرية كانوا يعطوا تلك الرحلات اهتماما كبيرا ، ولكن عقب الهجوم العربى ، بدا انها تقدم دليلا كبيرا ينم على ان السوفييت كانوا على علم بالتخطيط ، ومن ثم فهم يرسلون المواد الحاسمة فى اللحظة الأخيرة استعدادا للهجوم الذى وقع فى السادس من اكتوبر ، بيد انه اضحى معروفا الآن ان تلك الطائرات التى ربما وصلت فارغة الى وجهتها قد جاءت لنقل الفنيين الروس وعائلاتهم الذين عادوا الى بلادهم عندما ابلغتهم الحـكومتان المصرية والسورية فى الرابع من اكتوبر بأن الحـــرب وشيكة الوقـــوع .

واول دليل للخط الجوى السوفيتى لسوريا برز فى التاسع من اكتوبر عندما اكتشفت عدد كبير من الطائرات يطير الى الشرق الأوسط قادمة من روســيا عن طريق بودابست وبلجراد ، وكان ذلك الخط الجوى استجابة بلا ريب لمناشدة سوريا بطلب المساعدة ابتداءا من نحو السابع من اكتوبر عندما بدات الخسائر على مرتفعات الجولان تتخذ شكل الكارثة .

وفى تل ابيب والقدس فان الانباء التى ترددت بشان الخسائر الفادحة وغير المتوقعة وحجم استهلاك الذخيرة على كلا الجانبين ابان الايام الاولى لعمليات قد تلقتها حكومة اسرائيل وكانت لم تفق بعد من صدمة المفاجاة العربية ونجاح العرب غير المتوقع ومع حلول يوم الحادى عشر من اكتوبر توصلت حكومة اسرائيل الى نتيجة انه اذا مر اسبوع آخر بمثل تلك الخسائر واستهلاك الذخيرة فان المخزون الاسرائيلى سوف ينفذ وسوف تكتسح اسرائيل ، وفى ساعة مبكرة من اليوم التالى ، قام السفير الاسرائيلى لدى الولايات المتحدة ، سيمحاد دينتز ، بتقديم تقرير للحكومة الامريكية يحمل ذلك المعنى ، وذلك فى خطاب اكد فيه أن مستقبل دولة اسرائيل فى خطر .

وجاء الدور الآن على حكومة الولايات المتحدة كى ينتابها شعور بالهلع، وبناء على توجيهات الرئيس ريتشارد نيكسون ، عقد هنرى كيسنجر وزير الخارجية ما سمى بجماعة العمل فى واشنطن ، وتضم اعضاء منتقين كمجلس الامن القومى الذى تتمثل مهمتهم فى تناول ازمات الامن القومى العاجلة ، ولم يتمكن البنتاجون ، الذى يضم رؤساء الأركان المشتركة ومكتب مساعد الوزير لشئون الامن الدولية .. من تأكيد او تفنيد التكهن الاسرائيلى بالهلاك ، وبالتالى وفى الثالث عشر من اكتوبر اتخذ الرئيس نيكسون قرارا بامداد الاسرائيليين بكل ما طلبوه حتى اذا كان ذلك يعنى استنفاد احتياطى الحرب فى الولايات المتحدة .

وعقب الطلبات التى تقدم بها السفير دينتز فى الثامن من اكتوبر والتى تم الاتفاق عليها على نحو غير رسمى ، بدأ بالفعل خط امداد جوى امريكى صغير فى نحو التاسع او العاشر من اكتوبر ، وتم ارسال كميات محدودة من الذخيرة المضادة للدبابات ، وقذائف مدفعية وصواريخ سايد ويندر التى تسعى وراء الحرارة وصواريخ سباروجو — وكذلك مواد قش للتمويه .. وكان يتعين ان يصبح ذلك الخط الجوى رسميا ويتسع على نطاق اكبر .

وفى الثالث عشر من اكتوبر بدأ خط الامداد الجوى الامريكى الرسمى ، وفى الرابع عشر من اكتوبر وصلت اولى طائرات ذلك الخط الى اسرائيل ..

وتمت تلك العملية وفقا لقواعد محددة بوضوح وضعها مجلس الامن القومى ، اذ انه لم يتم ارسال افراد عسكريين امريكيين الى اسرائيل باستثناء الافراد الضروريين لاتخاذ الترتيبات البرية التكتيكية للخط الجوى ذاته .. كما ان الطائرات لن تهبط تحت اية ظروف فى مطارات خارج الحدود التى كانت عليها اسرائيل قبل عام ١٩٦٧ وبعبارة اخرى ، لن تكون هناك رحلات مباشرة الى القواعد الجوية فى سيناء .

ان رد الفعل الامريكى ازاء المطالب الاسرائيلية ، والظروف التى اعد فيها لم يعر اهتماما بلا ريب لحظر البترول العربى ، بيد أن القرار المباغت الذى اتخذته الدول العربية المنتجة للبترول ، بما فيها السعودية صديقة

امريكا ، قد اثار بالفعل غضبا سياسيا واقتصاديا فى الولايات المتحدة ، اذ ان اعتماد امريكا متزايد على واردات البترول جعلها تبدو انها معرضة للخطر من الناحية الاقتصادية من جراء الحظر على نحو اكثر مما كان عليه الوضع فى الحقيقة ، الأمر الذى اثار قلقا اقتصاديا ومشاعر استياء معظمها ضد العرب ، وليس ضد الاسرائيليين ، وفى الوقت نفسه ، فان التحدى السياسى تطلب ردا يماثل الخط الجوى لنقل الأسلحة لاسرائيل .

ولكن برزت تعقيدات غير متوقعة فى الخط الجوى تمثل فى الاستسلام البغيض لحلفاء امريكا فى حلف شمال الاطلنطى لحظر البترول العربى ، الأمر الذى نجم عنه اغلاق كافة القواعد الجوية فى اوروبا الغربية (باستثناء البرتغال) امام طائرات الامدادات الامريكية ، بيد انه تم فى الحال تشغيل خط جوى ضخم ذى فاعلية هائلة ، وذلك باستخدام قاعدة متوسطة فى جزر الأزور ، ونقل بعض الاطائرات المقاتلة عن طريق حاملات الطائرات فى البحر المتوسط .

وفى الوقت نفسه فان خط النقل الجوى السوفيتى الذى لوحظ لأول مرة فى التاسع من اكتوبر اضحى ضخما ايضا .

يوضح الجدول التالى الحجم التقريبى لجهود خطى الجسر الجوى العاجلة .

مقارنة لخطوط الامدادات الامريكية والسوفيتية المقدرة
من ٩ الى ٢٤ اكتوبر ١٩٧٣

	من ٩–١٥ أكتوبر عدد رحلات	طن	من ١٦–٢٢ أكتوبر رحلات	طن	من ٢٣–٢٤ أكتوبر رحلات	طن	الإجمال رحلات	طن	الطائرات المقاتلة
القوات الجوية الأمريكية	٣٠	٥٠٠	٤١٥	١٧,٠٠٠	١٢٠	٤,٩٠٠	٥٦٥	٢٢,٤٠٠	٥٦
طائرات العال الإسرائيلية	٩٠	١,٦٠٠	١٢٥	٣,٠٠٠	٣٥	٩٠٠	٢٥٠	٥,٥٠٠	—
العدد الكلي لإسرائيل	١٢٠	٢,١٠٠	٥٤٠	٢٠,٠٠٠	١٥٥	٥,٨٠٠	٨١٥	٢٧,٩٠٠	٥٦
الاتحاد السوفيتي	٢٩٠	٤٥٠٠	٥٧٥	١٠,٤٠٠	٦٠	١,١٠٠	٩٣٥	١٦,٠٠٠	٢٠٦

في السادس عشر من اكتوبر عززت الولايات المتحدة اسطولها السادس في البحر المتوسط بقوة بحرية قيامها ٠٠٠ر٢ فرد ، بعد ثلاثة ايام طلب الرئيس نيكسون من الكونجرس الموافقة على تقديم مساعدات عسكرية لاسرائيل تبلغ قيمتها ٢ر٢ بليون دولار وتتضمن معونات عسكرية مباشرة .

وتم امداد المعدات من القوات الامريكية ومخزون الاحتياطي في المانيا وكان قد تم نقل تلك الأسلحة والمعدات التي تضمنت طائرات ايه — ٤ واف ٤ الى اسرائيل في معظم الأحيان من حاملات الطائرات في الأسطول السادس وبالرغم من امتناع الولايات المتحدة عن هبوط طائرات الجسر الجوي في الأراضي التي تحتلها اسرائيل فان ثمة دليل ينم على ان بعض الامدادات التي وصلت عن طريق الأسطول السادس — قد هبطت بطائرة هليكوبتر ومن المحتمل ان تكون طائرة عادية في القاعدة الجوية في العريش التي تقع شمال شرقي سيناء .

وفي التاسع عشر او العشرين من اكتوبر التقط الرادار المصري فيما يبدو حركة نقل كبيرة بطائرات الهليكوبتر الى العريش ، وتم ارسال طائرتين ميراج للتحقق من ذلك ، وعادت الطائرتان بتقرير يفيد بأنهما لم يتمكنا من الاقتراب من العريش نظرا لكثافة طائرات الحاملات الامريكية التي تمد طائرات الهليكوبتر المتنقلة بغطاء جوي .

فكرة العرب الخاطئة بشأن مساعدات الدول العظمى :

يسود بين العرب اعتقاد مثير متضارب بشأن انشطة الدول العظمى ابان الحرب اذ انهم يقبلون الحقيقة الصادقة والطبيعية الوحدة التي تتمثل في انهم تلقوا مساعدات من روسيا ، وتقدمت رغم كل شيء التزاما معنويا بامداد العرب بمعظم عتادهم وبالنصيحة حول كيفية استخدامه ، غير انهم سارعوا في تأكيد انه فيما يتعلق بالحرب فان روسيا لن تشترك في القتال — اضف الى ذلك ان العرب هم الذين خططوا وخاضوا حربهم دون اية مساعدات خارجية .

ومن جانب اخر ، وجه العرب نقدا عنيفا لتأييد امريكا لاسرائيل بوصفها تقدم مساعدات للمعتدي ، ونمطا من الاستعمار الجديد ، وبأنها تستخدم الاسرائيليين كأداة للسياسات التوسعية الأمريكية ، وفي حقيقة الأمر ، فان العرب يدفعون بأن الأمريكيين بامدادهم اسرائيل بالأسلحة والمعدات يكونون بذلك قد اقحموا انفسهم في الحرب ضد العرب .

وذلك الخط من التفكير لا يعد غير ملائم وغير منطقي فحسب ، بل انه يرتكز على فكرة خاطئة كلية بشأن كل ما يتعلق بتدخل الدولة العظمى.

ومن الجلى انه من مصلحة الاتحاد السوفيتى اكتشاف موقف مهيمن فى الشرق الأوسط ، ومن الجلى ايضا ان مثل تلك الهيمنة يمكن ان تزداد من خلال تفوق الدول العربية عسكريا وهى التى تدين بقدراتها العسكرية ومنجزاتها لروسيا ، ومن جانب آخر فان الأمر سيكون بمثابة كارثة بالنسبة لمصلحة السوفييت اذا واجه عملاؤها فى الشرق الأوسط هزيمة مخزية مرة اخرى ، وكان ذلك هو الدافع وراء مساعدتهم التى قدموها قبل الحرب لمصر وسوريا ، وامداداتهم العاجلة لهاتين الدولتين ابان الحرب ، وتهديداتهم كذلك فيما بعد بالتدخل فى الحرب .

وليس ثمة سبب يدعو الى الاعتقاد بأن دافع السوفييت كان التزاما معنويا لمساعدة العرب على وقف العدوان الاسرائيلى ، أو طرد اليهود من فلسطين .

ويرتكز تأييد الولايات المتحدة لاسرائيل ، من جانب آخر ، والذى يرجع الى حد كبير الى التعاطف مع الشعب اليهودى ، على اعتقاد ان اسرائيل تستحق ان تعيش كدولة ، وترى سياسة الولايات المتحدة ايضا ان وجود منطقة نفوذ سوفيتى فى الشرق الأوسط تعد بمثابة خطر كامن يهدد مصالحها الاستراتيجية القومية ، ومن ثم فان شرط المساعدات العاجلة التى قدمت للاسرائيليين فى تلك الحرب لم يكن محاولة لبسط قوى الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ومحاولة لمساعدة الاسرائيليين على توسيع قواهم ، بل انه استهدفت تدعيم مساعدة لدولة مسئولة وشرعية مهددة من قبل عملية غزو ضخمة ، وفى الوقت نفسه فانها تسعى لابعاد اى اضطراب فى التوازن الاستراتيجى المحفوف بالمخاطر فى الشرق الأوسط ، اذ ان ذلك يمكن ان يعرض السلام العالمى للخطر .

وهكذا فان المساعدات الأمريكية لاسرائيل اشركت الولايات المتحدة فى الحرب الى حد ما ، وبالمثل فان المساعدات السوفيتية للعرب قد اشركت الاتحاد السوفيتى فى الحرب ، والى حد مماثل على الأقل ، ولم يشترك اى من الجانبين بصورة مباشرة او غير مباشرة فى القتال واراد كلاهما تفادى مثل هذا الاشتراك .

وفى ضوء الأهمية التى اعطيت لذلك الموضوع ، ولاسيما من جانب الرئيس السادات ، فانه من المجدى دراسة تفاصيل بعض الاتجاهات العربية الخاصة بالمساعدات الأمريكية لاسرائيل .

لقد تأكد انه بدون جهود الامدادات الأمريكية ، لم يكن فى مقدور الاسرائيليين ان يصدوا الهجوم المصرى فى الرابع عشر من اكتوبر .. ويزعم ان ثمة عاملا مساهما فى تحقيق ذلك النجاح الاسرائيلى الا وهو وجود اسلحة امريكية جديدة مضادة للدبابات ، ولاسيما من طراز تى.او..دبليو ، وفى حين ان ذلك التأكيد ينطوى على بعض عناصر الحقيقة فانه لا يمكن اثباته ، اذ ان جهود الامدادات الأمريكية لاسرائيل لم تبدأ فى الواقع حتى

الرابع عشر من اكتوبر ، وكما اشير من قبل ، فانه من المشكوك فيه ان المساعدات الأمريكية بأسرها حتى ٢٥ اكتوبر ، كان لها اى تأثير على اشتباك واحد ، اذ ان من الواضح ان الاسرائيليين لم يستخدموا فيما يبدو قط ما كان لديهم قبل الحرب من مخزون اسلحة او ذخيرة .. بيد انه ربما يكون جهود الامدادات الأمريكية قد أثرت فى الطريقة التى قاتل بها الاسرائيليون فى الحرب ، نظرا لأنه لم يعد هناك ما يدعو للقلق ازاء اجهاد احتياطهم .

ومما لا ريب فيه ان المواد الأخرى من المعدات ــ قطع الغيار والصواريخ كانت ذات قيمة للاسرائيليين ، غير انها لم تكن حاسمة بالنسبة للنتيجة ، وهكذا فان تأثير الجهود الأمريكية كان معنويا اساسا ، وماديا على نحو هامشى فحسب(٢) .

وهناك تأكيدات ايضا بأن امدادات الدبابات الأمريكية التى وصلت عن طريق الجو الى العريش قد مكنت اسرائيل من مواصلة الحرب ، وهناك صحفى امريكى جدير بالاحترام من بين اولئك الذين يؤكدون ذلك ، ولأغراض دعائية ، فى الداخل والخارج ، هلل الاسرائيليون كثيرا لواحدة من الطائرات الأمريكية المحملة بالدبابات التى وصلت الى مطار اللد ، وليس العريش ، ونشرت العديد من الصور الفوتوغرافية لعملية تفريغ الدبابات من الطائرة غير انه لا يهم كم عدد تلك الصور ، اذ كان هناك قيمة معنوية لتلك الشحنة ولكن اهميتها المادية كانت ضئيلة .

وقد كتبت الصحف العربية كثيرا بشأن مرور طائرتى تجسس امريكيتين فوق جبهة القتال : السويس ــ سيناء فى الثالث عشر من اكتوبر ، واتهمت الأمريكيين بتقديم الصور الفوتوغرافية التى التقطتها الطائرتان للاسرائيليين ، والأمر الذى كشف عن عدم وجود قوات مصرية غرب الدفرسوار وتردد ان ذلك كان اساس القرار الاسرائيلى الخاص بتوقيت وموقع العبور ، وبدون الوصول الى مصادر موثوق بها للغاية ، فانه لا يمكن اثبات ان مثل تلك الصور لم تقدم للاسرائيليين ، ولكن لم يثبت بالدليل احتمال ان يكون لتعاون المخابرات الأمريكية والاسرائيلية قد تضمن نقل مثل تلك الصور لاسرائيل ، بيد انه حتى اذا كانت قد نقلت فانه لم يكن هناك وقت كاف كى تؤثر على اسرائيل لاتخاذ قرار العبور فى الثانى عشر من اكتوبر ، اذ ان ذلك القرار قد ارتكز على اعتبارات المخابرات بالنسبة للعمليات القتالية ، الأمر الذى كان ملزما دون اى من مثل تلك الصور .

وفضلا عن ذلك فان ثمة حقيقة حاسمة تتمثل فى ان شكوى العرب من الجسر الجوى الأمريكى تتجاهل أمرا واحدا ، الا وهو ان الجسر الجوى السوفيتى كان يمد اعداء اسرائيل بالأسلحة والعتاد والذخيرة على نحو يماثل ما كانت تقدمه الولايات المتحدة لاسرائيل اضف الى ذلك ان الامدادات البحرية السوفيتية الأكبر بدات تصل الى الموانى العربية قبل نهاية الحرب،

فى حين أن الولايات المتحدة كانت قد بدات متأخرة فى امداد جسر بحرى ، ربما لا يقل عن الامدادات السوفيتية ، ولم يبدا فى الوصول الى الموانى الاسرائيلية حتى عقب انتهاء الحرب بعدة اسابيع وبعبارة اخرى ، فان الجسر الجوى للامدادات الامريكية كانت تعادله على الأقل الامدادات السوفيتية للعرب .

المواجهة السوفيتية الأمريكية :

تمثل اكبر جانب مثير لتدخل الدول العظمى فى المواجهة العسكرية والدبلوماسية التى نشبت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والحرب على وشك الانتهاء ، ونبع ذلك اساسا من المخاوف من ان انتهاك الاسرائيليين لوقف اطلاق النار الذى أيدته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى معا سوف يدمر الجيش الثالث المصرى المعزول وفى سبيل الحيلولة دون وقوع ذلك فان الروس كانوا على استعداد فيما يبدو لارسال قوات لمصر ، وقد انتابهم شعور بالانزعاج من جراء عدم مبالاة أمريكا الواضحة بشأن الهجوم الاسرائيلى المستمر ضد السويس عقب وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر ، واستمرار العمليات فى السويس خلال يومى الرابع والعشرين والخامس والعشرين عقب وقف اطلاق النار الثانى .

وكما اشير من قبل فاذا كان انهيار الجيش الثالث امرا وشيكا او محتملا تعتبر مسألة تثير الجدل ، غير أن الدافع السوفيتى تمثل بالطبع فى تفادى تعرض مصر لهزيمة سياسية وعسكرية ، اذ ارتبطت مصائرها بوضوح بالمعدات والمساعدات العسكرية السابقة ، وكان الكريملين يواجه ضغطا هائلا ايضا من جانب الحكومة المصرية ، اضف الى ذلك أن عدم مساندة مصر كان من شأنه ايضا تقويض مكانة السوفييت على نحو خطير فى الشرق الاوسط واماكن اخرى .

ولم تكن كلتا الدولتين العظميين تتوقع فى الحقيقة تلك المواجهة ، وفى التاسع عشر من اكتوبر ، واستجابة لنداء قوى وجهته مصر طلبا للمساعدة فى اعداد وقف اطلاق النار ، طلبت الحكومة السوفيتية من هنرى كيسنجر وزير الخارجية الامريكية القيام بزيارة عاجلة لموسكو ، ووصل كيسنجر فى اليوم التالى ، وفى المناقشات التى جرت فى موسكو خلال يومى ٢٠ و ٢١ اكتوبر وافقت الحكومتان على نص اتفاق وقف اطلاق النار الذى أصبح قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٨ ، ووافق عليه مجلس الأمن فى وقت مبكر من صباح يوم الثانى والعشرين من اكتوبر .

واول تعقيد كبير برز انتهاك وقف اطلاق النار من جراء استمرار الهجوم الاسرائيلى حول منطقة السويس ، تمثل فى عدم رغبة السوريين

البادية فى الموافقة على وقف اطلاق النار .. وذلك الاعتراض ، الذى اعرب عنه الأسد فى البرقيات المتبادلة بينه وبين السادات ، كان يستهدف جزئيا على الأقل ان يسجل الرئيس الأسد ، اذ انه اراد تفادى مواجهة نقد الراديكاليين العرب ، مثل العراقيين والقذافى ، الذين كانوا يصرون على ضرورة استمرار الحرب ، ومن جانب آخر اظهر الأسد طوال الحرب تشددا هائلا وقوة شخصية ، بيد ان سوريا اذعنت بالفعل لوقف اطلاق النار ووافقت عليه رسميا فى وقت متأخر من يوم الثانى والعشرين او فى وقت مبكر من الثالث والعشرين من اكتوبر .

وحاول الرئيس السادات خلال يومى ٢٣ ، ٢٤ من اكتوبر دفع الدولتين العظميين الى الموافقة على تشكيل قوة رسمية امريكية مشتركة لفرض وقف اطلاق النار والمحافظة عليه ، وحاول ايضا اجراء مناقشة حول المسألة فى مجلس الأمن ، ومن الجلى أن الروس حبذوا الفكرة ، غير ان الولايات المتحدة عارضت بقوة نشر اية قوات سوفيتية فى الشرق الأوسط ، ومن ثم فان الأمريكيين لن يحبذوا فكرة اشتراك القوات الأمريكية فى قوة الأمم المتحدة لمراقبة وقف اطلاق النار ، اذ ان ذلك سوف يعنى عدم امكانية استبعاد الروس ، ورفضت الولايات المتحدة اقتراح السادات ، بل انها اقترحت انشاء قوة طوارىء جديدة تابعة للأمم المتحدة .

ولاحظ المراقبون الأمريكيون خفضا لا تفسير له للجسر الجوى السوفيتى خلال يومى الثالث والعشرين والرابع والعشرين من اكتوبر ، وسرعان ما التقطت المخابرات الأمريكية تلك الطائرات تقف فى قواعد المظليين السوفيتية فى روسيا ، حيث بدا انه تم وضع نحو سبع فرق مظلات سوفيتية على أهبة الاستعداد ، وفى الوقت نفسه برزت نبرة تشدد تنذر بالسوء فى البرقيات المتبادلة بين الرئيس نيكسون وليونيد بريجنيف سكرتير الحزب الشيوعى السوفيتى ، وفى نهاية الأمر اختتم بريجنيف كلمات احدى البرقيات ، كما نقلها احد المصادر كما يلى :

« اذا لم يلتزم الاسرائيليون بوقف اطلاق النار فانه يتعين ان نعمل معا لفرض وقف اطلاق النار ، بالقوة اذا تطلب الأمر(٤) » .

واشار بعض المراقبين الأمريكيين الى أن عبارات بريجنيف كانت اكثر تشددا واكثر تلميحا بأن الاتحاد السوفيتى على استعداد لفرض وقف اطلاق النار من جانب واحد ، اذا لم تكن الولايات المتحدة على استعداد للتعاون .

وعلى اية حال ، كان يتعين على بريجنيف أن يدرك انه بالاضافة الى عبارته المتشددة التى وردت فى برقياته ، فان الولايات المتحدة قد تلقت تقارير من المخابرات تفيد بأن القوات السوفيتية المحمولة جوا تقف على أهبة الاستعداد .

واجتمعت مرة اخـرى فى واشنطن لجنة العمل لمجلس الامن القومى وعقب منتصف ليل الخامس والعشرين من اكتـوبر ، ابلغ هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الرئيس نيكسون ان مجلس الأمن القومى اوصى بضرورة وضع قوة عسكرية امريكية على اهبة الاستعداد على نطاق العالم وان يعلن عن ذلك ، ووافق الرئيس .

وفى وقت مبكر من الخامس والعشرين من اكتوبر ، قام كيسنجر بابلاغ العالم الذى انتابه الدهشة ، والذى كان قد افترض ان ازمة الشرق الأوسط قد انتهت بوقف اطلاق النار ، « باتخاذ اجراء وقائى » ردا على عـلامات « مبهمة » تشير الى احتمال حدوث تدخل سوفيتى مسلح من جانب واحد فى الشرق الأوسط .

واقر السوفييت انهم قد بوغتوا برد الفعل الامريكى هذا على برقياتهم وتصرفاتهم ومن المحتمل ان يكون رد الفعل الأمريكى اقوى مما كان مطلوبا ، ومن جانب آخر فانه من الجلى انه حقق هدفه ، وفى السابع والعشرين من اكتوبر تعاون مندوبا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى الامم المتحدة على تشكيل قوة طوارىء تابعة للأمم المتحدة قوامها ٧٠٠٠ فرد وتعمل لمدة ستة اشهر ، كى ترابط بين الجيوش المصرية والاسرائيلية على اسـاس انها سوف تضم قوات من دول اخرى غير الأعضاء الدائمين فى مجلس الامن، ونظرا لأن بريطانيا ، وفرنسا والصين لم تشترك فى تلك القوة فان ذلك كان يعنى ان توافق روسيا مع الولايات المتحدة على عدم استخدام قواتها فى الشرق الأوسط .

وقد حقق التشدد السوفيتى هدفه ايضا : اذ انه يكون بوسع الولايات المتحدة الآن ، نظرا لاعلانها حالة التاهب ممارســة اكبر قدر ضرورى من الضغط على اسرائيل لوقف الأعمال العدوانية ، وتاكيد ارسال الامدادات العاجلة من الغذاء والمياه والمواد الطبية تحت اشراف وسيطرة قوات الامم المتحدة الى مدينة السويس والجيش الثالث من خلال الخطوط الاسرائيلية، وفى غضون الأيام القليلة التالية توصل ممثلا مصر واسرائيل فى المفاوضات التى جرت فى خيمة عند الكيلو ١٠١ على طريق ساراج ، تحت اشراف قائد قوة الطوارىء ، الجنرال الفنلندى انسيوسيلاسفيو الى الاتفاقيات الضرورية لتأكيد وقف اطلاق النار وضمان وصول الامدادات العاجلة للجيش الثالث .

وقد استمرت فى الحقيقة حرب استنزاف على نطاق صغير على طول خطوط الجبهة المصرية والاسرائيلية غرب قناة الســويس طوال الشهرين التاليين ، ولم تتوقف حتى توصل الجانبان نتيجة لمهمة « المكوك » التى قام بها هنرى كيسنجر ، الى اتفاق آخر لفك الاشتباك فى السابع عشر من يناير عام ١٩٧٤ ، وبالرغم من ذلك فقد استمرت امدادات حيوية ضئيلة تصل الى الجيش الثالث ، فى ظل حذر دائم وتجنب كلا الجانبان الانتهاك الصريح لوقف اطلاق النـــار .

الملاحظـــات

(١) ترددت انباء خلال الحرب تفيد بأن طيارين من كوريا الشمالية ، الذين وصلوا الى سوريا عن طريق الاتحاد السوفيتى ، يقومون بمهام الدفاع الجوى فى طائرات السلاح الجوى السورى ، وانه ربمـا يكون الخبراء السوفييت يشتركون بصورة مباشرة فى انشطة الدفاع الجوى السورى ، وهنا يبدو انه لا اساس من الصحة لتلك الانباء .

(٢) يرفض العرب الايمان بتلك الحقيقة لما قرانه من انبـــاء مضللة وخاطئة بشأن امدادات الدبابات فى الصحف والمجلات الاوروبية والامريكية ، وعلق احد العسكريين العرب قائلا : ان مسألة ارسال خمس دبابات فحسب يعد بمثابة نكتة فاما يكون اكثر او لا شىء ، ولم يقتنع ان تلك الانباء كان مجرد حرب نفسية اساسا ، واستهدفت بث الطمأنينة فى الاسرائيليين اكثر من اشاعة الذعر بين العرب .

(٣) فيما يتعلق باسلحة تى.او.دبليو هناك بعض الاسباب للاعتقاد بأن عددا ضئيلا من تلك قد وصل الى بضع وحدات اسرائيلية مبكرا فى ١٤ اكتوبر ، بيد ان معظم السلاح هنا يبدو انه وصل فى الرابع والعشرين او الخامس والعشرين تقريبا .

(٤) مرجع هيكل ص ٢٥٤٠.

(٢١)

حرب الاستنزاف وفك الاشتباك

من اكتوبر الى مايو ١٩٧٣ — ١٩٧٤

الأمم المتحدة واتفاقيات وقف اطلاق النار

كما اشير من قبل ، اسفرت زيارة كيسنجر وزير الخارجية الامريكية العاجلة بموسكو فى العشرين من اكتوبر عن التوصل الى اتفاق عاجل بين الحكومتين الامريكية والسوفيتية حول نص قرار وقف اطلاق النار ، ويوم الاحد الحادى والعشرين من اكتوبر عاد كيسنجر الى الولايات المتحدة عن طريق اسرائيل حيث فسر مسودة القرار لجولدا مائير رئيسة الوزراء ومجلس الوزراء الاسرائيلى ، وعقب عودته الى الولايات المتحدة بفترة وجيزة عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن فى الساعة العاشرة مساء يوم الأحد، وفى الساعة ١٢ر٥٢ صباح يوم الاثنين تم الموافقة بالاجماع على قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٨ مع امتناع الصين عن التصويت ، واوصى القرار بسريان وقف اطلاق النار فى غضون اثنتى عشرة ساعة (اى فى نحو الساعة ٦ر٥٢ مساء بتوقيت قناة السويس) وتم توجيه الأطراف المتضادة بالمرابطة فى مواقعها ، وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر فى عام ١٩٦٧ بكل نقاطه (عقب وقف اطلاق النار مباشرة) وفى الوقت نفسه يتعين بدء اجراء مفاوضات بين الأطراف المعنية تحت اشراف ملائم فى سبيل اقرار سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط .

ووافقت كل من مصر واسرائيل على القرار ، ولم توافق عليه سوريا حتى يوم الثالث والعشرين من اكتوبر ؛ غير ان وقف اطلاق النار انهار بالطبع ، عندما استمر القتال داخل وحول مدينة السويس .

ومن ثم قدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، فى الثالث والعشرين من اكتوبر ، لمجلس الأمن قرارا مشتركا بوقف اطلاق نار آخر ، الأمر الذى اعاد تأكيد القرار ٣٣٨ باضافة هامة تفيد بأن الجمعية العامة سوف تتخذ اجراءات لارسال مراقبين للأمم المتحدة فورا للاشراف على مراعاة وقف اطلاق النار ، واولئك هم : اعضاء منظمة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة التى ظهرت الى الوجود فى عام ١٩٤٨ ، وتم اصدار القرار ٣٣٩ بالاجماع ، مع امتناع الصين عن التصويت ايضا ، وكان يتعين تنفيذ وقف اطلاق النار الجديد فى الساعة السابعة من صباح الاربعاء الرابع والعشرين من اكتوبر بتوقيت السويس ، ومرة اخرى وافقت مصر واسرائيل

على وقف اطلاق النار ، الا ان مصر وافقت على « مضض » نظرا لان القرار لم يحدد — كما طالبت مصر — العودة الى الخطوط التى كانت قائمة فى الساعة ٦ر٥٢ مساء يوم الثانى والعشرين من اكتوبر ، ووافقت سوريا ايضا هذه المرة ، وتم تنفيذ وقف اطلاق النار « فى الواقع » على الجبهة السورية فى نحو منتصف يوم الثالث والعشرين .

ولكن طوال يوم الرابع والعشرين استمر قتال عنيف فى مدينة السويس حيث حاول الاسرائيليون اولا الاستيلاء على السويس ، ثم بذلوا قصارى جهودهم لاخراج وحداتهم المقاتلة منها وكان ذلك الصراع الذى دار فى السويس هو الذى ادى مباشرة الى مواجهة الدول العظمى .. والذى افضى بالتالى الى قيام الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بحل خلافاتهما على وجه السرعة ، وعلى نحو ودى من خلال قرار آخر أصدره مجلس الأمن ، وكان هناك شرطا كبيرا من ذلك القرار رقم ٣٤٠ الذى صدر فى الخامس والعشرين من اكتوبر : اولا ضرورة زيادة اعضاء مراقبى الهدنة حتى يتسنى تحديد خطوط وقف اطلاق النار .. ثانيا : ضرورة تشكيل قوة طوارىء جديدة ووضعها بين القوات المصرية والاسرائيلية والاشراف على خط وقف اطلاق النار الذى حدده مراقبو الهدنة .

وتخلى الجنرال سيلاسفيو عن منصبه كرئيس اركان هيئة الهدنة كى يتولى قيادة قوة الطوارىء الدولية ، ومع حلول يوم الثامن والعشرين من اكتوبر قام ممثلو القوات المسلحة المصرية والاسرائيلية بتنفيذ بنود قرارى ٣٣٨ ، ٣٣٩ وذلك بالاجتماع فى الساعة ١ر٤٥ صباحا فى خيمة اقيمت بالقرب من احدى نقط التفتيش الاسرائيلية عند الكيلو ١٠١ على طريق السويس — القاهرة (طريق ساراج) .

وفى نفس اليوم ، كما ذكر من قبل ، وافق الاسرائيليون ، تحت ضغط هائل من جانب الولايات المتحدة ، على مرور كمية محدودة من الامدادات غير العسكرية الى الجيش الثالث المصرى خلال الخطوط الاسرائيلية .

وفى الوقت نفسه استمر القتال بين الوحدات الاسرائيلية والمصرية المعزولة داخل نطاق حدودها ، وحدث أيضا عدد من المناوشات على طوال خطوط وقف اطلاق النار حول مدينة السويس ، وهاجمت الطائرات الاسرائيلية السويس ، ورأس جسر الجيش الثالث ، والمواقع المصرية التى تقع غرب الكيلو ١٠١ وبالقرب من السويس .

ووقعت آخر تلك المناوشات فى السابع والعشرين من اكتوبر وفى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، بدأت قوات الأمم المتحدة فى الوصول ، ومع حلول الساعة ١٢ر٣٠ تمكنت فى النهاية من المرابطة بين الخصمين ، ورغم ذلك انفجرت بعض الأعمال العسكرية الطفيفة مرة اخرى مساء الحادى والثلاثين من اكتوبر واول نوفمبر واستمرت على نحو متقطع لعدة اسابيع.

ومع ذلك استمرت المفاوضات العسكرية المصرية الاسرائيلية عند الكيلو ١٠١ ، وفى الحادى عشر من نوفمبر تم ابرام اتفاق مكون من ست نقاط :

١ — يراعى كلا الجانبان بدقة وقف اطلاق النار .

٢ — يوافق الجانبان على مناقشة فورية لمسالة العودة الى خطوط ٢٢ اكتوبر .

٣ — تتلقى مدينة السويس يوميا امدادات الغذاء والمياه والمواد الطبية وان يتم اجلاء الجرحى المدنيين .

٤ — الا تضع اسرائيل عراقيل حول استمرار نقل الامدادات غير العسكرية للجيش الثالث المصرى على الضفة الغربية للقناة .

٥ — يتم احلال نقط تفتيش تابعة للامم المتحدة محل نقط التفتيش الاسرائيلية على طريق السويس — القاهرة الرئيسى .

٦ — يتم تبادل كافة اسرى الحرب بما فيهم الجرحى ، حالما تقام نقط تفتيش الامم المتحدة .

ورغم انه فور تنفيذ بعض اجزاء ذلك الاتفاق ، واجهت الاجزاء الاخرى بعض العراقيل ، وتمثلت المشكلة الاولى فى انسحاب الاسرائيليين من نقط التفتيش ، وكانوا على استعداد للانسحاب ، غير انهم رفضوا فتح الطريق كلية ، كما اصر المصريون على ان الاتفاق يستهدف ذلك ، وتم تبادل الاسرى فيما بين الخامس عشر والثانى والعشرين من نوفمبر وعاد ٢٤١ اسرائيليا و ٨ر٠٢١ مصريا .

ولكن تجمد الموقف فى الحال حول مسالة عودة خطوط الثانى والعشرين من اكتوبر ، اذ اصر الاسرائيليون على انه عندما فرض وقف اطلاق النار الاول فى الثانى والعشرين من اكتوبر ؛ فانهم كانوا يسيطرون على تلال جنيفة كلها ويحتلون جزءا كبيرا من شمالى طريق السويس — القاهرة (عسور) وقطعوا طريق السويس القاهرة الرئيسى (ساراج) فى عدة مناطق ، ومن ثم عولوا بالتالى مدينة السويس وعناصر الجيش الثالث المصرى على الضفة الشرقية للقناة ، بيد ان المصريين زعموا بأنهم يسيطرون على معظم تلال جنيفة ، وانهم قهقروا راس الجسور الاسرائيلية من شمالى الطريق ، وحتى وقف اطلاق النار كان الاسرائيليون يتعرضون لحركة المرور على الطريق الرئيسى ، وذلك باستخدام نيران الدبابات والمدفعية بعيدة المدى فقط كما اصر المصريون على ان الاسرائيليين وصلوا الى المواقع التى يزعمونها بعد مرور اكثر من ٢٤ ساعة ، وعقب هجوم استمر يوما كاملا تحديا لوقف اطلاق النار .

ولايزال الجانبان يؤكدان بقوة مماثلة تلك المزاعم المتناقضة على نحو مباشر ، وليس ثمة سبيل موضوعى لتاكيد صحة تلك المزاعم المتعارضة ويزعم ضباط الأركان المصريون بأنهم شاهدوا نسخا من الصور التى التقطها القمر الصناعى الامريكى مما يؤكد مزاعمهم ، غير انهم لم يقدموا تلك الصور قط ، ويواجه الاسرائيليون تلك الحجة بقولهم : بأنهم استولوا على سجل(*) الجيش الثالث الذى يسجل وصول الدبابات الاسرائيلية عند ملتقى الطريق فى الكيلو ١٠٩ على طريق السويس — القاهرة الرئيسى فى الثانى والعشرين من اكتوبر .

ومن الناحية الأخلاقية فان موقف المصريين الشامل فى تلك المناقشة يعد افضل قليلا من موقف الاسرائيليين ، نظرا لأنه ليس ثمة شك فى ان الاسرائيليين انتكهوا عن عمد وقف اطلاق النار لتحسين مواقعهم العسكرية، ومن جانب آخر وفيما يتعلق بالمسالة الخاصة بوضع خطوط الجبهة فى الساعة ٦ر٥٢ من مساء الثانى والعشرين من اكتوبر ، فان خرائط عمليات الجنرال آدان مفهومة عسكريا ولم يكن هناك سلطة مصرية مماثلة تدرك الموقف بالتحديد مثلما كان يدركه آدان .

وفى الثانى عشر من نوفمبر ، ذكر الاسرائيليون أن استمرار مناقشة تلك المسالة كان عقيما ، ورفضوا بحثها مرة أخرى ، بل انهم اشاروا الى انهم سوف ينسحبون من رؤوس جسورهم غرب القناة اذا انسحب المصريون من الضفة الشرقية ورفض المصريون ذلك فى الحال ، وفى التاسع والعشرين من نوفمبر توقفت المناقشات .

حرب استنزاف جديدة :

حدث عدد من انتهاكات وقف اطلاق النار على طول جبهة سيناء السويس منذ الحادى والثلاثين من اكتوبر، وكانت فى معظمها مبادرات مصرية ، واستهدفت جزئيا تحسين مواقعهم ، غير انها استهدفت اساسا مواصلة الضغط على الاسرائيليين لارغامهم على الاستمرار فى حالة التعبئة التى تكلفهم مبالغ باهظة والآن وقد انهارت المفاوضات العسكرية ، فان مستوى كثافة حرب الاستنزاف الجديدة هذه قد ازداد ، وتزايد اشتراك المدفعية والدبابات والصواريخ .

ومع ذلك ، وفى اواخر شهر نوفمبر ومستهل ديسمبر ، تمكنت الدبلوماسية الأمريكية من التوصل الى اتفاق ، استكمالا للقرارين ، رقم ٣٣٨ ، ٣٣٩ ويتمثل فى عقد مؤتمر سلام فى جنيف .. وافتتح ذلك المؤتمر فى

(*) تلك الخرائط التى شاهدها الكاتب .

الحادى والعشرين من ديسمبر تحت رئاسة هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية وأندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتية بالتناوب ، وبالاضافة الى ممثلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، كان هناك ممثلون من مصر والأردن واسرائيل ولأسباب سوف يتم مناقشتها فيما بعد ، رفضت سوريا الاشتراك فى المؤتمر ، وارجىء المؤتمر السياسى الذى كان من المقرر عقده فى الثانى والعشرين من ديسمبر على ان يعقد عقب الانتخابات الاسرائيلية فى الحادى والثلاثين من ديسمبر .

ولم يعقد المؤتمر قط طوال الثلاث سنوات التالية ولأسباب سياسية متباينة يتمثل اهمها فى مسالة احتمال اشتراك ممثلى الشعب الفلسطينى ، ولكن قبل المؤتمر تم الاتفاق على استئناف محادثات فك اشتباك القوات فى جنيف فى السادس والعشرين من ديسمبر بين ممثلى مصر واسرائيل .

واستمرت تلك المناقشات حتى اوائل شهر يناير حيث كان الماجور جنرال موردخاى جور ممثلا عن قوة الدفاع الاسرائيلى واللواء طه المجدوب ممثلا للقوات المصرية ، وفى الوقت نفسه استمر قتال على نطاق صغير على طول ما يسمى بخطوط وقف اطلاق النار على ضفتى قناة السويس الشرقية والغربية .

وابان تلك الفترة — التى زادت عن ثلاثة اشهر فى مجملها — فان الفرقتين والنصف من الجيش الثالث قد تم عزلهما تماما على الضفة الشرقية للقناة داخل مدينة السويس .

ووفقا لشروط اتفاق الامدادات الأصلى الذى تم التوصل اليه فى الثامن والعشرين من اكتوبر ، فكان يتعين ان يتلقى الجيش الثالث نحو ١٥٠ طنا من الامدادات غير العسكرية يوميا وتضم فى معظمها امدادات الطعام والمياه والمواد الطبية ، وكان هناك قدر من مخزون المياه فى مدينة السويس فى الوقت الذى قطعت نيه تماما ، وذلك باتباع ادق عمليات ممكنة للحد من الاستهلاك، وعندما رفع الحصار فى الرابع والعشرين من يناير من عام ١٩٧٤ يقول اللواء بدوى : انه كان لديه مخزون من الطعام والمياه والوقود يكفى ٩٥ يوما .

ولم يتضمن اتفاق الامدادات بالطبع مسالة الوقود ، غير ان الجيش الثالث اكتشف عدة خزانات تحت الأرض من الوقود الاسرائيلى ، كما اكتشفت ايضا بعض الذخيرة الاسرائيلية واثناء عمليات التبادل للنيران حاول استخدام تلك الذخيرة بقدر المستطاع ، كى يحافظ على مخزونه هو ، وباتباع ادق عمليات التدريب الروتينية وبممارسة أنشطة الرياضة والترويح عن النفس من كافة الأنواع ومن خلال الرد بقوة على كل شىء اعتبره هو ورجاله استفزازات اسرائيلية ، وبذلك حافظ بدوى على ارتفاع معنويات قيادته المعزولة .

كيسنجر واتفاق فك الاشتباك :

دخل عنصر جديد على عملية التفاوض فى الحادى عشر من يناير : وكان ذلك العنصر هو هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية ، وبأداء دبلوماسى فعال ومن خلال التنقل بالطائرة بين مصر واسرائيل تمكن كيسنجر فى السابع عشر من يناير من اقناع كلا الطرفين على قبول اتفاق لفك الاشتباك ، ووفقا لشروط ذلك الاتفاق تنسحب القوات الاسرائيلية فى غضون اربعين يوما من الضفة الغربية لقناة السويس ومن خط وقف اطلاق النار على الضفة الشرقية الى مسافة تتراوح بين عشرين وثلاثين كيلو مترا من القناة ، ويحتفظ المصريون بقوات محدودة على الضفة الشرقية ، وذلك على نحو التقريب فى المنطقة التى احتلوها فى الفترة مابين السادس الى الخامس عشر من اكتوبر وهى منطقة تمتد الى عمق من ثمانية الى اثنى عشر كيلو مترا، وتحتل قوة الطوارىء الدولية التابعة للأمم المتحدة منطقة عازلة بين القوتين يبلغ اتساعها من خمسة الى ثمانية كيلو مترات ، ويظل كل من ممرى الجدى ومتلا داخل الخطوط الاسرائيلية .

ووقع على الاتفاق عند الكيلو ١٠١ فى الثامن عشر من ينـاير اللواء محمد الجمسى ، رئيس اركان القوات المسلحة المصرية الجديد والجنرال دافيد العازار ، رئيس اركان جيش الدفاع الاسرائيلى ، وأشرف الجنرال سيلاسفيو على ذلك الحدث التاريخى .

وانتهت حرب الاستنزاف فى الحال ، ومع حلول اليوم الرابع والعشرين من يناير وافق كلا الجانبين على اجراءات ضرورية لتنفيذ الاتفاق ، وبدات القوات الاسرائيلية فى الانسحاب الى راس جسرها فى الثالث والعشرين ، اى قبل يومين من موعد اتفاق فك الاشتباك ، وفى الحادى والعشرين من فبراير ، اكمل الاسرائيليون انسحابهم من الضفة الغربية للقناة ومع حلول الرابع من مارس انسحبت قوات جيش الدفاع الاسرائيلى الى مواقعها الجديدة فى صحراء سيناء .

حرب الاستنزاف السورية :

خلال شهر ديسمبر ، وفى مستهل يناير حدث تبادل للنيران اقل كثافة على طول خط وقف اطلاق النار الاسرائيلى — السورى على منحدرات جبل الشيخ وسهل دمشق ، ولكن عندما اعلن الاتفـاق الاسرائيلى المصرى فى السابع عشر من يناير توقف القتال على ذلك الخط وفى منطقة السويس — سيناء كذلك .

واثبت ذلك انه مجرد هدوء مؤقت : اذ انه فى السادس والعشرين من يناير استأنفت المدفعية السورية اطلاق النيران على المواقع الاسرائيلية ،

وانما على نحو اكثر كثافة من ذى قبل ورد الاسرائيليون على اطلاق النار ، ورغم ادعاءات كلا الجانبين بتكبيد كلا منهما الآخر خسائر فادحة ، فان خسائر الارواح كانت جسيمة ، واستمر اطلاق النار يوميا تقريبا ، وبكثافة متباينة لما يربو على أربعة اشهر ، وفى الثالث من فبراير صرح عبدالحليم خدام وزير الخارجية السورى بأن سوريا تخوض عن عمد حرب استنزاف على طول خط اطلاق النار ، بهدف شل الاقتصاد الاسرائيلى، وذلك بارغامهم على الاستمرار فى تعبئة الاحتياطى الاسرائيلى .

وكانت هناك مسألتان كبريان جعلتا اسرائيل وسوريا تحجمان عن الدخول فى مفاوضات على غرار تلك التى اسفرت عن فك الاشتباك فى شبه جزيرة سيناء اذ اصرت سوريا ، التى قدمت نفس الأسباب التى حالت دون اشتراكها فى مؤتمر جنيف ، على انها سوف تدخل المفاوضات وفقا لشرطين فحسب : ان تلتزم اسرائيل مسبقا بالانسحاب من الأراضى العربية المحتلة وان توافق ايضا على احترام حقوق الشعب الفلسطينى .

ولم ترفض الحكومة الاسرائيلية التفاوض وفقا لأى من مثل تلك الشروط فحسب بل وانها رفضت الدخول فى اية مناقشات حتى تقدم سوريا قائمة باسماء كافة الأسرى الاسرائيليين الذى اسرتهم خلال حرب اكتوبر وان تسمح لممثلى الصليب الأحمر الدولى بزيارة الأسرى وردا على ذلك ، قالت سوريا : ان مسألة أسرى الحرب تعد مسألة منفصلة عن قضايا السلام المدرجة فى القرارات ٢٤٢ و ٣٣٨ و ٣٣٩ .

وفى السادس والعشرين من فبراير ، وفى محاولة لكسر الأزمة زار هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية دمشق وحصل من الرئيس الأسد على قائمة تضم خمسة وستين اسيرا اسرائيليا وفى اليوم التالى وصل كيسنجر الى اسرائيل وقدم القائمة لجولدا مائير رئيسة الوزراء الاسرائيلى، وابلغها ان السوريين قد وافقوا على زيارة ممثلى الصليب الأحمر الدولى للأسرى بعد اول مارس .

بيد انه استمر اطلاق النيران على نحو متقطع على طول خط وقف اطلاق النار ، وتوصل كيسنجر الى نتيجة ان الجانبين لايزالان ابعد ما يكونان عن فهم نفس نمط دبلوماسية المكوك التى يضطلع بها ، والتى كسرت حالة الجمود الاسرائيلى المصرى ، ثم اقفل راجعا الى الولايات المتحدة .

وفى مستهل مارس وعقب هدوء وجيز ، ازدادت حدة القتال على خط وقف اطلاق النار مرة اخرى ، وردا على حشد قوات سورية خلف الجبهة، وفى السابع من مارس ، وضعت اسرائيل قواتها فى حالة تأهب قصوى واستدعت بعض قوات الاحتياطى ، وفى اليوم التالى نشبت بعض مناوشات داوريات البر فى عدة مناطق على طول الخط ، وعقب يوم من الهدوء خلا من القتال وتبادل النيران فى الحادى عشر من مارس ، انفجرت فى اليوم التالى نيران الدبابات والمدفعية على طول الخط واستمر اطلاق النيران كل يوم لما يربو على شهرين ونصف .

وحتى مستهل شهر ابريل ، اقتصر القتال على تبادل متقطع ، وفى بعض الأحيان اتسم بالكثافة ، لنيران الدبابات والمدفعية والقيام بداوريات على طول خط وقف اطلاق النار ، ولكن فى الثالث عشر من ابريل تصاعدت حرب الاستنزاف وتطورت الى قتال برى على جبل الشيخ ، وفى ذلك اليوم شن السوريون هجوما كبيرا على القوات الاسرائيلية التى تسيطر على موقع المراقبة السورى السابق الذى يقع على قمة جبل الشيخ .. واستخدم كلا من القوات البرية والمحمولة بطائرات الهليكوبتر فى هجومهم .

واستدعت اسرائيل قواتها الجوية لتقديم مساعدة عن كثب لتعزيز مواقعها بالقرب من القمة ، ولقمع نيران المدفعية السورية التى تساعد المهاجمين .. وتم صد الهجوم غير أنه فى منتصف شهر ابريل كانت تدور يوميا تقريبا معارك جوية على مرتفع جبل الشيخ ، واستمرت انشطة الداورية على الأرض .

اسرائيل ورجال العصابات الفلسطينية :

تفاقمت حدة التوتر السورى الاسرائيلى نظرا لزيادة كثافة نشاط رجال العصابات الفلسطينية داخل اسرائيل ، وكانت تلك الأنشطة تشن جميعها من قواعد فى لبنان وردا على تلك الغارات ، قام الاسرائيليون بالاغارة على نحو متكرر على جنوبى لبنان وفى مرات عديدة هاجمت الطائرات الاسرائيلية معسكرات اللاجئين فى لبنان حيث من المفترض ان رجال العصابات يتخذونها قاعدة لهم ، وفى حين ندد اعضاء الحكومة الاسرائيلية سرا بخسائر الارواح المدنيين التى تقع خلال تلك الغارات الانتقامية ، اشاروا الى ان رجال العصابات يتعمدون اقامة منشآتهم بين المدنيين داخل لبنان كى لا تتمكن اسرائيل من الانتقام دون تعرض المدنيين للخطر .

ومن ثم ، وفضلا عن ذلك فكانت تقع خسائر فى ارواح المدنيين فى اسرائيل نتيجة لهجوم رجال العصابات « الغارات الارهابية » ، واشار الاسرائيليون الى انه ليس امامهم سبيل آخر للرد او الانتقام من غارات رجال العصابات ، ومن ثم فان هجومهم الجوى سوف يتوقف فى الحال اذا انتهت الأعمال الاستفزازية .

وفى الحادى عشر من ابريل ، قام ثلاثة من رجال العصابات بالتسلل الى اسرائيل من لبنان ، واثاروا فترة وجيزة من الارهاب فى كريات شمونة التى تقع شمالى الجليل وقتلوا ثمانية اسرائيليين قبل ان يلقوا حتفهم على ايدى الجنود الاسرائيليين .. وفى اليوم التالى عبرت قوة من جيش الدفاع الاسرائيلى الحدود واغارت على ست قرى فى جنوبى لبنان فى عملية انتقامية علانية ردا على غارة كريات شمونة ، واستولت ايضا على ثلاث عشرة رهينة كى تحتجزهم حتى تعيد لبنان طيارين اسرائيليين كانا قد سقطا على تلك البلاد فى مستهل ابريل .

وفى الرابع والعشرين من ابريل ، اجتمع مجلس الأمن بناء على طلب لبنان ، وادان اسرائيل لهجومها فى الثانى عشر من ابريل على جنوبى لبنان ، وطالب اسرائيل باعادة الرهائن الثلاث عشرة التى استولت عليهم فى تلك الغارة ، وتساءل الاسرائيليون بمرارة لماذا يتجاهل مجلس الأمن الهجوم الفلسطينى السابق على كريات شمونة الذى ردت عليه العملية الاسرائيلية . وصوتت الأمم المتحدة باغلبية ١٣ مقابل لا شىء عقب فشلها فى محاولة اضافة الاشارة الى غارة كريات شمونة الى القرار .

كيسنجر مرة اخرى :

فى أواخر شهر ابريل وفى الوقت الذى استمر فيه الصراع السورى الاسرائيلى على جبل الشيخ بوحشية ، قرر هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية القيام بمحاولة مرة اخرى للتوصل الى حل ، وعقب اجتماعه فى جنيف مع اندريه جروميكو وزير الخارجية السوفيتية فى الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من ابريل ، ثم اجتماعه مع الرئيس الجزائرى هوارى بومدين فى الجزائر وبالرئيس السادات فى القاهرة بدأ كيسنجر جولة اخرى من دبلوماسية المكوك .. بين اسرائيل وسوريا فى الثانى من مايو ، ولم تخف حدة القتال على جبل الشيخ او على طول خط وقف اطلاق النار وفى الوقت نفسه ازدادات اعمال العنف على طول الحدود الاسرائيلية اللبنانية حيث استمرت غارات رجال العصابات والغارات الانتقامية الاسرائيلية البرية والجوية .

وفى عدة مناسبات انتاب كيسنجر الشعور بالاحباط من جراء رفض الاسرائيليين والسوريين التخفيف من قتالهم المرير ومطالبهم المتبادلة غير المقبولة .. مما دفعه الى التهديد بالعودة الى بلاده ، ولكن فى تلك المناسبات يبدو ان كلا الجانبين اكدا سرا لوزير الخارجية انهما يريدان حقا ايجاد سبيل لانهاء حربهما الباهظة التكاليف والتى يخوضانها على نطاق صغير .

وفى الخامس عشر من مايو ، اغار رجال العصابات الفلسطينية آملين فيما يبدو فى تاكيد فشل مهمة كيسنجر ، فاغاروا على مدينة معلوت التى تقع على الحدود الاسرائيلية واستولوا على مدرسة ، وفى القتال الذى استتبع ذلك قتل عشرون طفلا من اطفال المدرسة او اصيبوا اصابات بالغة قبل ان يلقى رجال العصابات حتفهم فى هجوم للجيش الاسرائيلى على المدرسة ، وفى مستهل اليوم التالى هاجمت الطائرات الاسرائيلية قواعد رجال العصابات فى جنوبى لبنان ، وكان بعضها يقع فى معسكرات اللاجئين ، وفى الحادى والعشرين من مايو صرح المسئولون اللبنانيون والفلسطينيون بأن ما يربو على خمسين شخصا قد قتلوا فى تلك الغارات الانتقامية .

وبالرغم من ذلك الحادث ، كان كيسنجر قد بدا يحرز تقدما ازاء اتفاق فك الاشتباك السورى الاسرائيلى ، والمسألتان الكبريان اللتان ارجاتا الاتفاق هما رفض اسرائيل التخلى عن عدة تلال تطل على مدينة القنيطرة ،

تلك المدينة التى كانوا يرغبون فى اعادتها بصورة رمزية الى سوريا ، وحجم قوة الأمم المتحدة التى سوف ترابط فى منطقة عازلة تقام بين الجيشين .. اذ ان اسرائيل ارادت وجود قوة كبيرة نحو ٣٠٠٠ فرد ، وارادت سوريا قوة اسمية فحسب قوامها ٣٠٠ فرد .

فك الاشتباك على الجولان :

وفى العشرين من مايو ، وافق الجانبان فى النهاية على مسودة اعدها كيسنجر ، وتوقف قتال مستمر دام واحد وثمانين يوما على خط وقف اطلاق النار ، وفى الحادى والثلاثين من مايو وقع الاتفاق فى جنيف الماجور جنرال هيرتزل شافير عن اسرائيل واللواء عدنان وجيه طيار عن سوريا .. وكانت نقاط الاتفاق الرئيسية تتمثل فيما يلى :

— تنسحب اسرائيل كلية من نتوء سعسعة ، وتبلغ مساحته نحو ٧٧٠ كيلو مترا مربعا والذى احتلته فى اكتوبر .

— تنسحب اسرائيل من القنيطرة ، التى احتلتها فى عام ١٩٦٧ ، الى خط جديد يقع على بعد ٣٠٠ متر من المدينة ، وهكذا تحتفظ بالسيطرة على ثلاثة تلال استراتيجية تطل على المدينة .

— اقامة منطقة عازلة ، ذات مساحة متباينة تمتد من ٦٠٠ متر الى اربعة كيلو مترات ، بين الجيشين ، تكون تلك المنطقة على الجانب السورى للخط الأحمر السابق (باستثناء منطقة ضيقة تقع غرب القنيطرة مباشرة) .

وتلك المنطقة تضم موقع المراقبة السورى السابق على جبل الشيخ ، تكون منزوعة السلاح تماما ، الا فيما يتعلق بقوات الأمم المتحدة ، ولكن تخضع لادارة مدنية سورية .

— وفى سبيل القيام بدوريات فى تلك المنطقة العازلة ، يتم انشاء قوة تابعة للأمم المتحدة لمراقبة فك الاشتباك قوامها ١ر٢٥٠ فردا ولا تضم قوات من اى من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن (كما هو الحال فى قوة الطوارىء الدولية التى تستبعد القوات السوفيتية والأمريكية) .

— يبدا الجانبان فى صياغة تفاصيل فك الاشتباك فى غضون اربع وعشرين ساعة من توقيع الاتفاق ، وان يتم الانسحاب الاسرائيلى خلال عشرين يوما .

— يتم تبادل كافة اسرى الحرب فى غضون اربع وعشرين ساعة من توقيع الاتفاق ويتم اعادة كافة جثث القتلى من الجنود داخل المناطق المتصارعة فى غضون عشرين يوما .

— يتم خفض القوات « فى مناطق تقام على جانبى المنطقة العازلة حيث يحدد عدد القوات والمدافع والدبابات » .

وشرع كلا الجانبين فى تنفيذ بنود الاتفاق ، وتوقفت فى النهاية ما سمى بحرب اكتوبر ، التى استمرت نحو ما يربو على سبعة اشهر بعد انتهاء العمليات الكبرى .

(٢٢)

تقييم

قلما تتغير تيارات ومصائر حروب على نحو متكرر وشبه مثلما حدث في تلك النزاع الوجيز الذى دام أقل من ثلاثة أسابيع ، اذ بدءا بهزائم اسرائيلية متلاحقة وانتصارات عربية معنوية على كلا جبهتيها ، سرعان ما استعادت قوات الدفاع الاسرائيلى زمام المبادرة ، ومع ذلك العمليات العسكرية على مدى أسبوعين كاملين وفي نهاية الحرب على جبهة السويس – سيناء ردت القوات المصرية الاسرائيليين على أعقابهم في السويس والاسماعيلية ، في حين كان الاسرائيليون يعزلون ويحتلون وجود جزء كبير من الجيش الميدانى المصرى ، وفي الوقت نفسه ، وعلى الجبهة السورية استعادت القوات العربية وعيها على نحو كاف بعد هزيمة ثانية حيث خططت بصورة جادة لهجوم مضاد كبير كانوا يعتقدون (وربما على نحو مبالغ فيه) بأنه سيمكنهم من دفع الاسرائيليين الى الخط الأحمر . ومما ساهم في تلك الأحداث المتغيرة والمتباينة عدد من المسائل والخلافات والمشاكل والقضايا المبهمة أو المنازعات العسكرية ، والسياسية وكانت بعض تلك المسائل كبيرة ، وبعضها ضئيل ، والشخصية بعضها تم حله ابان الحرب ، والبعض الآخر في وقت لاحق ، ولا يزال بعض تلك المسائل دون حل .

وكانت الحرب من الناحية العسكرية أكبر أهمية من الوضع الطبيعى في نزاع اقليمى وجيز ومحدود بصورة نسبية ، مما نشب بين الدول التى تعد من الناحية الطبيعية دول صف ثالث ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى أن القوات المتصارعة كانت مجهزة بأسلحة حديثة تمثل ثورة حديثة ذات دلالة في مجال التكنولوجيا العسكرية ، نظرا لأن الجانبين المتصارعين يستخدمان انتاج دولتين عظميين متنافستين ، أولهما : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

وقد حرص المراقبون العسكريون ، ولا سيما من الدول العظمى ، على تقييم فاعلية الأسلحة والدلائل الضمنية التكتيكية لتكنولوجياتهم الجديدة ، والى أى مدى بطلت تلك التطورات ، أو أضافت تأكيد المفاهيم التقليدية للحرب ، ونظرا لأن الدولتين العظميين قد اشتركا على نحو غير مباشر على الأقل ، فما هي الدلائل الضمنية الاستراتيجية العالمية للحرب .

سوف يجرى تقييم تلك الموضوعات في الفقرات التالية :

القضايا العسكرية على الجانب الاسرائيلى :

تمثلت القضية الأولى على الجانب الاسرائيلى في مسألة القيمة الاستراتيجية والتكتيكية لاسرائيل بالنسبة لاقامة خط دفاعى على طول الضفة الشرقية لقناة السويس الا وهو خط بارليف ، وفي حقيقة الأمر فان خط بارليف لم يكن صائبا من الناحية النظرية فحسب ، بل من الناحية العملية ، وحتى رغم ميزة المفاجأة ، فان الهجوم المصرى قد حد من سرعته على نحو يسمح لقوات الاحتياط الاسرائيلية المحلية ، التى سرعان ما دفعتها قوات احتياط منظمة ، من تأخير الهجوم المصرى أولا ثم وقفه بعد ذلك ، ولم يحقق التقدم المصرى الأهداف التى كان يرنو الفريق اسماعيل الى تحقيقها ، وبالرغم من أن ذلك الرأى قد فنده عدد من الجنرالات الاسرائيليين والمصريين ، فانه يدعمه باسهاب الحقيقة القائلة : بأن المصريين ، بالرغم من النجاح الأولى الكبير ، فانهم قد فشلوا في الوصول الى ممر الجدى أو متلا .

وتتمثل المسألة الثانية في فشل المخابرات الاسرائيلية ، ولا يتطلب ذلك تحليلات مفصلة ، اذ انه كان فشلا تقليديا حيث ركزت المخابرات العسكرية على النوايا العدوانية في حين تجاهلت القدرات العسكرية ، نظرا لأنه كان ينتقص من قدرها ، وذلك الانتقاص من قدر القدرات العربية أدى الى افتراضات خاطئة بشأن النوايا ، ومن جانب آخر ، ينبغى الاشادة بالسرية واجراءات الأمن العربية التى حجبت الحقائق الملحوظة على نحو يكفى لتعزيز المفاهيم الاسرائيلية السابقة .

وتتمثل المسألة الثالثة في النزاع بين الجنرال شارون من جانب وبين الجنرال جونين والجنرال بارليف من جانب آخر ، وقد ركز الانتباه العام على ذلك من جراء التصريحات العلنية التى أدلى بها الجنرال شارون ابان وعقب الحرب ، ولم يكن دور شارون في تلك المنازعات وسلوكه ابان الحرب تقليديا : اذ انه في ثلاث مناسبات على الأقل تجاهل عن عمد أوامر قيادته العلمية ، وربما كان محقا في احدى تلك المرات (التى تمثلت في أمر الهجوم على الجناح الأيمن للفرقة ١٦ المصرية في ميسورى في الحادى والعشرين من اكتوبر) ، غير انه كان مخطئا على نحو جلى في المرات الأخرى (شن هجومين على القناة في التاسع والرابع عشر من اكتوبر) .

وسواء أكان شارون محقا أو مخطئا ، فانه كان يتعين اعفاؤه من قيادته في المرات الثلاث ، وبالاضافة الى أمثلة عدم الامتثال للأوامر فانه كان يجادل دوما بشأن الخطط والتكتيكات مع قادته (جونين وبارليف) وقد تخطاهما مرارا باجراء اتصالات تليفونية — لاسلكية مباشرة مع مقر رئاسة جيش الدفاع الاسرائيلى في تل أبيب في محاولة لدفع القيادة العليا على تغيير الأوامر الصادرة من جونين وبارليف ، وعلى قمة ذلك فانه تصرف كما لو كان

هو المثل الاول ، وذلك بالافصاح علانية لمساعديه وللصحف عن خلافاته مع رؤسائه ونقده لهم ، ومما يبعث على الدهشة ان سلوكه لم يقابل بالصفح فحسب ، بل انه تدعم فى بعض الأحيان بتغيير الأوامر من تل ابيب ، ومن الجلى ان ذلك يرجع فى معظمه الى تدخل موشى ديان وزير الدفاع شخصيا فى صالح شارون ، وذلك عقب ان طالب كل من الجنرال جونين وبارليف بابعاد شارون ، ولا يغفر ذلك لجونين بعض الأعمال الفاشلة فى تصرفاته الأولى او اخطاء قيادته فى الثامن من اكتوبر ، بيد انه وفقا لتحليل موضوعى فانه اظهر من الاعمال افضل مما اظهره شارون .

وفى الحرب الأولى وفى تلك الحرب اظهر شارون مهارة تكتيكية كبيرة وموهبة لا تبارى فى القيادة ، وحظى بمكان جدير كبطل بارز فى دولة اسرائيل الحديثة ، وذلك النقد لا يستهدف باى حال من الأحوال تشويه صورة بسالته او مهارته او شجاعته ، غير انه فى تلك الحرب ، وحتى اذا كان محقا فى بعض المسائل ، فانه كان مخطئا فى تصرفاته ومواقفه .

والمسألة او الجدل الرابع هى نزاع آخر بين الجنرالات وفى هذه المرة بين جونين وآدان ، والنقطة الرئيسية فى ذلك النزاع تتمثل فى الاوامر التى اصدرها جونين لآدان لشن هجوم فى الثامن من اكتوبر ، ويبدو ان ذلك موضع تفسيرات مختلطة لما يشكله شن هجوم « محدود » ضاعف منه اعتقاد جونين الجلى بان المصريين سوف ينهارون اذا لم يكن الهجوم محدودا للغاية ، وليس ثمة شك فى انه لم تكن هناك قوة اسرائيلية متاحة كافية لتثير اضطراب المصريين بصورة خطيرة ، ومن جانب آخر ، فان هجوم آدان غير المنسق لم يختبرهم بقوة ، ومن جانب آخر فان تقرير لجنة اجرانات[1] كان — فيما يبدو وعلى نحو سليم — فى صالح آدان كلية بالنسبة لبعض المسائل ، بيد ان ذلك النزاع يبدو وانه كان الى حد كبير مسألة سوء فهم ينطوى على حسن نوايا ، ونوايا حسنة متخبطة من جانب كلا الرجلين ، حيث ابلى آدان بلاء افضل من جونين ، فى هذا المثال ، وينبغى ايضا ان يلقى اللوم على الجنرال العازر لهزيمة الثامن من اكتوبر . اذ انه فى مساء يوم السابع من اكتوبر اصدر اوامره بشن هجوم محدود فى صباح اليوم التالى ، ووافق على تغيير جونين لتلك الأوامر فى صباح اليوم التالى مما ناقض نفسه .

وتتركز المسألة الخامسة على فاعلية التعبئة الاسرائيلية ، وقد وجه المراقبون الاسرائيليون بعض النقد لعملية التعبئة ، ومما لا ريب فيه ان عدة اشياء قد سارت على نحو خطأ ، غير ان قدرة الاسرائيليين على توفير اربعة عناصر جوهرية لأربع فرق احتياطى تتقاتل بفاعلية ونشاط على كلتا الجبهتين فى غضون ثلاثين ساعة من الهجوم العربى المباغت يعد دليلا على الفاعلية العامة للنظام والنجاح الساحق الذى حققه فى تلك الحالة .

وهناك نقطة جدل سادسة تتركز حول كل من الجانب العسكرى والسياسى — العسكرى بدلا من الجانب العسكرى البحت ، تلك النقطة هى

الرقابة ، والى اى حد خدعت الحكومة الاسرائيلية شعبها من خلال منع نشر المعلومات وتحريفها ، ولايزال هناك شعور بالمرارة يسود اسرائيل ازاء فشل الحكومة فى ايقاف الشعب على مدى الهزائم التى لحقت بهم ابان الأيام الثلاثة الأولى للحرب ، وما يرمز الى ذلك فى اعين عدد كبير من الاسرائيليين يتمثل فى المؤتمر الصحفى الذى عقده الجنرال العازار ، وعرضه التليفزيون فى مساء يوم الثامن من اكتوبر عقب بضع ساعات من اسوأ هزيمة فى التاريخ لحقت بالجيش الاسرائيلى فى سيناء ، وكان على وشك الهزيمة على الجولان ، وتعهد العازار بتحقيق انتصار مبكر وفى مشهد مثير اكد بنفسه : « اننا سوف نهاجم وسوف نضربهم ، وسوف نحطم عظامهم » .

واعاد الصحفيون الى الأذهان ايضا حادثا مثيرا آخر ، وقع بعد ظهر اليوم التالى ، اذ خاطب ديان وزير الدفاع اجتماعا للمحررين الاسرائيليين ، ولأول مرة قدم لهم تقييمه الصريح للهزائم التى لحقت بجيش الدفاع الاسرائيلى ، واصيب المحررون بصدمة ليس من جراء الصورة التى تدعو لليأس التى صورها لهم ديان ، بل من جراء تشاؤمه الكئيب الجلى ، وتساءل البعض ، ترى هل فقد ديان اعصابه ؟ .

وكان من المقرر ان يتحدث ديان امام الأمة فى ذلك المساء على شاشة التليفزيون وكان يعتزم اعطاء الراى العام نفس الصورة التى اوضحها للمحررين ، غير ان كلمة الاجتماع « الفظيع » مع المحررين وصلت الى مائير رئيسة الوزراء فأصدرت امرا له بالا يدلى بحديثه ، وتحدث بدلا منه الجنرال المتقاعد اهارون باريف الذى تم استدعاؤه للاضطلاع بمهمة فعالة بوصفه المتحدث الجديد باسم جيش الدفاع الاسرائيلى ، وحذر باريف مواطنيه من انهم يواجهون حربا طويلة الأمد ، ولكنه اعاد تاكيد تكهن العازار بتحقيق انتصار فى نهاية الأمر .

ان هذه القضية المتمثلة فى حق دولة ديمقراطية فى خداع — او على الأقل فى عدم تقديم معلومات كاملة — لشعبها ابان الحرب ، قد نوقشت بعد عامين فى ندوة وعقدت فى القدس بشأن النزاع العربى الاسرائيلى ، واوضح الصحفيون واساتذة الجامعة — الذين اداروا معظم الحديث — وجهة نظرهم التى تفيد بأنه من حق مواطنى الدولة الديمقراطية معرفة تجاوز حق الحكومة فى الرقابة ، ومما لا ريب فيه ان اى حكومة ، بما فى ذلك اسرائيل ، سوف تتأثر بمثل نقاط المناقشة هذه ، لسببين على الأقل .

ففى المقام الأول : لم يكن اى من الجيش او الحكومة فى وضع يمكنهما من ان يعلنا على نحو يدعو للتصديق ما حدث حتى وقت لاحق من يوم الثامن من اكتوبر ، او مستهل يوم التاسع من اكتوبر ، وقد اذيع بيان الجنرال العازار فى مساء يوم الثامن من اكتوبر قبل ان يتحقق من مدى الهزيمة التى وقعت فى ذلك اليوم .

ثانيا : اذ لم يكن بقاء الدولة معرضا للخطر ، فان حياة بعض رجالها كان فى خطر بلا ريب ، وعلاوة على ذلك ، فان التهديد الذى واجه الامه ربما كان سيتفاقم بصورة جوهرية اذا دخل الاردن الحرب ، غير انه وفضلا عن ذلك لم تكن الحرب تسير بالضرورة فى صالح العرب ، ومن ثم فان اذاعة معلومات من شانها تشجيع العرب على بذل جهود جديدة ، انما هى عمل ينطوى على عدم الاحساس بالمسئولية .

ولعل ما هو اهم من تلك النقطة هى مسالة ادعاء فقد الجنرال ديان لأعصابه اذ يبدو انه لم يكن فى افضل حالاته فى تلك الأيام ، وكان متشائما على نحو يفوق دائما القادة العسكريين وهو يعزو ذلك — كما قال فى مذكراته — الى كونه اكثر واقعية . وقد اظهر بلا ريب خلال العديد من زياراته التى قام بها لكلتا الجبهتين ان شجاعته الشخصية لم تهن ولو قدر انملة منذ عام ١٩٦٧ ، وربما كان اكثر « واقعية » من اى عضو فى مجلس الوزراء يواجه تلك الظروف ، غير انه لم يفقد اعصابه .

على الجانب المصرى :

اما الجانب المصرى ، فان نقطة الجدل الأولى الكبرى تتمثل فى الخلاف بين الفريق اسماعيل واللواء الشاذلى حول الاستمرار بعد النجاح الذى تحقق فى السادس والسابع والثامن من اكتوبر ، وكما قيل من قبل ، فانه يبدو جليا ان الفريق اسماعيل كان على حق ، وكان اللواء الشاذلى مخطئا فى قرار عدم محاولة استغلال النجاح ، وثمة عنصر جوهرى للخطة المصرية الا وهو الاعتراف بتفوق القوة الجوية الاسرائيلية الكبير ، ويضاهيها فى الأهمية تقريبا التفوق الاسرائيلى فى تحريك المدرعات ، وهناك جنرالان يتسمان بالأهمية فى التاريخ واجها مشكلة تماثل تلك التى واجهها اسماعيل فى السابع والثامن والتاسع من اكتوبر ، وكان احدهما هو الجنرال الأمريكى اندرو جاكسون فى نيو أورليانز فى عام ١٨١٥ — اذ انه حقق انتصارا دفاعيا بجيش نشط ضد افضل قوات الجيش البريطانى ، ثم رفض بحكمة مواصلة القتال ، معترفا بانه سوف يبدد انتصاره ، والجنرال البريطانى بيرنارد ال . مونتجومرى ، الذى كان يتسم بحذر مماثل ، وخاصة بنجاح معركة علم حلفا فى عام ١٩٤٢ ، غير انه لم يواصل ، رافضا منح روميل فرصة شن هجوم مضاد وانتزاع النصر من الهزيمة .

وأى جهد هجومى مصرى فى التاسع او العاشر او ايام لاحقة كان من المرجح ان يسفر عن نفس النتيجة ، وحتى اذا كانت اقل حسما ، كما حدث فى الهجوم الذى شن فى الرابع عشر من اكتوبر ، وكان هناك على الأقل قائد فرقة مصرية شرق القناة مقتنعا بانه فى ضوء الخسائر التى وقعت فى تلك الأيام ، فانه من المحال التقدم الى ماوراء مظلة صواريخ سام ،

وفضلا عن ذلك فان اولئك الذين يفترضون ان المصريين اهدروا فرصة ، يبدو انهم غفلوا ان الاسرائيليين لم يكونوا على وشك الانهيار ، وانهم شنوا هجوما مضادا مستمرا ابان تلك الفترة .

ونقطة الجدل المصرية الثانية تتناول الثغرة بين الجيش الثانى والثالث خلف البحيرات المرة وفى الدفرسوار ، ورد الفعل المصرى غير الملائم والذى اتسم بالبطء على نحو يبعث على الدهشة ازاء التغلغل الاسرائيلى غربى القناة ، اذ ان الحدود القائمة بين الوحدات تغرى دائما بالتغلغل العدائى ، وكان يتعين على المصريين الاعتراف بتلك الحقيقة ، حيث كانت خطتهم السابقة خالية من الأخطاء ، وذلك لتأكيد جهود خاصة تبذل فى سبيل تحقيق الأمان من عنصر المفاجأة ، وحتى اذا كان المصريون قد اتخذوا حذرهم عقب العبور فانه ليس ثمة شك فى ان شن هجوم مضاد كبير فى السادس عشر او حتى السابع عشر من اكتوبر كان من شانه تحطيم قوة شارون التى كانت مكونة من لواءين على الأقل على الضفة الغربية[٢] . غير ان اخطر جوانب النقص تمثلت فى رد فعل الجيش الثانى المصرى البطىء والتدريجى على نحو لا مبرر له .

اما النقطة الثالثة فكان هناك على الجانب المصرى مسالة تتمثل فيما اذا كان فى الامكان تخليص الجيش الثالث أو ما اذا كان بوسعه البقاء اذا ما استمرت الحرب .. لم يكن ذلك من المؤكد تماما اذا استمر الاسرائيليون فى حصارهم الكامل لعناصر الجيش الثالث شرق القناة او اذا صعدوا هجوما ضدهم ، فانه كان من المحتم ان يفنى اللواء بدوى وقيادته ، ولم تكن تلك القوة تقف على حافة الانهيار — كما اكد بعض المعلقين — اذ كان من المشكوك فيه فى الوقت نفسه امكان نجاح الجهود المصرية لتخليص الجيش الثالث ، نظرا لوجود خط القوات الواهى متاخما لراس الجسر الاسرائيلى ، ولم يكن من الخزى لبدوى وقواته الباسلة الافتراض بأن القوات المصرية الأخرى لن تتمكن من صد هجوم اسرائيلى شامل ضد الجيش الثالث ، وان من المحتمل نجاح مثل ذلك الهجوم .

على الجانب السورى :

لم يثر اى جدل بين السوريين عقب الحرب مما يمكن ان يقارن عن بعد ذلك الذى هز القوات الاسرائيلية والمصرية ، او اذا كان قد حدث فان السوريين — الذين قلما يتحدثون — فانهم قد احتفظوا به لأنفسهم ، ومن جانب آخر فان السوريين قد اهتموا كثيرا بالجدل الدائر فى مصر بين اسماعيل والشاذلى بشأن الاستمرار عقب النجاح الأولى الذى تحقق فى السادس والسابع والثامن من أكتوبر ، ويرجع الاهتمام السورى بالطبع الى شعورهم بعجز الضغط المصرى على الاسرائيليين فى التاسع والعاشر والحادى عشر من اكتوبر ، مما سمح للاسرائيليين بتركيز قوتهم الجوية فى هجومهم ضد سعسعة دمشق .

ومع ذلك اذا لم يكن قد حدث جدل سورى ، فانه كان لابد ان يحدث ، اذ انه كان من الممكن القول بحق ان استخدام الفرقة التاسعة فى السابع من اكتوبر والفرقة الثالثة مدرعات فى السابع او الثامن من اكتوبر على نحو غير محدود ، ربما كان من شانه الهيمنة على اجهزة الدفاع الاسرائيلية ، وكما كانت النتيجة قريبة للغاية اثيرت شكوك لفترة طويلة حول المسالة ، فانه من المنطقى الافتراض بأن تقدم الفرقة التاسعة ازاء « نافخ » فى السابع من اكتوبر ، او تقدم الفرقة الثالثة مدرعات بين الفرقة التاسعة والسابعة فى السابع او الثامن اكتوبر ، ربما كان يحدث اختلافا .

وربما كان الجنرال بن جال واللفتنانت كولونيل كاهلن هما : « منقذى شعب اسرائيل » فى التاسع من اكتوبر ، ولكن ترى هل كانت ستلوح لهما فرصة ان يصبحا منقذى اسرائيل اذا كانا قد واجها ما بين ٥٢٠ و ٣٥٠ دبابة اضافية فى المنطقة الواقعة بين نافخ وتل ميخاقى فى السابع والثامن من اكتوبر ؟

وثمة جدل سورى محتمل يمكن ان يتركز حول فشل القوات السورية فى التحرك ازاء القنيطرة : اذ ان المدرعات الاسرائيلية تحاشت بحرص القنيطرة ابان المعركة ، خشية ان تنصب المشاة السورية كمينا للمهاجمين ، واذا كانت قوات المشاة السورية — وكان هناك العديد من الاحتياطى فى كل من الفرقة التاسعة والسابعة — قد امنت مدينة القنيطرة فى السابع او الثامن من اكتوبر ، فان الهجوم المضاد الاسرائيلى على منتصف الجولان كان سيواجه مزيدا من الصعوبة ، كما انه كان من المرجح ان تتأجل الهجمات المضادة التى شنت فى العاشر والحادى عشر ، وكان من المحتمل ان تتعرقل .

وينسب الى فشل السوريين هذا فى استخدام قوات مشاتهم فى القنيطرة فشلهم بصفة عامة فى استخدام مشاتهم على نحو هجومى ابان اليومين والنصف الأولى للمعركة ، اذ انه فى التاسع من اكتوبر استخدموا قوات المظلات المحمولة بطائرات هليكوبتر شمال وغرب جبل الشيخ فى حين تقدمت قوات مشاة اضافية من الفرقة السابعة الى بوقاتا — شمال هيرمونيت — من تجاه الشرق ، غير أن الوقت كان متأخرا للغاية آنذاك ، اذ انطلق اللواء السابع الاسرائيلى مسيطرا على المرتفع الواصل بين هيرمونيت وتل نخاق ، ولم تتمكن المشاة السورية المرابطة بالقرب من بوقاتا من التصدى لوصول التعزيزات الاسرائيلية ، وذلك بدون مساعدة المدرعات.

الدلائل الضمنية للأسلحة الجديدة :

هناك اثنان من ردود الفعل المتباينة للمعلقين العسكريين بالنسبة للمواجهة المثيرة لانظمة الاسلحة الحديثة للاتحاد السوفيتى ، التى استخدمها

السوريون والمصريون ، واسلحة الولايات المتحدة الحديثة المسلح بها الاسرائيليون الى حد كبير ، وتمثل اول رد فعل ، وهو متسرع الى حد ما ، فى ان الأسلحة الجديدة قد غيرت تماما الحرب ، ورد الفعل الثانى ، الذى عقب تقييم اكثر تعقلا للأحداث ، وما اسفر عنها ، يتمثل فى اعادة طرح تاكيد عدد كبير من النقاد بثقة بانه ليس هناك شىء جديد فى الواقع ، او حتى غير متوقع ، فى تجربة حرب اكتوبر .

وسوف يجرى تقييم ردود الفعل المتضاربة هذه فى ضوء ثلاثة انظمة للأسلحة التى اثيرت تساؤلات حول قيمتها فى المستقبل الا وهى : الدبابة ، والطائرة ، وطائرة الهليكوبتر .

الدبابة :

ان تقارير الصحف الأولى الخاصة بفاعلية صواريخ ساجرز وآر . بى . جيه — ٧ المصرية والسورية ضد الدبابات الاسرائيلية بدت لبعض الأشخاص انها تنم عن نهاية الدبابة ، على نحو يذكرنا باختفاء فارس القرن التاسع عشر بزيه المدرع ، وذلك عقب احياء المشاة وظهور اسلحة البارود ، ويستمر رد الفعل هذا الى تأكيد ان هناك تساؤلا خطيرا تطرحه بعض السلطات حول استمرار قيمة الدبابة فى الحرب .

ووجهة النظر الأخرى يعرب عنها الجنرال الاسرائيلى حاييم هيرتزوج على نحو دقيق فى كتابه « حرب الغفران » .

« على نقيض الاستنتاجات المتسرعة التى نشرت فى شتى ارجاء العالم عقب حرب يوم الغفران ، فان الدبابة لاتزال عنصرا مهيمنا فى ميدان المعركة .. ان النتائج التى حققتها صاروخ ساجرز المضاد للدبابات لا تتناسب مع الدعاية التى احيطت بها ، وفى حقيقة الأمر فان الدراسات التى نشرت تشير الى ان اقل من ٢٥ فى المائة من الدبابات التى دمرت قد اصيب بذلك الصاروخ(٢) » .

ومع ذلك فان المصريين يصرون على ان ٧٠ فى المائة على الأقل من الدبابات الاسرائيلية التى تركت خلف الخطوط المصرية قد اصيبت بصواريخ ساجرز او آر . بى . جيه ٧ وثمة تقارير امريكية رسمية تميل الى تأكيد تعليق هيرتزوج ، اذ انه ليس هناك دراسة مصرية مقارنة متاحة للولايات المتحدة .

بيد أن كلا الجانبين على حق — فيما يبدو — اذ ان الدبابات التى تفقدها الاسرائيليون لمعرفة ما لحق بها من اضرار كانت تلك التى توقفت داخل الخطوط الاسرائيلية ، وغالبيتها دمر فى الهجوم المصرى الذى وقع فى الرابع عشر من اكتوبر وابان العمليات التالية فى منطقة المزرعة الصينية

والبحيرات المرة الكبرى وعلى الضفة الغربية للقناة ، وقد وقعت تلك الأضرار بعد ان تعلم الاسرائيليون من تجربتهم المريرة خلال الايام الثلاثة الأولى كيفية التعامل مع الصواريخ المضادة للدبابات والقذائف الصاروخية وكان ذلك قتالا ايضا اتخذ فيه الاسرائيليون اما موقفا دفاعيا بعد أن تبدد عنصر المفاجأة ، او كانوا فى موقف هجومى ، وكان المصريون هم الذين فى حالة من الفوضى والتمزق ، وفضلا عن ذلك فانه فى القتال الذى دار على الضفة الشرقية كان لدى الوحدات المصرية عدد من صواريخ ساجرز وآر . بى . جيه — ٧ اقل مما كان لديهم على الضفة الشرقية .

ان الأضرار التى يزعم المصريون انهم الحقوها باستخدام الصواريخ والقذائف الصاروخية بالدبابات التى تفقدها خلف خطوطهم عقب الحرب ، كانت تلك الدبابات فى معظمها هى ضحايا الأيام الثلاثة الاولى للقتال ، عندما اكتسب صاروخ ساجرز وآر . بى جيه شهرتها التى تستحقها فيما يبدو ، فى ظل ظروف القتال القائمة حينذاك . والنتيجة التى يتعين استخلاصها من ذلك هى أن كلا الجانبين على حق ، وليس اى منهما على حق كامل . اذ انه ليس ثمة شك فى ان الصواريخ المصرية الحقت اضرارا بالغة بعدد كبير من الدبابات الاسرائيلية ، ولكن مما لا ريب فيه ايضا ، ان الاسرائيليين قد نجحوا الى حد كبير فى الدفاع عن دباباتهم ضد الصاروخ والقذائف الصاروخية فى نهاية الحرب ، وفضلا عن ذلك ، يبدو ان التقييم المصرى يتعلق فى الغالب بالقتال فى وسط اوروبا حيث يكون مدى الدبابة والاشتباكات بين الدبابات اقصر مما هو عليه فى الصحراء .

ان نهاية الدبابة ليس وشيكا ، غير ان نظرية استخدامها ينبغى ان تدرك فى المستقبل ، انها فى الوقت الراهن اكثر عرضة للخطر ، وبالتالى اقل قيمة من استخدامها كجزء من فريق مسلح مشترك .

طائرات قتال يقودها طاقم طيارين :

ان الحجة المناهضة لمستقبل القوة الجوية تماثل تماما تلك الحجة المناهضة لمستقبل الدبابة ، اذ ان نجاح مظلة صواريخ سام العربية التى تستكمل بمدافع عيار ٢٣ مليمتر الاتوماتيكية المتعددة الفوهات ذات فاعلية بالغة على اطلاق النيران على مستوى منخفض ، بدا للعديدين انه يوضح ان التفوق الجوى لم يعد ذا تأثير فعال على المعركة البرية .

والحجة المضادة تماثل ايضا المناقشة المتعلقة بحرب الدبابة ضد الدبابة ، وقد تمكنت القوة الجوية الاسرائيلية بصورة جزئية على الأقل من قمع مظلة الدفاع الجوية السورية ، ويشير الطيارون الى مدى فاعلية المساعدة الجوية الاسرائيلية على الضفة الغربية لقناة السويس ، مما ساهم فى نجاح الهجوم على السويس ، وفضلا عن ذلك فانهم يدفعون

بانه لو اتيح المزيد من الوقت لكانت الاجراءات الالكترونية المضادة قد قللت بلا ريب من فاعلية صواريخ سام .

والحجة الأخيرة ليست مقنعة اذ تقول : ان الاجراءات المضادة تفضى الى اتخاذ اجراءات مضادة لتلك الاجراءات ، وفى تلك النقطة يكون من المستحيل التكهن عما اذا كان الهجوم او الدفاع هو الأكثر نجاحا ، وينبغى التذكر بأن سبب عدم الفاعلية الكاملة لمظلة الدفاع الجوى ضد الطائرات الاسرائيلية التى تعمل فوق الضفة الغربية يرجع اما الى ان تكون القوات البرية الاسرائيلية قد حطمت مواقع الصواريخ ، او ارغمتهم على نقلها ، بيد انه بالموازنة ولاسيما كجزء لا يتجزأ من مجموعة اسلحة متكاملة يبدو مستقبل الطائرة القتالية مشرقا ، شأنه شأن مستقبل الدبابة ، ولا تزال اقوى سلاح فى الحرب ، ولكنها لم تعد متفوقة فى عنصرها .

طائرة الهليكوبتر :

تعد الهليكوبتر مسألة اخرى ، ولكن ينبغى ان تكون الاستنتاجات مبدئية ، نظرا لأن الهليكوبتر لم تلعب دورا كبيرا فى الحرب ، وقد استخدمها كلا الجانبين بحذر هائل ، فاستخدمها المصريون بفاعلية الى حد ما لنقل الكوماندوز المغيرين لنصب كمين لتحركات القوات الاسرائيلية خلف الجبهة فى سيناء ، وربما يكون الاسرائيليون قد استخدموها بفاعلية مماثلة فى الغارات التى شنت بالقرب من محطة الالتقاط الالكترونية المصرية فى جبل عتاقة او ضدها ، وربما كان اكثر استخدام فعال للهليكوبتر هو عندما كان الاسرائيليون يستخدمونها فى نقل الجرحى .

وباستثناء واحد ، فانه لا يبدو ان اى جانب قد استخدم الهليكوبتر فى دور قتالى مساعد ، رغم ان كلاهما استخدمها على نحو مكثف بوصفها اداة غير قتالية ، والمساعدة القتالية الوحيدة المعروفة التى استخدمت فيها الهليكوبتر على جبهة السويس – سيناء حدثت يوم الثامن عشر من اكتوبر ، عندما هاجمت خمس طائرات هليكوبتر مصرية الجسور التى تسيطر عليها اسرائيل عبر قناة المياه العذبة غرب الدفرسوار ، وكان من الجلى ان تلك الطائرات كانت طائرات نقل تسقط متفجرات او براميل نابالم منصهر على نحو غير دقيق دون أن تصيب اهدافها ، بيد انها اشاعت الفوضى فى موقع قيادة فرقة قريب ، مما آثار موشى ديان وزير الدفاع الذى كان يزور الجبهة فى ذلك الوقت ، وقد اسقطت النيران البرية طائرات الهليكوبتر المصرية بأسرها .

وعلى الجبهة المصرية استخدم كلا الجانبين الهليكوبتر بنجاح لشن غارات مباغتة ، كما استخدمها السوريون فى عملية استيلائهم الأولى على موقع المراقبة الاسرائيلى على جبل الشيخ ، واستخدمها الاسرائيليون فى

عملية التغلغل فى العمق واحدة على الاقل شمال دمشق ، واستخدمها ايضا كل من السوريين والاسرائيليين بنتائج متباينة فى الدور الهجومى ، الذى استتبع القتال الذى نشب بالقرب من اعلى جبل الشيخ ابان كل من الحرب وحرب الاستنزاف فيما بعد .

وكانت الهليكوبتر ناجحة للغاية فى المبادرة بشن هجوم مباغت مما برهن على خطورتها بالنسبة لكل من القتال البرى ونيران الطائرات المعادية، عندما تستخدم فى العزيزات ابان معركة جارية ، ولا يبدو انها استخدمت على الاطلاق فى دور مساعدة نيران المدفعية على الجبهة السورية .

وتردد انباء غير مؤكدة ، ولم يؤكدها كلا الجانبين ، تفيد بانه فى مناسبات قليلة استخدم الاسرائيليون طائرات هليكوبتر حربية بنجاح ، وحتى يمكن تاكيد ذلك ، لابد ان يظل هـذا النجاح مجرد شائعة ، ومن الجلى ان التاثير لا يمكن ان يكون كبيرا ويبدو انه من المستبعد استخدام الهليكوبتر فى مساندة القتال فى بيئة محيطة تكون مهلكة بالنسبة لطائرات ا ف ــ ٤ وايه ــ ٤ ولكن دورها فى الغارات المخططة بدقة وبوصفها اداة للمساعدات غير القتالية هو امر مؤكد .

معدلات الخسائر والاستنزاف :

هناك جانبان فى استخدام الاسلحة الجديدة تم مناقشتهما كثيرا ، يتمثل اولهما فى فعاليتها الاهلاكية ، والمعدلات المرتفعة للخسائر فى الافراد والمعدات . ويتمثل الثانى فى ارتفاع معدلات استهلاك الذخيرة والوقود ، وهناك جماعة من ذوى الراى العسكرى تعتقد ان معدلات كل من الخسائر والاستهلاك لم يسبق لها مثيل وذات خطورة بالغة فى دلائلها الضمنية ، وتفترض فى اقل الاحوال ضرورة التغيير بصورة جذرية لعوامل كافة اركان الحرب فى تخطيط الخسارة .

وليس ثمة شك فى ان معدلات الخسائر والاستهلاك كان مرتفعا ، غير انه لم يتم بعد دراستها بصورة جادة فى النظريات التاريخية ، وينبغى الاحتفاظ بالحكم على تلك المسالة ، وتشير الدراسات الاولى الى ان خسائر الافراد على كلا الجانبين كانت اقل مما كانت عليه ابان فترة مماثلة فى حرب ١٩٦٧ ، ومن ثم فان معدلات حرب ١٩٦٧ كانت تماثل معدل الخسائر التى وقعت على كافة الجبهات فى الحرب العالمية الثانية ، وفيما يتعلق بمعدلات خسائر الدبابات ، فان الدراسات الاولية الاخرى تشير الى انها لم تتجاوز الخسائر المشابهة التى وقعت خلال فترة وجيزة من الحرب العالمية الثانية ، كما كان الحال فى كورسك ، انزيو وكاين ، ويتعين ايضا تقييم معدلات الاستهلاك فى اطار حرب وجيزة استغرقت فترة قتالية مكثفة للغاية .

مستقبل المشاة والمدفعية :

استنتج بعض المراقبين من البيانات المتاحة ان ايا من المشاة او المدفعية لم تلعب دورا هاما فى العمليات التى كانت فيها الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات والمقاتلات قاذفات القنابل والصواريخ المضادة للاسلحة الجوية هى الأسلحة الرئيسية ، واستخلص آخرون من المصدر نفسه الدليل على ان كلا من المدفعية والمشاة قد لعب دورا اكثر اهمية مما توقعه عدد كبير من الضباط الامريكيين او الاسرائيليين فى ميدان المعركة الحديثة .

وليس مثل هذه التصميمات المرتجلة محتملة ، نظرا لانه يمكن ايجاد الدليل لتدعيم اى من وجهات النظر الساذجة هذه ، وفى الحقيقة ، فانه رغم الصلة التقليدية بين تلك الأسلحة ، فان قضية اهمية المدفعية والمشاة فى حاجة الى تقييمها كلا على نحو منفصل .

وثمة سبب لعدم ظهور المدفعية على درجة من الاهمية فى تلك الحرب يرجع الى ان كلا الجانبين اعتبراها امرا مسلما به ، وتركز الاهتمام الرئيسى على المواجهات الاكثر اثارة بين الدبابات المضادة للدبابات والطائرات فى مواجهة صواريخ سام وزد . اس. يو ــ ٢٣ ــ ٤ ، وليس ثمة شك فى انه ليس فى وسع المدفعية السيطرة على قوات فى عربات مدرعة ، كما فعلت قوات المشاة الرئيسية ابان الحرب العالمية الاولى والثانية ، ان فرص تحقيق المدفعية اصابات مباشرة ضد تحرك الدبابات وايه. بى. سى. ضئيلة نسبيا ، كما ان اولئك الذين داخل تلك المعدات محصنين الى حد كبير امام قصف الشظايا .

غير ان كلا الجانبين اعتمد الى حد كبير على المدفعية للقيام بكل من المهام التقليدية وبعض المهام الجديدة ، وقد كانت نيران المدفعية منتشرة وكثيفة ، وربما تكون المدفعية قد الحقت خسائر فى الارواح فى كلا الجانبين على نحو يفوق كافة الاسلحة الاخرى مجتمعة ، ان قيمة المدفعية فى التنسيق مع الأسلحة الاخرى فى كل من المدرعات والمشاة قد تأكدت مرة اخرى بجلاء ، وفى حين دمرت نيران المدفعية عددا صغيرا نسبيا من الدبابات ، فانها عرقلت عمليات الدبابات على نحو خطير ، من خلال تدمير خزانات الوقود ، واغلاق الفتحات والاعتماد على اجهزة الرواية والمراقبة غير المرضية تماما داخل الدبابات وعربات ايه . بى . سى وكانت المدفعية فعالة بصفة خاصة فى قطع خطوط امداد الجند ، بما فى ذلك الجسور ، والممرات الجبلية والطرق الصحراوية كذلك .

واهم استخدام جديد للمدفعية هو الذى لجا اليه الاسرائيليون فى الهجوم على صواريخ سام المصرية والسورية ، مما اتاح للطائرات الاسرائيلية فرصة الاقتراب من ميدان المعركة لتقديم مساعدة عن قرب ، ولذلك السبب

دفع الاسرائيليون بمدافع بعيدة المدى عيار ١٥٥ ، ١٧٥ مليمتر بالقرب من الجبهة كى تصل بقدر الامكان الى ما وراء خطوط العدو وذلك لاحداث اعمق تصدع فى مظلة صواريخ سام .

وحتى بدء تلك الحرب كانت تدور مناقشة بين رجال المدفعية حول قيمة اسلحة المدفعية ذاتية الدفع ، وقد انتاب بعض رجال المدفعية ، ومن بينهم المؤلف ، شعور بالانزعاج ازاء تحويل المدفعية بصورة كاملة تقريبا الى اسلحة ذاتية الدفع ، اذ كانوا يدركون انه عندما يصاب محرك مدفع ذاتى الدفع بأى خلل او عندما تصاب آلته ، فانه يتوقف عن العمل ، وعندما يتوقف المحرك الرئيسى لسلاح متطور ، او يصاب بنيران المدفعية ، فانه من السهل ايجاد عربة اخرى يمكن ان تجر المدفع الى العمل ، بيد ان المتشككين قد تحولوا عن رايهم بعد ما لمسوه من اداء المدافع الاسرائيلية ذاتية الدفع فى تلك الحرب ، وقد كانت الخسائر فادحة نظرا لاصابة المحركات ببعض المتاعب الى حد ما وقلل من توافر المدافع المطلوبة ، غير انه لم يتم تحييد المدافع ذاتية الدفع على الاطلاق . او اذا تعرضت المدافع للنيران فانها تتوقف عن العمل بين حين وآخر ، غير ان الاسلحة الاخرى يمكن ان تتحرك الى مساحة قصيرة وتطلق النيران من جديد ، ومن جانب آخر فان الاسرائيليين قد حيدوا غالبا المدافع العربية التى يتم جرها ، وعندما تتعرض مواقع اطلاق النيران للنيران فان تلك الاسلحة لا يمكن ان تتحرك او تطلق النيران حتى يتوقف القصف .

وفيما يتعلق بالمشاة ، فان الأداء الدفاعى لكل من المشاة المصرية والسورية ابرز ان صمود المشاة ، مع مساعدة مجموعة من الاسلحة بالتنسيق مع المدفعية والدبابات والاسلحة المضادة للدبابات ، يمكن ان تجابه بفاعلية قوات المدرعات على اى نمط من الاراضى تقريبا .

ومع ذلك فانه فى وسع جنرالات اسرائيل التاكيد بثقة أن المشاة لا يمكن ان تبقى على ارض المعركة الحديثة ، اذ انهم يفكرون ، بالطبع ، فى نمط معركتهم ، تلك التى ترتكز على التحرك والمناورات التكتيكية ، ويعترفون بانهم لم يعتمدوا بصورة كافية على المشاة فى مستهل الحرب ، اذ ان تجربتهم فى حرب الأيام الستة قد ضللتهم ، غير ان انتشار وجود نيران المدفعية على نحو مميت كما فى تلك الحرب ، ومع وجود تهديد دائم من قبل مدرعات العدو ، فان الحاجة الى وجود حماية مدرعات ومشاة ميكانيكية فى تحرك الحرب يبدو امرا لا يمكن دحضه .

ان التقييم الاسرائيلى الشامل بشان استمرار اهمية المشاة والمدفعية فى الحرب الحديثة قد ابرزته قرارات اعادة التنظيم التى اتخذها جيش الدفاع الاسرائيلى فى التو عقب الحرب ، وهكذا فان نسبة المدفعية والمشاة بالنسبة للمدرعات قد تزايدت بصورة جذرية .

دلائل ضمنية تكتيكيه

المفاجاة :

تتمثل الحقيقة التكتيكية المهيمنة فى المفاجاة العربية التى تحققت فى الهجوم على خط بارليف وخط الجولان فى السادس من اكتوبر ، وقد استفاد العرب على كلتا الجبهتين من الاستراتيجية الكاملة والمفاجاة التكتيكية الكاملة تقريبا ، وكانت المفاجأة الاستراتيجية هى ثمار تخطيط ماهر ، واسلوب الخداع الذى انتهجه السوريون والمصريون ، بالاضافة الى خداع الذات الاسرائيلى .

وفى ضوء تلك المفاجاة الاستراتيجية فان المفاجاة التكتيكية كانت امرا حتميا ، بيد ان ذلك عززه الافتراض الاسرائيلى بأن الهجوم كان متوقعا الا يبدا حتى الساعة السادسة مساء ، فى حين انه بدا فى الحقيقة فى الساعة ٢ر٥ مساء ، وقد تعزز ايضا ، ولا سيما على الجبهة المصرية ، من خلال تكتيكات استخدام الأسلحة المضادة للدبابات التى يحملها الفرد ، وذلك فى تكنيك المهاجمة من مكمن تم الاعداد له على اكمل وجه ، بالاضافة الى موجات هائلة من هجوم المشاة على طول جبهة عريضة ، وقد عادت نظرية الدبابة التقليدية الاسرائيلية على المصريين بالنفع بصورة مباشرة وعادت عليهم بالضرر .

وقد اجريت انا وزملائى مقارنات اولية وتجريبية بشأن تاثير المفاجاة على الفاعلية القتالية النسبية للقوات المتقاتلة فى كل من حرب عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣ بالمقارنة بفاعلية كلتاهما فى المعارك التى لم يدخل فيها عنصر المفاجاة ، وبافتراض أن تاثير المفاجاة قد انصب اولا على التحرك النسبى ، وتعرض القوات المضادة للخطر بصورة نسبية ، فان القدرة القتالية للجانب الذى حقق المفاجاة كانت فى المتوسط ، مضاعفة تقريبا .

وتوضح تلك التحليلات ان المفاجاة ، رغم انها كانت اقل خطورة فانه كان لها تاثير مماثل ، عندما استخدمها الاسرائيليون فى عبورهم للقناة فى الخامس عشر والسادس عشر من اكتوبر .

الهجوم العربى على جبهة عريضة

ثمة حقيقة تكتيكية ملحوظة اخرى تتمثل فى انه بدلا من حشد العرب لقواتهم فى هجوم او هجومين لا يقاومان ، انتهج كلا الجيشين العربيين المهاجمين فى البداية وعلى نحو متعمد اسلوب الجبهة العريضة ، وكان ذلك يستهدف ارغام الاسرائيليين على تشتيت قواتهم وجهودهم والتخفيف من قدراتهم الدفاعية ، وذلك الانتهاك الجلى للمبادىء العسكرية الأساسية لحشد وتنظيم القوات يعد بمثابة استخدام هام للعرب لمبدا اساسى آخر — الا وهو المناورة — بهدف استغلال تفوقهم العددى فى الرجال والعتاد

على نحو فعال يختلف عن الجهود الواعية التى يبذلها الاسرائيليون للتركيز على « الكيف » (دون تجاهل « الكم ») ، وليس ثمة شك فى أنه (بعد عنصر المفاجأة) كان تطبيق مبدأ المناورة سمة هامة للنجاح الذى حققه المصريون فى السادس والسابع من أكتوبر .

قوة الحرب الدفاعية :

وقد برزت مرة أخرى بجلاء قوة الحرب الدفاعية ، مما ينم على أن مفاهيم كلوزويتز ومولتك لا تزال فعالة من الناحية التكتيكية (ويقر بالطبع هذان البروسيان واضعا النظريات أنه رغم أن أسلوب الدفاع هو أقوى شكل للقتال ، فان نجاح الحرب يمكن أن يتحقق فقط من خلال العمل الهجومى) ، وان خطوط بارليف والجولان المحصنة ، رغم أنه لا يمكن أن يقارنا من ناحية القوة الدفاعية بالمناطق المحصنة مثل خطى ماجينو وسيجفريد فى الحرب العالمية الثانية أو خطوط الدفاعات السوفيتية الهائلة فى كورسك فانهما قد انقذت الاسرائيليين من هزيمة مبكرة مدمرة ، وتعد الكمائن الدفاعية التى نصبها رجال المشاة المصريين للدبابات الاسرائيلية مستخدمين صواريخ ساجرز وآر. بى. جى — ٧ دولية آخر ، كما كان الحال بالنسبة لدفاعهم عن رؤوس جسورهم ضد الهجمات الاسرائيلية المضادة المتكررة ، وكان ذلك أيضا هو المفهوم التكتيكى المماثل الذى استخدمه الاسرائيليون فى وقف الهجوم المصرى فى الرابع عشر من أكتوبر .

جنود الصاعقة المصريين .

ان القاء نظرة على سجل عمليات الجندى المصرى فى السادس والسابع من أكتوبر يبرز الأهمية التى علقها كل من الجنود المصريين والاسرائيليين على تلك العمليات ، فقد هبط الكوماندوز فى عدة مناطق فى أقصى شرق القناة ، وعقدوا عدة عمليات ضد منشآت منطقة المؤخرة الاسرائيلية ، ونصبوا كمائن للتعزيزات الاسرائيلية التى تصل من تجاه الطرق الرئيسية من شرقى سيناء واسرائيل ، الا أنهم لم ينجزوا الكثير اذ أن نسبة خسائرهم فى الأرواح كانت عالية ، ولم يحققوا سوى خسائر ضئيلة نسبيا ، ولم تصب قواتهم أو اجتاحت أى وحدة اسرائيلية .

وفى حين يزعم الضباط المصريون بأن نتائج غارات الكوماندوز هذه كانت أكثر مما بدت فى حقيقة الأمر ، فانهم يعترفون بأن الخسائر كانت عالية بالمقارنة بالنتائج ، ومع ذلك فانهم يصرون على أن التأثير النفسى لتلك الغارات كان كبيرا وذا أهمية ، بالاضافة الى حالة الفوضى التى أشاعها الهجوم المباغت الأول عبر القناة .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن ذلك التقييم قد تأكد على نحو غير مباشر خلال محادثات مع الاسرائيليين ، وهناك تضارب فى التعليقات الاسرائيلية ، بشأن تلك الغارات اذ انهم يسارعون الى الاشارة بأن النتائج لم تكن ذات أهمية وأن عددا كبيرا من الكوماندوز قد استسلموا دون انجاز أى شىء ، كما انه لم يكن هناك أى تأخير ملحوظ لوصول فرق ادان وشارون فى الوقت المناسب ، ومع ذلك يقر أيضا الضباط الاسرائيليون أن القلق قد انتابهم بشأن تلك الغارات ، وربما تكون الأضرار خطيرة ، وان قوة ملاحظاتهم بشأن فشل الكوماندوز تؤيد التقويم المصرى بشأن الأهمية النفسية للغارات .

وقد كان العنصر البشرى بشكل دائما أهمية فى الحرب ، ورغم التكنولوجيا المتاحة لكلا الجانبين ، فانه كان بلا ريب أهم سمة من سمات الحرب .

العنصر البشرى فى الحرب

فاعلية القتال :

ان جانب الحروب العربية الاسرائيلية الذى جذب مزيدا من اهتمام كافة المعلقين والاخصائيين العسكريين وغيرهم ، يتمثل فى القدرة المستمرة للاسرائيليين على التغلب على قوات عربية أكبر عددا من كافة أنماط القتال — المواجهات الجوية ، اشتباكات قوات المدرعات ، القتال الليلى ، وقتال المشاة التقليدى ، على كافة أنواع تضاريس الأرض — صحراء منبسطة ، صحراء وعرة ، أرض زراعية مناطق حضرية وجبال وفى حقيقة الأمر وكما أشير من قبل فى هذا الكتاب ، فان التفوق العددى للعرب لم يكن كبيرا قط فى الخيال الشعبى وكما صورته الدعاية الاسرائيلية ، ويرجع ذلك فى أغلب الأحيان الى كفاءة نظام التعبئة الاسرائيلية المذهل ، وعدم كفاءة العرب فى تعبئة واستغلال تفوقهم البشرى الهائل ، ومع ذلك فان القوة العددية ، ككل ، تكون فى صالح العرب ، ورغم هذا فان الاسرائيليين ينتصرون دوما سواء فى الهجوم أو الدفاع ، وبغض النظر عن الحكمة العسكرية الخاصة بمعدلات القوة المطلوبة فى مختلف أنماط المواقف القتالية .

ومن بين كافة نتائج التحليلات الكيفية التى أشير لها من قبل وتم تلخيصها فى ملحق أ ، ب ، فان أهم النتائج تتمثل فى القيمة التى تحققت بالنسبة لفاعلية المقارنات النسبية للقتال الاسرائيلى المصرى فى حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وفى كلتا الحالتين فان الأطراف المتصارعة قدمت أفضل قوة عسكرية يمكن أن تدفعها الدول المعنية فى ذلك الوقت الى الميدان ، بما لديهم من ضباط ذوى خبرة وأسلحة ذات نوعيات متماثلة ومعقدة ، وفى حرب عام ١٩٦٧ عانى المصريون من التمزق الناجم عن مفاجأة معتدلة أو جوهرية ، وفى عام ١٩٧٣ عانى الاسرائيليون من التمزق الناجم عن المفاجأة الكاملة من الناحية العملية .

وبلغت نسبة قيمة فاعلية القتال الاسرائيلى فى مواجهة المصريين عام ١٩٦٧ ، ويمكن استخلاص نتيجتين هامتين من ذلك : اولا : فى حرب ١٩٧٣ — كما كان الحال فى حرب ١٩٦٧ — بلغت نسبة تفوق فاعلية القتال الاسرائيلى اثنين الى واحدة ، وبعبارة أخرى : فان مائة اسرائيلى ، فى وحدة عسكرية منظمة بصورة فعالة ، يماثلون تقريبا قوة قتالية قوامها نحو ٢٠٠ مصرى منظمة على نحو مماثل ، ومن الجلى انه ليس ثمة جندى اسرائيلى ، كفرد واحد من هو — فى المعدل — اقوى مرتين او اذكى مرتين او افضل مرتين من نظيره المصرى ، وفى حقيقة الأمر فان فى ضوء قاعدة قتال رجل ضد رجل ، يبدو ان هناك اختلافا نوعيا ضئيلا بين المتصارعين ، وهكذا فان المقارنة تكون فعالة فى ضوء الوحدات المنظمة ، وليس على اساس الفرد .

والنقطة الثانية الهامة الجديرة بالاشارة تتمثل فى انه فى حين ان التفاضل بين الوحدات الاسرائيلية والوحدات المصرية يقارب نفس التفاضل فى كلا الحربين ، اذ يبلغ اثنين الى واحد ، فان الهوة لم تصغر بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣ ، ان لم تكن قد اتسعت ، وذلك يتناقض تماما مع التفكير التقليدى ، الذى يشير الى ان اداء العرب كان فى حرب ١٩٧٣ ، افضل كثيرا مما كان عليه فى حرب ١٩٦٧ ، وقد استغلوا الوقت فى تحسين انفسهم ، فى حين ان الاسرائيليين لم يبذلوا جهودا مماثلة وذلك من دوافع الغطرسة وفرط الثقة ، بيد ان الدراسات الجادة لتلك المسالة لا تكشف فحسب ان التفكير التقليدى على خطا ، بل تكشف ايضا اسباب هذا الخطا .

ويوضح ما يلى ان اداء حرب ١٩٧٣ ليس مؤشرا يدل على تحسن الاداء العربى :

١ — فى حرب ١٩٦٧ بدا الاسرائيليون بالمفاجاة ، ولم يسترد العرب وعيهم قط ، وفى الحقيقة لم يكن هناك فرصة لاستعادة وعيهم .

٢ — فى حرب ١٩٧٣ بدا العرب بمفاجاة اكبر مما حققها الاسرائيليون فى حرب ١٩٦٧ ، ومع هذا فانه فى غضون ثلاثة ايام استرد الاسرائيليون وعيهم ، وقاتلوا على قدم المساواة مع العرب ، وتلك ابرز حالة فى التاريخ العسكرى .

٣ — ثمة سبب واحد وراء الانتصارات الاسرائيلية الأولى فى حرب ١٩٦٧ ، والتى اعقبها انهيار سريع للغاية للعرب يتمثل فى ان الاسرائيليين قد دمروا السلاح الجوى العربى ، وتمكنوا من استخدام سلاحهم الجوى فى هجمات كبيرة لم تواجه اى تحد مما اكمل التمزق والفوضى التى عمت القوات البرية العربية ، ونظرا لحيازة العرب لاسلحة دفاع جوى سوفيتية الصنع باعداد كبيرة فيما بين حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ فانه فى الحرب الأخيرة تمكن العرب من منع السلاح الجوى الاسرائيلى من ان يكون له يوم مشهود .

١ — فى حرب ١٩٦٧ كان القائد العام للقوات العربية ، والرجل المسئول مباشرة عن جبهة سيناء ، سياسيا بالتعيين ، وعدد كبير من الضباط المصريين يعتقدون انه كان رجلا سكيرا ومدمن مخدرات ، اما فى حرب ١٩٧٣ ، فكان يقود المصريين (والسوريين ايضا) رجال اذا لم يكونوا متساويين مع خصومهم الاسرائيليين (اذ ربما يمكن ان يقارن اسماعيل معهم على نحو غير موات) فانهم كانوا على الأقل جنودا مقتدرين لم يفقدوا صوابهم سواء فى النصر ام فى المحنة .

وقد تبدو مقارنة الأداء الاسرئيلى فى مقابل الأداء السورى ابان الحربين ، من اول وهلة متناقضة مع تلك الحجج ، بيد ان الموقف السورى فى حقيقة الأمر كان فريدا من نوعه ، ولا يمكن ان يكون اساسا لأية مقارنة من هذا القبيل ، فقد كان الأداء السورى فى عام ١٩٦٧ ضعيفا للغاية ، وثمة سبب واحد لذلك الا وهو تاريخ سوريا الملىء بالانقلابات العسكرية المتكررة ، وعقب كل انقلاب كان الطرف الذى نجح وبرز فجاة يقوم بتطهير كافة المنافسين الأقوياء او الأعداء بين الضباط ، وحالة الاضطراب التى شاعت بين القوات المسلحة بما تنطوى عليه من عجز حتمى قد برزت فى حرب ١٩٦٧ ، وثمة سبب آخر تمثل بالطبع فى ان السوريين لم يحاولوا بصورة حادة اعتراض الاسرائيليين فى حرب ١٩٦٧ .

وفى عام ١٩٧٠ وعقب اداء كئيب بصورة مماثلة ضد الأردن ، وقع بسوريا انقلاب آخر تزعمه وزير الحربية واللواء بسلاح الطيران آنذاك حافظ الأسد ، ومرة اخرى قام الرئيس الجديد باقصاء كبار القادة (ويشير دليل الحرب الراهنة أن ذلك لا يمكن ان يكون قد احدث اضرارا بالغة) وقام بتعيين رجاله الذين ظلوا منذ ذلك الحين يتولون زعامة البلاد العسكرية ، وهكذا فان تحسن الأداء السورى ، تحسنا كبيرا ، كان حتميا ، مهما كان ما حققه الاسرائيليون والمصريون او اى شخص آخر فى الوقت نفسه ، ولكن اذا ركزنا على النزاعات بين اسرائيل ومصر ، يبدو من الجلى أن الاسرائيليين لم يتقدموا فحسب خلال السنوات ما بين حرب ١٩٦٧ وحرب عام ١٩٧٣ ، بل انهم استمروا فى الحقيقة فى توسيع هوة فاعلية القتال بينهم وبين المصريين ، ويمكن تلخيص اسباب ذلك فيما يلى :

(أ) استمرار الجهود الاسرائيلية فى سبيل تحسين الأداء العسكرى ، على كافة المستويات وفى جميع المجالات : التدريب ، التدريس ، خطط التعبئة والتمرينات .. الخ ، وهكذا كان الاسرائيليون يطورون انفسهم فى حين أن العرب اقتصروا اساسا على محاولة انزال الهزيمة بالاسرائيليين فى عام ١٩٦٧ .

(ب) اعداد بحوث ذات اهمية عالية ، وتطوير القدرات وبذل جهود تكنولوجية اكثر كثافة فيما يبدو .

(جـ) اعداد تحليلات سليمة ، موضوعية وعسكرية اسرائيلية بشأن التجارب التاريخية والقدرات الراهنة ، فى مواجهة الاتجاه الثقافى العربى

للسماح للمشاعر والتفكير الحقيقى بالتأثير على التقييم والتخطيط والزعامة العملية ، وهو اتجاه استمر رغم جهود العرب الجـديدة بالثنـاء والتى استهدفت قمعه والسيطرة عليه .

قيادة الفريق احمد اسماعيل :

كما أشير فى تقييمات الحروب السالفة ، فان ثمة عاملا هاما للغاية للتفوق الاسرائيلى فى مجال الفاعلية القتالية الشامل والذى يرجع الى النوعية العالية للقيادة على كافة المستويات ، وفى حـرب ١٩٧٣ لم يتغير ذلك الموقف على نحو جوهـرى منذ حـربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، اذ أن القـادة الاسرائيليين كانوا اكثر مغامرة واكثر مرونة وافضل من ناحية القدرة على تنسيق جهودهم مع غيرهم من القادة فى المراتب الاعلى والادنى ، وما هو اهم بصفة خاصة ، بالطبع ، هو قدرة القيادات العليا على ان يحصلوا على اقصى ما يمكن من مساعديهم ، وذلك من خلال التعاون والتوجيه والقدوة .

ومن جانب آخر طرا تغيير هام على القيادة العربية فى تلك الحرب ، وكانت تلك القيادة المثلى تتمثل فى الفريق المصرى احمد اسماعيل ، ولم تكن له صفة عسكرية مميزة ، غير انه كان حصيفا ، محترما بكل ما تعنيه تلك الكلمة ، وقد شبهه احد الجنرالات الاسرائيليين احمد اسماعيل بالقائد الروسى فيلد مارشال كوتوزف ، خصم نابليون فى بورودينو وقال : « انه قائد كفء، عنيد ، يفهم رجاله على احسن وجه غير انه ليس بالقائد البارز » وذلك التشابه سليم ، اذ ربما يكون كوتوزوف مسئولا اكثر من اى شخص آخر عن أسوأ هزيمة لحقت بنابليون ، كما ان اسماعيل كان مسئولا اكثر من اى شخص آخر عن اسوأ هزائم تكبدها الجيش الاسرائيلى .

وتمثل الانجاز الرئيسى الذى حققه اسماعيل ، والذى وضعه فى مكانة مشرفة بين جنرالات التاريخ الناجحين ، فى توجيهه لاركان الحرب المصريين فى التخطيط لعبور قناة السويس فى عملية بدر ، وكان ذلك التخطيط الذى تضمن تحقيق عنصر المفاجأة الكاملة تقريبا ، هو الاساس الجوهرى لنجاح العرب الرئيسى فى الحرب .

وقد ارتكب اسماعيل خطأ فادحا فى الرابع عشر من اكتوبر ، واخطاء اخرى بين الخامس عشر والسابع عشر ، عندما كان بوسعه سحق فرقة شارون وتحقيق انتصار مصرى لا يبارى فى الحرب ، ومن جانب آخر ربما كان اقل توفيقا فى استعداداته الاولى ، ولم يخلق الفرصة قط التى تمكنه من الانتصار ، وفضلا عن ذلك ، فقد انتابه هلع بالغ ابان وقت الشدة ، كما حدث للشاذلى ، وفى غضون ساعات بدد كل ما كسبه فى الأيام السابقة، وكان يتسم بالحذر ، ومع هذا اقدم على المخاطرة ، عندما بدا ان انتصاره يتعثر ، وبهذا انقذ جزءا كبيرا مما حققه ، وفضلا عن ذلك وكما قال الجنرال

الاسرائيلى — « فانه كان يعرف رجاله ويحصل منهم على افضل مالديهم» .

اعتبارات سـلوكية اخرى :

تمثلت اهم الاعتبارات السلوكية بالطبع فى تأثير المفاجأة العربية — كما أشير من قبل — ان عنصر المفاجأة ، الذى حقق عظمة الانتصار الاسرائيلى فى عام ١٩٦٧ ، قد مضى الى حد اصلاح التوازن فى حرب ١٩٧٣ .

والدليل المهين هو ان الاعتبارات السلوكية ، مثل الفاعلية القتالية والقيادة والمفاجأة ، كانت اهم فى عام ١٩٧٣ من مجرد اجراء مقارنة مادية محضة للرجال ، الاعداد ، الاسلحة ، والتكنولوجيا .

واذا كانت حرب اكتوبر قد اثبتت اى شىء ، فانها اظهرت ان العنصر البشرى فى الحرب لا يزال يتمتع بالأهمية ، كما كان من قبل ، اذ كان الافراد الذين قاتلوا فى حرب ١٩٧٣ تحكمهم نفس القوانين والسلوكية التى اثرت فى الافراد المقاتلين فى عام ١٨١٣ ، ١٨٦٣ ، ١٩٤٣ ، ولذلك فانه من الأهمية على الاقل التركيز على تأثير التكتيكات كما هى لدراسة تأثير العتاد العسكرى على نتائج المعركة .

مفاهيم ضمنية استراتيجيـة :

المفاجأة :

مثلما كانت المفاجأة هى الحقيقة التكتيكية المهيمنة للحرب ، فانها كانت ايضا الحقيقة الاستراتيجية الساحقة ، ولا يرجع ذلك فحسب ، كما كتب احد الدارسين الاسرائيليين ، « الى انها مكنت العرب من املاء التحركات الأولى فى الحرب ، وضمان نجاحهم الاول(١) » . وقد كان لذلك النجاح آثار سياسية ونفسية على كافة الاطراف وعلى بقية العالم ، الى حد ان النجاح العسكرى الاسرائيلى فيما بعد لم يتمكن من معادلته تماما .

دور الـدول العظـمى :

ثمة وجهة نظر عالية تفيد بان اهم دلائل ضمنية استراتيجية للحرب هى تلك التى تتعلق بالدولتين العظميين : اذ ان كلا منهما كانت تواجه فى وقت او آخر خلال الحرب احتمال : ان الطرف الذى تسانده قد ينهزم ، وقد تصرفت كل منهما على نحو راسخ وايجابى للحيلولة دون وقوع تلك الكارثة لنفوذها وهيبتها ، وحاولت كلتاهما ، وهما تدركان الخطر من ان ردود الفعل هذه قد تدفع بهما الى الدخول فى نزاع ضد كل منهما الآخر ، وحاولتا تحقيق تعاون متبادل لتفادى اى من البديلين المقبولين الا وهما : هزيمة عملائهما

او حرب عالمية ثالثة ، ومن ثم وباجراء موازنة بين مصالح السلام العالمى ومصالح السلام فى الشرق الاوسط ، فانه ربما كان الموقف اخطر مما كنا ندرك فى ذلك الوقت .

تحقق اهداف السادات الاستراتيجية :

ربما كانت اهم نتيجة استراتيجية للحرب هى تحقيق هدف الرئيس السادات الاساسى من الحرب ، الا وهو انهاء تماما « حالة اللاسلم واللاحرب » . اذ ان الدول العظمى قد ارغمت على تركيز اهتمام جاد على مسالة السلام فى الشرق الاوسط وممارسة نفوذها الهام ازاء ايجاد من الحل للموقف المتجمد الذى كان قائما منذ عام ١٩٦٧ . ولا تزال قائمة تلك القوة الدافعة لايجاد حل ، والتى حركتها تلك الحرب . « ان نمط السادات الذى اتخذه فى ظل ظروف حرب ١٩٧٣ يمثل تلاحما ماهرا بين القوة والدبلوماسية يخدم اهدافا منطقية ومحدودة(٥) » . ولاسباب عديدة ، فان قرار الحرب اعادت مصر الى المكانة الاولى بين الدول العربية . اذ فى المقام الاول ، انهت زعامة الرئيس السادات الجريئة حالة الجمود ، مما اضفى هيبة على مصر وزعامتها ، وتعززت تلك المكانة والهيبة من جراء النجاح العسكرى الباهر ابان الجزء الاول من الحرب ، ومن خلال الحقيقة المتمثلة فى انه رغم النكسات التى حدثت فيما بعد ، فان القوات المسلحة المصرية انهت الحرب وهى محتفظة بجلاء واحد من اقوى الاجهزة العسكرية فى العالم ، اضف الى ذلك ان نتائج الحرب اتاحت لمصرفرصة اعادة فتح قناة السويس ، فاستعادت بعض مواردها الاقتصادية وهيبتها التى فقدتها فى حرب ١٩٦٧ كذلك .

ونتيجة لاداء الجيوش المصرية والسورية المشرف بالمقارنة بالهزائم السابقة ، فانه تم استعادة الكبرياء والثقة العربية ، بالاضافة الى ظهور القيمة الهائلة للبترول العربى كأداة اقتصادية استراتيجية مما عزز بصفة عامة النفوذ العربى فى الشئون العالمية .

وهكذا اذا كانت الحرب بمثابة قوة عسكرية تساند اهدافا سياسية ، فانه ليس ثمة شك فى انه بالمفهوم الاستراتيجى والسياسى قد كسبت الدول العربية ، ولاسيما مصر ، تلك الحرب ، حتى ولو كانت النتيجة العسكرية قد اسفرت عن حالة جمود اتاح لكلا الجانبين ادعاء تحقيق انتصار عسكرى .

صدمات اسرائيل :

ومن جانب آخر ، وحتى رغم ان النتيجة العسكرية اسفرت عن نجاح عسكرى اسرائيلى ، فان الحرب كانت بمثابة صدمة نفسية قاسية بالنسبة لشعب اسرائيل ، وبالرغم من اداء قواتهم المسلحة العالى على نحو يبعث على

الثقة ، واستعادة وعيهم على نحو ملفت للنظر من المفاجاة والهزائم الاولى ، وتحقيق نجاح تام ابان الايام النهائية من النزاع ، فان الحرب جعلت الاسرائيليين يدركون ان قواتهم ليست هى بالقوة التى لا تقهر ، وكان فى وسعهم ايضا ادراك ان اعداءهم العرب قادرون على الاقل على تنسيق تفوقهم الهائل فى الموارد البشرية والاقتصادية فى حرب ضد اسرائيل، فاستخدام اسلحة البترول والمال لتاليب الدول الصديقة والمحايدة ضد اسرائيل كان مرعبا بصفة خاصة ، وتلك الامور جعلت الاسرائيليين يدركون شيئا كانوا يتجاهلونه ، بصفة عامة فيما مضى : اذ انه وسط عالم عدوانى ، تكون فيه دولة عظمى على استعداد لتقديم مساعدات لا حدود لها لاعداء اسرائيل ، فانه لم يعد فى وسع اسرائيل الثقة بالنفس والاعتماد على قدرتها الخاصة للحفاظ على امنها ، وانه لأمر بغيض بالنسبة لعدد كبير من الاسرائيليين ان يتعين عليهم قبول الحقيقة القائلة بانه فى ظل تلك الظروف يعتمد مستقبل امنهم على استمرار المساعدات الامريكية والنوايا الحسنة .

ولا يمكن تقدير الصدمة النفسية التى المت بالشعب الاسرائيلى لمقتل مايناهز ٢٠٠٠ فرد ، واصابة مايربو على ١١٠٠٠ فى غضون تسعة عشر يوما من الحرب ، ويماثل هذا الموقف ما فقدته الولايات المتحدة فى فترة مماثلة فى الحرب العالمية الثانية اذ بلغ عدد القتلى ١٣٢٠٠٠ فرد والمصابين ٥٤٣٠٠٠ . ونظرا لأن خسائرنا الكلية فى تلك الحرب ، التى دامت نحو ١٣٧٠ يوما ، بلغت ٢٩٢٠٠٠ قتيل وبلغت الاصابات فى مجوعها ٩٦٣٠٠٠ فرد ، فان التاثير واضح . وفى حرب اكتوبر ، فان معدل الخسائر الاسرائيلية ، بالمقارنة بحجم السكان ، يفوق معدل الخسائر الامريكية فى الحرب العالمية الثانية باكثر من ثلاثين مرة . حتى رغم ان معدلات الخسائر الاسرائيلية الفعلية اليومية فى ميدان المعركة كانت اقل بكثير من معدلات الخسائر الامريكية فى الحرب العالمية الثانية فان ذلك لا يغير باى حال من الاحوال من تأثير معدلات الخسائر هذه على سكان دولة صغيرة ، كما أنه ليس فى وسع الاسرائيليين الاحساس بالعزاء من الحقيقة القائلة : بان معدلات خسائرهم فى ميدان المعركة قد بلغ اقل من نصف خسائر خصومهم العرب ، وفى ضوء عدد السكان الكلى ، فان معدل خسائر الاسرائيليين يفوق الخسائر المصرية بمعدل خمسة اضعاف .

وكانت هذه ولا تزال افكارا واقعية تراود الاسرائيليين .

مسالة لم تحل : الكم العربى فى مقابل النوعية الاسرائيلية :

تمثلت احدى نتائج تقييمات ما بعد الحرب التى اتسمت بالكآبة فى اتخاذ اجراءات اسرائيلية عاجلة لتفادى اية مفاجآت فى المستقبل وزيادة الاستعداد والقدرات العسكرية لقوة الدفاع الاسرائيلية ، ومن ثم فانه من المرجح أن تكون اسرائيل فى وضع اقوى نسبيا اليوم من ذى قبل من جيرانها العرب ، غير ان عددا كبيرا من الاسرائيليين يسالون انفسهم اليوم

الى اى مدى يمكن ان يستمر ذلك ، فى ضوء التفاوت بين اسرائيل وجيرانها، وكذلك فى ضوء الدلائل الأخيرة التى تشير الى ان العرب قادرون أيضا على استخدام العتاد العسكرى المعقد بصورة فعالة .

ولم تقدم الحرب اجابة واضحة على التساؤل الخاص بالفاعلية النسبية للمفاهيم الاستراتيجية الأساسية للجانبين المتصارعين : الا وهى استخدام الكمية العربية ضد النوعية الاسرائيلية ، وذلك بالطبع تبسيط مغال فيه ، نظرا لأن العرب حاولوا وحققوا نجاحا الى حد ما وضمان وجود كمية عسكرية منطقية ومحنكة فى حشد جيوشهم اساسا ، وحاول الاسرائيليون ، الذين حققوا مزيدا من النجاح فى ذلك ، تقديم كميات جوهرية من القوات على درجة عالية من النوعية العسكرية .

استنتاجات :

فى وسع المرء استخلاص نتيجة قصيرة الأجل من نتائج الحرب والجهود التى بذلها كلا الجانبين فى أعقاب الحرب للاستفادة من التجربة ، وتتمثل تلك النتيجة فى انه لا يبدو ثمة احتمال فى تحقيق العرب لأى نجاح عسكرى حاسم على الاسرائيليين فى غضون العشر أو العشرين عاما التالية، اذن ان النوعية الاسرائيلية ، التى تدعمها كمية منظمة على نحو مؤثر تشكلها دولة صغيرة ، سوف تحتفظ بلا ريب بالتفوق العسكرى على مدى عدة سنوات قادمة ، طالما ان المساعدات العسكرية متاحة لموازنة اية مساعدات خارجية تقدم للعرب .

ومن جانب آخر ، هناك نتيجة طويلة الأجل مختلفة الى حد ما ، فقد اظهرت التحليلات القياسية للحرب العالمية الثانية ان الالمان كانوا يتمتعون بفاعلية قتالية تفوق الروس بمعدل مائة فى المائة . حتى آخر عام ١٩٤٤ ، وتظهر التحليلات القياسية التى تقوم على اساس المقارنة بين حرب الأيام الستة وحرب اكتوبر ان الاسرائيليين كانوا يتمتعون بتفوق بنسبة ١٠٠٪ على العرب فى كلتا الحربين وفى الحرب العالمية الثانية ، ورغم التباين الهائل فى قدرات الروس والالمان ، فان الاتحاد السوفييتى هزم فى النهاية التفوق الكمى للجيش الالمانى وذلك من خلال الاستفادة بما كان يتمتع به من قوة بشرية هائلة ، ومن خلال صموده رغم الهزيمة (بالاضافة الى المساعدات الهائلة التى تلقاها من الولايات المتحدة وبريطانيا) .

ويشير ذلك المثال الى انه يتعين على الاسرائيليين السعى من اجل اقرار سلام دائم فى الوقت الذى لاتزال فيه نوعيتهم العسكرية متفوقة ، واذا انتظروا كثيرا فان الوقت قد يكون متأخرا ، وليست القدرات القتالية النسبية فقط لدول المواجهة فاسرائيل فى مواجهة مصر ، الأردن ، سوريا وحلفائها من دول اخرى مثل : العراق والمغرب ، هى الوحيدة التى تضمنتها

المعادلة الاستراتيجية ، بل ان العلاقة بين الدول العظمى والجهود التى بذلتها لتحقيق اهداف متباينة تعد اكثر اهمية ، وفى ضوء علاقة القوى العظمى هذه فانه لا يتعين اغفال ان الدول العربية ، التى قد لا تكون من دول المواجهة، يمكن ان تؤثر على تفاعل الدولة العظمى بصورة مباشرة وغير مباشرة باستخدام سلاح البترول الاقتصادى الهام .

الملاحظات

(١) قامت جولد مائير رئيسة الوزراء ومجلس وزرائها بتعيين تلك اللجنة فى الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٣ ، وخولت لها سلطة واسعة للتحقيق فى فشل المخابرات الاسرائيلية قبل الحرب ، واستعدادات جيش الدفاع الاسرائيلى للحرب وادائه خلال الفترة الأولى للهزائم الاسرائيلية . وكان رئيسها هو شيمون اجرانات رئيس المحكمة العليا واعضاؤها هم قاضى المحكمة العليا موشى لانداو ، والدكتور اسحق نيبهيزهال مراقب النفقات فى الحكومة ، واللفتنانت جنرال متقاعد ايجال يادين ، واللفتنانت جنرال متقاعد حاييم لازكوف ، واحيطت مشاوراتها واستنتاجاتها بالسرية البالغة ، غير أن الصحف نشرت بعض النقاط غير المحظورة من تقريرها وتضمنت :

(أ) النقد العنيف الموجه للجنرالات العازار ، زئيرا وجونين .
(ب) اشادة فاترة برئيسة الوزراء وديان وزير الدفاع .
(ج) اشادة قوية لتحريك وتعبئة جيش الدفاع ، ولقدرته على الأداء الحسن فى القتال فى ظل محنة قوية .

(٢) كما ذكر فى المرجع صفحة ٥٥٣ ، فانه ربما تكون الغارات الاسرائيلية التى شنت على محطة الالتقاط الالكترونية المصرية فى جبل عتاقة يوم ١٤ اكتوبر ، وما بعد ذلك قد ساهمت فى اثارة الفوضى بين المصريين بالنسبة للعمليات الاسرائيلية التى تمت من ١٥ الى ١٨ اكتوبر .

(٣) مرجع هيرتزوج صفحة ٢٧٢ .

(٤) مرجع أى شاليام .

(٥) ارجع الى الكتاب نفسه .

(٦) « دراسة حول ما أحرز من تقدم » تقرير اعدته منظمة البحوث والتقييم التاريخى فى عام ١٩٧٦ لوكالة الدفاع النووى ومعامل سانديا .

(٧) « تحليلات تقوم على اساس المقارنة ، بين اداء القتال العربى والاسرائيلى خلال حربى ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ . « تقرير اعده معهد البحوث والتقييم التاريخى عام ١٩٧٦ ، هذه مقارنات حول تشكيلات الاسلحة فى حجم اللواء والفرقة ، ولا تستهدف الاشارة الى اى اختلاف كامن فى الشجاعة اوالمهارة، او اصرار الأفراد : الجنود والضباط ، ويتضمن ملحق ا ، ب نتائج تلك التحليلات .

جـــدول (١)
القوة الجوية فى حرب اكتوبر ١٩٨٣

٩ — ٢٣ اكتوبر

قائمة	مصر الموجودات	مصر الإمدادات	سوريا الموجودات	سوريا الإمدادات	العراق	عرب آخرون	المجموع الكل للعرب الموجودات	المجموع الكل للعرب الإمدادات	الإسرائيليون	الإسرائيليون الموجودات	الإسرائيليون الإمدادات
المقاتلات :											
ميج ٢١	١٦٠	..	١١٠	..	١٨	٢٣	٣١١	..	سكاى هوك إيه – ٤	١٥٠	٢٠
ميج ١٩	٦٠	..	..	..	..	..	٦٠	..	فانتوم – اف – ٤	١٤٠	٣٦
ميج ١٧	٢٠٠	..	١٢٠	..	٧	٢٤	٣٥١	..	ميراج	٥٠	
سوخوى ٧	١٣٠	..	٤٥	..	٣٢٠	١٢	٢١٩	..	سوبر ميستير	١٢	
هونتر	..	..	..	..	١٦	٥	٢١	..			
المجموع الكل	٥٥٠	٩٣	٢٧٥	١١٣	٧٣	٩٢	٩٩٠	٢٠٦		٣٥٢	٥٥
قاذفات القنابل :											
ت . يو ١٦	١٨	..	..	..	..	..	١٨	..	فوتور		
آى ال – ٢٨	٣٠	..	..	..	..	..	٣٠	..	قاذفات قنابل		
المجموع الكل للطائرات	٥٩٨		٢٧٥		٧٣	٩٢	١٠٣٨				
المجموع الكل	٤٨						٤٨			٨	؟
المجموع الكل للطائرات	٥٩٨		٢٧٥		٧٣	٩٢	١٠٣٨			٨	؟

(تابع جدول ١)

قائمة	مصر الموجودات	مصر الإمدادات	سوريا الموجودات	سوريا الإمدادات	العراق	عرب آخرون	المجموع الكل للعرب الموجودات	المجموع الكل للعرب الإمدادات	الإسرائيليون	الإسرائيليون الموجودات	الإسرائيليون الإمدادات
طائرات النقل :											
إيه . إن ١٢	٣٠	..	..	..	..	..	٣٠	..	س – ١٣٠	٦	–
آى . ال ١٤	٤٠	..	١٢	..	..	..	٥٢	..	س – ٤٧	١٢	..
آى . ال ١٨	..	..	٤	..	..	..	٤	..	س – ٩٧	١٠	
المجموع الكل	٧٠	..	١٦	..	..	..	٨٦	..		٦٦	
هليكوبتر :											
ميج ٦	١٢	..	٦	..	..	..	١٨	..	سوبر فريلون	٨	
ميج ٨	٧٠	..	٣٠	..	..	..	١	..	س . اتن – ٥٣	١٢	
									إيه بى – ٢٠٥	٣٠	
المجموع الكل	٨٢	٧٠	٣٦	١٢	..	١٢	١٣٠	٨٢		٥٠	
المجموع الكل للطائرات											
غير المقاتلة	١٥٢		٥٢			١٢	٢١٦	..		١١٦	
المجموع الكل للموجودات	٧٥٠		٣٢٧		٧٣	١٠٤	١,٢٥٤			٤٧٦	
الخسائر	٢٦٥		١٣١		٢١	٣٠	٤٤٧			١٠٩ +٥٦	
الإمدادات	١٦٣		١٢٥		٥٢	٧٤	١,٠٩٥			+٤٢٣	
المجموع الكل فى نهاية الحرب	٦٤٨		٣٢١		٥٢	٧٤	١,٠٩٥			+٤٢٣	
القوة البشرية	٢٣,٠٠٠		٩,٠٠٠		؟	؟	+٣٢,٠٠٠			١٧,٠٠٠	

جـــدول (ب)

مميزات المقاتلات وقاذفات القنابل — المقاتلة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣

- ايه اس ٣ صواريخ جو ارض
- هافار صاروخ جوى فى سرعة الضوء

	إجمالى الوزن (رطل)	الطـول (قدم)	الاتسـاع (قدم)	أقصى سرعة (ماش)	المـدى القتالى ميل	تسليح ثابت	حمولة القنابل النموذجية	ملاحظـات
الطائرات العربيـة :								
ميج ٢١	٢٠,٧٢٥	٥١ ¼	٢٣ ½	٢,١	٣٠٠	مدفع عيار ٢×٢٣ مليمترا	قنابل ٢×١٠٠ رطل أو صواريخ ٦٤×٥٧ مليمترا	تستخدم فيايدو لمهام التفوق الجوى فحسب
سوخوى ٧	٢٩,٧٥٠	٥٧	٢٩ ¼	١,٦	٢٨٥	مدفع عيار ٢×٣٠ مليمتر	قنابل ٢×٥٥٠ رطلا صواريخ ٣٢×٥٧ مليمترا	
ميج ١٧	١٢,٥٠٠	٣٦ ½	٣١	٠,٩٨	٣٢٥	مدفع عيار ٢×٢٣ مليمترة	نابل ٢×٥٥٠ رطلا أو صواريخ ٣٢×	

(تابع) جدول (ب)

الطائرات الإسرائيلية :								
ميـراج	٢٩,٧٦٠	٤٩	٢٧	٢,٢	٤٧٥	مدفع عيار ٢×٣٠ مليمترا	١ × إيه إس ٣٠ ٢×١٠٠٠ رطل أو ٤×١٠٠٠ رطل ٧٢ صاروخا (٦٨ مليمترا)	
إف — ٤	٥٧,٤٠٠	٥٨ ½	٣٨ ½	٢,٢٧	٦٥٦	مدفع عيار ١×٢٠ مليمترا	قنابل ١٨×٧٥٠ رطلا مافريك ٦× بى جى إم	أقصى حمولة ١٦,٠٠٠ رطل قنابل وصواريخ
إيه — ٤	٢٤,٥٠٠	٤٠ ¼	٢٧ ½	٠,٩٤	٣٤٠	مدفع عيار ٢ × ٣٠	٤×١٠٠٠ رطل أو ١×٢٠٠٠ رطل ٤× بول باب	أقصى حمولة ١٠,٠٠٠ قنابل وصواريخ ٤٠٠٠ رطل فقط بسرعة ٣٤٠ ميلا
سوبر ميستير	٢٢,٠٤٦	٤٦	٣٤ ½	١,٧٣	٢٥٠	مدفع عيار ٢×٣٠	٣٨ صاروخا (عيار ٦٨) ٢×١٠٠٠ رطل أو ٣٨ صاروخا (عيار ٦٨) ٥/٢٤ (هافار)	

هوامش جــدول (ج)

(١) القوة البشرية فى الجيش الميدانى فقط والتى قدمت مساعدات مباشرة ، وعلى سبيل المثال بلغت قوة الاحتياطى الإسرائيلى مايربو على ٣٥٠,٠٠٠ و بلغت القوة المصرية ما يربو على مليون .

(٢) تتضمن ١٥٠ دبابة تم الاستيلاء عليها طرازى – ٥٤/٥٥ ، معدلة .

(٣) تتضمن ٣,٥٠٠ + نصف عربة نقل طراز ٥٠٠ إم – ١١٣ .

(٤) تتضمن إس . إس – ١٠ وإس . إس – ١١ ، لم تستخدم فيما يبدو .

(٥) تتضمن تى – ٢٦

(٦) تتضمن ٨٠ طراز إس . إيه – ٦

(٧) تتضمن ١٥٠ طراز زد . إس . يو – ٢٣ – ٤ .

(٨) معظمها صواريخ ساجر وبعض صواريخ سنابر .

(٩) تتضمن تى – ٢١

(١٠) تتضمن ٦٠ طراز إس . إيه – ٦

(١١) تتضمن ١٠٠ طراز زد . إس . يو – ٢٣ – ٤

(١٢) معظمها صواريخ ساجر وبعض صواريخ سنابر .

جــدول (د)
القوة البرية المقدرة ، حرب اكتوبر ١٩٧٣

	إسرائيل	المجموع الكلى للقوة العربية	مصر	سوريا	القوة العراقية	القوة الأردنية	عرب اخرون	المجموع الكلى للعراق	المجموع الكلى للأردن	القوة العربية الكاملة
القوة البشرية العسكرية المتاحة[1]	٣١٠,٠٠٠	٥٠٥,٠٠٠	٣١٥,٠٠٠	١٤٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٩٥,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	٦٥٠,٠٠٠
فرق الدبابات – المدرعات	٧	٥	٢	٢	١	٠٠	٠٠	٢	٢	٨
فرق المشاة ، الميكانيكية	٠٠	١١	٨	٣	٠٠	٠٠	٠٠	٤	٣	١٨
فرق ألوية منفصلة	١٨	٤٧	٢٠	٢١	٠٠	١	٥	؟	؟	٤٦
دبابات متوسطة	٢,٠٠٠[2]	٤,٨٤١	٢,٢٠٠[5]	١,٨٢٠[9]	٣٠٠	١٥٠	٣٧١	١,٢٠٠	٥٤٠	٦,١٣١
إيه . بى . سى . اس	٤,٠٠٠[3]	٤,٣٢٠	٢,٤٠٠	١,٣٠٠	٣٠٠	٢٠٠	١٢٠	١,٥٠٠	٥٥٠	٥,٨٧٠
مدفع (أكثر من ١٠٠ مليمتر)	٥٧٠	٢,٠٥٥	١,٢١٠	٦٥٥	٥٤	٣٦	١٠٠	٦٠٠	٣٢٠	٢,٨٨٥
قاذفات صواريخ مضاعفة	٠٠	٩٠	٧٠	٢٠	؟	٠٠	٠٠	؟	٠٠	٩٠
مدافع هاون (أكثر من ١٠٠ مليمتر)	٣٧٥	+٦٥٠	٣٥٠	٣٠٠	؟	؟	٢٠	؟	؟	+٦٥٠
قاذفات إس إس إم[4]		٤٢	٣٠	١٢	٠٠	٠٠	٠٠	؟	٠٠	٤٢
قاذفات صواريخ سام	٧٥	١,٢٨٠	٨٨٠[6]	٣٦٠[10]	٢٠	٠٠	؟	؟	٠٠	١,٢٨٠
ستريلا	٠٠	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	١٠٠٠	؟	٠٠	؟	؟	٠٠	٣,٠٠٠
مدافع إيه . إيه	١٠٠٠	+٣,٦٥٠	٢,٧٥٠[7]	١,٩٠٠[11]	؟	٠٠	؟	؟	؟	+٣,٦٥٠
صواريخ إيه . تى	٢٨٠	١,٢٠٠	٨٥٠[8]	٣٥٠[12]	؟	٠٠	٠٠	؟	٠٠	١,٢٠٠
صواريخ إيه . تى	٦٥٠	+٥,٣٠٠	٢,٥٠٠	٢,٨٠٠	؟	؟	؟	؟	؟	+٥,٣٠٠
مدافع إيه . تى	٠٠	+٢,٢٠٠	+١,٣٠٠	٩٠٠	؟	؟	؟	؟	؟	+٢,٢٠٠

جـــدول (د)

القوة البحرية المقدرة فى حرب اكتوبر ١٩٧٣

	إسرائيـــل	مصر	ســوريا
القوة البشرية	٤٠٠٠	١٧,٠٠٠	٢,٠٠٠
زوارق دورية وطوربيد	١٨	٣٤ (٢)	١٣ (٥)
زوارق صواريخ موجهة	١٤ (١)	١٧ (٣)	٩ (٦)
مدمرات وبوارج	—	٨	—
غواصـــات	١	١٢	—
سفن برمائيـــة	—	١٤	—
سفن صغـيرة	١٠	٢٤ (٤)	٢ (٧)
المجمـوع الكلى	٤٣	١٠٩	٢٤

(١) تتضمن ١٢ زورقاً « سعار » و ٢ « ريشيف » .
(٢) فقد زورقين فى الحرب .
(٣) تتضمن ٥ زوارق كومار ، ١٢ أوسا ، فقد ٢ أوسا خلال الحرب .
(٤) فقد زورقين خلال الحرب .
(٥) فقد زورق خلال الحرب .
(٦) يتضمن ٦ كومار ، ٣ أوسا ، فقد ٢ كومار وزورق أوسا خلال الحرب .
(٧) فقد زورق خلال الحرب .

جـــدول (هـ)

الخسائر الجوية المقدرة فى حرب اكتوبر ١٩٧٣

(ا) النوع :	مصر	سوريا	العراق	عرب آخرون	المجموع الكلى للعـــرب	إسرائيل
مقاتلة	٢٢٢	١١٧	٢١	٣٠	٣٩٠	١٠٣
قاذفة قنابل	١	—	—	—	١	—
نقـــل	—	١	—	—	١	—
هليكوبتر	٤٢	١٣	—	—	٥٥	٦
المجمـوع الكلى	٢٦٥	١٣١	٢١	٣٠	٤٤٧	١٠٩

(ب) السبب :

	المجموع الكلى للعـــرب	إسرائيل
معارك جوية	٢٨٧	٢١
بسبب صواريخ سام	١٧	٤٠
بسبب المدافع المضادة للدبابات	١٩	٣١
مفقود أو مجهول المصير	٦٦	١٥
قوات صديقة	٥٨	٢
المجمـوع الكلى	٤٤٧	١٠٩

(جـ) الأضرار :

	المجموع الكلى للعـــرب	إسرائيل
الأضرار	١٢٥	٢٣٦
تم إصلاحه فى أسبوع	؟	٢١٥

جـــدول (و)

الخسائر المقدرة فى حرب اكتوبر ١٩٧٣

	إسرائيل	المجموع الكلى للعرب	مصر	سوريا	الأردن	العراق	عرب آخرون
أفـراد :							
قتـــل	٢،٨٣٨*	٨،٥٢٨	٥٠٠٠	٣،١٠٠	٢٨	٢١٨	١٠٠
جـرحى	٢،٨٠٠*	١٩،٥٤٩	١٢،٠٠٠	٦،٠٠٠	٤٩	٦٠٠	٣٠٠
أسرى أو مفقودون	٥٠٨	٨،٥٥١	٨،٠٣١	٥٠٠	—	٢٠	؟
دبابات**	٨٤٠	٢،٥٥٤	١،١٠٠	١،٢٠٠	٥٤	٢٠٠	؟
عربات إيه بى سى اس	٤٠٠	+٨٥٠	٤٥٠	٤٠٠	—	—	؟
قطع مدفعية	؟	+٥٥٠	٣٠٠	٢٥٠	—	؟	؟
بطاريات سام	—	٤٧	٤٤	٣	—	—	؟
طائرات	١٠٣	٣٩٢	٢٢٣	١١٨	—	٢١	٣٠
هليكوبتر	٦	٥٥	٤٢	١٣	—	؟	؟
سفن بحرية	١	١٥	١٠	٥	—	—	—

• تم إضافة نحو ١٠ ٪ إلى خسائر الأرواح الإسرائيلية الرسمية كى تمثل على وجه التقريب عدد الجرحى الذين ماتوا متأثرين بجراحهم ، وفى الحقيقة أن الأرقام الإسرائيلية الرسمية لا تتضمن فيما يبدو أولئك الجرحى الذين لم يتم ترحيلهم من مواقع المساعدات والمستشفيات الميدانية .

•• دبابات دمرت أو توقفت عن العمل لمدة يوم أو أكثر ، وعلى سبيل المثال يبدو أن الإسرائيليين قاموا بإصلاح نحو ٤٠٠ دبابة من خسائر الدبابات الموضحة هنا ، وقاموا أيضاً باصلاح نحو ٣٠٠ دبابة عربية .

جـــدول (ز)

مميزات : الصواريخ والقذائف الصاروخية ، حرب اكتوبر ١٩٧٣

الاسم	السمة المميزة	الطول (سم)	المحيط (سم)	المسافة بين الجناحين (سم)	أقصى سرعة (ماش)	وزن القذيفة (كيلوجرام)	وزن رأس القذيفة (كيلوجرام)	نوع رأس القذيفة
صواريخ جوجو (إسرائيل) شامير		٢٦٠،٠	١٦،٠	٦٠،٠	٢،٠	٩٣،٠	١١،٠	شديد التفجير
سايدوينر	إيه آى إم – ٩	٢٨٤،٠	١٢،٧	٦٠،٩	٢،٠	٧٥،٠	١١،٤	شديد التفجير
العـرب أتـول	ك – ١٣ إيه	٢٨٠،٠	١٢،٠	٥٣،٠	٢،٠	٦٩،٠	٠٠	شديد التفجير
صواريخ جو أرض إسرائيل والى	جى دبليو إم ك – أ	٣٤٤،٠	٣٨،١	١١٤،٠	٠٠	٤٩٩،٠	٢٨٥،٠	شديد التفجير
مافريك	إيه جى إم ٦٥	٢٤٦،٠	٣٠،٠	٧١،٠	٠٠	٢٠٩،٠	٥٩،٠	شديد التفجير (محدد الشكل)
بول باب	إيه جى إم ١٢	٣٢٠،٠	٣٠،٥	٩٥،٣	+٢،٠	٢٥٨،٠	٠٠	» »
شريك	إيه جى إم ٤٥	٣٠٤،٨	٢٠،٠	٩١،٤	٢،٠	١٧٧،٠	٠٠	شديد التفجير (شظايا)
ساتندرد آرم	إيه جى إم ٧٨	٤٥٧،٠	٣٠،٥	١٣٩،٧	+٢،٠	٨٢٦،٠	٠٠	شديد التفجير
العـرب كيلت	إيه إس – ٥	٩٤٠،٠	٠٠	٤٦٠،٠	٠٠	٠٠	٠٠	شديد التفجير
صواريخ أرض . أرض								

	الاسم	السمة المميزة	الطول (سم)	المحيط (سم)	المسافة بين الجناحين (سم)	أقصى سرعة ماش	وزن القذيفة كيلوجرام	وزن رأس القذيفة كيلوجرام	نوع رأس القذيفة
إسرائيل	جيركو	إم .أو .دي–٦٦٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	شديدالتفجر
العرب	فروج		٩٠٠,٠	٩٥,٠	١٠٥,٠	٠٠	٢,٠٠٠,٠	٠٠	شديدالتفجر
	سكوت		١,١٠٠,٠	٨٥,٠	٠٠	٥,٠	٦,٣٠٠,٠	٠٠	شديدالتفجر
صواريخ أرض . جو									
إسرائيل	هوك	إم.آي.إم–٢٣إيه	٥١٢,٠	٣٥,٠	١٢٢,٠	٢,٥	٥٨٠,٠	٠٠	شديدالتفجر
العرب	جيدلاين	إس . إيه – ٢	١,٠٧٠,٠	٥٠,٧٠	٠٠	٠٠	٢,٣٠٠,٠	١٣٠,٠	شديدالتفجر
	جيسرا	إس . إيه – ٣	٦٧٠,٠	٤٥,٦٠	١٢٢,٠	٠٠	٠٠	٠٠	شديدالتفجر
	جينفول	إس . إيه – ٦	٦٢٠,٠	٣٣,٥	٠٠	٠٠	٥٥٠,٠	٤٠,٠	شديدالتفجر
	جريل ستريلا	إس . إيه – ٧	١٢٥,٠	٧,٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	شديدالتفجر
صواريخ مضادةللدبابات إيه تى									
صواريخ موجهة	إيه تى جى ام								
إسرائيل	تى أو. دبليو	بى جى ام – ١٧ إيه	١١٧,٠	١٥,٢		٢٧٨,٠	١٨,٠	٠٠	شديدالتفجر (محددالشكل)
	ال.إيه دبليو	إم – ٧٢	٦٥,٣	٦,٦		١٤٥	١,٢٥	٠٠	شديدالتفجر (محددالشكل)
	سوبر بازوكا	إم – ٢٠ إيه	١٥٣,٠	٨,٩		١٤٨,٩	٣,٣١	٠٠	شديدالتفجر (محددالشكل)

	الاسم	السمة المميزة	الطول (سم)	المحيط (سم)	المسافة بين الجناحين	أقصى سرعة	وزن القذيفة كيلو جرام	وزن رأس القذيفة	نوع رأس القذيفة
العرب	سنابر	إيه تى – ١	١١٣,٠	١٥,٠		٤٩,٠	٢٢,٢٥	٠٠	شديدالتفجر (محددالشكل)
	ساجر	إيه تى – ٣	٨٨,٠	١٢,٠		١٢٠,٠	١١,٣	٠٠	شديدالتفجر (محددالشكل)
		آر بى جى – ٧	٠٠	١٠/٤		٠٠	٠٠	٢٥	» »

• إسم كناية لحلف شمال الأطلنطى .

•• مدافع إيه . إيه : إسرائيل : عيار ٢×٢٠ مليمترا، ٤×٢٠ مليمترا ، ٢×٤٠ مليمترا يوضع على إيه . إن . ال (بان هارد) أوهيكل معدل ام–٤٢
العرب : زد اس يو – ٢٣ – ٤ (عيار ٤×٢٣ مليمتر) يوضع على هيكل معدل بى – تى ٧٦ ، إس يو – ٥٧ ، مزدوج عيار ٥٧ مليمترا يوضع على هيكل عربة مدرعة .

••• مدافع إيه . تى إسرائيل : عيار ١٠٦ مليمترات آر . آر
العرب : إس يو ١٠٠ (عيار ١٠٠ مليمترا ، إس ب ، مدرع) ، دى ٤٨ (عيار ٨٥ مليمترا، إم – ٣٤١٩ ، ب – ١٠) عيار ٨٢ مليمترا مدفع مرتد (ب – ١١) عيار ١٠٧ مليمترات مدفع مرتد .

تابع جـدول (ز)

خصائص الصواريخ والقذائف الصاروخية فى حرب ١٩٧٣

الأداة المستخدمة	التوجيه	الجهة المقصودة	المدى (كيلومتر)	منصة الإطلاق	الارتفاع
صاروخ وقود صلب	أشعة تحت الحمراء	أشعة تحت الحمراء		ميراج ، اف ٤	
صاروخ وقود صلب	أشعة تحت الحمراء	أشعة تحت الحمراء	٢٤ - ٣	ميراج ، اف ٤	
صاروخ وقود صلب	أشعة تحت الحمراء	أشعة تحت الحمراء	٧٤ - ٢	ميج - ٢١	
الجاذبية	بالتليفزيون			إيه - ٤ ، اف - ٤	
صاروخ صلب ذو مرحلتين	بالتليفزيون			إيه - ٤ ، اف - ٤	
صاروخ سائل	موجه بالراديو	موجه بالراديو	١٧,٠٠	إيه - ٤ ، اف - ٤	
صاروخ صلب	رادار فعال	رادار فعال	١٦,٠٠	إيه - ٤ ، اف - ٤	
صاروخ صلب مزدوج الاندفاع	رادار فعال	رادار فعال	٢٥ +	اف - ٤	
صاروخ صلب مزدوج الاندفاع	رادار فعال	رادار فعال	٣٢٠,٠٠	ل يو - ١٦	
صاروخ صلب مزدوج الاندفاع	رادار فعال	رادار فعال	١٥٠,٠٠	لم يستخدم ، مكثف قليلا	
صاروخ صلب	جهاز حفظ توازن طاره	لا شئ	٦٠,٠٠	جهاز تعقب بالتلسكوب (ب ف-٧٦)	
سائل	مقصود	لا شئ	٢٨٠,٠٠	ناقلة متحركة	
صاروخ صلب ذو مرحلتين	الرادار	الرادار	٣٥,٠٠	اس ب	١٢,٦٠٠-٣٠
صاروخ ذو مرحلتين سائل ، صلب	بالرادار	الرادار	٥٠,٠٠		١٨,٦٠٠—

تابع جـدول (ز)

خصائص الصواريخ والقذائف الصاروخية فى حرب اكتوبر ١٩٧٣

الادارة المستخدمة	التوجيه	الجهة المقصودة	المدى (كيلو متر)	منصة الاطلاق	الارتفاع
صاروخ صلب ذو مرحلتين	بالرادار	بالرادار	٣٠,٠٠		
صاروخ متكامل ينطلق بقوة النفاثة	بالرادار	بالرادار	٣٠/٦٠	اس ب	٤,٠٠٠/١٨,٠٠٠
صاروخ متكامل ينطلق بقوة النفاثة	أجهزة بصرية	منجذب الحرارة	٠٠	الكتف ، ب آر دى . إم	
صاروخ صلب ذو مرحلتين	موجه باللاسلكى	طريق بصرى	٦٥-٣,٧٥	إم - ١١٣ - إيه ب س	
صاروخ صلب	مستهدف	طريق بصرى	١٥و	الكتف	
صاروخ صلب	موجه باللاسلكى	أجهزة توجيه بصرية	٥و - ٢,٣	(صندوق يحمل باليد)	
صاروخ صلب	موجه باللاسلكى		٥و - ٣	(ب آر دى إم ، بى إم ب)	
صاروخ صلب	مستهدف	أجهزة توجيه بصرية	٣و	الكتف	

وزير الدفاع . . . . . موشى ديان
رئيس الاركان . . . . . ليفتنانت جنرال دافيد العزار
مساعد خاص لرئيس الاركان . ليفتنانت جنرال بارليف
نائب رئيس الاركان للعمليات . ماجور جنرال تال
رئيس عمليات الفرق . . . ماجور جنرال ابراهام تامير
مساعد رئيس عمليات الفرق . بريجادير جنرال ليفي
مدير المخابرات . . . . ماجور جنرال زيرا
مساعد مدير المخابرات . . . بريجادير جنرال شاليف
رئيس الموساد (الجهاز السرى) ماجور جنرال زيفى زامير
القيادة الجوية . . . . .
ماجور جنرال شموئيل (جوروديش) جونين

الفرقة ٢٥٢ (من الجيش النظامي(٣) ماجور جنرال ابراهام (البرت) مندلر
بريجادير جنرال كالمان ماجين(٣)
لواء مدرعات رقم ٦٤٠ . . . كولونيل جابى امير
لواء مدرعات رقم ١٤ . . . كولونيل امنون ريشيف(٤)
لواء مشاة (الزيوتى) ١١٦ - ١٦ أ كولونيل ريفين بشلس
لواء مدرعات رقم ٤٠٠ . . . كولونيل دانى شومرون
لواء مدرعات ٦٤ (٨ ـ ٩ اكتوبر(٣)) كولونيل ابراهام بارون
لواء مدرعات ١٦٢ (من قوات الاحتياط ٧ اكتوبر) ماجور جنرال ابراهام (برن) ادان
نائب القائد . . . . . ماجور جنرال دتيك تاماري
لواء مدرعات رقم ٢١٧ . . كولونيل اريه قارين
لواء مدرعات رقم ٦٠٠ . . . كولونيل ناتك بارام
لواء مدرعات ٦٤٠ (٧ اكتوبر) كولونيل جابى امير . . . .
لواء مدرعات ٢٤٧ (١٦ ـ ١٧ اكتوبر) كولونيل توفيا راتيف
جزء من لواء ٣٥ (١٦ ، ١٧ اكتوبر) كولونيل يوزى يعيرى
جزء من لواء مدرعات (٩ ـ ١٢ اكتوبر)
(دبابات تى ـ ٥٤/٥٥) . . كولونيل يويل جونين
تشكيل لواء مشاة (٢١ ـ ٢٥ اكتوبر)(٩) بريجادير جنرال دوتيك تاماري

لواء مدرع ١٤٣ (قوات احتياط)
(٧ اكتوبر) . . . . . ماجور جنرال (اريك) شارون
نائب . . . . بريجادير جاكوب ادين
لواء مدرعات ٤٢١ . . . كولونيل حاييم اريز
لواء مدرعات ٢٤٧ . . . كولونيل توفيا راتيف
لواء مدرعات ١٤ . . . . كولونيل امنون ريشيف
جزء من لواء ٢٤٣ (١٥ اكتوبر) كولونيل دانى مات
لواء مشاة ١١٦ (١٦ أ) (٨ ـ ١٢ اكتوبر) كولونيل ريوفين بشلس
تشكيل فرقة ١٤٦ (١٣ اكتوبر) بريجادير جنرال ساسون
لواء مشاة ١١٦ (١٦ أ) . . كولونيل ريوفين بشلس
لواء مشاة ميكانيكى ١١ . . كولونيل جاكوت بليد
لواء . . . . أ
تشكيل لواء ٤٤٠(٣) (١٥ اكتوبر) ماجور جرانيت اسرائيل
ماجور جنرال ميناحم ميرون
لواء . . . . أ
لواء . . . . أ
لواء . . . . أ
القيادة الجوية في سيناء . . ماجور جنرال يشايا هوجافيش
لواء مشاة ٩٩ . . . . . كولونيل ميلى شاميرا
لواء . . . . أ
القيادة المركزية . . . . ماجور جنرال يونا افرات
لواء . .. . أ
لواء . .. . أ
القيادة الشمالية . . . . ماجور جنرال اتزاك هوفى
فرقة ميكانيكية ٣٦ (من الجيش النظامي) . . . . . بريجادير جنرال رفائيل (رافول) ايتان
نائب القائد . . . . . . بريجادير جنرال مناحم افيريم
لواء مدرعات ١٨٨ (باراك) . كولونيل اتزاك بن شوهام
لواء مدرعات رقم ٧ . . . كولونيل افيجدور (ياتوش) بن جال

(تابع) النظام الاسرائيلى فى معركة اكتوبر ١٩٧٣

الفرقة الأولى مشاة (جولانى) .	كولونيل امير درورى
جزء من لواء رقم ١٣ . . .	كولونيل اليشا شيليم
فرقة مدرعات ٢٤٠ (قوات احتياط) (٧ اكتوبر) . .	ماجور جنرال دان لانر
نائب القائد . . .	بريجادير جنرال موشى باركوشفا
لواء مدرع رقم ١٧ . . .	كولونيل ران ساريج
لواء مدرع رقم ٧٩ . . .	كولونيل يورى اور
لواء مدرع رقم ٢٠ (١٠ اكتوبر)	كولونيل يوسى بليد
لواء مشاة رقم ١٤ (٩ اكتوبر)	كولونيل اسحق بار
(لواء مدرع رقم ١٩) . .	(كولونيل مير)
فرقة مدرعات ١٤٦ ( ) (٨ اكتوبر)(٨) . . .	ماجور جنرال موشى (موسى) بليد
نائب القائد	بريجادير جنرال ارى شاكهار
لواء مدرع ١٩ (١٠ اكتوبر) .	كولونيل مير
لواء مدرع رقم ٧٠ . . .	كولونيل يفيفر
اللواء التاسع مدرعات . .	كولونيل مورد خاى بن بورات
اللواء مدرع رقم ٢٠ . . .	كولونيل يوس بليد
القوات الجوية	ماجور جنرال بن حامين بليد
البحرية	ماجور جنرال (رادم) بن جامين تليم

الملاحظات

(١) حشدت اسرائيل ٣٠ لواء على وجه التقريب ، كان نصفها تقريبا الوية مدرعات ، والجزء الباقى كان مقسما على نحو متساو تقريبا بين الوية المشاة الميكانيكية والوية المشاة والمظلات ، وتضم قائمة الاوامر العسكرية هذه ٣٠ لواء منفصلا بالاضافة الى لواء مركب ، وتظهر ثمانية الوية مرتين ، ويظهر لواء واحد ثلاث مرات ، ومن بين الالوية التى لم تحدد بصفة خاصة الالوية التالية : لواء مدرع ٢٠٥ ، لواء مشاة ميكانيكى ٦٧٠ ، لواء مشاة ميكانيكى ٢٤٠ ، لواء مدرع ١٣٤ ، لواء مظلات ٢٣ ، لواء مشاة الثالث ، لواء مدرع ٢١٠ ، وكانت اربعة الوية مدرعات على الاقل من التى اشير اليها فى القائمة

السابقة ، او فى هذه الملحوظة ربما تضم الوية ميكانيكية ، لم تحدد على نحو خاطىء .

(٢) عرفت فرق الجيش النظامى بـ. آر. ايه ، وفوق الاحتياط بـ E

(٣) حل الجنرال ماجين محل الجنرال مندلر عقب وفاة الاخير فى ١٣ اكتوبر .

(٤) الالوية التى وضعت بين قوسين وضعت تحت امر الفرق المشار اليها بصورة مؤقتة فحسب وعلى سبيل المثال انضم لواء الجنرال جونين الذى استولى على دبابات تى — ٤٥/٥٥ الى الفرقة رقم ١٤٦ فى نحو ٩ او ١٠ اكتوبر ونقل الى فرقة ٤٤٠ او ١٤٦ فى نحو ١٤ اكتوبر (ومما يجدر الاشارة اليه أن الجنرال جونين هو الشقيق الاصغر لقائد القيادة الجنوبية) وانضم لواء الكولونيل مات الى فرقة شارون فى ١٥ اكتوبر ، وانضمت الالوية الباقية الى تلك الفرقة لتنفيذ بقية الهجوم .

(٥) توضح الايام التى وضعت بين قوسين الايام التى استخدمت فيها فرقة او لواء او اشتركت مؤقتا مع قيادة اعلى .

(٦) شكل الجنرال ادان ذلك اللواء ، ووضعه تحت قيادته الثانية كتعزيزات ارسلت اليه فى ٢١ او ٢٢ اكتوبر .

(٧) كان القائد الاصلى لتلك الفرقة هو بريجادير جنرال جرانيت‌اسرائيل الذى تمت تنحيته ، ترفقا به نظرا لوفاة ابنه الوحيد على الجولان .

(٨) نقلت تلك الفرقة الى جبهة سيناء عقب وقف اطلاق النار فى ٢٥ اكتوبر .

وزير الحربية والقائد العام	الفريق احمد اسماعيل على
رئيس الأركان	لواء سعد الدين الشاذلى[1]
رئيس العمليات	لواء محمد الجمسى
رئيس المخابرات	لواء ابراهيم فؤاد نصار
الجيش الثانى الميدانى	لواء محمد سعد الدين مامون[2]
مدفعية الجيش الثانى	عميد عبد الحليم ابو غزالة
لواء مدفعية ٤٧	
لواء مدفعية ٥٧	
لواء مدفعية هارون ٦٢	
فرقة مشاة ١٨	عميد فؤاد عزيز غالى
لواء مشاة ١٣٤	
لواء مشاة ١٣٥	
لواء مشاة ميكانيكى ١٣٦	
لواء مدفعية	
لواء مدرع مستقل ١٥ (ملحق به)	
الفرقة الثانية مشاة	عميد حسن ابو سعدة
اللواء الرابع مشاة	
لواء مشاة ١٢٠	
لواء مشاة ميكانيكى ١١٧	
لواء مدفعية ٥٩	
لواء مدرع ٢٤ (الفرقة الميكانيكية ٢٣)	
فرقة مشاة ١٦	عميد عبد رب النبى حافظ
لواء مشاة ١٦	
لواء مشاة ١١٢	
لواء مشاة ميكانيكى الثالث	
لواء مدفعية ٤١	
لواء مدرع ١٤ (فرقة مدرعة رقم ٢١) (ملحق به)	

فرقة مدرعة رقم ٢١ (لواء رقم ١٤)	عميد ابراهيم عزانى
لواء مدرع الاول	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ١٨	
لواء مدرع رقم ٥١	
فرقة مشاة ميكانيكية رقم ٢٣	عميد احمد ابو الزمور
(لواء مدرع رقم ٢٤) (ملحق من احتياطى القيادة العامة)	
لواء مشاة ميكانيكى ١١٦	
لواء مشاة ميكانيكى ١١٨	
لواء مدفعية رقم ٦٧	
لواء مدفعية مستقل رقم ١٣٥ (منطقة بور سعيد)	
لواء مظلات رقم ١٨٢	عقيد اسماعيل عزمى
لواء مهندسين التاسع	عقيد جميل طالى
لواء مشاة ميكانيكى العشرين	عقيد صلاح بدير
مجموعة الكوماندوز رقم ١٢٩	عقيد محمد عبد القادر هيكل
الجيش الثالث الميدانى	لواء محمد عبد المنعم واصل
مدفعية الجيش الثالث	عميد منير شاذلى
لواء مدفعية رقم ٥٣	
لواء مدفعية رقم ٥٥	
لواء مدفعية هاون رقم ٦٠	
الفرقة السابعة مشاة	عميد احمد بدوى
لواء مشاة رقم ١١	
لواء مشاة رقم ١٢	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ٨	
لواء مدفعية رقم ٤٩	
لواء مدرع مستقل رقم ٢٥ (ملحق)	
فرقة مشاة ١٩	عميد يوسف عفيفى

لواء مشاة الخامس	
لواء مشاة السابع	
لواء مشاة ميكانيكى الثانى	
لواء مدفعية رقم ٦٩	
لواء مدرع الثالث (الفرقة الرابعة مدرعات)	
(ملحق به)	—
الفرقة الرابعة مدرعات	عميد عبد العزيز قابيل
(لواء مدرع الثالث)	
لواء مدرع الثانى	
لواء مدرع السادس	
لواء مشاة ميكانيكى السادس	
لواء مدفعية الرابع	
الفرقة السادسة مشاة ميكانيكية (ملحق من احتياطى القيادة العامة)	عميد ابو الفتح محرم
اللواء الأول مشاة ميكانيكى	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ١١٣	
لواء مدرع رقم ٢٢	
لواء مدفعية رقم ٤٣	
لواء مهندسين رقم ١٠٩	عميد فؤاد محمد سلطان
لواء مشاة ميكانيكى رقم ١٣٠	عميد محمد شعيب شاليمان
(الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكى)	عقيد رامز الجندى
مجموعة الكوماندوز رقم ١٢٧	
قيادة البحر الأحمر	
(لم تنشر)	
لواء مشاة	
لواء مدفعية	
مجموعة كوماندوز رقم ١٣٣	
احتياطى القيادة العامة (الفرقة مشاة ميكانيكية رقم ٦ و ٢٣)	

الفرقة الثالثة مشاة ميكانيكية	عميد محمد نجاتى فرحات
اللواء العاشر مشاة ميكانيكى	
لواء مدفعية ميكانيكية رقم ١١٤	
لواء مدرع رقم ٢٣	
لواء مدرع رقم ٣٩	
لواء مظلات رقم ١٤٠	
لواء هجوم جوى رقم ١٥٠	
لواء هجوم جوى رقم ١٦٠	
لواء حرس جمهورى	
لواء مدرع مستقل ناصر	
لواء مدرع مستقل	
لواء مدفعية رقم ٦٣ (مضاد للدبابات)	
لواء مدفعية رقم ٦٤	
مجموعة كوماندو رقم ١٢٨	
مجموعة كوماندو رقم ١٣٠	
مجموعة كوماندو رقم ١٣١	
مجموعة كوماندو رقم ١٣٢	
مجموعة كوماندو رقم ١٣٤	
ادارة المدفعية	لواء محمد الماحى
ادارة المهندسين	لواء جمال محمد على
قائد الصاعقة	عميد نبيل شكرى
البحرية	ادميرال احمد فؤاد زكرى
القوات الجوية	لواء جوى محمد حسنى مبارك
قوات الدفاع الجوى	لواء محمد على فهمى

ملاحظات :

(١) تم اقصاؤه من منصبه فى ٢٠ اكتوبر ، وحل محله اللواء الجمسى .

(٢) فى منتصف المعركة فى ١٤ اكتوبر حل محله اللواء عبد المنعم خليل (فى ١٦ اكتوبر) .

وزير الدفاع	اللواء مصطفى طلاس
رئيس الأركان	اللواء يوسف شكور
مدير المخابرات	اللواء جبرائيل بيطار
الفرقة اولى مدرعات . . .	عقيد توفيق جوهنى
اللواء الرابع مدرعات . . .	
لواء مدرعات رقم ٩١ . . .	عقيد شفيق فايد
اللواء الثانى مشاة ميكانيكى .	
لواء مدفعية رقم ٦٤	
الفرقة الثالثة مدرعات . . .	عميد مصطفى شربه(١)
اللواء العشرين مدرعات .	
لواء مدرعات رقم ٩٥ . . .	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ١٥ .	
لواء مدفعية رقم ١٣ . . .	
الفرقة الخامسة مشاة . . .	عميد على عصلان
لواء مشاة رقم ١٢ . . .	
لواء مشاة رقم ٦١ . . .	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ١٣٢ .	
لواء مدفعية رقم ٥٠ . . .	
لواء مدرع مستقل رقم ٤٧ . (ملحق)	
الفرقة السابعة مشاة . . .	عميد عمر عبراش(١) .
	عميد سيد بيرقدار
	عقيد رفيق هيلاوى
لواء مشاة رقم ٦٨ . . .	
لواء مشاة رقم ٨٥ . . .	
اللواء الأول مشاة ميكانيكى .	
لواء مدفعية رقم ٧٠ . .	
لواء مدرع مستقل رقم ٧٨ . (ملحق)	
الفرقة التاسعة مشاة . . .	عقيد حسن توركمانى
لواء مشاة رقم ٥٢	

لواء مشاة رقم ٥٣ . . .	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ٤٣ .	
لواء مدفعية ٨٩ . . .	
لواء مدفعيه مستقل رقم ٥١ . (ملحق)	
قوات القيادة العامة . . .	
لواء مدرعات مستقل اسد . .	
لواء مشاة رقم ٣٠ . . .	
لواء مشاة رقم ٩٠ . . .	
لواء مشاة ميكانيكى رقم ٦٢ .	
لواء مدرعات رقم ٨٨ . . .	
لواء مدرعات رقم ١٤١ . .	
مجموعة الكوماندوز رقم ١ (٥كتائب)	
كتيبة مظلات رقم ٨٢ . . .	
كتيبة حرس صحراء . . (سوريا الشرقية)	
لواء مشاة اللاذقية . . .	
لواء مشاة ، حمص . . .	
لواء مشاة ، حلب . . .	
البحرية	عميد فضل حسين
القوات الجوية . . .	لواء ناجى جميل
القوة العراقية(٢) . . .	
الفرقة الثالثة مدرعات . . .	عميد لافتا
اللواء السادس مدرعات .	
لواء مدرعات رقم ١٢ . .	
لواء مشاة ميكانيكية رقم ٨ .	
مجموعة المدفعية . . .	
القوة الأردنية(٢) . . .	
لواء مدرع رقم ٤٠ . . .	عميد خالد حجوج المجالى

القوة المغربية(٤)	
لواء مشاة ميكانيكى . . .	عميد صفراوى
القوة السعودية	
لواء مدرع رقم ٢٠ (الملك عبدالعزيز)	
جيش التحرير الفلسطينى . .	لواءان كوماندو

الملاحظات

(١) خريج القيادة العسكرية وكلية الأركان العامة بالولايات المتحدة .

(٢) وصلت الفرقة السادسة مدرعات ، وعناصر من فرقتى مشاة الى سوريا ايضا غير انها لم تشترك فى القتال .

(٣) مقر الفرقة الثالثة مدرعات ووصل ايضا لواء مدرع رقم ١٩٢ الى سوريا غير انه لم يشترك فى القتال .

(٤) كان يوجد فى سوريا ايضا فيما يبدو كتيبتان مشاة مستقلتان اضافيتان .

خاتمة

سلام محير :

برزت حقيقتان من ذلك النمط من الحروب والنزاعات القومية ، الدينية، والمعتقدات الفلسفية :

اولا : ان العرب لن يقبلوا اى شىء بوصفه سلاما مشرفا لا يعيد لهم (بما فيهم الفلسطينيين) كافة الأراضى التى احتلها الاسرائيليون فى عام ١٩٦٧، مع اتاحة بعض الفرص الضئيلة للمساومة على اجراء تغييرات حقيقية محدودة فى الحدود ، وسوف يواصلون القتال ويتشبثوا بحالة الحرب ، حتى يتم ذلك الانجاز ، او يتم فى اطار شكل جلى يتعذر تغييره .

ثانيا : ان اسرائيل لن تقبل شروط سلام لا تقدم تأكيدا واضحا لا لبس فيه بان :

(أ) حدود اسرائيل ليست معرضة لخطر تسلل رجال العصابات (او الفدائيين او الارهابيين ، ويعتمد الأمر على وجهة النظر) .

(ب) انه لن يكون فى الامكان حشد قوات مسلحة عربية معادية للقيام بعملية غزو او للتهديد بالغزو فى اى جزء من اجزاء الاراضى التى احتلت فى عام ١٩٦٧ .

(جـ) تأمين ايلات من اى حصار .

ومن ثم فان اى مقترحات سلام لا تعترف بتلك الأمور الواقعة ، بوصفها شروطا مطلقة ، وليست اهدافا للمساومة ، محتم لها الفشل .

وفى حين ان تلك المواقف المحددة ليست متضاربة تماما على نحو متبادل مع الأخذ فى الاعتبار لامور مثل : قوات الأمم المتحدة ، واقامة مناطق منزوعة السلاح ، واحتمالات وجود اجهزة استطلاع الكترونية محايدة ، فانها لاتترك مجالا كبيرا للمناورة الدبلوماسية ، كما ان تحقيق صيغة قد تكون مرتجلة ولا تبدو صعبة على نحو مزعج ، لهو امر يناهز المستحيل ، ويرجع ذلك الى حقيقة ثالثة ثابتة وغير قابلة للتغيير شأنها شأن الحقيقتين الأولين (مع أمل الا تكون متطابقة تماما) وتتمثل فى ان عدم الثقة المتبادلة بين العرب والاسرائيليين قوى للغاية وراسخ فى

الاعماق ، الى حد ان ايا منهما لن يثق فى الطرف الاخر كى يلتزم باى اتفاق.

وهذه الحقيقة مطلقة ايضا فى الوقت الراهن ، غير انه من المحتمل ان تتعرض لتغيير على امد طويل ، ولكن الى حين اجراء تغيير فان ذلك يعنى ان اى اتفاق يتم تحت ارغام ، او بعبارة اخرى فرض تسوية — لا يمكن ان يفى بالشروط الاساسية التى يطرحها اى من الطرفين ، اذا اعتقد انه ارغم على قبول مالا يمكن قبوله ، ولكن نظرا لان التحرك ازاء تلك الاهداف سيكون محتملا ، فى حالة وجود نمط من الضغوط الخارجية فحسب والتى قد تقبل على مضض ، فان مجال المناورة الدبلوماسية لايزال مفيدا .

ومن بين الامثلة العديدة التى يمكن ان يطرحها كل جانب لابراز سبب عدم الثقة الكاملة فى الطرف الاخر ، يتعين الاشارة الى بضعة امثلة فقط ، كى نطبع فى ذهن القارىء مدى قوة المشاعر القائمة من الكراهية وعدم الثقة .

على الجانب العربى

ان مذبحة دير ياسين التى وقعت فى ابريل من عام ١٩٤٧ ، لم تمح من الاذهان قط ، وربما يمكن خفض مشاعر الاستياء من خلال قيام اسرائيل والاسرائيليين باعمال علانية للتكفير عن ذنوبهم ، كما قدمت المانيا الغربية لليهود من اعمال تكفيرا عن المذابح التى ارتكبتها النازية فى عهد هتلر ، بيد ان مثل ذلك التكفير لايرد على الذهن فى ظل جو تخيم عليه المرارة لتذكر الاسرائيليين للاعمال الوحشية الدامية المماثلة التى ارتكبها العرب .

وثمة مثال حديث على ذلك ، اذ قام الجيش الاسرائيلى بتدمير ، على نحو يخلو من اى احساس ، المبانى السليمة فى مدينة القنيطرة قبل الجلاء من المدينة فى عام ١٩٧٤ ، ومما فاقم الموقف عملية سلب الكنائس والمساجد ، وقيام الجنود الاسرائيليين بتدنيس مقابر المسيحيين العرب على نحو مروع.

وسوف يطالب العرب ايضا بنوع من الضمانات الحقيقية بانهم لن يظلوا يعيشون فى ظل تهديد السياسة الصهيونية التى تشجع على هجرة اليهود دون حدود الى اسرائيل ، الامر الذى يصاحبه اقامة مستوطنات فى سيناء والجولان والضفة الغربية ، ويؤكد فيما يبدو تقييمهم الخاص بنوايا التوسع الصهيونى . ويتساطون ايضا كيف يمكن ان يتفق ذلك مع قبول اسرائيل اسميا لقرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ ؟

واخيرا ، فان احراز تقدم ازاء تحقيق السلام ربما يكون محالا طالما ان العرب يكشفون عن نظراتهم المتعالية للاسرائيليين بوصفهم مواطنين

ادنى منهم — ويمكن العثور على كلمة « متوحشون » فى الادب الاسرائيلى. ومثلا من ذلك فان العرب لديهم من الاسباب التى تجعلهم يتفاخرون بحضارتهم التى ظلت لفترة طويلة تبز من الناحية الثقافية حضارة اوروبا، التى وفد منها اليهود الى فلسطين ، كما يعتقد العرب .

وبالمثل فان مشاعر البغضاء وعدم الثقة الاسرائيلية ذات اساس راسخ .

اذ ان مذبحة اطباء وممرضات يهود فى شيخ حراش التى وقعت فى ابريل من عام ١٩٧٤ ، وذبح رجال ونساء واطفال فى كفار اتزيون عقب بضعة اسابيع لاحقة ماهى الا اثنين من الذكريات العديدة المريرة التى تنم من « الوحشية » العربية والتى يتذكرها الاسرائيليون بين الايام الكئيبة قبل حرب الاستقلال .

ولدى الاسرائيليين ذكريات مريرة من تدنيس المقابر اليهودية عمدا التى تقع على منحدرات وادى كيدرون الذى يقع بين جبل الزيتون وحوائط مدينة القدس ابان فترة احتلال العرب من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٦٧ .

ويتذكر الاسرائيليون ايضا الامثلة العديدة التى لقى فيها اسراهم خلال الحروب العديدة التى خاضوها ضد الدول العربية المحيطة بهم والتى تهددهم ، الوانا من العذاب وتعرضوا للقتل ، ويمكن سرد امثلة معينة التى ذكرت للصليب الاحمر وهيئات دولية اخرى .

والحادث الذى يثير حنق اسرائيل بصفة خاصة ، انه عقب استعادة موقع المراقبة على جبل الشيخ فى الثانى والعشرين من اكتوبر عام ١٩٧٣ اكتشفوا جثث حامية اسرائيلية ، وايديهم مقيدة ، خلف ظهورهم ، ومن الجلى انهم قتلوا على نحو متعمد .

وهناك امثلة وثائقية عديدة لتهديدات الزعماء العرب المسئولين فيما يبدو ، والتى تنطوى على نوايا العرب بتدمير اسرائيل والقاء اليهود فى البحر(*) ، وقد صمتت تلك التهديدات خلال السنوات الاخيرة نظرا لان العرب ، والاسرائيليين مقتنعون بذلك ، يسعون الى تهدئة الراى العام الغربى ، ولكن كيف يكون فى وسع الاسرائيليين الاقتناع بان ذلك ليس مجرد دعاية تكتيكية ، نظرا لان هناك دلائل اخرى تشير الى استمرار وبقاء الكراهية العربية التى تفضى الى مثل تلك التهديدات فى المقام الاول؟ كيف يمكن التوفيق بين تاكيدات العرب برغبتهم فى قبول حقيقة اسرائيل مع رفض العرب التفاوض مباشرة ، ورفضهم انهاء حالة الحرب ، والاشارة

(*) يدرك المؤلف المحاكمة المدنية العلانية التى عقدت فى انجلترا عام ١٩٧٥ كنتيجة لعرض تقديم جائزة اذا امكن اثبات مثل تلك التهديدات العربية ، وعندما رفض المعارضون دفع قيمة الجائزة ، رفع المدعى دعوى وخسرها ، غير انه خسرها من الناحية القانونية ، وتاكد دليل تهديد العرب بتدمير اسرائيل امام اى مراقب موضوعى .

مرارا الى الحروب الصليبية (حيث طرد العرب المسيحيون عقب قرن من احتلال جزء كبير من الارض المقدسة) بوصفه مثالا ملهما لشعوبهم اليوم؟

وبما يساعد على تضييق تلك الهوة من الكراهية والشك المتبادل هو تقديم اقصى مايمكن ان يقدمه اى طرف خارجى من المساهمة فى مستقبل السلام فى الشرق .

وبما يساعد على تضييق تلك الهوة من الكراهية والشك المتبادل هو تقديم اقصى مايمكن ان يقدمه اى طرف خارجى من المساهمة فى مستقبل السلام فى الشرق الاوسط ، وثمة خطوة هامة اتخذت فى ذلك الاتجاه تلك التى اتخذها هنرى كيسنجر وزير الخارجية الامريكية فى التوصل الى اتفاق فك الاشتباك فى سيناء عام ١٩٧٥ ، ومن المرجح ان غالبية العرب وغالبية الاسرائيليين يعتبرون ذلك الاتفاق بمثابة حل وسط خطر فى صالح « العدو » ، غير ان زعماء مصريين واسرائيليين مسئولين على نحو اكثر يعتقدون ان ذلك الاتفاق يمد كلا الجانبين بفرصة لتقييم نوايا الطرف الاخر فى عملية تبادل عادلة ومحايدة على نحو ملحوظ حيث لايمكن لاى جانب ان يكون فى وضع اسوا مما كان عليه قبل ابرام الاتفاق (وذلك اذا ما اختار الجانب الاخر خرق الاتفاق) .

وكانت المؤتمرات التى عقدت بين الضباط المصريين والاسرائيليين لتنفيذ بنود الاتفاق ، كانت فى حد ذاتها خطوة اخرى حيال تبديد الشكوك، حيث يكون فى وسع كلا الجانبين رؤية الطرف الاخر كبشر لديهم مواهب ، ونقاط ضعف ، ويعتزون بمهنتهم على نحو ملحوظ يماثل اعتزازهم بانفسهم، وكان من المامول تنظيم المزيد من مثل تلك الاجتماعات الرسمية وغير الرسمية فى ظل ظروف يمكن لكلا الطرفين من خلالها معرفة الفوائد الكامنة للاتفاق الحقيقى والسلام الحقيقى .

ويتضح للجميع ان دول وشعوب الشرق الاوسط ، تحتاج ، ويتوق معظمها ، الى التوصل الى حل مستقر يضع حدا للتهديد بتجدد الحرب ، ولم يكن احتمال تحقيق سلام حقيقى افضل فى اى وقت آخر ، نظرا لانه رغم مطالبهم المتضاربة الرئيسية فانه يبدو ان الجميع ــ باستثناء الراديكاليين على الجانبين ــ على استعداد للعمل فى سبيل تحقيق سلام ، وحتى الفلسطينيين ، الذين عانوا الكثير ، يبدو انهم على استعداد لقبول ماهو اقل مما يطالبون به ، ولكن من المشكوك فيه للغاية يتمثل فى « الى اى مدى يكون حل الوسط محتملا فى الوقت الراهن ؟ » . ونظرا لأن السلام فى الشرق الاوسط من مصلحة دول العالم الكبرى ، فان اى حل وسط يتم فرضه بالسبل الدبلوماسية قد يكون هو الحل العاجل الوحيد لاستمرار وجود هدنة مسلحة .

مراجعة مطبعية :
على كامل دسوقى
عصام فرغلى

الفهـــرس

الموضوع — الصفحة

الكتاب الثانى : حرب سيناء — السويس
اكتوبر — نوفمبر سنة ١٩٥٦

الكتاب الثالث : حرب الأيام الستة
يونية ١٩٦٧

الموضوع — الصفحة

الكتاب الرابع — حرب الاستنزاف
١٩٦٧ — ١٩٧٠

الكتاب الخامس — حرب اكتوبر
١٩٧٣

الموضوع | الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب

١٥٠٤ / ١٩٨٨

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

الموضوع





مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر